الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان
كليّة الآداب واللّغات
قسم اللّغة والأدب العربي

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب الجزائريّ الحديث

مُفدي زكريّاء
وإنتاجُه الأدبيّ في مرحلةِ ما قبلَ الثّورة

إعداد الطالب:
مصطفى حمودة

إشراف الأستاذ الدكتور
محمّد زمري

لجنة المناقشة:

1 - محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
2 - محمد زمري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقرّرا
3 - عبد اللطيف شريفي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
4 - مراد قايد سليمان	أستاذ محاضر	جامعة وهران	عضوا
5 - عبد الوهاب ميراوي	أستاذ محاضر	جامعة وهران	عضوا
6 - أحمد جعفري	أستاذ محاضر	جامعة أدرار	عضوا

السنة الجامعيّة 2009 - 2010

الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشعبيّة
وزارة التعليم العالي والبحث العلميّ
جامعة أبو بكر بلقايد – تلمسان
كليّة الآداب واللغات
قسم اللغة والأدب العربيّ

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في الأدب الجزائريّ الحديث

مفدي زكرياء وإنتاجه الأدبي في مرحلة ما قبل الثورة

إعداد الطالب:
مصطفى حمودة

إشراف الأستاذ الدكتور:
محمد زمري

لجنة المناقشة:

1- محمد مرتاض	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيسا
2- محمد زمري	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفا ومقرّرا
3- عبد اللطيف شريفي	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	عضوا
4- قايد سليمان مراد	أستاذ محاضر	جامعة وهران	عضوا
5- عبد الوهاب ميراوي	أستاذ محاضر	جامعة وهران	عضوا
6- أحمد جعفري	أستاذ محاضر	جامعة أدرار	عضوا

السنة الجامعيّة 2010/2009

بسم الله الرحمن الرحيم

إهــــــداء

إلى والديّ الكريمين العزيزين، وأسأل الحقّ تعالى بما في هذا العمل من جهد مخلص للحصول على الحقيقة، أن يمنّ عليّ وعلى إخواني وأخواتي بشفائهما، إنّه سميع مجيب....

إلى روح التحدّي الأصيل في شخصية الجزائريّ الحرّ، فلولاه ما أنجز هذا البحث، وما رأى النور يوما...

إلى الوطنيّة الحقّة في نضال مصّالي ومفدي ورفاقهما قبل قيام الحرب العالمية الثانية، عندما كان النضال تضحية مخلصة بكلّ غال ونفيس في سبيل الوطن، فاستطاعوا تغيير وجهته صوب الحرية والاستقلال، عسى أن نشهد تجديد أيّامها في يومنا وغدنا ...

أهدي هذا العمل المتواضع...

المقدّمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله.

وبعد، شاركت في أوّل اجتماع انعقد في مكتبة مفدي زكرياء ببني يزقن، يوم 14 فيفري 2001، للتحضير للاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لوفاة شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكرياء، ومنذ ذلك الحين ارتبطت بمفدي ارتباط باحث بموضوع بحث، وهالني –من قراءاتي الأولى فيه– قلّة الضبط في تفاصيل كثيرة من حياته، ابتداء بتاريخ ميلاده، وكثرة الثغرات في مسار حياته، ممّا يجعل ما نجهله منه أكثر ممّا نعرفه، وهو ما لا يتناسب مع شخصية وطنيّة من حجم مفدي، وليس مفدي بدعا في ذلك؛ وهالني أيضا النقص الفادح فيما بين أيدينا من نصوصه الأدبيّة، فما نعرفه منها موجود في دواوينه الشعريّة المطبوعة ليس إلاّ، وما هو موجود فيها من شعره في مرحلة ما قبل الثورة لا يزيد على أصابع اليد الواحدة، ونثره فيها وفي غيرها مجهول تماما أو يكاد؛ ونتج عن ذلك أن دارت الدراسات الأدبيّة حول أدبه في فلك هذه الدواوين، وبخاصّة "اللهب المقدّس"، من غير أن نتقدّم خطوة في الكشف عن أدب شاعر ثورتنا. ولي أن أستثني في ذلك دراسة الدكتور محمد ناصر "مفدي زكرياء" الرائدة، فقد وسّع ما ضاق من معرفتنا بحياته، وأنجز بحوثا رائدة حول أدبه، وأمّاه بعدد وفير من نصوصه المغمورة، وكثير منها يرجع إلى فترة ما قبل الثورة.

دخلت مضمار البحث حول هذه الشخصية بمحاولة استكمال جهد محمد ناصر في جمع نصوصه الأدبيّة، فكانت ثمرته الأولى المحاضرة التي شاركت بها في فعاليات انطلاقة تظاهرة إحياء سنة مفدي زكرياء 2002، بغرداية يومي 16 و17 فيفري 2002، في ندوتها العلميّة في 02/02/17، وكانت بعنوان: "عرض عن عملية جمع تراث مفدي زكرياء الأدبيّ"؛ ثمّ أنجزت ديوانا جديدا له، طبع بعنوان، لم يكن من اختياري، وهو "أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى"، في بداية 2003.

وفي أثناء إنجاز هذا الديوان فكّرت أن أستكمل ما بدأته في بحثي لنيل الدكتوراة، فسجّلت موضوعي بعد أن استقرّ على العنوان الآتي:

مفدي زكرياء وإنتاجه الأدبيّ في مرحلة ما قبل الثورة

وعليه فالبحث يؤرّخ لحياة مفدي، ولأدبه في هذه الفترة الزمنية المحدّدة، غير أنّ مرحلة ما قبل الثورة تعني أدبيّا بالنسبة لمفدي زكرياء قيام الحرب العالميّة الثانية سنة 1939، أو خروجه من السجن في 1939/08/27، لأنّ إنتاجه في الأربعينيّات وبداية الخمسينيّات قليل جدّا ونادر، ويكفي دليلا على ذلك قول أحد معارفه من صحفيّي تونس، عليّ الجندوبيّ، في جريدة "الأسبوع" ليوم 1953/01/26: «وكذلك الأخ الذي غذّى الأدب الجزائريّ زمنا، وهو الأديب الكبير مفدي زكرياء، الذي غمره الجوّ التجاريّ، فانغمس فيه، وأصبح كلّما لاقيناه في زورته

لتونس، يشكو إلينا من ركود الحركة الأدبيّة بالجزائر، التي كان هو من أفذاذها العاملين فيها»[الجزائر: حياتها الأدبيّة ونوابغها، جريدة "الأسبوع" التونسيّة، س08، ع319، 1372/05/11هـ، 1953/01/26م، ص03]، والقليل الذي نشره نشره بأسماء مستعارة مجهولة عند أكثر الدارسين تخصّصا في أدبه؛ كما أنّ أرشيفه في مركز أرشيف ما وراء البحار بفرنسا لهذه الفترة ما زال أكثره غير متداول (Non communicable)؛ ممّا يجعل البحث في هذه الفترة الباقية إلى قيام الثورة سنة 1954 سابقا لأوانه، لعدم استكمال شروطه العلميّة بعد، والخوض فيه لا يخلو من آثار جانبيّة سلبيّة على البحث لا تخفى؛ ثمّ إنّ قيام الحرب العالميّة الثانية تعتبر نهاية مرحلة في حياة مفدي زكرياء، وفي تاريخ الحركة الوطنيّة على السواء؛ فكان أن توقّفت في بحثي عند خروجه من السجن سنة 1939، وحلّ حزب الشعب الجزائريّ في أواخر سبتمبر من نفس السنة.

إنّ البحث بعنوانه هذا يطمح إلى التأسيس لدراسة مفدي وأدبه في هذه الفترة، بتأريخ حياته إنسانا مناضلا، وحياته أديبا، ورصد إنتاجه الأدبيّ شعرا ونثرا، وتوثيقه في مصادره الكثيرة والمتنوّعة، ودارسة بعض القضايا المتعلّقة بهذا الإنتاج منذ ميلاده شاعرا وأديبا في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، إلى أن أصبح أبرز أديب وشاعر في الحركة الوطنيّة الجزائريّة، ممّا لم يدرس بعد، أو أتى فيه البحث بجديد.

وقد وزّعت مادّة البحث على تمهيد وخمسة أبواب، تسبقها المقدّمة ودراسة المصادر، وتتبعها الخاتمة والملحق والفهارس:

أمّا عنصر دراسة المصادر، ففرضته مصادر جديدة، وكثيرة، ومتنوّعة، ومتباينة من حيث لغتها ومستواها، اعتمدتها في البحث، وذلك لتحديد ضوابط التعامل معها فيه، قصد استخلاص الحقيقة العلميّة منها.

والبحث بعد ذلك تاريخيّ، تحكّم في ترتيب مادّته الترتيب الزمنيّ للأحداث والوقائع: مهّدت له بتمهيد تاريخيّ، عنوانه "مزاب والعمل الوطنيّ"، يعالج مفهومي الوطنيّة لدى المزابيّين، وممارستهم لنضالهم الوطنيّ بحسبهما، لأنّ مفدي –وهو مزابيّ– قد تأثّر بذلك، وظهر أثره في مسيرته النضاليّة، وفي أدبه على السواء.

بعد ذلك تتبّعت حياته في ثلاثة أبواب، من جدّه الأكبر "باسعيد"، إلى خروجه من السجن مع مصّالي الحاج وزملائهما، على سا 03 من صباح يوم 1939/08/27، موزّعة كالآتي:

الباب الأوّل: فترة التكوين (1908–1931).

الباب الثاني: فترة النضال الوطنيّ والسياسيّ (1932–1937).

الباب الثالث: فترة السجن (1937–1939).

وقد درجت في التأريخ لحياته على التركيز على دائرة حياة مفدي، لا أتجاوزها إلى ما يليها من دوائر ترتبط بها، كالبعثة العلميّة المزابيّة بتونس، في مرحلة التكوين؛ ونشاطات حزب الشعب الجزائريّ في مرحلة النضال الوطنيّ

والسياسيّ؛ وملحمة السجن السياسيّ، في مرحلة السجن، إلاّ إذا كانت الواقعة ممّا لم يسبق بحثه، وكانت تضيء جوانب من حياته تساعدنا على فهمه، وفهم مواقفه فيها كإنسان، وكمناضل أديب.

ثمّ أرّخت لحياته الأدبيّة وإنتاجه في بابين اثنين، لأنّها تنقسم فعليّا إلى قسمين اثنين لا غير، هما: فترة العمل الوطنيّ المزابيّ، وقد تزامن مع بداياته في دنيا الأدب؛ وفترة العمل الوطنيّ الجزائريّ، وكانت مرحلة تأكيد لسابقتها، وتألّق في الساحة الأدبيّة على مستوى الجزائر وشمال إفريقيا، فكان البابان كالآتي:

الباب الرابع: البدايات (1921–1931)

الباب الخامس: التأكيد والتألّق (1932–1939)

وذيّلت البحث بعد الخاتمة، وقبل الفهارس المعهودة في البحوث العلميّة، بملحق استعرضت فيه جملة من الوثائق الأساسيّة في البحث، ممّا لم يسبق نشره.

وغنيّ عن البيان أنّ المنهج المتّبع في هذه الدراسة هو المنهج التاريخيّ، لأنّ هذا البحث يندرج في تاريخ الأدب الجزائريّ الحديث من جهة؛ ولأنّ طموحه إلى التأسيس لدراسة مفدي وأدبه، لا وجه لتحقيقه من غير التأريخ لهما من جهة ثانية؛ ولميزة أساسية في أدب مفدي من جهة ثالثة، يفصح عنها بنفسه، فيما يتعلّق بشعره، في لقاء إذاعيّ بعنوان "زيارة خاطفة"، ينشّطه الشّاعر والأديب عبد المجيد بن جدّو، بُعَيْدَ صدور ديوانه "تحت ظلال الزيتون"، فعندما سأله عن ترتيب قصائده في الديوان، قال: «لم اهتمّ بترتيب قصائدي في الديوان ترتيبا زمنيّا باعتبارها مراحل في حياتي فحسب، وإنّما لأنّ شعري سواء في "اللّهب المقدّس"، أو في "تحت ظلال الزيتون"، يسجّل الأحداث القوميّة، وهي أبرز ظاهرة في قصائدي [...]، ولذلك أحبّ دائما ترتيب شعري ترتيبا تاريخيّا، لكي يكون عبارة عن ظلّ أو شبح لتاريخ الأحداث القوميّة في تلك المدّة، وهو نفس النظام الذي سرت عليه في "اللّهب المقدّس"»، فهذا الارتباط الواعي بصيرورة الأحداث، يجعل فهم الكثير من شعره مرهونا بإدراك سياقه التاريخيّ.

أمّا صعوبات البحث فأوجز أهمّها فيما يلي:

إنّ تجربتي السابقة في تحقيق كتاب من القرن الثامن الهجريّ، رسّخ اعتقادي بضرورة توسيع نطاق البحث خارج دائرته المحدّدة بالعنوان، ويعني فيما يعنيه، في مرحلة جمع المادة، جمع كلّ ما له علاقة بالبحث من قريب أو بعيد، فعندما استفدت من منحة لإتمام البحث بالخارج، أمضيت ثمانية أشهر كاملة، أنقّب في وثائق مركز أرشيف ما وراء البحار بفرنسا، لأستخلص عددا وفيرا من الوثائق المتعلّقة بمفدي، وعددا أوفر، يساوي أضعاف ما سبق، يخصّ ارتباطات مفدي في حياته النضاليّة والأدبيّة؛ ولئن أفادني هذا المسلك في البحث إفادات جمّة، فإنّه قد التهم من زمن البحث قدرا كبيرا، فطالت مدّته، وتجاوز آجاله المحدّدة.

ويترتّب على هذا المسلك في مرحلة التحرير أن أستقصي المعلومة في كلّ جزئيّة من جزئيات البحث في مئات الوثائق، ثمّ لا أجدها إلاّ أجزاء متفرّقة في وثائق عديدة، عليّ أن أجمعها، بعد امتحان صحّتها، وأن أعيد بناءها بناء متناسقا، مع توثيقها توثيقا علميّا صارما، مع ما يرافقه أحيانا من ترجمة فقرات من اللغة الفرنسيّة، وهو جهد يستغرق وقتا طويلا، فطالت مدّة البحث، وتجاوز آجاله المحدّدة.

وعليه فأهمّ صعوبة واجهتني في البحث، كانت محاولة الانفكاك من ضغط الوقت المحدّد لإتمام البحث، لأنجز عملا علميّا مرضيّا بمقاييسه، وزاد من حدّته واقع للبحث العلميّ في جزائرنا، يجعل الأولوية فيه للشهادة لا للبحث، ومنه قلّة النماذج الإيجابيّة التي تدعم معنويّا مثل هذا المسلك الذي اخترته؛ فكان صراعا حادّا يتجدّد كلّما انفتحت أمامي مكتبة، أتوقّع أن أجد فيها مادّة لبحثي، ولو وثيقة واحدة؛ وكلّما قوّمت عملي في التحرير، على كثرة ساعات العمل فيه، فوجدته يسير بخطى السلحفاة؛ ويمكن أن أقول بعد تمام البحث: إنّي -بحمد الله- حسمت الصراع لصالح البحث في الأغلب الأعمّ، لأنّني كنت كلّما راودتني فكرة استبعاد الفحص المجهريّ للمادّة، وتعويضه بفحص العين المجرّدة على ضعفها، ردّني إلى الجادّة شعوري بواجب أداء أمانة البحث، وأعانني عليه ما تعوّدت عليه في بحوثي السابقة، ورجائي عند الله تعالى أن أكون قد وفّقت بعض التوفيق.

إنّ ما سبق هو صورة البحث نظريّا، ويأتي بعدها المنجز فعليّا، ولا أدّعي أنّني بلغت مستوى المطابقة بينهما، فالعمل الإنسانيّ -لا محالة- يعتوره النقص بطبيعته، وإنّما وكد الباحث المجدّ أن يحدّ منه قدر الجهد والطاقة؛ وأملي كبير في الأساتذة المناقشين لهذا البحث، أن يهدوا إليّ عيوبي فيه، فإنّه لا يساورني أدنى ريب في أنّ ملاحظاهم وتوجيهاهم ستعينني على إزالة ما علق به من هنات وأخطاء، ولهم منّي جزيل الشكر سلفا.

وفي الختام لا يسعني سوى أن أتقدّم بخالص الشكر -بداية- لأستاذي المشرف، الأستاذ الدكتور محمد زمري، لصبره، ولثقته، ولنصائحه وتوجيهاته القيّمة والمفيدة؛ ثمّ لكلّ من كان لي عونا على مشقّات هذا البحث، وأخصّ منهم: عمّنا محمد بن الشيخ الحاج محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، على فتح أرشيف والده الثمين على مصراعيه لي ببني يزقن، وبتونس؛ والأستاذة آمنة المداني، لمساعدها لي في البحث عن إنتاج مفدي زكرياء في الصحافة التونسيّة والجزائريّة على السواء، في قسم الدوريات، بالمكتبة الوطنية بتونس؛ والأخ الكريم، الدكتور صالح بن دريسو على تنبيهي لأهمّيّة مركز أرشيف ما وراء البحار بفرنسا، وتوجيهي إلى مادّة بحثي في متاهات أرشيفه؛ والأخ الكريم، الدكتور إبراهيم بن دريسو، لتكرّمه عليّ بالاطّلاع على مجموعة صحف الشيخ أبي اليقظان في مكتبة جدّه الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو العامرة؛ والأخ الكريم، الأستاذ يحي بوراس، لاتحافه لي أثناء البحث بمعلومات ووثائق جدّ قيّمة، ما كان لي أن أجدها، لو تصدّيت للبحث عنها بمفردي؛ وجمعيتي "جمعية أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث"، لأفضالها الكثيرة والمتنوعّة على البحث، وأخصّ من أعضائها العاملين الأخ الفاضل محمد إمناسن؛ وإلى الإخوان: عمّنا سليمان بكاي، وعمّنا يوسف الحاج سعيد، وأخينا إبراهيم ترشين، وأخينا عمر

سيروكان، لما أتاحوه لي من اطّلاع على أرشيفات خاصّة وقيّمة؛ وأعمّ بعد ذلك شكري الجزيل لكلّ من أطلعني على أرشيف خاصّ، أو أرشدني إليه، أو أمدّني بوثيقة، أو أعانني على تجاوز مثبّطات البحث بكلمة طيّبة ...

إلى كلّ هذه الأيادي البيضاء عليّ وعلى البحث جزيل شكري، وعظيم امتناني، لما لها من فضل كبير -بعد فضل اللّه وتوفيقه- في إنجاز هذا العمل:

سَأَشْكُرُ عَــمْــرًا إِنْ تَــرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَيَــادِيَ لَمْ تَمْــنُنْ، وَإِنْ هِــيَ جَلَّتِ

واللّه أسأل أن يجازي الجميع الجزاء الأوفى، وأحمده أوّلا وآخرا على توفيقه إلى هذا البحث وإنجازه، واللّه من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

بني يزقن: يوم الإثنين 21 شعبان 1431هـــ، 02 أوت 2010م.

عنوان البريد الإلكترونيّ: hammusdz@gmail.com

دراسة المصادر

إنّ مصادر هذا البحث كثيرة ومتنوّعة، وجديدة، ولكلّ خصوصيّتها، وهو ما فرض عقد هذا المبحث للتعريف بها، بما يعيننا في اتّخاذ الموقف الصحيح منها علميّا، وفي كيفية التعامل معها لاستخلاص المعلومة، والإحالة عليها في الهامش وفق خصوصيّتها.

هذه المصادر يمكن تصنيفها إلى ما يلي:

أوّلا: أرشيف القضاء ببني يزقن:

– دفاتر عقود خاصّة بالأشخاص: ترجع إلى ما قبل دخول الاستعمار إلى وادي مزاب في 1882، يسجّل فيها كتّاب، ممّن منحتهم الهيئة الدينيّة "العزّابة" جواز التوثيق بين الناس، عقودَه ومعاملاتِه المختلفة، فيما يخصّه ويخصّ عائلته، وربّما تجاوزهما إلى أقاربه أو إلى عشيرته. ونجد فيها خطوط علماء بني يزقن، وفقهائها، وأقدم هذه العقود –إن لم تكن منقولة من عقود أقدم– ترجع إلى أواخر القرن الثاني عشر.

– سجلاّت قضاة بني يزقن بعد حلول الاستعمار الفرنسيّ بمزاب، وإقامته للمؤسّسة القضائيّة بمزاب، فنسخت تدريجيّا النظام الذي كان سائدا بمزاب، وكانت تضمّ: قاضيا، وباش عدلا، وعدلا، وهذه الوظائف الثلاثة توزّع على الأعراش الثلاثة المكوّنة لبني يزقن، فكان أوّل قاض لمحكمة بني يزقن، شيخ مسجد بني يزقن آنذاك، وهو الشيخ الحاج محمد بن عيسى بن أيوب ازبار، من عرش أولاد اعنان؛ بينما كان باش عدله، من عرش أولاد موسى، هو عبد الله عيسى بن الحاج سعيد بن أيوب [مصري]؛ أمّا عدله فهو عيسى بن حمو بن عيسى [عمّي موسى]، من عرش أولاد يدر؛ وأوّل عقد سجّل في أوّل سجلّ من سجلاّت العقود، كان بتاريخ 1300/03/13هـ، 1883/01/23م(1).

هذه السجلاّت تنقسم إلى: 1– سجلاّت العقود: لمختلف المعاملات في الحياة اليوميّة.

2– سجلاّت التركات: لتقسيم ميراث المتوفّين.

3– سجلاّت الأحكام: للأحكام القضائيّة في الفصل بين المتخاصمين.

هذه العقود يقوم على كتابتها علماء وفقهاء، سواء في الدفاتر أو في السجلاّت، فلم تطرح إشكالا يذكر من حيث لغة كتابتها، فلغتها في الأغلب الأعمّ فصيحة وسليمة؛ وإنّما أشكل علينا الوصول إلى مادّة بحثنا فيها، وهي التأريخ لعائلة مفدي زكرياء، وتوثيق بعض المعلومات الخاصّة بحياة مفدي، كزواجه، ووضعيته المادّية بعد وفاة

1– ترك القاضي وظيفته قبل منتصف شهر أفريل من نفس السنة، ليخلفه باش عدله مصري عيسى بن الحاج سعيد، ويخلفَ هذا الأخير في وظيفة باش عدل، محمد بن سليمان بن عمر.

والده سنة 1938؛ لخضوع العقود فيها للترتيب الزمنيّ، وانعدام فهرسة لمادّتها[1]، فكانت وسيلتنا للعثور على ضالّتنا أسماء الأشخاص، وهي ممّا يكثر فيها التشابه لندرة الألقاب، وهو ما تطلّب مسحا متأنّيا لجميع الدفاتر، ولثمانية وعشرين سجلاّ، من سجلاّت العقود، انتهت بي إلى أواخر شهر ديسمبر 1900، وعددا من سجلاّت الأحكام، فأمكنتنا المادّة المتحصّل عليها من القصد بعد ذلك إلى سجلاّت سنوات بعينها، لجمع ما تبقّى من مادّة تخصّ أحداثا معيّنة من حياة مفدي، وحياة عائلته؛ ثمّ كان الإشكال بعد ذلك في تخريج العقود المستلّة من الدفاتر لعدم فهرسة الأرشيف الذي تنتمي إليه، وانعدام ترقيم صفحاتها[2]، فاكتفينا بتاريخ العقد، وكاتبه، والأرشيف الذي ينتمي إليه، سواء أكان مكتبة أو أرشيفا شخصيّا، وهو ما لا يروي غلّة الباحث؛ أمّا السجلاّت فأمر توثيقها كان أيسر، لأنّ السجلاّت في أرشيف القضاة مرقّمة، وكذا صفحاتها، كما أنّ العقود في السجلّ الواحد مرقّمة ومؤرّخة بالتاريخين الهجري والميلادي، كلّ ذلك ممّا يسهّل الرجوع إليه وقت الحاجة.

ثانيا: أرشيف "قيّاد" بني يزقن: هي سجلاّت إداريّة لمختلف شؤون الحياة اليوميّة ببني يزقن، في الفترة الاستعماريّة، وما وظّفت منها في هذا البحث هو ما يلي:

– دفتر "اللزمة" لسنة 1277هـ: هو ممّا ورثه القائد من جماعة بني يزقن قبل دخول الاستعمار الفرنسيّ إلى مزاب، ويخصّ الإتاوة المدفوعة له منذ سنة 1853، فكان اسمها "اللزمة"، بمعنى الإتاوة اللازمة والواجبة على بني يزقن كلّ سنة، ثمّ تحوّلت إلى "البزرة"، بمعنى النصيب الواجب دفعه على كلّ من يجب عليه الإسهام في دفع الإتاوة.

– سجلاّت البريد الصادر: ويضمّ المراسلات اليوميّة لقائد بني يزقن إلى الحاكم العسكريّ بغرداية.

– سجلاّت "التساريح": يسجّل فيها المصرّح لهم بالسفر إلى مختلف مدن الجزائر وخارجها، للمسافرين من بني يزقن، كما يسجّل وكيل كلّ مسافر مدّة سفره، ليؤدّي عنه واجباته المختلفة، وقد توقّف العمل بهذا القانون في أكتوبر 1937.

– سجلاّت جريدة "البزرة": يحصى فيها من يجب عليه الإسهام في دفع الإتاوة المفروضة من الاستعمار الفرنسيّ سنويّا على بني يزقن.

– سجلاّت "جريدة ناس بني يزقن": يحصى فيها سكّان بني يزقن دوريّا.

– سجلاّت "جريدة أملاك بني يزقن": يحصى فيها أملاك سكّان بني يزقن دوريّا، عقّارا ونخلا، قصرا وغابة.

– سجلاّت "المواليد والوفيات".

والسجلاّت الثلاثة السابقة تخدم "جريدة البزرة"، فعلى أساسها تضاف أسماء مسهمين جدد، كما تحذف أسماء، بحسب المقاييس المحدّدة للمشاركة في دفع الإتاوة السنويّة.

1– نستثني من ذلك سجلاّت التركات، إذ يوجد فهرس لها، مبنيّ على أسماء أصحابها، ولكن من غير ألقاب، قبيل سنة 1932، سنة ترسيم الألقاب.

2– باستثناء دفتري عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب في مكتبة آل افضل.

– سجلاّت "جريدة الكرفي" (Corvée)[1]: أو"جريدة خدمة الطرقات"، يحصى فيها الرجال بحسب سنّ القدرة على العمل، أو امتلاكهم لبهائم. يسهم هذا الإحصاء في تعيين القوّة العاملة في الأعمال العموميّة، ومن توظّف بهائمه فيها، وفي حراسة المدينة يوميّا، ويستثنى منه غير القادرين بسبب تقدّمهم في السنّ، أو العجز، ومن لم يشارك في واجب من هذه الواجبات يقدّم تعويضا ماديّا.

– سجلاّت التركات: ويخصّ بيع ممتلكات المتوفّى الشخصيّة من غير العقّارات، من أثاث وكتب وغيرهما، في المزاد العلنيّ بسوق بني يزقن، وهي مهمّة تتكفّل بها مؤسسة قيادة البلدة.

وتوجد سجّلات أخرى كثيرة،كانت متداخلة في أوّل أمرها، ثمّ انتظمت، واستقلّ كلّ مجال بسجلاّته، وهي تتفاوت في تغطيتها للفترة الاستعماريّة كاملة، وأقلّها ثغرات سجلاّت البريد الصادر، وسجلاّت "التساريح".

لم يخضع أرشيف القيّاد للفهرسة، كما أنّ سجلاّته يندر فيها ترقيم الصفحات، ولذلك وثّقت المادّة المستقاة منها، بقدر ما توفّر فيها من معلومات توثيقيّة، وما لم يتوفّر سكتت عنه، طلبا لتخفيف الهامش قدر الإمكان.

وإذا كانت السجلاّت ذات الطابع الإحصائي"[2]، ممّا يسهل فيها الوصول إلى المادّة، باعتبار تقسيمها بحسب العشائر المكوّنة لمدينة بني يزقن، فإنّ سائر السجلاّت ممّا يتعذّر فيها ذلك، فتطلّبت مسحا أكثر أناة وصبرا، وقد استغرق –على وجه الخصوص– سجلاّت التساريح كاملة[3]، لتتبّع تنقّلات مفدي في الفترة التي أدرسها، وتنقّلات أفراد عائلته، وأساتذته وزملائه في البعثة، بالإضافة إلى بعض معارفه ومعاصريه؛ كما تناول 16 سجلاّ من سجلاّت البريد الصادر[4]، لاستخلاص جزئيات من حياة مفدي وعائلته، خاصّة فيما يتعلّق بمراقبته في فترة العمل السياسيّ؛ بالإضافة إلى ما تبقّى من سجلاّت المواليد والوفيات، وهو ناقص نقصا فادحا، لم يمكّنّي –على سبيل المثال– من ضبط تاريخ ميلاد مفدي زكرياء.

إنّ العناوين التي اختيرت لهذه السجلاّت، وقد حافظنا عليها في التوثيق بالرغم من عامية بعضها، يدلّ –على العموم– على محدودية ثقافة القائمين على هذه المؤسسة[5]، مقارنة بمؤسسة القضاء، لأنّ مؤسسة القيادة، وهي جديدة إنّما استحدثت من نظام الجماعة، وعضو الجماعة لم يكن يشترط فيه درجة كبيرة في العلم، بقدر ما كانت تتطلّبه وظيفته من نفوذ في عشيرته، وفي عرشه، وفي المدينة بالتبع، يكفله الغنى والجاه بالدرجة الأولى؛ بينما كان

---

[1]– بمعنى: السُّخْرَة، والعمل المرهق.

[2]– أعني: سجلاّت "البزرة"، وناس بني يزقن، وأملاك بني يزقن، و"الكرفي".

[3]– وهي خمسة سجلاّت، تبتدأ يوم 1885/01/20، في أوّل سجلّ، وتنتهي يوم 1937/10/28 في خامس سجلّ، مع وجود ثغرة واحدة بين 1887/04/25، و1890/01/18.

[4]– يبتدأ أوّلها بمراسلة القائد بتاريخ 1896/01/04، وتوقّفت بعد انتخابات أفريل 1948، في أواسط شهر جوان، في السجلّ السادس عشر، وهو ينتهي إلى تاريخ 1952/01/15.

[5]– وهم: القائد، والخليفة، والخوجة، وممثّلو العشائر في جماعة بني يزقن.

شرط العمل في مؤسّسة القضاء العلم أساسا، لطبيعة هذه الوظيفة من جهة، ولتبعية هذه الوظيفة لهيئة "العزابة" منذ القديم. كلّ ذلك انعكس على اللغة التي كتبت بها سجلاّت قيّاد بني يزقن، فكانت تشكو ضعفا، وأحيانا ركاكة، تعيقان الفهم، وربّما نال الضعف أيضا خطّ كاتبها، فتطلّب الأمر صبرا وأناة، لفكّ إبهام نصوصه؛ كما أنّ بعضها يفتقر إلى الضبط في المعلومات التي يحتويها، عندما يكون مصدرها رئيس العشيرة لا الشخص المعنيّ، بالرغم من الاطّلاع الواسع لرئيس العشيرة على شؤون أفراد عشيرته، وهو ما نجده في السجلاّت الإحصائيّة خاصّة، حيث يختلف –على سبيل المثال– عمر الشخص الواحد من سجلّ إلى آخر، بينما نجد ضبطا أكبر في سجلاّت البريد الصادر، وفي سجلاّت التساريح.

ثالثا: الرسائل المتبادلة بين الأشخاص: من أرشيف الشيخ الحاج محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، بتونس، وبمكتبة الاستقامة ببني يزقن، بنسبة عالية تفوق 95٪ تقديرا.

هذا الأرشيف تعدّ رسائله بالآلاف، بالرغم من تلف الكثير منها، وهي تضمّ عددا من مراسلات الشيخ أبي إسحاق قبل نفيه إلى مصر، ومراسلات الشيخ الثمينيّ منذ سفره إلى تونس للدراسة سنة 1919، إلى سنة وفاته في 1970، وأقدم الرسائل في هذا الأرشيف ترجع إلى سنة 1917.

وتكمن أهمّيّة هذا الأرشيف، فيما يخصّ بحثنا، في احتوائه بالدرجة الأولى على عدد معتبر من رسائل مفدي إلى والده الروحيّ، وأستاذه الشيخ الثمينيّ، منذ فترة دراسته في العشرينيّات، إلى رسالة تعزية أبنائه بعد موته؛ ثمّ على رسائل شيوخ البعثة المزابيّة إلى الشيخ الثمينيّ، بالإضافة إلى رسائل القيّم على بعثته، وتلاميذه وأوليائهم، ومعارفه من بني يزقن ووادي مزاب، من الطبقة المثقّفة من المزابيّين، ومن أعيان تجّارهم خاصّة في عمالة قسنطينة، ممّن يعتبر من الشخصيات الفاعلة في وادي مزاب، وهو ما جعل كثيرا من هذه الرسائل وثائق تاريخيّة ثمينة، فضلا عن الوثائق التاريخيّة التي نجدها أحيانا مرفقة ببعض رسائله، عندما تتعلّق بأحداث هامّة؛ كلّ ذلك يدلّنا ضمنيّا على مكانة هذا الشيخ، وحضوره الفاعل في مزاب، بالرغم من بعده عنه بتونس، وكان صاحب رؤية ومنهج في الإصلاح والتغيير، غير أنّ بعده، والصراعات المزابيّة الداخليّة أعاقت حركته، فموقفه –على وجه الخصوص– في الصراع بين مشائخ البعثة المزابيّة بتونس ومعارضيها خاصّة من بني يزقن في بداية العشرينيّات، وموقفه في انتخابات 1948 بعد ذلك، أعاقا حركته في بني يزقن ومزاب، أضف إلى ذلك فقدانه للسند من كثير من تلاميذه؛ وعليه فالشيخ الحاج محمد بن الحاج صالح الثمينيّ شخصية ما زال نضاله وحركته الإصلاحيّة في حاجة إلى دراسة مستفيضة، لرفع ما طاله من نسيان، ومن إجحاف في بعض الكتابات التي غيّبت دوره، وغمطته حقّه.

وغنيّ عن البيان أنّ هذا الأرشيف الخاصّ لم يفهرس، فكان توثيقه بتعيين المرسل والمرسل إليه في الرسالة، وتاريخها إن توفّر، ورقم الصفحة إن تعدّدت صفحاتها، ومكان وجودها بتونس أو بمكتبة الاستقامة ببني يزقن؛ وفرض عليّ جمع المادّة المتوفّرة في هذه الرسائل تتبّعها رسالة رسالة.

ومستوى لغة هذه الرسائل متفاوت بحسب ثقافة المرسِل، وهو ما اضطرّني في بعض الرسائل، وفي النصوص المقتبسة من أرشيف "القيّاد"، إلى تصحيح لغتها قدر الإمكان، مع النقل الأمين لمحتواها.

والإشكال الأهمّ في هذه الرسائل يكمن في طابعها الشخصيّ الذي كان يبيح لصاحبها التعبير عن مكنون نفسه وتفكيره من غير حرج كبير، خاصّة في مواقف الصراع؛ فكان عليّ أحيانا تجاوز العبارات والكلمات، التي كانت وليدة مشاعر خاصّة بالموقف الذي كان فيه صاحبها، ولا فائدة من إدراجها في البحث، احتراما لخصوصيّتها، ولخصوصيّة أصحابها.

رابعا: أرشيف مركز ما وراء البحار بإيكس أون بروفانس (CAOM)، مارسيليا، فرنسا: وقد عملت فيه في عطلتي ربيع سنتي 2004، و2005، لمدّة شهر في مجموعهما؛ ثمّ استفدت من منحة طويلة المدى، فعملت في هذا المركز سبعة أشهر من الثمانية أشهر الفعلية التي استغرقتها هذه المنحة، من أوّل جانفي إلى أواخر أوت 2006[1]، في ساعات عمل المركز اليوميّة كاملة، وعدد الأيّام التي لم أعمل فيها خارج أيّام العطل الأسبوعيّة وغيرها لا تزيد على أصابع اليد الواحدة، وقد أفادني كثيرا سماح المركز للباحثين باستعمال التصوير الرقميّ، منذ أوّل يوم عمل فيه.

إنّ هذا المركز يحوي أرشيف الإدارة الاستعماريّة في مستعمراتها المختلفة، وأغزر أرشيف فيها هو الأرشيف الخاصّ بالجزائر، نجد فيه أرشيف الإدارة الاستعماريّة بالجزائر، بمختلف مستوياتها ومصالحها؛ من التقارير اليوميّة التي يقوم بها البوليس السرّي عن أنشطة مصّالي -مثلا- في صفحة واحدة، إلى الدراسات الموسّعة كـــ "السنة الأهليّة 1937" في 27 صفحة؛ ومن المراسلات المتبادلة بين مختلف مصالح الإدارة الاستعماريّة في الجزائر، إلى المراسلات على أعلى مستوى بين الولاية العامّة بالجزائر والحكومة الفرنسيّة بباريس. وقد قصدت إلى جمع كلّ ما يتعلّق بمفدي أساسا، ثمّ إلى الدوائر الأكبر التي تنتمي إليها دائرته، فجمعت كلّ ما يتعلّق بالنشاط الوطنيّ المزابيّ، وما يخصّ الحركة الوطنيّة الجزائريّة عموما، وبخاصّة ما حمل عنوان نجم الشمال الإفريقيّ، أو حزب الشعب الجزائريّ.

هذا الأرشيف مفهرس فهرسة عامّة، بحسب مؤسّسات الإدارة العامّة، كالولاية العامّة، والمحافظة، وغيرهما، وعادة ما تخضع الوثائق الأرشيفيّة في كلّ علبة أو ملفّ -في أحسن الأحوال- للترتيب الزمنيّ ليس إلاّ، ممّا صعّب عليّ مهمّة الحصول على بغيتي، من غير أن أطّلع على أكبر عدد ممكن من العلب الأرشيفيّة والملفّات، فكان أن استهديت بدراسة الأخ صالح بن دريسو لنيل شهادة الدكتوراة، بعنوان "تمركز المزابيّين في الجزائر وضواحيها بين الحربين" (Implantation des Mozabites dans l'Algérois entre les deux guerres)، وقد خصّص فيها مبحثا لحياة مفدي ونضاله،

1- وقد انقطعت هذه المنحة -لأسفي الشديد- بسبب تخلّي المشرف على البحث في فرنسا عن الإشراف، لأسباب تخصّه لم يفصح عنها، ولم أجد بعد ذلك مشرفا يعوّضه، لخصوصية البحث، ولإنجازه باللغة العربيّة؛ فأصدرت الوزارة قرارها بقطع المنحة في شهر ديسمبر 2006، بعد أن قدّمت ملفّا وافيا بما أنجزته في المركز في أوّل شهر سبتمبر، وذلك بناء على رأي الخبير، ومفاده -لأسفي الشديد مرّة ثانية- أنّ الباحث لم يتقدّم في بحثه طيلة إقامته بفرنسا، ولله الأمر من قبل، ومن بعد.

تطوّر بعد ذلك إلى كتاب "مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة: الاستخبارات العامّة والتقارير العسكرية الفرنسيّة" (Moufdi Zakaria vu par l'administration coloniale: Renseignements généraux et rapports militaires français)[1]؛ ثمّ عوّلت بعد ذلك على جهدي الشخصيّ في البحث والتنقيب في الوثائق الأرشيفيّة.

هذا الأرشيف منه ملفّات تحوي على جريدة أو جرائد عديدة مثلا، وأغلبه علب أرشيفيّة، يحوي كلّ واحد منها على مئات الوثائق، فالعلبة الأرشيفيّة (22h23) -على سبيل المثال- صوّرت وثائقها كاملة، فبلغ عدد صورها 1186 صورة. وهو ينقسم إلى:

أرشيف متداول: يسمح للباحث بتصوير ما شاء منه، دون قيد أو شرط، وقد بلغ عدد العلب والملفّات التي اطّلعت عليها وصوّرت منها 193 علبة وملفّا، وما اطّلعت عليه يفوق ذلك، فزاد ما صوّرته على ثلاثة وثلاثين ألف صورة.

أرشيف غير متداول: يتطّلب الاطّلاع عليه رخصة خاصّة من المركز، وبعضه يجب فيه أخذ موافقة وزارة الثقافة الفرنسيّة، وإذا منحت للباحث الرخصة، فهو مقيّد بعدم تصوير أيّة وثيقة فيه مهما كان نوعها، ويتعيّن عليه أن يسجّل مادّة بحثه بخطّ يده، أو ينسخه على الكمبيوتر؛ ويشترط عليه «عدم نشر أو إذاعة أيّة معلومة من شأنها المساس بأمن الدولة، أو الدفاع الوطنيّ، أو الحياة الشخصيّة للأفراد»، وكان عدد ما اطّلعت عليه من هذا الأرشيف 123 علبة وملفّا، وكان عليّ أن أنسخ مادّتي منها على الكمبيوتر لأسابيع كثيرة، وشهور.

إنّ النصوص المعتمدة في البحث كانت باللغة الفرنسيّة، وهي الأغلب الأعمّ، وتوجد وثائق أصليّة باللغة العربيّة، وهي قليلة، ولذلك لم أنصّ على الترجمة كلّ مرّة، فكلّ نصّ اعتمدته من هذا الأرشيف هو بالضرورة مترجم[2]، وما كان باللغة العربيّة، وهو قليل، نصصت عليه؛ وعندما يساورني الشكّ فيما اخترته من ترجمة لفظة أو عبارة أسجّل الأصل بالفرنسيّة بين قوسين، بعده مباشرة؛ وأخذا بهذا المقياس التزمت بكتابة أسماء الأعلام الفرنسيّين بالحروف اللاتنيّة، بعد كتابتها بالحروف العربيّة.

أمّا تخريج المادّة المستقاة من هذا الأرشيف، فعاملتها معاملة المقال الصحفيّ، بذكر معلومات الوثيقة، فمعلومات علبتها، ثمّ عدد صفحات الوثيقة، فرقم الصفحة المعنيّة في التخريج[3]، إن تعدّدت صفحاتها.

---

[1]- هذا الكتاب قمت بترجمته إلى اللغة العربيّة، في فترة عملي في إنجاز هذا البحث، وأتممته في سنة 2006، ونشر نشرا رقميّا مؤخّرا.

[2]- لقد أجهدتني كثيرا ترجمة عشرات النصوص من هذا الأرشيف، لعدم اختصاصي، ولأنّ الاصطلاحات الإداريّة في العشرينيّات والثلاثينيّات غيرها في عصرنا.

[3]- قياسا على معلومات المقال، فمعلومات الجريدة التي تحويه، وأخيرا رقم صفحة المقال.

وطلبا لتخفيف الهامش، وعدم إثقاله، عملت في تهميش مادّة هذا الأرشيف وغيره، على إلغاء ما ذكر في المتن من عناصر التوثيق الواجب إدراجها في الهامش، فلا أكرّره؛ وعند تكرار الإحالة على نفس الوثيقة، أحذف بداية من الإحالة الثانية بعض العناصر الأدنى أهمّيّة، كموضوع الوثيقة، وعدد صفحاتها، فيما يخصّ هذا الأرشيف.

والإشكال الأكبر في هذا الأرشيف هو صدوره من إدارة مستعمرة، تعالج حركة وطنيّة مناهضة لاستعمارها، فما درجة الوثوق بمضمونها؟ هذا الموضوع له حساسية خاصّة عند الجزائريّين بسبب عقود من آلام ومآسي الاستعمار رسّخت في الذاكرة الجماعيّة موقفا خاصّا اتّجاه المستعمر، وكلّ ما يصدر منه، والباحث لا يمكن أن يبقى بمنأى من تأثيرات هذا الوضع الخاصّ؛ والرأي عندي أنّ الباحث الجزائريّ هو أولى الناس بتجاوز التأثيرات السلبيّة لهذه الحساسيّة عندما يسعى إلى طلب الحقيقة العلميّة؛ وعليه ترسّمت في محاولة بلوغ هذه الغاية المنهجية التالية:

- محاولة فهم طريقة عمل هذه الإدارات في جمعها للمعلومات عن النشاطات السياسيّة، وتوثيقها لها من خلال شبكة مخبريها، وهكذا وجدت بأنّها تميّز تمييزا واضحا -في الأغلب- بين وثيقة "معلومات" (Renseignements)، ووثيقة "تقرير" (Rapport)؛ فالأولى هي المعلومات المستقاة من أحد المخبرين، وعادة تحدّد الإدارة التي أصدرتها درجة وثوقها بمحتواها، فتنصّ على نوعية المصدر، وما يبيّن مستوى الوثوق به، أو تعطي تقويما للمعلومات الواردة فيها، جيّدة أو متوسّطة؛ أمّا التقرير فيصاغ عادة بناء على معلومات متضافرة، من مصادر مختلفة.
- التمييز بين الواقعة وقراءة الإداريّ للواقعة، فدرجة الوثوق بالحادثة وتفاصيلها في مثل هذا الأرشيف أعلى بكثير من تفسير الإداريّ لها، واستنتاجاته منها، لأنّ الإداريّ تتحكّم في رؤيته لها، وجهة نظره الخاصّة، ضمن وجهة نظر إدارته عامّة؛ كما تتحكّم فيه أحيانا أفكار مسبقة "كليشيهات" صيغت في التقارير الأولى، كنسبة مفدي إلى الشيوعيّة منذ بداية نشاطه الوطنيّ، ولصوق هذا الانتساب إليها به في مختلف التقارير التي جاءت بعد ذلك، وهو بريء من ذلك تماما، بل وكان في فترة "حزب الشعب الجزائريّ" عدوّا لدودا للحزب الشيوعيّ؛ فعلى الباحث الحقّ -والحال هذه- أن يمحّص مثل هذه التفسيرات والآراء، ويجعل الحقيقة التي تعضدها الوقائع ضالّته فيها.
- أمّا سرد الحادثة فإذا كانت درجة الوثوق بها أعلى في مثل هذا الأرشيف، فإنّنا لا ننفي تلوّنها بوجهة نظر السارد لها، وعليه فعلى الباحث أن يزيل مثل هذه الشوائب بتوسيع مجال بحثه، لاستخلاص قرائن مرجّحة، خاصّة إذا كانت من مصدر آخر ذي طبيعة مختلفة.

إنّ هذا المنهج -في تقديرنا- صالح في معالجة أيّ أرشيف، وليس خاصّا بأرشيف المستعمر، لأنّ الإنسان إنسان، والأسباب التي تدعوه إلى تحوير واقعة يرويها -عندما يقوم بذلك بحسن نيّة- كثيرة ومتنوّعة، وسنرى نماذج

لذلك عند مفدي نفسه، فعلى الباحث أن يتوفّر على الأدوات المنهجيّة التي تمكّنه من تجاوز هذه العوائق دون البلوغ إلى الحقيقة العلميّة؛ فإذا وقع مع ذلك في الخطإ، فالبحوث الموالية كفيلة بتصحيحه.

لقد عقدت هذا المبحث لدراسة مصادر ذات طابع إداريّ، باستثناء الرسائل، يهتمّ فيها الإداريّ بالدرجة الأولى بتسجيل الوقائع حال وقوعها، أو بُعيدها بقليل، كما وقف عليها من مصادر معلوماته؛ والإداريّ إنّما يكتبها وليس في نيّته أن يطّلع عليها غير مسؤوله المباشر أو مسؤوليه في السلّم الإداريّ، كما يدرك أنّه توجد مصادر للمعلومة غيره، ولا يدور بخلده تماما إمكان اعتماد من سيأتي بعده ما كتبه كمصدر في بحث. إنّ هذا الوضع للإداريّ مختلف تماما عن وضع كاتب المقال الصحفيّ، أو كاتب بحث، سواء أكتبا في الموضوع عند حدوثه أو بعده، إذ يكتبان لقرّاء، وللقارئ سلطته على الكاتب، وتتحكّم فيهما توجّهاتهما وقناعاتهما؛ كلّ ذلك يكسب مثل هذه المصادر أهمّيّة خاصّة، ويزيد من قيمة المعلومة التي تحويها خاصّة عند تنوّعها وتعدّدها، لأنّ التنوّع والتعدّد يكشف لا محالة التلاعب حين وقوعه؛ وقد كانت هذه حجّة منطقيّة واجه بها رئيس المحكمة احتجاج مصّالي عند محاكمته، عندما طالب بأن لا يحاكم وزملاؤه من خلال تقارير البوليس، فهي مغرضة، فأجابه الرئيس أنّ هذه التقارير ليست صادرة من جهة واحدة، بل من جهات كثيرة، فلا يمكنها أن تتواطأ جميعها على الكذب.

أمّا الرسائل الشخصية فتشترك مع المصادر الإداريّة في آنيتها، وقربها من الوقائع، فهي مهمّة فيما ترويه من وقائع، مع أخذ جانب الحيطة والحذر من انطباعات كاتبها، فهي لا تخلو من وجهة نظر شخصية، تزيد من حدّتها -أحيانا- شدّة التأثّر بها، أو من توجّه فكريّ خاصّ؛ غير أنّ ما يميّزها هو عدم تحرّج أصحابها في الخوض في أيّ موضوع مهما كان، لا لشيء سوى كونها رسالة شخصية، وما يرد فيها ليس موجّها أساسا للتداول العامّ، فنجد فيها أحاديث يسكت عنها في الكتابات الأخرى، كالمقالات أو الكتب، ونجد فيها درجة من الحرّية في الكتابة لا نجدها في غيرها.

لقد جعلنا ضالّتنا في سبر غور هذه المصادر وغيرها، على اختلافها وتنوّعها، الحقيقة العلميّة ليس إلاّ، وهو ما اضطرّنا إلى بيان طبيعتها ومميّزاتها في هذا المبحث، قصد تحديد موقفنا في تعاملنا معها، ليكون قارئ البحث على بيّنة ممّا ورد فيه من آراء واستنتاجات وأدلّة تقوم عليهما، ذلك أنّ قناعتنا في البحث أنّه كشف عن الحقيقة، ومكاشفة للقارئ بها، ولا يمكن أن يكون مناورة له، وتعمية عليه، واللّه الموفّق للصواب.

تمهيد: مزاب والعمل الوطنيّ

عندما عزمت على كتابة تمهيد لبحثي هذا فرضت عليّ النتائج التي أفضى إليها التنقيب في آلاف الوثائق الأرشيفيّة أن أعقده للمزابيّين وعلاقتهم بالعمل الوطنيّ، لأنّ مفدي زكرياء كان يتجاذبه في مسيرته الأدبية والنضاليّة انتماءان: انتماؤه المزابيّ، وانتماؤه الجزائريّ، في فترة تاريخيّة حرجة بدأ فيها الانتماء المزابيّ انتقاله العسير إلى الرتبة الثانية بعد الانتماء إلى الجزائر، عندما بدأت مختلف نواحي الجزائر وأنحاؤه تنصهر تدريجيّا في بوتقة الأمّة الجزائريّة الفتيّة، وكانت الأسبقية في ذلك لمناطق الشمال على مناطق الجنوب، ومنها منطقة مزاب[1]. تبعا لذلك مارس المزابيّون عملا وطنيّا مزابيّا، وعملا وطنيّا جزائريّا، وكان لمفدي في كليهما نصيب، وكتب فيهما أدبا؛ ولعلّ في تناولنا لهذا الموضوع ما يسهم في تصحيح فكرة أنّ المزابيّين قوم لا يمارسون العمل السياسيّ، ولا يخوضون غماره؛ ومثل هذا الفكرة تولدّ عنها في موضوعي خاصّة تفسير توجّه مفدي الوطنيّ –مثلا– بكونه ابن المدينة، انتقل إليها مبكّرا، و«حياة المدينة بكلّ ما فيها من زخم سياسيّ واجتماعيّ وثقافيّ قد ترك بصماته المبكّرة عليه»[2].

نزح بعد سقوط الدولة الرستميّة إلى منطقة وادي مزاب الفكر الإباضيّ لا الإباضيّة، واعتنق أهل الوادي –وكانوا أمازيغيّين– المذهب، فتشكّلت تدريجيّا مدنه السبعة، وطوّر أهله نظاما، ينسجم ومعتقدهم الإسلاميّ، بخصوصيّته المذهبيّة، ويطوّع له بعض الأنظمة التقليديّة لدى الجماعة الأمازيغيّة؛ كلّ ذلك على هدي تجربتهم السابقة في السياسة والحكم، فقد كان المذهب الإباضيّ مذهبا إسلاميّا قام على أساس موقف سياسيّ، ورأي في الإمامة، ممّا جعل إقامة دولة تجسّدهما من أهدافه الأساسيّة، غير أنّ محاولاته لإقامة هذه الدولة في المغرب العربيّ، بعد سقوط الدولة الرستميّة باءت بالفشل.

اهتدى الإباضية في مزاب إلى نظام بديل عن إقامة الدولة، نظام يحافظ على البقية الباقية من أبناء هذا المذهب، يقوم على أساس مكين من السلطة الدينيّة المعنويّة، لا على قوّة السلطان، وعلى التسيير الجماعيّ لشؤون المجموعة الإباضيّة، لا على فردية الحكم؛ وهذا النظام له مستويان: مستوى المدينة الإباضية، ثمّ مستوى مدن مزاب.

وأساس هذا النظام في المدينة المزابيّة مجلسان: مجلس "العزّابة"، وهو نظام خاصّ بإباضيّة المغرب، أبدعه الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الفرسطّائيّ النفوسيّ، ليكون نظاما تعليميّا يضمن استمرارية المذهب، ثمّ تطوّر بمرور

---

[1]– تنظر الدراسة الرائدة في هذا المجال: التطوّر السياسيّ في الجزائر: دراسة مجتمعات منطقة مزاب (Le developpement politique en Algérie: étude des populations du M'zab)، مرغوب بلحاج (Merghoub Baelhadj). نشر: مكتبة أرمان كولان والمؤسسة الوطنية للعلوم السياسيّة (Librairie Armand Colin et Fondation nationale des sciences politiques)، باريس– فرنسا، ط: 1972.

[2]– تفاعل مفدي زكرياء مع تيارات الحركة الوطنية، د. أبو القاسم سعد الله، محاضرة ألقاها بمناسبة الملتقى الدولي: مفدي زكرياء شاعر الوحدة، المنعقد بالنادي الوطنيّ للجيش، بالجزائر العاصمة، يومي 15 و16 مارس 2006، مطبوعة المحاضرة، ص02.

السنوات والقرون، إلى أن أصبح السلطة الفعليّة في مدن وادي مزاب. يترأس هذه الهيئة "شيخ" يعيّن رسميّا إذا توفّرت فيه الشروط من علم وورع وحسن تسيير وتدبير. وهذه الهيئة تشرف على كلّ صغيرة وكبيرة في حياة المجتمع المزابيّ في مختلف مناحيها لضمان ترسّمها للشريعة الإسلاميّة وفق المذهب الإباضيّ؛ ومن بين مهامّها الأساسيّة بعد مهامّها الدينيّة البحتة: التعليم، والقضاء، ويعيّن لهما أعضاء منها[1].

ومجلس "الجماعة"، وهو نظام أمازيغيّ عريق، طوّع لمقتضيات وظروف المجتمع الإباضيّ بوادي مزاب، يقوم على تمثيل كلّ عشيرة بـــ"مقدّم" لها في المجلس، يكون واسطة بينها وبين قومه، من غير اعتبار لعدد أبناء العشيرة، ويمكن أن يُتصرّف في التركيبة البشريّة لهذه العشائر لأهداف معيّنة[2]، ويمكن للجماعة أن تعيّن "أمينا" عنها مؤقّتا، من ممثّلي العشائر فيها، في المهام التي يمكن أن تعرض خارج المدينة الإباضيّة، وتستدعي تمثيلها بشخص واحد. هذه الجماعة تباشر شؤون المدينة الإباضية الدنيويّة، العامّة والخاصّة، داخليّا وخارجيّا، تحت سلطة ورقابة هيئة العزّابة[3].

أمّا المرجعيّة القانونيّة في سياسة المجتمع الإباضي، فهي مرجعية دينيّة، يوضّحها هذا النصّ: «هذا بيان أصل قانون بلد بني يسقن هو كتاب الله سبحانه وتعالى، الخالق الرّازق، المحيي المميت، القادر، الذي ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وهو القرآن العظيم، وسنّة نبيّه ورسوله محمد صلّى الله عليه وسلّم، وما استخرجه منهما أئمّة الدين من أهل الصلاح والفلاح»، أمّا مستجدّات الحياة اليوميّة فتقنّن بالاتّفاقات التي تضعها هيئة "العزّابة" بمفردها، أو بمعيّة "الجماعة"[4]؛ ونفس النصّ السابق يبيّن -بعد ذكر طرف من القوانين السارية المفعول في بني يزقن- العلاقة بين الهيئتين في تسيير شؤون المدينة المزابيّة: «وأمّا من يجري ما ذكر على يديه فهم أكابر عشائر البلد، من "الطلبة" و"العوامّ"، كما لا يخفى أنّ بني يزقن [خمس] عشرة قبيلة لكلّ منها رجل واحد، أمّا أمور الشريعة فهي في يد "الطلبة" خاصّة، وغيرها من أمور البلد يحضر فيها أكابر "العوامّ"، فيسندونها للقانون الشرعيّ»[5].

1- ينظر: معجم مصطلحات الإباضيّة، تأليف مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينيّة، سلطنة عمان، ط1: 1429هـ/2008م، حلقة العزّابة2: 697-700؛ ونظام العزابة2: 702، 703؛ وشيخ الحلقة1: 577، 578.

2- قسّمت بني يزقن -على سبيل المثال- سكّانها إلى ثلاثة أعراش، وقسّمت كلّ عرش إلى خمسة عشائر، في بداية القرن الثاني عشر هجري تقديرا، لتحقّق التوازن بين الأعراش، وتحدّ من الفتن التي يمكن أن تقع من غير أن تجد وسيطا يسعى إلى الصلح بين المتخاصمين، فحقّقت قدرا من الاستقرار، لم يتوفّر في سائر مدن وادي مزاب، وكلّ عرش يعيّن مقدّما له من بين ممثّلي العشائر الخمسة في كلّ عرش؛ ينظر: من تاريخ جماعة بني يزقن، مصطفى حمودة، محاضرة مخطوطة 2008.

3- ينظر: معجم مصطلحات الإباضيّة، مجلس العوامّ2: 745، 746، والمقدّم2: 837؛ ومن تاريخ جماعة بني يزقن، محاضرة مخطوطة 2008.

4- يميّز بين الهيئتين في هذه الاتّفاقات بـــ"الطلبة" لأعضاء هيئة العزّابة، و"العوامّ" لأعضاء الجماعة، أو غيرهم. ينظر: معجم مصطلحات الإباضيّة، اتّفاقيات2: 1082، 1083؛ والطلبة2: 641، 642؛ ومجلس العوامّ2: 745، 746.

5- قانون بلد بني يسقن، قوانين مدن وادي مزاب (Kanouns des villes du M'Zab)، يتضمّن الأصل باللغة العربيّة وترجمته إلى الفرنسيّة، غرداية في 1883/04/27، وثيقة من 30 صفحة، 22h12، مركز أرشيف ما وراء البحار (CAOM)، بإيكس أون بروفنس (Aix-En-Provence)، مارسيليا (Marseille)، ص02-07.

يقابل مجلس العزّابة على مستوى وادي مزاب مجلس عمّي سعيد، ويتشكّل أساسا من شيوخ المدن السبعة، بالإضافة إلى ممثّلين عن هيئات العزّابة في الوادي، وعلى رأس هذا المجلس "شيخ وادي مزاب"، وإن لم يوجد من تتوفّر فيه شروط المشيخة، تولاّها شيخ مدينة غرداية في انتظار ظهور شيخ كفء لهذا المنصب؛ وفي الحالات الاستثنائيّة التي تستدعي حضور "العوامّ" يستدعي المجلس ممثّلين عن جماعات قرى وادي مزاب، ولا يوجد مجلس خاصّ بهذه الجماعات. ومجلس عمّي سعيد يتولّى القضاء وسياسة المجتمع المزابيّ وتقنين حياته داخليّا وخارجيّا على مستوى مدن وادي مزاب مجتمعة، بواسطة الاتّفاقات التي تواجه مستجدّات الحياة فيها[1].

هذا النظام كفل لهم السيادة والاستقلال في منطقة وادي مزاب، فكانت لمنطقتهم هذه حدودها الجغرافية؛ ففي مقال صدر بمجلّة "البدر" التونسيّة، بعنوان "الائتلاف الميزابيّ"، نشرت معه خريطة تبيّن الحدود الجغرافيّة لهذا الائتلاف[2]، وقد قدّمت له إدارتها برئاسة زين العابدين السنوسيّ بما يلي: «لقد نشب خلاف بين (الائتلاف المزابيّ) والحكومة الفرنسوية، ذلك أنّ هاته أرادت أن تجنّد منهم، فامتنعوا مستندين على المعاهدة والوثائق التي تجعل ائتلافهم مستقلاّ، بداخلية حدود أرضهم، التي تمسح 38.678كم^2، ويعدّ سكّانها اليوم 34.143 نفسا؛ وقد رفعوا قضيّتهم إلى المحاكم، وليس من البعيد أن تؤول المسألة إلى جمعية الأمم، ممّا دعانا إلى الاهتمام بأمر هذه المملكة الصغيرة المخبوءة في جوف صحراء الجزائر، مجهولة من العالم»[3].

ونشر مفدي زكرياء خريطة مماثلة، وجعلها هدية العدد الممتاز من مجلّة "الوفاق"، الذي وقف على إصداره من ألفه إلى يائه، وعَنونها "المملكة الميزابيّة العليّة"، وذيّلها بهذه الأبيات:

«[ميزابُ يا][4] بــــلادي — وتُـــربـتـــي الــزكــيّـــهْ
لا يـــنــقــضي جهــادي — أو أبــلــغ الــمـنـيّـــهْ
حـــبّـــك فـــي فـــؤادي — عـــروتـــــه قـــــويّـــــهْ
يـــا روضــــة الأجـــــداد — والجـــنّـــة الأرضــيّـــهْ»[5].

1- ينظر: معجم مصطلحات الإباضيّة، مجلس عمّي سعيد2: 750-752.

2- وهو ما بقي يطالب به المزابيّون عندما عيّنت حدود ملحقة غرداية، وهي نصف المسافة أنصافا بينها وبين المدن المحيطة بها، وهي الأغواط والجلفة وتقرت وورقلة؛ ينظر: مذكّرات ووثائق رسميّة عن وادي ميزاب من ناحيته الدينيّة والسياسيّة والاجتماعية 1853-1951، الحاج امحمد عمر بن عيسى بن إبراهيم، مطبعة النهضة، تونس- تونس، ط: 1371هـ/1951م، ص09.

3- الائتلاف الميزابيّ، من غير إمضاء، هدية "العرب"، ضمن مجلّة "البدر" التونسيّة، مج03، ج01، محرّم 1342هـ، [أوت، سبتمبر1923م]، ص12، 13.

4- في الأصل: «أميزاب».

5- مجلّة "الوفاق"، مج03، ج30، 1344/01/01هـ، [1925/07/22م]، مكتبة السيّد أبصير الحاج محمد بن عمر ببني يزقن. وتنظر الخريطة والأبيات: الملحق598.

كما كان لأهلها عملتهم الخاصّة، نجد اسمها في الوثائق المتوفّرة: ريال أو ريالة، وإذا خشي اللّبس ميّزت بــ"سكّة مزاب"، وقد حفظ لنا عقد مؤرّخ في أواسط رجب عام 1198هــ، [أوائل جوان 1784م]، على قيمة صرفها بالنسبة للعملات المتداولة بمزاب آنذاك: تحدّث العقد عن أمانة لعرش بني يزقن، وأولاد إبراهيم، من الشعانبة، أودعت عند الشيخ عبد العزيز الثميني، فحملها عنه ثلاثة من وجهاء وأغنياء أولاد باسة بن صالح، من عرش أولاد يدر، وهم: الحاج بن داد بن موسى، وحنّي بن الحاج بن باف، وكاتب العقد محمد بن يوسف بن داود؛ وبيان الأمانة وصرفها إلى سكّة مزاب في الجدول الآتي:

الأمانة	صرفها إلى سكّة مزاب	
132.5 ريالا بوجهها[كذا]	× 04 ريالات	530 ريالا
11 مثقالا وربع تبرا	× 12 ريالا	135 ريالا
03 ريالات أبي طاقية	× 06 ريالات	18 ريالا
17 ريالة سكّة مزاب	/	17 ريالا
المجموع		700 ريالا سكّة مزاب[1]

وكانت لهم معاهداتهم مع العثمانيّين سواء فيما تعلّق بتسيير شؤون المجموعة المزابيّة في مدن التلّ، فكان لهم أمينهم لدى السلطان[2]، أو فيما يخصّ علاقة مزاب بالدولة العثمانيّة، التي تمثّلت في الاعتراف بسلطانها عليها، ودفع إتاوة سنويّة لها[3]، مقابل احتفاظه باستقلاله الداخليّ؛ ومن ذلك نظام تجاريّ يقضي بتمويل التجّار المزابيّين في مدن التلّ لصندوق ماليّ يضمن دفع ديون من أفلس منهم، ومساعدة من وقع منهم في العدم والفاقة، وقد فرضت السلطات الحاكمة في تونس[4] وطرابلس والإسكندرية –بحسب تقرير فرنسيّ–

1– ينظر: دفتر عقود خاصّ، أرشيف مكتبة الاستقامة ببني يزقن، وناقل العقد الشيخ يوسف بن حمو بن عدون. ونجد في عقود من نفس الفترة حديثا عن سكّة خاصّة ببني يزقن، مثاله عقد بخطّ الشيخ إبراهيم بن بحمان، يقول فيه: «الحمد لله. ورفع من عندنا بَابَ وَلْجَمَة الغرداويّ مائة ريال، وخمسة وعشرين ريالا سكة بني يسجن، واثنين وعشرين سلطانية ذهبا، يخدم ذلك على جهة المضاربة التامّة بالقراض، والربح بيننا وبينه، وذلك للتلّ الغربيّ، بشهادة سليمان بن الحاج أحمد، وعيسى بن سليمان، وقيّدها عنهما كاتبه في أوائل ربيع الآخر من سنة 1186هــ، [1772/07/02م]» نفسه.

2– ينظر: نسخة مصوّرة من عقد يتحدّث عن أمين بني مزاب وصلاحيته في عهد الأتراك، بخطّ السيّد حمود السكاكريّ، مؤرّخ في 1251/02/23هــ، [1835/06/20م]، مكتبة الشيخ إبراهيم طلاي، ببني يزقن.

3– تقدّر بــ: 12 عبدا، و12 أمة سنويّا؛ ينظر: مذكّرات ووثائق رسميّة عن وادي ميزاب 62.

4– من ذلك ما ورد في عقد من حديث عن دين على إبراهيم بن يوسف بن موسى باباعمّي، للحاج أحمد بن محمد بن يونس، وسليمان بن الحاج بن أيوب، وإبراهيم بن موسى بن يحي، وأيوب بن حمودة «وهو أربعة آلاف ريال، ومائتا ريال، وخمسون ريالا، ونصف ريالة، سكة تونس، مع رطل ونصف الرطل فضّة، قد دفعوها عليه حين أصابه الله في أموال الناس في حياته بتونس، وذلك بإلزام باي تونس في الوقت على الأربعة بدفع

نفس هذا النظام على المزابيّين في مدنهم التي يمارسون فيها أنشطتهم التجاريّة، واقترح التقرير العمل بنفس النظام في مدن العمالات الثلاثة[1].

وكان هذا الائتلاف المزابيّ، كما سبق تسميته، أو الكونفدراليّة المزابيّة، كما تسمّيه الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة، تتميّز بطابعها السلميّ، فقد كان الإباضية في "الكتمان"، لأنّهم في حالة ضعف لا يقدرون على إقامة دولة وإمامة، وتتولّى شؤونهم سلطة جماعية، لا تقوم بالأحكام إلاّ بقدر قدرتها على ذلك[2]، وهذا الوضع لا يخوّل لهم امتلاك جيش نظاميّ لمواجهة العدوان الخارجيّ، ولا جهاز شرطة يحفظ النظام داخليّا، ولا وجود لقوّة الدولة الفعليّة التي تدعم تطبيق الأحكام القضائيّة، المنصوص عليها في الشريعة الإسلاميّة؛ فكان مزاب يعوّل على أبنائه في الدفاع عن أراضيه، وفي أداء بعض الوظائف المحدودة للشرطة، وأقصى ما يمكن أن تطبّقه السلطة الجماعيّة من أحكام هو النفي والإبعاد، معتمدين على سلطة معنويّة لا غير، سلطة هيئة العزّابة، وضغط مجموع العشائر الموجودة في المدينة على العشيرة التي ينتمي إليها الفرد؛ وعليه لم يكن لمزاب طموحات في التوسّع والغلبة، حتّى في محيطه القريب، عن عقيدة بالدرجة الأولى[3]، لا لكون أهله أقليّة سكانيّة فحسب، وخير شاهد على ذلك هو تاريخ أتباع هذا المذهب مشرقا ومغربا، خاصّة في حال قوّتهم، كما في عهد الدولة الرستميّة[4].

كلّ ذلك في وسط طبيعيّ جدّ قاس، يتولّد عن قلّة موارده -عادة- صراع إنسانيّ دمويّ من أجل البقاء، فكان خيار المزابيّين الثاني -بعد عمارة الصحراء الصخريّة القاحلة، وصنع الحياة فيها- البقاء بصنع السّلم، والحفاظ عليه، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فطوّر أهله قدراتهم في العمل الدبلوماسيّ لحلّ الإشكالات المطروحة عليهم سواء فيما بينهم، أو مع القبائل المجاورة لهم لضمان أمنهم واستقرارهم في أراضيهم؛ أو في تأمين قوافلهم التجاريّة، أو في التعامل مع الدولة الحاكمة في الجزائر، أو مع الدول التي تمتدّ إليها تجارتهم، لأنّ وادي مزاب كان أفقر في موارده من أن يلبيّ احتياجات أبنائه، فكانت التجارة ضرورة أكيدة لبقاء مزاب نفسه، كما أنّ أمن المزابيّين في أراضيهم، وفي رحلاتهم التجاريّة كان له ثمنه.

العدد المذكور على الغريم إبراهيم بن يوسف من أموالهم، كما بيّن في رسم حكم صدر من الباي، مؤرّخا في 21 شوّال 1235هـ، [01 أوت 1820م]» سجّل العقود 20، عقد: 269، 1313/05/27هـ، 1895/11/15م، أرشيف قضاة بني يزقن، ص79، 80.

1- ينظر: نسخة من تقرير الحاكم العسكريّ بالمديّة إلى الحاكم العسكريّ بالجزائر، بإمضاء: لوفردو (Loverdo)، رقم: 310، 1877/04/29، موضوعه: تقرير عن الوضع الحالي لمزاب: مشروع تنظيمه، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 52 صفحة.

2- ينظر: معجم مصطلحات الإباضيّة، الكتمان2: 905، 906. ومن الأحكام الفعّالة في الضبط الاجتماعيّ حكم البراءة، أو "التَّبْرِيَّتْ"؛ ينظر: التَّبْرِيَّتْ، معجم مصطلحات الإباضيّة، البراءة1: 100- 102.

3- «يشدّد الإباضية كثيرا على وجوب اعتقاد حرمة دم المسلم، بإقراره بالشهادة، وحرمة أيّ إضرار به في بدنه، أو ماله، أو عرضه، إلاّ بحقّها. ورفعوا ذلك إلى التوحيد، حتّى قال بعضهم بشرك من لم يعتقد هذا» معجم مصطلحات الإباضيّة، الدماء1: 387.

4- ينظر على سبيل المثال: الإباضية في موكب التاريخ، علي يحي معمّر؛ والدولة الرستميّة، د. إبراهيم بكير بحّاز.

هذه الخيارات كانت خيارات مصيريّة للمزابيّين، هي وسيلتهم للحفاظ على استمرارهم وبقائهم، كما أنّ تأصيلها دينيّا زادها قوّة على قوّة، فتجسّد أثر ذلك في الإنسان الميزابيّ، في شحذ قدراته الكامنة وهو يقوم بأعباء هذه الحياة القاسية، فكان العمل بالنسبة إليه واجبا مقدّسا؛ وفي بلوغه أعلى مستويات الشعور بالواجب الاجتماعيّ الذي هو واجب دينيّ بالدرجة الأولى، على حساب ميوله ونوازعه الذاتيّة؛ وفي الارتباط بالمجموعة فكرا وسلوكا، بما ينتج عنه من تنمية روح التضامن بين أفراده، ومنه اكتساب المجتمع المزابيّ الحياة الاجتماعية الخصبة التي تميّزه.

لقد استطاع هذا النظام الفريد أن يتكيّف مع واقع مزاب الخاصّ عبر قرون، وحافظ بمختلف الترتيبات التي وضعها على أمنه وسلامته في مواجهة الأخطار التي كانت تهدّده في محيطه القريب والبعيد على السواء؛ غير أنّه واجه صعوبات جمّة أمام الاستعمار الفرنسيّ، بطموحاته التوسعيّة الكبيرة، وقوّته العسكريّة والتنظيميّة والإداريّة، فلم تثنه الصحراء الجزائريّة على شساعتها، وعلى قساوة الظروف الطبيعيّة بها، عن بسط سلطانه عليها تدريجيّا؛ وإذ لم يقدر مزاب على مواجهة هذه القوّة عسكريّا، سعى إلى عقد معاهدة معها على غرار معاهدته مع السلطة العثمانيّة بالجزائر:

أوفد بنو مزاب جماعة من أعيانه، ممثّلين للمدن السبعة[1]، للقاء الوالي العامّ راندون (Randon)، بعيد استيلاء الجيش الفرنسي على مدينة الأغواط، في أواخر سنة 1852، ليعرضوا عليه معاهدة تجاريّة، فرفض مقترحهم رفضا قاطعا في رسالته إلى كونفدرالية بني مزاب (Confédération des Beni Mezab)، بتاريخ 1853/01/24، وطالبهم بالاستسلام للدولة الفرنسيّة لا غير، ودفع إتاوة سنويّة تقدّر بـــ 45.000 فرنكا، مقابل التزامها بعدم التدخّل في شؤونهم الداخليّة، وحمايتهم في أراضيها[2]؛ وتمّت موافقة المزابيّين على هذه المعاهدة، في 1269/07/13هـــ، 1853/04/22م، وهو تاريخ الرسالة التي بعثها دي باراي (Du Barail) إلى بني مزاب يعلن فيه رسميّا عن الاتّفاق بينه وبين وفد المدن السبعة في الأغواط[3]؛ ومرّت تسع وعشرون سنة شهد فيها مزاب فتنا وقلاقل غير مسبوقة،

1- كان عددهم 14 شخصا، ووصلوا إلى البليدة يوم 01/19؛ ينظر: رسالة الحاكم العسكريّ بالجزائر إلى الوالي العامّ، إمضاء غير واضح، رقم: 31، 1853/01/20، موضوعها: بخصوص وفد بني مزاب، 22h12، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ وأرفق بها قائمة اسميّة لأعضاء الوفد، موزّعين على المدن التي يمثّلونها، وثيقة من صفحة واحدة.

2- هذه الرسالة سمّيت بعد ذلك رسميّا "معاهدة مزاب"؛ ينظر: نسخة من الرسالة، بإمضاء: راندون، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 04 صفحات.

3- ينظر: وثيقة مطبوعة من الرسالة، جاء في ختامها: «تمّ على يد ناقله من أصله حرفا حرفا، من غير زيادة ولا نقصان، في غرداية، بتاريخ 23 من المحرم عام 1291هـــ، عبد ربّه صالح بن محمد. تمّت النسخة مطابقة للأصل عبد ربّه باحمد بن بنوح» أرشيف مكتبة الاستقامة، وثيقة من أربع صفحات، ص04. أمّا تاريخا 04/29 -وهو الأشهر-، و04/19، فهما خطأ صريح. ففي رسالة حاكم الأغواط دي باراي (Du Barail) إلى الوالي العام راندون (Randon)، 1853/04/18، نقرأ ما ترجمته: «إنّ المفاوضات التي أجريت مع بني مزاب قد عرفت حلاّ نهائيّا، ومطابقا لتوجيهاتكم. إنّ السيّد كاريس (Carrus) يعلمني بقدومه مع وفد القرى السبع، وسيصل إلى هنا غدا صباحا» ينظر: الرسالة، 22h12، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وفي رسالة دي باراي أيضا إلى حاكم المدية، رقم: 217، 1853/04/24: تحدّث عن رغبة الوفد في السفر إلى الجزائر لمشاورة جماعة المزابيين بالجزائر في خصوص دفع الضريبة السنويّة، وأنّه كلّف السيّد كاريس (Carrus) بمرافقة الوفد إلى الجزائر،

اتّخذها الحكّام الفرنسيّون بالأغواط حجّة للمطالبة في تقارير متعاقبة باستعمار مزاب، وكانت الدولة الفرنسيّة –تحت ضغط الرأي العامّ الفرنسيّ– ترفض كلّ مرّة الإقدام على هذا الأمر، على اعتبار أنّ الصحراء الجزائريّة أرض غير قابلة للاستعمار[1]؛ وفي 01 نوفمبر 1882 كتب الوالي العامّ لويس تيرمان (Louis Tirman)، رسالة إلى كافّة أهل وادي مزاب، ليبرّر دخول الفرنسيّين إلى وادي مزاب، بأنّهم لم يفوا بعهودهم، «فاليوم قد استغاث بنا جميع من مسّه الضرر من قلّة انتدابكم، وسوء قيامكم، فأتينا لنردّكم من الحالة المضطربة إلى الحالة المنتظمة الشاملة للهدوء والاطمئنان»؛ مع الالتزام باحترام عوائد بني مزاب المتواترة في تسيير شؤونهم الداخليّة، والحفاظ على خصوصيّتهم العرقيّة والمذهبيّة[2]، ودخلت حملة الجنرال دو لا تور دوفارن (De La Tour d'Auvergne) مدينة غرداية يوم 11/17[3]؛ وأقيمت مراسيم إلحاق مزاب بصفة رسميّة يوم 11/30، فقُرئت رسالة الوالي العامّ إلى أهل وادي مزاب، وتمّ تنصيب "قيّاد" وادي مزاب على رأس جماعات مدنه، وتنصيب الحاكم العسكريّ لملحقة غرداية ديديي (Didier)[4]؛ ليكون قائد "الجماعة" –وهو منصب جديد– مسؤولا هو وجماعته بصفة مباشرة أمام الحاكم العسكريّ الفرنسيّ، ملغيا بصفة نهائيّة سلطة "العزّابة" السابقة على "الجماعة".

هذا هو التغيير الأساسيّ الذي مسّ النظام الذي كان سائدا في مزاب منذ قرون، ولكنّه تغيير جوهريّ، جعل من "الجماعة" هيئة تنفيذيّة لائكيّة، كما تسمّيها الإدارة الاستعماريّة، لا رقابة للهيئة الدينيّة عليها تماما، لتحصر نشاط هذه الأخيرة في المجال الدينيّ فحسب، بحسب المفهوم الغربيّ لا الإسلاميّ؛ لأنّ هذا النظام كان يشكو اختلالا في انعدام القوّة الفعليّة التي تدعم تطبيق قراراته وأحكامه، وتفرضها في حالة العصيان.

وبتقديم الهدية المتمثّلة في الخيول التي تلقّاها من الوفد باسم الدولة الفرنسية إلى الوالي العامّ، وفي الختام يخبره بأنّه سيصل مع الوفد إلى المدية في 04/30؛ ينظر: الرسالة، 22h12، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وعليه فالمعاهدة تمّت مراسيمها في الأغواط، وليس في الجزائر؛ وفي 04/29 كان الوفد في طريقه إلى الجزائر.

1– غير أنّ هذا الرأي العامّ أصبح يطالب الحكومة الآن باستعمار الصحراء، وفرض سلطانه على إفريقيا الوسطى. وذكر من تقارير الحكّام العسكريّين بالأغواط الداعين إلى إلحاق وادي مزاب تقارير مارغريت (Marguerite)، ولبروس (Labrousse)، وسيزوني (Suzzoni)، وآخرهم كان في سنة 1863، وقد تبعتها تقارير كثيرة بعد ذلك؛ ينظر: مدوّنة حول تقرير الجنرال الحاكم للناحية العسكريّة بالجزائر، بخصوص إلحاق مزاب، وإنشاء مركز بغرداية (Note sur le rapport présenté par Monsieur le Général Commandant la Division d'Alger, relativement à l'annexion du M'zab, et à la création d'un poste à Gardaïa)، من غير إمضاء، الجزائر 1880/03/05، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 16 صفحة.

2– ينظر: نسخة مطبوعة من الرسالة باللغة العربيّة، كثيرة الأخطاء، عليها طابع كتب عليه: «الوالي العامّ بالعمالات الجزائريّة حفظه الله بحفظه المكنون: الواثق بالرحمن، عبده: لويس ترمان، سنة 1882»، 22h12، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3– ينظر: رسالة الحاكم العسكريّ بالجزائر لويسل (Loysel) إلى الوالي العامّ، رقم: 598، 1882/11/20، موضوعها: وصول حملة مزاب إلى غرداية، 22h12، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وتتضمّن البرقية التي أرسلها إليه قائد الحملة بتاريخ 11/17، يقول فيها: «وصلت اليوم الحملة إلى غرداية».

4– ينظر: رسالة الحاكم العسكريّ بالجزائر لويسل (Loysel) إلى الوالي العامّ، رقم: 617، 1882/12/03، موضوعها: إلحاق مزاب، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات؛ وتتضمّن البرقية التي أرسلها إليه قائد الحملة بتاريخ 11/30، يقول فيها: «إلحاق مزاب أصبح أمرا فعليّا».

لقد أبقى الاستعمار الفرنسيّ على نظام تسيير وادي مزاب، لأنّه في رأي «ليست لنا أيّة مصلحة في تغيير نظامهم التقليديّ، القائم على مبادئ ديمقراطيّة، وهو نظريّا أفضل من مثيله لدى العرب، كما أنّه منسجم انسجاما تامّا مع عاداتهم، وأصولهم، ودينهم»[1]؛ وفي رأي ثان، لأنّ الإدارة الاستعماريّة الجديدة لم يكن بمقدورها القيام بأعباء تسيير شؤون الكونفدراليّة منذ البداية[2]، ممّا يدلّ على نيّة تغيير هذا النظام تدريجيّا، وهو ما حدث بالفعل.

انجرّ عن هذا الإلحاق احتجاج خاصّة من عزّابة وعلماء وادي مزاب، وعلى رأسهم الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش، فكان أن حبسه قائد الحملة في معسكره لمدّة 24 ساعة، لأنّه كان عنيفا في احتجاجه لدى القائد[3]، وقد لخّص الشيخ محاججته لقائد الحملة في رسالة، وممّا جاء فيها: «وبعد، قال الجنرال [يعني: دو لا تور دوفارن][4]: انتقضت العقدة بيننا وبينكم. قلنا: إنّ عهدا أبرمه اثنان لا يحلّه واحد، في عرف المسلمين والنّصارى. قال: انتقضت لأنّ بعضكم يقتل بعضا، وكثر القتل بينكم والفساد. قلنا: إنّ العقد انبرم بيننا على أن نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر والقتل والفساد، ونصلح بين المتقاتلين، ونصلح الفساد ما قدرنا، على قدر الطاقة [...]. وقلنا: إنّه إنّما ينتقض لو أعنّا جيشا عليكم، أو أفسدنا أمرا من أموركم التي رتّبها رؤساؤكم، أو قطعنا الدراهم التي نعطيكموها، ونحن ما فعلنا ذلك، وما كدنا نفعل، بل كم مال [أعطيناكموه] قهرا[...] ممّا لو حاسبناكم عليه لكان خراج عام أو عامين، أو أكثر لكلّ قرية من القرى، وذلك كلّه من مال الفقراء وغيرهم، بلا رضى منهم [...]. قال: القتال والفساد حرام. قلنا: إنّه حرام، إلاّ أنّ الواجب علينا دفع ذلك بقدر الطاقة، كما قال تعالى: ﴿لا يكلّف الله نفسا إلاّ وسعها﴾ [سورة البقرة، الآية 286]، وقال صلّى الله عليه وسلّم: «إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم». وقلنا: إنّ مسالك الدين أربعة: الظهور والدفاع والشراء، والكتمان وهو حالنا، وأنتم قلتم: لا ندخل في دينكم وأحكامكم بما يعطّلها. [...] قال: أعطى بعضكم الحكم. قلنا: [...]، انظروا لو عقدتم أمرا في باريز، ونقضه بعضكم، أتصوّبون نقضه؟ كلاّ، لا تصوّبونه [...]. قال: جئنا بدخولكم في حكمنا من باريز. قلنا: فرق بين مجيء منها، ومجيء بإباحة الطلب منّا، فقد منعناكم من البناء في بلادنا، وغرز خشب السلك

1- ينظر: رسالة الحاكم العسكريّ بالمديّة الجنرال دو لا تور دوفارن (De La Tour d'Auvergne) إلى الحاكم العسكريّ بالجزائر، رقم: 567، 1880/08/16، موضوعها: بخصوص إلحاق مزاب وإنشاء الملحقة بمتليلي، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 13 صفحة.

2- ينظر: رسالة الحاكم العسكريّ بالجزائر إلى الوالي العامّ، إمضاء غير واضح، رقم: 486، 1880/08/25، موضوعها: بخصوص إنشاء ملحقة جنوب دائرة الأغواط، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 34 صفحة.

3- لقد تمّ اعتقاله لأنّه «لم يعر اهتماما لتقديم احتجاجاته في صورة محترمة مقبولة»؛ ينظر: رسالة قائد الحملة على مزاب دو لا تور دوفارن (De La Tour d'Auvergne) إلى الحاكم العسكريّ بالجزائر، رقم: 65، 1882/12/18، موضوعها: بخصوص "طلبة" وادي مزاب، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات.

4- لم يذكر اسم الجنرال في الرسالة، وصرّح باسمه في بحث بعنوان "تشخيص خراب وادي ميزاب بالخدمة العسكريّة"، بخطّ الشيخ عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، ممّا يرجّح أنّ البحث للشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، أرشيف الشيخ محمد بن صالح الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص23. وفقرات من هذا البحث نجدها في كتاب الحاج امحمد عمر بن عيسى، مذكّرات ووثائق رسميّة عن وادي ميزاب.

فيها، [...] وكذلك منعناكم من أن تستقضوا منّا، أو تقدّموا منّا ولاة، بل نحن نخرج من يقضي، ويلي، وقد عيّنا قبل مجيئكم، فاتركونا كما نحن عليه. وإن جئتم من باريز بختم، من ذلك، فأرونا كتابا جاء منها في ذلك الشأن، فلم ترونا كتابا منها لعدم وجوده. لو صحّ منها، لكان التحاكم في الشريعة بيننا وبين أهل باريز، فكفّوا عن البناء و[مدّ] السلك في بلادنا، والدخول في أحكامنا، فإنّا نطالبكم بالشريعة، والشريعة لا تعصى في العهد القديم لموسى، والعهد الجديد لعيسى، ولا العهد الأجدّ لمحمد صلّى الله عليه وسلّم. وقد عجز الجنرال، وتبيّن أنّ الأمر ليس من باريز، فأعرض الجنرال عن ذكر باريز، فقال جئنا بذلك من جماعة الجزائر [...]»[1].

إنّ هذه الرسالة تعتبر أوّل مواجهة للكيان الاستعماريّ سياسيّا، للمطالبة بحقّ المزابيّين في الحفاظ على استقلالهم الداخليّ في أراضيهم، فهي تعتبر -بحقّ- فاتحة النضال السياسيّ المزابيّ، من أحد أبرز شخصيات وادي مزاب آنذاك، وأسّ نهضته الحديثة، الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش؛ والحادثة بينه وبين قائد الحملة ترمز لجميع أدوار ما اصطلح على تسميته "قضية مزاب"، والتي امتدّت لعقود متعاقبة من الزمن: قوّة الحجّة في مواجهة تعنّت وغطرسة المستعمر اعتدادا بتفوّقه، وبقوّته الفعليّة؛ و لم يكن لمزاب من حلّ سوى مواجهته سلميّا، عن طريق العمل السياسيّ الذي يسعى إلى الحفاظ على المعاهدة، وعلى استقلال مزاب الداخليّ، فنشأ العمل الوطنيّ المزابيّ، لأنّ استسلام المزابيّين لهذا الأمر الواقع كان لا يعني -بالنسبة إليهم- سوى فقدان ما لأجله كافحوا عبر قرون عديدة لإنجازه وتحقيقه، فقدان وجودهم بخصوصيّته التي صاغت حضارة وادي مزاب المتميّزة عالميّا[2].

لقد امتدّ هذا العمل الوطنيّ عقودا متعاقبة، وتحمّلت أعباءه أجيال بعد أجيال، ولذلك نجد الشيخ أبا اليقظان يوصي في خطبة له القائمين على هذه المسألة في العشرينيّات من القرن الماضي تقديرا، بقوله: «لا يجوز في حال من الأحوال أصلا الالتزام بشيء يثقل كاهل الأمّة، ويمسّ جوهر الاتّفاقيتين المذكورتين في صورة ما إذا لم تلبّ الحكومة بعض المطالب إلاّ به، بل يجب إن لم تحفظ الحالة السابقة أن لا تمسّ بضرر، بحيث يُترك الأمر محلولا للجيل القابل، كما تركه الأجداد لجيلهم هذا»[3].

ومقابل ذلك كانت الإدارة الاستعماريّة تواصل خروقاتها لمعاهدة 1953، بهدف إلغاء الاستثناء الذي كان يميّز مزاب مقارنة بمختلف مناطق الجزائر الواقعة تحت سيطرتها، وسنتوقّف -باختصار- عند أهمّ معالم هذه المسيرة النضاليّة، من غير استقصاء، وبحسب ما توفّر بين أيدينا من مادّة تاريخيّة في الموضوع:

1- جواب الأستاذ الشيخ اطفيش على الإلحاق المزعوم لمزاب، بخطّ الشيخ أبي اليقظان، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص01-05.

2- يقول الشيخ أبو اليقظان في ختام خطبة له: «إخواني، إنّ حياتنا بحياة مليّتنا وتقاليدنا، ومماتنا بمماتها، فلا منزلة بين المنزلتين؛ فمن أراد أن يسلبنا تقاليدنا المتوارثة، وعهودنا المرسّمة، فليستلّ سيفه، ويقتلنا كرماء دفعة واحدة، خير من أن يسلبنا مميّزاتنا، فنصبح محرومين من حياة الأحياء، ورحمة الأموات» الخطبة، لم تذكر مناسبتها، ونرجّح إلقاءها في العشرينيّات من القرن الماضي، باعتبار ما سجّل من نصوص في الكراس، أحدثها يرجع إلى سنة 1918، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص04.

3- نفسه02.

صدر قانون التجنيد الإجباريّ، في 1912/02/03، فعقد أكابر أعيان التجّار المزابيّين اجتماعا، بغرداية يوم 05/05، لدراسة خطّة عمل تجنّب تطبيقه على أبنائهم بمدن التلّ، لأنّ الجنوب –بما فيه مزاب– كان معفيّا منه، فتقرّر: إرسال كلّ مدينة احتجاجا إلى وزير الحرب، والوالي العامّ، والحاكم العسكريّ؛ وتعيين وكيل عن كلّ مدينة[1]؛ وتحدّث تقرير عن جمعهم الأموال للقيام بالمساعي الضروريّة في الجزائر، وفي باريس؛ وعن متابعة الشيخ اطفيش لهذه الأعمال، وتشجيعه القائمين عليها على المضيّ قدما في سبيلها[2]. وكان رفضهم لهذا القانون رفضا قاطعا، لأنّ «الأمر يتعلّق بالدماء في الإسلام، حيث لا يجوز، بل لا يحلّ للمسلم أن يقاتل أحدا من المشركين إلاّ بعد أن يدعوه إلى /كلمة التوحيد، ولا يحلّ له أن يقاتل أخاه المسلم، مختارا أو مجبرا أو دفاعا عن كيان دولة مشركة بأيّ وجه من الوجوه مطلقا»[3].

التقى وفد من أعيان المزابيّين بالوالي العامّ، يوم 1912/06/26، فعرضوا عليه موقفهم من هذه المسألة، مركّزين على عدم شرعية تطبيق هذا القانون عليهم، لأنّه خرق صارخ لمعاهدة 1853[4].

وأوّل من واجه الاستعمار الفرنسيّ ببيان اختلال قانونيّ واضح في تعاملهم مع مزاب، هو رئيس رابطة الدفاع عن حقوق الإنسان والمواطن بباريس، في رسالة موجّهة إلى وزير الداخلية الفرنسيّ، بتاريخ 1914/03/16[5]، بيّن فيها أنّ الإلحاق قد تمّ بواسطة تقرير من وزير الحرب، ووزير الداخليّة، أمضى على موافقته

---

[1]– ينظر: مقطع من تقرير الحاكم العسكريّ بالأغواط، رقم: 9e، 1912/05/13، ضمن مقاطع من تقارير مختلفة بتواريخ مختلفة، مجموعة في تقرير واحد، بإمضاء: روبيون (Rebillon)، أرفقت بمراسلة الحاكم العسكريّ بغرداية، رقم: 5083، 1914/11/27، 22h12، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص01.

[2]– ينظر: مقطع من تقرير الحاكم العسكريّ بالأغواط، رقم: 23c، 1912/11/23، ضمن مقاطع من تقارير مختلفة بتواريخ مختلفة، مجموعة في تقرير واحد، بإمضاء: روبيون (Rebillon)؛ أرفقت بمراسلة الحاكم العسكريّ بغرداية، رقم: 5083، 1914/11/27، 22h12، (CAOM)، ص02.

[3]– ينظر: معجم مصطلحات الإباضيّة، التجنيد الإجباريّ1: 210، 211. ولعلّ من الشواهد إحجام مجنّدين مزابيّين عن الانصياع لأمر قائدهم بإطلاق النار على شيوعيّين فرنسيّين متمرّدين على الجيش، بالرغم ممّا يترتّب على عدم الاستجابة لأوامر القيادة العسكريّة، وكان أحد هؤلاء الشيوعيّين المفكّر روجي غارودي (Roger Garaudy)، يقول في ذلك ما ترجمته: «لا يطلقون النار، حتّى تحت التهديد والسوط. [...] تشكّلت بداية علاقة إنسانيّة جديدة مع الذين رفضوا بمعجزة –بنظرنا– قتلنا، ولم يكن الأمر معجزة، لقد فهمنا سلوكهم أيّاما بعد ذلك [...] هؤلاء الرجال هم إباضيّة، طائفة إسلاميّة من غرداية، [...] هؤلاء الرجال من مزاب لوحقوا منذ ألف سنة بسبب معتقدهم، وانتهى منفاهم في وسط الصحراء. إنّ البقاء في وسط جدّ عدائيّ هو سلوك إيمانيّ يوميّ، لأنّه استجابة اختيارية لنداء الله، هي طريقة للعيش مكرّما، واندماج بإصرار في الإرادة الإلهيّة، في الحدود القصوى للمغامرة الإنسانيّة. هؤلاء المتفانون لله جعلونا نحيا: إنّه مناقض لشرف المقاتل المسلم في الجنوب، أن يطلق النار رجل مسلّح على رجل أعزل. لقد اكتسبوا قبلنا تجربة التسامي بالممارسة»؛ ينظر: دورتي في هذا القرن وحيدا (Mon tour de siécle en solitaire)، روجي غارودي (Roger Garaudy)، منشورات روبار لافونت (Robert Laffont)، باريس –فرنسا، ط: 1989، ص65، 66.

[4]– ينظر: مدوّنة إلى الوالي العامّ، من غير إمضاء، 1912/07/15، موضوعها: مطالب مزابيّة بخصوص التجنيد الإجباريّ، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 05 صفحات، ص01.

[5]– بخصوص شكوى من خرق الحاكم العسكريّ بغرداية للمعاهدة حين تعيينه لقائد بني يزقن، وقاضي العطف، من غير استشارة "الجماعة".

عليه رئيس الجمهوريّة يوم 1882/12/21، «وعلى أساس هذه الوثيقة التي لا تحمل أيّة قيمة قانونيّة، وليس لها أيّ مظهر لنصّ قانونيّ، تمّ التأكيد على أنّ الإلحاق قد جعل من المزابيّين رعايا فرنسيّين»[1]؛ فكان أن تحرّكت الإدارة الاستعماريّة بالجزائر لتبحث عن الحجج القانونيّة الدامغة لدفع ادّعاءات المزابيّين، فكان عليها العودة إلى أرشيفها لتستخلص الوثائق المتعلّقة بهذه القضيّة منذ 1853، من ذلك البحث عن نصّ الاتّفاقية بين المزابيّين والوالي العام راندون، ولمّا لم تجدها اعتمدت على مراسلته ليوم 1853/01/24؛ ومنه أيضا الخطأ في تاريخ عقدها، فحدّدته بيوم 1853/04/29؛ وكانت هذه الإدارة قبل ذلك لا تأبه كثيرا لاحتجاجات المزابيّين، لأنّها كانت بينهم وبينها؛ وتغيّر الوضع منذ تدخّلت رابطة حقوق الإنسان في هذه القضيّة، وأسمع المزابيّون صوتهم بفرنسا[2]، واتّخذ احتجاجهم صبغة قانونيّة بحتة؛ فكان أن استغلّ المزابيّون هذه الإمكانيّة، فاستشاروا في هذه السنة نفسها حقوقيّين فرنسيّين في باريس، فخلص كلّ من هنري روبير (Henri Robert)، ومورنارد (Mornard)، وأنطوان بيي (Antoine Pillet)[3]، من دراستهم للوضع القانونيّ لمزاب في ضوء القوانين السارية المفعول في فرنسا، والقانون الدوليّ إلى ما يلي: «وممّا تقدّم يفهم أنّ الحالة من جميع الأوجه واحدة، وذلك أنّ تراب مزاب لم يقع إلحاقه من طرف فرنسا، بصورة صريحة صحيحة، ولا بصورة ضمنيّة، يمكن أن يطلق عليها وجه من أوجه الإلحاقات المعروفة. وحيث أنّه لم يقع إلحاق بالمرّة، فلنا الحقّ التامّ بأن نقول: إنّ حوادث 1882 لم تُدخل في تلك البلاد الصغرى أدنى تغيير على الحالة السياسيّة، وما يسمّى بالحقّ العموميّ، بل إنّ بلاد مزاب لا تزال مستقلّة تحت حماية فرنسا، ولو أنّ الضرورة أحوجت لزيادة إِحكام رابطة هذه الحماية، فمع ذلك لم يقع شيء يمكن أن يستنتج منه أنّ تلك الرابطة قطعت، وعوّضت برابطة الإلحاق التي هي أشدّ منها متانة ومباشرة»[4].

هذه السعي الحثيث للوفد المزابيّ الذي انتقل إلى باريس سنة 1914 انتهى - فيما يرويه وكيل الأمّة المزابيّة الحاج امحمد عمر بن عيسى- إلى لقاء رئيس الوزارة الفرنسيّة كليمانصو (Clemenceau)، قبيل قيام الحرب العالميّة الأولى، فصرّح للوفد أنّ «التجنيد الإجباريّ للأهالي الجزائريّين، لا يطبّق على أهالي ميزاب، لما بيننا وبينكم من

1- ينظر: الرسالة، بإمضاء ف. بويسون (Fd. Buisson)، (CAOM)، 22h12، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01، 02؛ ناقلا عن كتاب "تجنيد الأهالي" (Le recrutement des indigènes)، لـــ: م. بريناللي (M. Prunnelli)، محام بالجزائر.

2- وفي ذلك يقول الشيخ أبو اليقظان: «إنّ غاياتكم لا تنال كما ينبغي من غير مهد الحرية "فرنسا"، لأنّه يجب استئصال الشجرة الخبيثة قبل كلّ شيء، وإلاّ فإنّ الباقي منها ينبتها، ويعيدها علينا، كما كانت، حسبما وقع، فنخسر كلّ شيء، ولا نربح شيئا، فلا يليق بحال من الأحوال الاقتصار في خدمتها على الجزائر، لأنّنا حينئذ نبقى تحت رحمة الولاة العموميّين، فتتغيّر وتتبدّل بتبدّلهم وتغيّرهم، وأمّا في باريس فإنّ عملكم فيها لعظيم، ونفعه لعميم» الخطبة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص01، 02.

3- وهم على التوالي: نقيب المحامين (Bâtonnier de l'ordre des avocats)؛ ورئيس المحامين بمجلس الدولة، ومحكمة النقض والإبرام (Président des avocats au Conseil de l'Etat et à la Cour de Cassation)؛ والأستاذ بكلية الحقوق بباريس (Professeur à la faculté de Droit de Paris).

4- ترجمة الاستشارة إلى اللغة العربيّة، بعنوان "رأي في حالة بني مزاب سنة 1914"، مؤرّخة في 1914/07/29، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص09. وأصلها باللغة الفرنسيّة موجود في نفس الأرشيف، وثيقة من 12 صفحة.

المعاهدات، فاعترف بذلك، ووعدهم أن يصدر قرارا بأنّ قانون سنة 1912 لا يشمل بني ميزاب مراعاة لتلك المعاهدة؛ لكن ويا للأسف حال دون ذلك نشوب الحرب العالمية الكبرى، لأنّه لم يمض أسبوع على هذا التصريح حتّى نشبت الحرب، والوفد على أهبة الرجوع من باريس للجزائر»[1].

وعند انتهاء الحرب العالميّة الأولى لاحظت السلطات الاستعماريّة أنّ مزاب استغلّ استثناء الجنوب من قانون التجنيد الإجباريّ، بسبب تقديمه كلّ سنة عددا كافيا من المتطوّعين، فلم يتطوّع من مزاب ولو شابّ واحد، وبخاصّة في سنوات الحرب، واعتبرت ذلك تهاونا منه في قيامه بالواجب نحو الوطن الأمّ، فما كان منها إلاّ أن فرضت عليهم -بصفة استثنائيّة في الجنوب- التجنيد المطبّق في سائر مناطق التلّ الجزائريّ، فحدّدت في سبتمبر 1918، حصّته لسنة 1919 بـــ: 238 شابّا[2].

دخل صراع المزابيّين مع السلطات الاستعماريّة بعد هذا القرار دورا جديدا تميّز بصفة خاصّة بتوسيع نشاط المزابيّين السياسيّ إلى تونس، وذلك بدعم الحزب الحرّ الدستوريّ التونسيّ، مستغلّين في ذلك مشاركة بعض أبنائهم في تأسيس الحزب، والنضال في صفوفه، ويعلّل أحمد توفيق المدنيّ هذا المنحى في نضالهم بما يلي: «وكان الكلام يومئذ عن قضية بلاد ميزاب، وأكّد القوم بما لا يحتاج إلى دليل آخر أنّ ميزاب بلاد حماية لا بلاد استعمار، وإنّهم يطالبون باحترام معاهدة الحماية التي أرغموا عليها، فقضية بلاد ميزاب من هذه الناحية هي نفس قضية تونس، وإحراز تونس على حقّها، يفتح الباب لإحراز ميزاب على ما ضمنته لها المعاهدة»[3]. وقد كشفت محاكمة الشيخ الثعالبيّ، والشيخ صالح بن يحي، عن العلاقة الوثيقة بين حركة الدستور والمزابيّين في مزاب، وفي مدن التلّ الجزائريّ، وتونس[4]، فقامت السلطات الاستعمارية في تونس والجزائر بتحقيق واسع لتحديد طابع هذه العلاقة، والمتورّطين فيها، فأرسلت لجنة قضائية(Commission rogatoire) إلى مزاب لإجراء تحقيق حول تمويل المزابيّين لحركة الدستور التونسيّ في بني يزقن، والقرارة، وقامت في بني يزقن بعملية تفتيش محلاّت ومنازل عدد من أعيان بني يزقن

1- مذكّرات ووثائق رسميّة عن وادي ميزاب 14.

2- ينظر: مدوّنة مدير مناطق الجنوب لهيرو (Lehuraux) إلى الوالي العامّ، رقم: 444/SUD/2، 1947/01/30، موضوعها: التجنيد الإجباريّ بمزاب، 22h23، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01، 02.

3- حياة كفاح: مذكرات، الجزء الأوّل في تونس 1905-1925، لأحمد توفيق المدني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر-الجزائر، ط2: 1988، ج1 ص 157.

4- ينظر تفاصيل هذا الموضوع: الدعاية ضدّ فرنسا في مزاب في بداية العشرينيّات (La propagande anti-française au M'zab au début des années 1920)، لشارل دومينيك برينو (Charles Dominique Bruno)، مذكّرة كفاءة (Mémoire de Maîtrise) في التاريخ، تحت إشراف م. ميشال (M. Michel)، جامعة بروفانس، إيكس اون بروفانس (Aix-En-Provence)، مارسيليا، 1988؛ والحزب الحرّ الدستوريّ التونسيّ 1919-1934، يوسف مناصرية، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت-لبنان، ط1: 1408هـــ/ 1988م، ص74، 72.

وكبرائها[1]، وسجّلت عددا من المتورّطين في هذه القضية في الدفتر "B"[2]؛ وسلّطت منذ ذلك الحين على البعثة العلمية المزابية بتونس عيونها، لضلوع رؤسائها في الحركة الوطنية بتونس والجزائر على السواء، فكان من نتائجها نفي الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش[3].

رفع المزابيّون -ممثّلين بجماعات مدنهم السبعة وقادتها- في سنة 1922 دعوى لدى مجلس الدولة الفرنسيّ، ضدّ لجنة القرعة العسكريّة لغرداية[4]، ووزير الحرب[5]، والوالي العام[6]، بتهمة تجاوز السلطة

1- في رسالة الحاج صالح بن يحي إلى ابنه الشيخ الثمينيّ في تونس، 1920/12/28، حديث عن التفتيش الذي قام به حاكم الملحقة بمعية عشرين عسكريّا، وطال محلاّت القائد سليمان بن عيسى، والحاج سليمان باعلي، والحاج بكير بن داود بزملال، والحاج صالح باعلي، وزكري بن سعيد؛ وأنّ الأمر أتى رأسا من تونس، بسبب علاقة هذه المجموعة بالشيخ صالح بن يحي؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، تونس.

2- منهم: العنق الحاج عمر بن الحاج إبراهيم، وبزملال عمر بن داود بن الحاج، والشيخ سليمان بن يحي بن الحاج سليمان، ويحمد عيسى بن عمر بن يحي، والتاجر محمد بن بكير بن يحي؛ ينظر: قائمة المسجّلين من الأهالي في الدفتر "B" في مناطق الجنوب، رقم: 4883، 1922/11/06، 9h96، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. ونجد اسمين آخرين هما: زكري بن سعيد بن إسماعيل، بزملال الحاج بكير بن داود بن الحاج؛ ينظر: وضعية المتّهمين في المنطقة العسكرية لغرداية، المسجلين في الدفتر "B"، بإمضاء: العقيد كلافيري (Clavery)، الحاكم العسكريّ لمنطقة غرداية، 1926/05/18، 9h96، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

أمّا الدفتر "B" فهو دفتر يحتوي على المعلومات المتعلّقة بأشخاص ثبت الاشتباه بأمرهم، من ناحية "الدفاع الوطنيّ"، والذين يتوجّب اتّخاذ تدابير صارمة اتّجاههم، في حالة نشوب حرب، أو حدوث عصيان مسلّح. هذا الدفتر يتكوّن أساسا من أجزاء قابلة للانتقال، لتتبّع المشبوهين في جميع تنقّلاتهم، بالإضافة إلى وثائق معلومات في خمس نسخ. هذا الدفتر كان خاضعا لتسيير مركزي في وزارة الدفاع. وقد تمّ إلغاء هذا الدفتر، واستبداله في جوان 1942، بالقائمة "S"؛ ينظر: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة: الاستخبارات العامّة والتقارير العسكرية الفرنسيّة (Moufdi Zakaria vu par l’administration coloniale: Renseignements généraux et rapports militaires français)، لصالح بن دريسو، المطبعة العربيّة، غرداية - الجزائر، ط1: 2006، ص37 ها40. وصدرت التعليمات لأوّل مرّة بخصوصه في أواخر سنة 1912؛ ينظر: تعليمات حول الدفتر "B" (Instruction sur le carnet "B")، رسالة وزير الداخلية ت. ستيق (T.Steeg)، ووزير الحرب أ. ميلراند (A.Millerand) إلى المعنيّين بتطبيقها، ومنهم الوالي العامّ، رقم: 6608-2-S. R 11، 1912/11/01، 9h97، (CAOM)، وثيقة من 17 صفحة.

3- ينظر على سبيل المثال: النشاط العلميّ والفكريّ للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، لمحمد صالح الجابريّ، الدار العربية للكتاب، طرابلس-ليبيا، والشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر-الجزائر، ط: 1983، ص271-278.

4- أُودعت الدعوى يوم 1922/08/02، عن طريق محاميهم هنري مورنارد (Henri Mornard)، رقمها: 77609، ضدّ القرارات التي أصدرتها يوم 06/07، وما بعده، والمطالبة بإبطالها، لامتناعها تسليم نسخة منها إليهم. ينظر: نصّ الدعوى المودعة، بعنوان "دعوى بسبب تجاوز السلطة" (Recours pour excès de pouvoirs)، 9h82، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وحكم مجلس الدولة ليوم 1925/05/15 في هذه القضية، مترجما إلى اللغة العربيّة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، وثيقة من 06 صفحات، ص01.

5- رقم الدعوى: 78354، وهي ضدّ حكمه الصادر، في 1922/10/12، برفض طلب أهالي البلدان السبعة إعفاءهم من الخدمة العسكريّة؛ ينظر: حكم مجلس الدولة ليوم 1925/05/15، مترجما إلى اللغة العربيّة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص02.

6- رقم الدعوى: 78889، ضدّ ما تضمّنه قرار والي عموم الجزائر، ليوم 1922/10/20، من تحديد عدد العساكر الواجب على البلدان السبع بمزاب إحضارهم في سنة 1923، وإحصاء من يوجد ببلاد التلّ من الشبّان الذين أصلهم من مزاب، وحضّ آبائهم على تقييدهم بجرائد الانتخاب، بشمال الجزائر؛ ينظر: نفسه 02.

لثلاثتهم، وعدم أهلية اللّجنة؛ استنادا أساسا إلى أنّ مزاب بلد حماية، وأبناؤه ليسوا رعايا فرنسيّين، فلا يمكن تجنيدهم في الجيش الفرنسي"[1].

ودفع الوالي العامّ تيودور ستيق (Théodore Steeg)[2] حجّة المزابيّين بتجاوز النقاش القديم الجديد بين الطرفين حول مسألة الحماية والإلحاق، إلى القول بأنّ مزاب من ضمن الأراضي الجزائريّة، وقد بسطت فرنسا سلطانها عليها ضمنيّا عند استسلام مدينة الجزائر[3]، معتمدا -في تقديرنا- على رأي الوالي العامّ السابق شارل ليتو (Charles Lutaud)، الذي أوضح بأنّ مزاب لم يكن يوما دولة مستقلّة، معترفا بها لدى الدول الأوروبية الكبرى مثل المغرب وتونس[4]. و«أنهى الوالي العامّ رسالته إلى وزير الداخلية بتأكيده بشدّة، على ضرورة صدور حكم من مجلس الدولة في أقرب وقت، يقضي بإثبات الواجب العسكريّ للمزابيّين، لاستقطاب المتردّدين، وإسكات الأكثر تصلّبا»؛ وأكّد على ضرورته مرّة أخرى في رسالته إلى مجلس الدولة، رقم: 2094، ليوم 1923/05/09، بعد استعراضه لحججه ضدّ دعاوي المزابيّين؛ وكذا في رسالته أيضا إلى وزير الداخلية، رقم: 2806، بتاريخ 1924/06/23[5].

ونظرا لطول مدّة انتظار المزابيّين لبتّ مجلس الدولة في هذه القضية، أرسلوا وفدا لبذل مساعي لدى الحكومة الفرنسيّة، وبعض البرلمانيّين، بقصد وقف عمليات التجنيد إلى حين فصل مجلس الدولة في دعواهم[6]، وإثر ذلك بلّغ وزير الداخليّة الوالي العامّ دعوة النائب موتي (Moutet) إلى تعليق الاستدعاء للتجنيد في غرداية حالا[7].

1- ينظر: مدوّنة بخصوص تجنيد المزابيّين، بإمضاء: مدير مصلحة القضايا الأهليّة والموظّفين العسكريّين لومولند (Lemouland)، رقم: 5731، 1924/12/16، 22h23، (CAOM)، وثيقة من 05 صفحات، ص01.

2- في رسالته إلى وزير الداخلية، رقم: 505، بتاريخ 1923/02/03؛ ينظر: نفسه 03.

3- ينظر: نفسه02.

4- غير أنّ حجّة ليتو هذه بقيت حبيسة مراسلات الإدارة الاستعماريّة؛ ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى وزير الداخلية، بإمضاء: ليتو (Ch. Lutaud)، رقم: 2920، 1914/08/04، موضوعها: بخصوص احتجاج يتعلّق بمزاب، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 06 صفحات.

5- ينظر: مدوّنة بخصوص تجنيد المزابيّين، رقم: 5731، 1924/12/16، 22h23، (CAOM)، ص02، 03.

6- كان الوفد متكوّنا من بنكيح عيسى بن بكير من بني يزقن؛ و[الحاج امحمد] عمر بن عيسى، من العطف؛ وكراوة سليمان بن صالح، من غرداية؛ وكان ممّن التقوا بهم وزير الحرب، ووزير الداخلية، وعندما عرضوا عليهم مطلبهم، علّقوا جوابهم باستشارة الوالي العامّ ستيق (Steeg)؛ ينظر: رسالة الحاكم العسكريّ لغرداية روكروا (Recroix) إلى القائد العسكريّ لمنطقة غرداية بالأغواط كلافيري (Clavery)، رقم: 64، 1924/12/12، موضوعها: التجنيد بمزاب، 22h23، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

7- وفي جوابه إلى وزير الداخليّة، رقم: 5637، ليوم 1924/12/09، رفض الأمر رفضا قاطعا، وطالب بعدم الاستجابة لمطالب المزابيّين، وبتدخّل الوزير لدى مجلس الدولة لحثّه على إصدار حكمه في هذه القضية في أقرب وقت؛ ينظر: مدوّنة بخصوص تجنيد المزابيّين، رقم: 5731، 1924/12/16، 22h23، (CAOM)، ص03. وينظر تفصيل هذه المساعي: التجنيد الإجباريّ في مزاب: سفر ثلاثة مفوّضين إلى باريس (Le recrutement obligatoire au M'zab)، مراسل الجريدة بباريس: ج. ج (G.G)، قصاصة المقال من جريدة "لاديبش ألجيريان" (La dépêche Algérienne)، ليوم 1924/11/19، 22h23، (CAOM).

وصدر حكم مجلس الدولة، بتاريخ 1925/05/15، مؤيّدا لوجهة نظر الإدارة الاستعماريّة، ورافضا لدعاوي المزابيّين جملة وتفصيلا[1]، ولأنّ الحكم نهائيّ لا يقبل النقض، طوت به الإدارة نهائيّا ملفّ الوضع القانونيّ لمزاب، وأصبحت مرجعيتها مستقبلا في "قضية مزاب" حكم مجلس الدولة هذا، وتأكيده بحكم يوم 1926/06/30[2].

أمّا المزابيّون فقد صدموا بهذا الحكم صدمة كبيرة، نجد أثرها في رسالة للشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، أسبوعا بعد صدور الحكم، يوم 1925/05/22، يقول فيها: «ولمّا جاءت الصاخّة والحاقّة والطامّة ظننّا أنّك تخفّ، وتطير إلينا على جناح البرق، لتصطحب في حقيبتك برنامج العمل، والوقت يمرّ مرّ السحاب، وإلى الآن لم نر شيئا [...]. ليت شعري ما حيلكم؟ وما تدابيركم تجاه الحالة الراهنة؟ هل من دواء ناجع؟ هل من أسلوب حكيم؟ لمّا بلغنا الأمر هناك [يعني: تونس] أسرعنا لأخذ بعض التدابير، ووضع خطط العمل، اقتضى البعض منها سفري إلى هنا [يعني: الجزائر] ظنّا منّي أن نجدك والإخوان هنا في رأس حركة مفيدة، فخرجت من هناك صبيحة 20 إلى قسنطينة، وخرجت منها إلى هنا مساء 21، وأصبحت اليوم هنا مزوّدا ببعض الإرشادات عسى أن نتعاضد /معا لتنفيذها، فلمّا وصلتُ وجدت البعض الذي هنا لم يفتكر قطّ في وضع خطّ فيه، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العظيم، فأصبحت [...] أعضّ ببنان الأسف، ولات حين، وأملي وطيد في الملاقاة في الأرض أو في السماء. [...] ولا تسأل عن التأثير العميق الحاصل لنا، وللأولاد، ولإخواننا هنا [يعني: تونس]، حتّى أصبحنا -طبعا- في مآتم، وصاروا يتوافدون لتعزيتنا، وما أجدرها بهذا الأمر، ولعلّك رأيت صورة منها بـــ"الزهرة"»[3].

إن كان هذا المقطع من الرسالة يوضّح صدمة الشيخ أبي اليقظان في حكم 05/15، خاصّة وأنّه كان يعتقد -كما سبق بيانه- أنّ الغاية في قضية مزاب «لا تنال كما ينبغي من غير مهد الحرية "فرنسا"»، فإنّه فضلا على ذلك يكشف عن دور شيوخ البعثة العلميّة المزابيّة بتونس في هذا العمل الوطنيّ، لأنّ التعويل كان عليهم كنخبة مثقّفة في كتابة العرائض والتقارير والشكاوى، والعمل على ترجمة الأحكام والاستشارات، وكتابة المقالات في الصحافة، أو الردّ على المناوئين، وهو ما يجعلنا نتصوّر صدمة أبناء البعثة أيضا -وقد أشار إليها- لمعايشتهم يوميّا أدوار هذا الكفاح؛ وإذا كان الشيخ أبو اليقظان يمثّل الموقف الإيجابيّ من الحكم بالتفكير في خطط بديلة، والمبادرة إلى العمل، فإنّ المقطع يسجّل ردّ الفعل السلبيّ من بعض من كان متوقّعا منه الفعل، وعدم الرضوخ للأمر الواقع، فقد أصابه اليأس والقنوط من تكرار المحاولة بعد عقود من الجهاد المضني مادّيا ومعنويّا.

لقد استمرّ النضال ضدّ التجنيد الإجباريّ بعد ذلك بالرغم من حكم 05/15، لكن ليس بالحيوية التي كانت له من قبل، وفقد الإجماع حوله، خاصّة وأنّ الإدارة عملت على تخفيض عدد المجنّدين تباعا، وأتاحت للمزابيّين

1- ينظر: نصّ الحكم مترجما إلى العربيّة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، وثيقة من 06 صفحات.

2- ينظر: نصّ الحكم مترجما إلى العربيّة، بإمضاء: باسعيد عدون بن بكير، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، وثيقة من 03 صفحات.

3- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص01، 02.

حقّ تعويض مجنّديهم؛ وانتهت إلى إعفائهم من التجنيد، برفع الاستثناء الذي كان يخصّهم دون سائر مناطق الجنوب، وذلك بقرار الوالي العامّ شاتنيو (Chataigneau)، رقم: 525/SUD/2، المؤرّخ في 1947/02/06[1].

واتّخذ العمل الوطنيّ المزابيّ -إلى نهاية الفترة التي نحن بصدد دراستها- طابعا أكثر محلّيّة، في حركة الشيخ بيوض الإصلاحيّة، في شقّها السياسيّ، حيث كانت المواجهة أساسا مع الإدارة العسكريّة بمزاب والأغواط، وموظّفيها من أبناء الوادي، خاصّة منهم "قيّاد" بعض مدن وادي مزاب، وبعض الشخصيات النافذة في مزاب، ممّن كان يعارض حركته الإصلاحيّة[2]، ممّا عمّق الخلاف بين المصلحين والمحافظين، بعد أن كانوا -على اختلافهم- في خندق واحد إبّان النضال من أجل استقلال مزاب، خاصّة في معركة التجنيد الإجباريّ[3].

أمّا إسهام المزابيّين في العمل الوطنيّ الجزائريّ فإنّه كان مرتبطا بحركتهم الإصلاحيّة، ومرجعها -في تقديرنا- فكر الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش1821-1914م[4]، المتميّز بتفتّحه، فقد كان يدرس الأديان الأخرى غير الإسلام، ويدرس المذاهب الإسلاميّة غير المذهب الإباضيّ، وأحيانا يأخذ بآراء علمائها، فكانت الحكمة ضالّته؛ كما أنّه تميّز بإيمانه بضرورة التواصل بين المسلمين، فكان على اتّصال مستمرّ بالإباضية في عمان وزنجبار وجبل نفوسة وجربة ووارجلان، وعلى اتّصال وثيق بالعالم الإسلاميّ مشرقا ومغربا، يتابع أخباره، ويراسل قادته وزعماءه[5]، ووقف في وجه المستعمر الفرنسيّ بحزم وقوّة، فتمّ تسجيله في الدفتر "B"، فكان أوّل من سجّل فيه في منطقة غرداية العسكريّة[6]؛ وتقديرا لهذا الدور خصّص مفدي مقطعا كاملا له في إلياذته، يقول فيه:

«طُفَيِّشُ سُقياكَ قطبَ الأئمّهْ، ومَن عاش بالفكر يصنع أمّهْ
ومَن شقّ بالعلم درب الحياهْ، وصان لنُبل الرسالات حرمهْ
ومن قطع العمر يغزو الكتابْ، ويَفري الظــلامَ، ويلهبُ همّهْ

[1]- ينظر: القرار، 22h23، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- ينظر في هذا الموضوع خاصّة: الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما، د. محمد صالح ناصر، مكتبة الريام، الجزائر-الجزائر، د.ت.ط.

[3]- وسجّل الشيخ بيوض بسببه في الدفتر "B"، بتاريخ 1935/01/23، وذكر في تعليله: إنّه و«بسبب عدائه السافر ضدّ الإدارة الفرنسيّة، ودعايته الوطنيّة والاستقلاليّة (autonomiste) يسهم في إدامة الاضطراب في الأوساط المزابيّة»؛ ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى الجنرال قائد الفيلق التاسع عشر للجيش، رقم: 1208، 1935/03/15، موضوعها: الدفتر "B": بيوض الحاج إبراهيم، 9h97، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]- وممّا يدعم هذا الرأي تقرير لمركز الاستخبارات والدراسات (CIE) ربط فيه بين الشيخ اطفيش والحركة الإصلاحيّة بمزاب، لأنّ أبرز وجوهها كانوا من تلاميذه؛ ينظر: بخصوص تيارات العمل السياسيّ وسط المجتمع الإباضي (A/S Courants d'activités politiques parmi la communauté Mozabite)، تقرير (CIE) الجزائر، رقم: 675، 1939/10/27، 23h83، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات.

[5]- ينظر: آراء الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش العقديّة، د. مصطفى بن ناصر وينتن.

[6]- ويبدو أنّه سجّل فيه بُعيد بدء العمل به، وجاء في الوثيقة الخاصّة به: «شخصية دينيّة، رئيس معترف به لدى فئة "الطلبة"، من أتباع المذهب الإباضيّ بمزاب. إنّه معاد لنا تماما، ولكنّ قدراته بدأت تنقص، ومع ذلك يبقى قادرا على التسبّب لنا في مشاكل بأن يكون رئيسا للساخطين بمزاب. إجراء يطبّق عليه: يجب مراقبته في حال وقوع قلاقل»؛ ينظر: الوثيقة، غير مؤرّخة، 9h96، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

ودان لــه الحرف بالخالداتْ، فأخلص للحرف عهدا وذمّهْ
وأنصف من خالفوه اجتهادا، وصـــان عن الجدليّات علمَهْ
ومهما توزّع في الرأي فكرٌ، فهيهات يصدع شملا ولُحمَهْ
وكم قام يعصـــف بالظالمينْ، وينصَبُّ فـــوق المغيرين نِقمَهْ
فلم تُثْنِه ظـــلماتُ السّجونْ، ولا الدسُّ والكيدُ أوهنَ عزمَهْ
ويدعو لكلّ احتلالٍ ثُــبورَا، ويَضـــرعُ في النّكبةِ المُدْلَهِمَّهْ
سلوا قادةَ الشّرقِ عن صدقه، ونُبل مشـــاعره في الملمّهْ»[1].

غرس الشيخ اطفيش هذا الفكر في تلاميذه، فصنع من أبرزهم شخصيات وطنيّة ومغاربيّة وإسلاميّة؛ نذكر منهم: الشيخ أبو إسحاق إبراهيم بن امحمد اطفيش1886-1965م[2]، والشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى1888-1973م[3]، والشيخ سليمان باشا الباروني النفوسيّ اللّيبي1870-1940م[4]، والشيخ صالح بن يحي بن الحاج سليمان 1871-1945م[5]، والشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ 1897-1970م[6].

هؤلاء التلاميذ البارزون وغيرهم من أبناء جيلهم أثمر فيهم فكر القطب حركة إصلاحيّة تميّزت بقوّة ارتباطها بالفكر الإباضي، وتمسّكها به: عقيدة راسخة، وسلوك قويم؛ وذلك من خلال مدارسة تراثه العلميّ، والحرص على طبع المخطوط منه؛ وبالتفتّح على النهضة العربيّة الإسلاميّة في مختلف مجالاتها؛ فأنشأت بعثة علميّة في تونس منذ سنة 1914 تحت رئاسة الشيخ أبي اليقظان؛ ومارست الصّحافة، كصحافة الشيخ أبي اليقظان، وهي ثماني صحف أصدرها بين سنتي 1926 و1938م: "وادي ميزاب"، و"ميزاب"، و"المغرب"، و"النور"، و"البستان"، و"النبراس"، و"الأمّة"، و"الفرقان"؛ بالإضافة إلى مجلّة "المنهاج" 1925-1930 التي أصدرها الشيخ أبو إسحاق اطفيش بمصر، وجريدتي الشيخ سليمان باشا البارونيّ "أسد الإسلام" 1906، بمصر؛ و"البارونيّ" 1913م، بإستنبول؛ وساهمت في إنشاء الأحزاب السياسيّة كالحزب الدستوريّ التونسيّ الذي كان من مؤسسيه إلى جانب الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ الشيخ صالح بن يحي، وكان من أعضائه الفاعلين الشيخ أبو إسحاق اطفيش، والشيخ أبو اليقظان، والشيخ محمد بن

[1]- إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية-الجزائر، ط: 2001، ص93.
[2]- تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضيّة، لجنة البحث العلميّ بجمعية التراث، جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر، ط1: 1420هـ/1999م، ج2 ص44-48.
[3]- تنظر ترجمته: نفسه2: 52-57.
[4]- تنظر ترجمته: نفسه3: 426-452.
[5]- تنظر ترجمته: نفسه3: 487-489.
[6]- تنظر ترجمته: نفسه 4: 802-806.

الحاج صالح الثمينيّ؛ وشاركت في تأسيس الجمعيات الوطنيّة، كجمعية العلماء المسلمين التي كان من مؤسّسيها الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، والشيخ إبراهيم بن عمر بيوض1899-1981م[1].

هذه النهضة المزابيّة احتكّت بالحركة الوطنيّة الجزائريّة، فأسهم فيها المزابيّون إسهام آبائهم وأجدادهم في مقاومة الاحتلال على أبواب الجزائر، وأسوار قسنطينة[2]؛ وفي الثورات الشعبيّة كثورة بوعمامة[3]، ولعلّ ممّا يوضح منطلقهم فيه، ما عقّب به الشيخ أبو إسحاق -وهو المزابيّ من أعماق صحراء الجزائر- على جهاده في صفوف الحزب الحرّ الدستوريّ التونسيّ، إذ يقول: «لقد كنّا نعدّ العمل في حزب الدستور جهادا في سبيل الله، وعملا للجزائر أيضا، وواجبا نؤدّيه إلى تونس التي أحبّتنا وأحببناها، وكان حماسي وحماس الطلبة الكبار النبغاء [يعني: طلبة البعثة العلمية المزابية بتونس] لحزب الدستور عظيما»[4].

لقد أوضحت بعض الدراسات جهود الشخصيات المذكورة في الحركة الوطنيّة الجزائريّة[5]، بما يغنيني عن إطالة هذا التمهيد، خاصّة وأنّ البحث حول شخصية من أبرز شخصيات الحركة الوطنيّة الجزائريّة، مفدي زكرياء، كما أنّ المنهج الذي ترسّمته في بحثي قد عرّج بي في بعض المواضع على بيان وجوه من هذا النضال، متى ما كان غير مكرور، ويسهم في خدمة الموضوع؛ ولذلك أكتفي بما يعتبر شاهدا ومحصّلة لنضالهم طيلة هذه الفترة، إلى قيام الحرب العالميّة الثانية:

وضع تقرير لمركز الاستخبارات والدراسات (CIE) لعمالة الجزائر، بتاريخ 1939/06/08، قائمة بأسماء 50 شخصية من الشخصيات البارزة في الحركة الوطنيّة، من مختلف اتّجاهاتها، ممن لهم نشاط دوريّ في عمالة الجزائر، ولو كانوا مقيمين خارجها، فكانوا كالآتي: 22 من حزب الشعب (PPA)، و10 من العلماء المصلحين، و03 من شبيبة المؤتمر الإسلاميّ (JCMA)، و06 من الحزب الشيوعيّ (PCA)، و08 من اتجاهات متفرّقة، و01 عميل للخارج. وتمّ ترتيبهم بحسب درجة خطورتهم في كلّ اتّجاه، ووضعت خطّا تحت من يتوجّب إيقافه «في حالة وقوع أزمة خطيرة (حرب، أو ثورة)»، ووضعت إزاء الاسم تاريخ تسجيله في الدفتر "B"، إذا كان مسجّلا فيه؛ ونجد من المزابيّين في هذه القائمة:

1- تنظر ترجمته: نفسه 2: 36-42.

2- ينظر: تاريخ بني مزاب، للأستاذ يوسف بن بكير الحاج سعيد، المطبعة العربية، غرداية-الجزائر، ط2: 2006، ص80، 81، و83.

3- لقد كانت مشاركتهم في هذه الثورة سنة 1881 -بحسب الإدارة الاستعماريّة- السبب المباشر لدخول الفرنسيّين إلى مزاب سنة بعد ذلك؛ ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى وزير الداخلية، بإمضاء: ليتو (Ch. Lutaud)، رقم: 2920، 1914/08/04، 22h12، (CAOM)، ص02.

4- أعلام الإصلاح في الجزائر، من عام 1340هـ/ 1921م، إلى عام 1395هـ/ 1975م، لمحمد علي دبوز، مطبعة البعث، قسنطينة-الجزائر، ط1: 1398هـ/ 1978م، ج 3 ص236.

5- ويأتي في مقدّمتها دراسات محمد ناصر: "الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلاميّ"، و"أبو اليقظان وجهاد الكلمة"، و"الشيخ إبراهيم بن عمر بيوض مصلحا وزعيما".

حزب الشعب الجزائريّ: مفدي زكرياء (37/10/21)، وغرّافة إبراهيم (37/10/21)، ولعساكر محمد، وهم على التوالي في الرتبة الثانية، والرابعة، والسادسة.

العلماء المصلحون: الشيخ بيوض الحاج إبراهيم(1)، والشيخ أبو اليقظان، في الرتبتين الأولى والثانية.

اتّجاهات متفرّقة: بوجناح سليمان (38/02/28)، و[الحاج امحمد]عمر بن عيسى بن إبراهيم، في الرتبتين الثانية، والخامسة(2).

في هذا الجوّ الوطنيّ نشأ مفدي منذ نعومة أظفاره، فكان الأديب والشاعر الذي تشرّب الوطنيّة بمدلوليها لدى المزابيّين، فكتب في كليهما أدبا وشعرا، وناضل في سبيلهما من غير أن يجد أدنى تناقض بينهما، فكان ذلك المناضل الوطنيّ الذي سنقف -إن شاء الله- على أطوار حياته، وعلى إنتاجه الأدبيّ فيها، والله وليّ التوفيق.

1- لم يذكر تسجيله في الدفتر "B"، وقد سبق في ص32 ها03.

2- ينظر: التقرير، رقم: 16 e.a، موضوعه: قائمة الأهالي ممّن قد يتوجّب اتّخاذ إجراءات ضدّهم في حال وقوع أزمة، 4I87، (CAOM)، وثيقة من 04 صفحات.

الباب الأوّل:

فترة التكوين 1908ـ 1931

الفصل الأوّل: نسبه ونشأته الأولى

نســـبـــه:

هو زكري بن سليمان بن يحي بن الشيخ الحاج سليمان بن عيسى بن سليمان بن الحاج بن باسعيد.

أمّا نسبه إلى جدّه الرابع سليمان فهو مشهور، تشهد له العقود الكثيرة التي كتبها الشيخ الحاج سليمان، والتي ينهيها غالبا، على هذا النحو: «وبما ذُكر شهد الكاتب لأحد عشر يوما من شوّال، بعد أيّام عام 1255هـــ، [1839/12/18م]، سليمان بن عيسى بن سليمان»[1].

أمّا نسبه إلى جدّه السادس باسعيد، فهو ما أثبته عقد من عقود الأحكام، بمحكمة بني يزقن، تناول خصومة بين معتَق عيسى بن سليمان، والحاج عبد الله بن الحاج سليمان، فلبيان العلاقة بين المتخاصمين، جاء في العقد ما يلي: «علي معتَق عيسى بن سليمان بن الحاج، وخصمه ولد ابن معتِقه الحاج عبد الله بن الحاج سليمان بن عيسى، كلاهما من بني يسقن، ومن عشيرة أولاد عدون بن عيسى، حرفتهما التجارة والفلاحة»[2]؛ وفي تعيين المدّعى عليه كتب ما يلي: «المدّعى عليه: الحاج عبد اللّه بن الحاج سليمان بن عيسى [بن سليمان] بن الحاج بن أبي سعيد»[3].

وعائلة مفدي –كما مرّ آنفا في عقد محكمة بني يزقن– تنتمي إلى عشيرة عدون بن عيسى، من عرش أولاد اعنان[4]؛ وتقرّر في 1890/12/24 تقسيم عشيرة أولاد عدون بن عيسى إلى عشيرتين: أولاد حاج الناصر، وأولاد الحاج زكري[5]؛ ثمّ أدرجت العشيرتان الجديدتان وأولاد باحمان في عشيرة واحدة باسم هذه الأخيرة، أي أولاد باحمان، واختفى بذلك اسم أولاد عدون بن عيسى؛ فعائلة مفدي تنتمي اليوم إلى أولاد حاج الناصر، من عشيرة أولاد بحمان، من عرش أولاد اعنان.

ويغلب على ظنّي أن يكون عدون بن عيسى أحد أجداد هذه العائلة، فمن عادة أهل يسجن تسمية الأبناء بأسماء الآباء والأجداد، والاسم الأمازيغي عدون، ومقابله العربيّ سعيد، وعيسى هي أسماء متكررة في شجرة عائلة مفدي بشكل لافت للنظر.

كان لقب العائلة هو مزقودة في الغالب أو بزقودة في القليل النادر[6]؛ ولا نجد في اللغة العربيّة أصلا لمادة زقد

1- سجّل العقود 07، عقد: 131، 1305/04/21هـــ، 1888/01/05م، أرشيف قضاة بني يزقن، ص29؛ وهو نقل رسم قديم.

2- سجلّ الأحكام 02، عقد: 61، 1311/08/25هـــ، 1894/03/04م، أرشيف القضاة، ص79.

3- أبو سعيد هو تعريب لـــ: باسعيد، وسقط بن سليمان من نسبه، وزدته بدليل ما جاء في الاقتباس السابق، وهو مشهور.

4- ينظر على سبيل المثال: سجلاّ جريدة البزرة، 1884، و1888، أرشيف قيّاد بني يزقن.

5- ينظر: سجلّ البريد الصادر 1889–1890، المراسلة رقم 236، 1890/12/24، أرشيف القيّاد؛ وتتضمّن تحديد رؤساء عشائر أولاد اعنان الاثنا عشر، بعد أن كان عددها قبل هذا التاريخ خمس عشائر.

6- واستبدال الميم بالباء أو العكس شائع في الأمازيغيّة المزابيّة.

أو بزقد أو مزقد[1]، وهو ما يدلّ على أنّ هذا اللقب أمازيغيّ صميم، وهو في اللغة الأمازيغية المزابيّة ممّا بقي لفظه، ونُسي معناه.

وقد ارتبط هذا اللقب -على الأرجح- بسليمان بن الحاج بن باسعيد، ودلّت على ذلك أملاكه في غابة بني يزقن، فعدّة مواضع تعرف باسم غابة بزڤودة، أو مزڤودة، أشهرها الأرض الواقعة شرق برج العرش، بناحية انتيسة، من أجنّة بني يزقن، فقد ورد في أحد العقود ما يلي: «فناب لبكير [بن سليمان بن عيسى بن سليمان بن الحاج بن باسعيد] في غابة عمّنا الحاج سليمان بن الحاج بن باسعيد، المشهورة بالبرج، بانتيسة...إلخ»[2]، وهي معروفة إلى تاريخ اليوم بهذا الاسم[3]. وورث اللقب من بعده أبناؤه: موسى[4]، والحاج، وعيسى، فورد في أحد العقود ذكر غابة عمّنا عيسى بن سليمان مزڤودة التي فيها البرج[5]، وفي جريدة البزرة لسنة 1884 سجّلت حفيدة الحاج، وهي لالة، على النحو التالي: «بنت بافو[وهو يوسف] بن الحاج بزڤودة»[6]؛ وذكر في جريدة ناس بني يزقن لسنة 1895 حفيدي موسى وعيسى، وهما محمد بن عدون [بن باسعيد بن موسى]، وسليمان بن يحي [بن الشيخ الحاج سليمان بن عيسى] مقرونين بلقب مزڤودة[7]، وهو ما لم يتكرّر بالنسبة لأبناء وأحفاد الشيخ الحاج سليمان لغلبة لقب الشيخ عليهم[8]، وكذا بالنسبة لأبناء وأحفاد موسى بن سليمان بن الحاج.

بقي هذا اللقب معتمدا لدى أبناء وحفدة سليمان بن عيسى بن سليمان، وبنات الحاج سعيد بن عيسى بن سليمان، فنجد في سجلّ التركات لمحكمة بني يزقن: تركة مزڤودة بهون (أو إبراهيم) بن سليمان بن عيسى سنة 1924[9]، وتركة ابنة عمّه مزڤودة زليخاء بنت الحاج سعيد بن عيسى سنة 1931[10]. وعندما رسّمت الإدارة

1- ينظر: لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظرو الإفريقيّ المصريّ ت711هـ، دار صادر، بيروت-لبنان، ط2، د.ت.ن، باب الدال، وفصول الباء والزاي والميم، ج3 ص 77-99، و192-200، و394-413.

2- سجلّ العقود 21، عقد: 356، 1313/12/17هـ، 1896/05/30م، أرشيف القضاة، ص107، 108.

3- ذكر في مواضع عديدة: «غابة الحاج بن سليمان بزڤودة»، فقدّم الحاج على سليمان، والعكس هو الصحيح في تقديرنا، ولعلّه التباس مع اسم ابنه، الحاج بن سليمان بن الحاج بن باسعيد، لقرب عهده؛ ينظر على سبيل المثال: سجل العقود 02، عقد: 127، 1301/06/29هـ، 1884/04/26م، أرشيف القضاة، ص34.

4- وإذا كانت الشواهد والأدلّة متضافرة في نسبة الحاج وعيسى إلى سليمان بن الحاج، فإنّ نسبة موسى إليه لم تثبت إلاّ من عقد واحد ووحيد، مؤرّخ في ذي القعدة 1235هـ، [أوت/سبتمبر 1820م]، جاء فيه ما يلي: «الحمد لله وحده. وقد شهد كاتبه سعيد بن أيوب، **وبسعيد بن موسى بن سليمان بن الحاج** [...]» دفتر عقود خاصّ، مكتبة آل يدر ببني يزقن.

5- ينظر: سجل العقود 21، عقد: 567، 1314/02/24هـ، 1896/08/05م، أرشيف القضاة، ص170.

6- سجلّ جريدة البزرة، 1884، أرشيف القيّاد.

7- ينظر: سجّل جريدة ناس بني يزقن، 1895، أرشيف القيّاد؛ وتمّ الاستدلال على تاريخ الإحصاء ممّا ورد بعده في ذات السجل.

8- نجد على سبيل المثال جدّ مفدي ينسب كالآتي: «يحي بن شيخ» سجلّ جريدة البزرة، 1888، أرشيف القيّاد.

9- ينظر: سجلّ التركات 16، تركة: 67، 1343/01/26هـ، 1924/07/28م، أرشيف القضاة، ص135.

10- ينظر: سجلّ التركات 21، تركة: 14، 1350/01/30هـ، 1931/06/17م، أرشيف القضاة، ص67.

الفرنسية استعمال الألقاب في بني يزقن سنة 1932[1]، نسخ لقب الشيخ لقب مزقودة، وعليه سجّل اسم ابنة أخ بهون السابق ذكره عند قاضي بني يزقن سنة 1949 عند بيان تركتها على النحو الآتي: الشيخ نانة بنت بكير بن سليمان بن عيسى[2].

وهكذا اختار الفرع الذي ينتسب إليه مفدي لقب الشيخ أو بن الشيخ، في سنة 1932، والمعنيّ به الشيخ الحاج سليمان بن عيسى بن سليمان، وهذا الفرع يمثّله أبناء وحفدة كلّ من الشيخ الحاج سليمان، وأخويه الحاج سعيد وسليمان؛ بينما اختار الفرع الذي ينتسب إليه باسعيد عدون بن بكير بن عدون بن باسعيد بن موسى لقب جدّهم "باسعيد"[3].

كان أسلاف مفدي –فيما يبدو– مشتغلين بالفلاحة، فقد حفر أولاد عدون بن عيسى خمسة آبار مشهورة إلى تاريخ اليوم بـــ"القبليات"؛ ففي عقد يرجع إلى صفر من سنة 1190هـــ، [مارس/أفريل 1776م] حديث عن الخطّارات الخمسة "القبليات" المنسوبات لأولاد عدون بن عيسى، في ناحية الشعبة، من أجنّة بني يزقن[4]، وهي آبار غزيرة الماء، في أرض فلاحية خصبة، متميزة بعذوبة مياهها، ولذاك كانت وما تزال أكثر أجنّة بني يزقن عمرانا صيفا.

وجدّ مفدي الرابع بزقودة أو مزقودة سليمان بن الحاج بن باسعيد، خلّف عدّة غابات حملت اسمه، فنجد في إحصاء أملاك بن يزقن المنجز في 1888/03/10، في القسم الخاصّ بإحصاء نخيلهم في الأجنّة: غابة المسمّى بزڨودة في الضاية، غابة المسمّى يخرازن مزڨودة، وغابة المسمّى بزڨودة، وغابة المسمّى بزقودة مرّة ثانية، وغابة المسمّى مزڨودة[5]، والمقصود بها بساتين مختلفة تضمّ عددا من النخيل، في أجنّة بني يزقن؛ انتقل إليه بعضها بالميراث من أبيه وجدّه؛ وتملّك بعضها الآخر –فيما نرجّحه– باستصلاحها وزرع النخيل فيها، على النظام المعتمد في استصلاح الأراضي في ذلك العهد، فاشتهرت باسمه، وتأتي في مقدّمتها غابته المشهورة بناحية انتيسة، شرق برج العرش.

لقد كانت لهذه العائلة بفرعيها مركزها ومكانتها في بني يزقن، لا لغنى وفير، وإنّما للدور الاجتماعيّ الذي اضطلع به رجالها، فلقد كان لهم حضورهم في الساحة الاجتماعيّة، فلمّا استنجد عرش بني يزقن بأبنائه لدفع "اللزمة" المفروضة من الاستعمار الفرنسيّ في الأجل المحدّد لها، كان خمسة من رجال هذه العائلة ضمن قائمة من 108 رجال، جمع منهم المبلغ المطلوب على سبيل السلف، وكان ذلك في أواخر جمادى الأوّل سنة 1277هـــ،

1- فمن كان له لقب قديم وظّفه، ومن لم يكن له لقب اختار لقبا في الغالب من أسماء أحد الأجداد المتقدّمين.

2- ينظر: سجل التركات43، تركة: 24، [07]/1369/01هـــ، 1949/10/29م، أرشيف القضاة، ص119.

3- ينظر: شجرة نسب عائلتي مفدي وباسعيد عدون، الملحق591. هذه الشجرة أنجزها من خلال وثائق عديدة ومتعدّدة، لا يتّسع المقام لتوثيق ما ورد فيها بالتفصيل، واكتفيت بإثبات أهمّ ما جاء فيها على سبيل الإشارة والتلميح.

4- ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الاستقامة ببني يزقن، وكاتب العقد عيسى بن محمد بن أحمد بن صالح.

5- ينظر: سجلّ جريدة أملاك بني يزقن، 1888، أرشيف القيّاد.

الموافق لــ 13 ديسمبر 1860م[1].

وممّا يدلّ على هذا المركز والمكانة مصاهرتهم لكبريات عائلات بني يزقن، من ذلك مصاهرة خمسة من أبنائها[2]، من جيل واحد، عائلة عريقة في بني يزقن، هي آل فرطاس من أولاد باسة بن صالح، عرش أولاد يدر، ومن عائلة أحد مشايخ وكبار أعيان بني يزقن في عهده، وهو الحاج محمد بن يوسف بن داود[3].

وقد ثبت كذلك أنّ الشيخ الحاج سليمان بن عيسى خال للشيخ الحاج امحمد بن عيسى ازبار، آخر مشايخ بني يزقن[4]، ففي رسالة موجّهة إلى الشيخ بَابَ بن يونس[5]، تحدّث الشيخ ازبار عن الشيخ الحاج سليمان قائلا: «خالنا الحاج سليمان بن عيسى»[6]، وفي تعداد الشيخ ازبار لمشايخ مسجد بني يزقن جاء فيه ما يلي: «خالنا الحاج سليمان»[7]؛ ثمّ عثرت في مكتبة الشيخ ازبار على أوراق من سجّل يضمّ عقود عائلته، كتب أغلبها الشيخ الحاج سليمان، فتبيّن لي من عقد من أقدم ما عثرت عليه من عقوده، مؤرّخ في أواخر شهر مارس [1817م]، [أواسط

1- وهم: عدون بن باسعيد بن موسى 50 دور، والحاج سعيد بن عيسى بن سليمان 30 دور، وسليمان بن عيسى بن سليمان 20 دور، والحاج عبد الله بن الشيخ الحاج سليمان 20 دور، بالإضافة إلى الشيخ الحاج سليمان بن عيسى بن سليمان على الأرجح، ضمن جملة العزابة الذين دفعوا 213 دور، وقد كان ما دفعوه مجتمعين زهيدا، بالنظر إلى المبلغ الإجماليّ 6125 دور ريالة، ومقارنة بـــ 400 دور التي دفعها الحاج عيسى بن سليمان لوحده، وهو أحد أثرياء بني يزقن لذلك العهد فيما يبدو؛ ينظر: دفتر اللزمة، 1277هـــ، [1861/1860م]، أرشيف القيّاد.

2- تزوّج عدون وأخوه موسى ابني باسعيد بخيل ومامة بنتي الحاج عمر بن الشيخ الحاج محمد بن يوسف بن داود؛ ينظر: سجل التركات02، تركة: 04، و25؛ 1307/09/15هـــ، 1890/05/05م، و1308/02/16هـــ، 1890/10/01م؛ أرشيف القضاة، ص02، و18، 19. وتزوّج يوسف بن الحاج بن سليمان وابن عمّه سليمان بن عيسى بن عيسى بن سليمان بخيل ولالة بنتي صالح بن الشيخ الحاج محمد؛ ينظر: سجل التركات08، تركة: 48، 1331/08/07هـــ، 1913/07/12م، الأرشيف نفسه، ص98-101؛ وسجلّ العقود12، رقم: 415، 1308/05/04هـــ، 1890/12/17م، الأرشيف نفسه، ص114. وتزوّج الحاج سعيد بن عيسى بن سليمان لالة عمّي بنت يوسف بن الشيخ الحاج محمد؛ ينظر: سجلّ العقود04، رقم: 342، 1303/01/01هـــ، 1885/10/10م، الأرشيف نفسه، ص82.

3- شخصية ما زالت مغمورة، كان معاصرا للشيخ عبد العزيز الثمينيّ ت 1223هـــ، وتوفي بعده.

4- الحاج امحمد أو محمد بن عيسى بن أيوب بن عبد الله بن سعيد بن عيسى بن بابا عمّي، عشيرة أولاد خالد، عرش أولاد اعنان، تقلّد مشيخة مسجد بني يزقن بعد الشيخ الحاج سليمان بن عيسى، وتوفي يوم [1307/10/15هـــ]، 1890/06/04م؛ ينظر تاريخ وفاته: سجلّ البريد الصادر 1889-1890، المراسلة رقم: 116، 1890/06/04، أرشيف القيّاد؛ والمراسلة رقم: 104، 1890/05/22، الأرشيف نفسه، التي تحدّد تاريخ عيد الفطر لتلك السنة.

5- شيخ حلقة العزابة بمسجد غرداية، كان معاصرا للشيخ الحاج سليمان بن عيسى، توفي في أواسط ذي الحجة 1280هـــ، أواسط ماي 1864م؛ ينظر: وثيقة فيها تعداد لمشايخ غرداية وتواريخ وفياهم، كرّاس مخطوط يتضمّن بعض تواريخ وادي مزاب، مكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز ببني يزقن.

6- بعث بها من مكّة المكرّمة، في أواسط ذي الحجة من سنة 1266هـــ، [النصف الثاني من أكتوبر 1850م]؛ ينظر: أرشيف الشيخ باب بن يونس، جمعية أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث، بغرداية.

7- وثيقة منقولة من خطّ الشيخ ازبار، يعدّد فيها مشايخ مسجد بني يزقن، منذ الشيخ الحاج محمد بن سعيد إلى امحمد بن عيسى، ويعني بهذا الأخير نفسَه، كرّاس مخطوط يتضمّن بعض تواريخ وادي مزاب.

جمادى الأوّل] سنة 1232هـ، أنّ والدة الشيخ ازبار هي لالة بنت عيسى بن سليمان أخت الشيخ الحاج سليمان بن عيسى[1]؛ وكانت من أعضاء هيئة "تمسردين"[2]، يشهد لذلك عقد كتبه الشيخ الحاج سليمان نفسه بتاريخ أواخر صفر 1255هـ،[أواسط ماي 1839م]، فقد ذكر فيه من بين الشهود على العقد: «لالة بنت عيسى بن سليمان، ورفيقتها يمة بنت عمر الغسّالتين»[3].

وقد تدعّم مركز هذه العائلة ومكانتها بفضل شخصيتين بارزتين متعاصرتين، هما: الشيخ الحاج سليمان بن عيسى بن سليمان لدوره الدينيّ، فقد تقلّد مشيخة مسجد بني يزقن، وعدون بن باسعيد بن موسى لدوره السياسيّ الخطير قبيل وصول الاستعمار الفرنسيّ إلى مدينة الأغواط وبعده إلى وفاته.

أمّا عدون بن باسعيد بن موسى، فتحدّثت عنه دراسة فرنسيّة، مؤرّخة في 1879/06/04، جاء فيها: «عدون بن باسعيد هي الشخصية الأكثر أهمية بوادي مزاب، يوجّه قرارات مجلس بني يزقن الوجهة التي يرتضيها بالرغم من رئاسة الحاج يوسف بن محمد للمجلس، وهو من الصفّ الغربيّ»[4]، وكان في المجلس مقدّم عرش أولاد اعنان[5].

وهو ممّن أسهم في عقد المعاهدة التاريخيّة مع فرنسا في 22 أفريل 1853، وكان مرافقا للوفد الذي سافر إلى الأغواط ليتمّ عقدها مع حاكم الأغواط دي باراي (Du Barail)، وله مراسلات عديدة مع قادتها، خاصة الجنرال يوسف بالمدية؛ ففي رسالة جماعة بني يزقن، إلى حاكم الأغواط دي باراي (Du Barail)، تاريخها تقديرا هو النصف الأوّل من شهر مارس 1853، جاء فيها ما ترجمته: «كلّ مصالحنا هي بين يدي الأمين عدون بن باسعيد، سيقدّم لكم معلومات موثوقة، ويمثّلنا تمثيلا كلّيا، ونقبل منه كلّ ما يفعله معكم»[6]؛ وهو ما يدلّ على أنّه كان القائد غير الرسميّ لبني يزقن قبل إلحاقها بفرنسا، قبل أن يأفل نجمه تدريجيا إزاء نجم الحاج يوسف بن محمد بن موسى

1- ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الشيخ ازبار ببني يزقن.

2- تقابل هيئة "العزّابة" في المجتمع النسويّ بوادي مزاب، وترجمتها الحرفية إلى العربيّة، هي: الغسّالات، لأنّ من وظائفهنّ غسل الأموات من النساء.

3- ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل افضل ببني يزقن، ص28.

4- ينظر: الصفوف بناحية الأغواط(Soffs du cercle de Laghouat)، بإمضاء: كوين(Coyne)، 22h12، (CAOM)، وثيقة من 34 صفحة، ص27.

5- ينظر: رسالة جماعة بني يزقن إلى الحاكم الأعلى بالأغواط، مترجمة من خطّ عيسى بن الحاج سعيد بن أيوب، 1295/04/21هـ، 1878/04/24م، ردّا على رسالة كتبت بأمر الوالي العام، 1295/04/13هـ، 1878/04/16م، 22h12، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات.

6- ينظر: رسالة دي باراي (Du Barail) إلى الوالي العامّ، رقم: 135، 1853/03/17، موضوعها: أهالي وادي مزاب يرفضون "القادة" (La Gada)، 22h12، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات؛ أرفقت بها ثلاث رسائل، منها رسالة جماعة بني يزقن المذكورة، مترجمة، وغير مؤرّخة، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01، 02. وفي عقد مؤرّخ في 1267/12/16هـ، [1851/10/12م]، وصفه فيه كاتبه داد عدون بن زكرياء، عند ذكره ضمن الشهود على العقد: «أمين الوقت» دفتر عقود خاصّ، مكتبة آل يدر.

السرّار[1]، الذي تعيّن رسميّا قائدا لبني يزقن بتاريخ 1882/11/23[2]، بعد مفاوضات لعدّة أيّام، انتهت بانتخاب الحاج يوسف بالأغلبية إزاء منافسيه عدون بن باسعيد مقدّم أولاد اعنان، والحاج أحمد بن موسى مقدّم أولاد يدر[3]، ولعلّ في تقدّم عدّون بن باسعيد في السنّ، وتحالف عرشي آل موسى وآل يدر ما يفسّر هذه النتيجة.

وتوفي قبل تاريخ 1302/05/10هـــ، 1885/02/25م، وهو تاريخ تسجيل وفاته لدى قاضي بني يزقن[4].

جدّه الشيخ الحاج سليمان بن عيسى:

أمّا الشيخ الحاج سليمان بن عيسى بن سليمان[5]، وهو الجدّ الثاني لمفدي زكرياء فقد ولد –على الأرجح– في أوائل العقد الأخير من القرن الثاني عشر الهجريّ، بما يوافق أواخر العقد الثامن من القرن الثامن عشر، وذلك لاعتبارت نذكر منها:

– أوّل مرّة ظهر فيها اسمه: الحاج بن عيسى بن سليمان –فيما اطّلعت عليه من وثائق عصره– كان في عقد كتبه أستاذه الشيخ يوسف بن حمو[6]، بتاريخ 1213/09/16هـــ، [1799/02/21م] كان فيه شاهدا[7]، ولعلّها الفترة التي لازمه فيها للدراسة، ويكون ذلك –على الأرجح– في أواخر العقد الثاني من عمره[8].

1– هو الحاج يوسف بن محمد بن موسى بن أبي أحمد بن أيوب بن الشيخ الحاج نوح، عشيرة أولاد وينتن، عرش أولاد موسى؛ ينظر: سجل العقود05، عقد: 331، 1303/10/21هـــ، 1886/07/23م، أرشيف القضاة، ص50.

2– كانت وفاته يوم 1897/05/07، عن عمر يناهز الثانية والسبعين سنة، ومولده «في بني يزقن، كموته فيها، وكان في حياته تاجرا ذا أملاك في بلده، وفي ورقلة، وفي مدن التلّ؛ شهرته تغني»؛ ينظر: سجلّ العقود 23، عقد: 291، 1315/03/11هـــ، 1897/08/11م، أرشيف القضاة، ص93.

3– ينظر: رسالة الجنرال دو لا تور دوفارن (De La Tour d'Auvergne)، قائد الحملة على وادي مزاب لإلحاقها بفرنسا سنة 1882، إلى وصايته بالجزائر، رقم: 20، 1882/11/23، موضوعها: إرسال بيان القادة المختارين في وادي مزاب، 22h12، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص03.

4– ينظر: سجل التركات01، تركة: 74، 1302/05/10هـــ، 1885/02/25م، أرشيف القضاة، ص45.

5– المعلومات حول هذه الشخصية التاريخيّة قليلة، تعتمد في الأغلب على الرواية الشفهيّة، وقد حاولت تحقيقها من الوثائق المتوفّرة لدي، وفي مقدّمتها ما يزيد على 140 عقدا بخطّ الشيخ، بالإضافة إلى عدّة عقود كان طرفا فيها، أو شاهدا عليها. أمّا ترجمته فتنظر في: تقييدات تاريخيّة للشيخ الحاج محمد بن يوسف ببانو، مخطوط، مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي، بني يزقن، ص5، 6؛ وملحق السير، للشيخ أبي اليقظان الحاج إبراهيم بن عيسى، نسخة مصوّرة من المخطوط، مكتبة الاستقامة، بني يزقن، ج01، ص 94،95؛ وتاريخ بني مزاب141؛ ومعجم أعلام الإباضية03: 433، 434.

6– هو الشيخ الحاج يوسف بن حمو بن عدون بن يوسف بن قاسم بن اعمر بن موسى بن علي بن اعمر بن موسى بن يدر، عشيرة أولاد قاسم بن اعمر، عرش أولاد يدر، 1158هـــ–1252هـــ؛ تنظر ترجمته: معجم أعلام الإباضية 04: 1019–1021؛ وتاريخ بني مزاب111، 112.

7– ينظر: دفتر عقود خاص، أرشيف القضاة.

8– ونجد نظيرا لذلك في شهادة حمو بن يوسف بن حمو بن عدون على عقد بخطّ والده، مؤرّخ في 1220/04/02هـــ، [1805/06/29م]، وعمره آنذاك 19 سنة، باعتبار ميلاده سنة 1201هـــ؛ ينظر العقد: دفتر عقود خاص، أرشيف القضاة؛ وينظر ميلاده: الرسالة الشافية، للشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش، مخطوط رقم: أ.ث.3، مكتبة القطب، بني يزقن، ص399.

- وأوّل عقد كتبه، ويدلّ على امتلاكه جواز التوثيق بين الناس في العقود وسائر المعاملات[1]، يرجع إلى أواخر شهر مارس [1817م، أواسط جمادى الأوّل] 1232هـ[2]، وهذا العقد يبرزه كاتبا مبتدئا في هذه الوظيفة، وهي مهمة لا تسند إلاّ لمن استوثق من رشده وعلمه، في حدود الثلاثين من عمره، أو تجاوزها بقليل.

- أمّا أوّل إشارة إلى عضويته في هيئة العزابة نجدها في عقدين، كتبهما الحاج بن أيوب، الأوّل مؤرّخ في أوائل رمضان 1237هـ، [أواخر ماي 1822م]، ذكر فيه: «الفاضل الحاج بن عيسى»، والثاني في أوائل ربيع الثاني 1238هـ، [أواسط ديسمبر 1822م]، وفيه: «الفاضل الحاج بن عيسى بن سليمان بن الحاج»، ووصف "الفاضل" في عقود تلك الفترة لا يطلق إلاّ على من كان عضوا في حلقة العزابة، وكان الشيخ في العقدين واسطة في معاملة تجاريّة خاصّة بزوج أخته لالة، وهذا كلّه يعضد ما قدّرناه من سنّه سنة 1817.

لم تذكر المصادر من شيوخه سوى الشيخ الحاج يوسف بن حمو بن عدون[3]، ولا يستبعد أن يكون قد درس أيضا على يد الشيخ الحاج إبراهيم بن بحمان ت 1232هـ[4].

ولقد كشفت العقود المتوفّرة بين أيدينا على علاقة خاصّة بعضوين من حلقة العزّابة أوّلهما: عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب[5]، ويشير عقد نقله الشيخ الحاج سليمان بتاريخ أوائل صفر 1263هـ،[أواسط جانفي 1847م] إلى أنّه كان إماما بمسجد بني يزقن في هذا التاريخ[6]. وأوّل عقد يكشف عن هذه العلاقة عقد مؤرّخ في

1- نقرأ في اتّفاق لمجلس وادي مزاب، المنعقد في مقام عمّنا سعيد بن علي الجربيّ، ما يلي: «[...] إنّ الكتابة لا تصحّ من كاتب غير مأمور من بلاده. وعلى بلاده إن اتّفقوا على كاتب، فعليهم أن يعلموا بأمور دينه ودنياه، وفصاحة لسانه؛ وبيانُ كتابته تعرض[كذا] على العلماء، فإن رضوا بها فعلى أهل بلاده أن ينبّهوا بتجويز[كذا] كتابته في بلاده وغير بلاده [...]، واتّفق المجلس على من قدح في كتابة المأمور بها، فعلى أهل المسجد أن يتبرؤوا من القادح، و[على] جماعة حكم البلاد أن يعاقبوه. انتهى على يد كاتبه عمر بن صالح، في أواسط شعبان سنة 1156هـ، [أوائل أكتوبر 1743هـ]» كراس مخطوط يضمّ أحداثا واتّفاقات خاصّة بوادي مزاب، لمؤلّف مجهول، مكتبة الاستقامة، ص46.

2- ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الشيخ ازبار.

3- في رسالة غير مؤرّخة إلى الشيخ أبي اليقظان الحاج إبراهيم بن الحاج عيسى، وهو بصدد تأليف كتابه "ملحق السير"، من المشايخ: بابانو محمد بن الحاج يوسف بن داود، ويوسف بن بكير، وعبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، في موضوع أخبار وسير أشياخ بني يزقن، ذكر في الترجمة رقم 15 ترجمة الشيخ الحاج يوسف بن حمو بن عدون، ومنها: «وأخذ العلم عنه كثيرون، منهم: الشيخ بالحاج القراري، والشيخ الحاج سليمان، والشيخ الحاج سعيد بن يوسف»؛ ينظر: كراس رقم 01، من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، مكتبة الأخ الحاج سعيد باحمد بغرداية.

4- تنظر ترجمته: تاريخ بني مزاب110؛ ومعجم أعلام الإباضية2: 22-24.

5- هو عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن يوسف بن موسى بن افضل بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الحجازيّ، عشيرة أولاد افضل، عرش أولاد اعنان، وهذا النسب سجّله في خاتمة نسخه لكتاب شرح لامية الأفعال، لمحمد التواتي، بتاريخ أوائل جمادى الأوّل 1232هـ/ [أواسط مارس 1817م]؛ ينظر: المخطوط رقم: خ م 21، مكتبة آل افضل، بني يزقن.

6- ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل فضل، ص25.

أوائل ذي الحجة 1235هـــ، [أوائل سبتمبر 1820م][1]، وتمتدّ هذه العلاقة إلى العقد الذي كتبه، في أواخر ذي القعدة 1268هـــ،[أواسط سبتمبر 1852م][2]، بعيد وفاة الفاضل عمر بن موسى، في 1268/09/13هـــ، [1852/07/01م][3]، تحدّث فيه عن التدابير التي اتّخذها ابناه محمد وموسى وأمّهما بعد وفاته؛ ثمّ لم يكتب لأحد أبنائه من بعده سوى عقد واحد غير هذا، وهو خير شاهد على أنّ العلاقة التي جمعتهما كانت علاقة زمالة في حلقة العزابة، لفارق السنّ نسبيّا بينهما[4]، ونظرا للاحترام الذي يظهره في حديثه عنه؛ وعليه فلا يستبعد كون الشيخ الحاج سليمان عضوا في الحلقة حين كتابته للعقد الأوّل.

وثانيهما: الحاج بن أيوب[5]، فقد جمعتهما عقود كثيرة كتب بعضها هو، وكتب الحاج سليمان بعضها الآخر. إنّ كثرة العقود الجامعة بينهما، وذكر أبنائهما فيها كشهود أو كأطراف في المعاملات، كلّ ذلك يدلّ على أنّ العلاقة لم تكن بسبب الزمالة في الوظيف، والتقارب في السنّ نسبيّا فحسب[6]، وإنّما كانت فضلا عن ذلك علاقة قرابة بين العائلتين، غير أنّ الوثائق المتوفّرة لم تسعفنا في تحديدها.

في الترجمة رقم 16 من التراجم التي أرسلها بعض مشايخ بني يزقن إلى الشيخ أبي اليقظان عندما كان بصدد جمع مادة كتابه "ملحق السير"، وهي خاصّة بالشيخ الحاج سليمان، جاء فيها: «كان مدرّسا في المسجد»[7]، ويبدو أنّ هذه الوظيفة هي أوّل وظيفة شغلها في هيئة العزابة، وهي تفسّر صغر سنّه النسبيّ عند التحاقه بها؛ ويؤكّد هذه الوظيفة ما ذكره الشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش في مقدّمة كتابه "ترتيب لقط موسى بن عامر"، حيث يقول: «إنّ داعيا دعاني ممّن حفّظني ووعّاني، هو الشيخ الحاج سليمان إلى ترتيب لقط العلامة موسى نجل الحبر عامر»[8]، ذلك أنّ التعليم كان يعتمد حينها في مراحله الأولى على الحفظ والتلقين.

1- ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 190، مكتبة آل فضل، 04و.

2- ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل فضل، ص72.

3- تاريخ الوفاة ذكره ابنه محمد بن عمر بن موسى في تقييد موجود بخزانته، بمكتبة آل فضل، رواية عن الأخ الكريم يحي بن عيسى بوراس؛ وينظر: معجم أعلام الإباضية3: 653.

4- عيّن عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب سنة دخوله في حلقة العزابة بسنة 1232هـــ، [1817/1816م]، في تقييد بخطّه موجود في خزانته بمكتبة آل فضل، رواية عن الأخ الكريم يحي بن عيسى بوراس؛ وينظر: معجم أعلام الإباضيّة3: 653.

5- هو الحاج يحي بن أيوب بن الحاج يحي بن أحمد، جدّ عائلة آل شواش، ببني يزقن، عشيرة أولاد خالد، عرش أولاد اعنان، وتدلّ العقود القديمة التي اطّلعنا عليها أنّه كان عضوا في حلقة عزابة بني يزقن، وأنّه كان كوالده وجدّه من كتبة العقود.

6- أوّل عقد عثرنا عليه بخطّ الحاج بن أيوب، يرجع إلى سنة 1223هـــ، [1809/1808م]، ويظهر فيه كاتبا مبتدئا؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الشيخ ازبار. وبسبب تقدّمه في السنّ، من الممكن جدّا أن يكون سابقا للحاج سليمان في الالتحاق بهيئة العزابة، وإن لم نجد أثرا لعضويته في الحلقة إلاّ في عقد بخطّ إبراهيم بن الحاج بابكر، مؤرّخ في أواخر ذي القعدة 1247هـــ، [أوائل ماي 1832م]؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، أرشيف آل عيسات.

7- تنظر الرسالة: كراس رقم 01، من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف.

8- ترتيب لقط موسى بن عامر، للشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش، مخطوط رقم: م052، مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي، ببني يزقن، ص2.

وتذكر المصادر من تلاميذه: «عمر بن سليمان نوح، والشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبار، والقطب اطفيش»[1]؛ وزيد على هؤلاء الشيخ الحاج سعيد بن بافو (يوسف)[2].

وممّا يستوقفنا في العقود التي كتبها الحاج سليمان أو تحدّثت عنه هو تغيّر اسمه فيها، فقد كان يمضي عقوده، ويُذكر اسمه عند غيره من الكتّاب: الحاج بن عيسى، وذلك منذ أوّل عقد ظهر فيه اسمه شاهدا سنة 1213هـ[3]، وأوّل عقد كتبه بخطّه في فيفري من سنة [1817م، ربيع الأوّل/ربيع الثاني] 1232هـ[4]، إلى العقد الذي ذكر فيه شاهدا، ورقمه الحاج بن أيوب في أوائل ربيع الثاني 1250هـ، [أوائل أوت 1834م][5]؛ ثمّ كانت هناك فترة انقطاع لم يظهر فيها أثر للشيخ في العقود، إن كاتبا أو طرفا في معاملة أو شاهدا عليها، وامتدّت إلى العقد الذي كتبه في 1252/02/01هـ، [1836/05/17م][6]، وبداية من هذا التاريخ أصبح اسمه في العقود: سليمان بن عيسى، والحاج سليمان إن كان العقد لغيره.

إنّ خطّ الكتابة في الحالتين هو نفس الخطّ، وزادنا تيقّنا وتأكّدا من أنّ الشخصية هي نفسها عقدان لنفس الكاتب، جاء في مفتتح الأوّل: « وقد وجد بخطّ الفاضل الحاج سليمان بن عيسى ما نصّه بعد الحمدلة»، وفي ختامه: «وعلى إثرهم الكاتب لأواخر توبر[7][1822م]، [أواسط صفر] من سنة 1238هـ، الحاج بن عيسى بن سليمان. انتهى. وناقله كما وجد عمر بن الحاج سعيد»[8].

أمّا الانقطاع الذي امتدّ لما يزيد عن سنة ونصف[9]، وكان أطول فترة اختفى فيها أثره كلّية في العقود،

وورد في "فوائد تاريخيّة مرويّة عن الشيخ يوسف بن بكير"، أحد تلامذة القطب اطفيش البارزين، ما يلي: «وقال الشيخ يوسف أيضا: ذكر القطب الشيخ اطفيش رحمه الله في اللقط ما نصّه: طلبني الذي أوعاني علمه. قال الشيخ يوسف: أراد القطب به الشيخ الحاج سليمان» كراس رقم 04، من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، مكتبة الأخ الحاج سعيد باحمد بغرداية.

1- تاريخ بني مزاب141؛ وينظر: معجم أعلام الإباضية3: 434.

2- ينظر: رسالة مشايخ بني يزقن إلى الشيخ أبي اليقظان، كراس رقم 01، من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف.

3- ينظر: ص42.

4- ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الشيخ ازبار.

5- ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل فضل، ص24.

6- ينظر: دفتر عقود خاصّ، أرشيف القضاة.

7- يعني: شهر أكتوبر.

8- ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل فضل، ص42؛ والثاني جاء في ص44 منه، وورد في أوّله: «وبخطّ الحاج سليمان بن عيسى»، وفي ختامه: «وبذلك شهد الكاتب، لأواسط جمادى الثاني، بل في عشرين منه سنة 1238هـ، [1823/03/04م]، الحاج بن عيسى بن سليمان، وعمر بن بحمد بن عيسى. انتهى، وناقله عمر بن الحاج سعيد». والكاتب هو عمر بن الحاج سعيد بن حمو بن عدون، وهو ابن أخ الشيخ الحاج يوسف بن حمو بن عدون، وقد سبق تعريفه، وهو من كتّاب العقود المكثرين، وهو من أقران الكاتب الحاج يحي بن أيوب بن الحاج يحي بن أحمد، وكان بالضرورة معاصرا للشيخ الحاج سليمان، ويعرف خطّه تمام المعرفة.

9- فأوّل عقد كتبه بإمضائه الجديد، إنّما نقل فيه عقدا بخطّ الحاج موسى بن صالح بن موسى، مؤرّخا في رمضان 1250هـ، [جانفي 1835م]؛

فيفسّره -في نظرنا- سفره لأداء مناسك الحجّ، والقيام في طريق ذهابه أو عودته بزيارة لمواطن الإباضية، أو التوقّف عند إحدى الحواضر العلميّة الإسلاميّة الكبرى، أو القيام بهما معا، والغرض في جميع الحالات الاستزادة من العلم، ولقد كان هذا تقليدا سائدا عند علماء وادي مزاب، سبقه إليه أستاذه يوسف بن حمو بن عدون[1]، وتبعه فيه تلميذه، وابن أخته، الحاج امحمد بن عيسى بن أيوب ازبار[2]؛ والذي يؤكّد ما ذهبنا إليه أنّ جميع من ذكره في عقد بعد هذا الانقطاع -بلا استثناء- لا يسمّيه إلاّ الحاج سليمان بن عيسى، بالرغم من إصراره هو على إمضاء عقوده جميعها: سليمان بن عيسى بن سليمان.

إنّ تغيير الاسم يجد تبريره بداية في أدائه لفريضة الحجّ، فلأنّ اسمه كان سابقا "الحاج" أضاف إليه اسم سليمان، وهو تقليد كان معمولا به -فيما يبدو- ببني يزقن على الأقلّ؛ كما أفاد في دفع الالتباس بين عقوده وعقود كاتب آخر، كان عضوا في حلقة عزّابة بني يزقن أيضا، وكتب الكثير من الاتّفاقات والعقود، وأمضاها: سليمان بن عيسى[3]، وهو سابق للحاج سليمان، من جيل أستاذه الحاج يوسف بن حمو بن عدون؛ وقد تزامن

وثاني عقد رقمه كان في شعبان 1252هـ، [نوفمبر/ديسمبر 1836م]، نقل فيه عقدا لنفس الكاتب، يرجع إلى سنة 1250هـ أيضا؛ ممّا يدلّنا على أنّ سفره إلى المشرق كان بين شهري ربيع الثاني ورمضان من سنة 1250هـ؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، أرشيف القضاة.

1- سافر إلى الحجّ يوم الأحد 1205/06/09هـ، [1791/02/13م]؛ ينظر: القصيدة الحجازية، للشيخ يوسف بن حمو بن عدون، مسوّدتها بخطّه، غير تامّة، ضمن مجموع مخطوط، مكتبة الشيخ ازبار، بني يزقن. وأوّل عقد كتبه بعد عودته -فيما اطّلعت عليه من عقود- كان في أواسط شوال 1206هـ، [أوائل جوان 1792م]؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، أرشيف القضاة. وهذا تصويب ما ورد في تاريخ بني مزاب111.

2- أرّخ الشيخ الحاج سليمان لسفره إلى البقاع المقدّسة، وزيارته لعمان، برجب من سنة 1264هـ، [جوان 1848م]؛ وكانت عودته في رجب من سنة 1268هـ، [أفريل/ماي 1852م]؛ دلّ عليه إقرار بخطّ الشيخ ازبار في هذا التاريخ، مع وجود عقد آخر ينفي وجوده بمزاب في جمادى الثاني من نفس السنة؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الشيخ ازبار.

3- هو سليمان بن عيسى بن حمو بن أيوب بن محمد بن أيوب، سجّل نسبه هذا عند فراغه من نسخ شرح شواهد قطر الندى وبلّ الصدى، لأبي القاسم بن محمد البجّائيّ، بتاريخ 1176/03/09هـ، [1762/09/27م]؛ ينظر: المخطوط رقم: 574، مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي. وقد ثبتت عضويته في حلقة العزابة بتاريخ أوائل جمادى الثاني عام 1191هـ، [أوائل جويلية 1777م]، وذلك في عقد كتبه في هذا التاريخ عيسى بن محمد بن أحمد بن صالح، حيث نعته فيه "الفاضل" هو والشيخ الحاج إبراهيم بن بحمان؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الاستقامة. وآخر عقد عثرت عليه ذكر فيه اسمه صراحة عقد مؤرّخ في أوائل جمادى الثاني 1248هـ، [أواخر سبتمبر 1832م]، كاتبه عمر بن الحاج عبد العزيز، ذكر فيه من بين الشهود: «سليمان بن عيسى بن حمو»؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، أرشيف آل عيسات ببني يزقن. وفي عقد مؤرّخ في صفر عام 1190هـ، [مارس/أفريل 1776م]، كاتبه عيسى بن محمد بن أحمد بن صالح، ذكر فيه ما يلي: «عمّنا سليمان بن الفقيه عمّنا عيسى بن حمو بن أيوب»، ممّا يدلّ على أنّ والده عيسى كان من شيوخ بني يزقن في القرن الثاني عشر سابقا للشيخ الثمينيّ، والشيخ الحاج أحمد؛ ينظر العقد: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الاستقامة. كتب سليمان بن عيسى بن حمو عدّة اتّفاقات لعزابة بني يزقن، في العقد الأخير من القرن الثاني عشر؛ تنظر هذه الاتّفاقات: الرسالة الشافية440، 441. وقد ذكر سليمان بن عيسى بن حمو من وجوه عشيرته أولاد خالد، عرش أولاد اعنان، في عقد بخطّ الشيخ عبد العزيز الثمينيّ، قيّده في صفر 1183هـ، [جوان/جويلية 1769م]؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الاستقامة. تولّى ابنه صالح بن سليمان منصب أمين المزابيّين بمدينة الجزائر، يقول في ذلك الشيخ اطفيش: «وصار صالح بن سليمان أمينا في الجزائر، في سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف [...] ومات صالح بن سليمان في الجزائر، ليلة السابع والعشرين من جمادى الثانية، سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف» الرسالة الشافية403،

تغيير إمضائه مع أواخر أيّام هذا الكاتب، سليمان بن عيسى بن حمو في ثلاثينيّات القرن التاسع عشر[1].

إذا كان الحاج سليمان قد التحق بهيئة العزابة في أوّل أمره مدرّسا في المحضرة التابعة لمسجد بني يزقن، فإنّ علمه وتفوّقه فيه سرعان ما أهّله للانضمام إلى العلماء الذين يجتمعون للنظر والفصل في القضايا التي ترد عليهم، سواء في المجلس الخاصّ ببلدة بني يزقن، أو في مجلس عمّي سعيد على مستوى وادي مزاب، إذا لم تلق النازلة حلاّ في المجلس الخاصّ بكلّ بلدة، أو كانت بين طرفين من قريتين مختلفتين: ففي عقد مؤرّخ في أواخر ذي القعدة 1247هـ، [أوائل ماي 1832م]، كتبه إبراهيم بن الحاج بابكر، جاء فيه: «تحاكم إلى علماء مجلس أمّ سعيد [...] منهم الشيخان: عمر بن الحاج، وبَابَ بن يونس، وعمنا عمر بن حمود، والفاضل عمر بن الحاج سعيد، وعمر بن موسى، و**حاج بن عيسى**، وحاج بن أيوب، وغيرهم من أهل بني يزجن، ومن غيرهم»[2]. وورد في عقد مؤرّخ في أواخر محرم 1255هـ، [أواسط أفريل 1839م]، ما يلي: «ترافع [...] إلى العلماء المجتمعين بدار غرب مسجد بني يسجن إلى الأحكام والفتوى [...] وبذلك حكم الأفاضلون[كذا]، ومن جملتهم: عمنا الحاج سعيد بن أيوب، وعمنا صالح بن موسى، وعمنا يوسف بن عدون، والفاضلان: الحاج يحي بن أيوب، و**الحاج سليمان بن عيسى**، وغيرهم، ومعهم مقيّد ذلك عنهم عمر بن موسى»[3]؛ إنّ هذا الدور الذي اضطلع به هو الذي خوّل لقاضي بني يزقن، أن يسبغ عليه بعد هذا التاريخ بعقود كثيرة، وصف "قاضي زمانه"[4].

وفي رسالة ثانية من الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، إلى الشيخ أبي اليقظان، مؤرّخة في 1383/11/09هـ، 1964/03/23م، جاء فيها فيما يتعلّق بالشيخ الحاج سليمان بن عيسى:

«[...] والشيخ بابه [يعني: بَابَ بن يونس] هو الذي عمّمه شيخا بمسجد بني يزقن، لأنّ من سيرهم أنّه إذا وُلّي أحد شيخا في مسجد من قرى ميزاب، فإنّه يقدّمه شيخ مسجد غرداية بربط العمامة له، وقد فرّ لمّا خاطبوه

فتلقّب حفدته من بعده بلقب الأمين، ومنهم ناسخ شرح المقدمة الأجرومية، لأبي سليمان داود بن إبراهيم التلاتيّ، مخطوط رقم: 039، خزانة السيد بوعيس الحاج عيسى، بني يزقن، أتمّ نسخه بتاريخ 1296/02/01هـ، [1879/01/24م]، وسجّل اسمه فيه كالآتي: «صالح بن عيسى بن صالح بن سليمان بن عيسى بن حمو بن أيوب» ينظر: فهرس الخزانة.

1- هذا الالتباس وقع فيه معجم أعلام الإباضية إذ نسب ما يخصّ سليمان بن عيسى بن حمو، إلى الحاج سليمان بن عيسى، وذلك حيث يقول: «تتلمذ على يد الشيخ عبد العزيز الثمينيّ [...] وكان كاتبا لاتّفاقاتهم وقراراتهم»3: 433، 434. لأنّ هذه الاتّفاقات والقرارات التي كتبها سليمان بن عيسى مؤرّخة في أواخر القرن الثاني عشر للهجرة، وكان الحاج سليمان حينها صبيّا صغيرا، كما سبق وأن أوضحنا، وعليه فهو لا ينتمي إلى الجيل الذي تتلمذ على يد الشيخ عبد العزيز.

2- نلاحظ فيه ذكر زملائه في الحلقة: عمر بن الحاج سعيد بن حمو بن عدون، وعمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، والحاج يحي بن أيوب بن الحاج يحي بن أحمد، وقد سبقت الإشارة إلى كلّ واحد منهم؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، أرشيف آل عيسات. ونجد في نفس الدفتر عقدا ثانيا لنفس الكاتب، ذكر فيه الحاج بن عيسى ضمن علماء المجلس، وهو مؤرّخ في أوائل ذي الحجة 1247هـ، [أوائل أفريل 1832م].

3- ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة آل يدر.

4- ينظر: سجل الأحكام04، رقم: 30، 1328/08/20هـ، 1910/08/26م، أرشيف القضاة، ص43-48.

للتقديم شيخا بمسجد بني يزقن لبلدة مليكة، فلحقوه إليها، وقدّموه، فرجع إلى يسجن[...]»[1].

وعدّد الشيخ الحاج امحمد بن عيسى ازبار، آخر شيوخ مسجد بني يزقن الرسميّين بحسب عرف وادي مزاب، في وثيقة منقولة من خطّه، أسماء شيوخ بني يزقن منذ الشيخ الحاج محمد بن سعيد في القرن العاشر الهجريّ، وممّا جاء فيها: «[...] خالنا الحاج يوسف، خالنا الحاج سليمان، امحمد بن عيسى آخرهم. اللّهم اجعلنا لأسلافهم تابعين. اهـ ما وجد بخطّ الشيخ الحاج امحمد بن عيسى [ازبار]»[2]. لقد ذُكر الشيخ الحاج سليمان بين شيخه الحاج يوسف بن حمو بن عدون، وتلميذه وابن أخته الحاج امحمد بن عيسى ازبار، وهذا المنصب لا يتولاّه إلاّ من توفّرت فيه الشروط من علم وكفاءة وحزم في تسيير أمور البلدة، وقد تمرّ السنون على قرية من قرى وادي مزاب، وهذا المنصب شاغر، إذا لم يوجد من تتوفّر فيه هذه الشروط.

وإذا بحثنا في العقود المتوفّرة عن أوّل عقد اقترن فيه اسم الحاج سليمان بوصف "الشيخ"، وجدناه بخطّ الحاج بن أيوب، مؤرّخا في موت شهر أكتوبر [1847م، 21 ذو القعدة] سنة 1263هـ، يتحدّث فيه عن بيع «الفاضل الشيخ الحاج سليمان بن عيسى جملا»[3]؛ وهو ما يرجّح كونه آنذاك شيخا في مسجد بني يزقن، لأنّ وصف "الشيخ" لا يطلق عند من أجاز أهل الحلّ والعقد خطّه من كتبة العقود إلاّ على من تولّى منصب الشيخ في حلقة العزابة بمسجد بلدته، فيكون تولّيه لهذا المنصب سنة 1847هـ أو قبلها بقليل، بعد عشر سنوات أو يزيد من وفاة الشيخ الحاج يوسف سنة 1252هـ، 1836/1837م[4]؛ لأنّ الحاج بن أيوب قد تحدّث عنه في عقود سابقة من غير أن يصفه بهذا الوصف، وآخرها مؤرّخ في أواسط جمادى الأولى 1262هـ، [أواسط ماي 1846م][5].

وإذا كانت مشيخته بمسجد بني يزقن مرجّحة بالقرينة التي أثبتناها آنفا في سنة 1847 أو قبلها بقليل، فإنّها مؤكّدة في «ضحوة عيد الفطر من عام 1267هـ، [1851/07/30م]»[6]، وهو تاريخ فراغ الشيخ اطفيش من

1- كراس رقم01، من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، وجاء في مقدّمتها ما يلي: «[...] سألت بعض قدماء الطلبة المشهورين بحفظ التاريخ، واسمه زنداري الحاج عيسى بن محمد [...]. وإليكم بعض ملاحظات على بعض التراجم التي أرسلناها إليكم قبل اليوم، رويتها عن زنداري الحاج عيسى المذكور. ونكل إلى اطّلاعكم وجودة بحثكم تصحيحها أو تزييفها [...]». لا نملك -في الحقيقة- ما يؤيّد أو يفنّد هذه الرواية الشفهيّة في تفاصيلها، غير أنّنا نعوّل في قبول مرويات السيّد زنداري الحاج عيسى على ما دلّت عليه من حفظ وتثبّت؛ وينظر: تاريخ بني مزاب141.

2- وثيقة يعدّد فيها الشيخ ازبار مشايخ مسجد بني يزقن، كراس مخطوط يتضمّن بعض تواريخ وادي مزاب.

3- ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل فضل، ص59.

4- سجلّ الأحكام 01، عقد: 61، 1301/08/27هـ/ 1884/06/22م، أرشيف القضاة، ص57-59. ذكر فيه عرضا وفاة الشيخ في 1252هـ، في قضيّة تخصّ حفيده محمد بن دادي عدون بن الحاج يوسف بن حمو بن عدون.

5- ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل فضل، ص59. إلاّ أنّ هذا الكاتب وغيره لم يلتزموا في جميع عقودهم بعد هذا التاريخ بتسميته الشيخ الحاج سليمان، وكانوا يكتفون بتسميته "الفاضل".

6- ترتيب لقط موسى بن عامر449.

كتابه "ترتيب لقط موسى بن عامر"، الذي نصّ في مقدّمته على طلب الشيخ الحاج سليمان منه إنجاز هذا التأليف. كما تؤكّدها رسالة بخطّ الشيخ بَابَ بن يونس، كتبها في روضة عمّي سعيد في أوائل جانفي 1853[1]، جاء في أوّلها: «[...] سلام على "معاد" مزاب الكائنين في الأغواط، من كافّة خواصّ واد مزاب: بَابَ بن يونس، والشيخ الحاج سليمان، وغيرهم، طلبة وعوامّا»[2]؛ كما أنّ الرسائل الواردة على وادي مزاب إبّان هذه المرحلة التاريخيّة الحرجة تُجمع كلّها على ذكر الشيخ الحاج سليمان مباشرة بعد شيخ مسجد غرداية الشيخ بَابَ بن يونس، الذي كان يتولّى رئاسة مجلس عمّي سعيد في غياب شيخ رسميّ على مستوى وادي مزاب[3].

أمّا مشيخته على مستوى وادي مزاب، فذكرها الشيخ أبو اليقظان في كتابه المخطوط "ملحق السير"، معتمدا على الرواية الشفهيّة فيما يبدو، وتبعه من جاء بعده[4]؛ وهو ما لم يقم دليل واحد عليه، فلم يذكر ذلك الشيخ ازبار في وثيقته، ولا ذكره مشايخ بني يزقن في رسالتيهما إلى الشيخ أبي اليقظان؛ وعليه نستبعد حصول هذه المشيخة، إذ لا نتصوّر وقوعها في حياة الشيخ بَابَ بن يونس، وهو إنّما توفي في 1280/12/18هـ، [1864/05/24م][5]، في زمن قريب من وفاة الشيخ الحاج سليمان.

غير أنّ هذه الرواية وإن لم تعكس حقيقة تاريخيّة، فهي تشفّ عن انطباع رسخ في الذاكرة الجماعيّة اليسجنيّة في شأن هذه الشخصية الفذّة، تمثّل في احترام وتبجيل كبيرين لها، فأطلقت عليه لقب "الشيخ"، وأورثته أبناءه وحفدته من بعده، وهو مقام لم يبلغه أيّ شيخ من مشايخ بني يزقن في عصره وبعد عصره، بسبب التنافس بين عروش بني يزقن الثلاثة، وسيطرة التسيير الجماعيّ، فقلّما يحصل الإجماع على شخص. ويشهد لهذا المقام الخاصّ الذي ناله الشيخ الحاج سليمان وصفه "الأمير"، في وثيقة وجدها ضمن أوراق الشيخ الحاج محمد بن الحاج صالح

---

[1]- ينظر: رسائل ممثّلي قرى وادي مزاب إلى وفدهم بالأغواط في المرحلة الأولى من المفاوضات، وثيقة أصلية من صفحتين؛ ومعها ترجمتها بالفرنسية، مؤرّخة في 1853/01/14، 22h12، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. وتحت رسالة الشيخ باب رسالة الشيخ الحاج سليمان، جاء في أوّلها: «الحمد للّه وحده. فإلى "معاد" وادي مزاب خاصّتهم، من وجوه وادي مزاب، طلبتهم وعوامّهم، المجتمعين في روضة أمّ سعيد»، وفي آخرها: «فعليكم السلام من الكاتب سليمان بن عيسى بن سليمان، بإذن جميع وادي مزاب، وكلّهم يسلّمون عليكم».

[2]- الرسائل، 22h12، (CAOM)، وثيقة أصلية من صفحتين. والذي دلّنا على أنّ الرسالة بخطّ الشيخ باب بن يونس، هو عدم نعته نفسَه "الشيخ" في الرسالة، كما أنّها رسالة بلدة غرداية، ولا يصحّ أن يمثّلها غيره.

[3]- ينظر على سبيل المثال: رسالة عدون بن حمو جهلان، غير مؤرّخة، جاء في أوّلها: «فإلى الفاضل عمّنا الشيخ باب بن يونس، والفاضل عمّنا الشيخ الحاج سليمان بن عيسى، وجملة عزابة وادي مزاب كافّة وعوامّها، سلام عليكم من عزابة القرارة وعوامّها» الرسالة، أرشيف الشيخ باب بن يونس، جمعية أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث، بغرداية؛ وموضوع الرسالة يدلّ على أنّها كتبت في هذه الفترة.

[4]- ينظر: ملحق السير1: 94؛ ومعجم أعلام الإباضية3: 434.

[5]- ينظر: تقييد أربعة أحداث، لمجهول، مكتبة الشيخ ازبار، وثيقة من صفحة واحدة. أوّلها وفاة هذا الشيخ في ذي الحجة من سنة 1281هـ[كذا]، وبعده قتال مع أهل مليكة يوم الجمعة 1281/04/13هـ، والثالث وفاة داود بن حمو في 1281/10/06هـ، وآخرها وفاة إسماعيل بن الحاج 1281/12/25هـ، ممّا يدلّنا على أنّ الصواب هو ما أثبتناه؛ ويدعمه ما وجدته في وثيقة أخرى، حدّدت وفاته بأواسط ذي الحجّة 1280هـ؛ ينظر: وثيقة فيها تعداد لمشايخ غرداية وتواريخ وفياتهم، كرّاس مخطوط يتضمّن بعض تواريخ وادي مزاب.

الثمينيّ، تتضمّن كلمة ألقاها باسم المزابيّين في شكر من حضر من التونسيّين مأتم الشيخ صالح بن يحي، حفيد الشيخ الحاج سليمان، بتونس سنة 1948، جاء فيها: «إنّ المسلم لا وطن له، وفي أيّ بلد حلّ فهو وطنه، وعلى هذه القاعدة عمل الشيخ صالح بن يحي بن **الأمير** الحاج سليمان في تونس كما لو كان يعمل في الجزائر، وضحّى بماله لتونس كما لو كان يضحّي به للجزائر، ودخل السجن كما لو دخله على مسقط رأسه، وهذا تطبيقا لقاعدة المسلم لا وطن له»[1].

فبماذا نال الشيخ الحاج سليمان هذه المرتبة الخاصّة؟

لقد ورد في ترجمة الشيخ في "ملحق السير" ما يلي: «وكان شجاعا، بطلا من أبطال زمانه، ولأجل بطولته عقدت له قيادة الدفاع، في معركة المغدر[2] الشهيرة، في [أواسط جمادى الثاني] سنة 1230هــ، [أواخر ماي 1815م]، فأحسن قيادة المعركة إلى النصر، وكانت له /تمارين عسكريّة عجيبة لشباب زمانه، وهكذا كان كلّما هاجم البغاة بلد يزقن تولّى الدفاع عن البلد»[3]. وإذا كان من المحتمل جدّا أن يكون الشيخ الحاج سليمان قد شارك في هذه الموقعة، فقد كان شابّا فوق الثلاثين في ذلك التاريخ، فإنّه من المستبعد أن تعقد له إمامة الدفاع، لأنّها تعقد لعضو في هيئة العزابة، وكان حينها شابّا لم يلتحق بعد بالحلقة، كما أنّ الطابع المفاجئ للواقعة لا يسمح بالقيام بإجراءات عقد إمامة الدفاع، ثمّ كيف يمكنه إجراء تمارين عسكريّة لشباب زمانه، وكان حينها هو نفسه شابّا، لا يملك أدنى سلطة تؤهّله للقيام بهذا الدور؟ إنّ إجراء مثل هذه التدريبات إنّما يكون معقولا عند وقوع عدوان خطير يُخشى تكرّره، في فترة قلاقل وانعدام أمن، لرفع فعالية القوّة المتوفّرة، وتمكينها من ردّ العدوان متى حدث مرّة ثانية، وليس بسبب ظرف طارئ كالذي كان سببا في موقعة المغدر.

1- الكلمة التي ألقاها في مأتم الشيخ صالح بن يحي، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، وثيقة من صفحتين. وقريب من هذا التبجيل والاحترام الخاصّ ما يوحي به عقد تناول خصومة وقعت بين طرفين، فاستشهد المدّعي بعقد للشيخ الحاج سليمان، ويقول العقد الملخّص لهذه القضيّة: «فلمّا رأى الخصم [يعني: المدّعى عليه ...] خطّ الشيخ الحاضر في قسمة المتروك، وسمع شهادة من عرفه أكثر منه، وقبل ولادته، سلّم في دعواه»؛ ينظر: سجل الأحكام02، رقم: 22، 1308/05/04هــ، 1890/12/17م، أرشيف القضاة، ص25، 26.

2- في الهامش: «المغدر: مكان يبعد عن منتهى أجنّة يزقن بنحو كيلومتر، وقعت فيه المعركة، فسمّيت باسمه. اجتمع فيه أوباش من غارداية ومليكة وبنورة والعطف، وكثير من متليلي، ليتعرّضوا لبني يزقن حينما رافقوا طوائف من عرب البادية قصدوا سوق بني يزقن، فلمّا باعوا بضائعهم، واشتروا ضرورياتهم رجعوا أدراجهم، ورافقوهم من بني يزقن خشية التعرّض لهم. وقبل أن يصلوا مكان المعركة، رأوا رجالا كثيرا، في هيئة تنذر بالشرّ، فرجعوا، وأعلنوا حالة الحرب، وواجب الدفاع عنهم بالبلد، فنظّموا قيادة الدفاع، فتولاّها الشيخ -رحمه اللّه-، فوقعت المعركة، وسقط كثير من الطرفين في الميدان، فرجع البغاة منهزمين، وتركوا موتاهم»ملحق السير1: 94. وهو جمع بين روايتين وردتا في بيانين مختلفين لفتن وقعت بوادي مزاب في تواريخ مختلفة، الأوّل من تأليف الشيخ الحاج يوسف بن حمو بن عدون، نقرأ فيه ما يلي: «[...] ثمّ إنّ القصور الأربعة والمذابيح والشعانبة وقعت معهم ومع بني يسجن في المغدر مقتلة في شأن مرافقة طوائف، في أواسط جمادى الثاني سنة 1230هــ» الرسالة الشافية429؛ وجاء في الثاني: «ويوم 15 من جمادى الثاني وقعت فتنة بين أهل غرداية وأهل بني يزقن، ومعهم سعيد عتبة، تقاتلوا في واد انتيسة، ومات بينهم خلق كثير سنة 1230هــ» تقييد ما وقع من فتنة في كافة قصور وادي مزاب، لمجهول، كراس مخطوط بمكتبة الاستقامة، ص06.

3- ملحق السير1: 94، 95.

وعليه فيبدو أنّ الرواية الشفهيّة قد احتفظت بإنجازات الشيخ في حادثة تاريخيّة عصيبة، وغاب عنها تاريخ وقوعها الفعليّ، فربطتها بالحادثة الموثّقة في تقييدين مختلفين عن الفتن بوادي مزاب، وهي الحادثة الوحيدة في التقييدين التي ردّت فيها بلدة بني يزقن عدوانا على أراضيها، وممّا زاد هذا الوهم تمكّنا التباس شخصية الشيخ الحاج سليمان، بشخصية سليمان بن عيسى بن حمو بن أيوب الذي كان حينها عضوا في حلقة العزابة، وكان يكتب اتّفاقات بني يزقن في أواخر القرن الثاني عشر الهجريّ، ومنه هذا التناقض الصارخ بين عناصر هذه الرواية.

وإذا بحثنا عن الواقعة التاريخيّة التي تزيل التناقض في هذه الرواية، وتحقّق الانسجام بين مختلف عناصرها، وجدناها في عدوان طال مدينة بني يزقن نفسها مرّتين، فكانت فترة زمنية حرجة استمرّت أكثر من شهر ونصف، تشهد لها المراسلات المتبادلة في ذلك الظرف العصيب، كان فيها الشيخ الحاج سليمان شيخا بمسجد بني يزقن، فما كان منه -في تصوّرنا- إلاّ أن تحمّل مسؤولياته كاملة، وأسهم -بحسب ما تشير إليه الرواية الشفهيّة- في إنقاذ بني يزقن ممّا كان مبيّتا لها، فاحتفظت له الذاكرة الجماعية ببني يزقن بهذا الجميل، فأجلّته واحترمته، وانتقل هذا الإجلال والإكبار عبر الأجيال، مع عفاء معالم الحدث الذي أنبته، لأنّه لم يدوّن، أو ضاع ما دوّن في خصوصه:

لقد أعقب المعاهدة التي عقدها المزابيّون مع فرنسا بالأغواط في 1853/04/22، خلاف بين مدن وادي مزاب حول هذه المعاهدة، فانقسموا بين مؤيّد ومعارض، فكانت بني يزقن والقرارة وبريان في صفّ المؤيّدين، وخالفهم غيرهم[1]، وفي ظلّ هذا الانقسام والتشتّت، كشفت رسائل بعثتها بلدة بني يزقن إلى جماعاتها بمدن الشمال، بداية بمدينة الأغواط، عن وضع عصيب كانت تعيشه البلدة في تلك الآونة، فنقرأ في رسالة أولى: «وبعد، فإلى جموع بني يزقن في جميع البلدان والأقطار، الكبير منهم والصغير، فمن وصلت بيده هذه الرسالة يبعثها لغيره من البلدان. من عزابة بني يزجن وعوامّها [...] إنّ أهل الخلاف أرادوا أن يقلعوا بلادكم من أصلها. الشريف ومن معه، وابن شهرة وحزبه، ومتليلي ومن نزل بهم، كلّ يتمنّاها، فلا بدّ من قدوم شطر القوم الكائنين في جميع البلدان عونا للأرامل والضعفاء، من مال ورجال، عونا لنسائكم وذراريكم عزما من غير مهلة ولا تراخ، وقد اشتدّ عليهم الأمر [...] فمن أراد دعوة الخير فليدرك أهله وأحبابه، ويغيثهم، والسلام، فمن وصلت بيده، فليبعثها لغيره في الساعة والحين، والسلام»[2]؛ وتتحدّث الرسالة الثالثة من جماعة قصر البخاري عن نتيجة المواجهة الأولى، فقد هجم الشعانبة والمذابيح وسعيد عتبة والأرباع ومن معهم في عصابة، فمات ستّة من بني يزقن، وسقط في ساحة المعركة من المهاجمين أربعة موتى، وستّة مجاريح. ثمّ نجد رسالتين موجّهتين من جماعة بني يزقن إلى السلطات

1- ينظر: رسالة الوالي العام راندون (Randon) إلى حاكم الأغواط بالنيابة، رقم: 457، 1853/07/27، موضوعها: توجيهات بخصوص بني مزاب، 22h13، (CAOM)، وثيقة من سبع صفحات؛ وتتضمّن ضرورة متابعة تطوّر الأوضاع بمنطقة وادي مزاب، مع الوقوف منها موقفا محايدا.

2- ينظر: رسائل جماعة بني يزقن، وجماعة الأغواط، وجماعة قصر البخاري، 22h13، (CAOM)، وثيقة أصلية من صفحة واحدة، ناسخها داود بن باحمد بن بانو، بتاريخ 1269/09/29هـ، [1853/07/06م]. وتحدّث الوالي العامّ في رسالته السابقة إلى حاكم الأغواط بالنيابة عن توتّر وقلق في الأوساط المزابية في مدن الشمال، بسبب هذه الأوضاع، وعن وقوع هجوم مماثل على القرارة؛ ينظر: الرسالة، 22h13، (CAOM)، ص04.

الفرنسية، بواسطة الأمين عدون بن باسعيد، تتضمّن -فيما تتضمّنه- المطالبة بالسماح لأبنائها بالعودة إلى وطنهم للدفاع عنه، وقد وصلت هاتان الرسالتان إلى الأغواط في 1853/08/05، وتشير الرسالتان إلى وقوع هجوم ثان، أسفر عن خمسة عشر قتيلا، وثمانية وعشرين جريحا في صفّ بني يزقن، بينما سقط من الطرف الثاني ثمانية عشر قتيلا، وعددا لا يحصى من الجرحى[1].

إنّ هذه الأوضاع -في تقديرنا- هي التي كشف فيها الشيخ الحاج سليمان عن كفاءته القياديّة في رفع القدرات الدفاعية لبلدة بني يزقن إلى أعلى مستوياتها، في الرجال، بإجراء تمارين عسكريّة عجيبة للشباب، وربّما في العمارة الدفاعيّة أيضا لتحصين البلدة، لمواجهة الخطر المحدق، وكانت نتيجته أن لم تتحدّث وثائق الإدارة الفرنسيّة عن تكرّر العدوان بعد ذلك.

يبدو أنّ الشيخ الحاج سليمان كان منشغلا عن التأليف، وهو ما جعله يدعو تلميذه الشيخ اطفيش إلى ترتيب لقط موسى بن عامر؛ وكانت له قصائد في الأدب[2]، كما لم نعثر له على كتب من نسخه. ومن المؤكّد أن تكون له مكتبة تفرّقت بعد موته، لعدم وجود من يخلفه من ذريّته في مجال العلم، فقد وجدنا أثرا منها في مكتبة ابن أخته الشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبار، يتمثّل في غلاف كتاب، من غير أوراق بين دفتيه، يحمل تمليكا هو الآتي: «هذا كتاب للحاج بن عيسى بن سليمان، حبسه لوجه الله تعالى، لا يباع ولا يشترى حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين» وأضاف بعدها: «وذرّيتي أولى به من غيرهم»[3].

أمّا وفاته فقد حدّدها عمر بن محمد بن عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، في تقييد بخطّه، حيث يقول: «[...] ثمّ الشيخ الحاج سليمان توفّي [سنة] 1283هـ، [1867/1866م]»[4]. ويدعمه تسمية حفيده، والد مفدي زكرياء باسمه، فلا يصحّ ذلك -في عرف وادي مزاب، في الأغلب الأعمّ- إلاّ بعد وفاته، وهو إنّما ولد سنة 1868، وولد أخوه محمد قبله بسنتين سنة 1866[5]، فعدم تسمية الأوّل باسمه، يدلّ على أنّ وفاة الشيخ الحاج سليمان كانت بعد مولد محمد، وقبل مولد سليمان.

1- لم تذكر الرسالتان من المهاجمين سوى الشعانبة؛ ينظر: رسالة جماعة بني يزقن إلى الوالي العام، من لسان عدون بن باسعيد، أصلية غير مؤرّخة، 22h13، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة الأمين عدون بن باسعيد، بإذن جماعة بني يزقن، إلى الجنرال يوسف، حاكم المدية وعمالة التيطري، أصلية غير مؤرّخة، وثيقة من صفحة واحدة.

2- سنتناولها في الباب الرابع؛ ينظر: ص360، 361.

3- هذا الغلاف موجود بمكتبة الشيخ ازبار.

4- التقييد، مكتبة آل فضل.

5- التاريخان المحدّدان لمولد محمد وسليمان ابني يحي بن الشيخ الحاج سليمان هو ما ذكر في أغلب الإحصاءات التي أجريت في بني يزقن بداية من سنة 1884، وذكرت فيها أعمار الأشخاص، وقد ذكرت تواريخ أخرى، فأخذنا بالأغلب. ينظر على سبيل المثال: سجلّ جريدة ناس بني يزقن، 1886/05/15، أرشيف القيّاد، ص54.

وكان للشيخ الحاج سليمان شقيقان هما الحاج سعيد[1]، وسليمان[2]، بالإضافة إلى أخ من الأمّ هو عيسى بن الحاج أيوب بن عيسى، توفي قبل تاريخ 1860/07/20[3].

أمّا أبناؤه فذكرت العقود أربعةً من زوجته حنّة بنت الحاج[4]، وهم: نانة[5]؛ ومحمد أو امحمد[6]؛ والحاج عبد الله، ولد في حدود سنة 1828[7]؛ وآخرهم يحي.

1- توفي سنة 1874 أو 1875، لوقوع تصفية بعض من تركته في أكتوبر 1875؛ ينظر: سجل الأحكام01، رقم: 78، 1303/10/20هـ، 1886/07/22م، أرشيف القضاة، ص80، 81. وزوجته كان عمرها 80 سنة، في إحصاء سنة 1895، ممّا يعني بأنّ ميلادها كان في حدود 1805؛ ينظر: سجّل جريدة ناس بني يزقن، 1895، أرشيف القيّاد. وتمّ الاستدلال على تاريخ الإحصاء ممّا ورد بعده في ذات السجل، والسجّل غير مرقّم الصفحات. وكبرى بناته الأحياء بعد سنة 1882، ولدت في حدود 1830، وهي زليخاء زوجة عيسى بن يحي بوطيش. وبناء على كلّ ذلك، رجّحنا ميلاد الحاج سعيد بن عيسى بن سليمان خلال العقد الأخير من القرن الثامن عشر بعد أخيه الأكبر الحاج سليمان.

2- ينظر: سجلّ جريدة الكرفي، 1888، و1890، أرشيف القيّاد. شارك أخاه الحاج سليمان في معاملة تجارية، في أواخر يناير [1837م، أواخر شوّال] سنة 1252هـ؛ ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل فضل، ص60. قام وابنه بكير بإجراءات السفر إلى البقاع المقدّسة، 1310/08/02هـ، 1893/02/19م؛ ينظر: سجل العقود15، رقم: 787، أرشيف القضاة، ص212. ثمّ لا نجد له أثرا في عقود قاضي بني يزقن إلى تاريخ 1311/06/13هـ، 1893/12/23م، حيث ذكر أنّه متوفّى؛ ينظر: سجلّ العقود 17، رقم: 165، الأرشيف نفسه، ص41. وعليه تكون وفاته سنة 1893، عن عمر يناهز 80 سنة.

3- في عقد بخطّ الشيخ الحاج امحمد بن عيسى ازبار، مؤرّخ في أوائل محرم 1277هـ، [أواسط جويلية 1860م]، نجد حديثا عن بيع الحاج سعيد بن عيسى بن سليمان نخلتين ورثهما من أخيه لأمّه عيسى بن الحاج أيوب [بن عيسى]؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز.

4- شهدت مع زوجها في عقدين أوّلهما بتاريخ 1255/10/11هـ، [1839/12/18م]؛ ينظر: سجل العقود07، رقم: 131، 1305/04/21هـ، 1888/01/05م، أرشيف القضاة، ص28، 29. وثانيهما مؤرّخ في أواسط ذي الحجة 1257هـ، [أواخر جانفي 1842م]، شهدت فيها معها ابنتها نانة؛ ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل فضل، ص23.

5- شهدت مع أبيها على عقد واحد ووحيد بمعيّة والدها حنّة بنت الحاج، وقد مرّ في الهامش السابق.

6- شهد مع والده في 11 عقدا، ممّا أحصيته من عقود الشيخ الحاج سليمان، وشهد في عقود لغيره، وذكر في بعض العقود طرفا فيها. وأوّل عقد ذكر فيه كان بخطّ والده، مؤرّخا في أواخر جمادى الثاني 1260هـ، [أواسط جويلية 1844م]؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة آل يدر. وآخر عقد ذكر فيه كان بخطّ داود بن أيوب، في شعبان 1272هـ، [أفريل/ماي 1856م]، جاء فيه: «امحمد بن الفاضل الحاج سليمان»؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة آل يدر. وفي عقد مؤرّخ في أكتوبر [1848م، ذو القعدة] سنة 1264هـ، وصفه الكاتب ابن يوسف -وهو غير مزابيّ- بـ: "الطالب"، بمعنى: طالب العلم أو المتعلّم، وذات العقد يشير إلى تعاطيه تجارة التمور في ورقلة؛ ينظر: دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل فضل، ص60. وأغلب الظنّ أنّه لم يعقب، وأنّ وفاته كانت قبل وفاة والده، ويدلّ على ذلك تسمية أخويه الحاج عبد الله ويحي لبكريهما باسمه إكراما لذكراه، وهما الحاج محمد بن الحاج عبد الله، ولد -على الأرجح- سنة 1863، وولد محمد بن يحي -كما سبق- سنة 1866.

7- وهو ما نستفيده من عمره في أغلب سجلاّت الإحصاءات التي ذكرته؛ ينظر على سبيل المثال: سجلّ جريدة الكرفي، 1896، أرشيف القيّاد، ص10، و11، و22. وفي ترجمة رسالة بخطّ أحمد بن يحي، من جماعة المزابيّين في عنابة إلى جماعة المزابيّين بقسنطينة، 1269/08/11هـ، 1853/05/20م، ذكر اسم الحاج عبد الله بن الحاج سليمان من بين "الطلبة"، ضمن جماعة قسنطينة؛ ينظر: الرسالة مترجمة، 22h13، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01. وفي تقرير من محافظة قسنطينة، 1853/05/25، ذكر في غضون الحديث عن المراسلات التي

عـــائـــلـــتـــه:

يحي بن الشيخ الحاج سليمان هو جدّ مفدي زكرياء، ولد سنة 1830 على وجه التقريب[1]، وتظهره العقود مشتغلا بالفلاحة، لم يشتغل بغيرها إلاّ لماما، ويبدو أنّ طبيعة عمله اضطرّه إلى الإقامة ببني يزقن فلم يخرج منها، إلاّ لمدينة ورقلة أو إلى بريان، حيث كان يملك بهما نخيلا[2].

وقد وصف بـــ"الطالب" كأشقّائه محمد والحاج عبد الله، فقد تحدّث عقد لقاضي بني يزقن عن حضور «خصوص عشيرة أولاد عدون بن عيسى، وهم: يحي بن الحاج سليمان بن عيسى، وأخوه الحاج عبد اللّه، والحاج محمد بن صالح بن مرزوق، والحاج موسى وأخوه الحاج أيوب ابنا عيسى بن موسى، وبهون بن الحاج سعيد بن باب، **ومن معهم من الطلبة**، وعيسى بن محمد بن أيوب، وزكرياء بن محمد بن صالح بن علي، وأخوه صالح، وعبد اللّه بن حاج بن عبد اللّه، ومن معهم من العوام»، وشهدوا على استخلاف محمد بن إبراهيم بن عيسى بن علي على ابن أخيه عمر بن عمر بن إبراهيم، وعلى كافّة ما جرى عليه ملكه من الأصول والمنتقلات والحيوانات، أينما كان ذلك [...][3]. وهو ما يدلّ على اشتغاله بقضايا عشيرته، كما أنّ الأدلّة أكثر من أن تحصى على اهتمامه بقضايا عائلته آل الشيخ بمختلف فروعها، بالإضافة إلى أبناء عمومته من آل باسعيد.

ذكر الشيخ أبو اليقظان عنه ما يلي: «وكان للشيخ الحاج سليمان ابن اسمه يحي، يحسن الكتابة، وبيده جواز التوثيق بين الناس في زمانه، في سائر العقود والمعاملات»[4]، وهو ما لم يقم أيّ دليل عليه على الإطلاق، فقد شهد

بعثتها جماعة قسنطينة في موضوع معاهدة 1853، إلى جماعات المزابيين في بسكرة، وسطيف، وباتنة، وعنابة، وقالمة، وتونس، اسمي أحمد بن موسى، والحاج عبد الله بن الشيخ الذين كتبا إلى جماعة عناية؛ ينظر: رسالة محافظ عمالة قسنطينة إلى الوالي العامّ، موضوعها: بخصوص التوتّر الذي ظهر عند المزابيّين تبعا لخضوع المدن السبعة السابق، 22h13، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص02. وهو ما يدلّ على استقراره لمدّة في قسنطينة، وكان عمله فيها بالضرورة في ميدان التجارة، قبل أن يستقرّ ببني يزقن في الفترة الأخيرة من عمره. وقد كان شاهدا على عقود معدودة، لوالده، ولغيره، في أواخر الأربعينيّات وبداية الستّينيات، ولا أثر له في عقود الخمسينيّات على كثرتها، فلعلّها الفترة التي أمضاها خارج وادي مزاب، في مدينة قسنطينة؛ ينظر: دفاتر عقود خاصّة، مكتبات آل يدر، والشيخ ازبار، والشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز. وكانت وفاته سنة 1897، بين 24 أفريل، تاريخ آخر عقد ذكر فيه حيّا، و20 جويلية، تاريخ أوّل عقد وردت فيه إشارة واضحة إلى وفاته، ينظر: الأوّل: سجل العقود 22، رقم: 687، 1314/11/21هـــ، 1897/04/24م، أرشيف القضاة، ص192؛ والثاني: سجل العقود 23، رقم: 216، 1315/02/19هـــ، 1897/07/20م، الأرشيف نفسه، ص69، 70.

1- ينظر على سبيل المثال: سجلّ جريدة ناس بني يزقن، 1886/05/15، أرشيف القيّاد، ص54.

2- ينظر بالنسبة لورقلة: سجل العقود18، رقم: 487، 1312/04/12هـــ، 1894/10/13م، أرشيف القضاة، ص140؛ وينظر بالنسبة لبريان: سجل العقود27، رقم: 489، 1317/11/22هـــ، 1900/03/24م، الأرشيف نفسه، ص144، 145.

3- ينظر: سجل العقود 03، رقم: 350، 1302/05/20هـــ، 1885/03/07م، أرشيف القضاة، ص94.

4- ملحق السير1: 95.

على عقد واحد ووحيد مكتوب بخطّ والده[1]؛ وإذا كان لأحد أبناء الشيخ أن يكون كاتبا فأنسبهم محمد الذي كان ملازما لوالده، وتعدّدت شهاداته على العقود، وهو ما لم يثبت لمحمد بن الحاج سليمان، فكيف بأخيه يحي.

أمّا وفاته، فكانت بعد وفاة ابنه البكر محمد[2]، والأرجح أن تكون بعد 1900/01/27[3]، وقبل 1900/03/24[4]، وقد خلّف عند وفاته من الأبناء: سليمان وصالح وبلحاج، وعائشة ولالة وشاشة ونانة وحنة، كلّهم من زوجته شاشة بنت عدون بن بافضل[5].

والد مفدي زكرياء هو سليمان، وهو الابن الثاني ليحي بن الحاج سليمان، سمّاه والده باسم أبيه الشيخ الحاج سليمان، وكان ميلاده كما سبقت الإشارة إليه سنة 1868.

رسائله في العشرينيّات من القرن الماضي تدلّ على أنّ تعلّمه كان محدودا جدّا لم يتجاوز فكّ الخطّ، فكان يكتب رسائله باللغة العاميّة، يكتب فيها الحروف بحسب النطق، لا بحسب رسمها في اللغة العربيّة[6].

تزوّج من عائلة عريقة، آل الحاج الناصر، من نفس عشيرته عدون بن عيسى، وسُجّل عقد الزواج لدى قاضي بني يزقن، بتاريخ 1305/04/11هـ، 1887/12/26م[7]، وكان عمر سليمان بن يحي آنذاك تسع عشرة سنة، بينما كان عمر زوجته عائشة بنت الحاج محمد بن داود بن عبد اللّه بن بكير بن عبد الله بن امحمد بن الحاج الناصر بن محمد بن الحاج اعنان إحدى عشرة سنة[8].

وبعد ذلك بأربع سنوات أحازه والده عن نفسه لنفسه لدى قاضي بني يزقن بتاريخ 1308/10/04هـ، 1891/05/13م[9]؛ وهذا الإجراء كان معتادا في بني يزقن، وربّما في وادي مزاب،

1- مؤرّخ في أوائل جمادى الثانية 1277هـ، [أواسط نوفمبر 1860م]؛ ينظر: دفتر عقود خاصّ، مكتبة آل يدر.

2- في سنة 1895؛ ينظر: سجل التركات03، تركة: 41، 1313/01/12هـ، 1895/07/16م، أرشيف القضاة، ص40.

3- وهو التاريخ الذي ظهر فيه ابنه سليمان في بني يزقن شاهدا على عقد زواج أخته عائشة؛ ينظر: سجل العقود27، رقم: 302، 1317/09/24هـ، 1900/01/27م، أرشيف القضاة، ص90؛ وذلك بعد سفره إلى عنابة، بتصريح مؤرّخ في 1898/05/20، ينظر: سجل التساريح، 1892-1908، تسريح رقم: 131، أرشيف القيّاد.

4- وهو تاريخ أوّل إشارة صريحة لوفاته في عقود قاضي بني يزقن، ويتحدّث العقد عن تصفية متروك الفقيد بين ورثته، ينظر: سجل العقود27، رقم: 489، 1317/11/22هـ، 1900/03/24م، أرشيف القضاة، ص144، 145.

5- ينظر: نفسه.

6- مثاله هذا المقتطف من رسالة له إلى الشيخ الحاج محمد بن صالح الثميني، 1922/09/22: «[..] وصلي عن جوابك قريته وفهمة جميع ما فيه. قولك عن بننا زكريا تبعة؛ نعم، لابدّ يقعد حتّا لشهر نفامبر لقابل من جلي بش نوجدو له الازم [...]» أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

7- ينظر: سجل العقود07، رقم: 84، 1305/04/11هـ، 1887/12/26م، أرشيف القضاة، ص17.

8- فقد كان عمرها في إحصاء 1886/05/15، 10 سنوات؛ ينظر: سجّل جريدة ناس بني يزقن، 1886، أرشيف القيّاد.

9- قبل ابنه البكر محمد بسنة كاملة؛ ينظر: سجل العقود14، رقم: 741، 1309/10/24هـ، 1892/05/22م، أرشيف القضاة، ص199. ونصّ إحازته كالآتي: «حضر لدينا عمّنا يحي بن الحاج سليمان بن عيسى بن سليمان، اليسقني نسبا ومسكنا، فأشهدنا على نفسه وهو في حال يجوز له وعليه شرعا، أنّه أحاز ابنه سليمان عن نفسه لنفسه، وملّك له لباسه وسلاحه، وما كان بين يديه على وجه الإحازة، على شرط أن يعطي الابن

عندما يأنس الوالد مع ولده رشدا وكفاءة في تحمّل مسؤوليته ومسؤولية عائلته بنفسه، فيدفعه إلى مزيد من الاستقلاليّة والجدّية في الحياة، لتكتمل رجولته.

وفي سنة 1895 اشترى منزله الخاصّ، في أرض أولاد افضل (حيّ طالمت حاليا)، داخل بلدة بني يزقن[1].

لقد لاحظنا فيما سبق ملازمة أفراد عائلة آل الشيخ لبني يزقن، يعملون في الفلاحة، أو في التجارة في سوق بني يزقن، لا يتخطّونها إلاّ إلى بريان أو ورقلة، باستثناء الحاج عبد الله بن الحاج سليمان الذي وجدناه ضمن جماعة بني يزقن بمدينة قسنطينة في الخمسينيّات من القرن التاسع عشر؛ وعليه يعتبر سليمان بن يحي من أوائل من سافر من أفراد عائلة آل الشيخ للعمل في التجارة خارج وادي مزاب، وفتح الطريق لمن جاء بعده، ليستقرّ بعضهم بعد ذلك في تونس، بعيدا عن وادي مزاب.

إنّ أوّل أثر لسفر سليمان بن يحي من بني يزقن إلى مدن الشمال كان في 1891/05/01، استصدر تصريحا للسفر إلى مدينة عنابة[2]، وبعدها كان اتّجاهه من بني يزقن دوما صوبها، ممّا يدلّ على استقراره بها، وتواصل تنقّله إلى مدينة عنابة بعد ذلك بمعدّل مرة كلّ أربع سنوات تقريبا في البداية، ثمّ مرّة كلّ سنتين، مع استثناءات قليلة، إلى آخر سفر له بتاريخ 1926/11/08[3]، استقرّ بعدها في بني يزقن بصفة نهائيّة إلى موته سنة 1938.

تحدّث عنه تقرير فرنسيّ، مؤرّخ في 1924/03/07، قائلا ما ترجمته: «إنّ ابن الشيخ سليمان كان يشتغل في مدينة عنابة بتجارة الأقمشة، وكان شريكه في هذه التجارة قريبه مرزوق الحاج موسى[4]. باع دكّان تجارته سنة

للأب ثلاثمائة دور مفرقّة على خمس سنين، مبدأ الدفوع آخر شهر رمضان 1309هـ، ثمّ كذلك لآخر الخلاص ستّون دور لكلّ سنة منها، فبهذا صار الابن من تاريخنا هذا ساعيا لنفسه، ومكتسبا لها، له ما كسب وعليه ما يكتسب، بحيث لا مدخل للأب فيما يسعاه الابن في حياته، ولا لوارثه من بعد موته فيه، فحضر معه الابن، فقبل منه الإحازة والشرط. اهـ» سجل العقود13، رقم: 105، 1308/10/04هـ، 1891/05/13م، أرشيف القضاة، ص28.

1- بثمن قدره 7850 فرنكا؛ ينظر: سجل العقود19، رقم: 617، 1313/01/13هـ، 1895/07/07م، أرشيف القضاة، ص171.

2- ينظر: سجلّ التساريح، 1890-1892، تصريح رقم: 098، أرشيف القيّاد. هذا التاريخ هو تاريخ تصريح السفر الذي يقدّمه القائد لطالبه، ولا يعني بالضرورة في جميع الحالات سفره في ذات اليوم. ومن المتوقّع جدّا أن يكون قد سافر قبل هذا التاريخ؛ لأنّ سجلات التساريح تشكو فراغا بين سنتي 1887 و1890؛ ولأنّنا نجد أخاه صالح، وهو أصغر منه، يسافر بتاريخ 16 أكتوبر 1890، تسريح رقم: 305، ومن المستبعد أن يسبقه للسفر إلى مدن التلّ.

3- ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص247.

4- هو مرزوق الحاج موسى بن حمو بن صالح، من نفس عشيرة شريكه، أولاد عدون بن عيسى، من عرش أولاد اعنان؛ ينظر: سجلّ جريدة البزرة، 1913، أرشيف القيّاد. وإذا تتبّعنا تصاريح السفر التي استصدرها من القائد، وجدناها تبتدأ سنة 1901، وتنتهي سنة 1920، بمعدّل مرّة كلّ سنتين، ويختلف في ذلك مع سنوات استصدار سليمان بن يحي لتصاريحه، ممّا يدلّ على أنّ شركتهما ابتدأت مع بداية القرن العشرين، وكانا يختلفان على القيام بأمور المحلّ، سنة أو يزيد لكلّ واحد، وما بقي يمضيه في بني يزقن، وانتهت كما نصّ عليه التقرير ببيع المحلّ سنة 1922، ولم نعثر على أثر لسفر شريكه في سجلاّت التساريح بعد سنة 1920، فربّما يكون قد استقرّ نهائيّا بمزاب، قبل أن يلحق به شريكه بعد ذلك بسنوات معدودة؛ ينظر: سجلاّت التساريح، 1890-1937، أرشيف القيّاد.

1922، ولكنّه ما زال مالكا لمنزلين بها. بعد حلّ تجارته مكث بمزاب شهورا عديدة، ثمّ عاد إلى عنابة حيث أقام بها إلى نوفمبر من سنة 1923»[1].

في وثيقة معلومات تخصّه، أنجزتها الإدارة الاستعماريّة بغرداية، بتاريخ 1922/07/31، وصفت وضعيته المادية بالميسورة، وأنّ نمط الحياة التي يعيشها كان متناسبا مع مداخيله[2]، هذه المداخيل كانت من تجارته بعنابة، وأملاكه بعنابة وبني يزقن. لقد استطاع بفضل جدّيته وعمله الدؤوب أن ينمّي أمواله، فعند وفاة والده يحي بن الحاج سليمان كان –على سبيل المثال– يمتلك أربعة عشر نخلة[3]، وخلّف عند موته اثنتين وستين نخلة[4]. لم تكن ثروته ثروة طائلة، وكانت حياته وعائلته حياة كفاف وعفاف، في ظروف جدّ قاسية بسبب الاستعمار، واستنزافه لثروات البلاد والعباد، فلم يُعَدَّ من الفقراء سنة 1936، لأنّه ممّن له مدخول يساوي أو يزيد على 600 فرنكا في الشهر[5]، غير أنّه واجه صعوبات جمّة لدفع مصاريف دراسة ابنه مفدي بتونس.

هذا المسار لحياة سليمان بن يحي بالنظر إلى الظروف السائدة آنذاك في وادي مزاب، وفي الجزائر عامّة، ينمّ عن شخصية قويّة، تميّزت بالعزم والحزم، والجدّية في أموره كلّها، وهو ما شهدت به الإدارة الاستعماريّة في وثيقة المعلومات التي أشرنا إليها في الفقرة السابقة، فلا غرو أن يكون معتمد والده يحي في شيخوخته[6]، وعمدة العائلة بعد وفاته[7]، وعائلة عمّه الحاج عبد اللّه أيضا[8]، بل ومعتمد أخيه صالح بن يحي في نضاله السياسيّ بتونس –

1- ينظر: رسالة نائب المحافظ بمدينة عنابة إلى محافظ عمالة قسنطينة، بإمضاء: لوفيشي (Lovichi)، رقم: 1091، 1922/03/07، موضوعها: الدفتر "B"، 9h96، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01. وتجدر الإشارة إلى أنّ أخويه صالح وبلحاج، وابن أخيه عيسى بن محمد بن يحي عملوا معه لفترة قبل أن يستقرّوا بتونس، وكذلك ابن عمّه بلحاج بن الحاج عبد الله، وأخيرا ابنه محمد؛ ينظر: سجلاّت التساريح 1890-1937، أرشيف القيّاد.

2- ينظر: وثيقة المعلومات، بإمضاء: كليمون (Clément)، نائب حاكم ملحقة غرداية، 9h96، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص03.

3- ينظر: سجلّ جريدة البزرة، 1884-1905، أرشيف القيّاد، ص92، 93. وتاريخ هذا الأحصاء هو 1902/05/03 أو 1903، لأنّ التاريخ مشطوب، والرقم الأخير غير واضح فيه؛ ينظر: السجلّ، ص82.

4- ينظر: سجلّ البريد الصادر،1935-1939، المراسلة رقم: 149، 1938/03/18، أرشيف القيّاد.

5- ينظر: سجلّ البريد الصادر، 1935-1939، المراسلة رقم: 49، 1936/01/27، أرشيف القيّاد.

6- ففي سجل العقود24، رقم: 209، 1315/10/04هـ، 1898/02/25م، أرشيف القضاة، نقرأ ما يلي: «حضر لدينا يحي بن الحاج سليمان/ بن عيسى بن سليمان، اليسقني نسبا ومسكنا، فأشهدنا على نفسه، وهو في حال يجوز له وعليه شرعا، أنّه وكّل ابنه سليمان بن يحي بن الحاج سليمان، من النسب، على كافّة أموره وشؤونه الدنيويّة والأخرويّة، من كلّ شيء مطلقا[...]» 64، 65.

7- فقد تكفّل بأخيه الأصغر بلحاج بن يحي، الذي كان عمره حين وفاة والده أربعة عشر سنة؛ ينظر: سجّل جريدة ناس بني يسقن، 1886، أرشيف القيّاد، ص54. فأخذه معه إلى عنابة، بعيد وفاة والده، إذ استصدر تصريحين للسفر له، ولأوّل مرّة لشقيقه، بتاريخ 1900/05/01؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1892-1908، تصريح رقم: 116، و117، أرشيف القيّاد.

8- فقد وجدنا على سبيل المثال توكيلا له من ابن عمّه بلحاج بن الحاج عبد الله بن الحاج سليمان بن عيسى؛ ينظر: سجل العقود 24، رقم: 235، 1315/10/10هـ، 1898/03/03م، أرشيف القضاة، ص72.

بحسب التقارير الفرنسيّة- في العشرينيّات من القرن الماضي[1].

أمّا أولاده فهم: محمد[2]، ويحي[3]، وزكري، وعائشة[4]، وفافة[5]، وحنة[6]، كلّهم من زوجته الأولى عائشة بنت الحاج محمد بن داود[7]. أمّا زوجته الثانية شوّاش فافة بنت الحاج محمد بن يحي[8]، فلم يعقب منها، وتوفّي قبلها.

ميلاده ونشأته الأولى:

أمّا ميلاد زكري، أو مفدي زكرياء ففيه روايات كثيرة ومختلفة، يتطلّب ضبطه وقفة معها، ثمّ تتبّع لمختلف الوثائق المتوفّرة بين أيدينا، عسى أن نصل إلى تحديده، ولو على سبيل التقريب:

في شهادة التحصيل الابتدائيّة من "المدرسة القرآنية الأهليّة الحرّة"[9]، سجّل تاريخ ميلاد التلميذ زكرياء بن سليمان كالآتي: 12 جمادى الأولى 1325هـــ، [23 جوان 1907م][10].

وفي الترجمة الذاتية التي كتبها لمحمد الهادي السنوسيّ الزاهريّ، صاحب كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، تحدّث عن ميلاده قائلا: «ما تنفّس صبح يوم 12 جمادى الأولى سنة 1326هـــ، [الجمعة 12 جوان 1908م] إلاّ وقد خطّ القضاء اسمي في سجلّ الأحياء»[11].

1- «متّهم بكونه أحد وسطاء اتّصال أخيه ابن الشيخ صالح بن يحي، رئيس اللجنة الوطنية بتونس» ينظر: مدوّنة معلومات، بإمضاء: كليمون (Clément)، 1922/07/31، 9h96، (CAOM)، ص02.

2- كان عمره في إحصاء 1901: 05 سنوات؛ ينظر: سجّل جريدة ناس بني يزقن، 1901، أرشيف القيّاد. وقد ولد سنة 1896، بالنظر إلى جريدة سنة 1895 التي لم يذكر فيها؛ وذكر في تتمّة هذه الجريدة ضمن مواليد الأشهر الأربعة الأولى من سنة 1896، ميلاد محمد بن الحاج محمد بن الحاج عبد الله، في 1896/01/11؛ ينظر: سجّل جريدة ناس بني يزقن، 1895، الأرشيف نفسه. وعمر هذا الأخير في إحصاء سنة 1901 خمس سنوات، كمحمد بن سليمان بن يحي.

3- كان عمره في إحصاء 1901: 05 شهور؛ ينظر: سجّل جريدة ناس بني يزقن، 1901، أرشيف القيّاد. وتوفي بعد إحصاء 1905، وقبل إحصاء 1907، إذ عدّ في الأوّل، واختفى في الثاني؛ ينظر: سجلّ جريدة ناس بني يزقن، 1905-1907، الأرشيف نفسه.

4- عدّت لأوّل مرّة في إحصاء الكرفي لسنة 1912؛ ينظر: سجلّ جريدة الكرفي، 1910-1916، أرشيف القيّاد، ص80، 81. و لم تظهر في إحصاء 1911؛ ينظر: سجلّ جريدة الكرفي، 1910-1916، الأرشيف نفسه. ممّا يدلّ على أنّ سنة 1912 هو التاريخ المرجّح لميلادها.

5- توفّيت يوم 31 مارس 1915، وعمرها سنتان؛ ينظر: سجلّ المواليد والوفيات، 1914-1916، أرشيف القيّاد.

6- توفيت بعد وفاة والدها، يوم 12 مارس 1917، وعمرها سنتان ونصف؛ ينظر: سجلّ المواليد والوفيات، 1917، أرشيف القيّاد.

7- توفيت يوم 25 أفريل 1916؛ ينظر: سجلاّت المواليد والوفيات لسنة 1916، أرشيف القيّاد.

8- عمرها في إحصاء 1886، 11 سنة؛ ينظر: سجّل جريدة ناس بني يزقن، 1886، أرشيف القيّاد.

9- عنوانها: نهج سيدي بن عروس، عدد: 58، تونس.

10- تنظر الشهادة، مؤرّخة في 01 أوت 1923: مكتبة مفدي زكرياء، بني يزقن.

11- شعراء الجزائر في العصر الحاضر، لمؤلفه وناشره ومفسّر ألفاظه: محمد الهادي السنوسيّ الزاهريّ، المطبعة التونسيّة، نهج سوق البلاط، عدد 57، تونس-تونس، ط1: 1344-1926، ج1 ص150.

وذكرت أوّل وثيقة معلومات أنجزها مركز الاستخبارات والدراسات (CIE) لمحافظة الجزائر، بتاريخ 1939/04/19، أنّ ميلاده كان خلال 1909[1]، وهذا التاريخ تكرّر في سائر وثائق المعلومات التي أنجزت عنه إلى سنة 1955، حيث نجد وثيقة معلومات أنجزها بوليس الاستخبارات العامّة (PRG) بالجزائر العاصمة، حدّد تاريخ ميلاده فيها بيوم 15 أفريل 1910[2].

وسجّل مفدي زكرياء تاريخ ميلاده في بطاقة التعريف التي كتبها لـــ"الديوان المخطوط للثورة الجزائريّة" كالآتي: 12 أفريل 1913[3].

أمّا ترجمته المسجّلة في ظهر أغلفة دواوينه الثلاثة "اللهب المقدّس" و"تحت ظلال الزيتون" و"من وحي الأطلس" فقد اتّفقت على مولده في شهر أفريل 1913؛ وهو ما ذكره مفدي في الحوار الذي أجراه معه بلقاسم بن عبد الله في 1972/08/05، وزاد عليه ما يلي: «فيما يقال»[4].

وهكذا نجد لمفدي زكرياء دورا بارزا في هذا الاختلاف الكبير في تاريخ ميلاده، سببه فيما نعتقد ضعف ذاكرته، وبُعْدُ الوثائق التي أنجزها الإدارة الاستعماريّة عنه عن مصدر المعلومة.

إنّ أهمّ مصدر في هذا المجال هو أرشيف قيّاد بني يزقن، لقربه من مصدر المعلومة من جهة، فقد كان القائد يتعامل مباشرة مع رؤساء العشائر؛ ولتنوّعه من جهة أخرى، ممّا يسهّل أمر التأكّد من صحّة معلومة ما من سجلاّت مختلفة ومتنوّعة، وبالرغم من نقصه، فقد مكّننا من تحديد سنوات ميلاد إخوة وأخوات مفدي:

عندما سافر مفدي زكرياء بمعية والده ثاني مرّة، ورد في تصريح سفرهما، المؤرّخ في 1916/05/02: «سليمان بن يحي بن الشيخ، وابنه زكري 08 سنوات»[5]، أي: أنّه ولد سنة 1908؛ ويعضد هذا التاريخ استدعاؤه للتجنيد الإجباريّ، بتاريخ 1928/03/27، ولا يكون ذلك إلاّ في سنّ العشرين[6]؛ كما أنّ هذا التاريخ تؤكّده أوّل وثيقة معلومات أنجزها قائد بني يزقن حول زكري بن سليمان، مؤرّخة في 1937/04/02، فقد ذكر فيها أنّ عمره

1- ينظر: وثيقة المعلومات، 4I87، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ والملحق626.

2- ينظر: مدوّنة معلومات، بإمضاء جون فاشو (Jean Fachot)، المحافظ المركزيّ، 1955/12/27، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة القائم العام للدولة الفرنسيّة بتونس إلى الوالي العامّ للجزائر، رقم: 4/824، 1922/10/02، 22h18، الأرشيف نفسه، وثيقة من صفحتين؛ أرفق بها قائمة للطلبة المزابيّين الذين يدرسون بالمدارس التونسيّة، بالإضافة إلى أعمارهم، وثيقة من صفحة واحدة؛ حدّد فيها سنّ زكري بن سليمان بـــ: 12 سنة.

3- ينظر: صورة من البطاقة بخطّ يده، مجلّة "الثقافة" الجزائريّة، أرشيف مفدي زكرياء بمكتبته. وتاريخ إنجازها هو 1974/10/17.

4- شاعر الثورة التحريريّة مفدي زكرياء في الصحافة الوطنيّة، من جانفي 1986 إلى جويلية 1987، عيسى وموسى محمد، ط: 1987، صورة المقال الصادر في جريدة "النصر" الجزائريّة، في 18 و19 أفريل 1986، ص32.

5- ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص94.

6- ينظر: سجلّ التجنيد، 1920-1940، أرشيف القيّاد.

29 سنة[1]، وهو ما تجمع عليه في الأغلب جميع الوثائق المتوفّرة من هذا الأرشيف، وهو ما يفنّد روايات: 1909 و1910 و1913. أمّا رواية 1907 فواضح أنّها نفس رواية "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، ووقع الخطأ في السنة فقط، فقد استصدر والد مفدي تصريحا للسفر له ولابنه محمد يوم 1905/07/03[2]، ووجدنا ما يدلّ على وجوده بمدينة عنابة في شهر فيفري 1906[3]، ثمّ لم نعثر له على أثر بأرشيف القيّاد والقضاة على السواء، إلى جويلية من سنة 1907، حينما أخذ تصريحا بالسفر في اليوم الثاني منه، متوجّها إلى مدينة عنابة[4].

وفي يوم 1907/12/28، توفّي ابن أخيه إبراهيم بن محمد بن يحي بن الشيخ الحاج سليمان، وتأخّر بيع متروكه بسوق بني يزقن إلى يوم 1908/02/16، ويدلّ هذا التأخير على انتظار رجوع وليّه، وهو عمّه سليمان بن يحي، الذي يظهر اسمه في عملية البيع، فقد اشترى العديد من مخلّفات الفقيد، كما نجده يسهم في "معروف قبر الغريب"، الذي جمعت تبرّعاته بتاريخ 1908/03/31[5]. ويبدو أنّ عودته هذه السريعة على غير عادته –المشار إليها سابقا[6]– ليس فقط للقيام بهذا الواجب نحو ابن أخيه، وإنّما لانتظار المولود الجديد أيضا، فقد أحضر معه ابنه محمد بعد غياب دام ما ينيف عن السنتين، فقد ذُكر معه في تصريح السفر إلى عنابة المؤرّخ في 1908/07/09، وغاب والد مفدي بعد ذلك كعادته إلى سنة 1910[7].

إنّ سفر سليمان بن يحي في شهر جويلية من سنة 1907 يفنّد تماما رواية ميلاد مفدي في 12 جوان 1908، ويرجّح مقابله مولده في شهر أفريل. وفي شهر أفريل اختلف بين يومي 12 و15 منه، وإذا كان ورود هذين الرقمين في تاريخ ميلاده لم يأت من فراغ، فإنّنا نلاحظ ارتباط الأوّل بالتاريخ الهجريّ في رواية 12 جمادى الأوّل 1326هـ، بينما لم يقترن الثاني بغير التاريخ الميلادي؛ وعليه أرجّح أن يكون ميلاد مفدي زكرياء يوم **12 ربيع الأوّل 1326هـ، 15 أفريل 1908م**، وهو يدلّ على أنّ الخلط في رواية "شعراء الجزائر في العصر الحاضر" إنّما وقع بين ربيع الأوّل وجمادى الأوّل[8].

1- ينظر: سجلّ البريد الصادر، 1935–1939، المراسلة رقم 191، 1937/04/02، أرشيف القيّاد.

2- ينظر: سجلّ التساريح، 1892-1908، تصريح رقم: 260، أرشيف القيّاد.

3- ينظر: سجلّ البريد الصادر، 1902–1913، المراسلة رقم 64، 1906/03/15، أرشيف القيّاد، ص 138، 139.

4- ينظر: سجلّ التساريح، 1892-1908، تصريح غير مرقّم، أرشيف القيّاد.

5- ينظر: دفتر معروف قبر الغريب، 1908–1920، أرشيف القيّاد.

6- وهو السفر إلى مدينة عنابة بمعدّل مرّة كلّ سنتين.

7- فلم يحضر بيع متروك أخته المتوفاة لالة بنت يحي بسوق بني يزقن، بتاريخ 1908/09/25؛ ينظر: سجلّ التركات، رقم: 09، أرشيف القيّاد. ولم يحضر تقسيم تركتها لدى القاضي، وأناب عنه وكيله الحاج صالح بن محمد بن صالح؛ ينظر: سجل التركات 06، تركة: 146، 1326/09/25هـ/ 1908/10/21م أرشيف القضاة، ص174.

8- وما يؤكّد هذا التاريخ هو طلب القائد البارود للاحتفال بيوم المولد يوم 1908/04/14، وعادته طلب تصريح شراء البارود للاحتفال بالمولد النبويّ الكريم يوما واحد قبل يوم المولد؛ ينظر على سبيل المثال: 1907: سجلّ البريد الصادر، 1902–1913، المراسلة رقم 88،

يقول مفدي عن نشأته: «ترعرعت في واحة بني ميزاب، بقرية (بني يسجن)، بين جيرة كريمة، قد استحوذت على منصّة الإجلال والاحترام من بين قلوب العقلاء قديما وحديثا، فأدخلني والدي سليمان بن يحي بن الشيخ المكتب، لتعلّم كتاب اللّه، وشيء من القوانين الفقهيّة التي لا يسعني جهلها»[1]. ولم يذكر شيئا عن هذا المكتب، غير أنّ رسالة له من تونس في العشرينيّات، تفصح عن معلّمه بهذا المكتب قبل سفره إلى عنابة، وربّما في الشهور القليلة التي رجع فيها إلى بني يزقن بعد ذلك، فهو يطلب في آخرها من والده في بني يزقن تبليغ سلامه إلى «عمّنا وأستاذنا المحترم الوقور الشيخ الحاج إبراهيم ابن ادريسو»[2].

وعندما بلغ سنّ السادسة أخذه والده معه إلى مدينة عنابة، كفعله بابنه البكر محمد سنة 1903[3]، فقد استصدر تصريحا بالسفر له ولابنه زكري يوم 1914/06/18[4]، وعمره آنذاك ستّ سنوات. لم يذكر مفدي فيما كتبه، أو فيما أفضى به لمحاوريه بأنّه واصل دراسته في مدينة عنابة[5]، فكلّ ما ذكره عنها في ترجمته الذاتيّة هو تردّده بينها وبين مسقط رأسه بني يزقن، قبل أن يسافر إلى تونس[6].

ولم يتردّد على بني يزقن بين سفره الأوّل وسفره إلى تونس سوى مرّتين:

الأولى: كانت بعد سنة ونيّف من فراقه لها، وذلك بعد وفاة أخته الصغرى فافة في 1915/03/31، وميلاد

1907/04/25، أرشيف القيّاد، ص203؛ و1908: السجلّ نفسه، المراسلة رقم 114، 1908/04/14، ص260؛ و1909: السجلّ نفسه، المراسلة رقم130، 1909/04/03، ص318.

1- شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 150.

2- ينظر: رسالة مفدي إلى والده، 1343/07/10هـ، [1925/02/04م]، ورسالة مفدي إلى الشيخ الثمينيّ، غير مؤرّخة، كتبها في نفس تاريخ سابقتها، بالنظر إلى محتواها، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، بني يزقن. والمعلّم هو الشيخ الحاج إبراهيم بن امحمد بن سليمان بن صالح ابن دريسو (1868-1930)، أخذ العلم عن والده، وعن القطب الشيخ اطفيش. ابتدأ حياته العلميّة معلّم صبيان، من تلاميذه محمد بن الحاج صالح الثمينيّ؛ ينظر: معجم أعلام الإباضية2: 49. وفي إحصاء المحاضر الموجودة بني يزقن، في 1907/09/20، ذكر القائد محضرة الشيخ الحاج إبراهيم بن محمد في بيته، عمره 40 سنة، يدرّس فيها القرآن من غير أجرة، وتاريخ فتحها 1897؛ ينظر: سجلّ البريد الصادر، 1902-1913، مراسلة رقم 195، أرشيف القيّاد، ص224.

3- ينظر: سجلّ التساريح، 1892-1908، تصريح غير مرقّم، أرشيف القيّاد.

4- ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص69.

5- عثرنا -بعد تمام البحث-، بفضل الأخ يحي بوراس، على "تعاليق حول حياة شاعر الثورة الجزائريّة مفدي زكرياء"، لأحد زملاء دراسته بتونس، بابا بن إبراهيم بوعروة، من أبناء بعثة الشيخ صالح بن الحاج علي باعلي، أنجزها بتاريخ 1408/02/19هـ، 1987/10/12م، وفيه ممّا يشير إلى دراسته بعنابة قوله: «وفي دار البعثة كنّا نتلقّى دروسا متنوّعة، ومن أهمّها حفظ كتاب الله الكريم، حيث انتُدب لذلك معلّم خاصّ، حافظ للقرآن الكريم، وملمّ بجميع قواعد رسم كتابة المصحف الشريف، وبما أنّ زكرياء عند وصوله لتونس قد اختتم سورة الكهف، شرع في حفظ سورة الإسراء، وفي فترة وجيزة أتمّ حفظه، لفرط ذكائه» تعاليق حول حياة شاعر الثورة الجزائريّة المرحوم مفدي زكرياء، بابا بن إبراهيم بوعروة، مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي، ببني يزقن، وثيقة مخطوطة من 03 صفحات، ص02.

6- ينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 150.

أخته حنّة، في بداية نفس السنة؛ وشاءت الأقدار أن يعود إلى بني يزقن ليشهد وفاة والدته، في 1916/04/25[1]، وهو ابن ثماني سنوات، وسافر مع والده بعد أسبوع أو يزيد من وفاها، فتصريح سفرهما كان مؤرّخا في 1916/05/02[2].

والثانية: كانت في سنة 1919، بعد وفاة أخته حنّة في 1917/03/12، ليتعرّف -على الأرجح- على زوج والده الجديدة، ثمّ ليغادرها وأبوه بتاريخ 1919/12/04[3] أو بعده بقليل إلى عنابة، ومنها كان سفره إلى تونس، ولم يعد بعدها إلى بني يزقن إلاّ في أواخر سنة 1925.

1- ينظر: سجلاّت المواليد والوفيات، 1916، أرشيف القيّاد.

2- ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص94.

3- ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص145.

الفصل الثاني: في البعثة العلمية المزابية بتونس

إنشاء بعثة الشيخين اطفيش والثمينيّ:

يقول الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ في بحث له حول الجالية المزابية بتونس: «ومنذ سنة 1917 تكوّنت في تونس بصورة منظمة بعثة علميّة ميزابيّة[1] موزّعة على مختلف معاهدها العلميّة، تحت إشراف رؤساء ساهرين على مصالحها»[2]. وهو ما يؤيّده ما رواه الشيخ يوسف بن بكير العطفاويّ من أنّه سافر إلى تونس في فاتح 1917[3]، وكان من ضمن مجموعة الطلبة التي انتقلت من القرارة إلى تونس للدراسة برفقة الشيخ أبي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى.

وفي رسالة الشيخ محمد الثمينيّ إلى الشيخ امحمد بن أحمد الباروني، مؤرّخة 1352/12/08، [1934/03/24]، يتحدّث فيها عن وفاة قاضي محكمة غرداية، الشيخ أحمد بن عيسى قزريط، أحد زملاء سنوات الدراسة الأولى بتونس، فيتذكّر ذلك العهد، فيقول: «[../..] أطلت عليك الكلام، وأخذت عليك جزء من وقتك بتلاوة هذه الأفكار التي قد يكون فيها الدرّ والخزف، ولكن كيف العمل وأنا مشتاق إلى أخي إلى درجة أصبحت معها أودّ محادثته ولو عن بعد بواسطة؟ /وأيّ لذة أعظم من محادثة الإخوان الذين شربوا كأس الهناء مترعة يوم كانوا في عنفوان الصبا، وميعة الشباب لا يكدّر صفوهم همّ، ولا يثقل كاهلهم شغل. آه يا أخي، ولّى الشباب وأعقبه المشيب، وأصبح كلّ منا مثقلا بالأشغال والهموم ومتاعب الحياة، وكلّما ظنّ أنّه دنا من آماله شبرا بعدت عنه ذراعا، فوارحمة الله على أيام الكفتة والزيت والخل والقارص، وهزل الشيخ الباروني، ودعابة الشيخ قزريط، وانفعالات الثميني، وفلسفة الشيخ اطفيش، وتبسم ورقرقة عيون الشيخ أبي اليقظان، ولطف الشيخ يوسف، وجد وتهوّر الشيخ الحاج أحمد، ودروشة مسعود المصريّ، وكسل بوحجام، وخبث صالح بن علي. كلّ ذلك ولّى ومضى مع أمس الدابر، ولا أمل في عودته، وتفرّق كلّ أولئك عن الثميني، وبقي وحده متحمّلا أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم، ويجترّ ذكرياتهم الحلوة الحامضة، وهكذا شأن الدنيا، جمع وافتراق، هزل وجدّ، شباب وشيب، راحة وتعب، صفو وكدر، هناء وهمّ، فراغ وشغل، ثمّ بعد ذلك كلّه حياة وموت، جعلني الله وإيّاك ممّن استقاموا على

1- في هذه العبارة إشارة واضحة إلى البعثة التي سبقت تحت إشراف الشيخ أبي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، سنة 1914، و لم تدم طويلا، إذ امتدّت من ماي 1914 إلى فيفري 1915؛ ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر3: 186.

2- ينظر: البحث، بخطّ عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، غير مؤرّخ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص5. وهو بحث أنجزه ردّا على أسئلة محدّدة في هذا الموضوع، وقد رجّحنا نسبته إلى الشيخ، لأنّ ابن عمّه وتلميذه عبد العزيز، نسخ كثيرا من إنتاجه، عندما كان يعمل معه في مكتبته، ويعينه في شؤون البعثة.

3- ينظر: فوائد تاريخيّة مرويّة عن الشيخ يوسف بن بكير العطفاويّ، كراس رقم 04، من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف.

الطريقة»[1]. وفي هذه الفقرة إشارة واضحة إلى تلك الأيام الأولى التي تشكّلت فيها البعثة المزابية بتونس من زملاء دراسة جمعهم طلب العلم في الزيتونة وغيرها، جاء بعضهم مجموعة مع الشيخ أبي اليقظان، وقد ذكر منها في الرسالة اثنان، هما الشيخ يوسف، وبوحجام، وجاء البقية فرادى، وتعتبر هذه المرحلةُ المرحلةَ الأولى لهذه البعثة قبل مرحلة استقبال طلبة صغار في سنّ البلوغ أو دونه، في ثلاثة ديار مستقلة، تحت إشراف الشيخ أبي اليقظان، والشيخ صالح بن الحاج علي باعلي، والشيخ أبي إسحاق اطفيش.

وسنهتمّ في دراستنا هذه ببعثة الشيخ أبي إسحاق اطفيش، والشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ من بعده، لأنّها البعثة التي تشكّل فيها وعي مفدي زكرياء، وتحدّدت بعض توجّهاته الأساسية في الحياة، ولعدم امتلاكنا مصادر حقيقية يمكن التعويل عليها بالنسبة للبعثتين الأخريين[2].

روى محمد علي دبوز عن الشيخ أبي إسحاق اطفيش أنّه سافر إلى تونس سنة 1917، لإتمام دراسته العالية في جامع الزيتونة[3]؛ وقد أخذ تصريحا بالسفر من بني يزقن متوجّها إلى الجزائر، بتاريخ 1917/05/07[4]؛ وفي 1335/08/19هـ، [1917/06/09م]، بعث برسالة إلى بني يزقن، جاء فيها: «أمّا بعد، فأفضل السلام، وأزكى التحية، وأحسن الإكرام [...] على الجهبذ المحترم، النبيل الألمعيّ، السميّ اللوذعيّ، عمنا يوسف بن يحي، والشهم الغيور الأحوذيّ، محمد بن الحاج صالح، آل ضياء الدين الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم [...] إنّي بلغت قالمة بسلامة من الله، ولطف منه، وقد تعذّر استخراج رخصة السفر إلى تونس بالجزائر تعذّرا، ورجوت من الله تسهيلها من هنا، بفضله وكرمه، وإنّ الأهوال متراكمة جدّا، بحيث لا يستطيع أحد التماس أمر من متولّى، فإن يسّرها الله تعالى فذلك المراد، وإلاّ:

ما كلّ ما يتــمنّى الــمرء يدركه، تجري الرياح بــما لا تشتهي السفن.

ويكون العود إلى الجزائر إن شاء الله، هذا وإنّ المأمول قبول العذر من محضر كرمكم في إرجاء مكاتبتكم إلى الآن[...]»[5]، ويبدو أنّه وفّق إلى الحصول على رخصة السفر من قالمة إلى تونس لينزل بها في النصف الثاني من شهر جوان 1917، وذلك بعد سفر الشيخ أبي اليقظان ومجموعته بشهور، فقد حلّت بتونس في جانفي من هذه السنة، بحسب رواية الشيخ يوسف بن بكير.

1- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- فبعثة الشيخ صالح بن الحاج علي باعلي، لم أعثر لها على أثر من وثائق أو دراسات. وأمّا بعثة الشيخ أبي اليقظان فالمعتمد فيها كتاب محمد علي دبوز، وقد اعتمد فيه على الرواية الشفهيّة من الشيخ أبي اليقظان وبعض تلاميذه في البعثة، بالإضافة إلى الشيخ أبي إسحاق، وقد حاولت قدر الإمكان التثبّت منها، من خلال ما توفّر لديّ من وثائق تخصّ بعثة اطفيش والثمينيّ تحديدا.

3- ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر3: 235.

4- ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص107.

5- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

والرسالة تدلّ فيما تدلّ عليه على العلاقة الوثيقة التي كانت تجمع الشيخ أبا إسحاق بالشيخ الثمينيّ وعمّه يوسف حتّى قبل سفرهما إلى تونس، فهو يراسلهما لمجرّد إعلامهم بمراحل رحلته، ويعتذر لتأخّره في مكاتبتهما، ممّا قد يدلّ على أنّ فكرة سفر الشيخ الثمينيّ إلى تونس للدراسة قد كانت في ذهن الشيخ وعمّه منذ ذلك الحين أو قبله، فهو مهتمّ بتتبّع رحلة صديقه إلى تونس في جميع مراحلها، ولا يستبعد -تبعا لذلك- أن يكون الذهاب إلى تونس للدراسة ممّا تمّ تخطيطه بين الشيخين بمعية العمّ يوسف بن يحي، ويمثّل سفر الشيخ أبي إسحاق الخطوة الأولى في الخطّة، لأنّ سفر الثمينيّ كانت تعترضه عقبة كؤود تتمثّل في رفض والده سفره إليها في ذلك الحين؛ ففي رسالة بعث بها العمّ يوسف بن يحي الثمينيّ من قالمة، حيث كان موجودا هو وأخوه صالح[1]، مؤرّخة في 1917/11/20، إلى ابن أخيه محمد بن الحاج صالح في بني يزقن، يجيبه فيها عن استفساره عمّا فعله مع والده في شأن سفره إلى تونس لمتابعة دراسته، وخلاصة جوابه أنّ والده راغب جدّا في أن يواصل دراسته بما ينفعه دينا ودنيا، غير أنّه يخشى عليه من أمر التجنيد، فالوضع حرج، ولا يريد المخاطرة، وعليه أوصاه عمّه بالصبر والتريّث، فالفرصة ستسنح لا محالة[2]. ونفس هاجس السفر إلى تونس نجده في مسوّدة رسالة بعثها الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق، غير مؤرّخة، غير أنّ محتواها يدلّ على أنّها كتبت بعد سابقتها قريبا، جاء فيها: «أخبرني بارك الله فيك، هل جرى بينك وبين والدي كلام عن قدومك إلى تونس؟ وهل شكر صنيعك أم كفره؟»[3].

إنّ هذه الفرصة لم تسنح -فيما يبدو- إلاّ في أواخر سنة 1918، فتصريح سفره إلى قالمة مؤرّخ في 1918/12/18[4]، وذلك بعد عودة والده من قالمة[5]، فقد كتب ردّا على تعزية على لسان والده، بتاريخ

1- سافر الحاج صالح بن يحي الثمينيّ من بني يزقن إلى قالمة بتصريح سفر مؤرّخ في 1916/10/12؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص101. وكان سفر يوسف بن يحي الثمينيّ مع ابنه عبد العزيز، بتصريح مؤرّخ في 1917/07/27، وكان ضامنه في سفره هذا ابن أخيه محمد بن الحاج صالح الثمينيّ؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، الأرشيف نفسه، ص110.

2- نصّها كالآتي: «[...] وقولك أن أخبرك [عن] أمر تونس. نعم اعلم [يا] ابن الأخ لمّا بلغت هنا سالما كلّمت أخي والدك عن ذلك، وأجابني بأنّ له رغبة في ذلك جدّا لولا مخافته عليك من أمر التجنيد. كما في علمك، لكنت فيها، ولكن الوقت متحرّج جدّا، المكث هناك مع السلامة أحسن من المخاطرة مع الندامة، وسيأتي وقت انتهاز الفرصة لاقتناء ثمرات العلوم إن شاء الله في أقرب الأوان، فالصبر لها واجب وأنسب للحال من العجلة. الحاصل إنّ في غرض والدك أشدّ الرغبة فيك أن تنال العلوم النافعة دينا ودنيا، ولم يجد لأسبابها سبيلا في هذه الآونة الحرجة هذا قصده وأنت لازم الصبر ما استطعت مع والدك حتى يجد للقصد سبيلا [...]» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- وفيها ما يدلّ على علاقة أدبية حميمة جمعتهما، بالرغم من احترام وتقدير الثميني، للشيخ أبي إسحاق، فهو يخاطبه في افتتاح الرسالة قائلا: «حضرة العلامة، نابغة العصر، عمنا إبراهيم بن الحاج محمد بن الحاج إبراهيم»، وتتمثّل هذه العلاقة في تبادل المحاولات الشعرية، من ذلك أن يذكر له أبياتا قالها مهنّئا والده بالعيد سنة 1335هـ، ووالده إذّاك بقالمة، ثمّ أبياتا في قصّة البرغوث، قالها مفاكهة، ويعقّب عليها بقوله: «واصفح عنّي فيما قلته من الألفاظ المستهجنة، إذ المقام رياضيّ ينافي الأدب» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص128.

5- كان الضامن لداود بن عمر تمينة في سفره إلى أفلو، بتصريح مؤرّخ في 1918/04/20؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص118.

1918/10/02[1]، والمؤكّد أن يكون سفره من قالمة إلى تونس بعد ذلك مباشرة، فقد جاء الشيخ الثمينيّ –بحسب دبوز– إلى تونس للتعلّم في جانفي 1919[2].

أمّا الشيخ صالح بن الحاج علي باعلي فتصريح سفره إلى قالمة كان في 1918/03/29[3]، فيكون استقراره بتونس في أفريل من نفس السنة. وفي رسالة مؤرّخة في 24 جانفي 1919، وجّهها من سوق اهراس السيّدان: الزغبة إبراهيم بن محمد بن الحاج إبراهيم، وخالدي سليمان بن الحاج بكير بن عدون، إلى الشيخين: صالح بن الحاج علي باعلي، وأبي إسحاق إبراهيم اطفيش، وإلى ابنيهما تباعا: الزغبة صالح بن إبراهيم[4]، وخالدي محمد بن سليمان[5]، نستفيد منها ما يلي:

1- إذا كان الشيخ صالح قصد تونس بعد الشيخ أبي إسحاق بنحو سنة كاملة، فقد سبقه إلى استقبال الطلبة للإشراف على تعلّمهم بتونس، فالخطاب في الرسالة موجّه إليه بالدرجة الأولى، باعتباره المسؤول المباشر على هذا المشروع الذي كان في شهوره الأولى، فلا توجد إشارة إلى وجود طلبة غير الإثنين المذكورين في الرسالة، كما أنّ والد التلميذ الزغبة صالح يخبر في رسالته الشيخ صالح عن إرسال ملابس شتوية لابنه مع السيّد لولو سليمان.

2- ثمّ إنّ أبا إسحاق كان مقيما مع الشيخ صالح في محلّ خاصّ بهما بتونس العاصمة، وليس مع الشيخ أبي اليقظان، وربّما كان "العلوّ" الخاصّ بالمزابيّين، الكائن في سوق البلاط[6]، أو دار بعثته الكائنة بنهج المدرسة

---

[1]- بعثها إلى السيد بشير بن محمد الزراري، بعد تعزيته لوالده في فقد أخيه الحاج بكير بن يحي؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[2]- ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر3: 249، وهو ما لم يوثّقه بذكر المرويّ عنه.

[3]- ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص117. وقد سافر قبل هذا التاريخ إلى قالمة سنة 1908، و1912، وكان سفره في سنوات 1904، و1915، و1916، و1917 إلى ورقلة، وهو ما يدلّ على أنّ هذه المرة الأولى التي يسافر فيها إلى تونس.

[4]- كان عمره آنذاك في حدود 10 سنوات، وقد غادر وأبوه بني يزقن، بتصريح سفر إلى سوق اهراس، مؤرّخ في 1916/09/25، وكان عمره آنذاك 07 سنوات، ثمّ لا نجد أثرا لسفره من بني يزقن بعد ذلك إلاّ في تصريح سفر باسمه واسم والده إلى سوق اهراس أيضا، مؤرّخ في 1923/08/09؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص100، و200.

[5]- كان عمره آنذاك 10 سنوات، وهو العمر المسجّل في تصريح سفره وأبيه إلى قالمة، بتاريخ 1919/10/19، ولا نجد اسمه مذكورا في تصريح سفر والده إلى سوق اهراس، في 1918/10/23، ثمّ نجد تصريح سفر إلى قالمة باسمه فقط، مؤرّخ في 1923/06/18؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص142، و126، و197. وكونه عاد إلى بني يزقن في سنته الأولى من الدراسة، قد يدلّ على تخلّيه عنها، ذلك أنّ نظام البعثة المزابية بتونس كان لا يسمح بعودة التلميذ إلى وطنه بعد سنة أو أقلّ، إلاّ أن يكون هذا النظام لم يستقرّ بعد، في أوّل هذا العهد الجديد للبعثة.

[6]- ففي الرسالة حديث عن إرسال دراهم من متبرّع لدفع مصاريف الكهرباء لهذا "العلوّ"، ممّا قد يدلّ على إقامتهما فيه؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، وأعلام الإصلاح في الجزائر3: 249. وهذا العلوّ قديم، ففي تاريخ 1330/07/01هـ، 1912/06/15م، وقع اتّفاق يتعلّق بتسيير أوقاف المزابيّين بتونس، ورد فيه حديث عن: «محلّ اجتماعهم لمصالحهم، وهو "العليّ" المشهور لاجتماعهم بسوق البلاط»؛ ينظر: سجلّ أوقاف المزابيين بتونس، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

السليمانيّة، المجاورة لدار بعثة الشيخ أبي اليقظان[1]، بعد انتقاله إليها بمناسبة استقباله تلاميذ بعثته.

3- وفي الرسالة إشارة إلى اتّصالات وترتيبات، تمهّد لحضور وفد إلى تونس يتشكّل من أعضاء من الجالية اليسجنية بسوق اهراس وقالمة؛ وسوق اهراس متقدّمة في ذلك -بحسب الرسالة- على قالمة، إذ لم يصل من هذه الأخيرة خبر في هذا الشأن[2]؛ وربّما كان لهذا الوفد علاقة بهذا المشروع الجديد، يتعلّق بالدعم المادّي للمشروع، لينطلق انطلاقة جيدة، فالخطاب في الرسالة موجّه إلى الشيخين، مع وجود أمين للمزابيين بتونس، ووجود من هو أقدم منهما بتونس، كالشيخ صالح بن يحي، ممّن يقوم على أوقاف ومصالح المزابيين بها؛ كما أنّ هذا الأمر يتزامن مع التحاق الشيخ الثمينيّ بتونس قادما إليها من قالمة، ثمّ لحق به -على الأرجح- ابن عمّه عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ[3]، فقد تمّ تسجيله في مدرسة "السلام" للشيخ الشاذلي المورالي، في منتصف شهر جوان 1919[4].

أقام الشيخ الثمينيّ، وابن عمّه عبد العزيز من بعده، في تونس بالمحلّ الذي كان يسكن فيه صديقه الشيخ أبو إسحاق اطفيش، بالإضافة إلى طليعة التلاميذ الذين استقبلهم الشيخ صالح بن الحاج علي باعلي، وتحت إشراف هذا الأخير، فقد عثرنا على حساب لمصاريف إبراهيم بن عمر بن داود دواق، أحد أوائل التلاميذ الذين استقبلهم، ذكر فيه ثلاث دفعات لمصاريف مجملة، دفعها عنه للشيخ صالح باعلي[5]، ثمّ لا أثر لدفعة أخرى، ونجد بدلها تفصيلا دقيقا لما صرفه على هذا التلميذ، على عادة الشيخ في متابعة مصاريف تلاميذه في سائر الكراريس[6]، وتتزامن آخر دفعة مع بداية العام الهجريّ الجديد، وفيه يتمّ عرض البيوت للكراء بالمزاد العلنيّ، وهو التوقيت الذي اختاره -في تقديرنا- الشيخان اطفيش والثمينيّ للاستقلال عن الشيخ صالح باعلي في بيت يستقبلون فيه تلاميذهم[7]، فكان

---

[1]- ينظر: تعاليق حول حياة مفدي زكرياء01.

[2]- نقرأ في الرسالة ما يلي، بعد تصويبه قدر الإمكان: «أخي الحاج محمد خرج من مزاب يوم الإثنين، وحين يصل نعزم على السفر إلى تونس بحول الله. لولو سليمان، ومحمد بن محمد يحضرون يوم الإثنين، أمّا أهل قالمة فلا خبر من عندهم» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- كان سفره من بني يزقن مع والده إلى قالمة، وتصريح سفرهما يحمل تاريخ 1917/07/27؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص110.

[4]- لأنّ وصل دفع مصاريف الدراسة لهذا الشهر، كان بقيمة 3.50 فرنكا، وهو نصف قيمة مصاريف الدراسة لشهر كامل في مدرسة "السلام"، كما أنّ أوّل شهادة من شهادات "عنوان الفخر"، حصل عليها التلميذ عبد العزيز، كانت مؤرّخة في 1337/09/07هـ، 1919/06/16م، لحفظه حزب ﴿ويا قوم ما لي أدعوكم﴾[سورة غافر، الآية41] من القرآن الكريم؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[5]- أوّلها في 1338/11/04هـ، 1920/07/20م، وآخرها في 1339/01/02هـ، 1920/09/15م؛ ينظر: كرّاس مصاريف الشيخ الثمينيّ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[6]- كان يخصّص لكلّ تلميذ كرّاسا، يسجّل فيه كلّ صغيرة وكبيرة من مداخيله ومصاريفه، محدّدة في أغلب الأحيان بتاريخ اليوم.

[7]- وعليه نجد في حسابات كلّ من الشيخ الثمينيّ، وعبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، ومحمد بن الحاج بكير الثمينيّ، وإبراهيم بن عمر دواق، مناب كلّ واحد منهم من كراء الدار، مؤرّخا في جميعها في 1339/01/21هـ، 1920/10/04م، وقدره واحد: 155.55 فرنكا، وهو -في تقديرنا- الدفعة الأولى منه للأشهر الأربعة الأولى من سنة 1339هـ؛ ينظر: كراريس حساباتهم، أرشيف الشيخ الثميني، بتونس. بل ونقرأ ضمن مداخيل إبراهيم بن عمر دواق، في كرّاسه الجديد الذي افتتحه الشيخ الثميني يوم 1339/02/04هـ، 1920/10/18م، ما يلي: «دفع من أثاث الطبخ

البيت المشهور في نهج بئر الأحجار، عدد 13.

هذه الرغبة في الاستقلال ببيت خاصّ بهما يفسّره عدم انسجام شخصيتيهما مع شخصية الشيخ صالح باعلي، لفارق السنّ بينهما، وتمايز التوجّه في الحياة بين من هو متوافق مع ما هو كائن، وبين راغب في تغييره لعدم رضاه به أو ببعضه، أضف إلى ذلك قوّة شخصيّتيهما، زكّاها تمتّعهما ببسطة في العلم لم تكن للشيخ صالح، وربّما عدم توافقهما أيضا معه في طريقة تسيير البعثة بحسب ما يمكن أن نستشفّه ممّا ذكرناه سابقا، فكان الافتراق بذرة أنبتت خلافا، سيتأكّد ويستحكم مستقبلا.

لا يمكن للشيخين فتح هذا البيت[1] إلاّ وفي نيّتهما استقبال تلاميذ للإشراف على تعلّمهم بتونس، وكان هذا الهدف من رحلة الشيخ اطفيش إلى بني يزقن التي امتدّت من منتصف شهر مارس[2] إلى أواخر شهر أوت 1920[3]؛ وسفر الشيخ الثميني إلى قالمة، في شهر جويلية من نفس السنة، أو قبله بقليل. أمّا الشيخ الثمينيّ فقد اهتمّ بالدعم المادّي للمشروع من مدينة قالمة متوسّلا له بما له ولعائلته من مكانة لدى الجالية المزابية بها، وهي في أغلبها يسجنية، أمّا جهده في إقناع أولياء التلاميذ بإرسال أولادهم للتعلّم في تونس، فكان محدودا بحدود عائلته، ومن متّ إليها بصلة كآل دواق، لأنّ الشيخ الثمينيّ كان حينذاك شابّا لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وكان هو نفسه طالب علم في تونس، فكانت هذه مهمّة الشيخ اطفيش في مزاب، وبني يزقن بصفة خاصة[4].

وكان من نتائج هذا الترويج لمشروعهما قبل رحلتهما عن طريق الرسائل، وفي أثنائها، أن رافق التلميذ إبراهيم بن عمر بن داود دواق الشيخ الثمينيّ لدى عودته إلى تونس في 1920/07/20[5]؛ وفي 1920/09/23

من الدار الأولى: 54.90»، وهو ما يدلّ على انتقالهم إلى دار جديدة قريبا؛ ينظر: كرّاس مصاريف إبراهيم بن عمر دواق، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

1- ورد في رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخ الثمينيّ، 1920/12/22، ما يلي بعد تصحيحه قدر الإمكان: «وتقبّل طردين في البريد باسمك، عنوانهما: الثميني محمد بن صالح، نهج بئر الأحجار، عدد 13، بتونس»، وذكر العنوان في الرسالة يدلّ على جدّته على المرسِل، فهو يتثبّت من صحّته لدى المرسَل إليه؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وفي كراس مصاريف الشيخ ورد بتاريخ 1339/12/23هـ، 1921/08/27م، ما يلي: «كراء الدار التي نحن ساكنون فيها إلى نهاية ذي الحجة 1340هـ، بثمن مقداره 2220.00، لزم عليها مصروف الكتابة والدلالة والإعلان 127.50، المجموع 2347.50، دفعت إلى مجموع كمون[كذا] القسط الأوّل من هذا العدد، مع المصاريف بتمامها: 867.50» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- فتح له الشيخ الثمينيّ حسابا خاصّا به في كراسه، يوم 1920/03/20، سجّل في أغلبه ما ترتّب من مصاريف على إرسال كتب وحاجات إلى الشيخ أبي إسحاق في بني يزقن؛ ينظر: كرّاس مصاريف الشيخ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- سجّل تصريح سفره من بني يزقن إلى سوق اهراس، يوم 1920/08/27؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص157.

4- ذكر في ترجمة الشيخ عبد الله بن محمد بوراس الكامليّ، أنّ الشيخ أبا إسحاق «رأى فيه سمات النبوغ، فاقترح على والده أن يرسله إلى البعثة الميزابية بتونس» معجم أعلام الإباضية3: 576.

5- ورد هذا التاريخ، في كرّاس الشيخ الثمينيّ، عند الحديث عن أوّل مدخول لهذا التلميذ: «له دراهم من أبيه أعطاها لي في قالمة يوم السفر 200 فرنكا»، ثمّ ما يلي: «عليه كراء من قالمة إلى تونس 59.45 فرنكا»؛ ينظر: كرّاس مصاريف الشيخ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. ولم أجد

استقبل الشيخ الثميني تلميذه الثالث محمد بن الحاج بكير الثمينيّ[1]، وإذا كان مؤكّدا تسجيل هذا الأخير في مدرسة الشاذلي المورالي، في أكتوبر من السنة الجارية، فمن المستبعد تأخّر تسجيل دواق فيها لمدّة شهرين كاملين، بحسب ما يمكن أن نستنتجه من وصل مصاريف الدراسة في مدرسة "السلام"، المؤرّخ في نوفمبر 1920[2].

أمّا الشيخ أبو إسحاق اطفيش فقد استقبل سبعة من تلاميذه، هم: عبد الله بن محمد بن بكير بوراس[3]، وصالح بن محمد بن عيسى بن يوسف باحريز[4]، وسليمان بن محمد بن الحاج سعيد ابليدي[5]، وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحاج البكاي[6]، وزكرياء بن سليمان بن يحي بن الشيخ الحاج سليمان (مفدي زكرياء)، وجميعهم من بني يزقن، وداود وأخوه بكير ابنا عمر بن أحمد بن داود امعيز، من مليكة. ولا نملك تاريخا محدّدا لوصولهم إلى تونس، وظهور أسمائهم لأوّل مرّة في وصل دفع مصاريف دراستهم بمدرسة "السلام" لشهري فيفري ومارس 1921[7]، لا يدلّ على تاريخ التحاقهم بهذه المدرسة، ولا على تاريخ وصولهم إلى تونس بالتبع، لأنّ الوصل باسم الشيخ الثمينيّ، وهم طلبة الشيخ اطفيش، فلا

لخروج دواق من بني يزقن أثرا في سجلات التساريح.

1- في أوّل صفحة من الكراس الخاصّ بمصاريفه أثناء الدراسة بتونس نقرأ ما يلي: «كتب يوم 08 محرم الحرام 1339هـ، ويوم 23 سبتمبر 1920م: وصل محمد بن المرحوم عمنا الحاج بكير، مع عمّنا إبراهيم بن يحي في اليوم المذكور» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وقد سافر محمد بن الحاج بكير مع والده إلى قالمة، بتصريح سجّل في 1917/08/06؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص111.

2- نقرأ في الوصل، بإمضاء الشيخ الشاذلي المورالي، ما يلي: «الحمد لله، دفع السيد الفاضل، الزكيّ الأمجد، سيدي محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، خمسة وأربعين فرنكا ونصف. وذلك معلوم أبناء الجميع، النجباء: عبد العزيز، ومحمد بن بكير، وإبراهيم بن عمر؛ عن الأوّل لثلاثة شهور آخرها نوفمبر الجاري، وعن الثاني والثالث لشهرين آخرهما نوفمبر أيضا» أرشيف الشيخ الثميني، بتونس. ولم نعثر في حساب مصاريف هذا التلميذ على أثر لدفع مصاريف دراسته قبل شهر أكتوبر، ومن المحتمل أن يكون دفعها الشيخ صالح بن الحاج علي، باعتباره مشرفا على جميع التلاميذ الذين تستقبلهم بعثته، حتّى من استقبله غيره، فتكون هذه المصاريف داخلة في الحساب الذي قدّمه الثمينيّ مجملا إلى الشيخ بين شهري جويلية وسبتمبر. وإذا لم يطبّق هذا النظام على عبد العزيز الثمينيّ، فلأنّه ابن عمّه.

3- كان سفره مع والده إلى قالمة، وتصريحهما أرّخ في 1920/07/25؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص155. يقول الشيخ عبد الله بوراس في ذلك: «وكان كاتب هذه الحروف من الرعيل الأوّل، حيث قدم إليها في شهر نوفمبر سنة 1920» مشروع تأريخ للبعثة العلمية المزابية بتونس، الشيخ عبد الله بن محمد بن بكير بوراس، غير تامّ، كرّاس صفحاته غير مرقّمة، أرشيفه الخاصّ ببني يزقن.

4- سافر من بني يزقن مع عمه عمر بن عيسى باحريز إلى شلالة، بتصريح سفر مؤرّخ في 1916/04/22؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص93.

5- سافر مع والده إلى الجزائر، وتصريح سفره مسجّل في 1919/07/04؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص136.

6- سافر مع والده وأخيه عمر إلى الجزائر، بتصريح سفر مؤرّخ في 1919/12/30؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص146.

7- الوصل الخاصّ بشهور نوفمبر وديسمبر 1920، وجانفي 1921، ذكر فيه الأبناء الثلاثة؛ أمّا وصل شهري فيفري ومارس 1921، ذكر فيه أسماء عشرة تلاميذ؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثميني، بتونس.

يدلّ ذلك إلاّ على أنّ الثمينيّ قام بهذه المهمّة في غياب اطفيش[1].

ولأنّ وليّ كلّ تلميذ استأمن على ابنه شيخا بعينه، التزم كلّ واحد منهما بمتابعة مداخيل ومصاريف تلاميذه بنفسه، أداء للأمانة على وجهها، فلا يكلّف بها زميله إلاّ في حالة غيابه، ففي كرّاس مصاريف حمو بن سليمان بن قاسم رمضان، أو (رمضان حمود)، ورد ما يلي: «يوم 06 ربيع الثاني 1340هـ، و07 ديسمبر 1921م، دخل في جماعة التلامذة، على يد كاتبه: محمد بن صالح بن يحي الثمينيّ»، ممّا يدلّ على أنّه التلميذ الرابع للشيخ الثمينيّ، وبعد تصفية حسابه إلى تاريخ 1922/03/15، نجد مكتوبا بخطّ الشيخ أبي إسحاق اطفيش: «تسلّمت من الأخ محمد هذه الكرّاسة يوم 03/15[/1922]»، ويمتدّ خطّ الشيخ اطفيش في الكرّاس إلى أن نقرأ بخطّ الثمينيّ: «يوم 28[/1923/01] اتّصل بيدي هذا الحساب [...]»[2]، بعد غياب للشيخ الثمينيّ طويل ببني يزقن.

أمّا الدعم الماديّ، فيتمثّل فيما كان يتبرّع به المحسنون على القائمين على هذه البعثة، بالإضافة إلى أبي اليقظان وبعثته، فقد كان التنسيق بينهما تامّا، إلى درجة اعتبارهما بعثة واحدة في دارين مختلفتين. مثال ذلك ما نجده في رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1920/12/22، حيث يقول: «وبعد، فإنّك تقبل يا محمد بداخل الجواب خمسمائة فرنك، منها: إلى الشيخ إبراهيم اطفيش 200. إلى عمر بن الحاج محمد[3] 100. إلى الشيخ الحاج إبراهيم بن عيسى القراري [أبي اليقظان] 200. الجميع يقبلوه منّي حقّ الله الكريم»[4].

وفي كراس الشيخ الثمينيّ الذي افتتحه في 1338/05/30هـ، 1920/02/21م، في ورقة المداخيل، بين جويلية وديسمبر 1920، وهي فترة فتح الدار الجديدة، بما تتطلّبه من مصاريف كبيرة، نجد الشيخ الثمينيّ قد تقبّل من

---

[1]- في كراس مصاريف الشيخ الثمينيّ حساب خاصّ بالشيخ اطفيش، ورد فيه ما يلي: «يوم 21 ماي 1921: عليه من قبل 07 أولاد، معلوم مدرسة لشهري أبريل وماي 84.00 فرنكا» أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. وقد امتدّ هذا الغياب إلى شهر أكتوبر 1921، فآخر وصل عثرنا عليه لمصاريف دراسة التلاميذ العشرة في هذه المدّة، كان لشهور أوت وسبتمبر وأكتوبر 1921، بقيمة 195 فرنكا؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[2]- ينظر: كراس مصاريف رمضان حمو بن سليمان بن قاسم، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[3]- هو عمر بن الحاج محمد بن الحاج محمد بن عبد الله اطفيش، ولد بعد سنة 1886، فلم يرد اسمه في إحصاء سكان بني يزقن تلك السنة؛ ينظر: سجّل جريدة ناس بني يسقن، 1886/05/15، أرشيف القيّاد. سافر من بني يزقن إلى سوق اهراس، بتصريح تاريخه 1919/05/22؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، الأرشيف نفسه، ص134. وكان قيّما على الشؤون المنزلية في هذه البعثة، بعد استقلال الشيخين في دارهما الجديدة بنهج بئر الأحجار، وقد التحق بالدار في شهر نوفمبر 1920، إذ نجد في كراس حساب التلميذ إبراهيم دواق منابه شهريّا من أجرة عمر اطفيش 20.00 فرنكا، بداية من شهر نوفمبر، واتّصل إلى 07 أفريل 1921، وهو مرتفع نسبيّا، يفسّره قلّة عدد المسهمين في دفعه في الشهور الأولى؛ ويبدو أنّه أدرج ضمن مصروف الأكل الذي بقيت قيمته واحدة 20.00 فرنكا أسبوعيا، حتّى بعد ارتفاع عدد المسهمين فيه باستقبال التلاميذ الجدد؛ والمؤكّد أنّ السيّد عمر اطفيش بقي في وظيفته إلى حين مغادرة مفدي زكرياء في أواخر سنة 1925؛ ينظر: كراس مصاريف إبراهيم بن عمر بن داود دواق، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[4]- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

عمّه يوسف بن يحي، مبلغ 1300 فرنك على خمس دفعات[1].

ومن الأكيد إسهام المحسنين أيضا في كراء الدار، فقد سجّل في حسابات أفراد البعثة مناابهم من كراء الدار لسنة 1339هـ يوم 1920/10/04، وهو مقدّر بـ 155.55 فرنكا، وفي 1921/09/10 سجّل منابهم من الكراء لسنة 1340هـ، بقيمة 78.95 فرنكا[2]، وهي قيمة لا تفي بكراء الدار للسنتين، إذ كان عدد الساكنين في الدار لا يتجاوز في أبعد تقدير 15 شخصا، وهو يدلّ على أنّ المحسنين تكفّلوا بقسم من ثمن الكراء، وما بقي منه قسّم على أفراد البعثة مشرفين وتلاميذ.

كان كراء دار البعثة بنهج بئر الأحجار، عدد 20، يتمّ بالمزاد العلنيّ، في شهر ذي الحجة من كلّ سنة، للسنة القادمة، وهو ما سبّب عنتا كبيرا لرؤساء البعثة كلّما حان موعد تجديد الكراء، خاصّة في السنوات الأولى، بعدها أصبح يجدّد الكراء سنويّا بطريقة آلية بداية من سنة 1344هـ[3]، يشهد لتلك المشقّة هذا المقطع من رسالة الشيخ اطفيش من بين عدّة رسائل موجّهة إلى الشيخ الثمينيّ أيّام سعيه إلى تجديد كراء الدار لسنة 1341هـ، أو كراء دار جديدة، حيث يقول: «قد منّ اللّه علينا بالمكث بمحلّنا، بدون زيادة عن سعر العام الماضي، بعد مقاساة آلام وأتعاب، بعد السعي وراء ما ينوف عن عشرين محلاّ. منها ما جمع المرافق، ومنها الفاقد لها، ومنها إلخ، بعد أن كاد يفوت هذا من أيدينا، بعد أن عوّلت على صرف الأبناء إلى أهليهم، إذ رأيت ارتفاع أسعار المنازل بكيفية فاحشة حتّى تراكمت الشكوى على الحكومة في ذلك [...].

ومن السرّ العجيب أن وجم الناس كلّهم عند المناداة بالدار في الديوان عن الزيادة حتّى بعض الأوروبيّين، والحمد للّه. وقد حاولت أن يخفضوا لنا حيث لم تقع الزيادة، بعد استفتاحهم على قاعدة (ميزابري) [Mise à prix] الأوروبي. وكان الأفندي (القاضي) إذ ذاك محمد بن يوسف، الأستاذ، فلم أنجح [...] والفضل في تعضيدي في ذلك للأخوين أبي اليقظان وأبي يعقوب [يوسف بن بكير]، وهما يبلّغانك التحيّة القلبيّة، ويعذلانك في عدم المكاتبة، مع أنّ مكتوبك ينتظر كهلال البشارة»[4].

وفيما سبق إشارة واضحة إلى سعي الشيخ اطفيش إلى كراء محلّ آخر، وفي رسالة أخرى يفضي إلى الشيخ

1- تفصيله كالآتي: «07/28 قبلت من عمّنا يوسف 200. 09/19 قبلت من عمنا يوسف على يد الشيخ 200. 10/08 قبلت من عمنا يوسف بن يحي من قالمة 300. 11/10 قبلت من قالمة على يد عمنا يوسف 300. 12/12 أخذت من عمنا يوسف إذ كان هنا 300»؛ ينظر: كراس مصاريف الشيخ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ينظر: كراريس مصاريف أفراد البعثة في هذه الفترة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بمكتبة الاستقامة؛ وبتونس.

3- نقرأ في رسالة عمر اطفيش إلى الشيخ الثمينيّ، 10/24/[1343]هـ، [1925/05/17]م، ما يلي: «وبعد، فقد دفعت كراء الدار، 690 [فرنكا]، لأربعة أشهر الباقية من السنة. وقع ذلك في 15 شوّال [1343هـ]، ولم يذكَرْ لي تجديد الكراء حسب عادتهم، وتركته كذلك حتى تقدم. وأيضا لم يوجد عندهم من يريد الكراء» أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- رسالة غير مؤرّخة، غير أنّ محتواها يحدّده بأواخر أوت، أو أوائل سبتمبر 1922، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

الثمينيّ قائلا: «وقد حصل لي كدر جدّا، وتعبت في هذا السبيل، ولا سيّما عدم علمي بمآل المحلّ الذي نحن فيه، ولست بمسرور به جدّا. أسأله تعالى أن يمنّ علينا بمحلّ يليق بنا هذه المرة، و لم آل جهدا في ذلك»[1]. وفي رسالة الشيخ الثمينيّ إلى والده، مؤرّخة في 1923/08/13، يقول في شأن الدار: «وقد كنت مشتغلا بكرية [الدار]، ولّما لم أجد دارا تليق بنا، جدّدت كرية هذه الدار التي نحن فيها، بثمن أخفض من العام الماضي، فقد كانت في العام الماضي بـــ2500، وفي هذا العام بـــ 1900، وبهذا تتحسن الحالة إن شاء الله»[2]. وقد آل الأمر في كلّ مرّة إلى تجديد كراء الدار الأولى[3]، بنهج بئر الأحجار، عدد 20، لتأخذ نصيبها من التاريخ، فتمتدّ عقودا من الزمن عنوانا لهذه البعثة المزابية بتونس، وتخلّدها جملة من الصور التي أخذت في فنائها لطلبة البعثة في عدّة سنوات أوّلها سنة 1923، وفيها مفدي زكرياء يحمل مجلة "الوفاق"[4].

في محاضرة للسيّد عبد العزيز إبراهيم بن داود[5] ألقاها ببني يزقن سنة 1983، تعرّض لوصف هذه الدار، فممّا جاء فيه: «تقع الدار في جهة متطرّفة من "القصبة" بتونس، بعيدة عن الشغب، والحركات الكثيرة الواقعة في المدن الكبيرة. وهي عبارة عن دار كبيرة ذات فناء واسع، يتوسّط ذلك الفناء غرف واسعة هي غرف التلاميذ للمدارسة والمطالعة والعمل الجدّي. وفي العلوّ [الطابق الأوّل] غرفة واسعة للنوم، مع أخرى أصغر منها. وفي الفناء جبّ لتجميع مياه المطر، وبئر قديمة حيّة لوقت الحاجة، وفي جهة من الفناء غرفة للصلاة، ومقرّ رئيس البعثة الشيخ الثمينيّ، مع غرفة صغيرة مسمّاة في اللهجة التونسية "مقصورة المؤونة". وفي الدار سقيفة طويلة بينها أبواب محكمة، وكانت تنتفع البعثة بهذه الدار على سبيل الكراء، وهي من حيث الهواء والشمس والماء ومرافق الحياة في غاية ما ينبغي أن يكون»[6]. وفي رسالة عمر اطفيش إلى الشيخ الثمينيّ يصف له فيها فناء الدار، فيقول: «وإن سألت عن

1- الرسالة، 1922/06/25، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

2- أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3- إذا تتبّعنا النصوص السابقة وجدنا أنّ الدار قد تمّ كراؤها لأوّل مرة لسنة 1339هـــ، من غير أن نعلم بقيمته، ويبدو أنّه كان مقاربا لكراء سنة 1340هـــ: 2200. أمّا كراء سنة 1341هـــ فهو نفس كراء السنة الماضية برواية اطفيش، أو يزيد عليه بـــ 300 فرنكا برواية الثمينيّ، بينما قيمة كراء سنة 1342هـــ: 1900، وأخيرا كراء سنة 1343هـــ: 690 × 3 = 2070، من غير حساب مصروف الكتابة والدلالة والإعلان الذي كان في سنة 1340 يساوي 127.50 فرنكا.

4- تنظر الصورة: الملحق592.

5- هو أحد أبناء هذه البعثة بين سنتي 1938-1947؛ ينظر: كراس مصاريفه في البعثة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

6- بسطة من حياة الشيخ الثمينيّ، محاضرة للسيد عبد العزيز إبراهيم بن داود، 1983/02/02، نسخة مرقونة، مكتبة الاستقامة، ص18. جاء في أوّلها: «[...] كان عنوان هذه المسامرة: من هو الشيخ الثميني؟ خصوصا ونحن على أبواب المهرجان الخاصّ بالفداء [يعني: مهرجان مفدي زكرياء بمناسبة مرور 05 سنوات على وفاته سنة 1983]. ومنبع الفداء، ومدرسة الفداء ومفدي، هي بئر الأحجار، ومنشئ بئر الأحجار هو الثمينيّ، فمفدي حسنة من حسنات بئر الأحجار، وثمرة من ثمرات الثميني وبعثته، لذا كانت هذه المسامرة نافذة لفتح آفاق جديدة لمن يجهل الثمينيّ، ويجهل من كوّن مفدي»01.

وسط الدار فإنّه مظلّل بالعنب، والورد، وحشيشة الحبق، والنعناع، والعطرشاء، وخصوصا في الليل ونور الكهرباء ساطع»[1]. ويقارن الشيخ أبو اليقظان عرضا بينها وبين الدارين الأخريين، في رسالة منه إلى الشيخ الثمينيّ، فيقول: «وصل هنا هاته الأيام [فلان...]، ونزل عند بلحاج [بن يحي، عمّ مفدي]، وعرضتهما [استضفتهما] ذات يوم للعشاء، ثمّ طلب منّي بواسطة الشيخ صالح [بن يحي، عمّ مفدي ...] أن أفتح له باب الدار لينخرط معنا إلخ، فاعتذرت له بكثرة الأولاد وضيق المحلّ، فعدل إلى صالح بن علي، فانخرط معهم، وأصبح كواحد منهم [...]، وليته وجدك هنا، ودارك تلك الدار التي تخلب الألباب فضاء واتّساعا ونقاوة»[2].

التحاقه بها وقضية الحزب الدستوريّ التونسيّ:

لقد كان مفدي زكرياء أوّل تلاميذ الشيخ أبي إسحاق[3] التحاقا بالبعثة[4]، وذلك في حدود 20 جويلية 1920[5]، تاريخ وصول الشيخ الثميني إلى تونس برفقة تلميذه الثاني إبراهيم دواق، وفي غياب الشيخ اطفيش، فأوّل تاريخ سجّله مفدي في الصفحة الثالثة، من أقدم كراسين له، من فترة الدراسة بتونس، هو 12 ذو القعدة 1338هـ، 28 جويلية 1920م، وهو -بلا ريب- تاريخ التحاقه بالمدرسة القرآنية، لأنّ الدروس الأولى المسجّلة على صفحاته

1- الرسالة، 10/04/[1343هـ]، [1925/04/27م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

2- الرسالة، 1925/02/13، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3- وهو ما يفسّر عدم وجود كرّاس مصاريف مفدي بين 1920 إلى 1923 في أرشيف الشيخ الثمينيّ، فذلك لأنّه كان في عهدة الشيخ اطفيش في تلك الفترة، و لم يستلمه الشيخ الثمينيّ إلاّ حين إبعاده إلى مصر، وهذا الأمر لا يخصّ مفدي، وإنّما يعمّ سائر تلاميذ الشيخ أبي إسحاق.

4- يقول مفدي زكرياء لمحاوره عبد المجيد بن جدو في شأن التحاقه بالبعثة: «كان عندي أخي يتردّد كثيرا على تونس، شاهد فيها البعثة الميزابية التي كان يقوم عليها شيخي الجليل، الأستاذ محمد الثمينيّ، صاحب مكتبة الاستقامة، فاقترح على والدي أن يرسلني للدراسة في هذه البعثة الجزائرية من وادي ميزاب. استجاب والدي لهذا المقترح، فذهبت إلى تونس، وعمري 08 سنوات، سنة 1920م تقريبا»؛ ينظر: زيارة خاطفة، حصّة في الإذاعة التونسيّة، لعبد المجيد بن جدو، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون" سنة 1966. إنّ المعلومات الواردة في هذا النصّ في ضوء ما سبق تحقيقه في هذا الشأن، تفتقر إلى الكثير من الضبط، باستثناء اقتراح الأخ على والده إرسال مفدي إلى تونس، وقبول الوالد بذلك، فلا أملك تأكيدا ولا تفنيدا لهذه المعلومة، غير أنّني أرى أنّه إذا كان سفر مفدي إلى تونس باقتراح من أحد، فالأقرب أن يكون عمّه بلحاج الذي كان مستقرّا في تونس، في تللك الفترة، وكان مقرّبا من أخيه سليمان، كما كان مهتمّا بالعلم، قريبا من أهله؛ ينظر: الهامش الموالي.

5- جاء في تعاليق بابا بن إبراهيم بوعروة، في خصوص سفر مفدي إلى تونس ما يلي: «وشاءت الأقدار الربّانيّة أن نسافر سويّا إلى تونس، فتمّ ذلك، حيث كان خروجي من قرية "وادي الزناتي" عشيّة يوم 14 جويلية من سنة 1920، صحبة السيد بلحاج بن يحي بن الشيخ، وهو عمّ زكرياء، متوجّهين إلى مدينة قالمة، ونزلنا ضيوفا على تجارة المرحوم الحاج صالح الثمينيّ، ووجدنا في انتظارنا فيها ابنه الشيخ محمد الثمينيّ، وأخوه عبد العزيز [والصواب: إبراهيم دواق، وليس ابن عمّه، لأنّه كان حينها في تونس] للقدوم معنا إلى تونس. تكلّم [يعني: بلحاج بن يحي] هاتفيّا إلى عنابة لأخيه سليمان بن يحي بن الشيخ طالبا منه إرسال زكرياء مع الرّتل حيث سنستقبله في محطة "بوشقوف"، ليصحبنا إلى تونس، وكان ذلك يوم 16 جويلية سنة 1920، فاكتمل شملنا، وأصبحنا في حاضرة تونس يوم 17 جويلية سنة 1920، وضمّتنا دار المرحوم باعلي الحاج صالح، وعمره إذ ذاك اثنتا عشرة سنة 12، وأدركه البلوغ في ربيع 1921، وفي عمره 13 سنة، فشرع في أداء الصلاة المفروضة منذ ذلك الحين» تعاليق حول حياة مفدي زكرياء01.

الأولى شاهدة على انتظامه في سلكها بعد ابتداء الدروس بقليل[1].

والمدرسة القرآنية التي التحق بها هي مدرسة "السلام" لا غير، وقد ذكر ذلك على غلاف كراريسه الأربعة الأقدم[2]، وما يزيد الأمر تأكيدا هو نشيد بعنوان "سلام مدرسة السلام"، سجّله مفدي على كرّاسه يوم الأربعاء 1339/01/01هـ، 1920/09/14م[3]، جاء في مطلعه:

سلام أهل مدرسة "السلام"، وأبناء الـــمــــعارف والنظام
أمجتمع العلـــوم اسلمْ، وتبقى بقاء الفرقدين علـــى الدوام
فمن يقصد رحـــابكباعتزام يفز فـــوز الجهابذة الكرام[4].

ومدرسة "السلام"، أسّسها الشيخ الشاذلي المورالي بتونس سنة 1333هـ/ 1915م[5]، ويذكر دبوز، رواية عن الشيخ أبي اليقظان، بأنّ المزابيين -من محسنين ومن أولياء تلاميذ- دعّموا الشيخ المورالي في تأسيس مدرسته، بدفع كرائها السنويّ كلّ سنة، لأنّ الشيخ كان مقتدرا في ميدان التربية والتعليم، ولأنّ قلّة التلاميذ في مدرسته تمكّن من الاعتناء بهم بما يضمن تكوينا جيدا لهم، فكان الشيخ أبو اليقظان هو المبادر في هذا المسعى، وتكفّل بدفع الكراء كلّ سنة، وكان مرتفعا[6].

وقد عاد المزابيون إلى دفع كراء المدرسة بعد انقطاع تلاميذهم عن هذه المدرسة، وعن تونس مدّة من الزمن، وأغلب الظنّ أن يكون ذلك عند تجمّع عدد لا بأس به من التلاميذ المزابيين في تونس، في داري الشيخ أبي اليقظان والشيخ صالح بن الحاج عليّ باعلي، وربّما كانت الاتّصالات والترتيبات التي ألمحنا إليها سابقا لهذا الغرض بالتحديد[7]، فيكون ذلك بداية من سنة 1338هـ، 1919/ 1920م. والذي يدلّنا على عودة المزابيّين إلى دفع كراء مدرسة "السلام" رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ يروي فيها تفاصيل مناقشة مطوّلة حادّة بين الشيخين

1- في الحديث: الحديث الخامس، وفي التاريخ: الأعصر التاريخية، وفي النحو: الفعل الماضي والمضارع والأمر؛ ينظر: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

2- غير أنّنا نجد عنوان المدرسة مختلفا بين كراسين، ففي أحد الكراسين الأوّلين: نهج عاشور، عدد 20؛ وفي كراس ثالث، افتتحه يوم الخميس 1338/12/22هـ، 1920/09/06م، عنوانه: نهج منستير، ورقمه غير واضح. ولا ندري أوقع تغيير في العنوان، أم هو مجرد سهو؟

3- وفي هذا تأكيد لما سبق أن فنّدناه ممّا قد يوهمه وصل دفع مصاريف دراسة تلاميذ البعثة العشرة في مدرسة "السلام"، لشهري فيفري ومارس 1921؛ ينظر: ص69.

4- كراس من كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، افتتحه يوم الخميس 1338/12/22هـ، 1920/09/06م، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

5- ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر3: 182. وهو ما ذكره الشيخ الشاذلي المورالي -فيما رواه الشيخ أبو اليقظان- حوار حادّ جمعه بالشيخين أبي إسحاق وأبي اليقظان، حول طريقة تسيير الدروس بالمدرسة، حيث يقول: «آه إذا كانت نتيجة أعمالي في مدة سبع سنين آخرها هكذا أتأخّر عن هذا المشروع» رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1340/09/04هـ، 1922/05/01م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

6- ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر3: 182.

7- ينظر: ص67.

اطفيش وأبي اليقظان من جهة، ومدير المدرسة الشيخ الشاذلي المورالي من جهة أخرى، جاء فيها على لسان الشيخ أبي إسحاق، مخاطبا المدير: «إنّك تعلم يا حضرة المدير علم اليقين، بأنّ ما جئنا إلى هنا لشيء غير تحسين حالة أبنائنا، ونحن لم نتقيّد بك لولا ما نتوسّمه بك من علائم الإخلاص، ولكنّ الإخلاص وحده غير كاف للغرض،/ وقد أخطأت الخطأ كلّه، إذ قلت: «ماذا فعلتم غير كراء هذا المحلّ؟»، فإنّك تعلم ما نبذل من المجهودات داخلا وخارجا، وإنّ أبناءنا نناقشهم ونسائلهم عن أحوال دروسهم، فنستحسن ما يجب الاستحسان، وننتقد ما يجب النقد، ومن الواجب أن تقبل منّا ذلك، وإنّنا لسنا من الناس الذين يروقهم ذهاب وإياب أولادهم بين المدرسة والدار، وإنّما نحن ناس لا نقنع إلاّ بالنتائج، وقد خبرتُ الأولاد في أشياء مختلفة، و لم أجد شيئا من النتائج يذكر في مقابل المجهودات»[1].

إنّ هذا النصّ يشير إلى دعم المزابيّين ورؤساء البعثة لهذه المدرسة –من غير تحديد لهذا الدعم– دعما كبيرا، ولا يقتصر ذلك فقط على دفع كراء المدرسة، وهو ما يفسّر محاسبة رؤساء البعثة لمديرها محاسبة عسيرة عن أيّ تقصير في ذلك؛ ويوضّح متابعتهم لدراسة تلاميذ البعثة متابعة صارمة، فكانوا لا يرضون منهم بغير النجاح، إذ وفّروا لهم جميع شروطه؛ وفي ذلك يقول الشيخ الثمينيّ في بحثه الذي أنجزه حول الجالية المزابية بتونس: «والبعثة العلميّة منهم [أي: من المزابيّين] لها مقرّ خاصّ يشرف على سير العمل فيه علميّا وخلقيّا ودينيّا واقتصاديّا رئيس البعثة. والطالب الميزابيّ في تونس يغلب عليه الاعتناء والجدّ والمثابرة، والعزلة التامة، وعدم الاشتغال بما يصدّ عن الدرس والتحصيل، بسبب البرامج المحكمة التي وضعت له من رؤسائه»[2].

إسهام المزابيين في المدرسة جعل الإدارة الفرنسية تعتبر في بعض تقاريرها مدرسة "السلام" مدرسة مزابية[3]، بالرغم من استقبالها لتلاميذ غيرهم، ومعلّموها تونسيّون جميعهم؛ وتحدّثت في تقرير آخر عن بزملال باحمد بن داود، الذي كان مستشارا بلديّا (Conseiller Municipal) بمدينة قالمة، وممّا سجّل عليه: جمع التبرّعات من المزابيين بالجزائر، وكان قسم منها موجّها للتكفّل بنفقات المدرسة القرآنية "السلام"، التي كان أغلب تلاميذها مزابيين[4].

يقول مفدي زكرياء في ترجمته الذاتية: «كنت من بين أفراد البعثة العلميّة التي قصدت تونس للاكتراع من

1– الرسالة، 1340/09/04هـ، 1922/05/01م، أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة، ص2، 3.

2– ينظر: البحث، بخطّ عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، غير مؤرّخ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص5.

3– نقرأ في رسالة المقيم العام الفرنسيّ بتونس إلى الوالي العام بالجزائر، ما ترجمته: «المدرسة المزابية التي لاحظها حاكم ملحقة غرداية، وحاكم الأغواط موجودة فعلا بتونس. يسيّرها السيّد الشاذلي المورالي، مدير جريدة "المنير" (من حزب الدستور). وله كمعلمين ومراقبين دائمين المزابيان: باعلي بن صالح، واطفيش إبراهيم [...]. المدرسة التي تحمل اسم "مدرسة السلام" هي كائنة بزنقة بوخريص، رقم: 01؛ والتلاميذ الذين تتراوح أعمارهم بين 09 سنوات، و14 سنة، يقيمون عند رقم: 10، شارع المدرسة السليمانيّة»؛ ينظر: نسخة من الرسالة، رقم: 824/4، 1922/10/02، 22h18، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

4– ينظر: نسخة من رسالة المقيم العامّ الفرنسيّ بتونس إلى الوالي العامّ بالجزائر، رقم: 40 C/P، 1921/06/14، موضوعها: علاقة إباضية الجزائر بالوطنيّين التونسيّين، 9h82، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص 01.

مناهلها العلميّة العذبة، تحت رئاسة الأساتذة الأعلام المشايخ: محمد الثمينيّ، وأبي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، والعمّ الشيخ صالح بن يحي السلفيّ[1]، والشيخ إبراهيم اطفيش، صاحب مجلّة (المنهاج بمصر)، فدرست على هؤلاء دروسا دينيّة، وأخرى في الوطنيّة والتضحية في سبيل الوطن العزيز، والأمّة المجيدة»[2].

لقد تزامن انضمام مفدي إلى البعثة العلمية المزابية بتونس، في شهر جويلية 1920، مع اعتقال الزعيم التونسيّ عبد العزيز الثعالبيّ[3]، ثمّ تبعه إلقاء القبض على أحد أعضاده البارزين، الشيخ صالح بن يحي، عمّ مفدي زكرياء، بتاريخ 1920/10/28، بتهمة تهديد أمن الدولة[4]؛ فكان مفدي منذ أيّامه الأولى بتونس على موعد مع الدروس الفعليّة الأولى في الوطنية والنضال، «والتضحية في سبيل الوطن العزيز، والأمّة المجيدة»، مع قضية تجاوزت الحدود الوهمية التي وضعها الاستعمار، يناضل فيها الجزائريّ مع التونسيّ، ويضحّي في سبيلها بكلّ غال ونفيس.

كان الشيخ صالح بن يحي صديقا حميما للزعيم التونسيّ عبد العزيز الثعالبيّ، بذل بدافع من غيرته الدينيّة والوطنيّة جهده، ووقته، وما كسبه من أموال في تجارته، في مناصرة جهاده السياسيّ في تونس وخارجها، وفي مساندة حزبه الذي تأسّس في 14 مارس 1920[5]، ففي رسالة منه إلى الثعالبي، بتاريخ 1920/01/14، يقول فيها: «[...] سألتموني: هل من الضروريّ إرسال نسخ من الكتاب [يعني كتاب الثعالبيّ: تونس الشهيدة] إليك، أو ليس ضروريا لانشغالك بأعمال أخرى؟ ألا تعلمون أنّ التجارة هي دعامة أيّة حركة، وأنّه بفضلها كانت الأمم القويّة قويّة، فإذا انشغلت عن المشروع للاهتمام في المقام الأوّل بتجارتي، فإنّني لا أعمل حينها إلاّ لصالح القضيّة. لا يخفى عليكم أنّ مشاعري وميولي وطموحاتي هي: الإسلام والمسلمون فوق كلّ شيء، ونجاحكم في مسعاكم؛ إنّ هذه المشاعر هي من القوّة في نفسي، بحيث لا أريد شيئا آخر، وليس لي من هدف سواه»[6]، ويقول في رسالة أخرى، مؤرّخة في 1920/03/31: «بعد رحيلك اهتممت بمعية الأصدقاء، بالمشروع في جانبه المادّي. لقد دفعت من مالي الخاصّ فيما سبق 5.000 فرنكا من 20.000 التي أرسلتها إليك كدفعة أولى، وإنّي أدفع كذلك 5.000 فرنكا أخرى، على سبيل السلف، ممّا يرفع قيمة ما دفعته إلى 10.000 فرنك. إنّي اختار أن أبني بناية من مجد على

---

[1]- يقول فيه أحمد توفيق المدنيّ: «كان ملكا في صورة إنسان، ما عرفت في حياتي رجلا مؤمنا كإيمانه، فاضلا كفضله، متواضعا كتواضعه، مجاهدا كجهاده، له وجه تشرق عليه شمس القلب الطاهر، فتنيره بنور الجلال والوقار، وله نفس زكية تبثّ شعاعا من الإيمان واليقين إلى كلّ أطرافه. فما رأيت عضوا من أعضائه إلاّ رأيت فيه نوعا من تجلّي الكمال المطلق، كان كلامه حكمة، وكان عمله جهادا، وكان مبتغاه نفعا لأمّة الإسلام. كان سرّه طهارة السريرة، وكان جهره عنوان الإيمان الصادق الذي هو نعمة الله السابغة على خير خلقه» حياة كفاح1: 156، وينظر نشاط الشيخ صالح في صفوف الحزب الدستوريّ: نفسه1: 194.

[2]- شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 151.

[3]- ينظر: الحزب الحرّ الدستوريّ التونسيّ74.

[4]- وقد ألقي عليه القبض صحبة الحاج محمد الرياحيّ. ينظر: الحزب الحرّ الدستوريّ التونسيّ72.

[5]- ينظر: الحزب الحرّ الدستوريّ التونسيّ62.

[6]- ينظر: الرسالة، رقم: 15، ملفّ محاكمة الشيخ عبد العزيز الثعالبي، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، وثيقة تربو على 700 صفحة، ص327.

أن أبني مسكنا؛ سأكون دائما في الصفوف الأولى، ولو أدّى ذلك إلى التضحية بكلّ ما أملك [...].

والله لو كنت غنيّا، لوددت أن اهتمّ بالمشروع وحدي، ولكن ما العمل، فالمشروع ما زال في مرحلته الأولى؟ لكن ومهما يكن من أمر، فلن أتراجع عن الوعود التي قطعتها على نفسي مرارا. ما قيمة المال إذا لم يحقّق لمن يملكه مجدا حقيقيّا؟»[1]. وقد أنهكه هذا الجهد الذي بذله، فأدّى في نهاية المطاف إلى افتقاره، فقد جاء في رسالة الشيخ الثمينيّ إلى والده سنة 1923: «أمّا الشيخ صالح [بن يحي] فهو عاجز حتّى عن معيشته في هذا العام»[2].

لقد كان الشيخ صالح بن يحي، واسطة بين الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ من جهة، ورؤساء البعثة العلميّة المزابية بتونس، لتعرّفه إليه قبل مجيئهم إلى تونس[3]، والمزابيين عموما من جهة أخرى:

أدخل الشيخ أبا إسحاق اطفيش -بعد طول إلحاح- في الجمعية السرية التي كانت مقدّمة لحزب الدستور، عند وصوله إلى تونس سنة 1917، ثمّ أصبح عضوا عاملا في الحزب منذ نشأته[4]: نشر عدة مقالات سياسية في بعض الصحف التونسية والجزائرية؛ وأرسله الشيخ الثعالبي في مهمات سريّة إلى الجزائر، ليربط حركته بحركة الأمير خالد، فقام بثلاث سفارات[5]، لم تأت في نهاية المطاف بالنتيجة المرجوة، لأنّ ظروف الجزائر -على حدّ قول الأمير خالد- غير ظروف تونس؛ وعمل على بثّ الدعاية للحزب في الجزائر كلّما سافر إليها، فعندما وقع الحزب في ضائقة مالية كبيرة، سارع إلى الجزائر، وجمع من المزابيين -في قالمة وسوق اهراس- 20.000 فرنكا، كانت سببا في انفراج الأزمة[6]؛ وقال معقّبا على هذه الجهود: «لقد كنّا نعدّ العمل في حزب الدستور جهادا في سبيل الله، وعملا للجزائر أيضا، وواجبا نؤدّيه إلى تونس التي أحبّتنا وأحببناها، وكان حماسي وحماس الطلبة الكبار النبغاء [يعني: طلبة البعثة العلمية المزابية بتونس] لحزب الدستور عظيما، فاتّجهت إليّ أنظار أعداء الحزب في تونس،

1- السابق532.

2- الرسالة، 1923/08/13، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. وينظر أيضا: أعلام الإصلاح في الجزائر3: 230.

3- في رسالة للشيخ صالح إلى الثعالبي، رقم: 08، 1919/10/05، جاء في ختامها: «حاج إبراهيم [يعني: الشيخ أبا اليقظان] غادر تونس إلى مسقط رأسه، وسيعود /قريبا [...]. اطفيش [يعني: الشيخ أبا إسحاق]، ويوسف [يعني: الشيخ يوسف بن بكير]، والإخوان يبلّغونك سلامهم» ملفّ محاكمة الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ139، 140. ويعني بالإخوان: طلبة البعثة العلمية الكبار، لأنّه سبق أن بلّغه سلام الإخوان في الحزب.

4- ينظر إسهام المزابيّين في الحزب الدستوريّ: التمهيد، ص28، 29.

5- يفهم من سياق حديثه أنّ الأولى كانت سنة 1919، وصرّح أنّ الثانية في سنة 1920، ولم يحدّد تاريخ الثالثة؛ ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر 3: 235، 236. ولعلّ أثر سفارة سنة 1920 نجده في هذا المقطع من رسالة للشيخ صالح إلى الثعالبيّ، رقم 35، 1920/03/27: «نقلت حرفيّا -بحسب مبتغاكم، وعن طريق البريد- إلى صديقنا المشترك، الفقرة الخاصة في رسالتكم بـــ[الأمير] خالد، وأظنّ أنّه سيفعل ما تريدون» ملفّ محاكمة الشيخ عبد العزيز الثعالبي526.

6- ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر3: 235، 236. وما لخّصته هنا من نشاط الشيخ أبي إسحاق، والتعقيب الموالي هو ممّا رواه الشيخ نفسه للأستاذ محمد علي دبوز، في جلسة جمعته به بمنزله في المطرية (القاهرة)، بتاريخ 1383/07/29هـــ، 1963/12/15م.

فسدّدوا إليّ سهامهم، ووشوا بي إلى الفرنسيين في تونس، فنفوني منها»[1].

ويتحدّث الشيخ أبو اليقظان عن تكوين الشيخ صالح سنة 1917 شعبة من شعب الجمعية السرّيّة التي أنشأها الثعالبي، تتشكّل من 06 مزابيّين، يترأسها الشيخ صالح، وكانت لهم جلسات أسبوعيّة[2]، كانت سببا في توثّق علاقة أعضاء البعثة بالشيخ الثعالبي، فكان أن اصطفى الشيخ الثعالبي الشيخ أبا اليقظان ليملي عليه مقالاته، فكان يقصد دار بعثة الشيخ أبي اليقظان أغلب أيام الأسبوع لهذا الغرض، «وكان [الشيخ أبو اليقظان] يكتب في عدة صحف يومية يحامي عن حزب الدستور، وينشر دعوته، ويردّ على مقالات خصومه الذين يهاجمونه في الصحف»[3].

وعند دخول الشيخ الثعالبي السجن، ضبطت رسائل في السجن جاءته من مزابيّين، وذلك بتاريخ 1920/09/06، وهم بالإضافة إلى الشيخ أبي اليقظان: الرئيس الثالث للبعثة العلمية المزابية بتونس الشيخ صالح بن الحاج علي باعلي، وعلي بن عمر، ومسعود بن الحاج بكير، وبكير بن الحاج سليمان، ممّا يدلّ على مكانة الزعيم التونسيّ في نفوس المزابيّين، ومعاضدتهم له في نضاله، يقول في ذلك أحمد توفيق المدنيّ: «وكان الكلام يومئذ عن قضية بلاد ميزاب، وأكّد القوم بما لا يحتاج إلى دليل آخر أنّ ميزاب بلاد حماية لا بلاد استعمار، وإنّهم يطالبون باحترام معاهدة الحماية التي أرغموا عليها، فقضية بلاد ميزاب من هذه الناحية هي نفس قضية تونس، وإحراز تونس على حقّها، يفتح الباب لإحراز ميزاب على ما ضمنته لها المعاهدة. لذلك كنت أرى هذا الوفد المبارك[4]، يغار على قضية تونس غيرته على بلاده، وكلاهما في نظره من بلاد لا إله إلاّ الله محمد رسول الله. /حتّى إذا تأزّمت الحالة بتونس، وتقرّر إرسال الوفد، ولم يكن المال الموجود كافيا، سافر البطل الشيخ صالح بن يحي إلى ميزاب[5]، وجمع منها المال، وصبّ في خزينة الوفد يومئذ أربعين ألف فرنك»[6].

لقد كشفت محاكمة الشيخ الثعالبي، والشيخ صالح بن يحي، عن العلاقة الوثيقة بين حركة الدستور والمزابيين

---

[1]- السابق3: 236.

[2]- ينظر: نفسه3: 234. والمزابيون الستّة هم: أبو اليقظان، والشيخ يوسف بن بكير، والشيخ عبد الله بن إبراهيم أبو العلاء، والناصر بن صالح ملال، وأحمد بن الحاج إبراهيم بن كاسي، وعمر بن محمد بوحجام. وما ورد هنا وما يليه هو ممّا رواه محمد علي دبوز عن الشيخ أبي اليقظان.

[3]- ينظر: نفسه3: 232، 233. وينظر نماذج ممّا كان ينشره الشيخ أبو اليقظان في الصحافة التونسيّة: النشاط العلميّ والفكريّ للمهاجرين الجزائريين بتونس378.

[4]- ويعني به -بحسب السياق الذي جاء فيه- المزابيين الموجودين آنذاك بتونس، وخاصّة الشيوخ: صالح بن يحي، وأبا إسحاق، وأبا اليقظان.

[5]- والحقّ أنّه لم يسافر إلى مزاب، وإنّما قام -على الأرجح- بجولة في مدن التلّ خاصة عمالة قسنطينة، فهو غادر مزاب سنة 1916، بتصريح صادر بتاريخ 1916/02/21؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص91. ولم يعد إليها إلاّ سنة 1927، أو قبلها بقليل، بالنظر إلى التصريح الذي استصدره يوم 1927/06/22؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، الأرشيف نفسه، ص267. ولا نجد أثرا لتصريح آخر بين هذين التصريحين، ممّا يدلّ على أنّه لم يدخل مزاب طيلة هذه المدة.

[6]- حياة كفاح 1: 157، 158.

في مزاب، وفي مدن التلّ الجزائريّ، وتونس، فقامت السلطات الاستعمارية في تونس والجزائر بتحقيق واسع لتحديد طابع هذه العلاقة، والمتورّطين فيها[1].

ومن الذين تابعتهم السلطات الفرنسية في هذه القضية، والد مفدي سليمان بن يحي، إذ اعتبرته أحد وسطاء أخيه الشيخ صالح بن يحي، بينه وبين الوطنيين بمزاب، فقد اكتشفت السلطات الاستعماريّة في مدينة قالمة، نزوله يوم 13 أوت 1921 ضيفا على آل بزملال، قادما من الجزائر، وهو في طريقه إلى عنابة، فعقد اجتماعا ليلا في منزل مضيفه السيد بزملال باحمد بن داود، حضره ثلّة من المزابيين المتعاطفين مع الحزب الدستوريّ التونسيّ، وكان اجتماعا سرّيّا لم تتمكّن السلطات الاستعمارية من معرفة وقائعه، فخلصت إلى أنّ والد مفدي قصد قالمة في مهمّة، لأنّه لم يتّصل بأحد غير الوطنيين من بني مزاب في هذه المدينة، و لم يمكث فيها طويلا، فقد سافر إلى عنابة يوم 14 صباحا[2]، غير أنّها لم تستطع إثبات شيء ضدّه، فلا عجب أن نراها تحكم عليه محكمة عنابة في شهر أكتوبر من نفس السنة بخمسة عشر يوما سجنا نافذة، وغرامة قدرها 2.000 فرنكا، بتهمة المضاربة غير الشرعية(Spéculation Illicite)[3]، وسجّلته في الدفتر "B"، بقرار رقمه 2034، ومؤرّخ في 13 ماي 1922[4]، و لم يحذف من هذا الدفتر مثلما فُعل مع غيره، بسبب القرابة التي تجمعه بالشيخ صالح بن يحي، بالرغم من أنّه لم تُسجّل عليه بعد هذه الحادثة أيّ تصرّف مشبوه، وبقي مسجّلا فيه حتّى بعد وفاته[5].

إنّ توقيت المتابعة القضائيّة، والحكم الصادر ضدّه يدلّ على أنّه كان تضييقا من الإدارة الاستعماريّة عليه، وإنذارا، ليرتدع عن سلوك نهج أخيه، ويبدو أنّ هذا الإجراء قد أثّر فيه، فباع دكّان تجارته بعد ذلك بأشهر، في سنة 1922[6]، واستقرّ في بني يزقن إلى حين وفاته[7]، وهو ما يفسّر موقفه من ابنه مفدي عندما دخل المعترك السياسيّ من بابه الواسع في الثلاثينيّات، كما يدلّ على أنّ النضال السياسي لم يكن يعنيه كثيرا بقدر ما كان تعنيه

---

[1]- ينظر: التمهيد، ص28، 29.

[2]- ينظر: رسالة محافظ عمالة قسنطينة إلى الوالي العام، رقم: 20793، 1921/08/19، موضوعها: مراقبة الأهالي، بخصوص اجتماع، 9h82، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة، وممّن حضر الاجتماع: بزملال عمر بن داود، بزملال إبراهيم بن داود، دواق عمر بن داود، باعلي عمر بن الحاج صالح، بوراس محمد بن بكير، تمينة [الثميني] يوسف بن يحي.

[3]- ينظر: مدوّنة معلومات، بإمضاء: كليمون (Clément)، 1922/07/31، 9h96، (CAOM)، ص03.

[4]- ينظر: قائمة المسجّلين من الأهالي في الدفتر "B" في مناطق الجنوب، رقم: 4883، 1922/11/06، 9h96، (CAOM).

[5]- ينظر على سبيل المثال: قائمة المتّهمين المسجّلين في الدفتر "B" إلى تاريخ 1941/03/01، بإمضاء: لهيرو (Lehuraux)، مدير مناطق الجنوب، 1941/05/06، 9h97، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وذلك بعد وفاته بنحو ثلاث سنوات.

[6]- كان عمره آنذاك 64 سنة؛ ينظر: رسالة نائب المحافظ بمدينة عنابة إلى محافظ عمالة قسنطينة، بإمضاء: لوفيشي (Lovichi)، رقم: 1091، 1922/03/07، 9h96، (CAOM)، ص01.

[7]- فلم يغادر بعد هذه الحادثة بني يزقن سوى ثلاث مرّات: في 1923/04/07، و1926/05/26، و1926/11/08؛ ينظر: سجلّ التساريح 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص194، و247، و256.

الأسرة والقيام بمسؤولياته اتّجاهها، فإذا صحّ ما سجّلته عليه الإدارة الاستعمارية في هذه الواقعة، فإنّه لم يقم به -في تقديرنا- إلاّ في غفلة عن تقدير تبعاته.

البعثة والصراع بين المصلحين والمحافظين:

إذا كانت هذه الأحداث قد غرست في ذهن مفدي فكرة النّضال الوطنيّ، وحدّدت رقعته الجغرافية بحدود المغرب العربيّ، فإنّ حادثة أخرى أسهمت في تحديد موقعه ضمن ثنائيّة عرفها المجتمع المزابيّ، وكان لها تأثير خطير في تاريخ مزاب المعاصر، هذه الثنائية هي: "المصلحون" و"المحافظون"، فقد تحدّد معنى المصطلح الأوّل -في تقديرنا- في خضمّ هذه الحادثة، في أدبيات النخبة المزابية التي تبنّته؛ وكانت هذه النخبة تنعت من يقابلها بالمفسدين أو ما شابهه، وفي أحسن الأحوال بالجامدين؛ وبعد ذلك ارتضى الفريق الثاني مصطلح "المحافظون" في مواجهة حركة الشيخ بيوض الإصلاحية في الثلاثينيّات وبعدها، لتترسّخ هذه الثنائيّة بعد ذلك، وتمتدّ من النخبة إلى العامّة، وأصبحت منذ ذلك الحين مؤثّرة أشدّ التأثير في صيرورة المجتمع المزابيّ.

هذه الحادثة كان موضوعها العلوم العصريّة ومدى جدوى تعليمها للناشئة مقارنة بعلوم الشريعة، وهل الأسبقية لعلوم الشريعة على العلوم العصريّة أم يجب الاقتصار على علوم الشريعة، والعلوم العصريّة جدّ ثانوية، ويمكن الاستغناء عنها، كما أنّ بعضها كالفلسفة فيه خطر على معتقد التلميذ ودينه؛ ومنه كان انتقاد البعثة العلمية المزابية بتونس، لأنّ الأحداث فيها يكادون يقتصرون في دراستهم على العلوم العصريّة، وما يدرسونه من علوم الشريعة محدود جدّا، وهي على غير المذهب الإباضيّ.

يذكر الشيخ أبو اليقظان بأنّ القطرة التي أفاضت الكأس، وأشعلت فتيل الصراع، درس ألقاه الشيخ الحاج صالح بن عمر لعلي «في الموضوع في ملإ من الناس، ليلة 29 رمضان المعظم سنة 1340هـ، [1922/05/27م] تحت عنوان الآية الكريمة ﴿يا أيّها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا﴾[1]، ففسّرها بما شاء، وشاءت له الأغراض ضدّ تلكم النهضة المباركة، وبلغ به الهوج إلى أن حكم بالكفر والضلال على كلّ من المعلّم والتلميذ والوالد والقيّم»[2]. عند ذلك كتب الشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش فصلا وجيزا في جريدة "الإقدام" الجزائريّة، عدد 85، مؤرّخا في 1922/06/30، بعنوان: قل هل يستوي الذي يعلمون والذين لا يعلمون[3]، وبإمضاء:

1- سورة التحريم، الآية 06.

2- إرشاد الحائرين، للشيخ أبي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، مطبعة العرب، نهج السيدة العجولة، تونس- تونس، ط: 1341هـ/ 1923م، ص09.

3- ينظر: إرشاد الحائرين09. وقد سبقت مقالة للشيخ أبي اليقظان، غير أنّه لم يكن لها أثر مقالة أبي إسحاق؛ ففي رسالة الشيخ أبي إسحاق إلى الشيخ الثمينيّ، 1922/06/25، نقرأ ما يلي: «وعلى كلّ حال، فالأخ أبو اليقظان بادر بالنشر، وأنا على إثره إن شاء الله»؛ وفي رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1922/06/28، جاء فيها: «والكلام بيني وبينك: ترقّب في خطيب 29 رمضان "الإقدام" الآتي»؛ ويؤكّد

نصوح[1]؛ بعد طول صمت -يزيد على ثلاث سنوات[2]- عن تشويهه للبعثة «للعموم، وتصويرها لهم في أبشع صورة، وإظهارها في مظهر الإفساد الديني والقومي، [...] في مجالسه الخاصة والعامة مباشرة، وبوسائط»[3].

غير أنّ المقال لم يظهر أثره في الشيخ الحاج صالح بن عمر وأشياعه إلاّ في النصف الثاني من شهر جويلية، بعد رجوعه من رحلته إلى القرارة[4]، وتبع المقال أربع مقالات أخرى على الأقلّ: مقال لأبي اليقظان[5]، واثنان لأبي إسحاق: الأوّل في جريدة "الصدّيق"[6]، والثاني في "الإقدام" بعد مرور شهر تقريبا من مقاله الأوّل بنفس الجريدة[7]، ومقال رابع في "الإقدام"، عدد 94، بإمضاء "غيور"[8]. وفي أواخر شهر أوت، بدا واضحا اختيار فريق الشيخ الحاج صالح النزول إلى ميدان الصحافة لمبارزة خصومهم[9]، بعد أن كان

صدورها في رسالة ثانية لأبي إسحاق، 1922/07/03، تنظر الرسائل: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. غير أنّ هذه المقالة لم تصل إلى الشيخ الثميني في بني يزقن، فنجده يتساءل في ردّه على رسالة أبي إسحاق الأخيرة، 1922/07/11، عن مقالة أبي اليقظان، حيث يقول: «وأمّا غيرها [يعني: مقالة أبي اليقظان] فلم نر لها أثرا، سوى أنّي سمعت بكتابة في "النجاح" لأبي اليقظان فاستوردتها، فلم أر فيها أثرا لمسألتنا فيها. الحاصل إن كانت هي التي كتبها في المسألة، فعليه الإعادة بل القضاء» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

1- ينظر: كشف اللثام عن أغراض بعض اللئام، للشيخ الحاج صالح بن عمر لعلي، مطبعة "النجاح"، قسنطينة-الجزائر، 1341/02/14هـ، [1922/10/06م]، ص28.

2- ينظر: إرشاد الحائرين75.

3- نفسه09.

4- ينظر: رسالتا الشيخ الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق، 20 و1922/07/27، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وقد سافر الشيخ الحاج صالح بن عمر إلى القرارة يوم 1922/07/01؛ ينظر: رسالة الشيخ الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق في نفس التاريخ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وقد طلب تصريحا للسفر إلى القرارة، يوم 1922/06/17؛ ينظر: سجلّ البريد الصادر 1921-1926، مراسلة رقم 268، أرشيف القيّاد.

5- يقول في رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، 1922/07/19: «أرجو وصول "الإقدام" بعدها لك، وترقّب القابل، ففيه ما في ذلك، وأخبرني عن آرائك والإخوان فيهما، وستأتي في "النجاح" كلمة عن المدرسة التي يأباها ذلك، وبقية الإفادات أفضي بها إليك، بإذن الله عندما يقرّ قراري، وألقي عصا الترحال هنالك» أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. وفي كلامه إشارة -في تقديرنا- إلى المقال الذي نشره سابقا في "الإقدام"، إذ لم يصل بعد إلى مزاب، بالإضافة إلى مقالين منتظرين، أحدهما في العدد الموالي من "الإقدام"، والثاني في "النجاح"، ولا ندري أنشر هذا الأخير أم لا؟

6- ورد في رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق، 1922/08/13، ما يلي: «وأمّا ما كتبت في "الصديق" بلغ، وعلى غاية /الوضوح، وكان صاعقة على [... يعني الشيخ الحاج صالح] وشيعته، وما يبلغ لي عنه أنبئك به إن شاء الله» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

7- هذا المقال هو بعنوان "إذا حسدت فلا تبغ". ينظر: نسخة من مقالين وجّههما أبو إسحاق إلى جريدة "النجاح" بعد ظهور ردّ عنيف عليه، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. هذا المقال ظهرت الإشارة إليه في رسالة للشيخ مطياز من القرارة إلى الشيخ الثمينيّ في بني يزقن، 1922/08/26، فقد تحدّث عن سماعه بمقال آخر لأبي إسحاق في "الإقدام"، وطلب من صديقه الثمينيّ أن يطلعه عليه إن كان في حوزته؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

8- لا ندري لمن هو؟ ينظر: رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخين أبي إسحاق وأبي اليقظان، 1341/01/10هـ، 1922/09/03م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

9- في الرسالة السابقة للشيخ مطياز، 1922/08/26، حديث عن ردّ للشيخ الحاج صالح، قدر كراسة، وعن ردّ آخر أرسله إلى "الإقدام"؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

الشيخ مكتفيا بدروسه في المسجد، فظهرت المقالات الأولى في أوائل شهر سبتمبر، في "الإقدام"، وفي "إفريقيا"[1]؛ وكان المقال الأبلغ تأثيرا ردّ نشر في "النجاح"، بإمضاء عبد الرحيم العطفاويّ[2]، وقد «تجاوز به حدّ الطعن والنفاق»[3]، قال عنه الشيخ الثمينيّ مخاطبا أبا إسحاق: «فقد كاتبتك قبل على لسان الوالد بأن تكفّ عن الكتابة، والآن أقول على لسانه: لك حرية تامّة بدون منتقد، حيث بلغ السيل الزّبى، وعيل الصبر، وانقطع الرجاء من كل خير. وقد بلغتنا النجاح [...]، والعقلاء مندهشون، والحنق بلغ منتهاه [...]، وما يهيّئونه للطبع أكبر»[4]، كما نُشر مقال آخر للشيخ بكير بن إبراهيم بن بكير قضّي[5].

بعد ذلك كانت الحملة من أبي إسحاق وصحبه ضدّ الشيخ الحاج صالح ومعاضديه، يقول عنها الشيخ أبو إسحاق بتاريخ 1341/01/20هـ، [1922/09/12م]: «أمّا عملنا، فإنّ هذا الأسبوع أسبوع الويل على [...] الفسدة، فمقالة في "الإقدام"، في التعصّب الممقوت، وأخرى في "المبشّر"، تصلك تلو هذا، وأخرى في "المنير" أيضا تصلك بإذن الله، وانتقاد في "لسان الشعب"، وفي "المبشّر". وربّما كتب شيئا مرشد الأمّة [...]، وقد ينضمّ إلى الجميع "النجاح" إن صدق»[6]؛ ويقول في رسالة موالية، بتاريخ 1922/09/19: «وقد كتبت على سقطة [... يعني: بكير بن إبراهيم قضّي][7] مضيفا تلك السخائف إلى [... يعني: الشيخ الحاج صالح لعلي] من وراء حجاب[8]، إذ لم أعر إلى أولئك الزعانيف أدنى التفات، وربّما يتأثّر البعض من ذوي العقل بشدّة اللهجة، [...]

1- أمّا مقالة الإقدام، فنشرت في العدد 93 منه؛ ينظر: رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ السابقة إلى الشيخين، 1922/09/03، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. والمقالة بإمضاء أبي الخطاب، وقد كتب الشيخ الثمينيّ عليه وعلى مقال "إفريقيا" ردّا غير أنّه لم ينشر في الإقدام؛ وقد تحدّث عن هذين المقالين، وردّه عليهما، في رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق، 1341/02/06هـ، [1922/09/28م]؛ ينظر مسوّدة المقال والرسالة: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- في العدد 77 من "النجاح"؛ ينظر: رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ السابقة إلى الشيخين، 1922/09/03، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ ورسالتا الشيخين أبي إسحاق ومطياز إلى الشيخ الثمينيّ، 1922/09/19؛ و1341/01/28هـ، [1922/09/20م]، على التوالي؛ أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. ويفيدنا مقالا أبي إسحاق الموجّهين إلى "النجاح" -وقد سبقت الإشارة إليهما قريبا- أنّ مقال عبد الرحيم العطفاويّ كان ردّا على مقال أبي إسحاق في "الإقدام"، بعنوان: إذا حسدت فلا تبغ.

3- بتعبير الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز، في رسالته السابقة إلى الشيخ الثمينيّ، 1341/01/28هـ، [1922/09/20م].

4- الرسالة، 1341/01/17هـ، [1922/09/09م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- كتبه ردّا على مقال الشيخ أبي إسحاق في الإقدام، ويرجّح أن يكون نشره في "النجاح"، وتوجد نسخة من هذا المقال في أرشيف الشيخ الثميني، بتونس، وقد رجّحنا نشره مع هذه المقالات الأولى، باعتبار ردّ الشيخ أبي إسحاق عليه الآتي قريبا.

6- رسالة الشيخ أبي إسحاق إلى الشيخ الثميني، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. وفيه ما يدلّ على مشاركة غير المزابيّين في هذه المسألة، إذ استشنعوا ما جاء في مقال "النجاح" لعبد الرحيم، وقد وجّه عدّة أطراف اللّوم إلى صاحب "النجاح"، وهو ما يفسّر مدلول العبارة الأخيرة.

7- وقد سبق الحديث عنه قريبا.

8- والأرجح أن يكون هذا المقال نشره في "المبشّر"، عدد 07، لأنّه يقول في ختام رسالته هذه: «وجّهت لك نسخة من "المنير"؛ ونسخة من "المبشّر"، وأخبرني ببلوغه، كي أتيقّن بلوغه لـ[... يعني: الشيخ الحاج صالح، وكاتبه الشيخ بكير قضّي]».

لكن من تأمّل فيما شُتمت به، وما آتوه من الإفك والثلب، فإنّه يعذرني، وربّما قال: قليل في شأنهم، وستصدر كتابة أخرى أخفّ لهجة في "الاتّحاد"[1]، فيما أظنّ، لأنّ "الإقدام" لديه مقالتان، وقد وجّهنا أيضا أخرى إلى "النجاح" إن أدرجها، [...]. أمّا طريقتنا نحن الثلاثة: العبد الضعيف، أبو اليقظان، أبو يعقوب [يعني: الشيخ يوسف بن بكير]، فالأمام كما ارتأيت، وكذا الشيخ صالح [بن يحي، عمّ مفدي]، فقد كتب، فستصدر /إن شاء الله، وفكرتنا التشديد على [... يعني: الشيخ الحاج صالح لعلي] حتّى يرضخ [...]. ويلوح من كتابتك أخيرا أنّك مستعدّ للمشاركة في الكتابة[2]، وقد حصل لنا سرور بذلك، بعد أن عذرناك نوعا ما، وبحسب ما يترآى لنا أنّ الرأي العام في هيجان فوق الحدّ، [...] وأمّا سي الشاذلي [المورالي، صاحب جريدة "المنير"] فقد أدرك الحقائق من تلاعب هؤلاء الصبية هنا، وشافهوه، فأجابهم بما توقّعوا منه شرّا مستطيرا، وقد علّق على كتابة "النجاح" ألفاظا»[3]. أمّا ردود الشيخ الحاج صالح لعلي وأشياعه، فلم نعثر على أثر سوى لمقالين:

أحدهما: للشيخ الحاج صالح لعلي، ردّا على مقال الشيخ أبي إسحاق في المبشّر، عدد07، تحدّث فيه عن ردّه المطوّل الذي يرجو طبعه قريبا، وجاء في ختامه: «وإنّ هذا آخر ردّ منّا عليك، وعلى أضرابك من أبناء جنسك، ومن /الأجانب المتعصّبين معك. أمّا أنت وأبناء جنسك فلأنّ الغرض من الردّ عليكم، وهو تنبيه الأمّة من الاغترار بخزعبلاتكم، والتحذير من الانخداع بتلبيساتكم، قد حصل ولله الحمد والمنّة؛ وأمّا الأجانب فلأنّا في أمن من إصغاء شعبنا إليهم، والتفات أمّتنا إلى مقالهم، فلا نكترث بهم، ولا نتعرّض للردّ عليهم، على أنّهم لو توخّوا الإنصاف لما خاضوا في أمر لم يتصوّروا حقيقته من كلا الخصمين، ولم يحيطوا

---

[1]– الأرجح أن يكون المقال الذي ردّ عليه الشيخ الحاج صالح لعلي في كتابه "البراهين القاصفة"، وذكر أنّ عنوانه هو "العلم والتعليم"؛ ينظر: البراهين القاصفة لتمويهات متّبعي الفلاسفة، للشيخ الحاج صالح بن عمر لعلي، عني بطبعه وتصحيحه: بكير بن إبراهيم بن بكير قضّي، مطبعة النهضة، نهج الجزيرة، عدد11، تونس–تونس، طبع في ذي الحجة من عام 1342هـ، [جويلية 1924م]، ص04.

[2]– يبدو أنّ المنع كان من والده، ثمّ رفع لّما اشتطّ الخصوم في الثلب والطعن، فكتب مقالين أرسل الأوّل إلى الإقدام، وقد سبق الحديث عن محتواه، فلم ينشر؛ وأرسل الثاني إلى النجاح، ولم ينشر أيضا، فأرسله إلى تونس، يرجو من أبي إسحاق نشره في إحدى الصحف التونسية، ثمّ أردفه بمقال ثالث، ولا ندري أنشر المقالان أم لا؟ تنظر مسوّدات مقالاته الثلاثة: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]– ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. أمّا ما تأكّد نشره ممّا ذكر في هذه الرسالة: مقالان لأبي إسحاق: الأوّل في "الإقدام"، بعنوان "التعصّب الممقوت"؛ والثاني في"المبشّر"، عدد07؛ ومقال الشاذلي المورالي في جريدته "المنير"، فقد ذكر الشيخ الثمينيّ وصول هذه الجرائد إلى بني يزقن، ووصولها بالتبع إلى الشيخ الحاج صالح لعلي؛ ينظر: رسالة الشيخ الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق، 1341/02/06هـ، [1922/09/28م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. كما ذكر في رسالة موالية من نفس الأرشيف، 1922/10/18، وصول الجرائد الآتية: "المبشّر"، عدد 08، وهو مقال جديد لا ندري لمن هو؛ و"لسان الشعب"، عدد 73، وهو الذي نشر فيه –على الأرجح– الانتقاد المشار إليه في الرسالة الأولى؛ و"الاتّحاد"، عدد 45، وفيه مقال الشيخ أبي إسحاق، بعنوان "بيان حقيقة"، وسيأتي الحديث عنه؛ وعدد 46، يضمّ مقال الشيخ أبي اليقظان؛ وإفريقيا، وقد أكّد الثمينيّ وصول الجميع إلى الشيخ الحاج صالح لعلي. أمّا المقالات الأخرى التي ذكرت في الرسالتين، فلا ندري أنشرت أم لا؟ كما أنّنا لا نعلم على وجه التحديد شيئا كثيرا عن إسهامات جميع المشاركين في هذه الحملة الصحفيّة، غير أبي إسحاق في المقام الأوّل، والشيخ أبي اليقظان بصفة جدّ محدودة.

خبرا بأحوال الفريقين، بل يبذلوا جهدهم في إصلاح ذات البين، ولا يتعصّبون للظالم من الحزبين، فها نحن قد طوينا بساط الردّ، لتمام الغرض منه، فليتفوّه من شاء بما أراد:

خلا لكِ الجـــوُّ، فبـــيضي واصْفِري
ونَـــقِّري مـــا شـــئتِ أن تُـــنقِّري
قد ذهب الصيّاد عنك، فأبشري»[1].

وثانيهما: للشيخ بكير بن إبراهيم بن بكير قضّي، ردّا على مقال لأبي اليقظان في جريدة "الاتّحاد"، عدد 46[2]. والعبارات الأخيرة في مقال الشيخ الحاج صالح تدلّ على توقّفه عن الردود في الجرائد، وكان ذلك في أواخر شهر سبتمبر، إذ لم تكن القوّة بين الطرفين متكافئة في ميدان الصحافة، وكان اهتمامه متوجّها -على حدّ تعبيره- إلى بني جنسه، وكان يملك في ذلك السلاح الأقوى، وهو المنبر، فعاد إليه، واكتفى به، بعد أن كتب رسالة مطوّلة منذ نهاية شهر أوت[3]، وقد تمّ له طبعها، في أوائل أكتوبر، بعنوان "كشف اللثام عن أغراض بعض اللئام"، وهي ردّ على مقالة الشيخ أبي إسحاق الأولى في "الإقدام"[4]. أمّا مناصروه فاستمرّوا في الكتابة، وكانت مقالاتهم قليلة ومتباعدة، منها: مقالة نشرت في جريدة إفريقيا، عدد 11[5].

أمّا حملة الشيخ أبي إسحاق ومعاضديه في الصحافة فلم تتوقّف إلاّ في أواخر شهر أكتوبر، ففي رسالة الشيخ الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق، بتاريخ 1341/03/13هـــ، 1922/11/03م، نقرأ ما يلي: «وقد بلغتني كغيري مقالة "المبشّر" الأخير، وقد كانت على غاية المرام، لو لم تختمها بما يشتمّ منه رائحة الضعف، وإن لم يوجد في الحقيقة، حتّى صرّح [يعني: الشيخ الحاج صالح] بالجواب عنها الليلة الماضية بقوله: لا نرجع ثلاثا»[6]، وهو آخر حديث

---

[1]- نسخة مخطوطة من المقال، من غير عنوان، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. لا ندري متى ولا أين نشر، والعبارة الأولى تدلّ على أنّه لم يكن الردّ الوحيد.

[2]- ينظر: نسخة مخطوطة من المقال، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. ذيّل في ختامه بهذه العبارة: «إلى الحاج إبراهيم [بن عيسى أبو اليقظان]. وقد أتحفناك بالاطّلاع على هذه المقالة قبل بروزها على صفحات الجرائد، لتكون على أهبة من الجواب عنها»، ولا ندري متى ولا أين نشر.

[3]- تحدّث الشيخ مطياز عن وصول ردّ من الشيخ الحاج صالح إلى أنصاره في القرارة، وهو قدر كراسة؛ ينظر: رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، 1341/01/03هـــ، [1922/08/26م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[4]- ينظر: كشف اللثام01. وقد تحدّث يوسف بن يحي الثمينيّ عن بروز الرسالة بقالمة يوم 1922/10/14؛ ينظر: رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق، 1922/10/15، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[5]- ينظر: رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق، 1922/10/12، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[6]- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وقد تحدّث يوسف بن يحي الثمينيّ في رسالته السابقة إلى الشيخ أبي إسحاق، 1922/10/15، عن وصول جريدتي "الاتّحاد" و"جحجوح" إليه، وطلب منه 10 نسخ أخرى من الجريدتين، ليرسلها إلى من طلبها في الشرق الجزائريّ، وهذا الطلب المحدّد، وكمية النسخ، لا يفسّره سوى صدور مقالين فيهما، في هذه المسألة، فقد كانت حديث الساعة؛ ثمّ جاء فيها ما يلي: «وابعث لي عدد "المنير" الذي كتب فيه المقالة التي نبّه عليها سابقا».

عن مقال عثرنا عليه في رسائل تلك الفترة. ثمّ إنّ توقّف حزب أبي إسحاق -كان في تقديرنا- تحت تأثير ضغط المعارضين لهذا الصراع على صفحات الجرائد، خاصّة عند انزلاقها إلى الثلب والطعن، على تفاوت بين الفريقين في ذلك، هذه المعارضة نجد نموذجا لها في رسالة الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق، بتاريخ 1341/02/06هـ، [1922/09/28م]، حيث يقول: «وأهل القرارة كلّهم مستحسنون [...] سوى عمّي بكير[1] فإنّه يرجوك وسي الحاج إبراهيم أن تقلعا عن النشر في الصحف، لما فيها من المضرّة لعموم الأمّة، ويطلب منكم ذلك بكلّ إلحاح، وهذا كلّه بعدما أعياه الأمر، إذ حاول أن يتدخّل لفصل المسألة، وقد ذهب من هنا، وهو يؤكّد عليّ أن أكاتبكم، وأبلّغ لكم تأثّره من النشر في الجرائد، وها قد بلّغت الأمانة. وربما يوجد من يقول: يكفي ما نشرتم، فلا تنشروا شيئا حتّى يعود»[2]، وقد قوي ضغط هذه المعارضة بتوقّف الشيخ الحاج صالح عن الردّ في الجرائد[3]، غير أنّ رسالته التي طبعها، ووزّعت مجّانا بين الناس[4] في النصف الأوّل من أكتوبر، أطال من عمر هذه الحملة الصحفية إلى أواخر أكتوبر، ليلج بعده الشيخان أبو إسحاق وأبو اليقظان المجال الذي فتحه الشيخ الحاج صالح للمبارزة بطبعه لرسالته "كشف اللثام"، وكان السبق فيه لأبي اليقظان، فأصدر كتابه "إرشاد الحائرين": كتب مقدّمته بتونس، بتاريخ 1341/03/25هـ، [1922/11/15م]، وتأخّر طبعه إلى بداية سنة 1923م/1341هـ[5]، كما تأخّر نشر كتاب أبي إسحاق "الدعاية إلى سبيل المؤمنين"، إلى ما بعد إبعاده إلى مصر، فطبعه فيها في أواخر سنة 1923[6].

أمّا الشيخ الحاج صالح فقد نقض ما عزم عليه من الإحجام عن الكتابة في الصحافة، وذلك في شهر ديسمبر من سنة 1922، بعد توقّف الجميع عن ذلك لما يزيد على شهر كامل، فلم يستجب له معارضوه إذ

1- هو -في تقديرنا- السيّد الحاج بكير العنق.

2- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- كما أسهمت في ذلك محاولات الإصلاح بين الطرفين، ومنها رسالة مؤرّخة في 1341/02/21هـ، [1922/10/13م]، جاء فيها: «إلى الفضلاء الكرام إخواننا إبراهيم بن الحاج محمد بن الحاج إبراهيم ومن معه، السلام عليكم ورحمة الله، من جماعة إخوانكم بسوق اهراس، قائلين: قد عزمنا على القدوم نحوكم عمّا قريب لإصلاح ذات البين، وبثّ المؤاخاة بينكم، امتثالا لأمر الله تعالى، واحتسابا للأمر، وعليه فالمرجوّ من حضرتكم الحضور وعدا»، وقد أمضى على هذه الرسالة: محمد بن عمر بن داود، وطلاي حاجي بن محمد، وعيسى بن عيسى بن الشيخ، وإمضاءان آخران لم يتبيّن صاحباهما. وفي الهامش: «الموعد يوم الخميس المستقبل [يعني يوم: 1922/10/19]» أرشيف الشيخ الثميني، بتونس.

4- ينظر: الدعاية إلى سبيل المؤمنين، للشيخ أبي إسحاق إبراهيم آل يوسف اطفيش الجزائريّ، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة-مصر، ط: 1342هـ/1923م، ص09.

5- ينظر: إرشاد الحائرين04، والغلاف.

6- في رسالة الشيخ الثمينيّ إلى والده، في 06/21/[1342هـ، 1924/01/28م]، يقول فيها: «وفي هذه الأيام تصل رسالة الشيخ إبراهيم، فأرسلها إليكم إن شاء الله، وإنّما أراد أن نكتم هذا الأمر حتى يتمّ توزيعها، لئلا يشي بها [...] إلى الحكومة، فتحجرها؛ وأما هي فليس فيها شيء من السبّ لأحد، ولا ذكر اسمه، ولا ما يمسّ الحكومة، بل هي كتاب علميّ صالح لكلّ زمان ومكان، ولكلّ أحد موافق أو مخالف، وقد أعجب بها علماء مصر كثيرا» أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

كانوا منهمكين في إعداد كتبهم، يقول الشيخ الثمينيّ في ذلك: «وأمّا اطفيش والحاج إبراهيم فإنّهم بعدما تركوا الكتابة في الجرائد، واشتغلوا بالرسائل، خرجت في "المبشّر" مقالة للحاج صالح [لعلي]، يكفّر فيها الشيخ صالح [بن يحي، عمّ مفدي]، ثمّ خرجت اليوم أخرى في "إفريقيا" كلّها سبّ للشيخ اطفيش حتى اغتاظ منها إخواننا أهل الجبل وجربة»[1].

هذه الحادثة لم تغب عن عيون الإدارة الاستعماريّة، فقد كانت تتابعها؛ ومنه رسالة قائد بني يزقن إلى الحاكم العسكريّ بغرداية في 15 و19 سبتمبر 1922[2]. هذه الحادثة، وما واكبها من وشايات قدّمت للإدارة ضدّ الشيخ أبي إسحاق[3]، فضلا عن نشاطه عموما في تونس، وخاصّة في قضية الحزب الحرّ الدستوريّ سنة 1920، هي التي عجّلت بإبعاده عن تونس، فاختار الرحيل إلى مصر، وذلك يوم 03 فيفري 1923[4].

يقول الشيخ أبو اليقظان في هذا الإبعاد:

	«قمنا لتنوير العقول، وفكّها،	وأبوا لها الأنوار والعرفانا
	قصدوا الوقيعة والنكاية ضدّنا،	فاستنزلوا كلّ البلا عدوانا
	ركبوا لها متن السعاية جهرة،	إذ لم يُروا في غيرها فرسانا
[...]	بذلوا له أنفاسهم ونفيسهم	حتّى نفوا عضدا لنا، وأخانا
[...]	قد أوصدوا أبواب تونس عنه، بل	فتحوا له أبواب مصر مجّانا
	حسِب المشاغب أنّ هذا كلّه	نفي، فطار لأجله جذلانا
	لكن تناسى أنّ نفي النفي إثـ	ـبات، فتاه لطيشه ولهانا»[5].

وكان آخر فصل في هذه الحادثة هو نشر الشيخ الحاج صالح بن عمر لعلي لكتابه "البراهين القاصفة لتمويهات متّبعي الفلاسفة"، طبعه في ذي الحجة من سنة 1342هـ/ [جويلية 1924]، وقد كتبه جوابا

---

[1]- رسالته إلى والده الحاج صالح بن يحي، 1922/12/13، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[2]- يخبره عن وقوع تنافس، وسبّ وطعن في الجرائد المسمّاة: "الإقدام"، و"النجاح"، بين الحاج صالح بن عمر لعلي، وبكير بن إبراهيم بن بكير، وعبد الرحيم العطفاويّ من جهة؛ وإبراهيم بن الحاج محمد بن الحاج إبراهيم اطفيش، والحاج إبراهيم بن عيسى القراريّ [أبو اليقظان] من جهة أخرى؛ ينظر: سجلّ البريد الصادر 1921-1926، المراسلة رقم: 439، و444، 15، و1922/09/19، أرشيف القيّاد.

[3]- وهو ما يؤكّده ما جاء في ثنايا رسائل عديدة للشيخ الثمينيّ، وأبي إسحاق في تلك الفترة؛ ينظر على سبيل المثال الرسالة السابقة، والحديث فيها عن ضرورة التكتّم حول طبع رسالة الشيخ أبي اسحاق لئلا تحجرها الإدارة، بإيعاز من المغرضين، والمعارضين له.

[4]- ينظر موضوع إبعاده وظروفه: أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، أبو رأس عبد الله بن محمد الكامليّ، سلسلة سبيل الخلود، مطبعة الشهاب، قسنطينة-الجزائر، ط: 1385هـ/1965م، ص37-45.

[5]- ديوان أبي اليقظان، لأبي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى الجزائري الميزابيّ، المطبعة العربيّة، الجزائر-الجزائر، ط1: 1350هـ/[1931م]، ص02، 03. وقد يتبادر إلى الذهن من هذا البيت الأخير أنّ الشيخ أبا إسحاق قد تمّ نفيه من الجزائر قبل ذلك، ومنه نفي النفي إثبات، غير أنّ هذا النفي تنفيه الوقائع التي سبق بيانها تماما.

على مقالين لأبي إسحاق، نشرهما في جريدة "الاتّحاد": الأوّل بعنوان "العلم والتعليم"، والثاني بعنوان "بيان حقيقة"، في العدد 45 منها، وقد نشرا بين شهري سبتمبر وأكتوبر 1922[1]. هذا التأخير لا يفسّره في تقديرنا سوى عدم توفّر التمويل الكافي لطبع الكتاب، بعد أن طويت أوراق هذه الحادثة جميعها، بانتقال الشيخ أبي إسحاق إلى منفاه بمصر.

هذه الحادثة ألقت بظلالها على البعثة، ورسّخت خلافا كان بين رؤساء البعثة، ففي خضمّها اصطفّ الشيخ صالح بن الحاج علي باعلي إلى جانب الشيخ الحاج صالح لعلي ضدّ الشيخين أبي إسحاق وأبي اليقظان، فكان يروّج أفكاره عند أولياء التلاميذ، بغرض نقل أبنائهم إلى بعثته، وإفشال بعثتيهما، وتزامن هذا مع أزمة اقتصادية خانقة أثّرت على مداخيل الأولياء، فكان أن استغنى بعضهم عن تعليم أولادهم بتونس، تفاديا للنفقات، واستجابة لدعاية المناوئين لهذا التعليم، وكادت تتسبّب في انقطاع مفدي زكرياء عنها بعد سنتين فقط من التحاقه بها، فكانت الواقعة منعطفا حاسما في حياة الشاعر:

بدأ الأمر برسالة امعيز عمر بن باحمد إلى الشيخ أبي إسحاق، بتاريخ 1340/07/08هـ، [1922/03/07م]، يطلب منه إرسال ابنيه داود وبكير، معتلاً بـ«ما لحق التجّار من الخسائر في السلع، وكثرة المصاريف»، وأخبره في ختامها، بأنّه أرسل إلى الشيخ أبي اليقظان بنفس الطلب، فيما يخصّ ابنه باحمد[2]. ثمّ زار البعثة في شهر شعبان/ أفريل 1922، «لرؤية أولاده، وقد غلّطه من قبل [صالح] بن علي بما غلّطه بالجوابات، ومعارضة داود في الطرقات، فأثّر فيه، وحاول إرجاع أولاده، والإتيان بهم إليه بعد؛ ولكن لمّا جاء رأى الحقائق بعينه، وندم جدّا على غلطه»[3]؛ غير أنّ الوالد لم يغيّر موقفه بسبب الضائقة المالية، فيقول الشيخ أبو إسحاق: «والأبناء رجوعهما أمر مقضيّ، فلا يفيد ترغيب، وإن وقع يظنّ هناك أنّ لنا فائدة مادّية، لأنّ [... يعني: الشيخ الحاج صالح لعلي] شهّر بذلك، وقد أتيت باللازم أو فوقه فلا علينا، وأظنّ أنّه يلتحق بهما صالح باحريز في الراجح، وقد بلغني سعي [... يعني: الشيخ الحاج صالح لعلي] كلّه، فسيلاقي مغبّة صنيعه»[4]، ويبيّن أسباب انقطاع التلاميذ عن البعثتين، حيث يقول: «وسافر بكير وداود إلى أبيهما، فبقيت المدرسة في حالة ضئيلة جدا. [...] وقد حدث فتور عظيم للناس، وأخذوا في استدعاء الأبناء، منه ما هو ناشئ عن العجز الاقتصاديّ، ومنه ما هو عن إفساد [... يعني: المناوئين لهذا التعليم] بإلصاق ما لم يكن من التضييع والضغط و... و... و... كما وقع لداود وبكير، وإنّ أباهما معنا من أواخر شعبان، فبعد أن سرّ بهما، وابتهج، واستاء من فعل [... يعني: صالح بن الحاج علي باعلي] حتّى امتنع من إجابة دعوته،

1- ينظر: ص83.

2- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثميني، 1340/09/04هـ، 1922/05/01م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- رسالة الشيخ أبي إسحاق إلى الشيخ الثمينيّ، 1922/06/25، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

صرّح بعدم استطاعته للمصروف، وإنّ العجز بلغ منه مبلغا، فعوّل على استدعائهما في آخر السنة»[1]. أمّا الشيخ أبو اليقظان، فيسجّل ما حدث لبعثته بسخرية مرّة: «أرسلت إلى القرارة بكير بن مسعود، وللبيضاء محمد الصالح وأخاه، وسيلحقهم كثير، وألحقهم بباب الدار. أثّرت في الناس الحالة الاقتصادية تأثيرا بلغ إلى هنا»[2].

لقد انطلقت بعثة الشيخ أبي إسحاق والشيخ الثمينيّ -كما أسلفنا- بعشرة تلاميذ، وبعد ذلك التحق بتلاميذ الشيخ الثمينيّ حمو بن سليمان رمضان (رمضان حمود)[3]، وفي أواخر شهر جوان وأوائل جويلية 1922 لم يبق في البعثة سوى أبي إسحاق[4]، وخمسة تلاميذ[5]، وهو ما سبّب ضائقة بالنسبة للبعثة، خاصّة حين حان موعد تجديد كراء الدار، فلا عجب أن نجد أبا إسحاق يقول في ختام إحدى رسائله لتلك الفترة: «لا أعرب لك أيّها الأخ عن شخصيتي، وانهيال الهموم عليّ بصورة ما عهدتها، وما خطرت بفكري، وقد ازداد عليّ أمر المحلّ من الآن مع قلّتنا، إذ الأمل في هذا المحلّ بعيد، إلاّ إذا رجعت مع الأبناء، فإنّه يتيسّر نوعا ما»[6]، ويقول في أخرى: «وأنا يا أخي قد بلغ منّي الكدر منتهاه بحالتي الخصوصيّة، وأرجوك المبادرة بالقدوم، فإنّي أحدّث نفسي بالاشتغال بشيء من التجارة، فهذا المسجد قد انفتح، فصرت مضطرب الفكر، مع تكالب الفجرة، فلا حول ولا قوّة إلاّ باللّه العليّ العظيم»[7]. وقد تقدّم تفكيره في «صرف الأبناء إلى أهليهم»[8]، ولذلك نجد يوسف بن يحي الثمينيّ يسانده بما قدر

1- رسالة الشيخ أبي إسحاق إلى الشيخ الثمينيّ، غير مؤرّخة، وهي بالنظر إلى محتواها لاحقة لسابقتها؛ أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. ويعني بآخر السنة آخر السنة الهجريّة، فيكون ذلك في جويلية.

2- رسالة أبي اليقظان من تونس إلى الثمينيّ، 1340/10/13هـ، 1922/06/09، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3- ينظر: ص70.

4- غادر الشيخ الثمينيّ تونس إلى بني يزقن، في مارس من نفس السنة، ولم يكن رجوعه إلى تونس مؤكّدا بالرغم من رغبته الملحّة، لأنّ والده كان يريد استبقاءه معه سندا له في شيخوخته، وكان ابنه الوحيد، يقول في رسالة إلى الشيخ أبي إسحاق، 1340/12/02هـ،[1922/07/27م]: «وأنا جازم بالرجوع، والوالد بالعكس، وإيّاك أن تخبره بشيء» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ وذهب معه أو بعده تلاميذه: عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، ومحمد بن الحاج بكير الثمينيّ، ورجوعهما لم يكن بالضرورة لنفس الأسباب التي ذكرناها، لأنّهم إنّما تبعوا وليّهم في تونس؛ وإبراهيم بن عمر دواق بسبب مادّي بحت على الأرجح، وكان رجوعه بعد الأوّلين؛ ولحق بهم فيما بعد بكير وداود ابنا عمر امعيز، وصالح بن محمد باحريز، للأسباب التي ذكرناها.

5- هم: زكري بن سليمان (مفدي زكرياء)، وعبد الله بن محمد بوراس، حمو بن سليمان رمضان (رمضان حمود)، وسليمان بن محمد ابليدي، وإبراهيم بن محمد البكاي. وفي ذلك يقول الشيخ أبو إسحاق في رسالة، يرجّح أنّه كتبها في أوائل أوت 1922، في معرض حديثه عن مشكلة الدار التي كانت تقضّ مضجعه: «وأقسم بالله أنّه لولا مجيئك وعبد العزيز ما قدمت إلاّ على دار صغيرة من ديار "باب السويقة" الدائرة حول ألف فرنك، أو /صرف الأبناء إلى آبائهم، ضرورة عدم لياقة محلّ واسع جدّا، وثمن باهض لستة أشخاص، وأنت خبير بضجر الناس البالغ النهاية» أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

6- رسالة الشيخ أبي إسحاق إلى الشيخ الثمينيّ، غير مؤرّخة، وترجع تقديرا إلى أواخر جوان وأوائل جويلية 1922؛ أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

7- رسالة الشيخ أبي إسحاق إلى الشيخ الثمينيّ، 1341/01/20هـ، [1922/09/12م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

8- ينظر: ص71.

عليه علّه يصرف نظره عن هذه الفكرة، وذلك حيث يقول: «إنّي اجتمعت ببعض الأصدقاء على مكتوبك الأغرّ، وإنّه اتّفق رأيهم على أن تجد محلاّ صغيرا، يأويك ومن بقي تحت يدك من التلامذة، وإنّهم حاضرون لما ينقصك حتّى يأتي الوقت السعيد، وأمّا أن تترك الحركة بالمرّة فلا يسوغ، ويجب علينا التقلّب مع الأزمان بقدر الطاقة، لأنّ هذا العام ثقيل على جميع الناس [...]، هذا رأي الإخوان. [...] وعندي أيّها الصديق أن تشترط على من يبقى بيدك من التلامذة، أن لا يغادروا الدروس قبل إكمال العام، وتدبّر مسكنا على قدر الحال، وانهض بهم نهضة تكون مثالا، وتذكارا للمستقبل»[1].

في هذه الظروف بلّغ ابن عمّ مفدي زكرياء، عيسى بن محمد بن يحي بن الشيخ الحاج سليمان –وكان تاجرا بتونس آنذاك– الشيخ أبا إسحاق بطلب شقيق مفدي، محمد بن سليمان، وكان آنذاك يعمل بعنابة، استرجاع أخيه زكري، لعدم قدرته على دفع مصاريف دراسته، فيكتب الشيخ أبو إسحاق إلى الشيخ الثمينيّ في بني يزقن، حيث يوجد أيضا والد مفدي، يقول له: «وقد أبلغني عيسى ابن الشيخ، عن محمد بن سليمان أنّه طلب أخاه شاعر الشبيبة [ويعني: مفدي زكرياء]، معتلاّ بالعجز عن المصروف، وعدم تحمّله لأقلّ فلس منه، بعد هذا الشهر الجاري، فأجبت بأنّ الابن تسلّمته من الأب لا غيره، فمتى يبلغني منه ذلك، فأنا مستعدّ لتسليمه، إذ تسليمه لمجرّد طلب الأخ ربّما يجرح عاطفة الوالد؛ فأفدني —يرحمك الله– بالحقيقة حالا بدون أدنى تأخير من جواب الأب، والسكوت بعد الإنذار مجلبة للضرر [...] وفي الختام أهديك تحيّاتي الخالصة، وثنائي، وأستنجزك الجواب، وبالأخصّ عن زكرياء»[2]؛ فيكون جواب الشيخ الثمينيّ كالآتي: «أمّا زكري فقد كلّمت والده، فبهت، إذ لا علم له بشيء، وخلاصة جوابه: إنّ أمره خرج من يده، ومحمد هو المتكفّل بجميع مصروفه، ولا أدري: لم طلبه؟ فقلت له: لعلّ صالح بن علي أرسل له جوابا، كما فعل مع غيره، فقال: إن وقع هذا، فإنّي لا أكون مسرورا بمحمد. وءال الأمر أخيرا إلى استخبار محمد عن السبب والداعي، وزكري يمكث هناك حتّى يجيب، وقد أرسل إليه والده جوابا، وأرسلت له مثله، أحضّه على تركه، وقلت له يأذن لعيسى [يعني: ابن عمّ مفدي] في المصروف»[3]؛ وفي يوم الإثنين 29 ذو القعدة 1340هـــ، [24 جويلية 1922م]، كتب مفدي زكرياء رسالة إلى والده، يقول فيها: «اعلم يا والدي أنّ أخي محمد أرسل جوابا، يريد أن أفارق العلم، وهو السبب في سعادتي، وسعادة وطني الشهيد المفدّى، كيف أفارق العلم، وهو الدواء للداء الساري في جسم مجتمعنا؟ كيف أفارق العلم، وهو السبب الوحيد والأمر الفريد في إنقاذ وطني من سيطرة الرقّ والعبودية إلى بحبوحة العيش وحياة الحرّية؟ كيف أفارق العلم، وهو الذي لولا عدم وجوده لكنّا أساتذة العالم، وها قد صرنا كالفأر في يد السنّور، أو كالماء في يد الظمآن؟ اللّهمّ رحماك،

---

[1]– رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق، 1922/08/13، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، وقد صحّحنا نصّها قدر الإمكان.

[2]– الرسالة، 1922/07/03، أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

[3]– الرسالة، 07/11/[1922م]، أرشيف الشيخ الثميني، بتونس.

أين الإحساس؟ أين الشعور؟ أين الثبات؟ أين الرجال الذين يفدون الوطن بدمائهم، لا بمالهم في سبيل تعليمهم فقط؟ آه، فوا أسفاه على ذوي العقول السخيفة الذين يخربون بيوتهم بأيديهم، ويقتلون أنفسهم بسلاحهم، وهم لا يشعرون ... »[1]. ويبدو أنّ الأمر انتهى عند هذا الحدّ، حتّى إنّ محمد بن سليمان لم يجب على الرسائل التي أرسلت إليه[2]، ولا ندري من تكفّل بمصاريف مفدي من جويلية 1922 إلى أواخر جانفي 1923، تاريخ تسلّم الشيخ الثمينيّ لمفدي زكرياء من الشيخ أبي إسحاق، قبيل مغادرته تونس مبعدا إلى مصر، فكرّاس متابعة مصاريف مفدي منذ هذا التاريخ إلى حين عودته إلى مزاب، في أواخر سنة 1925، يؤكّد على تكفّل والد مفدي بمصاريف ابنه جميعها[3]، وإن كان في الكثير من الأحيان بعد مواعيدها، وبعد المطالبة بها غير مرّة؛ والمهمّ في كلّ ذلك مواصلة مفدي زكرياء دراسته في تونس، ليكون الشاعر الذي نعرفه اليوم.

دراسته بتونس وظروفها:

وفي هذه الأثناء كانت أوضاع مدرسة السلام في تدهور مستمرّ بسبب الضائقة المالية أيضا[4]، وتزامن ذلك مع خروج الشاذلي المورالي والطيب بن عيسى على زعيم الحزب الحرّ الدستوريّ عبد العزيز الثعالبي، فما كان من الشيخ أبي إسحاق والشيخ أبي اليقظان إلاّ أن أخرجوا تلاميذهم من مدرسته، وقطعوا صلتهم به، وفي ذلك يقول الشيخ أبو اليقظان: «وقد قطعت صلتي القوية بالشيخ الشاذلي المورالي، وصداقتي التامّة له، وفعل ذلك زملائي كبار

---

[1]- مقتطف من الرسالة، ورد في كلمة نجل الشاعر، الشيخ سليمان، في افتتاح الملتقى الدوليّ: مفدي زكرياء شاعر التحرّر، المنعقد يومي 11 و12 ديسمبر 2007، وثيقة مطبوعة في 07 صفحات، ص06.

[2]- يقول الشيخ الثمينيّ في رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق، 1340/12/12هـ، [1922/08/07م]: «وأخبرني هل أجابك محمد بن سليمان بشيء أم لا؟» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- مع استثناء واحد ووحيد، إذ نجد والد مفدي دفع عن ابنه مفدي مصروفه 500 فرنكا، بتاريخ 1923/11/20، ودفع أخوه محمد عنه في نفس الفترة 200 فرنكا؛ ينظر: كراس مصاريف مفدي زكرياء في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، من جانفي 1923 إلى ديسمبر 1925، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة؛ والصفحة الأولى منه في الملحق593.

[4]- يقول الشيخ أبو إسحاق في رسالة غير مؤرّخة إلى الشيخ الثمينيّ، ردّا على رسالته ليوم 1340/12/02هـ، [1922/07/27م]، ما يلي: «وأحوال المدرسة في غاية الارتباك، والمدير قد رجع إلى ضلاله القديم أخيرا، وانحلّ انحلالا قذعا، وأظهر الزهد والاستغناء عنّا مع حلول أجل القسط الأخير من كراء المدرسة، وأحجم عن دفع ما تعهّد به من كراء المدرسة 1200 معتلاّ بعدم الإيجاد، قائلا: أنا أتكفّل بالأبناء، وأنتم بالكراء، وبالإعانة التي وعدتم بها في حقّ المعلمين، فأجابه أبو اليقظان بأنّك لم تأت بالمعلّمين الذين وصفنا لك، وما أتيت إلاّ بمن حسب بغيتك إلخ إلخ»، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. ويقول رمضان حمود، متحدّثا عن مدرسة "السلام": «أُدْخِلَ مدرسة حرّة، والنظام فيها لم يبلغ درجة عالية، إن لم أقل متوسّطة، لأنّ مديرها كان صحفيّا، أكثر منه رقيب مدرسة [...] إنّها شبيهة بناد أدبيّ فيه تتربّى ملكة التفكير، وفيه تغرس الأخلاق الفاضلة في القلوب، ولكنّه عن القواعد العلميّة الصحيحة خال، ومن توسيع نطاق المدارك صفر. على أنّ أساتذته المرشدين الخارجين عن المدرسة لم يزالوا يسهرون على مصالح البعثة [...] /خافوا من التدهور الذي أصيبت به تلك المدرسة [...] فلمّا خيّبت آمالهم أخرجوا منها كلّ من كان تحت رعايتهم، و لم تعمّر تلك المدرسة بعدهم طويلا» الفتى، قصّة أدبية إصلاحية، ومرآة جزء من حياة شابّ يسعى لإعزاز شعبه، وترقية أمّته، رمضان حمود بن سليمان، المطبعة الأهلية، تونس-تونس، ط1347هـ/1929م، ص24، 25.

الطلبة في البعثة، لمّا أظهر العداء للشيخ الثعالبي، وحزب الدستور، وصار يهاجمه في الصحف هو والطيّب بن عيسى، وأخرجنا جميع التلاميذ الميزابيين من مدرسته[1]، مدرسة السلام، وقطعنا العون المادّي عنه، فأفلست مدرسته لّما تخلّينا عنه، فأغلقها»[2].

وعندما خرج تلاميذ بعثتي أبي إسحاق وأبي اليقظان من مدرسته، ناصبهما العداء، ووقف بجانب الشيخ الحاج صالح بن الحاج علي باعلي ضدّهما، ونجد ملخّص ما حدث كلّه في رسالة الشيخ الثمينيّ إلى والده، بتاريخ 1922/12/13، حيث يقول: «وأمّا أمر سي الشاذلي [المورالي]، وما ذكره في أجوبته، فهو كذب، وهي دسيسة من صالح بن علي، كما فهمتم، وقد رجعت بعض الأجوبة مكتوبة بخط صالح بن علي. والحقيقة أنّ المدرسة وقع فيها فساد من العام الماضي، فنبّهنا الشاذلي لإصلاحه، فتراخى، فلمّا أيس منه [أبو اليقظان] الحاج إبراهيم و[أبو إسحاق] اطفيش هنا، أخرجا الأولاد من عنده، فأدخلوهم في مدرسة أخرى. ولكن بمناسبة خيانة الشاذلي في هذه المدة الأخيرة[3]، ووقوع إخراج الأولاد من عنده، انتهز صالح هذه الفرصة لينال ما كان يسعى إليه منذ ثلاثة أعوام، فاتّفق مع الشاذلي فكتبوا الأجوبة إلى كلّ آباء الأولاد الذين عند اطفيش والحاج إبراهيم. وصالح بن علي بعدما كان يعيب على غيره الدخول في السياسة[4]، وظهر حزب الشاذلي، انضمّ إليه، وصارت داره سوقا لسياسة الخونة، فكلّ ما ينشر في الجرائد يخرج من داره»[5].

تمّ إخراج تلاميذ البعثتين من مدرسة السلام في النصف الأوّل من أكتوبر 1922، ففي رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخ أبي إسحاق، نقرأ ما يلي: «وقد سمعنا أنّكم بدّلتم المدرسة للأولاد، ولم نفهم المقصود: ألا تليق بهم مدرسة السلام أم حدث شيء آخر؟»[6]، وهو ما يؤكّده كرّاس مفدي لسنة 1341هـ، فقد افتتحه يوم 1341/01/04هـ، 1922/08/30م، وتوقّف فيه يوم الأحد [23]/1341/02هـ، [1922/10/15م][7].

سجّل بعد ذلك تلاميذ البعثتين، ومنهم مفدي زكرياء، في المدرسة القرآنية الأهلية، نهج سيدي بن عروس،

---

[1]- ويقصد بذلك تلاميذه وتلاميذ بعثة أبي إسحاق، أمّا تلاميذ الشيخ صالح بن الحاج عليّ، فقد انقطعوا عن مدرسة السلام، يوم 1923/12/01، فقد جاء في رسالة الشيخ الثمينيّ إلى والده في هذا التاريخ: «اليوم أخرج صالح بن علي أولاده من مدرسة الشاذلي المورالي، وأدخلهم في المدرسة التي يقرأ فيها أولادنا»، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[2]- رواية عن الشيخ أبي اليقظان؛ أعلام الإصلاح في الجزائر3: 235.

[3]- يعني انشقاقه عن الحزب الحرّ الدستوري، وعن زعيمه عبد العزيز الثعالبيّ.

[4]- هذه إحدى الحجج التي كان يوظفها في حثّ الآباء على إخراج أبنائهم من بعثتي أبي اليقظان، وأبي إسحاق.

[5]- أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[6]- الرسالة، 1922/10/15، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، وقد صحّحنا نصّها قدر الإمكان.

[7]- ينظر: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، لسنة 1341هـ، أرشيفه الخاصّ بمكتبته. وما كتبته ما بين معقوفين إضافة منّي باعتبار التواريخ التي سبقت، فآخر تاريخ محدّد في الكراس هو يوم السبت 1341/02/08هـ، 1922/09/30م، ثمّ تبعه "سبت" واحد، و"أحدان" من غير تحديد للتاريخ، فيكون تقديره ما ذكرناه.

عدد 58، وكان مديرها الشيخ محمد مناشو[1]، وعندما يقارنها رمضان حمود بمدرسة السلام، يقول متحدّثا عن رؤساء البعثة: «فلمّا خيّبت آمالهم [يعني: مدرسة السلام] أخرجوا منها كلّ من كان تحت رعايتهم [...] فأدخلوهم في مدرسة أخرى [يعني المدرسة الأهليّة] أحكم نظاما، وأوفر اعتناء بالتربية العلمية الصحيحة»[2].

درس مفدي زكرياء في مدرسة السلام لسنتين كاملتين 1339هـــ، و1340هـــ، وخرج منها في بداية سنة 1341هـــ، وما ثبت عندنا من أساتذته في هذه المدرسة أستاذان: مديرها الشاذلي المورالي[3]، والشيخ محمد الصالح النيفر[4]، يقول مفدي زكرياء في ترجمته لرمضان حمود حين وفاته: «كنّا في هذا الطور ألزم من الظلّ للجسم، فكنّا نتناول ثمار الدروس الشهيّة في تونس الخضراء، المدرسة أمّنا، والعلم أبونا، أوّلا مدرسة السلام، ثمّ المدرسة القرآنية الأهلية[...] درسنا في الأولى: علم الخطّ العربيّ والفارسيّ والرقعيّ والكوفي. تحصّلنا على ملكة لا بأس بها في الإنشاء، وملأنا قرائحنا بقسم كبير من المحفوظات المنتخبة شعرا ونثرا. تلقّينا بعض دروس شيّقة في مبادئ العلوم الطبيعيّة من جغرافيا، وتاريخ، وتشريح، وهندسة، وحساب، ومقاييس»[5].

أمّا المدرسة القرآنية الأهليّة الحرّة، فقد درس فيها لسنة واحدة 1341هـــ، تحصّل في ختامها على "شهادة التحصيل الابتدائيّة في مبادئ العلوم العربيّة والفرنساويّة"، بمقتضى الامتحان الكتابي والشفاهي الواقع في 23 جوان 1923، وذكرت في الشهادة الموادّ التي درسها، وامتحن فيها، وهي: القرآن العظيم، والعلوم الدينيّة، واللغة العربيّة (قراءة، محفوظات أدبيّة، نحو، صرف، إنشاء)، والخطّ، والحساب، والمكاييل، والموازين، والمقاييس، والجغرافية، والتاريخ، والفنون الرياضيّة، ومبادئ اللغة الفرنسيّة[6]. أمّا أساتذته فيها فهم: الشيخ محمد مناشو[7]، الشيخ عبد

1- ينظر: مع بورقيبة: أحاديث وذكريات، للحبيب شيبوب، حاور الحبيب شيبوب، وقدّم للكتاب يوسف الرمادي، سلسلة "أبعاد"، رقم: 08، عدد خاصّ، دار البستان للنشر، تونس -تونس، ط1: جويلية 2003، ص79-81. وقد قدّم الحبيب شيبوب دراسة مفدي في مدرسة مناشو على دراسته في مدرسة السلام، ولعلّه وقع له التباس من أسبقية المدرسة القرآنية الأهليّة على مدرسة السلام تأسيسا.

2- الفتى25.

3- ينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 151.

4- يقول مفدي زكرياء: «وكان من أوّل أساتذتي فيها [يعني مدرسة السلام] الشيخ محمد الصالح النيفر»، زيارة خاطفة، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون".

5- رمضان حمود: حياة الرجل الراحل، لمفدي زكرياء، جريدة "الإصلاح"، س03، ع13، 1348/09/29هـــ، 1930/02/27م، ص03.

6- ينظر: شهادة التحصيل الابتدائيّة (CERTIFICAT de fin d'Etudes Primaires Elémentaires: Arabes et Françaises)، مؤرّخة في 01 أوت 1923: مكتبة مفدي زكرياء. أمّا قوله في ترجمته الشخصية «ومكثت سنتين بمدرسة السلام القرآنيّة [...]، فحصلت في هاته المدرسة على شهادة ابتدائيّة في العربيّة في السنة الأولى، وبعد السنة الثانية دخلت المدرسة الخلدونيّة»، فإن كان مكوثه في مدرسة السلام سنتين صحيحا، فبقية كلامه لم يصحّ، لما أوضحناه سابقا.

7- ذكر زميل دراسة مفدي، رمضان حمود في ترجمته الشخصية بأنّه قرأ «الإنشاء على الأستاذ الشيخ سيدي محمد مناشو»؛ ينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 170. وجاء في رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1925/02/13، ما يلي: «للأولاد درس في الإنشاء من 12 إلى 1 مساء عند مناشو في الجامع جديد، أمرهم فيه بإدخال بعض الأمثال في فصول من الكتابة» أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

العزيز الباوندي، ومحمد بودينة[1]، جمال الدين بوسنينة، محمد الحبيب، صالح الأحمر[2].

في هذه الفترة، وفي بداية شهر فيفري 1923 بالتحديد، انتقلت رئاسة البعثة من الشيخ أبي إسحاق إلى الشيخ الثمينيّ:

عاد الشيخ الثمينيّ من بني يزقن في النصف الثاني من شهر نوفمبر 1922[3]، بعد غياب عدة شهور، ويبدو أنّه لم يستقرّ بتونس لمتابعة شؤون البعثة إلاّ في أواخر شهر جانفي 1923[4]؛ وغادر الشيخ أبو إسحاق تونس مبعدا إلى القاهرة، بتاريخ 1923/02/03، وقد أرسل رسالة إلى طلبته، بعد استقراره بالقاهرة، يقول لهم فيها: «أبنائي الأعزاء، سلام عليكم، لا زلتم تخطرون لي ببال، وأتمنّى لكم كلّ خير وسعادة، وأن تكونوا فطاحلة المستقبل، فهل أنتم محقّقون رجائي، كرجاء آبائكم، ومحبّي الخير لكم من مواطنيكم؟ إنّي لم ألو جهدا في إمدادكم بكلّ طريف، مفيد لكم، متى سنحت الفرصة، فعليكم بالإحسان إلى بعضكم، والجدّ والاجتهاد بدون فتور، حتّى تكذّبوا ظنون الفسدة؛ وبالتقوى، والعمل الصالح، والاحتفاظ على مبادئكم الشريفة، عسى أن يمنّ الله بقدومكم إلى مصر، فتزدادون رقيّا وصلاحا، وعليكم بطاعة أستاذكم النبيل، عمّكم محمد [بن صالح الثمينيّ] فإنه لا يحبّ لكم إلاّ كلّ خير، ولا تظنّوا أنّه يتحمّل معكم الثقل، ويجهد في إفادتكم، بدون محبّته لكم، فمن يحبّه الإنسان، فالطاعة دليلها وأثرها، وعليكم بالاحتفاظ على شرفكم»[5].

---

[1]- ذكرهما في الكلمة التي ألقاها في احتفال نيل الشهادة، ففي ختامها قام بواجب الشكر لأساتذة المدرسة «النبلاء الذين بذلوا كامل إخلاصهم لنصح وإرشاد بني جلدتهم إلى المستوى الكامل، أخصّ بالذكر منهم أستاذي الجليل سيدي عبد العزيز الباوندي، وأستاذي النشيط سيدي محمد أبو دينة» أرشيف الشيخ محمد الثميني، بتونس.

[2]- ذكر هؤلاء الثلاثة بالإضافة إلى سابقيْهم في لقائه الإذاعيّ مع عبد المجيد بن جدو. وهو ما يفنّد ما ذكره مفدي في ترجمته الشخصية، في شعراء الجزائر في العصر الحاضر، من أنّ الأوّل والأخير، أعني: الباوندي والأحمر، من مدرسيه في مدرسة "السلام"، ويبدو أنّه ذكر بعض مدرسيه في المدرستين جميعا، إذ أغفل تماما ذكر المدرسة القرآنية الأهليّة، ولم يتحدّث سوى عن مدرسة السلام؛ بينما ذكر المدرستين في مقاله بجريدة "الإصلاح" في تأبين رمضان حمود؛ وفي لقائه الإذاعي مع عبد الحميد بن جدو. ينظر: جريدة "الإصلاح"، عدد 14، ص03؛ ولقاؤه الإذاعي مع عبد المجيد بن جدو بمناسبة صدور ديوانه "تحت ظلال الزيتون"؛ مقابلا بـــ شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 151. وقد ذكر في شعراء الجزائر في العصر الحاضر بأنّ صالح الأحمر كان يدرّسه مبادئ الفرنسيّة.

[3]- استصدر تصريح سفر إلى قالمة، له ولابن عمّه عبد العزيز، يوم 1922/11/01؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص189. ويقول يوسف بن يحي الثمينيّ في رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق، يوم 1922/11/13: «أمّا قولك عن محمد بن الحاج صالح [الثمينيّ] فإنّه في قسنطينة اليوم منذ يومين، وغدا أو بعده يصل هنا [يعني: قالمة] إن شاء الله تعالى» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[4]- يشهد لذلك كراس مصاريف رمضان حمود، فإنّه لم يستلمه من الشيخ أبي إسحاق إلاّ في 1923/01/28، وقد سبق؛ ينظر: ص70.

[5]- غير مؤرّخة، غير أنّ محتواها يدلّ على أنّه كتبها بعد مدة قصيرة من استقراره بمصر. وذكر طلبته في الرسالة كالآتي: «عبد العزيز [بن يوسف الثمينيّ]، عبد الله [بن محمد بوراس]، سليمان [بن محمد ابليدي]، حمو [بن سليمان رمضان]، [مفدي] زكرياء الشاعر، ابن موسى، [إبراهيم] ابن محمد [البكاي]، سليمان [بن عمر بزملال] النشيط»، ويبدو أنّهم أعضاء بعثته هو والثمينيّ فقط، وفي الرسالة ما يدلّ على صرامة الشيخ الثمينيّ في تعامله مع طلبته، فهو يدعوهم إلى حملها المحمل الحسن، لأنّ الشيخ الثمينيّ كان جادّا وصارما في أموره كلّها، حتّى كان الشيخ أبو إسحاق ينعته في بعض رسائله بـــ "صعب المراس". أمّا الطالب ابن موسى، فالأرجح -بحسب الرواية الشفهيّة- أنّه سليمان بن موسى بن أيوب بن صالح

هكذا استلم الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ شؤون البعثة، فأعاد لها ازدهارها، ووافقه في ذلك تحسّن الأوضاع الاقتصادية للناس، وميلهم إلى صفّ شيوخ البعثة في مواجهتهم للشيخ الحاج صالح لعلي وأشياعه، خاصّة بعد إبعاد الشيخ أبي إسحاق؛ وتشير إلى هذا العهد الجديد للبعثة رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى ابن أخيه، إذ يقول له مشجّعا على تحمّل الأمانة: «وأنت اسع في الخير، لعلّ الله يوقظ الشعب على يدك، وتكوّن مجدا باذخا في الوطن والمذهب، بتحصيل تلاميذك على مبلغ من العلم عظيم، ومركز من النهضة جسيم، وذلك يكون بالصبر والثبات والصدق والإخلاص؛ وإنّ لديك اليوم شبيبة متنوّرة ذكية، قابلة للتعليم قبولا حسنا، إن بذلت جهدك معهم عاما يخرجون في طور جديد، ومستقبل باسم، بنور ساطع إن شاء الله»[1].

بلغ عدد الطلبة في أوج الأزمة التي عصفت بالبعثة خمسة تلاميذ، وقد بدأ انفراجها بعودة عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، والتحاق كلّ من ابن موسى، وسليمان بن عمر بزملال بالبعثة قبل إبعاد الشيخ أبي إسحاق؛ ثمّ تلاه عودة إبراهيم بن عمر دواق[2]، وكان صالح بن محمد باحريز على وشك العودة، بمبادرة من أخواله، لولا تدخّل والده في آخر لحظة لمنعه[3]، بالإضافة إلى التحاق عمر بن محمد بن إبراهيم البكاي بأخيه في البعثة[4]، ويوسف بن محمد بن سليمان البليدي[5]، وعلي بن داود حمودة[6]؛ ثمّ أَدخل صالح بن محمد بن زكري ابنيه محمد وأحمد، وابن

ابن علي، لقبه نوح، غير أنّ أبناء هذه العائلة اشتهروا أكثر بلقب: ابن موسى. غادر هو ووالده بني يزقن إلى سوق اهراس، بتصريح سفر مؤرّخ في 1921/06/30، وعمره آنذاك 14 سنة؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص170. غير أنّ لم تتجاوز دراسته في تونس شهورا معدودة.

1- رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ من قالمة، إلى الشيخ الثمينيّ بتونس، 1923/08/08، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ذكر اسمه في رسالة بكير بن عمر بن الحاج أحمد امعيز إلى طلبة البعثة، 1342/02/03هـ، 1923/09/15م؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- ورد في رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ السابقة إلى ابن أخيه، 1923/08/08، ما يلي، بعد تصحيح النصّ قدر الإمكان: «إنّ أخانا عبد الله بن محمد بوراس، وأخوه عيسى، يسلّمان عليك كثيرا، ويقولان لك: إنّ صالح بن محمد بحريز يكون عندك إن شاء الله في هذين اليومين، بارك الله فيك، نرجو أن تقبله، وتبذل جهدك معه ليتابع دراسته كما كان من قبل، واجعل عملك لله؛ وإنّهما سيتكفّلان بمصاريف دراسته، لأنّه كان دائم الشكوى، وراغبا عن العمل، ويقول لهما: أرجعوني أتمّ تعليمي، ولو عاما واحدا، وإن شاء الله ترون النتيجة». وفي رسالة ثانية، 1923/08/22، كتب يوسف بن يحي الثمينيّ مايلي، بعد التصحيح: «بعث والد صالح بحريز إلى عبد الله، يقول له: لا نقبل منك أن ترسله إلى تونس، لأنّه قريب الزواج، وعليه أن يعمل، وإنّنا لا قدرة لنا على مصاريف دراسته في تونس؛ وصالح في ضيق كبير من ذلك»؛ الرسالتان في أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- كان موجودا في البعثة في 1342/06/06هـ، 1924/01/12م، باعتبار كراس مصاريفه وأخيه؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

5- سجلّ في كراس مصاريفه: «دخل يوسف بن محمد بن سليمان البليدي في زمرة التلامذة بوم 1341/11/14هـ، 1923/06/28م» أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

6- سجلّ في كراس مصاريفه: «دخل علي بن داود حمودة، بواسطة سليمان بن قاسم رمضان، في زمرة التلامذة بوم 1342/11/05هـ، 1924/07/08م» أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

أخيه أيوب بن حمو في زمرة تلامذة البعثة[1]؛ ثم لحق بهم محمد بن يوسف اطفيش، و محمد وعمر ابني سليمان البكاي[2]، فكانوا آخر التلاميذ التحاقا بالبعثة قبل مغادرة مفدي لها في أواخر سنة 1925.

وكانت لهذه الفترة وما بعدها من عمر هذه البعثة متاعبها، وقد ركّزها الشيخ الثمينيّ في رسالة إلى أولياء التلاميذ، جاء فيها ما يلي: «وقد بحثنا الأسباب والعلل، فرأينا أنّ معظمها ءات من قبل آباء التلامذة، لتعدّد نزعاتهم وميولهم، وغاياتهم من تعليم أبنائهم، وعدم إدراكهم قيمة المجهودات العظيمة التي تبذل لإنجاح أبنائهم، وإيصالهم إلى الغاية المطلوبة، وهي -والحقّ يقال- مجهودات جماعة يقوم بها فرد واحد.

لما تقدّم نرى من الواجب علينا سلوك أحد طريقين: إمّا نفض اليد من هذا العمل المضني المتعب الذي هو أشبه شيء بالمهازل التي يراد منها التسلية /وتضييع الوقت، والتماس خدمة الدين والوطن من طريق آخر أكثر فائدة، وأوفر عائدة، فإنّ طرق خدمة الدين والوطن كثيرة متعددة، والحمد لله، ولكنّ هذا فيه من الخسارة على الأمّة ما لا يدرك مقداره إلاّ بعد وقوعه؛ وإمّا مكاشفة آباء التلامذة، ومجابهتهم بالغاية التي من أجلها أسّس المشروع، وبما يعترضه من قبلهم من الموانع. وقد ترجّح سلوك هذا الأخير، إذ لا يزال في هذا الأخير بصيص من نور الأمل، يلمع بين الأعين.

أمّا الغاية من المشروع فهي تكوين طائفة من الشبّان الجامعين بين التربية الدينية والعلمية والنفسية، يمكننا بهم تكوين نواة علمية في الوطن، لتدارك الحالة، وأهمّ ذلك تأسيس مدارس على أساس علمي صحيح منتج.

وأمّا الموانع التي تفسد علينا أعمالنا فهي أنّ كثيرا ما يطلب بعض آباء التلامذة أبناءهم في أثناء السنة الدراسية، إمّا لقطعهم عن العلم مرة واحدة، لعوامل مختلفة. وهذا، وإن كان فيه مضرّة كبيرة، وخسارة على التلميذ وأبيه، إلاّ أنّه أهون على نفس القائم بالمشروع، إذ غاية ما يتمثّل به قوله تعالى: ﴿إنّك لا تهدي من أحببت﴾[3].

وإمّا أن يكون طلبه على نية إرجاعه، وإنّما وقع طلبه لنزوة من النزوات، وعاطفة من العواطف التي لا يوافق عليها العقل الصحيح، وهذا عبث، وتضييع لوقت التلميذ، وإعنات للقائم بأمره، وإيقاعه مع معلّمي التلميذ في المدرسة في مشاكل، وفي كلا الحالين، يحدث لبعض التلامذة عند سفر أحد زملائهم أثناء السنة الدراسية، من تشوّش، وأحيانا من اختلال قواهم العقلية، أضرار فاحشة، لا تمكن معالجتها»[4].

1- بتاريخ 1344/01/01هـ، [1925/07/22م]؛ ينظر: كراس مصاريف الأخوين، وكراس ابن عمّهما، أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

2- يوم 1344/02/18هـ، 1925/10/07م؛ ينظر: كراس مصاريف محمد بن يوسف اطفيش، وكراس الأخوين البكاي، أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

3- سورة القصص، الآية 56.

4- نسخة من الرسالة، أرشيف الشيخ الثميني، بتونس. ويمكن تحديد تاريخها من خلال محتواها ببداية الثلاثينيات. وفي رسالة إلى عبد العزيز بن

بعد حصول مفدي زكرياء على الشهادة الابتدائية في آخر سنة 1341هـ، دخل المدرسة الخلدونية، وانتظم في سلك جامع الزيتونة في أوائل سنة 1342هـ:

أمّا المدرسة الخلدونية، فتواريخ ما اطّلعنا عليه من كراريسه فيها لسنة 1342هـ، تعود إلى شهر نوفمبر 1923، فأوّل تاريخ سجّل في أحد هذه الكراريس كان يوم الأحد [1342/03/24هـ]، 1923/11/04م، وفي هذا الكرّاس وآخر غيره لنفس السنة سجّل على غلافه: كراس القسم الثاني[1]، وهذا يدلّ على أنّه تخطّى القسم الأوّل مباشرة إلى القسم الثاني، والموادّ التي كان يدرسها في هذه المدرسة، هي «الإنشاء، التاريخ، الجغرافية، مبادئ الهندسة، الحساب، مكاييل ومقاييس، مبادئ الطبيعة، مبادئ الكيمياء، اللغة الفرنسية»[2]، وقد وجدنا مصداقا لها في كراريسه. وذكر في كراس من هذه الكراريس أستاذين هما: حسن حسني عبد الوهاب في التاريخ، ومحمد العبيدي في علم الجبر[3]. وفي نهاية السنة الثانية 1343هـ تقدّم لامتحان إدارة العلوم والمعارف العلميّة قصد الحصول على شهادة التحصيل على المعارف العمليّة، وقد أجرى الامتحان في 1925/06/27، في الموادّ الآتية: الجغرافية، والتاريخ، والحساب، والهندسة، والمكاييل، والمقاييس[4]. وبعد نيله لهذه الشهادة عاد مرّة أخرى إلى الخلدونية، ليتابع دراسته فيها في الموسم الدراسيّ لسنة 1344هـ، فقد كتب في أحد كراريسه لهذه الفترة ما يلي: «كراس علم التاريخ: القسم الثانوي من ابروقرام [برنامج] المدرسة الخلدونية لعام 1925، للمدرّس العلامة المؤرّخ الأستاذ عثمان الكعّاك. التلميذ: زكرياء بن سليمان مفدي، التلميذ بالجامع الأعظم، وخرّيج المدرسة الخلدونية»[5]. وهذا يدلّنا على أنّه تخرّج من المدرسة الخلدونيّة، بالشهادة المذكورة آنفا، فقد كتب يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1925/08/05، يشكو له وضع ابنه عبد العزيز الدراسيّ، فيقول: «انتظرت نتائج امتحان

يوسف الثمينيّ وعبد الله بوراس، 1348/09/01هـ، [1930/01/31م]، يوضّح فيها معاناته في هذه المهمّة المضنية: «أنا أبنائي في الدور الأخير من التجربة لهذا المشروع الذي قتلنا فيه 12 سنة، كلّها تجربة، فإذا نجحت، أو أومضت بين عيني بروق النجاح، مضيت في سبيلي بنفس تلك العزيمة التي تذرعت بها عشر سنوات، وإلاّ حوّلت وجهي شطر أعمال أخرى، وحسبي أن أكون معذورا أمام الله والناس فيما أظنّ. نعم قد يكون نقص كبير من تربية الأولاد ومراقبتهم، وهذا لا أنكر شيئا منه، ولكن مهما فحش ذلك النقص فلن يقدر عاقل متبصّر أن يصفه بالخزي، والكمال لله [...]. دعوني من هذا الموضوع، فإنّ النفس عند الدخول فيه تتّقد اتّقاد الأتون، وتغلي غليان المرجل، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[1]- ينظر: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

[2]- إرشاد الحائرين06. وينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 151.

[3]- ينظر: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

[4]- مؤرخة في 1925/12/31، بينما أمضى عليها مستحقّ الشهادة، وهو مفدي، في 1925/11/21؛ ينظر: الشهادة (DIPLOME de connaissance pratiques)، مكتبة مفدي زكرياء.

[5]- كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

الخلدونيّة بفروغ صبر، ففاز زكرياء، وخاب هو، ودخل إلى الخلدونيّة قبل زكرياء بعامين»[1]، وقد واصل مفدي دراسته في المرحلة الثانوية غير أنّه انقطع عنها في الأشهر الأولى منها[2].

أمّا جامع الزيتونة فدرس فيه سنتين وأشهر فقط، يقول في ذلك: «ثمّ انخرطت في سلك الجامع الأعظم، جامع الزيتونة المعمور، فقرأت فيه على أساتذة كبار كتبا عالية في النحو والبلاغة، وشيئا قليلا في الأصول ولامية الأفعال في الصرف [...]. وفي سنة 1344هـــ، دخلت الجامع الأعظم أيضا، فدرست الجزء الأوّل من الأشمونيّ، والتنقيح للقرافيّ، والسعد التفتازانيّ، وآداب البحث، وجزء من فقه اللّغة للثعالبيّ»[3]، ممّا يدلّ على أنّه ارتقى في الأشهر القليلة قبل عودته إلى بني يزقن إلى درجة الأشمونيّ، فكان ممّن قصده الشيخ أبو إسحاق في تهنئة من ارتقى من طلبته إلى درجة الأشمونيّ[4]. أمّا ما تناوله بالدراسة في جامع الزيتونة في سنته الثانية، فنجد أثرا له في رسالة أحد زملاء دراسته، سليمان بن عمر بزملال، إلى شيخه الثمينيّ، بتاريخ 1925/04/20، حيث يقول: «إنّ برنامج جامع الزيتونة هذا العام في غاية التأخّر، بعدم المواظبة، وكثرة المناظرات، فلولا نظام المطالعة في الدار ليلا ونهارا لبقينا هذا العام كتلامذة الجامع فارغين [...]. وقفنا في "المكودي"(1) في باب المفعول معه. وقفنا في "المكودي"(2) في عوامل الجزم. وقفنا في "الملوي": في باب القضايا./ وأمّا "الورقات" في قوله: وأمّا العامّ فهو ما عمّ شيئين فصاعدا. وأمّا "السمرقندية" في الفريدة الثالثة من العقد الأوّل. وأمّا "لامية الأفعال" في باب أبنية المصادر. لا زلنا في ابتداء الكتب، ومدّة القراءة الباقية في الجامع شهران بعد العيد، بالامتحانات. فهل نكمل ما بقي لنا من الكتب؟ اللهمّ إلاّ إن ركبنا طائرة الدرس، ومشينا مائة كيلومتر في الساعة، وعند ذلك يحتمل لنا الختم [...]»[5].

ويقول مفدي أيضا: «ثمّ انقطعت إلى الخلدونيّة، والزيتونة، كنّا ندرس على النمط القديم [...].

1- مع تصويب لبعض ألفاظه. ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. ويقول الشيخ أبو إسحاق اطفيش في رسالة إلى طلبته، 1344/02/28هـــ، 1925/09/16م: «أهنّئ أبنائي الذين نجحوا في امتحان الخلدونيّة، كما أهنّئ الذين ارتقوا إلى درجة الأشموني، فإنّ هذا ممّا أفعم نفسي آمالا وسرورا» الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلاميّ، د.محمد ناصر، جمعية التراث، القرارة-الجزائر، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، رغاية-الجزائر، ط:1991، ص205.

2- يقول مفدي في ترجمته الشخصية: «ثمّ أعدت الكرّة إلى الخلدونيّة، فأخذت الشهادة الثانويّة في امتحانها»شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 151. ونيله للشهادة الثانويّة لم يقم عليه دليل، كما أوضحناه. ويقول صديقه الحميم الحبيب شيبوب في ذلك: «ثمّ التحق بجامع الزيتونة، وفي جامع الزيتونة كان من زملائه: جلال الدين النقّاش، والهادي العبيدي، والفاضل /بن عاشور، ومحمود بورقيبة، ومحمد الدهماني، وغيرهم؛ ثمّ لم يكمل تعليمه الزيتونيّ، وعاد إلى مسقط رأسه في بني مزاب» مع بورقيبة80، 81.

3- شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 151.

4- ينظر النصّ المقتبس من رسالته: الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلاميّ205.

5- أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، مع تصويب لبعض ألفاظه وعباراته. ويشهد لزمالته لمفدي في جامع الزيتونة حديثه في نفس الرسالة، عن دراستهما وإخوانهما دواق، وعيسى بن عبد الله، وبوراس عند الشيخ عبد السلام التونسيّ.

قرأت على مشايخ عدّة، الشيوخ المعروفون آنذاك: الشيخ الطاهر بن عاشور، والشيخ الشاذلي النيفر»[1]، أضف إلى ذلك الشيخ الشطّي[2]، والأستاذ الوحيد الذي مدحه بقصيدة، نشرها في الصحافة آنذاك، وهو الشيخ عبد السلام التونسي"[3].

وعلى هامش هذه الدراسة النظاميّة نسبيّا، يقول مفدي: «ثمّ أخذت أحضر مسامرات الأديب الأستاذ العربي الكباديّ في الأدب، بمدرسة الترجمة للغة العربيّة العليا، ودرست جزء من كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة»[4]؛ وفي رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1925/01/19، نقرأ ما يلي: «طلب الأولاد الحضور بالعطّارين، في درس كبادي [يعني: الشيخ العربي الكباديّ]، في الأدب، في الشعر والشعراء/ فاستحسنت ذلك، وكنت أحضر معهم فيه أنا، وعبد الرحمن [بن عمر بكلّي]، كلّ ليلة الأربعاء من 6 و30 إلى 7 و30، وهو درس لا بأس به»[5]؛ وفي رسالة عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ إليه، بتاريخ 1924/12/18، جاء فيها ما يلي: «وأمّا درس الكباديّ فدرس عظيم جدّا، فأرى أن أحضر فيه، وأترك درسا في الخلدونيّة، إذ عمّنا أبو اليقظان حضر فيه، وأعجبه جدّا، وعزم على المواظبة في الحضور»[6]، وهذا يدلّ على أنّه تابع دروس الشيخ الكباديّ في مدرسة العطّارين بداية من شهر ديسمبر 1924، من غير أن ينتظم في سلكها، ممّا يفنّد نيله «شهادة الآداب، من مدرسة العطارين، عند الشيخ الكباديّ»[7].

بعد تعداد الشيخ أبي اليقظان في كتابه "إرشاد الحائرين" لما يتناوله طلبة البعثة كبارا وصغارا من تعليم في مختلف المدارس والمعاهد التونسيّة، أضاف قائلا: «هذا زيادة عمّا يزاولونه في ديارهم من العقائد والفقه عند الثقاة الأمناء من رقبائهم»[8]، ثمّ في تحديده لوظيفة الرقباء، ويعني بهم: رؤساء البعثة، ومن يستعينون بهم من كبار الطلبة

1- زيارة خاطفة، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون". وقد ذكر أيضا في هذا الحوار بأنّه درس سبع سنوات بالزيتونة، ونال منها شهادة الدولة، وهو ما لم يثبت تماما.

2- ففي رسالة سليمان بن عمر بزملال إلى الشيخ الثمينيّ، 1925/02/15، يتحدّث عن عطلة اضطرارية في الجامع: «لأنّ مشايخنا أرادوا الدخول في المناظرة [...]، وأعرضوا كلّهم عن الجامع، و لم يبق لنا إلاّ درس واحد عند الشيخ الشطي»؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3- ينظر: الباب الرابع، ص392.

4- شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 151.

5- أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

6- أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

7- زيارة خاطفة، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون".

8- إرشاد الحائرين06. يقول الشيخ أبو إسحاق: «يلقى لهم درس يوميا في الأيّام الطوال، إمّا في الفقه، وإمّا في التوحيد، وإمّا في تاريخ الأئمّة: سلّم العامة، وجامع أركان الإسلام، ونور التوحيد، وأمثالها» الدعاية إلى سبيل المؤمنين20 ها01. وقد عثرنا على كراس لمفدي زكرياء خاصّ بالعقيدة الإباضية؛ ينظر: كراريسه، أرشيف مفدي زكرياء بمكتبته. ويقول رمضان حمود في ترجمته الشخصية: «وأمّا العلوم الدينيّة من توحيد وفقه وغيرهما، فعمدتي أستاذيّ الشيخ إبراهيم اطفيش، والشيخ محمد الثمينيّ، ولا أنسى ما أخذت عن هذين الأستاذين المحسنين من أخلاق وآداب، وما نفخا في روعي من وطنيّة» شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 170.

في الغالب، يقول: «وظيفة الرقباء: هي ما يأتي: إلقاء الدروس عليهم في العقائد والفقه، /الإباضيّ يوميّا كما قدّمنا، تفقّد كراريسهم ودروسهم المدرسية، مراقبة أحوالهم الدينية العملية، ضبط سيرهم، وتقويم أخلاقهم، وإصباغهم بأصباغهم الملّيّة، المحافظة على حالتهم الصحيّة والاقتصادية، إدارة شؤونهم المنزلية إلخ»[1].

لقد كان نظام البعثة صارما، وهذه الصرامة كانت من طبع القيّمين عليها، فقد كان ثلاثتهم الشيخ أبو إسحاق، والشيخ أبو اليقظان، والشيخ الثمينيّ ذوي همم عالية، جادّين في حياتهم، على تفاوت بينهم في هذه الجدّية والصرامة، وكانوا يرون قيامهم على هذه البعثات رسالة وأمانة يؤدّونها، ويشعرون في ذلك بثقل المسؤولية دينيّا واجتماعيّا، وبخاصّة بعد الصراع الذي خاضوه ضدّ المعارضين لهم، وكان أملهم في تلاميذهم في مستوى طموحاتهم، وهو ما تصرّح به رسالة الشيخ الثمينيّ إلى طلبته، بتاريخ 1340/10/18هـ، [1922/06/14م]، حيث يقول: «[...] لقد خلت جوابكم زهرا تضوّع أريجه، فانتعشت منه الأرواح قبل الأشباح، والسرى يحمده القوم بعد الصباح؛ ما ذلك لبهرجة ألفاظه وانتظامه، ولا لحسن تنسيقه وترتيب كلامه، بل لسرّ أودع فيه، هو أنتم، وروح تنبعث منكم أشعّة نوره، فتضيء لها أفئدة راجيكم، بيد أنّ ذلك لا يتجسّم حقيقة ناصعة تندهش لها الألباب، وشمسا ساطعة تبدد الشك والارتياب إلاّ إذا أدركتم السرّ بعين بصيرتكم، وعملتم لإظهاره، وإلاّ فنعوذ بالله من ظلام بعد إشراق، ومن أمل مغبّته إخفاق. أي أبناءنا الأعزّاء، اعلموا أنّ وطنكم ودينكم وأمّتكم أصبحت تتلاطمها أمواج الحوادث، وتتلاعب بها نكباء الكوارث، وقد توقّفت نجاتها من الغرق، وسلامتها من العطب عليكم، وعلى أمثالكم من الأحداث الذين هم في مقتبل عمرهم، فماذا يكون واجبكم تلقاءها يا ترى؟ (الجواب موكول إليكم). إنّ مستقبل كلّ أمّة بيد شبابها، وأنتم شباب أمّتكم، فبقدر جدّكم في إسعادها اليوم، تكون النتيجة غدا، فإيّاكم وتضييع الفرص، وتمضية أوقاتكم فيما لا يعود عليكم بالنّجح. اعلموا أنّكم إنّما فارقتم وطنكم وأهليكم لتستفيدوا، لا ليستفاد منكم، ولتربحوا لا لتخسروا، فتسوء عاقبتكم ويستاء منكم آملوكم،/ وإيّاكم أن تبتاعوا مساوئ غيركم بمحاسنكم، فتصبحوا كلاّ على مذهبكم الشريف الطّاهر النقيّ، بدل أن تكونوا عونا ونصيرا له، اذكروا أنّما خلقتم، وعشتم، وتغرّبتم عن وطنكم، وعملتم كلّ شيء، أو تعملونه جليلا كان، أو حقيرا، لتكونوا إباضيّين بأتمّ معنى التسمية. إنّ مذهبكم شبه يتيمة عديمة النظير، أضاعها أهلها فتوارت محاسنها عن الأعين، فاعملوا حفظكم الله لإزالة ما تراكم عليها من أدران الإهمال حتى تنجلي محاسنها للعيان، فيخرّ لها العالم ساجدا هيبة وإجلالا، فإن عملتم فلا شكّ أنّكم تنسخون من صحيفة الأذهان قاعدة (المذهب الإباضيّ مذهب بلا رجال)، وترسمون مكانها (المذهب الإباضيّ مذهب ورجال). يجب عليكم أن تأتوا بكل عمل مفيد، بشرط أن يكون اسمه التقوى، وقاعدته مبادئ المذهب الشريف. يجب عليكم أن تقدّروا حقّ قدرهم الذين صرفوا لحياتكم جوهرة حياتهم، وبذلوا لسعادتكم نفيس عمرهم، سواء كانوا آباءكم أو مشايخكم. هذا قليل من كثير، ونزر يسير

---

[1]- إرشاد الحائرين06، 07؛ وينظر: الدعاية إلى سبيل المؤمنين20، 21.

من واجباتكم، فإن أنتم أتيتم بها -ولا إخالكم إلاّ فاعلين- كانت النتيجة أكثر من المطلوب، والأجرة أكثر من العناء، ونبلت أعمالكم، وتحقّقت آمال آمليكم، وطاشت سهام معارضيكم [...]، والسلام. حرّره في 18 شوّال 1340هـ الداعي لكم بالخير محمد الثمينيّ»[1].

أوردنا هذه الرسالة على طولها لما تبيّنه من القيم التي أسسّت عليها هذه البعثة، وعلى طموحها في أبنائها، وقد اختصرها الشيخ الثمينيّ كلّ ذلك في لفظة واحدة "الاستقامة"، هي بمثابة شعار انطبق على سيرته الشخصية، وعرف به، وكانت البعثة تدور في فلكه، لا تحيد عنه، فلا عجب أن نجد الشيخ أبا اليقظان في إحدى رسائله إليه، يقول له بخصوص تلاميذه: «الأولاد في صحّة وسلامة، وسائرون حول محور الاستقامة»[2].

تأسيسا على ما سبق، ولتحقيق هذه المرامي البعيدة في طلبتهم كان القيّمون على هذه البعثة يتكفّلون بهؤلاء الطلبة في جميع شؤونهم، وأحيانا أكثر من تكفّل أوليائهم بهم[3]، كما يعقدون لهم أنشطة ثقافية علميّة وترفيهيّة داخل البعثة[4]، ويخصّصون لهم أوقاتا للترويح عن النفس بالرياضة[5]، والسياحة[6].

وفي مقابل كلّ ذلك انغلقت البعثة على أفرادها، ومنعت أيّ نشاط للتلميذ مهما كان سنّه خارجها، وأيّ اتّصال مع غير أفرادها، من غير أخذ الإذن في ذلك من القيّم، كما كانت مراقبة التلاميذ دقيقة في جميع حركاتهم وسكناتهم، مخافة صدور أدنى انحراف منهم، وهم في سنّ حرجة، سنّ المراهقة، ممّا قد يؤثر تأثيرا سلبيّا بليغا على البعثة. وممّا يجلي هذه الصورة ما جاء في رسالة الشيخ الثمينيّ إلى عمر بن الحاج محمد اطفيش، يقدّم له توجيهات بخصوص مراقبة طلبة البعثة، وبرنامج دراستهم داخلها، يقول: «أبلغني الشيخ أبو اليقظان أنّ الأولاد يحضرون دروسه يوم الجمعة، وقد تمنّيت أنّكم شاورتموني قبلا، وعلى كلّ حال لا بأس، إلاّ أنّي ألاحظ عليك مراقبتهم بحيث لا يذهبون قبل وقت الدرس، ولا يمكثون بعده، ويسيرون مجتمعين لا منفردين. ما كان غرضهم حضور درس واحد في أسبوع كامل، بل غرضهم الحقيقيّ أنّهم وجدوا منفذا للخروج، فتعلّلوا بحضور الدرس [...].

---

[1]- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[2]- الرسالة مؤرّخة في 1925/02/13، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[3]- ففي كرّاس مصاريف مفدي زكرياء، نجد بتاريخ 1923/10/05: فحص طبيب العيون ونظارة، 33.70 فرنكا؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة. وهو ما قد لا ينتبه إليه وليّ التلميذ أصلا في تلك الفترة، بداية العشرينيات، مع ضيق ذات يد الأولياء، فنجد الشيخ الثمينيّ يدفع مثل هذه المصاريف الباهضة، وأكثر منها من جيبه، وينتظر بعد ذلك استرجاعها من الوليّ، وأحيانا لا يتمّ ذلك إلاّ بعد تكرار المطالبة بها، وهو ما حدث مع والد مفدي غير مرّة، كما أسلفنا.

[4]- ينظر: الباب الرابع، ص376، وما بعدها.

[5]- في رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1925/01/19، ورد ما يلي: «ونخرج للرياضة جميعا: سي عمر، وسي عبد الرحمن، مع الأولاد، وألحقهم أنا غالبا، لأنّي وجدت مصلحة كبيرة لهم، ولصحّتهم، ولي في ذلك» أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[6]- في كراس مصاريف مفدي زكرياء في البعثة، نجد مصاريف خروج للنزهة والسياحة، إلى رادس مرارا، وأحيانا إلى المرسى، ومرّة إلى قرطاج، وأخرى إلى حمّام الأنف، وثالثة إلى البحر، وفي مرات عديدة من غير تحديد الوجهة؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

أرجو أن تلحّ عليهم في حفظ "الألفية"، ثمّ "لامية الأفعال"، ثمّ "السلّم"، ثمّ "طلعة الشمس"، ثمّ "أنوار العقول"، ولا تسامح أحدا في التخلّف عن هذا الواجب، وأقلّ ما يعرض عليك كلّ واحد منهم خمسة أبيات في اليوم»[1].

ويبدو أنّ مفدي كان من طبعه التمرّد[2] على مثل هذا النظام الصارم، إذ يرى فيه تقييدا لحرّيته، فانجرّ عن هذا التمرّد متاعب كثيرة له، وخصومات، فقد كان خاضعا أكثر من غيره للرقابة والمساءلة، وأحيانا للعقوبة، من غير أن يستسلم، ويرضخ للأمر الواقع، فقد كان عنيدا، يحاول جهده أن ينفكّ من هذا الإسار:

يظهر ذلك بوضوح في الرسائل المتبادلة بين الشيخ الثمينيّ، وكلّ من الشيخ أبي اليقظان، وعمر بن الحاج محمد اطفيش، في فترة غيابه التي امتدّت من شهر ديسمبر 1924[3]، إلى أواخر جوان 1925[4]، فقد أفضى هذا التمرّد على النظام من مفدي، وتكرّره منه بلا شكّ، بالشيخ أبي اليقظان إلى منعه من متابعة دروس في الفرنسيّة والعروض، لا لشيء سوى الخوف من أن يكون ذلك مجرّد ذريعة للتخلّص من المراقبة، بذهابه بمفرده إلى تلك الدروس[5]؛ فيبعث مفدي برسالة إلى الشيخ الثمينيّ يقول فيها: «هذا، والداعي إلى تحرير هذا الكتاب هو إعلامكم بأنّ الزميلين عبد الله بوراس وعبد العزيز قد تركوا قراءة الفرنسويّة بالخلدونيّة [...] فإنّي أيّها الأستاذ المحترم لا أقدر أن أتركها، لأنّها تستمدّ من الكتاب الثالث، الذي هو بمرتبة الكتاب الذي كنّا نزاوله بالمدرسة، وأمد قراءته يومان

1- الرسالة، 1924/12/16، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وحفظ المتون في دار البعثة هو عين ما تحدّث عنه بابا بن إبراهيم بوعروة، إذ يقول: «وفي دار البعثة كنّا نتلقّى دروسا متنوّعة، ومن أهمّها حفظ كتاب الله الكريم، حيث انتُدب لذلك معلّم خاصّ، حافظ للقرآن الكريم، وملمّ بجميع قواعد رسم كتابة المصحف الشريف، وبما أنّ زكرياء عند وصوله لتونس قد اختتم سورة الكهف، شرع في حفظ سورة الإسراء، وفي فترة وجيزة أتمّ حفظه، لفرط ذكائه؛ كما حفظ عقيدة التوحيد التي عرّبها الشيخ أبو حفص عمرو بن جميع من البربريّة، وفي النحو ابتدأ بحفظ متن الأجروميّة، وبعده توجّه إلى حفظ منظومة ألفية ابن مالك، ومنظومة الرحبية في الميراث» تعاليق حول حياة مفدي زكرياء02.

2- إنّ صفة التمرّد في طبعه، ممّا صرّح به مفدي زكرياء نفسه، في حواره مع عبد المجيد بن جدو، في حديثه عن فترة العشرينيّات من حياته، وذلك حيث يقول: «كنت من صغري متمرّدا ثائرا»؛ ينظر: زيارة خاطفة، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون".

3- يقول الشيخ الثمينيّ في رسالته إلى عمر اطفيش، 1924/12/29: «وبعد، فقد وصلت الوطن سالما، والحمد لله، في يوم الأحد مساء، على سا 08 و30، ووجدنا الإخوان ينتظروننا في غارداية، وبني يزقن، من كلا البلدتين»، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. والأرجح أن يكون وصوله يوم الأحد 1924/12/21؛ وينظر أيضا: رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1924/12/20، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- سافر من بني يزقن بتصريح سفر مؤرّخ في 1925/05/21؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص228. وآخر رسالة أرسلت إليه من تونس هي رسالة عمر اطفيش، بتاريخ 1925/06/15؛ وأوّل رسالة وصلته في تونس هي رسالة رمضان حمود من غرداية، بتاريخ 1925/06/30؛ تنظر الرسالتان: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ وكان من عادة الشيخ الثمينيّ، وهو في طريقه إلى تونس، أن يتوقّف في عمالة قسنطينة، وبخاصّة في قالمة وقسنطينة، للوقوف على مصالح والده ومصالحه فيهما.

5- وذلك حيث يقول في رسالة له إلى الشيخ الثميني، 1924/12/13: «طلب زكرياء الحضور في درس اللغة الفرنسية بالخلدونية، لعلل واهية، فمنعناه، حيث أنّه يتراءى لنا في ذلك مسربا له. طلب الحضور في درس خزندار، في العروض بالعرفانيّة، فمنعناه كذلك، وقد واعدته بجعل مثله له في الصائفة المقبلة بإذن الله»، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. ويبدو أنّ هذه الدروس كانت اختياريّة لا إلزاميّة في المدرستين. يقول مفدي في ترجمته الذاتيّة: «لقد قرأت الزحافات والعلل والدوائر على شاعر الخضراء العبقريّ الشاذلي خزندار»شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 151. ولا ندري أدرس العروض على خزندار أم على الشيخ أبي اليقظان؟

في الجمعة فقط: يوم الأربعاء: إملاء، ولغة؛ يوم السبت: قراءة، وترجمة؛ وإنّها لتنفعني كثيرا»[1]؛ ثمّ يدعّم طلبه بأمثلة من استفادته، فيقول فيما يخصّ القراءة: «أمّا القراءة فقد كنت في الدرس الأوّل أستحي أن أقرأ أمام التلاميذ، أمّا الآن فقد تدرّبت»؛ وبخروجه أيضا في الحصّتين الأسبوعيّتين في نفس توقيت خروج زميله في البعثة دواق إبراهيم، يعني: أن لا مسرب له بين الخلدونية ودار البعثة[2]؛ فيأتي قرار الشيخ الثمينيّ في رسالته إلى عمر اطفيش، بتاريخ 1924/12/29، وذلك حيث يقول: «وزكرياء وعبد العزيز وعبد الله يجب أن لا يتركوا دروسهم في الخلدونيّة، ولا أن يغيّروا من البرنامج الذي تركتهم فيه، ويحضروا دروس الفرنسيّة مع زكرياء»[3].

ومن الأمثلة التي وقفنا عليها من تمرّده على نظام البعثة، رسالة له إلى صديق تونسيّ، هو الفاضل بن الشيخ الطاهر بن عاشور[4]، من غير استشارة القيّم على البعثة، وطلب الإذن منه، لأنّه يطلب من صديقه في ختام رسالته أن يراسله إلى عنوان غير عنوان البعثة العلميّة المزابيّة[5].

والذي عانى أكثر من غيره من تمرّده هو القيّم على شؤون طلبة البعثة المنزليّة، السيّد: عمر بن الحاج محمد اطفيش، الذي اعتبر في إحدى رسائله تحمّله أمانة البعثة، ومراقبة طلبتها عموما، في غياب الشيخ الثمينيّ، دخولا في المعركة بلا سلاح[6]، فقد كتب إلى الشيخ الثمينيّ يصف له أحوال طلبته في غيابه، فقال عن مفدي: «زكرياء كثير النّوم، كثير الميل إلى الأراذل، وأخاف عليه من الثاني»، وعقّب في ختام استعراضه لأحوال الطلبة، فقال: «جلّ من لا عيب له، ولكن أخاف من زكرياء جدّا جدّا جدّا»[7].

في وثيقة معلومات للإدارة الاستعماريّة، في أكتوبر 1944، ورد بخصوص دراسته بتونس ما ترجمته كالآتي: «لقد أدرجه الطلبة المدرّسون بجامع الزيتونة مبكّرا في العمل السياسيّ، وهؤلاء كانوا الأتباع المخلصين للشيوخ

1- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة. ومحتواها يدلّ على أنّ كتابتها كان في نفس الفترة التي كتب فيها الشيخ أبو اليقظان رسالته.

2- ينظر: نفسه. هذه الحجّة الأخيرة لجأ إليها بعد أن ألحّ عليه أن يأمر زميليه بالعودة إلى دراسة الفرنسيّة معه، لأنّ دراستهما معه ستحسم مسألة ذهابه إلى الخلدونية وعودته منها منفردا، فيقول في خصوص زميله عبد الله بوراس: «وأرجوكم رجاء عظيما أن تأمروا عبد الله أن يقرأ معي فيها، فإنّها تنفعه، لأنّها في رتبته».

3- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- لقد ذكره الحبيب شيبوب من بين زملاء دراسته في جامع الزيتونة، وقد سبق؛ ينظر: ص97 ها02.

5- ينظر: رسالة مفدي زكرياء إلى الفاضل بن الشيخ الطاهر بن عاشور، غير مؤرخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

6- ينظر: رسالة عمر بن الحاج محمد اطفيش إلى الشيخ الثميني، 1925/01/15، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

7- الرسالة، 1925/01/24، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. وعاتب الشيخ الثمينيّ عمر بن الحاج محمد اطفيش على كلام لم يستسغه منه في رسالة سابقة، فقال: «لا عذر لك فيما كتبته في جوابك السابق، إلاّ قلّة التأمّل، ومجاراة الإحساس. يتخيّل إليّ أنّك متأثّر وقت الكتابة، ولعلّ وقت الكتابة جابهك الطائش زكري بسوء، إن كان هذا فلك نوع عذر، إذ الأولاد لا تترك عقلا للإنسان أحيانا» رسالة الشيخ الثمينيّ إلى عمر بن الحاج محمد اطفيش، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

القادة، مثل الشيخ الثعالبيّ»[1]؛ وفي حديثه الإذاعي مع عبد المجيد بن جدّو، بمناسبة صدور ديوانه "تحت ظلال الزيتون"، تحدّث عن عمّه صالح بن يحي: «أحبّ عمّي ربّما أكثر من حبّي لأبي، كان يشجّعني في تعليمي، وكان يدمجني في أوساط الحزب بمقرّه في 25 نهج انكلترا، كنت ألقي فيه قصائد، حفظها الكثير من المناضلين، وكانت تلقى على منبر نادي الحزب»[2]؛ ويقول مفدي في ترجمته الذاتيّة التي كتبها للديوان المخطوط للثورة الجزائريّة، متحدّثا عن حياته النضاليّة: «انخرط في سلك الشبيبة الدستوريّة، بتونس، أيّام دراسته، عام 1922م»[3].

إذا كان مؤكّدا امتزاجه بالأوساط السياسيّة في تونس، سواء في دار البعثة، أو في دار عمّه، أو في جامع الزيتونة؛ وإذا كان محتملا جدّا ما ذكره من دمج عمّه له في أوساط الحزب الدستوريّ؛ فإنّه بالمقابل لا يوجد ما يثبت إلقاء مفدي لقصائد -بالجمع- بمقرّ الحزب، ولا انخراطه في سلك الشبيبة الدستوريّة، في سنة 1922، وهو إذاك تلميذ بمدرسة "السلام"، وهو أمر مستبعد جدّا -في تقديرنا- بالنظر إلى النظام الصارم الذي كان مفروضا على طلبة البعثة، كما سبق وأن أوضحناه، إلى درجة أن يراسل الشيخ الثمينيّ عمر بن الحاج محمد اطفيش، بتاريخ 1925/01/03، ومفدي إذاك طالب بجامع الزيتونة، ليقول له: «إيّاك أن تترك زكرياء يذهب إلى عمّه في رادس، ولو طلبه هو، إذ أنا متّفق مع الشيخ صالح على أن لا يذهب، وإن طلبه الشيخ صالح، فقل له: فلان متّفق معك على أن لا يذهب»[4]؛ وبالنظر للحساسية المفرطة لدى رؤساء البعثة العلميّة المزابيّة بتونس إزاء تهمة اشتغال طلبتها بالسياسة، إثر مواجهة الشيخ الحاج صالح لعلي في موضوع تعليم الأحداث بتونس، فنجد الشيخ أبا اليقظان ينتقد أمورا وردت في كتاب "الفتى"، لرمضان حمود، في رسالة له إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1929/04/06، بعد سنوات عديدة من انتهاء هذا الصراع، فممّا ورد في خصوص موضوعنا قوله: «ألفت نظرك أيّها الأخ إلى ما في رواية "الفتى" لرمضان حمود من السخافات: [...] كقوله في صفحة 24: «وكثيرا ما كانت التلاميذ تغوص في بحر السياسة الهائج على مرأى ومسمع منه إلخ»، أليس هذا هو عين ما يقوله الأعداء عنّا إذ ذاك [...]. المرجو أن تتأمّل في روايته هذه، وتنبّهه في أغلاطه التي تعدّ أغلاطا لنا، فنحن مسؤولون على هؤلاء الوثّابين، وهم في حجور أمّهاتهم»[5].

1- ينظر: مدوّنة معلومات، أكتوبر 1944، من غير تحديد الإدارة التي أنجزتها، موضوعها: النشاطات السياسيّة للمسلمين: الشيخ زكري بن سليمان، المدعوّ مفدي زكرياء، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة21.

2- ينظر: زيارة خاطفة، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون"؛ مع تخليص كلامه من العامية.

3- صورة من بطاقة تعريف لمفدي زكرياء بخطّ يده، مجلّة "الثقافة" الجزائريّة، أرشيف مفدي زكرياء بمكتبته. وتاريخ إنجازها 1974/10/17.

4- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

جمعية "الوفاق" وعودته إلى مزاب:

أنشأ رؤساء البعثة «وسيلة ثقافية كبرى للبعثة، وسببا عظيما للتربية العقلية والخلقية، كمّلوا به التعليم الزيتونيّ والمدرسيّ أيضا؛ وهذه الوسيلة الثقافية هي الجمعية الأدبيّة ومجلّتها التي يكتب فيها الطلبة. [...] منها جمعية "الوفاق"، ومجلّة "الوفاق" [...]، ومقرّها دار الشيخ محمد الثمينيّ للبعثة في نهج بئر الأحجار، استمرّت سنين [...]. وكان في دار البعثة الميزابية التي يديرها صالح بن باعلي جمعية إخوان الصفا، نشأت في عام 1922، أنشأها التلميذ/ النابغة باسعيد عدون، اسمها جمعية إخوان الصفا [...] وكان فيها الطلبة من الديار الثلاثة للبعثة، وكانت أسبوعية [كذا، وربّما يعني: «وكانت مجلّتها أسبوعيّة]. وأنشأ طلبة البعثة في دار أبي اليقظان مجلّة أسبوعيّة سمّوها "البرق"، وكان كاتبها هو الشاعر الأديب المرحوم بكير بن الحاج سليمان[1]، كتب فيها الطلبة من ديار البعثة، سيما بعثة الشيخ محمد الثمينيّ»[2].

إنّ أقدم صحيفة خطّيّة عثرنا عليها فيما توفّر لدينا من أرشيف تلك المرحلة، وهي خاصّة بتلاميذ البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، هي جريدة خطّية، عنوانها "صدى الشرق 1340هـ"، واقتران السنة بعنوانها يدلّ -عادة- على سنة بداية صدورها، وهو يوافق سبتمبر 1921م، وكان هذا العدد الخامس منها، مؤرّخا بيوم السبت 1340/02/27هـ، 1921/10/29م، ممّا يدلّ على أنّها كانت جريدة أسبوعيّة.

نقرأ على صدر صفحتها الأولى البيانات التالية: «صحيفة علميّة أدبيّة أخلاقيّة اجتماعيّة إنسانيّة/ المدير ورئيس التحرير: أبو الفوارس الشرفيّ صالح بن قاسم بابكر[3]. صاحب الامتياز: إدريس إبراهيم. الكاتب: عبد الله بن محمد [بوراس][4]. التحرير: يقوم به نخبة من التلامذة[5].

1- بكير بن سليمان ناصر (1904-1937): من قدماء تلامذة الشيخ أبي اليقظان في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، درس سنة 1917 بالمدرسة الرسمية المعروفة باسم: "المكتب الفرنسيّ" إلاّ أنّه غادرها بعد سنة، والتحق بالبعثة المزابيّة الثانية إلى تونس، فدرس في مدرسة السلام، وفي المدرسة القرآنية الأهلية، وفي المدرسة الخلدونية. وكان رئيس تحرير مجلّة خطّية بالبعثة الميزابية، عرفت باسم: "البرق". تنظر ترجمته: ملحق السير4: 503؛ ومعجم أعلام الإباضية2: 187، 188.

2- أعلام الإصلاح في الجزائر223، 224.

3- صالح بن قاسم بن عيسى بابكر (1904-1976): من أقدم تلاميذ بعثة الشيخ أبي اليقظان بتونس، انتقل إليها سنة 1917، في أوّل مجموعة وفدت عليها. تنظر ترجمته: ملحق السير4: 489؛ ومعجم أعلام الإباضية3: 480، 481.

4- على الأرجح بمقارنة خطّ الجريدة، بخطّه في مراسلاته لتلك الفترة. وعثرنا على نصّ له بعنوان "استفهام"، وذيّله بـــ(صدى الشرق)، وبعده: «والسلام من الكاتب الحروف، أخيك عبد الله بن محمد»، ممّا يدلّ على أنّه مقال موجّه للنشر في هذه الجريدة؛ ينظر: النصّ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص01، 02.

5- ومقالات هذا العدد وإمضاءاتها هي على التوالي: انتباه الشرق، الجزء الثالث، من غير إمضاء، يتبع، ص01؛ وأصول الأدب، لأبي الفوارس الشرفيّ [صالح بن قاسم بابكر]، ص02؛ والوطن، مقال صغير، بإمضاء: «ب.د»، ص02؛ والإسلام، لزكري بن سليمان [مفدي زكرياء]، ص02، 03؛ وأدركوا التعلّم فقد غرق، لبكير بن الحاج سليمان [ناصر]، ص03، 04.

جريدة عديمة الاشتراك، ولكن تقرأ، وتردّ للإدارة»[1].

لم يذكر في هذه الجريدة انتسابها إلى جمعية ما، والحقّ أنّه لم يرد في مختلف الرسائل المتبادلة في تلك الفترة، على تنوّعها، حديث عن جمعية ما في البعثة المزابيّة العلمية بتونس، إلاّ في سنة 1923، مع ظهور جمعية "الوفاق"؛ ثمّ إنّ الشيخ سليمان الباروني باشا درج في مراسلاته الموجّهة إلى الشيخ أبي اليقظان بالدرجة الأولى، وإلى الشيخ الثمينيّ، ووجوه الجالية المزابيّة بتونس، على تسميتهم بـــ"إخوان الصفا"[2]؛ وإذا لاحظنا التشابه بين لفظتي "الشرق" و"البرق"، فلا نملك إلاّ أن نسجّل ما يساورنا من شكّ إزاء ما رواه دبوز، لاعتماده على الرواية الشفهيّة، ونرجّح حدوث وهم والتباس في رواية الوقائع، بناء على الملاحظات التالية:

– كانت دار الشيخ صالح بن الحاج علي باعلي الدار الأبعد عن المبادرة إلى الجديد، فأن يكون مؤسّس جمعية "إخوان الصفا" باسعيد عدون بن بكير، وكان منتسبا إلى هذه الدار في أوّل أمره، وأن يكون إنشاؤها في السنة التي شهدت خلافا حادًّا بين الدور الثلاثة للبعثة، كلّ ذلك يثير الشكّ والريبة في حقيقة وجود هذه الجمعية وجريدتها؛ وإذا كان الخطأ في تاريخها، وكان إنشاؤها سنة قبل ذلك، فما هي علاقتها بجريدة "صدى الشرق"، التي كانت شاملة لتلاميذ الدور الثلاثة، إذ نلاحظ في طاقم إدارتها التلميذ إدريس إبراهيم، وهو –في تقديرنا– من تلاميذ دار الشيخ صالح باعلي.

– ثمّ إنّ تكوين هذه الجمعية يعني فيما يعنيه حضور اجتماعاتها دوريًّا في دار الشيخ صالح باعلي، وهو ما يستدعي خروج تلاميذ الشيخين أبي إسحاق والثمينيّ، من دار البعثة، وقد سبق الحديث عن تحفّظ الشيخ الثمينيّ الشديد، حتّى في حضور دروس الشيخ أبي اليقظان[3]، فأن تكون هذه الجمعية –على فرض وجودها أصلا– شاملة لتلاميذ البعثة في الديار الثلاثة، أمر نستبعده تماما.

– كانت البعثة المزابية تعاني في انطلاقتها من ضيق ذات اليد، وقد استحكمت حلقات هذه الأزمة في أواسط سنة 1922م، فعاد عدد كبير من التلاميذ إلى ديارهم، ووقع انشقاق في صفّها بين داري أبي اليقظان، وأبي إسحاق والثمينيّ من جهة، ودار صالح بن الحاج علي باعلي من جهة أخرى. وإنشاء جمعية وجريدة يتطلّب ميزانية خاصّة، لم يكن في مقدور البعثة تحمّلها قبل انتعاش أحوالها الماديّة بحلول سنة 1923، وعودة بعض من تلاميذها السابقين،

---

[1]– عدد صفحاتها أربعة من القطع المتوسّط، وتتكوّن الصفحة من ثلاثة أعمدة، بحجم أعمدة الصحافة اليومية، والصفحة الرابعة تنتهي بإمضاء صاحب آخر مقال فيها، فلا ندري إن كانت هي الصفحة الأخيرة في الجريدة فعلا، أم وقع فيها خرم؛ ينظر: الجريدة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص01-04.

[2]– وذلك منذ زيارته لتونس، في أواخر أوت 1923؛ ينظر: سليمان الباروني باشا في أطوار حياته، للشيخ أبي اليقظان الحاج إبراهيم، المطبعة العربية، الجزائر- الجزائر، ط: 1376هـــ/1956م، ج01، ص185-253؛ لاعتماد المؤلّف في توثيق أحداث هذه المرحلة على الرسائل التي كانت تصله منه.

[3]– ينظر: ص100.

ووفود تلاميذ جدد إليها، وهذه الأحوال المادّية الصعبة يترجمها في هذا المجال، كون جريدة "صدى الشرق" تكتب منها نسخة واحدة بخطّ اليد، تقرأ، وتردّ إلى الإدارة.

وعليه فالأقرب إلى الواقع -في تقديرنا- أن نقول: إنّ تلاميذ الديار الثلاثة أنشؤوا سنة 1921 جريدة أسبوعية، باسم "صدى الشرق"، ولا يستبعد أن يكون بكير بن الحاج سليمان قد تولّى الكتابة في بعض أعدادها، وأنّها استمرّت لمدّة معيّنة، ثمّ توقّفت في سنة 1922، في ذروة الصراع بين المصلحين والمحافظين، بسبب عودة أغلب تلاميذ البعثة العلمية المزابية بتونس إلى ديارهم، خاصّة منهم قدماء تلاميذها أمثال بابكر صالح بن قاسم، وناصر بكير بن الحاج سليمان؛ وعندما استقرّت الأوضاع، وعادت المياه إلى مجاريها في سنة 1923، كان التفكير في إنشاء جمعية وجريدة، هي جمعية "الوفاق"، وجريدتها التي سرعان ما تحوّلت إلى مجلّة، وكانت مشتركة بين بعثتي الشيخين الثمينيّ وأبي اليقظان فحسب، بعد أن ظهر جيل جديد من تلاميذ البعثة، تفتّقت مواهبهم عن شعراء وكتّاب واعدين، فاستمرّت الجمعية، وأثمرت، وكثر إنتاجها؛ وإذا أنشأت -فعلا- جمعية أو جريدة، أو كلاهما، في دار الشيخ صالح باعلي، فلا يمكن أن تكون إلاّ خاصّة بها.

يتحدّث الشيخ عبد الله بن محمد بوراس، عن إنشاء جمعية "الوفاق"، فيقول: «فهِم رؤساء البعثة أنّ عملهم لا يكون له ثمرته المطلوبة إلاّ إذا أوجدوا في ذلك النشء رابطة متينة، [...] ولا أدلّ على عملهم ذلك من كلمة "الوفاق"؛ فتقدّم لذلك قدماء التلامذة ممّن له سابقة في الدراسة العلميّة، ورجاحة العقل، فأبرزوا هذا العمل الجليل تحت ذلك الاسم فاتح سنة 1923»[1].

هذا النصّ يؤيّد بداية ما سبق استنتاجه، فقد تحدّث عن جمعية "الوفاق" على أنّها الأولى في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس؛ وهو يبرز دور رؤساء البعثة في إنشائها، واختيارِ اسم لها.

أمّا أن يكون للشيخ أبي إسحاق دور في إنشائها قبل إبعاده إلى مصر، بتاريخ 03 فيفري 1923، فهو مستبعد تماما، فقد كتب رسالة إلى طلبته بعد استقراره بمصر، فلم يشر أدنى إشارة إلى الجمعية[2]، على خلاف رسالته إليهم بتاريخ 1925/09/16، التي افتتحها قائلا: «أبنائي النجباء، أعضاء جمعية "الوفاق"، وفّقهم اللّه إلى الصالحات، وجعلهم رجال الدين، وأبطال المستقبل»[3]؛ وعليه نرجّح أنّ إنشاءها لم يتمّ قبل أواسط شهر فيفري على الأقلّ، خلاف ما تدلّ عليه حرفية النصّ السابق.

ويغلب على ظنّنا أن يكون صاحب فكرة إنشاء هذه الجمعية هو الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، لأنّه

---

[1]- مشروع تأريخ للبعثة العلمية المزابية بتونس، الشيخ عبد الله بن محمد بن بكير بوراس، أرشيفه الخاصّ ببني يزقن.

[2]- ينظر: رسالة الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش إلى طلبته، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[3]- الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلاميّ203.

كان رئيسها الشرفيّ[1]، وكانت جلساتها الدوريّة تعقد في دار بعثته، كما أنّ الفاعلين فيها كتابة وإدارة، في مختلف مراحلها، كانوا من أبناء بعثته في الأغلب[2].

تأسّست جمعية "الوفاق"، في سنة 1923، بعد إبعاد الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش إلى مصر، في فيفري من نفس السنة، وهي خاصّة بكبار تلاميذ البعثتين، تعمل على إصدار جريدة بنفس الاسم "الوفاق"، أسبوعيّة على الأرجح؛ وأنشأت بجانبها جمعية ثانية خاصّة بصغار التلاميذ، باسم "الإقبال"[3].

ويبدو أنّ قانون الجمعية -في بداية الأمر- كان يقضي بانتخاب مسؤول واحد عن الجمعية وجريدتها، فكان سليمان بوجناح، من تلاميذ بعثة الشيخ أبي اليقظان؛ واستمرّ هذا القانون إلى يوم 1923/07/03، حيث أجري فيه تعديل نوعيّ يقضي بانتخاب مسؤولين اثنين، فانتخب رمضان حمود رئيسا للجمعية، ومفدي زكرياء مديرا للجريدة، وكلاهما من تلاميذ بعثة الشيخ الثمينيّ[4].

---

[1]- نقرأ في دفتر محاضر اجتماعات جمعية "الوفاق"، بتاريخ [1343/09/09هـ]، 1925/04/03م: «[...] اقترح الكاتب العامّ إرسال التهاني إلى عمان: الخليفة - الملك - الشيخ الباروني، ثمّ أخذ صورة من صور الجمعية الكبرى وإرسالها، وقد رفعت الفكرة إلى الرئيس الشرفي، فنحن نترقّب الإجابة [...]» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ ويقول مفدي في تقديمه لقصيدته "تحيّة البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل"، وهي إحدى القصائد المقترحة آنفا: «أقدّم إلى جلالتكم -نيابة عن إخواني (الشبيبة الميزابيّة بتونس) [...] تحيّة [...]، وعواطفَ قلبيّة [...]، ومناجاة حيويّة صادرة من الرّوح إلى الرّوح، ومن الحبّ والوفاق والولاء إلى ينابيع المكارم، /ومناهل المجد والعلا؛ **عن إذن رئيسها، أستاذنا الجليل، أحد أركان النّهضة الميزابيّة، وزعيم البعثة العلميّة بتونس، الشّيخ محمّد الثمينيّ** [...]» أمجادنا تتكلّم.. وقصائد أخرى، جمع وتحقيق: مصطفى بن الحاج بكير حمودة، نشر مؤسسة مفدي زكرياء، والوكالة الوطنيّة للاتّصال والنشر، الجزائر-الجزائر، طبع المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر-الجزائر، ط1: 2003، ص43، 44.

دفتر محاضر اجتماعات جمعية "الوفاق" دفتر من القطع المتوسّط، أوّله مخروم، ولا ندري عدد الأوراق الضائعة من أوّله، والورقة الأولى تبتدأ بالبسملة والصلاة على الرسول الكريم، والخطّ خطّ رمضان حمود، ممّا قد يدلّ على انتقال الدفتر إلى عهدته بعد انتخابه رئيسا للجمعية، وقد رقّم الأوراق التي كتبها هو من ص 01 إلى 10، وهي الصفحة ما قبل الأخيرة المكتوبة بخطّه، والترقيم بخطّه، فهل الأوراق الأولى انتزعت من الدفتر منذ ذلك التاريخ؟ وما تفسير ذلك؟ والدفتر يبتدأ يوم الخميس 1341/01/18هـ، 1923/08/31م؛ وينتهي يوم 1927/02/04، عند قرار الجمعية الاحتفال يوم 1927/02/26، «إكراما لمكتبة الاستقامة، ومؤسّسها الفاضل، أستاذنا الأريب محمد بن الحاج صالح الثمينيّ»، وتليه أوراق بيضاء؛ ينظر: الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[2]- والحقّ أنّ تلاميذه كانوا أقدم تلاميذ البعثتين آنذاك، وأكبرهم سنّا، بعد مغادرة قدماء تلاميذ بعثة الشيخ أبي اليقظان لتونس؛ كما كانوا الأوسع باعا في الكتابة الأدبيّة بأنواعها.

[3]- اقترح رئيس الجمعية على أعضائها، في جلسة يوم 1923/11/23، «إدخال جمعية "الإقبال" تحت جمعية "الوفاق"، فتصير ملحقة إلى جمعيتنا، وتسمّى جمعية "الوفاق" الصغيرة، وننشئ لها قوانين من عندنا. رمضان» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، 04.

[4]- نجد في الدفتر رسالتين من رئيس الجمعية إلى رئيسها الشرفيّ: جاء في الأولى، وهي مؤرّخة يوم الخميس 1342/01/24هـ، 1923/09/06م: «إلى حضرة الأستاذ الرئيس الشرفيّ سلام واحترام، وبعد، فإنّ مدير مجلّة "الوفاق" زكرياء بن سليمان قد تجاسر على القوانين كلّها، فلتنظر في أمره. رمضان: جمعية "الوفاق"»01؛ ونقرأ في الثانية، وهي مؤرّخة يوم الجمعة 1342/03/01هـ، 1923/10/12م: «إلى الأستاذ الشرفي في شأن مدير مجلة "الوفاق"، وهذا نصّه: بسم الله الرحمن الرحيم. إنّ القانون الذي رسم قبل 03 جويلية سنة 1923 ممنوع، لأنّ الرئيس سليمان بوجناح كان رئيسا ومدير الجريدة، فلم يكن فيه اختلاف؛ وأمّا الآن فالرئيس

وفي يوم الخميس [1341/12/20هـ]، 1923/08/02م، أسّست مجلّة "الوفاق"، عوضا عن جريدها[1]؛ وانتخب يوم 1923/12/06، سليمان بوجناح رئيسا شرفيّا لجمعية "الوفاق" الصغرى، التي عوّضت جمعية "الإقبال"[2]؛ ثمّ أجري يوم الخميس [1342/05/26هـ]، 1924/01/03م انتخاب عامّ لانتخاب مسؤولين جدد، في وظائف جديدة، فأسفر عن انتخاب رمضان حمود رئيسا، وإبراهيم بغباغة نائبا له، وزكرياء بن سليمان مديرا للمجلّة، وعبد الله بوراس كاتبا عامّا، وسليمان بوجناح كاتبا، وإبراهيم بن عمر دواق أمينا للمال، وزرقون حاملا للمجلّة والمجلاّت، وأحمد بغباغة رئيسا شرفيّا لجمعية "الوفاق" الصغرى[3].

وهكذا تطوّرت الجمعية تطوّرا سريعا، لتأخذ صورة جمعية حقيقيّة، بمكتب إداريّ، ومهام محدّدة لكلّ عضو فيه، قبل أن تنتهي السنة الأولى من ميلادها؛ ويظهر واضحا أثر التجربة السابقة مع جريدة "صدى الشرق"، ونظام إدارها البسيط، فانطلقت بجريدة، سرعان ما تطوّرت بعد ذلك إلى مجلّة؛ وأسندت المسؤولية في بدايتها إلى أحد أفراد البعثة اليقظانية، لامتلاكهم التجربة في هذا المجال، ثمّ تطوّرت على يد تلاميذ البعثة الثمينيّة. كلّ هذا يدلّنا من جانب آخر، على أنّه وبالرغم من كون الفكرة فكرة شيوخ البعثة، فإنّ الجمعية كانت تتمتّع بحرّيّة كبيرة، مكّنتها من التطوّر بوتيرة سريعة، بقدر طموح أعضائها، وحيوية مسؤوليها، فكان دور شيوخ البعثة محدودا بما تعنيه "الرئاسة الشرفية" لا غير.

أمّا مجلّة "الوفاق" الشهريّة فقد تأسّست -كما مرّ- بتاريخ 1923/08/02م، خلفا لجريدها الأسبوعيّة، ووصلنا من أعداد المجلّة عشرة أعداد، ترجع إلى فترة دراسة مفدي بتونس، أوّلها العدد 20، من السنة الثانية، المؤرّخ في 1342/12/09هـ، 1924/07/10م، وتبعه في 1343/01/29هـ، 1924/08/30م، العدد 21، من السنة الثالثة[4]؛ وهكذا بدأت المجلّة سنتها الثالثة مع بداية السنة الهجرية 1343هـ، وعليه فالسنة الثانية لها هي سنة 1342هـ، والمجلّة إنّما أسّست قبيل بدئها، فتكون سنتها الأولى تضمّ ما صدر من أعداد جريدة "الوفاق"، قبل تحوّلها إلى مجلّة؛ وإذا سارت المجلّة منتظمة من غير انقطاع، ومن غير عطلة[5]، فإنّ العدد الأوّل منها يكون العدد 09، بعد 08 أعداد صدرت من جريدة "الوفاق" الأسبوعيّة، في سنتها

رمضان، والمدير زكرياء، فلا يتأتّى أن ينفّذ القوانين في الجمعية، والرئيس حاضر، فيكون حينئذ رئيسان في الجمعية. وأخيرا مع ذلك، فقد خرج عن الموضوع في الكلام الذي لا يقبله القانون [...]. رمضان»03.

1- ينظر: السابق03.

2- ينظر: نفسه05.

3- ينظر: نفسه05، 06.

4- ينظر العددان: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة؛ وعوض استعمال مصطلحي السنة والعدد، وظّف القائمون على مجلّة "الوفاق" اصطلاحي المجلّد والجزء.

5- لم يرد حديث عن عطلة للمجلّة إلاّ في اجتماع يوم الجمعة [1343/09/16هـ]، 1925/04/10م: «[...] قُرّرت عطلة شهرين للمجلّة في كلّ سنة» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

الأولى، ومنه تكون انطلاقة هذه الأخيرة في شهر جوان من سنة 1923[1]؛ وآخر عدد صدر من المجلّة قبيل مغادرة مفدي لتونس، هو العدد 36، صدر بتاريخ [1344/05/14هـ]، 1925/12/01م[2]، غير أنّنا لا نجد فيه أثرا لمفدي، بخلاف الأعداد الأخرى[3]، التي سلمت من عاديات الزمن، فقد كان حضوره فيها قويّا، وكان إنتاجه فيها غزيرا مقارنة بغيره من المشاركين.

إذا كان انتخاب رمضان حمود رئيسا لجمعية "الوفاق"، ومفدي زكرياء مديرا لدوريتها، بتاريخ 1923/07/03، خلفا لسليمان بوجناح الذي كان يجمع بين الوظيفتين، على ما مرّ سابقا، فإنّ أوّل مهمّة اضطلع بها مفدي في جمعية "الوفاق" هي إدارة جريدتها في أعدادها الأخيرة، ومجلّتها منذ ميلادها. وقد استمرّ في هذه الوظيفة، وجدّدت له في انتخابين متواليين[4]، إلى أواخر سنة 1924، بعد أن أصدر خمسة عشر عددا من المجلّة، وعددا لم نستطع تحديده من أعداد جريدة "الوفاق"، وهو ما لم يتّفق لأحد من زملائه ممّن تعاقبوا على هذه الوظيفة بعده، وهو ما يدلّ على اعتراف ضمنيّ من زملائه بكفاءته في إدارة المجلّة، وتعويلهم عليه أكثر من غيره في تزويد المجلّة بمادّتها، كمّا ونوعا.

بعد ذلك زحزح عن وظيفته هذه، إلى وظيفة أدنى هي الكتابة العامّة[5]، في أواخر أيّام سنة 1924[6]، بعد أن

1- هذا التاريخ غير مرتبط بالضرورة بإنشاء الجمعية.

2- ينظر هذا العدد: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3- قد ذكرنا اثنين هما العدد 20، و21، والأعداد الأخرى هي: 23، و26، وعدد مجهول الرقم، و30، و32، و33، و34، وصدرت تباعا في: [1343/04/09هـ]، 1924/11/07م؛ و1343/07/07هـ، 1925/02/01م؛ و1343/07هـ، [1925/02م]؛ و1344/01/01هـ، [1925/07/22م]؛ و[1344/01/11هـ]، 1925/08/01م، و[1344/02/12هـ]، 1925/09/01م؛ و[1344/03/12هـ]، 1925/10/01م. ينظر العدد 30: مكتبة السيّد أبصير الحاج محمد بن عمر، ببني يزقن؛ وسائر الأعداد: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- الأوّل بتاريخ [1342/05/26هـ]، 1924/01/03م، والثاني في [1342/11/30هـ]، 1924/07/03م؛ ينظر: الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- جاء في رسالة عبد العزيز الثمينيّ إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1925/01/02، ما يلي: «[...] وأمّا جمعية "الوفاق" فلا زالت تتسلّق سلاليم الرقيّ مواصلة للعمل وقد وقع الانتخاب فأسفرت النتيجة على ما سيأتي: الرئيس: عبد الله بوراس. النائب: عيسى بن عبد الله. مدير المجلة: عبد العزيز الثميني./ كاتب المجلّة: إبراهيم دواق. الكاتب العام: زكرياء بن سليمان. أمين المال: عبد العزيز الثميني. ناشر المجلة: حمو بن عمر. الرئيس الشرفيّ لـ[2]: إبراهيم دواق. وفد الجمعية: عيسى بن عبد الله. رئيس الأناشيد: عبد الله زرقون. صانع المنشّطات: العنق للجمعية الكبيرة ومحمد بن بكير للثانية» الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص01، 02.

6- لم نعثر على أدنى إشارة لسبب إبعاده عن إدارة المجلّة، غير أنّنا نلاحظ تزامنه مع رسالة مفدي إلى الشيخ الثمينيّ، ملحّا عليه إعادة بوراس وعبد العزيز إلى درس الفرنسيّة بالخلدونيّة، ليتسنّى له هو حضوره، إذ مُنع من حضوره بمفرده، فما كان من الشيخ إلاّ أن استجاب لطلبه؛ ينظر: ص101، 102. وعليه لا نستبعد أن تكون هذه "الوشاية" من الأسباب التي أدّت إلى تأزّم العلاقة بينه وبين زملائه بعد ذلك، ومنه تحجيم دوره في المجلّة، كما سنراه لاحقا، لأنّ عبد الله بوراس وعبد العزيز الثمينيّ كانا أكثر تلاميذ البعثة الثمينيّة فعالية وحضورا في الجمعية.

أخرجت منها مهمّة كتابة المجلّة، وأسندت إلى إبراهيم دواق[1]، وأصبحت تعني فقط كتابة محاضر جلسات اجتماع الجمعية، ولذلك نقرأ في دفترها: «الحمد لله. مفتتح عام سنة 1925 لجمعية "الوفاق". دفتر الكتابة العامة تحت نظر زكرياء»[2]؛ بالإضافة إلى كتابة مراسلات الجمعية المختلفة، ومنه ما ورد في تقرير جلسة يوم [1343/09/09هـ]، 1925/04/03م، بخطّ مفدي: «[...] اقترح الكاتب العامّ إرسال التهاني إلى عمان: الخليفة، الملك، الشيخ الباروني، ثمّ أخذ صورة من صور الجمعية الكبرى وإرسالها، وقد رفعت الفكرة إلى الرئيس الشرفي، فنحن نترقّب الإجابة. اقترحوا عليّ صنع نتف للتهاني العيدية، قلت: نعم»[3].

وفي انتخابات يوم [1344/01/10هـ]، 1925/07/31م، أسندت الكتابة العامّة إلى عيسى بن عبد الله بالإضافة إلى نيابة الرئيس، وضُمّت كتابة المجلّة إلى إدارتها، وكلّف بهما عبد الله بوراس، فلم يبق لمفدي سوى وظيفة تصحيح المقالات؛ ثمّ تقرّر بعده بأسبوع «أن يكون زكرياء كاتبا للمواضيع التي تتلى [في الاجتماعات]، وعبد الله بوراس مبيّضا لها»[4]؛ ولّما سلّم بوراس في وظيفة المشرف على المجموعة الصوتية الخاصّة بصغار تلاميذ البعثة، «قبلت منه الجمعية ذلك، وعيّنت زكرياء أن يكون مراقبا عليهم، ومعلّما لهم في يوم الجمعة، وعبد الله زرقون مراقبا لهم يوم الأضياف، وأمّا تعيين القصائد فإنّهما يجتمعان على ذلك»[5]؛ هذه الأدوار التي تقلّب فيها مفدي في الجمعية نزولا لا صعودا، يدلّنا على تدهور العلاقة بينه وبين زملائه في الجمعية، أو بينه وبين بعضهم:

كان مفدي قويّ الشخصية، نابغا، عبقريّا، ولكنّه كان إلى جانب ذلك جامحا في طموحه، كثير الاندفاع في تحقيق ذاته، وإبراز نبوغه، متمرّدا على العوائق التي يمكن أن تعترض سبيله، لا يستسلم لها، صعب الانقياد لغير قناعاته وميوله ورغباته[6]؛ ومثل هذه الشخصيات لا تنسجم في العمل الجماعي إلاّ إذا كان قائدا، ورضي غيره

1- في الانتخاب السابق لهذا، بتاريخ 1924/07/03، كانت وظائف الجمعية كالآتي: «الرئيس: عبد الله بوراس. النائب: عبد العزيز. مدير المجلة: زكرياء بن سليمان. الكاتب العامّ: دواق إبراهيم. الأمين العامّ: عبد العزيز» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وعليه فإنّ الكتابة العامّة كانت تتضمّن كتابة المجلّة أيضا، وهو ما تؤكّده أعداد المجلّة الصادرة في تلك الفترة.

2- نفسه؛ وصورة من هذه الصفحة في الدفتر في الملحق596.

3- نفسه.

4- نفسه. واتّخذ القرار في اجتماع [1344/01/17هـ]، 1925/08/07م.

5- نفسه. وتقرّر ذلك في اجتماع يوم [1344/01/24هـ]، 1925/08/14م.

6- هذا الطبع في مفدي يقرّره أستاذه الشيخ الثمينيّ بوضوح، في رسالة منه إليه، وذلك حيث يقول: «[...] لعلّك تتذكّر أنّني كنت مدّة إقامتك معي، حتّى المدّة الأخيرة، كنت أنصحك –لوجه الله– بالتعقّل في سيرتك الشخصية، وفي أقوالك، وفي كتاباتك نظما ونثرا، ولعلك تقرّ، وتعترف أنّني أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ورجاء أن تكون عضوا صالحا في مجتمعنا، كاملا، لا تصلك أيدي الحاسدين، ولا تنال منك ألسنة الحاقدين، ولكن –مع الأسف– كنت طول مدّة نصحي على غير ما أرجو، وكنت أعلّل ذلك بصغر السنّ، وعدم المران، مع خلق التمرّد الذي هو غريزة فيك قبل كل شيء؛ وكنت أنا أعلّل النفس باعتدالك، بطول التجربة، والاختبار، والدروس التي تتلقّاها في مدرسة الحياة لوحدك مباشرة. [...] لو أنّك كنت تسمع نصائحي، وتسلك الخطّة التي كنت أرسمها لك دائما لكان شأنك عند الله، والناس العقلاء، والعلماء الحقيقيّين الذين يعتزّ الإسلام والعربية بعلمهم، عظيما جدّا؛ لأنّ فيك مواهب، ولكنّ تلك المواهب تستعملها في غير محلّها، فبقيت أنت زكرياء المعروف منذ طرّ

بدور التابع، فإذا وجد من لا يرضى بهذا الدور، وأراد التعبير عن استقلاليته، وقع الصدام، وتولّد عنه – خاصّة في حالة عدم التكافؤ في القدرات– الحسد والحقد، وإذا تعذّرت مواجهته منفردا، استعين عليه بالمجموعة.

لقد كان صدامه الأوّل، في صائفة 1923، مع رئيس الجمعية رمضان حمود، وكان آنذاك مديرا للمجلّة، فاستعدى عليه الرئيس الشرفيّ، وشكاه إليه في رسالتين، يقول في الأولى: «إلى حضرة الأستاذ الرئيس الشرفيّ، سلام واحترام. وبعد، فإنّ مدير مجلّة "الوفاق" زكرياء بن سليمان قد تجاسر على القوانين كلّها، فلتنظر في أمره. رمضان: جمعية "الوفاق"»[1]؛ ولم يلجأ الرئيس إلى مراسلة الشيخ الثمينيّ مرّتين، في سبتمبر وأكتوبر، إلاّ لحالة الانسداد التي وصلت إليه هذه المسألة.

وروى الشيخ أبو اليقظان خلافا آخر، أوسع وأعمق، فقال: «وقعت في الأيّام الفارطة مشادّة بين زكري وزملائه من جهة، وبين زكري وكافّة أعضاء "الوفاق" من جهة، فقد حمل الأخيرون حملة منظّمة على الأوّل، لتكاسله عن القيام بواجب "الوفاق"، واستخفافه بأمرها، طالبين تأديبه وزجره[...]»، فعقد له جلسة تأديبيّة، شملت أعضاء "الوفاق"، استمع فيها إلى جميع الأطراف، ثمّ أنّب مفدي ووبّخه، «وأخيرا رجع، وأناب، وءاب إلى الصواب، وفّقه الله للثبات، وقد أفضيت إلى الأولاد بأن يخلصوا له الودّ، ولينبذوا ذلك الودّ الممذوق جانبا، فإنّه بذلك يرجع إلى حظيرتهم، وهو منهم وإليهم [...]»[2]؛ غير أنّ الشيخ أبا اليقظان كتب في رسالة موالية يقول: «[...] الأولاد في صحّة وسلامة، وسائرون حول محور الاستقامة، غير أنّهم أبوا أن يعاملوا بعضهم معاملة الأخوّة والصفا، فهم وزكرياء دائما كطرفي المقصّ، لا يجتمعون إلاّ ويفترقون، أو ككفّتي الميزان في ارتفاع وانخفاض، وعبثا ما أحاول تعديلهما، وجعلهما متوازيتين [...]»[3].

إنّ عدم قيامه بواجب الجمعية نجد صورة له في عدم استجابته لتكليفه بتقديم خطبة منذ شهر نوفمبر 1924[4]، ولعلّه امتنع من أدائها لّما قرن بغير أكفائه؛ ثمّ جاءت الانتخابات فزحزح من إدارة المجلّة، فما كان منه إلاّ أن قلّص مشاركته في المجلّة إلى أقصى حدّ، ولم يستجب لتجديد تكليفه بتلك الخطبة في منتصف شهر جانفي[5]،

شاربه، لم تتبدّل، ولم تتغيّر، والحال أنّه يجب أن [تكون] في أوج آخر غير الأوج الذي أنت فيه» الرسالة، غير مؤرّخة، ترجع إلى بداية الثلاثينيّات، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

1– الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، ص01؛ وتنظر الرسالة الثانية: ص107، ها04.

2– رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1925/01/19، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3– رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1925/02/13، الأرشيف نفسه.

4– في محضر اجتماع يوم [الجمعة 1343/04/09هـ]، 1924/11/07م: «[...] يخطب: زكرياء بن سليمان، محمد بن بكير، والعنق» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5– في محضر اجتماع يوم [الخميس 1343/06/19هـ]، [15]/1925/01م: «[...]. خطب النبغاء: السيد عيسى، والسيّد الثمينيّ، والسيّد دواق مع الاستحسان، وفي الجمعة المقبلة: زكرياء والعنق ومحمد بن بكير»؛ وجدّد تكليفه في اجتماع يوم [1343/06/26هـ]، 1925/01/22م: «تخلّف زكرياء عن الجمعية، وبلا عذر للجمعية [...]. زكرياء يأتي بالخطبة المؤجّلة من اليوم الأوّل، مع عبد العزيز، ثمّ حمو، ثمّ العنق» نفسه.

ولّما جُدّد مرّة ثالثة في اجتماع يوم [1343/07/11هـ]، 1925/02/05م، موعد إلقائها في الأسبوع الموالي، سجّلَ مفدي القرار، لكونه كاتب تلك الجلسة: «زكرياء يخطب في الجمعة المقبلة»، ثمّ شطب العبارة، وكتب -ساخرا- الآتي: «من ذهبت عينه، فيذهب معها»[1]؛ ولم يؤدّ واجبه هذا إلاّ في اجتماع 1343/08/03هـ، [1925/02/27م][2]. أمّا أثر إخراجه من إدارة المجلّة، وتقليص مشاركته فيها، فيرويه الشيخ أبو اليقظان قائلا: «منذ انتخابهم أعضاء "الوفاق"، وإبعادهم زكرياء من إدارتها، انحطّت مجلّتهم، ولم تتحلّ بأيّ لؤلؤة من الابتكار، وقد تتبّعت صحيفة واحدة، جعلت لهم فيها صفحتين من الخطإ والصواب، ليتداركوا ما تتعثّر فيه أقلامهم وأفكارهم فيما يأتي، ولكن لم يُجدهم نفعا لما بعده، ولا كفؤ لإدارتها غير زكرياء، «لو هنّى نفسه وهنّوه (بلغتنا)» [...]»[3].

ثمّ جدّ خلاف آخر بين رئيس جمعية "الوفاق" عبد الله بوراس، ونائبه عيسى بن عبد الله، فيما يبدو، فقدّم الأوّل استقالته[4]، وخرج الثاني «من الجمعية بصفة غير لائقة بالمقام»[5]، وأمام إصرار بوراس على عدم التراجع عن قراره[6]، «انتخب السيّد دواق رئيسا عوض المستقيل»، في اجتماع [1343/11/06هـ]، 1925/05/29م، وتقرّر فيه أيضا: «مجلّة شهر جوان تصدر في 10 جويلية، وهو العدد الممتاز»[7]؛ فما كان من الكاتب العامّ للجمعية مفدي زكرياء إلاّ أن تصدّى لإنجازه، من ألفه إلى يائه، فكتب بخطّه المجلّة كاملة بصفحاتها الأربعة والخمسين، لانشغال كاتب المجلّة دواق إبراهيم بمهمّة رئاسة الجمعية، ولم يسبق أن صدرت بهذا الحجم؛ وكتب على الغلاف: «كاتبها العامّ: مَفدِي زكرياء بن سليمان بن يحي بن الشيخ»[8]، والمعهود كتابته على غلاف المجلّة سابقا: كاتبها فلان؛ وذيّل هذا العدد في خاتمته بالعبارات التالية: «انتهى والحمد لله هذا العدد الجليل، تعلوه بشاشة النجاح، وتدبّ فيه نشوة الارتياح؛ تلوح نجوم المستقبل على جبينه، وتصيح بانقضاء العسر أسرة يمينه[كذا]، فإن كان فيه خلل فمنّا، والعذر مأمول، وإن احتوى على حسن فمن الله، يخصّ بالقبول، وكفانا أنّه عمل يزهو له الشرف إذا ذكر، ويزهو به الأمل إذا نشر؛ والحمد لله أوّلا وآخرا. جمعية "الوفاق": الكاتب: زكرياء بن

1- السابق.

2- في محضر اجتماع يوم 1343/08/03هـ، [1925/02/27م]: «[...]. أدّى زكرياء وحمو بن عمر واجبهما» نفسه.

3- رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثميني، 1925/02/13، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- يقول في رسالة استقالته: ««[...] إلى سعادة جمعية الوفاق الغراء أنار الله بصيرتها لاقتفاء سبل الصلاح والنجاح ألف سلام وتحية وإكرام مع فسيح الاحترام. أمّا بعد أقدم لحضرة الجمعية كتابي هذا منبئا فيه عن نزولي من الرئاسة اعتبارا من 17 ماي 1925» الرسالة غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- محضر اجتماع [1343/11/06هـ]، 1925/05/29م، الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

6- في محضر اجتماع [1343/10/24هـ]، [17]/1925/05م: «قدّم الرئيس داعي تنازله، وبعد المباحثة معه أبى الرجوع» نفسه.

7- ينظر: نفسه.

8- مجلّة "الوفاق"، س03، ع30، العدد الممتاز، 1344/01/01هـ، [1925/07/22م]، مكتبة السيّد أبصير الحاج محمد بن عمر، ببني يزقن.

سليمان»[1]، وهي عبارات تدلّ على أنّه كان المتصرّف الوحيد في هذا العدد، وكان فيها أكثر من مدير مجلّة؛ وكان عددا ممتازا بحقّ، تنوّق في إخراجه كيفما شاء، وأضاف إليه هديّتين بمناسبة العيد: قصيدة، وخريطة لوادي مزاب؛ وبلغت نسبة إسهامه فيه 34.25%، بينما بلغت ثاني نسبة فيه 8.33%، وهي لمنافسه وغريمه عبد الله بوراس؛ كلّ ذلك ليبرز -في تقديرنا- أيّ بدر افتقدته الجمعية ومجلّتها منذ حرمانه من إدارتها، وليكون هذا العدد الممتاز شفيعا له إذا مثل بين يدي شيخه الثمينيّ.

كلّ ذلك حدث في غياب الشيخ الثمينيّ، وكان يتابعه عن كثب من خلال مراسلاته المختلفة، إلى أن كتب إلى القيّم على بعثته في غيابه، يقول: «إن لم يستقم الأولاد في سيرهم، فأخبرني أقدم، ولو بالتلغراف»[2]، ثمّ ما عتم أن اتّخذ قراره بالعودة، فخرج من بني يزقن في أواخر ماي، ووصل إلى تونس في أواخر جوان، فأعاد الأمور إلى نصابها، في بعثته، وفي جمعية "الوفاق"، فنقرأ في محضر اجتماع يوم [1344/01/10هـ]، 1925/07/31م الآتي: «قدّمنا أنّ السيّد عبد الله بوراس تنازل عن الرئاسة على خلاف القانون، فتسبّب عن ذلك جدال أدّى إلى خروج السيّد عيسى بن عبد الله خروجا حائدا عن القانون، فمكث على حالته بعض جلسات، وأخيرا وقع الصلح بواسطة الرئيس الشرفيّ، بأن يعتذر كلّ من السيّدين كتابة للجمعية، وقد اعتذرا، وقُبل اعتذارهما يوم الجمعة 31 جويلية 1925»؛ وفي نفس الاجتماع وقع الانتخاب، على ما سبق بيانه، فما كان من أعضاء الجمعية إلاّ أن قلّصوا دور مفدي في المجلّة إلى مصحّح مقالات، تحت نظر مديرها وكاتبها عبد الله بوراس؛ ونزعوا عنه وظيفة الكتابة العامّة، وسلّموها لعيسى بن عبد الله، لمنعه من اتّخاذها مسربا إلى المجلّة، وكأنّما نقموا عليه تصرّفه في إصدار العدد الممتاز، وهيمنته عليه، مستغلاّ في ذلك الظرف الخاصّ الذي كانت تمرّ به الجمعية؛ وعندما كلّف بعد ذلك بتسويد المواضيع التي تناقش في الجمعية، كلّف عبد الله بوراس بتبييضها، ليكون في الوظيفتين تحت رقابته[3].

هذه المشاحنات والمهاترات بين مفدي وزملائه، وإن اختفت في الظاهر، بعودة الشيخ الثمينيّ، إلاّ أنّها استمرّت لاستمرار أسبابها[4]، فأفضت في أوائل سبتمبر، إلى معاقبة الشيخ الثمينيّ له عقوبة آلمته إيلاما شديدا، ولا ندري سببها، ولا هو أفصح عنه في رسالة له مؤثّرة إلى الشيخ الثمينيّ، يقول فيها: «والذي ألجأني إلى الكتابة عدم التمكّن من الحرّية الكاملة في مخاطبتكم، الأمر الذي طالما ترك البعض منّي يأكل الآخر فرقا. ليس باليسير ما تحمّلتم جرّائي من المتاعب، ذلك ما لا أستطيع أن أنكره إلى الأبد، وليس من الممكن مطلقا أن أبرّئ نفسي، في كلّ

1- السابق52.

2- رسالة الشيخ الثمينيّ إلى عمر بن الحاج محمد اطفيش، بتاريخ 1343/10/15هـ، [1925/05/08م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- ينظر: ص110.

4- من ذلك تقليص مشاركاته في أعداد "الوفاق" اللاحقة، ينظر: الباب الرابع: ص380، 381؛ وعدم الالتزام بواجباته في الجمعية، فنقرأ في أحد محاضر اجتماعاتها: «تخلّف زكرياء عن تسليم وسخ المباحثات المأمور بها لعذر المرض والنسيان، ولكن أُمر أن يأتي [به] في يوم الأحد، ويسلّمها إلى بوراس» محضر اجتماع يوم [1344/02/29هـ]، 18/[09]/1925م، الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

مواقفي، من بعض المخالفات التي ربّما تكون سببا للاقتصاص منّي، وأعدّ ذلك من الشرف الأثيل، لأنّ الرجل من عدّت خطاياه، وتُلوفيت سيّئاته في حداثته، سيّما إذا اعترف بها، وتاب منها، ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلّها؟ [...] ليس الذي أشكوه القصاص كلّه، غير أنّ وصمة النفس بجريمة لم ترتكبها لعظيم، وإهانة شرفي من إخواني، الذي هو كلّ ما يمكنني أن أناضل عنه إلى الممات -لأمر جليل، خطير جسيم، ليس بالسهل احتماله، ولا بالمتيسّر السكوت عنه، فكثير عليّ ألاّ أحزن، وألاّ أمرض، وألاّ أبكي /وإنّ قلبا يحمل ما أحمله من الهموم، محال أن يتعلّم شيئا، لأنّ العلم منوط بالهناء، وحقيقة لقد "برد قلبي" نحو العلم تماما، وزالت رغبتي فيه أصالة، و لم أعد أهلا لأن أتعاطاه، ولا أراني إلاّ مضيّعا لعمري مع هاته الحالة، لذلك أكون سعيدا، وسعيدا جدّا إذا اغتفرتم تعبكم، وسامحتموني أن أسير إلى وطني، أقاسم لقيمات الحياة مع والدي، فإن قدّر الله لي يوما التعلّم الحقيقيّ، فنعمّا هو، وإلاّ فكفاني ما حصلت عليه في هذه المدّة بفضل مساعيكم، وسأبقى أبدا محافظا على مبدئكم المقدّس، وناصرا له، ولكم الفضل أوّلا وآخرا. ابنكم زكرياء»[1].

والأرجح أن تكون هذه الواقعة قد حدثت قبل 11 سبتمبر 1925، فدفتر محاضر اجتماعات جمعية "الوفاق" يسجّل غياب مفدي في جلستين متتاليتين بعذر مقبول، في جلستي 11[2]، و18 سبتمبر، ويصرّح كاتب الجلسة الثانية أنّ سبب الغياب هو المرض[3]. وفي تاريخ 1925/09/20 يرسل والد مفدي رسالة إلى الشيخ الثمينيّ، يخبره فيها عن طلب مفدي الرجوع إلى مزاب في هذه السنة، وأخبره أيضا أنّه طلب من ابنه أن يؤجّل قدومه إلى شهر نوفمبر، لأجل القيام بالتحضيرات اللازمة، ويؤكّد للشيخ الثمينيّ في رسالة بعدها بيومين ضرورة بقاء مفدي بتونس إلى شهر نوفمبر، ويؤكّد على نفس الغرض من التأخير[4]. وقد سبقت له رسائل إلى الشيخ الثمينيّ، آخرها في 08 سبتمبر، و لم يرد فيها ذكر شيء من هذا القبيل[5].

كلّ ذلك يدلّ دلالة واضحة على أنّ توقيت هذه الحادثة هو ما رجّحناه، وأنّها أثّرت فيه تأثيرا بليغا إلى حدّ التفكير في قطع دراسته قبل تمامها، وهو في ربيعه الثامن عشر، فراسل الشيخ الثمينيّ ووالده في هذا الشأن كما أسلفنا. وإذا رجعنا إلى كرّاس متابعة مصاريفه في البعثة، وجدنا مفدي مهتمّا في الشهرين الأخيرين بشراء بعض

1- الرسالة، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، مع تصويب لبعض عباراتها، ص01، 02.

2- في محضر اجتماع يوم [1344/02/22هـ]، 1925/09/11م: «تخلّف العضو زكرياء لعذر مقبول، وقدّم تذكرة بإمضاء الرئيس الشرفيّ» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- إذ يقول: «يأتي زكرياء بمسامرته في الجلسة المقبلة، وتخلّف عن إتيانها في هذه الجلسة لعذر المرض» محضر اجتماع يوم [1344/02/29هـ]، 1925/09/18م، نفسه.

4- ينظر: رسالتا والد مفدي، سليمان بن يحي، إلى الشيخ الثمينيّ، 20 و1925/09/22، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وعبارة الرسالة الأولى يمكن أن يفهم منها علم الشيخ الثمينيّ بطلب مفدي، إذ يقول له فيها: «تعلم، ابننا زكرياء، يقول: يقدم إلى مزاب في هذا العام».

5- ينظر: رسائل والد مفدي، سليمان بن يحي، إلى الشيخ الثمينيّ، 07/03، و08/14، و1925/09/08، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

الكتب الأدبيّة، وتجليد 14 كتابا[1]، فعل من لا ينوي أوبة لمواصلة ما انقطع من دراسته، فكانت الاستجابة من والده فوريّة، فسرعان ما راسل الشيخ الثمينيّ لاسترجاع ابنه، وهو عازم على تزويجه في تلك السنّ المبكّرة، ولذلك طلب منه إمهاله إلى شهر نوفمبر ليقوم بالتحضيرات اللازمة لزواجه، إذ لم يكن يدور في خلده -في تقديرنا- إمكان عودة ابنه إلى تونس، فكان أن صفّى حساب ابنه في البعثة أيّاما قليلة بعد مغادرته لتونس يوم 1925/12/22، على يد ابن أخيه عيسى بن محمد بن يحي، ليطوي صفحة دراسة ابنه في تونس نهائيّا، بعد خمس سنوات، وخمسة أشهر تقريبا، من يوم نزوله بتونس في صائفة 1920.

تجدر الإشارة في هذا المقام إلى أنّ فكرة عودته إلى مزاب، هو وبعض زملائه في البعثة هذا العام، قد وردت مرّة واحدة في جميع ما اطّلعنا عليه من أرشيف رسائل الشيخ الثمينيّ، وهو كثير جدّا، وذلك في رسالة كتبها مفدي على لسان زملائه إلى الشيخ أبي إسحاق، بتاريخ 1925/05/15، وذلك حيث يقول: «نكون سعداء جدّا إذا بزغت شمسكم اللمّاعة بأبراج وادي مزاب للعام الآتي، لنكون من الآخذين من سناها قبسا، يحيي فينا تلك الروح التي كنّا نستقيها من الجامع الأعظم، قبل أن ينهار عليها تراب الجمود والاحتكار والجهل، فيطحنها بكلكله. وكأنّي مطالب بشيء من الصراحة في مرادي، إنّ أبناءك: سليمان بزملال، عبد العزيز الثمينيّ، عبد الله بوراس، إبراهيم دواق، زكرياء بن سليمان، من الذين سيسوقهم القدر الذي لا مردّ له، إلى ذلك الوطن، بالعام الآتي، وليس لهم عزاء عن تونسهم الخضراء، سوى ورد ذلك السلسال، سلسال العلم، ومنهل الأخلاق، وينبوع الفضيلة [يعني: الشيخ أبا إسحاق]، ونحن نترقّب جواب فضيلتكم بشوق زائد، ولا نخالكم إلاّ فاعلين»[2].

لقد كانت فكرة عودته إلى مسقط رأسه ممّا خطر بباله من قبل، بتأثير من طول غربته، منذ أوائل شهر ديسمبر 1919، وبتأثير من علمه بسفر بعض زملائه في آخر العام، فما كان من دور للحادثة سوى تأكيدها، ونقلها إل الفعل؛ وعليه، فإنّ مفدي رحل عن تونس، وهو يحفظ لها حبّا كبيرا[3]، ويحفظ لمن عاشره فيها من مشايخ البعثة، وزملائه فيها، كلّ الودّ والتقدير، فقد راسل شيوخ البعثة في جميع محطّات رحلته راويا لهم تفاصيلها[4]، حتّى اقترح عليه الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلّي وضع "رحلة"، فوعد بإنجاز اقتراحه[5]؛ كما راسل الشيخ الثمينيّ عدّة مرات، وحمّله في إحداها سلامه إلى أشقّاء الروح، وخصّ منهم سليمان بزملال، والطالب النفوسيّ محمد

---

[1]- ينظر: كراس مصاريف مفدي زكرياء في البعثة، أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة.

[2]- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- يقول عن تونس في لقائه الإذاعيّ: «سبب ميلي الكبير إلى تونس، هو أنّ عقلي فطم بتونس» زيارة خاطفة، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون".

[4]- ينظر: رسالة مفدي زكرياء من سوق اهراس، إلى الشيوخ الثمينيّ، وأبي اليقظان، وعبد الرحمن بن عمر بكلّي، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ يصف فيها رحلته من تونس إلى سوق اهراس.

[5]- ينظر: رسالة مفدي زكرياء من بني يزقن إلى الشيخ الثمينيّ، 1925/12/31، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

الشتيويّ[1]، وهو ما يدلّ على أنّ الحادثة وإن حزّت في نفسه إبّان وقوعها، فإنّها لم تعكّر –بعد مرور أكثر من شهرين عليها– صفو علاقته بمشايخه وبزملائه في البعثة، وعلى رأسهم الشيخ الثمينيّ، وربّما كان لهذا الأخير الدّور الكبير في إرجاع الأمور إلى نصابها، إذ لم يتلبّد الجوّ في البعثة إلاّ في غيابه.

1– رسالة مفدي زكرياء من عنّابة –وهو في طريقه إلى بني يزقن– إلى الشيخ الثميني، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

الفصل الثالث: بداياته في الحياة العمليّة

زواجه وإقامته ببني يزقن:

غادر مفدي زكرياء تونس، رفقة عمّه بلحاج بن يحي، يوم الثلاثاء 1344/05/28هـ، 1925/12/15[1]، إلى سوق اهراس، فعنابة، فقالمة، فالجزائر، فمسقط رأسه بني يزقن، يقول: «وصلنا البلد الأمين صبوب الأحد لـ27 مضت من ديسمبر 1925، بعد رحلة استغرقت 13 فجرا، وانتهت بمبيت تحت غطاء الخضراء، وفوق أديم الغبراء»[2]؛ وقد امتدّت إقامة مفدي ببني يزقن من 1925/12/27، إلى 1926/08/26[3]، وهي أطول مدّة -بعد فترة الصبا- مكثها بمسقط رأسه، في حياته كلّها:

بعد عشرة أيّام من عودته عقد قرانه على فافة بنت بلحاج بن محمد بن الحاج بن صالح بن يحي مرغوب[4]، يوم الأربعاء 21 جمادى الثانية 1344، الموافق لـ: 06 جانفي 1926؛ يقول مفدي في رسالة إلى الشيخ الثمينيّ، مؤرّخة في 1926/01/30: «قد تمّ مهرجان الزفاف ليلة الخميس 06 من الشهر الجاري، بكلّ حفاوة وجلال، وقد كان كلّ شيء مباركا، ميمون الناصية، باسم الثغر، وضّاح الجبين»[5].

تزامنت عودة مفدي إلى مسقط رأسه مع عودة أبرز زملائه في البعثة، وهم: إبراهيم بن عمر دواق، وعبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، وعبد الله بن محمد بوراس، فأذكى ما كان خامدا من الصراع حول تعليم الأحداث في تونس، فكتب ابن دريسو عيسى بن الحاج صالح "قصيدة" في تهنئتهم، جاء فيها:

«بشرى لنا بإياب، مه، فاق كلّ نبيل
إخواننا الأدباء، فروع دوح الأثيل
زكري وعبد العزيز، نهنّؤهم بالوصول
وابْراهِمُ بن عُمَير، نجل الكريم الأصيل
من تونس الخضْرَا جاؤوا، بين الرضى والقبول»[6].

وهو ما يعكس احتفاء "المصلحين" بثمرة هذه البعثة العلميّة، في مقابل مناوشات، وقعت مع أنصار الشيخ

1- ينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 152.

2- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1925/12/31، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- ينظر: سجلّ التساريح 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص 252.

4- توفيت يوم 31 أوت 1998؛ ينظر: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة22.

5- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ وينظر: رسالته إلى زميل دراسته النفوسيّ محمد الشتويّ، 1926/01/25، الأرشيف نفسه. وينظر تسجيل العقد لدى قاضي محكمة بني يزقن: سجلّ العقود 66، عقد: 65، 1344/07/04هـ، 1926/01/19، أرشيف القضاة، ص43، 44.

6- رسالة ابن دريسو عيسى بن الحاج صالح إلى الشيخ الثمينيّ، عير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

الحاج صالح لعلي، فقد عرض الشيخ صالح بن الحاج علي باعلي، رئيس الدار الثالثة للبعثة المزابية بتونس، على مفدي زكرياء الالتحاق بحلقة الشيخ الحاج صالح لعلي، فاحتدّ الخصام بينهما «حتّى بلغ الكلام بينهما إلى حدّ السباب»[1]؛ وفي ليلة 29 من رمضان ألقى الشيخ الحاج صالح لعلي درسا في المسجد، فكان ممّا قاله في ختامه: «من الليلة الأولى إلى هذه الليلة، ونحن نتكلّم في مسائل الدين، وما قلنا إلاّ جزء يسيرا تافها، فماذا يصنع هؤلاء؟ وماذا يحملون إلى بلادهم؟ يجلبون بضائع لا تنفد في هذه البلاد، كثياب النصارى [...]، والناس يحملون القمح، وهم يجلبون غرائر من التبن، وأخيرا قال: ﴿وكذلك جعلنا لكلّ نبيء عدوّا شياطين [الإنس والجنّ]﴾[2] الآية. وفي يوم العيد، وجد أحد تلامذته أمام داره [...] طردا صغيرا [...] فأعطاه له، وحلّه، فإذا نصيب من التّبن مع جواب، مصوّر فيه حمار يأكل التبن، وينعق، مكتوبا تحته: العلاّمة، تاج المحقّقين .. إلى آخره»، فثارت ثائرة الشيخ وأنصاره، واتّهموا مفدي بذلك، لأنّه تحدّث بمثل هذا الحديث في مجلس، وبعثوا إلى عشيرته، لتجتمع، وينظروا في المسألة، فقالت العشيرة: «ليس هو الكاتب وحده، بل اجتمع هو وزملاؤه في البعثة عليه»، غير أنّهم في الأخير لم يصلوا إلى نتيجة، إذ نفى مفدي أيّة صلة له بذلك، فما كان من الشيخ إلاّ تناول الموضوع في أحد دروسه بعد ذلك بمدّة، ليقول: «أُرسِل لنا جواب، وفيه كذا وكذا، ولا شك أنّ هاته العبارات لا تصدر إلاّ ممّن لا إيمان له، إذ يقول في إمام الجامع، ووكيله الذي هرم فيه، ومؤذّنه كذلك هكذا. وأخيرا قال: كنت وصفته بالتبن، والآن أقول: سمّ، سمّ، سمّ»[3].

وضع طلبة البعثة الأربعة برنامجا لمواصلة دراستهم، تحدّث عنه عبد العزيز بن يوسف بالتفصيل، في رسالة إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1926/05/14، فقال:

«[...] هذا وقد وافاني كتابكم الجليل، منبئا بسلامتكم [...] وسروركم، وابتهاجكم بمشروعنا، فقد زادنا نشاطا وابتهاجا واجتهادا. وأمّا التفصيل فهو على ما نحن عليه اليوم: نجتمع على سا 7 صباحا في باهون[4]، فيلقي درسه المتهيّئ في ذلك اليوم إلى سا 8 أو أزيد، وعلى التاسعة نجتمع عند الأستاذ عمّنا الحاج يحي إلى الحادية عشر، ثم في الظهر عند الأستاذ عمنا الحاج إبراهيم إلى العصر، وبعد العصر كلّ يشتغل بنفسه. أمّا دروس "باهون" فهي:

- عبد الله [بوراس] يوم السبت في "شرح النيل" ج9.

1- ينظر: رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخ الثمينيّ، 1344/09/01هـ، 1926/03/16م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- سورة الأنعام، الآية 112. في الأصل: «ولقد جعلنا لكلّ نبيء شياطين»، وصوابه ما أثبتّه.

3- رسالة عبد العزيز الثمينيّ إلى الشيخ الثمينيّ، 1926/05/14، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ وينظر: رسالة يوسف بن يحي إلى الشيخ الثمينيّ، 1926/05/06، الأرشيف نفسه. وقد تبيّن بعد ذلك أنّ مفدي بريء من هذه التهمة؛ ينظر: رسالة يوسف بن يحي إلى الشيخ الثمينيّ، 1926/05/07، الأرشيف نفسه.

4- هو حيّ من أحياء بني يزقن.

- يوم الأحد عبد العزيز [بن يوسف الثمينيّ] في شرح الأربعين النووية المسمّى بـــ"الفتح المبين".
- يوم الإثنين إبراهيم [بن عمر دواق] في تاريخ المذهب.
- يوم الثلاثاء زكرياء في القرآن والعلوم العصرية، ثم بعد ختمه يبتدئ في الطبيعة.
- الحاج سعيد ترشين في الجغرافية [يوم الأربعاء].

وإبراهيم [دواق] سيسافر يوم 15 أو 16 من الشهر إلى قالمة، وأمسكُ درسه إن وافقتني الجماعة.

وأمّا دروس عمّنا الحاج يحي فهي: عبد العزيز "مشارق أنوار العقول"، و"التصريح على التوضيح" بالتبادل يوميّا، و[مفدي] زكرياء "شرح النونية"، و"الجوهر المكنون" كذلك، وعبد الله [بوراس] "النيل" الجزء الأوّل، وإبراهيم [دواق] "جامع الوضع والحاشية" كذلك، وسيخلفه [...] الحاج سعيد [ترشين].

و[دروس] عمّنا الحاج إبراهيم: عبد العزيز "التاج" سفر2، عبد الله "النيل" ج2، إبراهيم "النيل"، كتاب النكاح،/ زكرياء "الذهب الخالص". والسائرون معنا ترشين [الحاج سعيد]، وعمّنا عيسى بن ادريسو لا غير.

وكيفية الإلقاء: كلّ وما اختاره، إلاّ إن وُجد العاميّ فالإلقاء بالبربريّة، والغالب بها. والأسلوب المتّبع: هو أن يسرد عبارة الكتاب، ثم يوضّحها بما رآه يليق بها، ثمّ إذا كانت مسألة ينبغي التكلّم فيها، والبسط، مثل الأخلاق، والحثّ على ما فيه سعادة الشّعب، أطنب فيها، وكذلك إذا أتت مسألة لا ينبغي الخوض فيها يطرحها، وهكذا في خلال ذلك إذا وجد فائدة تليق بإخوانه يبسطها لهم، والمقصد الأهمّ فائدة أنفسنا، فإن حضر الغير أفدناه، وإن لم يحضر لا نسأل عنه»[1].

ولم يواظب مفدي على هذا البرنامج مع زملائه أكثر من شهرين[2]، فقد انصرف عنه قبيل سفر إبراهيم دواق، وجانب حياة الجدّ والاستقامة التي أنشأ عليها في تونس، يقول الشيخ أبو اليقظان في رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1926/07/31: «إنّ أمر زكرياء قد أعيى الإخوان، وشوّه مشروعنا، وجعلهم يتأفّفون من نتيجته: نزق وطيش[...]، وقاحة، نزوع إلى الاعوجاج وعدم الاستقامة، ولا سيّما إذ لم يجد يدا تكبسه، بل وجد أمامه أناسا استصغرهم، واستجهلهم، وقد أعطى له أبوه حرّيته، وبسط له يده بعد أن قبضها في أوجب الواجبات [...] سافر أبوه[3]، وتركه كربّ الدار له التصرّف المطلق، فطار في الفضاء، والإخوان كلّهم في حنق منه، وله حكايات وقصص هداه الله»[4].

1- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- نجد أوّل إشارة لهذه الدروس في رسالة يوسف بن يحي الثمينيّ إلى الشيخ الثمينيّ، 1344/09/01هـــ، 1926/03/16م، والأرجح أنّها انطلقت في بداية شهر مارس، وآخر إشارة إليها وردت في رسالة سليمان بن عمر إلى الشيخ الثمينيّ، 1926/05/25، وفيها يتحدّث بزملال عن انصراف مفدي عنها رواية عن دواق إبراهيم؛ تنظر الرسالتان: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- استصدر تصريحا بالسفر إلى عنابة، يوم 1926/05/26؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص247.

4- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

إنّ جوّ الحرّيّة الذي كان ينعم به في بني يزقن، وبخاصة بعد سفر والده، لم يكن -في تقديرنا- سوى عامل مساعد لانغماسه في هذه الحياة اللاهية التي انساق إليها، بعد عدّة سنوات من الانضباط والالتزام بنظام صارم في الدراسة وخارجها، وإذا بحثنا عن السبب الحقيقيّ وراء هذا الانقلاب الذي حدث لشخصيته، وجدناه في الجفوة التي حدثت بين مفدي وشيخه الثمينيّ:

ألّف رمضان حمود رسالة عنوانها "وحي الضمير"، وأرسل إلى أستاذه الثمينيّ، يطلب منه طبعها في تونس، مقترحا عليه أن تكون في حجم "إرشاد الحائرين"، وبنفس ورقه، وبخطّ "ديوان حزندار"، على أن تكون تكلفة طبعها لا تزيد على 600 فرنكا[1]. ثمّ كتب مفدي زكرياء مقدّمة لها، فطلب رمضان حمود من أستاذه أن يدرجها في الكتاب، غير أنّ الشيخين الثمينيّ وأبا اليقظان أبديا تحفّظا في طبعها بمقدّمة مفدي، فيقول رمضان حمود في ذلك، مخاطبا أستاذه الثمينيّ: «وقولك (فماذا يقول الغير إذا برزت بمقدمة زكرياء؟)، فذلك ما أتمنّى أن أراه، إذ بها تضيء وريقاتي المظلمة، وأمّا قول الأستاذ الحاج إبراهيم فصحيح، وهو ما لا يتناطح فيه عنزان، ولكن (النّاس فيما يعشقون مذاهب)، قد يرى البعض المقدّمة أحسن، والبعض النتفَ، فليتأمّل. [../..] ومقدّمة زكرياء لا نهملها أبدا، بل هي الأولى أن تكون»[2]، وبعد ذلك اتّخذ الشيخ الثمينيّ لوحده، أو بمعية الشيخ أبي اليقظان قرار عدم طبع الرسالة كاملة، أو عدم طبعها بمقدّمة مفدي، وراسل بقراره صاحب الرسالة، فوقعت الرسالة بين يدي مفدي، فقرأها، وفي ذلك يقول رمضان حمود، في رسالته إلى شيخه، المؤرّخة في 1926/06/24: «وقد ساءك قراءة زكرياء لكتابك الذي أرسلته إليّ، ولك الحقّ في ذلك. اعلم أيّها الأستاذ أنّ هذا الأخير كان جالسا معي في دكّاننا، فأتى البريد، فاختطفه، وقرأه، و لم أعلم بعد ذلك ما فعل، حتّى قال لي سليمان[3]: إنّه أجابك بجواب لا يليق بمقامك؛ ولكنّ قلبك أوسع من أن يتغيّر. وقولك (غيّر فكرتي): كلاّ، ففكرتي لا يغيّرها أحد مهما كان شأنه، ولكن لا أكذبك بأنّي صادقته صداقة تامّة، إذ لم أجد من يوافقني إلاّ هو. والحاصل أنّي لا زلت تلميذك، ونصيرك إلى النهاية، /فانتقد ما خبث منّي تجد آذانا صاغية، والسلام»[4]، ويبدو أنّ هذ الجواب الذي كتبه مفدي إلى أستاذه، كان قبل سفر إبراهيم بن عمر دواق، فقد حكى الشيخ أبو اليقظان هذه الواقعة، في رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1926/07/31، حيث يقول: «كلّمت السيد عمر دواق عن ولده إبراهيم، [...] وكلاهما في حنق من زكرياء، وسوء سيرته، ولا سيّما إبراهيم، فقد سئم منه، ومن طيشه [...]. وقد أراه زكرياء تلك الورقة فوبّخه

---

[1]- ينظر: رسالتا رمضان حمود إلى الشيخ الثمينيّ، 1925/10/30، و1926/03/06، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[2]- ينظر: رسالة رمضان حمود إلى الشيخ الثمينيّ، 1926/03/26، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وفي هذه الرسالة ما يشير إلى أنّ الطبع كان في مراحل جدّ متقدّمة، إذ كانت المناقشة حول الإهداء.

[3]- الأرجح أن يكون سليمان بوجناح.

[4]- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

عليها توبيخا قارصا، ولكنّه نغض رأسه، وقال: و لَمَ يمنعنا عن نشر المقدّمة؟ فهل يحسدنا؟»[1].

لا نعلم على وجه التحقيق سبب رفض طبع مقدّمة مفدي، سوى ما يفصح عنه تحفّظ الشيخين في البداية، لكون المقدّمة أحسن من رسالة رمضان حمود، وربّما حجبتها، وبشهادة صاحبها أيضا؛ والحقّ أنّ الرسالة نفسها لم تر النور، ولا نعلم سبب ذلك أيضا[2]؛ غير أنّه من الواضح -في تقديرنا- سبب انسياق مفدي زكرياء إلى هذه الحياة اللاهية، فهو -بلا ريب- رفض مقدّمته، نتج عنه هذا التمرّد على حياة الاستقامة التي أنشأه عليها أستاذه.

كتب مفدي رسالة إلى الشيخ الثمينيّ، على لسان عمّه بلحاج، بتاريخ 1926/06/25، ضمّنها رسالة منه إلى أستاذه، وينبئ ارتباك أفكاره فيها عن عجزه تقديم تبرير مقنع لفعلته، إذ كانت حجّته داحضة، فتلعثم قلمه، و لم يتّضح من كلامه المبتسر فيها سوى الصداقة الحميمة التي كانت تجمعه برمضان حمود، ورغبته في حصول المفاهمة بينه وبين أستاذه، وذلك حيث يقول: «الفاضل المحترم، أستاذي الشيخ محمد الثمينيّ، دام علاه، سلاما واحتراما. [...] لم يكن كلّ ذلك، أيّها الأستاذ، وإنّما البلاغة في الكلام، والإيجاز فيه، قد يؤدّيان إلى مثل هذا، قاتل الله البلاغة، قاتل الله الإيجاز. لم "أدبّر[3]" على حمو[4]، و لم "يدبّر" عليّ، وإنّما هي عواطف داخلية، ليس لها نهاية، أصبحت تربطنا أبدا. ولو علمت مقدار تقديسي لمبادئه، وتقديسه لمبادئي، وسعيي وسعيه في معاضدته ومعاضدتي، لعلمت أنّ البواعث الروحية لا يمكن تفسيرها بالظنّ، بله اليقين.

أتيقّن -لا مفاخرة، بل تحدّثا- أن ليس واحد من تلامذتك كاتبك المكاتبة التي كاتبتك إيّاها، إلاّ أنّك تعلم عادتي مع النّاس أجمعين. وإلى الآن أودّ أن تحصل المفاهمة، والله بصير بالعباد. عيدكم مبروك بالفرح والهناء والسّرور، أعاده الله عليكم أعواما بالخير مديدة، ولا زالت سرابيل السعادة عليكم ضافية جديدة، والسلام عليكم، ممّا تعلمون، وبلّغوا سلامنا لكلّ ما تعلمون»[5].

هذه الجفوة بين التلميذ وأستاذه استمرّت مدّة، ثمّ عادت العلاقة تدريجيا إلى سابق عهدها، فامتدّت الرسائل بينهما إلى وفاة الشيخ الثمينيّ سنة 1970، بالإضافة إلى لقاءاتهما بتونس وبالجزائر، كلّما سنحت الفرصة للقاء، فكان مفدي بذلك من أكثر طلبة بعثة الشيخ الثمينيّ وفاء لأستاذه، يستشيره في الكثير من أموره، بما في ذلك مسيرته الأدبيّة، ولا يبخل عليه الشيخ بتوجيهاته، وكان مفدي معتمد أستاذه في الكثير من مصالحه بالجزائر، واشترك معه في بعض أعماله، وكان عضده في مواقفه المختلفة، كلّ ذلك لأنّ مفدي كان يرى أستاذه نموذجا للاستقامة والإخلاص، ولا أدلّ على ذلك من قوله في رثائه، يبيّن فضله على طلبة

1- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. وهذه الورقة ممّا ضاع، أو لم يحتفظ به الشيخ الثمينيّ في أرشيفه، فلم يتسنّ لنا الاطّلاع عليها.

2- رسالة "وحي الضمير"، ممّا لم يعدّده المترجمون له ضمن إنتاجه؛ ينظر: معجم أعلام الإباضيّة2: 261-263.

3- عامية، يعني: لم أشر عليه بشيء.

4- يعني: رمضان حمود.

5- الرسالة غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

بعثته في هذه الحقبة التي نحن بصدد دراستها، وأثره الطيب في المراحل اللاحقة، وفي النصّ ما يوحي بأنّه يتحدّث عن أثر صنيع شيخه فيه خاصّة:

«أيُّها الرّاحلُ الكريمُ بَلَوْتَ الدْ — دَهْرَ علمًا صباحةُ وظَلاَمَهْ
فقطعتَ الحياةَ نُبلاً، وفضلاً، — وصلاحًا، وعِفّةً، وَشَهَامَهْ
وعَبرتَ السّنينَ تَصنعُ جِيلاً، — ناصعَ الرّوحِ، لا يخونُ ذِمَامَهْ
عربيًّا، على هوى الوطنِ الغَا — لِي، يصونُ الحِمى، ويُعْلِي مَقَامَهْ
مسلمًا، راسخَ العقيدةِ مَا حَرْ — رَفَ إيمانَهُ، ولا إسْلاَمَهْ
عامرَ الفكرِ بالمعارفِ، لم يَقْـ — ـطَعْ بتاريخِ مجدِهِ أَرْحَامَهْ
كم تباهتْ بهِ (الجزائرُ) فخرًا — يومَ أنْ صارَ للجهادِ دعَامَهْ
وَحدةُ المغربِ الكبيرِ مُنَاهُ، — والتحامُ الصّفوفِ ظلَّ مَرَامَهْ
مُستقيمُ السّلوكِ، طوعُ مَبَادِيـ — ـكَ، وإنْ كنتَ آخذًا بالصَّرَامَهْ
أنتَ كوّنتَهُ سليمًا كريمًا، — لم تدعْ في يدِ الظّروفِ زِمَامَهْ
كمْ رعيلاً بَعثتَ إِثْرَ رعيلٍ، — نالَ في (تُونِسَ) الكرامِ كَرَامَهْ
وارْتَوَى مِن مَناهلِ العلمِ حتّى — بلغَ الرّشدَ عندَها، وفِطَامَهْ»[1].

بقي مفدي على هذه الحال بمزاب، وتنوقلت رسائل التبرّم من سيرته، من غير إفصاح عمّا ينقمونه منه بالضبط، وربّما زاد من تمرّده رغبته في العودة إلى تونس لإتمام دراسته، ووقوف والده دون تحقيق رغبته، ففي رسالته السابقة إلى أستاذه، بتاريخ 1926/06/25، يقول له في ختامها: «سأكون بتونس إن شاء الله أوّل العام، غلت أو رخصت»[2]، ممّا يدلّ على عزم أكيد منه على العودة إلى تونس؛ وفي رسالته إلى صديقه الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز، بُعيْد سفر هذا الأخير إلى الجزائر، في منتصف شهر جويلية 1926[3]، إشارة إلى محاولاته اليائسة التملّص من حياة التجارة التي يراد له ولوجها رغما عنه، وذلك إذ يقول: «إنّي لا زلت كما تركتموني، لم أجد بابا للفرج، والتملّص إلى الغاية الشريفة التي أصبو إليها، وهكذا لا زلت أترقّب لمعان بارق من سماء النجاح، وما ربّك بمخيّب طالب سؤدد ومجد. أتذكّر أنّكم واعدتموني على الشروع في إنشاء وسيلة[4] لذلك في الجزائر، فهل تمّ لكم ما قصدتم من المعونة الشرفيّة، واليد البيضاء التي

---

[1]- با نزيل الخلود، أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى221.

[2]- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- استصدر تصريحه بالسفر إلى الجزائر، يوم 1926/07/10؛ ينظر: سجلّ التساريح 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص250.

[4]- لم يحدّد هذه الوسيلة، وربّما كانت إنشاء مدرسة، وقد أنشأها في الجزائر بعد ذلك بسنوات، وربّما كانت غير ذلك.

أحفظها لكم عندي ما بقي لجسمي قلب يخفق بنور الإيمان؟ وعلى كلّ حال فقد قرب الأوان، و لم يبق إلاّ الجدّ والمثابرة، والنجاح دائما حليف العاملين»[1]؛ وفي رسالة الشيخ أبي اليقظان في الجزائر إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1926/09/05، يحكي له عن لقائه بمفدي، فيقول: «مرّ من هنا [...] زكرياء [...] إلى قالمة، صحبة ابن خالته، صالح بسخواض، وقد جلس معنا هنيهة، سألته فيها عن أمره، وإلى أين؟ فقال: إلى الخدمة بقالمة، عند ابن خالته عيسى بسخواض، فأطلق "روسوره"[2] وحده: توسّلت إلى أبي بكلّ الإخوان المفكّرين، فرادى وجماعات، وجمعت له عشيرتنا، ليتركني أذهب إلى تونس، فأبى إلاّ خدمة الدراهم»[3]. وإذ فشلت محاولاته كلّها، كان لزاما عليه أن يدخل ميدان التجارة، ليضمن قوته، وقوت عائلته، فغادر بني يزقن على نية الخدمة في أواخر شهر أوت، قاصدا قالمة، مرورا بالجزائر، وقد سجّل زميله إبراهيم دواق نزوله بقالمة، في رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، المؤرّخة في 1926/09/12، حيث يقول: «إنّ زكرياء بن سليمان هنا مع خاله[4]، على نيّة الخدمة في هاته الساعة، وهو على حالته المعروفة»[5].

أعماله الأولى في التجارة:

هكذا دخل مفدي الحياة العملية[6]، من دكّان خاله عيسى الحاج الناصر[7] بقالمة، غير أنّه لم يستقرّ فيه طويلا، فنجده في قسنطينة في النصف الثاني من سنة 1927، بعد عودته مباشرة من بني يزقن في أواخر

---

[1]- الرسالة، غير مؤرّخة، مكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز؛ والملحق602. غير أنّ قول مفدي فيها: «وصلتَ بلاد الجزائر، فلم تخبرنا عن وصولك، وكنّا نترقّب البريد كما يترقّب المحبّ هبوب النسيم، ولمعان البروق من ربوع حبيبه، فظفرت بصفقة المغبون كلّما لاقاني البريد دون غايتي الوحيدة»، يدلّنا على أنّه كتبها بعيد سفر الشيخ مطياز إلى الجزائر في التاريخ المذكور، كما أنّ موضوعها يحدّدها بهذه الفترة لا غير.

[2]- عامية من الفرنسية (Ressort) تعني: النابض، ويقصد به: أطلق لسانه، وأفرغ ما في جعبته.

[3]- أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[4]- هو الحاج الناصر عيسى بن الحاج محمد بن داود.

[5]- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[6]- يقول مفدي في البرنامج الإذاعيّ "زيارة خاطفة"، متحدّثا عن هذه المرحلة من حياته: «اشتغلت بالتجارة في عمالة قسنطينة، مع والدي، ومع خالي وأقاربي، لكنّ الحنين إلى مواصلة التعليم كان دائما يراودني، فتمرّدت على من كنت أعمل معه، وهربت إلى تونس، غير أنّ التربية التي كانت في ذلك الوقت لا تسمح بالتمرّد على الأقارب والأهل، فأجبرني على الرجوع إلى التجارة، فرجعت إلى التجارة، ثمّ تمرّدت، ودخلت في السياسة سنة 1930، أو 1932» زيارة خاطفة، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون".

[7]- هو تصويب السهو الوارد في رسالة الشيخ أبي اليقظان، حيث أسماه عيسى بسخواض، بناء على حضوره إلى قالمة مع ابن خالته صالح بسخواض؛ ويدلّ على صواب ما أثبتناه ما ورد في رسالة إبراهيم دواق بعد السابقة مباشرة، والمقتطف من البرنامج الإذاعيّ في الهامش السابق. وقد نُصَّ على عمله لدى عيسى بن الحاج محمد، في رسالة موجّهة إلى الشيخ الثمينيّ، لم أتبيّن صاحبها، تحمل عنوان محلّ بكير بن داود بزملال وإخوانه بقالمة، مؤرّخة في 1926/09/10؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. أمّا بسخواض المذكور، فلا يمكن أن يكون سوى عيسى بن الحاج إبراهيم بن إسماعيل، وتجارته كانت -بحسب الرواية الشفهية- في عمالة الجزائر.

شهر جوان[1]، يدلّ على ذلك مقال نشره بجريدة "وادي ميزاب"[2]، بالإضافة إلى رسالتين[3] ارتبط فيهما اسمه باسم تاجر من أعيان التجّار المزابيّين بمدينة قسنطينة الشرح محمد بن عمر، وهو يرجّح لدينا عمله عنده في هذه الفترة[4].

في 1928/03/03، ظهر اسم زكري بن سليمان بن يحي على قائمة إحصاء المعنيّين بالتجنيد الإجباريّ[5]، وكانت حصّة بني يزقن من التجنيد لهذه السنة محدّدة بخمسة مجنّدين[6]، غير أنّ "جماعة بني يزقن"، قامت بإجراءات تعويض حصّتها من المجنّدين قبل التاريخ المحدّد لبداية عمل "لجنة مراجعة دفعة 1928" من 07 إلى 11 جوان[7]، فجنّبت أبناءها التجنيد، ومن بينهم مفدي زكرياء[8].

يدلّ نصّان شعريان له من سنة 1928 على وجوده بمزاب في شهري جوان وجويلية: كتب الأوّل بتاريخ 1928/06/27 في رثاء عمر بن داود بزملال[9]، والثاني في 1928/07/03، في رثاء صالح بن الحاج بكير

1- استصدر تصريحا بالسفر في 1927/06/29، بينما يرجع تصريح سفر عمّه صالح بن يحي إلى 1927/06/22، ممّا يدلّ على اجتماعه به ببني يزقن؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص267، و268.

2- كتبه بقسنطينة ضدّ مامي إسماعيل، بتاريخ 1927/08/20؛ ينظر: حول أسطورة بوليس الصحفيّين، لمفدي زكرياء بن سليمان، جريدة "وادي ميزاب"، س01، ع49، 1346/03/18هـ، 1927/09/16، ص01، 02.

3- الأولى: من مفدي إلى شيخه الثمينيّ كتبها في 1346/04/05هـ، 1927/10/02م، بقسنطينة، يطلب منه إرسال قائمة كتب مكتبته "الاستقامة" إلى عنوان: الشرّح محمد بن عمر، قسنطينة؛ والثانية: من الشرّح محمد بن عمر إلى الشيخ الثمينيّ، 1927/11/01، يبلّغه في ختامها سلام نخبة المزابيّين في مدينة قسنطينة، من بينهم مفدي زكرياء؛ تنظر الرسالتان: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- عثرنا -بعد تمام البحث-، بفضل الأخ إمناسن محمد، على سجلّ حسابات العاملين لدى السيّد الشرح محمد بن عمر، وفي صفحة 19 منه، وبخطّ مفدي، نقرأ ما يلي: «أمّا بعد، فقد حضر يوم التاريخ أعلاه [يعني: 18/05/ 1928] السيّد عمنا الحاج سعيد بن عيسى فرير، والسيّد عمّنا الحاج محمد بن الحاج داود عطفاوي، مع السيّد الشرح محمد بن عمر، وزكرياء بن سليمان، لتصفية حساب هذا الأخير على الذي قبله، حقّ خدمته معه في الدكّان ابتداء من يوم 08 أكتوبر إلى يوم 27 أفريل، يوجب[كذا] 06 أشهر وعشرون يوما [...]. وقع بقسنطينة يوم 18 ماي 1928، وبه زكرياء بن سليمان» السجل، أرشيف السيّد الشرح محمد بن عمر، بالعطف.

5- هذه القائمة تضمّ في أرشيف القيّاد، 46 اسما؛ ينظر: سجّل التجنيد، 1920-1940، أرشيف القيّاد. بينما جدول "مراجعة دفعة 1928"، الخاصّ بالبلدية الأهلية بغرداية، يذكر لبني يزقن عدد 54 مسجّلا؛ ينظر: الجدول، 1928/05/10، بإمضاء الحاكم العسكريّ بمنطقة غرداية، ورئيس لجنة المراجعة، بيلاندو (Bèlandou)، 22h23، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة من حجم كبير.

6- من بين 30 مجنّدا مقرّرا لوادي مزاب، موزّعا على قراه السبعة، تختارهم لجنة المراجعة بعد دراسة طلبات الإعفاء، وإجراءات الفحص، فالقرعة، من بين 325 شابّا بلغ العشرين من عمره، مسجّلا على قوائم التجنيد لهذه السنة؛ ينظر: جدول مراجعة دفعة 1928، 22h23، (CAOM).

7- ينظر: مرسوم الوالي العامّ المحدّد لرزنامة عمل "لجنة مراجعة دفعة 1928" في ملحقة غرداية، 1928/03/30، 22h23، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

8- ينظر: شهادة، أصدرها الرائد موريس فيغورو (Maurice Vigourous)، حاكم ملحقة غرداية، ومدير البلدية الأهليّة، 1937/12/28، موضوعها وضعية مفدي زكرياء إزاء التجنيد: نسخة مطابقة، صادق عليها رئيس مركز الاستخبارات والدراسات (C.I.E) بالجزائر، المقدّم شون (Schoen)، 1941/09/17، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة22.

9- إنّما الميّت من يرى شرف الأمّة نهبا ولا يزال خمولا، جريدة "وادي ميزاب"، س02، ع94، 1347/02/16هـ، 1928/08/03، ص03.

العطفاويّ[1]، ولم يغادر بني يزقن إلاّ في أواخر أوت[2]، هذان الشهران -على أقلّ تقدير- اللّذان قضاهما بمسقط رأسه لا يفسّرهما سوى تخلّيه للمرّة الثانية عن عمله، وعليه فيبدو أنّ طبعه، واعتداده بنفسه وبنبوغه لم يكن يؤهّله للعمل عاملا بسيطا تحت إمرة أيّ كان، ومحاصرا بين جدران محلّ من المحلاّت التجاريّة، ومكوثه ببني يزقن هذه الفترة الطويلة نسبيّا، يفسّره بحثه عن عمل أكثر مناسبة لطبعه وميوله، وعزوفه عن نوع العمل الذي اشتغل به سابقا، فوجد ضالّته في العمل مروّجا للسّلع[3]، بما يوفّره له من تنقّل مستمرّ بين مدن مختلفة، وبما ينعم به أثناءه من حرّيّة، وقلّة احتكاك برؤسائه.

هذا العمل الجديد كان أكثر من مناسب له، إذ كان عمله فيه مع عمّه صالح بن يحي، في "مستودع السعادة"، 08 سوق الصوف، بتونس:

إنّ أوّل وثيقة تشير إلى عمله الجديد هذا، رسالة نائب المحافظ بـــ"المديّة"، إلى محافظ عمالة الجزائر، بتاريخ 1929/01/28، فقد جاء فيها ما ترجمته: «هذا الشخص المسافر لأجل ترويج بضائع عمّه [صالح بن يحي]، وصل "المديّة" قادما من الجزائر يوم 18 جانفي مساء»[4]؛ وفي 10/02/[1347هـــ، 1929/03/14م] كتب من الجزائر رسالة إلى شيخه الثمينيّ في بني يزقن، يقول له فيها: «وبعد، فإنّني بالجزائر من مدّة عشرة أيام، وقد بعت فيها ما قدّره الله عليّ، وإنّي راجع إلى تونس بعد غد»، وفي عبارته ما يشير إلى أنّه كان يعيش الأسابيع الأولى في عمله الجديد. إنّ هذا العمل بتونس أحيى في نفسه رغبته الأكيدة في العودة إلى مقاعد الدراسة، فحمّل مهمّة إقناع والده أستاذَه الثمينيّ بمناسبة زيارته لبني يزقن، فنجده يقول له في الرسالة ذاتها: «ثمّ ما هي فكرة الوالد في مسألة تعليمي؟»[5].

في 1929/02/13 صدر القرار رسميّا بتعطيل جريدة "وادي ميزاب"[6]، وفي غياب الشيخ الثمينيّ عن تونس،

1- يا رحمة اللّه حلّي في منازلنا، جريدة "وادي ميزاب"، ع94، ص03.

2- استصدر تصريحا بالسفر في 1928/08/21؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص291.

3- وهو بالمصطلح التجاريّ آنذاك (باللغة الفرنسيّة): Représentant de commerce.

4- ينظر: الرسالة في الملحق601، بإمضاء: بوليو (Beaulieu)، رقم 380، موضوعها: بخصوص المدعوّ زكري بن سليمان من تونس، 9h32، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وقد كان في طريقه إلى مسقط رأسه، وتوقّف في بوغاري يوم 24 جانفي؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، بإمضاء: ماثيو (Mathieu)، رقم: 4471، 1929/02/11، موضوعها: بخصوص المزابيّ زكري بن سليمان، 9h32، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وقد استصدر تصريحا بالسفر إلى سوق اهراس، يوم 1929/02/07؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص299.

5- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

6- ونصّه هو كالآتي، مكتوبا بخطّ الشيخ أبي اليقظان: «بالقرار المؤرّخ في 18 جانفي 1929، جاء ما يلي: حجر نشر وبيع وتوزيع جريدة "وادي ميزاب" العربية التي تصدر بالجزائر. وهذا التحجير يشمل كلّ جريدة ستصدر على هذه الخطّة في القطر الجزائريّ، وسواء كان صاحب امتيازها هو الأوّل أو غيره، وسواء كانت المطبعة هي الأولى أو غيرها، وسواء كان مركز التحرير هو الأوّل أو غيره. عن الرائد الرسميّ الجزائريّ 13 فيفري 1929م» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

كان لمفدي دوره في دعوة الصحافة التونسيّة إلى القيام بواجبها في مؤازرة الشيخ أبي اليقظان، والتنديد بتعطيل جريدته، ففي رسالة بعثها إليه يقول: «أما هنا بتونس، فقد قصدت أصحاب الصحف الحرّة، مثل الجعايبي[1]، وحسين الجزيري[2]، ومحي الدين [القليبيّ][3]، وأوسعتهم توبيخا وتأنيبا على مقابلة حادث كهذا بكل وجوم، رغما عن تناول صحف العالم كلّها هذا الموضوع من عدوّة وصديقة، مرارا عديدة، ورغما عن كون الجزائر وتونس قطعة واحدة بتعدّد الروابط بينهما، ورغما عن كون مدير "الوادي" ممّن له أياد بيضاء في خدمة المسألة الدستورية سابقا، هو وزملاؤه الشيخ صالح بن يحي، والشيخ إبراهيم اطفيش، والشيخ محمد الثميني، حتّ أبعد، وسجن الآخر، وهُدّد الآخرون مرارا من أجل المسألة الدستوريّة التي ما حملهم على الانتصار لها إلاّ مراعاة الرابطة الوطنيّة أوّلا، والرابطة الإسلاميّة ثانيا، رغما عن تضييعهم جانبا وافرا من واجبات علميّة وشخصية وعموميّة، اجتازوا مسافة ألفي كيلومتر لخدمتها، بين مزدحم صاخب من الخصوم الألدّاء. هل يكون كلّ هذا جزاؤه الضنّ ولو بكلمة واحدة في حادث تعطيل لسانهم الوحيد، بل لسان الشمال الإفريقيّ، بل الإسلام عموما، جريدة "وادي ميزاب"؟ ولقد ضربت لهم على هذا الوتر، فأثّر فيهم أيّما تأثير، وأبدوا معاذير يَتَفَصَّوْنَ بها من المسؤولية، وهي أنّهم توقّفوا عن النشر لعدم معرفة السبب، إلى غير ذلك. وقد كلّمهم عمّي الشيخ صالح أيضا في هذا الموضوع، ونتيجة ذلك: انتظروا "صواب" هذا الأسبوع، فإنه كتب مقالا ضافيا في الموضوع، و"النديم" أيضا، ثمّ "لسان الشعب" سيكتب، ثمّ "الزمان"، إنّه واعد بالكتابة، ولا أدري متى يفي بالوعد. ولقد حرّضت سعيد بن بكير على الكتابة، وفهّمته الموضوع، وإنّه كتب مقالا، سنصدره إن أمكن في جريدة "اللواء التونسي"، بالفرنسوية (Etendard Tunisien)، للشاذلي بن مصطفى، أو في جريدة "تونس الاشتراكية" (Tunis Social)، أو يرسل إليكم تزجونه في بعض صحف الجزائر الحرّة. الحاصل: العمل العمل، الحملة الحملة، الهجوم الهجوم [...]»[4].

إنّ رسائل مفدي وغيره بداية من دخول سنة 1929، وابتداء مفدي في عمله، تشير إلى اتّخاذه من عاصمة الجزائر، مركز نشاطه التجاريّ في القطر الجزائريّ، منها ينطلق في جولاته شرقا وغربا وجنوبا، وإليها يعود، وقد مكّنه ذلك من إرجاع صلته بأستاذه أبي اليقظان إلى سابق عهدها، والانضمام إلى مجموعة من الشباب الناهض، كانت تحوم في فلك الشيخ أبي اليقظان، ونشاطه الوطنيّ والصحفيّ، ففي رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ

---

[1]- صاحب جريدة "الصواب"؛ ينظر: النشاط العلميّ والفكريّ للمهاجرين الجزائريين بتونس183 ها01.

[2]- صاحب جريدة "النديم"؛ ينظر: النشاط العلميّ والفكريّ للمهاجرين الجزائريين بتونس160 ها03.

[3]- من أبرز عناصر الحزب الدستوريّ، كان يوقّع مقالاته في جريدة "الوزير" للطيّب بن عيسى بـــ "عصام"؛ النشاط العلميّ والفكريّ للمهاجرين الجزائريين بتونس283.

[4]- الرسالة مؤرّخة في 1929/03/30، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة: دراسة ونصوص، د.محمد ناصر، سلسلة تراثنا، جمعية التراث-العطف-القرارة-الجزائر، ط2: 1989، ص266، 267. وتوجد صورة من رسالة ثانية، بخطّ مفدي، مؤرّخة في 1929/04/03، غير تامّة، في الكتاب نفسه، وفي الموضوع ذاته؛ ينظر: مفدي زكرياء277.

الثمينيّ، يبلّغه سلام هذه المجموعة، فيقول: «والسلام التّام، والتهنئة العاطرة، من تعموت [عيسى بن يحي]، وزكري [بن سليمان، مفدي زكرياء]، وباجو [حمو بن عمر بن حمو][1]، والفردق[2] [سليمان بن يحي بوجناح]، وغرّافة [إبراهيم]»[3]. وفي الرسالة السابقة لمفدي من تونس، يسأل الشيخ أبا اليقظان عن زملائه متهكّما، قائلا: «سيّدي، قبل كلّ شيء ما هي أحوال صنوي "الفرقد"؛ فإنّه لم يكاتبني، وإنّي متحيّر جدّا في أمره؛ ثمّ ما هي أحوال الهزبر المقدام، أسد الوادي، السيّد غرّافة، الذي ليس في قلبه رأفة، على الدجاجة "الخَوَّافَة"، التي على حتفها بظلفها طوّافة، الله يسلّط عليها آفة، أمّا هو "يسَلَّكْ" الله أمره، ويهرول لمزاب على طريق "صْطَافَة"؛ وأمّا الأخ حمو [باجو] فقد سمعت أنّه في "بريكة"، السلام عليه يوم سار، ويوم يؤوب»[4].

هذه المجموعة التي تألّفت في عاصمة الجزائر تعتبر أوّل خطوة -في اعتبار مفدي على الأقلّ- في ميدان العمل الوطنيّ، يدلّ عليه استعماله لفظ "الثورة"، وتسمية جماعته بـــ "طائفة من الثوّار"، في رسالة كتبها بالجزائر في 1930/04/11، إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، منتهزا فرصة لقائه بالشيخ أبي اليقظان في تونس، يقول له فيها على لسان إخوانه: «[...] إنّنا متفائلون خيرا من اجتماعكما، وكلّنا أسماع متهيّئة لأوّل كلمة تخرج من فميْكما الشريفين، وإنّا لا نرضى أن تتفارقا ما لم تأتيا لنا بما نحن أحوج إليه من الأكسجين للحياة، وأكرم بها حياة الروح. هذا الكلام ترجمة من البربريّة حرفا بحرف، من فم الأخ غرّافة، نيابة عن الجميع.

ملحق خير لغرّافة إلى أستاذنا الشيخ أبي اليقظان: «إنّنا لا نقبل أن تأتي للجزائر ما لم يسبقكم أوّل عدد من الجريدة الجديدة، يطلب لكم الاستئذان للدخول» غرّافة.

زكرياء: «هذا الكلام، وإن كان قلّة أدب، إلاّ أنّه من باب الثورة الحمراء، والثورة تبيح كلّ شيء، لأنّ قائله ثائر، نائب عن طائفة من الثوّار: غرّافة، الفرقد، باجو، تعموت، زكرياء. اهـــ». أنا»[5].

إنّ عمله مع عمّه صالح بن يحي بما له من تاريخ نضاليّ؛ وطبيعة عمله التي تقتضي التنقّل المستمرّ بين مدن جزائريّة كثيرة، وبين الجزائر وتونس؛ ودورانه وجماعته "طائفة من الثوّار" في فلك الشيخ أبي اليقظان؛ وتواصله

1- هو باجو حمو بن عمر بن حمو، من مدينة غرداية، كان زميل دراسة سليمان بوجناح في عاصمة الجزائر، ونال بوجناح البكالوريا سنة 1929، ورسب باجو، ووالده كان له محلّ تجاريّ في 13 شارع لالير، بالجزائر العاصمة سنة 1931، وكان على علاقة وثيقة ببوجناح سليمان، فقد وقف بجانبه لدى محاكمته سنة 1931؛ ويبدو أنّه ابتعد عن العمل السياسيّ بعد ذلك، فلم نعثر له على أثر فيما اطّلعنا عليه من وثائق. ينظر: رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1929/06/24، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة؛ ورسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ على لسان باجو حمو، 1931/06/12، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- بتقديم الدال على القاف تعمية، لأنّ هذا اللقب كان مشهورا به، وكان تحت رقابة الإدارة الاستعماريّة، وممّا يؤكّد هذا الأمر رسالة ثانية سابقة لهذه، من الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1929/06/24؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3- الرسالة، 1348/10/03هـــ، 1930/03/04م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- مفدي زكرياء267.

5- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

المستمرّ مع الشيخ الثمينيّ؛ أضف إلى ذلك كونه من قدماء البعثة المزابيّة بتونس في العشرينيّات؛ كلّ ذلك جذب إليه عيون الإدارة الاستعماريّة، فأصبح مراقبا في تنقّلاته المختلفة، وقد تنبّهت الإدارة، وفي أعلى مستوياتها، إلى ما يمكن أن يخفيه هذا العمل التجاريّ من نشاط سياسيّ، وذلك من خلال مراسلتين:

الأولى: من نائب المحافظ بـــ"المديّة" إلى المحافظ، بتاريخ 1929/01/28، ردّا على تعليمات هذا الأخير في البرقية رقم: 1006، المؤرّخة في 1929/01/10؛ وفي هذه الرسالة حديث عن متابعة دقيقة لمفدي زكرياء في رحلته هذه، فيقول التقرير: «غادر "المديّة" في 20 [جانفي]، ليذهب إلى "ريبال" (Reibell)[1]، فنزل بها مساء ذلك اليوم، برفقة السيّد بوجناح إبراهيم. وغادر "ريبال" في 24 [جانفي] متوجّها إلى "الجلفة"، مرورا بـــ "بوغاري"»؛ ويعيّن التقرير الأشخاص الذين التقى بهم، أو نزل عندهم، ثمّ يقول: «لقد استطعت في هذه الأثناء أن أجمع عن هذا الشاب المزابيّ معلومات، أرى من المفيد إطلاعكم عليها: عمره في حدود العشرين، قامته متوسّطة، يلبس نظارات. إنّ زكري بن سليمان -فيما يقال عنه- يملك ذكاء وقّادا، وحصل على تكوين متين في اللغة العربية؛ له ميل طبيعيّ للنشاطات الثقافية: الشعر خاصّة، والصحافة، [...] يراسل عدّة صحف، منها "وادي ميزاب"؛ ووالده، رجل مسالم، من أصل متواضع، كاره لإسهام ابنه في الصحافة العربية. إذا ثبتت هذه الجزئية، ففيها مؤشر أكيد على اعتبار الأب توجّهات ابنه مغامرة وخيمة العواقب»، وفي الأخير يخبره بأنّه سيعلمه لاحقا بما لوحظ على زكري بن سليمان أثناء وجوده بـــ بوغاري[2].

الثانية: من المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم 4471، مؤرّخة في 1929/02/11، عليها عبارة (أمن عامّ)، ونسخة من المراسلة بعثت إلى مدير القضايا الأهليّة (Directeur Des Affaires Indigènes) للاطّلاع، بتاريخ 1929/02/15، والرسالة جاءت ردّا على برقية الوالي العامّ، رقم: 1219، المؤرّخة في 1929/01/18، يقدّم المحافظ فيها تقريرا عن نزول مفدي بمدينة بوغاري، ويخلص في ختامه إلى ما يلي: «يبدو من خلال المعلومات التي تحصّل عليها الإداريّ بمدينة "بوغاري" أنّ زكري بن سليمان لم يكن يهتمّ فقط بعمله التجاريّ، بل كان يجمع إلى جانب ذلك الأموال للحزب الذي ينتمي إليه»[3].

هاتان الوثيقتان تدلاّن على ما لم نقف عليه من وثائق كثيرة، ترصد حركات وسكنات مفدي، فقد ورد في مدوّنة معلومات أنجزها حاكم ملحقة غرداية، موريس فيغورو (Maurice Vigourous)، بتاريخ 27/11/[1939]م، ما يلي: «زكري بن سليمان معدود ضمن المشتبه بهم من حيث النشاط الوطنيّ، منذ 1927»[4].

---

[1]- هي مدينة "الشلالة" اليوم.

[2]- ينظر: الرسالة، بإمضاء: بوليو (Beaulieu)، رقم: 380، 9h32، (CAOM).

[3]- ينظر: الرسالة، بإمضاء: ماثيو (Mathieu)، 9h32، (CAOM).

[4]- ينظر: مدوّنة المعلومات، 9h81، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات، ص01؛ مقابلا بـــ: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة22. والتاريخ المسجّل في الصفحة الأخيرة هو 1937/11/27، وهو خطأ صريح، وصوابه ما أثبتناه؛ لأنّ التقرير يتحدّث في صفحته الأخيرة عن

إنّ هذه المراسلات في خصوص نشاط مفدي زكرياء، في إحدى تنقلاّته، بين مدن صغيرة لا تعرف أنشطة سياسية معتبرة، سواء من الجزائريّين عموما، أو من بني مزاب على وجه الخصوص -يدلّنا على درجة توجّس الإدارة الاستعمارية من طبيعة هذا العمل الجديد لأحد قدماء تلاميذ البعثة المزابية بتونس[1]، لصالح أحد مؤسّسي حزب الدستور التونسيّ، عمّه الشيخ صالح بن يحي. كما أنّ التواريخ التي تبودلت فيها هذه المراسلات بين إدارات مختلفة بداية من أعلى هرم السلطة الاستعمارية، تدلّ على درجة التأهّب لدى الإدارة، وعلى أعلى مستوى، لمواجهة أيّة حركة مناهضة لوجودها، تصدر من المزابيّين عموما، ومن نخبتهم بصفة خاصّة، لما سجّله غوتيي (Gautier)[2] على المزابيين من قدرات في مجال النضال السياسيّ، وذلك في ختام رأيه حول التدابير الواجب اتّخاذها للقضاء على سفر أبناء المزابيين إلى تونس للدراسة سنة 1926، حيث يقول ما ترجمته: «أضيف أنّه مهما كانت التدابير الممكن اتخاذّها، فإنّ المزابيّين سيجدون فيها لا محالة مساسا بحريتهم وبمؤسساتهم. إنّنا نعرف جيّدا دأب المزابيّين، ونعلم بأنّهم لا يتردّدون في توظيف جميع إمكاناتهم لتحقيق مطالبهم. /إذا طبّقنا عليهم إجراءات أكثر تقييدا فيما يتعلّق بتصريح السفر، يجب أن نتوقّع استغلالهم الأمر للتشهير بالظلم -المزعوم- الذي يتعرّضون له من قبل الإدارة؛ وسيجدون فيه -ربّما- ذريعة لحملة صحفية، ولتدخّل البرلمانيين. أرى إذن وجوب التحلّي بالحذر والرصانة، وأنّه لا يتعيّن -في جميع الأحوال- اتّخاذ أيّة إجراءت إلاّ إذا كانت شرعيتها القانونيّة لا تحتمل بأيّ حال من الأحوال أيّ طعن»[3].

ثمّ إنّ المعلومات التي جمعت حول مفدي تدلّ على الاهتمام من جهة بمؤهلات المشتبه به، ممّا يمكّن الإدارة من قياس مدى خطورته إن خاض غمار حركة مناهضة للاستعمار؛ وبنقاط ضعفه من جهة أخرى، كموقف والده من ميوله وتوجّهاته في الحياة، لاستغلالها كورقة ضغط متى تعيّن ذلك. كما أنّ التمييز بين المعلومات الأكيدة المتعلّقة بعمره وقامته، وبين المعلومات المحتمل صحّتها وخطؤها، وينبغي التأكّد منها، يدلّ -بالإضافة إلى كلّ ما سبق- على أنّ آليات المراقبة والاستخبارات في الإدارة الاستعماريّة في تلك الآونة كانت متطوّرة، وفي أعلى مستويات الاحتراف.

سجنه لمدّة عامين، ووجوده حال كتابته ببني يزقن، ويفترض في التاريخ الذي سجّل أن يكون في سجن بربروس.

1- يقدّم الوالي العامّ فيوليت (Viollette)، في رسالته إلى الحاكم العسكريّ لمنطقة غرداية بالأغواط كلافيري (Clavery)، تعليمات وترتيبات عمليّة، تهدف إلى القضاء على سفر أبناء المزابيّين إلى تونس للدراسة، طالبا منه رأيه ورأي الحاكم العسكريّ بملحقة غرداية فيها، وفي معرض حديثه هذا يقول ما ترجمته: «يجب على هذا الضابط [يعني: الحاكم العسكريّ بملحقة غرداية] أيضا أن يسلّط على قدماء الطلبة لدى عودتهم إلى مزاب مراقبة سريّة لكنّها فعّالة، وأن يحيطكم علما بجميع أنشطتهم»، ينظر: الرسالة، رقم: 1937، 1926/04/30، موضوعها: "الطلبة المزابيون"، 22h18، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات، ص02.

2- مدير مصلحة القضايا الأهليّة، والموظفين العسكريين (Le Chef du Service des Affaires Indigènes, et du Personnel Militaire).

3- ينظر: ملاحظات (Note) إلى مدير القضايا الأهليّة عن طريق السيّد الكاتب العامّ للحكومة، رقم: 1411، 1926/03/24، موضوعها: "الطلبة المزابيون"، 22h18، (CAOM)، وثيقة من 04 صفحات، ص03، 04.

غير أنّنا نجد في خلاصة المحافظ أثرا لقضية دعم المزابيّين للحزب الدستوريّ سنة 1920، فقد اعتبر مفدي منخرطا فيه(1)، وعمله وسيلة لجمع الأموال لصالحه؛ والحقّ أنّ مفدي -كما أوضحنا سابقا- لم ينخرط في الحزب في طور الدراسة(2)، ونشكّ في أمر انخراطه فيه في فترة عمله بتونس، ذلك أنّ المزابيّين كانوا في هذه الفترة قد انصرفوا أو كادوا عن العمل في هذا الاتّجاه(3)، بسبب التضييق الذي طال قادتهم، فأُبعد الشيخ أبو إسحاق اطفيش، وأفلَس الشيخ صالح بن يحي، وسُجّل غيرهما في دفتر المشبوهين الخطرين "B"(4)، كما أنّ محاولاتهم فرض احترام فرنسا لمعاهدة 1853، في إطار قضية التجنيد الإجباريّ التي عرفت بدايتها سنة 1912، اصطدمت بعد سنوات من النضال الدؤوب برفض مجلس الدولة المنعقد في 1925/05/15، لمطلب مدن وادي مزاب السبعة إعفاء أبنائهم من الخدمة العسكريّة(5)، بناء على معاهدة 1853/04/22، التي تقتضي -في نظرهم- اعتبار منطقة مزاب بلد حماية كتونس، لا بلد استعمار كسائر مناطق القطر الجزائريّ(6).

حكى الشيخ أبو اليقظان في رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1348/10/13هـ، [1930/03/14م]، عن أوّل احتكاك لــ"طائفة الثوّار" بالإدارة، فقال: «[...] /إنّ الحالة -يا أخي- هنا على غير ما يرام، فقد أخذت الإدارة تكشف النقاب عن وجهها، وتبدو في الميدان وجها لوجه، فقد ألقت أوّل أمس [يعني: 1930/03/12] القبض على 03 من شبابنا: الفرقد، وزكرياء، وباجو، وساقتهم إلى الكوميسارية. أمّا سليمان [بوجناح، الفرقد] فلأمر رسميّ لهم بتفتيش محلّه، للريب المحاطة به، وأمّا حمو وزكرياء فلوجود أوراق لهما، ونشريات ضدّ سياسة الدولة، فاصطحبت سليمان لمحلّه، ففتّشته، فوجدت فيه ما وجدت، من بينه مسدّس تحت وسادته، "والعجوزة حكمتْ سارقْ" فأجرت معه تحقيقا، كان آخره زجّه في السجن؛ وأما الآخران فقد غلّت يديهما بــ"حبيلة" كالمجرمين، فأجرت معهما في إدارة البوليس بحثا، ثمّ أطلقت سراحهما. وهذا على إثر وصول "مسيو برتون" هنا، ليرافع في بعض أحكام صدرت ضدّ بعض زملائهم، وقد ضرب وعدا لإلقاء مسامرة عظيمة في مجتمع عموميّ، فكان إلقاء القبض عليهم وقت الوعد، وبعد المرافعة الأولى المهيّجة، وقد تشوّشت الإدارة هذه الأيّام من هذا جدّا»(7).

1- وهو ما تكرّر بعد ذلك في وثائق الإدارة الاستعماريّة؛ ينظر على سبيل المثال: مدوّنة المعلومات، 27/11/[1939]، 9h81، (CAOM)، ص01.

2- ينظر: ص102، 103.

3- عندما طالب مفدي زكرياء أصحاب الجرائد التونسيّة وصحفيّيها بمعاضدة الشيخ أبي اليقظان، عند تعطيل إدارة الاستعمار لــ "وادي ميزاب"، استشهد بأيادي أبي اليقظان والمزابيّين «في خدمة المسألة الدستوريّة سابقا»، و لم يشر إلى أيّ نشاط لهم في الوقت الحاضر؛ ينظر: ص126.

4- ينظر: التمهيد، ص28، 29.

5- ينظر: نصّ الحكم مترجما إلى العربيّة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، وثيقة من 06 صفحات.

6- تنظر وجهة نظر المزابيّين في هذه المسألة: المسألة الميزابيّة، بإمضاء: ميزابيّ، 1925/07/18، جريدة "الوزير" التونسيّة، س06، ع187، 1344/01/07هــ، 1925/07/28م، ص02.

7- أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

إنّ هذا النصّ يدلّ على أنّ "طائفة الثوّار" هذه كانت قد بدأت تخرج من إطار العمل الوطنيّ المزابيّ، وبدأت تمتزج ببعض الحركات الوطنيّة الجزائريّة، فقد وجدت الإدارة عند مفدي وباجو نشريات ضدّ سياسة الدولة، كما أنّ المحامي "برتون" (Berthon) قد حضر إلى الجزائر ليرافع في بعض أحكام صدرت ضدّ بعض زملائهم، ممّا يدلّ على عقدهم زمالة مع بعض الوطنيّين الجزائريّين، والأرجح أن يكون الفرقد قد جذب زملاءه إلى فلك الحزب الشيوعيّ الجزائريّ آنذاك. والرسالة التي كتبها مفدي إلى أستاذه الثمينيّ، يوم 1930/04/11، وقد سبقت، تبيّن حالته النفسيّة بعد هذه الحادثة، فهي لم تؤثّر فيه سلبا، وإنّما زادته حماسا وإصرارا، وذلك واضح في تعبيره، وخاصّة في استعماله للفظة "الثورة"[1].

تلبّدت الأجواء بينه وبين مستخدمه، عمّه الشيخ صالح بن يحي، عقب هذه الواقعة، فكتب رسالة من غليزان إلى أستاذه الثمينيّ، يروي له ما حدث، ويبيّن موقفه منه، وذلك حيث يقول: «ثمّ إنّ عمّي قد أرسل إليّ جوابا، تجده داخل هذا، يندّد عليّ سيري مع السياسيّين[2]، وينذرني بالانصرام في جوان، ولم يعلم أنّ سبب بحثي أنا إنّما هو بسببه، ولأجل اسم الشيخ صالح بن يحي المهيب[3]، ولم أسع يوما مع أيّ سياسيّ في لائحة، أو غير ذلك أصلا، والدليل على ذلك أنّهم لم يجدوا عندي شيئا. وعلى كلّ حال إن ظهر له أن يكون الانفصال في جوان، فإنّ الآن أحسن، وأرجوكم إرجاع جوابه»[4].

هذا النصّ يؤكّد عدم انخراطه في أيّ حزب من الأحزاب السياسية، لا الحزب الدستوري التونسيّ، ولا الحزب الشيوعيّ الجزائريّ[5]، ويوضّح لنا مدى اعتداده بنفسه، وروحَه الثائرة المتمرّدة، حتّى مع عمّه الذي يكنّ له كلّ الاحترام والتقدير، فإذا أراد الانفصال في جوان، فليكن الآن، وهو إيذان بقرب تركه للعمل مع عمّه، وإن لم يتمّ في القريب العاجل.

انقطعت بعد هذه الواقعة أخبار مفدي إلى بدايات سنة 1931، فلا نجد له من أثر سوى في مغادرته بني يزقن

1- ينظر: ص127.

2- إنّ هذا الموقف من الشيخ صالح بن يحي، إن لم يكن بإيعاز من أخيه، فهو يبدو غريبا، بعد تاريخه المجيد مع الحزب الحرّ الدستوريّ، منذ تأسيسه؛ وإنّنا لا نجد تفسيرا له إلاّ فيما آلت إليه أوضاعه من تدهور كبير بسبب السياسة، خشي معه أن يعيده ابن أخيه إلى دوّامتها، فقد طحنته السياسة، وانتهت به إلى الإفلاس التامّ، حتّى أصبح عاجزا حتّى عن معيشته، على حدّ تعبير الشيخ الثمينيّ؛ ينظر: رسالة الشيخ الثمينيّ إلى والده، 1923/08/13، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3- وهوا ما يؤكّد ما سبق الحديث عنه، من أنّ الإدارة الاستعمارية، كانت تنظر إلى مفدي على خلفية نشاط عمّه السياسيّ لصالح الحزب الدستوريّ، لأنّه يعمل عنده، وعمله يمكّنه من النشاط السياسيّ السريّ.

4- الرسالة، 1930/03/28، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- يقول في الحوار الذي أجراه معه بلقاسم بن عبد الله سنة 1972: «ثمّ دفعني حماسي الوطنيّ الجارف، فكاد يلفنّي الحزب الشيوعيّ بالجزائر، لولا أنّ اللّه سلّم» شاعر الثورة التحريريّة مفدي زكرياء في الصحافة الوطنيّة32.

متوجّها إلى قالمة، في أواخر شهر ماي 1930[1]، ووجوده بالجزائر رفقة "طائفة الثوّار" في بداية شهر جوان[2].

في رسالة لمفدي، بتاريخ 1931/02/08، بعث بها إلى شيخه الثمينيّ، يقول: «وبعد، فإنّني وصلت الوطن على خير وعافية، بعد جولة استغرقت عشرين يوما في تصفية حسابات حضرة العمّ»[3]. ويقول في رسالة ثانية، كتبها يوم 1931/02/26: «[...]البلاد متعطّشة لأعمالكم الكامنة قوّتها في نفسكم العظيمة، تلك الأعمال التي هي خلاف المكتبة، وبيع المجلّدات. الأمّة في بحر عميق من الجهل تنادي بالنّجدة، وتطلب الإغاثة، فإليكم اتّجهت الآمال، وفيكم استقرّ رجاء المصلحين. الأيّام تغدو، والويلات تعدو، وأبناء الأمّة عن سبل الإصلاح صدّوا، فيا ربّ إلى أين المستقرّ؟ ولات حين مفرّ. [...] إنّني أسعى لفتح (قهوة طالمت[4])، وجعلها ناديا للخطب وغير ذلك، مثل جمعية "الوفاق"، عسى أن أجد نجاحا [...]»[5]. وقد امتدّ مكوثه ببني يزقن إلى 1931/03/10[6]، وهي مدّة طويلة نسبيّا بالنظر لعادته في ذلك، يفسّرها –في تقديرنا– توقّفه عن العمل عند عمّه صالح بن يحي، ويدعّمه تفكيره في إنشاء ناد في بني يزقن لإلقاء الخطب، على غرار جمعية "الوفاق" بتونس، ودعوته شيخَه إلى إنجاد أمّته بالأعمال الكامنة التي تزخر بها نفسه العظيمة، وهو ما يذكّرنا بالسؤال الذي طرحه عليه في رسالة سابقة، عند نزوله ببني يزقن: «ثمّ هل إنّكم عازمون على تأسيس مدرسة هنالك أم لا؟؟»[7]، كلّ ذلك ما كان ليفكّر فيه مفدي لو لم يكن خليّ الذّهن عن متطلّبات عمل من الأعمال، ولو لم يكن يبحث عن عمل جديد على مقاسه الخاصّ.

لقد كان من المتوقّع –والحال هذه– أن يقيم في بني يزقن مدّة أطول، غير أنّ واقعة أجبرته على الخروج من بني يزقن مسرعا، يحكيها الشيخ أبو اليقظان في جريدته "المغرب"، في مقال ساخر بداية بعنوانه "عند تدشين المطبعة العربيّة"، وممّا جاء فيه: «بعدما كتبنا كلمتنا في تدشين الحكومة للمطبعة العربيّة[8]، حسبما رآه قراؤنا الكرام في العدد السابق[9]، بلغنا –بكلّ استغراب– أنّ الإدارة العسكريّة قامت في ذلك اليوم، وفي نفس الساعة، وفي عين الدقيقة بتمثيل تلك الرواية نفسها، عينها، بفصولها وأدوارها في غارداية، بدار الوجيه السيّد بوجناح يحي، والد الأديب الفرقد سليمان، وفي بني يزقن بدار البارع السيّد مفدي زكرياء بن سليمان، ولكن هؤلاء

1– استصدر تصريحا بالسفر، يوم 1930/05/31؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1929–1937، أرشيف القيّاد، ص29.

2– جاء في رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1930/06/07: «[...] ويسلّم عليكم أعمود [يعني: تعموت عيسى]، والفرقد، وغرّافة، وباجو، وزكرياء [...]» أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3– أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4– حيّ من أحياء بني يزقن، يقع فيه مسكنه آنذاك؛ و"قهوة طالمت" يعني به: محلاّ عموميّا، يمكن أن يستقبل نشاطات مختلفة.

5– أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

6– استصدر تصريحا بالسفر، بتاريخ 1931/03/10؛ ينظر: سجلّ التساريح 1929–1937، أرشيف القيّاد، ص44.

7– رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثميني، 02 /10/[1347هـ، 1929/03/14م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

8– يعني به فيما يفهم من محتوى المقال: اقتحام المطبعة العربيّة وتفتيشها.

9– هذا العدد 36 مفقود في مجموعة جرائد الشيخ أبي اليقظان بمكتبة الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو، ببني يزقن.

الممثّلون العسكريّون كانوا أبرع وأمهر من زملائهم هنا، فقد أتقنوا أدوارهم إتقانا مدهشا حيث أصبحوا باكرا، والعائلات في فرش هنائها، فاقتحموا منازلها بكلّ جراءة، ودخلوا البيوت، وفتّشوا غرف النوم، وفرش الرقاد، وزوايا وأركان الدور، فروّعوا العقائل، وأزعجوا المخدّرات، وأفزعوا النساء، وأدهشوا الشيوخ، وأرهبوا الصبيان، كلّ هذا لأجل ماذا؟ قيل: لأجل الفرقد سليمان بوجناح، إذ أوهمهم بعض مناجيس الخونة، ومناكيد الوشاة أنّه ثائر على الدولة، فدبّروا هذه الخطّة المنظّمة في يوم واحد، وساعة واحدة، ودقيقة واحدة، وفي خزانات حديديّة من التكتّم، فانقضّوا دفعة واحدة في الجزائر وميزاب[...]»[1]. وسبب هذا التفتيش المتزامن في الجزائر وفي بني يزقن، يتطابق مع ما جاء في رسالة مفدي السابقة: «كان هنا الفرقد لمدّة أربعة أيام، لأجل المفاهمة مع حزبه، في المسألة التي وكّلوه في إجرائها بالجزائر»[2]، ولفظة حزبه تشير إلى عضوية الفرقد في الحزب الشيوعيّ الجزائريّ آنذاك، وعدم انخراطه هو فيه.

ويتحدّث حاكم ملحقة غرداية فيغورو (Vigourous) عن هذه الواقعة، فيقول ما ترجمته: «في 1931، هيئته وعلاقاته جعلته مراقبا عن كثب[3]. وعملية التفتيش التي خضع لها مسكنه ببني يزقن، في 7 مارس 1931، أمكنت من اكتشاف وثائق، لم تدع مجالا للشكّ في أفكاره الوطنيّة. ولعلاقته الوثيقة مع بعض أعضاء الحزب الشيوعيّ، نقل إلى مزاب الجرائد المتطرّفة، مثل "ألجيري أوفريار"(Algérie Ouvrière)، و"لادفانس"(La Défense)»[4]. إنّ هذا التقرير يدلّنا على علاقة وثيقة له ببعض أعضاء الحزب، وعلى رأسهم بالطبع زميل دراسته بتونس الفرقد، سليمان بن يحي؛ وأنّ التفتيش وقع في 1931/03/07، وعندما نقارنه بتاريخ سفره من بني يزقن يوم 10 مارس، ندرك أنّه استعجل سفره إلى عنابة، بتأثير ما ذكره الشيخ أبو اليقظان: «فروّعوا العقائل، وأزعجوا المخدّرات، وأفزعوا النساء، وأدهشوا الشيوخ، وأرهبوا الصبيان»، فإذا كان في جميع أسفاره قد استصدر تصاريحها بضمانة والده، فإنّ سفره هذا هو الوحيد الذي ضمنه فيه أخوه محمد[5]، ممّا يدلّ على تأثّر والده بما حدث، وبالكيفية التي حدث بها،

[1]- جريدة "المغرب"، س01، ع37، الخميس 1349/10/29هـــ، 1931/03/19م، ص02، 03.

[2]- رسالة مفدي زكرياء من بني يزقن إلى الشيخ الثميني، 1931/02/26؛ أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- إنّ هذا الأمر ينطبق -في رأينا- على ملحقة غرداية خاصّة، فلا يمكن للإدارة الاستعماريّة بعمالة الجزائر أن تتركه من غير رقابة دقيقة بعد توقيفه سنة 1930، وبحوزته نشريات ضدّ الدولة. وقد لاحظنا أثرا لتشديد الرقابة عليه في ملحقة غرداية، في امتداد دائرة جمع المعلومات إلى القائد، وهو آخر من يلجأ إليه في ذلك، مخافة تسرّب الخبر إلى المعنيّين بالمراقبة، فكان الحاكم العسكريّ يراسل القائد على سبيل الاستعلام عنه، متى حضر؟ ومتى سافر؟ وأين هو موجود الآن؟ ما هي المعلومات عن عائلته؟ ووضعيته الاجتماعيّة والاقتصاديّة؟ إلى غير ذلك من الأسئلة العامّة؛ وأوّل مراسلة تخصّ مفدي، يقول فيها القائد بعد إصلاح عباراته قدر الإمكان: «بحسب ما أمرتني في الرسالة، عدد 72، ليوم 06 ماي الجاري، لنخبرك باليوم الذي سافر فيه المسمّى بن الشيخ زكري بن سليمان، من بني يزقن. أخبر سعادتك أنّ المذكور سافر ليلة التاريخ، والسلام» سجلّ البريد الصادر، 1926-1932، مراسلة رقم: 165، 1931/05/10، أرشيف القيّاد.

[4]- ينظر: مدوّنة المعلومات، 27/11/[1939]، 9h81، (CAOM)، ص01؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة22، و24.

[5]- كان النظام الساري المفعول في ملحقة غرداية، إذا سافر أحدهم، يجب عليه تقديم اسم ضامن له إلى حين عودته، يدفع عنه مختلف الضرائب

فنتجت عنه جفوة بين مفدي ووالده، فسارع إلى السفر، تجنّبا لتكرار الصدام معه، فتتّسع رقعة الخلاف بينهما[1].

يبدو أنّ مفدي عاد إلى بني يزقن للمرّة الثانية سنة 1931، في أواخر شهر أفريل، أو أوائل ماي[2]؛ لغرض يفصح عنه فيغورو (Vigourous) في مدوّنة معلوماته عن مفدي سنة 1939، بعد حديثه عن تفتيش منزله في مارس 1931: «في نفس السنة، جاء إلى مزاب، حيث التقى بتاجر متجوّل إيطاليّ ذي هيئة مشبوهة، السيّد دلفينو (Delfino)، كانت تجمعهما شراكة في تجارة للعطور، وذلك ليتمكّن بسهولة من القيام بالدعاية الشيوعيّة»[3]؛ وتعليل فيغورو لإقامة مفدي لهذه الشراكة مبالغ فيه في تقديرنا، فقد ارتبط مفدي بهذا الحزب عن طريق الفرقد لا غير، ولم يدم هذا الارتباط، فلم يظهر له أثر بعد وضع الفرقد تحت الرقابة الخاصّة بقرار حكوميّ، مؤرّخ في 1931/06/24[4]. ويقول حاكم ملحقة غرداية بينو (Pinon)، في شأن هذه الشراكة، في رسالته إلى الحاكم العسكريّ بالأغواط، بتاريخ 1937/04/03: «أظنّ من المفيد أن أذكّر بأنّ مفدي زكرياء في 1932، كان على علاقة مع المدعوّ دلفينو أوريليا (Delfino Aurélia)، من أصل إيطاليّ، تاجر متجوّل، مخزن تجارته موجود بشارع لا لير (La Lyre) بالجزائر»[5].

وعليه، فيكون مفدي قد اتّصل بهذا الإيطاليّ في هذه السفرة إلى مزاب، واتّفقا على هذه الشراكة، وتمّ الأمر بعد ذلك رسميّا في الجزائر، بعنوان "**المعمل العربيّ لتقطير العطورات الصافية**"، فكانت هذه الشراكة الخطوة الكبرى التي خطاها مفدي في ميدان العمل نحو الاستقلاليّة بعمله، وتحقيق ذاته فيه، بعيدا عن التبعية لأيّ كان.

لقد لاحظنا على مفدي منذ عودته من تونس، وفي هذه السنوات الأولى من حياته العمليّة، إلى نهاية سنة 1931، ارتباطه بالمجموعة، وعدم استقلاليته، سواء في ميدان العمل السياسيّ والاجتماعيّ والثقافيّ، وكان محتشما؛ فقد كان يحوم في فلك شيوخ البعثة، أبي اليقظان، والثمينيّ؛ أو ضمن مجموعة "طائفة الثوّار" كما أسماها، فانساق معها وراء سليمان بوجناح إلى التعاطف مع الحزب الشيوعيّ الجزائريّ. إذا كان هذا المسلك من مفدي، يفسّره – في رأينا– حداثة سنّه، فإنّ طبع التمرّد والثورة فيه، وهمّته العالية، واعتداده بنفسه، ما كان ليتركه يقنع بأداء هذا

المفروضة على سكّان الملحقة متى حان موعدها، ووجبت عليه.

1– ويجب أن يكون على ذكر منّا ما حدث لوالد مفدي في أواخر سنة 1921، ينظر: ص79؛ بالإضافة إلى الملاحظة التي سبقت في تقرير نائب المحافظ بـــ"المديّة"، عندما تحدّث عن كره والده لإسهام ابنه في الصحافة العربية، واعتباره توجّهات ابنه مغامرة وخيمة العواقب، ينظر: ص128.

2– وغادرها في العاشر منه، بحسب مراسلة القائد؛ ينظر: ص133 ها03. ولا أثر لتصريح سفر خاصّ بمفدي في هذا التاريخ، في سجلاّت تساريح السفر؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1929–1937، أرشيف القيّاد، ص47-50.

3– ينظر: مدوّنة المعلومات، 27/11/[1939]، 9h81، (CAOM)، ص01؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة24.

4– «وضع تحت الرقابة الخاصّة لسنتين، في بنيار (Bennières)، بالمنطقة العسكرية لعين الصفراء، لنشره مقالات اعتبرت محاولة للمساس بالدولة الفرنسية (القرار الحكومي بتاريخ 24 جوان 1931)»؛ ينظر: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة85.

5– ينظر: الرسالة، رقم: 54/C، موضوعها: سفر مفوّضي "الشبيبة الوطنية الجزائريّة" إلى تونس، 9h58، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات، ص02؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة24.

الدور طويلا؛ فكان استقلاله في العمل التجاريّ، في الشهور الأخيرة من سنة 1931، تمهيدا لاستقلالية أكبر في المسار الذي سيختاره لحياته في المجالات الأخرى، بما يتناسب مع ميوله وتوجّهاته في الحياة، بداية من سنة 1932، لتصبح هذه السنة منعرجا حاسما في حياته.

الباب الثاني:
فترة النضال الوطنيّ والسياسيّ 1932ـ 1937

الفصل الأوّل: بدايات العمل الوطنيّ

شركة المعمل العربيّ:

أنشأ مفدي زكرياء بمعيّة عبد الجبّار عمر[1] في السداسي الأخير من سنة 1931، شركة أسماها "زكرياء وعبد الجبّار"، مجال نشاطها كما هو محدّد في إشهار شركتهما على رسائلها وأظرفتها: «نيابة تجارية، كومسيون، إشهار تجاريّ (Représentation, Commission, Publicité)»، وكان مستودعها في شارع لالير (La Lyre)، رقم: 42، الجزائر[2]. [ينظر: الملحق603، و604]

وكانت أوّل نيابة لهذه الشركة خاصّة بــ "المعمل العربيّ" الألماني، لتقطير العطور الصافية، وظهر أوّل إشهار لها بجريدة "النجاح"، في 1931/09/13[3]؛ ثمّ في جريدة "النور" للشيخ أبي اليقظان، بداية من العدد الثاني منها، في 1931/09/22، وصورته كالآتي:

Agence générale de l'Afrique du nord Zakaria & Abdeljebar

ALGER-42 Rue de la Lyre 42-ALGER

Laboratoires Arabia
Pour l'Industrie de Matières
Aromatique
Toulon sur mer

المعمل العربي

Fabric Atherischerczle
Essenzen Chemisc Her
Création de Neuhaus
Téléphone 84-59

لتقطير العطورات الصافية –ألمانيا–طولون–باريس–سترسبورج–الأبيار–الجزائر

نائبه الوحيد بشمالي إفريقيا زكريا وعبد الجبّار

نهج لالير رقم 42 الجزائر

«إنّ من أراد أن يعرف حقيقة نبوغ الأوروبّيّين واقتدارهم العجيب على إتقان التجارة فليكن من حرفاء المعمل العربيّ الوحيد الذي بهر العقول بحسن بضاعته الخالية من الغشّ وانخفاض أسعاره وتسهيلاته المدهشة حتّى إنّ التاجر يظنّ أنّ المعمل ملك من أملاكه بالإحسان النادر والمجاملة التامّة وإتقان العمل ولقد فاز المعمل العربيّ

1– من مدينة مليكة، من مدن وادي مزاب. وفي تقرير من أمن عمالة الجزائر، عرّفه كالآتي: «يسكن 12 شارع نمور (Nemours)، كان شريكا لمفدي، في متجر مثلّجات. ولكنّه لا يشاركه آراءه السياسيّة [...] أخوه الشيخ عبد الجبّار، قاضي الإباضية بالجزائر، ألزمه بحلّ شراكته مع مفدي، وعليه يكون العقد بينهما قد أنهي قبل دخول مفدي السجن» ينظر: التقرير رقم: 6759، 1937/10/21، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 4I3، (CAOM)؛ وينظر: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة25 ها24.

2– ينظر: رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1932/01/01، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وهي أوّل رسالة يظهر عليها هذا الإشهار.

3– ينظر: جريدة "النجاح"، س13، ع1205، 1350/04/29هـــ، 1931/09/13م، ص03؛ وقد تكرّر هذا الإشهار في العددين المواليين، وهما: 1206، و1207، ثمّ اختفى تماما. ويلاحظ أنّ جريدة "النجاح" طبعت الإعلان، من غير حذف للتوجيهات التي يتضمّنها، من مثل كتابة عبارات معيّنة بالقلم الغليظ، بالإضافة إلى طلب إرسال الجريدة على عنوان المعمل.

بشهادات أكبر علماء الكيمياء في العالم كما فاز بثقة جميع حرفائه في أقسام الدنيا الخمس وهو مستعدّ لإنشاء معامل كهربائيّة جديدة في أرض له بالأبيار الجزائر وهو الاختصاصيّ في تقطير الأزهار الذكيّة على اختلاف أنواعها واستخراج العطور الشرقيّة الفائقة كما أنّه مستعدّ لصنع أنواع العطورات كلّها في الحجم الكبير بأسعار زهيدة فكاتبوه أيّها الكرام وشرّفوا محلّه تجدوا ما يطيب به الجنان وليس الخبر كالعيان»[1].

واستمرّ ظهور هذا النصّ الإشهاريّ في الصفحة الرابعة من جريدة "النور" إلى العدد 06، حيث أضيف إليه في آخره ما يلي: «له نوّاب في جميع العالم الإسلاميّ-سطمبول-القاهرة-كانو-أديسابابا-بغداد-طهران-الهند-جيبوتي-طرابلس-دار السلام بزنجبار-تونس-الجزائر-فاس»[2].

وكان عمل مفدي وشريكه في إطار هذه النيابة عن "المعمل العربي" يقتضي بيع مختلف أنواع العطور التي ينتجها المعمل، وترويجها في جميع أنحاء القطر الجزائريّ؛ والعمل على بيع أسهم شراكة في المعمل الجديد لتقطير العطور، الذي سيبنيه -بحسب الإشهار- "المعمل العربيّ" في أرض له بمنطقة الأبيار، بالجزائر.

كان هذا العمل مناسبا لمفدي بما يوفّره له من حرية في الحركة، في عرض عطور "المعمل العربيّ" على الزبائن المحتملين، والترويج لهذا المعمل الجديد، وبيع أسهمه، فهو ما يتوافق مع طبيعة تكوينه النفسيّ، بينما كان شريكه عبد الجبّار مستقرّا بمستودع الشركة بالجزائر.

وبداية من العدد 07 من جريدة "المرصاد" لعبابسة الأخضريّ، ظهر إشهار جديد لنيابة شركة "زكرياء وعبد الجبّار" عن مكتبة "الاستقامة" للشيخ الثميني، بتونس، وفحواه ما يلي: «زكريا وعبد الجبّار. نهج لالير رقم 42 الجزائر. تيليفون: 59-84: النائب الوحيد للعطورات الألمانيّة، أصبح أيضا نائبا لمكتبة الاستقامة الكبرى، الشهيرة بتونس، للشيخ الثمينيّ، المخصوصة ببدائع مقتنياتها من الكتب العصريّة الحديثة بكلّ الطبقات، والمجلاّت الشرقية الراقية، والمعروفة بحسن معاملتها، ورفق أسعارها، وغزارة موادّها»[3]. أمّا أوّل أثر لهذه النيابة في رسائل مفدي، فنجده في رسالته إلى شيخه الثمينيّ، في فاتح جانفي 1932، حيث يقول: «وأرجو أن تعجّلوا في إرسال الكتب، خصوصا المدرسيّة، إذ الحاجة بها آكد»[4].

1- جريدة "النور"، س01، ع02، 1350/05/09هـ، 1931/09/22م، ص04.

2- جريدة "النور"، س01، ع06، 1350/05/07هـ، 1931/10/20م، ص04. ظهر في جريدة "النجاح" بتاريخ 1931/11/27، مقال انتقاديّ لمشروع "المعمل العربيّ"، اعتمد فيه صاحبه على إشهاره، بما يحمله من طابع المبالغة والتهويل، غير أنّه لم يحدث أثرا يذكر، ممّا يفسّر صدوره بإيعاز ممّن توجسّ خيفة من نزول منافس قويّ له في السوق؛ ينظر: المنبر العامّ: معمل عربيّ، بإمضاء: منتقد؛ جريدة "النجاح"، س13، عدد 1237، 1350/07/16هـ، 1931/11/27م، ص02.

3- جريدة "المرصاد"، س01، ع07، 1350/10/11هـ، 1932/02/19م، ص04. يقول مفدي في رسالته إلى شيخه الثمينيّ: «وقد أعلنت عن المكتبة بـ"المرصاد"، أرجو أنّه سرّكم. أمّا ثمنه فسيكون على كلينا، والله المستعان» الرسالة، 1932/03/18، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

بذل مفدي جهودا كبيرة في عمله الجديد، فتعدّدت رحلاته، لبيع عطوره، وللترويج للمشروع الجديد، ولإيجاد مساهمين جدد فيه، فنجده يقول في رسالة إلى شيخه الثمينيّ: «وبعد، فلقد كنت في سفرة بعمالة وهران، استغرقت نحو خمسة عشر يوما، رجعت منها بعائدة ربّما كانت مسلّية لبعض الهموم التي نعانيها من جرّاء توقّف الحركة التجارية، واشتداد الأزمة، واكفهرار المستقبل التجاريّ أمام التجّار، إلاّ أنّنا -والحمد لله- أحسن حالا من غيرنا بكثير، فنحمد الله وحده على ذلك»[1]، وهو ما يدلّ على حسن أحوال شركته في هذه المرحلة نسبيّا، مقارنة بالأزمة التي كان يعاني منها التجّار عموما، والتجّار المسلمون على وجه الخصوص.

إنّ هذه الرحلات المتعدّدة مكّنته من التردّد على مزاب في سنة 1932، فزار بني يزقن في هذه السنة أربع مرّات على غير عادته: سافر إلى مزاب في أواخر جانفي سنة 1932[2]، بمناسبة شهر رمضان وعيد الفطر المبارك، ولم يغادر بني يزقن إلاّ في 1932/03/05[3]، ونجده في بني يزقن في أواسط شهر أفريل للاحتفال بالعيد الأضحى بين أهله وذويه[4]، ثمّ عاد مرّة ثالثة إلى بني يزقن في شهر نوفمبر من نفس السنة[5]، ورابعة في شهر ديسمبر[6].

هذا النشاط الكبير في سبيل إنجاح هذه الشراكة، وإنجاح مشروعها، كان على حساب نيابته عن مكتبة الاستقامة بتونس، على الرغم من حرصه الشديد على بقائها ودوامها، فيقول في رسالة لشيخه الثمينيّ: «أمّا مسألة الكتب فعبد الجبّار يمدّ رجليه فيها على قدر الكساء، وعند قدومي للجزائر، أشتغل بها إن شاء الله صباح مساء»[7]، ويقول في أخرى: «وأمّا سير الكتب هنا بالعاصمة فحسن في المستقبل، أمّا الآن ونحن في دور الإشهار فقد بدأت المسألة تأخذ صبغة قد تكون جدّية إذا وقع الاعتناء والإشهار الكافي من الطرفين، وما ذلك على

1- الرسالة، 1932/08/04، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ينظر: رسالة مفدي زكرياء في بني يزقن إلى الشيخ الثمينيّ، 1350/10/04هـ، [1932/02/11م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. يقول فيها: «لدي نحو الأربعة عشر يوما بمزاب».

3- ينظر: سجلّ التساريح، 1929-1937، أرشيف القيّاد، ص65.

4- ينظر: رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1932/04/22، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وجاء فيها ما يلي: «وبعد فقد سافرت من الجزائر يوم 08 من هذا الشهر لخدمة الخطّ الجنوبيّ من عمالتي الجزائر ووهران، وصادف أن كنت قريبا من الوطن أيّام العيد، فانتهزتها فرصة (كعادتي) لقضاء أيّام العيد بين عائلتي، [...] والكلّ يبلّغونكم عاطر التسليمات وأحرّ التهاني بهذا العيد الدمويّ السعيد».

5- ينظر: سجلّ البريد الصادر، 1932-1935، المراسلة رقم: 543، 1932/11/09، أرشيف القيّاد؛ فقد ورد فيها ما يلي: «وقد ذكر أنّه يصل [يعني: مفدي زكرياء] إلى مزاب يوم 12 نوفمبر الجاري، والسلام».

6- تحدّث حاكم ملحقة غرداية في رسالته إلى الحاكم العسكريّ لمنطقة غرداية بالأغواط، بتاريخ 1932/12/06، عن عودة مفدي توّا إلى مزاب؛ ينظر: الرسالة، بإمضاء: فيغورو (Vigourous)، رقم: 72/S، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02. ولا نجد لسفرة أفريل، ولا لسفرتي نوفمبر وديسمبر من بني يزقن أثرا في سجلّ التساريح؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1929-1937، أرشيف القيّاد، ص68-70 لشهر أفريل 1932، وص80-83 لشهري نوفمبر وديسمبر.

7- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1350/10/04هـ، [1932/02/11م]؛ أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

همّتكم ونشاطنا بعزيز، ولله الأمر من قبل ومن بعد»[1]، وفي ثالثة: «وإنّا نرجوكم أن تعرّفونا بأسوام "النظرات"، وترسلوا لنا "مصرع كليوباترا"، وروايات أخرى لشوقي شعرية، وكتاب "حياة الشرق"، ومختلفات أخرى من الكتب، فإنّ الكمية من الكتب التي عندنا إنّما يمكن إخراجها بوجود كتب أخرى حذاءها، ليأخذ بعضها بخناق بعض، وإنّا سنبذل إن شاء الله عزما وجهدا جديدين قويّين لترويج الكتب أكثر من ذي قبل، سيما حين يتمّ طبع القائمة التي هي المشكلة الوحيدة التي عرقلت سير الكتب بنظام مطّرد»[2]. إنّ هذه المقاطع من رسائل مفدي، في خصوص نيابته عن مكتبة الاستقامة، تدلّ على تعثّرها، لأنّ مفدي كان منشغلا بنيابته عن "المعمل العربيّ"، متفرّغا لها، بما تقتضيه من تنقلاّت متعدّدة ومستمرّة، وعدم استطاعة شريكه عبد الجبّار التكفّل بها، ولذلك نقرأ في رسالة للشيخ الثمينيّ أرسلها إلى مفدي بعد 1932/09/30، يقول فيها: «طلبت الكتب مرارا، وتقول أنّه لا يمكن ترويج ما بيدك إلاّ بغيرها، وهذا غير منطقي، فضلا عن أن يكون معقولا، إذ لا يعقل أن تكون الكتب تروج في بني يزقن، أكثر ممّا تروج في الجزائر العاصمة. في مدة ثلاث سنوات، روّج ابن باديس ما يقرب من 16 ألف كتبا، وهذا عام على وشك التمام في الجزائر، ولم يصل مقدار المبيع من الكتب التي بيدك ألف فرنكا، وهذا غريب جدا. أنا ثقتي فيك من جهة المالية كبيرة، ولكنّ المسألة لا تخلو من أحد هذه الأوجه: إمّا أن تكون مقصّرا في ترويج الكتب، أو قاصرا عنها، أو تكون الجزائر محكوما عليها بالإعدام من سجلّ اللغة العربية»[3].

يقول مفدي في رسالة إلى شيخه الثمينيّ، مؤرّخة في 1932/03/18: «لقد وقع استدعائي للمكتب أربع مرات، وفُتِّش مستودعي بالعاصمة الجزائرية، وأنا غائب، إلى غير ذلك ممّا سنرجيه لفسحة أخرى؛ والذي يهمّني الآن أن أقوله هو أنّ جملة تلك المجهودات لم تأت لهم بشيء، إلاّ كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ [فاه] وما هو ببالغه»[4]؛ ونجد أثرا لهذه الاستدعاءات في أرشيف قيّاد بني يزقن، ففي مراسلة من القائد إلى حاكم ملحقة غرداية، نقرأ ما يلي: «تابعا للجواب رقم 96: رجع المسمّى زكري بن سليمان أمس من القرارة، وإنّي أمرته أن يحضر عندك اليوم صباحا في المكتب، بحسب الرسالة رقم: 33، والسلام»[5].

تحدّث الوالي العامّ للقطر الجزائريّ في رسالته إلى الحاكم العسكريّ بالأغواط، عن مراسلة من الحاكم العسكريّ لملحقة غرداية فيغورو (Vigourous)، بتاريخ 1932/03/24، رقم: N°8/S، وموضوعها: بيان بعض

1- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1932/03/18، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1932/07/09، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- مسوّدة رسالة الشيخ الثمينيّ إلى مفدي زكرياء، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وقد قدّرنا كتابتها بعد 1932/09/30، لأنّ الشيخ تحدّث فيها عن ردّ مفدي زكرياء على الشيخ مختار بن محمود في "النجاح"، وكان ذلك في جريدة "النجاح"، س14، ع1361، 1351/05/28هـ، 1932/09/30م، ص03.

4- أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- سجلّ البريد الصادر، 1926-1932، المراسلة رقم: 102، 1932/02/29، أرشيف القيّاد.

تصرّفات وسلوكات المدعوّ زكري بن سليمان، من بني يزقن. هذه المراسلة أرفقها حاكم الأغواط برسالة منه إلى الوالي العامّ بتاريخ 1932/04/01، وقد اعتمد مضمونها ليطلب من الوالي العامّ تسجيل مفدي زكرياء في الدفتر "B"، تطبيقا للإجراءات الواجب اتّخاذها في حقّ من ثبتت فعلا خطورته على الأمن الداخليّ، بحسب الرسالة الرسميّة، رقم: 5781، ليوم 1923/12/26[1].

وفي تقرير مدير أمن عمالة الجزائر، بتاريخ 1933/05/04، تحدّث عن تقرير سريّ، أرسله يوم 1932/02/27، حاكم ملحقة غرداية فيغورو (Vigourous)، إلى القائد العسكريّ لمنطقة الأغواط، تحدّث عن إقامة دلفينو بغرداية ستة أيّام، وكانت له اتّصالات مستمرة بـــ مفدي زكرياء، والعنق محمد، وابن الحاج عمر، وتاعموت عيسى[2].

لم نقف على الرسالتين والتقرير المذكورين آنفا، ولم نعثر على أثر لتحركّات خطيرة، تستوجب إدراج صاحبها في الدفتر "B"، سواء في المعلومة المقتبسة سابقا من تقرير فيغورو، أو في وثائق المعلومات المنجزة حول شخصية مفدي زكرياء ونشاطه الوطنيّ بعد هذا التاريخ[3]؛ وعليه، فإنّ الارتياب في أمره كان منشؤه -في تقديرنا- تنقلاّته المستمرّة في عمالتي الجزائر ووهران، بالإضافة إلى مثيلاتها بين قرى وادي مزاب، عند حلوله ببني يزقن، فلقد رسخ في أذهان الإداريين، خاصّة بملحقة غرداية، أنّ هذه المهنة التي تكفل له التنقّل باستمرار، «ليست -في الحقيقة- سوى غطاء يمكّنه من التنقّل بحرية تامّة»[4]، ولا نستبعد دور الوشايات في ذلك، ممّن اعتبر مشروع مفدي الجديد خطرا على تجارته، كما أشرنا إليه سابقا، وسيتأكّد لاحقا[5].

لم يوافق الوالي العامّ حاكم الأغواط على تسجيل مفدي زكرياء في الدفتر "B"، «لأنّ رسالة القائد فيغورو (Vigourous)، التي أرسلها لكم بتاريخ 1931/05/02، رقم: 44/C، وبعثتم نسخة منها إليّ في 05 ماي، رقم: 101/C، جاء فيها أنّ المدعوّ زكري [بن] سليمان -بحسب المعلومات التي جمعها- لم يسجّل عليه في مزاب أيّ تصرّف مشبوه منذ 1929، /وأضاف أنّ إلقاء القبض على بوجناح، والتفتيش الذي قمنا به في منزله، أثّر فيه تأثيرا بالغا»، وفي المقابل طلب منه: «إعداد "ورقة من الفئة الرابعة"(Feuille de 4éme catégorie) خاصّة به، كما هو

1- ينظر: الرسالة، رقم: 5132، 1932/11/22، موضوعها: مراقبة الأهالي: في خصوص زكري بن سليمان، من بني يزقن، 9h96، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

2- ينظر: التقرير، رقم: 1887، 1933/05/04، موضوعه: مخابر العطور "العربية"، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر على سبيل المثال: مدونة معلومات، بإمضاء: فيغورو (Vigourous)، حاكم ملحقة غرداية، 1939/11/27، 9h81، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات.

4- ينظر: رسالة حاكم ملحقة غرداية بينو (Pinon) إلى الحاكم العسكريّ بالأغواط، رقم: 54/C، 1937/04/03، موضوعها: سفر مفوّضي "الشبيبة الوطنية الجزائريّة" إلى تونس، 9h58، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص02؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة24.

5- ينظر: ص149.

مسطّر في قانون 11 أوت 1880، رقم: 25»[1]؛ وممّا يدلّ على تطبيق هذا الأمر إشارة حاكم ملحقة غرداية فيغورو (Vigourous) في رسالته إلى الحاكم العسكريّ لمنطقة غرداية بالأغواط، إلى مراسلة الوالي العامّ، وما ترتّب عليها، وذلك حيث يقول متحدّثا عن مفدي: «لقد كان موضوع مراسلات عديدة، آخرها رسالتكم رقم: 176/S، ليوم 1932/11/24، تبعا للرسالة الحكوميّة، رقم: 5132، والمؤرّخة في 1932/11/22»[2]، وهي عين رسالة الوالي العامّ المذكورة آنفا؛ وفي وثيقة المعلومات الخاصّة بمفدي زكرياء، والمؤرّخة في أواخر سنة 1939، يقول فيغورو: «أُنجزت "ورقة من الفئة الرابعة" خاصّة بمفدي، في شهر ديسمبر من سنة 1932»[3].

في هذه الفترة اتّسع نطاق نشاطه، فلم يقتصر على الوسط المزابيّ، والقضيّة المزابيّة، فقد انتخب في أواسط سبتمبر من سنة 1932 عضوا استشاريّا في "الجمعية الإسلاميّة لمقاومة الكحول"[4]؛ وأسهم في النشاطات الأدبيّة التي كانت تعقد في نادي الترقّي، من مثل مشاركته في حفلة تكريم فرقة فاطمة رشدي، وفي الاحتفال بالمولد النبويّ، فكان ذلك تمهيدا لمشاركته الفعّالة في المؤتمر الثاني للطلبة المسلمين بإفريقيا الشماليّة[5]، المنعقد في نادي الترقّي من 25 إلى 1932/07/28[6]، وكان على صلة وثيقة بالنخبة الشابّة

1- «والتي تمّ التذكير بتعليماته مرّات عديدة، خاصّة في 25 جانفي 1895، وفي 13 جوان 1898، و19 مارس 1926»؛ ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى حاكم الأغواط، رقم: 5132، 1932/11/22، 9h96، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01، 02. وفيها عرّف "الفئة الرابعة" كالآتي: «الفئة الرابعة تضمّ جميع الأهالي الذين يجب إخضاعهم لرقابة خاصّة، في المجالين السياسيّ أو الدينيّ»02.

2- ينظر: الرسالة، رقم: 72/S، 1932/12/06، 9h14، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص02.

3- ينظر: مدونة معلومات، بإمضاء: فيغورو (Vigourous)، 1939/11/27، 9h81، (CAOM)، ص02.

4- وقد تمّ انتخاب محمد خوجة الخيل رئيسا، وعبد الرحمن الجيلالي أمين مال، وجوكلاري محمد الشريف كاتبا عامّا، وعلي سلمي، وأحمد الأندلسيّ، وعبد الرحمن البردعيّ، بالإضافة إلى مفدي أعضاء مستشارين. ينظر: الجمعية الإسلاميّة لمقاومة الكحول، جريدة "النور"، س02، ع50، 26 جمادى الثانية[كذا، والصواب: الأولى]1351هـ، 1932/09/27م، ص02؛ وينظر أيضا: الجمعية الإسلاميّة لمقاومة الكحول بالجزائر، بإمضاء: مكاتبكم، جريدة "النهضة"، س09، ع2874، 1351/05/28هـ، 1932/09/28م، ص02. وأغلب الظنّ أنّ المقال لمفدي زكرياء، فقد كان مكاتب "النهضة" التونسيّة من الجزائر في تلك الفترة، وأُرّخ بيوم 1932/09/18.

5- أو جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، اعتُمدت في 1927/12/15، مقرّها بباريس، في 95 شارع سان جيرمان (Saint Germain)؛ كشفت سنة 1930 عن موقفها ضدّ الاستعمار الفرنسيّ، عندما أعلنت عن رفضها قبول الطلبة المتجنّسين بالجنسية الفرنسيّة في صفوفها؛ ينظر: الوضعية السياسية والاقتصاديّة، من 16 إلى 1934/10/31، ملحق: مسائل المسلمين، 2- جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، مديرية القضايا الأهليّة، الممثّلية العامّة للجمهورية الفرنسيّة بالمغرب، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. ويقول أبو القاسم سعد الله عن هذه الجمعية: «وكان من بين أعضائها عدد من زعماء المغرب العربيّ في المستقبل [...] ساهم بفعالية في الحياة السياسيّة والثقافية لبلاده، وقد اتّخذت هذه الجمعية عدّة مواقف من التجنّس واللغة والتعليم والمرأة، جديرة بالتأمّل والدرس»الحركة الوطنيّة الجزائريّة 1930-1945، د. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت-لبنان، ط4: 1992، ج3 ص107.

6- ورد في تقرير مدير الأمن العامّ بالجزائر، بتاريخ 1932/12/08، ما يلي: «هذه الميول [يعني: الوطنيّة] اتّضحت في أشعاره التي ألقاها هذا الشابّ المزابيّ في الآونة الأخيرة، في نادي الترقّي، في مناسبات مختلفة، وخاصّة إبّان المؤتمر الأخير للطلبة المسلمين» ينظر: مدوّنة إلى السيّد مدير القضايا الأهليّة، رقم: 11647، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02.

المثقّفة في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، فكان ممّن وجّه إليهم صاحب جريدة "المرصاد"، عبابسة الأخضريّ، الدعوة لمحاربة الطريقة العليويّة[1].

أمّا في إطار العمل الوطني المزابيّ خاصّة، فقد أسهم في هذه السنة، في بعث جمعية "الوفاق"[2]، بعد طول فتور[3]، «فبقيت الجمعية كذلك إلى أن أذن الله بإحيائها من جديد، بصفة جدّية، في أوّل شهر ديسمبر سنة 1932[4]، فكان لتجديد عهدها تجديد لفتح جديد في عالم النهوض الفكريّ الميزابيّ، وفاتحة عصر جديد من عصور اليقظة والحياة، [...]فكانت باكورة أعمالها، في عهد نشورها، إقامة حفلة بديعة، بقاعتها الجميلة، للوطنيّ المقدام، الأخ الفرقد سليمان، بمناسبة عودته من منفاه، ببني عبّاس[5]؛ وبمناسبة دخول "النور" في سنتها الثانية»[6]. ويغلب على ظنّنا أنّه وقع إحياء هذه الجمعية بنفس أعضاء أوّل مجلس إداريّ لها، مع تعديل بسيط هو تعيين باسعيد عدون بن بكير كاتبا عامّا للجمعية، عوضا عن الفرقد سليمان بوجناح[7]، وكانت مهمّة أعضاء هذا المجلس التحضير لانتخاب مجلس إدارة جديد لها مع مطلع سنة 1933؛ وقد تمّ ذلك يوم الإثنين 1933/01/22،

1- ينظر تفصيل نشاطاته الأدبيّة هذه: الباب الخامس، ص469-474؛ و486، 487.

2- «في فيفري 1929 أسّست الجالية الميزابيّة بعاصمة الجزائر جمعية باسم جمعية "الوفاق"، تحت رئاسة المدرّب المحنّك السيّد خالدي سعيد بن بكير، وصادقت الحكومة إذ ذاك على قانونها الأساسيّ، ونشر الإعلام بها في الجريدة الرسميّة في 13 مارس 1929» جمعية الوفاق، جريدة "النور"، س02، ع63، 1351/08/28هـ، 1932/12/27م، ص02؛ وكانت تشكيلة مجلس إدراتها كالآتي: خالدي سعيد رئيسا، وبسخواض بكير نائبا له؛ وبوجناح سليمان كاتبا، ويحي بن بحريز كاتبا مساعدا؛ ومحمد بن قاسم أمينا للمال، ومحمد بن الحاج بكير أمينا للمال مساعدا؛ وموسى بن بلحاج، وغرّافة إبراهيم، وبكير بن باحمد بن بانوح، وتاعموت عيسى، أعضاء مستشارون؛ ينظر: وصل التصريح بالجمعية (Récépissé de déclaration)، رقم: 1516، الصادر من محافظ عمالة الجزائر، 1929/02/14، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به التصريح بإنشاء الجمعية، وثيقة من صفحة واحدة، والقانون الأساسيّ لها، وثيقة من صفحتين، أرشيف رئيس الجمعية خالدي سعيد بن بكير ببني يزقن.

3- «ثمّ حدث فتور في الجمعية، بسبب إبعاد الحكومة لكاتبها العامّ، الوطنيّ الكبير، السيّد الفرقد سليمان بوجناح، ولسفر رئيسها المقدام» جمعية الوفاق والاحتفال بالإفراج عن الفرقد، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س10، ع2967، 1351/09/17هـ، 1933/01/14م، ص02.

4- ذكرت الإدارة الاستعماريّة أنّ تاريخ عودة جمعية "الوفاق" إلى النشاط كان في 1932/11/20؛ ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى المحافظ، رقم: 463، 1933/02/16، موضوعها: جمعية مزابية "الوفاق"، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

5- ينظر: الباب الأوّل، ص134، وها04.

6- جمعية الوفاق والاحتفال بالإفراج عن الفرقد، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، ع2967، ص02. وكان دخول جريدة "النور" سنتها الثانية في العدد 50 منها، 1351/06/26هـ، 1932/09/27م.

7- «ولا ننسى أن نقول: إنّ الكاتب العامّ الذي كان خلفا عن كاتبها المبعد في هذا الشهر التحضيريّ هو الحقوقيّ البارع الفذّ، السيّد أبو سعيد عدون بن بكير، فقد كان له فضل كبير في إبراز كثير من برامج الجمعية إلى حيّز الإنتاج» جمعية "الوفاق" وانتخاب مجلس إدارتها، سفير الحياة، جريدة "الحياة"، س01، ع02، 1351/12/19هـ، 1933/04/15م، ص02.

بمركز الجمعية، في نهج إسماعيل بوضربة، رقم: 06، بالجزائر[1]، وتمّ انتخاب مفدي زكرياء في هذا المجلس الجديد، وكانت مهمّته فيه: حافظ المكتبة والأوراق[2].

هدف الجمعية -كما أعلن عنه رسميّا لدى الإدارة- «هو تقوية التفاهم بين أفراد الجالية المزابية بالجزائر، بالاهتمام بمصالحهم المشتركة، ثمّ إنشاء مدرسة خاصّة بأبنائهم»[3]، وفي أدبيات أعضائها: في جريدة "النور"، للشيخ أبي اليقظان: «وكان الغرض منها تأسيس ناد أدبيّ لإلقاء المحاضرات والمسامرات باللغتين العربيّة والفرنسيّة، وإنشاء مكتبة علميّة بجنبه تضمّ نفائس الكتب، وثمرات العقول لعشّاق العلم والأدب»[4]؛ وفي جريدة "الحياة": هي «جمعية تضمّ شتاتهم، وتجمعهم للتفكير في خدمة مصالحهم الأدبيّة والاقتصاديّة في الجزائر، ونشر الثقافة والتهذيب في الأوساط الميزابيّة، بواسطة المحاضرات والخطب والوعظ والإرشاد»[5].

إفلاس الشركة:

بدأ السقوط الحرّ لشركة "المعمل العربيّ"، بمقالين نشرتهما جريدة "النور" في جانفي 1933:

الأوّل: بعنوان: كتاب مفتوح إلى مؤسِّسَةِ المعامل العربيّة بالأبيار، بإمضاء: بعض المساهمين (غليزان)[6].

الثاني: بإمضاء: عالم بما هنالك، وعنوانه: خداع العناوين أو النائب الأمين ومعمله الثمين، وقد تزامن هذا المقال مع اختفاء الإعلان عن هذه الشركة في الصفحة الرابعة، وقد اتّصل ظهوره فيها من العدد 02 إلى 65 منها؛ وقدّمت له "النور"، أو الشيخ أبو اليقظان، بما يلي: «نشرنا في العدد الماضي نصّ الكتاب المفتوح إلى السيّدة

1- ينظر: نسخة من دعوة لحضور الاجتماع العموميّ للانتخاب السنويّ، 2I43، (CAOM)، وثيقة مطبوعة من صفحة واحدة. وكان الاجتماع مقرّرا فيها ليلة يوم الإثنين 1933/01/22، على سا21، والدعوة مؤرّخة في 1933/01/20، وهي بإمضاء الكاتب العامّ: باسعيد.

2- أمّا بقيّة أعضاء مجلس إدارة جمعية "الوفاق"، فهم: الرئيس: خالدي سعيد بن بكير، نائباه: الفرقد سليمان، والحاج بكير بن بنوح؛ الكاتب العامّ: أبو سعيد عدون بن بكير، نائبه: العنق محمد؛ أمين المال: محمد بن قاسم، نائبه: موسى بن بلحاج؛ وكيل النادي: غرّافة إبراهيم؛ الأعضاء المستشارون: حاجو بن الحاج محمد، باحريز يحي، وسليمان بن الناصر؛ ينظر: جمعية "الوفاق" وانتخاب مجلس إدارتها، سفير الحياة، جريدة "الحياة"، ع02، ص02. وذكرت رسالة مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى المحافظ أنّ مجلس الإدارة كان متكوّنا من: الرئيس: أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، نائب الرئيس: خالدي سعيد بن بكير، الكاتب العامّ: باسعيد عدون بن بكير، الأعضاء المستشارون: مفدي زكرياء، بوجناح سليمان، غرّافة إبراهيم؛ ينظر: الرسالة، رقم: 436، 1933/02/16، 2I43، (CAOM)، ص01. والحقّ أنّ الشيخ أبا اليقظان لم يتولّ رئاسة الجمعية، لا في تأسيسها سنة 1929، ولا حين نشورها سنة 1932، كما سبق، ولا يستبعد أن يكون الداعي والدافع إن في تأسيسها، أو في بعثها من جديد، يشهد لذلك تسمية الجمعية باسم "الوفاق"، وهو اسم الجمعية التي عرفتها البعثة المزابيّة بتونس في العشرينيّات.

3- ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى المحافظ، رقم: 436، 1933/02/16، 2I43، (CAOM)، ص01؛ ومفدي زكرياء من منظور الإدارة الاستعماريّة23.

4- جمعية الوفاق، جريدة "النور"، ع63، ص02.

5- جمعية "الوفاق" وانتخاب مجلس إدارتها، سفير الحياة، جريدة "الحياة"، ع02، ص02.

6- ينظر: جريدة "النور"، س02، ع65، 1351/09/20هـ، 1933/01/17م، ص03.

مؤسِّسةِ "المعامل العربيّة" بالأبيار، فأحدث دويّا هائلا في الأوساط التجاريّة، كان من أثره تهاطل الرسائل المتنوّعة على إدارتنا، ممّا أدركنا منه قلق الإخوان المشتركين، واشتياقهم لمعرفة الحقيقة الصادقة عن هذه الشركة الجديدة، لتطمئنّ قلوبهم، ويعرفوا: هل إنّ المبالغ التي ساهموا بها قد وضعت في محلّها المنتج، أو كان لها نصيب ما سبقها في المشاريع السابقة من الفشل والخيبة والخسارة وسوء العاقبة؟

ولا نكتم حضرة القارئ ما وقع من قبَل كثير من المساهمين، من استفهامنا وسؤالنا عن جليّة الأمر، ونحن نجيبهم في كلّ ذلك "بلا ندري"، وقد استغرب الكثير منهم جهلنا هذا، إذ كانوا يظنّون أنّنا باشرنا طبع قانونها الأساسيّ، مع أنّنا لا علم لنا به بالمرّة إلاّ في الأيّام الأخيرة. والآن إذ كثر تساؤلهم من هنا وهناك، سيّما بعد نشر ذلك الكتاب المفتوح، وجّهنا نظرنا بنوع خاصّ، لاستكناه غور المسألة، واستفهمنا بعض أصدقائنا الفضلاء عن حقيقة هذه الشركة، وعن مكانة مؤسِّستها في عالمي التجارة والصناعة، ومقدرة صهرها المهندس الكيمياويّ، ورغما عن إلحاحنا عليهم، فإنّنا لم نستفد منهم شيئا، حيث بقوا واجمين لا يحيرون جوابا، ضرورة أنّ المسألة لم تذع لا في الصحافة المحلّيّة، على اختلاف لهجاتها، ولا في الجريدة الرسميّة، ولم ينشر عن شأنها أيّ خبر في العاصمة، بواسطة نائبيها، رغما عن وجود محلّ لهما للنيابة في الجزائر»[1].

ونجد أثرا لهذين المقالين في رسالة مفدي السابقة إلى شيخه الثمينيّ، وذلك حيث يقول: «ولقد وقعت هنا وقائع من بعض الذين سوّلت لهم نفوسهم الفقيرة أن يكونوا مأجورين لخدمة أغراض دنيئة، وأن يبيعوا ذممهم بدريهمات معدودة، ليهدموا مستقبل أبنائهم بمعاول الكذب والزور والبهتان، وأن يلبسوا أغراضهم بلباس الدين، وقد فتحوا على أنفسهم بابا يعسر عليهم سدّه في المستقبل، والعمل جار بجدّ ونشاط لاتّخاذ الوسائل القاهرة ضدّهم، وضدّ أراجيفهم، وتكون خطّة دفاع منظّمة، يعلم الناس وراءها كيف تلعب الأهواء بالذمم الخربة، والأدمغة المشتراة، وقبل أن أبتدأ في وسيلة من تلكم المسائل أرجو أن آخذ رأيكم في المسألة لذلك، فإنّي أفصّل لكم الأمر في رسالة بعد هذه مستقلّة»[2].

ثمّ تبعت هذين المقالين ثلاث مقالات أخرى: مقالان في "النور"، وثالث في "النجاح":

الأوّل: في "النور"، عنوانه: سؤال إلى صاحب المعمل العربيّ الفريد أو نائبه الوحيد...، بإمضاء: أحد المشتركين (مستغانم)[3].

---

[1]- جريدة "النور"، س02، ع66، 1351/09/27هـ، 1933/01/24م، ص02.

[2]- الرسالة، 1933/02/06، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- جريدة "النور"، س02، ع67، 1351/10/11هـ، 1933/02/07م، ص02، 03.

الثاني: نشر في "النجاح"، بتاريخ 1933/02/12[1].

الثالث: هو رابع مقال في جريدة "النور"، في أربعة أعداد متتابعة، وهو آخر مقال كتب في الموضوع، بعنوان: لصوص الشركات: كلمة "النور" حول الكتاب المفتوح، وهو من غير إمضاء، غير أنّ العنوان يدلّ على أنّه لمدير الجريدة وصاحب امتيازها، الشيخ أبي اليقظان، وممّا يمكن اعتباره تبريرا من الشيخ لنشر هذه المقالات المتتابعة قوله فيه: «ولا نكتم حضرة القارئ الكريم أنّنا بقدر ما نحن مستعدّون لتنشيط وترويج الدعاية الواسعة لنجاح كلّ مشروع وطنيّ نزيه بلغنا خبره، فإنّنا كذلك مصمّمون على التشهير والتقريع لكلّ جمعية يظهر لنا تجرّدها من الضمانات الماديّة والأدبيّة اللازمة لقبول رؤوس الأموال المطلوبة، إذ لا تكون خالية من تلك الضمانات إلاّ لمقاصد مريبة، وغايات سافلة من النّصب والاحتيال، وما هي وظيفة الصحافة إذا لم تكشف الغطاء عن النصّابين والمحتالين؟ ولّما كان غرضنا الوحيد من إبراز صحيفتنا هذه هو الدفاع عن مصالح الأهالي، والبحث عن وسائل فوزهم في هذا المعترك الحيويّ المتلاطم الأمواج، والتنقيب عن الأسباب التي تعرقلهم عن نيل ذلك الفوز، فإنّنا ننظر لهذه المسألة من الناحية العموميّة، ونلفت إليها نظر المصلحين الذائدين عن المنافع العمومية، وأرباب المراجع العليا، للتثبّت في أمرها حتّى إذا رأوا فيها ما لا يتّفق ومصالح الرعايا، تداركوا الخطر قبل استفحاله»[2].

أمّا الإدارة الاستعماريّة، فلم تنتبه لهذه القضيّة إلاّ في 1933/02/09، ففي هذا التاريخ وجّه مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى المحافظ رسالة، جاء فيها: «لي الشرف أن أحيطكم علما بأنّ تصرّفات أهليّ لفتت انتباهي، وهو المدعوّ مفدي زكرياء، زكري بن سليمان، ابن أخ الشيخ صالح بن يحي، عضو "حزب الدستور" التونسيّ، فهو منذ فترة يحاول جمع أموال، بهدف إنشاء شركة للعطور "العربية". هذا الأهليّ يعمل لحساب السيّدة فيايدون (Vieilledant)»، وفي ختامها يضيف: «إنّ جريدة "النور" قد سبق وأن انتقدت بلهجة عنيفة، على صفحاتها، السيّدة فيايدون وتابعها [يعني: مفدي زكرياء]، بما يرسّخ الاعتقاد في أنّنا إزاء عملية احتيال كبيرة»[3]، وما سبق يؤكّد أنّ ما أثار انتباه الإدارة إلى تحرّكات مفدي هي وطنيته ووطنية عمّه صالح بن يحي، أمّا القضية في حدّ ذاتها فلم تنتبه إليها إلاّ من خلال مقالات جريدة "النور" الأولى.

هذا الاهتمام من الإدارة، وما أعقبه من مراسلات متبادلة في هذا الشأن، أمكن من كشف تفاصيل هذا الاحتيال الكبير الذي تورّط فيه مفدي وشريكه عبد الجبّار، ويمكن تلخيص أطواره فيما يلي:

1- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، رقم: B 4421، 1933/02/23، موضوعها: بخصوص مخبر "العربية"، 1h36، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01. ذكر فيها أنّ المقال صدر في 1932/02/12، وهو خطأ صوابه ما أثبتناه، لأنّ التاريخ المذكور لم يصدر فيه "النجاح"، لأنّه يوافق يوم الأحد، وهو يوم العطلة الأسبوعيّة.

2- جريدة "النور"، س02، ع68، 1351/10/18هـــ، 1933/02/14م، ص03.

3- ينظر: الرسالة، بإمضاء: بيرتان (Burtin)، رقم: 477، 1933/02/09، موضوعها: بخصوص شركة العطور "العربية"، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

السيّدة فيايدون ماري جوزفين (Vieilledant Marie Joséphine)، من جنسية فرنسية، كانت تعمل بمعية "صهرها" دلفينو أوريلو (Delfino Auriélo)[1]، في تجارة العطور، بعنوان "العربية"، في مدينة تولون (Toulon). انتقلت إلى الجزائر منذ سنتين، مع ابنتها وصهرها، بهدف توسيع نشاطها التجاريّ، وسكنت في فيلا إيسبرانس (Espérance)، بالأبيار. التقى دلفينو في إحدى تنقلاته داخل البلاد بمفدي وعبد الجبّار، فأقنعهما بمشاركته في مشروعه، وهو إنشاء شركة أسهم برأس مال يقدّر بمليون فرنك، مسيّرها ومسؤولها الوحيد السيّدة فيايدون، فأعلنوا عن مشروع "المعمل العربيّ" في الصحف، وبالمناشير، وروّجوا له لبيع أسهمه المقدّرة بـــ 10.000 سهما، فاستهدف بحكم تعاونه مع مفدي عبد الجبّار المزابيّين في غليزان، ومستغانم، وأورليان فيل (Orléansville)، وأفريفيل (Affreville)، ومليانة، وغرداية[2]. وكان دلفينو يشترط على المشترك دفع ربع أسهمه، فجمع أموالا طائلة من مستغانم وغليزان ومزاب[3].

في 1933/02/23، واستنادا إلى فحوى المقالات التي ظهرت في "النور"، و"النجاح"، طلب الوالي العامّ من المحافظ، التأكّد ممّا يروج حول مشروع شركة مخابر العطور "العربية"، ودعوة القضاء إلى فتح تحقيق في حالة ثبوت الاتّهامات الموجّهة إليه، مع إعلامه بمستجدّات القضيّة أوّلا بأوّل[4].

وذكر مدير أمن عمالة الجزائر في رسالته إلى المحافظ، بتاريخ 1933/03/10، أنّ ما يقارب 12 مكتتبا في المشروع، رفع شكوى احتيال ضدّ أصحاب هذا المشروع جميعهم؛ وملفّ القضية بين يدي السيّد فورق (Forgues)، قاضي التحقيق، بالغرفة الثالثة بالجزائر، ومن المتوقّع أن يتضاعف عدد المتظلّمين في الأيّام القادمة[5]؛ وقد أفاد تقرير مدير أمن عمالة الجزائر، بتاريخ 05/04، بأنّ العدد قد انتهى إلى 28 متظلّما، مثّلهم أمام القضاء المحاميان كلونا دورنانو (Colonna D'Ornano)، ومواتي (Moatti)، ومثّل التقرير للضرر المادّي الذي لحقهم،

---

[1]– كانت تجمعه بابنتها فليسيا (Vieilledant Félicia) معاشرة غير شرعيّة (Concubinage).

[2]– أورليان فيل هي: الأصنام؛ وأفريفيل هي: خميس مليانة. تحدّث مفدي في رسالته إلى موسى بن عمر بوراس، 1934/06/29، عن مشتركين في المشروع من مدن الأصنام، والشلالة، وقصر البخاري؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]– ينظر: ثلاث رسائل من مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى المحافظ، بإمضاء: بيرتان (Burtin)، أرقامها: 477، و525، و571؛ في 09، و11، و1933/02/14، موضوعها: بخصوص شركة العطور "العربية"، 2I43، (CAOM)، وثائق من صفحة واحدة؛ ورسالة مفوّض شرطة الأبيار إلى المحافظ، 1933/02/15، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وتقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1887، 1933/05/04، موضوعه: مخابر العطور "العربية"، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]– ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، رقم: 4421 B، 1933/02/23، 1h36، (CAOM)، ص01، و02. وفي رسالة ثانية، 1933/03/22، يخبره عن تقرير بلغه من حاكم ملحقة غرداية، في شأن هذه الشراكة بين دلفينو وزكرياء وفيايدون، أرفقه برسالته هذه، بالإضافة إلى وصل بقيمة 100 فرنك، ونسخة من القانون الأساسيّ للمشروع، الموزّع على المسهمين فيه؛ وطلب منه وضع هذه الوثائق تحت تصرّف قاضي التحقيق؛ ينظر: الرسالة، رقم: 6217 B، موضوعها: بخصوص مخبر العطور "العربية"، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01، و02.

[5]– ينظر: الرسالة، بإمضاء: بيرتان (Burtin)، رقم: 1001، موضوعها: شركة مخابر العطور "العربية"، وثيقة من صفحة واحدة.

بخسارة السيّد اطفيش إبراهيم بن الشيخ، لوحده مبلغ 2500 فرنكا في عملية النصب والاحتيال هذه؛ كما أفاد بأنّ دلفينو أوريبلو، المتّهم الرئيسي في القضية، قد وضعه قاضي التحقيق فورق رهن الاعتقال[1].

وفي 1934/01/23 كتب مدير أمن عمالة الجزائر تقريرا آخر، ذكّر في أوّله برسائله وتقاريره السابقة، في موضوع شركة "العربيّة"، ثمّ قال ما يلي: «لي الشرف أن أعلمكم أنّ الغرفة الثالثة لمحكمة الجنح بالجزائر، قد أصدرت يوم 01/22 الأحكام الآتية: حكم على دلفينو أوريبلو بأربعة أشهر سجنا نافذة؛ وعلى السيّدة فيايدون بثلاثة أشهر سجنا مع وقف التنفيذ؛ أمّا زكرياء بن سليمان وعبد الجبّار عمر فقد حكم ببراءهما»[2].

هذه الواقعة كان وقعها أليما شديدا على مفدي، تشهد له رسائله، التي كتبها ببني يزقن، في أيّام عيد الأضحى لسنة 1351هـــ، كتب ثلاثة منها يوم عيد الأضحى نفسه، الموافق لـــ: 1933/04/06: الأولى لشريكه عبد الجبّار، واثنتين أخريين أرفقهما بالأولى، وطلب تبليغهما إلى صاحبيهما حينا، وهما الشيخ محمد السعيد الزاهريّ، وباسعيد عدون بن بكير؛ والرابعة في ثاني أيّام العيد، يوم 04/07، موجّهة إلى السيّد أحمد بوشمال[3]، هذه الرسائل تنبئ عن الآتي:

1- الجوّ كان متوتّرا في مزاب، وفي بني يزقن خاصّة، بسبب هذه القضيّة؛ وحديثه عنه يدلّ على أنّه تفاجأ به، ولم يكن يتوقّع مداه، فهو يقول في رسالته للزاهريّ: «وصلت ميزاب على خير وعافية، ووجدت الجوّ مسموما»[4]؛ وذكر في رسالته لشريكه عبد الجبّار ما يلي: «وقد حرجوني[كذا] الناس هنا بالسؤالات عن شأن الخماج متاع[كذا] الشركة، وخصوصا أبي وجماعته، وجدهم متحيّرين مغيوظين[كذا] كثيرا»[5].

2- علّل مفدي هذا الوضع في رسالته للزاهريّ بقوله: «وجدت الجوّ مسموما، لأنّ الزوّاي كان هنا منذ يومين، وقد تكلّم ما لا يرضيكم في مسألة "الجحيم"»؛ ويقول في رسالته لشريكه عبد الجبّار، مازجا بين العامية والفصحى، على نحو لا نجده في أيّة رسالة من رسائله: «وجدهم متحيّرين مغيوظين كثيرا، لأنّ الزوّاي كان هنا هذين اليومين، وملأ لهم رؤوسهم؛ وكذلك دلفينو لمّا كان هنا كذب عليهم كذبات كبار، وخمّج الدنيا، قال

1- ينظر: التقرير، بإمضاء بيرتان: (Burtin)، رقم: 1887، موضوعه: مخابر العطور "العربية"، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: التقرير، بإمضاء: بيرتان (Burtin)، رقم: 326، موضوعه: شركة "العربية"، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- هذه الرسائل الأربعة كانت بحوزة الشيخ أبي اليقظان، في أوائل ماي من نفس السنة، بعث صورا فتوغرافية منها إلى الشيخ الثمينيّ، ضمن رسالة جاء فيها: «كنت سألتني عن ديك الجنّ [يعني: مفدي زكرياء] وفعائله، فأجبتك بكلمة، باختصار، ومن هناك لم أر منك تعليقا عن كلمتي، لا أدري عن اقتناع أو سواه، وإزالة للشكّ، وإن كنتَ أعرف الناس به، أوجّه إليك داخل هذا صورة من رسائله، اتّصلت بها ببعض الطرق، لترى نفسيته التي يصوّرها بيده، وحاله التي آل إليها» الرسالة، 1352/01/13هـــ، [1933/05/08م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- صورة فتوغرافية من الرسالة، 1351/12/10هـــ، [1933/04/06م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ ومكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز؛ و9h58، (CAOM)، ومعها ترجمتها إلى الفرنسيّة، مؤرّخة بغرداية في 1937/04/03.

5- صورة فتوغرافية من الرسالة، 1351/12/10هـــ، [06]/1933/04م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

لهم: إنّنا طالبنا أبو[كذا] اليقظان في مليون دوماجانتيري [Dommage et intérêt]، وأنّ جريدته ستغلق، وأنّ البريفي[Préfet] متاع طولون[Toulon] جعل شكاية إلخ إلخ، وإنّني قادم إلى قاو لأشتري النواور والأزهار، لنقطّرها في معملنا العظيم إلخ إلخ. الحاصل إنّني مرضت ما بين الأمس واليوم، الله يأخذ الحقّ في أبي اليقظان [...]. وكثير من الناس هنا يقولون: لو كان ما هوش أبو اليقظان -يكثّر خيره- فيّق عليهم، لو كان هلكوا الدعوة. وشاع الأمر حتّى عند النساء، فلعنة الله على هذه الشركة المنجوسة»؛ وفي رسالته إلى باسعيد عدون بن بكير، يقول: «كان هنا منذ يومين الأخ الحاج الزوّاي، وكنت أتمنّى أن ألاقيه هنا، ربّما نتوصّل إلى نتيجة حسن التفاهم بيد الجماعة هنا، ولكن ما سلّم حتّى ودّع. وأمّا صاحبنا الآخر [يعني على الأرجح: الشيخ أبا اليقظان]، فالويل له، وسيجازيه الله عمّا قريب عمّا فعل جزاء وفاقا، إن لم يرتدع عن غيّه، ويكتفي بحالته»[1].

إنّ دور دلفينو واضح في هذا الوضع، لأنّه مدبّر هذا النصب والاحتيال.

أمّا الزوّاي فسبب الخصومة بينه وبين مفدي -فيما نرجّحه- هو منافسة مشروع مفدي له في تجارة العطور بداية، وربّما ساهم في تأجيجها قصيدة لمفدي في هجائه[2]، فتفاقم الأمر بعد ذلك بتأليب الزوّاي للإدارة الاستعماريّة ضدّ مفدي، مستغلاّ ضلوعَه فيما كان يُكتب في جريدة "الجحيم"، وترويجَه لها في مزاب؛ وباستئجار من يكتب المقالات ضدّ الشركة في جريدة "النجاح" خاصّة، فلا نستبعد أن يكون وراء توقّف الإعلان عن الشركة في "النجاح"، ووراء أوّل مقال ظهر فيها ضدّ المشروع، في أواخر نوفمبر 1931[3]؛ وقد حكى عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ في رسالة إلى الشيخ الثمينيّ، مؤرّخة بعد صدور مقالات جريدة "النور" جميعها، يوم 1933/02/28، عن والده، عن مامي إسماعيل، رئيس تحرير جريدة "النجاح" «أنّ الزوّاي كان دان أبا اليقظان في 10 آلاف فرنك، فسامحه فيها عوض الفصول الماضية في شأن زكرياء»[4]؛ وعندما بلغت هذه الخصومة منتهاها، حاول مفدي أن يلتقي بالزوّاي ببني يزقن، عسى أن يصل معه إلى صلح على يد الجماعة، خاصّة وأنّهما ينتميان إلى نفس العشيرة، فلم يتيسّر اللقاء.

1- صورة فتوغرافية من الرسالة، 1351/12/10هـ، [1933/04/06م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- القصيدة موجودة بخطّ صديق مفدي الحميم، اطفيش محمد بن إبراهيم؛ وجاء في تقديمها: «نظمت عام 1932، وصدر الطالع من وحي الشيخ الطرابلسيّ محمد الذي كان يدرّس في بسكرة، قيلت في الزَوَّايْ الحاج، صاحب معمل العطورات في الجزائر»؛ ينظر: القصيدة، مكتبة اطفيش محمد بن إبراهيم ببني يزقن. وقد ثبت أنّ مفدي زار مدينة بسكرة لحضور احتفال مدرسة الإخاء، يوم 1932/10/04؛ ينظر: الاحتفال بامتحان مدرسة الإخاء العامرة ببسكرة، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س10، ع2883، 1351/06/08هـ، 1932/10/08، ص01. وعليه، فالأرجح أن تكون القصيدة قد نظمت خلال هذه الزيارة، ومطلعها:

«صلّى عليك اللّه يا ناسكا»، يا عابدا، يا أيّها المصلح

3- ينظر: ص138 ها02.

4- الرسالة، 1351/11/03هـ، [1933/02/28م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وإذا كان الشيخ أبا اليقظان يمرّ -آنذاك- بضائقة مالية كبيرة، فلا يجب أن ننسى العداوة الكبيرة التي كانت تجمعه بمامي إسماعيل.

أمّا الشيخ أبو اليقظان فبسبب المقالات التي نشرها متتابعة في جريدته "النور"، لتبرئة ساحته -في تقديرنا- من ضلوعه في هذا الاحتيال الذي ذهب ضحيّته عدد كبير من التجّار المزابيّين، بعد نشره للإعلان عن الشركة في 64 عددا من جريدته. وكان للمقالات التي نشرها في جريدته وقع كبير، لما يملكه الشيخ من مصداقيّة لدى المزابيّين، حتّى عند خصومه، فعجّلت بسقوط المشروع برمّته مرّة واحدة، فلم يفسح المجال لمفدي وشريكه عبد الجبّار، لمجرّد محاولة تدارك الوضع، من غير تدخّل للإدارة الاستعماريّة، وقضائها.

3- كان مفدي في تلك الآونة يتوجّس خيفة من رقابة الإدارة الاستعماريّة، ففي رسالته إلى الشيخ الزاهريّ، يقول: «وقد بلغني وأنا بالطريق أنّ الإدارة تحاول تفتيشي بمجرّد وصولي، فتركت الأمانة في الأغواط»[1]، ثمّ إنّ هذه الرقابة جعلته يرجو من الزاهريّ: «أن ترسلوا إلى قسنطينة في منع صدور ميميّتي ريثما تعود المياه إلى مجاريها، وربّما أعرضت عن نشرها تماما، لما سأشرحه لكم عند أوبتي للجزائر بإذن اللّه. وإذا ما كاتبتم قسنطينة فقولوا لهم القصيدة التي عنوانها "إلى نسر الأنس الجديد"، ولا أزيدكم تأكيدا»[2]؛ ولم يكتف بذلك، بل راسل أحمد بوشمال بنفس الطلب بعد يوم واحد، قائلا: «أرجوكم أن لا تنشروا في "الجحيم" قصيدتي التي مطلعها، بل عنوانها (إلى نسر الأنس الجديد)، وذلك لأسباب اقتضى الحال مراعاتها»[3]. كما بعث إلى باسعيد عدون، مدير جريدة "الحياة"، يقول: «أرجوك أن تنشر مقالتي على الشيخ الباروني بدون إمضائي، لأسباب سأشرحها لك عند الملاقاة، وإن شئت فاجعل إمضاءها (وطنيّ) أو (جزائريّ)، أو غير ذلك، ولا أزيدك تأكيدا»[4].

4- أمّا حالته النفسيّة في تلك الآونة فأقلّ ما يمكن أن يقال عنها أنّها كانت صعبة، لما لحقه من توبيخ وتقريع من والده خاصّة، ومن أهله وذويه، ولا أدلّ على ذلك من ارتباكه في كتابته لرسالته إلى شريكه عبد الجبّار، فضعف أسلوبه، وتسرّبت إليه العامية؛ ومخاطبته صديقه في أثنائها قائلا: «الحاصل إنّني **مرضت ما بين الأمس واليوم**، الله يأخذ الحقّ في أبي اليقظان [...] وأمّا اطفيش إبراهيم حقيقة إنّه عمل بنا شكاية، سمعتها من

---

[1]- يعني بحسب السياق: جريدة "الجحيم"؛ ويزيد فيغورو (Vigourous) الأمر وضوحا في مدوّنة معلوماته عن مفدي، في 27/12/[1939]، حيث يقول: «استغلّ هذا السفر [يعني: سفره إلى مزاب سنة 1933]، ليحمل إلى مزاب صحفا "متطرّفة ومخلّة بالنظام" (Subversifs)، ومنشورا عنوانه "الاستفزاز الإسلاميّ هو إذن مضادّ لفرنسا" (Provocation musulmane donc anti-française)، ووزّع خاصّة جريدة "الجحيم" [...]، جريدة المثقفين المسلمين، وأرسل نسخا منها للمدعوّ بيّوض في القرارة» ينظر: المدوّنة، 9h81، (CAOM)، ص02؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة24.

[2]- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- صورة فتوغرافية من الرسالة، 07/04/1933، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ ومكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز؛ ومفدي زكرياء81.

[4]- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وقد نشر المقال في جريدة "الحياة"، بإمضاء: أديب؛ ينظر: صفحة من حياة بطل الحروب الطرابلسية عطوفة الشيخ سليمان البارونيّ، جريدة "الحياة"، س01، ع02، 19/12/1351هـ، 15/04/1933م، ص01، 02.

عند واحد من الثقاة، وكثير من الناس هنا لم يرسل لهم دلفينو المطالب متاعهم، وإنّهم مغيوظين عليه كثيرا، **فتفكّر يا أخي قليلا مع هذه الحالة التي نحن فيها، وقلّة الحركة،** نسأل الله تعالى أن يجعل العاقبة خيرا، بمنّه وكرمه آمين»؛ وختمه رسالته بقوله: «والسلام على جمعكم من **أخيك الكئيب**: زكرياء بن سليمان»[1].

وتواصلت هذه الأزمة، بظهور مقال في العدد الثالث والأخير من جريدة "الحياة"[2]، بعنوان "على نفسها جنت براقش"، حكى تفاصيل القضية، بما يشكّك في موافقة مفدي على نشره، فضلا عن كتابته، ممّا يدلّ على أنّ مدير الجريدة، باسعيد عدون، هو صاحب المقال، فقد روى القصّة بتفاصيل دقيقة، لا نجدها عند غيره:

«نشرت الصحافة اليوميّة الفرنسيّة الصادرة بالعاصمة يوم 04 ماي الجاري تفاصيل حادثة اختلاس، أدهشتنا وتأسّفنا من وقوعها، وكان بودّنا أن لو وقع تداركها قبل استفحال الخطر، فعسى اللّه أن يأتي بحلّ مرضيّ لها، أو أمر من عنده لإطفاء لهيبها.

ونحن -على كلّ حال- ندرج خلاصتها فيما يلي، ولسان حالنا يردّد قول الشاعر:

نصحت لهم جهدي بـــمنقطع اللّوى، فلم يستبينوا الرشد إلاّ ضـــحى الغـــد

منذ عهد بعيد شرع المدعوّ دلفينو أوريبلو، من الرعايا الإيطاليّين، البالغ عمره 52 سنة في تأسيس شركة تحت عنوان (المعامل العربيّة) لتقطير العطورات الأهليّة، وصار يتجوّل في الأنحاء الجزائريّة، ويجوس خلال ديار باتنة وبوسعادة ومستغانم وغليزان والأغواط وميزاب لوضع سهام ذات 100 و 200 فرنك، يدفع ربعها حالا، وكان دائما يدّعي بأنّ هذه الشركة تملك معملا بالأبيار (قرب الجزائر)، وهذه معامل أخرى بفرانسا والخارج، وحتّى في بلاد الهند، وإنّه بصدد إحداث معمل كهربائيّ جديد بعاصمة الجزائر و و و ... وقد استهوى بهذه الحيل الشيطانيّة عددا لا يستهان به من التجّار الميزابيّين الذين ساهموا بمبالغ تقدّر بعشرات الآلاف. ولكن لمّا رأى هؤلاء المشتركون أموالهم تؤخذ منهم باطّراد، وتتسرّب إلى جيوب غيرهم، ولم يجدوا للمعمل الكهربائيّ الجديد أثرا، ولا للشركة المزعوم إنشاؤها رائحة إلاّ ما كان من معمل الأبيار الذي هو عبارة عن بيتين ومطبخة متلاصقة مع بعضها، لا أقلّ ولا أكثر، تيقّنوا أنّهم أمام خائن محتال، فرفعوا شكاياتهم إلى من له النظر، كان من نتيجتها إجراء بحث عدليّ في النازلة، بواسطة مسيو فورق حاكم التحقيق بالدائرة الثالثة، استنطق في أثنائه دلفينو الذي ثبتت إدانته، فزجّ به في السجن، لإحالته على المجلس. وقد اتّهم معه بعنوان المشاركة في الخيانة والاختلاس ثلاثة أشخاص، هم: الأرملة مدام فيايدون، وابن الشيخ زكرياء، وعبد الجبّار، وقد وقع استنطاقهم، فتركوا على حالة

---

[1]- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[2]- كان مفدي -بحسب الإعلان عن مشروع الجريدة- مديرا لقلم التحرير فيها.

السراح المؤقّت ريثما ينتهي التحقيق»[1]، وممّا يعضد استنتاجنا السابق البيت الوارد في المقال، فلا يمكن أن يتمثّل به سوى المراقب للأحداث، لا من يخوض فيها؛ ولنا أن نتصوّر أثر هذا المقال في مفدي.

وبعد صدور الحكم القضائيّ في هذه القضيّة، في 1934/01/22، ظهر مقالان في جريدة "النجاح" من غير إمضاء، الأوّل بعنوان "مجلس التأديب بالعاصمة: الحكم على محتال"[2]، والثاني بعنوان "فخّة المعامل العربيّة بالأبيار: أو فضيحة استافيسكي الجزائر وشركائه"، وإذا كان الأوّل ذا طابع إخباريّ، توقّف في حدود سرد الوقائع، فإنّ الثاني استهدف مفدي بصفة واضحة، فجاء فيه ما يلي: «نشرنا في العدد 1527 من صحيفتنا خلاصة ما وقع في قضيّة الاختلاس الشهيرة [...] تلك الفضيحة الشنيعة التي نُسجت تحت ستار "المعامل العربيّة لتقطير العطورات الصافية طبق القواعد الإسلاميّة"، والتي قام بتمثيل أدوارها استافيسكي الجزائر، وهو أحد فلتاء اليهود الطرابلسيّين، ولأمر ما لفظته حكومة إيطاليا، فعثر بالجزائر، وصار يهيم على وجهه ابتغاء الرزق، وابتغاء تأويله، حتّى اتّصل بشابّين دخلا معمعة التجارة أخيرا، فأعيتهما سبل الارتزاق النزيه، وتوسّلا إلى اقتناص الأصفر الرنّان، وتقرير مصيرهما في الوجود، بمختلف الأساليب، سداها تلفيق الأكاذيب، ولحمتها اختلاق الألاعيب، فتشابهت القلوب، وتجانست الطيور، فتواطأ الجميع على القيام بمهزلة، يستحوذون بسببها على الدرهم والدينار، فلم يجدوا أحسن من طرق أبواب الشركات الموهومة [...].

وبهذه الوسيلة الشنيعة صارت تنهال عليهم النقود من كلّ صوب وحدب، فجمعوا ما يبلغ مائة وخمسة وسبعين ألف فرنك، حسبما صرّحوا به في رسالتهم إلى المساهمين، ردّا على حملات جريدة، كشفت القناع عن مكنون ضمائرهم، حتّى ارتابت في الأمر جماعة من أولئك المساهمين الأغرار، في أحقّية ما كان يعدهم، ويمنّيهم به اليهوديّ مع قرنائه، فأجروا بحثا دقيقا في الشأن، أثبت لهم الغرور [...]، فرفعوا أصواتهم بالشكوى إلى من له النظر، الذي ما عتم أن أسرع بإجابتهم، لمّا ألفى الحقّ معهم، ومن ذلك الوقت والتحقيق يجري مجراه إلى أن صدر الحكم الذي علمه القرّاء في هذه القضيّة الأولى [...].

إنّ منشأ هذه القضيّة في نظرنا يرجع إلى أنّ كثيرا من سالمي الطويّة يتأثّرون بالظواهر الخلاّبة، والكلام المعسول، الصادر ممّن قالت فيهم العامّة: "يريك من الربح قنطارا، ويخسرك في رأس مالك" [...] إذ كيف يتصوّر أن يغترّ عاقل بأقوال مزخرفة، هي أقرب إلى الخيال الشعريّ منها إلى الواقع، بل هي من الخيال السفسطائيّ تماما، ولا تدفعه نفسه إلى محص ما يلقى إليه جزافا، لا سيّما إذا كان من طرف من سبقت للناس به معرفة حاله، ودرجة اقتداره، ذلك الذي خاطبه رئيس المجلس عند استنطاقه، بقوله: "أنت فرخ تنثر أشعارك على بني ملّتك، فمقامك والحالة هذه في غير ميدان التجارة الواقعي".

1- جريدة "الحياة"، س01، ع03، 1352/01/17هـ، 1933/05/12م، ص03.

2- ينظر: جريدة "النجاح"، س15، ع1527، 1352/10/12هـ، /1934/01/28م، ص02.

ودعوى الانخداع بشقاشق الشابّين الملازمين للمحتال في حلّه وترحاله، وتصريحهما بالأيمان المغلّظة أنّ كلّ ما يدّعونه صحيح لاشية فيها، غير كاف ومبرّر للاغترار، حيث أنّهما شريكان مع المختلس في اختراع الفخّة، ونصبها، وبثّ الدعاية حولها، وإيقاع الناس في شباكها، كما اتّضح عند البحث، وتبيّن من أقوال الشهود، وذكرته صحف الأخبار، فمسؤوليتهما ثابتة، ولا يعزب عن الأذهان أنّ الدخان محال أن يكون بلا نار.

والعفو الذي لحقهما متسبّب عن كون جميع ما ارتكباه وقع باسم اليهوديّ وصهرته ليس إلاّ، أمّا جريمتهما الأدبيّة، وهي أعظم وزرا في شرع المنصفين فباقية إلى الأبد، ولسوء فعلهما قضيا بضعف، بل وبعدم تعليق الأمل الحسن في القيام، ونجاح أنواع المشاريع الاجتماعيّة والعمرانيّة، ببيئتنا على يد الشبيبة الجزائريّة.

ومن دون شكّ سيعرف الرأي العامّ الجزائريّ عموما، والقسم الذي ضرب في الصميم منه خصوصا، كيف ينتقم لنفسه، ويأخذ حقّه ممّن استهزأ به، وضحك على ذقنه، ويبعثه إلى التفكير والتأمّل فيما كان يأتيه من أصناف الترّهات، ويطرقه من ضروب الخزعبلات[...]»[1].

أمّا وجهة نظر مفدي في القضيّة، فلم نستشفّها إلاّ من رسالته إلى موسى بن عمر بوراس[2]، المؤرّخة في 1934/06/29، بعد انجلاء الغمّة قليلا، وذلك حيث يقول: «على أنّي كاتبت حضرة والدي بميزاب المرار العديدة مخبرا إيّاه بأنّي متعهّد بتعويض العدد للسيّد بوراس موسى، رغما عن كون ذلك يعدّ خسارة بجانبي، لأنّه حبيبٌ وجار وغير ذلك، و لم يكن في حسباني أنّ الحماس يحدّ به إلى هذا الحدّ على فرض أنّني أخذت هذا العدد لنفسي، وهو يعلم علم اليقين أنّي لست من المتسوّلين، ولا من الذين لا يجدون ما ينفقون حتّى أعجز عن إرجاع الخمسمائة فرنكية إليه. نعم هو يعلم ذلك لأنّه جار كريم، معدود من جملة العائلة فيما أعتقد، وهو ما تقوم عليه الحجج من مرور السنوات على حسن الجوار بيننا، فكيف يمكن أن يتسرّب إليه الوهم أنّني أريد أن أقتات من عدده الذي دفعه عن رغبة نفس، لا عن قهر، في مشروع تجاريّ محض، لو علم حقيقته والأدوار التي لعبت لتشويهه لما وسعه إلاّ إبداء عواطف الشفقة والحنان، ولست مختلسا لهذا العدد حتّى تتمثّلون بحديث (قليل من أموال الناس يورث النار)، فلقد ضاع لي في هذا المشروع من مالي الخالص الحلال ما يقدّر بثلاثين ألف فرنكا بالبيان والحجّة، فكيف يمكن أن يقال: إنّني أخذت لكم خمسمائة فرنك على أنّ حضرتكم لا تجهلون التجارة، فقد دفعتموها لا لسواد عيوني، بل لأجل مسألة تجارية، و لم أرغّبكم في دفعها، وإنّما دفعتموها بطلب منكم [...]، وإنّي أتحقّق أنّكم دفعتم مئات الآلاف للأغراب الجلف لأجل التجارة، ولا أظنّ أنّكم خاطبتم أحدا منهم بمثل ما خاطبتموني به من العبارات [...] /ويوجد عدد وافر من الذين دفعوا في المشروع أضعاف ما دفعتم، وهم

1- جريدة "النجاح"، س15، ع1532، 1352/11/03هـ، /1934/02/18م، ص02.

2- ردّا -في نفس اليوم- على رسالته التي كتبها له ابن أخيه، الشيخ عبد الله بوراس الكامليّ، يطالب بـ 500 فرنكا، أسهم بها في هذا المشروع؛ ينظر: الرسالة، 1353/03/17هـ، [1934/06/29م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

من الأباعد، فلم يجسروا على مخاطبتنا بتلك الطريقة الشائنة، فكيف بمن هو معدود من الأقربين، اللهمّ إلاّ إذا كان المبرّر قصد الانتقام من كاتب المرقوم لشيء في النفس أولده الغلط في تقدير نفسه، وتنزيلها المنزلة الأرستقراطية، كما يوجد ذلك في غالب طلبتنا، والأمر لله»[1].

لقد كان مفدي وشريكه عبد الجبّار في وضع لا يحسدان عليه، فماجريات هذه القضية تدلّ على أنّهما كانا ضحيّتين في هذه القضية أيضا، وربّما أدركا أبعاد المؤامرة بعد فوات الأوان؛ وتسارعُ الأحداث، لم يمكّنهما من تدارك الوضع، فكان السقوط الحرّ، مع عدم إمكان إقناع المتضرّرين فيها وغيرهم بعدم ضلوعهما في هذا الاحتيال، بسبب ما تميّزت بها الإعلانات التي كتبها مفدي –على الأرجح– من مبالغة شديدة، تجاوزت الحدّ، فما كان من مفدي إلاّ أن تحمّل مختلف أنواع التجريح التي طالته في الصحافة دون أن يحرّك ساكنا، وليس من عادته أن يسكت عمّن ينال من كرامته، كائنا من كان، شعورا منه –في تقديرنا– بضعف موقفه، فلاذ بالصمت، في انتظار مرور العاصفة.

وبقيت هذه القضيّة تجرّر أذيالها إلى بدايات سنة 1935، فقد تمّ الإعلان عن إفلاس شركة "زكرياء وعبد الجبّار"، وتمّت تصفيتها القضائيّة على يد القاضي المفوّض (Juge Commissaire) ستورا (Storra)، وقد عثرنا على رسالة من هذا القاضي موجّهة إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1934/12/26، يخبره عن مقترحات التصالح (Les propositions concordataires) من أصحاب الشركة المفلسة إزاء دائنيها، ليرى فيها رأيه، ويقرّر موقفه منها، عن طريق وكيله، في اجتماع الصلح المزمع عقده في 1935/01/17، على سا 09 صباحا[2].

أثر الإفلاس في مفدي ونشاطه:

لقد كانت قضيّة "المعمل العربيّ" إحدى أكبر النكسات في حياة مفدي، وكانت أولاها –وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره–، فكانت انعكاساتها على حياته عموما، وعلى حياته الأدبيّة بصفة خاصّة جدّ بليغة:

يقول فيغورو(Vigourous) في مدوّنة المعلومات التي أنجزها عن مفدي، في أواخر سنة 1939، متحدّثا عن تبعات هذه القضيّة: «أُعلنت البراءة من زكري في مسجد الإباضية بالجزائر، وطلب عَزَّابَةُ بني يزقن من مواطنيهم أن يكونوا على حذر منه؛ ومنعَه والده من الحضور إلى مزاب[...]. وبالرغم من ذلك عاد في 1933، ليحاول إقناع ضحايا النصب والاحتيال بأنّهم سيعوّضون»[3]، وهو كلام فيه وهم كثير، ناتج عن تفسير خاطئ للوقائع

1- ينظر: الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ينظر: الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- ينظر: المدوّنة، 27/11/[1939]، 9h81، (CAOM)، ص02.

من الإدارة، أو من مصادر معلوماتها[1]، وما يمكن الاطمئنان إلى صحّته، بناء على ما تقدّم هو: الغضب الشديد من المزابيّين في مزاب، وفي مدن التلّ الجزائريّ من هذه الشركة المشؤومة، ومن المتورّطين فيها من أبناء مزاب، وقد تسبّب ذلك في انقطاع مفدي عن وادي مزاب لمدّة طويلة نسبيّا، مقارنة بوتيرة سفره إلى مزاب منذ عودته من تونس في أواخر سنة 1925.

لا نعلم على وجه التحديد متى سافر من بني يزقن، في شهر أفريل من سنة 1933[2]، فهو لم يستصدر تصريحا بالسفر من قائد بني يزقن[3]؛ وفي رسالة هذا الأخير إلى حاكم ملحقة غرداية، بتاريخ 1933/12/26، جاء ما يلي: «جوابا على رسالتك، رقم: 275، ليوم 21 ديسمبر الجاري، عن المسمّى زكري بن سليمان بن يحي: هو إلى الآن لم يرجع، وإنّني أرقب قدومه، فحين يأتي أبعثه إليك»[4]؛ وفي 1934/05/28، كتب إليه قائلا: «جوابا على رسالتك، رقم: 90، ليوم 26 ماي الجاري، لأخبرك: هل المسمّى زكري بن سليمان بن يحي رجع إلى الوطن منذ جوابي، رقم: 625، ليوم 26 ديسمبر 1933 أو لا؟ أخبر سعادتك أنّه لم يرجع، وإنّني أرقب قدومه، فحين يأتي أبعثه إليك»[5]؛ وامتدادا لذلك نقرأ في مدوّنة المعلومات المذكورة آنفا، ما يلي: «منذ 1934 بقي في مناطق الشمال، وخاصّة في الجزائر»[6]؛ ولم نعثر على أثر لمفدي ببني يزقن إلاّ ما كان من تصريح سفره الذي استصدره من قائدها، ليسافر إلى الجزائر، بتاريخ 1936/03/16[7]؛ وهذا يدلّ على أنّه انقطع عن مزاب ما يقارب ثلاث سنوات، وهو ما لم يفعله منذ زواجه.

1- فالاحتيال إنّما اكتشف -كما سبق بيانه- في بداية سنة 1933، وليس خلال سنة 1932، ولا في أواخرها، كما يوحي به كلام فيغورو؛ كما أنّ مسجد الإباضية بالجزائر، لم يكن من صلاحياته إعلان البراءة من أيّ كان، لأنّ هذا الحكم موكول إلى مجالس العزّابة بمساجد وادي مزاب لا غير، ومسجد بني يزقن أولى بذلك؛ أمّا زيارة مفدي لمزاب فقد تكرّرت ثلاث مرات سنة 1932، وإنّما انقطع عن مزاب، وعن بني يزقن بعد سفره إليه في أفريل 1933، فكون والده منعه، وبالرغم من ذلك رجع في 1933، لا أساس له من الصحّة؛ أمّا أن يكون والده قد منعه منذ هذه السفرة الأخيرة، فلا نملك دليلا لنفيه، ولا لإثباته، غير أنّني أميل إلى عدم صحّة ذلك، لأنّ رسالة بوراس السابقة تشير إلى حرص والد مفدي - في هذه الفترة- على ضرورة تعويض المتضرّرين، لا على حصول جفوة إلى حدّ منعه من السفر إلى بني يزقن، مع وجود عائلته بها.

2- حدّد في رسالتيه إلى عبد الجبّار وبوشمال مكان كتابته للرسالتين بـــ"الجزائر"، قبل تسجيل التاريخ، وهو سهو لا محالة في الرسالة الأولى لأنّ فحواها يدلّ دلالة قاطعة على أنّه إنّما كتبها يوم عيد الأضحى، ببني يزقن، وهو -في تقديرنا- من باب الارتباك والتأثّر بما حدث؛ وهذا السهو يشكّك في إمكان صحّة الأمر بالنسبة للرسالة الثانية، وإذا صحّ فمعناه أنّه غادر مزاب في ثاني أيّام العيد، بسبب جوّها المسموم آنذاك، ليكتب رسالته إلى قسنطينة، يوم 07 أفريل من الجزائر؛ تنظر الرسالتان: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- ينظر: سجلّ التساريح، 1929-1937، أرشيف القيّاد، ص87-89.

4- ينظر: سجلّ البريد الصادر، 1932-1935، المراسلة رقم: 625، أرشيف القيّاد.

5- ينظر: سجلّ البريد الصادر، 1932-1935، المراسلة رقم: 248، أرشيف القيّاد.

6- ينظر: المدوّنة، 27/11/[1939]، 9h81، (CAOM)، ص03.

7- ينظر: سجلّ التساريح، 1929-1937، أرشيف القيّاد، ص144.

ومنذ شهر أفريل 1933 لم نجد حديثا في أرشيف الإدارة الاستعماريّة عن مفدي إلاّ فيما يتعلّق بهذه القضيّة وتوابعها، ولا أثر فيه لأيّ نشاط آخر له سواء في الجزائر، أو في مزاب، إلى سنة 1936.

وفي خضمّ هذه الأزمة تخلّف عن المشاركة في حفل "إحياء ذكرى شوقي وحافظ"، بعد أن كان كاتب لجنته التحضيريّة، وتوقّف عمله مراسلا لجريدة "النهضة" التونسيّة بالجزائر تماما، بعد نشاط متّصل في سنة 1932[1]. كلّ ذلك يفصح عن تأثّر عميق بقضيّة "المعمل العربيّ"، وخيبة أمل كبيرة أصابته في أعقابها، فاختار أن يبقى بعيدا عن مزاب، وعن والده وعائلته ببني يزقن، وأصيب نشاطه بشلل كبير، لم ينفكّ من عقاله إلاّ في سنة 1936. وعليه، فإنّنا لا نؤيّد فكرة تولّيه رئاسة تحرير جريدة "الحياة"، التي ظهرت في ذروة تأزّم هذه القضيّة، في فاتح أفريل من سنة 1933، على ما سيأتي بيانه مفصّلا في موضعه[2].

لقد أمضى مفدي زكرياء ما يزيد على ثلاث سنوات مغمورا، لم يظهر له أثر يذكر على جميع الأصعدة، فكلّ ما يمكن تسجيله من نشاطه في هذه الفترة هو ما يلي:

في شهر جانفي من سنة 1934، ظهر في رسالة من رسائل مفدي[3] إعلان عن شركة جديدة بينه وبين شريكه السابق عبد الجبّار، وهو كالآتي:

بضائع شرقية عالية	قماشات رفيعة	سلع تونسية على اختلاف أنواعها
مـــشـــارق الأنـــوار **زكرياء وعبد الجبّار** نهج لالير 39 الجزائر	عندنا يصنع الندا الهنديّ الرفيع	Tissus & Soiries DETAIL - DEMI GROS **Sté ZAKARIA & ABDELJEBAR** 39, Rue de la Lyre, 39 **Alger** R.C.: 2.153

وآخر رسالة وظرف حملا هذا الإشهار إنّما كان في رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1934/10/12[4]؛ وفي رسالة موالية إليه بتاريخ 1934/11/20[5]، تغيّر هذا الإشهار تغيّرا نوعيّا، فاختفى طابع المبالغة الذي كان فيه، وأزيل منه ما يذكّر بالشركة السابقة، فجاء على هذا النحو:

مفدي زكريا والفاروق عمر نهج لالير رقم 39 الجزائر	**بضائع شرقية**	**Moufeddi Zakaria & El-Farouk Omar** 39, Rue de la Lyre, 39 **Alger**

[1]- ينظر: الباب الخامس، ص492.

[2]- ينظر: الباب الخامس، ص502-505.

[3]- ينظر: رسالة مفدي إلى السيّد الحاج يحي بن الحاج إبراهيم، 1934/07/18، مكتبة السيّد أبصير الحاج محمد بن عمر، ببني يزقن.

[4]- ينظر: الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[5]- ينظر: الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ ونموذج ظرف يحمل هذا الإشهار، الملحق603.

أمّا نشاطاته الأخرى خلال هذه الفترة، فلم تزد على مشاركته في احتفال مدرسة الاستقامة لسنة 1934[1]، والمشاركة الفعّالة في مؤتمري طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، لسنة 1934 بتونس، وسنة 1935 بتلمسان، كما أنّ إنتاجه الأدبيّ لم يخرج من إطار هذه المناسبات المحدودة جدًّا، وهو ما سنراه مفصّلا في موضعه من هذا البحث[2]؛ غير أنّنا نتوقّف هنا عند حادثة لها دلالتها في مساره النضاليّ، شهدها مشاركته في مؤتمر تلمسان 1935، وكان شاهدا عليها صديقه محمد قنانش، فرواها كالآتي: «وفي شهر سبتمبر 1935، انعقد المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا، بمدينة تلمسان، وقد حضرتُ جلسة من جلسات العمل بنادي "السعادة"، الذي تكفّل بإيواء المؤتمر بعد طرده من قاعة البلدية. وكان الموضوع "التعليم العربيّ في أقطار الشمال الإفريقيّ"، وأثناء المناقشة طلب الكلمة الأستاذ محمد الهادي السنوسيّ، الذي كان ممثّلا لجمعية العلماء، بمدينة سيدي بلعباس، ومعلّما بها، ليطرح السؤال التالي: كيف يمكن تنفيذ القرارات التي تتّخذونها؟ وقد درست جمعية العلماء الموضوع، واتّخذت قرارات، ولكنّها بقيت حبرا على ورق. وإذا بصوت ينطلق من وسط القاعة، ليقول كلمة واحدة، تهزّ الحاضرين، وتلتقي الأعين كلّها لترى صاحب هذه الكلمة، وإذا به الشاعر مفدي زكرياء، بلحيته الخفيفة، وطربوشه الطويل.

أمّا الكلمة التي أطلقها كالقنبلة، فهي "الثورة"، كوسيلة للتنفيذ، وكلمة "الثورة" هذه كانت بالنسبة لي، ولأغلبية الحاضرين شيئا جديدا، وكانت غريبة عن مجتمعنا؛ فالثورة لم تكن تذكر إلاّ في كتب التاريخ، أو كحلم لبعض الشعراء والفلاسفة، أما ونحن في الجزائر، وفي السنة التي يرسّم فيها قانون "رينيي" [Régnier] الخاصّ بالسياسيّين، بعد قوانين الأنديجينا، وقانون الغاب، وبعدما وقف شيخ البلدية، المعمّر الكبير "فالور" ضدّ انعقاد جلسات المؤتمر بقاعة البلدية، بعد هذا كلّه يفرقع شاعرنا قنبلته، بكلّ بساطة وببرودة تامّة. هذه اللحظة بالذات لا زالت أمامي، أتذكّرها، وأنتشي بأصدائها»[3].

إنّ هذه الحادثة تبيّن بوضوح مستوى الوعي السياسيّ الذي تسنّمه مفدي، وهو لا يتجاوز السابعة والعشرين من عمره، وإيمانه منذ ذلك الحين بحتمية الثورة كسبيل للخلاص من نير الاستعمار؛ والحقّ أنّ مشاركاته الأدبيّة في هذه المؤتمرات، منذ مؤتمر نادي الترقّي سنة 1932، واحتكاكه بالنخبة المثقّفة من جميع أقطار المغرب العربيّ فيها، له دوره في تبلور هذا الوعي لديه، وتحديد هذا التوجّه في نضاله السياسيّ، فكان من روّاده في الساحة الوطنيّة الجزائريّة: فهذه مجلّة "إفريقيا الفرنسيّة" (L'Afrique Française)، في حديثها عن المؤتمر الثاني لجمعية الطلبة المسلمين بفرنسا، المنعقد بالجزائر، تقول: «إذا أردنا معرفة الأفكار المتبادلة في هذا التظاهرة، فإنّنا نجدها في قصيدة

1- ينظر: الباب الخامس، ص509، 510.

2- ينظر: الباب الخامس، المؤتمران: الرابع بتونس والخامس بتلمسان، ص509-517.

3- حزب الشعب الجزائريّ1937-1939: وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنيّة، محمد قنانش، ومحفوظ قدّاش، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون-الجزائر، ط: 1985، ص265؛ وينظر: نجم الشمال الإفريقيّ 1926-1937: وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنيّة الجزائريّة، محمد قنانش، ومحفوظ قدّاش، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون-الجزائر، ط2: 1994، القسم العربيّ: ص65.

مفدي زكرياء، وهي النصّ الوحيد المنشور، في حدود علمنا»؛ وبعد تلخيص ج. دسبارمي(J. Desparmet) لمحتوى القصيدة كاملة، يعقّب عليه بما يلي: «يمكن أن يُستغرب من بحثنا عن الأفكار الملهمة لمؤتمر، في القصائد الشعريّة التي ألقيت فيها؛ لذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار العادات الفكرية للمسلمين، التي لا تخلو بالفعل من منطق. إنّ الشعر هو لغة العواطف، وفي أغلب التجمّعات، وخاصّة الوطنيّة منها، تهيمن عليها دوافع ذات طابع شعوريّ وروحيّ، وعليه فالشعر هو الأكثر مناسبة للتعبير عنها»[1].

استصدر مفدي تصريحا للسفر من بني يزقن إلى الجزائر، بتاريخ 1936/03/16[2]، وهذه أوّل سفرة له إلى مزاب منذ أفريل 1933، ولعلّ ممّا يفسّرها فضلا عن طول مدّة غيابه عن مزاب، موت عمّه بالحاج بن يحي بن الحاج سليمان، يوم 1936/02/11[3]، فقد كان سندا قويّا له في تونس في فترة تعلّمه بها.

في هذه السنة غيّر مفدي وشريكه عبد الجبّار نشاطهما التجاريّ، بنفس المحلّ، 39 نهج لالير، فمن تجارة البضائع الشرقيّة انتقلا إلى بيع الحليب ومشتقّاته:

في رسالة مدير الأمن بعمالة الجزائر إلى المحافظ، بتاريخ 1936/07/16، تحدّث عن وصول الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش من تونس، يوم 07/08، واستقبال عدد من المزابيّين له بمحطّة القطار ميزون كاري (Maison Carrée)، ذكر من بينهم: «زكرياء [بن] سليمان، بائع حليب بشارع لالير»[4]؛ أمّا التسمية الجديدة لهذا النشاط التجاريّ، فهو كريمري رويال (Crémerie Royale)[5].

وكان يجمع إلى هذا النشاط التجاريّ عملا يكفل له التنقّل بحرية في أرجاء الوطن، وهو عمله "نائبا تجاريّا" (Représentant de commerce)، ففي رسالة مدير أمن عمالة الجزائر إلى المحافظ، بخصوص محمد حسن الوزّاني، المدير السابق للجريدة المغربية الصادرة بفاس، "لا فوا دي بوبل" (La Voix Du Peuple)، وزيارته للجزائر في أواخر ديسمبر 1936، وعن اتّصالاته بالوطنيّين الجزائريّين، تحدّث عن تحرّيات دقيقة أجراها للتأكّد من المعلومات التي بلغت الوالي العامّ في هذا الشأن[6]، وقال عن اتّصال الوزّاني المحتمل بمفدي زكرياء: «لقد كشف التحقيق أنّ مفدي زكرياء بن سليمان [...] كان غائبا عن الجزائر، في الفترة التي

1- ينظر: المؤتمر الثاني للطلبة المسلمين لشمال إفريقيا، ج. دسبارمي (J. Desparmet)، مجلّة "إفريقيا الفرنسيّة"، ع10، ص 573.

2- ينظر: سجلّ التساريح، 1929-1937، أرشيف القيّاد، ص144.

3- ينظر: سجلّ البريد الصادر، 1935-1939، المراسلة رقم: 83، 1936/02/14، أرشيف القيّاد.

4- ينظر: الرسالة، رقم: 4391، موضوعها: بخصوص المدعوّ اطفيش الحاج إبراهيم، 2I36، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

5- «عبد الجبّار عمر [...] شراكته مع مفدي زكرياء كانت تخصّ "كريمري رويال"، 39 شارع لالير»؛ ينظر: معلومات عن أشخاص طلب مفدي زكرياء ترخيصا لزيارته في السجن، من غير تعيين للجهة التي أصدرت هذه الوثيقة، 1938/08/09، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

6- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، رقم: 376B، 1937/01/08، موضوعها: نجم الشمال الإفريقيّ، 2I36، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

أقام فيها الوزّاني بالجزائر: مفدي زكرياء الذي يشتغل بمهنة "نائب تجاريّ"، والذي يتنقّل باستمرار بين العمالات الثلاثة، أخذ عيّنات نسيجيّة، يوم 21 ديسمبر الأخير من عند السيّد جوزيف باروش (Joseph Baruch)، تاجر في 12 شارع لا لير (La Lyre)، و/غادر الجزائر في الغد من ذلك، متوجّها إلى مزاب»[1].

وفي رسالة مفدي إلى الشيخ الثمينيّ بتونس، بتاريخ 1936/06/11، طلب منه في ختامها أن يراسله على عنوان: زكرياء، 14 شارع بوتان، الجزائر[2]، ممّا يدلّ على جدّة هذا العنوان، ولعلّ هذا التغيير لعنوان مراسلاته من 39 شارع لالير إلى هذا العنوان الجديد، كان نتيجة لتغيير نشاطه التجاريّ، فيمكن -تبعا لذلك- تحديده بأواخر السداسيّ الأوّل من سنة 1936؛ أمّا سبب تغيير نشاطه التجاريّ، فلم نعثر له على أثر، فيما اطّلعنا عليه من وثائق تخصّ مفدي في هذه الفترة، لأنّها قليلة؛ أو لأنّه لم يكن من أسباب انشغاله، فترشح به مراسلاته، كما لم يكن ممّا يثير اهتمام الإدارة الاستعماريّة، أو اهتمام أقاربه وأصدقائه، فيظهر أثره في وثائقها، أو في مراسلاتهم.

1- ينظر: الرسالة، رقم: 225، 1937/01/28، موضوعها: بخصوص المدعوّ محمد حسن الوزّانيّ، عضو "لجنة الفعل المغربيّ" (Comité d'Action Marocaine)، 2I38، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01، و02؛ ورسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، بإمضاء: بورا (Bourrat)، رقم: 3697/B، 1937/02/10، موضوعها: نجم الشمال الإفريقيّ. بخصوص المدعوّ محمد حسن الوزّانيّ، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

2- ينظر: الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

الفصل الثاني: في صفوف نجم الشمال الإفريقيّ

عودة مصّالي، وانخراط مفدي في النجم:

«يعتبر المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ الذي انعقد بالعاصمة في السابع من يونيو [جويلية] سنة 1936، أوّل تجمّع من نوعه في الجزائر، فلم تعرف الجزائر طيلة أكثر من قرن تجمّعا تشترك فيه كلّ الاتّجاهات، وتمثّل فيه مختلف الطبقات، وتبرز خلاله وحدة الصفّ والكلمة على مطالب معيّنة، مثل ما حدث في المؤتمر المذكور»[1].

والحقّ أنّ اعتلاء الجبهة الشعبيّة سدّة الحكم في فرنسا، أسهم إسهاما فعّالا في دفع المجتمع الجزائريّ إلى التعبير عن انشغالاته، والمطالبة بحقوقه، لفسحة الأمل التي نتجت عن انتخابها، سواء في فرنسا، أو في مستعمراتها، وتجسّد ذلك الأمل -بالنسبة للجزائر- في انعقاد المؤتمر الإسلاميّ، يوم 1936/07/07؛ فكان بحقّ منعرجا حاسما في تاريخ الحركة الوطنية الجزائريّة[2]، فقد أحدث حركيّة سياسيّة قويّة في المجتمع الجزائريّ، ما زالت تنتقل من حال إلى حال حتّى أفضت إلى الثورة، ثمّ إلى الاستقلال[3].

هذا المؤتمر دفع الأطراف الفاعلة في المجتمع الجزائريّ إلى تحديد مواقفها إزاء المسألة الوطنية، فالمؤتمر بمختلف فعالياته اختاروا حلاّ وسطا فيه الكثير من الغموض، تمثّل في التشبّث بالشخصية الجزائريّة المسلمة المستقلّة، والمطالبة بإلحاق الجزائر بفرنسا رأسا، وقبول مشروع فيوليت –بعد ذلك- باعتباره خطوة هامّة لاسترجاع الجزائريّين بعض حقوقهم؛ أمّا حزب نجم الشمال الإفريقيّ فكان يدعو إلى استقلال الجزائر، وتكوين برلمان جزائري منتخب. وقد اختارت حكومة الجبهة الشعبية إزاء ردّ فعل المعمّرين القويّ ضدّ الموقفين السابقين، وضدّ مشروع فيوليت بالتبع، وإزاء جرأة مواقف وتصريحات حزب النجم، اختارت مماطلة المؤتمر الإسلاميّ، وعدم الاستجابة لعريضة مطالبه، بالرغم من التصريحات المتكرّرة من أقطاب المؤتمر

1- الحركة الوطنية الجزائرية3: 151.

2- يقول في ذلك محمد قنانش: «كانت سنة 1936 منعرجا سياسيا في حياة الجزائر، فبعد نجاح الجبهة الشعبيّة في الانتخابات التشريعيّة بفرنسا، تأسّست حكومة من أصحاب اليسار، وصودق على قانون العفو العامّ، وظهرت الحياة السياسيّة لأوّل مرّة في الجزائر» حزب الشعب الجزائريّ266.

3- كتب أحد أقلام الحزب الاشتراكيّ بالجزائر، في 1937/01/09، ما ترجمته: «إنّ الصدمة النفسيّة قد وقعت، والحركة قد انطلقت، والآلة العقليّة تشتغل، وتتسارع تدريجيّا؛ عندما تبلغ سرعتها القصوى، من ذا الذي يمكنه التبجّح بإمكان توقيفها؟»تاريخ الوطنيّة الجزائريّة (Histoire du Nationalisme Algérien)، محفوظ قدّاش، منشورات باريس-البحر الأبيض المتوسّط (Editions Paris-Méditerranée)، باريس- فرنسا، وإديف2000 (Editions EDIF 2000)، الجزائر-الجزائر، ط: 2003، ج1: 1919-1939، ص422، 423؛ ناقلا عن جريدة "ألجي سوسياليست" (Alger Socialiste)، 1937/01/09.

بتمسّكهم بفرنسا، وعدم الانفصال عنها إلى الأبد، فكان أن دبّ اليأس تدريجيا إلى نفوس الجزائريّين من إمكان قيام حكومة الجبهة الشعبية بخطوات جادة نحو تجسيد مبادئها الإنسانيّة[1].

أمّا المزابيّون فيقول عنهم محفوظ قدّاش، متحدّثا عن موقفهم من المؤتمر الإسلاميّ، ما ترجمته: «غير أنّ صوتا مخالفا كان يسمع في ذلك الحين، هو صوت المزابيّين الإصلاحيّين الذين كانوا ينتصرون لمواقف قريبة من مواقف نجم الشمال الإفريقيّ. المزابيّون الإصلاحيّون اتّخذوا موقفا مضادّا لسياسة التجنيس والإلحاق التي تبنّاها المؤتمر[2]؛ وانتقدوا على مسؤوليه إهمالهم لمطالب الشعب المزابيّ، وذكّروهم بأنّ مزاب محكوم من الناحية السياسيّة والاجتماعيّة بمعاهدة خاصّة؛ كما انتقدت "الأمّة" أيضا على مسؤولي المؤتمر عدم احترامهم قرارات 07 جوان، فيما يتعلّق بالحفاظ على الدين، واللغة العربيّة، والوحدة الوطنيّة الجزائريّة؛ فعند إقامة أعضاء المؤتمر -غداة انعقاده- مأدبة، تكريما لفيوليت (Viollette)، كتبت الجريدة: «إنّ التقارب والتواصل تحت وطأة الخمر ومشروع فيوليت، لم يكن بالضبط ما تقرّر في المؤتمر»»[3].

عقد المزابيّون مؤتمرا لبحث موقفهم من المؤتمر الإسلاميّ يوم 1936/07/02، بسيدي بنور، بلدية سانت أوجان (Saint-Eugène)، استدعي إليه بدعوات خاصّة ممثّلون عن الجماعات المزابية بالمدن الكبرى في العمالات الثلاثة، فبلغ عدد الحاضرين في المؤتمر 200 شخصا. ترأس هذا المؤتمر الشيخ أبو اليقظان، بمساعدة

1- تنظر ظروف هذا المؤتمر وملابساته ونتائجه: الحركة الوطنية الجزائرية، الفصل السادس: المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ3: 151-170؛ وتاريخ الوطنيّة الجزائريّة، الفصل الثالث عشر: انعقاد المؤتمر الإسلامي الجزائريّ1: 391-418، وما يليه.

2- ناقلا عن جريدة "الأمّة"، للشيخ أبي اليقظان، 1936/06/16. في مقال افتتاحيّ بعنوان "يوم الجزائر التاريخيّ العظيم: المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ العامّ"، استعرض الشيخ أبو اليقظان على الأرجح، مختلف الأفكار التي استعرضت في المؤتمر إلى أن قال: «ولم يشذّ عن هذا إلاّ القليل النادر، حيث يرى لأجل نوال الحقوق وجوبَ الإدماج في العائلة الفرنسوية الكبرى، وهي فكرة سقيمة عقيمة، لا تلتئم مع الدين الإسلاميّ في إطار»؛ ثمّ ذيّل مقاله برسالة وكيل الأمّة المزابيّة، السيّد عمر بن عيسى بن إبراهيم، إلى أعضاء المؤتمر، مؤرّخة في 06/07، أكّد فيه على هذا الموقف باسم الأمّة المزابيّة، وأوضح خصوصية منطقة مزاب، وواجب الحفاظ عليها؛ ينظر: المقال، من غير إمضاء، جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س 02، ع79، 1355/03/26هـ، 1936/06/16م، ص01، 02.

3- ينظر النصّ كاملا: تاريخ الوطنيّة الجزائريّة 1: 402، 403. والنصّ الأخير منقول من جريدة "الأمّة" الجزائريّة، 1936/06/21؛ غير أنّ الجريدة لم تصدر في هذا التاريخ، وإنّما صدرت يوم 06/23؛ وإذا كان السهو قد وقع في الشهر، فالمقصود عدد يوم 07/21. وما عثرت عليه في هذا الأخير هو مقال بعنوان "حذار من الانحدار في هوّة الإدماج"، حكى فيه الشيخ أبو اليقظان -على الأرجح- ما وقع في الحفل المذكور، فقال: «وصل الموعد، وذهبت ومعي ثلّة من الأحبّة، [...] ولم نكد نتوسّط الصالة إلاّ وقد رأينا أمامنا زجاجات من الخمور، مصفّفة على المناضد بين زجاجات "القازوز"، فاندهشنا لهذا المنظر المزري بكرامة الإسلام، وبشرف العلم، وحينما قمنا للخروج استغرب منّا مديرو الحفلة [من غير تعيين للجمعية أو الجمعيات التي يمثّلونها] انسحابنا، فاعتذرنا لهم بما ذكر، وبعد أن ألحّوا علينا بالرجوع، وإزالة الزجاجات من المنضدة التي نحن عليها، أبينا ذلك إلاّ إذا أزيلت كلّها، ولا يسمح لنا شرف الإسلام أن نبقى وكؤوس الخمر ترنّ على مرأى ومسمع منّا. وحيث تعذّر عليهم ذلك التمسنا منهم العذر، فخرجنا آسفين»المقال، من غير إمضاء، جريدة "الأمّة"، س 02، ع82، 1355/05/02هـ، 1936/07/21م، ص02.

حجّوط إبراهيم، والشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز[1]؛ وفيه طلب مفدي من الحاضرين المسارعة إلى الانضمام إلى مسعى المؤتمر الإسلاميّ، وإنجاز كرّاس مطالب خاصّ بالمزابيّين في أقرب وقت ممكن[2]. وانتهى المؤتمرون في الجلسة الثانية، يوم 07/03، بمسجد الإباضية، بشارع طانجي (Tanger)، إلى القرارت الآتية:

– تكوين لجنة تحضيرية مؤقّتة، رئيسها: حجّوط إبراهيم، ونائبه: الشيخ أبو اليقظان؛ وكاتبها: الشيخ إبراهيم مطياز، ونائباه: سليمان بوجناح، ومفدي زكرياء؛ مكلّفة بحوصلة جميع الآراء التي ذكرت في اللقائين؛ وبتكوين جمعية رسمية للدفاع عن المصالح التجارية للمزابيّين.

– تشكيل لجنة من الشيخ أبي اليقظان، وحجّوط إبراهيم، وسليمان بن الحاج داود، مكلّفة بحضور اللقاء الذي سيعقده المؤتمر الإسلاميّ، يوم 07/05، لتعيين اللجنة التنفيذيّة النهائيّة للمؤتمر. وفيه يعرضون موقف المزابيّين من المؤتمر الإسلاميّ، ويتلخّص في أنّ مصالحهم مختلفة عن مصالح أهالي مناطق الشمال[3]، ولذلك سيضعون كراس مطالب سياسية خاصّة بهم، يعرضونها على الحكومة، عن طريق السلطات العسكرية بمزاب، بعد الإحراز على موافقة مشايخ مزاب، ومسؤولي جماعات مدنه السبعة[4]. وسافر الوفد المكلّف بعرض كراس مطالب المزابيّين على حكومة الجبهة الشعبيّة، إلى فرنسا، بتاريخ 1936/08/11[5].

1– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4229، 1936/07/06، موضوعه: المؤتمر المزابيّ، 2I39، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات، ص01.

2– نفسه 02.

3– وفي لقاء 05 جويلية المذكور، اقترح حمدي محمد من المدية، تعيين 03 مفوّضين لتمثيل مناطق الجنوب للعمالات الثلاثة، فعارض عمر بن عيسى، مفوّض المزابيّين، هذا التعيين، لأنّ المزابيّين لهم مصالح مختلفة عن مصالح الأهالي بمناطق الشمال؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4237، 1936/07/06، موضوعه: السياسة الأهليّة، 2I39، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص03.

4– نفسه 02، 03. وفي تقرير جماعة قالمة عن المؤتمر المزابيّ، واللقاءات التي سبقتها وتبعتها، كتبه محمد بن بكير بوراس، يوم 1936/07/11، تحدّث عن مكالمة هاتفية مع ممثّلي المؤتمر الإسلاميّ، بخصوص بيان موقفهم من المؤتمر الإسلاميّ، وكراس مطالبه، فكان جواب المزابيّين كالآتي: «إنّ الميزابيّين يوافقونهم، ويشاركونهم في جميع المسائل التي فيها نفع الجميع للجزائر[كذا]، من فتح المدارس الحرّة، وجعل اللغة العربيّة رسميّة، وفتح المساجد المغلقة، وحرية الخطابة فيها، وحرية الصحافة؛ وأمّا ما هو متعلّق بأمر السياسة، كالتجنيد، والمعاهدة التي لنا مع فرنسا سنة 1853، فتلك لا دخل لأحد فيها غير أهالي ميزاب، ضرورة أنّنا نطلب إلغاء /التجنيد، وأنتم تطلبون المساواة، ففهم الأهالي مرادهم، أي مراد الميزابيّين، فاكتفينا بذلك عن مقابلتهم في النادي» وثيقة مخطوطة، من 05 صفحات، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، ص05.

5– كان يتكوّن من: بنكيح عيسى بن بكير، والحاج امحمد عمر بن عيسى، وحجّوط إبراهيم، وعاد الأوّلان يوم 08/31، والثالث في 09/29؛ ينظر: تقريران لمدير الأمن لعمالة الجزائر، الأوّل: رقم: 4229، 1936/08/31، موضوعه: بخصوص سفر الوفد المزابيّ، 2I32، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وفيه كتب لقب العضو الثاني في الوفد اللجاجي (El Ladjadji)، وهو سهو، رجحت أن يكون تصحيحه ما ذكرت، لأنّ الحاج امحمد كان وكيلا للأمّة المزابية في تلك الفترة، خاصّة في قضية التجنيد الإجباريّ. الثاني: رقم: 5951، 1936/10/03، موضوعه: بخصوص سفر الوفد المزابيّ، 2I32، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وفي تقرير مدير الأمن بعمالة الجزائر، بتاريخ 1936/08/17، كان الحديث عن إنشاء مكتب مؤقت لـــ"جمعية التعاون المزابيّ ما بين العمالات"، يتكوّن من: بكير بسخواض رئيسا، حجّوط إبراهيم نائبا للرئيس، بوجناح سليمان كاتبا، ومفدي زكرياء كاتبا مساعدا، واسماوي حمو أمينا للمال، وتاعموت عيسى أمينا للمال مساعدا؛ وعن قانونها الأساسيّ الذي هو قيد الإنجاز، وسيودع في المحافظة، طبقا للقانون[1]؛ وقد استقرّ اسم الجمعية في قانونها الأساسيّ المطبوع على "جمعية التعاون العامّ"، وغاب مفدي عن مجلس إدارتها[2].

موقف المؤتمر الإسلاميّ كان أكبر حافز لدخول النجم المعترك السياسيّ في الجزائر فعليّا، بعد أن بقي -في الأغلب الأعمّ من نشاطه السياسيّ- بعيدا عنها منذ تأسيسه بباريس سنة 1926؛ وكان موقفه رفض ما جاء في عريضة المطالب من طلب إلحاق الجزائر بفرنسا، والمشاركة في الانتخابات التشريعيّة الفرنسيّة، ورفض مشروع فيوليت جملة وتفصيلا؛ وكان الحزب قد اكتسب خبرة سياسيّة واسعة من مقارعة رئيسه ومناضليه للاستعمار الفرنسيّ في عقر داره، منذ تأسيسه، فتميّز موقفه بالوضوح والصراحة والشجاعة أيضا، فكان لموقف المؤتمر، وردّ الفعل السلبيّ من حكومة الجبهة الشعبيّة، أكبر الأثر في استقطاب المزيد من الجزائريّين، بعد أن ساعد طابعه الشعبيّ، مقابل أحزاب وجمعيات النخبة المتجمّعة في المؤتمر الإسلاميّ، في انخراط عدد غفير من الجزائريّين في صفوفه، في أشهر معدودة، ليصبح الحزب السياسيّ الأقوى في الجزائر، فلا عجب أن يعبّر مفدي متحدّثا عن الحركة الوطنيّة في إلياذته قائلا:

«لئن بحّ صـــوت السيوف الصّـــقال ... وأغــفى صرير الرمـــاح العـــوالي
فحـــرب اليـــراع أعـــاد الصـــراع، ... يقـــود ســـرايـــاه نجـــم الشمال»[3].

وقد شهد حزب نجم الشمال الإفريقيّ نقلته النوعيّة الحقيقيّة في أرض الوطن، بمشاركة مصّالي الحاج في التجمّع الذي عقده وفد المؤتمر الإسلامي إلى فرنسا، بعد عودته منها، يوم 1936/08/02، بالملعب البلديّ بالجزائر، وخطابه الشهير الذي ألقاه في هذا التجمّع؛ ومنه قوله:

«والواقع أنّ بلادنا اليوم ملحقة بفرنسا إداريّا، وهي تابعة لسلطتها المركزيّة، ولكنّ هذا الإلحاق كان نتيجة غزو فظيع، تلاه احتلال عسكريّ، [...] لكنّ الشعب لم يوافق عليه أبدا. أمّا الإلحاق الذي نصّ عليه كراس المطالب، فهو مطلوب إراديّا باسم مؤتمر يقولون عنه: إنّه يمثّل إجماع الشعب الجزائريّ. ومن ثمّة، فهناك فرق أساسيّ بين إلحاق لبلادنا حصل رغم إرادتنا، وإلحاق إراديّ مقبول عن طيب خاطر في المؤتمر الذي انعقد في السابع من جوان، بالجزائر العاصمة [...]. إنّنا أيضا أبناء الشعب الجزائريّ، ولن نقبل أبدا

1- ينظر: التقرير، رقم: 4420، موضوعه: جمعية الدفاع عن المصالح التجاريّة للمزابيّين، 2I32، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: مطبوعة "القانون الأساسيّ لجمعية التعاون العامّ" 1936، المطبعة العربيّة، الجزائر- الجزائر، أرشيف الأستاذ صالح فضلي بني يزقن.

3- إلياذة الجزائر59.

أن تكون بلادنا ملحقة ببلاد أخرى رغم إرادتها، فنحن لا نستطيع مهما كانت الظروف، أن نرهن المستقبل الذي هو أمل الحرية الوطنية للشعب الجزائريّ»[1].

لقد كان خطابا تاريخيّا، أخذ فيه «حفنة من التراب الجزائريّ، وصرخ بأعلى صوته: هذا التراب لا يمكن أن يكون فرنسيّا. ونادى بكلمة الاستقلال للمرّة الأولى في تاريخ الجزائر، من يوم الاحتلال، على مرآى ومسمع من وفد المؤتمر الذي بقي مبهوتا، ترتعد فرائصه من وقع هذه الكلمة»[2]، فكان له وقع كبير في نفوس الحاضرين، فما أنهاه حتّى علت التصفيقات، و«رفع على الأكتاف، وداروا به الملعب البلديّ، بين التصفيقات والزغاريد»[3].

«وممّا لا شكّ فيه أنّ النشاط الرسميّ لنجم شمال إفريقيا بدأ تحديدا بالعاصمة مع هذا الخطاب، فبهذا الخطاب ولدت المصّالية في الجزائر»[4].

لقد ترك هذا الخطاب التاريخيّ، أو أصداؤه -في تقديرنا- أثرا عميقا في مفدي، دعاه إلى احتضان حزب نجم الشمال الإفريقيّ، وتعلّقه بشخصية زعيمه مصّالي الحاج، فلقد وجد فيهما تجسيدا حقيقيّا واقعيّا لوعيه وفكره وتوجّهه في النضال، فانغمس فيه بكلّ جوارحه، ليخرج من حالة الشلل التي كان فيها، إلى حالة من التوهجّ النضاليّ والأدبيّ، فكانت إحدى أخصب فترات نضاله الوطنيّ، يقول عنها محمد قنانش: «وهنا ظهر مفدي زكرياء بثقله الثقافيّ، وقيمته الأدبية، ومواقفه الثوريّة في إطار جمعية طلبة شمال إفريقيا، لتأييد فكرة الاستقلال، ودخل المعركة بكلّ قواه، وأصبح شاعر الحركة الاستقلاليّة المتمثّلة في نجم الشمال الإفريقيّ، ينافح عنها، ويتكلّم باسمها»[5].

تحدّث تقرير للإدارة الاستعماريّة، عن نشاطات مصّالي الحاج بالجزائر منذ حلوله بها يوم 08/02، وفيها ورد ما يلي: «في الأيّام الموالية [يعني: ليوم وصوله إلى الجزائر]، بقي مصّالي الحاج باستمرار على اتّصال مع بعض المزابيّين، المشهورين بانتمائهم الوطنّي: زكرياء [بن] سليمان، بوجناح سليمان، غرّافة إبراهيم، نجّار سليمان، وبلحسين (Bel Houcine)[6]؛ ومع الأعضاء الأساسيّين من فرع نجم الشمال

1- ينظر: نجم الشمال الإفريقيّ 62، 63، وتحتوي على الترجمة العربيّة للخطاب، وقد عدّلتُ عبارته الأخيرة بما رأيته أصوب، باعتبار أصله الموجود في القسم الفرنسيّ من الكتاب، ص77، 78؛ ناقلا عن جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ع42، 1936/08/26.

2- حزب الشعب الجزائريّ266.

3- نجم الشمال الإفريقيّ114.

4- مصّالي الحاج: رائد الوطنية الجزائريّة 1898-1974، بنيامين سطورا، تر: الصادق عماري، ومصطفى ماضي، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر-الجزائر، ط: 2002، ص142.

5- حزب الشعب الجزائريّ266.

6- لا وجود لمزابيّ من الوطنيّين في تلك الفترة بهذا الاسم، وعليه فإنّنا نرجّح أن يكون المعنيّ به لحول الحسين؛ ويشهد لذلك تقرير ويندر (Wender)، بخطّ يده، فقد عدّد الأشخاص الذين كانوا برفقة مصّالي، في الأيّام الأولى لوصوله إلى الجزائر، وهم المذكورون في هذا التقرير،

الإفريقيّ بالجزائر: مصطول محمد، حاج وتيس(Hadj Ouitis)، مزغنة، المهداوي (El Madaoui)، وحاج إسماعين»[1]؛ وسَبْق هذه المجموعة من المزابيّين إلى الاتّصال بمصّالي الحاج، يفسّره –على ما سبق ذكره- تقارب موقف المزابيّين المصلحين وموقف النجم من المؤتمر الإسلاميّ.

وإذا بحثنا عن أوّل لقاء لمفدي بزعيم الحزب مصّالي، وجدناه في التقارير التي كان يكتبها مدير الأمن لعمالة الجزائر، وكانت مختصرة، ودورية لا تزيد عن يومين، ترصد حركة مصّالي واتّصالاته اليوميّة بشكل دقيق، بالساعة والدقيقة؛ وبالتحديد في ثالث تقرير من هذا النوع كتب عنه منذ حلوله بالجزائر[2]، مؤرّخ يوم 1936/08/06، وخاصّ بنشاط زعيم الحزب يوم 08/05، فقد ورد فيه ما يلي: «في حدود سا 17 و30 د، ذهب إلى "كريمري قيلاتي" (Crémerie Guillati)، 04 شارع دو فرانس (De France)، حيث بقي إلى سا 18 و30 د، برفقة: زكرياء [بن] سليمان، غرّافة إبراهيم، بلحسين، وعدد من الأصدقاء»[3]؛ أمّا التقرير الذي سبقه، ويخصّ يوم 08/03، ثاني يوم له بالجزائر، فقد جاء فيه: «منذ وصوله، كان يُرى دوما، متجوّلا في المدينة، أو في محلّ "كريمري قيلاتي" (Crémerie Guellati) [...]، مكان اجتماع الوطنيّين والمصلحين [...]. وقد عقد اتّصالات مع المدعوّين: غرّافة إبراهيم، ونجّار سليمان، وبلحسين، وبوجناح سليمان، المعروفين بمواقف قليلة التوافق مع فرنسا»[4]؛ وعليه فإنّ اللقاء الأوّل لمفدي بزعيم الحزب مصّالي الحاج كان -على الأرجح- يوم 08/05، لأنّ اللقاء كان في مكان عامّ، بواسطة زملاء له، سبق لهم التعرّف عليه يوم 08/03، في مقدّمتهم غرّافة إبراهيم؛ ولأنّه لم يُكتب تقرير عن نشاطه يوم الثلاثاء 08/04، ومثل هذه التقارير لم تكن تترك شاردة ولا واردة من نشاطه اليوميّ.

تتابعت تقارير مدير الأمن لعمالة الجزائر، بعد تقرير يوم 08/06، عن نشاط مصّالي الحاج بمدينة الجزائر يوميّا، إلى تاريخ مغادرته لها إلى مسقط رأسه تلمسان، يوم 08/15، فكان عددها 08 تقارير، ذكر مفدي في جميعها، ما عدا تقرير 08/08[5]:

أضف إليهم: سبتي عبد الرحمن، وأوزقان محمد؛ وكان من بينهم: "بالحسين"، وزاد بعده بين قوسين: لحول؛ ينظر: التقرير، غير مؤرّخ، 4I3، (CAOM)، وثيقة من ستّ صفحات، ص01.

1- ينظر: مدوّنة (Note)، من غير تعيين للجهة التي أصدرتها، 1936/08/14، 3cab43، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01.

2- فقد أشار فيه إلى التقريرين السابقين، رقم: 4763، 4821، ليومي 02، و1936/08/04.

3- ينظر: التقرير، رقم: 4856، 1936/08/06، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، رئيس جمعية نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ينظر: التقرير، رقم: 4821، 1936/08/04، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، رئيس جمعية نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- تحدّث التقرير عن سفر مصّالي إلى وهران يوم 08/05، وعودته منها يوم 08/07، ومختلف نشاطاته يوم عودته. ينظر: التقرير، رقم: 4909، 1936/08/08، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، 2I45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

-**يوم 08/08**: «[...] /المزابيّ زكرياء [بن] سليمان، مناضل وطنيّ، زار بدوره على سا 19 و50د، مصّالي [في فندقه بالي ديفار (Palais d'Hiver)، 04 شارع دي ديفان (Du Divan)]، وكان مفترضا أن يجمعه لقاء في ذلك التوقيت بابن باديس، وغادر الفندق [يعني: مفدي] على سا 20 و30د [...]»[1].

-**يوم 08/09**: «[...] دخل ما بين سا 07 وسا10 و15د، السادة: جوكلاري، مسيّر الجريدة الأهليّة "لاجيستيس" (La Justice)؛ وزكرياء [بن] سليمان، مناضل وطنيّ؛ وشارل إيسكوت (Charles Escoute)، الكاتب العامّ للجبهة الشعبيّة؛ وأوزقان [عمّار]، رئيس لجنة المؤتمر الإسلاميّ للجزائر؛ وعبابسة [الأخضريّ]، مدير جريدة "الثبات"؛ وابن حرّة، مدير "لاجيستيس" (La Justice)؛ في فندق بالي ديفار (Palais d'Hiver)، حيث يقيم مصّالي الحاج، والشيخ ابن باديس، رئيس جمعية العلماء المصلحين الجزائريّين، الساكن بقسنطينة [...]. تلقّى مصّالي من سا 15 إلى 17 و45د زيارة السادة: بلحسين، وغرّافة، وزكرياء، وأوزقان، بالإضافة إلى عدد من قابضي شركة ترامواي الجزائر (T.A)؛ وفي سا 17 و50د غادر أصدقاء مصّالي المذكورون آنفا الفندق، بصحبة السيّدة إميل بيسكان (Emile Busquant)، والطفل [...]»[2].

-**يوم 08/10**: «[...] لم يترك مصّالي الفندق [...] في الصبيحة، وتلقّى فيه زيارة: زكرياء [بن]سليمان، والحسين[كذا]، وغرّافة، وعدد آخر من أصدقائه. وعلى سا 10 و30د، خرجت السيدة بيسكان (Busquant)، والطفل الذي يعتبر ابنا لمصّالي، برفقة الأشخاص المذكورين آنفا، ثمّ رجعوا عدّة دقائق بعد ذلك [...].

أمّا بالنسبة لمصّالي فلم يترك الفندق مساء ولا في السهرة؛ وقد استقبل فيه أصدقاءه: زكرياء [بن] سليمان، والحسين، وغرّافة»[3].

-**يوم 08/11**: «[...] بعد الظهيرة استقبل مصّالي: عمارة فرتشوك، عبابسة، وفرحات عبّاس، المستشار العامّ (Conseiller Général) بسطيف، وفي حدود سا 18 ذهب زكرياء [بن] سليمان، غرّافة إبراهيم، والحسين[كذا] لزيارته بمعزل عن السابقين؛ ثمّ غادره الجميع على سا 20 [...]»[4].

1- ينظر: التقرير، رقم: 4940، 1936/08/09، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، 2I45، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02. والتقرير يرصد نشاطات مصّالي ليوم 08/08.

2- ينظر: التقرير، رقم: 4968، 1936/08/11، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، 2I45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. ويتناول التقرير نشاطات مصّالي ليوم 08/09.

3- ينظر: التقرير، رقم: 4973، 1936/08/11، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، 2I45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. والتقرير يتحدّث عن نشاطات مصّالي، والشيخ عبد الحميد بن باديس، ليوم 08/10.

4- ينظر: التقرير، رقم: 4985، 1936/08/12، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، 2I45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. ويرصد التقرير نشاطات مصّالي، والشيخ عبد الحميد بن باديس، ليوم 08/11.

-**يوم 08/12**: «[...] في الصبيحة تلقّى مصّالي في الفندق زيارة عدد من الأهالي، نذكر منهم خاصّة: غرّافة إبراهيم، وزكرياء [بن] سليمان، وإسرائيليّ نظنّه المدعوّ كازيز (Kaziz)، عضو في الحزب الشيوعيّ [...].

خرج مصّالي من الفندق على سا 18، برفقة السيّدة بيسكان، والطفل؛ وذهب ثلاثتهم إلى كريمري قيلاتي (Crémerie Guellati)، [...] حيث كان غرّافة، وزكرياء، واثنان من قابضي الترمواي (Tramways)، ينتظران المناضل الوطني.

قام بجولة ما بين سا 18 و40د وسا19 و30د مع أصدقائه في شارعي لا ريبيليك (La République) وكارنو (Carnot) [...]. وذهب إلى بلاس دي قوفارنمو (Place Du Gouvernement) بمعية الأهليين اللذين كانا معه، وهناك التقى عمارة [فرتشوك]، وغرّافة، وزكرياء، فكان لهم معه حوار دام ربع ساعة؛ وانتقل مصّالي برفقة الأخيرين إلى كريمري قيلاتي، حيث يوجد ثلاثة من قابضي الترامِوي، وأربعة من الأهالي [...]؛ وخرج من المحلّ على سا 22 و 40 برفقة أصدقائه، الذين فارقهم على سا 23 و20د، ليذهب إلى الفندق»[1].

-**يوم 08/13**: «[...] بعد الظهيرة إلى سا 18 و15د، ذهب المذكوران آنفا [يعني: الحسين[كذا]، وغرّافة]، بالإضافة إلى زكرياء، وعدد من أصدقائه لزيارته[...].

هؤلاء الأشخاص [يعني: مصّالي، والسيّدة بيسكان، والطفل، وخمسة أشخاص] اتّجهوا إلى كريمري قيلاتي (Crémerie Guellati)[...]، حيث انعقد اجتماع من عشرين شخصا تقريبا، ولاحظنا من بينهم حضور: زكرياء [بن] سليمان، والحسين، وعلي الدلسي (El Delcy)، وثلاثة مزابيّين، وبحّار أهليّ؛ واختتم الاجتماع على سا 22 و10د؛ والتحق مصّالي بفندقه بعد الاجتماع برفقة أصدقائه.

وعلى سا 22 و30د، ذهب زكرياء، والحسين، لملاقاته من جديد، و لم يدم اللقاء سوى بضع دقائق [...]»[2].

-**يوم 08/14**: «[...] تلقّى مصّالي في الصبيحة زيارة غرّافة، وحسين[كذا]، وزكرياء، والشيخ سعيد الزاهري [...].

خرج معهما [يعني: أهليين، لم تحدّد هويّتاهما] من الفندق على سا 18، وكان خبر إطلاق سراح الشيخ الطيّب العقبي قد بدأ في الانتشار.

التقى مصّالي في بلاس دي قوفارنمو (Place Du Gouvernement) غرّافة، وزكرياء، وحسين، وعدد من مواطنيه؛ وعلى سا 18 و40د انتقلت المجموعة المتكوّنة من مصّالي، وغرّافة، وحسين، والشيخ سعيد الزاهري،

1- ينظر: التقرير، رقم: 4999، 1936/08/13، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، 2I45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. والتقرير يخصّ نشاطات مصّالي، ليوم 08/12.

2- ينظر: التقرير، رقم: 5021، 1936/08/14، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، 2I45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. ويهتمّ التقرير بنشاطات مصّالي، ليوم 08/13؛ والملحق605.

وزكرياء، إلى محلّ هذا الأخير، 39 شارع لا لير (La Lyre). وعلى سا 20 خرج غرّافة ليحضر سيارة أجرة، وفي سا 20 و16د أخذ مكانه في سيارة الأجرة: 9628 AL 9، كلّ من مصّالي، وزوجته، وابنه، وغرّافة، وزكرياء، وحسين، والشيخ سعيد الزاهري، وذهبوا في اتّجاه شارع ديزلي (d'Isly). وبحسب المعلومات التي تحصّلنا عليها، كانت وجهتهم "القبّة"، لزيارة الشيخ الطيّب العقبي [...]»[1].

-**يوم 08/15**: «في الصبيحة تلقّى مصّالي زيارة: زكرياء، وغرّافة، وحسين[كذا]، والشيخ سعيد الزاهري، ومصطول، وغيرهم من الأهالي [...].

وعلى سا 21 قصد مصّالي برفقة عدد من الأهالي، منهم: غرّافة، وحسين، وحاج وتيس، محطّة الجزائر؛ وأخذ مكانه في الدرجة الثالثة، في قطار تلمسان؛ وكان الشيخ سعيد الزاهري موجودا في نفس العربة التي كان موجودا بها مصّالي وزوجته وابنه.

لا بدّ من تسجيل ركوب زكرياء القطار في نفس الليلة[2]، متوجّها إلى قسنطينة»[3].

لقد توثّقت علاقة مفدي بمصّالي الحاج تدريجيا، فأعقب اللقاء الأوّل معه في مجموعة، لقاء به على انفراد يوم 08/08، وتواصلت لقاءاته به بمفرده، أو مع أصدقائه، حتّى عدّته تقارير الإدارة من أصدقاء المناضل الوطنيّ، وتجسّدت هذه الصداقة في لقاءاته به يوميّا، وفي خروجه وأصدقائه برفقة زوجته وابنها، وفي زيارة مصّالي لمحلّه بشارع لا لير، وذهابه معه لزيارة الشيخ العقبي عشية الإفراج عنه. وهذه التقارير تشفّ عن نشاطاته الأولى ضمن حزب نجم الشمال الإفريقيّ، فشارك في اجتماع 08/13، وزاره مرّة ثانية بعد الاجتماع بفندقه، على سا 22 و30د ليلا.

حضر مفدي يوم السبت 1936/09/05، الوليمة التي أقامها الشيخ الطيّب العقبي، بمناسبة ختان أبنائه، وبعد الوليمة كان الحفل، وقد ترأّسه الأستاذ أحمد توفيق المدنيّ، وكان من بين الخطباء مفدي زكرياء، فأتى في خطابه «على أدوار الحركة الإصلاحيّة والسياسيّة في الجزائر منذ الحرب، فأبهر السامعين بخطابه البديع، وقابلوه بالتصفيق مرارا. وبعد جلوسه علّق عليه الأستاذ توفيق بقوله: كنت قدّمت إليكم الأستاذ كشاعر رقيق، والآن أقدّمه إليكم كخطيب سياسيّ، أو كما قال»[4]، ونلاحظ في هذه الواقعة أثر انخراطه في النجم واضحا، ولعلّ مشاركته بالموضوع الذي تحدّث فيه، يندرج ضمن مسعى الحزب آنذاك إلى التقرّب من جمعية العلماء المسلمين، ومحاولة

---

[1]- ينظر: التقرير، رقم: 5026، 1936/08/16، موضوعه: بخصوص المدعوّ مصّالي حاج، 2I45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. ويرصد التقرير نشاطات مصّالي، ليومي 14 و08/15.

[2]- هذا التنقّل يبرّره -في تقديرنا- نشاطه التجاريّ لا غير.

[3]- ينظر: التقرير، رقم: 5026، 1936/08/16، 2I45، (CAOM)؛ ويرصد نشاطات مصّالي، ليومي 14 و08/15.

[4]- وليمة ختان أو حفلة وطنيّة، من غير إمضاء، جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س02، ع90، 1355/06/28هـ، 1936/09/15م، ص03.

إبعادها من تأثير الشيوعيّين والنوّاب، ضمن المؤتمر الإسلاميّ، لترجع إلى موقف أكثر انسجاما مع مبادئها الأساسيّة، والأسس التي تقوم عليها.

مفدي مفوّضا للدعاية للنجم:

عاد مصّالي الحاج من تلمسان يوم 09/26[1]، و لم يغادر أرض الوطن إلاّ يوم 11/08[2]، وفي هذه الفترة عقد تجمّعا شعبيّا لنجم الشمال الإفريقيّ بالجزائر، يوم 09/29، بسينما "مونديال"(Mondial)[3]، وقام بجولات للتعريف بالحزب في العمالات الثلاثة، كما سعى إلى حضور تجمّعات المؤتمر الإسلاميّ في مستغانم، وقسنطينة، لإسماع الجزائريّين صوت نجم الشمال الإفريقيّ المعارض[4].

في كلّ هذا النشاط لرئيس الحزب لم يظهر أثر لمفدي زكرياء، سواء في التقارير المتعلّقة بمصّالي شخصيّا، أو بنشاطات الحزب المختلفة:

لم يبرز خطيبا في أحد هذه التجمّعات التي عقدها الحزب ورئيسه، لجدّة الأمر -في رأينا- عليه نسبيّا، فهو لم يعتد بعد على الخطابة في تجمّعات كبيرة ذات طابع سياسيّ، ولقرب عهده بالانخراط في الحزب، وعدم فرض ذاته بعد في صفوفه عضوا من أعضائه الأساسيّين الفاعلين.

و لم يظهر ولو مرافقا لمصّالي في نشاطاته الحزبيّة، أو ملازما له في حياته اليوميّة، على ما عهدناه عليه قبل سفر مصّالي إلى تلمسان، مع استثناء واحد ووحيد هو وجوده ضمن أعضاء النجم المرافقين لرئيسه إلى محطّة القطار، عندما توجّه إلى قسنطينة مساء يوم 10/17[5]؛ غير أنّ تقريرا آخر يتحدّث عن مفارقة مفدي لرئيسه في

---

[1]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5857، 1936/09/28، موضوعه: بخصوص عودة المدعوّ مصّالي حاج إلى الجزائرّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6952، 1936/11/09، موضوعه: بخصوص مصّالي حاج، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[3]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5888، 1936/09/30، موضوعه: بخصوص التجمّع الذي أقامه نجم الشمال الإفريقيّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

[4]- ينظر: مذكرات مصّالي حاج 1898–1938 (Les Mémoires de MESSALI HADJ 1898-1938)، منشورات الشركة الوطنية للنشر والإشهار (ANEP)، الجزائر-الجزائر، ط: 2005، ص237–242.

[5]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6367، 1936/10/19، موضوعه: بخصوص وفد المؤتمر الإسلاميّ ومصّالي حاج، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

قسنطينة، في الغد من ذلك، عائدا إلى الجزائر، فلم يرافقه إلى فليبفيل(Philippeville)، ممّا يعني سفره معه إلى قسنطينة ليوم واحد فقط(1).

وإذا بحثنا عن الدور الذي كان يؤدّيه في تلك الفترة، وغيّبه عن الأضواء، فلم تذكره الإدارة الاستعماريّة في تقاريرها، فلعلّنا نجد إشارة إلى ذلك في أوّل مسؤولية أسندت إليه عند تعيين المكتب التنفيذيّ للحزب في الجزائر، في أوائل أكتوبر؛ فقد تحدّث مدير الأمن لعمالة الجزائر، في تقرير له بتاريخ 1936/10/07، عن تجديد نجم الشمال الإفريقيّ لهياكله، وهو يتلخّص في تقسيم الجزائر إلى ثلاث قطاعات، هي: الجزائر، وقسنطينة، وتلمسان؛ وفي تعيين أعضاء اللجنة التنفيذيّة لقطاع الجزائر، تضمّ عناصر قديمة(2)، وأخرى جديدة، التحقت بالحزب بعد زيارة زعيمه لأرض الوطن، وهم كالآتي:

الرئيس: مصطول محمد. نائب الرئيس: حاج إسماعين. الكاتب العامّ: خليفة [بن عمّار]. الكاتب المساعد: لحول الحسين. أعضاء مساعدون: غرّافة إبراهيم، ومزغنة أحمد، وحاج وتيس. مراقب ومفوّض للدعاية (Contrôleur et délégué à la propagande): زكرياء بن سليمان(3).

لقد كان مفدي يتميّز عن سائر أعضاء اللجنة التنفيذيّة بميزة، لا تتوفّر في الكثير من أعضاء الحزب آنذاك(4)، هي ثقافته الإسلاميّة الصميمة، وإتقانه للغة العربيّة، ذلك أنّ الجزائريّين –من غير المزابيّين– الذين كانوا يحملون هذه المواصفات، كانوا يدورون في فلك جمعية العلماء المسلمين؛ وهذه الميزة هي التي مكّنته –في تقديرنا– من الاضطلاع بدور أساسيّ في الحزب، في تلك الفترة بالذات، وهو الدعاية له، وتوظيف اللغة العربيّة في ذلك، فقد كان نجم الشمال الإفريقيّ، في معارضته لمواقف المؤتمر الإسلاميّ، يؤكّد على شخصية المجتمع الجزائريّ المتميّزة

1– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 4397، 1936/10/19، موضوعه: المراقبة السياسيّة للأهالي، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. ولم يعد مصّالي من جولته في عمالة قسنطينة إلاّ يوم 1936/10/30؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6702، 1936/10/31، موضوعه: بخصوص مصّالي حاج، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2– الأعضاء المؤسّسون لخلية نجم الشمال الإفريقيّ الأولى بالجزائر هم: مصطول، وحاج وتيس، وحاج إسماعين، وعمارة فرتشوك؛ وذُكر من بين الأعضاء النشطين في هذه الخلية: مزغنة، ودشوك مصطفى، والمهداوي سليمان، وغيرهم. ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى المحافظ، رقم: 1903، 1935/05/09، موضوعها: الخلية الجزائريّة لنجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01. بينما يذكر محفوظ قدّاش أنّ أوّل خلية لنجم الشمال الإفريقيّ بالجزائر، كانت برئاسة مصطول، ومساعدوه هم: خيضر، ومزغنة، وخليفة بن عمّار ... [كذا]، من غير توثيق لمعلومته هذه؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة1: 324.

3– ينظر: التقرير، رقم: 6049، موضوعه: بخصوص نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01. ولم يذكر التقرير تاريخ اللقاء الذي تمّ فيه إجراء هذا التعديل، غير أنّ القرائن تدلّ على أنّه تمّ في أوائل شهر أكتوبر، بعد عودة رئيس الحزب من تلمسان.

4– يصرّح محفوظ قدّاش أنّ الخلية الأولى للنجم بالجزائر، تشكّلت من الطبقة العاملة (البرولتاريا)، ولا وجود بينهم لمثقّفين؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة1: 324. وكانت ثقافة لحول الحسين فرنسيّة، وثقافة غرّافة كانت عربيّة جدّ محدودة؛ ينظر: مدوّنة معلومات خاصّة بلحول حسين، وأخرى خاصّة غرّافة إبراهيم، 1939/04/19، صادرتان عن مركز الاستخبارات والدراسات (CIE) بالجزائر، 4I87، (CAOM)، وثيقتان من صفحة واحدة.

عن الشخصية الفرنسيّة بالإسلام، وباللغة العربيّة، وبتاريخ الجزائر؛ فكان لزاما عليه أن يمنح للغة العربيّة مكانتها في أدبياته، ومناشيره في الجزائر، على خلاف ما كان عليه الأمر في نشاطه بفرنسا.

وأكبر شاهد على ذلك هو الاختلاف النوعيّ بين المناشير التي وزّعتها خلية النجم بالجزائر منذ تأسيسها سنة 1934، والمناشير التي وزّعها فرع الحزب بالجزائر، بعد انخراط مفدي في صفوفه:

عثرنا على منشورين يعود نشرهما إلى ما قبل أوت 1936:

أوّلهما: منشور يحمل إمضاء اللجنة الرئيسة للخلية الجزائريّة لنجم شمال إفريقيا، يدعو الجزائريّين إلى حضور التجمّع الذي ستعقده يوم 1934/12/07، بقاعة النقابات، 16 شارع دو ليون (De Lyon)، بالجزائر، وكان مكتوبا بالفرنسيّة، وطبع بمطبعة غوتنبرغ (Gutenberg)، ببلكور[1].

ثانيهما: منشور وزّع يوم 1936/03/07، بالجزائر، أصدرته الخلية الجزائريّة للنجم، وكان مكتوبا بالفرنسيّة، لم تعيّن فيه المطبعة التي طبع فيها[2].

وفي 1936/08/06، وزّع منشور بالجزائر، بعنوان "جواب للدكتور ابن جلول"، والجديد فيه: هو في أعلى الصفحة، وفي وسطه شعار الحزب: الآية الكريمة: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا﴾[3]، وعلى جانبيها نجمة وهلال، نجده في واجهة جريدة "الأمّة"، التابعة لنجم الشمال الإفريقيّ، والصادرة بباريس، وتحت الآية، وباللغة العربية دائما: جمعية نجم إفريقيا الشمالية؛ أمّا بقية المنشور، فهو باللغة الفرنسيّة، من غير تعيين للمطبعة[4].

وفي 08/13 وزّع الحزب منشورا جديدا بالجزائر[5]، لم تذكر فيه المطبعة، هي ورقة مطبوعة وجها وظهرا:

وجه باللغة العربيّة[ينظر: الملحق607]: كتبت فيه الآية، والشعار على الجانبين: نجمة وهلال، وتحته: احتجاج الحزب الوطنيّ الجزائريّ، وأسفل منه بخطّ أصغر من سابقه: الفرع الجزائريّ المركزيّ لنجم شمال إفريقيا.

والآخر بالفرنسيّة: خال من الآية والشعار، ومختلف في لفظه عن سابقه، بما لا يمكن اعتباره ترجمة أمينة للنصّ العربيّ، ولا العكس، ويدلّنا على ذلك هذا المقطع من النصّ العربيّ: «أولئك الخصوم –الغير الشرفاء– الذين

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6825، 1934/12/07، موضوعه: بخصوص مناشير نشره نجم الشمال الإفريقيّ، 2I38، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1433، 1936/03/10، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

3- سورة آل عمران، الآية 103.

4- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4886، 1936/08/07، موضوعه: بخصوص مناشير لنجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5015، 1936/08/14، موضوعه: بخصوص مناشير لنجم الشمال الإفريقيّ، 2I45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

يريدون أن يقطعوا ذلك الحبل من الاتّحاد الذي نسجه المؤتمر الجزائريّ، ولكن نسوا أنّ ذلك حبل الله، وهيهات أن تقطع يد العبد ما أبرمته يد الله. هم يجرّبون كلّ وسيلة لإرهابنا وتهديدنا، وحملنا قسرا على مضادّة حكومة الجبهة الشعبيّة التي أعارت اهتمامها لمطالبنا العادلة الشريفة»[1].

ثمّ تأتي ثلاثة مناشير جميعها مطبوع بالمطبعة العربيّة، 70 شارع روفيقو (Rovigo)، طبعت ووزّعت في شهر نوفمبر، تشترك في الآية والشعار، وتختلف في الفرع بين قسنطينة[2]، وقالمة[3]، وشرشال[4]، ولكنّها من إنجاز فرع الجزائر[5]، ويشترك منشورا الفرعين الأوّلين في انقسام نصّهما إلى قسمين: قسم باللغة العربية، والثاني باللغة الفرنسيّة، وليس أحدهما ترجمة أمينة للآخر[6]؛ بينما كتب منشور الفرع الشرشالي باللغة الفرنسية فقط.

ثمّ أصدر النجم منشورا في الجزائر، في شهر ديسمبر، كتب نصّه باللغة الفرنسيّة، اكتشفت الإدارة أمره وهو قيد الطبع بالمطبعة العربيّة، يحمل من شعار النجم: النجم والهلال على الجانبين، وبينهما كتب باللغة العربيّة: نجم الشمال الإفريقيّ، وتحته: اللجنة العليا الجزائريّة[7].

---

[1]- نسخة من المنشور، أرفقت بالتقرير السابق، 2I45، (CAOM)، وثيقة من ورقة واحدة مطبوعة وجها وظهرا. يقابله في النصّ الفرنسيّ ما يلي:
«Les ennemis avoués, ou cachés, de nos légitimes revendications, veulent briser l'union magnifique sortie du congrès. Ils tentent de nous dresser contre le gouvernement du Front Populaire favorable à notre juste cause».

[2]- وزّع يوم 11/01، يتحدّث عمّا أقرّه الحزب في اجتماع يوم 10/24 برئاسة رئيس الحزب، بقسنطينة؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6765، 1936/11/02، موضوعه: بخصوص مناشير لنجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

[3]- وزّع يوم 11/15، يفضح تصرّفات ابن جماع الحاج مصطفى في اجتماع الحزب برئاسة مصّالي الحاج، يوم 10/29 بقالمة؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7102، 1936/11/16، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]- وزّع خلال شهر نوفمبر، ويفضح تصرّفات النائب البلدي (Conseiller municipal) دكيش عبد الله، الذي وضع العراقيل دون التجمّع الذي سعى الحزب إلى تنظيمه بقاعة الحفلات بشرشال، وكان من المفترض أن ينشّطه رئيس الحزب؛ ينظر: تقرير الرائد ديكاي (Ducay)، قائد فصيلة الدرك الوطنيّ لمدينة البليدة، رقم: 1084/2، 1936/11/22، موضوعه: منظّمة نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]- يدلّنا على ذلك مطالبة فرع الجزائر بدينه لدى فرع قسنطينة، مقداره 225 فرنكا، عندما كان يعيش أزمة مادية في بداية شهر فيفري 1937، وتذكر الرسالة الموجّهة إلى عمر بن دحمان، 1937/02/03، أنّ هذا المبلغ يمثّل مصاريف طبع منشور لصالح فرع قسنطينة، منذ ثلاثة أشهر، فلا يمكن أن يكون سوى المنشور الذي تحدّثنا عنه سابقا؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 911، 1937/03/06، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[6]- وهما لا يختلفان في شيء عن المنشور الذي وزّعه الحزب، معلنا عن التجمّع الذي سيعقده برئاسة مصّالي، في الجزائر، يوم 1936/09/29؛ ينظر: نسخة مطبوعة من المنشور، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[7]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 8098، 1936/12/22، موضوعه: بخصوص مناشير لنجم الشمال الإفريقيّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

والحقّ أنّه إذا تتبّعنا مناشير النجم، وحزب الشعب الجزائريّ من بعده، لا نجد نمطا أو نظاما موحّدا في جميعها، تصبّ فيه هذه المناشير، حتّى فيما يتعلّق بشعار الحزب، فأحيانا يكتب المنشور باللغتين، ويكتب باللغة الفرنسية في أحيان أخرى، وقلّما كتب باللغة العربية فقط؛ وفي ذلك صورة للطابع الخاصّ الذي تميّز به هذا التنظيم الحزبيّ، فقد كان حزبا ديناميّا، حريّة المبادرة فيه مفتوحة على مصراعيها، ولا يتحكّم فيه زعيمه تحكّما يضيّق من حرية مناضليه ومسؤوليه، وهو ما ساعده في استقطاب الشباب من كلّ الفئات والشرائح، فكان نشاطه وتطوّره محكوما بحيوية ونشاط مناضليه ومسؤوليهم، وعندما تدخل السجن مجموعة منهم، يحيا الحزب ويستمرّ، من خلال جيل جديد من المناضلين؛ وعليه لم يكن هناك نظام صارم في كتابة هذه المناشير، فأصبحت خاضعة للظروف التي يكتب فيها أيّ منشور، أو للشخص الذي تكفّل بكتابته، كما أنّ اللغة الفرنسية كان ممّا لا يمكن الاستغناء عنه، لأنّ الكثير من مناضلي الحزب، كانت ثقافتهم فرنسية. غير أنّه لا يمكن للفاحص لهذه المناشير، في ضوء المعطيات التي ذكرناها آنفا، أن لا يلاحظ بصمة مفدي واضحة، في إدراج الحرف العربيّ في مناشير الحزب على الأقلّ، فأسلوب مفدي وثقافته الإسلاميّة واضحان في النصّ الذي اقتبسناه من أحد هذه المناشير، وممّا ساعده على ذلك استعداد فطريّ لديه للإشهار والدعاية، سبق وأن لاحظناه في إشهار شركته السابقة؛ كما أنّه يفسّر – في تقديرنا– إسناد الحزب مهمّة الدعاية له، وكذلك طبع أغلب المناشير بعد انخراطه وغرّافة إبراهيم في صفوف الحزب، في المطبعة العربيّة، لأستاذه الشيخ أبي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى.

ثمّ إنّنا نلاحظ أمرا آخر في هذه المناشير، يظهر واضحا في تلك التي كتبت باللغتين، فهناك فارق نوعيّ في تسمية الحزب، فإذا كان النصّ الفرنسيّ يستعمل التسمية الرسميّة "نجم الشمال الإفريقيّ"، فإنّ النصّ العربيّ يزيد عليها "الحزب الوطنيّ الجزائريّ"، وهو يباين التسمية الرسميّة، من حيث عدم استعمال مصطلح "الحزب"، فقد كان النجم رسميّا "جمعية"؛ ومن حيث حصر نشاطه في الجزائر، وكان نشاط الحزب شاملا لشمال إفريقيا؛ وممّا يؤكّد أثر مفدي في هذا الأمر تأكيده على هذه الإضافة في إنجازيه الكبيرين.

قام مفدي في هذه الفترة أيضا بإنجازين هامّين، أخفياه –فيما يبدو– عن الأنظار، ويدخلان في إطار الدعاية للحزب، كانت اللغة العربيّة فيهما سيّدة، وهما الأوّلان من نوعهما –في حدود علمي– في تاريخ الحزب، وفي تاريخ الحركة الوطنية الجزائريّة، وكان لهما أثرهما الكبير في مساريْهما:

الأوّل: النشيد الوطنيّ الجزائريّ.

تاريخ إنشاء هذا النشيد كما ورد في ذيله مطبوعا، هو يوم السبت غرّة شعبان 1355هـ/ الموافق ليوم 17 أكتوبر 1936م[1]، وفي هذا التاريخ كان مفدي زكرياء في الجزائر، إذ تحدّث تقرير عن وجوده

1– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4384، 1936/11/23، موضوعه: أغنية وطنية أهليّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من النشيد الوطنيّ الجزائريّ، مطوية من أربع صفحات، والكتابة على ثلاث منها.

ضمن المرافقين لرئيس الحزب مصّالي الحاج إلى المحطّة، عند سفره إلى قسنطينة، على سا 21 و30د ليلا، بعد وصول هذا الأخير من تلمسان مساء ذلك اليوم، على سا 18 و15د[1]، وتحدّث آخر عن عودة مفدي من قسنطينة في الغد من ذلك[2].

عاد مصّالي من عمالة قسنطينة يوم 10/30[3]؛ وفي 11/02 غادر الجزائر متوجّها إلى تلمسان[4]؛ ليعود منها يوم 11/07؛ ثمّ غادر الجزائر إلى فرنسا يوم 11/08[5]. وهكذا لم تتجاوز إقامة الزعيم في الجزائر خلال شهر كامل تقريبا أيّاما معدودة، وفي هذه الأيّام القليلة لم تسجّل تقارير الإدارة الفرنسيّة لقاء بينه وبين مفدي، وعليه فيكون مفدي قد عرض -في تقديرنا- النشيد على زعيم الحزب، وخطّة طبعه وكيفيتها، في هذه السفرة التي جمعتهما إلى قسنطينة ليوم كامل، كلّ ذلك باعتبار مفدي يشغل مسؤولية الدعاية في اللجنة التنفيذيّة للحزب بالجزائر، كما مرّ؛ ولا نظنّ مفدي يقوم بمثل هذا العمل من غير استشارة زعيم الحزب، كما أنّ إجراءات طبعه -كما سنبيّنها-، وإنشادها لأوّل مرّة في ملإ من الناس من جهة أخرى، يؤيّدان ما قدّرناه:

يقول تقرير الإدارة الذي تحدّث عن سفر مصّالي الحاج إلى فرنسا، يوم 1936/11/08، وقد شيّعه إلى رصيف الميناء 200 شخصا تقريبا: «وقبل أن ترفع الباخرة مرساها، أنشد أصدقاؤه شيئا من قبيل النشيد الوطنيّ، باللغة العربية، وهم يرفعون سبابة اليد اليمنى»[6]؛ وعبارة التقرير واضحة في كونها المرّة الأولى التي يؤدّى فيها هذا النشيد، وبهذه الطريقة الخاصّة، وهو ما أكّده تتبّعنا لمختلف التجمّعات التي قام بها الحزب في الفترة الفاصلة بين يوم نظم النشيد، ويوم مغادرة مصّالي لأرض الوطن.

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6367، 1936/10/19، موضوعه: بخصوص وفد المؤتمر الإسلاميّ ومصّالي حاج، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. نشّط مصّالي تجمّعا بمستغانم يوم 10/15؛ وكانت عودته إلى الجزائر من فور ناسيونال (Fort National)، يوم 10/10، ولا نعلم متى غادر الجزائر، ليقوم بجولته هذه في عمالة وهران بين هذين التاريخين؛ ينظر تباعا: الأمن والقضايا الأهليّة، تقرير يرصد أحداثا متفرّقة في عمالة وهران، 1936/10/19، من غير تعيين للجهة التي أصدرته، 3cab43، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص03؛ وتقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6152، 1936/10/12، موضوعه: بخصوص مصّالي حاج، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 4397، 1936/10/19، موضوعه: المراقبة السياسيّة للأهالي، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6702، 1936/10/31، موضوعه: بخصوص مصّالي حاج، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6795، 1936/11/03، موضوعه: بخصوص مصّالي حاج، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6952، 1936/11/09، موضوعه: بخصوص مصّالي حاج، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- نفسه.

عقد مصّالي الحاج أوّل تجمّع للنجم بباريس، بعد عودته من الجزائر، يوم 1936/11/27، وقدّم فيه عرضا عن نشاطه بالجزائر طيلة المدّة التي أقامها بها[1]، وتحدّث كحّال أرزقي عن اختتام التجمّع، في رسالته إلى أعضاء فرع قسنطينة، فقال: «ثمّ بعد ذلك تكلّم الأخ كحّال، وقال للحاضرين: [...] نختم هذا الاجتماع العظيم بإنشاد النشيد الرسميّ لحزبنا، أحد أعضاء فرع قسنطينة موجود معنا، سوف ينشده عليكم، ونودي على أخيكم عبد الله [...]، وعند أدائه للنشيد، قام كلّ من بالقاعة بالتمام، وهم رافعون أيديهم بالتحيّة، وعند ختامه صفّقوا تصفيقا حادّا»[2].

وفي رسالة مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى محافظها، بتاريخ 1936/12/29، قدّم له التوضيحات التي طلبها منه يوم 11/17، في مراسلته رقم: 30877، وتخصّ النشيد الوطنيّ الجزائريّ، فجاء فيها ما يلي: «[...] لي الشرف أن أعلمكم أنّ المدعوّ خليفة [بن عمّار]، الكاتب العامّ للخلية الجزائريّة للجمعية الوطنيّة "نجم الشمال الإفريقيّ"، كلّف في حدود 10 نوفمبر الفارط، المطبعة العربيّة، 70 شارع رفيغو(Rovigo)، بطبع 20.000 نسخة من النشيد المعنون "النشيد الوطنيّ الجزائريّ"، والذي صاحبه هو المدعوّ مفدي زكرياء بن سليمان، مفوّض الدعاية في هذه الجمعية. خليفة بن عمّار، هو الذي وفّر الصور السلبيّة الضرورية لطبع ذلك النشيد؛ وهو الذي استلم بنفسه، مرّة واحدة، النسخ العشرين ألف، في سهرة يوم السبت 21 نوفمبر الماضي [...]»[3].

والنشيد مطبوعا عبارة عن مطوية، كان الطبع فيها على صفحاتها الثلاثة الأولى:

في الصفحة الأولى: صورة مصّالي الحاج، في إطار مزخرف قليلا. وداخل الإطار، كتب بخطّ مفدي على الأرجح، في الأعلى: «المجاهد الكبير، والزعيم الجليل، الأستاذ مصّالي الحاج، رئيس الحزب الحرّ الوطنيّ الجزائريّ»؛ وفي الأسفل: «النصر والغلبة للذين يضحّون بأنفسهم وأموالهم في سبيل الدفاع عن كرامة البلاد»، وتحت هذا النصّ إمضاء بالحروف العربيّة: «مصّالي». وتحت الإطار، عنوان بحروف المطبعة: النشيد الوطني الجزائري، وبعده بحروف أدقّ في أربعة أسطر: «نظم مفدي زكرياء. حقوق الطبع محفوظة. المطبعة العربيّة بالجزائر (بالعربية والفرنسية على الجانبين)».

وعلى الصفحتين الثانية والثالثة، المتقابلتين في المطوية، وبخطّ مفدي نجد:

النشيد الوطنيّ الجزائريّ، بمقاطعه الستّة مرقّمة، ثلاثة في الصفحة الثانية، وثلاثة في الصفحة الثالثة.

1- ينظر: تقرير، من غير تعيين للجهة التي أصدرته، موضوعه: بخصوص تجمّع نجم الشمال الإفريقيّ المنعقد يوم 27 نوفمبر، (CAOM)، 3cab42، وثيقة من ثلاث صفحات.

2- ينظر: نسخة مصوّرة من الرسالة، 1936/12/08، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص 03، مع تصحيح بعض عباراتها.

3- ينظر: الرسالة، رقم: 8020، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وفوق المقطع الأوّل من النشيد، في الوسط، نجد شعار النجم: النجمة والهلال، والآية الكريمة مكتوبة وسط الهلال؛ وبين الهلال والنجمة كتب ما يلي: «حبّ الوطن من الإيمان». وفوق الشعار في سطرين: «الحزب الوطنيّ الجزائريّ الوحيد الذي لا يريد التجنيس والاندماج»؛ وتحته: «نجمة إفريقيا الشمالية». وفي الجهة اليمنى للشعار، في خمسة أسطر بخطّ متفاوت من حيث الحجم: «مبدؤنا: تحيا الجزائر حرّة سعيدة، تحت دائرة جنسيتها المقدّسة»؛ وفي الجهة اليسرى في ستّة أسطر، بخطّ متفاوت الحجم أيضا: «شعارنا: الإسلام ديننا، الجزائر بلادنا، العربية لغتنا. كلّ من يطلب إلحاق بلادنا، والمروق من جنسنا، فهو أكبر عدوّ لنا وللإسلام».

وبعد المقطع السادس والأخير من النشيد، في الصفحة الثالثة، نقرأ ما يلي: «الجزائر، غرّة شعبان سنة 1355هـــ»، وبعده إمضاء مفدي: «مفدي زكرياء بن سليمان».

لقد طبع النشيد مكتوبا بخطّ مفدي، واكتفى فيه بالوضوح، فلم يتوخّ تجويده، وهو ما يدلّ على الاقتصاد في التكلفة، فلم يكن فرع النجم بالجزائر يملك إمكانات مادّية كبيرة، في هذا الطور من هيكلته وتنظيمه، كما أنّ مناضليه كانوا -في الأغلب- عمّالا وحرفيّين، من الفئات المحدودة الدخل في المجتمع الجزائريّ؛ والحقّ أنّ الأرشيف المتوفّر بين أيدينا، والمصادر التي اعتمدناها لم تكشف عن مصدر أو مصادر تمويل ما طبعه نجم الشمال الإفريقيّ في هذه الفترة عموما، وتمويل طبع "النشيد" و"البلاغ" بعده على وجه الخصوص، لأنّ عدد النسخ التي طبعت منهما كبير نسبيّا؛ كما يدلّ على اقتصاد في الوقت أيضا، للحفاظ -ربّما- على بذرة الوطنيّة التي زرعها مصّالي الحاج في المجتمع الجزائري، في فترة إقامته القصيرة والمثمرة بالجزائر، وتمكينها فيه قبل سفره إلى فرنسا؛ كلّ ذلك يدعّم تقديرنا لزمان اطّلاع رئيس الحزب على "النشيد"، لتبتدأ بعد ذلك مباشرة إجراءات الطبع.

ثمّ إنّ إمضاء مفدي للنشيد باسمه الصريح يدلّ على العنفوان النضاليّ الذي كانت تجيش به نفسه في تلك الفترة، فقد كان ذلك منه مغامرة غير مأمونة العواقب، في مواجهة بطش الإدارة الاستعماريّة، وهي تعطي صورة عن خروج نجم الشمال الإفريقيّ في الجزائر، من النشاط السرّي -في الأغلب- قبل وصول زعيمه، إلى النشاط في العلن، فالقدوة التي قدّمها مصّالي عن نفسه في مقارعة الاستعمار، وخصومه في فكرته الوطنيّة، والثقة التي منحها لمناضلي النجم بالجزائر -ومنهم مفدي- أكسبتهم ثقة كبيرة في نفوسهم، وشجاعة بدت لغيرهم تهوّرا كبيرا، وإرادة صلبة في العمل والنشاط، وتضحية في سبيل الوطن بكلّ غال ونفيس.

إنّ بصمة مفدي التي ألمحنا إليها سابقا[1]، تظهر بوضوح في مضمون النشيد، وجميع ما ورد من كتابات في مطبوعته، فقد جعل من النجم حزبا، وأعطاه تسمية جديدة هي "الحزب الوطنيّ الجزائري"، وهو ما يمكن اعتباره توجّها جديدا لنجم الشمال الإفريقيّ عبّر عنه مفدي بوضوح، يمهّد لما حدث فعلا بعد ذلك عند إنشاء "حزب

[1]- ينظر: ص173.

الشعب الجزائريّ"؛ وهو يقدّم صورة عن التحوّل الذي شهده فرع النجم بالجزائر منذ مجيء مصّالي إلى أرض الوطن، وتطعيمه بنفس جديد، وبعناصر جديدة، فقد أصبح فرعا للنجم أشبه منه بالأصل.

اكتشفت الإدارة الاستعماريّة أمر "النشيد"، بعد خروجه من المطبعة بيوم أو يومين على الأكثر[1]، فتحرّكت آلتها، ليصدر الوالي العامّ جورج لو بو (Georges Le Beau) مرسوما بمنعه، يوم 1936/11/28، وهو ينصّ في مادّته الأولى على ما يلي: «إنّ انتقال، وبيع، وتوزيع "النشيد الوطنيّ الجزائريّ" [...]، المطبوع بالجزائر ممنوع في كافّة مناطق التراب الجزائريّ»[2]؛ غير أنّ المرسوم لم تستقبله محافظة الجزائر –بحسب ختم البريد الوارد– إلاّ يوم 12/02، مرفقا –فيما يبدو– برسالة من الوالي العام إلى المحافظ، مؤرّخة في 12/01، يعلمه بصدور المرسوم، ويطلب تطبيقه فيما يخصّه، ويخصّ الإدارات التابعة له[3].

غير أنّ انتقال، وبيع، وتوزيع النشيد استمرّ، وأسهم في ذلك مفدي مساهمة فعّالة، بل وذكر الوالي العام في رسالته إلى المحافظ، بتاريخ 1936/12/10، استمرار طبعه سرّا أيضا، بناء على معلومات بلغته من مخبر حسن الاطّلاع عادة، فيقول: «أرسلت 1.000 نسخة منه، يوم 02 ديسمبر، إلى خلية قسنطينة[4]. وقدّم مفدي طلبا بـــ 10.000 نسخة، في 05 ديسمبر، وسيتمّ تسليمها له يوم 07 ديسمبر، وسيقوم هو ببيعها سرّا، بثمن فرنكين للنسخة؛ وقد شوهدت 1.500 نسخة من هذا الطلب في المطبعة العربيّة، يوم 05 ديسمبر، في السهرة»، ثمّ طلب منه إخباره بما توفّر لديه من معلومات في هذا الشأن، واتّخاد الإجراءات اللازمة لضمان تطبيق المرسوم[5].

وفي نفس التاريخ السابق بعث مفدي برسالة إلى أستاذه، الشيخ الثمينيّ، يقول له فيها: «سيّدي نوجّه إليكم طيّ هذا مائتي نسخة من النشيد الوطنيّ الجزائريّ الذي أصبح أغنية الجزائر، ذكرانا وإناثا، شيبا وشبابا، ونرجوكم أن تروّجوه لنا هنالك بين الطلبة الجزائريّين الزيتونيّين وغيرهم، وثمنه فرنك واحد، يخصم منه عمولة البيع، وهي

---

[1]– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7384، 1936/11/23، موضوعه: نشيد وطنيّ أهليّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]– ينظر: المرسوم، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[3]– ينظر: الرسالة، رقم: 19593 B، موضوعها: منع النشيد "النشيد الوطنيّ الجزائريّ"، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وختم البريد الوارد هو نفس ختم الموجود على المرسوم، من غير حديث في الرسالة عن إرفاقه بها.

[4]– أجري تفتيش في منزل كاتب خلية قسنطينة، بن دحمان عمر، يوم 1937/03/05، فاكتشفت فيه 1025 نسخة من النشيد الوطنيّ الجزائري؛ ينظر: مذكرة شهرية للمعلومات خاصّة بالسياسة الأهليّة في عمالة قسنطينة، مارس 1937، مركز الاستخبارات والدراسات (CIE)، محافظة قسنطينة، 11h59، (CAOM)، ص08.

[5]– ينظر: الرسالة، رقم: 20193 B، موضوعها: بخصوص النشيد الوطنيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. ويذكر المحافظ في جوابه، يوم 12/11، أنّه لم يثبت لدى مصالحه استمرار طبع "النشيد"، وأنّ حلّ هذه القضية يكمن في مصادرة نسخ النشيد في المطبعة بداية، وأينما وجدت بعد ذلك، غير أنّ المرسوم لم ينصّ على المصادرة، ممّا يشكّل عائقا في ضمان فعالية تطبيق المرسوم؛ ينظر: مسوّدة رسالة بخطّ المحافظ على الأرجح، رقم: 30488، موضوعها: بخصوص النشيد الوطنيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات.

عشرة بالمائة [...]. وإذا رأيتم أنّ عدد النشيد المرسل إليكم غير كاف، فأخبرونا نزيدكم منه، والثمن يرسل باسم العنوان أسفله، وإنّا شاكرون فضلكم سلفا»[1].

وتحدّث المحافظ المركزيّ للشرطة بمدينة معسكر في رسالته إلى الوالي العامّ، بتاريخ 1936/12/14، عن مصادرته لستّ نسخ من النشيد يوم 12/12، وأنّ التحقيق مع المتّهم في هذه القضية، أفضى إلى إقراره بتسلّم 10 نسخ من النشيد، من شخص يدعى زكرياء، عند مروره بالمدينة، قبل أربعة أيّام أو خمسة[2].

وفي رسالة محافظ وهران إلى الوالي العام، مؤرّخة في 1937/01/08، تناولت قضية مشابهة، تحدّث عن اعتراف المتّهم، فقال: «نقل مفدي زكرياء "النشيد الوطنيّ الجزائري" إلى معسكر، زمن حلول جولة "محي الدّين [باشترزي]" بها. قدّم له ما يقارب العشرين نسخة، لبيعها، وإرسال المبلغ المحصّل إليه. لقد نشر مفدي زكرياء هذا النشيد التحريضيّ في كلّ مكان، وخاصّة في غليزان، وعندما أعطاه المجموعة التي كلّفه ببيعها، قال له مفدي: إنّك عضو في الاتّحاد الأدبيّ، خذ إنّه أدب»[3].

الثاني: بلاغ من رئيس الحزب الوطنيّ الجزائريّ مصّالي الحاج إلى الأمّة الجزائريّة الكريمة.

نُسب "البلاغ" -مطبوعا- إلى رئيس نجم الشمال الإفريقيّ، مصّالي الحاج، وحُدّد مكان الانتهاء من كتابته فيه بباريس، وتاريخه بيوم 1936/11/12[4]، أي: بعد أربعة أيّام فقط من مغادرته لأرض الوطن يوم 11/08، كما مرّ قريبا؛ وكان مصّالي قد أمضى فترة إقامته بالجزائر في التنقّل بين العمالات الثلاثة، لإسماع صوته، ونشر فكرته السياسيّة؛ في حين كان فيه "البلاغ" مقالا سياسيّا مطوّلا، يعرض بإسهاب موقف النجم من المسألة الوطنيّة الجزائريّة، في مواجهة الاستعمار، وخصومه من المؤتمر الإسلاميّ، وكان أسلوبه أدبيّا رفيعا، يستبعد صدوره من زعيم النجم، ويستبعد كونه ترجمة من أصل باللغة الفرنسيّة؛ كلّ ذلك أثار شكّ الإدارة الاستعماريّة في صحّة نسبة "البلاغ" إليه، فوجّهت بعض اهتمامها لاكتشاف صاحبه الحقيقيّ.

اكتشفت الإدارة أمر "البلاغ" حينما وزّع لأوّل مرّة، مساء يوم 11/30، وأنّه قد طبعت 6.000 نسخة منه، في المطبعة العربيّة[5]، ولعلّنا نجد في لهجته الحادّة، وفي سبق تجربة الإدارة مع "النشيد"، تفسيرا لصدور مرسوم

1- ينظر: الرسالة، 1355/09/25هـ، 1936/12/10، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ينظر: الرسالة، رقم: 15743، موضوعها: "النشيد الوطنيّ الجزائريّ" المحظور، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: الرسالة، رقم: 18 S، موضوعها: المراقبة السياسيّة للأهالي: "النشيد الوطنيّ الجزائريّ"، تحمل إمضاء: مصيلو (Masselot)، 2I37، (CAOM)، وثيقة من 04 صفحات، ص02.

4- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7512، 1936/11/30، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من البلاغ، في صفحة واحدة بحجم صفحة جريدة، متكوّنة من ثلاثة أعمدة.

5- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7512، 1936/11/30، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وختم البريد الوارد الخاصّ بمحافظة الجزائر هو بتاريخ 1936/12/01.

منعه في وقت قياسيّ، يوم 04 ديسمبر 1936، وهو لا يختلف عن مرسوم منع تنقّل وبيع وتوزيع "النشيد" في شيء، سوى عنوان المطبوعة المحظورة، وتاريخ صدور المرسوم[1].

أنجز مركز الاستخبارات والدراسات (CIE)، المنشإ حديثا، ورقتي معلومات حول "البلاغ":

الأولى: يوم 12/01، أرفقت بنسخة من "البلاغ"، بالإضافة إلى ترجمة له. وقدّم فيها المركز مزيد تدقيق للمعلومات التي وردت في تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، وقد سبق، فأكّد على أنّ عدد النسخ المطبوعة منه هو 40.000 نسخة، وأنّه وزّع يوم 11/30، على سا 15، بشارع لا لير (La Lyre). وأورد روايتين عن هوية صاحبه، فقال: «حسب المعلومات الأوليّة المستقاة، فإنّ هذا المنشور لم يكتب بباريس، وإنّما في الجزائر. ويزعم أحد المخبرين أنّ بوجناح سليمان كتبه، وصحّحه الشيخ فضيل الورتلانيّ في باريس. أمّا توفيق المدنيّ -المفترض فيه معرفة ما يمكن التعويل عليه من معلومات- /فإنّه يَنسِبُ -على خلاف ذلك- أبوّته إلى مفدي زكرياء، وهو ما يبدو الأكثر احتمالا، لأنّنا -في الواقع- نجد في هذا البلاغ أسلوب مفدي، وطرق تصرّفه في تعبيره، وحتّى بعض الجمل التي وظّفها في نشيده، ممّا يعتبر خاصّا ونادر الاستعمال[2]؛ ثمّ إنّ مفدي زكرياء كان قد عقد اجتماعا في تلمسان، يوم 30 نوفمبر[3]، في السهرة، علّق فيه على البلاغ»[4].

الثانية: يوم 12/07، بعد ثلاثة أيّام من صدور مرسوم منعه، تزيد المعلومات السابقة أيضا تدقيقا، فبالرغم من أنّ عدد النسخ المصرّح بها لدى محافظة الجزائر هو 6.000 نسخة من "البلاغ"، فإنّ العدد الذي طبعته المطبعة العربيّة في الحقيقة هو 40.000 نسخة، وتقع مسؤولية توزيعه في الجزائر، وداخل البلاد على اللجنة الرئيسة للخلية الجزائريّة لنجم الشمال الإفريقيّ. وبخصوص أبوّة "البلاغ" يقول: «مؤلّف "البلاغ" -حسب معلومات من مصادر

---

[1]- ينظر: المرسوم، 9h21، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- يقول -على سبيل المثال- في "البلاغ": «وهذا التقدير ليس لشخصي الضعيف الفاني، إنّما هو لذلك المبدإ السامي الشريف، وتلك الأمانة الوطنيّة المقدّسة، التي أخذنا عهدا أمام اللّه والملائكة والناس أجمعين، أن نصونها من يد العابثين في تحقيقها، ولو قطعوا منّا الوتين، وبلغت الروح التراقي، وانقطع آخر رمق من حياتنا»؛ وفي "النشيد":

«سنـــرعى حقّـــك مـــثـــل الأســـودِ، ولـــو قـــبـــضـــوا بـــتـــراقـــيـــنـــا».

ينظر تباعا: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7512، 1936/11/30، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من البلاغ، في صفحة واحدة بحجم صفحة جريدة، متكوّنة من ثلاثة أعمدة؛ ونسخة من النشيد الوطنيّ الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، مطوية من أربع صفحات، والكتابة على ثلاث منها، ص02.

[3]- يقول محمد قنانش: «وفي أوّل ديسمبر، زار تلمسان مفدي زكرياء، وألقى محاضرة في نادي الرجاء [..]، وقد قرأ النشيد الوطنيّ: فداء الجزائر، وكانت سهرة ممتعة، لأنّنا كنّا في رمضان»نجم الشمال الإفريقيّ125.

[4]- ينظر: ورقة معلومات، مركز الاستخبارات والدراسات(CIE)، رقم: 228، الموضوع: بخصوص بلاغ موجّه من مصّالي حاج إلى الشعب الجزائريّ، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

شتّى- هو -فعلا- المزابيّ مفدي زكرياء: عرض بدايته على أحمد توفيق المدنيّ في أواخر سبتمبر، وقدّم النصّ كاملا لمصّالي حاج، عند غرّافة إبراهيم، في بداية نوفمبر»[1].

وهكذا ثبتت أبوّة "البلاغ" لدى الإدارة الاستعماريّة لمفدي زكرياء، ويؤكّدها -كما سبق بيانه- عدم توفّر النجم بالجزائر آنذاك على أديب يمكنه كتابة مثل ذلك "البلاغ" غير مفدي زكرياء.

وكما استمرّ بيع النشيد بعد منعه، تواصل توزيع البلاغ بعد حظره، ومن ذلك مخاطبة مفدي أستاذه الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 12/10، قائلا: «كما نوجّه إليكم بعدد من البلاغ السياسي العظيم لحزبنا، نرجوكم أن توزّعوه على الطلبة الجزائريّين»[2]؛ وتحدّث تقرير الأمن لعمالة قسنطينة، ليوم 12/16، عن تلقّي السيّد بن دحمان عمر، كاتب خلية نجم الشمال الإفريقيّ بقسنطينة، عن طريق البريد، طردا من منشور "البلاغ"[3].

أمّا حاكم ملحقة غرداية بينو (Pinon) فذكر في رسالة له، بتاريخ 1937/01/19، أنّ "البلاغ" «وصل إلى جميع مدن وادي مزاب، وعدد ما وصل منه -بحسب المعلومات المستقاة- حوالي 250 نسخة بالنسبة لمجموع تراب ملحقة غرداية: وصل البيان إلى غرداية عن طريق طرود بريديّة مرسلة إلى السيّد عوف عمر [...]، وتحصّل المشتركون الخمسة والعشرون في جريدة "الأمّة" لأبي اليقظان في القرارة على "البلاغ"، مطويّا داخل نسخهم من الجريدة»[4].

لهجة "البلاغ" تميّزت بالحدّة اتّجاه خصوم النجم السياسيّين، فلقد خصّص مقطعا طويلا منه، للتشنيع على المؤتمر الإسلاميّ موقفه من الإلحاق والتجنيس، ومحاربته للنجم، وفضح تصرّفات بعضهم، فكان ردّ فعل المؤتمر الإسلاميّ متوقّعا، وقد سجّل تقرير للإدارة الاستعمارية أحدها، متمثّلا في عزم مجلس إدارة جمعية العلماء المسلمين على تكليف الشيخ البشير الإبراهيميّ بكتابة بلاغ مماثل ردّا على بلاغ مصّالي، «يفضح فيه للشعب المسلم نشاطات مصّالي حاج، الذي يعتقده العلماء مكلّفا من طرف حزب فرنسيّ، أو قوّة خارجيّة، بعرقلة برنامج المؤتمر الإسلاميّ»[5].

---

[1]- ينظر: ورقة معلومات، مركز الاستخبارات والدراسات(CIE)، رقم: 238، الموضوع: بخصوص بلاغ موجّه من مصّالي حاج إلى الشعب الجزائريّ، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- ينظر: التقرير، رقم: 5289، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]- ينظر: رسالة بينو إلى الحاكم العسكريّ لمنطقة غرداية بالأغواط، رقم: 12/S، 1937/01/19، موضوعها: بخصوص بلاغ رئيس الحزب الوطنيّ الجزائريّ، 9h24، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ومفدي زكرياء من منظور الإدارة الاستعماريّة29.

[5]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 8094، 1936/12/22، موضوعه: بخصوص اجتماع جمعية العلماء المصلحين الجزائريين، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

كان "البلاغ" و"النشيد" بحقّ إنجازين كبيرين لمفدي، فالأوّل كان منعرجا حاسما جنّب الأمّة الجزائريّة الاتّجاه الذي اختاره لها المؤتمر الإسلاميّ، ووجّهها بصفة نهائيّة وجهة الاستقلال والتحرّر؛ بينما كان الثاني أبرز عامل تعبئة للمناضلين الوطنيّين خاصّة، وللشعب الجزائريّ عامّة، إذ حدّد فيه الوجهة والهدف وهو الاستقلال، وأوضح ثمنه الباهض والشريف في آن، وهو التضحية والفداء، وعبّر عن كلّ ذلك باستعمال ضمير المتكلّم، ممّا يسهم في تمثّل المنشد والقارئ لمحتواه، وكأنّه ميثاق بينه وبين وطنه العزيز؛ فلا عجب أن يصبح على حدّ قول مفدي: «أغنية الجزائر، ذكرانا وإناثا، شيبا وشبابا»، وأن يستمرّ أكثر من عشرين سنة على كثرة الأناشيد الوطنية إبّان الحركة الوطنيّة، وبالرغم من توتّر العلاقة بين مفدي وحزبه منذ أواخر الأربعينيّات. إنّ هذا النشيد لم ينسخه –في الواقع– سوى نشيد "قسما": نسخه جزئيّا في الثورة بسبب موقف مصّالي وأتباعه السلبي اتّجاه الثورة؛ و لم ينسخه كلّيّا إلاّ بنيل الجزائر استقلالها، إذ كان للمصّالية وجودها إبّان الثورة، ووجودها كان يعني وجوده.

ولا يمكن أن ننهي الحديث في هذا الموضوع من غير الوقوف على الفارق في التعامل مع "النشيد" و"البلاغ" في نشرهما، فالنشيد كان يباع، وتكفّل مفدي زكرياء بتمكينه لمن يبيعه، وكان يطلب منه إرسال الدراهم على عنوانه الشخصيّ؛ بينما البلاغ كان يوزّع مجّانا، وكان يرسل عن طريق البريد لمن يُراد منه توزيعه، وتكفّلت بتوزيعه اللجنة الرئيسة للخلية الجزائريّة لنجم الشمال الإفريقيّ؛ وهو ما يدلّ –في رأينا– دلالة واضحة على تحمّل مفدي نفقات طبع النشيد، من ماله الخاصّ بالنظر إلى تحمّسه الكبير، أو بمعيّة شريك أو شركاء، وتكفّل بعد ذلك ببيعه أيضا.

عرف نجم الشمال الإفريقيّ إبّان إقامة مصّالي بالجزائر نشاطا كبيرا، لم يعهد فيه سابقا، وقد تمّ طبع وتوزيع "النشيد" و"البلاغ" بعد مغادرة مصّالي أرض الوطن، فلم يؤثّر سفر مصّالي في نشاط النجم بالجزائر، ليعود إلى ما كان عليه قبل الثاني من أوت، أو إلى ما هو قريب منه:

يقول المحافظ ش. بورا (Ch. Bourrat)، في رسالته إلى الوالي العام، يوم 1936/10/20، إبّان وجود مصّالي بالجزائر: «هذا الشكل من الدعاية السياسية أصبحت أكثر خطورة من الدعاية التي يقوم بها مصّالي بباريس، متوسّلا بالخطابة، وبجريدة "الأمّة" خاصّة. إنّ هذه الجريدة التي يطبع عدّة آلاف نسخة منها، لا تصل إلاّ لعدد من القراء المتعلّمين، يعرفون –على العموم– الفرق بين الكلمة المكتوبة والفعل المباشر. إنّ الإثارة والتهييج الذي يمكن التساهل معه /من غير خشية عواقب وخيمة، في بلد يتمتّع بهيكل إداري وبوليسيّ قويّ كفرنسا، يحمل هنا طابعا خطيرا ومهلكا»[1].

1– ينظر: الرسالة رقم: 25821، 1936/10/20، 2I37، (CAOM)، وثيقة من سبع صفحات، ص03، 04. وقد عثرت على نسخة مطابقة تماما لهذه الرسالة، غير مرقّمة، وتحمل تاريخ 1936/10/17؛ ينظر: 3cab43، (CAOM).

وفي رسالة أخرى إليه، بتاريخ 1936/12/03، بعد ما يقرب الشهر من مغادرة مصّالي للجزائر، ورد فيها ما يلي: «هذا النشاط الذي بدا وكأنّه خفت وتباطأ قليلا، قد استفاق منذ مدّة، من جديد: هكذا لاحظنا قيامه [يعني: مصّالي الحاج] مؤخرا بطبع النشيد الوطنيّ الجزائريّ [...]؛ وأوجّه إليكم طيّ هذا منشورا جديدا [يعني: البلاغ]، يمجّد فيه الوطنية الجزائريّة، تشكّل بعض عباراته -بحسب الترجمة التحليلية المرفقة بهذه الرسالة- نداء حقيقيا إلى الجهاد. لا ريب في أنّ مثل هذه الإثارة والتهييج بكهربته لعوامّ بدائيّين، ما زال التطرّف الدينيّ حيّا وفاعلا فيهم، يحتمل -إن استمرّ وتواصل- أن تكون له نتائج خطيرة على الأمن العام»[1].

فضلا عن بيان النصّين السابقين لنشاط نجم الشمال الإفريقيّ وخطورته الكبيرة مقارنة بنشاطه في باريس، فإنّهما يوضّحان عدم تأثّر نشاطه بسفر مصّالي الحاج إلى باريس، وتجسّد هذا النشاط خاصّة في إصدار "النشيد"، و"البلاغ"، ففضل مفدي بالدرجة الأولى، ومن معه، لا يمكن إنكاره في إبقاء شعلة الوطنية متقّدة في الجزائر، بل وأصبحت تنافس أصلها بفرنسا؛ يقول تقرير سنويّ بعنوان "السنة الأهليّة 1936"، متحدّثا عن نجم الشمال الإفريقيّ: «[...] يتعلّق الأمر هنا بحركة تطوّرت بخطى عملاقة خلال سنة 1936، فأصبح يفرض نفسه حاليا على انتباه العنصر الأهليّ وتفكيره، بينما كان منذ 08 أشهر فحسب منسيّا في الأغلب [...]. لقد قويت دعايته، وأصبحت حركته تتمتّع ببعض الشهرة. وفي غياب مصّالي الذي يقيم بفرنسا منذ 08 نوفمبر، يبدو المزابيّ مفدي زكرياء من الجزائر، المناضل الأكثر عزما وتصميما على الاستمرار»[2].

بعد أن أتمّ مفدي زكرياء "البلاغ" في بداية نوفمبر، و"النشيد" قبله، قادته مهمّة أخرى إلى عمالة قسنطينة، كشفت عنها رسالة بعث بها على عنوان عمر بن دحمان، بقسنطينة، وهي موجّهة إلى صويلح محمد سعيد، يوم 1936/11/13، جاء فيها: «لقد وصلت إلى الجزائر ثمانية أيام بعد زيارتي لبسكرة. أسّست خلية في باتنة. الحركة هنا بالجزائر تشهد تناميا كبيرا، والنجمة (الشارة) تتلألأ على صدر الكثير من المناصرين»[3]؛ وإذا أخذنا بالحسبان أنّه عرض "البلاغ" على رئيس الحزب في أوائل نوفمبر، وكان بالجزائر يوم 11/12، كما نصّت عليه الرسالة ذاتها؛ فهذا يدلّنا على أنّ هذه الجولة في عمالة قسنطينة إن لم تدم ثمانية أيّام، فهي لا تزيد عليها بكثير، وزار خلالها

1- ينظر: الرسالة، رقم: 29718، 1936/12/03، موضوعها: نجم الشمال الإفريقيّ ومصّالي حاج، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات، ص01.

2- ينظر: السنة الأهليّة 1936، لم تعيّن الجهة التي أنجزته، جانفي 1937، 11h48، (CAOM)، وثيقة من 13 صفحة، ص11؛ ومفدي زكرياء من منظور الإدارة الاستعماريّة28.

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 4777، 1936/11/16، موضوعه: المراقبة السياسية للأهالي، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01؛ والرسالة في الملحق610، 611. والتقرير يتناول ترجمة رسالة من الجزائر، تحمل إمضاء: زكرياء، وكشف مدير الأمن في تقرير ثان، عن هوية صاحب الإمضاء، وهو زكري بن سليمان؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 4814، 1936/11/18، موضوعه: المراقبة السياسية للأهالي، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

بسكرة، وباتنة حيث أنشأ بها خلية للنجم، فيكون الهدف منها توسيع نطاق نشاط النجم في العمالة؛ كلّ ذلك بالمقابل يرجّح عدم وجود مفدي بالجزائر يوم رحيل مصّالي إلى فرنسا، يوم 11/08.

مفدي رئيسا للنجم بالجزائر:

هذا التفاني في النضال لخدمة أهداف نجم الشمال الإفريقيّ ونصرته، وتضحيته في هذا السبيل بكلّ غال ونفيس، خوّل له نيل مسؤولية رئاسة النجم بالجزائر، يقول في الرسالة السابقة نفسها: «أعضاء اللجنة هنا [يعني: اللجنة الرئيسة لنجم الشمال الإفريقيّ بالجزائر] وضعوا ثقتهم في أخيكم صاحب الإمضاء، وانتخبوه رئيسا، في غيابه، هذه الالتفاتة كانت عنوان صداقة وثقة، ترك أثرا بليغا في نفسي»[1]؛ إنّ هذا التعديل في تشكيلة اللجنة الرئيسة بعد شهر واحد فقط من تجديدها، لا يمكن –في تقديرنا– أن يتمّ من غير موافقة مصّالي عليه على أقلّ تقدير، إن لم يكن هو الذي أجراه قبيل سفره، ما بين مساء يوم 11/07، وزوال يوم 08 منه؛ وهو قريب ممّا ذكره محفوظ قدّاش، من حوار أجراه مع مصطول محمد، متحدّثا عن إعادة تنظيم مصّالي للنجم بالجزائر، إبّان إقامته بها، إذ يقول: «تمّ تعيين لجنة مركزية، يترأسها مصّالي، بمساعدة زكرياء ومصطول ككتّاب»[2].

إنّ تقارير الإدارة الاستعماريّة بعمالة الجزائر، لم تتحدّث –في الأغلب الأعمّ– عن رئاسة مفدي للنجم بعاصمة الجزائر، بل ظلّت تردّد ما ورد في تقرير مدير أمن العمالة، ليوم 10/07، عندما تمّ تعيينه مراقبا ومفوّضا للدعاية (Contrôleur et délégué à la propagande)، وبقيت تربط دوما بين مفدي وهذه الوظيفة، كلّما تحدّثت عن نشاطه في نجم الشمال الإفريقيّ، سنوات بعد ذلك؛ والتقرير الذي يشكّل الاستثناء –على الأقلّ في تلك الفترة– هو تقرير تحدّث عن تفتيش قامت به الإدراة، يوم 1937/03/23، في منزل «المدعوّ مفدي زكرياء بن سليمان، الرئيس السابق لخلية الجمعية المحظورة "نجم الشمال الإفريقيّ" بالجزائر»[3].

وذكر تقرير شهريّ أنجزه مركز الاستخبارات والدراسات التابع لمحافظة قسنطينة، لشهر جوان 1937، جاء فيه: «يجب أن يسجّل أنّ المناضل مفدي زكرياء، من الجزائر، عضو حزب الشعب الجزائريّ، ورئيس اللجنة

---

[1]– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 4777، 1936/11/16، 3cab42، (CAOM)، ص02.

[2]– ينظر: تاريخ الوطنية الجزائرية1: 442. وقربه ممّا ذكرناه هو تقديمه مفدي على مصطول، وبعده في تحديد الوظيفة. أمّا مصّالي الحاج في مذكّراته، فإنّه تحدّث –على خلاف ما ذكرناه– عن تعيين عضوين دائمين هما: لحول الحسين، وخليفة بن عمّار؛ وعيّنت لجنة استشاريّة، تضمّ خصوصا: غرّافة إبراهيم، حاج إسماعين، و مفدي زكرياء، وزاوي، وأحمد مزغنة، والماحي، ومصطفى دشوك، وعلّق على ذلك بقوله: «مستقبل الخلية كان يبدو إذن جيّدا في شهر نوفمبر هذا من سنة 1936»؛ ينظر: مذكرات مصّالي حاج242.

[3]– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1859، 1937/03/23، موضوعه: بخصوص النشيد الوطنيّ الجزائريّ، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

الرئيسة للخلية الجزائرية القديمة لنجم شمال إفريقيا، ذهب إلى تونس ما بين 05 و22 جوان [1937]، حيث كانت له مباحثات مع الحبيب بورقيبة، وبعض القادة الدستوريين»[1].

وتحدّثت جريدة "الأمّة" الباريسيّة، بتاريخ 1937/03/20، عن وفد من "جمعية أصدقاء الأمّة"، قام بجولة دعائيّة بتونس، وكان «يترأسه زكرياء، الرئيس السابق لخلية نجم الشمال الإفريقيّ المحظور ظلما»[2].

وممّا يؤيّد أمر هذه الرئاسة رسالة مفدي إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ بتونس، بتاريخ 1936/12/10، إذ كانت رسالة رسميّة، تحمل إشهار الحزب، في زاويتها العليا اليسرى: نجمتان، كتب بينهما: نجم الشمال الإفريقيّ، وتحته بخطّ أصغر: اللجنة العليا الجزائريّة؛ ثمّ ما يقابلهما بالفرنسية في سطرين كذلك، مع تفاوت في الخطّ بينهما أيضا؛ كما نجد في ذيلها ختم الحزب، وهو دائريّ، في وسطه نجمة وهلال، وعلى حافته بالعربية والفرنسيّة: الحزب الوطنيّ الجزائريّ، نجم الشمال الإفريقيّ؛ أضف إلى ذلك إمضاءين، مع تحديد وظيفة صاحبيهما، على اليمين: رئيس لجنة الدعاية: خليفة البخاريّ، وهو خليفة بن عمّار، وعلى يساره: رئيس اللجنة التنفيذيّة العليا بعاصمة الجزائر: مفدي زكرياء[3].

نجد في هذه الرسالة الرسميّة للنجم بالجزائر، في ختمها بصفة أخصّ، بصمة مفدي مرّة أخرى، ممّا يدلّ أيضا على رئاسته لهذه اللجنة التنفيذيّة العليا الجزائريّة، وهي تطرح إشكالا إذ إنّ تسمية "اللجنة التنفيذيّة العليا"، يفهم منه إشرافها على جميع خلايا النجم في العمالات الثلاثة، ذلك أنّ مقابلها بالفرنسية في الرسالة نفسها هو: خلية الجزائر (Section d'Alger)؛ وقد نصّ محفوظ قدّاش على أنّ «سلطة اللجنة المركزيّة (Comité Central) تشمل الجزائر كاملة»[4]، وهذه السلطة لم تكن واضحة فيما وقفنا عليه من أرشيف النجم، فنجد خلية كخلية قسنطينة تأتيها الرسائل التوجيهيّة من الجزائر حينا[5]، ومن فرنسا مباشرة حينا آخر، وكان من المفترض تنظيميّا أن تمرّ هذه الأخيرة باللجنة التنفيذيّة العليا بالجزائر، كما أنّ تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر تحدّث -كما مرّ- عن تقسيم نجم

1- ينظر: مذكرة شهرية للمعلومات خاصّة بالسياسة الأهليّة في عمالة قسنطينة، (CIE)، محافظة قسنطينة، 11h59، (CAOM)، ص09. ولعلّ الإدارة الاستعماريّة لعمالة قسنطينة كانت الأسبق إلى اكتشاف وظيفة مفدي هذه في النجم، وذلك من مراقبتها لبريد عمر بن دحمان، واعتراضها سبيل عدد من رسائله، فاكتشفت الأمر من مثل الرسالة السابقة.

2- ينظر: وفد من الوطنيّين الجزائريّين في جولة دعائيّة في تونس، قصاصة المقال من جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ليوم 1937/03/20، الأرشيف غير المتداول، (CAOM). وورد في جريدة "الزهرة" الآتي: «في الأيّام الأخيرة حلّت بالعاصمة التونسيّة بعثة جزائريّة للدعاية السياسيّة، يترأسها الشاعر مفدي زكرياء، رئيس قسم عاصمة الجزائر للحزب السياسيّ المنحلّ (نجم الشمال الإفريقيّ)»جولة دعائيّة، جريدة "الزهرة"، س49، ع9025، 1355/12/19هـ، 1937/03/02م، ص02.

3- ينظر: الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ والملحق606.

4- ينظر: تاريخ الوطنية الجزائرية1: 442.

5- تنظر الرسالة في شأن المطالبة بعودة مصّالي إلى الجزائر: ص187.

الشمال الإفريقيّ الجزائر إلى ثلاث قطاعات: الجزائر، وقسنطينة، ووهران، ونصّ على أنّ هذه «القطاعات هي على صلة مباشرة مع الجمعية الأمّ بباريس»[1].

وأوّل خطبة ذات طابع سياسيّ ألقاها، في إطار نشاطه بنجم الشمال الإفريقيّ، كانت في تلمسان، وقد تحدّث صديقه محمد قنانش عنها، وعن زيارته لتلمسان، فقال:

«وقد زار تلمسان في أواخر نوفمبر[2]، أثناء جولة في العمالة الوهرانيّة، والجولة كانت تجاريّة وسياسيّة [...]. وقد أقام له نادي الرجاء -الذي كان وطنيّا- حفلة استقبال، دعا إليها أعضاء نادي السعادة، ونادي الشبيبة، وأثناء الكلمة التي ألقاها، قرأ لنا النشيد الوطني "فداء الجزائر"، الذي لم يكن معروفا بعد[../..]. وفي اليوم الثاني من زيارته لتلمسان، وكأنّه كان على موعد مع اجتماع للحزب الشيوعيّ، وكان خصمه العنيد عمّار أوزقان هو الذي يتصدّر الاجتماع، وكعادة الشيوعيّين في تلك الظروف بالذات، بدأ بانتقاد نجم الشمال الإفريقيّ ورئيسه، و[كانت القاعة] غاصّة بالوطنيّين، وعلى رأسهم مفدي زكرياء، وقد طلب الكلمة ليردّ على المهاترات التي كان يردّدها، ولكنّهم رفضوا كعادتهم، وهناك بدأ اللغط والمشاجرات، وأجبر على السكوت، والخروج من قاعة البلدية، بعد معركة حامية الوطيس بالكراسي، وهكذا كانت أغلب الاجتماعات مع الشيوعيّين تنتهى دائما»[3].

واصل مفدي جولته في عمالة وهران بعد زيارته لتلمسان، فقادته -كما سبق- إلى معسكر يوم 07 أو 12/08؛ وكتب رسالته إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، يوم 12/10، وكان آنذاك بالجزائر.

وفي يوم 12/12 ذهب إلى البليدة لإلقاء محاضرة، مساء ذلك اليوم، موضوعها: الجبهة الشعبية والاستعمار؛ وبعدها انعقد تجمّع سريّ لنجم الشمال الإفريقيّ، جمع ما يقارب 150 شخصا، خطب فيهم مفدي بالعربيّة، فقدّم في خطابه عرضا عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لمسلمي شمال إفريقيا، وأعقبه خطاب لحول الحسين

1- ينظر: التقرير، رقم: 6049، موضوعه: بخصوص نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01. أمّا تشكيلة اللجنة التنفيذية العليا كاملة فلم نعثر عليها، باستثناء ما أوضحناه من رئاسة مفدي لها، واشتغال خليفة بن عمّار برئاسة لجنة الدعاية، ثمّ ما يمكن أن نستنتجه ممّا سبق من أنّ نائب الرئيس هو مصطول، ولا يمكن أن يكون كاتبا عامّا سوى لحول الحسين، لأنّه كان عضوا دائما في الحزب، كما أسلفنا؛ وهو ما يؤكّده محضر إعلام مسؤولي النجم رسميّا بحلّ الجمعية، فقد ذكرت فيه وظيفة الممضيين على المحضر، وهما: لحول الحسين، الكاتب العامّ لخلية الجزائر؛ وخليفة بن عمّار، عضو مساعد؛ ينظر: محضر مديرية الأمن لعمالة الجزائر (Procés-Verbal)، 1936/02/06، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- وتؤيّده ورقة معلومات مركز الاستخبارات والدراسات بالجزائر، إذ تحدّث عن تعليقه على مضمون "البلاغ"، في اجتماع انعقد بتلمسان يوم 30 نوفمبر ليلا؛ ينظر: الورقة، رقم: 228، الموضوع: بخصوص بلاغ موجّه من مصّالي حاج إلى الشعب الجزائريّ، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02. بينما يتحدّث محمد قنانش في مذكّراته التي نشرها في كتاب "نجم الشمال الإفريقيّ"، عن هذا الاجتماع، فيقول: «وفي أوّل ديسمبر، زار تلمسان مفدي زكرياء، وألقى محاضرة في نادي الرجاء [..]، وقد قرأ النشيد الوطنيّ: فداء الجزائر، وكانت سهرة ممتعة، لأنّنا كنّا في رمضان»نجم الشمال الإفريقيّ125.

3- حزب الشعب الجزائريّ266، 267، مع تصويب عبارة.

بالفرنسيّة، فكان هذا الأخير -بحسب تقرير الإدارة الاستعمارية- أكثر إثارة لحماس السامعين، فصفّقوا له تصفيقا حادّا، وانفضّ الجمع في حدود منتصف الليل[1].

كان نجم الشمال الإفريقيّ في الجزائر يخوض برئاسة مفدي، صراعا مريرا غير متكافئ، ضدّ خصومهم السياسيّين، المتحالفين ضدّهم في إطار المؤتمر الإسلاميّ، يقول في رسالته إلى أستاذه الثمينيّ، يوم 12/10: «إنّ هذا الحزب حزب وطنيّ ملّيّ، له برنامج صحيح، وقاعدة ملّيّة ثابتة، ومبدأ تحريريّ شريف، جاهد زعماؤه بفرنسا طيلة عشر سنوات كاملة، ولم يهنوا أو يجبنوا أمام عواصف الاستعمار العتيد الذي كان يسومهم سوء العذاب في أعماق (السيلونات)، وتحت السياط من يد الجلاّدين. وتوجد هنا بالجزائر سياسة هي ضدّ حركتنا تماما، وهي سياسة الاندماج والمسخ، وإلحاق الجزائر بفرنسا، تلك السياسة الاستعمارية الملعونة التي يسعى إليها بعض خربي الذمم، وسماسرة الأمّة، وصنائع الاستعمار بهذه البلاد [...]، فحزبنا يقاوم هذه الحركة، ويحاربها بكلّ ما أوتي من قوّة، وسوف ينتصر عليها بإذن الله في وقت غير بعيد، ويضع المقامرين بشرف الأمّة أمام المسؤولية الثقيلة»[2].

وحديثه في نفس الموضوع بعد ما يقارب الشهرين، وبلهجة أشدّ، في رسالة ثانية إلى أستاذه الثمينيّ، بتاريخ 1937/02/03، يدلّ على شدّة هذا الصراع ومرارته، وعلى معاناة كبيرة في خضمّه، وذلك حيث يقول: «أمّا حزبنا فهو حزب وطنيّ، يرتكز على مبادئ ملّيّة صحيحة [...]، وهو ضدّ بعض مطالب المؤتمر الجزائريّ التي تتضمّن طلب النيابة بالبرلمان، وإلحاق الجزائر بفرنسا رأسا، وضدّ مشروع فيوليت الذي هو مشروع ظاهره فيه الرحمة، وباطنه من قبله العذاب، وهو مشروع دبّر بليل، لإبادة الجنسية الجزائرية، والقضاء على كلّ قومية عربية إسلامية بالبلاد، وهو ينصّ بصراحة على التجنيس التدريجيّ، والاندماج البطيء للشعب الجزائريّ في العائلة الفرنسوية التي يسمّونها العائلة الكبرى، وهذا هو المشروع الوحيد الذي نرى النوّاب، وفي مقدّمتهم ابن جلول، والعلماء، وفي مقدّمتهم [ابن] باديس [...]، يجمعون إليه إمضاءات الأمّة الجاهلة البلهاء التي لا تفهم ماذا يراد بها، وإنّ خصومة كبيرة كادت أن تكون دامية لا تزال زوابعها تعلو الأفق، بين هؤلاء [...]، وبين الحزب الحر الوطني الجزائريّ الذي يقول، ويخطب، وينادي: «الجزائر للجزائريّين، نحن لا نقبل كلّ ما يمسّ بجوهر جنسيتنا وديننا، ولو كان آتيا من دار الخلد». وإنّي أوجّه لكم طيّ هذا نسختين من جريدته "الأمّة"، راجيا منكم أن تقرؤوها بإمعان، ففيها كلّ ما تريدون معرفته عن هذا الحزب، سواء من جهة العلماء، أو من جهة الشيوعيّين [...]»[3].

---

[1]- ينظر: رسالة المحافظ المركزيّ للشرطة بالبليدة إلى المحافظ، رقم: 14339، 1936/12/13، موضوعه: بخصوص محاضرة من تنظيم نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات.

[2]- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- الأرشيف نفسه.

ونجد صورة أخرى لهذا الصراع في رسالته إلى صويلح محمد سعيد، بتاريخ 1936/11/13، حيث يقول: «وقعت البارحة حادثة بنادي الترقّي، عندما قصدته للقاء الشيخ عبد الحميد بن باديس، بناء على اتّفاق مسبق بيننا، فمنعني أعضاء النادي من الدخول، وطلبوا منّي نزع الشارة الوطنية التي كنت أتقلّدها، وهذا للتقيّد بقانون الأندجينا الجديد الذي وضعه ضدّنا الرئيس العقبي [...]. هذه التصرّفات يمكن أن تنتج عنها تفرقة الشعب الجزائريّ، والنادي ليس فرعا للولاية العامّة. /في نفس الوقت حضر إلى النادي: علي بوخرت الشيوعيّ، وأوزقان الشيوعي أيضا، وقد تقلّد كلّ منهما شارته، فلم يقدّم أعضاء النادي لهم أيّة ملاحظة، وهكذا سجّلوا تفضيلهم للشيوعية، عدوّة الإسلام، على الوطنيّين، يا للعار»[1].

ولا أدلّ على شعور مفدي وزملائه في اللجنة الرئيسة بوطأة هذا الصراع على حركتهم الفتيّة بالجزائر، من مطالبتهم برجوع مصّالي الحاج، أيّاما بعد رحيله إلى فرنسا، عسى أن يكون –بثقله السياسيّ وخبرته الطويلة– خير سند لهم في هذه المواجهة غير المتكافئة، فقد جاء في رسالة موجّهة إلى خلية قسنطينة، بتاريخ 1936/11/14، ما يلي: «لنا الشرف أن نعلمكم بأنّ اللجنة الرئيسة للخلية الجزائريّة، اتّخدت في اجتماعها الأخير قرار مطالبة اللجنة المركزيّة بباريس، نظرا لخطورة الوضع السياسيّ، بعودة مصّالي في أواخر الشهر الجاري. نرجو منكم منح طلبنا كلّ العناية اللازمة، ويتمثّل في إرسال برقية إلى القيادة بباريس، تكون على الشكل الآتي: «الوضع يحتّم عودة مصّالي آخر الشهر. خلية قسنطينة». ونكلّفكم بتبليغ هذا القرار إلى جميع خلايا عمالتكم، لتطبيقه من غير تأخير. إمضاء: الكاتب العامّ»[2].

وكان النجم يعيش بالجزائر –في تلك الآونة– مصاعب ماليّة، بعد الجهد الكبير الذي بذله في طبع المناشير لإشهاره، خاصّة في طبع 40.000 نسخة من "البلاغ"، فكان آخر منشور طبعه النجم قبل حلّه، هو المنشور الذي اكتشفت الإدارة أمره وهو قيد الطبع بالمطبعة العربيّة، يوم 1936/12/22[3]؛ وقد تفاقمت هذه الأزمة إلى أن كاتب فرع الجزائر فرع قسنطينة، يوم 1937/02/03، يقول له: «نظرا لكوننا نمرّ في الوقت الحالي بصعوبات مادية خطيرة، في حين تزداد فيه حاجاتنا قوّة يوما عن يوم؛ نرجو منكم أن تقدّموا لأخينا ورئيسنا زكرياء مبلغ 225 فرنكا، هو ما تدين به خليتكم للمركز، ويمثّل مصاريف طبع منشور صدر منذ ما

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 4777، 1936/11/16، 3cab42، (CAOM)، ص01، 02. وقد سبقت صورة عن الصراع مع الشيوعيّين بتلمسان، فيما حكاه صديقه محمد قنانش؛ ينظر: ص185.

2- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 4808، 1936/11/18، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 8098، 1936/12/22، 4I4، (CAOM)؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور.

يقرب من ثلاثة أشهر»[1]؛ ولعلّ هذا الأمر ممّا أسهم في دفع مفدي إلى كتابة المقالات في الصحافة التونسيّة، بعد أن انسدّت عليه جميع المنافذ إلى إسماع صوت نجم الشمال الإفريقيّ، خاصّة للمثقّفين ثقافة عربيّة إسلاميّة، وهو يدافع دفاعا مستميتا في قضية وطنيّة مصيريّة بالنسبة للأمّة الجزائريّة، ذلك أنّ جريدة "الأمّة" الباريسيّة كان يقرؤها المثقّفون ثقافة فرنسيّة؛ يقول في رسالته السابقة إلى أستاذه: «وقد كتبتُ عنه [أي: نجم الشمال الإفريقيّ] فصولا طويلة بجريدة "النهضة"، و"العصر الجديد"، و"الزهرة"، و"لاكسيون تونيزيان"، وكتبتْ عنه "الجهاد" المصرية، و"الجريدة"، و"القلم الحديديّ"»[2].

نشر مقالا ضافيا في حلقتين في "النهضة"، عنوانه: تاريخ السياسة الجزائريّة، وأرّخه بـــ: فاتح رمضان 1355هـــ، الموافق ليوم 16 نوفمبر 1936م، ونشر بالجريدة يومي11/29[3]، و12/04[4]، وهو أوّل مقال سياسيّ كتبه مفدي –فيما نعلم– لينافح عن حزبه ومواقفه؛ ونشر في جريدة "العصر الجديد" بلاغ رئيس الحزب مصّالي الحاج، في حلقتين، وقفنا على الجزء الثاني منه فقط، وصدر فيها بتاريخ 1937/01/29[5]؛ ولم نعثر على أيّ مقال له في جريدة "الزهرة" التونسيّة، في أوائل سنة 1937، ممّا يدلّ على أنّه نشره فيها، في أواخر سنة 1936؛ أمّا مقاله بـــ: لاكسيون تونيزيان (L'Action Tunisienne)، فقد تعذّر علينا البحث في هذه الجريدة.

إنّ الرسالة السابقة تكشف لنا اتّجاه مفدي، منذ أواخر سنة 1936، للاستعانة بالصحافة في نضاله ونضال حزبه السياسيّ، فيمّم صوب الصحافة خارج الجزائر، لعدم وجود صحيفة للنجم في الجزائر، وعدم وجود صحيفة جزائريّة، يمكنها –وإن كانت متعاطفة مع مواقف النجم– المغامرة بنشر مقالات مناضلي الحزب، بما ستحتويه –بلا ريب– من دعوة صريحة إلى استقلال الجزائر.

قصد مفدي الصحافة التونسيّة، والصادرة منها باللغة العربيّة، للتعريف بالحزب وبمواقفه وبنضالاته، لدى شريحة واسعة من المثقّفين ثقافة عربية إسلاميّة، عسى أن تكون سندا قويّا للحزب في موقفه الوطنيّ، على قرب عهد مسؤوليه بالنشاط السياسيّ في المجتمع الجزائريّ، وصغر سنّهم[6]؛ في مواجهة شهرة جمعية العلماء الجزائريّين، وسعة نفوذها في المجتمع، بالإضافة إلى امتلاكها صحافة قويّة، بالإضافة إلى حلفائها في المؤتمر الإسلاميّ.

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 911، 1937/03/06، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ والملحق612. ويقول مفدي في رسالته إلى أستاذه، في نفس اليوم 02/03: «إنّي مسافر الليلة إلى قسنطينة لمدّة خمسة عشر يوما»، كما يطالبه بما تحصّل لديه من بيع النشيد؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- الرسالة، 1937/02/03، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4170، 1355/09/14هـــ، 1936/11/29م، ص03.

4- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4175، 1355/09/19هـــ، 1936/12/04م، ص02.

5- ينظر: جريدة "العصر الجديد" التونسيّة، س18، ع182، 1355/11/16هـــ، 1937/01/29م، ص02.

6- مفدي كان عمره آنذاك 28 سنة، وكان مصّالي الحاج يكبره بعشر سنوات.

وإلى جانب كتاباته في الصحافة التونسيّة خاصّة، وظّف مفدي زكرياء وسيلة أخرى هي مكاتبة الشخصيات والجمعيات الفاعلة خارج حدود الوطن الجزائريّ، خاصّة ما كان له وزن سياسيّ أو دينيّ، أو كلاهما معا، وتندرج في هذا المجال -بلا ريب- رسائله إلى أستاذه الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، صاحب "مكتبة الاستقامة"، المشهورة في تونس والعالم العربيّ، لما له من سمعة طيبة لدى الأوساط الدينيّة والسياسيّة والأدبيّة والصحفيّة التونسيّة، ويدلّ على مكاتباته هذه، الردود التي تلقّاها، وتحدّث عن بعضها في رسالته السابقة إلى أستاذه الثمينيّ، يوم 1937/02/03، حيث يقول: «وردت إليّ رسالة من المجاهد الأستاذ الباروني، تفيد قرب قدومه لإحدى البلدتين الجزائر أو تونس، صحبة عائلته للاستشفاء، حقّق الله ذلك؛ كما وردت إليّ رسالة من جمعية الشبّان المسلمين بالقاهرة، في تهنئتنا بحركتنا الوطنيّة، وإعلان تضامنهم معنا؛ وكذلك رسالة طويلة من عطوفة الأمير شكيب أرسلان».

ومع كلّ هذه الصعوبات، وهذا الحصار الذي كان يعاني منه النجم، من الإدارة الاستعماريّة، ومن المؤتمر الإسلاميّ، ومن قلّة موارده الماديّة، استطاع مناضلو النجم، قبل وبعد سفر مصّالي الحاج إلى باريس، في العمالات الثلاثة، توسيع نطاقه في التراب الجزائريّ بإنشاء خلايا جديدة، في مختلف المدن، وقد رأينا حديث مفدي عن إنشائه خلية جديدة بباتنة[1]؛ ويقول في هذا الخصوص، في رسالته إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، يوم 12/10: «أمّا بعد فغير خاف عليكم برنامج حزبنا الوطنيّ الجزائريّ "نجمة إفريقيا الشمالية" الذي أصبح الآن يتمركز بالجزائر، بصفة مدهشة وفعّالة، وأصبح ينضوي تحت لوائه ما ينوف عن عشرين ألفا من المسلمين الجزائريّين، وأصبح له خمسون فرعا ببلدان الجزائر كلّها»[2].

إنّ انغماس مفدي في هذا الجوّ السياسيّ، وتفانيه في خدمة نجم الشمال الإفريقيّ، وفي تحمّل مسؤولية رئاسته بالجزائر، شغله تماما عن استقبال أوّل مولود له، بنته عائشة. ولدت يوم 1936/12/09[3]، فلم يذهب إلى بني يزقن لترقّب ميلادها، خاصّة وأنّه في شهر رمضان، ولا بمناسبة عيد الفطر المبارك بعد ستة أيّام من ميلادها، فلم يغادر الجزائر إلاّ يوم 1936/12/22، «أخذ عيّنات نسيجيّة، يوم 21 ديسمبر الأخير من عند السيّد جوزيف باروش (Joseph Baruch)، تاجر في 12 شارع لا لير (La Lyre)، و/غادر الجزائر في الغد من ذلك [أي: يوم

1- ينظر: ص182. ويذكر خليفة بن عمّار في اجتماع بمنزل مفدي زكرياء، يوم 1937/01/27، أنّه أنشأ خليّتين في الجزائر، الأولى في باب الواد، والثانية في بلكور؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 500، 1937/01/27، موضوعه: بخصوص نجم الشمال الإفريقيّ، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. هذا الكلام فيه مبالغة كبيرة، خاصّة بالنسبة لعدد المنخرطين في نجم الشمال الإفريقيّ، أمّا بالنسبة لعدد خلايا النجم في التراب الوطنيّ، فعددها -بحسب محفوظ قدّاش- عند حلّ النجم، في أواخر جانفي 1937، 30 خلية تمّ إنشاؤها، و31 في طور الإنشاء؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة1: 443.

3- ينظر: سجلّ المواليد، 1936، رسم االازدياد رقم: 212، أرشيف القيّاد.

1936/12/22]، متوجّها إلى مزاب»[1]؛ وقبل سفره بعث بطاقتي تهنئة بعيد الفطر المبارك، باسم نجم شمال إفريقيا، وباسم اللجنة العليا التنفيذيّة، إلى أستاذه الثمينيّ، وإلى الأستاذ العيد الجبّاري، والبطاقتان تحملان ختم بريد الجزائر، وتاريخه 1936/12/23[2].

لم يطل مقامه ببني يزقن، فلم يزد على 22 يوما، بعد فترة غياب عن مسقط رأسه وعائلته، دامت أكثر من تسعة أشهر، وسيطول غيابه عنهما، فلن يعود إلى مزاب إلاّ في أوائل أكتوبر 1939.

استخرج مفدي تصريحا للعودة من مزاب إلى الجزائر يوم 1937/01/13[3]؛ ويبدو أنّه لم يعد مباشرة إلى الجزائر، وإنّما قام بجولة في طريقه إليها، ولم يصل الجزائر إلاّ في أواخر شهر جانفي، فلم تذكر تقارير الإدارة الاستعماريّة وجوده بالجزائر سوى يوم 01/27[4]، وغاب عن تجمّع عقدته اللجنة الجزائريّة للمؤتمر الإسلاميّ، يوم 01/24، ما كنّا نظنّه يغيب عنه[5]؛ وإذا صحّ ما استنتجناه، كان قريبا ممّا صرّح به في رسالته إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1937/02/03، حيث ذكر أنّه عاد من مزاب، من مدّة ستّة أيّام فقط[6].

عاد مفدي زكرياء إلى الجزائر في أواخر جانفي 1937، ليبتدأ سنة حافلة على المستويين السياسيّ والأدبيّ، فكانت بحقّ إحدى أخصب سنوات حياته، وليواجه أوّل ما يواجه مسألة حلّ النجم.

حلّ نجم الشمال الإفريقيّ:

لقد ارتبط تفكير الإدارة الفرنسيّة في حلّ النجم، في النصف الثاني من سنة 1936، بزيارة مصّالي الحاج للجزائر، وما تبعه من حراك سياسيّ توجّست الإدارة منه خيفة، ورأت فيه خطرا أكبر ممّا يتسبّب به النجم بباريس[7]، ففي رسالة الوالي العامّ ج. لو بو(G. Le Beau)، إلى رئيس المجلس (Président du Conseil) بباريس،

1- ينظر: الرسالة، رقم: 225، 1937/01/28، موضوعها: بخصوص المدعوّ محمد حسن الوزّانيّ، عضو "لجنة الفعل المغربيّ" (Comité d'Action Marocaine)، 2I38، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات، ص01، و02.

2- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- ينظر: سجلّ التساريح، 1929-1937، أرشيف القيّاد، ص160. ذكر في رسالته إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، 1937/02/03، أنّه آب من مزاب، من مدّة ستّة أيّام فقط، أي: في حدود 1936/02/29.

4- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 500، 1937/01/27، 9h47، (CAOM).

5- وقع فيه شغب، بسبب بثّ النشيد الرسميّ الفرنسيّ(La Marseillaise)، والنشيد الرسميّ للحزب الشيوعيّ(L'Internationale)، قبل الافتتاح، فقاطع لحول الحسين افتتاح أشغال التجمّع بإنشاد النشيد الوطنيّ الجزائريّ، فأجبر هو ومن معه من مناضلي النجم على الخروج من القاعة؛ ينظر: تقرير مدير من عمالة الجزائر، رقم: 403، 1937/01/25، إمضاء: المحافظ دلقوف (Delgove)، موضوعه: تجمع اللجنة الجزائريّة للمؤتمر الإسلاميّ، 2I36، (CAOM)، وثيقة من خمس صفحات، ص01.

6- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

7- ينظر النصّ المقتبس من رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، 1936/10/20: ص181.

وإلى وزير الداخلية، بتاريخ 1936/10/14، يقول في ختامها: «لا يسعني سوى تأكيد تقريري السابق في شهر أوت، طالبا من الحكومة إصدار حكم بحلّ "نجم الشمال الإفريقي"»[1]، وإذا علمنا بأنّ تقرير أوت كان مؤرّخا بـــ: 1936/08/20[2]، حدّدنا التاريخ الذي بدأت فيه الولاية العامّة بالجزائر[3]، ضغطها على الحكومة الفرنسيّة بباريس، قصد حلّ النجم، ومتابعة مسؤوليه، وعلى رأسهم رئيس الحزب، مصّالي الحاج.

وبعد أسبوعين من ذلك، أي: يوم 1936/10/28، كتب الوالي العامّ من جديد إلى رئيس المجلس (Président du Conseil) بباريس، يقول له: «لقد أردتم مشكورين خلال الحوار الذي جمعنا مؤخّرا إخباري بموافقتكم على الإجراءات الواجب اتّخاذها، تبعا لمقترحاتي السابقة [يعني: ما جاء في تقريريه ليومي 08/20، و1936/10/14]، إذن لي الشرف أن أبعث إليكم طيّ هذا مشروع مرسوم، بالإضافة إلى مشروع تقرير إلى السيّد رئيس الجمهوريّة يقضيان –تطبيقا للفقرة الثالثة من المادّة الأولى من قانون 10 جانفي 1936[4]– بحلّ هذه الجمعية [يعني: جمعية نجم الشمال الإفريقيّ]»[5].

ولم يصدر مرسوم الحلّ إلاّ بتاريخ 1936/01/26[6]، وهو مطابق في نصّه تماما لما جاء في مشروع المرسوم السابق، بعد أن تأخّر بما يربو على ثلاثة أشهر، ولم يرشح من تقارير الإدارة في تلك الفترة ما يوضّح سببا لهذا الفارق الزمنيّ بين مشروع المرسوم وإصداره، بالرغم من إصدار الوالي العامّ مرسومين لحظر "النشيد" و"البلاغ"، تباعا في 11/28، و12/04، كما مرّ؛ ممّا يدلّ صراحة على أنّ التأخير لم يكن من الجزائر، وإنّما من باريس؛ والذي يهمّنا في هذا الموضوع بيان دور نشاط النجم في الجزائر، منذ عودة مصّالي يوم 1936/08/02، في صدور مرسوم الحظر هذا، بعد إلحاح كبير من الولاية العامّة بالجزائر.

1– ينظر: الرسالة رقم: 4546، إمضاء: الوالي العامّ: ج. لو بو (G. Le Beau)، 3cab43، (CAOM)، وثيقة من 06 صفحات، ص06.

2– نفسه، ص01.

3– بناء على تقارير محافظي العمالات الثلاثة، خاصّة منها تقارير محافظ عمالة الجزائر، ومنه رسالة هذا الأخير إلى الوالي العامّ، 1936/10/20؛ وجاء فيها ما يلي: «إنّ حلّ نجم الشمال الإفريقيّ وخلاياه أصبح بالطبع أوّل إجراء يتوجّب علينا القيام به»؛ ينظر: الرسالة رقم: 25821، 2I37، (CAOM)، وثيقة من 07 صفحات، ص07.

4– ينظر: نصّ القانون، 3cab43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5– ينظر: الرسالة، رقم: 4714، 3cab43، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01؛ أرفق بها مشروع المرسوم، ومشروع التقرير إلى رئيس الجمهوريّة، وثيقتان من صفحة واحدة، ومن صفحتين، على التوالي؛ وينظر أيضا: رسالة الوالي العامّ إلى وزير الداخلية، في نفس الوضوع، وإن اختلفت العبارة أحيانا، وفي نفس التاريخ، رقم: 4713، 3cab43، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

6– ينظر: نصّ المرسوم يحمل إمضاءات: أ. لوبران (A. LEBRUN)، رئيس الجمهوريّة، وليون بلوم (Léon BLUM)، رئيس المجلس، وماركس درموي (Marx DORMOY)، وزير الداخلية، ومارك ريكار (Marc RUCART)، حافظ الأختام ووزير العدالة، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

راسل الوالي العام المحافظ، ليخبره رسميّا بصدور مرسوم الحلّ، ويطلب منه اتّخاذ الإجراءات اللازمة لتطبيقه، يوم 1937/02/05[1]، فجرى إعلام مسؤولي النجم بالجزائر رسميّا بمرسوم الحلّ، في الغد من ذلك، أي: يوم 02/06، على الساعة الثانية بعد الزوال، وأمضى على المحضر(Procés Verbal)، كلّ من لحول الحسين، الكاتب العامّ لخلية الجزائر؛ وخليفة بن عمّار، عضو مساعد[2]؛ وكان مفدي آنذاك -كما سبقت الإشارة إليه- في جولة بعمالة قسنطينة منذ يوم 02/04[3].

وقع اجتماع يوم 1937/01/27، على سا 09 صباحا، بمنزل مفدي زكرياء، في 14 شارع بوتان (Boutin)[4]، حضره مسؤولو النجم بالجزائر، والبليدة، وميزون كاري (Maison-Carrée)، وكان عددهم يقارب 15 شخصا، لوحظ من بينهم: خليفة بن عمّار، ولحول الحسين، وزكرياء بن سليمان، وغرّافة إبراهيم؛ وبودي صالح، وبكير بن إبراهيم، من البليدة؛ واسماوي حمو، من ميزون كاري؛ ونجّار محمد، من سانت أوجين (St-Eugène)؛ «تناول زكرياء [بن] سليمان الكلمة أوّلا، وأعلن عن صدور مرسوم يقضي بحلّ نجم الشمال الإفريقيّ؛ ولا يمكن أن يعني ذلك تخلّي الجمعية عن نشاطاتها، وإنّ توجيهات المقرّ الاجتماعي بباريس -في هذا الصدد- لا يمكن أن يطول زمن وصولها[5]. إنّ زكرياء يضع في اعتباره من الآن إمكانية إعادة تشكيل الجمعية بتسمية أخرى، ولذلك طلب من زملائه أن يبقوا متّحدين، وأن لا ييأسوا. لام -بعد ذلك- خليفة [بن عمّار] لتسبّبه بحادثة، يوم

1- ينظر: الرسالة، رقم: 2370 B، ويحمل ختم البريد الوارد لمحافظة الجزائر، مؤرّخا في 02/06، موضوعها: بخصوص نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

2- ينظر: محضر مديرية الأمن لعمالة الجزائر، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وأمضى على محضر محافظة الشرطة بميزون كاري مقران أحمد، رئيس خلية النجم بها، يوم 1937/02/13؛ وعلى محضر محافظة الشرطة بالبليدة لعساكر محمد، الكاتب المؤقّت لخلية النجم بالبليدة، يوم 02/17؛ ينظر: 2I37، (CAOM)، وثيقتان من صفحة واحدة. أمّا إعلام مركز نجم الشمال الإفريقيّ بباريس رسميّا بقرار الحلّ، فكان يوم 01/28، وأمضى على المحضر عيماش عمّار، الكاتب العامّ للجمعية؛ وورد ذلك في خبر صحفيّ عنوانه "حلّ جمعية نجم الشمال الإفريقيّ"، جريدة "الزهرة"، س49، ع8995، 1355/11/18هـــ، 1937/01/30م، ص02.

3- ينظر: ص188 ها01.

4- ورد في التقرير عنوان مفدي: 06 شارع بوتان، والصواب ما أثبتناه، وقد مرّ؛ ينظر: ص159.

5- وقد تضمّنتها رسالة كحّال أرزقي بباريس، إلى بن دحمان عمر، كاتب خلية قسنطينة، مؤرخّة يوم حلّ النجم، في 01/26؛ كما تضمّنتها بحذافيرها رسالة خليفة بن عمّار إلى أعضاء خلية قسنطينة، بوم 02/01؛ ينظر تباعا: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 422، 1937/02/01، موضوعه: المراقبة السياسيّة للأهالي، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وتقرير مدير الأمن لعمالة قسطينة، رقم: 454، 1937/02/03، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، الأرشيف نفسه، وثيقة من صفحتين. وهذه التعليمات تقضي بـــ: وقف أيّ نشاط باسم نجم الشمال الإفريقيّ؛ أو باسمه مع الجبهة الشعبيّة، أو مع غيرها؛ ووقف استعمال تجهيزاته أيضا؛ وأن تكون الأنشطة الجديدة باسم جريدة "الأمّة" الباريسيّة إلى إشعار آخر، كما يجب جمع المال باسم الجريدة، وإذا أرسل فيرسل باسم الجريدة أيضا.

25 جانفي الجاري، في بلاس دي قوفارنمو (Place Du Gouvernement)، وأضاف بأنّه إن تكرّرت وقائع مثل هذه، سيقدّم استقالته بصفة نهائيّة [...]. افترق الحاضرون في حدود سا10 و30د، بعد تناولهم الشاي»[1].

أشار خليفة بن عمّار إلى هذه الحادثة في رسالته إلى أعضاء خلية قسنطينة، بتاريخ 1937/02/01، حينما تناول فيها واقعة اعتداء أنصار الشيخ العقبي عليه، يوم الإثنين الماضي، وهو 01/25، فأصيب بسكّين في ذقنه، وضربات عديدة بالهراوة، انتقاما من معارضة نجم الشمال الإفريقيّ لمشروع فيوليت[2]؛ وبربط هذه الواقعة بما جاء في التقرير السابق، يكون خليفة بن عمّار هو المتسبّب فيها، أمّا إمكان اعتبارها سببا كافيا في استقالة مفدي بصفة نهائيّة إن تكرّرت، فلا نجده سوى في رغبة مفدي المبدئيّ عن العنف والمواجهات الدامية مع خصوم النجم السياسيّين، مهما بلغت درجة الاختلاف، حفاظا على وحدة المجتمع الجزائريّ؛ مع ما يمكن أن تتسبّب فيه مثل هذه المواجهات من متابعات قضائيّة مجانيّة من قبل الاستعمار الفرنسيّ.

ثمّ تحدّث تقرير مدير الأمن بعمالة الجزائر، ليوم 1937/02/02، عن تقديم مفدي زكرياء استقالته من وظيفته مراقبا ومفوّضا للدعاية، مع بقائه عضوا في الجمعية، وذلك بسبب عدم تمكّنه من تحمّل أعباء المسؤولية الملقاة على عاتقه، والتي يتقاسمها مع خليفة بن عمّار، ولحول الحسين[3]؛ وهو ما تستبعده رسالتا يوم 02/03: الأولى إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، لم يظهر فيها أثر لهذه الاستقالة، وكان موضوعها نجم الشمال الإفريقيّ[4]؛ والثانية رسالة فرع الجزائر إلى فرع قسنطينة، كتبت بالفرنسيّة، فلا يمكن أن يكون مفدي صاحبها، هذه الرسالة كان الحديث فيها عن مفدي باعتباره رئيس النجم بالجزائر[5]؛ وعليه فالأرجح -في تقديرنا- أن يكون الأمر مجرّد إشاعة نشأت من تهديده بالاستقالة أيّاما قبل ذلك. ولا نستبعد وقوع خلاف في القيام بمهام الجمعية الكثيرة بين مفدي من جهة، ولحول الحسين، وخليفة بن عمّار من جهة أخرى، باعتبارهما عضوين دائمين، كما سبق، يتقاضيان بالضرورة أجريهما من الجمعية، قد يصل إلى درجة تلويح مفدي بالاستقالة، وهو ما يفيده تعبير «الاستقالة بصفة نهائيّة» في اجتماع 01/27. هذا الخلاف قد يكون -إن صحّ ما جاء في تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، بتاريخ 01/25- وراء عرض مسؤولي النجم على بوجناح سليمان رئاسة النجم، حين زيارته للجزائر ما

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 500، 1937/01/27، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسطينة، رقم: 454، 1937/02/03، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02.

3- ينظر: التقرير، رقم: 593، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- تنظر الرسالة: ص186.

5- تنظر الرسالة: ص187، 188. لم تتبيّن الإدارة صاحب الإمضاء، ولا يمكن أن يكون -بالمقارنة مع رسائل سابقة ولاحقة- سوى لحول، أو خليفة.

بين 11 و01/17، بغرض التسوّق لتجارته بالمدية، وكان مفدي غائبا حينها عن الجزائر، فاشترط بوجناح مقابل قبوله العرض: إبعاد مفدي عن النجم، وانتقال المقرّ الاجتماعيّ للجمعية إلى الجزائر[1].

قال مفدي في رسالته لأستاذه الشيخ الثمينيّ، يوم 02/03: «إنّي مسافر الليلة إلى قسنطينة لمدّة خمسة عشر يوما»[2]؛ وورد في تقرير شهريّ أنجزه مركز الاستخبارات والدراسات التابع لمحافظة قسنطينة، لشهر فيفري 1937، ما يلي: «في هذه المدينة الأخيرة [يعني: قسنطينة]، تلقّى كاتب الخلية المحلية، عمر بن دحمان، من الجزائر، ومن باريس، تعليمات دقيقة، أكّدها شفهيّا مفدي زكرياء، الذي أتى إلى قسنطينة، ليتألّق في عمالتها»[3]، وهذا يدلّنا على أنّ هذه الجولة في عمالة قسنطينة، لم تكن تجاريّة فحسب:

اتّصل مفدي هاتفيّا بلحول الحسين، وأخبره بأنّ الفرصة مواتية للقيام برحلة إلى تونس، بمناسبة عيد الأضحى المبارك، وطلب منه الاشتراك فيها؛ قبل لحول هذا الاقتراح، وغادر الجزائر يوم 02/17[4]. وصل لحول الحسين إلى قسنطينة، وبرفقته ممثّلاَ نجم الشمال الإفريقيّ بتلمسان: قنانش محمد، وحمداوي أحمد، يوم 02/18[5]، وفي نفس اليوم وصلت برقية من كحّال أرزقي بباريس، إلى عمر بن دحمان بقسنطينة، يقول له فيها: «أجّلوا الذهاب إلى تونس، الرجاء الالتزام بمضمون الرسالة الآتية عن طريق الجوّ»[6]. التقى ممثّلا عمالة وهران، وممثل عمالة الجزائر بمفدي زكرياء، فتشاور أربعتهم مليّا، ثمّ تحدّثوا مع بن دحمان عمر، كاتب خلية النجم بقسنطينة،

1– ينظر: التقرير، رقم: 426، 1937/01/25، موضوعه: بخصوص بوجناح سليمان بن يحي، 2I36، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2– ينظر: ص188 ها01. وورد في تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، ليوم 1937/03/20، ما يلي: «غادر زكرياء [بن] سليمان الجزائر، يوم 02 فيفري الفارط، ليقوم بجولة في عمالة قسنطينة، تلبية لحاجات مهنته كنائب تجاريّ»؛ ينظر: التقرير، رقم: 1726، موضوعه: بخصوص المدعوّين مفدي زكرياء بن سليمان ولحول الحسين، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3– ينظر: مذكرة شهرية للمعلومات خاصّة بالسياسة الأهليّة في عمالة قسنطينة، (CIE)، محافظة قسنطينة، 11h59، (CAOM)، ص09.

4– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1726، 1937/03/20، 4I4، (CAOM). يقول محمد قنانش: «[...] واتّصلنا بالعاصمة، فأخبرونا أنّهم قرّروا إرسال وفد باسم "أحباب الأمّة" إلى تونس الشقيقة، ليشرح حالة الجزائر هناك، والوفد يتكوّن من اثنين من كلّ عمالة، وقد طلبوا منّا أن نعيّن اثنين، وقد اجتمع فرع تلمسان، وعيّن كاتب السطور، والأخ حمداوي، ليلتحقا بالعاصمة، ثمّ بقسنطينة، [التي] كان يوجد فيها مفدي زكرياء في انتظارنا» نجم الشمال الإفريقيّ126.

5– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 690، 1937/02/19، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ونجم الشمال الإفريقيّ127.

6– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 650، 1937/02/18، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ومذكرة شهرية للمعلومات خاصّة بالسياسة الأهليّة في عمالة قسنطينة، (CIE)، محافظة قسنطينة، 11h59، (CAOM)، ص09. ولم نقف على تعليل لطلب تأجيل السفر، وانتظار التوجيهات، ولعلّه محاولة من المركز ضمان فعالية الجولة، إذ يتطلّب الأمر تحضيرات واتّصالات، ومركز الجمعية بباريس أقرب للوطنيّين التونسيّين، من مناضلي الجمعية بالجزائر.

يوم 02/19[1]. كلّ ذلك يدلّنا على أنّ مبادرة الرحلة إلى تونس كانت من مفدي، وأخبر بها -بطبيعة الحال- المقرّ المركزيّ للجمعية بباريس، فأرسل يأمرهم بتأجيل الرحلة، وانتظار التوجيهات، وأغلب الظنّ أنّ التشاور ومحادثة كاتب خلية قسنطينة، كان يدور حول التأجيل، والرسالة المنتظرة، فانتهى التشاور -فيما يبدو- إلى اتّخاذ قرار السفر إلى تونس في الغد من ذلك، مع ممثّل عن عمالة قسنطينة، على أن يلحق الثاني بهم حالما يحصل على توجيهات باريس المنتظرة.

وهكذا غادر الوفد قسنطينة في سيارة شويطر محمد[2]، يوم 02/19، واشترك فيه من عمالة قسنطينة بن هرقة عبد القادر من قالمة[3]، وحلّ الوفد بتونس يوم 02/20[4]، والتحق بهم بلال حسين[5]، الممثّل الثاني لعمالة قسنطينة، بينما مكث عمر بن دحمان بقسنطينة[6].

تلقّى عمر بن دحمان رسالة من كحّال أرزقي بباريس، يوم 02/23، وتضمّنت العبارة التالية: «تلقّيت أيضا برقياتك، ردّا على برقيتي في خصوص سفر صديقنا زكرياء»[7]، بما لا ينبئ عن حصول توتّر كبير بسبب مخالفة الوفد لتعليمات المقرّ الرئيسيّ بباريس، وأنّ الحلّ الذي اختاره الوفد كان مقبولا؛ وهو دليل -كما أسلفنا- على

---

[1]- ينظر: مذكرة شهرية للمعلومات خاصّة بالسياسة الأهليّة في عمالة قسنطينة، (CIE)، محافظة قسنطينة، 11h59، (CAOM)، ص09؛ وتقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 690، 1937/02/19، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- يقول محمد قنانش: «وأعطانا السيّد شويطر من ميلة سيارته، لنذهب بها إلى تونس، وبما أنّه كان مشغولا، فقد وجدنا سائقا، كان يقوم بالدعاية لابن جلول، ويدعى إبليس، لأنّه كان أعور» نجم الشمال الإفريقيّ127. تحدّث الخبران الصحفيان في جريدة "الزهرة"، وجميع تقارير الإدارة الاستعماريّة، التي تناولت هذا الموضوع، عن سبعة ممثّلين، بإضافة شويطر محمد، وإن حرّف اسمه في الغالب؛ بينما تحدّث النجم في أدبياته عن ممثّلين فقط عن كلّ عمالة؛ ويبدو أنّ العضو السابع في الوفد هو السائق ليس إلاّ. تنظر تلك الأدبيات: وفد من الوطنيّين الجزائريّين في جولة دعائيّة في تونس، قصاصة المقال من جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ليوم 1937/03/20، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)؛ ووفد الشباب الوطنيّ الجزائريّ بتونس الشقيقة، مفدي زكرياء، جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س03، ع113، 1356/01/02هـــ، 1937/03/16م، ص03.

[3]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1726، 1937/03/20، 4I4، (CAOM)؛ وذكر فيه عوض(بن هرقة عبد القادر): «بن حرزة محمد»، وتصويبه من خبر صحفيّ: ضيوف كرام من أبناء القطر الشقيق، جريدة "الزهرة"، س49، ع9023، 1355/12/17هـــ، 1937/02/28م، ص02. وورد في هذا التقرير أنّ السفر إلى تونس كان يوم 02/18، ولا يصحّ باعتبار ما سبق، وما سيأتي.

[4]- ينظر: رسالة المقيم العامّ للجمهوريّة الفرنسيّة بتونس إلى الوالي العامّ بالجزائر، رقم: 954/6، 1937/03/17، موضوعها: بخصوص نشاط أهليّين جزائريّين، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ مقابلا بــ: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1726، 1937/03/20، 4I4، (CAOM)؛ وقد ذكر فيه أنّ تاريخ وصولهم إلى تونس هو 02/19، يوم عيد الأضحى، وهو خطأ صريح.

[5]- يوم 02/28، ولا يصحّ؛ ينظر: مذكرة شهرية للمعلومات خاصّة بالسياسة الأهليّة في عمالة قسنطينة، (CIE)، محافظة قسنطينة، 11h59، (CAOM)، ص09.

[6]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 842، 1937/03/01، موضوعه: المراقبة السياسيّة للأهالي، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[7]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 910، 1937/03/06، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

امتلاك النجم بالجزائر لشخصيته المستقلّة، وأنّه لا يسير دوما في ركاب سميّه بباريس فيما عدا التوجّه العامّ للجمعية، ولعلّنا نجد تفسيرا لذلك في قرب عهده بالجزائر، وكون مسؤوليه شبابا، في العشرينيات من أعمارهم في الأغلب، لا خبرة لهم بالنضال الحزبيّ، بما يتطلّبه من انضباط صارم بالتعليمات، بالإضافة إلى إحساسهم –بالضرورة– بجدوى نضالهم في الجزائر أكثر من نضال زملائهم بباريس، وهو ما أكسب النجم بحلوله في الجزائر توجّها خاصّا ومميّزا.

علّقت جريدة "الزهرة" على هذا الحدث قائلة: «في الأيّام الأخيرة حلّت بالعاصمة التونسيّة بعثة جزائريّة للدعاية السياسيّة، يترأسّها الشاعر مفدي زكرياء، رئيس قسم عاصمة الجزائر للحزب السياسيّ المنحلّ (نجم الشمال الإفريقيّ). وممّا يلاحظ أنّ الدعاية [التي] يقوم بها أعضاء الحزب المنحلّ ناشطة للغاية»[1].

يقول قنانش محمد عن هذه الجولة الدعائيّة: «وفي تونس الشقيقة، اتّصلنا بقادة الحزب الحرّ الدستوريّ، وباللجنة التنفيذيّة، وزرنا جريدة "النهضة"، و"الزهرة"، وجريدة "الشباب" التي كان يديرها الفنّان الكبير بيرم التونسيّ [...]، وقد أسمعنا عدّة أزجال طلبها منه مفدي زكرياء الذي كان يعرفه معرفة تامّة. ولا أكتمكم أنّ لشاعرنا مفدي زكرياء في تونس مكانة مرموقة في الأوساط الأدبيّة والفنيّة والسياسية، وبعد رجوع الوفد إلى الجزائر بقي شاعرنا بتونس، يقوم بالاتّصالات السياسيّة، والأحاديث الصحفيّة، والمحاضرات الثقافيّة»[2].

أمّا مفدي فيلخّص هذه الجولة الدعائيّة، فيقول: «عقدنا رحلتنا الأولى[3] لتونس الشقيقة في الثامن من ذي الحجّة المبارك[4] في وفد يتركّب من ستّة نوّاب: نائبان من كلّ عمالة من عمالات الجزائريّة الثلاث، وقد حللنا تونس العزيزة، فوجدنا النخبة التونسيّة على اختلاف طبقاتها من دستوريّين إلى شبيبة، ومن طلبة إلى علماء[5]، في تأهّب لاقتبالنا، ولقد لاقينا منهم حفاوة وإكراما نادرين، وأريحية عربيّة ماجدة، وتبودلت

---

[1]- جولة دعائيّة، جريدة "الزهرة"، س49، ع9025، 1355/12/19هـ، 1937/03/02م، ص02. تحدّثت رسالة الوالي العامّ إلى محافظي العمالات الثلاثة بالجزائر عن مقال لجريدة "الوزير"، صدر بتاريخ 1937/03/04، تحدّث عن وفد "الشبيبة الوطنيّة الجزائريّة"، وقد صرّح أعضاء الوفد لمدير الجريدة بانتمائهم لحزب "الشبيبة الجزائريّة المثقّفة"، الذي يترأسه مصّالي الحاج؛ ينظر: الرسالة، رقم: 5187 B، 1937/03/20، موضوعها: رحلة وفد "الشبيبة الوطنيّة الجزائريّة" إلى تونس، 9h58، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص 01؛ وقد تعذّر علينا الاطّلاع على هذا العدد من جريدة "الوزير".

[2]- حزب الشعب الجزائريّ267؛ وينظر تفصيل هذه الاتّصالات: نجم الشمال الإفريقيّ127-130.

[3]- يقصد بحسب كلامه قبل ذلك أنّ الرحلة الثانية ستقودهم إلى المغرب.

[4]- الموافق ليوم 20 فيفري 1937.

[5]- يقول مدير الأمن لعمالة الجزائر: «أثناء إقامة الوفد بتونس، كان للوفد لقاءات متعدّدة مع طلبة التعليم العالي، وطلبة الزيتونة، كان الهدف منها محاولة تحقيق تقارب بين الشباب التونسيّ والجزائريّ»؛ ينظر: التقرير، رقم: 1726، 1937/03/20، 4I4، (CAOM).

بين أشقّاء الشمال الإفريقيّ طيلة ثمانية أيّام[1] كاملة محاضرات سياسيّة عميقة، وخطابات وطنيّة مليّة، وقصائد حماسيّة رائعة، ومجالس أدبيّة ظريفة، ودرس دقيق لحالة شمال إفريقيا عموما، وتوطيد دعائم الوحدة بين بنيها في التفكير والمبادئ والبرامج والأعمال، وسيتمتّع الشمال الإفريقيّ في وقت غير بعيد -إن شاء اللّه- بثمرات تلك الرحلة المباركة الوحيدة من نوعها»[2].

مكث الوفد بتونس إلى يوم 26 أو 02/27، ثمّ توجّه عائدا إلى الجزائر، باستثناء مفدي الذي غادر تونس بدوره يوم 1937/03/04[3]، وحلّ بالجزائر يوم 03/06[4].

ويقول المقيم العامّ الفرنسيّ بتونس عن نشاط مفدي في هذه الأيّام التي مكثها بتونس: «في مدة بقاء مفدي وحيدا بتونس، اتّصل بالطلبة الجزائريّين في الجامع الأكبر، وألقى محاضرة أمام جمهور محدود، بالمدرسة الخلدونيّة، دعا مسلمي شمال إفريقيا خلالها إلى الاتّحاد في تجمّع عربيّ للدفاع بفاعلية عن مصالح بلدانهم. وبعد أن قام بزيارة لمدراء مختلف الجرائد العربيّة، غادر تونس في بداية الشهر [يعني: شهر مارس]، ليعود إلى الجزائر، مارّا ببنزرت حيث يقيم بعض أفراد عائلته»[5].

لقد كان مفدي زكرياء ملهما في تنظيمه لهذه الرحلة، وفي اختياره ممثّلـيْن عن كلّ عمالة، وفي قيام الوفد بهذا النشاط المكثّف في تونس، مع ضمان التغطية الإعلاميّة الواسعة له في الصحافة الصادرة باللغة العربيّة خاصّة، لما يتوقّع له من أثر إيجابيّ في نفوس المناضلين، يزيح الآثار السلبية للظرف التي كان يمرّ به النجم في تلك الآونة، من حصار فرضه عليه خصومه بالجزائر، وإقدام حكومة الجبهة الشعبيّة على حلّ نجم الشمال الإفريقيّ، هذه الآثار التي أشار إليها تقرير القائد ويندر (Le Capitaine Wender)، أحد أهمّ المكلّفين بمركز الاستخبارات والدراسات بالجزائر آنذاك (Chargé du Centre d'Informations et d'Etudes de la Préfecture d'Alger)[6]، فقد تحدّث عن وقائع تتعلّق بالنجم بعد حلّه، ثمّ عقّب عليها بقوله: «بالرغم من

1- أي إلى يوم 02/27، ويذكر تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، بأنّ إقامة الوفد بتونس امتدّت إلى يوم 02/26؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1726، 1937/03/20، 4I4، (CAOM).

2- وفد الشباب الوطنيّ الجزائريّ بتونس الشقيقة، مفدي زكرياء، جريدة "الأمّة"، للشيخ أبي اليقظان، س03، ع113، 1356/01/02هـ، 1937/03/16م، ص03.

3- ينظر: تقرير ويندر (Wender) بخطّ يده، 1937/03/16، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة، تحدّث فيه عن وقائع تتعلّق بنجم الشمال الإفريقيّ بعد حلّه.

4- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1726، 1937/03/20، 4I4، (CAOM).

5- ينظر: رسالة المقيم العامّ للجمهوريّة الفرنسيّة بتونس إلى الوالي العامّ بالجزائر، رقم: 954/6، 1937/03/17، 3cab42، (CAOM).

6- ينظر: مدوّنة من محافظة الجزائر، بأمضاء: بورا (Bourrat)، 1938/09/20، تتحدّث عن تعيين الوالي العامّ للقائد ويندر رئيسا لمركز الاستخبارات والدراسات بالجزائر، 4I1، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

مجهودات زكرياء، ومجهودات مساعديه، فإنّ عدد المنخرطين في نجم الشمال الإفريقيّ قد نقص بمقدار النصف لصالح الحزب الشيوعيّ»[1].

«إنّ حلّ النجم لم يمنع مسؤوليه ومناضليه من مواصلة نشاطاتهم، فقد استطاع التنظيم الوطنيّ الحفاظ على وجوده بفضل جريدة "الأمّة"، الذي خلفت لجانُ أحبابها خلايا النجم»[2].

صادرت الإدارة الاستعماريّة منشورا مكتوبا باللغتين العربيّة والفرنسيّة، بعنوان "أيّها الشعب المسلم الجزائريّ"، يحمل إمضاء "أحباب الأمّة"، بعد تمام طبعه في "المطبعة العربيّة"، وقبل تسليمه لأصحابه، وذكر تقرير مدير الأمن بعمالة الجزائر عن الواقعة، أنّ تنظيم "أحباب الأمّة" مجهول بالجزائر، وعدد ما طبع من المنشور 5.000 نسخة، وأنّ الكاتب العامّ لخلية النجم بالجزائر، لحول الحسين، هو الذي قدّم طلب طبعه[3]؛ وفي تقرير ثان له، بتاريخ 02/26، تبيّن من الاستجوابات التي أجراها محافظ الشرطة دلقوف (Delgove)[4]، أنّ لحول الحسين هو الذي قدّم -فعلا- طلب الطبع، وأنّه هو الذي كتب النصّ المنشور باللغة الفرنسيّة[5]. أمّا نصّ المنشور باللغة العربيّة، فلم يذكر صاحبه، والأرجح أنّه لمفدي زكرياء، بالنظر إلى أسلوبه، ومقارنته بمناشير النجم السابقة، فهو لم يكن ترجمة حرفية للنص الفرنسيّ، ففي ختام النصّ العربيّ ورد ما يلي: «إنّنا سنداوم الجهاد -والنصر حليفنا- ضدّ البؤس والاستعباد، وضدّ الاستعمار والاستبداد، رغم كلّ المصاعب والأخطار، رغم كلّ التعطيلات، وليعلم أعداء الأمّة إنّما هم ﴿يريدون [ليطفؤوا] نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون﴾[6]، وأنّ الوطنية التحريريّة ستخرج غالبة منصورة»[7]، كما أنّ موضوع المنشور هو الاحتجاج على حل نجم الشمال الإفريقيّ،

1- ينظر: تقرير ويندر (Wender) بخطّ يده، 1937/03/16، 4I3، (CAOM). إنّ هذا التعقيب وإن كان مثيرا للجدل، لطابع المبالغة فيه، فإنّه له دلالته في بيان الأثر النفسيّ لحلّ النجم في صفوف مناضليه، لصدوره من خبير في الإدارة الاستعماريّة.

2- ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة450، 451.

3- ينظر: التقرير، رقم: 1035، 1937/02/22، موضوعه: منشور من نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة؛ وصورة من المنشور في الملحق613.

4- في إطار قضيّة مرفوعة ضدّ مجهول، بتهمة: الدعاية ضدّ السلطة الفرنسيّة، وإعادة تشكيل رابطة منحلّة، كلّف فيها قاضي التحقيق رمبير (Rambert) بغرفة المحكمة الابتدائية بالجزائر، مديرَ الأمن لعمالة الجزائر، القيام بجميع العمليات القضائيّة التي تمكّنه تسليط الضوء على هذه القضيّة؛ وفي هذا الإطار قام محافظ الشرطة بتفتيش منزلي خليفة بن عمّار، ولحول الحسين، بالإضافة إلى "المطبعة العربيّة"؛ ثمّ أجرى استجوابا لخليفة بن عمّار، وحميدي بوزيد، وأبي اليقظان عيسى بن الحاج إبراهيم، بينما لم يستجوب لحول الحسين، لغيابه عن الجزائر في تلك الآونة.

5- ينظر: التقرير، رقم: 1208، 1937/02/26، موضوعه: بخصوص دعاية ضدّ السلطة الفرنسيّة وإعادة تشكيل رابطة منحلّة (نجم الشمال الإفريقيّ)، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- سورة الصفّ، الآية 08. وعوض ما بين المعقوفين في الأصل: «أن يطفؤوا»، وصوابه ما أثبتّه.

7- يقابله في النصّ الفرنسيّ، ما يلي:

«La lutte continue contre l’oppression et la misère, contre le colonialisme, malgré tous les obstacles, tous les sabotages, et toutes les trahisons, le nationalisme libérateur vaincra».

ينظر: نسخة مطبوعة من المنشور، 3cab43، (CAOM).

فغياب مفدي عن الجزائر أوان طبعه ومصادرته لا يفنّد ما استنتجناه، لأنّ مفدي يكون قد كتبه قبل سفره إلى عمالة قسنطينة، يوم 02/03[1].

---

[1]- ذكر النائب العامّ لدى المحكمة الابتدائيّة بالجزائر في تقريره عن المتابعات القضائيّة المفتوحة في الجزائر ضدّ مجهول، بتهمة إعادة إنشاء جمعية منحلّة، أنّ المنشور كتبه خليفة بن عمّار، وطبعه لحول الحسين، ونفى غرّافة ومفدي علاقتهما بهذا المنشور، بينما ذكر غرّافة أنّه حضر اجتماعا لـــ"أحباب الأمّة"، تقرّر فيه إصدار هذا المنشور الاحتجاجيّ؛ ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: AS-17.972، 1937/09/07، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها التقرير، رقم: 184-158-55 (الغرفة الثانية للتحقيق)، وثيقة من صفحتين، ص01. وممّا يفنّد احتمال كتابة خليفة لهذا المنشور ما تحدّثت عنه مدوّنة المعلومات الخاصّة به، من أنّه يمتلك -فيما يتعلّق بمستواه التعليميّ- فرنسية أوّلية ومحدودة (Elémentaire)؛ ينظر: المدوّنة، (C.I.E)، عمالة الجزائر، 1937/04/19، 4I87، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

الفصل الثالث: في صفوف حزب الشعب الجزائريّ

إنشاء حزب الشعب الجزائريّ:

يقول محفوظ قدّاش: «ما كان بإمكان تنظيم أحباب "الأمّة" أن تكون له نفس ديناميّة الحزب، لذلك تمّ إقرار إنشاء تنظيم جديد، "حزب الشعب الجزائريّ" (P.P.A): وضع كلّ من مصّالي، وفيلالي عبد الله، وأرزقي كحّال، القانون الداخليّ، والبرنامج، وقائمة مجلس التسيير والإدارة؛ ثمّ أودع مصّالي وفيلالي وثائق إنشاء الحزب في محافظة الشرطة، يوم 11 مارس 1937، وتُركا في مكاتب المحافظة طيلة الفترة المسائيّة، وأخلي سبيلهما في السهرة، فعقدا اجتماعا في نانتار (Nanterre)، أعلنا فيه عن إنشاء (ح.ش.ج)»[1].

ويقول مصّالي الحاج في مذكّراته: «إنشاء حزب جديد بعد حلّ سابق، هو إنجاز جريء وخطير [...]، كان علينا اختيار الاسم الذي سنمنحه له بعناية، لتجنّب حلّ جديد، فكّرنا في تسميته "الحزب الوطنيّ الجزائريّ"، ولكنّ بعض أصدقائنا قالوا لنا إنّ هذا الاسم وقعه مؤذ في بعض الأوساط، ولذلك انتهينا إلى اختيار تسمية "حزب الشعب الجزائريّ"، الذي تأسّس يوم 11 مارس 1937»[2]. وخير خاف عنّا أن التسمية التي عُدل عنها هي التسمية التي كرّسها مفدي زكرياء في جميع كتاباته منذ انخراطه في النجم، نجدها في "النشيد"، و"البلاغ"، وجميع ما كتبه من مناشير النجم، بما فيه المنشور الأخير، فقد تحدّث -مخاطبا الشعب المسلم الجزائريّ- عن حلّ «حزبك الوطنيّ "نجم الشمال الإفريقيّ"»، بينما يتحدّث النصّ الفرنسيّ عن تنظيم وطني (Organisation nationale)[3].

وصل مفدي إلى الجزائر يوم 03/06، كما مرّ، وكتب رسالته الأولى إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، بعد عودته من تونس، يقول له فيها: «وصلت الجزائر على خير وعافية»، ويزفّ إليه بعد ذلك نبأ إنشاء "حزب الشعب الجزائريّ"، فيقول: «تأسّس حزب سياسي جديد رسميّ على أنقاض "نجمة شمال إفريقيا"، تحت اسم "حزب الشعب"، وتحت الرئاسة (الشرفية) للأمير شكيب أرسلان، المؤسّس لبنود هذا الحزب صحبة الرئيس [مصّالي]. والأعمال تسير بجدّ لتوطيد شُعبه بالقطر الجزائريّ»[4].

لقد كان العمل جار آنذاك -بحسب تقارير الإدارة الفرنسيّة- لتوطيد لجان "أحباب الأمّة"، فقد كان هذا التنظيم مجهولا بالجزائر، في أواخر فيفري، كما سبق، وتحدّثت تقاريرها عن لجنة الجزائر من هذا التنظيم، لأوّل مرّة يوم 1937/03/09، فإذا مكتبها يتكوّن من: مزغنة أحمد نائبا للرئيس، ولحول الحسين كاتبا عامّا، وخليفة بن

1- ينظر: تاريخ الوطنيّة الجزائريّة1: 452؛ وكذا مذكرات مصّالي الحاج252، 253.

2- ينظر: مذكّرات مصّالي الحاج252.

3- ينظر: (CAOM)، 3cab43، نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة في صفحة واحدة.

4- رسالة مفدي زكرياء إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

عمّار كاتبا مساعدا، وغرّافة إبراهيم أمينا للمال، ولم يفصح عن الرئيس، و«هذه الجمعية تتكوّن من 100 عضو، تقدّم لهم بطاقات الانخراط المسمّاة "بطاقة التضامن لأحباب الأمّة"»[1]؛ وتبعا لهذا التقرير طالب الوالي العامّ المحافظ بموافاته بمدوّنات معلومات (Notes de renseignements) خاصّة بالأهليّين المذكورين في التقرير[2]؛ فأجاب مدير الأمن لعمالة الجزائر محافظها بمضمون طلب الوالي العامّ، يوم 1937/04/06، قائلا: «لي الشرف أن أبعث طيّ هذا [...] المدوّنات الخاصّة بالمدعوّين: مزغنة أحمد، ولحول الحسين، وخليفة بن عمّار، وغرّافة إبراهيم، وزكرياء [بن] سليمان، أعضاء مكتب خلية جمعية "أحباب الأمّة" بالجزائر»[3]؛ وهو ممّا قد يدلّ على أنّ رئيس التنظيم الجديد لم يكن سوى مفدي زكرياء، وهو ما لا نستبعده تبعا لرئاسته للنجم، وعدم ثبوت مسألة استقالته، كما أنّ كلامه في رسالته إلى أستاذه كلام مناضل غارق تماما في النشاط السياسيّ.

في 1937/03/18، كتب مفدي رسالة مطوّلة إلى الأمير شكيب أرسلان، قدّم فيها نفسه، ببيان وظيفته في الحزب الوطني، فقال: «إنّ كاتب هذه الرسالة هو أحد المعجبين الكبار بكتاباتكم الخالدة، ومن الذين تبنّوا نضالكم منذ سنين عديدة، إنّه أخوكم في الله، مفدي زكرياء، رئيس المجلس التنفيذيّ للحزب الوطني الجزائريّ، لمنطقة شمال إفريقيا كاملة، في الجزائر»[4]، فهو يترأس الحركة في الجزائر؛ ثمّ تحدّث عن نضاله ونضال زملائه بالجزائر، وعن روحه وروحهم المعنوية العالية في مواجهة الخصوم السياسيّين، حديث من هو في قلبها، وليس على هامشها، فيقول: «إنّني أعتقد جازما أنّ أستاذنا مصّالي الحاج قد حدّثكم عن توسّع حركتنا الوطنية في الجزائر، وعن موقف أعدائنا اتّجاهها بهدف وأدها، وأنّ محاولاتهم لم تؤثّر فينا، ولم توقف مسيرتنا ولو للحظة؛ وإنّما الأمر بالعكس، فقد ضاعفنا جهودنا وتصميمنا، واضعين ثقتنا في الله، لقد تكسّرت أمواج أعدائنا على صخرة وطنيتنا، وإرادتنا، وثقتنا»[5].

وفي 1937/03/23، وتطبيقا للتفويض رقم: 41، من قاضي التحقيق قنازي (Ganazzi)، بالغرفة الخامسة التابعة للمحكمة الابتدائية لدائرة الجزائر، قام مدير الأمن لعمالة الجزائر، بواسطة المحافظ دلقوف

---

[1]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1444، موضوعه: بخصوص خلية الجزائر لأحباب الأمّة، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، رقم: 4728 B، 1937/03/15، موضوعها: بخصوص خلية أحباب الأمّة بالجزائر، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[3]- ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى المحافظ، رقم: 1689، موضوعها: بخصوص أحباب الأمّة، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6576، 1937/09/28، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت به الرسالة مترجمة، وثيقة من تسع صفحات، ص01. لم نقف على أصل هذه الرسالة، وبقيت ترجمتها التي تمّت في أواخر سبتمبر 1937، بعد دخول مفدي سجن بربروس. وهذا المقطع من الرسالة يدلّنا بوضوح على أنّ الرسالة التي سبقت الإشارة إليها في ص189، كانت رسالة موجّهة إلى جمعية نجم شمال إفريقيا، ولم تكن خاصّة بمفدي.

[5]- نفسه01.

(Delgove)، التابع لمصالحه، بمصادرة 57 نسخة من "النشيد الوطني الجزائريّ"، بمنزل مُفَدِّي زكرياء، الرئيس السابق لخلية الجمعية المنحلّة بالجزائر "نجم الشمال الإفريقيّ"، الكائن بـــ: 14 شارع بوتان (Boutin)[1]؛ وقد تطرّق مفدي لمثل ردّ الفعل هذا من الإدارة الاستعماريّة، في رسالته إلى الأمير شكيب أرسلان، فقال: «أمّا فيما يخصّ الإدارة المحليّة، فإنّها تلاحقنا بالتفتيشات، وتحاول إذلالنا: أقامت قضايا جنحية ضدّ ثمانية من أعضاء حزبنا، تطبيقا لمرسوم الوزير رينيي (Régnier)؛ وأخوكم الكاتب نفسه، قد اتّهم بالتحريض ضدّ أمن الدولة، والنداء للثورة، ودفع المسلمين إلى التمرّد ضدّ الحكومة، بواسطة الخطب، والأشعار، والأناشيد، وفُتحت دعاوى ضدّي، بعناية قاضي التحقيق، ملفّاتها مليئة بالشهادات الكاذبة، لكنّني أسخر من كلّ هذا، لأنّي أعتبره سرابا ...، ولأنّنا قد أعددنا أنفسنا لما هو أخطر ...»[2].

تأخّر تأسيس الخلايا الأولى من "حزب الشعب الجزائري" بالجزائر، لما يقارب الثلاثة أشهر، بعد إيداع وثائق تأسيسه يوم 03/11، ونجد تفسير ذلك من الوهلة الأولى في حاجة الحزب الجديد إلى إعادة النظر في مسائل تنظيميّة عديدة، بعد أن أصبح الحزب جزائريّا محضا، واحتياجه بسبب ذلك إلى تحديد العلاقة بين فرنسا والجزائر، لتوزّع نشاطه بينهما، ونجد ما يؤيّده في رسالة مفدي إلى الأمير أرسلان، حيث يقول: «إنّنا قادرون الآن على إحراز النصر [يعني: على خصومهم]، وغلبتهم على طول الخطّ، لكنّنا أجّلنا المسألة إلى وقت لاحق، في انتظار إقامة الحزب الجديد على أسس متينة، ومجيء قائدنا، الشيخ مصّالي إلى الجزائر، خلال شهر[3] إن شاء الله»[4]، ولكن إذا أمعنا النظر وجدنا هذا التفسير قاصرا عن أن يفي بطول هذه المدّة:

عقدت جمعية "أحباب الأمّة" اجتماعين، يومي 08[5] و04/10[6]، بمقرّ نجم الشمال الإفريقيّ، في 15 شارع تيباز (Thébes)، وقد بقي مهجورا منذ حلّه. حمل الاجتماعان طابعا سريّا للغاية، وممّا ميّز الأوّل خروج المناضلين منه، وهم يلبسون ربطات عنق خضراء، عليها هلال ونجمة في وسطه، لونهما أبيض،

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 1859، 1937/03/26، موضوعه: بخصوص النشيد الوطني الجزائري، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: الرسالة، 3cab46، (CAOM)، ص08.

3- ذكر لحول الحسين في اجتماع 04/22، بأنّ مجيء مصّالي الحاج من باريس كان مقرّرا في حدود 15 أفريل، لكنّه تأجّل، لأسباب خارجة عن إرادته؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 2689، 1937/04/24، موضوعه: بخصوص أحباب الأمّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02.

4- ينظر: الرسالة، 3cab46، (CAOM)، ص08.

5- ينظر: تقريرا المحافظ المركزيّ للشرطة بالجزائر إلى الكاتب العامّ الخاصّ بالقضايا الأهليّة والشرطة العامّة، رقم: 356 R.S، و351 R.S، الأوّل مؤرّخ في 1937/04/12، والثاني غير مؤرّخ، 2I37، (CAOM)، وثيقتان من صفحة واحدة.

6- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 2285، 1937/04/12، موضوعه: بخصوص اجتماع لأحباب الأمّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

ولعلّها أوّل مرّة يعتمد مناضلو "أحباب الأمّة" هذا الأسلوب الجديد في الدعاية لحزبهم[1]، بعد أسلوب تقلّد الشارة الخاصّة بنجم الشمال الإفريقيّ[2].

ثمّ انعقد اجتماع بوم 04/18، حضره مجموعة من أعضاء جمعية "أحباب الأمّة" بالجزائر، في حدود 12 عضوا، قال عنه تقرير الإدارة: «جدّ خاصّ»، تحدّث فيه مزغنة عن تعليمات وأوامر أرسلتها اللجنة المسيّرة للحزب الجديد "حزب الشعب الجزائري"، إلى جمعية "أحباب الأمّة" بالجزائر، ومنها تكوين خلية لهذا الحزب بالجزائر؛ وسيتمّ إنشاء مكتب خلية الجزائر في اجتماع سينعقد بالمقرّ الجديد، الكائن بـــ: 02 شارع دي ليبان (Du Liban)، الذي استأجره "أحباب الأمّة"، ليكون المقرّ الاجتماعيّ لخلية "حزب الشعب الجزائريّ". وقدّم التقرير في ختامه وصفا للمقرّ الجديد، الذي كان مغلقا بسبب الأشغال، وقد تمّ طلاؤه، وتأثيثه: له مدخلان، يتكوّن من قاعة كبيرة؛ في نهاية القاعة طاولة وضعت فوق مصطبة، وخلفهما على الحائط ألصق هلال منسوج في وسطه نجمة، وفوق هذه الشارة ثـــبّت علم أخضر، عليه هلال ونجمة بلون أبيض؛ وعلى حائط من حيطان القاعة، كتبت -بالعربية- العبارة التالية، [يعني: الآية الكريمة]: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا﴾[3]؛ وتتوفّر القاعة على عدد من المقاعد؛ أمّا تدشينه فسيتمّ -بحسب التقرير- يوم 04/22[4].

وذكر تقرير للإدارة الاستعماريّة أنّ ميزون كانتو (Maison Canto) قامت بتأجير هذا المقرّ، للمدعوّ مفدي زكرياء، من تنظيم "أحباب الأمّة" بالجزائر، في 1937/04/01، بمبلغ قدره 175 فرنكا شهريّا[5]؛ وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ مفدي قام خلال شهر ديسمبر بمحاولة لدى إدارة "نادي الشبيبة الإسلامية"، لشراء مقرّه الكائن بـــ:

---

[1]- فقد تحدّث تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، وكان خاصّا بهذا الموضوع، 1937/04/16، عن أنّ أغلبية أعضاء هذه الجمعية يلبس كعلامة مميّزة ربطات العنق هذه؛ ينظر: التقرير رقم: 2464، موضوعه: بخصوص أحباب الأمّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- هذه الشارة خلفيتها خضراء وزرقاء، والخطّ الفاصل بين اللونين يمثّل حدود إفريقيا الشمالية، فوقه هلال ونجمة بلون أبيض، وفي وسط الهلال كتب بالعربيّة "الأمّة"؛ ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى المحافظ، رقم: 1694، 1937/04/13، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وممّا يدلّ على أنّ هذه الشارة هي شارة النجم، هو ملاحظة الشرطة خليفة بن عمّار متقلّدا لها يوم 1937/02/24، فراسل مدير الأمن لعمالة الجزائر قاضي التحقيق في هذا الشأن؛ ينظر: الرسالة رقم: 1271، 1937/03/02، موضوعها: نجم الشمال الإفريقيّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[3]- سورة "آل عمران"، الآية 103.

[4]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 2567، 1937/04/22، موضوعه: بخصوص أحباب الأمّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. أمّا كيفية تنظيم الحزب في الجزائر، فلم يكن واضحا بحسب تدخّلات مزغنة ولحول في الاجتماع.

[5]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 2689، 1937/04/24، 2I37، (CAOM)، ص02.

2 ساحة شارتر (Chartres)، ليكون المقرّ الرئيسيّ لنجم الشمال الإفريقيّ، غير أنّ ما اقترحه مفدي لم يرض مدير النادي، محمد سعيد، فلم يتمّ البيع[1].

لم تُنشأ خلية "حزب الشعب الجزائريّ"، بحسب الإعلان المتقدّم، في الاجتماعين اللذين تحدّثت عنهما تقارير الإدارة الاستعماريّة، وانعقدا بالمقرّ الجديد، يومي 1937/04/22[2]، و05/22، بمناسبة المولد النبويّ[3]، وكان الحديث في هذا الأخير عن قرب إنشاء الحزب بالجزائر.

وتمّ -أخيرا- إنشاء أوّل خلية، أو خليةٍ من أولى خلايا "حزب الشعب الجزائريّ"، وهي خلية مهنيّة، في الاجتماع الذي انعقد يوم 1937/06/03، دعي إليه موظّفو ترامواي الجزائر (T.A)، بدعوات شخصية، بعد إعلان قبولهم الانخراط في الحزب الجديد، فكان عدد الحاضرين 38 شخصا، وتناول الاجتماع جدول الأعمال الآتي: انتخاب المكتب، وقراءة القانون الداخليّ، ثمّ تعيين الممثّل الفدرالي؛ وفي قراءة القانون الأساسي تبيّن أنّ كيفية تنظيم الحزب هي بخلاف ما أعلن عنه سابقا؛ فالتنظيم الذي يجري به العمل هو تكوين خلايا الدوائر، والخلايا المهنيّة، بعدد لا يقلّ عن 25 عضوا في كلّ خلية، وكلّ خليّة تعيّن ممثّل فدراليّا، يكوّن مع زملائه المجلس الفدرالي الذي ينتخب بدوره المكتب الفدراليّ، وعدد فدراليات الحزب في الجزائر بعدد عمالاتها؛ أمّا قيادة الحزب فتكون بباريس، ويمكن نقلها إلى مدينة أخرى، تبعا لقرارات المكتب المسيّر. وفي ختام التقرير تتمّة تحدّثت عن أنّ انتخاب المكتب الفدراليّ سيتمّ بعد تعيين جميع الخلايا لممثّليها، ولذلك لا يمكن تحديد تاريخ إنشائه، ويتكفّل -حاليا- بالإدارة العامّة لــ:"حزب الشعب الجزائريّ" بالجزائر مفدي زكرياء، ولحول الحسين[4].

وفي تقرير موال، مؤرّخ في 1937/06/05، تحدّث مدير الأمن لعمالة الجزائر عن إنشاء الخلية الرابعة من حزب الشعب الجزائريّ: رئيسها: مصطول، وكاتبها: حاجَ حموده، وأمين مالها: أوكليس حمودي[5]. وسبق إنشاء هذه الخلايا حملة دعائيّة، تمثّلت في أوراق صغيرة مطبوعة (Papillons)، ألصقت في أماكن عديدة، كتب أصلها بخطّ اليد، تحمل العبارة الآتية: «الاتّحاد قوّة، انخرطوا في (ح.ش.ج)، حزب الشعب الجزائريّ»، ورسمت

---

[1]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 223، مؤرّخ في جانفي 1937، تاريخ ختم البريد الوارد لمحافظة عمالة الجزائر 1937/01/16، موضوعه: بخصوص نجم الشمال الإفريقيّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02؛ وتقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 8040، 1936/12/19، موضوعه: نادي الشبيبة الإسلامية، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 2689، 1937/04/24، 2I37، (CAOM).

[3]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 3689، 1937/05/24، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

[4]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4048، 1937/06/04، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

[5]- ينظر: التقرير، رقم: 4052، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

فيها شارة الحزب الجديد: الهلال في وسطه نجمة؛ ونفس الشارة رسمت بالطباشير، على الحيطان وأعمدة النور بالجزائر، وكتب داخل الهلال (ح.ش.ج)[1]؛ وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذا المنشور هو أوّل منشور -وقفنا عليه- للحزب الجديد بالجزائر، منذ تأسيسه في مارس.

لقد توقّف أو كاد نشاط مناضلي الجزائر في شهر مارس، بالرغم من إنشاء خلية "أحباب الأمّة" في 03/09، ثمّ عادوا إلى عقد الاجتماعات يوم 04/08، وكان من قلّة نشاط "أحباب الأمّة" بالجزائر، أن راسل الوالي العامّ المحافظ، في 1937/04/24، يطالبه بالمعلومات حول إنشاء خلايا تابعة لتنظيمي "أحباب الأمّة"، و"حزب الشعب الجزائريّ" بعمالة الجزائر[2]، فكان جواب مدير الأمن لعمالة الجزائر للمحافظ، بتاريخ 1937/05/03، على مراسلتيه في الموضوع، رقم: 4165، و4171، بتاريخ 04/30، قائلا: «إنّ نشاطات جمعية "أحباب الأمّة" بالجزائر، لم تفتني، وقد أبقيتكم على اطّلاع على هذا النشاط، بتقارير تحمل أرقام: 1444، و2285، و2464، و2567، و[2689]، لأيّام 09 مارس، و12، و16، و22، [و24] أفريل الماضيين»، وأكّد للمحافظ -بعد ذلك- عدم ادّخار وسعه في اطْلاعه على أيّ نشاط جديد لهذا التنظيم، ووعده بإخباره عن خلية (ح.ش.ج) المحتمل إنشاؤها، حين وقوعه[3].

إنّ الرسالة تدلّ دلالة واضحة على أنّ نشاط تنظيم "أحباب الأمّة" لم يتجاوز هذه التظاهرات المذكورة في التقارير الخمسة، فلم تُنشأ خلية أخرى غير المذكورة في تقرير 03/09، في عمالة الجزائر كاملة[4]، على خلاف توجيهات باريس[5]، بينما أُنشأت أربع خلايا لحزب الشعب الجزائريّ، في أيّام معدودة، لا تزيد على أصابع اليد الواحدة.

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 3887، 1937/05/31، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: الرسالة رقم: 7370 B، موضوعها: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: الرسالة، رقم: 2853، موضوعها: بخصوص أحباب الأمّة، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. والتقارير المذكورة في الرسالة وقفت عليها جميعها، وهو ما مكّنني من تصحيح الرقم بين معقوفين، وكان في الأصل: 2589، كما أضفت التاريخ المقابل له بين معقوفين، وهو غير مذكور في الأصل.

4- على خلاف ما ذكره قدّاش -من غير توثيق- من أنّ لجان "أحباب الأمّة" بالجزائر نفسها، وفي أنحائها، كانت من أكثر اللجان دينامية؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة452.

5- ففي رسالة كحّال أرزقي إلى عمر بن دحمان، باسم إدارة جريدة "الأمّة" الباريسيّة، غير مؤرّخة، دعا المناضلين إلى إنشاء جمعيات "أحباب الأمّة" في كلّ مكان؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 492، 1937/02/06، موضوعه: "الأمّة"، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01. ونفس التوجيه نجده ضمن التوجيهات التي وردت في رسالة خليفة بن عمّار، أحد أبرز مسؤولي النجم بالجزائر، إلى عمر بن دحمان، يوم 02/01، حيث يطالبه بإنشاء لجان للدفاع عن جريدة "الأمّة"، باسم "أحباب الأمّة"؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة قسنطينة، رقم: 454، 1937/02/03، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01. كما تعدّدت توجيهات الإدارة

ثمّ إنّنا نجد هذه الظاهرة خاصّة بعمالة الجزائر، بينما عمالتا وهران وقسنطينة كانتا أكثر استجابة للإدارة المركزية بباريس، ففي قالمة -على سبيل المثال- يتحدّث تقرير خاصّ، من محافظ الشرطة سياشي (Siacci)، بتاريخ 1937/04/22، عن قرب إنشاء خلية من حزب الشعب الجزائريّ بقالمة، رئيسها: جلول أحمد، وكاتبها العامّ بوجريدة عمّار، وأمين مالها: هرقة عبد القادر؛ وأضاف بأنّ هذا الأخير، قد ترشّح -استجابة للأوامر التي تلقّاها من اللجنة المركزية للحزب- لمنصب النائب البلديّ (Conseiller Municipal)، في الانتخابات الجزئيّة التي ستجرى يوم الأحد 04/25[1]، ليصبح أوّل مرشّح قدّمه حزب الشعب الجزائريّ للانتخابات[2]؛ وتحدّث محفوظ قدّاش، عن إنشاء خلايا من "أحباب الأمّة" في عمالة وهران، في: سيدي بلعباس، وعين تموشنت، وتلمسان، ومستغانم[3].

إنّه لمن اللافت للانتباه غياب مفدي عن اجتماعات شهري أفريل وماي، وكان موجودا بالجزائر عند انعقاد أغلبها[4]، فلم يذكر عندما ذكرت بعض التقارير أسماء الحاضرين، ولم يكن مفدي ممّن تغفل عنه أعين المراقبين؛ ولم يكن من بين الخطباء أو المتكلّمين في هذه الاجتماعات، عند تعدّد الخطب والكلمات من مسؤولين وغيرهم، وهو الأهمّ، في حين كانت فيه الإدارة تتابع حركات وسكنات مفدي، كفعلها مع أبرز مسؤولي النجم، وتبحث عن أيّ شيء يمكن أن تتمّ به متابعته قضائيّا، وقد عبّر مفدي عن هذا الوضع في رسالته إلى الأمير أرسلان؛ وممّا يؤكّد ذلك رسالة النائب العامّ لدى المحكمة الابتدائيّة بالجزائر (cour d'appel d'Alger) إلى الوالي العامّ، في

المركزية في هذا الاتّجاه، ومنها المقال الذي صدر بجريدة "الأمّة" الباريسيّة، 1937/03/20، بعنوان: واجب كلّ صديق لـ"الأمّة"، بإمضاء (A.K)؛ ينظر: قصاصة المقال، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

1- ينظر: التقرير، رقم: 1801، موضوعه: إنشاء حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: حزب الشعب الجزائريّ11.

3- ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة452؛ ناقلا عن ملفّ خاص بحزب الشعب الجزائريّ، في أرشيف ولاية وهران. وهذا خلاف ما ذكره ويندر (Wender) في دراسته، رواية عن مصّالي، من غير تحديد مصدره، وذلك إذ يقول: «وإذا انتظر [يعني: مصّالي] شهر ماي، ليرسل تعليماته الأولى المتبوعة إلى الجزائر، لأنّه -على ما أوضحه- كان في نيّته أن لا ينتقل إلى الدعاية إلاّ بعد تحديد برنامج وطرق عمل (ح.ش.ج)»؛ ينظر: نشاط حزب الشعب الجزائري في الجزائر خلال الشهور الأخيرة، 1937/08/17، نسبت الدراسة في الغلاف -بخطّ اليد- للقائد ويندر (Capitaine Wender)، 4I3، (CAOM)، وثيقة من 12 صفحة، ص01، 02.

4- لم نجد أثرا لغيابه عن الجزائر في هذه الفترة سوى في ثلاثة مواضع: الأول: في ارتجاله لقصيدة في مأدبة عشاء أقيمت على شرف الحجّاج العائدين من البقاع المقدّسة، بمدينة الأصنام؛ ينظر: ركب الحجيج تحيّة وسلاما، مفدي زكرياء، جريدة "الأمّة"، س03، ع117، 1356/02/01هـ، 1937/04/13م، ص03؛ ومفدي زكرياء213، 214؛ الثاني: في تقرير للإدارة الاستعماريّة، تحدّث عن غيابه عن الجزائر في بداية شهر ماي؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 2892، 1937/05/04، موضوعه: بخصوص المدعوّ سعيد الزاهريّ، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ والثالث: عندما كتب الحلقة الأولى من مقاله "بكوشة وحلوش في الميزان"، أمضاه كالآتي: «فيقيق - عابر سبيل -مفدي زكرياء»، جريدة "الأمّة"، س03، ع121، 1356/03/06هـ، 1937/05/18م، ص02. وغنيّ عن البيان إمكان الحديث في الموضعين الثاني والثالث عن نفس الغياب، في أوائل شهر ماي، ولم يمتدّ أكثر من 12 ماي، تاريخ كتابة رسالته إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ.

1937/05/10، جوابا على رسالة هذا الأخير، بتاريخ 04/29، وكان مرفقا بها ترجمة مقال لمفدي، نشره في جريدة "الأمّة" للشيخ أبي اليقظان، ليوم 04/20[1]، وجواب القاضي ينمّ بوضوح عن غرض الوالي العامّ من رسالته[2]، يقول فيها: «[...] لي الشرف أن أعلمكم أنّه وبسبب التعابير الفضفاضة المستعملة في هذا المقال، لا يبدو لي نافعا التفكير في إمكان القيام بمتابعات قضائيّة ضدّه. ما من شكّ في أنّ صاحبه أراد مرّة أخرى أن يقوم بفعل دعائيّ ضدّ فرنسا، ولكنّه توخّى الحذر، فأخفى فكرته وراء تحريض ذي مظهر دينيّ، يمكن أن يكون موضوع مناقشة جدّيّة أمام قضاء قمعيّ [...]»؛ ثمّ أخبره عن إدراجه هذه الوثيقة في ملفّ المتابعة القضائيّة السائرة المفعول ضدّه، بعد فتحها بقالمة، إثر مصادرة منشور، بعنوان "النشيد الوطني الجزائريّ"، من نظمه[3].

وإذ أحجم مفدي عن حضور هذه الاجتماعات، وعن المشاركة فيها، فإنّ ذلك لم يعن في يوم من الأيّام توقّفه عن العمل لصالح ما يصرّ على تسميته "الحزب الوطنيّ الجزائريّ"، وقد سبقت أمثلة لنشاطه، ومنه: قيادة وفد الوطنيّين إلى تونس، ورسالته إلى الأمير شكيب أرسلان، ومقاله في جريدة "الأمّة" للشيخ أبي اليقظان، وكراء مقرّ دائم للحزب الجديد بالجزائر، وتولّيه لقيادة الحزب الجديد مع لحول، في انتظار انتخاب المكتب الفدرالي؛ أضف إلى كلّ ذلك إنشاؤه لجمعية "القلم"، فقد ذكر مدير الأمن لعمالة الجزائر في رسالته إلى محافظها، بتاريخ 1937/06/10، أنّ جمعية جديدة قد أسّست يوم 05/15، اسمها جمعية "القلم"، وصرّح بها لدى محافظة الجزائر يوم 05/24، ورقم تسجيلها: 2649؛ مقرّها الاجتماعي كائن بالجزائر، في 14 شارع بوتان (Boutin)؛ هدفها تعليم العربية والفرنسية للصغار والكبار ممّن لم يدرسوا في مدارس عموميّة؛ وتنوي لاحقا إنشاء مكتبة، وناد، تعقد فيه الاجتماعات. يتولّى مفدي في مجلس إدارتها مهمّة أمانة المال؛ وجميع أعضاء هذا المجلس ينتمون إلى حزب الشعب الجزائريّ[4].

كلّ هذا يشير إلى وجود خلاف بين التنظيم في الجزائر وإدارته المركزية بباريس، وقد تبدّى لنا ذلك من مراقبة النشاط بالجزائر في هذه الفترة عن كثب، ويبدو أنّه يخصّ مفدي بالدرجة الأولى، فلا نجد في تصريحات

1- ينظر: نداء إلى إخواننا الوطنيّين بالمغرب الأقصى، مفدي زكرياء، عن جماعة من الوطنيّين الجزائريّين، جريدة "الأمّة"، س03، ع118، 1356/02/08هـ، 1937/04/20م، ص03.

2- هذه الرسالة لم نعثر عليها.

3- ينظر: الرسالة، رقم: 9771، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- يتكوّن مجلس إدارتها إضافة إلى مفدي من: مغازي خالد رئيسا، بلامين علي نائبا للرئيس، بن عدلي (Benadli) أحمد كاتبا، بوجنانة حسن كاتبا مساعدا، ومقري الحسين أمينا للمال مساعدا، وفطناسي عيسى، وراجف حسين، وسيفاوي رشيد، أعضاء مساعدين؛ ينظر: الرسالة، رقم: 3891، موضوعها: بخصوص "القلم"، 2I43، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت بها نسخة من تسجيل الجمعية لدى المصالح المختصّة بمحافظة الجزائر، وثيقة من صفحة واحدة؛ وصورة من هذه الأخيرة في الملحق614.

أبرز مسؤولي التنظيم في هذه الاجتماعات، ولا في تصرّفاتهم عموما، ما يدلّ عليه[1]، ولكن لا يعقل أن يصل أثره إلى الحدّ الذي أوضحناه، لو تفرّد مفدي بهذا الموقف، ولم يلق استجابة لدى غيره من مسؤولي التنظيم ومناضليه بالجزائر أو بعضهم، ولعلّ في حديث محمد قنانش عن زيارته للجزائر، وهو في طريقه إلى قسنطينة، فتونس، ما يوحي بالجوّ السائد بين المناضلين، وذلك حيث يقول: «ولم يكن للحزب في العاصمة مركز، أو ناد، يجتمعون فيه، والتناسق لم يكن موجودا كتلمسان، وهذا ما أذهلنا لأوّل وهلة، فكلّ واحد يحكي لك حكاية خاصّة»[2]. لقد كان هناك تفاوت -في تقديرنا- بين المسؤولين بالجزائر، في الاستجابة لما يصلهم من تعليمات من باريس، في هذه الآونة، فنجد خليفة بن عمّار -مثلا- متحمّسا يتلقّى ما يقارب 1.000 نسخة من جريدة "الأمّة" الباريسيّة شهريّا، زيادة على ما يصل إلى بائعيْ الجرائد، في بلاس دي قوفارنمو (Place Du Gouvernement)[3]؛ بينما نلاحظ مفدي لم يذكر في أدبياته، ولو مرّة واحدة جمعية "أحباب الأمّة"، فقد أغفلها تماما، وكأنّها لا وجود لها، وكان حديثه دوما عن "الحزب الوطنيّ الجزائريّ".

لقد أثّر موقف مفدي -في اعتقادنا- بفضل المكانة التي تبوّأها في نفوس المناضلين بالجزائر، تبعا للخدمات الجليلة التي قدّمها للتنظيم في الجزائر، حتّى جعله منافسا حقيقيّا لباريس، فتقلّصت فعالية التنظيم في الجزائر في تطبيق الخطّة التي انتهجتها الإدارة المركزية بباريس خاصّة، فلم تُنشأ سوى خلية واحدة من "أحباب الأمّة"، وتأخّر إنشاء خلايا حزب الشعب إلى بداية جوان؛ وبالمقابل أصبح مستقلاّ في نشاطه عن باريس، في أساليب دعايته الجديدة، وفي وفد الوطنيّين إلى تونس، وفي إنشاء جمعية تعليميّة "القلم"، وفي إنشاء فرقة تمثيليّة وطنيّة، وفي كراء مقرّ وإجراء أشغال فيه، جعلته أشبه بمركز قيادة حزب، لا مقرّ خلية من خلاياه، ولو كانت خلية فدرالية الجزائر.

هذا ما يفرض علينا البحث عن كنه هذا الخلاف، وفي غياب نصوص ووثائق تصرّح بوجود هذا الخلاف أصلا، فضلا عن طبيعته، فلا سبيل إلى ذلك سوى ملاحظة الأحداث في صيرورتها وتوقيتها، عسى أن نستشفّ منها ما حدث:

عدم الاستجابة لتوجيهات الإدارة المركزية بباريس ارتبط بالبديل الذي اقترحته عن نجم الشمال الإفريقيّ المنحلّ، وهو إنشاء لجان "أحباب الأمّة" في كلّ مكان، وحصر نشاطها في الدعاية للجريدة وترويجها؛ ثمّ امتدّ بعد إنشاء الحزب الجديد إلى التباطؤ في إنشاء خلاياه، وكان الأمر بالعكس تماما في عهد نجم الشمال الإفريقيّ، سواء قبل أو بعد سفر زعيم الحزب مصّالي الحاج إلى فرنسا.

1- ونعني بهم: مصطول، ولحول، وخليفة، ومزغنة.

2- نجم الشمال الإفريقيّ127.

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 2285، 1937/04/12، موضوعه: بخصوص اجتماع لأحباب الأمّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وإذا دقّقنا النظر في نشاط التنظيم بالجزائر لاحظنا حالة من الركود في شهر مارس، بعد إنشاء الخلية الأولى والأخيرة من "أحباب الأمّة" في الجزائر، يوم 03/09؛ ثمّ كانت هناك استفاقة في شهر أفريل، فعاد لمقرّ النجم نشاطه بعد أن كان مهجورا، فاحتضن ثلاثة اجتماعات في 08، و10، و04/18؛ واستُأجر مقرّ جديد، شهد اجتماعا واحدا، في 04/22؛ ثمّ توقّف النشاط إلى 05/22، ثمّ قوي فجأة، مع إنشاء عدّة خلايا للحزب الجديد في أوائل شهر جوان، لتكون الانطلاقة الحقيقية لحزب الشعب بالجزائر، بعد ما يقارب ثلاثة أشهر من ميلاده.

وإذا عَلمنا أنّ لحول الحسين أخبر المناضلين في اجتماع 04/22، أنّ مصّالي الحاج كانت عودته إلى الجزائر مقرّرة يوم 04/15، وتأجّلت لأسباب خارجة عن إرادته؛ وتَذكّرنا البرقية التي طلب مفدي من جميع خلايا النجم إرسالها إلى باريس، وكان آنذاك رئيسا له بالجزائر، بعد أسبوع فقط من سفره إلى باريس، ونصّها: «الوضع يحتّم عودة مصّالي آخر الشهر[يعني: شهر نوفمبر 1936]»[1]؛ أدركنا بما لا يدع مجالا للشكّ ارتباط نشاط التنظيم في الجزائر من عدمه، في هذه الفترة، بعودة زعيم الحزب إلى أرض الوطن، فعندما تقرّرت عودته في 04/15 دبّ النشاط فيه، وعندما أُجّلت عاد إلى الركود من جديد؛ وراجع قوّته وعنفوانه عندما تأكّدت عودته في شهر جوان، ممّا يدلّ على أن التنظيم في الجزائر كان يشترط حضور الزعيم إلى الجزائر لينطلق في إنشاء خلايا الحزب الجديد، لأنّ عودة مصّالي إلى الجزائر تعني عودة الحزب –ممثلا في زعيمه– إلى تربته الحقيقيّة، حيث ينبغي أن يوجد، وحيث ينبغي أن يناضل فعلا.

يقول مصّالي الحاج في مذكّراته، وهو يتحدّث عن إنشاء الحزب الجديد: «إلى تاريخ اليوم، كان "نجم الشمال الإفريقيّ" يحمل على كاهله مهمّة الدفاع عن شمال إفريقيا كاملا، ومع "حزب الشعب الجزائري" أردنا قصر نشاطاتنا على الجزائر، مع الحفاظ على علاقاتنا مع تونس والرباط»[2]؛ هذه هي النقلة النوعية التي عرفها التنظيم منذ تأسيسه سنة 1926، فقد دأب على الحفاظ في تسميته على توجّهه الشمال الإفريقيّ، كلّما فُرض عليه العودة إلى النشاط تحت عنوان جديد، وحتّى بعد اختيار التونسيّين والمغاربة النشاط ضمن تنظيماتهم الوطنية، فغدا تنظيما جزائريّا في غالبيته الساحقة، ولم تحدث هذه النقلة النوعية –في نظرنا– إلاّ بعد التجربة النضالية الفذّة التي خاضها بالجزائر، منذ 1936/08/02 إلى حلّ النجم في 1937/01/26؛ ويؤيّده ما ذكره أبو القاسم عبد الله، من أنّ قرار إنشاء (ح.ش.ج) «قد تمّ بالاتّفاق مع أعضاء فرع الجزائر، وأعضاء اللجنة المركزية»[3]؛ لقد كان للتنظيم في الجزائر دوره في التوجّه الجديد لــ"حزب الشعب الجزائريّ".

---

[1]– ينظر: ص187.

[2]– ينظر: مذكرات مصّالي الحاج253.

[3]– الحركة الوطنية الجزائرية3: 144. لم يوثّق أبو القاسم سعد الله؛ غير أنّ التأرجح في التسمية بين "حزب الشعب الجزائريّ" و"الحزب الوطني الجزائريّ" ممّا يؤيّده، باعتبار التسمية الثانية ممّا كرّسه مفدي في نضال النجم بالجزائر.

هذا التوجّه الجديد الذي تجسّد في (ح.ش.ج)، كرّسه مفدي في كتاباته باسم النجم، في مناشيره، وفي "النشيد"، و"البلاغ"؛ وفي كتاباته الشخصية، في رسائله خاصّة، فقد كان يسمّي جمعية "نجم الشمال الإفريقيّ" الحزب الوطنيّ الجزائريّ، وهي تسمية قصر فيها نشاط التنظيم على الجزائر، دون غيرها من بلدان الشمال الإفريقيّ، على ما هو معهود في النجم، وهذه التسمية فرضتها –في تصوّرنا– المعركة الحامية الوطيس مع المؤتمر الإسلاميّ، باعتبار مصيرية القضية موضع الصراع، فلا خيار للوطنيّين سوى التجرّد لها تماما؛ وبصفة أخصّ في المجال السياسيّ مع الحزب الشيوعيّ الجزائريّ، فالوطنيّ كتوجّه سياسيّ هو نقيض الشيوعيّ في الساحة السياسية الجزائرية آنذاك، فيكون بذلك إعلانا صريحا عن القطيعة التامّة مع هذا الحزب الذي خرج النجم من معطفه؛ أمّا العمل على مستوى المغرب العربيّ فإنّ الرحلة التي قادته إلى تونس، واعتبرها الأولى على أن تكون الثانية إلى المغرب بالضرورة، فتكشف عن تصوّره لخدمة قضايا الشمال الإفريقيّ، وهو من أشدّ المتحمّسين لوحدة أقطار المغرب العربيّ، منذ فجر حياته الأدبيّة، ويتمثّل في التنسيق مع الوطنيّين التونسيّين والمغاربة، خاصّة مع وجود تنظيمات وطنية خاصّة بهم، لا أن يتكفّل تنظيم جزائريّ بقضايا الشمال الإفريقيّ قاطبة، فكلّ بلد يناضل وطنيّوه عنه، إذ هم أدرى به وبخصوصياته، وخصوصيات شعوبهم؛ وكلّ هذا هو عين ما انتهى التنظيم إلى تجسيده في الحزب الجديد، وعليه من الصعب أن لا نرى في هذا التوجّه الجديد لحزب الشعب الجزائريّ بصمة التنظيم في الجزائر، وبصمة مفدي بصفة أخصّ.

أمّا معارضة مفدي للبديل عن "نجم الشمال الإفريقيّ"، وهو "أحباب الأمّة"، وتأكيده على ضرورة عودة مصّالي الحاج إلى أرض الوطن، فنقرأ فيه محاولة دفع التنظيم إلى مطابقته مع ما يدعو إليه في إطار المعركة التي يخوضها ضدّ المؤتمر الإسلاميّ، ليكون أكثر مصداقية، إذ إنّ هذه المواجهة كشفت عن اختلالات في النجم بين الخطاب والفعل، فرضتها ظروف النشأة والسيرورة في بيئة استعمارية، وقد تمثّل ذلك في نقطتين جوهريتين، كانتا وراء هذه المعارضة في تقديرنا:

أكّد النجم في مواجهته للمؤتمر الإسلاميّ على الشخصية الوطنية الجزائريّة المستقلّة تماما، بدينها ولغتها وتاريخها، والتي يريد المؤتمر الإسلاميّ إلغاءها بإدماجها في الشخصية الفرنسية، وإلحاق الجزائر بفرنسا؛ وهو ما كشف عن مفارقة صارخة في نضال النجم من أجل هذه القضية، لا لشيء سوى مصيريّتها، وتكمن هذه المفارقة في أنّ إدارته المركزية وقيادته إنّما هي في باريس، في فرنسا، التي يسعى لفصل الشخصية الجزائرية عنها، وكلّ خلية في الجزائر ليست سوى فرع لها من جهة؛ ومن جهة أخرى في أنّ اللغة العربية غائبة في أدبياته، ولا أدلّ على ذلك من نطق لسان حاله "الأمّة" بالفرنسية، وهي غائبة أيضا في الخطب التي تلقى في التجمّعات التي ينظّمها النجم، وحتّى في المراسلات، في أغلبها الأعمّ.

إنّ تأكيد مفدي على ضرورة عودة مصّالي إلى الجزائر، هو تأكيد على أولوية النشاط في الجزائر على باريس، فخدمة أهداف التنظيم، وعلى رأسها الاستقلال إنّما يجب أن يتمّ في الجزائر، بل ويجب أن يتّسع النشاط فيها ليشمل مجالات أخرى غير مجال السياسة، كإنشاء مدارس تعلّم اللغة العربيّة والفرنسيّة، وتعلّم معهما الوطنية، وإنشاء فرق تمثيلية وطنية؛ ولذلك نجده في رسالته إلى الأمير شكيب أرسلان يذكر في معرض حديثه عن الصراع المرير الذي يخوضه الحزب الوطني ضدّ خصومه، أنّ لحظة الانتصار عليهم تنتظر أمرين هما: إقامة الحزب الجديد على أسس متينة، ويقصد بها —في نظرنا– تحديد أولوية النضال في الجزائر؛ وعودة مصّالي، وهو الأهمّ، لأنّ وجوده في الجزائر كفيل بجعل الجزائر هي المركز لا الفرع، مثلما حدث في عهد النجم.

ونقرأ تأكيد مفدي على أولوية النضال بالجزائر على فرنسا، في سعيه للحصول على مقرّ للحزب في الجزائر، انتهى في 1937/04/01، إلى استئجار مقرّ، 02 شارع دي ليبان (Du Liban)، وأجريت فيه أشغال هي أنسب بمقرّ اجتماعيّ لحزب كبير؛ ونقرأ محاولته منح اللغة العربية مكانتها في التنظيم، في إدراجه اللغة العربية في أدبيات النجم، وقد أوضحناه سابقا، وفي سعيه إلى إنشاء صحيفة أدبية انتقادية، انتهى فيه إلى إنشاء جريدة "الشعب" باللغة العربية بعد عدّة شهور، وكان رئيس تحريرها.

أمّا معارضته لجمعية "أحباب الأمّة" فهو –في نظرنا– بسبب تحجيم نضال النجم الكبير في فترة وجيزة، وفي قضية مصيريّة، في مجرّد الدعاية لصحيفة والترويج لها، وهذه الصحيفة تجسّد في حدّ ذاتها تماما ما كان ينبغي تغييره في النجم في نظر مفدي، لأنّه يعتبر اختلالا كبيرا بين الخطاب والفعل، فهي صحيفة ناطقة باللغة الفرنسية التي يراد لها الهيمنة على اللغة العربية وإلغاؤها، وهي تصدر بباريس بعيدا عن أرض المعركة بين دعاة الاستقلال، ودعاة الإلحاق والإدماج، بالإضافة إلى ما كانت تستهلكه من موارد مالية، كان التنظيم في أمسّ الحاجة إليها في الجزائر.

غير أنّ هذا الخلاف لم يصل إلى حدّ القطيعة بين الجزائر وباريس، لوجود الصلة القويّة بين الضفّتين، وتتمثّل في شخصية زعيم الحزب مصّالي الحاج، فما كان لخلية الجزائر أن تقطع صلتها بمن أحيا الأمّة في ظرف أشهر معدودة.

محاكمته بالبليدة، ورحلته الثانية إلى تونس:

في يوم 04 ماي 1937، صدر بجريدة النهضة، مقال يحمل إمضاء عبد العزيز علاوة بن أحمد، عن جماعة من الوطنيّين، عنوانه "ضحايا الأحكام الزجرية في الجزائر: الشعب الجزائريّ مشدود الخناق بسلاسل قرار الوزير "رينيي"، وأسلوبه هو أسلوب مفدي زكرياء[1]، تناول فيه حيثيات القضية التي رفعتها الإدارة الاستعماريّة ضدّه

1- وممّا يدعّم ذلك الصورتان المرفقتان بالمقال، فهما نفسهما الصورتان اللتان صدر بهما مقال نشرته جريدة "الأمّة" بباريس، 1937/06/01، وصورة مفدي خاصّة جدّا، فهو يلبس ربطة عنق خضراء، عليها بلون أبيض هلال في وسطه نجمة، وهو علم "حزب الشعب الجزائريّ"، و لم

بمحكمة التأديب بالبليدة، وذلك حيث يقول: «يوم 12 ديسمبر [1936] الماضي، ندب حزب (نجم إفريقيا الشمالية المؤود) اثنين من زعمائه الأفذاذ، وهما المجاهدان، الأستاذ: مفدي زكرياء، شاعر الوطنية، ورئيس اللجنة التنفيذية للحزب؛ والعبقريّ: الأحول الحسين، الخطيب السياسيّ المصقع، والكاتب العامّ للحزب المذكور، بعقد اجتماع (بالبليدة)، إحياء لليالي رمضان المعظّم، وقد ألقى كلّ من الخطيبين محاضرة في موضوعين مختلفين، الأوّل في موضوع (الوطنيّة والدّين)، والثاني في موضوع (الذاتية الجزائرية ومشروع فيوليت)[1]، كلاهما في حدود المنطق والقانون، وفي دائرة الحكمة والرصانة، فما راعنا إلاّ والإدارة المحليّة ترفع قضية ضدّ الزعيمين بتهمة (التآمر ضدّ أمن الدولة، والدعوة للثورة والعصيان)، إلى آخر التهم التي وضعها الوزير رينيي كحيثيات شرعية، [...]. وتعيّن يوم محاكمة هذين المجاهدين لتاريخ 28 ماي 1937، بمحكمة الزجر والتأديب بالبليدة [...]»[2].

دعا خليفة بن عمّار الحاضرين في اجتماع يوم السبت 1937/05/22، إلى التوجّه بكثافة لحضور محاكمة مفدي زكرياء ولحول الحسين بمحكمة التأديب بالبليدة، يوم 05/28، ويتعيّن في حالة صدور الحكم بإدانتهم، تنظيم مظاهرة احتجاجية[3]. وفي يوم 05/26 وردت على المحافظ رسالة من الوالي العامّ، يطلب منه تبعا لتصريح خليفة بن عمّار السابق إفادته بجميع المعلومات حول هذه المتابعة القضائيّة[4]؛ فأرسل المحافظ بدوره، يوم 05/31، يسأل محافظ الشرطة بالبليدة عنها[5]؛ فأجابه المحافظ المركزي للشرطة بالبليدة يوم 06/03، بأنّ مفدي ولحول متابعان بتهمة تنشيط تظاهرة ضدّ السيادة الفرنسية، وأنّ الوقائع التي برّرتها معروضة في تقريره رقم: 14339، ليوم 1936/12/13، المرسل إلى المحافظ، وأنّ القضية قد عرضت في

نعثر على أثر لعبد العزيز علاوة بن أحمد في صفوف الوطنيّين آنذاك، والأرجح أن يكون تعليل استعمال الإمضاء المستعار هو تجنّب الحديث عن نفسه، فلجأ -كعادته- إلى استعمال ضمير الغائب. ينظر: المضايقات تتواصل: مفدي زكرياء ولحول حسين متابعان على أساس قرار رينيي (Les persécutions continuent: Moufdi Zakaria et Lahouel Hocine sont poursuivis en vertu du décret Régnier)، بإمضاء: إدارة (ح.ش.ج)، جريدة "الأمّة" الباريسيّة، س06، ع51، 1937/06/01، ص01.

1- ينظر: ص185، 186.

2- جريدة "النهضة"، س14، ع4340، 1356/03/13هـ، 1937/05/21م، ص05؛ وفي المقال صورة لمفدي زكرياء، والأخرى للحول الحسين؛ وينظر: مفدي زكرياء238، 239.

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 3689، 1937/05/24، 4I3، (CAOM)، ص01. وقد نشرت "الأمّة" الباريسيّة تحت المقال السابق ثلاث برقيات احتجاج ضدّ هذه المحاكمة، بعنوان "بعض برقيات التضامن"، من إدارة حزب الشعب الجزائريّ، بإمضاء مصّالي، ومن جمعية "أحباب الأمّة"، وخلية (ح.ش.ج) للدائرة 14 بباريس، بإمضاء بانون أكلي، وإسماعيل تباعا؛ ينظر: جريدة "الأمّة" الباريسيّة، س06، ع51، 1937/06/01، ص01. كما أنّ خليتا "أحباب الأمّة" و(ح.ش.ج) بتلمسان أرسلا رسالة احتجاج إلى رئيس مجلس الوزراء، وإلى وزير الداخلية، وإلى الوالي العامّ، ضدّ محاكمة مفدي ولحول، وضدّ مناضلين آخرين؛ ينظر: الرسالة، غير مؤرّخة، تاريخ ختم البريد الوارد الخاصّ بمكتب الوالي العامّ 1937/05/31، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ينظر: الرسالة، رقم: 9487 B، موضوعها: بخصوص مفدي زكرياء ولحول الحسين، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: الرسالة، رقم: 15383/I، موضوعها: بخصوص مفدي زكرياء ولحول الحسين، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

جلسة 05/28، وأحيلت على جلسة 06/04 لإصدار الحكم؛ وذكر له أيضا أنّه استعرض في تقرير 05/30، وقائع الجلسة الأولى التي انتهت من غير أحداث تذكر[1].

وفي تقرير 05/30 المشار إليه سابقا، حديث عن حضور ما لا يقلّ عن 30 شخصا المحاكمة، هم -في الأغلب- الذين عدّدهم في تقريره، بتاريخ 1936/12/16[2]، أتوا من الجزائر في حافلة، وانضمّ إليهم عشرة أشخاص من البليدة أو يزيدون، خاصّة من المزابيّين؛ وبعد رفع الجلسة للمداولة، على أن يصدر الحكم في جلسة يوم 06/04، خرج هؤلاء الحاضرون في هدوء تام، وقصد المتّهمان مقهى، كان ينتظرهم فيه أصدقاؤهم بباقات ورد[3].

أمّا مدير الأمن العام للقطر الجزائريّ فقد أرسل مدوّنة أولى إلى المحافظ، مديرِ مكتب الوالي العام، يذكر فيها أنّ محافظ عمالة الجزائر لّما بلغه تقرير الشرطة عن اجتماع 1936/12/12، أرسل التقرير إلى محكمة البليدة تحسّبا لإمكانية متابعة المعنيّيْن[4]، فبادرت إلى مقاضاتهما تطبيقا لقرار رينيي، من غير إلقاء القبض عليهما؛ ونودي على هذه القضية يوم 05/28، أمام محكمة التأديب بالبليدة، ثمّ رفعت الجلسة للمداولة، على أن يصدر الحكم في جلسة 06/04[5]؛ وفي مدوّنة ثانية، مؤرّخة في 06/04، أخبره فيها بأنّ الحكم صدر صباح اليوم، ويقضي بدفع كلّ واحد منهما 16 فرنكا غرامة، من غير تعليق الحكم(Sursis)[6]. وقد يفسّر الحكم أوجه الاختلالات التي رافقت هذه القضية، وتتجسّد في عدم التنسيق بين مختلف درجات السلّم الإداري، حتّى على مستوى نقل المعلومة.

---

[1]- ينظر: الرسالة، رقم: 6938، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ومسوّدة رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 16573، 1937/06/12، موضوعها: بخصوص زكرياء بن سليمان ولحول الحسين، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- ينظر: تقرير المساعد موتي (Mothie) عن اجتماع لنجم الشمال الإفريقيّ، رقم: 1193/2، 1936/12/15، موضوعه: أمن عامّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات. وقد عدّد أسماء 26 شخصا، كلّهم مناضلون في "النجم"، جاؤوا من الجزائر لحضور الاجتماع، ضبطوا في حديقة بيزو (Bizot)، يوم 12/15، وهم يحاولون تصوير أحدهم يحمل علما صغيرا (Fanion)، هو علم نجم الشمال الإفريقي، بلونه الأخضر، والهلال والنجمة في وسطه بلون أبيض، وكان بحوزة كلّ واحد منهم تقريبا نسخة من "النشيد"، وكان "النشيد" قد وزّع بعد انتهاء التجمّع، يوم 12/12.

[3]- ينظر: الرسالة، رقم: 6851، موضوعها: بخصوص الشيخ زكري ولحول الحسين، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وتحدّث التقرير أيضا عن فتح محضر ضدّ المتّهميْن، وثلاثة من الحاضرين معهم، لحملهم شارة "نجم الشمال الإفريقيّ"، وتمّت مصادرة هذه الشارات.

[4]- والذي عثرنا عليه هو رسالة إلى الوالي العامّ، أرفق بها تقرير الشرطة بالبليدة عن اجتماع 12/12، يعلمه فيها بأنّه راسل قاضي التحقيق لمحكمة البليدة بهدف القيام بمتابعات قضائية عند اقتضائها ضدّ من كان يوزّع بمناسبة هذا التجمع "النشيد"، و"البلاغ"؛ ينظر: الرسالة، غير مؤرّخة، موضوعها: بخصوص محاضرة من تنظيم نجم الشمال الإفريقيّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]- ينظر: المدوّنة، رقم: 9943 B، 1937/06/03، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01، 02.

[6]- ينظر: المدوّنة، رقم: 10064 B، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وفي خضمّ هذه القضيّة كتب مفدي إلى الشيخ الطيّب العقبي يطلب إدراج احتجاج على هذه الملاحقة القضائيّة، في جريدة "البصائر"، فلم يجبه، ولم يكن في نيّته أن يفعل[1].

وصل مفدي زكرياء إلى تونس يوم 06/05، قادما من الجزائر، وأجرت معه جريدة "الوطن" الحوار التالي:

«– زكرياء أيّ ريح جاءت بك؟ لم أتوقّع أن أراك هنا!

– أين تريدني أن أكون؟

– في السجن، ألم تحاكم يوم 28 ماي الفارط؟

– نعم، ولكن حكم عليّ بغرامة قدرها 16 فرنكا، ورفيقي الأحول مثلي.

– إذن حدّثني عن المحاكمة أوّلا.

– كان يوما مشهودا يوم المحاكمة، فقد هرعت كلّ البلاد الجزائريّة إلى مدينة البليدة ... غصّت قاعة المحكمة حتّى خارجها، ونودي عليّ وعلى رفيقي، ووجّه لنا الرئيس تهمة مسّ السيادة الفرنسيّة، لكنّني أقنعته، وأظهرت للمحكمة كيف أنّني لم أمسّ السيادة الفرنسية بسوء.

– وبعد؟

– وبعد، فقد أحيلت القضية على المفاوضة، وها هو التلغراف قد وصلني صباح اليوم، وفيه نتيجة الحكم [...]»[2].

وهذا يدلّنا على أنّه لم يحضر الجلسة الثانية لسماع الحكم، وإنّما سافر إلى تونس، فقد جاءه تلغراف الحكم، وهو في تونس، ونلاحظ طابع المبالغة الشديدة في تصريح مفدي، مقارنة بما ورد في تقارير الإدارة الفرنسية، وليست هذه المرّة الأولى، فلقد درج في أحيان كثيرة على المبالغة في تصوير الأحداث والوقائع، عندما يكون متحمّسا لها، وهذه طبيعة فيه، سبق وأن لاحظناها مع شركته زكرياء وعبد الجبّار، استغلّها بهدف دعائيّ لحزبه، فعدد المناضلين الذين انتقلوا لشهود المحاكمة كان ضئيلا، لا يتجاوز الأربعين، وهم من الجزائر والبليدة فقط، أصبحوا في تصريحه عددا غفيرا غصّت بهم القاعة حتّى خارجها، وأتوا من كلّ أنحاء البلاد، فكان يوما مشهودا، في حين لم تكن فيه شعبية الحزب الوطنيّ كبيرة في الجزائر، وهو ما ستؤكّده نتائج حزب الشعب في انتخابات جوان، فالحركة ما زالت في بداية طريقها، وتشهد حملة شرسة ضدّها.

---

[1]– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 3968، 1937/06/02، موضوعه: بخصوص مفدي زكرياء، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]– رئيس حزب الشعب يحدّث قرّاء "الوطن"، جريدة "الوطن" التونسيّة، س01، ع24، 1356/04/03هـ، 1937/06/13م، ص03؛ وينظر أيضا: الأستاذ مفدي زكرياء، جريدة "السردوك" التونسيّة، س01، ع08، 1356/03/29هـ، 1937/06/09م، ص03.

خلال إقامة مفدي بتونس نزل ضيفا على الجالية المزابية بتونس، وبخاصّة الكتبيّ الثميني[1]، وقام بنشاط مكثّف لصالح "حزب الشعب الجزائريّ"[2]:

زار جريدة "تونس"، وأدلى فيها بتصريح يتعلّق "بحزب الشعب الجزائريّ"، وبمدى انتشاره في القطر الجزائريّ، وغايته في النضال، فقال: «ولهذا الحزب اليوم نيّف وثمانون شعبة، مبثوثة بين المدن والقرى، منها 14 شعبة في العاصمة الجزائريّة، و06 شعب في تلمسان، و04 في قسنطينة[3]. أمّا غاية هذا الحزب فهو تحرير الجزائر على مبدإ الدومنيون، وتشكيل برلمان جزائريّ، له سلطة نهائيّة على تحرير القوانين والميزان، ومراقبة دستوريّة صحيحة للتنفيذ»[4].

وفي يوم الجمعة 1937/06/18، ألقى محاضرة مطوّلة، في حفل أقامته جمعية "الشبّان المسلمين"، بالمعهد الخلدونيّ، حضره جمّ غفير، عرضها الأديب والشاعر محمود أبو رقيبة مفصّلة في ثماني حلقات، على صفحات جريدة "الزهرة"، بعنوان "أطوار الحياة في الجزائر"[5]؛ بينما ذكرت الإدارة الاستعماريّة بتونس، أنّ عنوانها "الجزائر المناضلة"(L'Algérie en action)، وأنّه أرّخ فيها للاستعمار الفرنسيّ في الجزائر، ومجّد نضال الحزب الوطنيّ الجزائريّ في سبيل الاستقلال، وتحرير البلاد[6].

1- والمقصود به شيخه محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، صاحب مكتبة "الاستقامة"، بسوق العطّارين، ورئيس البعثة العلميّة المزابية بتونس آنذاك.

2- ينظر: رسالة المقيم العامّ الفرنسيّ بتونس إلى الوالي العامّ بالجزائر، رقم: Sté 2.433-6، 1937/06/24، موضوعها: بخصوص المدعوّ مفدي زكرياء، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- إذا أمكن أن يكون عدد الشعب بقسنطينة وتلمسان صحيحا، فهو بالمقابل مبالغ فيه كثيرا بالنسبة للجزائر، لأنّه عندما غادرها، كان الحزب قد بدأ لتوّه إنشاء خلايا (ح.ش.ج)، إلاّ أن يكون اعتبر في حسابه خلايا "النجم" سابقا؛ كما أنّ العدد الإجماليّ لعدد خلايا الحزب بالقطر الجزائريّ مبالغ فيه كثيرا، بالنظر إلى رسالته السابقة إلى شيخه الثمينيّ، في 1936/12/10، يتحدّث فيها عن 50 فرعا له ببلدان الجزائر كلّها.

4- الجزائر تطالب ببرلمان لأنّها تريد الاستقلال وتأبى الاندماج، جريدة "تونس" التونسيّة، س01، ع33، 1356/04/04هـ، 1937/06/14م، ص02؛ وينظر: مفدي زكرياء256، 257. وقد نقل فيه عن مفدي حديثه عن علاقة الحزب بـ"جمعية العلماء المسلمين"، والفروق بين التنظيمين، ويعقّب صاحب المقال على ذلك بقوله: «ثمّ فوق ذلك فالسيّد مفدي زكرياء يقدّر أهمّية زميله الشيخ ابن باديس، ولا يمكن للفروق الحزبيّة أن تغشي على أنظار الجزائريين أهمّية التعاضد، والتكاتف الفعليّ، فمهما تكن الفوارق الداخليّة، فإنّ الجزائر في الخارج كتلة واحدة»ص02.

5- تنظر الحلقات الثمانية: عند الشبّان المسلمين: أطوار الحياة في الجزائر: محاضرة الأديب الكبير ضيف تونس الأستاذ مفدي زكرياء، لمحمود أبو رقيبة، جريدة "الزهرة" التونسية، س50، أعداد 9234، و9235، 9236، 9238، و9239، 9240، و9241، و9242 صحّحت هذه الأرقام كلّها بخطّ اليد، وعوّضت فيها 2 بـ 1، أيّام 11، و12، و13، و15، و16، و17، و18، و1356/04/19هـ، الموافقة لأيّام 21، و22، و23، و25، و26، و27، و28، و1937/06/29، على الصفحة الثالثة في جميعها.

6- ينظر: رسالة المقيم العامّ الفرنسيّ بتونس إلى الوالي العامّ بالجزائر، رقم: Sté 2.433-6، 1937/06/24، موضوعها: بخصوص المدعوّ مفدي زكرياء، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وممّا جاء في تقديم رئيس الجمعية الشيخ الشاذلي النيفر للمحاضر، قوله: «إنّي أتقدّم إليكم اليوم بمحاضر زميل، وأخ صميم، هو صديقي الشيخ مفدي زكرياء، ولا أبالغ إذا قلت لكم: إنّي أقدّم أخا بيني وبينه من المودّة والصداقة ما هو محكم الربط، متين الصلة، وقد مرّت سنين على صداقتنا، وهي ما تزال تزداد وثوقا؛ وإذا وصفته فإنّما أصفه عن خبرة وجدارة، فلقد عرفته شعلة ذكاء، وقريحة سيّالة، مهما طلبها إلاّ ووجدها، وإنّي إخاله سيتبوّأ الزعامة الأدبيّة، كما يتبوّأ اليوم الزعامة السياسية، فبارك الله فيه من أديب فذّ، وزعيم مخلص؛ وسترون في هذه المحاضرة شاهدا ناهضا على ما قلت، بل وسترون أبلغ ممّا قلت، وتعدّونني مقصّرا في حقّه»[1].

وقد تحدّث الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ في رسالة له عن هذه المحاضرة، فقال: «طُلب منه [يعني: مفدي زكرياء] أن يقوم بمسامرة موضوعها الجزائر، ولمّا عزم على ذلك ارتجالا، نصحتُه أن يكتبها كتابة، ليتمكّن من الإجادة والإفادة، فأحضرت له الموادّ اللازمة، ثمّ عرضها عليّ. وقد حضرها جمّ غفير مساء الجمعة الماضية، وجاء بعض الجزائريّين لمعارضته بفكرة حزبيّة ظاهرا، ولكن بنزعة مذهبيّة باطنا، وقد حاول، ولم يفلح، إذ أُسكت. وقد حصلت من المحاضرة النتيجة المرجوّة وزيادة، إذ أصبح النّاس يلهجون، ويثنون على ما سمعوه من الحقائق على ميزاب، وقد كانوا يجهلونها، ومن الإنصاف على الجزائر، وقد كانوا يظنّون ضدّه، وبذلك أصبح ما خطب به النّاسَ ابنُ باديس منذ مدّة قليلة في تونس لغوا، ودعاية فارغة»[2].

والعبارة الأخيرة في النصّ المقتبس تشير بوضوح إلى اندراج هذه المحاضرة، بل وهذه الرحلة إلى تونس، ضمن الصراع بين المؤتمر الإسلاميّ وحزب مفدي الوطنيّ، غير أنّه يتّسم في مواجهة "جمعية العلماء المسلمين"، بمحاولة الإبقاء على الجسور متّصلة بينهما، فلا تشفّ عنه التصريحات الرسميّة، ولا المحاضرات، ولا الخطب في اللقاءات العامّة، وإنّما نجد حقيقته في الرسائل، وفي الأحاديث الشخصية، فالخلاف بينهما لا يتجاوز نقطتين ناشئتين عن قبول جمعية العلماء بمشروع فيوليت، هما: الإلحاق، والمشاركة في البرلمان الفرنسيّ؛ غير أنّهما من الأهمّيّة بمكان، وما ينقمه الحزب على الجمعية هو تناقضها في موقفها هذا مع مبادئها، وأكثر من ذلك المصداقية التي أكسبتها لحركة النوّاب وللشيوعيّين باشتراكها معهما في المؤتمر الإسلاميّ، وتورّطها معهما في قبول مشروع فيوليت؛ ومن هنا نفهم تحديد الشيخ الثمينيّ لغرض مفدي وحزبه من هذه الرحلة إلى تونس، حيث يقول: «وصل هنا زكرياء موفدا من جمعيته للمعارضة، والسلام على الثعالبي الذي يصل في أواخر الجاري»[3]، يعني: لمعارضة رئيس جمعية العلماء المسلمين، الشيخ عبد الحميد بن باديس، في رحلته إلى تونس، وقد استغرقت

1- أطوار الحياة في الجزائر، لمحمود بورقيبة، جريدة "الزهرة" التونسية، س50، ع9134، 1356/04/11هـ- 1937/06/21م، ص03.

2- رسالة الشيخ الثمينيّ إلى تلميذه عبد الله بوراس الكامليّ، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الكامليّ الخاصّ، ببني يزقن.

3- رسالة الشيخ الثمينيّ إلى تلميذه عبد الله بوراس الكامليّ، سابقة للتي تقدّمت قريبا، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الكامليّ الخاصّ، ببني يزقن.

أسبوعين كاملين، وقام خلالها بنشاط مكثّف أيضا، ومنه المحاضرة التي ألقاها، يوم 1937/05/29، بعنوان "الوضعية السياسية والثقافية في الجزائر"[1].

وقد اهتمّت الإدارة الاستعماريّة بزيارة مفدي هذه، وتتبّعت فصولها، ومنه ترجمتها لمقالات محمود أبو رقيبة الثمانية، المتضمّنة محاضرة مفدي[2]، كما تابعت مقالاته في الصحافة التونسيّة بعد ذلك متابعة دقيقة، ترجمة، أو تلخيصا لمحتواها.

يقول تقرير الإدارة الاستعماريّة بتونس: «بعد هذه المحاضرة قام مفدي بحملة دعائيّة نشطة لصالح حزبه، ولقي في ذلك دعما كبيرا من الشبيبة المزابيّة، والشبيبة المسلمة بتونس، كما سانده بفعالية المدعوّ الشاذلي المكّي، رئيس "جمعية الطلبة الجزائريّين بالجامع الأكبر"، وحلاش الزين، خيّاط بشارع باب سويقة، رئيس جمعية "ودادية الجزائريّين المسلمين في تونس"؛ واستطاع بذلك تكوين خلية تونسية لـــ(ح.ش.ج)، أوكلت إدارتها إلى: الشاذلي المكّي، وحلاش الزين، وحسن بوجريدة، صاحب مقهى الجزائر، بساحة باب سويقة. واتّصل مفدي من جهة أخرى بالحبيب بورقيبة، والدكتور الماطريّ، وأبرز قادة حزب الدستور الجديد، وقد تلقّى منهم ضمان تضامن عميق يربط دوما حزبهم بالحزب الوطنيّ الجزائريّ، لأنّ أهدافهم تكاد تكون واحدة»[3].

أمّا عودته إلى الجزائر فتقول رسالة المقيم العامّ الفرنسيّ بتونس، بأنّه عاد إلى الجزائر يوم 06/24، وذلك لملاقاة مصّالي الحاج رئيس الحزب الوطني، عند عودته من باريس[4]؛ بينما تحدّثت وثيقة المعلومات التي كان موضوعها "اتّصالات بين الوطنيّين الجزائريّين والتونسيّين"، عن مغادرته لتونس يوم 06/22[5]؛ أمّا وثيقة المعلومات الخاصّة بإشاعات حول سفر مصّالي الحاج إلى تونس، في أوائل جويلية 1937، فتتحدّث عن وصول مفدي إلى الجزائر عائدا من رحلته إلى تونس يوم 06/25[6].

لقد كتب الشيخ الثمينيّ إلى تلميذه الشيخ عبد الله بوراس الكامليّ، متحدّثا عن مغادرة مفدي لتونس، يقول: «توصّلت بجوابك، وأرجو أنّ زكرياء وصل [إلى قالمة]، وأجرى الامتحان. لم أتمكّن من مجاوبتك، إذ ما

1- ينظر: معلومات: تونس، S.E.A[كذا]، رقم: 1284/K، 1937/06/15، موضوعها: اتّصالات بين وطنيّين جزائريّين وتونسيّين، 25h33، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: ترجمة المقالات كاملة، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من 09 صفحات.

3- ينظر: رسالة المقيم العامّ الفرنسيّ بتونس إلى الوالي العامّ بالجزائر، رقم: Sté 2.433-6، 1937/06/24، موضوعها: بخصوص المدعوّ مفدي زكرياء، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- نفسه.

5- ينظر: معلومات: تونس، S.E.A، رقم: 1284/K، 1937/06/15، 25h33، (CAOM).

6- وردت هذه المعلومة في سطور زيدت بخطّ اليد؛ ينظر: معلومات، C.I.E، رقم: 320، 1937/07/01، موضوعها: بخصوص مصّالي الحاج، 25h32، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

كنت أظنّ أنّه يخالف أمري [يعني: مفدي]، ولا يزيد يوما هنا، أتمكّن فيه من إخبارك»[1]؛ وهذا يدلّ على أنّ مفدي غادر تونس يوم 06/22 مستعجلا، لمهمّة كلّفه بها أستاذه الثمينيّ في قالمة، قبل أن يلتحق بالجزائر يوم 06/25، لملاقاة الزعيم مصّالي.

هذه المهمّة تمثّلت في إجراء امتحانات آخر السنة لتلاميذ مدرسة الاستقامة بقالمة، التي كان يديرها الشيخ عبد الله بوراس الكامليّ، وكان رئيسها الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، فتذكر وثيقة معلومات وصول مفدي إلى قالمة يوم 06/23، حاملا برنامجا مختوما خاصّا بامتحان تلاميذ مدرسة الاستقامة بقالمة، وكان يلبس ربطة عنق تحمل شارة الهلال والنجمة، وقد أجري الامتحان مساء ذلك اليوم، بحضور الأستاذ بوراس عبد الله[2].

هذا السفر إلى قالمة، كان فيه مفدي تحت الرقابة الشديدة، فقد دفع الإدارة الاستعماريّة إلى بحث علاقة مزابيّي قالمة بالحزب الوطنيّ؛ وإلى القيام بتحرّيات حول مدرسة الاستقامة بقالمة، وعلاقتها بالشيخ الثمينيّ بتونس[3]، يقول السيّد يوسف بن يحي الثمينيّ في رسالته إلى ابن أخيه الشيخ الثمينيّ، بعد سرد وقائع هذه التحريات: «هذه المسألة تولّدت من مجيء زكرياء للامتحان، لأنّ عليه المراقبة في سفره [...]»[4].

هذه المعلومات دفعت الوالي العامّ إلى مراسلة محافظ عمالة قسنطينة، يطلب منه أن يسأل نائب الجمهورية بمحكمة قالمة عن إمكان متابعة مفدي قضائيّا، بتهمة إعادة إنشاء جمعية منحلّة، فكان جواب المحافظ بتاريخ 1937/08/10، يخبره فيه بأنّه قد اتّصل به، مباشرة بعد تلقّيه برقية (Dépêche) الوالي العام، رقم: 6.586 E.S، ليوم 1937/07/16، ليأخذ رأيه في الموضوع، فأفاده بأنّ الوقائع المسجّلة ضدّ مفدي ضئيلة جدّا، لا تمكّن القضاء من القيام بمتابعة أكيدة وجدّية ضدّه، وضدّ الآخرين، بتهمة إعادة إنشاء جمعية منحلّة[5].

كان من مهامّ مفدي بتونس، تمثيل حزب الشعب الجزائريّ في احتفالات استقبال زعيم الحزب الدستوريّ، الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ، غير أنّ قدومه أعلن عدّة مرّات، وتأجّل كلّ مرّة، وأخيرا كانت عودته مساء يوم 1937/07/08[6]، فلم يستطع مفدي أن يطيل إقامته في تونس أكثر من ذلك، خاصّة مع قرب وصول زعيم

1- أرشيف الشيخ عبد الله بوراس الكامليّ الخاصّ، ببني يزقن.

2- ينظر: معلومات، المحافظة الفرعيّة بقالمة، إمضاء: المحافظ المساعد: فوتيي (Vautier)، رقم: 3.634، 1937/06/25، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: رسالة المحافظ المساعد لدائرة قالمة إلى محافظ عمالة قسنطينة، إمضاء: فوتيي (Vautier)، رقم: 4.215، 1937/06/21، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات. وفيها حديث عن أنّ كثيرا من الأصوات 28 التي نالها هرقة عبد القادر هي لمزابيّين، في الانتخابات البلديّة الجزئيّة بقالمة، وعن علاقات شخصية تجمع بعضهم بمفدي، وبمصّالي الحاج.

4- الرسالة، 1937/07/30، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- ينظر: الرسالة، رقم: 4144، موضوعها: سفر مفدي زكرياء إلى قالمة، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ينظر: عبد العزيز الثعالبيّ: من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، أعدّها للنشر وقدّم لها وعلّق عليها الدكتور صالح خرفي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت - لبنان، ط1: 1995، ص282.

(ح.ش.ج)، مصّالي الحاج، فعاد إلى الجزائر مارّا بقالمة، بعد أن أوكل أمر القصيدة التي نظمها في استقبال الثعالبيّ، وبرقيتي التهنئة منه، ومن الحزب الوطنيّ[1]، إلى أستاذه الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، ومنه قوله في رسالة أولى إليه: «أرجوكم أن تخبروني بما وقع في احتفالات الشيخ الثعالبيّ، وأن تستنسخوا قصيدتي، وتمكّنوا نسخة نسخة لجميع الجرائد العربية التونسيّة»[2]؛ وبدأ الضغط يتزايد عليه، كلّما مرّ يوم، ولم يظهر أثر للقصيدة والتلغرافين في الصحافة التونسيّة، يقول في ثانية: «ثمّ أمر القصيدة والتلغرافات، فلقد تصفّحنا جميع ما قيل عن الشيخ الثعالبيّ إلى الآن، وجميع الاحتفالات حتّى اجتماع قامبيطا[3]، فلم نجد أثرا للقصيدة، ولا للتلغرافات، وإنّني جدّ حيران آسف من هذا، حيث أنّ التلغرافات مهمّة حزبية، نيطت بعاتقي، وعاهدت على الوفاء بها. أرجوكم أن تخبروني عن ذلك، حفظكم الله»[4]؛ وفي ثالثة: «أرجوكم أن تعلموني تلغرافيّا عمّا فعل الله بالتلغرافات والقصيدة، فإنّ الحزب هنا أراد أن يحمّلني تبعة ومسؤولية عدم القيام بالواجب، حيث أخبرتهم عند رجوعي بأنّني قد تركت من يقوم بالواجب. أرجوكم أن تنقذوني من هذه الورطة، وأن تنشروا التلغرافات والقصيدة، فإنّ الحيرة قد أخذت منّا مأخذها الذريع؛ خصوصا بعد تتبّع سير الاحتفالات، وعدم العثور على شيء يخصّنا. أرجو جوابكم السريع، ولنا فيكم الثقة الوطيدة الكاملة في أنّكم تنجزون هذا العمل الذي لا يرجع لشخصي، إنّما هو أمانة حزب كامل»[5].

لقد تأخّر تنفيذ المهمّة إلى أواخر جويلية، غير أنّ الحفل الذي أدرجت فيه القصيدة، والتلغرافان، كان أكثر من مناسب، فقد اختار الشيخ الثمينيّ احتفال جمعية "الشبّان المسلمين" بعودة الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ، يوم 1937/07/25[6]، بقاعة "مونديال سينما" (Mondial Cinéma)، وبحضور رئيس جمعية العلماء المسلمين، الشيخ عبد الحميد بن باديس؛ ففيه ألقى الشابّ محمد بن يوسف اطفيش[7] قصيدة مفدي

1- عند إجراء تفتيش في مقرّ الحزب بالجزائر، اكتشف من بين الوثائق، برقية في الملفّ الخاصّ بمراسلات المكتب الفدراليّ، هذا نصّها: «زكرياء البريد القارّ (Poste Restante) — المركز – تونس: (ح.ش.ج) يقدّم تهانيه الحارّة للشعب التونسيّ النبيل، بإرسال الناطق باسمه مفدي زكرياء، بمناسبة وصول زعيم شمال إفريقيا، الشيخ الثعالبيّ»؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5414، 1937/08/06، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

2- رسالة مفدي إلى الشيخ الثمينيّ، 1937/07/04، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- أقامه الديوان السياسيّ للحزب الحرّ الدستوريّ احتفاء بالزعيم، مساء يوم الأحد 1937/07/11؛ ينظر: عبد العزيز الثعالبيّ283.

4- رسالة مفدي إلى الشيخ الثمينيّ، 1937/07/15، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ والملحق618.

5- رسالة مفدي إلى الشيخ الثمينيّ، 1937/07/19، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

6- ذكر صالح خرفي يوم 07/05 تاريخا لانعقاد الحفل، ولا يصحّ، لأنّ عودة الزعيم إنّما كانت -كما سبق- مساء يوم 07/08؛ ينظر: عبد العزيز الثعالبيّ447 ها.

7- أحد تلاميذ البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، بعد دفعة مفدي زكرياء، وأحد تلاميذ الشيخ الثمينيّ المقرّبين والمخلصين.

زكرياء، على شرف "أب النهضة العربيّة بشمال إفريقيا"[1]؛ وخلاله تلا رئيس الجمعية الشيخ الشاذلي النيفر، نصّ التلغرافين اللذين تلقّاهما: الأوّل من رئيس "حزب الشعب الجزائريّ"، هذا نصّه: «ثلاثة آلاف مسلم جزائريّ مجتمعون تحت لواء "حزب الشعب"، يشاركونكم من صميم قلوبهم في هذا الحفل العظيم المقام بمناسبة عودة الزعيم الكبير لشمال إفريقيا، الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ. إمضاء: الرئيس»؛ والثاني من السيّدين مصّالي الحاج ومفدي زكرياء، نصّه كالآتي: «بفرحة كبيرة نشاطركم بهجتكم في هذا اليوم الذي تحتفلون به بعودة الشيخ الثعالبيّ، مصدر فخركم الوطنيّ. إمضاء: مصّالي الحاج – مفدي زكرياء»[2].

ويبدو أنّ الشيخ الثمينيّ قد أخبر مفدي بما عزم عليه، ولذلك نجده يدعو الحاضرين في تجمّع (ح.ش.ج) صباح نفس اليوم، على سا 8 و40د، بقاعة لا بارل (La Perle)، إلى التصويت على مقترح مشاركة جمعية "الشبّان المسلمين" وجدانيًا، في اجتماعهم برئاسة الزعيم الوطنيّ، الشيخ الثعالبيّ؛ وتمّ التصويت عليه بالإجماع[3]، وهو ما نجد أثره في نصّ البرقية، مع شيء من المبالغة، فالقاعة لا تتّسع لمثل العدد المذكور في البرقية، وبذلك عُدِل عن مضمون البرقيتين اللّتين تركهما مفدي بتونس.

نُشر التلغرافان في جريدة "الزهرة" يوم 07/27، ونشرا مع القصيدة في جريدة "الوزير" التونسيّة، يوم 07/29[4]، ثمّ نشرت القصيدة مرّة ثانية يومي 15 و08/22، في جريدة "الوطن" التونسيّة[5]؛ ولعلّ في لهجة

1- يقول مفدي زكرياء في تقديمها، لدى نشرها في جريدة (ح.ش.ج): «حزب الشّعب الجزائريّ يحيّي تونس في شخص زعيمها المحبوب، الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ. وقع تلاوة هذا القصيد في وسط حفل حاشد، واحتفال رائع أقامته جمعية "الشبّان المسلمين" الفتيّة، لحضرة الأستاذ الجليل، وقد صفّق لها الأستاذ غير ما مرّة، واستعاد كثيرا من أبياتها، وأعجب بها إعجابا كثيرا» سوق عكاظ، مفدي زكرياء، جريدة "الشّعب" الجزائريّة، لسان حال حزب الشّعب الجزائريّ، س01، ع01، 1356/06/19هـ، 1937/08/27م، ص08.

2- ينظر: ترجمة تغطية جريدة "الزهرة" لوقائع الحفل في عددها الصادر يوم 07/27، (C.I.E) محافظة قسنطينة، 1937/08/04، 25h32، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. أمّا صالح خرفي، فقد ذكر محتوى البرقيتين على أنّهما برقية واحدة، بإمضاء مصّالي ومفدي، ونصّهما بعد فصلهما، يكون كالآتي: الأوّل: «ثلاثة آلاف من المسلمين الجزائريّين، اجتمعوا تحت إشراف حزب [الشعب] الجزائريّ، يشاطرونكم بقلوبهم في هذا المهرجان العظيم الذي أقمتموه للاحتفال بقدوم الزعيم الكبير بشمال إفريقيا. [إمضاء: الرئيس]»؛ والثاني: «نشارككم بأرواحنا في فخركم بالشيخ الثعالبيّ. الإمضاء: مصّالي ومفدي زكرياء» عبد العزيز الثعالبيّ447 ها، ناقلا عن جريدة "الوزير" التونسيّة، س18، ع484، 1356/05/20هـ، [29]/1937/07م.

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5180، 1937/07/26، موضوعه: بخصوص تجمّع حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02. وتلقّى مصّالي الحاج جواب الشيخ الثعالبيّ، في الأسبوع الأوّل من أوت؛ ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5448، 1937/08/09، موضوعه: بخصوص مصّالي الحاج، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ذكر صالح خرفي يوم 07/09 تاريخا لنشر القصيدة والتلغرافين في جريدة "الوزير"، ولا يصحّ أيضا لأنّ التاريخ الهجريّ الذي يقابله لا يوافقه، وإنّما يطابقه يوم 07/29؛ ينظر: عبد العزيز الثعالبيّ447 ها، ناقلا عن جريدة "الوزير" التونسيّة، س18، ع484، 1356/05/20هـ، [29]/1937/07م.

5- ينظر: الشمال الإفريقيّ يتّحد، مفدي زكرياء، "جريدة "الوطن"، س01، ع32، و33، 07 و1356/06/14هـ، 15 و1937/08/22.

القصيدة الحادّة ما يفسّر تأخّر موعد إلقائها في حفل، أو إدراجها في جريدة، إلى أن يجد الشيخ الثمينيّ من يمكنه المغامرة معه بذلك، فوجده في "جمعية الشبّان المسلمين"، ولمفدي وشيخه الثمينيّ معرفة وطيدة بها وبرئيسها، بالإضافة إلى جريدتي "الوزير" و"الوطن"، تظهر هذه اللهجة في الأبيات التي يواجه فيها الاستعمار الفرنسيّ مواجهة صريحة:

«يا فِرَنْسَا لاَتَجْهَلينا، فإنّا ... قد نهضنا،فلا نطيق الركودا
قد كرهنا حياةَ ظلمٍ وجورٍ، ... وسَئمنا الخرابَ والتَّبْدِيَدَا
كفٍّ هذي اللجان عنّا، فإنّا ... قد سَمَعنا وعيدَها والوُعُودَا
ورأينا (اللّجانَ) كيف تُغَنِّي، ... و(فَيُوليتُ) يستعيدُ القَصِيدَا
ما لها تنكر الجميل، وتنسى ... جثث القوم تملأُ الأخدودا؟
نحن جُدْنا حِيالَها بالدّمِ الغَا ... لِي، فماذا يضرُّها أنْ تَجُودَا؟
ضاقَ صبرُ البلادِ يا (جبهةَ الشَّعْـ ... ـب)، فهلْ تُنْجِينَ شيئًا مُفيدَا؟
ودعينا من الوعودُ، فإنّا ... -جَبْهَةَ الشَّعْبِ- قد مللْنا الوُعُودَا»[1].

إنّ في إصرار مفدي على إرسال برقية ثانية تحمل اسمه إلى جانب اسم مصّالي ما فيه من الدلالة على المكانة التي تبوّأها مفدي في الحزب الوطنيّ، فلم يجد حرجا في ذلك، ولا وجده مسؤولو الحزب ومناضلوه، بالرغم من تأخّر إذاعة البرقيّتين إلى ما يقارب الشهر من وصول الثعالبيّ، فلا عجب بعد ذلك أن تطلق عليه جريدة "الوطن" التونسيّة لقب "زعيم الحزب الوطنيّ الجزائريّ"، وتسمّي القصيدة -للهجتها الشديدة- "صرخة زعيم الحزب الوطنيّ الجزائريّ مفدي زكرياء"[2]؛ بعد أن أسمته في عنوان الحوار الذي أجرته معه -وقد سبق- "رئيس حزب الشعب"[3].

البداية الفعلية لحزب الشعب بالجزائر:

وصل رئيس "حزب الشعب الجزائريّ"، مصّالي الحاج، إلى الجزائر يوم 1937/06/20[4]، وأعلن في المأدبة التي أقيمت على شرفه مساء نفس اليوم، على سا20 و30د، أنّه يريد -بداية- الاهتمام بأمر الانتخابات المقبلة،

1- الشمال الإفريقيّ يتّحد، مفدي زكرياء، "جريدة "الوطن"، ع33؛ وهذا الجزء منها، بالإضافة إلى ترجمة أبيات منها في الملحق615-617.

2- ينظر: الشمال الإفريقيّ يتّحد، مفدي زكرياء، "جريدة "الوطن"، ع32.

3- ينظر: رئيس حزب الشعب يحدّث قرّاء "الوطن"، جريدة "الوطن"، س01، ع24، 1356/04/03هـ، 1937/06/13م، ص03.

4- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4387، 1937/06/20، موضوعه: بخصوص وصول مصّالي الحاج، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وعند الفراغ من ذلك سيقوم بجولة في مختلف مناطق البلاد، للقيام بدعاية مكثّفة لصالح حزب الشعب[1]؛ وفي يوم 06/23 أعلن مصطول محمد عن ترشّحه للانتخابات البلديّة الأهليّة بالجزائر، باسم "حزب الشعب الجزائريّ"، من غير أن يقدّم قائمة الحزب، وهو ما استنتجت منه الإدارة الاستعماريّة عدم تعيينها بعد[2]؛ ثمّ أصدر الحزب منشورا بالعربيّة والفرنسيّة، يدعو -في ختام قسمه الفرنسيّ خاصّة- المواطنين إلى حضور الاجتماع الانتخابيّ الاعتراضيّ، الذي سينعقد بقاعة سيرفانتس (Cervantès)، ببلكور، مساء ذلك اليوم، على سا 18 و30د، حيث سيقدّم مصّالي الحاج قائمة حزب الشعب الجزائريّ، وتضمّ: مصطول محمد، وزكرياء مفدي، ولحول الحسين، كزرلي محمد، ومزغنة أحمد، ومسعودي عمّار، وعبدي محمد، وماحي محمد، وبرزوان محمود، وحاج مصطفى دشوك، والزاوي علي، ووعمارة محمد[3].

وتحدّث بيرتان (Burtin) في مدوّنته عن اجتماع انعقد يوم 06/25، وحضره 600 شخص، استقبل فيه الحاضرون زعيم الحزب بالنشيد الوطنيّ للحزب[4]، ممّا يدلّ -في تقديرنا- على أنّه أوّل تجمّع يلتقي فيه بمناضلي الحزب منذ عودته إلى الجزائر يوم 06/20؛ وإذ لم يُؤَرّخ المنشور، ولم يحدّد التقرير الذي أرفق به تاريخ صدوره، فإنّ كلّ الوقائع المذكورة آنفا تؤيّد صدوره يوم 06/25، خلاف ما ورد في مدوّنة بيرتان[5].

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4442، 1937/06/22، موضوعه: بخصوص مصّالي الحاج، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4470، 1937/06/24، موضوعه: بخصوص الانتخابات البلدية الأهليّة، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02. هذا الإعلان تمّ في اجتماع عامّ اعتراضيّ (Réunion publique et contradictoire)، عقده المستشارون البلديون المنتهية عهدتهم، من قائمة طيّار وتمزالي، يوم 1937/06/23، بقاعة سيرفانتس (Cervantès)، ببلكور، على سا 18 و30د.

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4534، 1937/06/25، موضوعه: بخصوص منشور لحزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من المنشور، في وثيقة واحدة مطبوعة وجها وظهرا، بالفرنسيّة والعربيّة.

4- ينظر: مدوّنة عن نشاط مصّالي الحاج، من 20 جوان إلى 02 أوت، بإمضاء: م. بيرتان(M. Burtin)، 1937/08/02، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

5- يذكر بيرتان(Burtin) في مدوّنته أنّ منشورا للحزب صدر يوم 06/23، يحمل قائمة مرشّحي الحزب في الانتخابات، وبرنامجهم؛ فلا يمكن أن يكون سوى المنشور الذي نحن بصدد الحديث عنه، وإذا صحّ ذلك فيكون الاجتماع مساء ذلك اليوم في التوقيت المذكور، وفي القاعة المذكورة، في حين سبق وأن رأينا أنّ ذات القاعة شهدت في اليوم نفسه، وفي التوقيت عينه تجمّع المستشارين البلديين من قائمة تمزالي وطيّار؛ وعليه لا يصحّ ما ورد في المدوّنة، وربما كان مجرّد خطإ مطبعيّ.

يقول مصّالي في مذكّراته: «لقد قرّرنا المشاركة فيها لا للحصول على مقاعد نيابيّة في بلدية الجزائر، وإنّما لاستغلال هذه الفرصة في عرض أفكارنا السياسيّة للشعب[1]؛ وكنّا نريد أيضا أن نمنح لهذه الانتخابات طابعا سياسيّا، ووضع حدّ لتقاليد الرشوة فيها، وشراء الأصوات»[2].

لم يكن مفدي على علم بعزم حزبه على خوض هذه الانتخابات، إذ لم يتطرّق إليها تماما خلال رحلته السابقة إلى تونس، ولو تلميحا، وأُدرج اسمه في القائمة الانتخابيّة في غيابه، ومن الأكيد لدينا عدم تحريره للقسم العربيّ من المنشور السابق[3].

عاد مفدي إلى الجزائر يوم 06/25، فدخل المعركة الانتخابية بكلّ قوّته، في مواجهة خصومه وخصوم حزبه من الحزب الشيوعيّ، «إنّ معركة انتخابيّة حامية الوطيس، تدور رحاها حول الانتخابات البلدية هناك، إذ تقدّمت أربعة قوائم للانتخاب، فكانت المعركة حامية بين اثنتين منها، إحداها قائمة الحزب الشيوعيّ، والثانية قائمة حزب الشعب[4]، وقد تصادم الحزبان مصادمة تحقّق بها أنّ حزب الشعب الذي خلف مؤسسة نجم شمال إفريقيا، لم يعد مؤسسة شيوعيّة، و لم تعد للشيوعية السيطرة التي كانت لها عليه من قبل، فقد أوضحت هذه المعركة أنّ حزب الشعب أصبح حزبا وطنيّا مستقلاّ، يعمل تحت تأثير مصلحة الجزائر، وبما تقتضيه الفكرة التي رأى مؤسسو هذا الحزب أنّها موصلة إلى ذلك الهدف الأسمى الذي يختلج بنفس كلّ جزائريّ مخلص لوطنه وملّته»[5].

1- يقول مفدي في مقاله "ماذا في الجزائر؟": «وممّا لا يمكن إغفاله هنا أنّ حزب الشعب لم يدخل المعركة الانتخابيّة، وقصده الوحيد الإحراز على المقاعد النيابيّة، إنّما غايته هو بثّ الدعاية على متن المعركة الانتخابيّة، وإرشاد الشعب، وتلقينه المبادئ الصحيحة الوطنيّة، وقد نجح في ذلك نجاحا باهرا، حيث أنّ عدد المنخرطين في الحزب بعد هذه المعركة لا يكاد يدخل تحت حصر، فبينما الحزب الشيوعيّ يسير القهقرى، حيث أنّ جلّ المنخرطين في حزب الشعب هم من الفارّين من الحزب الشيوعيّ، إثر ما تبيّنوه من الحقّ» جريدة "الزهرة"، س50، ع9161، 1356/05/09هـ، 1937/07/18م، ص01.

2- ينظر: مذكرات مصّالي حاج257.

3- باعتبار ما يتميّز به مفدي في كتابته لهذه المناشير من اقتدار في التعبير، فلا يمكن أن يقول: «إنّها موجودة عدّة قائمات انتخابيّة كلّها لها تسهيلات حكوميّة»، أو الحزب «ضدّ انحلال نجم شمال إفريقيا»؛ ويتميّز أيضا باستعمال بعض الألفاظ المخصوصة، مثل: ملّيّ؛ والاقتباس من القرآن الكريم، وإكساب نضال (ح.ش.ج) بعدا دينيّا واضحا، وهو ما لم يكن واضحا في المنشور، لأنّه كان في الأغلب ترجمة حرفيّة لما جاء في النصّ الفرنسيّ، بينما كان مفدي دائما متحرّرا جدّا في كتاباته.

4- القائمتان الأخريان هما: القائمة الجمهورية للمساواة السياسية والاجتماعية (النخبة)، وقائمة الوفاق والوحدة (الأعيان)؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة521 ها 38.

5- معركة انتخابية حامية الوطيس في بلاد الجزائر، جريدة "الزهرة"، س50، ع9151، 1356/04/28هـ، 1937/07/08م، ص01.

شارك مفدي في الاجتماع الانتخابيّ الذي عقده (ح.ش.ج) يوم 06/26، بحضور 600 شخص، وكان ممّن تناول الكلمة فيه، فسجّلت عليه الإدارة الاستعماريّة قوله فيه: «سننال الاستقلال حتّى ولو كلّفنا أرواحنا، وكلّ من يعارضنا فهو خائن وكافر»[1].

وفي يوم الانتخاب 06/27، تحصّلت قائمة (ح.ش.ج) ما بين 206 و303 صوتا[2]، ولمّا وقع التساوي في الأصوات، تقرّر إعادة الانتخاب[3]، يوم 07/04، فواجهت قائمة حزب الشعب -أساسا- قائمة الوحدة الشعبيّة (Union Populaire)[4]، التي تمثّل الشيوعيّين الذين كانت دعايتهم «مصبوغة بصبغة المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ، كما صرّح بذلك الخطباء من الزعماء الشيوعيّين في كثير من الاجتماعات، آخرها اجتماع (أوديون سينما)[5]، حيث صرّح عميدا الشيوعية بالجزائر م.وزقان، وم. بوقود [يعني: بوخرت] بأنّ هذه القائمة هي قائمة المؤتمر، ضرورة أنّ نائب رئيس المؤتمر، الأستاذ العموديّ، بتبوّأ الصدارة من هذه القائمة»[6].

شهدت هذه الانتخابات في دورها الثاني تزايدا في حدّة الصراع والمنافسة، وصل إلى حدّ الصدام العنيف الدمويّ، يشهد له تعبير مفدي عنه في رسالته إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، يوم 1937/07/04، إذ يقول: «أكتب إليكم هذا، وأنا في معمعة انتخابية حامية الوطيس، الوطنية تصارع الشيوعية، النصر للوطنية على طول الخطّ، مضاربات، معارك دموية. أرجوكم أن تطالعوا رسالة أرسلتها أمس للأستاذ محي الدين القليبيّ، ولكم معا، ففيها التفاصيل، النصر لنا أوّلا وآخرا»[7]؛ هذه التفاصيل كانت -في تقديرنا- مادّة المقال الذي نشره رئيس تحرير جريدة "الزهرة" محي الدين القليبيّ[8]، من غير إمضاء، عنوانه مقتبس من عبارة مفدي "معركة انتخابية حامية الوطيس في بلاد الجزائر":

1- ينظر: مدوّنة عن نشاط مصّالي الحاج، بإمضاء: م. بيرتان(M. Burtin)، 1937/08/02، 9h47، (CAOM)، ص01.

2- نفسه01. وذكر محفوظ قدّاش نتائج الدور الأوّل كالآتي: عدد المسجّلين 3163، وعدد الناخبين 2188، فنالت القوائم في المتوسّط عدد الأصوات الآتية: الشيوعيّون 700، النخبة 500، الأعيان 350، حزب الشعب الجزائري 210؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة521 ها 38.

3- ينظر: معركة انتخابية حامية الوطيس في بلاد الجزائر، جريدة "الزهرة"، ع9151، ص01.

4- ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة521 ها 38.

5- كان هذا الاجتماع يوم 07/02، لقائمة "الوحدة الشعبيّة"، من سا 18 و30د إلى سا20، بحضور 600 شخص تقريبا؛ ينظر: تقرير محافظ شرطة الدائرة الثالثة بالجزائر بالنيابة ميلر (Muller) إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، رقم: R.S 477، 1937/07/02، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ماذا في الجزائر، مفدي زكرياء، جريدة "الزهرة"، س50، ع9161، 1356/05/09هــ، 1937/07/18م، ص01.

7- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

8- استدعى محمد بن عبد الرحمن الصنادليّ، مدير جريدة "الزهرة" الحالي، بعد وفاة والده، السيّد محي الدين القليبيّ، رئيس حزب الدستور القديم منذ جويلية 1935، إلى إدارة تحرير الجريدة؛ ينظر: مدوّنة معلومات، (C.I.E)، محافظة قسنطينة، رقم: 287، 1937/07/23، 25h32، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

نظّم (ح.ش.ج) في فاتح جويلية اجتماعا بسينما لا بارل (La Perle)، تناول فيه الكلمة مصّالي ولحول ومفدي، وانتقدوا الضغط الذي يمارسه المرشّح طيّار من قائمة منافسة، بتوزيعه مبلغ 30.000 أو 40.000 فرنكا على بعض الناخبين[1]. وبعد انتهاء هذا الاجتماع وقع الاعتداء على مفدي زكرياء، فقد أصدر (C.I.E) وثيقة معلومات يوم 07/02 على الأصحّ، كان الحديث فيها عن عدم حصول وفاق بين الحزب الشيوعيّ وحزب الشعب الجزائريّ، بدليل الاعتداء على مفدي زكرياء، فقد ضربه مناضلون شيوعيّون، مساء أمس بالقرب من سكوار برسون (Square Bresson)[2]. وقد تحدّث مقال "الزهرة" عن هذا الاعتداء في العبارات الآتية: «وممّا يسوؤنا ذكره هنا، أنّ الأستاذ النابغ السيّد مفدي زكرياء، قد وقعت بالأمس محاولة اغتياله من يد أحد خصومه، إذ ما كاد يلتفت الأستاذ، وهو مارّ بأحد الشوارع إلاّ ووجد رجلا يجري وراءه، وبيده خنجر يريد طعنه به فانقضّ عليه الأستاذ، وبعد معركة فرّ الجاني، ولكنّه قبض عليه بعد لحظة، وفتحت النيابة بحثا ضدّه، والحمد لله الذي سلّم، وحفّ الشاعر المبدع بلطفه»[3].

عقد (ح.ش.ج) اجتماعا آخر يوم 07/02، بقاعة سرفانتس (Cervantès)، ببلكور، تناول فيه الكلمة مصّالي، فلحول، ولم يتناول مفدي الكلمة، استجابة لطلب الحضور إلاّ ليشكرهم[4]؛ وطلبُ الحضور مشاركة مفدي، هي التفاتة من المناضلين يعبّرون بها عن تضامنهم معه بعد الاعتداء الذي طاله، واكتفاء مفدي بشكرهم، يدلّ على تأثّره بالحادثة، وربّما بهذه الالتفاتة أيضا. وبعد نصف ساعة من انتهاء هذا الاجتماع، كان ردّ فعل الحزب على هذا الاعتداء، فقد اقتحم نحو مائة من مناضليه اجتماع قائمة "الوحدة الشعبيّة"، بسينما أوديون

1- حضره 600 شخص تقريبا، وامتدّ من سا19 إلى سا20 و25د، ودعا فيه المتدخّلون الحاضرين إلى الاجتماعين اللذين سينعقدان يومي 02 و07/03 بسينما ديامون (Diamont)؛ ينظر: تقرير محافظ شرطة الدائرة الثالثة بالجزائر بالنيابة ميلر (Muller) إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، رقم: 472 R.S، 1937/07/01، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: الوثيقة، [02]/1937/07، موضوعها: بخصوص الانتخابات البلدية الأهليّة بالجزائر، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة33. التاريخ الوارد في الوثيقة هو 07/01؛ غير أنّ الوثيقة تحدّثت عن اجتماعين، سيعقدهما الحزب، الأوّل في نفس اليوم بقاعة سيرفانتس، ببلكور، والثاني في الغد من ذلك، في قاعة سينما ديامون، أي: يومي 01 و07/02، وإنّما انعقدا يوم 02 و07/03، على ما سنراه قريبا.

3- ينظر: معركة انتخابية حامية الوطيس في بلاد الجزائر، جريدة "الزهرة"، س50، ع9151، 1356/04/28هـــ، 1937/07/08م، ص01. إذا أخذنا النصّ على علاّته، فهو يتحدّث عن اعتداء ثان وقع يوم 07/07، ولا يصحّ ذلك، لأنّ المعلومات التي بلغت محي الدين القليبيّ أرسلت إليه يوم 07/03، وهذا يدلّ على أنّ صاحب المقال استعمل عبارة مفدي، ويشهد لها الطابع الدراميّ المبالغ فيه في سرد الواقعة، فإذا كتب مفدي رسالته يوم 07/02، بدليل ذكر المقال فقرات من منشور وزّع يوم 07/02، فيكون الحديث هنا عن الاعتداء نفسه، وهو ما نرجّحه.

4- حضره 600 شخص تقريبا، وامتدّ من سا18 و30د إلى سا19 و15د؛ ينظر: تقرير محافظ شرطة الدائرة الثالثة بالجزائر سيسيني (Susini) إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، رقم: 479 R.S، 1937/07/03، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

(Odéon)، فاضطرّ مكتب الاجتماع إلى رفع الجلسة؛ ثمّ حاول مصّالي الحاج عقد اجتماع في نفس القاعة بعد وقف الأوّل، فمنعته قوّات الشرطة من ذلك، وأخلت القاعة[1].

وعقد (ح.ش.ج) اجتماعا ثالثا يوم 07/03[2]، بقاعة سينما ديامون (Diamont)، حضره 500 شخص داخل القاعة، وما يزيد على الألف خارج القاعة، وتشكّل مكتب الاجتماع من مصّالي رئيسا ولحول وزكرياء مساعدين: عرض مصّالي في تدخّله آراء الجمعية المنحلّة "نجم الشمال الإفريقيّ"، ثمّ توسّع مستعملا تعابير عنيفة ضدّ فرنسا التي وعدت الأهالي مرارا، ولم تف بوعودها أبدا، وعبّر عن رفضه لمشروع فيوليت، وطالب ببساطة تحرير الشعب الجزائريّ، وطرد كلّ ما هو فرنسيّ. تناول بعده الكلمة متدخّلان آخران استعملا تعابير لا تقلّ عنفا. وكان لكلام المتدخّلين تأثير قويّ في الحاضرين، فبلغ بهم الحماس أوجه، فسمعت عدّة هتافات حماسيّة وصرخات، تحيي كلّ كلام موجّه ضد فرنسا، وخاصّة ما تعلّق بطرد الفرنسيّين؛ وفي الأخير تفرّق الجمع على وقع نشيد الحزب الحاثّ على تكوين دولة مستقلّة[3]. وكان من عنف لهجة الخطب التي ألقيت في هذا الاجتماع، وبسبب الطابع السياسيّ للمتابعات القضائيّة المتوقّعة، أن راسل النائب العامّ لدى المحكمة الابتدائيّة بالجزائر (Cour d'appel)، حافظ الأختام يستشيره بعد استعراض وقائع الاجتماع، في إحالة القضية على التحقيق، لاعتباره الاجتماع وما حدث فيه تظاهرة ضدّ السيادة الفرنسيّة في الجزائر[4].

---

[1]– ينظر: تقرير محافظ شرطة الدائرة الثالثة بالجزائر بالنيابة ميلر (Muller) إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، رقم: 477 R.S، 1937/07/02، 3cab44، (CAOM).

[2]– وبذلك يكون عدد الاجتماعات التي عقدها الحزب منذ عودة زعيمه مصّالي، وكانت جميعها انتخابية، خمسة اجتماعات، وهو ما تؤكده الإدارة الاستعماريّة؛ ينظر: نشاط حزب الشعب الجزائري في الجزائر خلال الشهور الأخيرة، القائد ويندر (Capitaine Wender)، 1937/08/17، 4I3، (CAOM)، ص02. بينما ذكر مقال جريدة "الزهرة"، الذي استقى معلوماته من مفدي، كما أوضحنا، أنّ عدد الاجتماعات أكثر من ستّة، وإذ قدّرنا تاريخ هذه المعلومات بيوم 07/02، ندرك مدى المبالغة في كلام مفدي حتّى على اعتبار ما سيكون؛ ينظر: معركة انتخابية حامية الوطيس في بلاد الجزائر، جريدة "الزهرة"، ع9151، ص01.

[3]– ابتدأ على سا18 و30د، واختتم على سا20؛ ينظر: تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة موري (Maury) إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، بناء على تقرير مؤرّخ في 07/03 من محافظ شرطة الدائرة الثانية بالجزائر لو بول (Le Boul)، رقم: 682 R.S، غير مؤرّخ، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]– ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العام، بإمضاء: هيرول (Herault)، رقم: 14.596، 1937/07/09، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت به رسالة النائب العامّ إلى حافظ الأختام، في نفس التاريخ، وثيقة من صفحة واحدة؛ بالإضافة إلى تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة موري (Maury) إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، رقم: 682 R.S، غير مؤرّخ.

وفي هذه الأيّام الأولى من شهر جويلية، وزّع (ح.ش.ج) منشورين: الأوّل يوم 07/02، نشرت عدّة فقرات منه في مقال "الزهرة"[1]، أسلوبه هو أسلوب مفدي؛ والثاني وزّع يوم الانتخاب 07/04[2]، ولم نقف على أصلهما.

قائمة حزب الشعب الجزائريّ نالت في هذا الدور الثاني من الانتخابات البلديّة، ما بين 309 و373 صوتا، وفازت قائمة "الوحدة الشعبيّة" بمعدّل 1000 صوت[3]. وفي ذلك يقول مفدي في مقاله: «اجتازت الدورة الثانية للانتخابات بين مصادمات عنيفة، ومجابهات، وأسفرت النتيجة يوم الأحد برسوب قائمة الدكتور تمزالي [قائمة النخبة]، وقائمة بوضربة [قائمة الأعيان]، وأمّا القائمة الشيوعيّة فقد فازت بأصوات تواطأ على جلبها كلّ من الجمعيات التي تمتّ بصلة إلى الأحزاب الشّماليّة [...]؛ وكذلك وقع استعمال نفوذ بعض رجالات الجزائر الذين يمثّلون بعض الهيئات المتمتّعة إلى الآن بسمعة حسنة في الأوساط الجزائريّة، كما أنّ الدعاية الانتخابيّة التي كان يقوم بها الحزب الشيوعيّ كانت مصبوغة بصبغة المؤتمر الإسلاميّ [...]؛ وعلاوة على هذا كلّه فإنّ القائمة الشيوعيّة عمدت إلى شراء أصوات الناخبين بالمال، في آخر يوم، واستعانت في تفريق هذا المال ببعض أغنياء بني إسرائيل [...]. أمّا حزب الشعب فقد خرج منتصرا على خطّ مستقيم، باعتبار أنّه لم يحافظ فقط على الأصوات التي أحرز عليها في الدورة الأولى، بل زاد عليها قسطا وافرا، ممّا يدلّ على تمركز دعايته بالشعب، ولولا الظروف التي كانت تساعد خصومه، لفاز بالنتيجة كاملة»[4].

في خضمّ هذه الظروف التي كان يخوضها مفدي مع حزبه بحماس كبير، في إحدى اللحظات التي بلغ فيها نضاله من أجل القضية الوطنيّة أوجه، في هذه الظروف وصلته رسالة من والده، يطلب منه، ويفرض عليه التوقّف حالا. كتب والده هذه الرسالة في فاتح جويلية، ويكون مفدي قد تلقّاها يوم 02 جويلية، بعد الاعتداء عليه،

---

[1]- ينظر: معركة انتخابية حامية الوطيس في بلاد الجزائر، جريدة "الزهرة"، ع9151، ص01.

[2]- ينظر تاريخ توزيع المنشورين: مدوّنة عن نشاط مصّالي الحاج، بإمضاء: بيرتان(Burtin)، 1937/08/02، 9h47، (CAOM)، ص01.

[3]- ينظر: نفسه01. ذكر محفوظ قدّاش نتائج الدور الثاني بالتفصيل الآتي: عدد المسجّلين 3163، وعدد الناخبين 2340، فنالت القوائم في المتوسّط عدد الأصوات الآتية: الشيوعيّون 1050، النخبة 870، حزب الشعب الجزائري 320؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة521 ها 38. ويلاحظ عدم ذكره ما نالته قائمة (الأعيان) من أصوات، ويدلّ على مشاركتها في هذا الدور إشارة مفدي إليها في مقاله.

[4]- ماذا في الجزائر، مفدي زكرياء، جريدة "الزهرة"، س50، ع9161، 1356/05/09هـ، 1937/07/18م، ص01. والحقّ أنّ كلام مفدي لا يعتبر كافيا في تفسير خسارة حزب الشعب في هذه الانتخابات، لأنّه لم يخسر إزاء قائمة "الوحدة الشعبيّة" فقط، وإنّما خسر إزاء قائمة النخبة، وربّما إزاء قائمة الأعيان أيضا، ويمكن تفسير ذلك بتلاعب الإدارة بنتائج الانتخابات، أو بجدّة الحزب -وهو الأظهر- على الساحة السياسيّة الجزائريّة، إذ لم تتغلغل أفكاره بعد في الشعب الجزائريّ، بما يغيّر سلوك الناخب الجزائريّ في مثل هذه الانتخابات. وقد انتبه فيوليت (Viollette) لخطورة النتيجة التي تحصّل عليها (ح.ش.ج)، فقد «لاحظ في صحيفة ليكو دالجي (L'Echo d'Alger)، ليوم 09 جويلية 1937، فوز الشيوعيّين، وتأسّف خاصّة لعدم الإشارة لما هو مدهش: العدد الكبير للأصوات التي أحرزت عليها قائمة حزب الشعب، وبقاؤها في الدورة الثانية حتّى ضدّ الشيوعيّين، يبدو لي أنّ الحركة التي وقعت بمدينة الجزائر هي حركة عميقة» مصّالي الحاج: رائد الوطنية الجزائريّة168، 169.

وعلى الأرجح بعد كتابة رسالته إلى محي الدين القليبيّ، وهو ما قد يفسّر أيضا إحجامه عن إلقاء كلمة في اجتماع بلكور، بقاعة سيرفانتس (Cervantès)، فقد كانت لهجتها شديدة، وما تكشَّف منها أمور:

بعث إليه والده رسائل كثيرة، ذكر -مبالغة في الكثرة- نحو خمسين، يطالبه فيها بترك الكتابة في الجرائد، والعمل مع الحزب، ويطالبه في المقابل بالاهتمام بنفسه وبعائلته، فقد أصبح أبا.

في جوابه الأخير طلب منه التخلّي عن تولّي مناصب المسؤولية في الحزب، والنضال السياسيّ، فأجابه مفدي متعهّدا بترك ذلك، وعليه وبّخه على نقضه للعهد مرارا، واعتبر ذلك كذبا واستهزاء بوالده.

ربط حزبه بالشيوعيّة، فلذلك خيّره بين سبيلين: سبيل الحزب، واعتبره سبيل الشيطان، لأنّ فيه هلاك الدنيا والآخرة؛ وبين سبيل طاعة والده، باعتبارها من طاعة الله، وهو ما يفرضه الدين الحنيف، حتّى إذا قال لك أحدهم: لماذ تركت العمل السياسيّ؟ وأجبته: فعلت ذلك طاعة لوالدي، عذرك؛ ثمّ هدّده بأنّه إن لم يترك هذه السيرة الفاسدة، سيقطع صلته به نهائيّا: فلتقل: إنّ أبي قد مات، وأنا أقول: إنّ ابني مات، وفي آخر الرسالة تماما: إن لم تنتزع عن هذا السبيل فإنّي أكبّر عليك أربع تكبيرات[1].

لقد كانت رسالة قاسية جدّا، لا شكّ أنّها وضعت مفدي في مأزق شديد، تعارض فيه مفهومان للحياة مختلفان، مفهوم (الوالد) الإنسان العادي البسيط الذي ينغلق على نفسه في حدود عائلته، ويراها في قيامه بواجباته الأساسيّة نحو نفسه وعائلته؛ ومفهوم (الابن) المناضل من أجل قضية، قد تغفله عن كثير أو قليل من واجباته العائليّة، وذلك بحسب القضيّة، وما تتطلّبه من جهد، ومن تجرّد لها، وبحسب حماسه وإيمانه بها؛ وكلّ طرف يعطيها خلفية دينية إسلاميّة سليمة، يتقوّى بها إيمانه بصحّة موقفه، فمفدي يكسب نضاله في سبيل قضية وطنه بعدا دينيّا واضحا، فيعتبره جهادا في سبيل الله؛ ووالده يطالبه بطاعة والده التي هي من طاعة الله ودينه الحنيف؛ ومنه كان الصدام، وكان في غير صالح الابن، لأنّ مفهوم الجهاد في ميدان العمل السياسيّ جديد، فلا يصمد كثيرا عند تعارضه مع واجب طاعة الوالدين المقرّر منذ قرون تأليفا وممارسة اجتماعيّة، أضف إليه ما تكسبه السلطة الأبويّة من قوّة لموقف الوالد، فهو إذا نفّذ وعيده، لا يقف في حدود علاقته بابنه، وإنّما سيتجاوزه إلى علاقة المجتمع بابنه أيضا.

وإذا بحثنا عن أقرب حدث يمكن أن يثير غضبه على هذا النحو، فيكتب رسالته العنيفة هذه إلى ابنه، فلا نجده إلاّ في صدور اسمه بشكل رسميّ في قائمة حزب الشعب، للانتخابات البلدية بالجزائر، فقد طبعت القائمة، ومن المحتمل جدّا أنّ نسخة منها وصلت إلى بني يزقن، وإلى والده، فتبيّن منها أنّ مفدي لم يف بوعده والدَه -على ما جاء في الرسالة- بالتخلّي عن العمل السياسيّ.

---

[1]- ينظر: رسالة والد مفدي إلى ابنه، 1937/07/01، أرشيف الأستاذ عبد الرحمن حوّاش الخاصّ، بغرداية.

لا شكّ أنّ إيمان مفدي بقضيّته لا يشوبها أدنى شكّ أو ريبة، وإلاّ لاتّخذ هذه الرسالة ذريعة لتركها، وكان متمرّدا يأبى قبول ما لا يقتنع به قناعة تامّة، والخلاف بينه وبين والده مثير للجدل، فماذا يفعل؟

كتب يوم 1937/07/04، رسالة إلى زعيم القضيّة الميزابيّة، -كما أسماه-، السيّد: زكري بن سعيد، وهو من معارف والده، وكانت له مكانته في نفوس اليسجنيّين، وحتّى عند غيرهم من سكّان قرى وادي مزاب، وهو ممّن عاش حياة نضاليّة حافلة ضدّ المستعمر الفرنسيّ، وممّن سجّل في الدفتر "B"، إثر قضية الحزب الدستوريّ، في بداية العشرينيّات، فلم يكن اختيار مفدي له عشوائيّا، يقول فيها:

«[...] وبعد، إنّني أوجّه إليكم داخل هذا رسالة أرسلها لي والدي سليمان بن يحي -عفا اللّه عنه- كتبها -ولا شكّ- تحت تأثير بعض المغرضين، سماسرة الفتنة والفساد، ولست أدري لماذا هذا التحامل والتداخل في حياتي العامّة التي أرى أن أكون فيها حرّا، لا يتصرّف أحد في أفكاري؟ ولأجل هذه الحرية، حرية الرجولة نحن نكابد ونجاهد. إنّ أبي يريدني أن أكون عضوا أشلّ في المعترك الحيويّ [...]، وأنا لا أريد هذه الحياة، ولم أخلق لها؛ وإنّما خلقت لأن أدافع عن بلادي، وأشترك في صفّ الجهاد والعمل في هذه الحياة، والسعي لخير بني جنسي، وللإسلام عموما؛ ولم أخلق لأعيش عيشة الخمود والاستكانة والموت [...]. وإنّني لا أتأخّر عن الجهاد ولو كانت الأرض كلّها ضدّي، وعوض أن يعينني بدعائه الصالح، ويأمرني [بـــ]ـــالصبر والجهاد، فهو يهدّدني، و[يتوعّدني]، ويريد أن ألبس لباس الحداد.

إنّه لم يجدني يوما من الأيّام ملتبسا بجريمة، أو منتهكا لحرمة، أو متعدّيا على حدّ من حدود اللّه، وإنّما ذنبي الوحيد هو أنّني حيّ، متيقّظ، ناهض، ولست جامدا، خامدا، جبانا [...]. أرجوكم أن تفهموه -حفظكم اللّه- حقيقة أعمالي [...]، وإذا أراد أن يبقى على أفكاره، [فاتركوه]، فإنّني سأقطع كلّ علاقة بميزاب، سواء كانت عائليّة أو غير عائليّة، وسأسيح في أرض اللّه مجاهدا عن بلادي ووطني، واللّه يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور. وإنّني أترقّب جوابكم -حفظكم اللّه-، لأنظر لنفسي أيّ طريق أسلك، فلست أنا أوّل ضحيّة من ضحايا جنايات الآباء على الأبناء، وعند اللّه تجتمع الخصوم»[1].

إنّها رسالة مفدي، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، تنبئ عن قوّة إيمانه بنضاله في سبيل القضية الوطنية، والتضحيات التي بإمكانه تحمّلها في هذا السبيل، إن أصرّ والده على موقفه، فقد رجحت كفّته مقابل طاعة الوالدين بالرغم من أهمّيتها وخطورتها وجلالها عند المسلم، لا لشيء سوى اعتباره ما يفعله من صميم ما يأمره به الدّين الحنيف، فهو جهاد في سبيل الله، والرسالة في تعابيرها وأفكارها رسالة تاريخيّة فذّة بلا جدال.

---

[1]- تنظر الرسالة: أرشيف السيّد زكري بن سعيد الخاصّ، بني يزقن. رسالة والد مفدي، وجواب ابنه مذكورتان في غير سياقهما التاريخيّ الصحيح عند صالح بن دريسو؛ ينظر: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة 24، و25 متنا وهامشا.

لقد كتب السيّد زكري بن سعيد في ذيل رسالة مفدي: «[أجبته] يوم 07 [جويلية] 1937»[1]، ولم نقف على هذه الرسالة، لنعرف ما كانت نتيجة تدخّله لحلّ هذا الإشكال بين الوالد وابنه، ووقائعُ حياة مفدي لا تسعفنا بكثير في استنتاجها، فمفدي انغمس في العمل السياسيّ إلى حين دخوله السجن، وتوفّي والده وهو بالسجن، ولا توجد رسائل أو وثائق تناولت الموضوع من قريب أو بعيد؛ ويبدو أنّ هذا الموضوع احتفظ به بينه وبين نفسه، لم يطلع عليه أحدا سوى السيّد زكري بن سعيد، فقد كتب في نفس اليوم رسالة إلى والده الروحيّ، أستاذه الشيخ الثمينيّ، فلم يرشح فيها من مشكلته مع والده شيء، سوى ما يلاحظ عليها من اختصار شديد، فكانت أشبه ببرقية: «أكتب إليكم هذا، وأنا في معمعة انتخابية حامية الوطيس، الوطنية تصارع الشيوعية، النصر للوطنية على طول الخطّ، مضاربات، معارك دموية»[2]، ممّا قد يدلّ على توتّر نفسيّ منعه من الاسترسال، واكتفى بإحالته على رسالة محي الدين القليبيّ، ففيها التفاصيل: «أرجوكم أن تطالعوا رسالة أرسلتها أمس للأستاذ محي الدين القليبيّ ولكم معا، ففيها التفاصيل، النصر لنا أوّلا وآخرا»[3]، ثمّ كاتبه أيّام 15 و17 و07/19، وكان هاجسه في رسائله الثلاثة أمر القصيدة والتلغرافات، كما مرّ[4]، ولم ترد فيها أدنى إشارة لخلافه مع والده، وإذ لم يفعل، فإنّي أعتقد بقاء الخلاف مستحكما، فلو أنّه انحلّ لانحلّت عقدة لسانه في هذا الموضوع، خاصّة مع أستاذه الشيخ الثمينيّ.

عقد حزب الشعب الجزائريّ اجتماعا ترأسه مصّالي الحاج، بسينما لومبير (L'empire Cinéma)، ببوفاريك، يوم 1937/07/06[5]، تناول مفدي هذا الاجتماع في مقاله بعنوان "ماذا في الجزائر؟"، ومنه: «وقد ضمّ هذا الاجتماع ثمانية آلاف مستمع، فمن عاصمة الجزائر أربعة أوتوكارات ذات 75 نفرا، وعشرة سيارات من نوع (طاكسي)، تتقدّمها السيارة التي تقلّ زعماء الحزب، الأساتذة: مصّالي الحاج، مفدي زكرياء، لحول الحسين، مسطول محمد، الحاج إسماعيل؛ ومن البليدة ونواحيها ما يقرب من عشرين سيارة. وقد انتظم الحفل، وألقى الأستاذ مصّالي خطبة وطنية عظيمة [...]، وكان يقاطع بالتصفيق الحادّ، ومع ختم خطابه بهذه الكلمة: عاهِدنا أيّها الشعب على الطاعة والانقياد، ونحن نعاهدك على بذل حياتنا ودمنا في سبيل سعادتك وتحريرك، فتمّت

1- الرسالة مفدي إلى السيّد زكري بن سعيد، أرشيف السيّد زكري بن سعيد الخاصّ، ببني يزقن.

2- رسالة مفدي زكرياء إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، 1937/07/04، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- نفسه.

4- ينظر: ص218، 219.

5- وحضره ما يقارب ألف شخص، تناول فيه الزعيم موضوع "الجزائر للأهليّين"، بحسب تعبير الإدارة الفرنسيّة، ويلاحظ هنا أنّ الوطنيّين كانوا لا يستعملون هذا المصطلح، فيكون العنوان على الأرجح "الجزائر للجزائريّين"؛ ينظر: تقرير الرائد ديكاي (Ducay)، قائد فصيلة الدرك الوطنيّ لمدينة البليدة، رقم: 717/2، 1937/07/09، موضوعه: عن اجتماع لحزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

المعاهدة فعليّا بين الشعب وبين الزعيم الجليل، في عاصفة من التصفيق والهتاف؛ ثمّ طلب الزعيم من الحاضرين أن يتقدّم من يريد الاعتراض، لأنّ الاجتماع اعتراضيّ كسائر اجتماعات حزب الشعب، فلم يتقدّم أحد. وأعطيت الكلمة لمفدي زكرياء، فدرج على منوال الزعيم المصّالي، وأطنب في موضوع تفسير معنى الوطنية، وتنظيرها بالشيوعية، وغيرها من الأحزاب الأجنبيّة، وأخيرا تمّ الاجتماع، /والأصوات تتعالى بالنشيد الوطنيّ والهتاف والتصفيق [...]. وقد دخل وفد الجزائر بالنشيد الوطنيّ على الساعة العاشرة ليلا، مخترقا الأنهج الكبرى الأرستقراطية بالجزائر، في عشرين سيارة، كلّها في سلك منتظم، وصوت واحد، ودام الوطنيّون في سرور وحبور طول تلك الليلة، سلام هي حتّى مطلع الفجر»[1]، وأهمّ ما نستشفّه من هذا النصّ بوادر بروز قوّة الحزب، الكامنة في تأكيده على الطاعة والانقياد، وحرصه على الانضباط والصرامة في التنظيم، ممّا جعل الإدارة والخصوم يتوجّسون خيفة من هذا الحزب، ومن قوّته الفعّالة هذه.

مفدي والمؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ:

وفي هذا المقال نفسه تحدّث مفدي عن قرب انعقاد المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ الثاني، أيّام 09، و10، و1937/07/11، يقول: «أمّا حزب الشعب بما فيه من نوّاب وزعماء وأعضاء، فقد قرّر بصفة عازمة حازمة المشاركة في هذا المؤتمر، والكلام فيه كيفما كانت الظروف والأسباب، وكيفما كانت القوّة التي تصدّ سبيله، ولو أدّى ذلك إلى ما لا تعود مسؤوليته إلاّ على المعترضين، وقطّاع الطريق على الشعبيّين، حيث أنّ حزب الشعب يعتبر أنّ المؤتمر إسلاميّ جزائريّ، فيجب أن يشارك فيه كلّ من تنطبق عليه هذه الصفات، وليس من الإنصاف أن يشارك في هذا المؤتمر الشيوعيّون، وحتّى الفرنسيّون واليهود، ويمنع ويذاد عنه رجال هم الشعب، وهم الأمّة بحقّ وصدق. وممّا يجدر ذكره هنا أنّ حزب الشعب أصبح اليوم قوّة يعتدّ بها، ولا يمكن الاستهانة بها أبدا، والجزائر اليوم كلّها مضطربة واجفة، والأوساط كلّها تتساءل ماذا تكون العاقبة لو صمّم المؤتمرون على منع [مصّالي] وحزبه من المشاركة والكلام؟»[2]؛ واختار أصحاب المؤتمر منع مصّالي الحاج[3] ورجال حزبه من حضوره، ومبرّر المنع –على ما نسب إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس– هو «أنّ الهيئة المشرفة على تنظيم المؤتمر تحقّقت أنّ جماعة الحاج مصّالي عازمون على إحداث مشاغبة بينهم وبين أفراد المؤتمر فاضطرّت إلى جعل

1- جريدة "الزهرة"، س50، ع9161، 1356/05/09هـ، 1937/07/18م، ص01، 02.

2- نفسه02.

3- ذهب مصّالي الحاج إلى نادي الترقّي مساء يوم 07/09، فمنع من الدخول، فانسحب مغاضبا؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4853، 1937/07/10، موضوعه: بخصوص المؤتمر الإسلاميّ، 2I36، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

الدخول للمؤتمر خاصّا على الوافدين من شعب» المؤتمر[1]؛ يقول مفدي في ذلك: «وعلى كلّ حال، فإنّ خمسة من أعضاء "حزب الشعب" استطاعوا دخول النادي، بصفة كونهم نوّابا للجان المؤتمر، ولكن ماذا عسى أن تفعل الأقلّية أمام القوّة الشيوعيّة المحاصرة للنادي، والقابضة على خناق المؤتمر»[2]؛ ثمّ «وقع رفض قبول، وتلاوة اقتراح قدّمه أربعة من نوّاب المؤتمر الوطنيّين[3]، لأنّهم وطنيّون، والوطنيّة في نظر بعضهم جريمة إنسانيّة، لا يمكن السكوت عليها، ولو أنّ هؤلاء المؤتمرين راعوا حتّى التراتيب المتّخذة في جميع المؤتمرات، وقبلوا الاقتراح، وصرّحوا به أمام الجلسة، ثمّ عارضوه حين التصويت، لكان لهم الحقّ في ذلك، ولما عاتبناهم، ولكنّهم برهنوا عن سوء تصرّفهم، وقلّة تضامنهم، ومواقفهم العدوانيّة ضدّ الوطنيّين، فرفضوا مجرّد قبول الاقتراح ابتدائيّا، في حين أنّهم قبلوا» «ذلك الاقتراح البارد المزريّ، الذي قدّمه مسيو جان سيل ميلي [Jean Selles-Millie] الأجنبيّ عن المؤتمر طبعا وشرعا، ومؤدّاه: «أطلب من المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني، أن يأمر المغاربة الريفيّين الذين يحاربون في صفّ فرانكو، أن يضعوا السلاح، ويتحوّلوا عن مناصرة فرانكو، إلى مناصرة حكومة إسبانيا الشعبيّة». وهذا الاقتراح على ما هو عليه وقاحة وفضولا، وقع قبوله كاقتراح معقول، وقدّم للتصويت، وعاضده الشيوعيّون، وكاد المؤتمرون أن يصوّتوا عليه لولا أن قام الأستاذ عبد الحميد بن باديس، وغضب غضبة هاشميّة، وزأر زأرة الأسد، وأنقذ الموقف، قائلا: «ما لنا ولإسبانيا وفرانكو، نحن هنا بالجزائر يجب أن نشتغل بسياسة بلادنا التي تموت جوعا، وتتمزّق ظلما، وإذا فتحنا باب السياسة الخارجيّة، قلنا: قبل أن نقترح في مسائل إسبانيا، [الأولى] أن نقترح في مسائل فلسطين الدامية»، وبهذه الصرخة استيقظ المؤتمرون من غفوتهم، ورفضوا الاقتراح بأغلبية ساحقة على مضض من الشيوعيّين»[4].

1- حول المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ: ملاحظة عاجلة على ملاحظة سريعة، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4410، 1356/05/22هـ، 1937/07/31م، ص05.

2- المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني وأدواره، الحلقة الثانية، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4404، 1356/05/16هـ، 1937/07/25م، ص05. وأعضاء الحزب الخمسة هم: معروف بومدين من تلمسان، بلقاسم بن عيسى من مستغانم، وفليتة محمد من بوفاريك؛ بالإضافة إلى موساوي رابح الذي أمضى -بمعية من سبق ذكرهم- على الاقتراح الذي قدّم للمؤتمر، وتمّ رفض مجرّد تلاوته؛ أمّا الخامس فلم يذكر اسمه، ولعلّه المحامي بومنجل الذي حضر المؤتمر ممثّلا لـ"جمعية الدفاع عن مصالح المسلمين بفرنسا"؛ ينظر: نفسه05. أمّا محفوظ قدّاش ومحمد قنانش، فقد تحدّثا عن حضور مناضل (ح.ش.ج)، مصطفى برزوق المؤتمر، ممثّلا -أيضا- لمدينة تلمسان؛ ينظر: حزب الشعب الجزائريّ12. غير أنّ مفدي لم يشر إليه أدنى إشارة، ولم يكن من الممضين على الاقتراح.

3- احتجّ معروف بومدين في تجمّع (ح.ش.ج)، ليوم 1937/07/12، بسينما ديامون (Diamont)، لرفض مجرّد قراءة مقترح (Motion) قدّمه للمؤتمر؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4929، 1937/07/13، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02.

4- هذا النصّ وسابقه من: المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني وأدواره، الحلقة الثالثة، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4406، 1356/05/18هـ، 1937/07/27م، ص05. وتنظر حادثة اقتراح ميلي، وموقف الشيخ ابن باديس منه: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4893، 1937/07/11، موضوعه: المؤتمر الإسلاميّ، 2I36، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص03.

هذه الأحداث وغيرها أسهمت في إذكاء نار الحرب بين حزب الشعب والمؤتمر الإسلاميّ، وبينه وبين الحزب الشيوعيّ بصفة خاصّة، فأصدر الديوان السياسيّ لحزب الشعب بالجزائر، بلاغا منه إلى الأمّة الجزائرية الإسلاميّة، شديد اللهجة ضدّ المؤتمرين، شنّع فيه عليهم موقفهم منه، وما اعتبره انحرافات وفضائح وقعت في هذا المؤتمر، فهو يبتدأ كالآتي: «أيّها المسلمون الجزائريون استفيقوا، فإنّ المؤتمر يسخر ويلعب ويمرح ويعبث، إنّ المؤتمر الشيوعي الستالينيّ، المدعوّ زورا وبهتانا بالمؤتمر الإسلامي الجزائري قضى يومين كاملين في صخب ولغب وفرفشة، وتمّم أعماله تحت الرعب والحيرة والاندهاش، وانتهى تحت صواعق من غضب الشعب الجزائري المسلم، الذي كان يضطرب ويعلن سخطه، بواسطة الزفير والشهيق، والصراخ العظيم. لم تعرف الجزائر في تاريخ حياتها موقفا فاضحا مخجلا قبل هذا؛ و لم تشاهد خذلانا وإفلاسا وهزيمة إلاّ في خلال هذا المؤتمر المملوء بالمساخر والمضحكات والمبكيات في آن واحد! فهل حقيقة هو مؤتمر إسلاميّ جزائريّ كما يزعمون؟»[1].

وإذا كان حزب الشعب أعلن الحرب على المؤتمر، وعلى الحزب الشيوعيّ، فإنّه كان يحاول دائما أن يستثني جمعية العلماء، والشيخ عبد الحميد بن باديس بصفة خاصّة، حفاظا على شعرة معاوية بينه وبينهم، رجاء أن تنكشف لهم حقيقة الأمور، ويعودوا بعدها إلى الجادّة، فقد كان هذا الاستثناء صريحا في البلاغ، ونجد في ختامه هذا النداء إليهم، وهو الآتي: «نحن بصفة كوننا دعاة للوحدة الشعبية الجزائرية العامّة، بحقيقة الواقع، نوجّه نداءنا الحارّ النزيه إلى حضرة إخواننا العلماء، أعضاء المؤتمر، وبالأخصّ لحضرة الشيخ المحترم، الأستاذ عبد الحميد بن باديس، الذي وإن كنّا نختلف وإيّاه في المنهج السياسي، فإنّنا نحمل له منتهى العطف والإكبار، ونعترف له بكثير من المزايا، وبالإخلاص والإدراك الواسع الديني والاجتماعي، ونقول لهؤلاء الإخوان العلماء إنّ حالة الجزائر اليوم مخطرة، ومخيفة جدّا، وقد تجاوزت لمدى واسع شبح هذا المؤتمر، وعليه فاجتنابا لكلّ سوء تفاهم بيننا وبينكم، وقطعا لدابر الخلاف، وقمعا لكلّ الأراجيف، والإشاعات، وإيقافا للخطر عند حدّه، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، وهلمّوا للاجتماع والمفاهمة مع رؤساء حزب الشعب، لنتّفق معا، ونتناصر، ونتضافر على أقرب حلّ للقضية الجزائرية المعقّدة، التي لا يمكن حلّ إلاّ باتّحاد القوّتين. إنّنا نعتقد أنّ هذه أحسن طريقة لتهدئة الخواطر، وتحقيق الاتّحاد والتضامن المنشودين، والعمل لفائدة هذه الأمّة الجزائرية الكريمة، وإنّنا نتمنّى من صميم الفؤاد أن يجد نداؤنا هذا آذانا صاغية، وتنتهي مفاهمتنا بالخير لصالح هذه البلاد»[2].

---

[1]– ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5314، 1937/08/03، موضوعه: بخصوص ترجمة إلى العربية لجريدة "الأمّة"، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من البلاغ، مطبوعة وجها وظهرا، بالمطبعة العربية، وثيقة من صفحتين، ص01. وبعد البلاغ يوجد نصّ التقرير الذي تقدّم به أربعة من مناضلي الحزب للمؤتمر، وهم: معروف، وفليتة، وبلقاسم بن عيسى، وموساوي، باللغة العربية، ووقع رفضه؛ كما تحدّث التقرير عن توزيع المنشور يوم 08/02، بالجزائر.

[2]– ينظر: نسخة مطبوعة من البلاغ، 4I4، (CAOM)، ص02.

غير أنّ استثناءهم كان مكشوفا جدّا، فالحملة كانت شديدة على المؤتمر، إلى حدّ يصعب استثناء أيّ من المشاركين فيه، خاصّة مع ملاحظة دور العلماء الفاعل والقياديّ فيه، ومثل هذا الاستثناء يبدي العلماء -في الواقع- سذّجا للغاية، لا خبرة لهم بالسياسة، استغفلهم الحزب الشيوعيّ، واستغلّ مصداقيتهم لدى الشعب الجزائريّ لتحقيق مآربه؛ وهذه الصورة لا يمكن أن يقبل بها العلماء، خاصّة وأنّهم كانوا يعتبرون مناضلي حزب الشعب شبابا أمّيّين متهوّرين مغامرين، لا باع لهم في السياسة أيضا[1]؛ وعليه فإنّ هذه التصريحات وأمثالها في التجمّعات، وفي الصحافة، كانت تخفي في الحقيقة صراعا حادّا بين حزب الشعب وجمعية العلماء أيضا.

هذا الدور لجمعية العلماء في المؤتمر، ومواجهتها لــ (ح.ش.ج)، يكشفه قرارات اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر الإسلاميّ، في اجتماعها يوم 07/12، فقد اتّفق جميع أعضائها على «تكثيف الدعاية بسبب النشاط الذي يقوم به حاليا حزب الشعب الجزائريّ، وعليه فإنّ الشيخ عبد الحميد بن باديس سيذهب قريبا إلى عمالة وهران، حيث سيتناول الكلمة في مختلف التجمّعات التي سيعقدها المؤتمر هناك، وسيذهب الإبراهيميّ إلى عمالة قسنطينة لنفس الغرض»، كما تمّ تشكيل لجنة لزيارة الوالي العامّ بغرض التعبير عن امتنان أعضاء المؤتمر، وإلفات نظره إلى مطالب الجزائريّين المسلمين، وتتكوّن أساسا من: الدكتور بشير، وابن حرّة، والأمين العموديّ، والشيخ العقبي، والشيخ ابن باديس[2].

سبقت أمثلة من طبيعة العلاقة المتوتّرة بين مفدي وجمعية العلماء، منها: رفض دخوله إلى نادي الترقّي قصد الالتقاء بالشيخ ابن باديس، بناء على موعد سابق[3]؛ ورفض الشيخ العقبي طلبه بإدراج احتجاج على متابعة قضاء البليدة له ولزميله لحول الحسين، في جريدة "البصائر"[4]؛ ومحاضرته في تونس "أطوار الحياة في الجزائر" كانت معارضة لمحاضرة الشيخ ابن باديس قبلها[5]؛ كما أوضح كثيرا ممّا ينقمه، وينقمه حزبه على الجمعية في رسالته إلى

1- قال الشيخ الطيّب العقبي في اجتماع المؤتمر الإسلاميّ، ليوم 07/11، متحدّثا عن مصّالي الحاج وحزبه: «هؤلاء الناس ليسوا راشدين في السياسة، ويريدون أن يخوضوها بسرعة كبيرة، يجب أن نأخذ بأيديهم، وأن نستميلهم إلينا. فلتقطع عنقي في اليوم الذي ينال فيه مصّالي استقلال الجزائر» ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4893، 1937/07/11، موضوعه: المؤتمر الإسلاميّ، 2I36، (CAOM)، وثيقة من 04 صفحات، ص03.

2- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4933، 1937/07/13، موضوعه: المؤتمر الإسلاميّ، 2I36، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: ص187.

4- ينظر: ص214.

5- ينظر: ص216، 217.

الأمير شكيب أرسلان، وأشار خلالها إلى المقاطعة التي طالت المزابيّين، في قسنطينة، في شهر جويلية 1936[1]، وكانت –حسب الرسالة– بأمر من الشيخ عبد الحميد بن باديس نفسه[2].

لقد تنبّهت الإدارة الاستعماريّة إلى طبيعة العلاقة المتوتّرة بين الشيخ عبد الحميد بن باديس كرئيس لجمعية العلماء المسلمين ومفدي، فذكر القائد ويندر (Le Capitaine Wender) في تقرير له يوم 07/09، أنّه «لوحظ مقال سابق في "الشهاب"، وُصف فيه مفدي زكرياء ولحول الحسين، بمناسبة محاكمتهما بالبليدة، بشيء من التودّد؛ وفُسّر برغبة ابن باديس الخاصّة في مراعاة مفدي ومهادنته»[3].

ويبدو أنّ الأجواء ازدادت تلبّدا واكفهرارا في غضون الانتخابات، وإبّان انعقاد المؤتمر الإسلاميّ، ففي رسالة مفدي زكرياء إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، ليوم 1937/07/17، يقول ما يلي: «إنّ ابن باديس يريد الرجوع إلى تونس تلبية لإحدى الجمعيات، في حضور حفلة من الحفلات، وقد استشعرَ أنّني ربّما أذهب إلى تونس، فتوجّس من ذلك خيفة، حتّى إنّه قال لهم: إذا ذهب زكرياء إلى تونس، فأنا لا أذهب، لأنّني لا أريد أن أقف معه في صعيد واحد. أظهر حزبنا في هذه الأيّام حركة نشاط عظيمة، بمناسبة المؤتمر وغيره، ارتعدت لها فرائص العلماء، حتّى إنّهم أوعزوا إلى بني ميزاب، بواسطة الشيخ أبي اليقظان، أن يجبروني على التسليم في الحزب، أو يبرموا مقاطعة ضدّ بني ميزاب، وقد وقعت لذلك اجتماعات عظيمة رسميّة، [...] وحين أُنهي إليّ هذا الأمر، أجبت الوفد الذي أتاني بما يستحقّه، وقلت لهم: نحن حاضرون لقمع أيّة مقاطعة، كيفما كان شأنها، ولا أتزحزح عن حزبي ومبدئي لأجل تهديدات، ربّما كان رضوخي لها سنّةً، لإعادة أمثالها، وأمثال أمثالها. ولذلك وقفت موقفا حازما في المسألة، ونحن على أتمّ استعداد لقمع أيّة حركة للمقاطعة، ولا أظنّ أنّ أحدا بعد الآن ينجح في محاولة

1– ينظر على سبيل المثال: رسالة مدير الأمن لعمالة الجزائر إلى المحافظ، رقم: 4400، 1936/08/12، موضوعه: بخصوص توتّر بقسنطينة بين التجّار الإسرائيليّين والمزابيّين، 2I36، (CAOM)، وثيقة من ورقة واحدة مكتوبة وجها وظهرا. وينظر: جريدة "النجاح"، س16، ع1870، 1355/04/20هـ، 1936/07/10م، حيث وقع الحديث عن بدء المقاطعة؛ وصدرت بعد ذلك عدّة مقالات، آخرها مقال بعنوان "سير الحركة الاقتصادية في ميدانها الطبيعيّ"، تحدّث عن انتهاء المقاطعة وعودة المياه إلى مجاريها؛ جريدة "النجاح"، س16، ع1889، 1355/06/05هـ، 1936/08/23م، ص02.

2– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6576، 1937/09/28، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت به رسالة مفدي زكرياء إلى الأمير شكيب أرسلان، 1937/03/18، مترجمة إلى الفرنسيّة، وثيقة من 09 صفحات.

3– ينظر: التقرير بخطّ يده، موضوعه: نشاط حزب الشعب الجزائريّ، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. والتودّد المذكور وارد في الفقرة الأولى منه: «كان الشاعر المبدع مفدي زكرياء، والسيّد الأحول، قد ألقيا خطابين سياسيّين في حفلة بمدينة البليدة، فتكلّم أوّلهما باللغة العربيّة، وبلهجته الحماسيّة المعروفة عن مطالب حزبهما وغاياته؛ وتكلّم ثانيهما عن ذلك الموضوع باللغة الفرنسيّة، ولم يحدث هنالك حادث، ولم يقع أيّ تكدير» محاكمة وطنيّين، مجلّة "الشهاب"، س13، ع04، 1356/04هـ، 1937/06/11، طبعة دار الغرب الإسلاميّ، بيروت– لبنان، ط1: 2001، ج13 ص229.

كهذه أبدا[...]. إنّنا نعتقد أنّ السياسة الرشيدة هي ما نحن عليه، وبالعكس لو انسحبنا مثلا، فإنّنا نتّهم بالخيانة من طرف أحزابنا، وتكون حينئذ المقاطعة الحقيقيّة من كلا الطرفين. فلسنا أبدا /بالذين يرضون بامتهان كرامتهم إلى هذا الحدّ [...]»[1].

ومن هنا ندرك مغزى قول مفدي في أحد مقالاته بجريدة "النهضة": «ولقد تكرّم حضرة الأستاذ (الوفائي) بالدفاع عن حضرة الأستاذ عبد الحميد بن باديس، وإنّه لكرم حاتميّ، وأريحية عظيمة نشكره عليها شكرا جزيلا، ونثني عليه ثناء عريضا طويلا، إلاّ أنّه لا يكتسب بهذه الأريحيّة غير الثناء، أمّا المثوبة والأجر فلا، لأنّ الكرم الحقيقيّ لا يكون إلاّ على المستحقّين، وحضرة الأستاذ غنيّ بقلمه السيّال، وبيانه الساحر، وأدبه الغضّ، عن صدقات المتصدّقين، ومبرّات المحسنين، وما كان أجدر بالأستاذ لو تناول قلمه الصريح، وجابهنا به في غير توأدة ولا هوادة، ولا شفقة ولا رحمة، هنالك نعلم مع من نتخاطب رأسا بلا واسطة، وهنالك -بالرغم ممّا نكنّه لحضرة الأستاذ الجليل من التقدير والاحترام- لا نتأخّر عن استعراض صحيفة، طالما منعنا حبّنا للأستاذ، وحسن ظنّنا في وطنيته من نشرها واستعراضها»[2].

لا نملك أدنى إشارة إلى واقعة أو حادثة معيّنة تفسّر درجة التوتّر الشديد الذي بلغته علاقة جمعية العلماء ورئيسها بمفدي زكرياء، إلاّ ما يفيده قوله: «أظهر حزبنا في هذه الأيّام حركة نشاط عظيمة، بمناسبة المؤتمر وغيره، ارتعدت لها فرائص العلماء»، وهو سبب عامّ، والخصومة تحمل طابعا شخصيّا، ترتبط بمفدي وعمله في إطار حزبه، من غير أن تتجاوزه إلى غيره؛ ولا نجد تفسيرا لها لا في سلسلة المقالات التي عرضت محاضرة مفدي بتونس، إذ انتهى صدورها بجريدة "الزهرة" يوم 06/29؛ ولا في سلسلة مقالاته ضدّ المؤتمر الإسلاميّ بجريدة "النهضة"، إذ بدأ صدورها يوم 07/24؛ ولا في البلاغ الذي تمّ توزيعه بالجزائر يوم 08/02؛ لأنّ الرسالة إنّما كتبها يوم 07/17.

وعليه، فإنّ هذه الخصومة المستحكمة تجد تفسيرها في حدّة مواجهة مفدي لجمعية العلماء، في حين كان حزبه يختار مهادنتها، لمكانتها الخاصّة في نفوس الجزائريّين، ولاحتمال كونها حليفا حقيقيّا لــ(ح.ش.ج) في مواجهة الاستعمار الفرنسيّ، إذا انفكّت من عقال المؤتمر، وإن استدعى ذلك التغاضي عن بعض أخطائها وهفواتها، مهما كان نوعها؛ بينما كان مفدي صريحا في مواجهة خصومه، يشنّع عليهم أخطاءهم، ولا يجد حرجا في التنويه بمبرّاتهم، كفعله مع موقف الشيخ ابن باديس إزاء مقترح جان سيل

1- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- حول المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ الثاني: جواب أقرب على جواب قريب، كفاكم دجلا أيّها المتنطّعون، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4422، 1356/06/04هـ، 1937/08/12م، ص05. وهذا المقال كتبه ردّا على مقال بإمضاء: الوفائي، صدر بجريدة "الزهرة"، ع9279، على ما ورد في مقال مفدي، ليوم 08/05 تقديرا.

ميلي (Jean Selles-Millie) في المؤتمر الإسلاميّ[1]، كلّ ذلك في حدود آداب المناقشة والحوار[2]. هذا الفارق بينه وبين حزبه يدلّ عليه الفارق بين كتاباته باسم الحزب وكتاباته الخاصّة عند تعرّضه فيهما لجمعية العلماء، وهو بدوره يفسّر العبارة التي استهلّ بها مقالاته ضدّ المؤتمر الإسلاميّ، حيث يقول: «تحت مسؤوليتي الأدبيّة الخاصّة، وبإمضائي الصريح، أكتب هذه الحقائق، وأعمدة "النهضة" الغرّاء فسيحة لكلّ من يريد الملاحظة»[3]، ليتحمّل مسؤولية ما جاء فيها لوحده، من غير أن يورّط فيها حزبه، إذ كان له دوره القياديّ فيه. ثمّ إنّ ثقافته العربية الإسلاميّة العميقة، ومستوى كتاباته الأدبيّة شعرا ونثرا، تجعل منه معارضا لجمعية العلماء يحسب له ألف حساب، لإمكان تأثيره في أتباعها والمتعاطفين معها من حملة هذه الثقافة، سواء في الجزائر أو خارجها، ولذلك يقول في رسالته لأستاذه في تونس: «لقد استعمل هؤلاء كلّ وسيلة لتحويل فكرة جريدة "الزهرة" إلى ناحيتهم، وتزويد ممثّلها بالمعلومات الزائفة، فأرجوكم ملاقاته هنالك، وإزالة ما عساكم أن تقدروا على إزالته»[4]؛ كما تميّز مفدي بقوّة عارضته، وباعتداده الكبير بنفسه، وبقوّة إيمانه بعدالة قضيّته، وبأسلوبه الأدبيّ الرصين، وهو ما يجعله قادرا على التحدّث -وهو الشابّ ذو التسعة والعشرين ربيعا- عن الشيخ ابن باديس -وهو من هو- معارضا له أشدّ المعارضة، من غير أن يرشح من كلامه أدنى إساءة للأدب في حقّه، فيقول في أحد مقالاته ما يلي: «ثمّ إنّنا لا نشكّ أبدا في دراية الأستاذ عبد الحميد بن باديس وخبرته، وحصافة رأيه، وتعقّله ورصانته، فهو ممّن تعلّق فيه كبير الآمال، أكثر من غيره، إلاّ أنّ هذا لا يمنعنا من انتقاده إذا أخطأ، لأنّنا وإن احترمناه وقدّمناه فليس ذلك معناه أنّنا نعتقد فيه العصمة، والكمال المطلق، فنحن لا نعبد الأشخاص أبدا، إنّما نقدّس المبادئ والأعمال، وابن آدم مجبول على الخطإ والنسيان، والمسلم مرآة أخيه، والكمال للّه وحده»[5].

1- ينظر: ص232.

2- يقول في ذلك: «أليس صحيحا أنّنا إلى الآن لم نتعلّم الكتابة، و لم نعد نفرّق بين الانتقاد النزيه الفنّيّ الذي يطلق عليه اسم «أدب»، وبين الهمز واللمز، والتعريض والسبّ، وهذه ظاهرة غريبة تكاد تكون عامّة في كتّاب الجزائر، فما من أحد ينتقد آخر إلاّ وينتهيان بعداوة، ويختمان على قطيعة، كأنّ جراحات قديمة بينهما ترجع إلى مبدإ الخليقة، ويتعذّر -غالبا- أن يصفو كدرها، وتزول الحفيظة بينهما، وتعليل ذلك أنّ الأدب لا يزال في الأمّة مائعا رجراجا، تتسلّط عليه العاطفة فتقوده، ولا يستطيع العقل أن يقف به عند حدّه» بكوشة وحلوش في الميزان، مفدي زكرياء، جريدة "الأمّة"، س03، ع121، 1356/03/06هـ، 1937/05/18م، ص02.

3- المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني وأدواره، مفدي زكرياء، الحلقة الأولى، جريدة "النهضة"، س14، ع4403، 1356/05/15هـ، 1937/07/24م، ص05.

4- رسالة مفدي زكرياء إلى أستاذه الشيخ الثميني بتونس، 1937/07/17، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- حول المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ: ملاحظة عاجلة على ملاحظة سريعة، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4410، 1356/05/22هـ، 1937/07/31م، ص05.

عقد حزب الشعب الجزائريّ تجمّعا شعبيّا، مساء يوم 1937/07/12، بقاعة سينما ديامون (Diamont)، حضره حوالي 600 شخصا[1]، «احتجّ فيه مصّالي الحاج ضدّ المؤتمر الإسلاميّ، وندّد بجوّ الحقد والحذر السائد فيه، وشنّع خاصّة على الشيوعيين تصرّفاتهم، وعلى مختلف الأحزاب المشاركة فيه مناوراتهم، بينما استثنى العلماء، وأبدى استعداده لاستقبال وفد منهم إذا أرادوا التقارب والتصالح. الخطوط العريضة لهذه المواقف أعيدت صياغتها في العدد 53 من جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ليوم 08/01، ومنه المقال الخاصّ بالمؤتمر، الذي وزّع في جميع أنحاء البلاد، في شكل ترجمة باللغة العربيّة، وزّعت مجّانا»[2].

هذه الترجمة التي تحدّثت عنها دراسة ويندر (Wender)، هي "بلاغ من حزب الشعب الجزائريّ إلى الأمّة الجزائرية الإسلاميّة"، وهو عبارة عن منشور بحجم ورقة جريدة، طبعت وجها وظهرا، بالمطبعة العربيّة. يدلّ أسلوب هذا البلاغ، ومقارنته بمقالات مفدي في الموضوع، دلالة أكيدة على أنّه من تأليف مفدي، أو على الأقلّ من ترجمته -إن صحّ كونه ترجمة- بتوسّعه المعهود في مثل هذه الترجمات.

لقد صُرّح في "البلاغ" نفسه بأنّه ترجمة لمقال من جريدة "الأمّة" رقم 53، ليوم 1937/08/01، غير أنّ الإدارة الاستعماريّة استلّت من هذا العدد من الجريدة أهمّ المقالات التي وردت فيه، وما وقفت عليه ثمانية منها، في شكل قصاصات، بما في ذلك نصّ المقترح الذي قدّمه مناضلو الحزب للمؤتمر ورفض، ولم يرد بينها ما يعتبر أصلا لـــ"البلاغ"[3]، كما أنّ الإدارة لمّا أرادت الاطّلاع على محتواه لم تذهب إلى الأصل، ولم تستعن به، وإنّما ترجمت المنشور كاملا، من اللغة العربيّة، بالرغم من طوله[4]، ثمّ إنّ المنشور وزّع لأوّل مرّة في الجزائر يوم 1937/08/02[5]، يوما واحدا بعد صدور عدد 53 من جريدة "الأمّة"؛ وبالرغم من هذه المؤشرات التي تشكّك في أمر الترجمة، إلاّ أنّنا لا نملك أن نجزم في هذا الموضوع، لعدم اطّلاعنا على العدد 53 من جريدة "الأمّة" كاملا، كما لا نملك أيضا تبريرا لهذه التعمية إن صحّ وقوعها.

---

[1]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4929، 1937/07/13، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص 01.

[2]- ينظر: نشاط حزب الشعب الجزائري في الجزائر خلال الشهور الأخيرة، القائد ويندر (Capitaine Wender)، 1937/08/17، 4I3، (CAOM)، ص03.

[3]- تنظر قصاصات مقالات العدد 53 من جريدة "الأمّة" الباريسيّة: (CAOM):

3cab80 : L’Algérie d’aujourd’hui.

3cab46 : Nouvelle perquisition.

3cab44 : 1- Grand Défilé historique .2- Un document important. 3- Résolution. 4- Le retour du Cheikh Thaalbi. 5- L’ancien oukil judiciaire. 6- Au groupe de congressistes.

[4]- تنظر: الترجمة، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من 06 صفحات.

[5]- ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5314، 1937/08/03، 4I4، (CAOM).

تكثيف نشاطات الحزب، وتوسيعها خارج عمالة الجزائر:

نما إلى علم مصّالي الحاج يوم 07/10، وهو جالس مع رفقائه بمقهى غير بعيد من المسجد الكبير، خبر استعداد حثيث من الحزب الشيوعيّ الجزائريّ لتنظيم مظاهرة يوم 14 جويلية، باسم الجبهة الشعبيّة، فقرّر في حينه مشاركة (ح.ش.ج) في هذه المظاهرة، باعتباره عضوا منخرطا في هذا التجمّع الشعبيّ، على منوال مشاركته بباريس في مظاهرتي السنتين السابقتين. حرّر مصّالي منشورا يدعو فيه المسلمين الجزائريّين للمشاركة بقوّة في هذه المظاهرة[1]، ثمّ سلّمه إلى غرّافة إبراهيم الذي أسرع عاجلا إلى "المطبعة العربية" للشيخ أبي اليقظان[2].

في اليوم الموعود، كان موكب حزب الشعب أضخم موكب في المظاهرة، بشهادة الإدارة الاستعماريّة[3]، وقد اختار الحزب أن يكون موكبه في ذيلها، منفصلا عنها، ليتّضح أكثر للعيان؛ وقد حاول الشيوعيّون حين تشكيل المواكب في ساحة شون دي مانوفر(Champs des Manoeuvres) منعه بكلّ وسيلة، غير أنّهم سرعان ما تراجعوا عندما رأوا قوّة الحزب، عددا وصرامة في التنظيم والانضباط. كان يحدو الموكب علم الحزب بلونه الأخضر، يتوسّطه نجمة وهلال أبيضان[4]؛ ويتقدّمه زعيم الحزب: مصّالي الحاج، برفقة رئيس الحركة بالجزائر، مفدي زكرياء[5]، وسط آلاف من المتظاهرين، رجالا ونساء وأطفالا، رافعين طوال مسيرتهم قبضة اليد اليمنى

1- ينظر: المنشور: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4937، 1937/07/14، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، بالمطبعة العربية، باللغة الفرنسيّة، وثيقة من صفحة واحدة. وقد ذكر في التقرير أنّ هذا المنشور وزّع بالجزائر مساء البارحة، أي: مساء يوم 07/13.

2- ينظر: مذكرات مصّالي حاج259، 260؛ ومصّالي الحاج رائد الوطنية الجزائرية169.

3- يقول المحافظ: «يجب علاوة على ما سبق، تسجيل أهمّيّة إسهام الأهالي في المظاهرة، كان يقودهم مصّالي» رسالته إلى الوالي العامّ، 1937/07/15، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02. وذكر الوالي العام في رسالته إلى وزير الداخلية الفرنسيّ، بأنّ عدد المتظاهرين بلغ عند انتهائها 10.000 متظاهر، منهم 4.000 متظاهر من الأهالي؛ ينظر: الرسالة، 1937/07/16، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. أمّا مفدي زكرياء فقد ذكر أنّ عدد المشاركين في موكب الحزب يزيد على 20.000 متظاهرا، منهم 4.000 من الأولاد المشرّدين المشتغلين بمسح الأحذية والحمولة، و300 إمرأة؛ ينظر: عيد الحريّة بالجزائر، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4409، 1356/05/21هـ، 1937/07/30م، ص05. ونفس عدد المتظاهرين 20.000 ذكره مقال "الأمّة"؛ ينظر: مظاهرة تاريخيّة عظيمة، قصاصة المقال من العدد 53، من جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ليوم 1937/08/01، 3cab44، (CAOM).

4- ولا يصحّ ما ذكره مصّالي الحاج في مذكراته من أنّ العلم آنذاك هو العلم الوطنيّ الحالي بألوانه الثلاثة؛ ينظر: مذكرات مصّالي الحاج260. وتابعه في ذلك بنجامين سطورا (Benjamin Storra)، لينتهي إلى القول: «كم من جزائريّ اليوم يعرف أنّ العلم الوطنيّ حضّرته السيدة حرم مصّالي بتلمسان؟» مصّالي الحاج رائد الوطنية الجزائرية170. بينما لم تتحدّث عن هذا العلم لا مقالات الحزب نفسه، بما في ذلك مقالات مفدي، ولا تقارير الإدارة الاستعماريّة، كما لا تشهد الصورة نفسها بذلك، والعلم الذي رفع آنذاك هو علم (ح.ش.ج)، و(ن.ش.إ) قبله؛ ينظر على سبيل المثال: ص213 ها02.

5- هذا الوصف لمفدي زكرياء نجده خاصّة في وثيقتي الإدارة الاستعماريّة.

وسبابتها إلى السماء؛ ويحمل الموكب لافتات كتب عليها "حزب الشعب الجزائريّ"، و"أحباب الأمّة"، بالإضافة إلى بعض شعارات الحزب؛ وكان يراوح بين إنشاد مقاطع النشيد الوطنيّ للحزب، والهتاف بشعاراته، كلّما مرّ بمبنى حكوميّ له علاقة بهذا الشعار أو ذاك؛ كلّ ذلك جسّدته صورة المظاهرة التي طرّزت بها جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ليوم 08/01، مقالا بعنوان "مظاهرة تاريخيّة عظيمة"[1]؛ وعندما بلغ الموكب بلاس دي قوفارنمو (Place Du Gouvernement)، رفع مصّالي الحاج على الأكتاف ليخطب في الجموع المحتشدة بالساحة، وامتدّت إلى سكوار برسون (Square Bresson)، وفي ختام خطابه دعا المتظاهرين إلى التفرّق في هدوء وسكينة ونظام[2].

يقول مفدي زكرياء متحدّثا عن هذه المظاهرة: «تحرّكت المواكب، فتحرّك موكب "حزب الشعب"، في روعة وجلال ووقار، وانطلق صارخا في الفضاء، بنشيده الوطنيّ الخالد، مردّدا:

فـــداء الجـــزائـــر روحي ومـــالي، ألا فـــي ســـبـــيـــل الـــحـــريّـــة.

ومعيدا عشرات المرّات، في نشوة الفخور الواثق بنفسه، المعتزّ بإيمانه:

فلسنـــا نـــرضـــى الامـــتـــزاجـــا، ولســـنـــا نـــرضـــى التجنـــيســـا
رضينـــا بـــالإســـلام تـــاجـــا، كفى الـــجـــهّـــال تـــدنـــيـــســـا
فكـــلّ مـــن يـــغـــي اعـــوجاجـــا رجـــمـــنـــاه كـــإبـــلـــيـــســـا.

فكنت تسمع البناءات الشاهقة تتجاوب أصداؤها مع صوت تلك الجموع الجرّارة، المتدفّقة كالسيل العرم، يحدوها الإخلاص والإيمان، ويدفعها العزم الصادق، ويذكيها دم التضحية والفداء.

وإذا قلنا: إنّ الجزائر لم تشاهد في تاريخ حياتها منظرا كهذا أبدا، إلاّ في عهد "حزب الشعب"، فنحن نفتخر بهذا القول، ونباهي "بحزب الشعب" الذي نفخ في بوق الوطنيّة نفخته الأولى، فلبّته الأرواح والمهج، وافتدته الجوارح والنفوس، ولقد كنّا نشاهد قبل اليوم بالجزائر جموعا كهذه، ولكن للأحزاب الأجنبيّة من شيوعيّين وفاشيست، أين كان المسلمون ينادون معهم: «السوفييت في كلّ مكان»، أو يترنّمون معهم النشيد الذي يقول: «ني ديو ني سيزار: لا إله، ولا إسكندر». أمّا اليوم فإنّ "حزب الشعب" علّم أبناء الشعب أن لا يتّكلوا إلاّ على أنفسهم، وأن لا يعملوا إلاّ في مجموعتهم، وأن لا يترنّموا إلاّ بنشيدهم، وأن لا يشيدوا إلاّ بوطنيّتهم، وأن لا يطالبوا إلاّ بتحرير بلادهم، ولذلك فأنت تسمع هذه الجموع تنادي، وهي تخترق الأنهج الجزائريّة الكبرى:

---

[1]- ينظر: مظاهرة تاريخيّة عظيمة، قصاصة المقال من العدد 53، من جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ليوم 1937/08/01، 3cab44، (CAOM).

[2]- تنظر وقائع هذه المظاهرة على اختلاف الرواية بين مصدر وآخر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، 1937/07/15، 9h47، (CAOM)؛ ورسالة الوالي العام إلى وزير الداخلية الفرنسيّ، 1937/07/16، 3cab44، (CAOM)؛ وعيد الحرّيّة بالجزائر، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4409، 1356/05/21هـــ، 1937/07/30م، ص05؛ ومظاهرة تاريخيّة عظيمة، قصاصة المقال من العدد 53، من جريدة "الأمّة"، ليوم 1937/08/01، 3cab44، (CAOM)؛ ومذكرات مصّالي الحاج260، 261؛ ومصّالي الحاج رائد الوطنية الجزائرية169-171.

احترموا الاسلام! اجعلوا العربيّة رسميّة بالبلاد! أرجعوا الأوقاف والأحباس! حرّروا المساجد! أعطونا المدارس العربيّة! مكّنوا الفلاّحين في الأرض! ليسقط قانون الأندجينا! نريد برلمانا جزائريا! ليسقط مشروع فيوليت وسياسة الاندماج! الإسلام ديننا، الجزائر بلادنا، العربية لغتنا! خلقنا أحرارا يجب أن نعيش أحرارا!»[1].

تحدّث مفدي في مقال لاحق عن صدى هذه المظاهرة، فقال: «كانت هذه المظاهرات مبعثا للرعب والهلع من جديد، في الدوائر الرسمية، والأحزاب المضادّة، والشغل الشاغل لأفكار الساسة بهذه البلاد، وبفرنسا. ولقد رأينا غداة المظاهرات أعمدة الجرائد الفاشيستيّة تنذر بالويل والثبور، وتهدّد فرنسا بشرّ مستطير، حتى إنّ جريدة "لادبيش ألجريان" ذكرت أنّ الوطنيّين الذين يرفعون أصابعهم إلى السماء إنّما يقصدون بذلك أنّ الجزائر للجزائريّين، فعلى فرنسا أن تسرع بشدّ حقائبها، وأن تأخذ سبيلها في البحر؛ وجريدة "ليكو دالجي" تقول: «يجب على فرنسا قبل أن تهتمّ بالخطر الشيوعيّ أن تتّخذ ألف حساب لحركة الوطنيّين، التي أصبحت تزداد قوّة يوما فيوما، وتتقدّم باطّراد، وبسرعة مدهشة»؛ وعلى هذا الوتر ضربت الصحافة الارتجاعيّة، وغير الارتجاعيّة، وحتّى صحافة أقصى أحزاب الشمال، ممّا جعل الدوائر المحليّة الحكوميّة هنا تضرب أخماسها في أسداسها، وتجمع أمرها، حتّى تمخّضت ليلة 16 من هذا الشهر بمولود جديد، وهو التفتيش العامّ للمحلاّت الوطنيّة»[2].

ويروي مفدي حادثة التفتيش في العبارات الآتية: «إنّ ليلة 16 من شهر جويلية كانت ليلة هول بعاصمة الجزائر، فما كادت تصل الساعة الثامنة مساء حتّى فوجئنا، ونحن مجتمعون بنادي حزب الشعب بقوّة من الجندرمة والبوليس، تحاصر النادي من جميع جهاته، وقوّة أخرى تخترق النادي شاهرة مسدّساتها إلى السماء، وكان هؤلاء الجنود البواسل ينادون: «ارفعوا أيديكم جميعا، وإلاّ أطلقنا الرصاص»، وكانوا يظنّون وجود مقاومة ومصادمة من الوطنيّين، ولشَدَّ ما أصابهم من الاندهاش حينما وجدوا أنفسهم أمام قوم ثابتين، يبتسمون أمام شراسة البوليس، ويرفعون أيديهم مطمئنين آمنين، عابثين ساخرين، فأجرى الكوميسار وقاضي التحقيق عملية

1- عيد الحرّية بالجزائر، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، ع4409، ص05. ويقول القائد ويندر (Wender): «ومهما كان فإنّ المجموعة المتلاحمة والمنظّمة لـــ 3.000 أهليّ، المصطفّين خلف العلم الأخضر لـــ (ح.ش.ج) أثّر في الجماهير المسلمة، خاصّة وأنّه كان في ذيل المظاهرة، ومنفصلا عن الموكب الذي يمثّل ثلثه تقريبا، ولأنّهم طيلة المسيرة كانوا جميعهم يهتفون بقوّة بشعاراتهم المختلفة، رافعين اليد اليمنى وسبابتها» ينظر: نشاط حزب الشعب الجزائري في الجزائر خلال الشهور الأخيرة، 1937/08/17، 4I3، (CAOM)، ص03، 04.

2- على هامش عيد الحرّية بالجزائر: تعاليق وشروح، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4412، 1356/05/24هـــ، 1937/08/02م، ص05؛ وتحدّث في هذا المقال أيضا عن موقف أصحاب نادي الترقّي، فقال: «وقبل أن نطوى بساط هذه التعاليق على المظاهرة، يجدر بنا أن نذكر مع كثير من الأسف والحسرة والامتعاض أنّ رجال نادي الترقّي كانوا يطلّون من ناديهم على ساحة الولاية العامّة، صفوفا على النوافذ، ولقد صفّقوا لجميع المواكب التي مرّت أمامهم، حتّى المواكب الارتجاعية، و لم يتحرّكوا لموكب الشعب الذي كان يضمّ عشرين ألفا من إخوانهم العرب المسلمين، الذين كانوا يرعدون بالنشيد الوطني الجزائريّ العربيّ، وما هي بأول قارورة كسرت في الجزائر، على يد أصحاب النادي، فلنضمّها إلى أخواتها، وإنّنا نعتقد أنّ يوما ليس ببعيد سيأتي، يتفطّن فيه القوم إلى عدوّهم الحقيقيّ، وإلى الله تصير الأمور»؛ وتنظر نفس الملاحظة عليهم: مظاهرة تاريخيّة عظيمة، قصاصة المقال من العدد 53، من جريدة "الأمّة"، ليوم 1937/08/01، 3cab44، (CAOM).

التفتيش، وكانت هذه المرّة شديدة ودقيقة، حيث كانت تتناول حتّى تفتيش الجدران، وقلع البلاط. وبعد شدّ الحقائب، والختم عليها، قبض على رجلين: مصّالي الحاج، ومفدي زكرياء، و[سيقا] إلى محلاّهما الخاصّة، لإجراء الواجب[1]، وما كاد الرجلان [يضعان] أوّل قدم بالشارع حتّى كانت الأبهج تعجّ، وتغصّ بآلاف الوطنيّين المتظاهرين في صمت وهدوء وسكينة ووقار، ولّما وصلوا إلى نزل الزعيم مصّالي صعدوا معه، وأجروا عملية التفتيش، وبينما هم كذلك إذ أقبل عليهم بوليس، يقول لهم: «إنّ ساحة الولاية العامّة، وما يليها من الشوارع محاصرة بآلاف من الوطنيّين المتحمّسين، ويخشى الاصطدام بهم، ووقوع ما لا تحمد عقباه، لو نزلتم من هنا، واخترقتم صفوفهم»؛ وهنا لم يسع مدير المحافظة إلاّ أن اضطرّ، فطلب من الزعيم مصّالي أن يرافقه إلى الشارع، وأن يخطب على الأمّة، ويهدئ الخواطر، ويفرّق تلك الجموع، فلمّا همّ الزعيم بالنزول معه، بادره أيضا بقوله: «لا تنـــزل معنا، بل تأخّر عنّا خمس دقائق، إذ ربّما يراكم الشعب نازلا معنا، فيظنّ أنّنا ألقينا عليكم القبض، فيسوء تصرّفه معنا»، وفعلا نزل المدير ومن معه، ووقف بباب المحلّ حتّى نزل الزعيم، فألقى خطبة على الشعب المتحمّس، أمره فيها بملازمة الهدوء والنظام، وبالذهاب لحال سبيله، شاكرا له عواطفه والتفافه وحيويّته، معاهدا إيّاه على مواصلة الجهاد، رغم النكبات والاضطهاد، معلنا له أنّ هذا التفتيش عنوان للشرف، ويجب أن يتّخذ الوطنيّون هذه الليلة عيدا مملوء بالأنس والبشائر والتهاني، وختم خطابه بهذه الكلمة الخالدة: «فليضرب الاستعمار ما شاء فوق رؤوسنا، وليشدّد الضربات، فإنّ رؤوسنا صلبة قاسية، هيهات أن تتحطّم أو تنكسر»[2].

وعوض أن تتفرّق تلك الجموع، أجابت زعيمها بالهتاف والنشيد، وتحت إشارة خفيّة، ذهبت للمظاهرة ثانيا أمام محلّ مفدي زكرياء، الذي كان محاصرا أيضا بقوّة السلاح. وفي محلّ مفدي زكرياء حجزوا كلّ ما يسمّى ورقة، أو كتابا، حتّى المصاحف القرآنيّة، حتّى بلغ مجموع ما حجزوه ستّة قناطر، أوتي بسيارة خاصّة

1- ذكر مدير الأمن لعمالة الجزائر، في تقريره ليوم 07/17، أنّ هذه التفتيشات كانت بأمر من السيّد رمبير (Rambert)، قاضي التحقيق لدى المحكمة الابتدائية بالجزائر، في إطار التحقيق في دعوى ضدّ مجهول، متّهم بإعادة إنشاء جمعية منحلّة (E.N.A)، وتمّت ابتداء من سا 19 و45د، وفي نفس التوقيت، في ثلاثة محالّ مختلفة: في مقرّ (ح.ش.ج)، 02 شارع دي ليبان (Du Liban)، وفي غرفة مصّالي الحاج بنزل بالي ديفار (Palais d'Hiver)، وفي منزل مفدي زكرياء، 14 شارع بوتان (Boutin)، حجز من وثائق الحزب في مقرّه حمل حقيبتين، والعديد من الوثائق من غرفة مصّالي، وستّة أكياس من منزل مفدي تضمّ أوراقا مختلفة، وجرائد، ومناشير؛ وانتهت التفتيشات على سا 21 و15د؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4988، 1937/07/17، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- يقول التقرير: «يجب أن أضيف أنّ العمليات التي تمّت بغرفة مصّالي [...] اجتذبت أمام نزل بالي ديفار ما يقرب من 500 أهليّ، من مناضلي (ح.ش.ج)، وكانوا يتحاورون بشيء من الحدّة. وعندما انتهت العمليات دعا مصّالي –الذي كان سلوكه أكثر من سليم– بنفسه أصدقاءه إلى التفرّق، فأطاعوه بعد أن حيّوه برفع اليد، وتوجيه السبابة إلى السماء» ينظر: نفسه.

لحملها، وعلى إثر ذلك تفرّقت الجموع، وتمّت المظاهرة في هدوء ونظام، والقضية رهن البحث، ولسنا ندري، ولا المنجّم يدري ماذا تكون نتائجها»[1].

عقد حزب الشعب الجزائري صباح يوم الأحد 07/25، تجمّعا شعبيّا حضره زهاء 700 جزائريّ، بسينما لا بارل (La Perle): ترأس هذه التجمّع مفدي زكرياء، وكان مساعداه فيه هما: مصطول محمد، وموساوي رابح. أعلن مفدي في افتتاح التجمّع بأنّ الهدف منه هو الردّ على هجومات المهيّجين للفتنة والمشوّشين، داعيا لهم إلى المثول أمام "محكمة الشعب" لسماع أقوالهم، عوض الانتقاد في الظلّ؛ وقد ردّ في تدخّله هذا على مختلف المتدخّلين في تجمّع "شبيبة المؤتمر"، يوم 22 الجاري، وخاصّة منهم الأمين العموديّ[2]؛ وقد ركّزت تدخّلات لحول ومصّالي وموساوي على الموضوع نفسه؛ وفي ختامه دعا مفدي الحضور إلى التصويت على مقترح مشاركة جمعية "الشبّان المسلمين" التونسيّة وجدانيّا، في اجتماعهم برئاسة الزعيم الوطنيّ، الشيخ الثعالبيّ[3]. غير أنّ تقريرا صادرا عن المحافظة المركزيّة للشرطة بالجزائر تحدّث عن مضمون لتدخّلات المتدخّلين في التجمّع مختلف اختلافا بيّنا عمّا ورد في التقرير السابق، بناء على تقرير محافظ المداومة سبيتيري (Spiteri)، فقد ذكر في تقريره أنّ مفدي قدّم عرضا عن سياسة الحزب في خطوطها العامّة، ثمّ طالب السلطات العمومية باستقلال الشعب المسلم، وتابعه في تناول ذات الموضوع من جاء بعده: مصّالي وموساوي[4].

وفي يوم 07/27 كان الموعد مع قاضي التحقيق رمبير (Rambert)، تبعا لعمليات التفتيش التي تمّت يوم 17 من الشهر الجاري، وفي ذلك يقول مفدي: «أمس يوم 27 جويلية على الساعة الثالثة ونصف مساء، توجّه الزعيم مصّالي الحاج صحبة عشرين وطنيّا، باستدعاء من لدن قاضي التحقيق (رامبير)، الحجرة رقم 02، لإتمام عملية التفتيش والاستنطاق، وفي أثناء ذلك امتلأ نهج قسنطينة ونواحيه، وغصّت ساحة قصر العدالة الفرنسويّة بالمتظاهرين، حتى وقع الاستنجاد بالعساكر «كالعادة...»، فأخرجوا من قصر العدالة جميع الناس، وتولّوا تفريق المتظاهرين بشتّى وسائل الشراسة والإرهاب، وما نزل هؤلاء الوطنيّون من عند قاضي التحقيق حتّى امتلأت الشوارع من جديد، ورفع الزعيم على الأكتاف، وسير به في هتاف ونشيد إلى محلّه، ولم يقع أيّ حادث، كما

1- على هامش عيد الحرّية بالجزائر: تعاليق وشروح، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، ع4412، ص05؛ وينظر: تفتيشات جديدة، قصاصة المقال من العدد 53، من جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ليوم 1937/08/01، 3cab46، (CAOM).

2- وهو ما يطابق ما ورد في المنشور الداعي إلى حضور هذا التجمّع، فهو نفس الموضوع الذي سجّل فيه، ومنه: «السيّد العموديّ مدعوّ للإبانة عن آرائه على منصّة الشعب»؛ ينظر: المنشور، 413، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5180، 1937/07/26، موضوعه: بخصوص تجمّع حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. وقد سبق الحديث عن هذا المقترح وحيثياته؛ ينظر: ص218-220.

4- ينظر: تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة إلى المحافظ، رقم: R.S 768، 1937/07/26، 414، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وقد ذكر فيه بأنّ هذا التجمّع كان يوم 07/26، وهو خطأ صريح.

هي العادة في جميع المظاهرات المنظّمة التي يقوم بها الوطنيّون المتشبّعون بالطاعة والانقياد. والتّهمة الموجّهة ضدّ الوطنيّين منحصرة في كونهم، جدّدوا حزبا وقع حلّه رسميّا»[1]؛ غير أنّ رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، بتاريخ 1937/08/05، ترجع الواقعة إلى حجمها الطبيعيّ، إذ يتحدّث عن 200 أهليّ اجتاحوا قصر العدالة، استجابة لنداء مسؤولي (ح.ش.ج)، للتظاهر لصالح رئيس الحزب مصّالي الحاج، الذي استدعاه في ذلك اليوم قاضي التحقيق بالغرفة الثانية، للتحقيق معه في قضية إعادة تشكيل حزب منحلّ[2].

وتحدّث مفدي في مقال موال عن تجمّع عقده الحزب الشيوعيّ، بسينما أوديون (Odéon)[3]، تناول فيه الكلمة وزقان، «فقال ما نصّه بالحرف الواحد: «تعلمون من هم أعداء الشيوعية، هم: أوّلا: (دولاروك)، و(فرانكو)، والفاشيست؛ وثانيا: الوطنيّون أتباع مصّالي الحاج. إنّ مصّالي الحاج شخصية مخطرة على الوحدة الأوروبيّة الأهلية، وهو مأجور من لدن موسوليني وهيتلر، وهو قبل كلّ هذا وبعده عدوّ لفرنسا (تأمّل!)، وهو عدوّ للمؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ، الذي ساهم فيه حزبنا بأوفر نصيب (هكذا!)، وبجانب مصّالي توجد شخصية أخرى أشدّ خطرا، وهو مفدي زكرياء، ذلك الخصم اللّدود لحزبنا الشيوعي، والذي لا يزال يوالي حملاته ضدّنا، وضدّ أحبابنا العلماء، ولا يزال يهيّج بني عمّه الميزابيّين للتمرّد ضدّ فرنسا (تأمّل!)، فهو متّفق مع ابن جلول لتهديم المؤتمر، ومحاربة رجاله. إنّ الحزب الشيوعي اليوم قد تمركز سواء بالقوّة، التي له بالبرلمان الفرنسوي، وسواء بما أحرز عليه من تأييد الذوات البارزة هنا بالجزائر، مثل العلماء الذين يتّفقون معنا في سياستنا، ويجاهدون في صفّنا على مشروع فيوليت، الذي أصبح قبلة آمال المسلمين الجزائرّيين؛ وبتونس أيضا، مثل الزعيم الكبير، الشيخ الثعالبيّ، الذي صرّح لمدير جريدة "الطليعة" بأنّه متّفق تمام الاتّفاق مع الحزب الشيوعيّ، ومؤيّد لسياسته على خطّ مستقيم إلخ». وما وصل الخطيب إلى هذا الكلام حتّى علت أصوات المسلمين الحاضرين باللعنة على (وزقان)، الذي افترى أوّلا على بعض العلماء، وما كفاه ذلك حتّى أراد أن يتناول أعظم شخصية بشمال إفريقيا، الشيخ الثعالبي، ويجعل منها سلّما لدعايات حزبه [...] ولقد طلب أحد الوطنيّين أن يتكلّم، ليردّ على المفتري، ويبيّن

---

[1]- على هامش عيد الحريّة بالجزائر: تعاليق وشروح، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، ع4412، ص05.

[2]- ينظر: الرسالة، رقم: 16.636، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة، وحدّد الوكيل تاريخ هذه الحادثة يوم 07/28، وهو خطأ صريح؛ وينظر: تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة إلى المحافظ، بناء على تقرير لمحافظ شرطة الدائرة العاشرة بالجزائر، سبيتيري (Spiteri)، رقم: 794 R.S[كذا]، 1937/07/27، 414، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة، وعلى خلاف سابقه لم يحدّد التقرير هوية الشخص الذي استدعاه قاضي التحقيق رمبير (Rambert)، وقدّر عدد المتظاهرين داخل قصر العدالة وخارجها ما بين 100 و120 متظاهرا، ولم يشر إلى وجود رئيس الحزب بين المتظاهرين، وعندما خرج المناضل المعني بالتحقيق من المحكمة ركب في سيارة، وانطلقت بسرعة.

[3]- ذكر مفدي في مقاله أنّ هذا التجمّع انعقد يوم 07/28، وذكر تقرير الإدارة أنّه تمّ مساء يوم 07/29؛ ينظر: تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة إلى المحافظ، بناء على تقرير لمحافظ شرطة الدائرة الثالثة بالجزائر، ميلر (Muller)، رقم: 793 R.S، 1937/07/29، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

للمسلمين حقيقة الشيخ الثعالبيّ، فمنعوه، وتحت وابل من اللعنات أجبر الوطنيون هؤلاء الشيوعيّين على الانسحاب من مكان الاجتماع حالا، وإخلاء منصّة الخطابة، ولولا تدخّل البوليس لاحتلّ الوطنيون المنصّة، وحوّلوا المكان إلى اجتماع وطني، ولكن بعد أن رأى الوطنيون تدخّل البوليس اكتفوا بما أحرزوا عليه من النصر، محتفظين بما اتّصفوا به من التعقّل والرصانة والنظام»[1].

كانت هذه الأجواء السائدة بالجزائر منذ عودة مصّالي الحاج من باريس يوم 1937/06/20، نشاط يوميّ تقريبا، دائب ومتزايد باستمرار[2]، فلا يترك الحزب فرصة تسنح إلاّ ووظّفها لصالح قضيّته، ويوسّع مجال نشاطه إلى مختلف مناحي الحياة الاجتماعية بالجزائر[3]، حتّى أصبح حزب الشعب الجزائريّ حديث جميع الأوساط، بين مؤيّدين له، ومعارضين. وكان مفدي يشارك في هذه النشاطات صغيرها وكبيرها على السواء، فنجد تقريرا يتحدّث عمّا لاحظه أحد رجال الأمن يوم 07/28 على سا 19 و45د، فقد شاهد مجموعة متكوّنة من 70 إلى 80 أهليّ آتية من بلاس دي قوفارنمو، وتنزل شارع لا مارين (Rue de la Marine)، وهم يتظاهرون: الجميع كان يرفع أصبعا إلى السماء، ويردّد شعارات، منها خاصّة: "احترموا الإسلام". توقّفت المجموعة أمام "مقهى مور دي فرار"(Café Maure des Frères)، فصفّق لهم روّاد المقهى، وكانوا في حدود الخمسين رجلا، ثمّ ذهب الجميع إلى قاعة الاجتماعات، الكائنة بشارع دي ليبان (Du Liban)، وقد لوحظ خارج القاعة رسم للهلال والنجمة، بالإضافة إلى لافتة مكتوب عليها "حزب الشعب الجزائريّ"، وعندما أحسّت المجموعة المتكوّنة من شباب، وعمّال النقل لشركتي (T.A)، و(C.F.R.A) بالرقابة افترقوا، وقد تمّ التعرّف على زكرياء ومصطول[4].

1- أخبار الجزائر: الشيوعيّة تتجرّأ على مقام الشيخ الثعالبيّ وتحوّل كلامه لفائدة دعاياتها، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4413، 1356/05/25هـ، 1937/08/03م، ص05. أمّا تقرير الإدارة الآنف الذكر، فتحدّث عن جلبة وقعت بالقاعة، غادر بعدها مناضلو (ح.ش.ج) القاعة، عندما صرّح وزقان بأنّ «الحزب الوطني لمصّالي يريد أن يعزل الفرنسيّين في هذا الوطن»، وبعد خروج الوطنيّين، واستتبّ الهدوء واصل وزقان كلمته داعيا إلى مواصلة الكفاح بمعية المؤتمر الإسلاميّ والجبهة الشعبيّة ضدّ الفاشيست والمصّاليّين.

2- من ذلك تنبيه مدير الأمن لعمالة الجزائر في تقرير له بتاريخ 07/26 إلى وقوع تجمّعات مساء كلّ يوم ابتداء من سا 17، في بلاس دي قوفارنمو (Place du Gouvernement)، وتضمّ متعاطفين من "شبيبة المؤتمر"، ومناضلين من (ح.ش.ج)، تدور نقاشات حادّة بين الطرفين، تصل عادة إلى التهديد المتبادل، وعليه طالب السلطات بوضع حدّ لمثل هذه التجمّعات؛ ينظر: التقرير، رقم: 5181، موضوعه: السياسة الأهليّة، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- تحدّث تقرير عن زواج ولد عيسى بلقاسم، رئيس الوحدة الأدبية الإسلاميّة لمستغانم، 1937/06/24، حضره من الجزائر: بن منصور عبد الرحمن، كاتب "أحباب الأمّة"؛ وبلجلاي (Beldjelai) ميلود، الكاتب الشخصيّ لمفدي زكرياء؛ أغلبية الحاضرين كانوا يلبسون ربطات عنق خضراء، في وسطها نجمة وهلال. ينظر: التقرير، من (CIE) الجزائر –على الأرجح–، 1937/07/13، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ينظر: تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهليّة والشرطة العامّة، بناء على تقرير ضابط الأمن (Officier de Paix)، موني (Munet)، رقم: 795 R.S، 1937/07/29، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

لقد كان أثر حزب الشعب الجزائريّ كبيرا في الطبقة العماليّة، وفي الشباب بصفة خاصّة، فكان يكتسح معارضيه، وينتزع منهم مناضليهم، فقد ورد في ختام تقرير محافظ شرطة الدائرة الأولى بالجزائر ما يلي: «يقوم الشيخ الطيّب العقبيّ بدعاية حثيثة لصالح الشيوعيّين، ونادي الترقّي هو مكان اللقاء، وحاليا العلماء والشيوعيّون يشكّلون جبهة واحدة. ورغم ذلك ففقد بلغني تسجيل 150 استقالة تقريبا من المؤتمر الإسلاميّ، بعد "إخفاق" يوم 11 الجاري»[1].

ويقول المحافظ في مدوّنة موجّهة إلى الوالي العامّ، في جويلية 1937، ما يلي: «يبدو أنّ (ح.ش.ج) ينال حظوة وأهمية كبيرة، تزداد يوما عن يوم، منذ رجوع مصّالي من فرنسا، وعدد المنخرطين مستمرّ في الارتفاع بوتيرة جدّ سريعة»[2]، ويزيد المحافظ الموضوع توضيحا وتحديدا في مدوّنة ثانية، بتاريخ 07/15، حيث يقول: «نقدّر عدد المنخرطين في صفوف حزب الشعب الجزائريّ بنحو 8.000 منخرطا، في الجزائر وضواحيها (ميزون كاري (Maison-Carrée)– حسين داي – القبّة – لو رويسو (Le Ruisseau)– سانت أوجين (Saint-Eugène) – الأبيار). منذ الانتخابات البلدية الأهلية الأخيرة، شهد هذا الحزب تسجيلات عديدة في صفوفه، فيكون قد وقع تسجيل 700 انخراط في يوم واحد. في يوم 07/12 عقد مصّالي تجمّعا في سينما ديامون (Diamont)، جمع ما يقارب 2.000 شخصا. إنّ حركته تشهد مضاعفة في نشاطاتها منذ أيّام، ويبدو أنّه يحرز نجاحات كثيرة»[3].

ولا أدلّ على نشاط الحزب المكثّف وانتشاره الواسع في عمالة الجزائر وضواحيها، ممّا سجّله القائد ويندر (Wender) في دراسته "نشاط حزب الشعب الجزائري في الجزائر خلال الشهور الأخيرة"، إذ يقول: «إنّ العمل الصبور والمنهجيّ لتنظيم الحزب قد بدأ يعطي ثماره، ومنه نرى مصّالي ينتقل للإقامة في مسكن خاصّ به[4]،

1– ينظر: تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة إلى مدير الأمن العامّ لعمالة الجزائر، بناء على تقرير لمحافظ شرطة الدائرة الأولى بالجزائر، ميلر (Muller)، رقم: 777 R.S، 1937/07/26، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2– ينظر: المدوّنة، وقد سجّل التاريخ بخطّ اليد، تتناول الوضعية السياسية الأهليّة في الجزائر في الأيّام العشرين الأخيرة، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من 08 صفحات، ص01.

3– ينظر: مدوّنة إلى الوالي العامّ، وقد سجّل التاريخ ووجهتها بخطّ اليد، موضوعها: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4– انتقل مؤقّتا إلى مسكن في 30 شارع ديكان (Duquesne)، يوم 08/04، وكانت زوجته وولده معه آنذاك؛ وفي يوم 08/15 ذهب مع محمد مصطول إلى 05 شارع مونبونسيي (Monpenstier) حيث اكترى مسكنا جديدا، وفي نهاية اليوم عاد إليه؛ وفي الغد من ذلك انتقل إلى مسكن جديد آخر في 15 شارع فرانسوا فيون (François Villon)، ميزون رومانو (Maison Romano)؛ وفي يوم 17 غاب عن أنظار المراقبين طيلة اليوم لانشغاله بتهيئة مسكنه الجديد.. ينظر: تقارير المحافظ المركزي للشرطة إلى الكاتب العام للقضايا الأهليّة والشرطة العامة، والخاصّة بمراقبة مصّالي الحاج أيام 04 و15 و[16] و17، 08/17، أرقام: 822 R.S، و873 R.S، و878 R.S، و882 R.S، في 05 و16 و17 و[18]/1937/08، 2I37، (CAOM)، 04 وثائق من صفحة واحدة؛ وتقريرا نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5366 و5709، في 04 و1937/08/18، موضوعاهما: الأوّل: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، والثاني: بخصوص مصّالي الحاج، 3cab44 و4I4، (CAOM)، وثيقتان من صفحة واحدة.

وتلتحق به زوجته وابنه اللذين كانا مقيمين بتلمسان منذ وصوله، في حين تمّت تهيئة مقرّ جديد للحزب، 26 شارع ديكان (Duquesne)، بعد تبيّن ضيق المقرّ السابق»[1].

فلم يبق للحزب سوى أن يبسط نفوذه خارج عمالة الجزائر، فتوجّه إلى وهران ليعقد به تجمّعا يوم 07/31[2]، وكان الهدف منه –غير ما سبق ذكره- مواجهة الحزب الشيوعيّ في أحد معاقله الكبرى بالجزائر، وإبراز قوّة الحزب التنظيميّة، وقد خصّص مفدي زكرياء لهذا التجمّع مقالا من حلقتين، بعنوان "الوطنية تغزو مدينة وهران"، وممّا جاء فيه:

«إنّ مدينة وهران العظيمة كانت ولا تزال أبدا ميدانا للمناورات السياسية بين الأحزاب الفرنسوية، ولقد سقطت منذ بضعة أشهر كغنيمة سائغة بيد الشيوعيّين [...] كان هذا الخطر الشيوعيّ الأحمر يتقدّم في وهران يوما فيوما، ويثبت جذوره في أوساطها الشقيّة البائسة، حتّى قيّض الله له رجالا ذوي غيرة في الدين، وإخلاص في الوطنية، وتضحية في سبيل الله، وهم رجال حزب الشعب الجزائري الكريم، فنفروا إليه من كلّ حدب، وزحفوا عليه زحفة الحقّ على الباطل، والنور على الظلام، فاجتثّوا جذوره، واقتلعوا عروقه، فبُدّلت الأرض غير الأرض، وتوجّه القوم إلى قبلة الوطنية الصحيحة، معرضين عن أصنام (ستالين)، ﴿وعنت الوجوه للحيّ القيّوم وقد خاب من حمل ظلما﴾[3]. إنّ رجال حزب الشعب بعدما أتمّوا فتوحاتهم الوطنية بمدينة الجزائر، وحواليها، وتمّت لهم الانتصارات الباهرة بمدينة مستغانم التاريخية، وبمدينة تلمسان، عاصمة بني زيان، واكتسحوا ما بهاتين المدينتين

---

[1]- ينظر: نشاط حزب الشعب الجزائري في الجزائر خلال الشهور الأخيرة، القائد ويندر (Capitaine Wender)، 1937/08/17، 4I3، (CAOM)، ص05. أمّا فيما يخصّ المقرّ الجديد: نجد في تقرير يوم 08/02 صاحب مقهى قريب من المقرّ القديم يقرّر إغلاق محلّه لأيام في انتظار انتقال الحزب إلى مقرّه الجديد في شارع دي تروا كولور (Des Trois Couleurs)، وراء محلات بوتي ديك (Petit Duc)، وفي يوم 08/04 يتحدّث نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر عن قرب انتقال الحزب إلى مقرّه الجديد في 26 بلاس ديكان (Place Duquesne)، والعمل جار لتهيئة المقرّ وتحضيره؛ وقد قام مصّالي بزيارة هذا المقرّ في ذات اليوم، وثمن كرائه شهريّا 300 فرنكا؛ وبدأ يستقبل فيه مناضلي الحزب منذ يوم 08/09؛ وفي يوم 08/13 التقى فيه بأعضاء المكتب المسيّر. ينظر: تقرير المحافظ المركزي للشرطة إلى مدير الأمن العام للقطر الجزائريّ، رقم: 813 R.S، 1937/08/02، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وتقارير المحافظ المركزي للشرطة إلى الكاتب العام للقضايا الأهليّة والشرطة العامة، والخاصّة بمراقبة مصّالي الحاج أيام 04 و09 و12 و08/13، أرقام: 822 R.S، و842 R.S، و862 R.S، و866 R.S، في 05 و10 و13 و[14]/1937/08، 2I37، (CAOM)، 04 وثائق من صفحة واحدة؛ وتقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5366، 1937/08/04، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- انعقد بقاعة روسي (Rossi)، وانطلق التجمّع على سا18 و15د؛ ترأسّه: معروف [بومدين]، وتشكّل المكتب من: ولد عيسى من مستغانم، بوخالفة من غليزان، باتسي من سيدي بلعباس، وتركية من وهران؛ وتناول الكلمة فيه: مصّالي، وزكرياء، ولحول، وقدور بلقايم ممثّل الحزب الشيوعيّ بوهران، واختتم التجمّع على سا21 و30د؛ ينظر: رسالة محافظ الشرطة المركزي لمدينة وهران إلى الوالي العام، بناء على تقرير محافظ شرطة الدائرة الرابعة بوهران قيودشلي (Giudicilli) ليوم 08/01، رقم: 1105، 1937/08/02، موضوعها: اجتماع حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من 04 صفحات.

[3]- سورة "طه"، الآية 111.

العظيمتين من جمعيات شيوعية، وغير شيوعية، وأعلن أعوان الدكتاتورية الحمراء إفلاسهم النهائيّ، توجّه الركب إلى مدينة وهران، وكانت الوفود تتركّب كما يأتي: من عاصمة الجزائر ثلاثون وطنيا صحبة الزعيم مصّالي الحاج[1]، ومن تلمسان مائة وخمسون وطنيا، ومن مستغانم عشرون[2]، ومن غليزان عشرة، ومن سيدي أبي العباس خمسة عشر[3]، ومن عين تموشنت ثمانية عشر[4]، مجموع ذلك مائتان وثلاثة وأربعون وطنيّا[5]، دخلوا وهران عنوة، صبيحة السبت يوم 31 جويلية، فتوجّه فريق منهم لكراء محلّ الاجتماع[6]، وتوزيع المناشير[7]، وذهب فريق آخر لبثّ الدعاية في المقاهي والأسواق، والأنحاء الآهلة بالعرب[8]، فما دقّت ساعة السابعة مساء حتّى كانت قاعة الاجتماع الفسيحة، بنهج معسكر، تغصّ بآلاف المستمعين، وكلّهم من المؤيّدين للحزب

1- تحدّثت تقارير الإدارة الفرنسيّة عن مغادرة مصّالي ورفقائه للجزائر يوم 07/30 على سا 21 متوجّهين إلى وهران، ووصلوا إلى وهران على سا06 و50د، وكان برفقة مصّالي عند نزوله من القطار: معروف راشدي [والصواب: معروف بومدين]، ولحول الحسين، وبلحسين علي [والصواب: بلامين علي]، وزكرياء [بن] سليمان؛ ينظر: تقرير المحافظ المركزي للشرطة إلى مدير الأمن العام للقطر الجزائريّ، رقم: R.S 809، 1937/08/01، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة مدير الأمن لعمالة وهران إلى المحافظ (القضايا الأهليّة) بوهران، رقم: 5921، 1937/07/31، موضوعها: إقامة المدعوّ مصّالي الحاج من "أحباب الأمّة" بوهران، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ مقابلا بـــ: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة35. وتصحيح اسمي المرافقين لرئيس الحزب من مقارنة المعلومات المرفوقة بأسمائهم، بمختلف وثائق المعلومات الخاصّة بهم.

2- وصل –بحسب الإدارة الفرنسية– وفد مستغانم يوم 08/31 على سا 13 و30د، متكوّنا من 08 أعضاء؛ ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة وهران إلى المحافظ (القضايا الأهليّة) بوهران، رقم: 5935، 1937/08/01، موضوعها: إقامة مصّالي الحاج بوهران، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ووصل وفد سيدي بلعباس يوم 08/31 على سا 13 و45د، متكوّنا من 05 أعضاء؛ ينظر: نفسه.

4- أمّا وفود عين تموشنت وتلمسان وغليزان فقد وصلت يوم 08/31 على سا 15، وفي اجتماع مصّالي ورفقائه بها بعد وصولها مباشرة، كفعلهم مع الوفدين السابقين، قدّم لهم رئيس الحزب توجيهات تتعلّق بتوسيع انتشار (ح.ش.ج) عن طريق إنشاء خلايا جديدة حتّى في التجمّعات السكنية الصغيرة؛ ينظر: نفسه.

5- «لم يتجاوز عدد الحاضرين في الاجتماع في أيّ لحظة من لحظاته 500 شخصا، منهم في حدود 100 جاؤوا من المدن الداخلية للعمالة: مستغانم، تلمسان، غليزان، بلعباس، عين تموشنت...إلخ»؛ ينظر: رسالة محافظ الشرطة المركزي لمدينة وهران إلى الوالي العام، بناء على تقرير محافظ شرطة الدائرة الرابعة بوهران قيودشلي (Giudicilli) ليوم 08/01، رقم: 1105، 1937/08/02، 3cab44، (CAOM)، ص 01.

6- «في الصباح ذهب شباب، في حدود العشرين من عمرهم، كلّهم غرباء عن المدينة، لكراء القاعة المسمّاة روسي (Rossi)، في 36 شارع معسكر»؛ ينظر: نفسه، ص01.

7- وزّع المنشور ساعة قبل الاجتماع في فيلاج ناقر (Village Nègre)؛ ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة وهران إلى المحافظ (القضايا الأهليّة) بوهران، رقم: 5933، 1937/08/01، موضوعها: اجتماع منظّم من طرف مصّالي الحاج رئيس حزب الشعب الجزائري، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من 06 صفحات، ص01؛ أرفق بها نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

8- «وممّا ينبغي تسجيله أنّه قد فرضت على مصّالي أثناء إقامته بوهران رقابة ليل نهار. هذه الرقابة عرقلت كثيرا تحرّكاته، إلى درجة أنّ عددا من الأهالي بالمدينة لم يجرؤوا على ملاقاته، مخافة إعلام مفتّشي الشرطة عنهم»؛ ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة وهران إلى المحافظ (القضايا الأهليّة) بوهران، رقم: 5936، 1937/08/02، موضوعها: إقامة مصّالي الحاج بوهران، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02.

الشيوعيّ، والمنتصرين له، إمّا عن غرّة، وإمّا عن إقناع. إنّه في الحقيقة لموقف حرج للنهاية، لا يقف أمامه إلاّ كلّ صنديد، قويّ الإيمان، رابط الجأش والعزيمة، ولقد كانت الكوكبة الوطنية المكلّفة بحفظ النظام متيقّظة، منتظمة قويّة، وكانت تحيط بالمجتمعين إحاطة السوار بالمعصم[1] [...] ورغما عن كون زعماء الحزب الشيوعي كلّهم كانوا يحتلّون المقاعد الأمامية، بشكل منظّم، ليعطوا الإشارات لمريديهم في الأوقات المناسبة، فإنّ الحزب العظيم، حزب الشعب، خرج ظافرا من المعمعة، حسّا ومعنى، ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويّا عزيزا﴾»[2].

بعد الكلمة الافتتاحية لرئيس الحزب مصّالي الحاج، أعطيت الكلمة لمفدي زكرياء، وقد لخّص في مقاله تدخّله فيما يلي: «ثمّ بعد ذلك أعطيت الكلمة لكاتب الحروف مفدي زكرياء، فارتجل خطابا عظيما، افتتحه بذكر حالة الجزائريّين، والفقر والجهل والذلّ والهوان، ثمّ ذكر أنّ المسلم يجب أن يكون عزيزا، وأن لا يرضى أبدا بالذلّ، مستشهدا لذلك بتاريخ الإسلام، وسيرة الصحابة والخلفاء والغزاة والفاتحين، الذين لا تزال هذه الأرض الإفريقية مضمّخة بدمائهم الزكية، ومعجونة بعظامهم المقدّسة، ثمّ سرد محلّ الحاجة من سيرة هؤلاء الفاتحين، وذكر أعمالهم الخالدة في سبيل العزّة والسيادة؛ ثمّ تنقّل [لاستعراض] الآيات القرآنية، والأحاديث النبويّة الشريفة، التي تأمر المسلمين أن يكونوا شرفاء أعزّاء، وختم هذا الفصل بقوله: إنّ الله لم يخلق العربيّ، لأن يكون ذليلا فإمّا أن يكون عزيزا، وإمّا أن يفارق الحياة، ثمّ تنقّل لذكر الأسباب التي يجب أن نتّخذها لنسترجع عزّنا وفخارنا، وذكر أنّ ذلك لا يكون إلاّ في دائرة الاتّحاد والنظام، وفي محور الدين والقومية والوطنية، وإنّ هذا لا يكون إلاّ بهيئات منظمة لها برنامج، ولها خطّة معينة، ولذلك تأسّست الأحزاب الوطنية في العالم الإسلامي المضطهد، للأخذ بيده من وهدة الانحطاط والذلّ إلى حظيرة التحرير والاستقلال، ومن جملة هذه الأحزاب "حزب الشعب الجزائري". ومن هنا تنقّل إلى ذكر تاريخ الجهاد الذهبيّ لهذا الحزب، وما قام به من عظيم التضحيات في النضال عن حقوق العرب بشمال إفريقيا، أيّام العسف والجور الفاشيستي الغاشم، وأيّام كان لا يستطيع التظاهر بالوطنية

---

[1]– «تنظيم الاجتماع كانت موكولا بصفة خاصّة لأولئك الغرباء عن المدينة، وكانت نسبيّا لافتة للنظر: منظّمون يحملون شارة خضراء، كانوا واقفين عند مدخل القاعة، يستقبلون الوافدين، ويجلسونهم داخل القاعة، متنبّهين إلى الأشخاص المشتبه بمعارضتهم لأفكارهم، ليحيطوا بهم بصفة مباشرة، وجعلهم في وضع لا يمكّنهم من إثارة الشغب [...] الشيوعيون في حدود الخمسين [...] جاؤوا بهدف متّفق عليه مسبقا، وهو إحداث معارضة، غير أنّهم وجدوا أنفسهم ملزمين بالمحافظة على هدوئهم، أو بمغادرة القاعة»؛ رسالة محافظ الشرطة المركزي لمدينة وهران إلى الوالي العام، بناء على تقرير محافظ شرطة الدائرة الرابعة بوهران قيودشلي (Giudicilli) ليوم 08/01، رقم: 1105، 1937/08/02، 3cab44، (CAOM)، ص 01.

[2]– الآية من سورة "الأحزاب"، الآية 25. والنصّ من جريدة "النهضة"، س14، ع4424، 1356/06/06هـ، 1937/08/14م، ص05. غادر مصّالي ورفقاؤه وهران مساء يوم 08/01، في قطار سا21 و30د إلى الجزائر؛ ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة وهران إلى المحافظ (القضايا الأهليّة) بوهران، رقم: 5936، 1937/08/02، 3cab44، (CAOM)، ص02.

إلاّ أناس قليلون، ثمّ ذكر تاريخ المظالم والإذايات والاضطهادات التي نالت هذا الحزب في مختلف مراحل جهاده، وكيف صبر لها، وثبت لها ثبات الرواسي، أمام الزعازع والأعاصير، فلم يثنه عن الجهاد سجن ولا نفي ولا إبعاد ولا ضرب ولا قتل، واندفع الخطيب في هذا السبيل، مستشهدا بالوقائع، والحوادث الصحيحة، وعرج على ذكر ما قاله الشعراء في التضحية والفداء، وختم هذا الفصل بالآيتين الشريفتين: ﴿أ لم أحسب الناس أن يتركوا إلخ﴾[1]، وبقوله تعالى: ﴿ولنبلونّكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾[2]، ثمّ انتقل من ذلك إلى شرح برنامج حزب الشعب بالتفصيل والتحليل والاستشهاد بالآيات والأحاديث على أنّه برنامج إسلاميّ صحيح، وتنظيره ببرنامج الأحزاب الوطنية في بلاد الشرق كمصر وسوريا والعراق وتونس، ثمّ تخلّص إلى ذكر مواقف حزب الشعب في السياسة الراهنة، وهنا ألقى بسطة عامّة في السياسة العالمية الحاضرة، وسياسة شمال إفريقيا والجزائر، وتعرّض للمؤتمر الإسلاميّ الجزائري الأوّل والثاني، فأشبعه شرحا وتحليلا، وبيّن الأغلاط المرتكبة فيه، والخيانات الواقعة للشعب بواسطته، وتلاعب بعض ذوي الغايات به، وبأصحاب النوايا الحسنة من رجاله، مثل العلماء، وهنا ذكر الخطيب موقف الحزب إزاء العلماء أوّلا، وإزاء جمعية العلماء ثانيا، ثمّ انتقل إلى موقف الحزب إزاء الشيوعيّين، فألقى درسا فلسفيّا [تحليليّا] في معنى الشيوعية والسوفييتية، وشرح بكلّ دقّة البرنامج الشيوعيّ العالمي من جميع نواحيه، من ناحية الاقتصاد والاجتماع والسياسة، وخصوصا من ناحية الدين، وهنا ألقى الخطيب عصاه، فإذا هي تلقّف ما يفكون، وذكر الفظائع الوحشية التي وقعت، والتي تقع يوميا بروسيا لإخواننا أهالي بخارى وتركستان وسمرقند وأذربيجان، وأتى بحقائق ودلائل ووثائق على ذلك، فكنت ترى السامعين يكفكفون دموعهم، وينادون من تلقاء أنفسهم بالسقوط للشيوعية الظالمة، وهنا انتقل الخطيب لبيان دسائس الحزب الشيوعي بالجزائر، وأعماله ومطامعه، وذلك ببيان وتدقيق، وختم هذا الفصل بقوله: «يجب على الأمم المهضومة أن تتّكل على نفسها، فالمثل يقول: «ما حكّ جلدك مثل ظفرك، فتولّ أنت جميع أمرك»، وإنّنا لسنا من أصحاب اليمين، ولا من أصحاب الشمال، نحن عرب جزائريون وكفى، وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتّبعوه، ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله». ثمّ ختم خطابه هذا بنداء وطنيّ حار، وجّهه للشعب العربي المسلم في الدعوة للاتّحاد والتضامن والجهاد والتضحية، والاعتماد على النفس والإقدام، وما إن تمّ هذا الخطاب حتّى دوّت الصالة بعواصف الهتاف والتصفيق»[3].

---

[1]- سورة "العنكبوت"، الآية 02.

[2]- سورة "محمد"، الآية 31.

[3]- الوطنية تغزو مدينة وهران، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، ع4424، ص05. أمّا ما سجّلته الإدارة الفرنسيّة من هذه الكلمة فمنه الآتي: بدأ بتحية الحاضرين، وتمنّى أن يرى قريبا إنشاء خلية لـــ(ح.ش.ج) بوهران، ومن ثمّ انتقل إلى الإشادة بنضال مصّالي الحاج من أجل القضية الجزائرية، وكفاحه من أجل استقلاله، ثمّ قال: «لقد ألقي في السجن لأجلكم إخواني، لقد تألّم، لقد تعرّض لاضطهاد الإمبريالية الفرنسية البغيض لأجل خدمة مصالحكم، وإنّ هذا لا يساوي شيئا، إذ لا يخفى عليكم أنّ انتزاع الحريات يقتضي التضحية بكلّ شيء، بما في ذلك النفس. /بعد

القضية الفلسطينيّة، وجريدة الشعب:

عاد مصّالي ورفقاؤه إلى الجزائر، يوم الإثنين 08/02، وفي نفس اليوم عقد حزب الشعب الجزائريّ تجمّعين اثنين: الأوّل: في بوفاريك على سا 11[1]، تناول الحديث فيه زعيم الحزب، ومفدي زكرياء، وتعرّضا لأوّل مرّة للقضية الفلسطينيّة، وممّا جاء في كلمة مفدي: «هذه الأرض ملك لنا، لابدّ أن ترجع إلينا يوما: لا تنسوا بأنّ أسلافنا قد عجنوا هـــذه الأرض بدمائهم، عظامُهم مدفونة في كلّ مكان، حيث قاوموا من أجل الحفاظ عليها. إنّ أجدادنا كانوا رجالا، ونحن لسنا إلاّ فراخا، لا بدّ أن نستفيق، أن نكون جديرين بأجدادنا، أن نتّحد ونتعاون، لكي نناضل من أجل استقلالنا. لا يجب أن يكون بيننا تمييز عرقيّ، لأنّ كلّنا مسلمون، وأحفاد للرسول؛ فعربا كنّا أو قبائليّين، أو مزابيّين، أو شاويّين، يجب علينا الكفاح من أجل قضيّة واحدة، إنّنا نريد حكما مستقلاّ، مثل المصريّين. إنّنا معادون لمشروع فيوليت (Viollette) الذي يسعى إلى تفرقتنا، والذي ليس له من هدف سوى إلحاقنا بفرنسا، والحقّ أنّ هذا الأمر هو سبب خلافنا مع جمعية العلماء.

إنّنا نرفض رفضا قاطعا تقسيم فلسطين، لأنّ فلسطين أرض مقدّسة، أرض عربيّة، ولا نريد أن يتصرّف فيها الأنجليز كيفما شاؤوا، /لأنّهم يريدون الحفاظ على الموانئ الحربيّة لأنفسهم، ومنح الأراضي الخصبة لليهـــود، ثمّ لا يتركون لنا إلاّ الصحراء، أو الأراضي الجدبة غير الصالحة. إنّنا نحتجّ بقوّة ضدّ هذا المخطّط، وسنرسل إلى البرلمـــان الإنجليزي برقية احتجاج في هذا الصدد»[2].

---

106 سنوات من الاستعمار، أصبحت حياة المسلمين مقصورة على الفاقة الكبيرة، لقد حرموا حتّى من تعلّم لغة أجدادهم، يسمح لهم بفتح مدارس قرآنية، ثمّ تغلق، ليفرضَ جهل الدين على شبابهم؛ ويُجرَّمُ المعلّمون لأنّهم علّموا الصغار العبارة الأساسية: "لا إله إلاّ الله، محمد رسول الله". أنحن في بلدنا أم لا؟ أنتحمّل الاضطهاد، ونُمنع من فتح المدارس والكتاتيب، بينما الحانات ودور البغاء لا حصر لعددها؟ إنّ هذه الطريقة في التعامل في الحقيقة تخضع لتوجيهات الإمبريالية الفرنسية، إنّها تريد مسخ شبابنا، الذي سيؤول قريبا إلى نسيان أصله المجيد، وقيمة ماضي أجداده التليد، لا يوجد فوق الأرض شعب أتعس حظّا منّا، فالأولى أن نمحى من الوجود مرة واحدة. إخواني هل ستتقبّلون طويلا هذا النظام البغيض؟ أجابه الحاضرون: «لا، إنّنا نريد حريّتنا، والعدالة للجميع»؛ فواصل قائلا: إذا سنناضل إلى آخر رمق، لأنّنا في وطننا، في البلد الذي شهد ميلاد أجدادنا، سنفعل مثل سوريا ومصر اللذين تحصّلا على استقلالهما التامّ. إخواني جميعا مع (ح.ش.ج)، إلى الممات إن لزم الأمر»؛ ينظر: رسالة مدير الأمن لعمالة وهران إلى المحافظ (القضايا الأهليّة) بوهران، رقم: 5933، 1937/08/01، موضوعها: اجتماع منظّم من طرف مصّالي الحاج رئيس حزب الشعب الجزائري، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من 06 صفحات، ص01، 02.

1- انعقد بالملعب البلديّ ببوفاريك، وحضره ما يقارب 650 شخصا، وترأسه: مصّالي، ومساعدوه: زكرياء، وفليتة أحمد، وأوجارة عبد القادر كلاهما من خلية بوفاريك، وتناول الكلمة فيه: مصّالي، وزكرياء، والحاج قاسم من بئر توتة، واختتم التجمّع على سا13 و30د؛ ينظر: تقرير محافظة الشرطة بمدينة بوفاريك، رقم: 881، 1937/08/02، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

2- ينظر: تقرير محافظة الشرطة بمدينة بوفاريك، رقم: 881، 1937/08/02، وثيقة من صفحتين، 4I4، (CAOM)، ص01، 02؛ وتقرير الرائد ديكاي (Ducay)، قائد فصيلة الدرك الوطنيّ لمدينة البليدة، رقم: 760/2، 1937/08/03، موضوعه: تجمّع حزب الشعب الجزائريّ ببوفاريك، والخطب التي ألقاها مختلف المتدخّلين، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ وينظر أيضا: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة36.

الثاني: في ميزون كاري (Maison Carrée) على سا 19 و30د[1]، تمّت فيه المصادقة على مقترح متعلّق بالقضية الفلسطينيّة[2]، أعطيت الكلمة في البداية لمفدي زكرياء: «بدأ بالإبانة عن محاسن الدين الإسلاميّ، ثمّ قدّم صورة عن الوضعية المتردّية التي يعيشها الجزائريون، ثمّ استعرض ما هي حقيقة حزب الشعب الجزائريّ، «هذا الحزب –على حدّ قوله- يناضل بكلّ ما أوتي من طاقة من أجل تحرير الجزائر المسلمة واستقلالها»، ثمّ دعا إلى وحدة الجميع، وأبدى معارضته لأيّ سياسة تسعى لتحقيق الاندماج»[3].

انتقل حزب الشعب الجزائريّ إلى مدينة دلس يوم الخميس 08/05[4]، بعدد كبير من مناضليه، غير مسبوق، استعراضا لقوّته الشعبيّة والتنظيميّة، لتكون خير وسيلة للدعاية له، وللأفكار التي يناضل من أجلها، فعقد بها تجمّعا شعبيّا كبيرا، تقرّر في اجتماع المكتب المسيّر يوم 08/04[5]: في اليوم الموعود كانت التحضيرات

1- انعقد التجمع بسينما ليلدرادو (L'Elderado Cinéma)، حضره حوالي ألف شخص نصفهم من الجزائر، وترأس مكتب التجمّع: مصّالي، ومساعداه: زكرياء، ومقران أحمد؛ وتناول الكلمة فيه: زكرياء، وعمر عيشون متعاطف مع المؤتمر الإسلاميّ، وأوزقان عمّار من الحزب الشيوعيّ، والمدعوّ عبد المجيد، وعمارة من حزب الشعب، ومصّالي الحاج، اختتم التجمّع على سا22 و30د؛ ينظر: رسالة محافظ الشرطة بميزون كاري، ماسيا (Maissiat)، الدائرة الأولى، إلى المحافظ المركزي للشرطة بالجزائر، رقم: 2282، 1937/08/03، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات.

2- نصّه كالآتي: «إنّ 2500 من المسلمين الجزائريين المجتمعين، تحت رعاية خلية حزب الشعب الجزائري، بميزون كاري (Maison Carrée)، وبعد سماعهم لمصّالي ومختلف المتدخّلين حول القضية الفلسطينيّة، قد صادقوا على المقترح الآتي: إنّهم يحتجون بقوّة ضدّ تقسيم فلسطين العربية، ويعلنون عن تضامنهم مع القائد العظيم المحترم الأمين الحسينيّ، ومع المكتب العربيّ الأعلى الذي يكافح منذ مدّة طويلة بتضحية كبيرة للإبقاء على فلسطين عربية. إنّهم يُدينون السياسة الإمبريالية لأنجلترا التي تريد إنشاء مستوطنة لليهود في فلسطين العربية، ممّا يعتبر مساسا لا بكرامة فلسطين العربية فحسب، بل هي تهديد أيضا لسوريا والأردن والعراق ومصر، الذين سيكونون غدا فريسة للهجرة اليهودية. إنّهم يدعون جميع الدول العربية، والمسلمين جميعا لليقظة، والاحتجاج –بإجماع- ضدّ سياسة تجزئة فلسطين وتقسيمها. إنّ جمعهم قد انفضّ على نداءات: تحيا فلسطين العربية حرة ومستقلّة، يحيا الأمين الحسينيّ، يحيا الأمير شكيب أرسلان، يحيا إحسان باي الجابريّ، ويحيا رياض الصلح، أبطال الدفاع عن فلسطين العربية»؛ ينظر: نفسه02.

3- ينظر: نفسه01.

4- انعقد التجمع بقاعة الحفلات لبلدية دلس، على سا20 و45د، حضره حوالي 600 شخصا، وترأس مكتب التجمّع: زرواني عمّار من دلس، وتناول الكلمة فيه: مصّالي، وشاوش مصطفى من دلس، وزكرياء، ولحول، واختتم التجمّع على سا23 و45د؛ ينظر: رسالة محافظ الشرطة قائد الفرقة المتنقّلة لتيزي وزو إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، رقم: 1258، 1937/08/06، موضوعها: اجتماع عمومي لحزب الشعب الجزائريّ بدلس يوم 37/08/05، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من 08 صفحات.

5- وهو ما يشير إليه تقرير مراقبة مصّالي الحاج ليوم 08/03، غير أنّنا لا نجد أثرا لهذا الاجتماع في تقرير يوم 08/04، وصرّح مفدي بانعقاد هذا الاجتماع في مقاله: حزب الشعب بالجزائر يعقد ستّ اجتماعات، ويؤسّس لجنة للدفاع عن فلسطين العربيّة، حيث يقول: «إنّ حزب الشعب الجزائري قرّر في جلسة عامّة، يوم 04 من هذا الشهر أن يشتغل بصفة جدّية بقضية فلسطين العربية» جريدة "النهضة"، س14، ع4434، 1356/06/18هـ، 1937/08/24م، ص05. وينظر التقريران: تقرير المحافظ المركزي للشرطة إلى مدير الأمن العام للقطر الجزائريّ، والخاصّ بمراقبة مصّالي يوم 08/03، رقم: 819 R.S، 1937/08/04، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وتقرير المحافظ المركزي

حثيثة لتنظيم هذا التنقّل، فعلى سا09 و15د كان مناضلو الحزب يعملون على اختيار المناضلين الذين سيشاركون في هذا التجمّع، وعقد مفدي معهم لقاء على سا10 و30د في مقرّ الحزب بـــ 02 شارع دي ليبان (Du Liban)، ثمّ كان الانطلاق على سا13 و30د؛ وقد أخذ مفدي مكانه في السيارة التي تقلّ رئيس الحزب وعائلته، وخصّصت سيارة ثانية لأعضاء المكتب المسيّر للحزب، بينما استقلّ بقيّة المناضلين سيارتين أخريين وثلاث حافلات، حمل جلّها علم حزب الشعب الجزائريّ، ودخلوا مدينة دلس في موكب واحد على سا17 و30د، وقد تجاوز عددهم المئة مناضل[1]، وذلك للفت الانتباه، لما في هذا التصرّف من تحدّ للسلطات الاستعماريّة، تدلّ على قوّة الحزب وإقدامه في مسعاه السياسيّ، وانعقد التجمّع، فكان مفدي من بين المتدخّلين فيه، يقول تقرير الإدارة عنه وعن تدخّله ما يلي: «تناول الكلمة خطيب من الجزائر يدعى زكرياء، ويبدو أنّه عضو معتبر في الحزب، بالنظر إلى التصفيق الذي استقبل به ظهوره على المنصّة. تكلّم الخطيب بالعربية لمدّة ساعة، معبّرا بلغة عربية ذات منحى أدبيّ واضح، غير مفهومة فيما يبدو[...] خطبته المطوّلة جدّا سبّبت فتورا في انتباه الحاضرين، بالرغم من التصفيق التي يعقب بعض عباراته بصفة دورية [../..]. ونظرا لتناوله -بالعربية- تقريبا نفس الأفكار التي سيعالجها من بعده مصّالي الحاج، لم نر فائدة في عرض الخطوط العامّة لكلمته هنا»[2]؛ وفي ختام التجمّع تمّ التصويت على مقترح يخصّ القضية الفلسطينيّة[3].

وإذا كان مناضلو (ح.ش.ج) قد عادوا من دلس يوم 08/06، على سا02 و30د صباحا[4]، فإنّ مصّالي الحاج قد تأخّر عنهم، وبقي بدلس إلى يوم 08/08، فغادرها على سا11 و30د، ثمّ نزل بروبية، واتّصل هاتفيّا

للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهليّة والشرطة العامّة، والخاصّ بمراقبة مصّالي يوم 08/04، رقم: 822 R.S، 1937/08/05، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

1- ينظر على اختلاف بين التقارير في بعض التفاصيل: تقرير المحافظ المركزي للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهليّة والشرطة العامّة، والخاصّ بمراقبة مصّالي يوم 08/05، رقم: 827 R.S، 1937/08/06، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وتقرير نائب مدير أمن عمالة الجزائر، رقم: 5380، 1937/08/05، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة محافظ الشرطة قائد الفرقة المتنقّلة لتيزي وزو إلى المحافظ، رقم: 1400، 1937/09/02، موضوعها: اجتماع لحزب الشعب الجزائريّ بدلس يوم 1937/08/05، 4I4، (CAOM)، وثيقة من 05 صفحات، ص01.

2- ينظر: رسالة محافظ الشرطة قائد الفرقة المتنقّلة لتيزي وزو إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، رقم: 1258، 1937/08/06، موضوعها: اجتماع عمومي لحزب الشعب الجزائريّ بدلس يوم 37/08/05، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من 08 صفحات، ص02،03.

3- لخّصه صاحب الرسالة فيما يلي: «1) إنّ 2500 [كذا] من المسلمين الجزائريين المجتمعين بدلس، تحت رعاية الخلية المحلية لحزب الشعب الجزائري، [..] 2) يحتجّون ضدّ تقسيم فلسطين، لما يمكن أن يتسبّب عنه من اجتياح خطير للعراق ومصر»؛ ينظر: نفسه07.

4- ينظر: تقرير المحافظ المركزي للشرطة إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، والخاصّ بمراقبة مصّالي يوم 08/06، رقم: 831 R.S، 1937/08/07، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

بمفدي، يطلب منه إرسال مناضلين من الجزائر، لعقد تجمّع شعبيّ بهذه المدينة، وقد تناول فيه القضية الفلسطينيّة ووضعية الجزائر الاجتماعية والسياسية، ومطالب الحزب في خصوصها[1].

وكان الموعد يوم 08/09 مع تجمّع آخر في الجزائر[2]، خصّص هذه المرّة للقضية الفلسطينيّة، فقد كانت الدعوة إلى حضور التجمّع باسم "لجنة الدفاع عن فلسطين العربيّة"، وجاء في الجزء المكتوب باللغة العربية، من المنشور الصادر في هذا الشأن ما يلي: «أيّها المسلمون العرب الجزائريون، إنّ لجنة الدفاع عن فلسطين، في دائرة حزب الشعب الجزائريّ، تدعوكم لحضور اجتماعها الذي ستعقده اليوم على الساعة السادسة مساء، سينما لا بارل [La Perle]، نهج تروا كولور [Trois Couleurs]»[3].

أمّا كلمة مفدي، فاستعرضها تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، في تقريره، على النحو الآتي: «بعد العبارات الافتتاحية المعتادة، أكّد مفدي زكرياء على أنّ (ح.ش.ج) عرّف الجزائر للعالم الإسلامي، فهو يعلم الآن أنّ شمال إفريقيا يسكنه مسلمون صالحون، ثمّ تلا آيات قرآنية وأحاديث نبوية في موضوع الوحدة. وبعد انتقاد لاذع للاستعمار الأوروبيّ، تحدّث عن الأمم التي تسعى إلى تمزيق الإسلام، والقضاء عليه، وعن أنجلترا –على الخصوص– التي لا تسعى إلاّ إلى استعباد المسلمين؛ بيّن بعدها مخاطر هذه السياسة: إنّه في اليوم الذي سيسيطر فيه الإنجليز على فلسطين، ستتوجّه أطماعهم إلى الحصول على الحجاز، وبقية بلدان الإسلام، ويبدو أنّ الأنجليز واليهود متّفقون في هذا الأمر، ولكنّ المسلمين جميعا يعارضون هذا التقسيم، لأنّ فلسطين أرض إسلامية، وستبقى أرضا إسلامية، ولابدّ أنّ نعتبر كلّ محاولة لتقسيم البلد انتهاكا لحرمة مقدّسة؛ حينها صرخ زكرياء قائلا: «إخواننا الفلسطينيون مسجونون في وطنهم، وفيه تسفك دماؤهم ودماء نسائهم وأطفالهم؛ إنّهم يريدون إرسالهم إلى الصحراء كما فعل الإيطاليون في ليبيا». أخبر السامعين بعد ذلك عن إرسال التونسيين 70 ألف فرنك إلى اللجنة العربية لفلسطين، وأنّ المغاربة أرسلوا 100 ألف، كما تبرّع المسلمون أيضا في باريس. يجب أن يعلم الجميع أنّ الجزائريين قد عقدوا –تحت رعاية (ح.ش.ج)– تجمّعات احتجاجية، ثمّ تحدّث عن برقيات المساندة المرسلة إلى

---

[1]– انعقد التجمّع بروية على سا15 مساء، وحضره 400 شخصا تقريبا، 150 من دلس والجزائر، تناول فيه الكلمة زعيم الحزب فقط، واختتم على سا17، وسافر بعدها إلى الجزائر، فدخلها على سا18؛ ينظر: تقرير نائب مدير أمن عمالة الجزائر، رقم: 5446، 1937/08/09، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]– انعقد التجمّع على سا18 و35د، وحضره ما يقرب من 600 شخص؛ وترأس التجمّع مصّالي الحاج، ومساعداه فيه: مفدي زكرياء، ومصطول محمد، وتناول فيه الكلمة: مصّالي، ومفدي، ولحول، واختتم على سا20؛ ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5452، 1937/08/10، موضوعه: حزب الشعب الجزائري، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات.

[3]– ينظر: نسخة مطبوعة من المنشور، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وتحدّث المنشور في قسمه المكتوب باللغة الفرنسية عن تجمّعات عقدت في شأن القضية الفلسطينية في باريس، وبوفاريك، وميزون كاري، ودلس، وروبية، واليوم بالجزائر؛ وأنّ 50 ألفا من الجزائريّين قد صادقوا على المقترح الذي سيعرض للمصادقة في هذا التجمّع، ومنه يدعو الجزائريّين إلى الحضور فيه بقوّة، وأن يبرهنوا عن تضامنهم المعنويّ والماديّ.

فلسطين[1]، وإلى باريس، وعن الرسالة الاحتجاجية المطوّلة التي أرسلها مكتب (ح.ش.ج) إلى لجنة الوكالات (Commission des mandats)[2]، وعن قرار المكتب بتخصيص ثلاثة أيّام للصلاة، وجمع التبرّعات، أيّام 13 و14، و15 من الشهر الجاري، لصالح مسلمي فلسطين؛ وختم كلمته بتلاوة آية قرآنية في موضوع التعاون»[3].

وختم التدخلات مصّالي الحاج، بتقديم تشكيلة "لجنة الدفاع عن فلسطين وإغاثتها" (Comité de Défense et de Secours pour La Palestine)[4]، تشكيلتها هي كالآتي: الرئيس: مصّالي الحاج، نائباه: مفدي زكرياء، ومصطول محمد، الكاتب: لحول الحسين، نائبه: بلامين علي، أمين المال: حاج إسماعيل، نائبه: دشوك الحاج مصطفى [5]؛ ومقرّ مداومة هذه اللجنة هو في 26 بلاس ديكان (Place Duquesne)[6]، وبذلك تكون أوّل مهمّة تنجز بهذا المقرّ الجديد للحزب.

في يوم 08/12 ذهب مصّالي إلى المقرّ الجديد للحزب، على سا13 حيث كان في انتظاره عدد من مناضلي الحزب، لتلقّي تعليماته في خصوص تنقّلهم إلى البليدة، قصد عقد تجمّع شعبيّ بها. وعلى سا 15 و30د أعطى

1- تحدث تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر عن وصول برقية لمصّالي الحاج، في الأسبوع الأوّل من أوت، من "اللجنة الإسلامية لفلسطين" تشكره على تمنياته لصالح مواطنيهم؛ ينظر: التقرير، رقم: 5448، 1937/08/09، موضوعه: بخصوص مصّالي الحاج، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- «اللجنة الدائمة للوكالات(Commission permanente des mandats): هيئة تابعة لجمعية الأمم، تمنح حقوقا لبعض الدول الوكيلة، وبخاصة فرنسا وأنجلترا، لـــ"تمدين" المستعمرات والمناطق الواقعة خارج مركز الأمبراطوريات المهزومة في الحرب العالمية الأولى (الأمبراطورية العثمانية، والأمبراطورية اليابانية، والأمبراطورية الألمانية)»؛ ينظر: قاموس العلوم السياسيّة (Dictionnaire de Science Politique)، مختار لكحال (Mokhtar Lakehal)، L'Harmattan، باريس-فرنسا، ط: 2005، ص80.

3- ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5452، 1937/08/10، 3cab44، (CAOM)، ص02. وقد حاولت -قدر الإمكان- الربط بين مختلف العبارات الواردة في التقرير، لأنّها كانت مفكّكة بعض الشيء. أمّا تقرير محافظ الشرطة المركزيّ فاختصر كلمة مفدي فيما يلي: «أثنى مفدي على إيمان وشجاعة المسلمين في مساعدتهم لفلسطين التي هي في شدّة، والتي ينبغي أن تبقى عربية، فيجب التبرّع بالمال والتضحية بالنفس إن لزم الأمر)»؛ ينظر: تقرير محافظ الشرطة المركزيّ إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، بناء على تقرير محافظ الشرطة للدائرة الأولى ميلر (Muller)، رقم: 841 R.S، 1937/08/09، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- سمّاها مفدي في مقاله: لجنة الدفاع عن فلسطين العربية؛ ينظر: حزب الشعب بالجزائر يعقد ستّ اجتماعات ويؤسّس لجنة للدفاع عن فلسطين العربيّة، جريدة "النهضة"، س14، ع4434، 1356/06/18هـ، 1937/08/24م، ص05.

5- ونجد في ورقة مفردة تشكيلة هذه اللجنة، وزيد عليها أسماء المساعدين، وهم: مزغنة، ومسعودي، وزاوي، وعمارة؛ ينظر: تشكيلة "لجنة الدفاع عن فلسطين وإغاثتها"، من غير تحديد للجهة التي أصدرتها، وأغلب الظنّ أن تكون محافظة الشرطة المركزيّة بالجزائر، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- وفي ختام التجمّع كان التصويت على مقترح نصّه كالآتي مترجما: «إنّ الثلاثة آلاف مسلم -من (ح.ش.ج)- المجتمعين اليوم، بسينما لا بارل (La Perle)، وبعد استماعهم لعدّة متدخّلين، يحتجّون باستياء كبير على ممارسات السياسة الأنجليزية، التي لا تسعى إلاّ لجعل فلسطين دارا لليهود؛ وهم يعلنون عن رفضهم لتقسيم فلسطين، وعن تضامنهم مع إخوانهم المسلمين بفلسطين من أجل نيل بلدهم حرّيته واستقلاله»؛ ينظر ما سبق متنا وهامشا: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5452، 1937/08/10، 3cab44، (CAOM)، ص03.

مصّالي إشارة الانطلاق لموكب (ح.ش.ج) المتكوّن من سيارة أقلّت رئيس الحزب، وكان برفقته مفدي زكرياء، والمحامي نارون عمّار، وحافلة، وسيارة ثانية أقلّتا بقية المناضلين، من غير أن يحمل أيّ منها شارة الحزب[1].

انعقد تجمّع البليدة على سا 18 مساء، من نفس اليوم[2]، إلاّ أنّ مناضلي الحزب الشيوعيّ حالوا دون انعقاده في الأجواء التي تمّت فيها التجمّعات السابقة، بسبب مشاغباتهم المتكرّرة، والتي تحوّلت أحيانا إلى مشادّات مع مناضلي حزب الشعب، وآل الأمر في النهاية إلى تدخّل قوّات الأمن، وتوقيف التجمّع، وإخلاء القاعة[3].

عقب كلمة الافتتاح من رئيس الاجتماع مصّالي الحاج، كان مفدي أوّل خطيب، وبدأ تدخّله بالإشارة «إلى ضرورة تحقيق وحدة المسلمين، وهي أكيدة أكثر من أيّ وقت مضى، لتكوين أمّة موحّدة وقوية؛ مطالبا بإنشاء مدارس عربيّة قادرة على تعليم جميع مبادئ الإسلام، التي هي أساس اللغة العربية، والأخوّة العربية؛ ثمّ دعا إلى التكافل العامّ، وإدامة الصلات بين مختلف طبقات المسلمين، لمنحهم القوّة التي تمكّنهم من التعبير عن مطالبهم، والتصدّي لجميع أعدائهم؛ ولأجل النضال في أحسن الظروف للخروج بنجاح من حياة البؤس المفروضة على سواد المسلمين. إنّ هذه المبادئ لا يتهيّأ تطبيقها إلاّ بالحبّ المتبادل، الذي يجب أن يقود كلّ مسلم في معاملاته وعلاقاته مع إخوانه، لتحقيق التلاحم الجدير وحده ببلوغ الهدف المنشود، لأنّ العالم -على ما أضافه- بأسره معنا. ودعا بصفة خاصة إلى الالتزام بشرائع الدين الإسلاميّ، من غبر أيّ تهاون، لأنّها مناط ثلاثة شروط للانتصار هي: الصبر، والأمل في المستقبل، والخضوع لله، حامي الإسلام، والكفيل بضمان /المصير المظفّر في سبيل تحقيق التحرير والنهضة النهائيّين؛ ثمّ أكّد على أنّ هذه هي الغاية التي يسعى إليها (ح.ش.ج)، فهو العارف كيف يستقطب جماهير المسلمين من أجل تكوينهم وتربيتهم وجمعهم في سبيل الاقتداء بالرسول والسلف الصالح، وباسمهم [يعني: الرسول والأسلاف] شجّع كلّ مناضل على الدعاية ونشر ما من شأنه جلب كلّ من لا يزال إمّا

1- ينظر: تقرير محافظ الشرطة المركزيّ إلى المحافظ، بناء على تقرير حارس الأمن (Gardien de la paix) لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/12، رقم: 862 R.S، 1937/08/13، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. سبق وصول مصّالي إلى البليدة وصول عدد من الحافلات، تحمل مناضلي الحزب من بوفاريك، والمدن القريبة، والجميع يحمل شارة نجم شمال إفريقيا؛ ينظر: رسالة محافظ المركزيّ للشرطة بالبليدة إلى المحافظ، رقم: 10.413، 1937/08/13، موضوعها: بخصوص اجتماع لحزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من 04 صفحات، ص01.

2- سبق انعقاد التجمّع توزيع منشور بخصوصه، يحدّد موضوعاته، بالإضافة إلى أسماء المتدخّلين فيه، مع التأكيد على الطابع الاعتراضيّ لهذا الاجتماع، وكان انعقاده في هال أو تابا (Halles aux Tabacs)، وحضره ما يقرب من 1300 شخص؛ وترأس التجمّع مصّالي الحاج، ومساعداه فيه: لعساكر محمد، وجرات جيلالي، وتناول فيه الكلمة: مصّالي، ومفدي، ولحول؛ وصحراوي، وكيل شرعي، ومستشار بلدي، وعضو في المؤتمر الإسلاميّ، وأوقف التجمّع على سا20 و10د؛ ينظر: نفسه01؛ أرفق بها المنشور المطبوع الموزّع بالمناسبة، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة محافظ المركزيّ للشرطة بالبليدة إلى مدير الأمن العامّ قيلرمي (Guilhermet)، رقم: 10.373، 1937/08/13، موضوعها: بخصوص اجتماع عقده حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- تنظر أطوار هذا الاجتماع مفصّلة: رسالة محافظ المركزيّ للشرطة بالبليدة إلى المحافظ، رقم: 10.413، 1937/08/13، 4I4، (CAOM).

جاهلا، وإمّا حائرا بسبب انعدام التجربة، ممّا يوجب انعتاقه منهما، ليلتحق بصفوف حزب الشعب الجزائريّ، هذا الحزب الذي يسيّره رجل مثل مصّالي؛ ثمّ مدح حركة مصّالي الدؤوبة التي ستنتج الفعالية وحتمية انتصار الشعب المسلم، في تلاحم قادر على تجاوز كلّ الآفات التي تعاني منها الشعوب الإسلامية، ومنها بالأخصّ شعب الجزائر، الذي يتعيّن عليه اختيار منتخبين، جديرين بنيل تمثيل يهدف إلى تحسين ظروف حياة الشعب ومصيره، والمنتظر منهم اتّخاذ قرارات مهتمّة بمصالحه، ممّا هو في أمسّ الحاجة إليه؛ ثمّ أشار إلى مصّالي على أنّه هو وحده القادر على الاضطلاع بهذا الدور، وقدّم للحاضرين توصية أكيدة في خصوصه»[1].

وكان يوم 08/13 أوّل الأيّام الثلاثة المخصّصة لصالح فلسطين، تحدّث مفدي عنها في مقال له، وعن عمل "لجنة الدفاع عن فلسطين العربيّة"، فقال: «وقد أعلنت اللجنة عن ثلاثة أيام خالدة بالجزائر لفلسطين الشهيدة، وفتحت اكتتابا عامّا بالعاصمة، سيرسل ريعه في أقرب مدّة للمجاهدين، وسوف لا يكون هذا العمل مقصورا على العاصمة فقط، بل ستتابع اللجنة سيرها بانتظام في كامل المدن الجزائرية، حقّق الله آمال العاملين، ﴿ومن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه﴾، ﴿ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسنؤتيه أجرا عظيما﴾»[2].

في صباح ذلك اليوم التقى مصّالي الحاج بأعضاء المكتب المسيّر على سا09، بمقرّ الحزب الجديد، بـــ26 شارع ديكان[3]، وعلى سا10 و30 خرج مفدي زكرياء برفقة ثلاثة مناضلين، يحملون طرودا تحوي بطاقات[4]، قاموا ببيعها بثمن 95 سنتيما للبطاقة الواحدة، وشهد مقرّ الحزب نشاطا دؤوبا طيلة ذلك اليوم[5].

1- علّق صاحب التقرير على خطاب مفدي بأنّه ألقاه بلغة عربية أدبية، لم تكن في متناول جزء من الحاضرين، بينما ألقى لحول الحسين خطبته باللغة الفرنسية؛ ينظر: السابق 01، 02.

2- الآية من سورة الفتح الآية 10، والآية قبلها من سورة محمد، الآية 38. والنصّ من: حزب الشعب بالجزائر يعقد ستّ اجتماعات ويؤسّس لجنة للدفاع عن فلسطين العربيّة، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4434، 1356/06/18هـــ، 1937/08/24م، ص05.

3- هذه المعلومة تتعارض مع محتوى تقرير تجمّع البليدة، فقد تحدّث عن قضاء مصّالي ليلته في فندق أوريون (Hôtel d'Orient)، وأمضى صبيحة يوم 08/13 في جولات وزيارات، وكان برفقته زوجته وابنه، وخطباء تجمّع الليلة الماضية؛ ينظر: رسالة محافظ المركزيّ للشرطة بالبليدة إلى المحافظ، رقم: 10.413، 1937/08/13، 4I4، (CAOM)، ص04. كما تتعارض وحديث تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، ليوم 08/13، عن إخطار المحافظ المركزيّ للشرطة بالبليدة له بمغادرة مصّالي للبليدة على سا13 و5د؛ ينظر: التقرير، رقم: 5532، 1937/08/13، موضوعها: بخصوص مصّالي الحاج، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- هي بطاقة مطبوعة: وجهها باللغة الفرنسية، ونقرأ على ظهرها باللغة العربية، والخطوط المائلة تحدّد نهايات الأسطر: «حزب الشعب الجزائريّ. لجنة الدفاع عن فلسطين. 95 صنتيم /ثلاثة أيام في الجزائر لفلسطين الشهيدة: الجمعة – السبت – الأحد /أيّها المسلم الجزائريّ، إنّ الدرهم الذي تدفعه في سبيل إغاثة فلسطين /الشهيدة، تسجّل بها صحائف المجد لبلادك، احرم نفسك من كمالياتها في سبيل /من يريقون دماءهم في ميدان الجهاد الشريف، اقطع من فمك لقمة الطعام /لمناصرة إخوانك الذين يموتون في سبيل الدفاع عن حرمة العرب /والإسلام، لمثل هذا فليعمل العاملون. (لجنة الدفاع عن فلسطين)»؛ ينظر: البطاقة، 3cab44، (CAOM)، وثيقة مطبوعة وجها وظهرا.

5- ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى المحافظ، بناء على تقرير المخبر (Agent de renseignements)، لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/13، رقم: 866 R.S، غير مؤرّخ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وسبق بيع هذه البطاقات منشور طبع بالمطبعة العربية، باللغتين، ووزّع بالجزائر يوم 08/12 مساء، يخاطب في جزئه المطبوع باللغة العربية الجزائريّين قائلا: «[...] ولذلك سيطوف عليكم أعوان هذه اللجنة بتذاكر الإعانة، فاستعدوا لمقابلتها بسخائكم العربيّ، وبرهنوا للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها عن أنّكم إخوانهم، تبكون لبكائهم، وتفرحون لفرحهم. إنّ الأقطار الإسلامية كلّها قد مدّت يد الإعانة لفلسطين، وبقيت الجزائر وحدها، فلتقم الجزائر بواجبها في الأيام الثلاثة الخالدة»[1].

وفي يوم 08/14، لم يغادر مصّالي المقرّ الجديد للحزب، وتجوّلت ثلاث سيارات أجرة في ضواحي الجزائر، حاملة ثلاث مجموعات من مناضلي(ح.ش.ج)، يقود الأولى زكرياء، كانت وجهتها حسين داي؛ والثانية ذهبت إلى سانت أوجين (Saint-Eugène) بقيادة مصطول، أمّا لحول فقد قاد مجموعته إلى الأبيار، وكانت مهمّتهم بيع البطاقات لإعانة فلسطين؛ ونفس سيارات الأجرة كانت محجوزة لنفس المهمّة يوم 08/15[2]؛ وهو ما يؤكّده تقرير اليوم نفسه –ولو جزئيّا– إذ يتحدّث نفس المخبر –بحسب ما بلغه من معلومات– عن مجموعة يقودها مفدي، خرجت إلى ضواحي الجزائر، وهي تقصد المنازل[3]؛ كما وزّعت هذه البطاقات على تجّار شارع لا لير (La Lyre)، لعرضها على زبائنهم[4].

و لم تقف الإدارة الاستعمارية مكتوفة الأيدي إزاء هذا النشاط المكثّف لحزب الشعب الجزائريّ، فقد ظهر أثره في توسيع نفوذ حزب الشعب الجزائريّ، وامتداد تأثيره إلى فعاليات أخرى في المجتمع الجزائريّ؛ وخشية منها أن يتسبّب في إذكاء مشاعر العداوة ضدّ يهود الجزائر[5]، وما يمكن أن يترتّب عنه من أحداث كتلك التي شهدتها قسنطينة سنة 1934؛ وعليه ألقت القبض في اليوم الأوّل على تسعة من باعة البطاقات، وتابعتهم قضائيّا[6]؛ وفي

1- ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5524، 1937/08/13، موضوعها: بخصوص مناشير لـــ(ح.ش.ج)، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى المحافظ، بناء على تقرير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/14، غير مرقّم، 1937/08/15، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى المحافظ، بناء على تقرير حارس الأمن (Gardien de la paix)، بنونة (Benouna)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/15، رقم: 873 R.S، 1937/08/16، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ولاحظ صاحب التقرير استجابة أغلب التجّار لهذه المهمّة، من غير اكتراث بالانتماء الحزبيّ؛ ينظر: تقرير من (C.I.E) الجزائر –على الأرجح–، 1937/08/23، موضوعه: (ح.ش.ج) والمسألة الفلسطينيّة، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: نفسه. تحدّث التقرير عن تأثير مبادرة (ح.ش.ج) هذه في نادي الترقّي الذي أنشأ بدوره لجنة مماثلة برئاسة الشيخ الطيّب العقبي، ينوبه فيها كلّ من الأمين العموديّ، ومحمد بن الباي.

6- منهم: لحول الحسين، ومقري الحسين؛ ينظر: تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، رقم: 867 R.S، ختم البريد الوارد لمكتب الوالي العامّ مؤرّخ في 1937/08/14، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وتقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى

اليوم الثاني راسلت بشأنهم دوائر ضواحي الجزائر بتوجيهات محدّدة[1]، نجد أثرا لها في إلقاء القبض في حسين داي على اثنين من هؤلاء الباعة، في اليوم الثالث، وإحالتهم على القضاء[2].

وأصدرت اللجنة بيانا يوم 08/16، يستنكر هذه الملاحقات والمتابعات، وأسلوب مفدي واضح فيه، يقول: «يوم 14 أوت، على الساعة الثامنة مساء، بينما كانت طلائع الوفود تجمع الاكتتاب لفائدة فلسطين العربية، في المقاهي والدكاكين، كما يفعل الأجانب لفائدة إسبانيا، واليهود لفائدة الصهيونيّة، إذا بقوّات من البوليس السرّي والعلني تهاجم رجال الاكتتاب، وتلقي عليهم القبض، وتسوقهم للسجن بكلّ عنف وشراسة وهمجيّة، وبعد أن حجزت ورقهم [يعني: بطاقات الاكتتاب]، وما يحملون من نقود لفائدة المجاهدين العرب بفلسطين، أشبعت البعض منهم ضربا، وأودعتهم السجن متتابعين بدون موجب قانونيّ، وبدون استنطاق، ولا محاكمة [...]، وقد بلغ عدد المسجونين عشرة من أعضاء حزب الشعب. إنّنا باسم الإنسانية نحتجّ أمام الجمهورية الديمقراطية عن هذه المظالم الوحشية [...] أيّتها الحكومة الديمقراطية، نحن أحرار قبل كلّ شيء، فيجب احترام حريتنا، وإنّ لنا لكرامة نريد صيانتها، وإنّنا لن نستطيع أبدا أن نصبر أكثر ممّا صبرنا على انتهاك حرمات ديننا، وامتهان حريتنا، وجرح عواطفنا، وخدش كرامتنا»[3].

«هذا الجهد استمرّ بعد الأيّام الثلاثة المقرّرة له سلفا»[4]، وتحدّثت تقارير مراقبة مصّالي، عن انتقاله يوم 08/23، برفقة مفدي واثنين من مناضلي الحزب، إلى حيّ ليفيي (Leveilley)، حيث سلّمه رئيس خلية الحزب

المحافظ، بناء على تقرير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/14، غير مرقّم، 1937/08/15، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وتحدّث المخبر لازيب (Lazib) في تقريره ليوم 08/13، عن إلقاء القبض على مجموعة من هؤلاء الباعة، على سا12 و45د، عند أبواب مسجدين من مساجد الجزائر؛ ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى المحافظ، بناء على تقرير المخبر لازيب، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/13، رقم: 866 R.S، غير مؤرّخ، 4I4، (CAOM).

1- ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى المحافظ، بناء على تقرير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/14، غير مرقّم، 1937/08/15، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- هما: صوابر رابح بن علي، وشملي محمد بن أحمد، كانا يبيعان هذه البطاقات بثمن أقلّه 95 سنتيما؛ ووجد بحوزة الأوّل 118 بطاقة، 106 فرنكا و80 سنتيما؛ وبحوزة الثاني 50 بطاقة، و27 فرنكا و10 سنتيمات؛ ينظر: تقرير محافظ شرطة حسين داي إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، غير مرقّم، 1937/08/16، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- حزب الشعب لجنة الدفاع عن فلسطين العربيّة: بيان سريع، جريدة "النهضة"، س14، ع4431، 1356/06/15هـ، 1937/08/21م، ص03؛ و"في بلاد العروبة: منبر شمال إفريقيا"، جريدة "الشعب"، س01، ع01، 1356/06/19هـ، 1937/08/27م، في كتاب: الحركة الاستقلاليّة في الجزائر بين الحربين 1919-1939، لمحمد قنانش، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر-الجزائر، ط:1982، ص128، 129.

4- ينظر: تقرير من (C.I.E) الجزائر-على الأرجح-، 1937/08/23، موضوعه: (ح.ش.ج) والمسألة الفلسطينيّة، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

بهذا الحيّ حاصل ما تمّ جمعه من الاكتتاب لصالح فلسطين، فكان 147 فرنكا[1]؛ ونفس المهمّة قادته يوم 08/25 إلى ميزون كاري (Maison Carrée)، فروبية، ثمّ بوفاريك[2]؛ وكان مجموع ما تحصّل عليه الحزب من هذا الاكتتاب لصالح فلسطين هو 23.000 فرنكا، من الجزائر وتلمسان خاصّة[3].

لقد تعثّر جهد (ح.ش.ج) في عملية الاكتتاب لصالح القضية الفلسطينيّة، بسبب رقابة الإدارة الاستعمارية الشديدة لهذا النشاط، وقمعها له، وتعثّر خاصّة بإلقاء القبض على قادة الحزب، يوم 1937/08/27، ويشهد له إعلانا "لجنة الدفاع عن فلسطين" الصادرين بعددي جريدة "الشعب"، الداعيين باعة البطاقات إلى تسليم ما بعهدهم من مبالغ لإرسالها إلى فلسطين، وتمّ إرسال ما جمع يوم 09/15؛ وكان المبلغ زهيدا مقارنة بتوقّعات الإدارة، فلم يتجاوز 5640 فرنكا[4]، بسبب فتور متابعة الحزب ميدانيّا للعملية بالدرجة الأولى، فقد دعت "لجنة الدفاع عن فلسطين" الباعة في البيانين إلى تسليم ما بعهدهم في أقرب الآجال.

شارك مصّالي الحاج مساء يوم 08/22 في اجتماع عقدته جمعية علماء السنّة للطرق الصوفية، بملعب حسين داي، وتناول فيه الكلمة[5]؛ وفي يوم 08/23، استقلّ نفس السيارة التي ذهبت به إلى حيّ ليفيي، وتوجّه إلى شرشال على سا17، لحضور اجتماع خاصّ بخلية (ح.ش.ج) بشرشال[6]، وباستثناء هاتين الواقعتين لم يُسجّل

1- ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهلية والشرطة العامّة، بناء على تقرير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/23، رقم: 901 R.S، غير مؤرّخ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ والملحق619.

2- وكان برفقته في هذه الجولة مفدي ولحول في سيارة أولى، وتبعتها سيارة تحمل بعض مناضلي الحزب؛ كان الانطلاق من الجزائر على سا15 و15د، والعودة إليها على سا20 و15د؛ ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهلية والشرطة العامّة، بناء على تقرير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/25، رقم: 910 R.S، 1937/08/26، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. غير أنّ تقريرا لنائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، ذكر أنّ مصّالي لم ير لا في روبية، ولا في بوفاريك؛ ينظر: التقرير، رقم: 5849، 1937/08/26، موضوعه: بخصوص مصّالي الحاج، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- إذ لم يتحصّل الحزب -حين كتابة الإدارة الاستعمارية لتقريرها- على ما جمعته خلايا الحزب بعمالتي قسنطينة ووهران؛ ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5804، 1937/08/24، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وتحدّث تقرير آخر، عن مبلغ يقارب 20.000 فرنكا، مجموع ما حصل عليه الحزب من هذا الاكتتاب؛ ينظر: تقرير من (C.I.E) الجزائر -على الأرجح-، 1937/08/23، الأرشيف غير المتداول، (CAOM).

4- ينظر: إعلان عاجل، جريدة "الشعب"، ع01؛ والإدارة: إعلان، جريدة "الشعب"، س01، ع02، 1356/08/10هـــ، 1937/10/15م، كلاهما من كتاب: الحركة الاستقلالية في الجزائر129، و150.

5- ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5791، في 1937/08/23، موضوعه: اجتماع عام إسلامي بحسين داي، 4I4، (CAOM)، وثيقة من 03 صفحات؛ وتقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهلية والشرطة العامّة، بناء على تقرير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/22، رقم: 897 R.S، غير مؤرّخ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- انعقد في ساحة بناية سعدي، في ضواحي شرشال، بعد أن رفضت البلدية منحهم قاعة اجتماعاتها؛ حضر هذا الاجتماع ما بين 250 إلى 300 شخصا؛ ترأسه: الحاج صالح حمدود، ومساعداه: الحاج لسال (Lassel)، والحاج بوعلام؛ وكان مصّالي الحاج المتدخّل الوحيد في هذا التجمّع؛ وامتدّ من سا18 إلى سا20؛ ينظر: رسالة المفتّش غاستون فالي (Vallet Gaston) إلى محافظ شرطة شرشال، رقم: 155، 1937/08/24،

على نشاط رئيس الحزب شيء ذو بال، غير اللقاءات المعتادة مع مسؤولي الحزب، أو مع مناضليه[1]، أو مع غيرهم، وحتّى التجمّع الذي كان مزمعا عقده بالجزائر، يوم 08/22، بسينما لا بارل (La Perle)، أو بالمقرّ الجديد للحزب لم يقع[2].

كلّ ذلك يدلّ على فتور عرفه نشاط الحزب في هذه الأيّام، بعد الأيّام الثلاثة لصالح فلسطين إلى يوم إلقاء القبض على زعماء حزب الشعب الجزائريّ يوم 08/27، وإنّ مرض مصّالي، وملازمته لبيته طيلة يومين كاملين، وعدم خروجه منه إلاّ في مساء اليوم الثالث[3]، لا يفسّر لوحده -في تقديرنا- تقلّص نشاط الحزب؛ وإنّما يفسّره تأثّر نشاط الحزب لصالح القضية الفلسطينيّة بشدّة قمع الإدارة الاستعمارية له، فتسبّب في عرقلته عرقلة شديدة، حالت دون تحقيق أهدافه منه، فقد أبدى مصّالي الحاج، في خطابه الذي ألقاه في تجمّع شرشال، يوم 08/23، استياءه من الرقابة الشديدة التي تسلّطها عليه الإدراة الفرنسيّة، إضافة إلى القمع الذي تمارسه في حقّ مناضلي الحزب، خاصّة باعة البطاقات (اعتقالات، إهانات، ومصادرات للأموال التي جمعوها ...إلخ)[4]؛ كما يفسّره -ربّما- تخفيف الحزب وتيرة نشاطه في انتظار مرور العاصفة التي تعيشها أروقة الإدارة الاستعماريّة في الجزائر وفرنسا، في خصوص موقفها من حزب الشعب الجزائريّ، ونشاطه المناهض لها، ولبقائها بالجزائر.

موضوعها: تقرير حول اجتماع خاصّ عقده مصّالي الحاج، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ وتقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5795، 1937/08/24، موضوعه: بخصوص مغادرة مصّالي الحاج، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

1- ذهب مساء يوم 08/17 إلى مقرّ الحزب الجديد، برفقة مصطول وزكرياء وبلامين، وحلّ أعضاء المكتب المسيّر، واستقبلوا هناك الكثير من المناضلين؛ ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهلية والشرطة العامّة، بناء على تقرير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/17، رقم: R.S 882، 1937/08/18، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. ومكث صبيحة يوم 08/25 ببيته، واستقبل فيه عددا من مسؤولي الحزب: زكرياء ولحول وغيرهم؛ ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهلية والشرطة العامّة، بناء على تقرير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/26، رقم: R.S 910، 1937/08/26، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهلية والشرطة العامّة، بناء على تقرير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/20، رقم: R.S 895، 1937/08/21، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. ويؤكّد تقرير مراقبة يوم 08/24 عدم وقوع أيّ اجتماع بمقرّ الحزب الجديد؛ ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهلية والشرطة العامّة، بناء على تقرير المخبر لازيب، رقم: R.S 905، غير مؤرّخ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- لم يغادر مصّالي بيته طيلة يوم 08/20، ولازمه يوم 08/21 بسبب مرضه، و لم يغادره إلاّ مساء يوم 08/22؛ ينظر: تقارير المحافظ المركزّي للشرطة إلى الكاتب العامّ للقضايا الأهلية والشرطة العامّة، بناء على تقارير المخبر لازيب (Lazib)، المكلّف بمراقبة مصّالي أيّام 20 و21 و08/22، أرقام: R.S 895، وR.S 896، وR.S 897، 21 و[22] و1937/08/23، 2I37، (CAOM)، ثلاث وثائق من صفحة واحدة.

4- ينظر: رسالة المفتّش غاستون فالي (Vallet Gaston) إلى محافظ شرطة شرشال، رقم: 155، 1937/08/24، 4I4، (CAOM)، ص02.

في هذه الأيّام كان مفدي –على الأرجح– يعدّ العدد الأوّل من جريدة "الشعب" للطبع: ورد الحديث عن قرب صدورها في تقرير للمحافظة المركزية للشرطة، يوم الثلاثاء 08/03، على أن يكون في الأسبوع الموالي[1]؛ وتحدّث تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، عن إعلان جريدة "النهضة" التونسيّة يوم 08/10، عن صدورها قريبا[2]؛ وأعلن مفدي نفسُه عنها في ختام مقال له بجريدة "النهضة"، يوم 08/13[3].

وجريدة "الشعب" هي: "لسان الحركة الوطنيّة بالجزائر المسلمة العربيّة"؛ وشعارها: «إرادة الشعب من إرادة الله، وإرادة الله لا تقاوم»[4]؛ مديرها السياسي: مصّالي الحاج، وصاحب امتيازها: بلامين علي، ورئيس قلم تحريرها: مفدي زكرياء، وأمين مالها: مصطول محمد. وتاريخ العدد الأوّل منها: يوم الجمعة 1356/06/19هـ، 1937/08/27؛ وعنوان إدارتها العامّة: نهج بوتان (Boutin)، رقم: 14[5]؛ غير أنّه طبع يوم 08/28[6]، بالمطبعة العربيّة، 70 شارع روفيقو (Rovigo)، والجريدة نصف شهرية[7]؛ بينما توزيع العدد الأوّل منها وبيعه كان يوم 09/01[8]، ويظهر في كلّ ذلك أثر إلقاء القبض على زعماء حزب الشعب الجزائريّ، يوم 1937/08/27.

رفع نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر تقريرا إلى الوالي العامّ، يوم 09/03، تبعا لتقريره رقم: 5497، بتاريخ 08/12، وقد سبق، يخبره بصدور العدد الأوّل من جريدة "الشعب"[9]، وأرفقه بمدونة معلومات خاصّة بالجريدة، وصفت اتّجاهها السياسيّ أنّه «وطنيّ متطرّف»[10].

1– ينظر: تقرير المحافظ المركزّي للشرطة إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، بناء على تقرير حارس الأمن بنونة (Banouna)، المكلّف بمراقبة مصّالي يوم 08/03، رقم: 819 R.S، 1937/08/04، 3cab44، (CAOM).

2– ذكر أنّ عدد الجريدة هو: 2240، ولا يصحّ، وصوابه: 4420؛ ينظر: التقرير، رقم: 5497، 1937/08/12، موضوعه: صحافة عربية، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3– جواب أقرب على جواب قريب، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س14، ع4423، 1356/06/05هـ، 1937/08/13م، ص05. وهذا الإعلان قد كتبه بعد يوم 08/09، تاريخ انعقاد تجمّع بالجزائر، ذكره في إعلانه عن المقال القادم.

4– وهي مقولة لسعد زغلول باشا؛ ينظر: مدوّنة عن جريدة "الشعب" عدد 01، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5– ينظر: صورة النصف العلويّ من الصفحة الأولى، جريدة "الشعب"، ع01، كتاب: الحركة الاستقلاليّة في الجزائر166.

6– على خلاف ما يذكره محمد قنانش، إذ يقول: «خرجت جريدة "الشعب" بعد ثلاثة أيّام [يعني: بعد 08/27]، تعلن نبأ الاعتقال، وترفع راية الكفاح الوطنيّ، بلسان عربيّ مبين، وبحماس منقطع النظير» حزب الشعب الجزائريّ268.

7– ينظر: مدوّنة عن جريدة "الشعب" عدد 01، 15h20، (CAOM).

8– ينظر: تقرير بخطّ القائد ويندر (Wender) على الأرجح، 1937/09/02، عنوانه: جريدة "الشعب"، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وذكرت المدوّنة السابقة أنّ التوزيع تمّ يوم 09/02؛ ينظر: مدوّنة عن جريدة "الشعب" عدد 01، 15h20، (CAOM).

9– أرسل التقرير إلى مدير مكتب الوالي العام في نفس اليوم، وهو يحمل ختم البريد الوارد الخاصّ بمكتب الوالي العامّ مؤرّخا في نفس اليوم؛ ينظر: التقرير، رقم: 6036، في 1937/09/03، موضوعه: بخصوص جريدة "الشعب"، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

10–ذكرت المدوّنة أنّه طبع من العدد الأوّل ما يقرب من 1.000 نسخة؛ ينظر: المدونة، صادرة عن مديرية الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6036، 1937/09/02، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وفي يوم 09/08 راسل الوالي العام وزير الداخلية الفرنسيّ بباريس، بعنوان له دلالته: «صحافة باللغة العربية: منع صحيفة: "الشعب"»، يقول فيه: «إنّ العدد الأوّل من هذه الجريدة قد ظهر [...]؛ إنّه يحتوي على مقال- برنامج، نجد فيه هدف الجريدة محدّدا بوضوح: «"جعل الشعب الجزائريّ سيّدا على أراضيه، ومتحكّما في وطنه"[1] ... "تحت سلطة الدم العربيّ والعقيدة الإسلاميّة"[2]». إنّ المقال نفسه دعوة صريحة للجهاد، وهو ما تؤكّده المقاطع الآتية منه: «... أيّها الشعب، تعال، أسرع، ليس الوقت وقت رقاد، إنّ الصرخة تدوّي في السماوات[3] ... إنّ اللعنة هي نصيب الطغاة المستهترين[4]... سلام عليك أيّها الشعب من اليوم الذي كنت فيه حرّا وقويّا، إلى اليوم الذي ستصبح فيه، بفضل جهادك، وبفضل جهودك، سيّدا في أرضك، ومتحكّما في وطنك[5] ... / دورنا أن نكون حازمين، صادقين، ومستعدّين للتضحية ... ودورك أن تتهيّأ لدخول ميدان جهادنا التحريريّ الشريف[6] ... تعالوا نكتب بدمنا الغالي، لنعلّم أبناءنا كيف ينتصرون في الكفاح ... إنّ الذي يظهر ضعيفا ليس جديرا بأدنى اعتبار[7]». لعلّكم ترون -بلا ريب- مثلي، سيادة الوزير، أنّ الدعاية التي تقوم بها جريدة "الشعب"، تبرز رغبة في التحريض والتهييج، لا يمكن تحمّلها أكثر من هذا، بسبب ما ينجم عنها من عواقب وخيمة على الأمن العامّ، في أوساط الأهالي بالجزائر. وعليه، لي الشرف أن أعرض لموافقتكم مشروع مرسوم -مرفق بهذه الرسالة- يخصّ منع هذه الدورية في تراب المستعمرة»[8].

---

[1]- وردت هذه العبارة في المقال على النحو الآتي: «فسلام عليك -يا شعب- يوم كنت حرّا عزيزا، ويوم أردت أن تسترجع عزّك وحرّيتك، **ويوم تعود بفضل جهادك واعتمادك على نفسك سيّد أرضك، وربّ بلادك...!**» صرخة الشعب: مبدؤنا في طريق الجهاد، قلم التحرير [مفدي زكرياء]، جريدة "الشعب"، س01، ع01، 1356/06/19هـ، 1937/08/27م، ص01، من كتاب: الحركة الاستقلاليّة في الجزائر107.

[2]- لم أعثر على هذه العبارة، ولا على ما يقرب منها، في المقال الذي ذكر أخذها منه، ولا في غيره.

[3]- في الأصل: «ولقد أذّن مؤذّن: أيّها الشّعب البدار، البدار، فلات حين هجوع، ودوّت في السّماوات الصرخة الكبرى، فلات ساعة خنوع» الحركة الاستقلاليّة في الجزائر106.

[4]- في الأصل: «وبُرِّزت اللعنة والهزيمة للمتثاقلين العابثين، وأخذ الذين ظلموا الصيحة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين» نفسه.

[5]- في الأصل: «فسلام عليك -يا شعب- يوم كنت حرّا عزيزا، ويوم أردت أن تسترجع عزّك وحرّيتك، ويوم تعود بفضل جهادك واعتمادك على نفسك سيّد أرضك، وربّ بلادك» نفسه107.

[6]- في الأصل: «منّا واحدة، ومنكم واحدة، ومن الله واحدة: ثباتنا، إخلاصنا، تضحيّتنا في خدمتكم، وتفانينا في الدّفاع عن كرامة البلاد؛ رضاكم، عنايتكم، ونصرتكم المعنويّة والماديّة، وتجهيزكم إيّانا بالعدّة الكافية، للنزول إلى ميدان الجهاد التحريريّ الشريف؛ البصيرة، والتوفيق، والتأييد، والرعاية، والسداد» نفسه107، 108.

[7]- في الأصل:
«ونكتبْ بالدّمِ الغالي حروفًا، نعلّمُ للبنينِ بها الكِفَاحَا
فلا نالَ الكرامةَ مَن تَوَانَى، ولا رُزِقَ الحياةَ مَنِ اسْتَرَاحَا» [...]
نفسه108.

[8]- ينظر: الرسالة، بإمضاء الوالي العام: جورج لو بو (Georges Le Beau)، غير مرقّمة، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ أرفق بها مشروع المرسوم، وثيقة من صفحة واحدة.

إنّ المسافة بين الترجمة وأصلها كانت متفاوتة، وقد يفسّر بعض ذلك التسرّع في ترجمة مقاطع مطوّلة من أهمّ محتويات الجريدة في وقت قياسيّ[1]؛ لكنّ بعضها الآخر يشفّ عن الرغبة من الإدارة الاستعمارية بالجزائر في حسم الأمر في أقرب وقت، نظرا للحالة الاستثنائيّة التي تمرّ بها الجزائر في أعقاب إلقاء القبض على زعماء الحزب، فاتّخذت كلّ الوسائل للتغلّب على بطء الإجراءات في الإدارة الفرنسية بباريس، وتماطلها في الردّ بالإيجاب، على ما سبق لها تجربته في قضية حلّ "نجم الشمال الإفريقيّ"، فلم تتوان في حشد جميع العبارات الواردة في المقال الافتتاحيّ، والتي من شأنها أن تثير اهتمامها، وتجعلها تسرع في اتّخاد القرار، ولم تر حرجا في إضافة عبارة لم تكن في المقال، وتحوير أخرى بما يخرجها من السياق الذي وردت فيه، ويجعلها هدفا واضحا للجريدة.

والحقّ أنّه كان يوجد بالجريدة ما يجنّبها كلّ ذلك، فالجريدة بكاملها كانت من تأليف مفدي، وكان مفدي قد بلغ في تصريحه بعدائه للاستعمار الفرنسيّ مستوى لا يبعد كثيرا عن إعلان الثورة المسلّحة، وكان ذلك واضحا أشدّ الوضوح، فها هو القائد ويندر (Wender) يقول في أحد تقاريره الخطيّة عنه ما يلي: «إنّه يُبرَز بمزيد من التأكيد أنّ النشاط الشخصيّ لمفدي زكرياء جدّ سيّء، بسبب كون المعنيّ شديد الكره لكلّ ما هو فرنسيّ»[2]؛ وفي العدد الأوّل من الجريدة نجد في المقال الذي كتبه على لسان زعيم الحزب مصّالي الحاج، بعنوان "الشعب يتكلّم"، يقول متحدّثا عن اللغة العربيّة: «وإن تكن جريدة "الشعب" مؤسّسَة للجهاد في سبيل تحرير الجزائر، فهي لأجل هذا التحرير المنشود تبذل جانبا عظيما من مراحل جهادها في بثّ هذه اللغة بين طبقات الأمّة»[3]، ويقول في ختام مقال له بعنوان "ماذا يتغالى في مرجل المؤتمر؟": «إنّ حزبنا يوجد دائما في طليعة الكفاح، وفي صدر الجهاد، ولقد مارسته ودرّبته المشاكلُ الإداريّة، من التفتيشات، والقبض، والاعتداءات؛ وألِفَ لقاء هجمات الحاسدين الأفّاكين، والخونة المذبذبين الذين سلقهم الخوف، يشقّ طريقه شامخ الأنف، رافع الرأس إلى الحرية المنتظرة، والسعادة المنشودة. ألا فليعلم الاستعمار، وليعلم أذناب الاستعمار، أنّه لا شيء يستطيع أن يصدّ سبيلنا، أو يقف بنا عن السير لتحقيق ما عاهدنا عليه الله، ورسوله، والشعب، والملائكة، والناس أجمعين»[4].

1- ترجمت بين تاريخ توزيعها في08/01، وتاريخ مراسلة الوالي العامّ بشأنها في 08/03؛ ينظر: ترجمة العدد الأوّل من جريدة "الشعب"، غير مؤرّخة، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من سبع صفحات.

2- ينظر: تقرير بخطّ القائد ويندر (Wender) على الأرجح، 1937/08/02، عنوانه: الوضعية في الجزائر، بتأثير حركة مصّالي، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- الحركة الاستقلاليّة في الجزائر117.

4- الحركة الاستقلاليّة في الجزائر126، 127.

لم يجب وزير الداخلية الفرنسيّ على رسالة الوالي العامّ إلاّ يوم 09/23[1]، بعد ثلاثة أيّام من صدور مرسوم منع الجريدة يوم 09/20، وقد قرّر فيه مجلس الوزراء، بناء على اقتراح الوالي العامّ للجزائر، منع تنقّل وبيع وتوزيع جريدة "الشعب" الصادرة في الجزائر، باللغة العربية، تأسيسا على «كون الجريدة تبرز توجّهات من شأنها الإخلال بالنظام العامّ في أوساط الأهالي بالجزائر»[2].

وكما حال إلقاء القبض على قادة الحزب دون إتمام عمل حزب الشعب لصالح القضية الفلسطينيّة، حال كذلك دون توسّعه جنوبا، بعقد تجمّع بمدينة المدية، ففي يوم 08/27 انتقل لحول الحسين بمعية عدد من مناضلي الحزب بالجزائر إلى المدية، فأبلغ محافظ شرطة المدية رئيس خلية الحزب بالمدية فخّار أحمد قراره بمنع هذا التجمّع، فلم يستجب مناضلو الحزب لقراره، وقرّروا عقده رغم منع الإدارة الاستعمارية؛ ثمّ جاء الأمر بإلقاء القبض على الكاتب العامّ للحزب لحول الحسين، بعد أن بلغ المنظّمين خبر عدم إمكان حضور زعيم الحزب هذا الاجتماع، وتعيين لحول نائبا له، فلمّا ألقي عليه القبض أجهض التجمّع[3].

1- فقد صرح بأنّ رسالته هذه هي جواب على رسالة الوالي العامّ، رقم: E.S 8672، ليوم 08 من الشهر الجاري؛ ينظر: الرسالة، غير مرقّمة، موضوعها: صحافة باللغة العربية: منع جريدة "الشعب"، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- والمرسوم صورة طبق الأصل من مقترح الوالي العامّ، لم يجر عليه أيّ تعديل؛ ينظر: المرسوم، بإمضاء وزير الداخلية: ماركس درموي (Marx Dormoy)، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وفي 10/15 تدخّلت الإدارة الاستعماريّة، وصادرت 16 عددا مطبوعا من العدد الثاني من جريدة "الشعب"، من أصل 10.000 نسخة طلب الحزب من المطبعة العربية طبعها؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7031، 1937/10/15، موضوعه: بخصوص جريدة "الشعب"، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: رسالة محافظ الشرطة إلى إلى نائب المحافظ بالمدية، رقم: 1344، 1937/08/27، موضوعها: اجتماع (ح.ش.ج)، وإلقاء القبض على لحول حسين بن أحمد، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ ورسالة نائب المحافظ بالمدية إلى المحافظ، رقم: 3968، 1937/08/28، موضوعها: بخصوص اجتماع كان (ح.ش.ج) يزمع عقده يوم 27 أوت 1937، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

الباب الثالث:

فترة السجن 1937ـ 1939

الفصل الأوّل: قبل المحاكمة

اعتقال قادة حزب الشعب الجزائريّ:

يقول مصّالي الحاج في مذكّراته عن اعتقاله، واعتقال رفقائه من قادة الحزب: «لماذا هذا التاريخ بالضبط؟ عندما نتتبّع نشاطات المؤتمر الإسلاميّ ما بين جوان 1936، وأوت 1937، نجد لدينا قرائن كافية تدلّ على أنّ الاستعمار قد مارس بفعالية التفرقة بين حزب الشعب الجزائري والمؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ؛ لقد كانت أوساط الإدارة العليا الجزائرية والباريسيّة تعتقد أنّ العلماء سيتمكّنون -بمساعدة الشيوعيّين- في النهاية من القضاء عليّ، وكانوا يتخيّلونهم قادرين على تدمير (ح.ش.ج)، وعلى جلب ثلاثة أرباع مسؤولينا ومناضلينا إلى صفوفهم [...]. لقد كان الاستعمار يملك إذن أدوات مناسبة للتخلّص بأقلّ التكاليف من (ح.ش.ج) ورئيسه، ومن غير صنع بطل أو شهيد؛ ولكن عندما لاحظ أنّ مقاومتنا جعلت الخطّة غير قابلة التحقيق، اتُّخذ القرار في أعلى مستوى باستعمال وسائل القمع»[1]. هذا انطباع مصّالي الحاج عن هذه الواقعة، وحقيقة ما جرى تكشفه وثائق الإدارة الاستعمارية:

إثر اجتماع (ح.ش.ج) بقاعة سينما ديامون (Diamont)، بتاريخ 1937/07/03، راسل -كما مرّ- النائب العامّ لدى المحكمة الابتدائيّة بالجزائر (Cour d'appel)، حافظ الأختام ووزير العدل بباريس، يوم 1937/07/09، وبعد استعراض وقائع الاجتماع، عقّب عليها بقوله: «المتدخّلون الثلاثة [يعني: مصّالي وآخران] طالبوا –مستعملين تعابير عنيفة– ببساطة تحرير الشعب الجزائريّ، وطرد كلّ ما هو فرنسيّ؛ الأمر الذي كان له أثر قويّ في الحاضرين»، ثمّ استشاره في إحالة القضية على التحقيق، لاعتباره الاجتماع، وما حدث فيه، تظاهرة ضدّ السيادة الفرنسيّة في الجزائر[2]؛ وبعد يومين من ذلك، راسل الوالي العامّ في 07/11 وزير الداخلية الفرنسيّ، بنفس مضمون الرسالة السابقة مع مزيد توضيح، ومزيد تأكيد على ضرورة متابعة مصّالي و(ح.ش.ج) بتهمة خرق قانون 1935/03/30، قانون رينيي (Régnier)، وهو عين ما اقترحه النائب العامّ؛ وزاد عليه متابعته وحزبه بتهمة إعادة إنشاء تنظيم منحلّ[3].

وفي 07/30 استقبل الكاتبُ العام للحكومة، باقتراح من محافظ عمالة الجزائر، وبحضوره، النائب العامّ

1– ينظر: مذكرات مصّالي الحاج236.

2– ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العام، بإمضاء: هيرول (Herault)، رقم: 14.596، 1937/07/09، 3cab46، (CAOM)؛ أرفقت بها نسخة من الرسالة المذكورة؛ بالإضافة إلى تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة موري (Maury) إلى مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، رقم: 682 R.S، غير مؤرّخ.

3– ينظر: الرسالة، من غير ترقيم، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات.

هيرول (Herault)، ونائب الجمهورية قودان (Godin)، لسؤالهما عن الإجراءات القضائيّة السائرة المفعول ضدّ مصّالي الحاج، فتحدّثا عن قضيّتين تخصّانه: الأولى: قضية ضدّ مجهول لمحاولة إعادة إنشاء تنظيم منحلّ، متمثّلا في "أحباب الأمّة"، و"حزب الشعب الجزائريّ"؛ والثانية: المساس بالسيادة الفرنسيّة إثر الخطب التي ألقاها إبّان الحملة الانتخابيّة بالجزائر. وإذا كانت الأحكام المتوقّعة للقضية الأولى ستفتقر حتما إلى الردع والفعالية، لأنّها ستفضي بالدرجة الأولى إلى حلّ التنظيمات الجديدة، لأنّ القانون غير رادع في هذا الخصوص[1]؛ فإنّ القضية الثانية على العكس من ذلك تماما، إذ أكّد هيرول وقودان على أنّ الأدلّة المتوفّرة لديهما حاليا كفيلة –حسب قانون رينيي– بسجن مصّالي ما بين سنتين وخمس سنوات[2].

وفي المدوّنة التي رفعها محافظ عمالة الجزائر إلى الوالي العامّ، وضمّنها وقائع هذا الاجتماع، أشار المحافظ إلى رسالة ثانية من النائب العامّ إلى حافظ الأختام، وتحمل نفس طلب المتابعة القضائيّة، غير أنّها بقيت وسابقتها من غير ردّ؛ وأضاف قائلا: «يتعيّن –في الواقع– تجنّب إجراء اعتقال غير مؤسس على أدلّة ثابتة، مثل ما حدث في قضية العقبيّ، لكي تكون الضربة التي تطال أصحابها ذات أثر نفسيّ بليغ»؛ وعليه اقترح على الوالي العامّ أن يباحث أثناء إقامته بباريس كلاّ من وزير الداخلية، ورئيس المجلس، في هذا الموضوع. وبيّن المحافظ في ختام المدوّنة الأثر الإيجابيّ المرجوّ لاعتقال مصّالي الحاج على مناضلي الحزب، وعلى نشاطه؛ وبيّن فضلا عن ذلك أثره الإيجابيّ على التنظيمات الفاعلة في الساحة السياسية الجزائريّة: جمعية العلماء، والحزب الشيوعيّ؛ كما لم يفته أن يطمئن الوالي إلى إمكان التحكّم في الوضع المترتّب على اعتقال مصّالي باتّخاذ التدابير الأمنية المناسبة[3].

وفي أعقاب تجمّع حزب الشعب ليوم 07/25، بسينما لا بارل (La Perle)، كتب النائب العامّ رسالة جديدة إلى وزير العدل الفرنسيّ، يوم 08/06، استعرض فيها وقائع التجمّع اعتمادا على تقرير المحافظ المركزيّ للشرطة، لا على تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، وبينهما بون شاسع[4]، واعتبرها جريمة تظاهر ضدّ السيادة الفرنسيّة، ورجا منه إخباره عن إمكان صدور أمر بإحالة هذه القضية على التحقيق، بهدف القيام بمتابعات للمتورّطين فيها أمام القضاء الجزائيّ؛ وأضاف بأنّ تقارير الشرطة تتحدّث عن نشاط يهدف حزب الشعب منه بوضوح إلى إحداث اضطرابات، وقد تمثّل في التجمهر على الطريق العامّ، وعقد اجتماعات، وشنّ صدامات[5].

1– قانون 10 جانفي 1936؛ ينظر: رسالة النائب العامّ إلى حافظ الأختام، من غير ترقيم، 1937/09/09، وثيقة من 04 صفحات؛ أرفق بها: وضعية المتابعات القضائيّة لدى المحكمة الابتدائيّة بالجزائر (Cour d'appel d'Alger)، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

2– ينظر مضمون الفقرة كاملة: مدوّنة إلى السيّد الوالي العام، من غير ترقيم، جويلية 1937 (بخطّ اليد)، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من 08 صفحات، ص05–07. وقد وقع الاجتماع يوم 07/30، وهو ما يدلّنا على أنّ المدوّنة إنّما كتبت في الأيّام الأولى من شهر أوت.

3– ينظر: نفسه07، 08.

4– قد سبق بيانه، ينظر: الباب الثاني، ص243.

5– ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العام، رقم: 16.427، 1937/08/06، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت بها نسخة

وكان تجمّع (ح.ش.ج) بدلس، يوم 08/05، مناسبة لرسالة ثالثة بعثها النائب العامّ إلى حافظ الأختام، يوم 08/13، تحدّث فيها عن وضعية مثيرة للقلق، لا يمكن وضع حدّ لها إلاّ بإصدار قرار يقضي باعتقال مصّالي الحاج، بمناسبة التحقيق المفتوح ضدّه في الجزائر، بالتهمتين السابق ذكرهما، ورجاه أن يخبره في أقرب وقت، إن كان يوجد من وجهة نظر السياسة العامّة بالجزائر ما يعارض القيام بهذا الإجراء[1].

وقبله بيوم أرسل الوالي العامّ وهو بباريس إلى رئيس المجلس رسالة، أوضح فيها الوضعية السياسية بالجزائر، من خلال نشاط أربع تنظيمات، هي: حزب الشعب الجزائريّ، والحزب الشيوعيّ، وجمعية العلماء، وفدرالية المنتخبين المسلمين، بقيادة ابن جلول، معتبرا نشاط الجميع في الآونة الأخيرة مضادّا للسيادة الفرنسيّة بالجزائر، بعد أن كان مثل هذا النشاط مقصورا على تنظيمات مصّالي المتعاقبة، وخلص إلى القول: «إذا لم تتخذ السلطة المركزية، والسلطات الفرنسيّة التدابير اللازمة ضدّ هذه الدعاية التي يمارسها المتطرّفون ضدّ فرنسا، فإنّ تفاقم مدّ هذه الرابطة الإسلامية (Panislamisme)، المتزامنة مع عودة الثعالبيّ إلى تونس، ستتسبّب لا محالة في أخطر خيبات الأمل خلال الشهور القادمة»؛ وعليه طلب منه على وجه التأكيد أن يوضّح لحافظ الأختام ضرورة الانطلاق فورا في متابعة مصّالي ورفقائه بتهمة المساس بالسيادة الفرنسية؛ ومواصلة المتابعات السائرة المفعول ضدّ مجهول في حقّ مناضلي "حزب الشعب الجزائريّ"، و"أحباب الأمّة"، بتهمة إعادة إنشاء تنظيم منحلّ؛ موضّحا في الختام أنّ الإجراء الأوّل، والضروريّ حالا، سيضع بواسطة عقوبات صارمة حدّا «للدعاية الإجرامية» لمصّالي ورفقائه؛ أمّا الثاني والثالث[2] سيوضّح بأنّ الحكومة الجمهورية تعارض بقوّة أيّ نشاط يتستّر تحت غطاء دعاية دينيّة أو اجتماعية، وليس له من هدف في الحقيقة سوى طرد فرنسا من شمال إفريقيا[3].

وهذه أوّل مرّة تتجاوز الإجراءات المطالب بتطبيقها ضدّ حزب الشعب زعيمه إلى غيره من كبار مسؤولي الحزب، وإذا كانت رسائل النائب العامّ المتكرّرة لم تحقّق مرغوب الإدارة الاستعماريّة في الجزائر، فإنّ هذه الرسالة

من الرسالة المذكورة، وثيقة من صفحة واحدة.

1- ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العام، رقم: 17.290، 1937/08/13، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت بها نسخة من الرسالة المذكورة، وثيقة من صفحتين.

2- هو نفس المتابعة القانونيّة الثانية، ونفس التهمة، ولكن في فرنسا، ويخصّ تنظيم "التجمّع الاستعماري" الذي كان يترأسه مصّالي الحاج، لم أورده لعدم وقوع هذه المتابعات، لأنّ هذا التنظيم لم يكن له وجود حقيقيّ وإداريّ؛ ينظر: رسالة نائب الجمهورية إلى النائب العامّ، بلا ترقيم، 1937/08/19، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

3- ينظر: الرسالة، رقم: 268 C.P، 1937/08/12، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات. وفي أثناء وجود الوالي العام بباريس وصلته برقية من الكاتب العامّ للحكومة، تؤكّد على ضرورة الحصول على الموافقة للقيام بمتابعات قضائية بموجب قانون رينيي، وعلى استعجاليتها، بسبب النشاط المتزايد لمصّالي، وهو مطلب قدّم لحافظ الأختام منذ 07/09؛ ينظر: البرقية التلغرافية، بلا ترقيم، وغير مؤرّخة، تحمل عنوان الوالي العامّ بباريس: 16 شارع البيراميد (Des Pyramides)، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

بما أسبغه عليها الوالي العامّ من طابع التهويل والمبالغة، حرّكت السلطة المركزية بالفعل، غير أنّ حركتها كانت بطيئة بنظر الإدارة الاستعمارية بالجزائر، فواصلت ضغطها:

راسل وزير الداخلية حافظ الأختام يوم 08/14 طالبا منه ما طالب به الوالي العام رئيس المجلس في الرسالة السابقة، ومستعملا نفس تعابيره في بيان الإجراءات الواجب اتّخاذها، والأثر المتوخّى منها[1]؛ وانتظر وزير العدل يوم 08/17 ليرسل الرسالة التي ارتقبتها الإدارة الاستعمارية بالجزائر بفارغ صبر، أرسلها إلى النائب العامّ، سمح له فيها بإجراء المتابعات القضائيّة اللازمة، غير أنّه طلب منه انتظار توجيهات جديدة فيما يخصّ قرار الاعتقال، لأنّه استشار في الأمر رئيس المجلس، ووزيرالداخلية، وهو ينتظر الردّ[2]؛ وهو ما لم يرض الإدارة الاستعماريّة بالجزائر لأنّ غرضها كان سجن مصّالي ورفقائه بالدرجة الأولى، فما كان من الوالي العامّ إلاّ أن واصل ضغطه على السلطات العليا، ولضمان الفعالية والسرعة، تجاوز الرسائل الإداريّة إلى البرقيات التلغرافيّة، فكتب يوم 08/20 برقية إلى رئيس المجلس ووزير الداخلية، وبعد بيان محتوى رسالة وزير العدل السابقة، قال: «أطلب إعطاء الموافقة عاجلا لوزير العدل لإجراء الاعتقالات، فهي وحدها الفعّالة في وضع حدّ للدعاية الإجراميّة [...] والأوْلى أن يقدّم وزير العدل هذه الموافقة تلغرافيا إلى النائب العامّ»[3]؛ ولّما لم تأت الموافقة راسل رئيس المجلس تلغرافيّا مرّة ثانية يوم 08/24، قائلا: «ألحّ من جديد لديكم من أجل منح وزير العدل الموافقة تلغرافيا إلى النيابة العامة بالجزائر، لاعتقال مصّالي ورفقائه، وهو ما طالبت به النيابة العامة منذ شهر، قف. الدعاية الإجرامية لمصّالي تستمرّ بلا رادع، وبكيفية خطيرة، وبسبب انعدامه تعوّد الشعب على اعتبار الدعاية ضدّ فرنسا مشروعة»[4].

بعد وصول رسالة وزير العدل يوم 08/17، عهد النائب العامّ إلى وكيله بفتح تحقيق ضدّ مصّالي، ولحول، وزكرياء، والآخرين، بتهمة المساس بالسيادة الفرنسيّة، بناء على تقريره ليوم 08/06، والمتعلّق بتجمّع 07/25، بسينما لا بارل (La Perle)؛ وأرسل إلى نائب الجمهورية بالجزائر وثائق جديدة، وبخاصة تقريره ليوم 08/13، المتعلّق بتجمّع دلس، يوم 08/05، وهو ما يزيد المتابعة القضائية الثانية بتهمة إعادة إنشاء تنظيم منحلّ بيانا[5].

1– ولا أدلّ على البطء الذي تحدّثنا عنه، وعن دور الضغط الذي تمارسه الإدارة الاستعمارية بالجزائر من أنّ هذه الرسالة كانت جوابا على رسالة حافظ الأختام ليوم 08/01، رقم: 1399 A.35/R، يسأله رأيه في مدى جدوى ومناسبة المتابعات التي يطالب النائب العامّ إجراءها ضدّ مصّالي الحاج؛ ينظر: الرسالة، بإمضاء: ماركس درموي (Marx Dermoy)، من غير ترقيم، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2– ينظر: الرسالة، من غير ترقيم، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وتوجد برقية أرسلها الوالي العامّ إلى رئيس المجلس، ثمّ إلى وزير الداخلية، في نفس اليوم، قبل وصول رسالة وزير العدل هذه إلى النائب العامّ، يذكر فيها أنّه وبعد المحادثة التي جمعته به يوم 08/12، وبعد رسالته في نفس اليوم، يذكّره بالضرورة الأكيدة والمستعجلة لتأكيد وزير العدل موافقته للوكيل العامّ، للشروع في المتابعات القضائية ضدّ مصّالي حالا؛ ينظر: البرقية التلغرافية، رقم: 3270 S.P، 1937/08/17، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3– ينظر: البرقية التلغرافية، رقم: 3301 S.P، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4– ينظر: البرقية التلغرافية، رقم: 3339 S.P، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5– ينظر: رسالة النائب العامّ لدى المحكمة الابتدائيّة بالجزائر إلى الوالي العامّ، رقم: 17701، 1937/08/19، 3cab44،

و لم يأت الأمر باعتقال قادة حزب الشعب إلاّ يوم 08/26، فقد كتب النائب العامّ في رسالته إلى حافظ الأختام يوم 09/09 ما يلي: «لقد شئتم من خلال تعليماتكم ليوم 26 أوت إخباري بأنّه من المناسب اعتبار اعتقال مصّالي ضروريّا. هذا الاعتقال لمصّالي ورفاقه تمّ في الغد من ذلك صباح يوم 27 أوت»[1]؛ وهكذا تمّ الاعتقال بسرعة فائقة، وفي وقت قياسيّ بالنظر إلى الترتيبات الأمنية الواجب اتّخاذها في مثل هذه الحالات، ووضع الخطّة المحكمة للحيلولة دون حدوث ردود أفعال تخلّ بالأمن العامّ في القطر الجزائريّ.

تحدّثت جريدة "الشعب" في عددها الثاني عن ماجاريات هذا الاعتقال، فقالت: «في يوم الجمعة 27 أوت على الساعة السابعة صباحا كانت جنود الاستعمار متهيّئة لاعتقال رجال حزب الشعب [...]. و لم تكد شمس هذا اليوم تنشر أشعّتها على البسيطة حتّى كانت سيارة السجن يحوط بها جمع من البوليس، تقلّ شاعر الوطنية، مفدي زكرياء، متّجهة إلى منزل الأسد الهصور [...] الزعيم مصّالي الحاج، فهبط من منزله يصحبه ابنه، وما راع الولد الصغير إلاّ والسيارة المحاطة بقضبان الحديد، يطلّ منها زكرياء، تنتظر أباه[2] [...]. ثمّ عادوا إلى المركز، فاعتقلوا الأخ [مصطول] محمد، وغرّافة إبراهيم، وخليفة بن عمّار، وألحقوا بهم بعد ذلك الأخ [لحول] حسين، الذي كان ساعتئذ في مدينة المدية، لتهيئة اجتماع يحضره الرئيس مصّالي الحاج»[3]. وفي ذات اليوم، وعلى سا 11 و15د بعث الوالي العامّ برقية إلى وزير الداخلية الفرنسيّ، يخبره فيها باعتقال مصّالي وزكرياء وغرّافة ومصطول في صبيحة ذلك اليوم، بأمر أصدره قاضي التحقيق، وأنّه إلى حين إرسال البرقية لم يحدث أيّ ردّ فعل[4]؛ وأرسل بعدها مباشرة برقية إلى محافظي عمالة قسنطينة ووهران، يخبرهما باعتقال مصّالي وعدد من رفقائه، تحسّبا لما يمكن أن ينجم عنه من أحداث في عمالتيهما[5].

وعلى سا10 صباحا ذهبت مدام مصّالي إلى مكتب البريد، وبعثت ببرقيات احتجاج ضدّ اعتقال زوجها، إلى العناوين الآتية: وزارة الداخلية بباريس، ومقرّ (ح.ش.ج) بباريس، وقسنطينة، ووهران؛ وإلى راجف بلقاسم

(CAOM)، وثيقة من صفحتين.

1- ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العام، رقم: 18.910، 1937/09/09، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت بها نسخة من الرسالة المذكورة، وثيقة من 04 صفحات، بالإضافة إلى جدول يحوي وضعية المتابعات القضائيّة لدى المحكمة الابتدائيّة بالجزائر (Cour d'appel d'Alger)، وثيقة من صفحتين.

2- تنظر رواية أخرى عن اعتقال مصّالي: مصّالي الحاج177، 178.

3- الجزائر تحت الضغط، جريدة "الشعب"، ع02؛ من كتاب: الحركة الاستقلالية في الجزائر140.

4- ينظر: البرقية التلغرافية، رقم: 3389 S.P، 1937/08/27، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وقد بعث النائب العامّ رسالة إلى حافظ الأختام ووزير العدل الفرنسيّ في نفس موضوع اعتقال قادة حزب الشعب، وفي نفس التاريخ، وأضاف بأنّه وتطبيقا لتعليمات هذا الأخير، فقد عمل بالتنسيق مع الوالي العامّ، لاتّخاذ جميع التدابير الكفيلة بالحفاظ على النظام؛ ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العام، رقم: A3 18088، 1937/08/27، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت بها نسخة من الرسالة، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: البرقية التلغرافية، رقم: 3390 S.P، 1937/08/27، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وعيماش عمّار بباريس[1]؛ وتهاطلت بعد ذلك برقيات الاحتجاج من كلّ حدب وصوب، على الولاية العامّة بالجزائر، وعلى الحكومة الفرنسية بباريس، ممضاة وغير ممضاة، من أفراد وجماعات، من الجزائر وخارجها؛ واعتمد مناضلو وخلايا حزب الشعب الجزائريّ أسلوب "برقيات الاحتجاج" عند كلّ تطوّر يحصل في قضية المعتقلين[2].

الأيّام الأولى في السجن:

لقد كان التحقيق مع مصّالي الحاج، يوم 09/02، مناسبة لخروج مئات الجزائريّين للتظاهر أمام مدخل سجن بربروس، ووقعت «مشادّات بين رجال الأمن وجماعة من الوطنيّين، ولم يخرج قاضي التحقيق إلاّ بشقّ الأنفس»[3]؛ وتناولت الصحافة هذا الموضوع بإسهاب[4]؛ بينما قلّلت الإدراة الاستعمارية من شأن هذه الأحداث، واعتبرتها من مبالغات الصحافة[5].

وفي يوم 09/06 كان موعد التحقيق مع مفدي زكرياء: «جرى التحقيق مثلما وقع يوم 02 سبتمبر بالنسبة للسيد مصّالي، في السجن المدنيّ، بحضور الأستاذ حدو، محامي المعتقلين الخمسة[6]. صادق مفدي للسيد رمبير (Rambert) -تقريبا- على ما شهد به السيّد مصّالي[7]، فأكّد بأنّه لم يكن أبدا في نية (ح.ش.ج) إحداث شغب

1- ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5870، 1937/08/27، موضوعه: بخصوص إرسال مدام مصّالي برقيات، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر نماذج من هذه البرقيات في مختلف الموضوعات المتعلّقة بالمعتقلين، وهي تزيد على الستين: 3cab46، (CAOM).

3- حزب الشعب الجزائريّ14. وينظر رواية مصّالي للحدث: مذكرات مصّالي الحاج 268-270.

4- منها -على سبيل المثال- مقال بقليتو (Baglietto)، يحمل العناوين الكبرى الآتية: في بربروس: المشاغب الوطنيّ مصّالي خضع للتحقيق البارحة/ أحداث عنيفة تسبّب فيها مناضلو (ح.ش.ج) ميّزت خروج القاضي من السجن المدني/ صدامات قاسية وقعت بين الشرطة والمتظاهرين؛ ينظر: قصاصة المقال من "لادبيش ألجيريان" (La dépêche Algérienne)، س53، ع18.749، 1937/09/03، ص01، 4I4، (CAOM).

5- ينظر: رسالة المحافظ إلى المحافظ المركزي للشرطة، رقم: 8300، 1937/09/03، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 8305، 1937/09/03، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ ورسالة بخطّ يد قاضي التحقيق رمبير (Rambert) إلى المحافظ المركزي للشرطة، من غير ترقيم، 1937/09/06، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- تحدّث تقرير لنائب مدير الأمن لعمالة الجزائر عن اجتماعات انعقدت بمنزل مصّالي منذ اعتقاله، وضمّت: مزغنة، وحاج إسماعيل، وبوجلاب علي، وعبدلي أحمد، ومدام مصّالي، وتمّ الاتّفاق فيها على توكيل الأستاذ حدو (Haddou) من سلك المحاماة بالجزائر، وكاتبوا راجف وعيماش بباريس لاختيار محام من هناك، وقد تردّد اسم ديسبون (Desbons)؛ ينظر: التقرير، رقم: 6029، 1937/09/02، موضوعه: بخصوص اجتماعات بمنزل مصّالي الحاج، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وذكر تقرير ثان لمدير الأمن بعمالة الجزائر، أنّ كحّال أرزقي توقّف في طريقه إلى الجزائر في سانت مكسيم، ليتّصل بالأستاذ برتون (Berthon)، ويتّفق معه على الدفاع عن مصّالي ورفاقه، فوافق؛ ينظر: التقرير، رقم: 6260، في 1937/09/15، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وينظر أيضا: مذكّرات مصّالي الحاج264.

7- تنظر تصريحات مصّالي كاملة: المشاغب الوطنيّ مصّالي خضع للتحقيق البارحة، إمضاء: بقليتو (Baglietto)، قصاصة المقال من "لادبيش ألجيريان" (La dépêche Algérienne)، س53، ع18.749، ص01، 4I4، (CAOM).

ضدّ فرنسا، وما كان له من هدف سوى الحصول على حريات الشعب الجزائريّ المسلم، بمساعدة فرنسا؛ وكان على هذه الأخيرة أن تقوم بدور الحماية لما يمكن تسميته "دومنيون" جزائريّ؛ واعترف من جهة أخرى بأنّه قد صرّح في تجمّعات عامّة بأنّ الشعب الجزائريّ المسلم مضطهد، وبأنّه يعيش في بؤس. انتهى التحقيق في حدود 11 و30 د، فلم يشهد خروج القاضي أيّة مظاهرة، بسبب الإجراءات الأمنية المتّخذة بذكاء»[1]. وأكّد مقال ثان على أنّ تصريحاته كانت مطابقة لتصريحات مصّالي تقريبا، وجاء في خصوصها ما يلي: «رفض اعتبار "حزب الشعب الجزائريّ" بعثا لـــ"نجم الشمال الإفريقيّ" المنحلّ، وصرّح -هو أيضا- أنّه كان دائما في نشاطه النضاليّ، يدعو مستمعيه إلى التزام النظام والهدوء»[2].

وضع قادة حزب الشعب الجزائريّ الستّة عند دخولهم سجن بربروس رهن السجن الانفرادي لمدّة أسبوعين كاملين[3]، مدّة إجراء التحقيق معهم، ففي يوم 09/11 كان موعد قاضي التحقيق مع آخر المعتقلين: لحول حسين، وفي هذا اليوم بالذات كتب خليفة وغرّافة ولحول رسائلهم إلى محافظ عمالة الجزائر، من زنزانة رقم 85[4]، فهو -في تقديرنا- يوم خروجهم من السجن الانفراديّ؛ وفي ذلك يقول مصّالي: «وأخيرا [أي: بعد الحبس الانفراديّ] قسّمنا إلى مجموعتين، ووضعنا في زنزانتين متجاورتين، فأصبح بإمكاننا الخروج معا إلى الساحة، مرّتين في اليوم»[5]؛ فيكون خليفة بن عمّار ولحول حسين وغرّافة إبراهيم يمثّلون المجموعة الثانية التي أودعت الزنزانة 85، ونستنتج من ذلك أنّ المجموعة الأولى كانت تضمّ مصّالي الحاج ومفدي زكرياء ومصطول محمد، أمّا زنزانتها فهي رقم: 84، إذ إنّ تقرير مدير مصالح السجون ليوم 10/08، يذكر أنّ الزنزانة 84 كان يقيم فيها مصّالي ومصطول ومعروف[6]، وإنّما ألقي القبض على معروف بومدين وبرزوق مصطفى بتلمسان يوم

1- ينظر: مفدي زكرياء المساعد الأساسيّ للسيّد مصّالي سمعت أقواله في التحقيق: إنّه ينفي الرغبة في إحداث شغب ضدّ فرنسا، من غير إمضاء، قصاصة المقال من إيكو دالجي (Echo d'Alger)، ليوم 1937/09/07، الأرشيف غير المتداول، (CAOM).

2- ينظر: التحقيق حول أنشطة (ح.ش.ج) ضدّ فرنسا تستمرّ بهمّة عالية، بإمضاء: M.B، قصاصة المقال من "لاديبيش ألجيريان" (La dépêche Algérienne)، ليوم 1937/09/07، 3cab46، (CAOM).

3- بنظر: رسالة المعتقلين إلى الوالي العام، 1937/10/25، تاريخ ختم البريد الوارد على مكتب الوالي العام 10/28، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ والملحق621، و622. وهو ما يفنّد ما جاء في مذكّرات مصّالي في هذا الخصوص، حيث يقول: «لقد وضعنا في الحبس الانفراديّ مدّة «خمسة عشر يوما مرّتين»، بحسب تعبير النيابة»؛ ينظر: مذكّرات مصّالي حاج263، 264. ويفنّد أيضا ما ذكره بنجامين ستورا، حيث يقول: «وفي سجن بربروس عزل مصّالي عن رفاقه، ووضع مع سجين جزائريّ لا يعرفه» مصّالي الحاج178.

4- ينظر: الرسائل الثلاثة مكتوبة بخطين مختلفين، تاريخ ختم البريد الوارد على المحافظة 09/13، 3cab44، (CAOM)، 03 وثائق من صفحة واحدة.

5- ينظر: مذكرات مصّالي الحاج264.

6- ينظر: تقرير السيد ملماصري (Malmassari) مدير مصالح السجون منتدب لدى الولاية العامّة بعد زيارته لمحالّ السجن المدنيّ بالجزائر، التي يقيم فيها المعتقلون السياسيون، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01.

09/12، واقتيدا إلى سجن بربروس يوم 09/14 ليلا[1]؛ وعليه فيكون معروف بومدين قد خلف مفدي في الزنزانة 84، عند انتقال هذا الأخير إلى عيادة السجن بسبب المرض، على ما سنراه لاحقا.

أرسل كحّال أرزقي إلى المعتقلين رسالة يوم 09/17، يقول فيها: «أصدقائي الأعزّاء، لقد تلقّينا رسائلكم، ونحن جدّ مسرورون بها[2]. معروف وبرزوق ألقي عليهما القبض، وهما معكم في بربروس [...] سنحمل إليهم القفّة كفعلنا معكم. الأكل لا يهيّأ عند الروجي (Rouget)، وإنّما يحضّره طبّاخه سي وزاني مقران بمقرّ الحزب، ومن الغد سنكلّف امرأة بهذا العمل[../..]. أكّد مفدي في رسالته صباح اليوم على ضرورة الحفاظ على منزله وكتبه، يمكنه الاطمئنان، فأنا الضامن لذلك منذ 10 سبتمبر. وبالنسبة لبقية الأصدقاء فأنا على اتّصال بعائلاتهم، فليطمئنّوا»[3]. إنّ ما اقتبسناه من الرسالة يدلّنا على أنّ الاتّصال بين القادة في السجن وبين مسؤولي الحزب خارج السجن لم يكن مستحيلا[4]، كما أنّ إرسال الطعام إلى المعتقلين كان ممكنا؛ ثمّ إنّ الحزب كان يقوم بالواجب إزاء عائلات المعتقلين، فضلا عن توكيل محامين للدفاع عنهم.

كلّ ذلك يتطلّب مبالغ مالية معتبرة، حدا بمسؤولي الحزب إلى فتح اكتتاب لصالح مصّالي ورفاقه: فتحدّث تقرير للإدارة عن قيام الحزب بجمع التبرّعات عن طريق الاكتتاب في الجزائر، وفي المناطق الداخلية، وأنّ مجمل ما جمع في أواخر سبتمبر يقارب 12.000 فرنكا[5]؛ وكان مناضلو الحزب ينتقلون في مجموعات صغيرة إلى ضواحي الجزائر للقيام بنفس العملية[6]، كما ساهمت خلايا الحزب شرقا

1- ينظر: برقيتان لنائب المحافظ بتلمسان إلى محافظ عمالة وهران، ومنه إلى الوالي العامّ، 13 و1937/09/14، 3cab44، (CAOM)، وثيقتان من صفحة واحدة.

2- هذه العبارة قد تدلّ على أنّها أولى الرسائل التي أمكن للمعتقلين تسريبها خارج أسوار بربروس.

3- ينظر: نسخة مرقونة من الرسالة، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

4- ويدلّنا على ذلك رسالة دانيال قيران (Daniel Guérin) إلى مصّالي، كما أنّ مفدي بعث برسالة إلى محمد العريبيّ في تونس، غير أنّ قلّة هذه الرسائل تدلّ على صعوبة تسريبها داخل أو خارج أسوار السجن، لخضوع المعتقلين آنذاك لنظام سجن الحقّ العامّ (Droit Commun). تنظر رسالة قيران: 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وتنظر رسالة العريبيّ: مفدي زكرياء267-269.

5- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6634، 1937/09/30، موضوعه: تبرّعات لصالح مصّالي، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ينظر: تقرير نائب المحافظ المركزيّ للشرطة إلى مدير الأمن العام للقطر الجزائريّ، بناء على تقرير حارس الأمن أليان (Aliane) رقم: 980 R.S، 1937/09/15، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وينظر أيضا: رسالة المحافظ مدير مكتب [الوالي العامّ] ريني ريفيير (René Rivière) إلى مدير الأمن، رقم: 1905، 1937/09/17، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ يطالبه فيها بدراسة هذه المسألة من الناحية القانونية، فإن ثبت قانونا منعها طلب منه تحضير مشروع مذكّرة لمحافظي العمالات ونوّابهم، ورؤساء البلديات، والإداريّين، ومحافظي الشرطة، تقدّم لهم تعليمات صارمة في هذا الشأن.

وغربا في هذا الاكتتاب[1]، وتحدّثت جريدة "الأمّة" الباريسيّة عن سيرورته في الجزائر وفرنسا[2].

كتب لعساكر محمد بن سليمان إلى أعيان المزابيّين بالجزائر، يقول: «لا يخفى عليكم أنّ الحكومة قد ألقت القبض على الزعيم مصّالي، والشاعر زكرياء، وإبراهيم غرّافة، وخليفة بن عمّار، ومصطول، ولحول الحسين، ولا يخفى عليكم أنّهم سُجنوا لأجل دفاعهم عن الأمّة الجزائرية المسلمة؛ وعليه يجب على الأمّة الجزائرية المسلمة تخليصهم من مخالب الاستعمار، وهذا بنصيب من مالها (عن طريق الاكتتاب). إنّنا نتقدّم إليكم بصفتنا مسلمين، وبهذه الصفة نطلب منكم مساعدتنا، والله يجازيكم»[3]؛ وفي دراسة أنجزها مركز الاستخبارات والدراسات – على الأرجح– بعنوان: "(ح.ش.ج) و"أحباب الأمّة" في عمالة الجزائر إلى فاتح ديسمبر 1937"، ورد فيها ما يلي: «لقد اتّضح من خلال عدّة ملاحظات سجّلت في مواضع متفرّقة من العمالة، أنّ العنصر المزابيّ يميل باختيار منه إلى دعم (ح.ش.ج)، وعليه لا نستبعد مساهمته بجزء لا يستهان به في تمويل النشاطات السابقة»[4]. وعند حديث بقنيش عبد الله عن الاكتتاب في مدينة قسنطينة في رسالته إلى قنانش محمد، قال فيما يتعلّق بمساهمة المزابيّين: «لقد ذهبنا لرؤية إخواننا الإباضيّين، فأخبرنا مسؤولهم بأنّهم كلّفوا صاحب محلّ لا روز بلانش (La Rose Blanche)[5]، للقيام بالواجب معكم، باسم التجار الميزابيّين بقسنطينة، وأن يعطيكم كلّ ما ينقصكم، أو ما أنتم بحاجة إليه، من مال أو غيره»[6]. ولنفس الغرض انتقل لعساكر محمد إلى مزاب ما بين 10/14 و11/03، غير أنّ ما جمعه من مزاب كان زهيدا[7].

أمّا مفدي فقد أهمّه في رسالته التي بعثها إلى إخوانه من مسؤولي حزب الشعب، صباح يوم 09/17[8]، الحفاظ على منزله، وبخاصّة على كتبه، ذلك أنّ مفدي وضع منزله تحت تصرّف حزبه، فمسؤولو الحزب كانوا

1– ينظر على سبيل المثال: رسالة المحافظ المركزيّ للشرطة شازو (Chazeau) إلى نائب المحافظ بمستغانم، رقم: 11632، 1937/09/01، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة مدير الأمن لعمالة وهران إلى المحافظ، رقم: 9078، 1937/11/05، موضوعها: قضية مصّالي: جمع التبرعات في أوساط الأهالي، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2– ينظر: اكتتبوا اكتتبوا، الإدارة، قصاصة المقال من جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ع55، 1937/09/20، ص04، 4I4، (CAOM).

3– مترجم الرسالة لم يتبيّن إن كان تاريخها 06 أو 16 سبتمبر، وكان الإمضاء كالآتي: «عن المكتب الإداريّ الكاتب العامّ باللغة العربيّة ... [كذا] محمد بن سليمان»، فلم يتّضح لقبه، واستنتجت الإدارة أنّ المعنيّ هو لعساكر لا غير؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6813، 1937/10/08، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ: لعساكر محمد بن سليمان، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4– ينظر: الدراسة، 4I3، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص01.

5– صاحبها: بسخواض بكير بن داود.

6– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6810، 1937/10/07، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من الرسالة مترجمة، مؤرّخة في 1937/09/29، وثيقة من 03 صفحات، ص01.

7– ينظر: تقريران لمدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7023 و7543، 10/15 و1937/11/05، موضوعهما واحد: حزب الشعب الجزائريّ: بخصوص لعساكر محمد بن سليمان، 3cab44، (CAOM)، وثيقتان من صفحة واحدة.

8– بحسب ما ورد في رسالة كحّال أرزقي السابقة إلى المعتقلين.

«يعقدون اجتماعاتهم ليلا، بين سا 21 ومنتصف اللّيل، في المنزل الكائن، في 14 شارع بوتان (Boutin)، وهو للمدعوّ زكرياء سليمان [...]. البارحة ليلا، على سا 23 التحق المدعوّون: كحّال أرزقي، وماحي محمد، وقنانش، بعدد من المناضلين كانوا مجتمعين في منزل زكرياء. وبحسب المعلومات المتوفّرة، فإنّ اجتماعات صاخبة تعقد باستمرار في المنزل المذكور آنفا، ليلا ونهارا. وقد شوهدت مدام مصّالي ذاهبة إلى منزل زكرياء»[1]؛ كما تأكّد أيضا «أنّ المراسلات الموجّهة إلى مسؤولي خلية (ح.ش.ج) بالجزائر، وخاصّة إلى كحّال، هي مرسلة باسم المدعوّ قنانش محمد، في 14 شارع بوتان، منزل زكرياء سليمان»[2]، وعليه استطاعت الإدارة الاستعماريّة اعتراض سبيل عدد من مراسلات الحزب هذه، لمتابعة نشاطه في هذه المرحلة الحرجة، فقامت بترجمتها، ونجد على جميعها نفس عنوان منزل مفدي زكرياء[3].

أمّا حالة مفدي زكرياء النفسيّة في أوّل دخول له إلى السجن، وهو لم يتخطّ بعد العقد الثالث من عمره، تعكسه رسالته إلى محمد العريبيّ، إذ يتحدّث فيها عن أثر دخوله السجن في نفسه، فيقول: «أكتب إليك بعد شهر من دخولي في عطلة الاستراحة الصيفيّة التي حرمنا منها أنفسنا، وأبت الحكومة إلاّ أن تسوقنا إليها بالسلاسل مكرهين، ولكن مكرّمين[4]. كنت أسمع بالسجن فأنقبض، وتضيق عليّ أنفاسي، فلمّا منَّ الله عليّ بنعمة دخول السجن[5]، وجدت في أعماق السجن راحة، كنت أجهلها، ورأيت بين طيّات ظلامه الحالك كثيرا من آمالي الضائعة، التي كنت أفتّش عنها في غير السجن، بين خلايا هذا الوجود المضطرب الصاخب، المملوء بالمساخر، المفعم بالآلام والبرحاء»؛ ونجد مظهرا آخر لهذه الحالة في أسلوبه الساخر، وهو يتحدّث عن زعيم الحزب، حيث يقول: « ثمّ أنام ملء عيوني غبطة وحبورا [...]. ويا ما أشدّها عليّ لحظةً، حين أستيقظ على صلصلةٍ من صوت أخي "مصّالي"، وهو يحاور رفقائي في السياسة، ويتلو عليهم أناجيل الوطنيّة، ويذهب متعمّقا في تحليل البرامج والنظريات الديبلوماسيّة. وكثيرا ما أحاول نكران يقظتي، فأغمض عيني ثانية، علِيَّ أطلع مرة أخرى إلى فردوسي المفقود، وعبثا أحاول، فقد جنى عليه "مصّالي"، وأضاعه من بين يدي، بصوته الرعدانيّ القاصف، وسرعان ما تثور بدماغي فكرة الانتقام، فأهمّ أن أقضم أنف أخي "مصّالي" بأسناني قضما، ولكنه

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6324، 1937/09/18، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6762، 1937/10/05، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر على سبيل المثال: التقرير نفسه؛ مرفقا بثلاث رسائل، من البليدة، والمدية، وفرنسا؛ وقد تقدّمت رسالة بقنيش عبد الله من قسنطينة.

4- إشارة إلى العمل السياسيّ الدؤوب الذي خاض غماره هو وإخوانه من مسؤولي حزب الشعب، منذ وطأت قدما مصّالي أرض الجزائر في 20 جوان، واستمرّ إلى حين اعتقالهم في 27 أوت، فلم يتمتّعوا بعطلة صيفية في هذه السنة إلاّ في السجن.

5- هذه العبارة تدلّ بوضوح على أنّ هذه أوّل مرّة يدخل فيها السجن.

يقف بي في طريق التنفيذ عارض شديد يردّني [منهزما]. وهل أستطيع أن أقضم أنف "مصّالي"؟ وكيف أقضم أنفا عقدت عليه آمال أمّة كاملة، ووقفت فوق أرنبته مواكب جيل كامل؟ لا لا... إنّها لجريمة أرتكبها نحو بلادي، لا يغتفرها لي ضميري أبدا.. إنّه لأنف شريف قليل وجوده في وجوه أبناء الجزائر، فهو يستحقّ اللثم لا القضم». إنّها حالة نفسية مفعمة بسلام داخليّ لا تشوبه شائبة من توتّر أو قلق أو انهيار نفسيّ، ويبرّر ما يجده من راحة نفسية وغبطة وحبور، فيقول: «إنّها الآمال والأماني -يا ابن تومرت- تغمر جوانب نفوسنا حياة ونورا، وتبدّل وحشتنا أنسا، وتعبنا راحة وهناء. ولولا تلك القوّة الجبّارة من الآمال التي أعيش في حظيرتها لما كان بربروس على ضيقه ليسع هذه النفس التي لم تسعها الجزائر على طولها وعرضها». وهذه الحالة تزداد جلاء ووضوحا عند بيانه للظرف الصعب الذي كان يمرّ به، فقد كان مريضا، يقول: «ولم تكن الأمراض لتنساني هي الأخرى، فكأنّما آنست في الجسم راحة، فانتهزتها فرصة، وبرزت في قروح ودماميل، تضافرت على إقلاقي ليالي وأيّاما، وأكثرها ألما هذا القرح الذي نبت كالصّاخة في أمنع بقعة من جسدي، وأعزّها عليّ ... اضطرّني إلى دخول مستشفى المساجين، أين أحرّر لك اليوم هذه الرسالة مضطجعا، وقد مرّت عليّ ليالي لم يغمض لي فيها جفن»؛ ومخافة أن يفهم منه نقيض ما كان يتحدّث عنه آنفا، عقّب على كلامه هذا بقوله: «ولست بهذا متبرّما شاكيا، ولا جازعا باكيا، وقد جبلت على تحمّل كل شيء غير الذلّ والمهانة، ولقد عجم الدّهر عودي، فوجده صلبا لا ينكسر»[1].

هذه الرسالة كانت أدبية صرفة، تحلّل فيها من التزامات الحزب، من دعاية له، أو ذود عنه، أو بيان لمواقفه وبرامجه، فلا نجد في ثناياها هدفا سياسيّا واضحا يبرّر كتابتها، فكانت ذاتية صادقة، تشفّ بعمق عن نفس صاحبها، سعى من خلالها إلى التواصل الوجداني الأدبيّ الصرف، فاختار صديقه الحميم محمد العربيّ، فكانت قطعة من الأدب الرفيع، وإحدى أحسن رسائل مفدي على مدى حياته الأدبيّة كاملة.

أمّا مرض مفدي، فقد تحدّث عنه في رسالته هذه، التي كتبها يوم 09/28، وشخّصه في قروح ودماميل، تضافرت على إقلاقه ليالي وأيّاما، اضطرّته إلى دخول مستشفى المساجين، وهو يكتب رسالته مستلقيا، وقد مرّت عليه ليالي لم يغمض له فيها جفن. وهو ما يدلّنا على أنّ هذا المرض قد أصابه خلال النصف الثاني من شهر سبتمبر، وامتدّ إلى النصف الأوّل من شهر أكتوبر، فمنعه من الإضراب عن الطعام الذي قام به مصّالي ورفاقه، في سبيل افتكاك السجن السياسيّ؛ وقد زار طبيب سجن بربروس جوو بريسونيير (Goeau Brissonnière)، المعتقلين المضربين عن الطعام، صباح يوم 1937/10/05، فقال عن مفدي: «المدعوّ زكرياء مفدي، لا يشارك في

---

[1]- مفدي زكرياء267-269؛ وصورة الصفحة الأولى منها أوردها محمد ناصر في ص236. وورد في ختامها: «نشرت في جريدة "صبرة" بعد حذف شيء منها .. بربروس» 269.

الإضراب عن الطعام، إنّه موجود بالعيادة الطبيّة، لأجل قرحة شرجيّة (Fistule Anale)»[1]؛ وذكر مدير مصالح السجون، عند زيارته لسجن بربروس يوم 10/08، أنّ مفدي لا يزال حينها في عيادة السجن[2].

المطالبة بالسجن السياسيّ، والإضراب عن الطعام:

أرسل مصّالي الحاج يوم 08/31 رسالة إلى محافظ عمالة الجزائر، يطالبه فيها بإقرار أحكام السجن السياسيّ في حقّه، باعتبار طابع اعتقاله ودواعيه، وتحدّث عن قيام محاميه بنفس المسعى لدى قاضي التحقيق، ومدير السجن، وأمضى رسالته كالآتي: مصّالي الحاج، سجين سياسيّ، رقم: 6790، سجن بربروس، الجزائر[3]؛ وتبعه محمد مصطول يوم 09/01[4]؛ ثمّ جاءت على إثرهما رسائل: خليفة بن عمّار، وغرّافة إبراهيم، ولحول حسين، يوم 09/11، وترقيمهم في السجن هو: 6800، و6771، و6801[5]؛ وانتظر مفدي زكرياء التحقيق معه يوم 09/06 ليقدّم نفس المطلب إلى قاضي التحقيق[6]؛ وتبعه في ذلك غرّافة ومصطول وخليفة يوم 09/10؛ ثمّ لحول في 09/11؛ ثمّ جاء دور معروف بومدين يوم 09/16[7]؛ فما كان من قاضي التحقيق رمبير (Rambert) إلاّ أن جمعها، وبعثها إلى نائب الجمهورية يوم 09/22، وأضاف في أسفلها بخطّ يده: «هؤلاء الأهليّون ليسوا رهن السجن الانفراديّ، ولا يخضعون لنظام الزنزانات؛ إنّهم مجتمعون مع بعضهم البعض، ولكن من غير إمكان الاتّصال بسائر المساجين، ممّن لا يمتّون إلى قضيّتهم بصلة [...]»[8].

أرسل محافظ عمالة الجزائر إلى نائب الجمهورية يوم 09/01، يسأله استشارة قاضي التحقيق في طلب

1- ينظر: رسالة مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر (Directeur de La Circonscription Pénitentiaire d'Alger) إلى المحافظ، رقم: 2197، 1937/10/05، موضوعها: بخصوص مصّالي و(ح.ش.ج)، متضمّنة تقرير الطبيب لنفس اليوم، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: تقرير السيد ملماصري (Malmassari) مدير مصالح السجون منتدب لدى الولاية العامّة، 1937/10/08، 3cab46، (CAOM)، ص01.

3- ينظر: الرسالة بخطّ مصّالي الحاج، تاريخ ختم البريد الوارد الخاصّ بالمحافظة 09/01، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- واحتجّ فيها على إخضاعه إلى نظام سجن الحقّ العامّ؛ ينظر: الرسالة بخطّ مصطول محمد، السجين رقم: 6793، تاريخ ختم البريد الوارد الخاصّ بالمحافظة 09/03، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. وزاد عليها رسالة ثانية في ذات الموضوع إلى نائب الجمهورية؛ ينظر: الرسالة بخطّ مصطول محمد، السجين رقم: 6793، 1937/09/01، تاريخ ختم البريد الوارد على نائب الجمهورية 09/02، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: الرسائل الثلاثة مكتوبة بخطين مختلفين، تاريخ ختم البريد الوارد على المحافظة 09/13، 3cab44، (CAOM)، ثلاث وثائق من صفحة واحدة. وزاد عليها خليفة بن عمار رسالة ثانية إلى النائب العامّ للجمهورية بالجزائر؛ ينظر: الرسالة، 1937/09/13، تاريخ ختم البريد الوارد على النيابة العامّة 09/17، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- واكتفى بذلك، فلم يرسل رسالة مماثلة إلى المحافظ كفعل رفقائه، ربّما لعدم إمكانه كتابة الرسالة باللغة الفرنسية.

7- ينظر: استمارات خاصّة بالتحقيق (Interrogatoire): ذكر فيها اسم قاضي التحقيق رمبير (Rambert)، والمترجم : حاج حمو، واسم المحامي الأستاذ حدو، الحاضر مع المعتقلين لدى التحقيق معهم، سوى معروف بومدين، وزيد اسم محام ثان بالنسبة لمفدي هو سيرنا (Serna)، وهذه الاستمارات ملئت بخطّ واحد، من غير ترقيم، 4I6، (CAOM)، ستّ وثائق من صفحة واحدة.

8- ينظر: رسالة قاضي التحقيق إلى نائب الجمهورية لدى المحكمة الابتدائيّة بالجزائر، من غير ترقيم، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

مصّالي الاستفادة من قانون السجن السياسيّ"[1]؛ فأجاب هذا الأخير نائب الجمهورية بأنّ هذا الإجراء من شأنه أن يعرقل التحقيق، ويمكّن السجين من مواصلة دعايته بكتاباته التي سيُسَرِّبُها بفضل الزيارات غير المقيّدة التي يمنحها له هذا القانون[2]؛ أمّا نائب الجمهورية قودان (Godin) فقد أطنب في رسالة منه إلى النائب العامّ، يوم 09/04، في بيان عدم إمكان منح حقّ السجن السياسيّ لمصّالي الحاج ورفاقه، لأنّ المتابعات القضائيّة ضدّهم لا تحمل طابعا سياسيّا، بالمعنى الذي يعتبره قانون السجن السياسيّ الذي أنشأه وزير الداخلية يوم 1890/01/04، فهي لا تتعلّق بإبداء رأي ذي صلة بالسياسة الداخليّة بفرنسا، إذ لا تعني تسمية الحزب (ح.ش.ج) "الحزب الشعبي الفرنسيّ" بمعنى تنظيم يطالب بتطبيق برنامج الجبهة الشعبيّة بالجزائر، فهو يسعى -كسابقه "نجم الشمال الإفريقيّ"- إلى الاستقلال التامّ بعيدا عن سلطة فرنسا. إنّ مصّالي ورفاقه متّهمون بخرق قانون الحقّ العامّ، ويتطلّب الردع بأحكام عقابية مناسبة، وليسوا متّهمين بأيّ حال من الأحوال بجنح سياسيّة، إذ هم متّهمون -ببساطة- بالتمرّد ضدّ السيادة الفرنسية. «إنّهم ليسوا فرنسيّين، ولا رعايا فرنسيّين، يسعون إلى تحقيق آمال مشروعة، ومطالب اجتماعية معقولة، وإنّما هي ثورة حقيقيّة تقف في وجه الوطن الأمّ، وضدّ المشروع الإدماجي الذي تتابعه بسخاء في هذا البلد، فمن الصعب اعتبار هذه الثورة السافرة ضدّ فرنسا، وضدّ رسالتها في الجزائر تحمل طابعا سياسيا، يسمح بتطبيق نظام سجن خاصّ، يمكّنهم من تلقّي زيارات غير مراقبة، ومواصلة نضالهم بالكتابة في جرائدهم. ومهما يكن من أمر فإنّ إدارة السجون في الجزائر ليست خاضعة للسلطة القضائية، فلها أن تتّخذ القرار المناسب لها»[3].

كتب نائب الجمهورية رسالة إلى المحافظ يوم 09/04 جوابا على رسالته ليوم 09/01، وأرفق بها رسالة قاضي التحقيق، ورسالته إلى النائب العامّ[4]، وقد سبقتا؛ فجاءت رسالة المحافظ إلى مدير السجن المدنيّ "بربروس"، يوم 09/08، تحمل قراره برفض منح حقّ السجن السياسيّ إلى مصّالي[5]. وكان نصيب طلب كلّ من خليفة وغرّافة ولحول الموجّه إلى المحافظ الرفض أيضا يوم 09/16[6]، بينما تأخّر قرار رفض طلب مصطول محمد إلى يوم

---

[1]- ينظر: رسالة نائب الجمهورية إلى المحافظ، رقم: 13092 SG[كذا]، 1937/09/04، جوابا على رسالة المحافظ رقم: 8232، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- ينظر: الرسالة، من غير ترقيم، 1937/09/02، جوابا على رسالة هذا الأخير يوم 09/01، رقم: 13092 SG، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[3]- ينظر: الرسالة، من غير ترقيم، 4I6، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات. وفي رسالته إلى المحافظ وإلى النائب العامّ يذكر بأنّ رسالة المحافظ كانت يوم 09/02، والأرجح هو 09/01 بشهادة رسالة قاضي التحقيق إليه، وقد سبقت.

[4]- ينظر: الرسالة، رقم: 13092 SG[كذا]، 4I6، (CAOM).

[5]- ينظر: الرسالة من غير ترقيم، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[6]- ينظر: رسالة المحافظ إلى مدير السجن المدنيّ بالجزائر، رقم: 8572، 1937/09/16، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

09/28[1]؛ أمّا طلبات المعتقلين الموجّهة إلى قاضي التحقيق، ومنه انتقلت إلى نائب الجمهورية، ومنها طلب مفدي زكرياء، فإنّ نائب الجمهورية أرسلها إلى المحافظ بتاريخ 10/15، وتأسيسا على مراسلته ليوم 09/04، عارض طلب المعتقلين[2]، فما كان من المحافظ إلاّ أن ردّ عليه برفض طلبهم، بتاريخ 10/30[3]، وقد بلغ قرار المحافظ المعتقلين، بمراسلة من نائب الجمهورية، مؤرّخة في 11/04[4]، أي بعد شهرين كاملين تقريبا من تقديم أوّل طلب، وكان لمفدي يوم 09/06، وبعد شهر تقريبا من إطلاق سراح مصطول محمد، وكان أحد المعنيّين بهذا القرار.

ويبدو أنّ حافظ الأختام لم يكن على نفس رأي مرؤوسيه في الجزائر، فقد أرسل إلى النيابة العامة بالجزائر، أنّه لا يرى مانعا في تطبيق أحكام السجن السياسيّ على مصّالي ورفاقه[5]، فأبرق الوالي العامّ إلى وزير الداخلية يوم 09/11، يخبره بأنّ المحافظ قد رفض طلب مصّالي بناء على استشارة النيابة وقاضي التحقيق، ويطلب منه بمزيد من التأكيد الإبقاء على قرار المحافظ، وعدم نقضه[6].

إنّ الإدارة الاستعمارية بالجزائر على مختلف مستوياتها قد تواطأت على رفض إقرار السجن السياسيّ لمصّالي ورفاقه المعتقلين، وساند بعضهم بعضا بالرغم من ضعف الحجج التي يبرّرون بها هذا الرفض، وأغربها نفي الطابع السياسيّ عن التهم الموجّهة إلى قادة الحزب، وقد كان غرضهم الوحيد هو عدم السماح باستمرار نضالهم من وراء القضبان؛ هذا الموقف المتناقض هو الذي كان وراء الشرخ الذي وقع بين هذه الإدارة وبين الحكومة الفرنسيّة، ممثّلة بالدرجة الأولى في وزير العدل وحافظ الأختام الفرنسيّ فانسان أوريول (Vincent Auriol)، في حين كانت تواجه فيه الحكومة الفرنسيّة ضغوطا[7]، تشهد لها رسالة دانيال قيران (Daniel Guérin) إلى مصّالي

---

[1]- ينظر: رسالة المحافظ إلى مدير السجن المدنيّ بربروس بالجزائر، رقم: 8921، 1937/09/28، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. هذا وقد راسل المحافظ نائب الجمهورية يوم 09/08، يطالبه باستشارة قاضي التحقيق في شأن طلب مصطول، فكان ردّه يوم 09/10، بأنّه وقاضي التحقيق متّفقان في أنّ أسباب رفض طلب مصّالي ماثلة في طلب مصطول، وعليه لا يريان إمكان الاستجابة لطلبه؛ ينظر تباعا: رسالة المحافظ إلى نائب الجمهورية، رقم: 8372، 1937/09/08، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وجواب نائب الجمهورية، رقم: 13442 SG، 1937/09/01، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- ينظر: رسالة نائب الجمهورية إلى المحافظ، رقم: 5034 R.S، 1937/10/15، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[3]- ينظر: الرسالة، رقم: 10122، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]- ينظر: رسالة مدير المقاطعة السجنيّة بالجزائر إلى المحافظ، رقم: 2445، 1937/11/06، موضوعها: بخصوص مصّالي ورفاقه المتّهمين معه، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]- يقول كحّال أرزقي في رسالته إلى رفاقه في السجن، يوم 09/17: «فيما يخصّ السجن السياسيّ، أبرق الأستاذ برتون (Berthon) إلى الأستاذ حدو –الحمل الوديع في سلك المحاماة بالجزائر– يخبره بأنّ السيّد [فانسان] أوريول (Vincent Auriol) [وزير العدل] قد وافق على السجن السياسيّ، وإذا لم يطبّق بعد فلأنّ الديكتاتور بورا (Bourrat) له نصيب في ذلك»؛ ينظر: الرسالة، 3cab44، (CAOM)، ص02.

[6]- ينظر: البرقية، بإمضاء: لو بو (Le Beau)، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[7]- أشار مصّالي الحاج في مذكّراته إلى معارضة الكثير من الفرنسيّين أفرادا وجمعيات وأعضاء في أحزاب سياسية الإجراءات المتّخذة ضدّ قادة الحزب؛ ينظر: مذكرات مصّالي الحاج267، 268.

الحاج، يوم 1937/09/17، وهو عضو في اللجنة الاستعمارية للحزب (Commission Coloniale du Parti)[1]، فقد ورد فيها ما يلي: «أعتذر عن عدم الكتابة لك قبل هذا التاريخ، لأعبّر لك عن مشاعري التضامنية الكاملة [...] لقد عبّرت عنها فعلا على الملإ في التجمّع الذي انعقد بقاعة وقرام (Wagram) للاحتجاج ضدّ اعتقالك واعتقال رفاقك في النضال [...]. وقد طالبت باجتماع في الحال للجنة الاستعمارية للحزب، ولا أشكّ في أنّها سترفع احتجاجا ضدّ اعتقالك. وأظنّ أنّ أندريه جليان (André Julien)، كاتب اللجنة العليا المتوسطيّة (Haut Comité Méditerranéen)، يعمل على إقناع ليون بلوم (Léon Blum) بأنّ الإجراءات المتّخذة ضدّكم غير مبرّرة، وأنّها خطأ سياسي»[2].

وإزاء هذا التعنّت من الإدارة الاستعماريّة بالجزائر خاصّة، وبعد وصول خبر رفض المحافظ طلب محمد مصطول يوم 09/28، قرّر مصّالي ورفاقه الدخول في إضراب عن الطعام بداية من فاتح أكتوبر 1937، وهو الإضراب «الأوّل من نوعه في تاريخ الحركة الوطنية الجزائريّة»[3]. يقول مصّالي في ختام حديثه عن مساعي المعتقلين للاستفادة من أحكام السجن السياسيّ: «لقد توجّهنا بمطلبنا إلى باريس: إلى محاميّينا، وإلى الحكومة، وإلى أصدقائنا في "الجبهة الشعبية"، و"رابطة حقوق الإنسان"، وعندما لم تنجح كلّ هذه المساعي، وباقتراح منّي بحثنا إمكان القيام بإضراب عن الطعام، وكنت أعلم أنّه سيكون له على المستوى السياسي أهميّة كبيرة؛ وافق أصدقائي جميعا، ما عدا خليفة بن عمّار»[4].

بعث مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر تيسيي (Teyssier) رسالة إلى الوالي العامّ أرفق بها نسخة من رسالته إلى محافظ العمالة في نفس اليوم، في الفاتح من أكتوبر، وقد أخبر فيها المحافظ أنّ المعتقلين «قد قرّروا الدخول في إضراب عن الطعام، إلى أن ينالوا "السجن السياسي"، فقد طالب به: مصّالي، وغرّافة، وخليفة، ولحول، ومصطول، ورفضتم مطلبهم برسائلكم لأيّام 08، و16، و28 سبتمبر الفارط، والمرقّمة: 8365، و8572، و8921. وبالرغم من النصائح المقدّمة لهم، أصرّوا، وتوقّفوا عن الأكل منذ صباح اليوم»[5].

1- المقصود به: حزب (S.F.I.O): "الخلية الفرنسيّة للحركة العماليّة الدولية" (Section Française de l'Internationale Ouvrière)، وهو ثاني حزب فاعل في حكومة كميل شتون الثالثة (Camille Chautemps)، بعد الحزب الراديكالي الاجتماعيّ (P.R.S)؛ ومنه نائب رئيس المجلس ليون بلوم (Léon Blum)، ووزير داخليتها ماركس درموي (Marx Dermoy)، ووزير عدلها فانسان أوريول (Vincent Auriol)؛ ينظر: تاريخ حكومات فرنسا، حكومة كميل شوطان الثالثة، ولكبيديا: الموسوعة الحرة (Wilkipédia l'Encyclopédie Libre)، صفحة الأنترنيت: (http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Gouvernement_Camille_Chautemps_(3)&oldid=34587344)، آخر مراجعة لها: 2008/10/22.

2- ينظر: الرسالة، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: مصّالي الحاج179.

4- تحفّظ خليفة بن عمّار كان من الناحية الشرعية، وطالب باستفتاء عالم من علماء الدّين في هذا الشأن؛ ينظر: مذكّرات مصّالي حاج266؛ ومصّالي الحاج178، 179.

5- في رسالته المختصرة إلى الوالي العامّ حديث عن إخباره بأمر الإضراب عن الطعام هاتفيّا صباح ذلك اليوم؛ ينظر: الرسالة، رقم: 2177، 9h47،

وأرسلت اللجنة الفدرالية لحزب الشعب الجزائريّ برقية إلى الوالي العامّ تخبره بإضراب المعتقلين، وتحتجّ ضدّ إبقائهم تحت طائلة أحكام قانون الحقّ العامّ[1]؛ ثمّ أصدرت منشورا أمضته اللجنة، وزّع مساء يوم 10/02، مكتوبا باللغة الفرنسيّة، يتحدّث عن رفض السلطات الإداريّة تطبيق أمر وزير العدل الذي أصدره منذ 15 يوما، القاضي باستفادة المعتقلين بقانون "السجن السياسيّ"، وعليه كان قرار المعتقلين الدخول في إضراب عن الطعام بداية من فاتح أكتوبر، ثمّ دعا الجزائريّين إلى الاحتجاج والمطالبة بحق المعتقلين في السجن السياسيّ في انتظار إطلاق سراحهم[2].

ويبدو أنّ وزير العدل راسل النائب العامّ مرّة ثانية في شأن منح حقّ السجن السياسيّ للمعتقلين، فكانت برقية مشفّرة أرسلها يوم 10/02 بحسب الردّ[3]؛ وفي يوم 10/04 بعث المحامي الأستاذ لونغي (Longuet) برقية إلى مصّالي في بربروس، يخبره أنّه تمّ الاتّصال بوزير العدل، وقد أمر النائب العامّ بمنح السجن السياسي للمعتقلين، ووزير الداخلية قد أحيط علما بذلك[4]؛ وفي نفس اليوم بعث كحّال أرزقي برقيتين إلى كلّ من الأستاذ برتون (Berthon)، وأحد مسؤولي الحزب بباريس بومغيث، يخبرهما أنّه رابع يوم للإضراب، واثنان من المضربين مشرفان على الموت، ويطلب منهما التدخّل بسرعة[5]، فتواصل الضغط على الحكومة الفرنسيّة، ومنه على الإدارة الاستعمارية بالجزائر.

كان الوالي العامّ آنذاك بباريس، فلم تصله رسالة محافظ عمالة الجزائر السابقة إلاّ يوم 10/04، بحسب ردّه عليها في نفس اليوم، يطلب منه أن يكلّف طبيب السجن بمراقبة المضربين صحيّا، بصفة دورية، لضمان إطعامهم، إن دعت الضرورة إلى ذلك، وتحدّث عن عرضه مسألة السجن السياسيّ على الحكومة، وهو في انتظار البتّ النهائيّ فيها[6]، هذا العرض تضمّنته رسائله الثلاثة في نفس اليوم إلى كلّ من وزير الداخلية[7]، وألبير سارو

(CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى المحافظ، رقم: 2176، وثيقة من صفحة واحدة.

[1]- ينظر: البرقية، 1937/10/01، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6685، 1937/10/03، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من المنشور، وثيقة مطبوعة من صفحة واحدة.

[3]- وردّ النائب العامّ يدلّ على عدم علمه بالإضراب آنذاك؛ ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: 205.18، 1937/10/06، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، من غير ترقيم، 1937/10/06، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]- ينظر: البرقية، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وتوجد برقية أخرى بنفس المحتوى تقريبا، بعثها أحد مسؤولي الحزب بباريس، صنهاجي، إلى زوجة مصّالي في نفس اليوم؛ ينظر: برقية صنهاجي، 1937/10/04، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]- ينظر: البرقيتان، 3cab46، (CAOM)، وثيقتان من صفحة واحدة.

[6]- ينظر: البرقية، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[7]- ينظر: الرسالة، رقم: 344، 1937/10/04، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

(Albert Sarraut)، وزير دولة مكلّف -حديثا[1]- بتنسيق السياسة الخاصّة بشمال إفريقيا[2]، ورئيس المجلس[3].

عرض في رسالته إلى وزير الداخلية وجهة نظر الإدارة الاستعمارية بالجزائر في هذه المسألة، وتتمثّل في أنّ حقّ البتّ فيها راجع إلى محافظ العمالة، لأنّ إدارة السجون بالجزائر لا تخضع لوزارة العدل الفرنسية، ولذلك رفض المحافظ طلب المعتقلين ومحاميهم، استنادا إلى أنّ منحهم السجن السياسيّ -بحسب رأي النيابة العامّة- سيعرقل التحقيق؛ و«أنّ الدعاية الإجرامية قصد طرد فرنسا من الجزائر لا يعتبر رأيا سياسيا مقبولا، بل هو على العكس خيانة لفرنسا»[4]؛ غير أنّ وزير العدل أبدى -سابقا- رأيا معارضا لهذا القرار، وعلى إثره تلقّى الوالي العامّ تعليمات رئيس المجلس، ووزير الداخلية، بضرورة الإبقاء على قرار المحافظ؛ ثمّ جدّدت وزارة العدل رأيها المعارض، حتّى غدا محامو المعتقلين يصرّحون أنّ قرار المحافظ قرار تعسّفي مناقض لإرادة الحكومة؛ وعليه يجب اتّخاذ قرار نهائيّ في الموضوع بالتشاور مع رئيس المجلس، ووزير العدل، وألبير سارو (Albert Sarraut)، ليكون قرار الحكومة موحّدا، لأنّه سيكون سابقة بالنسبة للسياسة التي تريد السلطة المركزية اتّباعها في الجزائر فيما يتعلّق بالنشاطات التي تستهدف السيادة الفرنسية، واستكمالا للصورة أخبره بإضراب المعتقلين عن الطعام، منذ ثلاثة أيام، وفي انتظار القرار ذكر أنّه يرى من المناسب الإبقاء على قرار المحافظ إلى إشعار آخر، لتطابقه وتوجيهات رئيس المجلس ووزير الداخلية السابقة[5].

حمل الوالي العامّ حين عودته من باريس تعليمات شفهيّة من رئيس المجلس، تقضي ليس بتطبيق قانون السجن السياسيّ على مصّالي ورفاقه، وإنّما تطبيق قانون الحقّ العامّ بشيء من المرونة من وجهة النظر المادّيّة[6]، فعقد الوالي العامّ اجتماعا مع محافظ العمالة، والنائب العامّ، ونائب الجمهورية، للاتّفاق على حدود هذه المرونة[7]، وعلى إثر هذا الاجتماع راسل محافظ العمالة رسميّا النائب العامّ بفحوى ما اتّفق عليه: «لقد قرّرت بأنّ النظام الأكثر مرونة، سيطبّق على مصّالي ورفاقه، فيما يتعلّق بالأكل، والزنزانات التي يقيم بها المعتقلون؛ وسيبقى قانون الحقّ العامّ مطبّقا بصرامة، فيما يتعلّق بالزيارات، والمراسلات أو الفعل الخارجيّ عن طريق الصحف»[8]، وقد اعتبر الوالي العامّ -بعد ذلك- هذا القانون المرن منحا «لجميع الامتيازات المادّيّة لقانون

1- كلّف بهذه المهمّة في مجلس الوزراء ليوم 10/02؛ ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى وزير الداخلية، رقم: 344، ص02.

2- ينظر: الرسالة، رقم: 345، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ أرفق بها نسخة من رسالته السابقة إلى وزير الداخلية.

3- ينظر: الرسالة، رقم: 346، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ أرفق بها نسخة من رسالته السابقة إلى وزير الداخلية.

4- ينظر: الرسالة، رقم: 344، ص01.

5- ينظر: نفسه01، 02.

6- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى النائب العامّ، رقم: 4471 S.P، 1937/11/29، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

7- ينظر: برقية الوالي العامّ إلى رئيس المجلس، وإلى ألبير سارو، رقم: 3762 S.P، 1937/10/06، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

8- ينظر: الرسالة، رقم: 9204، 1937/10/06، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وهو نفس فحوى ردّ النائب العامّ على مراسلة وزير

السجن السياسيّ، فيما عدا الزيارات والمراسلات»[1].

إنّ هذا القرار يعتبر تنازلا كبيرا قامت به الإدارة الاستعماريّة بالجزائر مخافة أن يتعمّق الخلاف بينها، وبين وزير العدل الفرنسيّ، من جهة؛ وبين أعضاء حكومة فرنسية ائتلافية من جهة أخرى، لم تتوصّل مجتمعة إلى اتّفاق في هذه المسألة، ومنه تكليف ألبير سارو (Albert Sarraut) بتنسيق السياسة الخاصّة بشمال إفريقيا، في أوائل أكتوبر؛ كلّ ذلك بفعل ضغط إضراب المعتقلين عن الطعام في حدّ ذاته، وما رافقه من نشاط دعائيّ قام به حزب الشعب[2]، ومن مساع قام بها محامو المعتقلين بباريس لدى السلطة المركزيّة، اعتمادا على انتسابهم إلى ثان حزب فاعل في الحكومة؛ فقد بعث المحامي برتون (Berthon) إلى مصّالي برقية، يوم 10/06، يخبره فيها بأنّ رئاسة المجلس قد أكّدت على إقرار نظام السجن السياسي، ويهنّئه على ذلك؛ وعليه كاتب الوالي العامّ رئيس المجلس على عجل، يسأله هل يوافق محافظ العمالة على القرار الذي اتّخذه طبقا لتعليماته، أم أنّه غيّر تعليماته وفق برقية برتون؛ ويرجو جوابه في الغد من ذلك[3]، ولمّا لم يصل الجواب المنتظر[4]، أعاد الوالي العامّ الكرّة يوم 10/08، إثر تلقّي مصّالي برقية جديدة من محاميه تؤكّد سابقتها[5]؛ ليطلب من رئيس المجلس، الجواب على برقيته السابقة، بتحديد تعليماته النهائيّة في المسألة، و لم يفته في ختام برقيته أن يخبره بوقف المعتقلين لإضرابهم عن الطعام، منذ سا 14 من ذلك اليوم، لعلّه يؤثّر في قراره، فينحاز إلى جانب إدارته بالجزائر[6].

العدل ليوم 10/02، مؤكّدا أنّ صلاحية اتّخاذ القرار في هذا الشأن ترجع في المستعمرة إلى الوالي العامّ، قصد تبرير مخالفة النيابة العامّة لأوامر الوزير؛ ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: 205.18، 1937/10/06، 9h47، (CAOM؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، من غير ترقيم، 1937/10/06.

1- ينظر: برقية الوالي العامّ إلى رئيس المجلس، وإلى ألبير سارو، رقم: 3799 S.P، 1937/10/08، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- أصدر حزب الشعب الجزائريّ منشورا، يوم 10/06، يتحدّث عن إضراب المعتقلين منذ خمسة أيّام، وعن إشراف اثنين منهما على الموت، وعن تعنّت الإدارة الاستعماريّة في رفض أمر حافظ الأختام بإقرار السجن السياسيّ؛ ودعا الشعب الجزائريّ لوضع حدّ للجريمة النكراء التي تودّ السلطات الإدارية ارتكابها في حقّ مصّالي ورفاقه؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6765، 1937/10/06، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: برقية الوالي العامّ إلى رئيس المجلس، وإلى ألبير سارو، رقم: 3762 S.P، 1937/10/06، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- والحقّ أنّ جوابا بلغه من وزارة الداخلية يوم 10/11 على برقيتيه ليوم 06 و10/08، ليؤكّد على محتوى برقية أرسلها يوم 10/07، وتنصّ على أنّ رئيس المجلس يبقي ويؤكّد على تعليماته السابقة إلى إشعار جديد؛ فإمّا أن تكون برقية يوم 07 لم تصله، أو كان يريد جوابا من رئيس المجلس رأسا، وليس عن طريق إحدى مصالح وزارة الداخلية، وإن كان مرؤوسا لها، لحساسية المسألة، وكثرة التضارب في الآراء والمواقف إزاءها؛ ينظر: برقية مشفّرة: الداخلية: المراقبة والقضايا الجزائرية إلى الوالي العامّ، من غير ترقيم، 1937/10/11، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- يقول فيها: «من المستحيل أن لا تطبّق الولاية العامّة قرار وزير العدل، ورئاسة المجلس [...] احتججنا بقوّة أنا ولونغي (Longuet) لدى الوزراء المعنيّين إزاء الرفض، والتباطئ المفضوح [...] اعتن بصحّتك، فهي ضرورية للقضية الجزائرية[...]»؛ ينظر: البرقية، 1937/10/08، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ينظر: برقية الوالي العامّ إلى رئيس المجلس، وإلى ألبير سارو، رقم: 3799 S.P، 1937/10/08، 3cab46، (CAOM).

أمّا المعتقلون فقد بدأ إضرابهم عن الطعام في الفاتح من أكتوبر، و لم يزرهم طبيب السجن جوو بريسونيير (Goeau Brisonnière) إلاّ في اليوم الخامس منه[1]، فتتابعت رسائل مدير المقاطعة السجنية بالجزائر إلى محافظ العمالة، تتضمّن تقارير الطبيب اليوميّة عن تطوّرات حالتهم الصحيّة[2]، و لم يلمس الطبيب خطورة على المضربين إلاّ صباح يوم 10/07[3]، فسجّل في تقريره تدهور صحّة كلّ من مصّالي الحاج وبرزوق مصطفى، وتوقّع إمكان نقلهما غدا إلى العيادة لجعلهما تحت رقابة طبية مستمرّة، وإمكان الاضطرار بعد يومين أو ثلاثة إلى اللجوء إلى تغذيتهما قسرا[4].

وفي صباح اليوم الثامن من أكتوبر، ومن الإضراب عن الطعام، كان الموعد مع زيارة مدير مصالح السجون منتدب لدى الولاية العامّة، للمعتقلين في زنزاناهم، بتكليف من مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ، واستجابة من هذا الأخير لأمر الوالي العامّ، لمعاينة الظروف الماديّة لاعتقالهم، بحسب التحسينات التي قرّرت لهم يوم 10/06[5]، ثمّ كانت برقية الأستاذ برتون (Berthon) من باريس صباح نفس اليوم، وقد سبقت، يدعو في ختامها مصّالي إلى الاعتناء بصحّته، حرصا على خدمة القضية الجزائريّة؛ روى مصّالي الحاج هذه الوقائع أيّاما بعد وقوعها، فقال مخاطبا الوالي العامّ: «بعد الإضراب عن الطعام الذي دام ثمانية أيّام[6]، وبعد عدّة تدخّلات لدى السلطات المخوّلة، تلقّينا زيارة مبعوثكم الكريم، السيّد مدير الأمن العامّ، فعبّرنا له عن رغبتنا في نقلنا إلى سجن ميزون كاري (Maison Carrée)، حيث يوجد جناح خاصّ بالسجناء السياسيّين؛ وفي نفس اليوم تلقّينا تلغرافات من محاميّينا

1– بأمر من محافظ العمالة أصدره في نفس اليوم، استجابة لأمر الوالي العامّ في برقيته ليوم 10/04، وهذا التأخّر كان بسبب غياب الوالي العامّ عن الجزائر، فلم يطّلع على رسالة المحافظ ليوم 10/01 إلاّ يوم 10/04، والتي يخبره فيها المحافظ ببدء المعتقلين إضرابهم عن الطعام؛ ينظر: برقية الوالي العامّ إلى المحافظ، 1937/10/04، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 9171، 1937/10/05، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2– ينظر: الرسائل، أرقامها: 2197، و2210، و2228، و2234، و2245، و2255، لأيّام 05-09، و11، موضوعها جميعا: حول موضوع مصّالي، 4I6، (CAOM)، ستّ وثائق من صفحة واحدة.

3– خلاف ما جاء في منشور (ح.ش.ج) السابق، يوم 10/06.

4– ينظر: رسالة مدير المقاطعة السجنية بالجزائر إلى المحافظ، رقم: 2228، 1937/10/07، 4I6، (CAOM). غير أنّ الطبيب عاد يوم 10/08 إلى نفس صيغة تقاريره السابقة تقريبا، من أنّ وضع المضربين الصحّي مقبول نسبيّا، ولا يستدعي فرض التغذية القسرية؛ ينظر: رسالة مدير المقاطعة السجنية بالجزائر إلى المحافظ، رقم: 2234، 1937/10/08، 4I6، (CAOM). وقد نقل المحافظ تدهور صحّة مصّالي وبرزوق هذه إلى الوالي العامّ في رسالته إليه في نفس اليوم على الأرجح؛ ينظر: الرسالة، رقم: 9332، 1937/10/08، وصوابه: 10/07، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5– ينظر: مدوّنة مدير الأمن العامّ للقطر الجزائريّ إلى الوالي العام، رقم: 17690 B، 1937/10/09، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها تقرير السيد ملماصري (Malmassari) مدير مصالح السجون منتدب لدى الولاية العامّة، 1937/10/08.

6– وهو ما يفنّد ما ذكره بنجامين ستورا، من أنّ الإضراب دام 12 يوما؛ وما يفهم من مذكّرات مصّالي أنّه زاد على عشرة أيّام؛ ينظر: مصّالي حاج178؛ ومذكرات مصّالي حاج266، 267.

باريس، /يخبروننا أنّ نظام السجن السياسيّ قد تمّت الموافقة عليه»[1]؛ وفي حدود سا 13 من مساء ذلك اليوم، زار الأستاذ حدو المعتقلين، وبفضل نصائحه، قرّر مصّالي ورفاقه وقف إضرابهم عن الطعام[2]، على أساس القبول بالنظام الجديد المطبّق عليهم، مع المطالبة بتوسيعه[3]؛ وفي مساء ذلك اليوم تمّ إطلاق سراح مصطول محمد، على سا 19 و30د، بقرار من نائب الجمهورية بالجزائر[4].

قرّرت الإدارة الاستعمارية بالجزائر تقديم المعتقلين للمحاكمة، بتاريخ 1937/10/12، لوضع حدّ -في تقديرنا- لهذا الخلاف حول تطبيق نظام السجن السياسيّ على مصّالي ورفاقه، الذي خدم حزب الشعب الجزائريّ وقضيّته خدمة جليلة، وسبّب شرخا في العلاقة بين الإدارة الاستعمارية بالجزائر والسلطة المركزية بباريس: لم يكن التاريخ قد حدّد بعد يوم 10/06، عندما كتب النائب العامّ ردّه إلى وزير العدل، فقد جاء في ختامه، بعد أن عالج مسألة الخلاف القائم بين إدارته والوزارة، فقال: «بعض الجنح التي يُتابع لأجلها المعتقلون ستعرض على القضاء في وقت قريب جدّا»[5]، كوسيلة لحسم هذا الخلاف؛ وفي يوم 10/09 بلّغت الإدارة رسميّا مصّالي، وزكرياء، وخليفة بن عمّار، ولحول، وغرّافة، بمثولهم أمام محكمة الجنح يوم الثلاثاء 10/12 على سا 08 صباحا[6]؛ غير أنّ نائب الجمهورية استشار طبيب السجن، يوم 10/11، عن مدى قدرتهم صحّيا على المثول أمام القضاء في الغد، فكان جوابه بالنفي، فيما عدا مفدي زكرياء، إذ لم يشارك في الإضراب[7]، بسبب مرضه؛ فكتب النائب العامّ رول (Rault) [كذا] إلى وزير العدل يوم 10/15، يعلمه بأنّ وكيله قرّر تبعا لما سبق تأجيل جلسة المحاكمة إلى تاريخ لاحق، ثمّ إنّ محاميي المعتقلين من باريس، برتون (Berthon) ، وزيفا (Zevaes)، طالبا بتأجيلها إلى الثاني من نوفمبر، فتقرّر أن تكون المحاكمة في هذا التاريخ[8].

1- ينظر: رسالة المعتقلين إلى الوالي العامّ، بخطّ مصّالي، وإمضاء المعتقلين السبعة، 1937/10/25، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

2- ينظر: رسالة مدير المقاطعة السجنية بالجزائر إلى المحافظ، رقم: 2237، 1937/10/08، موضوعها: حول موضوع مصّالي، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 9349، 1937/10/09، وصوابه يوم 10/08، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ يخبره فيها بأنّ مدير السجن هتف إليه بخبر وقف الإضراب عن الطعام، مساء ذلك اليوم.

3- ينظر: مذكّرات مصّالي حاج266، 267.

4- ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 9359، 1937/10/09، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة مدير المقاطعة السجنية بالجزائر إلى المحافظ، رقم: 2245، 1937/10/09، 4I6، (CAOM).

5- ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: 205.18، 1937/10/06، 9h47، (CAOM؛ أرفق بها نسخة من الرسالة المذكورة، من غير ترقيم، 1937/10/06.

6- ينظر: رسالة مدير المقاطعة السجنية بالجزائر إلى المحافظ، رقم: 2245، 1937/10/09، 4I6، (CAOM).

7- ينظر: رسالة مدير المقاطعة السجنية بالجزائر إلى المحافظ، رقم: 2255، 1937/10/11، 4I6، (CAOM).

8- ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: 210.09، 1937/10/15، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من الرسالة المذكورة، من غير ترقيم، وثيقة من صفحة واحدة؛ وينظر أيضا: محكمة الجنح: مصّالي ومن معه من المتّهمين كان من المفترض مثولهم: القضيّة أجلت، قصاصة المقال من جريدة ليكو دالجي (L'Echo d'Alger)، ليوم 1937/10/13، الأرشيف غير المتداول، (CAOM).

مشاركة المعتقلين في انتخابات المجلس العامّ:

عرف حزب الشعب الجزائريّ انتعاشة كبيرة بعد اعتقال قادة الحزب، خاصّة منذ مجيء كحّال أرزقي من فرنسا، في الخامس من سبتمبر[1]، ثمّ تبعه محمد قنانش من تلمسان، فقد تمكّن الحزب من أن يستثمر اعتقال قادته، واستنطاقهم، ثمّ إضرابهم عن الطعام خير استثمار، وكان بعد ذلك على موعد في 10/17 مع انتخابات المجلس العامّ (Conseil Général):

قرّر المكتب السياسي لـــ(ح.ش.ج) بالجزائر يوم 09/17، بالاتّفاق مع مركز الحزب بباريس، أن يرشّح قادته المعتقلين ببربروس في الانتخابات العَماليّة القادمة، من غير تحديد دائرة كلّ واحد منهم[2]؛ وتحسّبا لانطلاق الحملة الانتخابية يوم 10/07، راسلت اللجنة العامّة للحزب مسؤولي خلاياه، يوم 09/30، بالخطّة الواجب اتّباعها أثناء الحملة، ويوم الاقتراع، وذيّلت مراسلتها هذه بأسماء قادة الحزب، والدائرة الانتخابيّة التي رشّحوا فيها، على النحو التالي: مصّالي الحاج في الدائرة الانتخابيّة 01 الجزائر؛ ولحول الحسين في الدائرة 05 المدية؛ ومفدي زكرياء في الدائرة 01 قسنطينة؛ ومعروف بومدين في الدائرة 01 وهران؛ ومصطول محمد في الدائرة 03 البليدة؛ وموساوي رابح في الدائرة 09 تيزي وزو؛ وخليفة بن عمّار في الدائرة 09 فليبفيل (Philippeville)؛ وبرزوق مصطفى في الدائرة07 سيدي بلعبّاس[3]. ويبدو أنّ تعيين المترشّحين في دوائرهم الانتخابيّة، أو على الأقلّ اقتراحهم، قد تمّ قبل هذا التاريخ، ويشهد لذلك رسالة بقنيش عبد الله من قسنطينة، إلى كحّال وقنانش، يوم 09/29، يناقشهم في اختيار مفدي مترشّحا للحزب في مدينة قسنطينة، فيقول: «بالنسبة لترشيح مفدي زكرياء في دائرة قسنطينة، فمن رأيي، أن تتخلّى اللجنة المكلّفة بالانتخابات عنه، وبما أنّ اللجنة قرّرت أن ترشّح بقسنطينة أحد المعتقلين، فمن المستحسن أن تختار عوض مفدي زكرياء رجلا مثل لحول الحسين، لأنّه توجد في قسنطينة حركة معادية للمزابيّين، ويمكن أن نُتّهم بأنّنا تبع لهم، وأن تنشر أكاذيب ضدّنا، هذا هو رأي المجموعة ... أرجو من اللجنة أن تدرس بإمعان هذه المسألة، فمصلحة الحزب تقتضيها. ما من شكّ في أنّ ترشيح زكرياء سيفرز عوائق و ... و ... أمام الحزب؛ والله شاهد بأنّنا ونحن نتقدّم بهذا التصريح إنّما نستلهم مصلحة الحزب ليس إلاّ. ترشّح لحول

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6250، 1937/09/15، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 8831، 1937/09/25، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من مراسلة المكتب السياسيّ للحزب إلى مسؤولي فدراليات الحزب وإلى خلاياه، 1937/09/17، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: مراسلة اللجنة العامّة للحزب إلى مسؤولي خلاياه، رقم: 4/E، 1937/09/30، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. وقد أحاطت الإدارة علما بهذه الترشيحات في 10/01، وذكرت بأنّ فدرالية وهران قرّرت أن لا تقدّم أيّ مترشّح؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6669، 1937/10/01، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

الحسين ضروريّ بقسنطينة، إذ ما من ندّ له في هذه الوظيفة»[1].

إنّ ترشيح مفدي في قسنطينة، وخليفة بن عمّار في سكيكدة، يبدو غريبا على خلاف ترشيح سائر المعتقلين، ولا يفسّره -في تقديرنا- سوى محاولة الحزب أن يضمن حضوره في هذه الانتخابات، في عمالة قسنطينة على غرار عمالتي الجزائر ووهران، مع الفارق الشاسع في الحضور الفعليّ للحزب بين العمالات الثلاثة، فعمالة الجزائر كانت المركز، وعمالة وهران كانت تضمّ خلية تلمسان النشطة، كما أنّ رئيس الحزب -وهو من تلمسان- زار وهران، وعقد بها تجمّعا حاشدا يوم 07/31، بينما لم يقدّم الحزب مترشّحا في الدائرة الانتخابيّة أورليانفيل (Orléansville) بعمالة الجزائر[2].

إنّ مفدي المزابيّ، وخليفة بن عمّار القماريّ[3]، غريبان عن هذه العمالة[4]، فمن الصعب أن يلتفت إليهما الناخبون، مع الحضور القويّ لفدرالية المنتخبين في عمالة قسنطينة، لسنوات عديدة، وعلى رأسها الدكتور ابن جلول؛ فإذا كان هرقة عبد القادر، أمين مال خلية (ح.ش.ج) بقالمة، ومرشّحها في الانتخابات البلدية الجزئيّة في 04/25، لم يستطع الصمود أمام مرشّح الفدرالية، الدكتور الأخضريّ[5]، بالرغم من انتمائه لعائلة عريقة بمنطقة قالمة، من جهة والده ومن جهة أمّه[6]، فكيف بمرشّح الحزب في قسنطينة في مواجهة الدكتور ابن جلول، وزميله في سكيكدة في مواجهة حربي حوّاس[7]؛ وفدرالية المنتخبين حصدت في هذه الانتخابات 10 مقاعد، بزيادة مقعدين على انتخابات 1934، 09 منها في الدور الأوّل، من مجموع 11 مقعدا، وقع التنافس عليها بالعمالة[8].

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 6810، 1937/10/07، 4I4، (CAOM)؛ أرفق به نسخة من رسالة بقنيش عبد الله ه، 1937/09/29، ص03؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة35، 36.

2- ينظر: دراسة: الوضعية السياسية في الجزائر في 15 ديسمبر 1937، من إنجاز (C.I.E) الجزائر على الأرجح، وثيقة من 27 صفحة، 11h48، (CAOM)، ص11.

3- ينظر: وثيقة معلومات من إنجاز (C.I.E) الجزائر -على الأرجح-، بخصوص خليفة بن عمّار مناضل (ح.ش.ج) بالجزائر، 1939/10/20، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- بينما كان لحول الحسين، من بين المعتقلين، من مواليد مدينة سكيكدة؛ ينظر: وثيقة معلومات: لحول حسين بن أحمد، (C.I.E) الجزائر، 1939/04/19، 4I87، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- حصل هرقة عبد القادر على 31 صوتا من أصل 2077 صوتا معبّرا عنه، أي: بنسبة 1.49٪ من الأصوات، بينما حصد الدكتور الأخضريّ 2046 صوتا، بنسبة 98.50٪؛ ينظر: نشرة إعلاميّة شهرية تخصّ السياسة الأهليّة بعمالة قسنطينة، (C.I.E) قسنطينة، شهر ديسمبر 1937، 11h59، (CAOM)، ص06، و10.

6- ينظر: رسالة محافظ عمالة قسنطينة إلى الوالي العامّ، رقم: 2.541، 1937/06/02، موضوعها: بخصوص بوجريدة عمّار، وهرقة عبد القادر، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة، أرفق بها بطاقة استعلاميّة خاصّة بالمدعوّ هرقة عبد القادر، وثيقة من صفحتين، ص01.

7- حصل خليفة بن عمّار على 36 صوتا من أصل 4946 صوتا معبّرا عنه، بنسبة 0.72٪؛ ينظر: نشرة إعلاميّة شهرية تخصّ السياسة الأهليّة بعمالة قسنطينة، (C.I.E) قسنطينة، شهر ديسمبر 1937، 11h59، (CAOM)، ص06.

8- ينظر: نشرة إعلاميّة شهرية تخصّ السياسة الأهليّة بعمالة قسنطينة، (C.I.E) قسنطينة، شهر ديسمبر 1937، 11h59، (CAOM)، ص05.

أمّا مفدي زكرياء فقد تنافس في قسنطينة، مع الدكنور ابن جلول، زعيم فدرالية المنتخبين لعمالة قسنطينة، الحاصل على 4426 صوتا من أصل 4949 صوتا معبّرا عنه، بنسبة تساوي 89.43٪؛ ومنافسه الثاني كان ابن أبيوض، عن حزب (S.F.I.O)، ونال 252 صوتا، بنسبة 05.09٪؛ بينما حصل منافسه الثالث دبابش علي، من الحزب الشيوعيّ، على 229 صوتا، بنسبة 04.62٪؛ فكان نصيب مفدي من الأصوات هزيلا يساوي 32 صوتا، بنسبة 0.64٪[1].

هذه النتائج الهزيلة التي حصل عليها حزب الشعب الجزائريّ في عمالة قسنطينة، أفضت بمحافظ عمالة قسنطينة، بعد حديثه عن توظيف (ح.ش.ج) الاحتجاج ضدّ اعتقال مصّالي ورفاقه أثناء الحملة الانتخابيّة، إلى النتيجة التالية: «إلاّ أنّ العدد الهزيل من الأصوات التي تحصّل عليها، يوم 17 أكتوبر، يوم الاقتراع [../..] هو دليل أكيد على عدم اهتمام الشعب المسلم القسنطينيّ بأمر مصّالي الحاج ورفاقه، وأنّه تخلّى عنه تماما»[2].

وعليه فإنّ تحفّظ بقنيش عبد الله على ترشيح مفدي بقسنطينة، إن وجد ما يبرّره في المقاطعة التي طالت دكاكين المزابيّين في قسنطينة وضواحيها، في شهر جويلية من سنة 1936[3]، فإنّه لم يكن العامل الحاسم فيما حدث، وإنّ ترشيح لحول الحسين بدلا من مفدي ما كان ليغيّر شيئا ذا بال في تلك النتائج.

أمّا نتائج حزب الشعب الجزائريّ في الدائرة الانتخابيّة الأولى بالجزائر فكانت أكثر من مذهلة، وكانت جدّ منطقية بالنظر إلى الجهد الذي قام به الحزب منذ حلول مصّالي الحاج بها في 06/20، إلى اعتقاله ورفاقه في 08/27، وبعد اعتقاله بفضل الفريق الذي حلّ مكان قادة الحزب المعتقلين، وعلى رأسهم كحّال أرزقي، بالرغم من أنواع المضايقات التي فرضتها الإدارة الاستعمارية على نشاط الحزب، خاصّة إبّان الحملة الانتخابيّة: أحرز زعيم الحزب، مصّالي الحاج، في الدور الأوّل، على 2425 صوتا، من مجموع 7517 ناخب، بنسبة 32.26٪؛ وحصل ممثّل الإدارة الاستعماريّة، زروق محي الدين، على 1888 صوتا، بنسبة 25.11٪[4]؛ وفي الدور الثاني، يوم 1937/10/24، نال مصّالي 4063 صوتا، من أصل 8201 ناخب، بنسبة 49.54٪؛ بينما تحصّل زروق محي الدين على 2432 صوتا، بنسبة 29.65٪[5]؛ فسجّل عدد الأصوات لصالح مصّالي زيادة قدرها 1638 صوتا، وزادت

1- ينظر: نشرة إعلاميّة شهرية تخصّ السياسة الأهليّة بعمالة قسنطينة، (C.I.E) قسنطينة، شهر ديسمبر 1937، 11h59، (CAOM)، ص05؛ والسنة الأهليّة 1937 بمنظور عمالة الجزائر، من إنجاز (C.I.E) الجزائر -على الأرجح-، فيفري 1938، 11h48، (CAOM)، وثيقة من 27 صفحة، ص13؛ مقابلا بنتائج هذه الانتخابات في جريدة "النجاح"، س19، ع2058، 1356/08/14هـ، 1937/10/20م، ص02.

2- ينظر: رسالة محافظ عمالة قسنطينة إلى الوالي العامّ، رقم: 5.736، 1937/11/15، موضوعها: الوضعية النفسية للأهالي إثر اعتقال المدعوّ مصّالي حاج، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

3- ينظر: الباب الثاني، ص235 ها01؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة38.

4- ينظر: جريدة "النجاح"، س19، ع2059، 1356/08/16هـ، 1937/10/22م، ص02.

5- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7284، 1937/10/26، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من

النسبة بـــ: 17 نقطة كاملة، في ظرف أسبوع واحد، بين الدورين الانتخابيّين؛ وغنيّ عن البيان أنّ النتائج الفعليّة ألغيت، وعوّضت بنتائج أعلن مجلس محافظة الجزائر الفائز فيها زروق محي الدين، رغم أنف الإرادة الشعبيّة[1].

وفي قراءة الإدارة الاستعماريّة للنتائج التي حصل عليها الحزب في عمالة الجزائر، اعتبرت هذه الأرقام دليلا واضحا على «التطوّر السريع لتأثير (ح.ش.ج)، حيثما ترسّخت دعايته (5.377 صوتا من 30.000 ناخب، أو من 25.000 إذا أخذنا بالاعتبار عدم تقديم (ح.ش.ج) مترشّحا في أورليانفيل). لقد استطاع هذا التنظيم أن يستغلّ لصالحه أحسن استغلال اعتقال قادته، إلاّ أنّ نجاح مصّالي يتجاوز مجرّد إظهار التعاطف مع مواطن مسجون، فلا بدّ أن نلاحظ فيه أيضا تغلغل أفكار هذا القائد في الطبقة البسيطة [...]. إنّ زيادة عدد الأصوات لصالح مصّالي بين الدورين الأوّل والثاني، وبخاصّة في المدن الداخلية، ملفت للانتباه بقوّة، ويبدو أنّه دالّ على أنّه وبعد تطبيق دعاية سريعة وموفّقة، أصبح العنصر الريفيّ الذي كنّا نظنّه غير مبال بحركية الأفكار الجديدة، مهيّأ للانضمام إليها بسرعة، وترك نفسه ينقاد لها في سبيل معاد لفرنسا، بطريقة -ربّما- أسرع من المدينة»[2]؛ وخلصت هذه القراءة في الختام إلى هذه النتيجة: «يمكن أن نؤكّد /-كخلاصة- أنّ هذا الانزلاق يتمّ -بلا جدال- لصالح كلّ من يسجّل إرادته في إعادة بناء بلد هنا، ذي خصوصيّة عربيّة وإسلاميّة»[3].

وفي يوم 1937/10/21، أرسل محافظ عمالة الجزائر ش. بورا (Ch. Bourrat) إلى العماد قائد فيلق الجيش التاسع عشر، قيادة الأركان (المكتب الثاني)، يعلمه بإدراج أسماء المعتقلين الستّة من حزب الشعب الجزائريّ، يوم 08/27، في الدفتر "B" الخاصّ بمحافظته، بما في ذلك مصطول محمد الذي أطلق سراحه-كما سبق- يوم 10/08، لعدم وجود وجه لإقامة الدعوى ضدّه[4].

صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من منشور لحزب الشعب الجزائريّ، وزّع يوم 10/25، يضمّ النتائج التفصيليّة للدور الثاني من الانتخابات العَماليّة، وثيقة من صفحة واحدة. وتنظر نتائج الانتخابات مفصّلة في الدّورين: الانتخابات الأهليّة للمجلس العامّ في عمالة الجزائر، (C.I.E) الجزائر، رقم: 135، 1937/10/27، 9h27، (CAOM)، وثيقة من سبع صفحات، ص06، 07.

1- ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة499؛ وحزب الشعب الجزائريّ، كلود كولو (Claude Collot)، المجلّة الجزائريّة للعلوم القانونية والاقتصاديّة والسياسيّة (Revue Algérienne des Sciences Juridiques Economiques et Politiques)، ج08، ع01، مارس 1971، ص163؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة39.

2- ينظر: الانتخابات الأهليّة للمجلس العامّ في عمالة الجزائر، (C.I.E) الجزائر، رقم: 135، 1937/10/27، 9h27، (CAOM)، ص 04.

3- ينظر: نفسه04، 05.

4- ينظر: الرسالة، رقم: 9776، 1937/10/21، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ والملحق620.

الفصل الثاني: المحاكمات والسجن السياسيّ

في المحكمة الابتدائيّة:

مثُل مصّالي الحاج ورفاقه، يوم الثلاثاء 1937/11/02، أمام المحكمة المدنية الابتدائيّة بالجزائر (دائرة الجنح)[1]، بتهمة المشاركة بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، على إبقاء أو إعادة إنشاء باسم "أحباب الأمّة"، وباسم "حزب الشعب الجزائريّ"، لجمعية "نجم الشمال الإفريقيّ"، المنحلّة بمرسوم، مؤرّخ في 1936/01/26؛ وبتهمة حضّ الأهليّين الجزائريّين على الشغب، أو التظاهر ضدّ السيادة الفرنسيّة[2].

أمّا هيئة الدفاع عن المتّهمين، فكانت متكوّنة من الأستاذ برتون (Berthon) من سلك المحاماة بباريس، والأساتذة من سلك المحاماة بالجزائر: ديرولاد (Déroulède) وحدو (Haddou)، لجميع المعتقلين؛ وسيرنا (Serna) محام رابع خاصّ بمفدي زكرياء[3].

تضمّنت الجلسة الصباحيّة[4] تدخّلا للمحامي برتون[5]، ثمّ قرأ مصّالي الحاج تصريحا في شأن التّهم الموجّهة إليه وإلى رفاقه[6]، ثمّ تبعه استجواب المتّهمين؛ وفي الجلسة المسائيّة[7]، تمّ الاستماع إلى الشهود[8]، وبعدها تدخّل

1- تكوّنت هيئة القضاء من: سكيلانتي (Squillante) رئيسا، وفونتن (Fontan) وأليي (Allier) قاضيين؛ وبحضور موشون (Mouchan) وكيلا لنائب الجمهورية، بمعية بنتوليلا (Bentolila) كاتبا للجلسة، وفاسيو (Facio) مترجما من اللغة العربية؛ ينظر: نسخة من سجلّ كاتب جلسة المحكمة الابتدائيّة بالجزائر (Extrait des Minutes du Greffe du Tribunal de 1ère Instance d'Alger)، القضية رقم: 4863، 1937/11/04، 4I3، (CAOM)، وثيقة من 16 صفحة مكتوبة بخطّ الكاتب، ص01.

2- ينظر: نفسه03.

3- ينظر: نفسه01.

4- امتدّت من سا 08 و15د إلى سا 12 و10د؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، بناء على تقرير المحافظ دلقوف (Delgove)، رقم: 7476، 1937/11/03، موضوعه: بخصوص محاكمة مسؤولي حزب الشعب الجزائريّ، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

5- طالب فيه اعتبار التهمتين تحملان طابعا سياسيّا، وعليه ففي حالة إدانتهم لا يمكن تطبيق الإكراه البدنيّ (La Contrainte par Corps)، ومنه كان من حقّ المعتقلين الاستفادة من نظام السجن السياسيّ؛ ينظر: نفسه01؛ ونسخة من سجلّ كاتب جلسة المحكمة الابتدائيّة بالجزائر، القضية رقم: 4863، 1937/11/04، 4I3، (CAOM)، ص 02.

6- أوضح من خلاله أنّه لم يكن من أهداف (ح.ش.ج) أبدا إلقاء الفرنسيّين في البحر، وإنّما كان دائما يطالب بحرية المسلمين في إطار الشرعية، والسيادة الفرنسية؛ وأنّه لم يدفع أبدا أتباعه إلى استعمال العنف؛ كما نفى عن نفسه كونه عميلا لهتلر أو موسوليني؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7476، 1937/11/03، 4I3، (CAOM)، ص01؛ وقضية مصّالي أمام محكمة الجنح بالجزائر، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دورون" (L'Echo d'Oran)، ليوم 1937/11/03، 3cab46، (CAOM). والتصريح كاملا نشرته جريدة "الأمّة" الباريسيّة، في عددها لشهر نوفمبر 1937؛ ينظر: تصريح مصّالي أمام محكمة الجزائر، قصاصة المقال، 3cab46، (CAOM).

7- امتدّت من سا14 و15د إلى سا 19 و50د؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7476، 1937/11/03، 4I3، (CAOM)، ص01، 02.

8- وكانوا 05 شهود لصالح الاتّهام، و04 لصالح الدفاع، من بينهم معروف بومدين؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7476،

المترجم فاسيو (Facio)، ليؤكد على صحّة ترجمته لـ:"النشيد الوطنيّ الجزائريّ"، من تأليف مفدي زكرياء، وبخاصّة لفظ "الجهاد" فيه، حيث ترجمه بـ: (Guerre Sainte)، بعد الانتقادات التي وجّهها مفدي إلى هذه الترجمة، حين استجوابه صباحا[1]؛ وبعد ذلك جاء دور مرافعة النيابة، التي ختمها وكيل نائب الجمهوريّة موشون (Mouchan)، بمطالبة القضاة بصرامة عادلة، وبإصدار حكم يدلّ على أنّ سلطة فرنسا في الجزائر لا تزال تامّة غير منقوصة، وختمها بقوله:«إنّ فرنسا كلّها وراءكم»[2].

أمّا محامي قادة حزب الشعب برتون (Berthon)، فقد اعتبر في مرافعته حركة مصّالي حركة شرعية، واستغرب أن يكون مصّالي -الذي يكنّ له كلّ الاحترام- ورفاقه متابعين من قبل حكومة الجبهة الشعبية؛ وأكّد أنّ أهداف(ح.ش.ج) غير أهداف نجم الشمال الإفريقيّ، لأنّ مسؤولي (ح.ش.ج) يطالبون بحقوقهم في إطار المؤسسات الجمهورية؛ واتّهم الشرطة في تقاريرها التي لا تعكس الحقيقة، وكانت في الكثير من الأحيان مكذوبة؛ واعتبر أنّ اتّهام مصّالي ورفاقه قضية اختلقتها الولاية العامّة في جميع تفاصيلها؛ وهاجم القانون رينيي الذي يفسح المجال لجميع أنواع التجاوزات، وحذّر القضاة في الأخير، قائلا: «إنّ خلف هؤلاء الرجال، شعب كامل تحاكمونه»، وختمت الجلسة بتدخّل موجز للمحامي ديرولاد (Déroulède)، أنهى بعده رئيس المحكمة إلى علم الحاضرين أنّ الحكم سيعلن عنه يوم الخميس 11/04 على سا14 و30د[3].

وأشار تقرير مديرية الأمن لعمالة الجزائر إلى أنّ الجوّ أثناء المحاكمة كان هادئا للغاية، و لم يسجّل أيّ حادث، سواء في القاعة، أو في الأنحاء المجاورة لقصر العدالة[4]، وانتظر عدد من مناضلي حزب الشعب خروج قائدهم، وانصرفوا بعد أن حيّوا موكبه، برفع سبابة اليد اليمنى نحو السماء[5].

وفي يوم الخميس 1937/11/04، على سا14 و45د، أصدرت المحكمة حكمها في "قضية قادة حزب الشعب الجزائريّ":

قرأ رئيس المحكمة نصّ الحكم على المتّهمين، وقسمّ حيثياته إلى قسمين، بحسب التهمتين الموجّهتين إليهم،

1937/11/03، 4I3، (CAOM)، ص01.

1- ينظر: السابق02.

2- ينظر: قضية مصّالي أمام محكمة الجنح بالجزائر، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دورون"، ليوم 1937/11/03، 3cab46، (CAOM)؛ ومصّالي والمتّهمون معه أمام القضاء، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دالجي" (L'Echo d'Alger)، ليوم 1937/11/03، 3cab46، (CAOM).

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7476، 1937/11/03، 4I3، (CAOM)، ص02؛ وقضية مصّالي أمام محكمة الجنح بالجزائر، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دورون"، ليوم 1937/11/03، 3cab46، (CAOM).

4- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7476، 1937/11/03، 4I3، (CAOM)، ص02.

5- ينظر: مناقشات قضية مصّالي تمّت أمام محكمة الجنح بالجزائر، قصاصة المقال من جريدة "لاديبش دو كونستنتين" (La dépêche de Constantine)، ليوم 1937/11/03، 3cab46، (CAOM).

وكانت كثيرة استغرقت صفحات عديدة[1]، ومنه اعتبرت صحف "لادبيش ألجيريان" (La dépêche Algérienne)، و"لادبيش دو كونستنين" (La dépêche de Constantine) الحكم متين الأساس، وأرجعته إلى الحسّ المهني الرفيع لدى رئيس المحكمة سكيلانتي (Squillante)[2]، ولا يمكن أن نغفل هنا عن حرص الإدارة الاستعماريّة في الجزائر، والنيابة العامّة بصفة أخصّ، على سدّ أدنى ثغرة يمكن أن تفتح جبهة جديدة للصراع مع الإدارة المركزية بباريس، وبخاصّة مع وزير العدل وحافظ الأختام، وكان هدفها إنزال أقصى عقوبة يخوّلها لها القانون على المتّهمين، مع منعهم من الاستفادة من نظام السجن السياسيّ.

أمّا الحيثيات التي نجد مفدي طرفا فيها، فنجدها في حيثيات التّهمة الثانية، وهي الحضّ على القيام بأعمال شغب ضدّ السيادة الفرنسيّة:

– المنشور الذي صرّح خليفة بن عمّار بكتابة نصّه العربيّ، إن في التحقيق، وإن في الجلسة، احتجاجا على حلّ النجم، وينتهي في نصّه باللغة الفرنسيّة، من تأليف لحول الحسين، بعبارة (Le Nationalisme libérateur vincra)[3]، ويقابله في النصّ العربيّ: «وليعلم أعداء الأمّة [...] أنّ الوطنية التحريريّة ستخرج غالبة منصورة»، وأسلوب النصّ العربيّ من المنشور، لا يمكن أن يكون لخليفة بن عمّار، فقد كانت ثقافته محدودة، وباللغة الفرنسيّة، وكان يكتب بها رسائله، ومنها رسالته إلى أعضاء خلية قسنطينة، بتاريخ 1937/02/01، وإنّما هو –في تقديرنا– من تأليف مفدي، على ما أوضحناه سابقا[4].

– "النشيد الوطني الجزائريّ"، من تأليف مفدي زكرياء، وأدرج منه في حيثيات الحكم ما ترجمته من النصّ الفرنسيّ إلى اللغة العربية: «أيّا كان يسأل ربط وطننا بفرنسا، فهو أكبر عدوّ لنا وللإسلام[5]. [يحيا حزب الاستقلال، ونجم الشمال الإفريقيّ. سنلقي بأنفسنا في المعمعة، ولن

1– ينظر: مستخرج من الحكم الصادر في جلسة المحكمة المدنية الابتدائيّة بالجزائر (دائرة الجنح) ليوم 04 نوفمبر 1937، ضدّ مصّالي حاج بن أحمد، وستّة متّهمين آخرين (Extrait du jugement rendu à l'audience du Tribunal Civil de 1èr Instance d'Alger (Chambre Correctionelle) du 4 novembre 1937, contre Messali Hadj ben Ahmed et 6 autres inculpés)، عليه ختم (C.I.E) الجزائر، رقم: 599، 1937/12/18، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من 08 صفحات مرقونة.

2– ينظر: مصّالي وأعوانه حكم عليهم، لروني بوشي (René Bouchet)، قصاصة المقال من جريدة "لادبيش ألجيريان"، ليوم 1937/11/05، 3cab46، (CAOM)؛ ومصّالي حاج وأعوانه الأساسيون حكم عليهم بسنتين سجنا، من غير إمضاء، قصاصة المقال من جريدة "لادبيش دو كونستنين"، ليوم 1937/11/05، 3cab46، (CAOM).

3– ينظر: المستخرج من حكم المحكمة المدنية الابتدائيّة بالجزائر (دائرة الجنح)، ليوم 1937/11/04، 3cab46، (CAOM)، ص04.

4– ينظر: الباب الثاني، ص198، 199.

5– هذه ترجمة لجزء ممّا كتبه مفدي على يمين شعار "نجم الشمال الإفريقيّ"، عند طبعه للقصيدة، وهو: «شعارنا: الإسلام ديننا، الجزائر بلادنا، العربية لغتنا. **كلّ من يطلب إلحاق بلادنا**، والمروق من جنسنا، **فهو أكبر عدوّ لنا وللإسلام**»؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم:

نستسلم، وإن كان فيه موتنا]. إنّنا لا نريد الامتزاج؛ فإلى الأمام سالكين طريق الفخر والجهاد، فإلى الأمام لنيل الاستقلال والحريّة»[1]. وقد نصّ الحكم على أنّ مفدي انتقد ترجمة نشيده، لأنّها حرّفت مضمونه؛ غير أنّه سجّل من جهة أخرى تأكيد المترجم أمام المحكمة على تيقّنه من صحّة ترجمته للقصيدة[2]؛ وعن ذلك يقول الأستاذ قنانش: «وقد وقف شاعرنا أمام المحكمة، يجادل، ويفسّر كلمة "الجهاد" الموجودة في النشيد الوطنيّ، بمعناها اللغويّ، وتوصّل إلى رفض المترجم الشرعيّ [المحلّف]، وتبديله بمترجم آخر، وكانت المعركة حادّة دلّت على أنّ شاعرنا كان في القمّة»[3].

- إثارة خطباء الحزب حماس سامعيهم في التجمّعات التي يعقدونها، على ما نقلته تقارير الشرطة، ومنه دعوة الخطباء مصّالي ولحول وزكرياء سامعيهم في تجمّعي سينما "ديامون" (Diamont)[4]، و"لا بارل" (La Perle)[5]، إلى العمل على تحرير الشعب الجزائريّ، الذي ينبغي له أن يطرد الفرنسيّين، وأن يتخلّص من سيطرتهم، لبناء دولة مستقلّة، وهو ما أكّده شهود النيابة: لو بول (Le Boul) محافظ الشرطة، وبلانشي (Blanchet) مفتش شرطة، وأعوان الشرطة: أليان (Aliane)، وعزوقي (Azougui)، ودودو (Dodo)[6].
- الخطب التي ألقيت في تجمّع بوفاريك[7]، وورد في إحداها -وهي لمفدي زكرياء- ما يلي: «هذه الأرض ملك لنا، لا تنسوا بأنّ أسلافنا قد عجنوا هـــذه الأرض بدمائهم، عظامُهم مدفونة في كلّ

4384، 1936/11/23، موضوعه: أغنية وطنية أهليّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من النشيد الوطنيّ الجزائريّ، في مطوية من 04 صفحات، والكتابة على ثلاثة منها. وتنظر ترجمة من ترجمات النشيد العديدة: الملحق608، 609.

[1]- ما بين معقوفين في النصّ من ترجمتي، وتنظر بقية الترجمة: الحكم بعامين سجنا على المصالي الحاج وأعوانه الأربعة، جريدة "النجاح"، س19، ع2065، 1356/09/02هـــ، 1937/11/06م، ص01؛ وهذا الجزء ترجمة لخمسة أبيات تركتها بترقيمها في أصل القصيدة، وهي:

02-	فليحي (حـــزب الإستقلالِ)،	و(نجم شـــمال إفـــريقـــيهْ)
10-	نخوض الكون مع الخائضينَ،	ولا نـــرتـــدّ ولـــو بالـــردى
14-	ولسنا نـــرضى الإندمـــاجا،	ولا نــــــرتـــدّ فرنســـيســـا
21-	ألا في طريـــق الهدى سعينا،	ألا في سبـــيل العلا والجـــهادِ
25-	ألا في سبـــيـــل الإستـــقلالِ	ألا في سبـــيـــل الحـــــريّهْ.

[2]- ينظر: المستخرج من حكم المحكمة المدنية الابتدائيّة بالجزائر (دائرة الجنح)، ليوم 1937/11/04، 3cab46، (CAOM)، ص04.

[3]- حزب الشعب الجزائريّ268؛ غير أنّني لم أعثر على ما يدلّ على تغيير المترجم، أو الاستعانة بمترجم آخر.

[4]- ينظر: الباب الثاني، ص226.

[5]- ينظر: الباب الثاني، ص243.

[6]- ينظر: المستخرج من حكم المحكمة المدنية الابتدائيّة بالجزائر (دائرة الجنح)، ليوم 1937/11/04، 3cab46، (CAOM)، ص05.

[7]- ينظر: الباب الثاني، ص251.

مكان، حيث قاوموا من أجل الحفاظ عليها. إنّ أجدادنا كانوا رجالا، ونحن لسنا إلاّ فراخا، لا بدّ أن نستفيق، أن نكون جديرين بأجدادنا، أن نتّحد ونتعاون، لكي نناضل من أجل استقلالنا ... [كذا] إنّنا نريد حكما مستقلاّ، إنّنا معادون لمشروع فيوليت (Viollette) الذي ليس له من هدف سوى إلحاقنا بفرنسا»[1].

- الكلمة التي ألقاها مفدي في تجمّع وهران[2]، ومنها قوله: «إنّ انتزاع الحريات يقتضي التضحية بكلّ شيء، بما في ذلك النفس. أنحن في بلدنا أم لا؟ هل ستتقبّلون طويلا هذا النظام البغيض؟ جميعا مع (ح.ش.ج)، إلى الممات إن لزم الأمر»[3].

وفي ختام حيثيات هذا الحكم ورد ما يلي: «حيث أنّه يتعيّن إظهار صرامة في العقوبة. حيث أنّ المتّهمين غرّافة إبراهيم، وبلامين علي، يبدو عليهما لعب دور أقلّ خطورة. حيث أنّ الوقائع الثابتة على المتّهمين المذكورين أعلاه، تشكّل جنحا تفترضها وتعاقب عليها المادّة الثانية من قانون 10 جانفي 1936م، ويفترضها ويعاقب عليها قانون 30 مارس 1935م»[4]؛ وتأسيسا عليه أعلنت المحكمة ثبوت التهمتين على المدعوّين: مصّالي حاج بن أحمد، والشيخ زكري (المدعوّ: زكرياء) بن سليمان، ولحول حسين بن أحمد، وخليفة بن عمّار، وموساوي رابح بن حسين؛ وثبوت التهمة الأولى فقط على المدعوّيْن: بلامين علي، وغرّافة إبراهيم بن عيسى؛ وردعا لهم حكم على الأوّلِين بسنتين سجنا لكلّ واحد منهم، وعلى الثانيين بسنة سجنا لكلّ واحد منهما؛ مع حرمان المتّهمين السبعة من حقوقهم المدنية؛ بالإضافة إلى غرامة مالية عليهم مجتمعين، تعويضا لمصاريف المحاكمة[5].

وصفت جريدة "النجاح" موقف المحكوم عليهم عند صدور الحكم، بقولها: «ولم يضطرب المحكوم عليهم عند النطق بنصّ الحكم، بل بقوا يستمعون تفاصيل نصّ الحكم، بمزيد التمعّن والتنبّه، بل شوهدت ابتسامة شردت من شفاههم عند النطق بالحكم»؛ وهو وصف مختلف عمّا وصفتهم به عند جلوسهم فوق مقاعد الاتّهام، فقد «كانت وجوههم صفراء كوجوه الأموات، ولكنّهم كانوا هادئين، لا يظهر عليهم أدنى قلق»[6]؛ وأغرب منه توافق الوصفين مع ما جاء في الجريدتين الناطقتين بالفرنسية: "لاديبش ألجيريان"، و"لاديبش دو كونستنين"[7]، ممّا

1- ينظر: المستخرج من حكم المحكمة المدنية الابتدائيّة بالجزائر (دائرة الجنح)، ليوم 1937/11/04، 3cab46، (CAOM)، ص05.

2- ينظر: الباب الثاني، ص250، ها03.

3- ينظر: المستخرج من حكم المحكمة المدنية الايتدائيّة بالجزائر (دائرة الجنح)، ليوم 1937/11/04، 3cab46، (CAOM)، ص05.

4- ينظر: نفسه06.

5- تقدّر بـــ: 1221.10 فرنكا، والحكم كان بطبيعة الحال غيابيّا على موساوي وبلامين الفارّين؛ ينظر: نفسه07، 08.

6- الحكم بعامين سجنا على المصالي الحاج وأعوانه الأربعة، جريدة "النجاح"، س19، ع2065، 1356/09/02هـــ، 1937/11/06م، ص01.

7- ينظر: مصّالي وأعوانه حكم عليهم، قصاصة المقال من "لاديبش ألجيريان"، ومصّالي حاج وأعوانه الأساسيون حكم عليهم بسنتين سجنا، قصاصة المقال من "لاديبش دو كونستنين"، بتاريخ 1937/11/05 لكليهما، 3cab46، (CAOM).

قد يبرز بصمة الإدارة الاستعمارية واضحة في هذه المقالات.

وعبّر تقرير مديرية الأمن لعمالة الجزائر، بنفس عبارات تقرير المحاكمة، عن الجوّ الذي ساد أثناء إصدار الحكم، فقد كان هادئا للغاية، و لم يسجّل أيّ حادث، سواء في القاعة، أو في الأنحاء المجاورة لقصر العدالة[1].

إنّها أوّل محاكمة في تاريخ الحركة الوطنيّة، وكانت محاكمة استقطبت اهتمام الرأي العامّ بالجزائر، من جزائريّين وفرنسيّين، ولا أدلّ على ذلك من التغطية الصحفية الواسعة لهذه المحاكمة باللغتين الفرنسية والعربية، ثمّ إنّ حاكم ملحقة غرداية فيغورو (Vigourous)، أرسل إلى القائد العسكريّ لمنطقة غرداية بالأغواط، يعلمه أنّ خبر الحكم على مصّالي ورفاقه وصل إلى مزاب يوم 11/04، على سا18 مساء، وأنّ الشيخ بيوض تلقّى برقية من "البرق"، وهو لعساكر محمد بن سليمان، يعلمه بالأحكام الصادرة في حقّ قادة حزبه[2]؛ كما كانت الإدارة الاستعماريّة بالجزائر تتابعها بحذر شديد، فكانت تقارير مديرية الأمن لعمالة الجزائر دقيقة، تتابع كلّ صغيرة وكبيرة في هذه المحاكمة، كما أنّها وظّفت بالمناسبة تعزيزات أمنيّة كبيرة تحسّبا لأيّ طارئ، وهو ما تعكسه مقالات الصحافة الفرنسيّة ليومي 03 و05. أمّا الإدارة الاستعمارية بباريس فكانت تتابع المحاكمة عن كثب، فقد أرسل الوالي العامّ بمجرّد صدور الحكم، على سا19 و18د، من نفس اليوم، برقية إلى وزير الداخلية، يخبره بالأحكام التي صدرت في حقّ المتّهمين، مؤكّدا في ختامها على تطبيق الفقرات الثلاثة الأولى من المادّة 42 من القانون الجنائيّ عليهم، بمعنى حرمانهم من حقوقهم المدنيّة، ومنه عدم إمكان ترشّحهم في انتخابات قادمة، تفاديا لمأزق جديد كالذي وقع في انتخابات 17 و1937/10/24؛ كما أكّد على عدم وقوع أيّ حادث[3].

صرّح نصّ الحكم في خاتمته أنّ المحكمة «لا ترى ضرورة إقرار "الإكراه البدنيّ" (La contrainte par corps)، بسبب الطابع السياسيّ للجنح التي ارتكبوها»، وذلك تطبيقا على وجه الخصوص للمادّة «19 من قانون 30 ديسمبر 1928، والمطبّق في الجزائر بقرار 25 أفريل 1939»[4]؛ وهو ما أعاد بقوّة إلى الواجهة الجدل القائم حول حقّ المعتقلين في نظام السجن السياسيّ، وحكم المحكمة له وزنه الذي لا يخدم موقف الإدارة الاستعمارية بالجزائر في هذه المسألة؛ وهو ما جعل كاتب مقال "لاديبش ألجيريان"، ليوم 11/05، يعنون فقرة من فقرات مقاله بهذا العنوان "هل سيستفيد مصّالي وأعوانه من نظام السجن السياسي؟" وبعد بيانه لقرار المحكمة في الموضوع، وما يترتّب عليه، تحدّث عمّا بلغه من أنّ النيابة العامّة استأنفت دعوى ضدّ هذا القرار، بناء على أنّه من المحتمل جدّا

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، بناء على تقرير المحافظ دلقوف (Delgove)، رقم: 7503، 1937/11/04، موضوعه: قضية (ح.ش.ج)، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: الرسالة، رقم: 185/S، 1937/11/06، موضوعها: المراقبة السياسيّة للأهالي، 9h58، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

3- ينظر: البرقية، رقم: 80397/SB، 1937/11/04، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ينظر: المستخرج من حكم المحكمة المدنية الابتدائيّة بالجزائر (دائرة الجنح)، ليوم 1937/11/04، 3cab46، (CAOM)، ص08.

استئناف المحكومين الدعوى في الأحكام التي سلّطت عليهم[1]، وإذا كانت "لاديبش ألجيريان" و"لاديبش دو كونستنتين" قد اتّفقتا على أنّ استئناف النيابة قد وقع فعلا[2]، فإنّ جريدة "ليكو دالجي" (L'Echo d'Alger)، التي يظهر عليها نوع من الاستقلالية مقارنة بسابقتيها فيما يبدو، قد تحدّثت عن أنّ نائب الجمهورية سيستأنف، من غير ربطه بتحسّب النيابة استئناف المحكوم عليهم[3]؛ وهو ما لم يتحدّث عنه النائب العامّ أصلا في رسالته التي وجّهها في ذات اليوم إلى وزير العدل وحافظ الأختام، يخبره عن نتيجة المحاكمة، فاكتفى بالإشارة إلى قرار المحكمة في شأن "الإكراه البدنيّ"، من غير أدنى تعقيب عليه، ببيان تبعاته، أو بتقرير ما فعله، أو سيفعله اتّجاهه[4].

والحقّ أنّ النائب العامّ كان قد استأنف الحكم، مباشرة بعد صدوره، في الجزئيّة المتعلّقة بعدم إقرار الإكراه البدنيّ، نظرا للطابع السياسيّ للجنح المرتكبة؛ فقد نصّت محكمة الاستئناف، يوم 1938/01/14، أنّها اجتمعت للنظر في القضية التي تجمع بين النائب العامّ ضدّ مصّالي حاج وآخرين، للنظر في الاستئناف الذي تقدّم به الطرفان تباعا، يومي 04 و1937/11/12[5].

وعندما بلغ الخبر وزير العدل، كتب إلى النائب العامّ، برقية مشفّرة، يوم 11/10، يقول: «ابعثوا تقريرا – بالطائرة– عن الأسباب التي جعلت النيابة تستأنف في قضية مصّالي، في حين قد رجوتها الموافقة على نظام السجن السياسي»[6]، ويبدو أنّ هذا الرجاء قد تضمّنته رسالته ليوم 11/04، على ما يشير إليه النائب العامّ في ردّه، يوم 11/12[7]، والذي بناه على قرار الإدارة الاستعمارية بالجزئر السابق، منذ شهر سبتمبر، بمنع نظام السّجن السياسي عن قادة حزب الشعب المعتقلين، متجاهلا ما جدّ في المسألة، وهو قرار المحكمة يوم 11/04؛ وعليه خلص إلى أنّ وكيله استأنف الحكم في هذه الجزئيّة، لكي لا يتعارض قرار المحكمة مع قرار الإدارة الجزائرية، وسيتعيّن على محكمة الاستئناف الحسم في هذه المسألة؛ وفي الأخير ذكّره بأنّ قرار الإدارة أقرّها عليه رئيس المجلس، ووزير الداخلية، بالاتّفاق مع حافظ الأختام[8].

1- ينظر: مصّالي وأعوانه حكم عليهم، قصاصة المقال من "لاديبش ألجيريان"، ليوم 1937/11/05، 3cab46، (CAOM).

2- ينظر: مصّالي حاج وأعوانه الأساسيون حكم عليهم بسنتين سجنا، قصاصة المقال من "لاديبش دو كونستنتين"، ليوم 1937/11/05، 3cab46، (CAOM).

3- ينظر: القائد مصّالي وأربعة مناضلين حكم عليهم بسنتين سجنا، بإمضاء (F.H)، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دالجي" (L'Echo d'Alger)، ليوم 1937/11/05، ص02، 3cab46، (CAOM).

4- ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: 22603، 1937/11/05، 3cab44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، في نفس التاريخ، بعد البرقية التي أرسلها إليه صبيحة نفس اليوم، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: نصّ حكم محكمة الاستئناف بالجزائر (الدائرة الثامنة للجنح)، 1938/01/14، 4I3، (CAOM)، وثيقة من 31 صفحة، ص04.

6- ينظر: البرقية، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

7- فقد ذكر بأنّ رسالته جواب على رسالة حافظ الأختام، ليوم 11/04، وبرقيته المشفّرة ليوم 11/10.

8- ينظر: رسالة النائب العامّ إلى حافظ الأختام، من غير ترقيم، 1937/11/12، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

كلّ ذلك يدلّ على أنّ النائب العامّ قد وصلته رسالة حافظ الأختام ليوم 11/04، فتجاهلها، فهو لم يعتذر بوصولها بعد استئناف الحكم مثلا؛ ثمّ أخفى أمره عنه في رسالته إليه يوم 11/05، وهذا كلّه يفسّر حدّة لهجة برقية وزير العدل، فانسان أوريول (Vincent Auriol).

وبعد جواب النائب العامّ بيوم، سجّل الوالي العامّ تدخّله برسالة وجّهها إلى وزير الدولة، ألبير سارو (Albert Sarraut)، يوم 11/13، فبعد أن روى له ما حدث بين النائب العامّ ووزير العدل، قال : «هكذا، ومرّة أخرى، يبرز التعارض بين قرارات وزارة العدل في هذا الميدان السياسي بالدرجة الأولى، وقرارات رئيس المجلس كميل شوتان (Camille Chautemps)، الذي أقرّ بمزيد من التأكيد الإدارة الجزائريّة -المنوط بها إدارة السجون- على رفضها منح هذا المتّهم نظام السجن السياسيّ. إنّ تبنّي وجهة نظر حافظ الأختام سيكون له نتائج سياسية وأخلاقية خطيرة جدّا، لأنّه سيفضي إلى ما لا يقلّ عن اعتبار الدعاية الإجراميّة لمصّالي وشركائه جنحة رأي، في حين هي في الحقيقة خيانة»[1]؛ وعليه طلب منه باعتباره وزيرا مسؤولا عن إفريقيا الشمالية، أن يحيط حافظ الأختام علما بموافقته -أي: ألبير سارو- رئيس المجلس، في مصادقته على قرار نيابة المحكمة الابتدائيّة استئناف هذا الحكم الذي يمثّل نقضا للسلطة الإدارية، في حين لم تقم في هذه المسألة بإجراء إلاّ باتّفاق تامّ مع الحكومة[2].

وفي يوم 11/17 أجاب وزير العدل النائب العامّ، فقرّر بداية ما استفاده من رسالة يوم 11/12، من أنّ قرار محافظ عمالة الجزائر منع نظام السجن السياسيّ عن مصّالي الحاج ورفاقه، كان بناء على استشارة قاضي التحقيق ونيابة المحكمة الابتدائيّة بالجزائر، ومن أنّ وكيل النائب العامّ هو الذي استأنف حكم يوم 11/04، في الجزء الذي يثبت الطابع السياسيّ للجنح المرتكبة؛ ثمّ ذكّره بتعليماته الواضحة إليه في تقديم ردّ بالإيجاب في مسألة منح المعتقلين نظام السجن السياسيّ؛ وعليه أبدى أسفه الشديد من قرار النيابة العامّة بالجزائر استئناف حكمٍ، يستجيب للانشغالات التي أوضحها له سابقا؛ وعليه أمره باستشارة وزارة العدل مستقبلا، قبل اتّخاذ أيّ قرار من هذا النوع، وأمره أن يخبره بالتوجيهات الذي ينوي تقديمها إلى وكيله في هذه القضية لدى محكمة الاستئناف[3].

وهكذا لم يتزحزح فانسان أوريول عن رأيه قيد شعرة، ممّا قد يدلّ على أنّ وزير الدولة ألبير سارو لم يفلح في تلبية رجاء الوالي العامّ، وأنّ الحكومة الفرنسيّة آنذاك لم تفلح في اتّخاذ موقف موحّد في هذه المسألة، وذلك منذ أواسط شهر سبتمبر؛ وإذا لاحظنا أمرين: أوّلهما أنّ الوالي العامّ لم يستنجد هذه المرّة بوزير الداخلية ماركس درموي (Marx Dermoy)، وهو من نفس حزب وزير العدل (S.F.I.O)، بينما وزير الدولة ألبير سارو من نفس حزب رئيس المجلس، الحزب الراديكالي الاجتماعيّ (P.R.S)؛ وثانيهما: أنّه حين قيام الحكومة الجديدة في

---

[1]- ينظر: الرسالة، رقم: 4221 S.P، 1937/11/13، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

[2]- ينظر: نفسه01، 02.

[3]- ينظر: الرسالة، من غير ترقيم، 1937/11/17، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

1938/01/18، حكومة كميل شوتان الرابعة اختفى منها تماما رجال حزب "الخلية الفرنسية للحركة العمالية الدولية" (S.F.I.O)؛ أدركنا بوضوح الخلاف الذي كان قائما بين الحزبين الأساسيّين في هذه الحكومة، ومنه خلافهما حول قضية مصّالي وحزبه، ممّا عجّل بسقوطها يوم 1938/01/14[1]؛ وممّا يرجّح هذا الاستنتاج لدينا هو أنّنا لم نجد ردّا من ألبير سارو عن انشغالات الوالي العامّ لو بو (Le Beau)) في هذه المسألة إلى سقوط هذه الحكومة، بينما استمرّت المراسلات بين وزير العدل والنائب العامّ بالجزائر، ممّا يدلّ على أنّ الحكومة لم تتدخّل لدى هذا الوزير، أو أنّه لم يأخذ برأيها، باعتباره المسؤول الأوّل على قطاعه. ثمّ إنّ ما ذكرناه يدلّنا على وزن فانسان أوريول في الساحة السياسية الفرنسيّة، فقد وقف وحيدا في مواجهة الحكومة التي ينتمي إليها في هذه المسألة، ولن نستغرب استطاعته في نهاية المطاف اجتذاب حزبه إلى صفّه، خاصّة مع وجود أعضاء فاعلين في الحزب، يحملون نفس قناعته، من أمثال دانيال قيران (Daniel Guérin)[2]، وممّا يفسّر هذه المكانة كونه من طليعة مناضلي الحزب منذ نشأته، وكونه يتمتّع بشخصيته قويّة، فقد عرف بمواقفه الشجاعة طوال مسيرته السياسية، الدّالة على اعتداد كبير بآرائه[3].

ردّ النائب العامّ على وزير العدل برسالة مطوّلة، عبّر فيها بداية عن ألمه لمجرّد تصوّر الوزير أنّه لم ينفّذ أوامره، ثمّ علّل عدم الاستجابة لها بأنّه وبعد تلقّيه تعليماته كتابيّا، كانت له عدّة لقاءات بالوالي العامّ، وكان من رأي هذا الأخير –وهو الوحيد المخوّل في أمر تعيين النظام الذي يخضع له السجناء في المستعمرة– عدم منح نظام السجن السياسي لمصّالي ورفاقه، فيما يتعلّق بالعلاقات والاتّصالات خارج السجن؛ ثمّ إنّ هذا الموقف قُدّم له –كما أوضحه في رسالته ليوم 11/12– على أنّه قد أقرّه عليه وزير الداخلية المكلّف بالقضايا الجزائريّة، ورئيس المجلس، بعد الاتّفاق في ذلك مع وزارة العدل، فما كان بإمكانه الشكّ في الأمر، باعتبار الوالي العامّ هو الممثّل الشرعيّ للحكومة، ولهاتين الوزارتين على الخصوص[4]؛ وعليه ظنّ أنّ وزير العدل قد تراجع ضمنيّا عن تعليماته المكتوبة،

1– ينظر: تاريخ حكومات فرنسا، ويكيبيديا: الموسوعة الحرة (Wikipédia l'Encyclopédie Libre)، صفحة الأنترنيت: (http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Historique_des_gouvernements_de_la_France&oldid=36235036)، 2008/12/17.

2– ينظر موقفه وموقف غيره من اعتقال مصّالي ورفاقه: ص280، 281.

3– كان من بين البرلمانيّين الأربعة والثمانين الذين رفضوا الإمضاء على منح المارشال بيتان السلطة الكاملة في 1940/07/10، وقد كلّفته مواقفه دخول السجن في حكومة فيشي، ومنه انتقل إلى الإقامة الجبرية، ثمّ شارك في المقاومة؛ وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ترأس المجلس التأسيسيّ الأوّل والثاني سنة 1946، ثمّ كان أوّل رئيس في الجمهورية الفرنسية الرابعة 1947-1954؛ تنظر ترجمته: تاريخ حكومات فرنسا، ترجمة فانسان أوريول، ويكيبيديا: الموسوعة الحرة، صفحة الأنترنيت: (http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Vincent_Auriol&oldid=35536047)، 2008/11/23.

4– هذا الكلام كلّفه تصحيحا من الوالي العامّ، فقد راسله في شأن هذه الرسالة، وبعد أن أبدى دعمه له في الموقف الذي أوضحه فيها، أخبره بأنّه حين عودته من فرنسا عاد بتعليمات شخصية من رئيس المجلس في شأن نظام السجن الذي تمّ تطبيقه على المعتقلين منذ 10/06، وأخبره بأنّه سيعلم وزير العدل بالقرار الذي اتّخذه، ولم يتحدّث أبدا عن اتّفاق بين الرجلين، ثمّ رجاه أن يصحّح هذه المعلومة لدى وزير العدل؛ ينظر:

بعد تدخّل الوالي العامّ لدى وزير الداخلية، ورئيس المجلس؛ ثمّ عرض شواهد على خطورة حركة حزب الشعب الجزائريّ، ممّا ورد مفصّلا في بعض حيثيات حكم يوم 11/04، وانتهى إلى القول: «في الحقيقة، وأخذا بعين الاعتبار الوضعية الخاصّة بالجزائر، أرجو أن تسمحوا لي أن اعتبر نفسي موافقا للسلطات العليا في المستعمرة، في أنّنا لسنا أمام جنحة سياسيّة، إنّ ذكر "الجهاد" (La guerre sainte) إنّما هو دعوة للحرب، وإنّها الجريمة الأكثر خطورة، ممّا يمكن اقترافه ضدّ فرنسا»[1].

إنّ هذه الرسالة –على طولها– لم تجب –في تقدير وزير العدل– على سؤالين دقيقين، طرحهما عليه في مراسلته السابقة، فطلب في رسالة 12/02 الإجابة عليهما عاجلا، وهما: لماذا استأنف وكيله حكمَ 11/04، في جزئية كانت تستجيب لانشغالات وزير العدل في الموضوع؟ وما هي التعليمات التي ينوي تقديمها لوكيله لدى محكمة الاستئناف؟[2]. وفي جوابه على السؤالين، يوم 12/07، ذكر: أنّ وكيله عندما استأنف الحكم كان يعتقد بأنّ رأي وزير العدل هو نفس رأي الوالي العامّ، ورئيس المجلس؛ وأنّه عازم على الالتزام التزاما صارما بتعليمات الوزير فيما يخصّ النتائج التي يجب على وكيله الانتهاء إليها في جلسة الاستئناف؛ ثمّ أوضح له تصريح الوزير سارو (Sarraut)، في حديث صحفيّ، يوم 11/30، باستحالة منح مصّالي ورفاقه نظام السجن السياسيّ، وتحدّث في ختام رسالته عن معلومات، اطّلع عليها في الولاية العامّة، تتحدّث عن اتّفاق بين حزب الشعب الجزائريّ، والحزب الشعبي الفرنسيّ (P.P.F)، للقيام بحركة مشتركة ضدّ حكومة الجمهورية[3]؛ كلّ ذلك عسى أن يغيّر رأيه في الموضوع، لأنّ التزامه بتطبيق تعليماته في جلسة الاستئناف وضع نفسه، ووضع الإدارة الاستعمارية بالجزائر بالتبع، في مأزق لا يحسدان عليه. وللخروج من هذا المأزق كتب الوالي العامّ –وهو بفرنسا– رسالة يوم 12/08، يوما واحدا فقط بعد مراسلة النائب العامّ، وجّهها إلى وزير الدولة ألبير سارو (Albert Sarraut)، فلخّص له مستجدّات هذه القضية، ثمّ أخبره أنّ جلسة الاستئناف ستنعقد بعد أيّام، وإذا بقي الوضع على ما هو عليه، سيتوجّب على النيابة العامّة إن التزمت بتوجيهات وزير العدل، أن تعتبر هذه المتابعة القضائيّة ذات طابع سياسيّ، بينما يعتبرها رئيس المجلس، والمسؤول على إفريقيا الشمالية، مندرجة في الحقّ العامّ، فاقترح عليه أن يطلب من حافظ الأختام أن يعلم النائب العامّ بالجزائر بأنّ الحكومة لا ترى في اعتقال مصّالي ولا في محاكمته طابعا سياسيا؛

الرسالة، رقم: 4471 S.P، 1937/11/29، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

1– ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: 23801، 1937/11/24، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، من غير ترقيم، 1937/11/24، وثيقة من أربع صفحات.

2– ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: 24667، 1937/12/07، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالة حافظ الأختام إليه، من غير ترقيم، وثيقة من صفحة واحدة.

3– ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: 24667، 1937/12/07، 9h47، (CAOM)؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، من غير ترقيم، وثيقة من صفحتين.

و لم يفته أن يعلمه في الختام بالاتّفاق الكائن بين حزب الشعب الجزائريّ والحزب الشعبيّ الفرنسيّ[1]، متوسّعا في بيانه أكثر ممّا فعله النائب العام في رسالته السابقة، عسى أن يحمل وزيرُ الدولة الأمرَ محمل الجدّ.

وبعد رسالة من النائب العام إلى حافظ الأختام، بتاريخ 12/09، في موضوع آخر[2]، توقّفت المراسلات تماما بين رول (Rault) وأوريول (Auriol)، فلم تتجدّد رسالة من هذا النوع إلاّ يوم 1938/02/04، بين النائب العامّ الجديد راي (Rey)، ووزير العدل حافظ الأختام[3]، سيزار كمبنشي (César Campinchi) في حكومة كميل شوتان (Camille Chautemps) الرابعة[4]؛ وفي هذه الفترة أصبح النائب العامّ مسؤولا –في هذه القضية على الأقلّ– أمام الوالي العامّ فقط، بعد أن كانت مسؤوليته اتّجاهه في الدرجة الثانية بعد حافظ الأختام، فقد كان يراسل وزير العدل بمستجدّات القضية أوّلاً، ثمّ يرسل نسخة منها إلى الوالي العامّ للاطّلاع، ويشهد لغياب حافظ الأختام في هذه المراسلات، في خصوص هذه القضية، مراسلة النائب العامّ الوالي العامّ رأسا بأهمّ وقائع جلستي محكمة الاستئناف، في 07 و1938/01/14، عند عرض قضية مصّالي ورفاقه عليها[5]، على عكس ما فعله في جلستي المحكمة الابتدائية، كما مرّ آنفا.

إنّ انقطاع رسائل وزير العدل فانسان أوريول (Vincent Auriol) نهائيّا، وسيرورة الأحداث في اتّجاه تكريس موقف الإدارة الاستعماريّة بالجزائر، يرجّح لدينا وقوع أزمة سياسية، في حكومة كميل شوتان الثالثة، بسبب حالة الانسداد الذي آلت إليها هذه القضية، فكانت عاملا من عوامل سقوطها، يوم 1938/01/14. هذه الأزمة لم تنفرج –في تقديرنا– إلاّ باستقالة وزير العدل وحافظ الأختام فانسان أوريول، عندما وقف رئيس المجلس ووزير الدولة ألبير سارو (Albert Sarraut) إلى جانب الإدارة الاستعماريّة بالجزائر، فقد دلّ موقفه في جميع أطوار هذه القضية منذ سبتمبر 1937، على حرصه الشديد على أن يكون المسؤول الأوّل والأخير في قطاعه، معتدّا بآرائه ومبادئه، ومعتدّا بانتمائه إلى حزب له حضوره القويّ في الساحة السياسية الفرنسيّة آنذاك، خاصّة وأنّ القانون في هذه المسألة كان إلى جانبه، وهو ما أثبتته المحكمة الابتدائيّة بالجزائر، فما من حلّ في هذا الوضع

1– ينظر: الرسالة، من غير ترقيم، 1937/12/08، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات.

2– ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، رقم: A3-4018، 1937/12/09، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، من غير ترقيم، وثيقة من صفحتين.

3– ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، بإمضاء: راي (Rey) رقم: A3-2441، 1938/02/04، 9h47، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، من غير ترقيم، وثيقة من صفحتين.

4– ينظر: تاريخ حكومات فرنسا، حكومة كميل شوطان الرابعة، ويكيبيديا، صفحة الأنترنيت:

(http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Gouvernement_Camille_Chautemps_(4)&oldid=26789051)، 2008/02/27.

5– ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، بإمضاء: رول (Rault)، رقم: 944، 1938/01/13، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، بإمضاء: رول، رقم: 1301، 1938/01/17، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

المسدود سوى تقديم استقالته، لئلاّ يتحمّل قرارا يمليه عليه الوالي العامّ، وهو ضدّ قناعاته؛ وممّا يدلّ على أنّ المسألة تجاوزت وزير العدل إلى حزبه، وكانت عاملا من عوامل سقوط الحكومة، اختفاء رجال حزب وزير العدل تماما في الحكومة الجديدة، إذ لم يحتفظ حزب (S.F.I.O) ولو بحقيبة وزارية واحدة فيها.

في محكمة الاستئناف:

كتب النائب العامّ إلى حافظ الأختام يوم 11/17، يخبره باستئناف مصّالي ورفاقه الحكم الذي أصدرته في حقّهم محكمة الجنح بالجزائر، يوم 11/04، وأنّه سيعرض على محكمة الاستئناف، الغرفة الثامنة[1]، يوم 1938/01/07[2]. وفي التاريخ المحدّد مثل مصّالي الحاج ورفاقه، أمام محكمة الاستئناف بالجزائر[3]، للبتّ في طلبهم، وفي طلب استئناف النيابة العامّة حكم 11/04، في الجزء الخاصّ بعدم ضرورة إقرار "الإكراة البدنيّ" ضدّ المتّهمين، بسبب الطابع السياسي للجنح المرتكبة.

أمّا هيئة الدفاع عن المتّهمين، فكانت متكوّنة من الأستاذ برتون (Berthon)، من سلك المحاماة بباريس، والأستاذ ديرولاد (Déroulède)، من سلك المحاماة بالجزائر[4].

افتتح رئيس المحكمة الجلسة الصباحيّة على سا08 و15د[5]، بقراءة تقرير الاستئناف، فتقارير جلسات المحكمة الابتدائيّة، والحكم الذي انتهت إليه، ثمّ انتقل إلى قراءة صحيفة السوابق العدليّة لكلّ من مصّالي الحاج، ومفدي زكرياء، وغرّافة إبراهيم، «وهكذا علمنا أنّ زكرياء الشاعر، الذي ألّف نشيد الحركة المصّالية، قد حكم عليه في قضايا إفلاس بالتقصير، واحتيال، وغشّ تجاريّ[6]، وغشّ غذائيّ»[7]؛ بعد ذلك استمعت

1- يوجد اختلاف بين الوثائق في الغرفة القضائيّة التي تولّت قضية مصّالي ورفاقه في الاستئناف، بين الغرفة الثالثة والغرفة الثامنة، وقد أثبتت الغرفة الثامنة بناء على مستخرج من سجلّ كاتب جلسة الاستئناف؛ ينظر: نصّ حكم محكمة الاستئناف بالجزائر (الدائرة الثامنة للجنح)، 1938/01/14، 4I3، (CAOM)، ص01.

2- ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، بإمضاء: رول (Rault) رقم: 23.268، 1937/11/17، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، من غير ترقيم، 1937/11/17، وثيقة من صفحة واحدة.

3- تكوّنت هيئة القضاء من: كترينو (Catherineau) رئيسا، وتيآر (Thuaire) وبيلو (Pillot) قاضيين؛ وبحضور فرانشي (Franchi) وكيلا لنائب الجمهورية، بمعية أولبيي (Ollier) كاتبا للجلسة، ولومري تامر (Lomri Tameur) مترجما من اللغة العربية؛ ينظر: نصّ حكم محكمة الاستئناف بالجزائر (الدائرة الثامنة للجنح)، 1938/01/14، 4I3، (CAOM، ص31.

4- ينظر: نفسه01-03.

5- ينظر: الزعيم مصّالي ومساعدوه من (ح.ش.ج) أمام محكمة الاستئناف بالجزائر، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دالجي" (L'Echo d'Alger)، ليوم 1938/01/08، 3cab46، (CAOM).

6- الأحكام السابقة كلّها تدخل في قضية شركة "المعمل العربيّ"؛ ينظر: الباب الثاني ص146-148؛ أمّا قضية "الغشّ الغذائيّ" فلم أقف عليها.

7- ينظر: الزعيم مصّالي ومساعدوه من (ح.ش.ج) أمام محكمة الاستئناف بالجزائر، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دالجي" ليوم 1938/01/08، 3cab46، (CAOM)؛ ومصّالي وشركاؤه مثلوا أمس أمام محكمة الاستئناف بالجزائر، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دورون" (L'Echo

المحكمة إلى أقوال المتّهمين، الذين ثبتوا على التصريحات التي أدلوا بها أمام المحكمة الابتدائيّة، فطالب مصّالي بمحاكمته من خلال أفعاله وأقواله، لا من خلال تقارير الشرطة[1]؛ وبعد ذلك جاء دور مرافعة النيابة، التي ركّز فيها فرانشي (Franchi)، وكيل نائب الجمهوريّة، على تعيين صفة المتّهمين أنّهم رعايا فرنسيّون لا مواطنون فرنسيّون، وعليه تطبّق عليهم الأحكام المنصوص عليها في قوانين خاصّة، وهو ما طبّقته محكمة الجنح على المتّهمين بحصافة تامّة؛ وخلص بذلك إلى ضرورة الإبقاء على الأحكام التي أصدرتها المحكمة الابتدائيّة[2]، وتطبيق نظام سجن القانون العامّ عليهم[3].

اختتمت الجلسة الصباحية على سا 11 و30د، لتستأنف مساء على سا14 و30د، وفسح فيها المجال لمرافعة الدفاع عن المتّهمين، ابتدأها الأستاذ ديرولاد، فحمل على الإدارة الجزائريّة، وعلى رأسها الوالي العامّ حملة شعواء، ليبيّن بأنّ مصّالي ورفاقه هم -ككثير غيرهم- ضحايا نظام تعسّفي، حتّى قال له رئيس المحكمة: «إنّك بصدد محاكمة الإدارة»؛ وأعقبه الأستاذ برتون، ليركّز في مرافعته على الوقائع المؤسِّسة لتهمة الدعاية ضدّ فرنسا، وانتقد في هذا السياق القوانين الاستثنائيّة المطبّقة على الأهالي الجزائريّين، خاصّة قانون رينيي، وكان مهتمّا في كلّ ذلك ببيان الطابع السياسي لهذه القضية، وأفضى إلى المطالبة بإعلان براءة المتّهمين؛ وبعد مرافعات الدفاع رفعت الجلسة للمداولات على سا18 و30د، على أن يكون موعد الإعلان عن نتيجتها يوم 01/14[4].

وفي مساء نفس اليوم، 1938/01/07، عقد حزب الشعب الجزائريّ اجتماعا جدّ خاصّ[5]، أسماه في بطاقات الدعوة "محاضرة كبرى خاصّة"، في موضوع "محاكمة مصّالي"، من تقديم الأستاذ برتون (Berthon)[6]،

---

d'Oran)، ليوم 1938/01/08، 3cab46، (CAOM)؛ ومصّالي زعيم أهلي لـــ(ح.ش.ج) ومساعدوه يستأنفون الحكم، لروني بوشي (René Bouchet)، قصاصة المقال من جريدة "لاديبش ألجريان" (La Dépêche Algérienne)، ليوم 1938/01/08، 3cab46، (CAOM)؛ من غير فرق بين المقالين الأخيرين حتّى في الألفاظ.

1- ينظر: الزعيم مصّالي ومساعدوه من (ح.ش.ج) أمام محكمة الاستئناف بالجزائر، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دالجي"، 3cab46، (CAOM).

2- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 139، 1938/01/08، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

3- ينظر: مصّالي وشركاؤه مثلوا أمس أمام محكمة الاستئناف بالجزائر، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دورون"، ليوم 1938/01/08، 3cab46، (CAOM)؛ ومصّالي زعيم أهلي لـــ(ح.ش.ج) ومساعدوه يستأنفون الحكم، قصاصة المقال من جريدة "لاديبش ألجريان"، ليوم 1938/01/08، 3cab46، (CAOM).

4- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 139، 1938/01/08، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 4I6، (CAOM).

5- انعقد بقاعة "التعاون النسائيّ"، 07 شارع فالنتان (Valentin)، وامتدّ من سا21 و15د إلى سا22 و15د، ترأس الجلسة الأستاذ ديرولاد، وجلس إلى جانبه على المنصّة كلّ من الأستاذ برتون (Berthon)، والأستاذ بومنجل من سلك المحاماة بالجزائر، والسيّدين: نارون من باريس، وكحّال أرزقي؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، بناء على تقرير المحافظ دلقوف (Delgove)، رقم: 142، 1938/01/08، موضوعه: محاضرة الأستاذ برتون، 4I6، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01، و03.

6- محامي بمجلس قضاء باريس، ونائب سابق عن باريس، ومستشار عامّ في لو فار (Le Var)؛ ينظر: بطاقة الدعوة، 3cab46، (CAOM)، وثيقة

وقد تطرّق في محاضرته إلى الآلام التي تحمّلها المعتقلون، في هذه الصائفة، عندما طبّق عليهم نظام سجن الحقّ العامّ في بربروس، بينما كان من المفترض أن يستفيدوا من نظام السجن السياسي، بحسب وعود أكيدة من عدّة وزراء؛ لم يلتزم النائب العامّ بتطبيق أوامر وزير العدل، فاستأنف الحكم الذي يعترف للمتّهمين بالطابع السياسي لتهمة إعادة إنشاء جمعية منحلّة، وعارض الوالي العامّ أيضا وضع المتّهمين رهن السجن السياسي؛ كما تحدّث عن إنهائه مرافعته أمام محكمة الاستئناف بخاتمة تهدف إلى منح المعتقلين نظام السجن السياسي، فأجابه وكيل النائب العامّ بأنّ ذلك غير ممكن، لأنّ مصّالي ورفاقه ليسوا مواطنين فرنسيّين، فسأله برتون: لو كان مصّالي ألمانيّا أكنت تمنحه هذا الحقّ؟ فأجاب بالإيجاب؛ وتمنّى برتون في ختام محاضرته -رغم كلّ شيء- نهاية سعيدة لمحاكمة مصّالي[1].

وفي يوم 1938/01/14، أعلنت محكمة الاستئناف عن حكمها في قضية "الوكيل العامّ ضدّ مصّالي وآخرين":

قرأ رئيس المحكمة نصّ الحكم على المتّهمين، مبتدئا باستئناف مصّالي ورفاقه، ليقبله شكلا، ويرفضه مضمونا، فأثبت التّهم الموجّهة إليهم، بناء على نفس الحيثيات المؤسسة لحكم المحكمة الابتدائيّة، بمزيد من التفصيل والتدقيق، وبمزيد تعزيز للاستدلال على ثبوت التّهم، من ذلك ردّه على انتقادات قادة الحزب لتقارير الشرطة، بأنّه «لا يمكن إهمال تقارير عديدة للشرطة تروي وقائع اجتماعات عقدها أعضاء من (ح.ش.ج)، وهي الأدلّة الوحيدة بين يدي المحكمة، لأنّ هذه التقارير إنّما كتبها أعوان مختلفون، في أوقات مختلفة، وفي مدن مختلفة، وهو حدّ يصعب معه -بجدّية- دعم كونها نتيجة اتّفاق معاد لـــ(ح.ش.ج)، بين مختلف /مصالح الشرطة»[2]؛ ليتمكّن في النهاية من الإبقاء على الأحكام السابقة، إذ اعتبرها مناسبة لخطورة الوقائع، وغير مبالغ فيها[3].

أمّا استئناف الوكيل العامّ فقد قبله شكلا ومضمونا، معتمدا على الحيثيات التالية:

- إذا كانت الجنحة السياسية لا تملك تعريفا قانونيا، فإنّ القضاء متّفق في تعريف المخالفة السياسية بأنّها المخالفة التي تحمل مساسا بالشكل الدستوريّ لأمّة ما، والتي هي في مظاهرها تتوجّه بصفة خاصّة ضدّ حكومة البلد ونظامه.
- إنّ التقرير الممهّد لقانون 1935/03/30، يفيد أنّ هدفه هو تحديد مخالفات جديدة، وإقرار أحكام خاصّة بها، وإنّما أكّدت على ضرورتها الدعاية ضدّ فرنسا في الجزائر، عن طريق الصحافة والخطابة.
- إنّ المتّهمين بإعادة إنشاء "نجم الشمال الإفريقي" المنحلّ، وبنشاطاتهم الهادفة إلى استقلال الجزائر، يسعون لا إلى تحوير الشكل الدستوريّ لفرنسا بالجزائر، ولا إلى تغيير نظامه بنظام جديد، وإنّما يسعون

مطبوعة من صفحة واحدة.

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، بناء على تقرير المحافظ دلقوف (Delgove)، رقم: 142، 1938/01/08، موضوعه: محاضرة الأستاذ برتون، 4I6، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01، و02.

2- ينظر: نصّ حكم محكمة الاستئناف بالجزائر (الدائرة الثامنة للجنح)، 1938/01/14، 4I3، (CAOM، ص24، 25.

3- ينظر: نفسه26-28.

إلى ما لا يقلّ عن فصل الجزائر عن فرنسا، لتصبح الجزائر بموجبه أمّة مستقلّة، من غير خشية إفراز حوادث عميقة في الجزائر، تؤدّي بطبيعتها إلى تسليح المواطنين والرعايا الفرنسيّين ضدّ بعضهم البعض.

- إنّ المطالبة بدستور جديد في بلد، أو فرض نظام جديد، يشترط في صاحبه أن يكون مواطنا فيه، لا رعية من رعاياه، كما هو شأن المتّهمين بالنسبة لفرنسا[1].

وعليه فإنّ المخالفات الثابتة في حقّ المتّهمين لا تحمل طابعا سياسيا، وإنّما هي خرق للقانون العامّ؛ وبناء عليه ألغت حكم المحكمة الابتدائيّة في هذه الجزئيّة، وتطبيقا للمادّة 52 من القانون الجنائيّ حدّدت مدّة "الإكراه البدنيّ" في حدّها الأدنى[2].

قدّم النائب العامّ للوالي العامّ، لا إلى وزير العدل، عرضا مختصرا عن ماجاريات المحاكمة في اليومين[3]؛ وقد عرضها الوالي العامّ بدوره على وزير الدولة، ألبير سارو (Albert Sarraut)[4]، وهكذا تمّ للإدارة الاستعمارية بالجزائر ما أرادته، بالرغم من المعارضة التي واجهتها من داخل الحكومة الفرنسيّة نفسها، ولا شكّ لدينا أنّ الحكم قد تمّ تسطيره قبل انطلاق المحاكمة، ولا أدلّ على ذلك من رسالة الوالي العامّ إلى النائب العامّ رول (Rault)، بتاريخ 1938/01/07، أرسل له طيّها وثيقة مطبوعة خاصّة بحزب الشعب الجزائريّ، بعنوان "مشروع الميثاق المطلبيّ" (Projet de Charte Revendicative)؛ إذ وصفه مرّتين فيها بـــ"عزيزي النائب العامّ"[5]، وهو ما نستشفّ منه -في تقديرنا على الأقلّ- امتنانه لهذا النائب العامّ الذي وقف إلى جانبه بالرغم من الضغوط التي مورست عليه، وفرحتَه بانفراج الانسداد الذي آلت إليه هذه القضية في مواجهة حافظ الأختام ووزير العدل الفرنسيّ، بما يعتبر انتصارا له، ولإدارته؛ وممّا عزّز هذا الإحساس بالانتصار سيرورة المحاكمة في أجواء هادئة، لم تسجّل فيها أيّة حادثة تذكر، سواء داخل المحكمة أو خارجها[6]، ومنه حرص تقارير هذه الإدارة على إثبات ذلك، بما يدلّ على تحكّمها في الوضع الأمنيّ تحكّما تامّا، فلم تضطرّ التعزيزات الأمنيّة التي وفّرتها إلى التدخّل في يومي المحاكمة، ونكاد

1- ينظر: السابق30.

2- ينظر: نفسه26.

3- ينظر: رسالة النائب العامّ إلى الوالي العامّ، بإمضاء: رول (Rault)، رقم: 944، 1938/01/13، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة ثانية، رقم: 1301، 1938/01/17، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى وزير الدولة ألبير سارو (Albert Sarraut)، بإمضاء: لو بو (Le Beau)، رقم: 95 S.P، 1938/01/08، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ورسالة ثانية، رقم: 275 S.P، 1938/01/15، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: الرسالة، بإمضاء: لو بو (Le Beau)، غير مرقّمة، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها الوثيقة المطبوعة في ستّ صفحات.

6- وهو ما اتّفقت عليه تقارير الإدارة الاستعمارية بالجزائر، ومقالات الصحافة الناطقة باللغة الفرنسية؛ تنظر التقارير والمقالات السابقة عن اليوم الأوّل للمحاكمة، وينظر بالنسبة لليوم الثاني: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 334، 1938/01/14، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ومحكمة الاستئناف تصادق على الأحكام المقرّرة ضدّ مصّالي ومساعديه، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دالجي" (L'Echo d'Alger)، ليوم 1938/01/15، 3cab46، (CAOM).

نلمح في كلّ ذلك شعورا عميقا لدى هذه الإدارة بالفخر بإنجازها، مقارنة بالتردّد الذي كان يميّز مواقف الإدارة المركزية في هذه القضية، خشية خروج الأمور عن السيطرة.

إنّ هذا الشعور لدى الإدارة الاستعمارية ليس جديدا، فإنّنا نلمسه في وثائقها في أعقاب المحاكمة الأولى، وهو الذي دفعها -في تقديرنا- إلى الإقدام على ما أقدمت عليه في استئناف الحكم:

لقد تحدّث الوالي العامّ عن أثر أحكام المحكمة الابتدائيّة، ليوم 11/04، فقال: «استقبل الشعب المسلم، في عموم عمالة الجزائر، الحكم باستغراب، إذ كان يتوقّع إدانة خفيفة؛ ولذلك لم يخف دهشته عند سماعه بالأحكام القاسية نسبيّا التي سلّطت على مصّالي ورفاقه، وكان تعبيره عن عدم رضاه بالكلام ليس إلاّ، وهذا الوضع النفسيّ كان مؤقّتا»[1]؛ وعندما قامت الإدارة بدراسة لوضع حزب الشعب الجزائريّ في أواخر سنة 1937، علّقت على خفوت صوت حزب الشعب في هذا الفترة بقولها: «إنّ التحذير الذي يمثّله حكم 04 نوفمبر قد سمع بوضوح لدى الجماهير»[2]؛ وفي هذه الظروف -على الأرجح- أجاب الوالي عن النائب العامّ بالجزائر في خصوص تعليمة بعثها حافظ الأختام إلى جميع النوّاب العامّين في الدولة الفرنسية، يطالبهم فيها بأخذ موافقة وزارته في المتابعات ذات الطابع السياسي، أجاب عنه أنّ هذه التعليمة إذا كانت لا تطرح إشكالا في فرنسا، فإنّها على العكس في الجزائر، فالوضع مختلف، ويتطلّب متابعات وعقوبات من غير تأخير، وقد أثبتت التجربة أنّ المراسلات بين النيابة العامّة والوزارة تستغرق أسابيع كثيرة؛ ومثاله الواضح اعتقال مصّالي ورفاقه، فقد فصلت سبعة أسابيع كاملة بين طلب النائب العامّ وموافقة وزير العدل؛ وعليه يؤكّد على المطالبة باستثناء الجزائر من هذه التعليمة، فالنيابة العامّة يجب أن تشرع في المتابعات مباشرة بعد الاتّفاق عليها بين النائب العامّ والوالي العامّ، ولا يكون من واجب النائب العامّ إزاء وزير العدل سوى إعلامه بها[3].

إذا كان مناضلو حزب الشعب لم يلمسوا في حكم الرابع من نوفمبر إجحافا سوى في قساوته، لأنّهم لم يخفوا يوما عزمهم على تحقيق استقلال وطنهم، ولم يخفوا يوما كذلك كون "أحباب الأمّة"، و"حزب الشعب الجزائريّ" بعثا لـــ"نجم الشمال الإفريقيّ" بتسمية جديدة ليس إلاّ، مع تغييرات في البرنامج لا تمسّ أهدافه الأساسية، فإنّ حكم الرابع عشر من جانفي قد فاق في إجحافه كلّ تصوّر واحتمال، عبّر عنه منشور طبع بالمطبعة العربية، لصالح فدرالية حزب الشعب الجزائريّ بقسنطينة، جاء -في قسمه العربيّ- ما يلي: «فها هو

---

[1]- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى ألبير سارو (Albert Sarraut)، رقم: 4555 S.P، 1937/12/08، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص01.

[2]- ينظر: (ح.ش.ج) و"أحباب الأمّة" في عمالة الجزائر إلى فاتح ديسمبر 1937، (CIE) الجزائر -على الأرجح-، 4I3، (CAOM)، وثيقة من 04 صفحات، ص01.

[3]- ينظر: مدوّنة خاصّة بممارسة القضاء في الجزائر، من الوالي العامّ -على الأرجح-، غير مرقّمة، وغير مؤرّخة، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

(دولاروك) [De La Roque] يتّهم بتهمة أعظم من تهمة زعمائنا، ويعقد اجتماعا بإحدى بطحات باريس (كليشي) [Clichy]، فينقلب اجتماعه إلى معركة دموية، تزهق في أثنائها الأرواح البشرية، تحكم عليه العدلية الفرنسية، بدفع ضريبة قدرها ثلاثة آلاف فرنك، ولم يحكم عليه بعامين سجنا، يقضيهما في غياهب سجون سفّاكي الدماء، وقطّاع الطرق، مع حرمانه من الحقوق المدنية والسياسية، كمصّالي الذي يطلب برلمانا جزائريّا حسب القواعد الجمهورية، وتحسين حالة سكّان هذا الوطن؛ وإذا قال في هذا الموضوع المحامي (برتون) [Berthon] على رؤوس الأشهاد: قضيت مدّة ثلاثين سنة محاميا، فما شاهدت في خلالها ما يدنّس وجه العدلية الفرنسوية كهذا الحكم الشنيع، فكيف نحن نقول !!!...»[1]؛ لقد كان هذا الحكم يحمل إهانة للشخصية الجزائريّة، وجرحا لكرامتها جرحا عميقا، لا يمكن إلاّ أن يتجاوز مناضلي الحزب إلى سائر الجزائريّين ممّن يملكون أدنى قدر من الوعي والإدراك، إذ من شأنه أن يفتّق وعيهم على حقيقة الاستعمار الفرنسيّ، بعد أن زالت أقنعته المختلفة؛ هذا الوعي جسّده مقال ورد في جريدة "الأمّة" الباريسيّة، يقول فيه صاحبه: «كان لوكيل النائب العامّ في جوابه على سؤال لصديقنا برتون [Berthon] من الوقاحة، وإلاّ فمن انعدام ضمير، أن يدّعي أنّ مواطنا لأمّة أجنبية (ألماني مثلا) يمكنه الاستفادة في فرنسا من نظام السجن السياسي، لأنّه –وببساطة– كان "مواطنا" في وطنه، وهو ما لا يمكن اعتباره بالنسبة لأهليّ جزائريّ، لأنّه لم يكن سوى "رعية"، أو أهليّ تونسي، لأنّه لم يكن سوى "محميّ"[...] إنّ القوانين الموضوعة –في نظره– لصالح "المواطنين"، لا تخصّ إطلاقا "المحميّين" و"الرعايا". إنّ التجمّع الأمبرياليّ لا يقبل أبدا الدخلاء، والعبيد ضروريون لسعادة المدينة. [...] هكذا، وبعد 107 سنوات من هزيمة بلدنا، وُجد ممثّل موصوف بالمنتصر ليذكّرنا بضرورة احترام نظام القوّة، واحترام قانونه، القانون الذي صاغه في أدقّ تفاصيله، ليطبّقه علينا بكلّ الوقاحة الخاصّة التي تميّز الأمم الباغية. كم يبدو فرحات عباس "الثلاثي الألوان" مغفّلا، وهو الذي قال يوما هذه العبارة اللذيذة: «فرنسا هي أنا»؛ كم تبدو مستهلكة فاترة، عفا عليها الزمان، تلك الأغاني الرتيبة عن "الإدماج" [...]؛ كم أصبح غير ممكن بوجود قلّة التفهّم هذه الحديث عن تعاون [...] إنّ الجبهة الشعبيّة قد أوضحت لنا –بلسان وكيل نائبها العامّ– عدم إمكان انعتاقنا، فـ"روما" ما زالت في حاجة إلى عبيدها»[2].

كما أنّ الإدارة الاستعمارية كانت بذلك قد اختارت منطق المواجهة، وسياسة القمع، ولا يمكنها تنكّبه لئلاّ يجرح كبرياؤها؛ ولم يحدث تغيير على رأس هذه الإدارة، حتّى يكون فرصة لإحداث تغيير في هذه

1– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 501، 1938/01/22، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور باللغتين العربية والفرنسية، وثيقة من صفحة واحدة.

2– ينظر: لماذا مصّالي وأصدقاؤه ليسوا رهن نظام السجن السياسيّ؟، بإمضاء "مراسل" (Reporter)، قصاصة المقال من جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ليوم 1938/03/11، 3cab45، (CAOM).

السياسة بأقلّ الأضرار؛ فكانت أن توالت سلسلة الاعتقالات والمحاكمات؛ وزادت حدّة مواجهة مناضلي حزب الشعب للاستعمار الفرنسيّ حتّى في عمالة قسنطينة التي اعتبرها محافظها إثر الانتخابات العَمالية في أكتوبر 1937، بمنأى عن تأثير أفكار حزب الشعب الجزائريّ[1]، ولهجة منشور فدرالية قسنطينة السابق واضحة في ذلك؛ وفي شهر أفريل وزّعت نفس الفدرالية منشورا، عنونت صحيفة حكومية بتونس حديثها عنه بـــ"منشورات عنيفة ضدّ فرنسا وُزّعت بقسنطينة"[2]، وممّا جاء في القسم العربيّ من هذا المنشور، ممّا يدلّ على عكس ما كانت تعتقده الإدارة الاستعمارية في رعاياها: «وظنّ هذا الوحش أنّ الحركة ماتت باعتقالهم [يعني: قادة الحزب]، غير أنّ الواقع كذّب ظنّه، بل ما ازدادت إلاّ انتشارا وازدهارا عظيمين، إذ قام مقام الشهداء الأوّلين أبطال آخرون، لإتمام المهمّة الشريفة التي شرعنا فيها منذ سنين، وهكذا نظلّ نواصل جهادنا في سبيل إرجاع كلّ ما أخذ منّا إلى النهاية»[3].

وإثر صدور الحكم، وفي نفس اليوم، تقدّم محامو قادة حزب الشعب بطلب رفع قضيتهم إلى محكمة النقض والإبرام بفرنسا[4].

نقل المعتقلين إلى سجن ميزون كاري:

طرح حكم 01/14 إشكالا لإدارة السجون بالجزائر: كان المعتقلون يستفيدون من نظام السجن السياسي فيما عدا الزيارات، والمراسلات أو الفعل الخارجيّ عن طريق الصحف، والحكم الصادر في حقّهم يقضي بإرجاعهم إلى نظام سجن الحقّ العامّ، فهل يطبّق الحكم بحذافيره، ويعادون إلى نظام ما قبل الإضراب عن الطعام؟ أم يُغضّ الطرف عن هذا الحكم، فيبقون على النظام المقرّر في حقّهم بتاريخ 1937/10/06؟ مع العلم أنّ تكلفة السجين الواحد يوميّا وفق نظام سجن قادة حزب الشعب الجزائريّ هو 16.80 فرنكا[5]، وفي غياب نصّ قانونيّ يحدّد هذا النظام، الذي لا هو سجن حقّ عامّ ولا هو سجن سياسيّ، ويحدّد الجهة التي تتحمّل نفقاته، وقع العبء على خزينة السجن، ومنه محاولة مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر رفعه عن كاهله[6]، فكتب إلى محافظ عمالة الجزائر

---

[1]- ينظر: ص289.

[2]- ينظر: قصاصة المقال من جريدة "لاديبش تينيسيان" (La dépêche Tunisienne)، ليوم 1938/04/20، 3cab99، (CAOM).

[3]- ينظر: تفتيشات بمقرّ الخلية القسنطينيّة يؤدّي إلى اكتشاف منشورات ومطبوعات، بإمضاء: A.K، قصاصة المقال –وضمنها صورة عن المنشور باللغتين العربية والفرنسية– من جريدة "لاديبش دو كونستنتين" (La dépêche de Constantine)، ليوم 1937/04/17، 3cab99، (CAOM).

[4]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 400، 1938/01/18، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]- ينظر: مدوّنة إلى المحافظ، بإمضاء: قيلرمي (Guilhermet)، مدير الأمن العامّ، رقم: 1090، 1938/04/07، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

[6]- أشار محمد قنانش إلى ذلك في قوله: «وحينما كثر عددنا ببربروس، والفوج الأوّل كان يتمتّع بالسجن السياسيّ، لأنّ المحكمة أقرّت به، وقع مشكل في الإدارة: من الذي يدفع الثمن؟ وهل للمعتقلين الجدد حقّ التمتّع بالسجن السياسي؟»حزب الشعب الجزائري270.

يوم 01/21 يستفسره في هذا الأمر، وفي أمر نقلهم إلى سجن ميزون كاري (Maison Carrée)، لاكتظاظ سجن بربروس، وإذا تمّ ذلك فبوسائل السجن، أم يتطلّب الأمر تعزيزات يضعها محافظ الجزائر تحت تصرّفه[1].

بقي الاستفسار معلّقا، لم يتلقّ عليه مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر جوابا[2]؛ وتتابع استقبال سجن بربروس لسجناء حزب الشعب: كحّال، وفيلالي مبارك المدعوّ "عبد الله"، وقنانش، وحيواني لخضر، من عمالة الجزائر، يوم 02/25[3]؛ وتبعهم قريبا من عمالة قسنطينة: بوجريدة عمّار، وفيلالي مكّي، وأحمد بن امحمد المدعوّ "جلول"[4]، وهرقة عبد القادر[5]؛ ولحق بهم يوم 03/31: مزغنة أحمد، ودشوك مصطفى، ولعساكر محمد[6]؛ وهذا ما زاد من حدّة الإشكال المطروح على إدارة السجون بالجزائر، إذ ما هو النظام الذي سيخضع له هؤلاء المعتقلون الجدد في سجن بربروس؟ ولذلك راسل مدير الدائرة السجنيّة المحافظ، يوم 02/25، يخبره بدخول كحّال ورفاقه سجن بربروس في ذلك اليوم، ويضيف في الختام: «هؤلاء الأشخاص موضوعون إلاّ أن تكون منكم تعليمات مخالفة -سيدي المحافظ- رهن نظام سجن الحقّ العامّ»، وبعث نسخة من هذه الرسالة إلى الوالي العامّ[7].

1- لم يشر مدير الدائرة السجنيّة في هذه الرسالة إلى المشكل المادّي، وأضاف إلى أسباب اقتراحه نقل مصّالي ورفاقه الأربعة إلى سجن ميزون كاري، أنّ وجودهم في بربروس قد يشكّل خطرا على أمن المؤسسة العقابيّة، ولأنّهم في انتظار قرار محكمة النقض، ومن كان في مثل وضعهم يحوّلون عادة إلى السجن المذكور؛ ينظر: الرسالة، رقم: 153، 1938/01/21، موضوعها: بخصوص مصّالي ورفاقه في السجن، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- عثرنا على برقية رسمية مشفّرة، من الوالي العامّ -وهو بباريس- إلى الكاتب العامّ للحكومة بالجزائر، يأمره بعدم منح مصّالي أيّ امتياز خاصّ فيما يتعلّق بالزيارات زيادة على ما هو معمول به، وطالبه باستشارة نائب الجمهورية في هذه المسائل؛ ينظر: البرقية، بإمضاء: أودريك (Audric)، رقم: 62، 1938/03/13، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: رسالة مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر إلى المحافظ، بإمضاء: تيسيي (Teyssier)، غير مرقّمة، 1938/02/25، موضوعها: بخصوص أربعة أعضاء من (ح.ش.ج)، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وقد تمّ اعتقالهم يوم 02/24؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 1246، 1938/02/25، موضوعه: اعتقال مسؤولين من حزب الشعب الجزائريّ، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ذكرت أسماء هؤلاء الثلاثة في منشور لفدرالية الجزائر، اكتشفت الإدارة الاستعمارية أمره يوم 03/04؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 1414، 1938/03/04، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مرقونة من المنشور باللغة الفرنسية، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: رسالة مرقونة من معتقلي الحزب الثمانية إلى الوالي العامّ، بإمضاء: كحّال، وقنانش، وبوجريدة، وفيلالي مكي، وفيلالي مبارك، وحيواني، وجلول، وهرقة، 1938/03/28، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ والملحق623.

6- ينظر: رسالة مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر إلى المحافظ، بإمضاء: تيسيي (Teyssier)، رقم: 617، 1938/04/01، موضوعها: بخصوص (ح.ش.ج)، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وتمّ اعتقالهم في نفس اليوم 03/31؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 2245، 1938/03/31، موضوعه: اعتقال مسؤولين، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

7- ينظر: رسالة مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر إلى الوالي العامّ، رقم: 444، 1938/02/25، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى المحافظ، بإمضاء: تيسيي (Teyssier)، غير مرقّمة، 1938/02/25.

وأمام صمت الوالي العامّ والمحافظ عقب هذا الإجراء، وسكوت المحافظ إزاء استفسارات مراسلة يوم 01/21[1]، أقدم مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر على إجراء آخر، عند التحاق مزغنة ورفاقه بسجن بربروس، فحوّل في نفس اليوم 03/31، مصّالي ورفاقه إلى سجن ميزون كاري (Maison Carrée)، وأعادهم فيه إلى نظام سجن الحقّ العامّ، وأدرج هذا الإجراء في رسالته إلى المحافظ يخبره فيها بالتحاق هذه المجموعة الجديدة من مسؤولي حزب الشعب ببربروس[2]؛ وجاء هذا الإجراء متزامنا مع رسالتين من معتقلي حزب الشعب الجزائري إلى الوالي العامّ، يوم 03/28، وعلى الأرجح بتأثير منهما[3]: تطالبه الأولى بتطبيق نظام السجن السياسيّ الكامل عليهم، برفع الاستثناء عن قراءة الصحف، والاتّصال الحرّ بخارج السجن[4]؛ بينما تطالبه الثانية بتطبيق نظام السجن السياسيّ الذي حرموا منه منذ دخولهم السجن، مستندين فيما استندوا إليه إلى استفادة الزعيم مصّالي ورفاقه من هذا السجن، مع اشتراكهم في نفس التهم[5].

أبدى المحافظ في رسالته إلى الوالي العامّ، رقم: 6860، بتاريخ 04/02، رأيا سلبيّا إزاء مطالبة معتقلي حزب الشعب بالسجن السياسيّ في رسالتيهما الآنفتي الذكر، فأجابه الوالي العامّ بقوله: «لي الشرف أن أعلمكم، أنّه وبالرغم من مشاطرتي وجهة نظركم، إلاّ أنّني قرّرت أنّ "النظام المختلط" (Régime Mixte) الذي منح لمصّالي وشركائه أثناء إقامتهم بسجن الجزائر، والذي يجب أن يستمرّ في سجن ميزون كاري، لا يمكن أن ينقض أيّة مخالفة قانونيّة[6]. وأضيف أنّ هذا النظام هو الذي يجب أن يطبّق على كحّال أرزقي

---

[1]– لقد صرّح مدير الأمن العامّ في مدوّنته إلى المحافظ، يوم 04/07، أنّ رسالة مدير الإدارة السجنيّة بالجزائر إلى المحافظ بقيت من غير ردّ منذ 01/21؛ ينظر: مدوّنة إلى المحافظ، بإمضاء: قيلرمي (Guilhermet)، رقم: 1090، 1938/04/07، 3cab46، (CAOM)، ص02.

[2]– ينظر: رسالة مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر إلى مدير الأمن العامّ، بإمضاء: تيسيي (Teyssier)، رقم: 618، 1938/04/01، موضوعها: بخصوص (ح.ش.ج)، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى المحافظ، بإمضاء: تيسيي، رقم: 617، 1938/04/01.

[3]– لقد كان الحلّ الأوفق من وجهة نظر مدير الدائرة السجنيّة بالجزائر، للإشكال الذي تطرحه الرسالة الثانية، فقد كان حرمان مصّالي ورفاقه من التسهيلات التي يتمتّعون بها، لتسويتهم بمن هم مشتركون وإيّاهم في نفس التهم، قد يؤدّي إلى ردّ فعل من جميع معتقلي (ح.ش.ج) ببربروس، غير مأمون العواقب، بالرغم من قانونية الإجراء؛ وإذا سوّى بهم غيرهم بمنحهم نفس التسهيلات، فهو مخالف لحكم 01/14، وتكاليفه المادّية أضخم، وفوق طاقة ميزانية إدارته؛ فاختار المدير تطبيق نصّ الحكم بحذافيره على مصّالي ورفاقه، في سجن جديد، هو سجن ميزون كاري.

[4]– ينظر: رسالة مرقونة من معتقلي الحزب السبعة إلى الوالي العامّ، بإمضاء: مصّالي، وزكرياء، وبرزوق، ولحول، وغرّافة، وخليفة، ومعروف بومدين، 1938/03/28، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]– ينظر: رسالة مرقونة من معتقلي الحزب الثمانية إلى الوالي العامّ، بإمضاء: كحّال، وقنانش، وبوجريدة، وفيلالي مكي، وفيلالي مبارك، وحيواني، وجلول، وهرقة، 1938/03/28، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[6]– العبارة في الأصل هي: «(Ne peut enfreindre aucune dérogation)». والسطر تحت العبارتين من أصل الرسالة، بالإضافة إلى سطر ثالث تحت مصطلح آخر "النظام الكامل" (Régime Complet)؛ ويبدو أنّ الوالي العامّ –بالنظر إلى صرامة لهجة رسالته– قد سطّر مصطلحين وعبارة واحدة اقتبسها جميعها من رسالة المحافظ، فالعبارة هي –على الأرجح– رفض لاعتبار المحافظ في رسالته إرجاع مصّالي ورفاقه إلى نظام سجن الحقّ العامّ

والمتّهمين السبعة معه، الذين هم معتقلون الآن بسجن الجزائر»[1].

كانت ظروف الاعتقال في سجن ميزون كاري صعبة جدّا، تحدّث عنها مصّالي في مذكّراته، ومنها: حلق شعرهم ولحاهم وشواربهم عند دخولهم إلى السجن، ووضعهم في اليوم الموالي في قاعة كبرى مع عدد من سجناء الحقّ العامّ، وكانوا ملزمين بالعمل في مصنع للحلفاء، ونظام العمل كان جدّ صارم، فلا يمكن الحديث ولا رفع الرأس للنظر يمينا أو يسرة أثناءه، وكان يقوم على حراستهم حرّاس، وعناصر مختارة من المساجين أنفسهم، كانوا أقسى على إخوانهم من الحرّاس[2].

يقول الأستاذ قنانش: «قرّرت الإدارة في آخر شهر مارس تقسيمنا، بين سجن الحرّاش للمحكوم عليهم، وبربروس لمن لا زالوا في انتظار الحكم، وقطعوا السجن السياسيّ حتّى على المحكوم عليهم، وهكذا قرّرنا في بربروس والحرّاش القيام بإضراب جديد، وبدأنا في تهييء الجوّ، لأنّ الإضراب له قواعده، لا تسمح بالارتجال، وكان أن استجابت الإدارة في اليوم الثاني من الإضراب عن الطعام»[3]؛ وأورد تقرير عن اجتماع عقدته خلية الحزب ببلكور، يوم السبت 04/09، حديثا لكاتبها العامّ "سالم" عن بدء معتقلي بربروس إضرابا عن الطعام في بداية الأسبوع الأخير، احتجاجا على إخضاعهم لنظام سجن الحقّ العامّ[4].

نقضا لمخالفة قانونية، وهو ما أثار امتعاضه فيها، بسبب دلالتها الضمنيّة على موافقته إدارة السجون على الإجراءات الأخيرة التي اتّخذتها في حقّ مصّالي ورفاقه، من غير استشارته، فكان أن اتّخذ هذا القرار غير المنتظر منه مقارنة بقراراته السابقة، وباعتبار مخالفته الصريحة فيه لحكم محكمة الاستئناف، بالرغم من عدم ملاحظة أيّة ضغوط كبيرة عليه آنذاك، سواء من الإدارة المركزية، أو من نشاطات حزب الشعب الجزائريّ، ممّا قد يهدّد الأمن والاستقرار في الجزائر.

1- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، غير مرقّمة، غير مؤرّخة، موضوعها: طلب وضع رهن نظام المساجين السياسيّين: مصّالي وشركاؤه، وثيقة من صفحتين، 3cab46، (CAOM)، ص01. لقد لفت مدير الأمن العامّ في مدوّنته إلى المحافظ الانتباه إلى أنّ التوجيهات الذي قدّمت له بخصوص كتابة ردّ الوالي العامّ على رسالتي المعتقلين مخالفة للرأي السلبيّ للمحافظ إزاء مطلب المعتقلين، عسى أن يستدرك الأمر قبل تقديم الرسائل إلى الوالي العامّ للإمضاء، وهذه المدوّنة كتبت 04/07، ممّا يدلّ على أنّ رسالة الوالي العامّ السابقة كانت بين يوم 02 و04/07؛ ينظر: مدوّنة إلى المحافظ، بإمضاء: قيلرمي (Guilhermet)، مدير الأمن العامّ، رقم: 1090، 1938/04/07، 3cab46، (CAOM)، ص01.

2- تنظر تفاصيل ظروف السجن وأثرها في نفس مصّالي: مذكرات مصّالي حاج274، 275. وورد في منشور وزّعته فيدرالية الحزب بقسنطينة –في قسمه العربيّ– ما يلي: «قد وجّهتهم [يعني: مصّالي ورفاقه] السلطة الغاشمة إلى (الحرّاش)، وحلقت لهم شعر رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم وشواربهم، وحتّى –والله– شعر حواجبهم، وأرغمتهم على كسر الحجارة الصلدة بالمعاول، ونبش التراب بالفؤوس حول أشجار وكروم المعمّرين، كأكبر الأشقياء والمجرمين» تفتيشات بمقرّ الخلية القسنطينيّة يؤدّي إلى اكتشاف منشورات ومطبوعات، بإمضاء: A.K، قصاصة المقال –وضمنها صورة عن المنشور باللغتين العربية والفرنسية– من جريدة "لادبيش دو كونستنتين"، ليوم 1937/04/17، 3cab99، (CAOM).

3- حزب الشعب الجزائريّ270.

4- ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 2484، 1938/04/12، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وقد تحدّث أحد المتدخّلين في الاجتماع، عن نقل مصّالي ورفاقه إلى سجن ميزون كاري، ممّا يدلّ أنّ الكاتب العامّ يعني بداية الأسبوع الذي انعقد فيه الاجتماع، وليس بداية الأسبوع السابق له.

لم نعثر -فيما اطّلعنا عليه- من تقارير الإدارة الاستعمارية بالجزائر ووثائقها على أثر لهذا الإضراب، كما لم يتحدّث عنه مصّالي في مذكّراته؛ ثمّ إنّ فدرالية حزب الشعب الجزائري بالجزائر أصدر منشورا في أوائل شهر أفريل، اكتشفت الإدارة أمره يوم 04/08[1]، تحدّث عن تعسّف الإدارة في إخضاع المعتقلين لنظام القانون العامّ، وهي بذلك تدفعهم دفعا إلى الإضراب عن الطعام.

إنّ عدم حديث مصّالي عن هذا الإضراب يدلّنا على أنّه كان خاصّا بمعتقلي سجن بربروس، ويؤيّده حديث الكاتب العامّ لخلية الحزب ببلكور، خلاف ما قاله الأستاذ قنانش؛ ويدلّنا المنشور على أنّه إن وقع هذا الإضراب فعلا فقد تأخّر عن الوقت الذي حدّده "سالم"، لعدم ورود أدنى إشارة إلى الشروع فيه في المنشور، مع أهمية الحدث -حال وقوعه- من جانب الدعاية للعمل الوطنيّ؛ وإذا كان الوالي العامّ قد اتّخذ قراره بمنح "النظام المختلط" -كما أسماه- لجميع معتقلي حزب الشعب، يوم 04/07، فإنّ هذا الإضراب قد توقّف في مرحلة الإعداد له، وإن وقع فلم يزد على يوم واحد، على ما نستفيده من كلام الأستاذ قنانش، وهذا ما يفسّر غياب الحديث عنه في تقارير الإدارة الاستعمارية.

يقول مصّالي الحاج في مذكّراته: «في حدود 10 أفريل 1938، بينما كنّا نياما في قاعة كبيرة مع سجناء الحقّ العامّ، حضر حرّاس السجن بمعية مدنيّين من إدارة السجون، لتحويلنا إلى جناح السجناء السياسيّين، بالسجن المركزي لميزون كاري. كنّا جدّ فرحين، فقد كان -فعلا- انتصارا للقضية التي ندافع عنها، وكان أيضا طريقة للاعتراف ببعض مطالبنا الديمقراطية»[2]. هذا التاريخ هو أقرب تاريخ لعودة مصّالي ورفاقه لا إلى نظام السجن السياسي الكامل كما يفهم من كلامه، وإنّما إلى "النظام المختلط" كما أسماه الوالي العامّ، ولعلّ المشاعر القويّة التي انتابته ورفاقه عند تحويلهم إلى جناح السجناء السياسيّين، هي التي ساعدت على احتفاظه بهذا التاريخ كتاريخ منحهم نظام السجن السياسيّ، والحقّ أنّ هذا النظام لم يستفيدوا منه إلاّ شهورا بعد ذلك.

محكمة النقض وإقرار السجن السياسيّ:

اجتمعت محكمة النقض بباريس، الغرفة الجنائيّة، برئاسة السيّد كوس (Caous)[3]، يوم 1938/05/31،

---

[1]- طبع من المنشور 5.000 نسخة، بالمطبعة العربية، 70 شارع روفيقو (Rovigo)؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 2408، 1938/04/08، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور باللغة الفرنسية فقط، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- ينظر: مذكرات مصّالي حاج275.

[3]- وبحضور السادة: لا قارد (La Garde) مقرّرا؛ ورو (Roux)، وبوشاردون (Bouchardon)، وماسترسي (Maestracci)، ودونات (Donat)، وقين (Guigne)، وسيناك (Cenac)، دبيك (Debuc)، وألارد (Alard)، وقاجي (Gaget)، وكبليري (Capillery)، وديكوم (Ducom) مستشارين؛ ينظر: مستخرج من سجلّ كاتب محكمة الاستئناف بالجزائر: حكم النقض، 1938/05/31، موضوعه: مصّالي وآخرون، وثيقة من صفحتين، 3cab46، (CAOM)، ص02.

للنظر في طلب النقض الذي تقدّم به: لحول حسين بن أحمد، وخليفة بن عمّار، والشيخ زكري، المدعوّ زكرياء بن سليمان، ومصّالي حاج بن أحمد، وغرّافة إبراهيم بن عيسى، ضدّ الحكم الذي أصدرته في حقّهم محكمة الاستئناف بالجزائر، يوم 1938/01/14، وبناء على تقرير السيّد المستشار لا قارد (La Garde)، وملاحظات الأستاذ هيرسان (Hersant)، محام في المحكمة، وخلاصات السيّد المحامي العامّ سيرامي (Siramy)، انتهت المحكمة إلى إثبات التّهم الموجّهة إليهم، وإقرار الأحكام التي ترتّبت عليها في حكم محكمة الاستئناف، باستثناء قرار تطبيق "الإكراه البدنيّ" عليهم، الذي يعني حرمانهم من نظام السجن السياسي، فقد استندت محكمة النقض إلى المادّة 19 من قانون 1928/12/30 الذي ينصّ صراحة على أنّ «الإكراه البدنيّ لا يمكن أبدا تطبيقه في حالات مخالفات، أو جنح، أو جرائم سياسية»، ونظرا لغياب أيّ إثبات عن كون المتّهمين عند دعوتهم مسلمي الجزائر إلى إقامة دولة مستقلة، دفعوهم إلى القيام بأفعال يعاقب عليها قانون الحقّ العام، فإنّ الحجة التي اعتمدتها محكمة الاستئناف[1] غير كافية لنفي الطابع السياسيّ عن الجنح التي اقترفوها؛ وعليه نقضت وأبطلت بصفة نهائية، غير قابلة للمراجعة، هذه الجزئية في حكم الاستئناف ليوم 01/14[2]، وبذلك أقرّت هذه المحكمة أخيرا استفادة معتقلي حزب الشعب الجزائريّ من نظام السجن السياسي.

وفي يوم 06/19 عنونت ليكو دالجي (L'Echo d'Alger) خبرا صغيرا، بعنوان "الإكراه البدنيّ ألغي في الحكم على مصّالي وشركائه"[3]، تحدّثت فيه عن قرار محكمة النقض، وذلك بعد عشرين يوما من صدوره، وكان على مصّالي ورفاقه أن ينتظروا شهرا كاملا بعد ذلك ليبلّغوا رسميّا بقرار المحكمة في حقّهم، بعد خمسين يوما من صدوره، ففي رسالة محافظ عمالة الجزائر إلى الوالي العامّ، رقم: 14.157، بتاريخ 07/28، أخبره بأنّ مصّالي ورفاقه بلّغوا بالحكم يوم 07/20، وقام مدير السجن إثرها، ومن غير تأخير –بحسب رواية الوالي العامّ لمضمون رسالة المحافظ–، بإدراجهم في نظام السجن السياسيّ الكامل[4].

وممّا يدلّ على صحّة تاريخ تبليغ السجناء بقرار محكمة النقض مراسلة المحامي ديرولاد (Déroulède) النائب العامّ بالجزائر، في نفس اليوم 07/20، يطالبه بتطبيق قرار محكمة النقض، بمنح نظام السجن السياسيّ ليس لمصّالي

---

[1]– من أنّ التّهم الموجّهة إليهم داخلة في نطاق جنح ومخالفات الحقّ العامّ، لأنّها لا تهدف إلى تغيير القوانين الدستورية لفرنسا، وإنّما هي مساس بوحدة ترابها؛ ينظر: نصّ حكم محكمة النقض، القضية رقم: 663، 1938/05/31، موضوعه: لحول حسين وآخرون، 4I3، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص02.

[2]– ينظر: نفسه02.

[3]– ينظر: قصاصة المقال من الجريدة، ليوم 1938/06/19، 3cab46، (CAOM).

[4]– ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، ردّا على الرسالة المذكورة في المتن، غير مرقّمة، 1938/08/12، موضوعها: مدانون مدرجون في نظام السجن السياسيّ، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من ستّ صفحات، ص01.

ورفاقه بسجن مبزون كاري فحسب، وإنّما لكحّال ورفاقه بسجن بربروس أيضا[1]؛ ويؤكّده أيضا دلالة الوثائق المتوفّرة بين أيدينا على أنّ مصّالي ورفاقه قدّموا رسالة احتجاج على نظام السجن السياسي "الكامل" المطبّق عليهم، بناء على ما شهده مصّالي الحاج نفسه، حينما كان سجينا سياسيا بـــ"سجن الصحّة" (Prison de la Santé)، بباريس[2]؛ ويبدو أنّ هذا الاحتجاج بُلّغ إلى الوالي العام، فكتب يوم 07/25، رسالة إلى حافظ الأختام يسأله عن الإجراءات المتّخذة في هذا السجن إزاء المعتقلين السياسيّين، فجاءه الردّ على استفساراته يوم 07/29[3].

لم تشر أيّة وثيقة إلى أسباب كلّ هذا التأخير بين صدور الحكم، وتطبيقه في سجن ميزون كاري، ومهما كانت الإجراءات الإدارية بطيئة، فلا يمكن أن تفسّره لوحدها، فهو يخفي بالضرورة تماطلا من الإدارة القضائيّة بالجزائر، لأنّ قرار محكمة النقض أبطل حكما بذلت جهدا كبيرا في فرضه؛ ويبدو أنّها استغلّت في ذلك شللا أصاب "حزب الشعب الجزائريّ"، إذ لا يعقل أن يغفل الحزب عن صدور الحكم في تاريخه المحدّد، وعن نشر خبره في جريدة "ليكو دالجي" يوم 06/19[4]، فقد كان قرار محكمة النقض انتصارا للحزب في إحدى أكبر معاركه في مواجهة الإدارة الاستعماريّة بالجزائر، ومماطلةُ هذه الإدارة في الالتزام به، كان سيعدّ -أيّام حضور الحزب القويّ في الساحة السياسية الجزائريّة- فرصة سانحة لحملة دعائية كبيرة في الصحافة، وعن طريق توزيع المناشير، غير أنّنا لم نجد أثرا لذلك، ومرّ هذا الحكم كـــ"لا حدث"، ممّا يدلّ على انحسار شديد لنشاط الحزب في تلك الآونة[5].

1- لأنّ الرسائل التي أعقبتها توحي بالعكس، فقد بعث النائب العامّ رسالة المحامي مرفوقة بنسخة من الحكم إلى الوكيل العامّ، يوم 07/22؛ وفي يوم 07/25 قام بنفس العملية مع نائب الجمهوريّة؛ وقام هذا الأخير بمراسلة مدير الدائرة السجنية بالجزائر، يوم 07/26، مرفِقا رسالته بنسخة من الحكم، يأمره فيها بناء على قرار محكمة النقض أن يطبّق على مصّالي ورجاله نظام السجن السياسي، وإعلامه في أقرب وقت بمختلف الترتيبات التي يتعيّن على مصالحه القيام بها؛ ينظر: الرسائل الأربعة، غير مرقّمة، 3cab46، (CAOM)، أربع وثائق من صفحة واحدة.

2- ينظر: مدوّنة حول نظام سجن المعتقلين السياسيّين (Note sur le régime des détenus politiques)، لمدير سجن ميزون كاري على الأرجح، غير مرقّمة، ولا مؤرّخة، كتبت بعد يوم 07/29، لورود حديث عن رسالة وزير العدل فيها، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من 08 صفحات، ص03. وقد أنهى المدير مدوّنته بجدول من أربع خانات: الأولى لنظام السجن السياسيّ المعمول به في سجن ميزون كاري، والثانية لمطالب مصّالي ورفاقه في كلّ جزئية من جزئيات هذا النظام، والثالثة لما يقابله من نظام السجن السياسيّ في "سجن الصحّة" بباريس، والرابعة للاحظاته هو حول إمكان تطبيق مطالب المعتقلين من عدمه، مسترشدا بنظام السجن الباريسيّ بالدرجة الأولى.

3- ينظر: رسالة حافظ الأختام ووزير العدل إلى الوالي العامّ، غير مرقّمة، 1938/07/29، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. أوضح في بدايتها أنّها ردّ على رسالة الوالي العامّ، رقم: 2220، ليوم 1938/07/25.

4- فمحامو مصّالي ورفاقه في الجزائر وباريس، وعلى رأسهم الأستاذ ديرولاد، كفيلون بنقل قرار محكمة النقض، كما أنّ المسألة بالنسبة لمدام مصّالي الحاج جدّ شخصية، لا يمكن أن تغفل عنها، وعن متابعتها.

5- ويبدو أنّ الصحافة الجزائرية المسلمة نفسها غفلت أو تغافلت عن تطوّرات هذه القضية، ويشهد لذلك مقال صغير نشرته جريدة "لاديفنس" (La Défense)، يوم 09/07، بعنوان: أخيرا نظام السجن السياسي لمعتقلي حزب الشعب الجزائريّ، مدح فيه صاحب المقال جهود المحامي ديرولاد، في دفع الوالي العامّ إلى اتّخاذ القرار، فانتهى إلى إجابته بقوله ما نصّه: «نعم، في الحين، "كامل"»، غير أنّ إدارته ماطلت عشرة أيّام كاملة قبل

ولعلّ أبلغ ما يدلّ على هذا الانحسار هو تتبّع مناشيره، فقد كان يعتمد اعتمادا كبيرا عليها في دعايته: آخر منشور طبعه الحزب في عمالة الجزائر، هو المنشور الذي تحدّث عن اعتقال مزغنة ورفيقيه في 03/31، ونقلِ مصّالي ورفاقه إلى سجن ميزون كاري، وتطبيق نظام سجن الحقّ العامّ عليهم[1]؛ أعقبه آخر منشور طبعته فدرالية الحزب بعمالة قسنطينة، وتحدّثت عنه الصحافة في أواسط شهر أفريل[2]؛ واختفت مناشير الحزب بعد ذلك إلى منتصف شهر جوان حيث اكتشفت الإدارة الاستعماريّة بعمالة الجزائر منشورا مطبوعا طباعة يدوية، يوم 06/18[3]، ثمّ انقطعت تماما إلى شهر ديسمبر 1938[4].

أمّا أسبابه فتتمثّل في سياسة القمع العنيفة التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية في الجزائر، منذ إلقاء القبض على مصّالي ورفاقه، وبالرغم من قدرة الحزب على التجدّد كلّ مرّة، إلاّ أنّ هذه السياسة العنيفة أنهكته بشريّا ومادّيا، مع أواخر شهر أفريل 1938، فقد اعتقلت أغلب مسؤوليه في العمالات الثلاثة، و لم يظهر قادة جدد يمكنهم ملء الفراغ الذي تركه سابقوهم، كما ضيّقت على مناضليه تضييقا شديدا، حتّى في أبسط الأنشطة: كتوزيع المناشير، أو جمع المال عن طريق الاكتتاب، أو بيع بطاقات تضامن مع المعتقلين، بالإضافة إلى حملات التفتيش المتكرّرة، وقد تجاوز هذا التضييق الجزائر بعمالاتها الثلاثة إلى فرنسا، كلّ ذلك تولّد عنه ضائقة مالية، حدّت من أنشطة الحزب، فقد كان المال الذي يجمعه بجهد جهيد، ينفقه في طباعة مناشير تستولي عليها الإدارة في المطبعة، أو تصادرها بمجرّد البدء في توزيعها، وهذا ما يفسّر طبع منشور شهر جوان طباعة يدوية، وبعدد محدود -بالضرورة- من النسخ.

تطبيقه؛ من غير أدنى إشارة إلى قرار محكمة النقض، وإلى هذا التأخير الكبير في تطبيقه بالنظر إلى تاريخ صدوره؛ ينظر: قصاصة المقال من الجريدة، بإمضاء (J.M.C)، ليوم 1938/09/07، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

1- وذلك بتاريخ 04/03، وهو خطأ صريح، غير أنّه يساعدنا في تحديد تاريخ كتابة المنشور بين 03 و07 أفريل، إذ لم تكتشف الإدارة أمره بعد تمام طبعه إلاّ يوم 04/08؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 2408، 1938/04/08، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور باللغة الفرنسية فقط.

2- ينظر على سبيل المثال: تفتيشات بمقرّ الخلية القسنطينيّة يؤدّي إلى اكتشاف منشورات ومطبوعات، بإمضاء: A.K، قصاصة المقال -وضمنها صورة عن المنشور باللغتين العربية والفرنسية- من جريدة "لاديبش دو كونستنتين"، ليوم 1937/04/17، 3cab99، (CAOM).

3- لاحظت الإدراة عدم حمله أيّة إشارة إلى مصدره، ورجّحت نسبته إلى حزب الشعب الجزائريّ، والحقّ أنّ محتواه محتوى وطنيّ عامّ لا يرتبط بحدث آني معيّن، على ما كان معهودا في مناشيره؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 4286، 1938/06/18، موضوعه: منشور (ح.ش.ج)، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مرقونة من المنشور باللغة الفرنسية، وثيقة من صفحة واحدة.

4- منشور أصدرته "لجنة الدفاع عن المعتقلين السياسيّين"، ولا يحمل أيّ رمز من رموز الحزب، طبع منه 5.000 نسخة بالمطبعة العربية؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 9011، 1938/12/12، موضوعه: لجنة الدفاع عن المعتقلين السياسيّين، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور باللغة الفرنسية فقط، وثيقة من صفحة واحدة. كما وجدنا نسخة من منشور بعنوان "تصريح حزب الشعب الجزائريّ"، هو بيان المكتب السياسيّ للحزب بالجزائر، بعد اجتماعه ليوم 1938/12/15، وقد أرسل إلى رئيس المجلس يوم 12/19، وطبع المنشور في مطبعة باسي (Basset) بالجزائر، ولا نعلم متى طبع المنشور، ومتى وزّع، وأين؛ ينظر: نسخة مطبوعة من المنشور باللغة الفرنسية فقط، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة من الحجم الكبير.

كما أنّ حزب الشعب الجزائريّ انقطع رجاؤه تماما في الإدارة المركزية بباريس، بقيام حكومة إدوارد دلادييه (Edouard Daladier) الثالثة، يوم 1938/04/12[1]، خلفا لحكومة ليون بلوم (Léon Blum) الثانية التي لم يزد حكمها على شهر[2]، وقد استغلّ حزب الشعب الجزائريّ عمر هذه الحكومة القصير، لبذل مساعي لصالحه لدى أعضاء فاعلين في الحزب الاجتماعي (S.F.I.O)، وكان على رأس هذه الحكومة الائتلافيّة، ومنه رئيسها بلوم (Blum)، فقد تحدّث عمارة، أحد مسؤولي (ح.ش.ج) بالجزائر، في رسالة إلى اللجنة المسيّرة بالجزائر، عن اشتراكه في وفد اللجنة المركزية للحزب بباريس الذي حظي -في أواسط شهر مارس- بلقاء السادة: مارسو بيفير (Marceau Pivert)، ودانيال قيران (Daniel Guérin)، وفليسيان شلاي (Félicien Challaye)، من الحزب الاجتماعيّ، وقد وعدوهم بالتوسّط لدى السيّد سارو (Sarraut)[3]، لمنح العفو لمسؤولي الحزب المعتقلين ببربروس، أو لاستفادتهم -على الأقلّ- من نظام السجن السياسي[4]؛ غير أنّ هذا المسعى لم يتحقّق، ومع قيام حكومة دلادييه الجديدة التي ستسمرّ إلى 1939/05/11، وخروج الحزب الاجتماعي في عهدها من الحكومة، وانتقاله إلى المعارضة، أوصد باب الإدارة المركزية بباريس في وجهه، إذ كان حزب (S.F.I.O) الحزب الفرنسي الوحيد الذي يجد (ح.ش.ج) تجاوبا لعدد من أعضائه الفاعلين مع قضيّته.

وفي نفس السياق نجد مصّالي ورفاقه يكتبون برقية إلى السيّد فيكتور باش (Victor Basch)، رئيس "رابطة حقوق الإنسان والمواطن" بباريس، قبل انتقالهم إلى سجن ميزون كاري[5]، يطلبون منه التدخّل لدى السلطة المركزية، لتطبيق نظام السجن السياسي عليهم كاملا، باسم حقوق الإنسان والعدالة؛ فما كان من هذه الرابطة إلاّ أن رجت رئيس خليتها بالجزائر، الأستاذ مواتي (Moatti)، محام لدى محكمة الجزائر، عند تكليفه في بداية شهر جوان بإجراء تحقيق في قضية الشيخ العقبيّ، رجته أن يستعلم عن ظروف اعتقال مصّالي ورفاقه، الذين

---

[1]- ينظر: حكومة إدوارد دلادييه(3)، ويكبيديا، صفحة الأنترنيت:

(http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Gouvernement_%C3%89douard_Daladier_(3)&oldid=28959222)، 2008/04/24.

[2]- ينظر: حكومة ليون بلوم (2)، (1938/03/13-1938/04/08)، ويكبيديا، صفحة الأنترنيت:

(http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Gouvernement_L%C3%A9on_Blum_(2)&oldid=34587403)، 2008/10/22.

[3]- إذا علمنا أنّ الرسالة بلغت اللجنة المسيّرة يوم 03/23، وأنّ اللقاء قد انعقد في الأيّام الأخيرة -بحسب عبارة الرسالة-، فإنّ الحكومة هي حكومة ليون بلوم الثانية، وكان سارو (Sarraut) وزير دولة مكلّفا بقضايا الشمال الإفريقي فيها؛ ينظر: حكومة ليون بلوم (2)، ويكبيديا: الموسوعة الحرة، صفحة الأنترنيت نفسها.

[4]- ينظر: معلومات، (CIE) الجزائر، رقم: 374، 1938/03/23، موضوعها: بخصوص نشاط حزب الشعب الجزائريّ، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]- لأنّ اليوم هو 29، ولا ندري من أيّ شهر، غير أنّ محتوى البرقية يدلّ على أنّ المعتقلين كانوا حين كتابتها في سجن بربروس، والأرجح أن يكون ذلك في أحد الشهور الثلاثة الأولى من سنة 1938؛ ينظر: البرقية، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

طلبوا من الرابطة التدخّل لمنحهم الحقّ في نظام السجن السياسيّ"[1].

محاولات الإدارة الاستعماريّة حلّ حزب الشعب الجزائريّ:

وبتأثير من إحساس الإدارة الاستعمارية بالجزائر بنجاحها في سياسة القمع التي انتهجتها في مواجهة نشاط (ح.ش.ج)، انتهزت الظروف العصيبة التي كان يمرّ بها في تلك الآونة للإجهاز عليه، والقضاء عليه قضاء مبرما، وذلك بالضغط على السلطة المركزية بباريس، كي تصدر قرار حلّ حزب الشعب الجزائريّ:

في يوم 1938/04/28، راسل الوالي العامّ وزير الداخلية[2]، ليعلمه بأنّ مديرية الأمن العموميّ بتونس قد أرسلت له صورا للخناجر التي أهداها (ح.ش.ج) لبعض مسؤولي حزب الدستور الجديد[3]، ومنها الخنجر الذي أهدته إلى أحد قادته الحبيب بورقيبة، مكتوبا على غمده: «حزب الشعب الجزائريّ إلى المجاهد الكبير الأستاذ الحبيب بورقيبة»، وأنّ هذا الحدث يبرز بوضوح التواطئ بين الحزبين، ومن آثاره الأحداث الدامية بتونس؛ وعليه يتعيّن اتّخاذ قرار عن طريق مرسوم يقضي بحلّ حزب الشعب الجزائريّ في الجزائر وفرنسا، وحرصا منه على تحقيق مطلبه أرفق برسالته اقتراحه لنصّ المرسوم[4]، وهو نسخة طبق الأصل عن قرار حلّ "نجم الشمال الإفريقيّ".

وقبل ذلك بيوم، كتب نائب الجمهورية إلى النائب العامّ قودان (Godin)، رسالة مطوّلة نسبيّا يؤسّس فيها لحلّ (ح.ش.ج): استعرض نشاط الحزب منذ حلّ "نجم الشمال الإفريقيّ"، وانتهى فيه إلى أنّه بالرغم من الأحكام القضائيّة الصادرة في حقّ قادة الحزب، وبالرغم من اعتقال عدد من مسؤوليه بعد ذلك، إلاّ أنّ نشاطه بقي متواصلا، وامتدّت رقعته إلى نقاط مختلفة من الأرض الجزائريّة، ويبدو أنّ هذا النشاط على صلة بدعاية حزب الدستور الجديد (Néo-Destour) بتونس، ونشاطات "الفعل المغربيّ" (L'Action Marocaine) بالمغرب الأقصى[5]؛ وإزاء هذا الوضع تجد الإدارة صعوبات في مواجهة هذه الدعاية بفعالية، لأنّها تمارس تحت غطاء حزب سياسيّ، وعليه يغدو من الضروريّ الأكيد إصدار قرار بحلّ هذا الحزب: «إنّ فائدة هذا الإجراء لا جدال فيها، فبإمكان الشرطة العمَالية –من غير مراجعة السلطة القضائيّة، واعتمادا على قرار الحلّ– تفريق أيّ اجتماع، وإغلاق أيّ

---

[1]– ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 3913، 1938/06/04، موضوعه: رابطة حقوق الإنسان والمواطن، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]– وكان الوزير آنذاك ألبير سارو (Albert Sarraut)، في حكومة إدوارد دلادييه(Edouard Daladier) الثالثة، كما مرّ آنفا.

[3]– هذا الحدث وقع خلال شهر فيفري 1938، على ما تثبته أولى رسالة في الموضوع؛ ينظر: رسالة مدير الأمن العموميّ بتونس إلى مدير الأمن العامّ بالجزائر، رقم: 2045/6، 1938/04/22، موضوعها: بخصوص أسلحة مرسلة إلى تونس من "الحزب الشعبيّ الجزائريّ"، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]– كان الوالي مقيما حين كتابة رسالته بفرنسا؛ ينظر: الرسالة، بإمضاء: لو بو (Le Beau)، رقم: 140 CP، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01؛ أرفق بها اقتراح نصّ مرسوم حلّ حزب الشعب الجزائريّ، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]– ينظر: الرسالة، غير مرقّمة، 1938/04/27، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01.

محلّ، وتقديم المخالفين إلى المحاكم المخوّلة، لعرضهم على الجلسات الخاصّة بحالات التلبّس بالجريمة (Flagrants délits). إنّ القمع سيصبح بذلك أسرع، وقيمة الاعتبار منه ستعرف زيادة كبيرة؛ وإنّ التجربة قد سبق أن أوضحت فعالية مثل هذا الإجراء»[1]. ثمّ تتبّع الوضع القانونيّ غير الواضح لحزب الشعب، وعدم بتّ محكمة النقض في الطلب الذي رفعه إليها مصّالي ورفاقه، ليخلص إلى أنّ قانون 1936/01/10 يخوّل للحكومة -في كلّ هذه الحالات، ومن غير انتظار- إصدار قرار حلّ هذا الحزب؛ وتأسيسا على ما سبق التمس من النائب العامّ أن يدرس إمكان مطالبة الوالي العامّ، ووزارة العدل، «باتّخاذ قرار -بصفة مستعجلة- يبدو ضروريّا للحفاظ على الأمن العموميّ في إفريقيا الشمالية»[2].

واستجابة من النائب العامّ قودان (Godin)[3] لالتماس نائب الجمهوريّة، أدرج هذا الموضوع في رسالة له إلى حافظ الأختام[4]، يوم 1938/05/02، قدّم له فيها عرضا وافيا عن المتابعات القضائيّة ضدّ مناضلي حزب الشعب الجزائريّ، بما يوضّح الجهد الكبير الذي تبذله السلطة القضائيّة في مواجهة أنشطة هذا الحزب، بالتشدّد في القمع من جهة[5]، والقيام بإجراءات تهدئة من جهة أخرى[6]؛ كلّ ذلك يعطي الانطباع عن تحكّم الإدارة الاستعماريّة بالجزائر عموما، والسلطة القضائيّة على وجه الخصوص في الوضع بالجزائر، وهو ما أدّى به إلى قول الآتي: «بالرغم من وجود علاقات أكيدة بين "حزب الدستور الجديد"، و"الفعل المغربيّ"، و(ح.ش.ج)، وثبوت الدليل على أنّ هذه التنظيمات تسعى، كلّ في مجالها الخاصّ، إلى نفس الهدف، وإلى نفس الغاية، إلاّ أنّه قد تمّ تجنّب أيّ حدث دام في الجزائر إلى تاريخ اليوم؛ هذه النتيجة كانت -في قسم كبير منها- بفضل القوّة والمرونة التي عولجت بها هذه القضية [...] يبدو أنّ الحركة الواسعة التي قام بها (ح.ش.ج) ضدّ فرنسا في الجزائر في

---

[1]- ينظر: السابق02.

[2]- ينظر: نفسه03.

[3]- بالنظر إلى الإمضاء بخطّ اليد على الرسالة التي وجّهها إلى الوالي العامّ، فهو أقرب إلى اسمه، منه إلى اسم رول (Rault)، على ما سنراه في الرسالة اللاحقة، والحقّ أنّ المراسلات السابقة تدلّ على أنّ النائب العامّ في تلك الفترة هو قودان، وقد سبق بعضها.

[4]- وكان وزير العدل حينها بول رينو (Paul Reynaud)؛ ينظر: حكومة إدوارد دلادييه (3)، ويكيبيديا، صفحة الأنترنيت: (http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Gouvernement_%C3%89douard_Daladier_(3)&oldid=28959222).

[5]- فقد عملت السلطات القضائية بعد اعتقال قادة الحزب على مقاضاتهم في أقرب الآجال، لتكون الأحكام الصادرة في حقّهم عبرة لغيرهم، وهي الآن تأخذ كلّ وقتها في التحقيق مع المتّهمين؛ وعدد المتابعات القضائيّة لمناضلي حزب الشعب حاليا هي 22 ملفّا، وعدد المعتقلين 13 معتقلا، بالإضافة إلى بن عصمان عبد الكريم من تلمسان، وعمارة من الجزائر، وهما في حالة فرار؛ ينظر: رسالة النائب العامّ لدى محكمة الجزائر إلى الوالي العام، رقم: A2/ 7077، 1938/05/02، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، في نفس التاريخ، وثيقة من أربع صفحات، ص01، و02.

[6]- تمثّلت في إخلاء سبيل 110 مناضلا من مناضلي الحزب، كان متابعا قضائيّا، في نوفمبر 1937؛ وهي مستعدّة للقيام بنفس الإجراء في حقّ عدد كبير من المناضلين الذين هم في حالة إفراج مؤقّت، وعددهم 71 مناضلا؛ ينظر: نفسه02، 03.

انحسار، وأنّ الجماهير الشعبيّة قد ازورّت عنه، ولكن لا ينبغي أن نترك الحريق يبعث من رماده، ويتعيّن -عن طريق إجراءات قمع عاجلة- تجنّب قيام بعض العناصر الثورية المؤمنة بالجامعة الإسلامية بإذكائه، ومنحه القوّة والحيوية»[1]؛ وخلص في آخر فقرة من رسالته إلى تعيين الإجراء العاجل، المشار إليه آنفا، فكان إصدار قرار يقضي بحلّ حزب الشعب الجزائريّ، كالقرار الذي صدر في حقّ "نجم الشمال الإفريقيّ"، بتاريخ 1937/01/26[2].

من الواضح للعيان أنّ محتوى الرسالة لا يشجّع الإدارة المركزية كثيرا، وقد كانت دوما متحفّظة بالنسبة للإجراءات القمعية التي تدعوها الإدارة الاستعمارية بالجزائر إلى القيام بها، خوفا من تفاقم الأوضاع، وخروجها عن السيطرة، فإذا كتب لها النائب العامّ عن تحكّم هذه الإدارة في الوضع، وعن حكمتها في معالجة هذا الملفّ، فما الداعي إلى حلّ الحزب أصلا؟ أو على الأقلّ إلى الإسراع إليه؟ وعليه لم تنفع -في تقديرنا- رسالة النائب العامّ الثانية إلى حافظ الأختام، بعد ثلاثة أيّام من الأولى فقط، وخصّصت فقط للمطالبة بحلّ حزب الشعب الجزائريّ، وكانت تحمل محتوى رسالة نائب الجمهورية السابقة إلى النائب العامّ بحذافيره[3]، وأنهاها في الختام بالتأكيد على توافقه التامّ مع الوالي العامّ في ضرورة القيام بهذا الإجراء[4]؛ ولا رسالة الوالي العام الثانية إلى وزير الداخلية، يوم 05/06[5]؛ ولا رسالته الثالثة إليه، وإلى كميل شوتان (Camille Chautemps)، وكان هذا الأخير مكلّفا آنذاك بالتنسيق فيما يتعلّق بقضايا الشمال الإفريقيّ، يوم 05/11[6]؛ لم ينفع كلّ ذلك في استجابة الإدارة المركزية

1- ينظر: السابق04.

2- ينظر: نفسه.

3- ينظر: ص317.

4- كانت بإمضاء رول (Rault)، ولا ندري أكان مجرّد سهو في كتابة صاحب الإمضاء لدى نسخ الرسالة، أم وقع تغيير للنائب العامّ في تلك الأيّام؛ ينظر: رسالة النائب العامّ لدى محكمة الجزائر إلى الوالي العام، رقم: A2/ 8817، 1938/05/05، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفقت بها نسخة من رسالته إلى حافظ الأختام، في نفس التاريخ، وثيقة من ثلاث صفحات.

5- لخّص فيها محتوى رسالة النائب العامّ الأخيرة، وذكر في ختامه بأنّه قد أرفق بهذه الرسالة مشروع قرار لحلّ حزب الشعب الجزائريّ، ورجاه تقديمه لرئيس الدولة للتوقيع؛ ينظر: الرسالة، غير مرقّمة، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها مشروع قرار حلّ حزب الشعب الجزائريّ، وثيقة من صفحة واحدة.

6- اعتمد فيها على مراسلة من المديرية العامّة للأمن الوطنيّ، التابعة لوزارة الداخلية، بتاريخ 05/06، تعلمه بقرار (ح.ش.ج) مساعدة "حزب الدستور الجديد"، ومن ذلك منحه مبلغ 2000 فرنكا، ووضع مقرّ الحزب بباريس تحت تصرّف خلية هذا الحزب بباريس، وهو ما يدلّ -في رأيه- على التواطئ الأكيد بين الحزبين، وعليه أصبح من الضرورة بمكان، وبصفة مستعجلة، الاستجابة لاقتراحه السابق بحلّ الحزب، وأضاف بأنّ النائب العامّ لدى محكمة الجزائر، قد أرسل مؤخّرا تقريرا إلى وزير العدل حافظ الأختام بنفس الطلب؛ ينظر: الرسالة، بإمضاء: لو بو (Le Beau)، رقم: 3807، 1938/05/11، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحتين. وتنظر رسالة المديرية العامّة: رسالة وزير الداخلية/ المديرية العامّة للأمن الوطنيّ إلى الوالي العامّ بالقطر الجزائريّ، رقم: 2706، 1938/05/06، موضوعها: بخصوص مساعدة حزب الشعب الجزائريّ لحزب الدستور الجديد، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

بباريس لإلحاح الإدارة الاستعماريّة بالجزائر بشأن إصدار قرار حلّ حزب الشعب الجزائريّ، فكان أن توقّفت المحاولة عند هذا الحدّ، فعندما عاود الوالي العامّ الكرّة مع وزير الداخلية[1]، في خصوص هذا الطلب، بعد ما يزيد عن سنة كاملة، يوم 1939/07/15، أشار إلى مراسلاته الثلاثة السابقة بتواريخها، ومراسلتي النائب العامّ إلى حافظ الأختام –السابقتين أيضا– بتاريخيهما، و لم يزد عليها[2].

ردّ أحد أعضاء المكتب المسيّر لحزب الشعب الجزائريّ بالجزائر، على رسالة لأحد مسؤولي الحزب بباريس، بتاريخ 11/03، تنتقد بلهجة عنيفة مسؤولي الحزب بالجزائر، بسبب انحسار نشاطهم، فكان ممّا جاء في ردّه القويّ ما يلي: «إنّكم تنسون كثيرا أنّنا نناضل ضدّ الإمبريالية وجها لوجه، وهي تتوفّر على وسائل تفوق التصوّر لإلحاق الضرر بنا، وللتضييق علينا، ولعزلنا عن مختلف طبقات الشعب. اسمحوا لي، أخي العزيز، أن أوضح لكم أنّ النضال في الجزائر أصعب بكثير من مثيله بمنطقة باريس، وعلى جميع الأصعدة. [...] بعد حرماننا من قادتنا، وذوي التجربة من مناضلينا، عرف نضالنا انخفاضا في وتيرته [... و] منذ صدور حكم محكمة النقض، وما ترتّب عنه من حلّ (ح.ش.ج)، نجد أنفسنا معرّضين للقمع لأيّ نشاط باسم الحزب، مهما كان نوعه. طبعا، ما زلنا نبقي على اتّصالنا بخلايا الحزب، ونجتمع كمكتب مسيّر كثيرا؛ غير أنّ نضالنا غير القانونيّ قد فقد طابعه العموميّ، وينتابه الارتياب والغموض. إنّ هذا الوضع خطير جدّا، وما البطء الذي نلاحظه إلاّ نتيجة من نتائجه. [../..] لم يتمكّن أصدقاؤنا من الردّ على ليو فانير (Léo Vanner)، لأنّه لا يمكنهم فعل ذلك باسم حزب لا وجود له من الناحية القانونيّة. [.../] بعض التجارب تفرض علينا أخذ الواقع بعين الاعتبار، ولهذا نقول لكم بصراحة وبشدّة أنّه لا يمكننا مواصلة النضال في مثل هذا الغموض، لأنّه سيؤدّي شئنا أم أبينا إلى اختناق الحزب. إنّنا نريد العمل في العلن، أمام الله، وأمام الرجال، ومثل هذا النضال لا يمكن أن يكون إلاّ بإنشاء حزب [...]. إذا فرضتم علينا العمل باسم (ح.ش.ج)، سنستجيب لذلك، غير أنّنا نحمّلكم مسؤولية جميع نتائج سياسة الأسوء هذه (Politique du pire)، لأنّ الحزب في الجزائر قد خسر الكثيرَ من المنخرطين فيه، والكثيرَ من نشاطاته بسبب الإبقاء على (ح.ش.ج) المنحلّ. [...] نذكر لكم مثالا واحدا: في هذه الأيّام، ستجرى انتخابات جزئية لتعويض مقعدين شاغرين في المجلس البلديّ بالجزائر. ولأسفنا الشديد، لا يمكننا دخول هذه الحملة الانتخابية باسم (ح.ش.ج)؛ وبالرّغم من ذلك سنقدّم مرشّحيْن، وسنقوم بدعايتنا، بحسب إمكاناتنا، وتحت تسمية ظرفيّة. إنّنا نعلمكم بأنّه يستحيل علينا تماما إيجاد قاعة، أو توزيع منشورات، أو القيام باجتماع، باسم (ح.ش.ج)»[3]. إنّ

---

[1]– والوزير آنذاك ألبير سارو (Albert Sarraut)؛ ينظر: حكومة إدوارد دلادييه (4)، (1939/05/11–1939/09/14)، ويكيبيديا، صفحة الأنترنيت: (http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Gouvernement_%C3%89douard_Daladier_(4)&oldid=28959261)، 2008/04/24.

[2]– ينظر: الرسالة، بإمضاء: لو بو (Le Beau)، رقم: 2922 S.P، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01؛ أرفق بها مشروع قرار حلّ حزب الشعب الجزائريّ، وثيقة من صفحة واحدة.

[3]– ينظر: تقرير لأحد مسؤولي (ح.ش.ج) (مكتب الجزائر) خلال نوفمبر 1938، نسخة مرقونة من الرسالة، وثيقة من أربع صفحات، 4I3،

هذه المقتطفات من الرسالة تبيّن بوضوح ما تحدّثنا عنه من سياسة القمع التي انتهجتها الإدارة الاستعمارية بالجزائر ضدّ حزب الشعب الجزائريّ آنذاك، وأثر ذلك على وتيرة نشاط الحزب؛ وتبّين فضلا عن ذلك أمرا أخطر، وهو أنّ هذه الإدارة تعاملت مع الحزب على أنّه قد تمّ حلّه فعلا، مستبقة الردّ من الإدارة المركزية بالإيجاب على مطلبها في هذا الشأن، وهو ما لم يتمّ في تلك الآونة؛ كما أنّها روّجت لفكرة إقرار محكمة النقض لهذا الحلّ، تخفيفا –ربّما– لوقع الإهانة التي حملها لها حكم هذه المحكمة، بعد استفراغ جهدها، وبكلّ الوسائل الممكنة والمتاحة، لمنع تطبيق نظام السجن السياسي على معتقلي هذا الحزب؛ كما تبيّن هذه المقتطفات من جهة أخرى قلّة خبرة مناضلي الحزب آنذاك –وهو ما صرّح به صاحب الرسالة نفسه–، فقد تعاملوا مع مسألة حلّ الحزب على أنّه واقع وحقيقة، بينما لم يتعرّض حكم محكمة النّقض لا من قريب، ولا من بعيد إلى هذه المسألة على الإطلاق[1]؛ وبالرغم من كلّ ذلك دخل الحزب الانتخابات متخفّيا، وفاز فيها مرشّحاه أحمد بومنجل، ومحمد عبّاس[2].

أثر وفاة والد مفدي زكرياء في نفسه:

لقد سبق وأن أبّنا عن حالة مفدي النفسية، بعد شهر من دخوله السجن، من خلال رسالته إلى صديقه الحميم محمد العريبيّ، في أواخر شهر سبتمبر 1937[3]، ويغلب على ظنّنا أنّ معنوياته ومعنويات رفاقه بقيت مرتفعة بفعل نشاط الحزب خارج السجن، إذ يرى فيه المعتقَل نضاله وقد أتى بثماره، ولم يكن صرخة في واد، خاصّة وأنّ الحزب جعل من اعتقالهم، وظروفه، وصيرورة محاكمتهم محور نشاطه، وقد سبقت أمثلة كثيرة على ذلك، ونتوقّف هنا عند أمثلة أخرى، لم نتعرّض إليها استكمالا للصورة: يقول مصّالي الحاج عن مساندة الجزائريّين له ولزملائه في إضرابهم عن الطعام ما يلي: «بذل مناضلونا والمتعاطفون معنا جهودهم بلا هوادة، لإحاطة الجماهير الشعبية علما بسيرورة وتطوّرات الإضراب عن الطعام. مئات من الجزائريّين كانوا يأتون في مجموعات صغيرة، ليقفوا تحت أسوار السجن، وينشدوا أناشيد وطنية؛ كانوا يشجّعوننا، وينادون بأسمائنا الواحد تلو الآخر»[4]. وفي شهر جانفي 1938، أصدرت جريدة "الأمّة" الباريسيّة بطاقتين لمساندة المعتقلين، بيعت كلّ منهما بفرنك واحد[5]: في وسط البطاقة صورة مصّالي في الأولى، وصورة مفدي في الثانية، وتحت الصورتين في البطاقتين صورة صغيرة زكرياء، وصورة مصّالي علي؛ وفوق صورة مصّالي صور: لحول وغرّافة وبرزوق، بينما

(CAOM)، ص01–03.

1– ينظر: نصّ حكم محكمة النقض، القضية رقم: 663، 1938/05/31، 4I3، (CAOM).

2– ينظر: حزب الشعب الجزائريّ16.

3– ينظر: ص276، 277.

4– ينظر: مذكّرات مصّالي حاج267.

5– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 561، 1938/01/27، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وقد تحدّث التقرير عن بيع (ح.ش.ج) بطاقات التضامن هذه خفية في الجزائر فقط.

أخذت صور: موساوي ومعروف وخليفة مكانها فوق صورة مفدي؛ وعلى يسار صورة مصّالي ومفدي في البطاقتين هذا النصّ باللغة العربية: «أيّها الشعب الجزائريّ، ماذا فعلت لأبناء وزوجات المسجونين الذين حبسوا لأجلك، وعذّبوا لقيامهم بالدفاع عنك، والنضال عن حقوقك؟ فالواجب يقضي عليك أن تمدّ لهم يد الإعانة، وأن تقيهم شرّ الفاقة والجوع»، ووضع مقابله باللغة الفرنسيّة على يمين الصورتين، وكان أكثر اختصارا[1].

وبفعل هذا النشاط تجاوزت شهرة حزب الشعب الجزائري حدود الجزائر إلى خارجها، وعلى سبيل المثال نجد "الرابطة العربيّة" تقدّم «زعيمي الوطنيّة الجزائريّة مصّالي ومفدي في عبارات تحمل الكثير من التمجيد؛ ففي عددها رقم: 79، بتاريخ 19 جانفي 1938، نشرت مجلّة "الرابطة العربيّة" صورتي مصّالي ومفدي، وكتب صاحب المقال "علي صنهاجي" يقول:

«أرى من واجبي أن أعلم القراء بهذين المناضلين، ليبقوا على اتّصال روحيّ مع إخواننا في المشرق العربيّ، إنّه مفيد أن نحيطهم علما بالجهود المبذولة من الجزائريّين قصد جعل وطنهم مستقلاّ[...]: جمع مصّالي عند وصوله إلى الجزائر من حوله الأوفياء، ونجد على رأسهم مفدي زكرياء[...]». وأضاف الكاتب متحدّثا عن هذا الأخير: «إنّه يتّقد وطنيّة وعزما: كان يعدّ في تونس من أعضاء الحزب الدستوريّ، في أيّامه الصعبة. وعندما شهدت الجزائر ميلاد الحركة الوطنيّة من أجل الاستقلال، كان مفدي أحد أكبر مناضليها، وأصبح الساعد الأيمن لمصّالي الحاج في نشاطه وكفاحه. لقد ابتلي عدّة مرّات في سبيل اللّه، وفي سبيل قضية الشمال الإفريقيّ. والآن هو مثقل بالأغلال، رهن الاعتقال بسجن بربروس، عسى اللّه أن يفكّ أسره [...]»»[2].

كلّ ذلك قد أسهم –في تقديرنا– في الإبقاء على معنويات مفدي زكرياء مرتفعة نسبيّا، وممّا يشهد على ذلك مقطوعته التي استقبل بها المجموعة الثالثة من قادة حزب الشعب الجزائري، في بربروس، يوم 1938/02/25، كما مرّ[3]، وذلك حيث يقول:

«يناجيــكمُ في السّجنِ قــلبي ووُجداني: (قَنانشُ)، (عبدُ اللّهِ)، (كحّالُ)، (حيوَانِي)
وأُهدي إلــيــكمْ مِــن عـــريني تحيّةً، أبثُّ بها شــوقي إليكمْ، وتَحْـنَــانـي
هنيئًا لكمْ يـا قــادمون، ومــرحــبًــا، وأهــلاً وســهــلاً يــا ميامينَ قَحْطَانِ
لقد تــاهَ مــنكمْ (بَرْبَــرُوسُ) مُفاخــرًا، وقامَ على أبــوابِــكم ألــفُ شَــيْطَانِ
بيوتٌ يغشّــيها الــوقــارُ، كــأنّــهـــا –وقد حملتْ أرواحَكمْ– خُــلْدُ رِضْوَانِ

1- ينظر: البطاقتان مطبوعتان على وجه واحد، 3cab43، (CAOM)؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة، الملحق125.

2- ينظر: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة41؛ وتقرير عن محتوى المقال، وترجمة لبعض مقاطعه، وهو بعنوان: الحركة الوطنية في الجزائر: معلومات عن اثنين من مناضليها، (CIE) الجزائر –على الأرجح–، غير مؤرّخ، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

3- ينظر: ص309.

وقد غيّبوكمْ في بيوتٍ، كأنّها مـحاريبُ طهرٍ في معابدِ رُهْبَانِ
وصرحٌ يُباهي النّاطحاتِ مناعةً، ويفخرُ في الدّنيا على صرحِ هَامَانِ
يطوفُ على أسوارِهِ ألفُ ماردٍ، على ألفِ جنٍّ مِن جُنُودِ (سُلَيْمَانِ)
أُعِدَّ جزاءً للّذين تقدّموا ضحايا جهادٍ في سعادةِ أَوْطَانِ
لِيَهْنِكُمُ في (بَرْبَرُوسَ) مُرَاغَمٌ، ومَن عشقَ الحسناءَ فازَ بِإِحْسَانِ»[1].

ولّما تمّ اللقاء بينه وبين صديقه قنانش، في سجن بربروس، سأله عن إنتاجه الشعريّ في السجن، فأجاب بأنّه لم يكتب سوى نشيد "اعصفي يا رياح"، الذي أصبح نشيد السجن، ومقطوعات صغيرة، منها أبيات كان يهدهد بها قطّة صغيرة كانت معه في مستوصف السجن، ومطلعها:

نامي (عزيزةُ) نامي كمْ لذّةٍ في المَنَامِ[2].

ولّما طرح عليه صديقه أبو اليقظان عيسى بن الحاج إبراهيم نفس السؤال، في أواخر شهر جويلية 1938، وهو في سجن ميزون كاري، أجابه قائلا: «طلبتم منّي أن أرسل إليكم ما عندي من منتوجات الشعر والنثر، ومن الأسف فإنّ قريحتي المكدودة أصيبت بالإعسار في هذا السجن، وقد استعضت عن الشعر الناطق بالشعر الصامت، حتّى أصبحت شعرا بنفسي، وأصبحت قصيدة مطلعها:

لم يبق إلاّ نفس خافت، ومقلة إنسانها باهت
و[لم يزل][3] تضرم أحشاؤه بالنّار إلاّ أنّه ساكت
يرثي له الشامت فيما أرى، يا ويح من يرثي له الشامت».

ومع ذلك لم يردّ صديقه عيسى خائبا، فأرسل إليه طيّ رسالته أنشودة "عزيزة" التي ذكرنا مطلعها سابقا، وحول ظروف كتابتها يقول: «نظمتها في إحدى ليالي الوحشة، وأنا أسامر قطّتي بالسجن «عزيزة»، أيّام كنت أعالج مرضا بمستشفى "بربروس"، وقد وضعت لها لحنا شجيّا، يناسب تقاطيعها»[4].

بين الواقعتين أشهر، لم يأت فيها بجديد يمكن أن يسعف به صديقه أبا اليقظان، وفقدت نفسه خلالها الكثير من تماسكها، فنجده في رسالة أخرى إليه، بتاريخ 1938/08/23، يعقّب على إخباره بموعد خروج غرّافة إبراهيم من السّجن، بقوله: «آه ما أجمل الحرية وما أحلاها !! رحماك اللّهمّ رحماك !! وإنّني أرجوكم أن تشرّفوني ببعض كلمات من طرفكم، من حين إلى حين، فإنّه لا يمكنكم أن تتصوّروا مقدار ما يحصل من الفرح للسجين، إذا قرأ

1- حزب الشعب الجزائريّ261.

2- ينظر: حزب الشعب الجزائريّ269.

3- زيادة يقتضيها الوزن والمعنى، ولم يرد في الأصل، كما نصّ عليه محمد ناصر في الهامش؛ ينظر: مفدي زكرياء79 ها22.

4- هذا النصّ وسابقه من: مفدي زكرياء71. والرسالة غير مؤرّخة، وهي من أوائل رسائله إلى صديقه، ويكون قد كتبها -تقديرا- في أوائل شهر أوت 1938.

رسالة من أخيه الحرّ الطليق، سيّما من مثلكم إلى مثلي»[1].

لم يكن مفدي ممّن يكشف بسهولة ويسر مكنون نفسه، خاصّة فيما يمكن اعتباره ضعفا في الإنسان، لا يحسن أن يراه غيره، ويستره حتّى عن أقرب الناس إليه، و لم يكن ممّن يفسح مجالا للتعبير عنه في كتاباته الأدبية، إلاّ في القليل النادر، إذ كان يصدر فيها -في الأغلب الأعمّ- عن الوطن وهمومه، لا عن همومه الشخصية مهما اشتدّت وطأها على نفسه؛ وعليه فليس من العسير أن نرى في العبارات الوجيزة السابقة دلالة واضحة على أزمة نفسية حادّة مرّ بها مفدي في الشهور القليلة الماضية، ووجد بعض التخفيف من حدّتها، عند استفادته وزملائه من نظام السجن السياسيّ الكامل، بما يتيحه من إمكانات الاتّصال بخارج السجن، تنسيه همومه، وتجنّبه مواجهتها صباح مساء.

لا بدّ وأن يكون لإحساسه بطول مدّة السجن من جهة؛ وانخفاض وتيرة نشاط الحزب، بداية من أواخر شهر أفريل، بما يرافقه من إحساس المعتقَل أنّه قد عفا عليه النسيان في زنزانته، ولا يهتمّ لأمره أحد، من جهة أخرى، نصيب في هذه الأزمة؛ غير أنّه لا يمكن -في رأينا- اعتبار هذين العاملين حاسمين في هذا الصدد، فقد كان مفدي يتمتّع بشخصية قويّة، غير أنّ هذه الشخصية الصلبة لم تستطع الصمود أمام حدث وفاة والده، وهو لا يزال ناقما عليه انغماسه في العمل السياسيّ. إنّ هذه الأزمة هي -في اعتقادنا- إحدى أبرز الأزمات التي مرّ بها في حياته، أثّرت فيه تأثيرا بليغا، فكانت إحدى منعرجات حياته الكبرى:

في يوم الأربعاء 16 مارس 1938، توفّي والد مفدي، الشيخ سليمان بن يحي بن الحاج سليمان، وعمره سبعون سنة[2]؛ ووصل خبر وفاته إلى أوساط حزب الشعب الجزائريّ يوم 03/17 بعد يومين من وصول خبر وفاة والد مصّالي الحاج بتلمسان، يوم 03/15[3]، فأصدرت اللجنة المسيّرة بالجزائر منشورا جديدا، جاء فيه ما ترجمته كالآتي: «إنّها لمصادفة فريدة أن تتزامن بفارق يوم واحد، وفاة ذينك الشيخين، اللّذيْن كانا محترمين بقدر طعنهما في السنّ؛ في حين كان فيه ابناهما مصّالي وزكرياء بعيدين عنهما، محرومين من الوداع الأبويّ الأخير، يتحمّلان ببطولة في زنزانتيهما ببربروس اعتقالا جائرا بقدر ما هو تعسّفي [...]. يا مصّالي، ويا زكرياء، يا بطلي قضيتنا، إنّ الشعب الجزائريّ الممتنّ لكما، يشاطركما المحنة التي أصابتكما بفقدان أبويكما الماجدين، الذين ماتا كلاهما على عقيدة محمد وسنّته، ويؤكّد لكما أكثر من أيّ وقت مضى دعمه وتعاطفه»[4].

1- مفدي زكرياء273.

2- ينظر: سجلّ البريد الصادر 1935-1939، المراسلة رقم: 149، 1938/03/18، أرشيف القيّاد. وذكر فيها أنّ عمره حين وفاته 72 سنة، وصوابه ما أثبتناه بالنظر إلى تحديد تاريخ مولده؛ ينظر: الباب الأوّل، ص52 ها05.

3- يقول في ذلك قنانش: «وفي يوم 16 مارس، وصلنا في السجن نعي والد مصّالي الحاج، ومن الغد نعي والد مفدي زكرياء، وقد طلبا من الإدارة السماح لهما بتشييع جنازة والديهما، ولكن بدون جدوى. وهذا النوع من المعاملة كان معروفا [يعني: معمولا به] في فرنسا للمعتقلين السياسيّين» حزب الشعب الجزائريّ270.

4- طبع من هذا المنشور 3.000 نسخة؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 2010، 1938/03/24، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ،

وفي مقال بعنوان "(ح.ش.ج) في حداد"، علّقت جريدة "الأمّة" الباريسيّة على هذا الحدث، بقولها: «بعد اتحادّهما في الكفاح، وفي آلام السجن، أبى القدر إلاّ أن يوحّدهما في هذا الحداد. لقد اقتلعهما واجب الكفاح ضدّ الإمبريالية من دفء الحياة بين ذويهم، وأرغمهما على التخلّي عن أبنائهما ووالديهما المسنّين، من غير سند، ولا عون؛ لقد عاش مصّالي وزكرياء ببربروس، إثر هذا المصاب، أصعب محنة مرّت بهما في حياتهما النضالية»[1].

يبدو أنّ وفاة والد مفدي كانت مفاجئة، فقد كان في السبعين من عمره؛ وفي العشرين من شهر فيفري 1938، نجده يمضي عقد إيجار لمحلّ له بعنابة، لمدّة 12 سنة قادمة[2]، ووجدنا مع العقد ورقة كتبها بخطّه، في نفس التاريخ[3]، فلم يظهر على خطّه أثر لشيخوخة متقدّمة، أو لتأثّر بمرض من أمراضها، ممّا قد يدلّ على دنوّ أجله؛ وعليه، فإنّ خبر الوفاة لا بدّ وأن يكون صدمة قويّة لمفدي زكرياء، خاصّة وأنّه توفّي وهو على خلاف حادّ معه، توضّحه -كما سبق بيانه[4]- رسالة والده القاسية إليه في أوائل جويلية 1937، ورسالة مفدي إلى زعيم الأمّة الميزابية، السيّد زكري بن سعيد، يوم 1937/07/04، رافضا فيها الانصياع لأوامر والده، قائلا في ختامها: «وإذا أراد أن يبقى على أفكاره، [فاتركوه]، فإنّي سأقطع كلّ علاقة بميزاب، سواء كانت عائليّة أو غير عائليّة، وسأسيح في أرض اللّه مجاهدا عن بلادي ووطني، واللّه يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور. وإنّني أترقّب جوابكم -حفظكم اللّه-، لأنظر لنفسي أيّ طريق أسلك، فلست أنا أوّل ضحيّة من ضحايا جنايات الآباء على الأبناء، وعند اللّه تجتمع الخصوم»[5].

لقد استبعدنا سابقا انتهاء وساطة السيّد زكري بن سعيد بينهما إلى نتيجة، ويغلب على ظنّنا أنّ مفدي استمرّ في نضاله، مدفوعا بإيمانه الراسخ بقضية وطنه، وبفورة حماسه لأحداث التاريخ التي كان يسجّلها ورفقاؤه في الكفاح السياسيّ آنذاك، على أمل أن يقتنع والده في يوم من الأيام بوجهة نظره، فيصفح عنه، ويرضى عنه، فأتى موته مفاجئا ليقتل هذا الأمل في نفسه، فلا يمكن -والحال هذه- إلاّ أن

2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة.

1- ينظر: قصاصة المقال، من غير إمضاء، جريدة "الأمّة" الباريسيّة، ليوم 1938/04/01، 3cab45، (CAOM). وينظر تأثّر مصّالي الحاج بوفاة والده، وكان عمره يزيد على القرن: مذكّرات مصّالي حاج272، 273.

2- هذا المحلّ هو دكّان وما خلفه، بشارع قومبيطا (Gambitta)، رقم: 05؛ أجّره للسيّدين الشقمة بكير بن سليمان، وشريكه بباعلي داود بن الحاج عمر بن بباعيسى، ابتداء من 1938/05/01 إلى 1950/04/30، وكان إمضاء هذا العقد ببني يزقن؛ ينظر: عقد إيجار (Bail)، ضبطية مصالح تركة الشيخ سليمان بن يحي اليسجنيّ، وولديه الشيخ محمد وزكرياء، أرشيف القضاة، وثيقة من صفحتين في ورقة مكتوبة باللغة الفرنسية وجها وظهرا، ص01.

3- ينظر: ورقة مكتوبة بخطّ الشيخ سليمان بن يحي، ضبطية مصالح تركة الشيخ سليمان بن يحي اليسجنيّ، أرشيف القضاة، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ينظر تفصيل هذا الخلاف: الباب الثاني، ص227-230.

5- تنظر الرسالة: أرشيف السيّد زكري بن سعيد الخاصّ، ببني يزقن.

يؤثّر فيه تأثيرا بليغا حادّا، وأن يزعزع أكثر قناعاته قوّة وثباتا.

ثمّ إنّ موت والده زاد في سوء وضعيته الاجتماعية والماديّة، فهو في السجن، وكان متزوّجا، وأبا لطفلة لا تزيد على 15 شهرا آنذاك، ففي بطاقة معلومات أنجزها قائد بني يزقن عنه، بتاريخ 1937/10/19، ذكر أنّه لا يملك شيئا، وعن تحسّن حالته مستقبلا أجاب: لا ندري[1]؛ وذكر في البطاقة التي أنجزها بتاريخ 1938/08/29، أنّ ما يكسبه هو نصيبه من إرث والده، وهو الآن تحت يد قاضي بني يزقن؛ وعن إمكان تحسّن حالته مستقبلا أجاب: نعم بما يرثه من أبيه[2]؛ فهل تحسّنت حالته فعلا بما سيرثه من والده؟

اتّفق ورثة الشيخ سليمان بن يحي عن طريق وكلائهم، يوم 1938/08/24، على «بيع جميع مخلّفات الموروث غابة وقصرا، أصلا ومنتقلا، على يد المحكمة بالمناداة والدلالة والمزايدة [...] وما يتحصّل من قيمة المبيع سواء من عقّار في التلّ[3]، أو ممّا يتحصّل في بني يسقن، فيضبط، ويحصر لدى الشيخ القاضي بعد إحضار المبالغ له [...] وبعدها تقع القسمة فيه بطريق شرعيّ»[4]؛ وهكذا بيعت دار الفقيد، في حيّ طالمت، داخل بلدة بني يزقن، حيث كان يسكن مفدي زكرياء وعائلته، بتاريخ 1938/10/26، فاشتراها صهره، محمد بن بلحاج مرغوب[5]، أخ زوجه؛ وعندما وقع تقسيم تركة الفقيد، بعد تمام البيع، بتاريخ 1939/01/25، كان نصيب مفدي زكرياء من ميراث والده: 10841 فرنكا، و66 سنتيما[6]؛ مع منع صرف المبلغ لصاحبه بسبب الاعتراضات عليه (Oppositions) من غرمائه في شركة "زكرياء وعبد الجبّار"[7]، وهم: قاضي محكمة الإباضية بعمالة الجزائر، عبد الجبّار محمد بن الحاج عبد الله[8]، برسالتين: الأولى في 1938/04/25[9]، والثانية في 1939/01/14[10]؛ ولاسكار

1- ينظر: سجلّ البريد الصادر 1935-1939، المراسلة رقم: 556، 1937/10/19، أرشيف القيّاد.

2- ينظر: سجلّ البريد الصادر 1935-1939، المراسلة رقم: 497، 1938/08/29، أرشيف القيّاد.

3- إلاّ أنّ بيته في عنابة لم يبع، رغم العزم على بيعه كغيره من ممتلكات والد مفدي؛ ينظر: رسالة بوشلاغم سليمان بن عمر بن داود إلى قاضي بني يزقن بوفارة، 1938/10/07، ضبطية مصالح الشيخ سليمان بن يحي، أرشيف القضاة، وثيقة من صفحة واحدة؛ وفيها تقرير عمّا فعله في شأن بيع دار الفقيد بعنابة.

4- سجل العقود126، عقد رقم: 88، 1357/06/27هـ، 1938/08/24م، أرشيف القضاة، ص143-146.

5- ينظر: سجل البيوع32، عقد رقم: 107، 1357/09/01هـ، 1938/10/26م، أرشيف القضاة، ص144، 145.

6- ينظر: سجل العقود129، عقد رقم: 08، 1357/12/04هـ، 1939/01/25م، أرشيف القضاة، ص09-11.

7- ينظر إفلاس هذه الشركة: الباب الأوّل، ص144-154.

8- هو شقيق شريك مفدي في الشركة المذكورة، وفيما تلاها من نشاط تجاريّ، وهو: عبد الجبّار عمر بن الحاج عبد الله.

9- ويتضمّن دينا له لدى شركة "زكرياء وعبد الجبّار" بقيمة: 3021 فرنكا و95 سنتيما؛ بالإضافة إلى قرض جود وإحسان لهما بقيمة 7570 فرنكا؛ ينظر: الرسالة، ضبطية مصالح الشيخ زكري بن سليمان، أرشيف القضاة، وثيقة من صفحة واحدة.

10- أضاف إلى دينه لدى الشركة في هذه الرسالة الثانية مبلغ 755 فرنكا و20 سنتيما؛ ينظر: الرسالة، ضبطية مصالح الشيخ زكري بن سليمان، أرشيف القضاة، وثيقة من صفحة واحدة.

(Laskar)، بتاريخ 1938/05/17[1]؛ وإيلي غزلان جون (Elie Gozlan Jeune)، برسالة مؤرّخة في 1938/05/27[2]؛ ونوح مفنون بكير، في 1938/10/07[3]؛ ومجموع ديون هؤلاء على شركة "زكرياء وعبد الجبّار" هو: 16859 فرنكا و50 سنتيما؛ بالإضافة إلى قرض جود وإحسان لشراكتهما الجديدة[4] –على الأرجح– بقيمة: 7570 فرنكا.

وفي 1939/01/12، أرسل السيّد: بسخواض بكير بن داود، اعتراضا سادسا، يتضمّن دينا له على مفدي بقيمة 68770 فرنكا و25 سنتيما، مقابل أوراق وسلعة وحساب مصروف؛ وعقد اعتراف بدين لدى الموثّق بريسدو[كذا]، بقيمة 20000 فرنكا[5]؛ وبسبب هذه الاعتراضات لم يستطع أخذ هذا النصيب الزهيد من إرث والده، مقارنة بحجم الديون المسجّلة عليه، أو عليه وعلى شريكه عبد الجبّار، شهورا عديدة بعد خروجه من السجن، وهذه الديون تساوي مجتمعة: 113199 فرنكا و75 سنتيما، من غير حساب غرامات الدولة في بني يزقن، وفي الجزائر[6].

وعليه فإنّ وفاة والد مفدي كانت بالنسبة إليه –في تقديرنا– كابوسا مؤرّقا في تلك الفترة، وبعدها؛ فعندما يسأله عبد المجيد بن جدّو عن علاقاته العاطفية بأفراد عائلته، بعد ما يقارب الثلاثين سنة، لا يذكر من ذكرياته مع والده سوى واقعة خلافه معه، فيقول: «عندي ذكريات مع والدي رحمه الله: كان ينهاني عن السياسة، وعن الاشتغال بالسياسة، وكان يخشى عليّ كثيرا؛ وعندما دخلت السجن، في سنة [1937][7]، كان والدي حيّا – رحمه الله–، فكان يكاتبني برسائل، ويقول لي: ما حملك على هذا يا زكرياء؟ وجاء مرّة لزيارتي، فقال: أَحَكموا عليك بالسّجن سنتين؟ فقلت: اعتبرني ذهبت إلى الحجّ، وجاورت في الكعبة سنتين؛ وانفجر باكيا. وبعد شهرين أو ثلاثة جاءتني برقية تخبرني بوفاته، وأنا في السجن، في أعماق بربروس»[8].

---

[1]– تاجر، بشارع فيلار (Vialar)، رقم: 04، بالجزائر؛ وله دين على شركة "زكرياء وعبد الجبّار" مقداره: 1500 فرنكا؛ ينظر: الرسالة، ضبطية مصالح الشيخ زكري بن سليمان، أرشيف القضاة، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]– تاجر كتّان وحرائر، بشارع هنري مارتن (Henri Martin)، رقم: 20، بالجزائر؛ وقيمة دينه لدى شركة "زكرياء وعبد الجبّار" هو: 10785 فرنكا و80 سنتيما؛ ينظر: الرسالة، ضبطية مصالح الشيخ زكري بن سليمان، أرشيف القضاة، وثيقة من صفحة واحدة.

[3]– تاجر، بشارع لا لير (La Lyre)، رقم: 29، بالجزائر؛ وله على شركة "زكرياء وعبد الجبّار" دين قيمته: 796 فرنكا و55 سنتيما؛ ينظر: الرسالة، ضبطية مصالح الشيخ زكري بن سليمان، أرشيف القضاة، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]– أعني بها: كريمري رويال (Crémerie Royale)، بشارع لا لير، رقم: 39، بالجزائر؛ ينظر: الباب الثاني، ص158.

[5]– بسخواض بكير تاجر بمحلّه المشهور "لا روز بلانش" (La Rose Blanche)، بشارع لا لير، رقم: 29؛ ينظر: الرسالة، ضبطية مصالح الشيخ زكري بن سليمان، أرشيف القضاة، وثيقة من صفحة واحدة.

[6]– ينظر: عدّة رسائل، ضبطية مصالح الشيخ زكري بن سليمان، أرشيف القضاة.

[7]– ذكر سنة 1936، وهو خطأ صريح.

[8]– نقلت بعض العبارات الواردة في الحديث بالعامية إلى أقرب صورة لمعناها ومبناها بالفصحى؛ ينظر: زيارة خاطفة، حصّة في الإذاعة التونسيّة، لعبد المجيد

وإذا كانت هذه القصّة التي رواها مفدي تدلّ دلالة قويّة على حضور هذه الذكرى الأليمة في نفسه بعد عقود من وقوعها، فإنّه لا ينبغي أن نغفل عن التحوير الذي أجراه مفدي على الوقائع، ويتمثّل في الرسائل التي تلقّاها من والده، وهو في السجن، وزيارته له هناك، فهو ممّا لم يقم عليه دليل، وتوجد أدلّة عديدة على عكسه، ولذلك نرى فيه محاولة منه للتصالح -ولو وهميّا- مع ضميره، وتجنّبا منه لوخزاته الحادّة، كلّما تذكّر خلافه مع والده، لأنّه كان صاحب ضمير حيّ؛ فسؤال محاوره لم يكن فيه ما يجبره على الجواب بمثل ما ذكره، ولا على الحديث في هذا الموضوع أصلا، ممّا يمكن تفسيره باضطراره للكذب سواء على محاوره، أو على المستمعين.

أمّا أدلّتنا على استبعاد زيارة والد مفدي له في السجن، فهي كالآتي:

إنّ الخلاف لم يكن في بدايته، وإنّما بلغ ذروته في الرسالة التي بعثها إليه والده، فقد كانت لهجتها جدّ عنيفة، وهو ما جعل مفدي في جوابه يعزم على قطع كلّ علاقة له بمزاب، سواء أكانت عائلية، أو غير عائلية؛ كما أنّ وقائع تقسيم التركة، تكاد تفصح بأنّ موقف عائلة مفدي "آل الشيخ" كان من موقف فقيدها، فهو كبيرها ومقدّمها؛ فالذي وقف إلى جانب مفدي هو صهره، محمد بن بلحاج مرغوب، ليكفل لأخته، زوج مفدي، بيتا تأوي إليه ببنتهما الوحيدة؛ ووصيّه ووكيله لدى الإدارة الاستعمارية في الجزائر، هو السيّد بسخواض بكير بن داود، مع وجود الأخ الشقيق والعمّ ... إلخ، فكان يزوره في السجن، ويقوم على شؤونه المختلفة وحاجاته، وقام بجهد معتبر لرفع اعتراضات دائنيه، الواحد تلو الآخر[1]؛ وهذا الموقف من السيد بسخواض إذا كان ممّا يفسّره فضلا عن كونه إنسانا خيّرا، خؤولة بعيدة بعض الشيء تجمعه بمفدي[2]، وعلاقة سابقة به في ميدان التجارة، تشهد لها ديونه الكثيرة لديه، فإنّه يفسّره أيضا صداقة حميمة بصهر مفدي، فقد كان ينزل عنده في زياراته للجزائر[3].

إنّ آخر مرّة استصدر فيها الشيخ سليمان بن يحي تصريحا للسفر خارج مزاب، كانت وجهته مدينة عنابة، في 1926/11/08[4]، ولم يظهر أثر له في سجلاّت تصاريح السفر بعد هذا التاريخ إلاّ وكيلا على جلّ المسافرين من عائلة آل الشيخ، يدفع عنهم الإتاوات المفروضة عليهم مدّة غيابهم؛ وقد توقّف العمل بهذه التصاريح ببني يزقن

بن جدو، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون" سنة 1966.

1- ينظر: رسالة بسخواض بكير إلى قاضي بني يزقن، 1939/10/24، ضبطية مصالح الشيخ زكري بن سليمان، أرشيف القضاة.

2- لقد سبق الحديث في إحدى رسائل الشيخ أبي اليقظان عن صالح بن موسى بن الحاج إبراهيم بسخواض، وعيسى بن الحاج إبراهيم بسخواض، على أنّهما ابنا خالة مفدي؛ ينظر: الباب الأوّل، ص123، وها07. وبكير بسخواض هو بكير بن داود بن الحاج إبراهيم، فيكون هو أيضا بالضرورة ابن خالة مفدي، وهذه الخؤولة على مستوى زوجة الجدّ الحاج إبراهيم، وهي مامة بنت داود، ولم أقف على أختها من ناحية مفدي.

3- ينظر: معلومات عن أشخاص طلب مفدي زكرياء ترخيصا لزيارته في السجن، بتاريخ 1938/07/24، (CIE) الجزائر -على الأرجح-، 1938/08/09، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

4- ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف قيّاد بني يزقن، ص256.

في أواخر أكتوبر 1937[1]، فلا نستطيع التأكّد من سجلاّتها على سفر الشيخ سليمان بن يحي لزيارة ابنه في السجن من عدمه، خاصّة وأنّ هذا السفر يفترض وقوعه بعد صدور الحكم عليه بالسجن لمدة سنتين، وكان ذلك في 1937/11/04؛ غير أنّنا لاحظنا وضع أفراد عائلة مفدي ببني يزقن تحت الرقابة، في تلك الآونة، فكانت حركاتهم وسكناتهم تحظى بمراسلات خاصّة من قائد بني يزقن إلى حاكم ملحقة غرداية، وغنيّ عن البيان دور نشاط مفدي السياسي -نسبيّا- في فرض مثل هذه الرقابة، وهو ما يفسّر بعضا من موقف الحياد اتّجاهه بعد وفاة والده؛ من ذلك رسالة القائد إلى الحاكم يستئذنه في الاستجابة لطلب الشيخ محمد بن عيسى بن محمد بن يحي، حفيد عمّ مفدي، تصريحا بالسفر إلى تونس، لمواصلة دراسته[2]، وعمره 15[3]، وطلبات التصريح بالسفر إنّما كان يبتّ فيها القائد في الأغلب الأعمّ؛ وبناء على ما سبق نستبعد سفر والد مفدي نفسه إلى الجزائر، مع عدم وجود أدنى أثر لذلك في مراسلات أو تقارير، إن في ملحقة غرداية، أو في عمالة الجزائر.

وإذا كانت زيارة معتقلي (ح.ش.ج) بسجن بربروس، غير ميسّرة حتّى بعد إقرار نظام السجن السياسيّ الكامل لهم، كما تشهد لذلك رسالة احتجاج محاميهم جورج ديسبون (Georges Desbons) إلى الوالي العامّ، بتاريخ 1938/10/23[4]، فكيف يكون الأمر بالنسبة لزيارة مصّالي ورفاقه بسجن بربروس، حين كانوا يستفيدون من نظام السجن السياسيّ فيما عدا الزيارات والمراسلات، ومنه قول مدام مصّالي في رسالتها إلى أحد مسؤولي الحزب بتلمسان، بتاريخ 1938/03/12: «ما زال حضوري -للأسف- ضروريّ بالجزائر، ولوقت طويل، لأنّ الرجال [وتعني: زوجها ورفاقه] لا سبيل لهم للاتّصال بخارج السجن غيري، ومن واجبي أن أخدمهم، وأن أساعدهم على تحمّل هذه التجربة القاسية»[5]؛ ثمّ إنّ السيّد بسخواض بكير بن داود لمّا تعيّن وصيّا على مفدي، بعد وفاة والده في مارس 1938، لم يمكنه إلى تاريخ 1938/08/09، أن يزور مفدي سوى مرّتين، بعد مساع من محاميه سيرنا (Serna) لدى النيابة العامّة بالجزائر، وقد ساعدته سمعته الطيّبة في هذا الأمر كثيرا، باعتباره أحد أكبر تجّار الجزائر آنذاك[6]؛ وعليه، فمن المستبعد جدّا في نظرنا -والحال هذه- أن تسمح النيابة العامّة، مع ما تميّزت به

1- كان آخر تصريح رُقم في سجلاّت التساريح، 1937/10/28؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1929-1937، أرشيف قيّاد بني يزقن، ص176.

2- ينظر: سجلّ البريد الصادر 1935-1939، المراسلة رقم: 498، 1937/09/17، أرشيف القيّاد.

3- وقد سجّل وكيلا عليه الشيخ سليمان بن يحي، والد مفدي؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1929-1937، أرشيف قيّاد بني يزقن، ص174.

4- يمثّل لذلك بما حدث لوالدي كلّ من بلبرهان وبرزوق، اللذين قطعوا مئات الكيلومترات لزيارة ابنيهما، فلم يحظوا إلا بزيارة واحدة، لم تزد على خمس دقائق، والقضبان تفصل بينهم؛ ينظر: الرسالة، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

5- ينظر: مقتطف من رسالة وجّهتها مدام مصّالي، يوم 1938/03/12، إلى المدعوّ بن عصمان، الساكن بتلمسان، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ينظر: معلومات على الأشخاص الذين تقدّم مفدي زكرياء بطلب الترخيص لهم بزيارته في السجن، 1938/08/09، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، ص02.

آنذاك من غطرسة وطغيان، لوالد مفدي أن يزور ابنه في السجن، وهو -أعني: الوالد- لا يزال إلى حين وفاته مسجّلا في الدفتر "B"[1]، وينتمي في نظر الإدارة الاستعمارية إلى عائلة "مشبوهة سياسيّا"، لم تسلم حتّى تنقّلات مراهقيها من الرقابة.

إذا استبعدنا زيارة الشيخ سليمان بن يحي لمفدي في السجن، فإنّنا لا نملك استبعاد رسائل منه إليه، غير أنّنا نستبعد ما توحيه عبارة مفدي من كون هذه الرسائل والزيارة قد أعادت العلاقة بين الوالد والابن إلى سابق عهدها من التوافق؛ ذلك أنّ مفدي تغيّر في السجن، وبعد خروجه منه أيضا، بما يفسّر عدم حصول الوفاق بينه وبين والده قبل وفاته، فلا شيء يفسّر هذا الجمود غير المسبوق لقريحته الشعريّة في السجن غيره، فقد قلّ إنتاجه الشعريّ إلى درجة رهيبة، وامتدّ سنوات عديدة بعد خروجه من السجن: إنّ القصيدة الشعرية التي أعدّها لاستقبال الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ، لدى عودته من المنفى، كانت آخر قصيدة أنشأها قبل دخوله السجن، وترجع إلى النصف الثاني من شهر جوان 1937 تقديرا[2]، أي قبل رسالة والده في أوائل جويلية، وفي فترة السجن الطويلة إلى خروجه منه لم ينشأ سوى مقطوعتين، الأولى في قطّته "عزيزة"، والثانية في استقبال الفوج الثالث من زعماء الحزب في بربروس. أمّا نشيد "اعصفي يا رياح"، فقد ورد مقطع منه في آخر محاضرته التي ألقاها في المعهد الخلدونيّ، بتونس، بتاريخ 1937/06/18، وهو أقوى دليل على أنّ نظمه لهذا النشيد إنّما كان قبل دخوله السجن[3]؛ ثمّ إنّ هذا الجمود تزامن مع أحداث كبرى، غير مسبوقة، مرّ بها وزملاؤه في سجني بربروس وميزون كاري، وأقلّها حدث وفاة والده، وتزامنه العجيب مع وفاة والد زعيم الحزب مصّالي الحاج، بكلّ ما يمكن أن يوحيه مثل هذا الحدث لشاعر مناضل مثل مفدي، قدّم كلّ هذه التضحيات الجبّارة في سبيل وطنه، حتّى في أوكد واجباته الأسريّة؛ بينما كانت أحداث أقلّ من هذه بكثير، تستثيره -فيما سبق- لكتابة قصائده العصماء.

1- ينظر: الباب الأوّل، ص79.

2- ينظر: الباب الثاني، ص218-221.

3- ينظر تفصيل هذا الأمر: الباب الخامس، ص534-536.

الفصل الثالث: من تطبيق السجن السياسيّ إلى الخروج منه

تخفيف تطبيق السجن السياسيّ من أزمة مفدي النفسية:

احتجّ مصّالي ورفاقه –كما سبق- على نظام السجن السياسي "الكامل" المطبّق عليهم، بناء على ما خبره مصّالي الحاج من ذات النظام في "سجن الصحّة" (Prison de la Santé) بباريس؛ ولمّا بلغ هذا الاحتجاج إلى الوالي العام، كتب يوم 07/25، إلى حافظ الأختام يستفسره عن النظام المطبّق في هذا السجن الباريسيّ، فجاءه الردّ على استفساراته يوم 07/29[(1)].

وفي يوم 1938/08/12،كتب الوالي العامّ رسالة إلى محافظ عمالة الجزائر، ضمّنها قراره في مسألتين طرحهما مدير سجن ميزون كاري (Maison Carrée) في تقرير له، أرفقه محافظ الجزائر بمراسلته إلى الوالي العامّ، رقم: 14.157، بتاريخ 07/28[(2)]:

– **الأولى:** تتعلّق بالوجهة العقابية لكلّ من مصّالي، ومفدي، ولحول، وخليفة، لأنّه حكم عليهم بأزيد من سنة واحدة؛ فقرّر الوالي بقاءهم إلى انقضاء مدّة سجنهم في جناح السجناء السياسيّين، بسجن ميزون كاري[(3)].

– **الثانية:** خاصّة بنظام السجن السياسيّ الساري المفعول في ميزون كاري، واحتجاجاتهم ضدّه، بناء على ما شهده مصّالي في "سجن الصحّة" بباريس؛ فقرّر الوالي العامّ ضرورة تطبيق نفس نظام السجن السياسيّ المعمول به في سجون فرنسا، في حدود ما تسمح به المنشآت الماديّة المتوفّرة في سجون المستعمرة[(4)]. ثمّ سطّر نظام السجن السياسيّ الواجب تطبيقه بالتفصيل، وما يهمّنا من تفاصيله الدقيقة الأمور الآتية:

1– رسائل المساجين السياسيّين الصادرة يمكن إرسالها مرّتين في اليوم (صباحا ومساء)، ويجب أن تخضع لموافقة الإدارة، بوضع ختمها عليها.

2– ممنوع عليهم نشر مقالات في الصحافة، أو الاتّصال بالأجانب.

3– بإمكانهم –إن أرادوا ذلك– أن يستقبلوا زوّارهم في غرفهم، يستوي في ذلك أفراد عائلتهم وغيرهم، من غير حضور الحارس، مع إغلاق الباب.

4– عليهم فيما يتعلّق بالزيارات وضع قائمة بمن يرجون السماح لهم بزيارته، على أن لا تتجاوز 25 زائرا

1– ينظر: ص314.

2– ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، غير مرقّمة، 1938/08/12، 3cab46، (CAOM)، ص01.

3– ينظر: نفسه02.

4– ينظر: نفسه02.

من غير أفراد العائلة، ثمّ تؤخذ على هذه القائمة موافقة الوالي العامّ شخصيّا، بعد إجراء التحرّيات اللازمة على أصحابها؛ مع إمكان تقديم طلب جديد، بعدد من لم يقدّم لهم الإذن في القائمة السابقة، إلى إتمام عدد 25 زائرا المسموح به؛ ولا يزيد عدد الزوّار على خمسة في كلّ زيارة.

5- بإمكانهم تلقّي جميع الجرائد، وجميع المجلاّت، دون أن يكون ذلك مرهونا بموافقة مسبقة من الإدارة؛ كما يمكنهم استقبال طرود خاصّة[1].

وخلص في الختام إلى ضرورة تطبيق هذا النظام على المتّهمين المدرجين في نظام السجن السياسيّ، في حدود ما يسمح به التنظيم الماديّ للسجون التي تمّ اعتقالهم فيها، في انتظار محاكمتهم، على أن يوجّه المتّهم طلب إدراجه في هذا النظام إلى الوالي العامّ، عن طريق محافظ عمالة الجزائر، ويجب أن يرفقه المحافظ لدى إرساله إليه برأي النائب العامّ[2]؛ وفي ذلك إشارة واضحة -فيما يبدو- إلى كحّال أرزقي ورفاقه المعتقلين بسجن بربروس، تبعا لمطالبة المحامي ديرولاد (Déroulède) السابقة بذلك[3].

يبدو موقف الوالي العامّ غريبا بعض الشيء، مقارنة بمواقفه السابقة فيما يتعلّق بحزب الشعب الجزائريّ، فلقد كانت مواقف الإدارة الاستعمارية بالجزائر -وهو على رأسها- أكثر تصلّبا من مواقف الإدارة المركزية بباريس، وكان بإمكانه -انسجاما مع مواقفه السابقة- أن يصرّ على تطبيق النظام السياسي الكامل على ما هو عليه في السجون الجزائريّة، وإن واجه ضغوطا من الإدارة المركزية، كان بإمكانه التستّر بخصوصية الوضع في الجزائر. يمكن أن ينصرف الذهن في تفسير هذا التوجّه الجديد للوالي العامّ في معالجة ملفّ حزب الشعب الجزائريّ، إلى إدراكه ما كانت توفّره سياسة التشدّد والقمع السابقة من فرص ذهبية للحزب في نشر دعايته، وتوفير الجوّ المناسب لانتشار أفكاره في الأوساط الشعبيّة المسلمة، فاختار أن يحدّ قدر الإمكان منها، غير أنّ سعيه الحثيث إلى وأد هذا الحزب بعد أقلّ من سنة من ميلاده، وفتور نشاط الحزب في تلك الفترة، يستبعد لا محالة هذا التفسير؛ ويؤكّد -في تقديرنا- وجود خلاف مع المحافظ، والسلطة القضائيّة، منذ نقل مساجين حزب الشعب إلى سجن ميزون كاري، وتطبيق نظام سجن الحقّ العامّ عليهم، من غير استشارته[4]، وهو ما ستؤيّده مواقف قادمة للوالي العامّ، في هذا الملفّ خاصّة.

لقد وجد مفدي زكرياء في تطبيق نظام السجن السياسيّ، متنفّسا له من حالته النفسيّة المتأزّمة، بما تتيحه له من الاتّصال بخارج السجن من خلال المراسلات والزيارات، وممّا يجسّد ذلك بوضوح ما ورد في رسالته إلى

1- ينظر: السابق03، 04.

2- ينظر: نفسه06.

3- وتبعا لهذا الإجراء عثرنا على رسالة من النائب العامّ قودان (Godin) إلى الوالي العامّ، يقدّم له فيها رأيه بالموافقة المبدئية، هو ووكيله قاضي التحقيق، على تطبيق نظام السجن السياسي الكامل على كحّال ورفاقه، بسجن بربروس؛ ينظر: الرسالة، رقم: 17660، 1938/08/26، 9h20، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ينظر: ص308-311.

صديقه أبي اليقظان عيسى بن الحاج إبراهيم، حيث يقول: «وأمّا تلك المجموعة من جريدة "الأمّة" الشهيدة فقد "لَفْلَفْنَاهَا" في ليلة واحدة، وقرأنا في حوادث ستّة أشهر ما كنّا نجهله تماما، كأنّما نحن من الموات، وهل السجين إلاّ سياسيّ، ولكنّه في قبر»[1].

لقد قدّم أوّل قائمة أشخاص يطلب الترخيص لهم بزيارته في السجن، يوم 07/24[2]، و لم يأته قرار الوالي العامّ بالموافقة إلاّ يوم 09/16[3]، أي بعد سبعة أسابيع ونيّف؛ ذلك أنّ هذا الطلب يمرّ بمراحل متعدّدة، قبل أن يتّخذ الوالي العامّ قراره فيه بالرفض أو القبول؛ ومراحله يمكن تبيّنها من تتبّع مسار طلب مفدي الثاني، والأوّل بالنسبة لرفاقه:

كتب مفدي طلبه الثاني إلى مدير السجن يوم 08/23، وسجّل لدى إدارة السجن، برقم: 1304، وتاريخ 08/25[4]؛ فأرسله المدير بمعية طلبات رفاقه مصّالي وخليفة ولحول، إلى محافظ عمالة الجزائر[5]، ومنه إلى الوالي العامّ، بتاريخ 08/30[6]؛ ثمّ طلب الوالي العامّ من المحافظ القيام بتحرّيات عن الأشخاص الذين يرجى السماح لهم بالزيارة، يوم 09/03[7]، فأرسل المحافظ بدوره إلى قائد الشرطة الخاصّة بعمالة الجزائر[8]، يطلب منه تزويده بالمعلومات عن سيرة (Moralité) الأشخاص في قائمة مفدي، مع تقديم رأيه في السماح لهم بزيارته، وذلك يوم 09/09[9]، فورد الجواب من القائد مؤرّخا في 09/21[10]؛ وانتظر

1- مفدي زكرياء70؛ ونصّ ناصر على أنّ الرسالة غير مؤرّخة، و«تدلّ أحداثها أنّها كتبت في أواسط جوان من 1938»79 ها20؛ ولا يصحّ هذا التاريخ، فهو ورفاقه لم يستفيدوا من نظام السجن السياسيّ الكامل إلاّ بعد 1938/07/20، ونرجّح أن يكون تاريخ كتابتها في أوائل شهر أوت، فهي تابعة لرسالة تحدّث فيها عن اطّلاعه على عدد 07/26 من جريدة "الفرقان"، وطلب فيها أعداد جريدة "الأمّة" الجزائريّة التي تناولت الملحمة التي كانت بين الأمير شكيب أرسلان وسليمان باشا الباروني.

2- ينظر: معلومات على الأشخاص الذين تقدّم مفدي زكرياء بطلب الترخيص لهم بزيارته في السجن، 1938/08/09، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، ص01، و02.

3- ينظر: رسالة مدير سجن ميزون كاري إلى المحافظ، رقم: 2613، 1938/11/08، موضوعها: الشيخ زكري: مسجون، قائمة إضافية لزوّار يرجو لهم الترخيص، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

4- ينظر: الرسالة بخطّ مفدي زكرياء، بالفرنسيّة، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ والملحق624.

5- لم نجد أثرا لهذه المراسلة، وإنّما عثرنا على رسالة من نوعها، تخصّ طلب مفدي الثالث؛ ينظر: رسالة مدير سجن ميزون كاري إلى المحافظ، رقم: 2613، 1938/11/08، 4I6، (CAOM).

6- وتحمل الأرقام التالية: 15907، و15908، و15909، و15910؛ ينظر: رسالة الوالي العام إلى المحافظ، رقم: 2609، 1938/09/03، موضوعها: طلبات ترخيص بالزيارة، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

7- ينظر: نفسه.

8- إذا كان الأشخاص في القوائم مقيمين بالجزائر، وهو الأغلب الأعمّ، وإذا كانوا من ضواحيها أو من خارجها، راسل المحافظات أو الإدارات التابعة لها محليّا لطلب المعلومات.

9- ينظر: رسالة المحافظ إلى قائد الشرطة الخاصّة بالعمالة، رقم: 9217، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

10-ينظر: رسالة قائد الشرطة الخاصّة بعمالة الجزائر إلى محافظ العمالة، رقم: 6489، ختم البريد الوارد للمحافظة مؤرّخ في 09/23، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

المحافظ شهرا كاملا تقريبا[1]، ليراسل الوالي العامّ يوم 10/20، بنتائج التحرّيات، عن 57 شخصا في القوائم الأربعة[2]؛ وأخيرا صدر قرار الوالي العامّ في شأنها جميعها قبيل يوم 11/08 أو بعده[3]، في رسالة إلى المحافظ[4]، ومنه انتقل إلى مدير السجن للشروع في العمل بموجبه. وعن طول هذا المسار، وبيروقراطية إجراءاته، يقول مفدي في رسالته إلى صديقه أبي اليقظان: «فقد أبلغني عمّنا بكير بن داود [بسخواض] خبر رغبتكم في زيارتنا، وإنّي لذلك مسرور جدّا، وقد رقمت اسمكم في قائمة الزوّار، وإنّني أنتظر رجوعها، ولكن لا يخفاكم أنّ (لابريفكتور) [يعني: محافظة عمالة الجزائر] [تطيل] في الجواب، وحين أتّصل إن شاء الله به، أخبركم لنتشرّف بزيارتكم لنا، والاستئناس بروحكم اللطيفة»[5].

لقد كان مفدي سابقا -كما مرّ- لرفاقه في تقديم طلبه الأوّل، في الأيّام الأولى من تطبيق نظام السجن السياسيّ الكامل، وكانت قائمته تتكوّن من 15 اسما[6]؛ ثمّ شارك رفاقَه في طلبهم الأوّل بطلب ثان له على ما سبق بيانه آنفا، ويضمّ 05 أسماء[7]؛ وانفرد بطلب ثالث، قدّمه إلى مدير السجن قبيل تاريخ 11/08، وكان الردّ

1- بالرغم من أنّ آخر نتيجة للتحريات، بالنسبة للقوائم الأربعة، وصلته يوم 09/22 من نائب المحافظ بتيزي وزو؛ ينظر: رسالة قائد نائب المحافظ بتيزي وزو إلى المحافظ، رقم: 8072، 1938/09/22، ختم البريد الوارد للمحافظة مؤرّخ في 09/23، موضوعها: مسجونان سياسيّان: مصّالي حاج وخليفة بن عمّار، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

2- مصّالي 15 شخصا، ومفدي 05 أشخاص، وخليفة 25 شخصا، ولحول 12 شخصا؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 10827، 4I3، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات.

3- رسالة مدير السجن السابقة إلى المحافظ مؤرّخة في 11/08، وتحدّث فيها عن قرار الوالي العام بخصوص طلب مفدي الأوّل، ولم يتحدّث عن طلبه الثاني، ممّا يدلّ على عدم وصوله إليه بعدُ في ذلك التاريخ؛ ينظر: الرسالة، رقم: 2613، 1938/11/08، موضوعها: الشيخ زكري: مسجون، قائمة إضافية لزوّار يرجو لهم الترخيص، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

4- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، غير مرقّمة، وغير مؤرّخة، موضوعها: السماح بالاتّصال بالمساجين السياسيّين، مصّالي حاج ورفاقه، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- مفدي زكرياء270. وقد حدّد ناصر تاريخها «حوالي 1938/08/08»275 ها13؛ ويبدو أنّ تاريخها الصحيح هو بعد أسبوع من ذلك، لأنّه يقول في رسالة أرّخها بيوم 08/23: «أخي الكريم: قد كنت أرسلت لكم رسالة قبل اليوم بأسبوع، رجوت فيها منكم أن توجّهوا لي مع زوجة الزّعيم كلّ ما يردكم من الرسائل باسم "أبو فراس" Abou Firas، واليوم أزيدكم تأكيدا في ذلك» مفدي زكرياء272، وهذا الطلب وارد في رسالتنا هذه؛ ثمّ يقول فيها دائما: «إنّني لا زلت أنتظر رجوع قائمة الزوّار من المحافظة، وبمجرّد رجوعها أخبركم بما كان، فقد وضعت [اسمكم] في القائمة الثانية بمجرّد ما أخبرني الأخ بكير بن داود [بسخواض] بعزمكم على زيارتنا»نفسه.

6- هم: حجوط إبراهيم، وهو صهر عمّه؛ وصديقه تبييل إسماعيل، عامل بصيدلية؛ وعمّه الشيخ صالح بن يحي؛ وأخوه الشيخ محمد بن سليمان؛ وعبد الجبّار عمر شريكه في التجارة؛ وصهره مرغوب محمد بن بلحاج؛ وصديقه إبراهيم بن الحاج عمر؛ وصديقه حاجو بن صالح؛ وشفاي علي، من قدماء مناضلي (ح.ش.ج)؛ وقمر الدين، شوّاء؛ وصديقه بحريز إبراهيم بن أحمد؛ وراجف حسين عضو في (ح.ش.ج)، يقيم عند قمر الدين؛ وصديقه مزغنة أحمد، أحد أبرز مناضلي (ح.ش.ج) آنذاك؛ وصديقه حاج مسعود بن إبراهيم؛ ووصيّه بكير بن داود بسخواض؛ ينظر: معلومات على الأشخاص الذين تقدّم مفدي زكرياء بطلب الترخيص لهم بزيارته في السجن، 1938/08/09، الأرشيف غير المتداول، (CAOM).

7- هم: نايري علي، ممرّض؛ وجوزيف باروش (Joseph Baruch)؛ تاجر في شارع لا لير رقم: 12؛ ولعماري محمد، الكاتب العامّ لخلية

عليه -على الأرجح- في جانفي 1939، ويحوي 05 أسماء[1]، وبه بلغت قائمة زوّاره عدد 25 زائرا، المسموح به قانونا، وقد سبقه إليه رفيقه خليفة بن عمّار في طلبه الأوّل نفسه؛ فكان عليهما في الطلب الموالي: الرابع بالنسبة لمفدي، والثاني لخليفة، أن يحذفا أسماء من قائمتيهما، لتعويضها بأسماء جديدة، وقد شاركهما في هذا الطلب مصّالي ولحول، وكان -على الأرجح- في أوائل شهر ديسمبر[2]، ويحوي طلب مفدي ثلاثة أسماء[3]، وقد أصدر الوالي العامّ قراره في شأن هذه القوائم مجتمعة يوم 1939/03/27[4]؛ وإذا كان رفقاء مفدي قد توقّفوا عند طلبهم الثاني، بعد استيفائهم للعدد المسموح به قانونا، فقد واصل مفدي تقديم طلباته، بمحو أسماء من قائمة زوّاره، وتعويضها بأسماء جديدة، فقدّم طلبه الخامس في أواسط جانفي 1939[5]، وتضمّن 04 أسماء، ويرجّح أن يكون القرار بشأنه قد صدر قبل القرار الخاصّ بطلبه الرابع، وطلب رفقائه الثاني[6]؛ أمّا طلبه السادس والأخير فكان -على الأرجح- في أواخر شهر مارس 1939[7]، ويضمّ أسماء ثلاثة أشخاص، وصدر القرار في شأنهم خلال شهر ماي 1939 على الأرجح[8].

(ح.ش.ج) بيلكور؛ وصديقه عيسى بن الحاج إبراهيم [أبو اليقظان] ؛ وقداش بلقاسم، عامل يومي؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 10827، 1938/10/20، 4I3، (CAOM)، ص03، و04.

1- هم: سليمان علي؛ ومسوسي محمد؛ ومفنون بكير من بني يزقن؛ ودهينة حسين، مقيم عند بكير بسخواض؛ والجميع مقيمون بالجزائر؛ وصديقه بن يوسف سليمان بن الحاج داود، المدعوّ: عطفاوي، مقيم بقسنطينة؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 13346، 1938/12/29، جوابا على رسالة الوالي العامّ رقم: 3308، ليوم 1938/11/25، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- خليفة 04 أسماء، ولحول 13 اسما، ومفدي 03 أسماء، ومصّالي 09؛ ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، رقم: 3594، 1938/12/19، تبعا لرسائل المحافظ، بأرقام: 21507، و21508، و21848، و22007، لأيّام 07، و13، و1938/12/15، موضوعها: زوّار مطلوبون من المحكوم عليهم: خليفة بن عمّار ولحول حسين والشيخ زكري، المدعوّ زكرياء [كذا]، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- هم: عبد الرحمن بن عمر بن عيسى، تاجر مزابيّ في شارع لا لير، رقم: 39؛ والشرّح محمد بن عمر، يعمل في دكّان بكير بسخواض؛ وترشين الحاج سليمان بن الحاج عمر، من بني يزقن، تاجر بالمدية؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 2120، 1939/03/10، 4I6، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص02، و03.

4- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، رقم: 1177، موضوعها: زوّار مطلوبون من المحكوم عليهم: خليفة بن عمّار، ولحول حسين، والشيخ زكري المدعوّ زكرياء، ومصّالي حاج، 4I6، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات.

5- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، رقم: 579، 1939/02/07، تبعا لرسالة المحافظ رقم: 1416، ليوم 1939/01/23، موضوعها: زيارة المساجين السياسيّين، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- الأسماء الأربعة هي لـــ: كوفي حميدو، وشيكلي علي، وأكرور شريف، وبودبية محمد؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 2010، 1939/03/09، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

7- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، رقم: 1329، 1939/04/07، موضوعها: المدعوّ مفدي زكرياء سجين سياسيّ، تبعا لرسالة المحافظ رقم: 7839، ليوم 1939/04/03، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

8- الأسماء الثلاثة هي لـــ: عبدي أحمد بن احسن، حلاّق؛ وزياط قويدر بن محمد؛ وبافضل محمد بن عيسى، من بني يزقن، 29 شارع لا لير؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 4774، 1939/05/01، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

إنّ فيما سبق ما يشير بوضوح إلى استعادة مفدي لنشاطه وحيويّته، بعد أن كان في عداد الموتى -حسب تعبيره السابق-، بسبب انقطاعه عن العالم الخارجيّ، وتأزّم عالمه الداخليّ، قبل تطبيق نظام السجن السياسيّ الكامل عليه وعلى رفاقه، في سجن ميزون كاري، ومنه كان التكثير من عدد زوّاره، إذ كانوا -فضلا عن الرسائل- نافذته على العالم الخارجي، تخفّف عنه بعض معاناته، وتنسيه كوابيس عالمه الداخليّ؛ وإنّ رسائله إلى صديقه أبي اليقظان عيسى بن الحاج إبراهيم في هذه الفترة، على قلّتها، وعدم نشر بعضها كاملة[1]، لَتكشف عن هذا الانبعاث الذي عرفته روحه:

اطّلع على العدد الرابع من جريدة "الفرقان"، الصادر يوم 1938/07/26[2]، بُعَيْد استفادته ورفاقه من نظام السجن السياسيّ، ويبدو أنّه اطّلع أيضا على الأعداد الأولى منها[3]؛ كما اطّلع لأوّل مرّة على عدد من جريدة "الروح" التي بدأ صدورها في 1937/10/15[4]، فدفعه ذلك إلى كتابة أوّل رسالة إلى صديقه أبي اليقظان عيسى، وأسلوبه المتحفّظ في مخاطبة أحد زملاء دراسته في تونس خير دليل على ذلك، وهو بدوره يجد تفسيره في مخاطبته ضمنيّا والده الشيخ أبا اليقظان[5]؛ كما كتب هذه الرسالة ليطلب منه أعداد "الأمّة" الجزائريّة، وعددي "الرابطة"، وعددي "الشهاب"، التي تناولت موضوع الملحمة بين الأمير شكيب أرسلان والشيخ سليمان باشا البارونيّ، بعد سماعه بأمرها، وليرسلها مع "مدام" مصّالي، لأنّه يصعب أن يجد أعداد "الأمّة" بالدرجة الأولى عند غيره، وهكذا نجد الموضوع الذي استهواه هنا ثقافيّا محضا، يتجاوز همومه الشخصية الآنية؛ وفي ختامها يخبره عن عزمه بعد أسبوع على البدء في «تحرير بعض فصول بالفرقان، في مواضيع مختلفة، تحت إمضاء مستعار»[6]؛ وهي تعني الرغبة في العودة إلى الحياة، لأنّ الحياة بالنسبة لأديب مثله هي الكتابة.

وتدلّنا الرسالة الثانية على أنّ صديقه أرسل إليه ما طلبه من أعداد "الأمّة" على الأقلّ، فيخبره أنّه التهمها في

1- الرسائل الستّة التالية استفدناها من كتاب محمد ناصر، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، ثلاثة منها تامّة، وثلاثة لم يرد منها سوى مقتطفات قصيرة، وعليه فاستنتاجاتنا تبقى محدودة بهذا النقصان الملاحظ في ثلاثة منها.

2- يقول محمد ناصر: «صدر العدد الرابع في 1938/7/26» مفدي زكرياء275 ها8.

3- يقول: «أرجوكم أن تخبرونا بالتدقيق عن حالة الأخ تاعموت [عيسى] الصحيّة، فإنّنا تألّمنا كثيرا لمصابه، ومصاب رفقائه، وقرأنا ما كتبتموه ضدّ ذلك الزعيم [يعني: بوكامل]» مفدي زكرياء270، وقد وقع الحديث عن حادث الحافلة، وانتقاد صاحبها بوكامل، في العددين الأوّل والثاني؛ ينظر: فهرس موضوعات جريدة "الفرقان"، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، د. محمد ناصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر-الجزائر، ط: 1980، ص461.

4- ينظر: الصحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1939، د. محمد ناصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر-الجزائر، ط: 1980، ص215.

5- فهو ينسب إليه جهود والده في هذه الجريدة، وكذلك مقالاته، فيقول على سبيل: «وبعد، فقد اطّلعنا على العدد الرابع من جريدتك "الفرقان" فأعجبنا بما فيها من أدب غضّ، وفكرة نيّرة، وتحرير عال، فنحن نهنّيكم من صميم أفئدتنا، ونتمنّى لها إقبالاً مطّردًا وعمرا مديدا» مفدي زكرياء270.

6- تنظر مضامين هذه الرسالة، وهذا النصّ المقتبس منها: نفسه.

ليلة واحدة، مستعملا لفظة عامية "الفلفناها"[1]، متخلّيا في ذلك عن التحفّظ الذي ميّز رسالته الأولى.

أمّا رسالته الثالثة فتشير إلى طلب صديقه منه إسعافه بما جادت به قريحته في فترة السجن، ممّا نكأ جرحا لم يلتئم بعد، فرشح الجواب بحزن عميق، يقول فيه: «ومن الأسف فإنّ قريحتي المكدودة أصيبت بالإعسار في هذا السجن، وقد استعضت عن الشعر الناطق بالشعر الصامت، حتّى أصبحت شعرا بنفسي، وأصبحت قصيدة مطلعها:

لم يــبــق إلاّ نــفــس خافت، ومقــلة إنــســانــها بــاهــت

و[لا يزال][2] تضرم أحــشــاؤه بــالــنّــار إلاّ أنّــه ســاكــت

يرثي له الشــامتفــيــما أرى، يا ويح من يرثــي له الشامــت».

ورغم ذلك يأبى في ختامها إلاّ أن يزوّده بأنشودته في قطّته "عزيزة"[3]؛ ثمّ يراسله في رابعة يسأله اقتراح موضوعات عليه للكتابة فيها، «خصوصا في مواضيع (الفتنة والهرج والمرج)، إلى غير ذلك، فإنّ لي مدّة سنة بالسجن، لم أنتقد على أحد، و لم أهرد أحدا، فأرجوكم أن تقدّموا لي فريسة، أشبع فيها نهمي، مع مراعاة الأدب طبعا»[4].

هذه الرسائل الأربعة كتبها –في تقديرنا– ما بين صدور العدد الرابع من جريدة "الفرقان"، في 07/26؛ والعدد السادس والأخير منها، في 08/09؛ وفي هذه الفترة بالذات تقع زيارة السيّد بسخواض بكير بن داود الثانية له في السجن، بترخيص من النيابة العامّة[5]، فنجد أثرا لها في رسالته الخامسة[6]، إذ يتحدّث فيها عن إعلامه برغبة صديقه عيسى في زيارته، فسجّل اسمه في قائمة الزوّار؛ ويخبره بأنّه ستأتيه رسائل على عنوان "المطبعة العربية"، تحمل اسم "أبو فراس"، فيرجوه أن يرسلها مع "مدام مصّالي"؛ كما طلب منه مصحفا كريما، وكتاب "تاريخ اليقظة القومية عند العرب"، وقائمة "المكتبة العربية"، لاختيار كتب يقتنيها، والعددين السادس والسابع من "الفرقان"، إذ لم يعلم بعد بخبر تعطيلها بعد صدور عددها السادس.

وفي الرسالة السادسة المؤرّخة في 08/23، بعد أسبوع من رسالته السابقة –كما نصّ عليه فيها–، وبعد حديثه عن سماعه بخبر تعطيل الجريدة، يجدّد بمزيد من التأكيد على الرسائل التي ينتظرها على عنوان "المطبعة"، أن

1– ينظر: السابق70.

2– زيادة يقتضيها الوزن والمعنى، و لم يرد في الأصل، كما نصّ عليه محمد ناصر في الهامش؛ ينظر: نفسه79 ها22.

3– تنظر الرسالة، والنصّ المقتبس ضمنها: نفسه71، 72.

4– نفسه69.

5– ينظر: معلومات على الأشخاص الذين تقدّم مفدي زكرياء بطلب الترخيص لهم بزيارته في السجن، 1938/08/09، الأرشيف غير المتداول، (CAOM).

6– كتبها –على الأرجح– يوم 16 أو 08/17، على الأكثر، لأنّ يصرّح في رسالته المؤرخة في 08/23، بأنّه أرسل إليه هذه الرسالة قبل أسبوع؛ كما يطلب منه العدد السابع من جريدة "الفرقان"، فلا يمكن أن يطلبه إلاّ بعد حلول أجل صدوره، وهو يوم الثلاثاء 08/16؛ تنظر الرسالتان: مفدي زكرياء270–273. وهذا التحديد ومضمون هذه الرسالة، مقارنة بسابقاتها، يرجّح لدينا أنّ كتابته للرسالة الرابعة كانت قبل زيارة السيّد بسخواض، وقبل أجل صدور العدد السادس من الفرقان، أي قبل يوم 08/09.

يحرص عليها، ويسلّمها يدا بيد إلى مدام مصّالي، كما يجدّد طلب المصحف وكتاب أمين سعيد[1]؛ ومنذ الرسالة الثالثة لا نجد في رسائله أثرا لرسالة من صديقه إليه، ومنه تكرار مطالبه في رسالتين متعاقبتين، ولذلك يقول في ختام الرسالة الخامسة: «إنّني أترقّب جوابكم بفارغ الصبر»[2]، وفي ختام السادسة بعد إطلاعه على خروج غرّافة إبراهيم من السجن يوم 08/27: «وإنّني أرجوكم أن تشرّفوني ببعض كلمات من طرفكم، من حين إلى حين، فإنّه لا يمكنكم أن تتصوّروا مقدار ما يحصل من الفرح للسّجين، إذا قرأ رسالة من أخيه الحرّ الطليق، سيّما من مثلكم إلى مثلي»[3].

كلّ ذلك يكشف بوضوح عن استرجاع مفدي لحيويته ونشاطه، بفعل تواصله مع العالم الخارجيّ، وهو ما تؤكّده تقارير الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة أيضا، فقد سجّل تقرير حديث غرّافة إبراهيم لسامعيه من مناضلي الحزب –بعد خروجه من السجن–، عن مزايا تطبيق نظام السجن السياسيّ الكامل عليهم، ومنه عمل مصّالي على تأليف كتاب (Grande brochure) بالفرنسيّة، «وزكرياء يكتب كثيرا من جهته»[4].

إنّ من اللاّفت للنظر في زيارات ومراسلات مفدي –على قلّة المادّة المتوفّرة بالنسبة لهذه الأخيرة– في هذه الفترة، ومنه التفصيل السابق فيها، ظهور ملامح توجّه جديد في حياته، بتأثير الأزمة التي مرّ بها من جهة، وطبيعة المناضل والوطنيّ القويّة فيه من جهة أخرى:

لقد بدأ ينأى عن العمل السياسيّ، استجابة لرغبة والده، ولو بعد موته؛ بتأثير معاناة السجن، وضغط ظروفه الاجتماعيّة الصعبة، التي ازدادت سوء بعد وفاة والده، على ما وقفنا عليه سابقا؛ تجسّدت في دعوة وصيّه السيّد بسخواض بكير بن داود له إلى الابتعاد عن العمل السياسيّ، وتوجيه اهتمامه لبناء عائلة، وتحقيق مكانة اجتماعية له[5]، وهي دعوة لها وزنها في نفس مفدي، لما للرجل من أيادي بيضاء أسبغها عليه، ممّا سبق بيانه، ومنه ما ورد في

---

[1]- ينظر: السابق272، 273.

[2]- نفسه271.

[3]- نفسه273.

[4]- ينظر: التقرير، (CIE) الجزائر –على الأرجح–، 1938/09/10، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. هذه المعلومة راجت –في اعتقادنا– في أوساط حزب الشعب الجزائريّ، على أنّ مصّالي وزكرياء يمضيان وقت فراغهما في تأليف كتاب يتناول أهداف (ح.ش.ج)، ونضاله ماضيا وحاضرا ومستقبلا، الأوّل باللغة الفرنسيّة، والثاني باللغة العربيّة، وسيطبع بمناسبة خروجهما من السجن؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة لعمالة الجزائر، رقم: 6560، بتاريخ 1938/09/14، معتمدا –بتعبير التقرير– على معلومات مستقاة من أوساط الحزب، مع عدم إمكان التأكّد من صحّتها، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]- وذلك بعد خروجه من السجن، بحسب الإدارة الاستعماريّة، ولا نستبعد أن تكون بدايته خلال زياراته بالسجن؛ ينظر: وثيقة معلومات، (CIE) الجزائر، رقم: 1.022، 1939/10/24، موضوعها: مزابيّون، وثيقة من أربع صفحات، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، ص04؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة47.

رسالة مفدي إلى اللجنة المسيّرة لحزب الشعب الجزائريّ، بالجزائر، بعد خروجه من السجن، يوم 1939/09/13، حيث تحدّث عن دفع السيّد بسخواض غرامة وجبت عليه بالحكم الصادر في حقّه من محكمة البليدة، وقدرها 400 فرنكا، دفعها عنه في أواخر نوفمبر 1937، منعا لمصادرة أثاث بيته[1].

نلاحظ بوادر هذا التوجّه، والخضوع لهذا الضغط القويّ، كأوضح ما يكون في قائمة زوّاره خاصّة، إذ نجد فيها عدد مناضلي (ح.ش.ج) الفاعلين آنذاك اثنان، هما: مزغنة أحمد، ولعماري محمد، بالدرجة الأولى؛ ويمكن أن نضيف إليهما: راجف حسين، عضو في (ح.ش.ج)؛ وبدرجة أقلّ شفاي علي، من قدماء مناضلي (ح.ش.ج)[2]؛ من بين 35 اسما احتوته قائمته، ثلاثة منهم وردوا في طلبه الأوّل، ولعماري في الثاني؛ ثمّ لم يرد في الطلبات الأربعة الموالية أيّا من مناضلي الحزب، فنسبة مناضلي الحزب في قائمته كاملة تساوي 11.42٪.

في يوم 1938/11/29، كتب قاضي التحقيق رمبير (Rambert) إلى نائب الجمهورية قودان (Godin) ، ينبّهه إلى وجود اتّصال بين مساجين ميزون كاري ومسؤولي الحزب بباريس، عن طريق الزوّار المرخّص لهم بزيارتهم، ويؤكّد على خطورة هذا الأمر، وكونه غير طبيعيّ مقارنة بالقيود المفروضة على زيارة معتقلي الحزب في بربروس؛ فما كان من النائب إلاّ أن كاتب الوالي العامّ في هذا الشأن، وأرفق به نسخة من هذه الرسالة[3]؛ ولمّا لم تُجْدِ الرسالة الأولى، راسل للمرّة الثانية نائب الجمهورية في هذا الموضوع، بتاريخ 1938/12/16، وأرفق بهذه الرسالة، قائمة الزوّار الأولى لمساجين ميزون كاري جميعهم، بالإضافة إلى الثانية بالنسبة لمفدي، واضعا خطّا أحمر تحت أسماء مناضلي الحزب البارزين، عسى أن تتّضح خطورة ما يتحدّث عنه، فيتحقّق الأثر المرجوّ؛ فعمل النائب على نقل هذا الانشغال إلى الوالي العامّ مرّة ثانية في رسالة، مؤرّخة 1939/01/10، ومعها الرسالة، وقائمة الزوّار مسطّرة بعض الأسماء فيها بالأحمر[4].

وإذا قمنا في كلّ قائمة بحساب عدد الأسماء المسطّرة بالأحمر إلى مجموع الأسماء الموجودة فيها، ثمّ استخرجنا النسبة حصلنا على الجدول الآتي:

أسماء المساجين	مصّالي الحاج	مفدي زكرياء	خليفة بن عمّار	لحول الحسين
عدد الأسماء في القائمة	**14**	**20**	**25**	**12**

[1]- ينظر: نسخة من الرسالة، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة40.

[2]- ينظر: معلومات على الأشخاص الذين تقدّم مفدي زكرياء بطلب الترخيص لهم بزيارته في السجن، 1938/08/09، الأرشيف غير المتداول، (CAOM)؛ ورسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 10827، 1938/10/20، 4I3، (CAOM)، ص03، و04.

[3]- ينظر: رسالة نائب الجمهورية قودان إلى الوالي العامّ، رقم: 3-25386، 1938/12/17، 3cab45، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها رسالة قاضي التحقيق رمبير إليه، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]- ينظر: رسالة نائب الجمهورية إلى الوالي العامّ، رقم: Al-26425، 1939/01/10، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ أرفق بها رسالة قاضي التحقيق إليه، وثيقة من صفحتين؛ وجدول يحتوي على أسماء زوّار المساجين، وثيقة من صفحتين.

عدد الأسماء المسطّرة بالأحمر	09	02	11	07
النسبة	٪64.28	٪10	٪44	٪58.33

إنّ مفدي هو أقلّ رفاقه استقبالا لمناضلي حزب الشعب الجزائريّ البارزين، في حين كان فيه الرجل الثاني في الحزب بعد زعيمه؛ ثمّ إنّ هذه النسبة قد انخفضت إلى 00٪ في القوائم الأربعة الموالية، والتي تحوي مجتمعة 15 اسما جديدا.

أمّا رسائله فإن كان في اقتراحه لصديقه أبي اليقظان عيسى بن الحاج إبراهيم أن يكتب بالدرجة الأولى في موضوع (الفتنة والهرج والمرج)[1]، دون الموضوعات السياسيّة، ما يَدْعم ما ذكرناه سابقا؛ فإنّنا نجد في بعضها صورة مفدي المتحمّس لأفكاره الثورية، ونضاله الوطنيّ؛ فيقول -في 1938/08/23- تعليقا على خبر تعطيل "الفرقان": «فقد بلغنا خبر تعطيل "الفرقان"، ونحن لا نعزّيكم، بل نهنّيكم بهذا الوسام الجديد الذي أضفتموه إلى صدركم، ألا وهو وسام التضحية الخالدة. و"الفرقان" هي إحدى صحفكم الماجدة التي استشهدت كلّها في ساحة النضال الشريف، تلقاء الصراحة، وصدق الضمير، ففي سبيل الوطن، وفي سبيل الله، وإلى الأمام. إنّنا ننتظر بفارغ صبر نزولكم للميدان من جديد بسيف آخر، تقطعون به هامة أولئك الأفّاكين المفلسين، وتصدعون به جوانب الظلم والاستبداد»[2]؛ وهو في ذلك لا يكتفي بالتعبير عن أفكاره ومبادئه، وإنّما يفعل أيضا، فبعد ما يقرب السنة من ذلك، راسل أستاذه الشيخ أبا اليقظان، في 1939/07/23، قائلا له: «سيّدي كم يلذّ لي أن أخبركم أنّني توصّلت إلى اتّفاق مع الأستاذين العظيمين: الشيخ محمد علي الطاهر، والأستاذ أحمد حسنين، رئيس حزب "مصر الفتاة"، أن يخصّصا في جريدتيهما "العلم المصريّ"، و"مصر الفتاة"، صحيفتين للمغرب العربيّ [و]شمال إفريقيا، وحوادثه، ومشاكله، وقضيته المباركة، ولعلّ هذا من أهمّ الأعمال التي تجعل لقضيتنا المقدّسة قيمة، يعتدّ بها في نظر الشرق، وتحملهم على أن يعطفوا عليها، ويعينوها بأقلامهم وأفكارهم، بعد أن كانوا لا يحلمون بها أصلا، ولا يرون لها قيمة، والمسؤوليّة في ذلك راجعة علينا، حيث إنّنا لم نحسن الدعاية لأنفسنا...»[3]؛ وعندما أجابه الشيخ أبو اليقظان -على الأرجح- أنّه قد أغمد قلمه بعد أن أنهكته سنوات النضال الصحفيّ في ثماني صحف متعاقبة، كتب إليه، بتاريخ 1939/08/13، قائلا: «سيّدي، إنّي لست موافقا على أن يبقى قلمكم مغمدا وسط هذه الزعازع، استنادا على أنّ الإدارة تخنق أنفاس الأحرار، وعلى أنّ هذا الوسط العفن لا يساعد على حياة أمثال ذلك القلم الجبّار، فطالما تصارع ذلك القلم مع سيف الاستعمار، فأحدث فيه فلولا، فليس من الصواب أن يتراجع اليوم أمام شبح الطغيان، وهو إنّما خلق ليكون أمّة كاملة،

1- يقول محمد ناصر: «الإشارة هنا إلى المعركة بين الحركة الإصلاحيّة وخصومها»مفدي زكرياء79 ها16.

2- مفدي زكرياء272.

3- مفدي زكرياء69، و79 ها18.

وليخلق شعبا، ولينشئ وسطا، وليحدث جيلا، فماذا ترون لو أغمدت جميع الأقلام الحرّة استنادا على ذلك العذر، فهل يكفي ذلك لتبديل الحالة؟ وتطهير الجوّ العفن؟ أليس أصحاب الأقلام الحرّة بمثابة الرسل، «يجب في حقّهم التبليغ»، مهما كانت التضحية إليه، فمن أضرم نار الثورة الفرنسيّة ضدّ الباستيل غير أمثال تلك الأقلام؟ ومن أنشأ مصر الجديدة القويّة غيرها؟ وقد كان أرباب تلك الأقلام يعانون في مصر وفرنسا أضعاف ما يعانيه حملة الأقلام اليوم بالجزائر، فما أغمدوها في جرابها، بل أغمدوها في صدور الطغاة، ونقعوا بسمّها الزعاف أولئك الجبابرة المستبدّين، فطرحوهم أرضا»[1].

ما سبق يقدّم لنا تصوّرا عن حدّة الصراع في نفس مفدي بين واجبه النضاليّ والوطنيّ، الذي كان عقيدة بالنسبة إليه؛ وبين واجب تصحيح وضعه الاجتماعيّ والعائليّ الصعب؛ ويبدو أنّه قد اهتدى إلى التوفيق بين الواجبين، على نحو من الأنحاء، بأن يلتفت جدّيا إلى وضعه الاجتماعيّ والعائليّ من جهة؛ وأن يقوم بواجبه الوطنيّ، ولكن بعيدا عن الأضواء، فاختار الصمت، والعمل في الخفاء، بعيدا عن العيون؛ ويشهد لهذا التوجّه تأكيده على صديقه أبي اليقظان عيسى أن يسلّم رسائله التي تصله على عنوان "المطبعة العربيّة"، باسم أبي فراس، لمدام مصّالي يدا بيد، واختيار أن يمضي مقالاته باسم مستعار؛ وغنيّ عن البيان أنّه لم يستقرّ على هذا الموقف الجديد بين عشية وضحاها، وإنّما مرّ بفترات مدّ وجزر بينهما، يفسّرها تعارضهما، إن لم نقل تناقضهما في الأوضاع الخاصّة التي تعيشها الجزائر، إذ كانت تملي على المناضل المخلص أن تكون تضحيته تامّة، كي يطمح إلى إحداث التغيير المأمول.

لقد كان لتطبيق نظام السجن السياسيّ الكامل، في سجن ميزون كاري، أثر كبير في خروج مفدي تدريجيّا من الأزمة التي كان يعاني منها، ونجم عن تفاعلات وضعه الجديد هذا التوجّه الجديد في حياته، وهو ما سيتأكّد بعد خروجه من السجن؛ غير أنّ الإدارة الاستعماريّة، وبخاصّة السلطة القضائيّة، لم تأل جهدا في وضع حدّ لهذه الامتيازات -في نظرها- التي يتمتّع بها مساجين حزب الشعب الجزائريّ بعد إقرار نظام السجن السياسيّ، فاستطاعت أن تحدّ منها بالنسبة للمعتقلين في سجن بربروس، لأنّهم يقعون تحت سلطتها، ما داموا لم يحاكموا بعد؛ أمّا سجناء ميزون كاري، فبعد صدور الحكم عليهم أفلتوا من قبضتها، فلم تبق لها من حيلة سوى محاولة التأثير في الوالي العامّ، بالتأكيد على خطورة هذا الوضع، والإلحاح في توضيحه، على ما سبق بيانه من رسائل قاضي التحقيق، ونائب الجمهورية، غير أنّ الوالي العامّ لم يعر -لحسن حظّ مصّالي ورفاقه- أذنا صاغية لها:

لقد كانت محافظة الجزائر سابقة للإدارة القضائيّة إلى مثل هذه المحاولات، فعندما أرسل المحافظ إلى الوالي العامّ تقريره بنتيجة التحرّيات عن الأسماء الواردة في قوائم مصّالي ورفاقه الأولى، بعد أن أخّره شهرا كاملا، عن تاريخ وصول هذه النتائج من الجهات المختصّة، علّق في ختامه تماما بما يلي: «إنّي أقدّم رأيا معارضا لطلبات

---

[1]- مفدي زكرياء64، 65؛ و79 ها13.

مصّالي الحاج ورفاقه، الهادفة إلى استقبال المذكورين أعلاه من مصّاليّين مشهورين، إنّ اتّصال هؤلاء بالقادة المسجونين، لا يمكن إلاّ أن يذكي دعاية (ح.ش.ج) الوطنية»[1]، فجاء جواب الوالي حازما: «لي الشرف أن أعلمكم بأنّ النظام المتساهل (Libéral) المقرّر لصالح المساجين السياسيّين [...] لا يبدو أنّه يسمح بمنع ترخيص الزيارة عن شخص أفكاره السياسية هي أفكار السجين الذي يزوره، أو يسجّل -في أقلّ تقدير- بعض التعاطف مع أفكاره. وعليه، [...] قرّرت السماح للمساجين، مصّالي ورفاقه، باستقبال الأشخاص المذكورين في القوائم التي عرضوها عليّ للموافقة»[2]؛ وفي تقرير محافظ الجزائر عن قوائمهم الثانية، عارض الترخيص لخمسة أشخاص فيها[3]، فلم يحتفظ الوالي العامّ في قراره بشأنها سوى باسم واحد استثناه، وقدّم موافقته على بقيّة الأسماء الواردة في القوائم الأربعة، وتضمّ 29 اسما[4].

عودة "حزب الشعب الجزائريّ" إلى النشاط، وجريدة "البرلمان الجزائريّ":

كتب محافظ عمالة الجزائر شوفالييه (Chevalier) تقريرا مفصّلا، تحدّث فيه عن عودة حزب الشعب الجزائريّ إلى صدارة الحركة السياسية بالجزائر، بعد فترة الانحسار والتراجع التي شهدها في سنة 1938، وذلك في رسالة إلى الوالي العام، مؤرّخة في 1939/05/30، وقد تتبّع تطوّره عبر الأحداث الأساسية التالية، وفق تسلسلها التاريخيّ[5]:

1- نجاح مرشّحيْ حزب الشعب الجزائريّ، عبّاس وبومنجل، في الدور الأوّل من الانتخابات البلدية الجزئيّة بالجزائر، في نوفمبر 1938، بالرغم من عدم ترشّحهما باسم الحزب[6].

2- تطبيق نظام السجن السياسيّ الكامل على مصّالي، مكّنه -بحسب المحافظ- من تولّي القيادة الفعلية للحزب[7]؛ غير أنّ إنشاء لجنة سرّية، في ربيع 1939، باسم "لجنة الحركة الثورية لشمال إفريقيا" (CARNA)[8]،

1- ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 10827، 1938/10/20، 4I3، (CAOM)، ص04.

2- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، غير مرّقمة وغير مؤرّخة، موضوعها: السماح بالاتّصال بالمساجين السياسيّين، مصّالي حاج ورفاقه، 3cab46، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. و لم يستثن سوى شخص واحد من بين 57 اسما في القوائم الأربعة، لصدور ثلاثة أحكام قضائيّة ضدّه متعلّقة بالحقّ العامّ.

3- ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 2120، 1939/03/10، 4I6، (CAOM)، ص02، و03.

4- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى المحافظ، رقم: 1177، 1939/03/27، 4I6، (CAOM).

5- تنظر هذه الأحداث: الرسالة، رقم: 6394، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من خمس صفحات، ص02، 03.

6- ينظر: نفسه02.

7- ينظر: نفسه03. ونرى في ذلك تعريضا بالولاية العامّة التي أسهمت في تطبيق هذا النظام على مصّالي الحاج ورفاقه كاملا، بينما كانت المحافظة والإدارة القضائيّة معارضة لذلك.

8- (comité de l'Action Révolutionnaire Nord-Africaine) ؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائرية1: 545، 546.

يدلّنا على أنّ قيادة مصّالي لم تكن فعلية بالقدر الذي ينسبه إليها المحافظ: ورد في رسالة مصّالي إلى موساوي رابح، يوم 1939/04/05، ما يلي: «يؤسفني أن أعلمك أنّ شعبان قد أرسل لي باسم قيادة باريس رسالة مليئة بالإهانات، حيث حمّلني مسؤولية الاستقالات التي وقعت في فدرالية الجزائر. هؤلاء المستقيلون اقترفوا خطأ خطيرا بإنشاء لجنة سرّية ضمن القيادة، على رأسها التونسيّ ياسين، وعمارة، وموسى؛ إنّهم قدّموا اعترافاتهم أمام اللجنة، فقرّرت إبعادهم؛ ومن غير أن يأخذ شعبان بعين الاعتبار خطورة خطئهم، يجرؤ على سحبي في الوحل. [...] لا يمكنك تصوّر معاناتي بسبب هذه الرسالة، وخاصّة بسبب عدم قدرتي على الفعل، لأنّني بين أربعة جدران. [...] والأسوء في ذلك أنّ شعبان أرسل نسخة من الرسالة إلى المستقيلين لتشجيعهم، إنّه فعل مقيت»؛ وتحدّث فيها عن إرساله هذه الرسالة إلى المكتب المسيّر بالجزائر ليتحمّل مسؤولياته؛ وعن مكاتبته أصدقاءه في باريس، ومكاتبته هو باعتباره صديق النضال والمعاناة، ليتحمّل الجميع مسؤولياتهم، وأخبره بأنّه ورفاقه قد كتبوا رسالة احتجاج للقيادة بباريس، وأخرى إلى فدرالية الجزائر[1].

وقد عثرنا على رسالة، مؤرّخة في 04/07، كتبها شعبان علي باسم المكتب السياسي بباريس، وبأمر منه، إلى خلية من خلايا الحزب بعمالة الجزائر[2]، طلبت أن تكون تابعة للقيادة بفرنسا، ومرتبطة بها رأسا، «إبّان هذه الأزمة التي قسّمت فدراليتنا الجميلة بالجزائر». وإنّ هذه الفقرة منها تعطينا تصوّرا عن حدّة الخطاب الذي وجّهه شعبان علي –باسم المكتب السياسي بباريس، وبأمر منه على الأرجح– إلى مصّالي في الرسالة المشار إليها سابقا، والتي لم نقف عليها، وذلك حيث يقول: «ما من مناضل ولا منخرط مهما كانت سلطته يحقّ له تجاوز القيادة، فكيف أن يمشي على جثّتها [...] إنّ أوامر قد قدّمت للمسؤول الأوّل عن هذه البلبلة المؤسفة، كي يصلح بنفسه أفعال الذين أساء بهذا القدر مشورتهم. [...] وإذا وقع الامتناع –لا قدّر الله– عن الاستجابة، سنكون مضطرّين للوقوف حتّى في وجه من ضحّينا بكلّ شيء في سبيل شهرتهم وجاههم»[3]. إنّ محتوى هاتين الرسالتين يدلّنا على وقوع شرخ، غير مسبوق، على مستوى قيادة حزب الشعب الجزائريّ، بين باريس والجزائر، وقد طال خلية من خلاياه في عمالة الجزائر.

إنّ هذا الشرخ لم تقف الإدارة الاستعمارية بالجزائر على سببه الحقيقيّ[4]، كما أنّ تفاصيله لم

1– ينظر: نسخة من الرسالة مرقونة، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة

2– لم تذكر الرسالة الخليّة المعنية، ولا المناضل الذي أرسلت إليه، واستنتجت الإدارة بناء على ضبطها بحوزة مناضل من بوفاريك، أنّ الخلية هي خلية الحزب ببوفاريك؛ ينظر: نسخة مرقونة من الرسالة، سجّلت عليها تعليقات بخطّ اليد، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

3– ينظر هذا النصّ وسابقه: الرسالة الأصليّة، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

4– ففي تعليقها على رسالة شعبان علي، ذكرت أنّ الاستقالات وقعت في حدود 03/25، بسبب انتهاكات في استعمال أموال الحزب؛ ينظر: نسخة من الرسالة، 4I3، (CAOM)؛ وذكرياتي مع مشاهير الكفاح، لمحمد قنانش، دار القصبة للنشر، الجزائر–الجزائر، ط:2007، ص58.

تتّضح بعد[1]، غير أنّه يمكن أن نلمس فيه، من جهة، محاولة القيادة بباريس استرجاع سلطتها على الحزب، بعد أن انتقلت السلطة الفعلية إلى الجزائر تبعا لانتقال مصّالي إليها؛ ومن جهة أخرى ظهور جيل جديد من مناضلي الحزب، أفضت بهم تطوّرات الأحداث إلى مواقف أكثر راديكالية من مواقف القيادة السابقة برئاسة مصّالي، وتجسّد في هذه الواقعة في الموقف الواجب اتّخاذه من قوّات المحور الفاشية (ألمانيا وإيطاليا)، وقد انتصر التاريخ لوجهة نظر مصّالي فيها؛ ومن جهة ثالثة، مؤشّرات نهاية مرحلة من تاريخ الحزب، وبداية مرحلة جديدة، تحوّل فيها مصّالي تدريجيا إلى رمز للحزب أكثر منه قائدا فعليّا له، بسبب بعده عن الساحة السياسية، وظهور قيادات جديدة نمت أفكارها وتوجّهاتها في ظروف غير ظروف قيادة مصّالي للنجم ولحزب الشعب الجزائريّ.

3- خروج ما يزيد على عشرة من مسؤولي الحزب من السجن، بعد انقضاء فترته التي امتدّت لشهور؛ بالإضافة إلى إخلاء سبيل موساوي رابح، والحكم على عمارة بستة أشهر مع وقف التنفيذ[2]: صدر الحكم في حقّ 26 مسؤولا في الحزب، يوم 1939/01/30[3]، بالسجن النافذ، وبالسجن مع وقف التنفيذ، من سنة إلى ستّة أشهر في الحالتين[4]؛ فتوقّفت المتابعة القضائية لعدد منهم، وأفرج عن بعضهم خلال شهر فيفري، لانتهاء مدّة سجنهم، إذ أمضوا أغلبها فيه قبل المحاكمة[5]، وهي أحكام مخفّفة -نسبيّا- مقارنة بسابقتها، استقبلها مناضلو الحزب بارتياح كبير[6].

4- وفاة المناضل كحّال أرزقي في مستشفى مصطفى باشا[7]، «استغلّها الحزب بصفة مباشرة، بواسطة منشور، لم يتردّد في نسبة موته إلى "عذاب الزنزانة"[8]، وهو ما دفع بـــ 2500 أهليّ إلى تشييع

1- تحدّث -على سبيل المثال- محفوظ قداش عن هذه الواقعة، معتمدا على شهادات مناضلين، تفتقر إلى الدقّة في ربط الوقائع بتواريخها، وتتبّع تطوّرها؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائرية1: 545، 546، 554 ها 19.

2- وموساوي وعمارة كانا فارّين؛ ينظر: الرسالة، رقم: 6394، 1939/05/30، 3cab98، (CAOM)، ص03.

3- بالإضافة إلى سي الجيلاني مسيّر جريدة "الأمّة" الباريسيّة؛ والأمين العمودي وجوكلاري بيار (Juglaret Pierre)، المدعوّ محمد الشريف، مدير تحرير، ومدير جريدة "لادفينس" الصادرة باللغة الفرنسية، بالجزائر.

4- ينظر: رسالة نائب الجمهورية إلى الوالي العامّ، رقم: AL-2761، 1939/02/10، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

5- أقام لهم الحزب مأدبة، يوم 02/26، بمطعم التيجاني، شارع راندون (Randon)، رقم: 14؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 1679، 1939/03/01، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 768، 1939/01/31، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

7- توفي يوم 04/12، في حدود سا 15؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 3159، 1939/03/13، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

8- أصدرت فدرالية الجزائر منشورا، تعلن فيه عن وفاة المناضل كحّال أرزقي، وتدعو المسلمين إلى المشاركة في تشييع جنازته من المسجد الكبير، بعد صلاة الظهر، وجاء فيه ما ترجمته: «الله أكبر، أيّها المسلمون، أيّها الشعب الجزائريّ، إنّ تعذيب الزنزانة قد قضى على المناضل الباسل:

جنازته إلى المسجد[1]، وهم يردّدون النشيد الممنوع للحزب»[2].

5- «انتخابات 23 و30 أفريل، التي أعلن فيها الحزب عن ترشيح أحد أعضائه، دوّار محمد، مناضل غير معروف، فتقدّم منافسيه منذ الدور الأوّل، وانتخب في الدور الثاني بزيادة 385 صوتا عمّا أحرزه مصّالي في 1937، وحصل في الجزائر على 5/3 من الأصوات المعبّر عنها»[3].

6- إصدار جريدة "البرلمان الجزائريّ"[4]:

تحدّث تقرير مؤرّخ في 05/09، عن قرب صدور جريدة "البرلمان الجزائريّ" حوالي 05/20، وفي اجتماع انعقد في نفس اليوم، اتّفق مناضلو الحزب على إسناد مسؤولية تسييرها إلى كوفي امحمد، من القبّة؛ كما تقرّر إصدار 5000 نسخة منها في العدد الأوّل[5]؛ وتبعا لسابقه كشف تقرير 05/11، عن اعتماد الحزب في تمويلها على استلاف مبلغ 50 أو 100 فرنكا، ويسلّم لصاحبه وصل يمكّنه من استرجاع المبلغ في ماي 1940، وكلّف بهذه المهمّة بودة أحمد، وعيّن فيها أمينا للمال، على أن يحتفظ بوظيفة الكتابة في خلية الحزب ببلكور[6]. صدر العدد الأوّل من الجريدة، يوم الخميس 05/18، واكتشفت الإدارة توزيعه بالجزائر، يوم 05/21، وفي يوم 05/23، لاحظت أنّه بيع بسرعة فائقة[7].

العدد الأوّل منه يحمل في أعلى الصفحة الأولى، جهة اليمين هلالا، كتب فوقه باللغة العربية الآية الكريمة: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرّقوا﴾[8]؛ وتحت الآية عنوان الجريدة «البرلمان الجزائريّ»؛ وفي تجويف الهلال: «جريدة وطنية، نصف شهرية تدافع عن:»؛ وكتب في الهلال تتمة

كحّال أرزقي، الذي لفظ أنفاسه بعد إقامة طويلة في المستشفى». صودر المنشور، وهو في المطبعة، قبل الانتهاء من إصدار 3000 نسخة منه، بأمر من المحافظ؛ ومنعت الإدارة الاستعمارية تشييعه من المسجد الكبير، فأقيمت الصلاة عليه بمسجد سيدي امحمد، ببلكور، يوم 04/14؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 3226، 1939/03/14، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ أرفق به نسخة مطبوعة من المنشور المصادر، وثيقة من صفحة واحدة.

1- قدّر تقرير قائد الشرطة الخاصّة السابق، رقم: 3226، العدد بـــ 3000 مشيّعا؛ وذكر قنانش وقداش أنّ العدد كان 15000؛ ينظر: حزب الشعب الجزائريّ16.

2- ينظر: الرسالة، رقم: 6394، 1939/05/30، 3cab98، (CAOM)، ص03.

3- ينظر: نفسه.

4- ينظر: نفسه.

5- ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 4148، 1939/05/09، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 4236، 1939/05/11، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

7- ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 4620، 1939/05/23، تبعا لتقرير رقم: 4595، ليوم 05/21، موضوعه: بخصوص جريدة "البرلمان الجزائريّ"، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

8- سورة "آل عمران"، الآية 103.

العبارة السابقة: «حقوق الجزائر العربية»[1]. وفي مستطيل على الجهة اليسرى، باللغة الفرنسية، كتب ما يلي: «العنوان المؤقّت للمراسلات، وللحوالات البريديّة: بودة أحمد؛ 08 شارع سرفانتيس (Cervantès)، الجزائر». وفي ذيل الصفحة الأخيرة، في الجهة اليمنى، وتحت إشهار محلاّت أربعة تجّار مزابيّين[2]، سجّل ما يلي: «المدير: كوفي امحمد. المطبعة الخاصّة بجريدة البرلمان الجزائريّ»[3]؛ والمقالات تحمل جميعها إمضاءات مستعارة[4].

أمّا العدد الثاني فلم يختلف في شيء عن العدد الأوّل، بصفحاته الأربعة، والإمضاءات المستعارة[5]، إلاّ فيما يخصّ الإشهار، فقد زاد عدده[6]؛ ثمّ لم يبق سوى إشهار واحد في العدد الثالث[7]، وانخفض عدد صفحاته إلى صفحتين[8]؛ ولم نعثر على الأعداد المتبقيّة، سوى ما وجدنا من ملخّص لمحتويات العدد السابع[9].

وإذا كانت الجريدة نصف شهريّة، فإنّها لم تنتظم في انطلاقتها، لا في مدّتها المحدّدة، ولا في يوم صدورها، فصدر العدد الأوّل يوم الخميس 05/18؛ والثاني يوم السبت 06/03[10]، بعد موعده بيومين؛ والثالث يوم الجمعة 06/09[11]، قبل نهاية الأسبوع الأوّل بيوم واحد؛ ثمّ غلب عليها الانتظام ابتداء من

1- ينظر: جريدة "البرلمان الجزائريّ" (Le Parlement Algérien)، س01، ع01، 1939/05/18، ص01.

2- وهي على التوالي: "في الوردة البيضاء" (A La Rose Blanche)، وهو محلّ بكير بن داود بسخواض؛ وترشين سليمان وشركاؤه، بالمدية؛ و"محلّ حجوط"، بالجزائر، وهو حجوط إبراهيم؛ و"في مدينة الزهور" (A La Ville des Roses)، محلّ كرموش وبودي، بالبليدة؛ ينظر: نفسه04.

3- ينظر: نفسه04.

4- في الصفحة الأولى، على التوالي: التحرير، والبرلمان الجزائريّ، وابن تومرت؛ وفي الثانية: أبو نواس، ومقراني، وبومزراق، وخالد بن الوليد؛ وفي الثالثة: خليفة صلاح الدين، وطارق، ومقهور (Un Opprimé)، وك.س (K.S)؛ وفي الأخيرة: مقالات من غير إمضاء؛ ينظر: نفسه01-04.

5- الإمضاءات في الصفحة الأولى: مقراني، وابن تومرت؛ وفي الثانية: التحرير، وخالد بن الوليد؛ وفي الثالثة: خليفة صلاح الدين، والوطني؛ وسائر المقالات في هذه الصفحات، وفي الصفحة الرابعة، كانت من غير إمضاء؛ ينظر: جريدة "البرلمان الجزائريّ"، س01، ع02، 1939/06/03.

6- فقد زاد على ضعف ما كان عليه في العدد الأوّل، ففضلا عن المحلاّت السابقة نجد: ورشة تواتي قدور للميكانيك؛ ومحل جنادي س. للطلاء؛ ومطعم الحرية، لصاحبه كلال؛ وورشة مصطول محمد لأعمال الترصيص؛ ومحلّ الخياطة، لساسي رابح؛ ومحلّ الروائح زوّاي؛ جميعها بالجزائر؛ ينظر: جريدة "البرلمان الجزائريّ"، س01، ع02، 1939/06/03، ص04.

7- هو إشهار ورشة تواتي قدور للميكانيك؛ ينظر: جريدة "البرلمان الجزائريّ"، س01، ع03، 1939/06/09، ص02.

8- أمّا الإمضاءات فلا نجد فيها سوى: طارق، وعنتر، والبرلمان الجزائريّ، ومقال واحد لا يحمل إمضاء؛ ينظر: جريدة "البرلمان الجزائريّ"، س01، ع03، 1939/06/09.

9- وفيه نجد الإمضاءات التالية: المهدي [ابن تومرت]، والبرلمان الجزائريّ، ومناضلو خلية الحزب بالبليدة، وأبو نواس، و[خليفة] صلاح الدين، وفريد بورقيبة [تونسيّ]، وطارق، وفدرالية الجزائر، ووطني بجاويّ، وفرحات، وبومزراق، والناخب الواعي؛ ينظر: تقرير عن: البرلمان الجزائريّ، 1939/07/29، ع07، يلخّص محتويات هذا العدد، لم تحدّد الجهة التي أصدرته، 15h18، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات.

10-ينظر: جريدة "البرلمان الجزائريّ"، س01، ع02، 1939/06/03، ص01.

11-ينظر: جريدة "البرلمان الجزائريّ"، س01، ع03، 1939/06/09، ص01.

العدد الخامس ليوم السبت 07/01[1]؛ وتبعه السادس يوم الجمعة 07/14[2]، فالسابع يوم السبت 07/29[3]، ثمّ الثامن يوم السبت 08/12[4]. أمّا العدد الرابع فلم نقف على تاريخ صدوره.

ما علاقة صدور هذه الجريدة بالتصدّع الذي عرفته قيادة الحزب في ربيع 1939؟ وما موقع مفدي منها؟

ورد في مدوّنة مركز الاستخبارات والدراسات (CIE)، ليوم 05/22، ما يلي: «يبدو للعارفين بالصعوبات الداخلية في (ح.ش.ج)، أنّ "البرلمان الجزائريّ" يمثّل اتّجاه مصّالي، الذي يوظّف النجاح الانتخابيّ السابق لدوّار، لمعارضة "الأمّة" الواقعة في يد مجموعة باريس»[5]؛ وفي تقرير لنفس المركز، بعنوان "الوضعية الراهنة لـــ(ح.ش.ج)"، مؤرّخ في 1939/08/22، ما يلي: «هذه الجريدة الجديدة [يعني: "البرلمان الجزائريّ"]، هي عنيفة بقدر عنف "الأمّة" [...]، يحرّرها مصّالي ورفاقه في سجنهم [...]. ويُتحدّث -أخيرا- عن قرب صدور جريدة للحزب، باللغة العربية»[6]. ومن ذلك عقد بعض الدارسين الصلة بين إصدار الجريدة، والشقاق في صفوف حزب الشعب على مستوى القيادة[7]، فقال بنجامين ستورا (Benjamin Storra): «دعّم مصّالي الذي واصل القيادة من داخل سجنه التيّار المعادي لكلّ تعاون مع ألمانيا الهتلريّة؛ هذا التيار كان يقوده أحمد بودة، ثمّ الدكتور محمد لمين دباغين[...]، وإنّ السرعة التي أنشأ بها مصّالي من سجنه جريدة "البرلمان الجزائريّ" تفسّر بالريبة التي كان يحسّ بها نحو سي جيلاني، وعمّار خيضر، اللذين كانا يتعاطفان مع المحور»[8]؛ ويقول الأستاذ محمد قنانش: «في هذه الأيّام كذلك مُنِيَ الحزب -وأغلب المناضلين والقادة في السجون- بانحرافات خطيرة داخل الحزب بفرنسا، كانت أهمّها اتّصالات جماعة باريس بالألمان [...]، وتصرّفت هذه الجماعة بأسلوب لا يمتّ إلى الوطنية، ولا إلى السياسة بصلة، وهذا ما حدا برئيس الحزب حينما اطّلع على الحقيقة إلى إقصائهم خارج الحزب، وإصدار جريدة "البرلمان

---

[1]- ينظر: لا نعكس الأدوار يا رفاق (S.F.I.O) في الجزائر ولنكن منصفين (Ne renversons pas les rôles, camarades S.F.I.O d'Alger Socialiste et soyons justes)، بإمضاء: البرلمان الجزائريّ، قصاصة المقال، كتب فوقها بخطّ اليد: «"البرلمان الجزائريّ"، 1939/07/01»، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ وتقرير محافظ الشرطة الخاصّة، بعنابة، رقم: 6900، 1939/70/20، موضوعه: بخصوص (ح.ش.ج) و(ش.م.إ.ج)، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- تنظر صورة من الصفحة الأولى لهذا العدد: حزب الشعب الجزائريّ181.

[3]- ينظر: تقرير عن: البرلمان الجزائريّ، 1939/07/29، ع07، 15h18، (CAOM).

[4]- تحدّث تقرير للإدارة الاستعمارية، عن مقال بإمضاء جلول أحمد، رئيس خلية عنابة، في هذا العدد الثامن، وذكر تاريخ صدوره؛ ينظر: تقرير محافظ الشرطة الخاصّة، بعنابة، رقم: 2979، 1939/08/17، موضوعه: المراقبة السياسية للأهالي، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]- ينظر: المدوّنة، رقم: 270، موضوعها: بخصوص جريدة "البرلمان الجزائريّ"، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[6]- ينظر: التقرير، من غير ترقيم، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص04؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة42.

[7]- لم نقف على هذه الصلة عند محفوظ قداش، فقد تحدّث عن الموضوعين منفصلين تماما؛ ينظر: تاريخ الوطنية الجزائريّة1: 496؛ و545، 546.

[8]- مصّالي الحاج182.

الجزائريّ"، من قاع سجن الحرّاش، لتخلف جريدة "الأمّة" بباريس، التي أصبحت بيد المنحرفين»[1].

إنّ الربط بين الحدثين -على هذا النحو- ممّا يصعب التسليم به، في ضوء الحقائق التي أفادتنا بها سابقا وثائق ترجع إلى فترة وقوعهما؛ ومن غير أن ندّعي إحاطتنا بالموضوع، ووصولنا فيه إلى قناعة تامّة، نسجّل هنا ما يثير شكوكنا في هذه المسألة، التي ستبقى محلّ نظر:

- إنّنا لا نستبعد تماما مشاركة قادة الحزب من زنزاناتهم بمقالات في جريدة "البرلمان الجزائريّ"، ويشهد -ربّما- لذلك الإمضاء المستعار: خليفة صلاح الدين، فهو قريب من خليفة بن عمّار[2]؛ كما يوجد مقال بعنوان "إلى أصدقائنا الفرنسيّين في الأيّام الجيّدة وفي الأيّام السيّئة"، لا يمكن -في تقديرنا- أن يكون صاحبه سوى مصّالي الحاج، لما ذكر فيه من أسماء شخصيات فرنسية عديدة وقفت معه في السرّاء والضرّاء[3]؛ ومن الممكن أن تكون لمصّالي، أو له ولرفاقه توجيهاتهم في إصدار هذه الجريدة؛ غير أنّه من المستبعد تكفّل مصّالي ورفاقه بإصدار الجريدة من قاع سجن الحرّاش، على الأقلّ تقنيّا وعمليّا، وهو القائل لموساوي رابح: «لا يمكنك تصوّر معاناتي بسبب هذه الرسالة، وخاصّة بسبب عدم قدرتي على الفعل، لأنّني بين أربعة جدران»[4].
- لقد رأينا الاستعدادات الحثيثة التي قامت بها أنشط خلية للحزب بالجزائر آنذاك، وهي خلية بلكور، في اجتماعين، قامت فيهما بتعيين مسؤوليْ الجريدة، بالإضافة إلى تحديد طريقة تمويلها؛ كلّ ذلك يجعل الحديث عن سرعة إصدار مصّالي هذه الجريدة محتاجا إلى تدقيق وضبط.
- ثمّ إنّ تتبّعنا لما وقفنا عليه من أعداد ومقالات الجريدتين، وهو قليل، لم نجد فيه ما يدلّ على صراع بينهما، يفسّر إصدار "البرلمان الجزائريّ"، لمناهضة "الأمّة" الباريسيّة، ولو على سبيل التعريض عبر الحديث -مثلا- عن السياسة الدولية، تمهيدا لبيان الموقف المبدئيّ والثابت إزاء المحور، وألمانيا النازية؛ فلم يرشح من هذا الصدع في "البرلمان الجزائريّ" سوى مربّع صغير في ذيل الصفحة الأولى من العدد الثالث، ليوم 06/09، أعلنت فيه فدرالية الجزائر براءة ذمّتها من أيّ تصريح قام به، أو سيقوم به مستقبلا، المدعوّ فليتة أحمد، «الذي لا ينتمي إلى الحزب منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر»[5]؛ بينما نقرأ مقالا في "الأمّة" لشهر جويلية، بعنوان

1- ذكرياتي مع مشاهير الكفاح58.

2- لأنّ الإمضاءات المستعارة في "البرلمان الجزائريّ"، تحمل أسماء شخصيات تاريخية إسلامية وجزائريّة، ومنه صلاح الدين الأيوبيّ في هذا الإمضاء، فلا يمكن تفسير إضافة "خليفة" إليه، سوى إشارة إلى الاسم الحقيقيّ لصاحبه.

3- وإن استعمل ضمير الغائب عند الحديث عن نفسه؛ ينظر: المقال، من غير إمضاء، جريدة "البرلمان الجزائريّ"، س01، ع01، 1939/05/18، ص01.

4- ونلاحظ بأنّ اسم مسيّر الجريدة، كوفي امحمد، لم يرد في أيّة قائمة من قوائم زوّار مصّالي ورفاقه، ممّا قد يفيد التنسيق معه في شؤون الجريدة؛ أمّا بودة أحمد، فهو ممّن ورد اسمه في هذه القوائم، غير أنّ دوره في الجريدة كان محدودا بأمانة المال.

5- وكان مناضلا بخلية الحزب ببوفاريك؛ ينظر: تنبيه (Mise en Garde)، جريدة "البرلمان الجزائريّ"، س01، ع03، 1939/06/09، ص01.

"تاريخ يجب تذكّره: يوم 27 أوت 1939"، كلّه تمجيد لمصّالي ورفاقه، إلى حدّ اعتبار هذا التاريخ من هنا فصاعدا عيدا وطنيّا في تاريخ الجزائر[1]؛ فأين أثر التنافس بين الجريدتين؟

إنّ نسبة تقرير الإدارة تحرير الجريدة لقادة الحزب المسجونين، يندرج -في تقديرنا- ضمن مسعى محافظة الجزائر إلى حمل الوالي العامّ على الاستجابة لمطلبها، بوضع حدّ للامتيازات التي يحظى بها مصّالي ورفاقه في سجن ميزون كاري، بعد فشلها في مرّات سابقة؛ ولا أدلّ على ذلك من كون المركز -وهو تابع للمحافظة- لم يذكر ذلك في تقرير خاصّ بالجريدة، في شهر 05/22، وذكره في تقرير 08/25، لا لشيء سوى تذييل هذا الأخير بمطالب، يرجى من الوالي العامّ الانصياع لها.

أمّا الربط بين الحدثين فإنّما نتج -في رأينا- من تزامنهما من جهة، ومن كون الجريدة صدرت باللغة الفرنسية، ممّا يجعلها بالضرورة منافسة لجريدة "الأمّة" الباريسيّة، من جهة أخرى. والحقّ أنّ الحزب ما كان يمتلك، في تلك الآونة، أقلاما عربية في مستوى قلمي مفدي وقنانش، تضمن استمرارية جريدة نصف شهرية، بمقالات متعدّدة ومتنوّعة؛ ولا أدلّ على ذلك من انحسار الحرف العربيّ في مناشير الحزب لتلك الفترة، وفي الحالات التي كتب فيها المنشور باللغة العربية، كمنشوري حملة انتخاب دوّار محمد في أفريل 1939[2]، انخفض مستوى لغته كثيرا عن المستوى الذي شهدناه في مناشير مفدي.

إنّ الجريدة تندرج في سياق منطقيّ للانتعاش الذي شهده الحزب، منذ اكتسابه الثقة في نفسه، وفي قدراته، من مشاركته في انتخابات نوفمبر 1938، واستفادته من توجيهات مصّالي، بعد إقرار نظام السجن السياسيّ الكامل في حقّه؛ وقد تدعّم أكثر في شهر فيفري، بالكفاءات التي أفرج عنها، وكانت تمتلك الخبرة، ومارست التسيير والقيادة من قبل؛ ثمّ كانت جنازة المناضل كحّال أرزقي فرصة لتعبئة صفوف المناضلين، ووصل ما انقطع من صلة الحزب بالطبقات الشعبية؛ فكان كلّ ذلك تمهيدا للنجاح الباهر الذي حصل عليه الحزب في انتخابات أفريل 1939، فقد فاقت النتيجة التي تحصّل عليها مناضل مغمور النتيجة التي تحصّل عليها الزعيم مصّالي، قبل ذلك بسنتين؛ فما كان من الحزب سوى أن يواصل مسيرته المظفّرة بإنشاء هذه الجريدة، واستطاع أن يحقّق لها سعة الانتشار منذ العدد الأوّل، والثبات نسبيّا بعده، فقد أصدر منها ثمانية أعداد، وأسهمت الجريدة -فضلا عن ذلك- في انتشار جريدة "الأمّة" أيضا، إذ كان مناضلو الحزب يوزّعون الجريدتين معا.

1- ينظر: قصاصة المقال مكتوب فوقها بخطّ اليد: «"الأمّة" جويلية/أوت 1939»، من غير إمضاء، 4I3، (CAOM).

2- ينظر المنشور الأوّل: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 3419، 1939/04/20، موضوعه: انتخابات المجلس العامّ (Conseil Général)، الدائرة الأهليّة الأولى، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة باللغتين من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة. والثاني: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 3818، 1939/04/29، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة باللغة العربية من المنشور، وثيقة من صفحة واحدة. والمنشور الثاني كان أضعف من الأوّل، وأقرب إلى العامية في كثير من عباراته.

تحدّث تقرير قائد الشرطة الخاصّة لعمالة الجزائر، في 1939/08/17، عن ارتفاع عدد النسخ المطبوعة من "البرلمان الجزائريّ"، من 5000 إلى 8000[1]؛ وورد في رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، ليوم 08/18 قوله: «إنّ توزيع جرائد حزب الشعب الجزائريّ يزداد بسرعة: العدد الأخير من "الأمّة"، الجريدة الباريسيّة للحزب، وصل منها 2000 نسخة، للجزائر وحدها؛ و"البرلمان الجزائريّ" الذي كان يطبع منه إلى حدّ الآن 5000 نسخة، قد ارتفع في العدد الأخير إلى 8000 نسخة. إنّ توزيعهما يضمنه مناضلون من الحزب، ليس في وسط الجزائر، وفي ضاحيتها الواسعة فحسب، وإنّما في سهل المتيجة كاملا، وفي المدن الداخلية الرئيسيّة في عمالة الجزائر، وفي نقاط متعدّدة من منطقة القبائل الكبرى»[2]، ويعني بالعدد الأخير العدد الثامن، الصادر يوم 08/12[3].

ولعلّ ممّا يدعم هذا التفسير معلومات استقاها مركز الاستخبارات والدراسات من مصدر "أهليّ حسن" (Source: Indigène, bonne)، تحدّثت عن الشقاق الذي لوحظ في صفوف (ح.ش.ج) أنّه لم يكن ذا خطورة حقيقيّة، لأنّ الذي يجمع الاتّجاهين هو مواجهة الاستعمار الفرنسيّ؛ أمّا إنشاء "البرلمان الجزائريّ" فكان استجابة لضرورة توفير ما يخلف "الأمّة" بسرعة، في حالة تعرّضها لإجراءات المنع، ضمانا لاستمرارية الدعاية الحزبيّة[4].

أمّا موقع مفدي من هذه الجريدة، فقد يميل بنا الاسم المستعار: ابن تومرت، إلى اعتبار المقالات التي ذيّلت بهذا الإمضاء في جريدة "البرلمان الجزائريّ" مقالات لمفدي، فقد كان هذا الإمضاء إمضاءه أثناء الثورة التحريريّة الكبرى، فما المانع أن يكون قد استعمله منذ ذلك الوقت المبكّر، ضف إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من إسهام قادة الحزب بميزون كاري في تحرير مقالاتها؛ غير أنّ ما يفنّد هذا الاستنتاج هو كون مفدي لا يحسن الكتابة باللغة الفرنسية، بالقدر الذي يمكّنه من كتابة مثل تلك المقالات؛ كما أنّ لمفدي موقفه المبدئيّ فيما يتعلّق باللغة التي يتعيّن على الحزب استعمالها في نضاله السياسيّ بالجزائر، ويمكن أن أزعم في هذا المقام أنّه ما كان للحزب أن يُصدر جريدة باللغة الفرنسية في الجزائر، لو كان مفدي على ما كان عليه من حضور في تسيير الحزب، وتحديد توجّهاته واختياراته؛ لقد اختفت بصمات مفدي الواضحة في الحزب، بعد دخوله السجن، ولم يسمح نظام السجن السياسيّ بعودتها بسبب اختياره ذلك التوجّه الجديد الذي يأبى عليه الخوض في مثل هذه النشاطات.

1- ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7494، 1939/08/17، موضوعه: صحافة، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: الرسالة، رقم: 759 CIE، 1939/08/18، موضوعها: بخصوص جرائد (ح.ش.ج)، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

3- وفي هذا تصويب لما ورد في بعض الكتب والدراسات، من أنّ هذه الجريدة لم يصدر منها سوى 07 أعداد؛ ينظر على سبيل المثال: حزب الشعب الجزائريّ17؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعمارية42.

4- ينظر: وثيقة معلومات، (CIE) الجزائر، من غير ترقيم، 1939/07/31، موضوعها: نشاطات (ح.ش.ج) في الجزائر، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

الإفراج عن قادة حزب الشعب الجزائريّ، وحلّ الحزب:

بدأ الحزب منذ أواخر شهر جوان استعداداته للإفراج عن مصّالي ورفاقه، محاولا تهيئة الأجواء لجعله حدثا تاريخيّا غير مسبوق، يسهم في تغلغل الحزب وأفكاره الثورية في أوساط الشعب الجزائريّ، بمختلف طبقاته وشرائحه، في عمالة الجزائر وخارجها، وقد اتّبع في ذلك الخطوات الآتية:

– عرض الحزب للبيع بطاقات، اكتشفتها الإدارة في بداية جويلية: طبعت في "المطبعة العربية"، 5000 من حجم البطاقة البريدية، و2000 من حجم أكبر، بيعت الأولى بفرنكين، والثانية بخمس فرنكات؛ والبطاقة تحمل صورة مصّالي في دائرة وسط نجمة خماسية، وعلى يمينه كتب: «أب الوطنية الجزائرية. الزعيم مصّالي الحاج. رئيس حزب الشعب الجزائريّ»؛ وتحته بخطّ كبير غليظ في تجويف هلال، يحيط بالنجمة من أسفلها: «شهداء الحرية. أبطال حزب الشعب الجزائريّ. زعماء الجزائر الفتاة»؛ وفي وسط الهلال، على جانبيه هذا البيت من نشيد "فداء الجزائر":

بـــلادي يـــمـــيـــنـــا مـــقـــدّسة   ســـنرعى عـــهدك طـــول البـــقـــا

وبين شطري البيت صور: «المجاهد الأستاذ خليفة بن عمّار»، و«المجاهد الأستاذ مفدي زكرياء»، و«المجاهد الأستاذ الأحول الحسين»، والصور جميعها مرسومة باليد[1].

– قرّر أبرز مناضلي الحزب، في أوائل شهر جويلية، التحضير لجولة دعاية كبرى، يقوم بها رئيس الحزب مصّالي الحاج، بمجرّد خروجه من السجن[2].

– ومع بداية شهر أوت بدأ الحزب الإعداد لاحتفالية كبرى، بمناسبة الإفراج عن مصّالي قريبا[3]؛ ولهذا الغرض فتحت قوائم اكتتاب، 26 قائمة تجوب الجزائر وضواحيها، والمناطق الداخلية أيضا، بالإضافة إلى فرنسا[4]؛ وكلّ عامل منخرط في الحزب، سواء في الجزائر، أو في فرنسا، كان مدعوّا للإسهام بأجرة يوم، واعتمد الحزب أيضا على مداخيل العروض المسرحية لــ "فرقة محمد التوري"، من البليدة[5]؛ كما وضع ترتيبات مع مصّالي،

1– ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 6207، 1939/07/07، موضوعه: حزب الشعب الجزائري، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق نسخة مطبوعة من البطاقة، من الحجم الصغير، وثيقة من صفحة واحدة؛ وصورة منها في الملحق625.

2– ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 6512، 1939/07/13، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3– ينظر: تقرير محافظ الشرطة المركزيّ، رقم: 952 RS، 1939/08/09، بناء على تقرير محافظ الشرطة بالنيابة، للدائرة الثالثة، سولي (Soulie)، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4– أعطى المكتب المركزيّ للحزب باريس هذا الاكتتاب تسمية "اكتتاب وطنيّ"؛ ينظر الاكتتاب بفرنسا خاصّة: تقرير مصلحة قضايا الأهالي بشمال إفريقيا، بفرنسا، من غير ترقيم، 1939/08/26، موضوعه: بخصوص إطلاق سراح مصّالي الحاج القريب، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

5– ينظر: وثيقة معلومات، (CIE) الجزائر، من غير ترقيم، 1939/08/19، موضوعه: الإفراج عن مصّالي، ونشاط (ح.ش.ج) عموما، 3cab98،

لمعرفة تاريخ الإفراج عنه وعن رفاقه بالضبط، ليتسنّى للحزب دعوة مسؤوليه لاستقبال المساجين عند إطلاق سراحهم؛ وكذا مع مسؤولي خلية ميزون كاري، إذا تعذّرت معرفة التاريخ إلى يوم 08/24، فكلّفهم بمراقبة السجن صباح مساء، دون انقطاع، للقيام باستقبال القادة نيابة عن سائر مسؤولي الحزب[1].

– قام الحزب باستئجار مقرّ جديد له، شارع ماهون (Mahon)، رقم: 08[2]، في أوائل شهر أوت، وأجرى فيه أشغالا تحضيرا لاحتضانه الوليمة الكبرى التي ستقام على شرف قادة الحزب، يوما أو يومين بعد الإفراج عنهم؛ كما دعت اللجنة المركزية للحزب بباريس، خلايا الحزب بالمناطق الداخلية، مسؤولين وأعضاء، إلى المشاركة في هذه التظاهرة، لإكسابها الأهمية الضرورية[3].

– في يوم 08/19 حصل الحزب على 1000 بطاقة دعوة مطبوعة، حدّد فيها تاريخ الوليمة على شرف مصّالي ورفاقه، بيوم 08/27، على سا 18 و30د، بمنزل القاضي بن سعدون[4]؛ وعيّن أعضاء "لجنة استقبال المسجونين"، المكلّفين بتنظيم هذه التظاهرة[5]؛ وتحدّث تقرير قائد الشرطة الخاصّة، يوم 08/25، عن توجيه الدعوات إلى أوروبيّين وإسرائيلّين ومسلمين، من مختلف الأحزاب السياسية[6]؛ وتحدّث في تقرير آخر عن بيع 350 بطاقة دعوة إلى تاريخ 08/26، فضلا عن الدعوات الموزّعة مجّانا[7].

(CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

1– ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7197، 1939/08/08، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وخلال الأسبوع الثاني من شهر أوت، وضعت خلية ميزون كاري ترتيبات للمهمّة التي كلّفت بها، في اجتماعين مختلفين؛ ينظر: رسالة محافظ شرطة ميزون كاري إلى الوالي العامّ، رقم: 3892، 1939/08/14، موضوعه: نشاط (ح.ش.ج)، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2– هذا المحلّ كان مطعما، ويمكنه استقبال 300 شخص؛ استأجر بـ 600 فرنكا للشهر؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7471، 1939/08/17، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3– ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7197، 1939/08/08، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وفي هذا الصدد تحدّث نائب المحافظ بتلمسان لستراد كبرونال (Lestrade Carbonnel)، في رسالة إلى محافظ عمالة وهران، عن عزم مجموعة من مناضلي تلمسان على السفر إلى الجزائر، وسينضمّ إليهم مناضلون من وهران ومستغانم، للمشاركة في استقبال رئيس الحزب؛ ينظر: الرسالة، رقم: 325 R/S، 1939/08/11، موضوعه: مراقبة سياسية: (ح.ش.ج): بخصوص الإفراج عن مصّالي، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4– نوتر دام دافريك (Notre Dame D'Afrique)، سانت أوجين (Saint Eugène)، بالجزائر؛ ينظر هذا التحديد لمكان الوليمة خاصّة: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7587، 1939/08/21، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5– وتضمّ: ماحي محمد، وبورماش مقران، ودشوك مصطفى، وحيواني لخضر، تحت رئاسة مزغنة أحمد؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7548، 1939/08/20، موضوعه: بخصوص نشاط حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

6– ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7763، 1939/08/25، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

7– وتحدّث عن توقّع وصول حافلة قادمة من وهران، قبل الظهر، تقلّ 50 مناضلا، لحضور الوليمة؛ ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7823، 1939/08/26، موضوعه: بخصوص حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

وإزاء هذه الحركة النشطة، والاستعدادات الحثيثة من "حزب الشعب الجزائريّ"، كانت الإدارة الاستعمارية في حالة تأهّب قصوى، بسبب هذا النشاط المكثّف، وبسبب الوضع الدوليّ المنذر باندلاع حرب عالمية وشيكة؛ وكانت استراتيجيتها هي مواجهة كلّ حركة من الحزب مهما كان نوعها:

– نشرت جريدة "النجاح"، ليوم 1939/05/30، خبر الإفراج عن مصّالي ورفاقه يوم 06/15، إثر العفو الذي سيصدره رئيس الجمهورية، بمناسبة إعادة انتخابه[1]، معتمدة في ذلك -بحسبها- على مصدر موثوق؛ فراسل الوالي العامّ وزير الداخلية، 06/05، ليؤكّد على خطورة هذا الإجراء، والدعوة إلى تفاديه، خاصّة وأنّ إجراءات العفو السابقة كانت دائما تستثني المحكوم عليهم بتهمة المساس بالسيادة الفرنسية[2].

– نما إلى علم الوالي العامّ خبر توزيع "نشيد الحزب"، الممنوع بقرار منه بتاريخ 1936/11/28، بالإضافة إلى صور مصّالي الحاج، فأرسل إلى محافظ عمالة الجزائر، يأمره بتطبيق قرار المنع بحذافيره؛ والالتزام –فيما يخصّ صورة مصّالي– بنصّ تعليمته رقم 372، ليوم 1938/02/21، التي تقضي بمصادرة مثل هذه المطبوعات[3]. وقام الوالي العامّ بتذكير المحافظ بتعليمته السابقة، بمناسبة إصدار الحزب لبطاقة تحوي صور مصّالي ورفاقه[4].

– راسل المحافظ الوالي العامّ، يوم الأربعاء 08/16، يعرض عليه الترتيبات التي وضعها (ح.ش.ج) لمعرفة تاريخ وتوقيت الإفراج عن مصّالي ورفاقه بالضبط، والتنسيق في هذا الشأن مع خلية ميزون كاري، لتمكين مسؤولي الحزب بعمالة الجزائر وخارجها من المشاركة في استقبالهم عند خروجهم من السجن، على ما سبق بيانه

1– الحديث هنا عن ألبير لوبران (Albert Lebrun)، عند انتخابه لعهدة ثانية، 1939/05/10، فتشكّلت حكومة إدوارد دلادييه الجديدة، يوم 1939/05/11، وكان وزير الداخلية فيها ألبير سارو (Albert Sarraut)؛ ينظر: تاريخ حكومات فرنسا، ويكيبيديا، صفحة الأنترنيت: (http://fr.wikipedia.org/w/index.php?title=Historique_des_gouvernements_de_la_France&oldid=38287251)، 2009/02/21.

2– ينظر: الرسالة، رقم: 2234 S.P، 1939/06/05، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وكان قانون العفو يشمل المحكوم عليهم بموجب المادة الأولى من قانون رينيي، التي تقمع التظاهرات ضدّ السيادة الفرنسية بالجزائر؛ وحينما عرض القانون على البرلمان، يوم 1939/06/08، تقدّم غاستون مورو (Gaston Moreau)، تعديلا يدعو إلى حذف الفقرة التي تمنح العفو لهذا الصنف، ليتمّ استثناؤهم، وسانده في ذلك ممثّل الحكومة، وزير العدل وحافظ الأختام، بول مارشندو (Paul Marchandeau)؛ وعندما عرض هذا التعديل للتصويت فاز بـــ 340 صوتا مقابل 258؛ ينظر: نقاش واسع حول العفو استغرق جلستين، من غير إمضاء، قصاصة المقال من جريدة "ليكو دالجي" (L'Echo d'Alger)، ليوم 1939/06/09، 3cab98، (CAOM).

3– ينظر: الرسالة، رقم: 11437 B، 1939/06/17، موضوعها: (ح.ش.ج): توزيع نشيد الحزب وصورة مصّالي الحاج، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وما كان من المحافظ إلاّ أن عمّم هذا الأمر على جميع الإدارات الواقعة تحت سلطته، في عمالة الجزائر؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى نوّابه، وقائد الشرطة الخاصّة، ومحافظ الشرطة المركزي، وقائد الدرك، ومحافظو الشرطة بمختلف دوائر الجزائر، رقم: 7498، 1939/06/20، موضوعها: (ح.ش.ج): توزيع نشيد الحزب وصورة مصّالي الحاج، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4– ينظر: الرسالة، رقم: 13817 B، 1939/07/20، موضوعها: مصادرة بطاقات صادرة من الحزب، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. ولأنّ الشرطة الخاصّة هي التي اكتشفت هذه البطاقات في "المطبعة العربية"، كما مرّ، فقد راسل قائدها يسائله عن عدم التزامه بتلك التعليمة؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 9000، 1939/07/24، 4I6، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

آنفا؛ ونظرا لكون تاريخ إطلاق سراحهم يصادف يومي السوق الأسبوعيّ بميزون كاري، السبت والأحد 26 و08/27[1]، وخشية عدم تمكّن قوّات الأمن من التحكّم في الوضع، بسبب تزايد عدد "الأهالي" -بحسب تعبيره- بميزون كاري في هذين اليومين، عرض المحافظ على الوالي العامّ المقترح الآتي راجيا منه الموافقة عليه[2]: نقلُ مصّالي الحاج ومفدي زكرياء وخليفة بن عمّار إلى سجن بربروس يوم الإثنين 08/21، ليطلق سراحهم منه في التاريخ المحدّد، عوض أن يتمّ من سجن ميزون كاري، وقد اختار يوم الإثنين، لأنّ الحزب طلب من خليته بميزون كاري القيام بحراسة السجن، تحسّبا لمثل هذا الإجراء ابتداء من يوم 08/24. أمّا لحول الحسين فاقترح بقاءه في سجن ميزون كاري، ليسلّم عند إطلاق سراحه إلى الدرك، حين تكون أنظار الحزب متّجهة إلى سجن بربروس، ليأخذه إلى مدينة المشرية، لأنّه موجّه إلى فرقة المبعدين بها (Section des exclus)[3].

وفي يوم 08/22، ما بين سا 01 وسا 01 و30د، تمّ نقل المساجين الأربعة، بما فيهم لحول الحسين[4]، من سجن ميزون كاري إلى سجن بربروس، وقد لاحظ تقرير قائد الشرطة الخاصّة أنّ مدخلي السجنين وما جاورهما كان خاليا تماما، أثناء إنجاز هذه المهمّة[5].

– تحدّث تقرير قائد الشرطة الخاصّة ليوم 08/25، عن دعوة (ح.ش.ج) مناضليه والمتعاطفين معه إلى الذهاب بأعداد غفيرة لاستقبال مصّالي ورفاقه، صباح يوم 08/27، كما قرّر الانتقال بعد ذلك إلى مقرّ الحزب الجديد، شارع ماهون، رقم 08، لتمكين المناضلين من إلقاء التحية على زعماء الحزب، بضوابط تنظيميّة تمنع التجمهر داخل المقرّ وخارجه[6]؛ وقد سبق الحديث عن الترتيبات التي وضعها الحزب للوليمة الكبرى التي ينظّمها مساء يوم 08/27 على شرفهم. وفي مواجهة كلّ ذلك أصدر المحافظ قرارا، يوم 08/26، ينصّ في مادّته الأولى على أنّ «الاجتماعات، والتظاهرات المختلفة، المنتظرة أو التي تعزم على القيام بها الجمعية المسماة "حزب الشعب

---

[1]– ذكر في الرسالة أنّ مدير السجن حدّد له نهاية فترة سجنهم قانونيا، في منتصف الليل، من يوم السبت 08/26، غير أنّ إجراءات إطلاق سراحهم يمكن تمديدها على أقصى تقدير إلى سا 08 من صباح يوم الأحد 08/27؛ ينظر: الرسالة، رقم: 10100، 1939/08/16، موضوعها: الإفراج عن مصّالي، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات، ص01.

[2]– بعد أن اتّفق مع المحافظ المركزيّ للشرطة عليه؛ ينظر: نفسه02.

[3]– لأنّه يعتبر متمرّدا (Insoumis) على الخدمة العسكرية، إذ لم يستجب لاستدعائه إليها. وينظر محتوى الفقرة كاملة: نفسه01-03.

[4]– ولا ندري أهذا ما وقع فعلا أم هو سهو من كاتب التقرير، لأنّ المحافظ عند اطّلاعه على الوثيقة، خطّ اسم لحول الحسين بقلم رصاص، ووضع بعده علامة استفهام؛ ينظر: رسالة قائد الشرطة الخاصّة إلى المحافظ، رقم: 7639، 1939/08/22، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01. وذلك لأنّ نصّ التكليف بمهمّة الذي وجّهه المحافظ إلى قائد الدرك لضمان مرافقة المساجين لدى نقلهم إلى سجن بربروس، ينصّ على أسماء مصّالي ومفدي وخليفة فقط؛ ينظر: تكليف بمهمّة (Réquisition)، بإمضاء الكاتب العامّ عوض المحافظ لأنّه في عطلة، رقم: 10267، نسخة غير مؤرّخة، والأرجح أنّها صدرت يوم 1939/08/21، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]– ينظر: رسالة قائد الشرطة الخاصّة إلى المحافظ، رقم: 7639، 1939/08/22، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01، و02.

[6]– ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7755، 1939/08/25، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

الجزائريّ"، أو أيّة جمعية تسعى لنفس الهدف، هي ممنوعة وستبقى كذلك في كامل تراب عمالة الجزائر»[1]. وقد تمّ -بناء على المادّة الثانية منه- إخطار مسؤولي الحزب، ومنظّمي هذه التظاهرات، بالإضافة إلى مالكي أو مستأجري، البنايات أو القاعات التي ستحتضنها[2].

- لقد أقامت نتائج انتخابات أفريل، وفوز دوّار محمد، الدليل على استعادة حزب الشعب الجزائريّ حيويّته وعنفوانه، فكتب المحافظ تقريرا، خلص في ختامه إلى ما يلي: «هذه هي الحالة الراهنة لهذه المسألة، وأظنّها تتضمّن من الخطورة ما يكفي لتستدعي منّا ردّ فعل صارم [...]. وعلى كلّ حال أرى من المفيد العمل على حلّ (ح.ش.ج). إنّ هذا الإجراء سيكون له أثر نفسيّ بليغ، لأنّ هذه التسمية (ح.ش.ج) أصبحت كما ذكرته أعلاه، وعاء لفكرة قويّة، تجسّد في عيون المناضلين قيمة رمز، يرتبط ارتباطا عضويّا بفكرة الحركة الوطنية الجزائريّة. إنّ قوّة الحركة الوطنيّة ستضعف ضعفا كبيرا في اليوم الذي نجبرها فيه على إزالة هذه الأحرف الثلاثة من برنامجها»[3]. وانتظر الوالي العامّ يوم 07/15، ليراسل وزير الداخلية في هذا الموضوع[4]، بعد أن تأكّدت لدى الإدارة الاستعماريّة بالجزائر مخاوفها من تكثيف أنشطة الحزب بعد إطلاق سراح قادته، وتوقّعت منه الأسوء في أوضاع دولية تنذر بالحرب، فلم يكتف بالمطالبة بإقرار مجلس الوزراء لهذا الحلّ، وإنّما أرفق برسالته مشروع مرسوم الحلّ[5]؛ وأتبع هذه المراسلة برسالة إلى نائب رئيس مجلس الوزراء، المكلّف بتنسيق قضايا شمال إفريقيا، كميل شوتان (Camille Chautemps)، يوم 07/25، قبيل انعقاد مجلس الوزراء فيما يبدو، يدعوه فيها إلى مؤازرة وزير الداخلية عند عرضه القضية على المجلس[6]؛ فكان أن أصدر رئيس الجمهورية الفرنسية مرسوم

1- وقد أسّس المحافظ هذا القرار على كون هذه التظاهرات، وإن كانت في ظاهرها خاصّة، فهي عرضة للامتداد إلى الطريق العامّ، ممّا سيؤدّي في جميع الأحوال إلى الإخلال بالأمن، وبالنظام العامّ؛ ينظر: نسخة من نصّ قرار المحافظ، 1939/08/26، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: نفسه. وبناء على هذه المادّة قام قائد الشرطة الخاصّة، دلقوف بول (Delgove Paul)، على سا 16 و30د من نفس اليوم، إخطار كلّ من: مزغنة أحمد، وبودة أحمد، ومقري حسين، وبورماش مقران، وخيدر محمد، ولعساكر محمد، وحيواني لخضر، باعتبارهم مسؤولين ومنظّمين لهذه التظاهرات؛ ولولي عبد القادر، باعتباره مستأجر "منزل القاضي بن سعدون"؛ ينظر: رسالة قائد الشرطة الخاصّة إلى المحافظ، رقم: 7829، 1939/08/26، موضوعها: حزب الشعب الجزائري، 4I3، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها محاضر الإخطار، تحمل توقيعات المعنيّين بهذا الأمر جميعهم، رقم: 7828، 1939/08/26، ثمانية وثائق من صفحة واحدة.

3- وأكّد بعد ذلك على ضرورة تزامن تطبيق الإجراءات التي اقترحها ضدّ (ح.ش.ج) في الجزائر وباريس؛ ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 6394، 1939/05/30، 3cab98، (CAOM)، ص04، و05.

4- لأنّه ذكّر وزير الداخلية في رسالته هذه بطلبه السابق في هذا الشأن، في مراسلاته لأيّام 04/28، و06 و1938/05/11، وقد سبق بيانها؛ ينظر: ص317-320.

5- ينظر: الرسالة، رقم: 2922 SP، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من ثلاث صفحات؛ أرفق بها نسخة من مشروع المرسوم، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ينظر: الرسالة، رقم: 176 CP، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من رسالته إلى وزير الداخلية، ليوم 07/15، بالإضافة إلى نسخة من مشروع المرسوم.

حلّ "حزب الشعب الجزائريّ"، يوم 1939/07/29[1].

لكنّ هذا المرسوم بقي طيّ الكتمان، وهو ما يفسّر رسائل الوالي العامّ الثلاثة إلى وزير الداخلية أيّام 10 و13 و1939/08/17، يلحّ فيها على ضرورة صدور مرسوم الحلّ قبل تاريخ الإفراج عن مصّالي ورفاقه، أو قبل نهاية شهر أوت على الأكثر، مدعّما طلبه كلّ مرّة بمستجدّات أنشطة الحزب، واستعداداته بصفة خاصّة لخروج قادته من السجن[2]. وجاء ردّ وزير الداخلية يوم 08/22 ببرقية، يخبره أنّ المرسوم الذي طلبه في مراسلته ليوم 08/10، قد تمّ إرساله بتاريخ ذلك اليوم[3]؛ ووصلت الرسالة المشار إليها آنفا، ومعها نصّ المرسوم يوم 08/23، مذكّرا إيّاه بضروة تطبيق المرسوم في الجزائر وباريس، في نفس اليوم المحدّد، وهو يوم الجمعة 08/25[4].

لكنّ يوم 08/23 صادف إمضاء معاهدة عدم الاعتداء بين ألمانيا وروسيا، وكان مفاجأة للعالم بأسره[5]، لأنّه يجعل احتمالات نشوب الحرب العالميّة مؤكّدة لا محتملة، ومنه وجدنا برقية أرسلها الوالي العام في ذات اليوم إلى وزير الداخلية، يوافقه فيها على المقترح الأوّل من المقترحات التي تمّ استعراضها في المكالمة الهاتفيّة التي جمعتهما يوم 08/22، ويتمثّل في عدم الإعلان حاليا عن مرسوم حلّ (ح.ش.ج)، وعدم إبلاغ المعنيّين به رسميّا، وحفظ المرسوم ليستعمل لاحقا إن دعت الضرورة إلى ذلك؛ غير أنّه يجب على المحافظ منع أنشطة الحزب، خاصة ما تعلّق منها بالإفراج عن مصّالي ورفاقه، بسبب الوضع الحالي، وضرورة الحفاظ الدقيق فيه على النظام العامّ[6].

ويبدو أنّ هذه التطوّرات بقيت محاطة بقدر من السرّيّة جدّ كبير، فقد اقترح تقرير مركز الاستخبارات والدراسات (CIE) بالجزائر، ليوم 08/25، في حال اندلاع الحرب، القيام بإجراءات صارمة ضدّ (ح.ش.ج)، منها حلّ الحزب، ومنع جريدتي "الأمّة" و"البرلمان الجزائريّ"[7]، وكأنّ شيئا ممّا ذكرناه آنفا لم يحدث بعد.

وممّا سبق نتج قرار محافظ عمالة الجزائر، الخاصّ بمنع أنشطة حزب الشعب الجزائري في تراب العمالة، على

1- ينظر: نصّ المرسوم يحمل إمضاءات: أ. لوبران (A. Lebrun)، رئيس الجمهوريّة؛ وإدوارد دلادييه (E. Daladier)، رئيس المجلس؛ وألبير سارو (A. Sarraut)، وزير الداخلية؛ وبول مارشندو (Paul Marchandeau)، حافظ الأختام ووزير العدالة، 1939/07/29، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

2- ينظر: الرسائل الثلاثة، بإمضاء: لو بو (Le Beau)، أرقامها على التوالي: 328 SP [كذا]، 3020 SP، 3353 SP، 3cab99، (CAOM)، وثائق: الأولى من صفحة واحدة، والثانية والثالثة من صفحتين.

3- ينظر: البرقية، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- أُرّخ المرسوم في هذه الرسالة سهوا بيوم 07/24، وصوابه ما ينصّ عليه المرسوم نفسه؛ ينظر: الرسالة، من غير ترقيم، 1939/08/22، عليها ختم البريد الوارد على مكتب الوالي العامّ، مؤرّخا بيوم 08/23، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من المرسوم.

5- ينظر: الحركة الاستقلاليّة في الجزائر101.

6- ينظر: البرقية، بإمضاء: لو بو (Le Beau)، رقم: 3418 SP، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

7- أضيفت بعد هذا الإجراء عبارة بخطّ اليد تتحدّث عن عدد خاصّ من "البرلمان الجزائريّ" في طور الإعداد؛ ينظر: التقرير، رقم: 782، 1939/08/25، موضوعه: آثار الوضعية العالمية في أوساط الأهالي بالجزائر، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02.

ما سبق بيانه؛ ويبدو أنّ هذا القرار، قد شمل حين تطبيقه منع جريدتي "الأمّة" و"البرلمان الجزائريّ"، ومصادرتهما يوم 08/27، في نفس يوم الإفراج عن قادة الحزب[1]، إذ لم نعثر على قرار المنع والمصادرة، على نحو ما وقفنا عليه بالنسبة لجريدة "الشعب"، ولا على تقارير تتحدّث عن تطبيق هذا الإجراء لا في الجزائر، ولا في باريس.

وبقي مرسوم حلّ الحزب محفوظا، إلى أواخر سبتمبر، حيث بدأت الإدارة الاستعمارية بالجزائر التفكير الجدّي في مسألة حلّ الحزب، وذلك بعد إعلان فرنسا الحرب على ألمانيا يوم 09/03، وانتهاء عملية استدعاء المجنّدين، وتمّ ذلك بالتنسيق -هذه المرّة- مع القيادة العسكرية بشمال إفريقيا، وكان على رأسها الجنرال نوقي (Nogues)، وتمّ الاتّفاق بين الطرفين على عملية كبرى ضدّ حزب الشعب الجزائريّ، وقد أطلع كلّ منهما وصايته بالخطّة ليأخذ موافقتها عليها، وتتمثّل في النقاط الآتية:

1. الإعلان يوم الإثنين 02 أكتوبر، وعلى أكثر تقدير يوم 04 منه، عن مرسوم حلّ الحزب، لأنّ مصّالي عازم على السفر إلى فرنسا يوم 10/05.
2. القيام في نفس يوم الإعلان عن المرسوم بتفتيشات في الجزائر وفرنسا، في منازل أبرز مسؤولي الحزب.
3. اعتقال عدد معتبر من مسؤولي الحزب، بعد ذلك، وفق رزنامة مدروسة.
4. اقتراح تغيير تاريخ صدور المرسوم من 07/29 إلى 09/26، تجنّبا لتساؤلات الرأي العامّ حول هذا الفارق الكبير بين صدور المرسوم وتطبيقه فعليّا من جهة، وليقترن من جهة أخرى بالعملية المماثلة ضدّ الحزب الشيوعيّ[2].

وقد جاءت موافقة وزير الداخلية على هذه الخطّة المقترحة -فيما يبدو- يوم 09/30، وهو ما استدعى تنبيه الوالي العامّ له، في ذات اليوم، إلى ضرورة تعويض اسم مارشندو (Marchandeau) باسم وزير العدل الجديد، جورج بوني (Gorges Bonnet)، في نصّ المرسوم، ليتّفق وتعديل تاريخ صدوره[3]؛ وفي يوم 10/02 أبرق وزير الداخلية مرّة أخرى إلى الوالي العامّ، تبعا لبرقيته ليوم 09/30، ليؤكّد له نشر مرسوم حلّ (ح.ش.ج) في الجريدة الرسميّة، لنفس اليوم، وتقديمَه التوجيهات اللازمة للانطلاق في تطبيقه بفرنسا[4]؛ واكتفت جريدة ليكو دالجي

1- ينظر: الأنشطة الأهليّة في عمالة الجزائر، (CIE) الجزائر، شهر أوت 1939، 11h58، (CAOM)، ص10. وقد حدّد قنانش تاريخ هذا المنع بيوم 08/24؛ ينظر: الحركة الاستقلالية في الجزائر101؛ وعيّن هو ومحفوظ قدّاش تاريخه يوم 08/26؛ ينظر: حزب الشعب الجزائريّ17.

2- ينظر: برقية الوالي العامّ إلى وزير الداخلية، رقم: 479 CS، 1939/09/28، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحتين؛ وبرقية الجنرال نوقي إلى وزير الدفاع الوطني والحرب، رقم (مكتوب بخطّ اليد): 2813 BP، 1939/09/29، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: برقية الوالي العامّ إلى وزير الداخلية، رقم: 486 CS، 1939/09/30، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- ينظر: برقية وزير الداخلية إلى الوالي العامّ، من غير ترقيم، 1939/10/02، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وقد أبرق له يوم 10/01، تبعا للمكالمة الهاتفية التي جمعتهما، ليخبره عن نشر هذا المرسوم في الجريدة الرسمية في الغد من ذلك، ويطالبه بضمان تطبيقه؛ ينظر:

(L'Echo d'Alger) في الإعلان عن الخبر بمربّع صغير جدّا، لا يتجاوز ستّة أسطر[1]، تطبيقا -على الأرجح- لتوجيهات الإدارة الفرنسية بفرنسا والجزائر، بضرورة تحجيم الحدث، وعدم إعطائه أدنى اهتمام؛ ولم يرسل وزير الداخلية نسخة من المرسوم معدّلا إلى الوالي العامّ إلاّ يوم 1939/10/19[2].

في هذه الأجواء أفرج عن مصّالي الحاج ومفدي زكرياء وخليفة بن عمّار، على سا 03 من صباح يوم 1939/08/27، بعد أن أخطرهم رسميّا قائد الشرطة الخاصّة بقرار المحافظ، ليوم 08/26، وأخذ على ذلك إمضاءاتهم في محاضر خاصّة بكلّ واحد منهم[3]، وعند خروجهم من السجن قادتهم الشرطة (Police d'état) جميعهم إلى منزل مصّالي الحاج، شارع فرانسوا فيون، رقم: 15، إذ صرّحوا برغبتهم في الذهاب إليه[4]؛ وسُلّم لحول الحسين إلى فرقة الدّرك، لتقوده إلى فرقة المبعدين بالمشرية[5]؛ وعلى سا 05 و30د أخذت الشرطة مفدي زكرياء وخليفة بن عمّار إلى فندق ساحة الحكومة (Place du Gouvernement)، شارع دي ديفان (Du Divan)، حيث حجز كلّ واحد منهما غرفة، واستقبلا فيه عددا من الأصدقاء[6].

وهكذا طويت صفحة حاسمة من تاريخ حزب الشعب الجزائريّ، وتاريخ الحركة الوطنية، ومن حياة مفدي زكرياء، وكانت صفحة حافلة بالأحداث والوقائع، وكان لمفدي بصمته الواضحة فيها، وهو ما يبرّر هذا التدقيق في تتبّع تفاصيلها، وربط الأحداث ببعضها البعض، لإبراز نضال الحزب، والوقوف على الجهد المخلص لمفدي في سبيل قضية وطنه، في فترة حرجة من تاريخ الجزائر، تحدّد فيها الموقف من الاستعمار، والهدف الواجب السعي إليه، وهو الاستقلال، وظهرت بوادر الطريق الصحيح إليه، وهو الثورة والجهاد. ومن خلال معرفتنا بمفدي المناضل، سنتمكّن من التعرّف بصورة أوضح على مفدي الأديب، باعتبار النضال والأدب وجهان لعملة واحدة في شخصيته.

برقية وزير الداخلية إلى الوالي العامّ، من غير ترقيم، 1939/10/01، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

1- ينظر: حلّ حزب الشعب الجزائريّ، قصاصة المقال من جريدة ليكو دالجي (L'Echo d'Alger)، ليوم 10/04، 3cab99، (CAOM).

2- ينظر: رسالة وزير الداخلية إلى الوالي العامّ، من غير ترقيم، 1939/10/19، موضوعها: حلّ جمعية "حزب الشعب الجزائريّ"، 3cab99، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق بها نسخة من المرسوم، 1939/09/26، ونصّه يحمل إمضاءات: أ. لوبران (A. Lebrun)، رئيس الجمهوريّة؛ وإدوارد دلادييه (E. Daladier)، رئيس المجلس؛ وألبير سارو (A. Sarraut)، وزير الداخلية؛ وجورج بوني (Gorges Bonnet)، حافظ الأختام ووزير العدالة؛ وثيقة من صفحة واحدة.

3- ينظر: محاضر الإخطار الثلاثة، تحمل توقيعات المعنيّين: مصّالي ومفدي وخليفة، رقم: 7828، 1939/08/26، 4I3، (CAOM)، ثلاثة وثائق من صفحة واحدة؛ والمحضر الخاصّ بمفدي، الملحق627.

4- ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7830، 1939/08/27، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ ووثيقة تصريح كلّ معتقل بوجهته بعد إطلاق سراحه، بخطّ يده وإمضائه، في الملحق628.

5- ينظر: رسالة المحافظ إلى الوالي العامّ، رقم: 787، 1939/08/28، موضوعها: (ح.ش.ج): الإفراج عن مصّالي الحاج ورفاقه، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ينظر: تقرير قائد الشرطة الخاصّة، رقم: 7863، 1939/08/28، موضوعه: حزب الشعب الجزائريّ، 3cab98، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

الباب الرابع:

البدايات 1921ـ1931

الفصل الأوّل: في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس

ميلاده أديبا شاعرا:

إذا بحثنا في أصول مفدي من جهة أبيه وأمّه، عمّن كان بإمكانه أن يورّثه هذا التوجّه الأدبيّ في حياته، ويقتبس منه موهبة الشعر، فلا نجد سوى جدّه الثاني الشيخ الحاج سليمان بن عيسى، فقد تحدّثت المصادر عن قصائد له في الأدب والأخلاق، وعن قصيدة مدح بها الشيخ باب بن يونس الغرداويّ[1].

وما وجدناه من ذلك قصيدة بخطّه[2]، من ثلاثة وثلاثين بيتا، مطلعها:

خلـــيليَّ مات الدّيـــنُ ديـــنُ الإبـــاضيا، فأقْـــبَرَهُ الغِـــربانُ تـــحت الكراسِـــيا[3]

والقصيدة يشكو فيها زمانه، والفتن التي أنهكت وادي مزاب، من ذلك:

أصابتْ بـــنـــاتُ الدّهرِ بَدْرَيْنِ في الثّرى، ولا سيّما مستـــأسِدَ الشّـــبـــلِ شـــاريا

وذلك مـــنكـــرٌ وبـــعـــضُ شـــماتـــةٍ، وطـــعنٌ عظـــيمٌ فـــي طـــريقِ الإباضيا

وقد ورد فيها عرضا في عدد قليل من الأبيات مدح للشيخ باب بن يونس، إذ ذكر فيها اسمه صراحة، وذلك حيث يقول:

ألا جدّدوا عـــزمًا وحـــزمًا، واسمـــعـــوا لشيـــخٍ عظيمِ الشـــأنِ للصّلـــحِ ناديـــا

سليلُ الكريمِ ابنِ الكريـــمِ ذوي الهـــدى، حليمًـــا وقـــورًا، "بـــابَ" للخيرِ داعيا[4]

ويغلب على ظنّنا أن تكون هذه القصيدةُ القصيدةَ المعنيّة عند حديث المصادر عن قصيدة له في مدح الشيخ باب بن يونس.

وإذا لاحظنا تعثّرا في الصياغة اللغوية لهذه الأبيات وركاكة -وهي أحسن ما اخترناه منها باستثناء المطلع- ممّا يدلّ على تحكّم الوزن فيه، فإنّنا نجدها تسلم له القياد نسبيّا عندما يصل في ختام قصيدته إلى حمد اللّه تعالى ودعائه،

1- ينظر: رسالتا مشايخ بني يزقن إلى الشيخ أبي اليقظان، كراس رقم 01، من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، مكتبة الأخ الحاج سعيد باحمد بغرداية؛ وتاريخ بني مزاب141.

2- القصيدة غير منسوبة، مكتبة الشيخ ازبار، وثيقة من صفحة واحدة. وعثرنا على نسخة ثانية من القصيدة، جاء في أوّلها: «هذه القصيدة للشيخ العالم، العلاّمة، الحاج سليمان بن عيسى اليسجنيّ»، غير أنّ الكثير من أبياتها كان غير واضح؛ ينظر: أرشيف مكتبة جمعية أبي إسحاق اطفيش لخدمة التراث بغرداية، وثيقة من صفحتين. ووجدت على غلاف كرّاس من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، مكتوبا ما نصّه: ««تنبيه: مؤلّف قصيدة خليليّ مات الدين دين الإباضيا، اسمه الحاج سليمان بن عيسى»؛ ينظر: كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، مكتبة الحاج سعيد باحمد بغرداية.

3- جاء في اللسان: «اجعل لهذا الحائط كرسيّا، أي: اجعل له ما يعمده ويمسكه» لسان العرب6: 194.

4- القصيدة غير مؤرّخة، و لم نعثر على أثر للأحداث التي يشير إليها، بما يمكّننا من تحديد الفترة التي قيلت فيها؛ ينظر: مكتبة الشيخ ازبار.

والصلاة على الرسول صلّى الله عليه وسلّم، ممّا يدلّ على تمرّسه بمثل هذه الموضوعات الدينيّة، وذلك حيث يقول:

فسبحان من يجـــري القضاء كما يشا ... وليس له في الـــخـــلق مثـــلٌ مساويا

محيطٌ بما قد كان فـــي القلب والحشا، ... له اللطفُ والتدبيرُ في الـــخلق جـــاريا

له الحمد في الأولـــى، ومنّـــتـــه التي ... على الخلق في الأخرى لـــحضْرٍ وباديا

فيا ربُّ عـــبـــدُك الـــمضيّـــعُ طامعٌ ... على ما مضى عفوًا، ومـــا كان جائيا

سألتك عفـــوًا يا إلـــهـــي وخالقي، ... وسترا لـــما بـــدا، وما كـــان خافيا

فهبْ ليَ سؤلي يـــا كريـــمُ تفضّـــلاً، ... ويا أكرم الـــمعطيـــن حقّقْ رجـــائيا

وصلّ على قـــطبِ الأنـــام وروحِها، ... نبيءِ الهدى ما الـــماءُ في العـــودِ جاريا

أبي القاسم المبعـــوث للخـــلق رحمةً، ... علـــيه ســـلامُ الله مـــا الدّهـــرُ باقيا

وعثرنا له أيضا على قصيدة له في آداب العلم، جاء في أوّلها: «يقول العبد الفقير إلى رحمة ربّه سليمان بن عيسى، لطف الله به»[1]. مطلعها:

الحمـــد لله الحكيـــم الفاطر ... والحمـــد للّه العـــزيز القادر

صلاتُه مـــعْ ســـلامـــه على ... محمّدٍ خيرِ رســـولٍ أُرســـلا

إلى أن يقول:

وبعدُ، خـــذْ قصيدةً مرجّزه ... حـــاويةً آدابَ عـــلمٍ موجزَه

حافظُها تنفـــعُه إنْ عـــملا ... بها، بفضلِ الله خالـــقِ العُلا

وهي على منوال ما جاء في القسم الأخير من القصيدة الأولى، وهو ما قد يدلّ على أنّ استعمال الجمع في الحديث عن شعره في موضوع "الآداب" له ما يبرّره، غير أنّه لم يصل إلينا منه غير هذه القصيدة.

إنّ هذا الشعر يقدّم صورة عن واقع الشعر والأدب في وادي مزاب، إلى حين أخذ أبنائه بأسباب التعليم العصريّ في بداية القرن العشرين، وكانت البعثة العلميّة المزابيّة بتونس رائدة فيه، ولا أدلّ على هذا الواقع، والنقلة النوعية التي شهدها بفضل النهضة العلميّة التي هبّت نسماتها من تونس الخضراء، من هذه الأسطر للشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش، أحد شيوخ البعثة، في جوابه على رائية الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ في تقريظه[2]، وذلك حيث يقول: «[...] وليس بدعا أن أرى من فكرتك السامية المستنيرة هذه اللؤلؤة المنظومة، وإنّما هي بشارة تؤذن بحياة الشعر في وسطنا الذي نفقت فيه، أو كادت تنفق روح الخيال الصحيح، لولا أن منّ الله عليه

1– أرجوزة في فضل العلم وآداب التعلّم، لسليمان بن عيسى، ضمن مجموع، مخطوط رقم: م49، مكتبة آل فضل؛ وتقع القصيدة في هذه النسخة في سبعة وستين بيتا ونصف. وتوجد نسخة ثانية في مكتبتي الخاصّة، من تسعين بيتا، جاء في أوّلها نفس العبارة الواردة في النسخة الأولى منها.

2– بمناسبة إصداره كتاب "الذهب الخالص"، للشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش.

بالنهضة الحديثة، فأحيت ما أشرف على الأفول؛ فحيّا الله تلك النهضة، وأيّد أبطالها، وأمدّ بالعناية أوتادها. ولقد سرّني -والله- أن رأيت نَفاق سوق الأدب في شبابنا الناهض، فمن شاعر، ومن ناثر، ومن شاعر وناثر، عسى الله أن يعيد بكم عصر الأحنف بن قيس التميميّ، وصحار بن العبّاس العبديّ، والخليل بن أحمد، رحمهم الله جميعا، وأضرابهم من أئمّة البيان، وفرسان العربيّة [../..]. لقد امتلأت سرورا -والله- بحياة الشعر بيننا ...[كذا]، ورأيت لشاعر الشبيبة[1] أسلوبا محكما، وذوقا سليما، وهذا أمر طالما حنّت إليه نفسي، واشتدّت حسرتي، إذ لم أقف في تاريخ الحياة الأدبيّة في وطننا[2] على شعر فخم، أو على الأقلّ متين، فيحقّ لي أن أقول ما قال ضياء الدين -رحمه الله- في فنّ التجويد: «لقد حُرِم منه أهل مذهبنا»؛ وأنا أقول: إنّ الشّعر الفخم، أو الخيال الواسع المتين، حُرِم منه أهل وادي ميزاب، والحمد لله الذي أنبته في شبابنا الناهض الذي يشتعل إخلاصا وعزّة، ورسوخا في المبادئ الصحيحة، ذلك الشباب الذي سيقضي على أدران الجمود والغباوة، ويجدّد في الوطن بناء المكرمات التي أشادها السابقون، ويحيي موات العلم»[3].

غادر مفدي زكرياء بني يزقن ومزاب في سنّ السادسة، ومكث بعنّابة ستّ سنوات أخرى، قبل أن يسافر إلى تونس سنة 1920، فهل تحصّل على مستوى علميّ في هذه السنوات الأولى من حياته، يؤهّله لاكتشاف هذه الموهبة الأدبيّة في نفسه، ويفتّقها فيها؟

إنّ كراريسه الدراسيّة الأولى، في الشهرين الأخيرين من سنة 1338هـ[4]، وكان آنذاك تلميذا بمدرسة "السلام"، وإن كانت تدلّ على امتلاكه مبادئ القراءة والكتابة، لكن ليس بما يتناسب مع سنواته الاثنتا عشرة، فخطّه كان بعيدا عن الخطّ الجميل الذي نعرفه له، وأخطاؤه كانت كثيرة بجميع أنواعها حتّى في النصوص المنقولة، كما كانت كراريسه تفتقر إلى النظام وحسن التنسيق، ولعلّ أبرز شاهد على ذلك هو كتابته لقصيدة حافظ إبراهيم في رثاء محمد فريد بك، ومطلعها:

من ليوم نحن فيه، من لغد، مات ذو العزمة، والرأي الأسدّ[5]

فقد أعاد كتابتها ثلاث مرّات، مع وجود أخطاء كلّ مرّة، وإذا صحّح خطأ وقع في آخر جديد، كأن يكتب مرثية:

1- يعني: مفدي زكرياء.

2- يعني: وادي مزاب.

3- كلمة الأستاذ العلاّمة الشيخ إبراهيم اطفيش، مجلّة "الوفاق"، المجلّد 03، الجزء 30، 1344/01/01هـ، [1925/07/22م]، مكتبة السيّد أبصير الحاج محمد بن عمر، ببني يزقن، ص39، 40.

4- التحق مفدي بمدرسة السلام في أواخر شهر جويلية 1920م، أواسط ذي القعدة 1338هـ؛ ينظر: الباب الأوّل، ص73، 74.

5- ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصحّحه وشرحه ورتّبه: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة- مصر، ط03: 1987، ص511-514.

«مرفية»[1]، والمفترض فيها أنّه نقلها من السّبورة، و لم تمل عليه، ممّا يدلّ على أنّ القدرة على التركيز والانتباه ما زالت في مستوياها الدنيا بالنسبة لتلميذ من طرازه، ويدلّ بدوره على حداثة عهده بمقاعد الدراسة النظاميّة.

ثمّ إنّ تكرار كتابتها، وكثرة التشطيب فيها، أوهمني -بداية- بأنّها محاولة شعرية مبكّرة لمفدي، فهي أشبه بمسوّدة قصيدة، غير أنّ مضمونها ولغتها، انطلاقا من مطلعها، سرعان ما استبعد ذلك، وقادني التثبّت إلى انتسابها إلى شاعر النيل. غير أنّ هذا الأمر لفت انتباهي إلى أنّ مفدي كان له كرّاسان، كرّاس مدرسيّ، وآخر يعيد فيه كتابة ما كتبه في الكرّاس الأوّل، على سبيل ترسيخ المعلومات، وتصحيح الأخطاء، وهو ما تأكّد عندي بتتبّع كراريسه الدراسيّة، في سنتها الأولى خاصّة، واصطلح مفدي على تسمية الثاني منهما: "كرّاس التبييض"؛ ولعلّ في ذلك ما يشير إلى الطريقة التي اعتمدها رؤساء البعثة المزابيّة في تونس -في تقديرنا- لتدارك النقص والثغرات التي كان يعاني منها تحصيل تلاميذهم الدراسيّ، لعدم انتظامه فيما سبق في الأغلب، ومحدوديته كما هو الحال بالنسبة لمفدي.

وسرعان ما نجد تطوّرا بيّنا، وتداركا للكثير من النقائص التي كان يعاني منها، في وقت قياسيّ، بداية من "كراس التبييض"، الذي افتتحه بعد شهرين من بداية دراسته بتونس، في 1339/01/21هـ، 1920/10/15م، وانتهاء بكراس ثالث، يظهر فيه هذا التطوّر أوضح ما يكون، بدأ فيه تبييض دروسه في 1339/05/21، 1921/01/31[2]، حتّى لكأنّه كرّاس تلميذ آخر غير مفدي؛ يقول في ذلك يحي الشيخ صالح: «الخطّ في الكرّاسات الأولى للتلميذ زكري خطّ مغربي، أقرب إلى عدم الوضوح، إن لم نقل الرداءة، لكنّه تطوّر وتحسّن، إلى حدّ أن نجد في الكرّاس الواحد ذي الثلاثين صفحة فقط فروقا كبيرة، قد تدفع المتأمّل في خطّها إلى طرح فرضية أن تكون الكتابات الأخيرة لغير التلميذ /زكري، لكنّها فرضية لا تثبت أمام التأمّل والمقارنة، والذي يَثْبُت هو مدى سرعة مفدي في التطوّر والتحسّن»[3].

أمّا سرّ هذه النقلة النوعية فنجده في قول مفدي متحدّثا عن تعلّمه بتونس، بمعية رمضان حمود: «كنّا في هذا الطور ألزم من الظلّ للجسم، فكنّا نتناول ثمار الدروس الشهيّة في تونس الخضراء: المدرسة أمّنا، والعلم أبونا»[4]، وهو بذلك يشير إلى التفرّغ التامّ الذي وفّره رؤساء البعثة لتلاميذهم، فلم يكونوا يشتغلون بغيره تماما، ويؤكّده وصف أحد رؤسائها لطلبته، إذ يقول: «والطالب الميزابيّ في تونس يغلب عليه الاعتناء والجدّ والمثابرة، والعزلة التامّة، وعدم الاشتغال بما يصدّ عن الدرس والتحصيل، بسبب البرامج المحكمة التي وضعت له من رؤسائه»[5]؛ كلّ

1- ينظر: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، لسنة 1338هـ، وعددها ثلاثة كراريس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

2- ينظر: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، لسنة 1339هـ، وعددها عشرة كراريس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

3- مفدي زكرياء تلميذا بين الثانية عشرة والسادسة عشرة من عمره، من خلال كرّاساته المدرسيّة، د. يحي الشيخ صالح، الملتقى الدوليّ: مفدي زكرياء شاعر التحرّر، المنعقد يومي 11 و12 ديسمبر 2007، وثيقة مطبوعة في 28 صفحة، ص05، 06.

4- رمضان حمود: حياة الرجل الراحل، لمفدي زكرياء، جريدة "الإصلاح"، س03، ع13، 1348/09/29هـ، 1930/02/27م، ص03.

5- ينظر: بحث حول الجالية المزابية بتونس، للشيخ محمد بن صالح الثمينيّ، بخطّ عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، غير مؤرّخ، أرشيف الشيخ الثمينيّ،

ذلك يفسّر بدوره قولَ مفدي متحدّثا عن أثر تونس في مسيرة حياته: «سبب ميلي الكبير إلى تونس، هو أنّ عقلي فطم بتونس»[1].

لقد وصف رمضان حمود طبيعة التعليم الذي تلقّاه وزملاؤه، في مدرسة "السلام"، فقال متحدّثا عن نفسه: «أُدْخِلَ مدرسة حرّة، والنظام فيها لم يبلغ درجة عالية، إن لم أقل متوسّطة، لأنّ مديرها كان صحفيّا، أكثر منه رقيب مدرسة [...] إنّها شبيهة بناد أدبيّ فيه تتربّى ملكة التفكير، وفيه تغرس الأخلاق الفاضلة في القلوب، ولكنّه عن القواعد العلميّة الصحيحة خال، ومن توسيع نطاق المدارك صفر»[2]؛ إنّ هذا الكلام وإن جاء في معرض الانتقاد، فإنّه يكشف عن طبيعة خاصّة تميّز بها التعليم الذي تلقّاه مفدي في مدرسته الأولى، وكان له دور في توجّهه الأدبيّ عموما، والشعريّ على وجه الخصوص، فقد كانت أشبه بناد أدبيّ؛ ويؤكّد مفدي هذه النزعة الأدبيّة الفنيّة لهذا التعليم عند تحديده لبعض الموادّ التي كان عليها مدار الدرس، إذ يقول: «درسنا في الأولى [يعني: مدرسة "السلام"]: علم الخطّ العربيّ والفارسيّ والرقعيّ والكوفي. تحصّلنا على ملكة لا بأس بها في الإنشاء، وملأنا قرائحنا بقسم كبير من المحفوظات المنتخبة شعرا ونثرا»[3].

فتعليم أنواع هذه الخطوط من شأنه أن ينمّي الحسّ الفنيّ لدى التلميذ؛ وممّا يشهد على تحصّله على ملكة لا بأس بها في الإنشاء، هو احتفاظ أستاذه الثمينيّ بأحد إنشاءاته، لتميّزه في نظره بلا ريب[4]، وهو مؤرَّخ، في 1339/11/02هـ، [1921/07/08م]، عنوانه "كيف يجب أن نتأدّب"، يقول في مقدّمته: «اعلم أنّ الأدب روح الحياة الاجتماعيّة، وهو من أخلاق المؤمنين، وهو سبب الإخلاص والسعادة الأبديّة، وهو قسمان: غريزيّ وكسبيّ؛ فالغريزيّ ما لم يكسبه الإنسان من غيره، بل خلقه الله غريزي[كذا] في نفسه طبيعة؛ والكسبيّ هو ما كسبه الإنسان من غيره كالمواعظ والأشعار الأدبيّة وغير ذلك. وكلاهما يعينان[كذا] المرء في جميع حركاته، فالكسبيّ يقوّي الغريزيّ، وهذا يلزم معرفته قبل كلّ شيء، لأنّ الأدب لا يكون حقيقة حتّى إذا عُرف»[5].

أمّا ما يستوقفنا في محفوظاته التي ملأ بها قريحته، فغلبة الشعر عليها، وكانت عبارة عن أبيات شعرية منتخبة على أساس من مضمونها الأخلاقيّ، مرتّبة لا بحسب موضوعاتها، وإنّما بحسب قافيتها، فهي مرتبة ترتيبا ألفبائيّا

مكتبة الاستقامة، ص5.

1- زيارة خاطفة، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون".

2- الفتى24.

3- رمضان حمود: حياة الرجل الراحل، لمفدي زكرياء، جريدة "الإصلاح"، ع13، ص03.

4- وهو ما كان يفعله -فيما يبدو- حتّى مع غيره، فنجد إنشاء لزميله عبد الله بوراس، مؤرّخا في 1339/11/26هـ، 1921/08/01م؛ وكان هذا ديدنه مع إنشاءاته هو، أي: الشيخ الثمينيّ، في مرحلة تعلّمه بتونس. ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- الإنشاء، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وهو أقدم نصّ عثرنا عليه من إنشاء مفدي؛ ينظر: الملحق594.

بحسب حرف الرويّ، تحمل عنوان الكتاب الذي اقتبست منه، وهو "زهر الربيع في المثل البديع"[1]، وتوظيف الشعر بهذه الطريقة في محفوظات التلميذ، من شأنه ترسيخ القيم والمضامين الدينيّة والأخلاقيّة التي تحملها في نفس التلميذ، كما تنبّه موهبة الشعر فيه، وتستثيرها من مكمنها، فلا عجب في أنّنا لا نكاد نجد تلميذا متميّزا من تلاميذ البعثة، إلاّ وكان يقرض الشعر، ومنهم من نبغ فيه، كرمضان حمود، ومفدي زكرياء، وأبو الحسن علي بن صالح.

إنّ مدرسة "السلام" التي درس فيها مفدي لما يزيد على سنتين، من جويلية 1920 إلى أكتوبر 1922، كان لها –في تقديرنا– أبلغ الأثر في توجّه مفدي الأدبيّ، وفي اكتشاف موهبته الشعريّة، بسبب من نزعتها الأدبيّة الواضحة[2]؛ كما أنّ البعثة المزابية بتونس كان لها دورها في ذلك أيضا[3]، فرؤساء البعثة الثلاثة: الشيخ أبو اليقظان، والشيخ أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، والشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، كانوا أدباء لهم مشاركات أدبية في الصحافة التونسيّة، كما كانوا شعراء أيضا، فلا غرابة أن اتّصل الزاهريّ، عند إنجازه لكتابه شعراء الجزائر في العصر الحاضر، برؤساء البعثة، ما عدا الشيخ أبا إسحاق بسبب انتقاله إلى مصر، وبتلميذين من البعثة، فاستجاب له الشيخ أبو اليقظان[4]، ومفدي[5]، ورمضان حمود[6]، وتخلّف الشيخ الثمينيّ بسبب رفض والده[7].

1– مع وضع عنوان مناسب للبيت أو المقطوعة المنتخبة من كلّ قافية؛ مثاله ما ورد في الصفحة الأولى من أحد كراريسه: «قافية الألف: في الردّ على المكابد[كذا. والصواب: المكابر]

	فقل لمن يدّعي في العلم فلسفة:	علمت شيئا، وغابت عنك أشياء.
في الوداد:	ولا خير في وداد إذا لم يكن له	على طول الحادثات بقاء.
قيل في القضاء:	إذا عقد القضاء عليك أمرا	فليس يحلّه إلاّ القضاء.
قيل في الشكوى:	شكوت، وما الشكوى لمثلي عادة،	ولكن تفيض العين عند امتلائها.
قيل في المعاشرة:	كم صاحب عاديته في صاحب،	وتصالحا، وبقيت في الأعداء.
قيل في المداراة:	قالت الضفضع[كذا] قولا،	فسّرته الحكماء:
	في فمي ماء، وهل ينـ	ـطق من في فيه ماء».

كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، لسنة 1339هـ، أرشيفه الخاصّ بمكتبته؛ وينظر: زهر الربيع في المثل البديع، لمجهول، الرسالة الثامنة في "التحفة البهيّة والطرفة الشهيّة"، مجموعة مختارة من عيون الأدب العربيّ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت–لبنان، ط1: 1401هـ/1981م، ص79، 80.

2– وهو الدور الذي لم تشاركها فيه المدرسة القرآنية الأهليّة، إذ لم يطل مقام مفدي بها، فلم يزد على السنة، ودخلها مفدي بعد أن صدرت شهادة ميلاده شاعرا، وكتب عددا من قصائده الأولى.

3– لا ريب في دور رؤساء البعثة المزابية الفاعل في مدرسة السلام، وقد سبق بيانه؛ ينظر: الباب الأوّل، ص74، 75؛ غير أنّنا لا نعلم على وجه اليقين هل امتدّ هذا الدور إلى البرنامج الدراسيّ فيها، وطبعه بهذا الطابع الأدبيّ الخاصّ.

4– ينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 109–123.

5– ينظر: نفسه1: 150–159.

6– ينظر: نفسه1: 169–176.

7– ينظر: رسالة الحاج صالح بن يحي إلى ابنه الشيخ الثمينيّ، 1344/08/05هـ، 1926/02/18م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وكان السبب

متى بدأ قرض الشعر؟

يقول مفدي لمحاوره بلقاسم بن عبد الله: «قد شرعت في قرض الشعر سنة 1925 [...]، بقصيدة في رثاء كبش الفداء، بعيد الأضحى، متأثّرا بمذهب أبي العلاء المعرّي، وأتذكّر طالعها، وبيتا آخر:

لـــهـــفي على شاة لنـــا قـــد قـــيّدت للـــذّبـــح، وهـــــي نـــقـــيّـــة الأردان

استضعفـــوكِ، فلـــذّ لحمُـــك عـــندهم، هلاّ استـــلـــذّوا لحـــم لـــيـــث قاني[1].

[...] أمّا القصيد الثاني، فكان في تمجيد جهاد الريف، بقيادة الزعيم الخالد، الأمير عبد الكريم الخطّابيّ [...]، كما كنت نظمت أناشيد حماسية كثيرة أخرى في النضال الدستوريّ، وفي الحرب الطرابلسيّة، ستنشر في ديوان "محاولات طفولة"»[2].

إنّ حديث مفدي عن أناشيد حماسية كثيرة أخرى، وتحديد موضوعها بالنضال الدستوريّ، والحرب الطرابلسيّة، يلقي بظلال من الشكّ على أولية قصيدته في كبش العيد، وعلى ابتدائه قرض الشعر سنة 1925، لأنّ الحرب الطرابلسيّة –بصفة خاصّة– كانت قبل هذه السنة، وهو ما يدعونا إلى مزيد التثبّت من تصريحات مفدي في هذا الشأن أيضا:

ما يمكن أن نطمئن إلى صحّته في كلام مفدي، هو أن قرضه للشعر إنّما كان في البعثة المزابيّة بتونس، ويؤكّده مستواه الدراسيّ المتواضع عندما حلّ بها، ويدعم قصّته مع كبش العيد ما رواه لي السيّد محمد بن محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، عن والده الشيخ الثمينيّ، من أنّه أجبر مفدي على مشاهدة ذبح أضحية العيد، خلال دراسته بتونس، عندما عبّر عن عدم قدرته على رؤية هذا المشهد الدمويّ، ليمكّنه من التغلّب على خوفه، ويقوّي نفسه وعزيمته في مواجهة قساوة الحياة[3].

إنّ كراريس متابعة مصاريف تلاميذ البعثة، تستغرق سنوات إقامة مفدي بتونس كاملة، وكان رؤساء البعثة يسجّلون فيه أيّ سنتيم صرفوه، تبرئة لذمّتهم أمام الله، وإزاء أولياء تلاميذهم. وعند فحصنا لها بحثا عن مصروف التلاميذ في أعياد الأضحى ما بين سنتي 1339، و1343هـــ[4]، انتهينا إلى ما يلي:

في عيد 1920 كانت البعثة في أوّل عهدها، ومرّت البعثة في سنتي 1921، و1922 بأزمة مادّية، يشهد لها

الرئيس لرفضه، هو قناعته الدينيّة بحرمة التصوير الفوتوغرافيّ.

1– شاعر الثورة التحريريّة مفدي زكرياء في الصحافة الوطنيّة32. وينظر: زيارة خاطفة، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون".

2– شاعر الثورة التحريريّة مفدي زكرياء في الصحافة الوطنيّة32.

3– في لقاء لي معه بتونس في مارس 2007.

4– ويوافق تباعا: 1920/08/25، بعد شهر تقريبا من وصول مفدي إلى تونس، و1921/08/14، و1922/08/04، و1923/07/24، و1924/07/13، و1925/07/02، وغادر مفدي تونس يوم 1925/11/15.

الصعوبات التي كان يجدها رؤساء البعثة في تجديد كراء الدار كلّ سنة، كلّ ذلك يستبعد التضحية بكبش العيد في هذه السنوات الثلاثة، فكان الرؤساء يكتفون فيه بما يسمّونه معروف أو صدقة العيد[1]؛ ثمّ بدأت أحوال البعثة تتحسّن تدريجيا بداية من سنة 1923، بعد إبعاد الشيخ أبي إسحاق اطفيش إلى مصر، وقد سبق تفصيل كلّ ذلك[2]؛ غير أنّنا لا نجد أثرا لكبش العيد في سنة 1923[3]؛ ثمّ نقرأ في كرّاس متابعة مصاريف مفدي، يوم عيد سنة 1924، بخطّ الشيخ الثمينيّ: «كبش العيد، وكراء لرادس: 7.15 فرنكا»[4]؛ بينما كان الشيخ الثمينيّ غائبا في عيد سنة 1925، ولا نجد في كرّاسَيْ مفدي وإبراهيم بن عمر دواق سوى ما يلي: «فسحة العيد، والغداء: 5.10 فرنكا»[5]. كلّ هذا يرجّح لدينا أنّ قصّة مفدي مع كبش العيد كانت في عيد سنة 1342هـ/ 1924م، وليس في سنة 1925، على ما جاء في حواره مع بلقاسم بن عبد الله.

وفي رسالة الشيخ أبي إسحاق إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1922/06/25، جاء ما يلي: «[...] لقد اهتزّت أعطافي، واستفزّني الطرب الآن أثناء الكتابة لهذه الأسطر، بعد تأثّري لذكرى أولئك الجهابذة العاملين، بشاعر الشبيبة، إذ جاءني بقصيدة من بنات أفكاره في الحماسة والفخر والاستنهاض، ويدلّك على مقدارها قوله فيها:

ولســـت أبـــالـــي إن دهـــتني ملمّة   على وطـــني يوما، ولـــو مقـــعدي الجمر

وأسحر من ذلك خاتمتها البديعيّة:

ســـلام ســـلام يا بنـــي الشّـــرق قائلا: ليرتـــفع الإســـلام، وليـــنـــته القهر[6].

وختم الشيخ الثمينيّ جوابه بقوله: «وأرجو أن تتحفني بقصيدة شاعر الشبيبة، والسلام»[7]، فما كان من الشيخ أبي إسحاق إلاّ أن أرسل إليه القصيدة، وهي بعنوان "تنبيه النيام من بني الإسلام"، وعدد أبياتها واحد وعشرون بيتا، ومطلعها: [من الطويل]

هلمّوا بنـــي الإســـلام قـــد عظم الأمر،   وهُـــبّوا فما بعد الـــذي نالـــنـــا عـــذرُ

1- وجدنا في كراريس متابعة مصاريف كلّ من إبراهيم بن عمر دواق، وعبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، ومحمد بن الحاج بكير الثمينيّ، في عيد سنة 1921، بخطّ الثمينيّ: «سياحة يوم العيد وقبله، ومعروف العيد، وإصلاح قلنسوة: 7.75 فرنكا»، مع اختلاف في العبارة من كرّاس لآخر، والمؤدّى واحد؛ وفي كرّاس رمضان حمود، في عيد 1922، بخطّ أبي إسحاق، لغياب الشيخ الثمينيّ: «صدقة العيد، وحلق الوادي: 5.20 فرنكا»؛ تنظر الكراريس: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بمكتبة الاستقامة، بني يزقن، وبتونس.

2- ينظر: الباب الأوّل، الفصل الثاني: في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس.

3- نقرأ في كرّاسي متابعة مصاريف إبراهيم بن عمر دواق، ويوسف بن محمد بن سليمان ابليدي، بخطّ الثمينيّ، ما يلي: «مصروف العيد إلى حلق الوادي: 2.20 فرنكا»؛ ينظر: الكرّاسان، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- وهو ما نجده بالضبط في كرّاسي إبراهيم بن عمر دواق، ورمضان حمود؛ تنظر: الكراريس الثلاثة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

5- ينظر: الكرّاسان، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

6- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

7- الرسالة، مؤرّخة في 1340/11/05هـ، [1922/07/01م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

وذيّلها بالتعليق التالي: «إليكم نسيجا من بنات أفكار شاعر الشبيبة، حفظه الله عزّ وجلّ»[1].

إنّ لقب "شاعر الشبيبة" يدلّ على أنّ القصيدة لم تكن أولى قصائده، وأنّه بدأ قرض الشّعر قبل شهر جوان 1922، قبل سنتين على الأقلّ من واقعة كبش العيد؛ غير أنّ تأكيد الشيخ أبي إسحاق مرّتين على أنّ القصيدة من بنات أفكار مفدي، يدلّ على تخطّيه مرحلة هامّة في محاولاته الشعريّة الأولى، وهي خوضه عباب الشعر معتمدا على نفسه، من غير التوكؤ على قصائد شعراء سابقين، وهذه القصيدة إن لم تكن الأولى فهي من أوائل قصائد هذه المرحلة، ومنه احتفاء الشيخين بها، وعليه يمكن التأريخ لميلاد مفدي شاعرا -بحقّ- بسنة 1922.

أمّا المحاولات الأولى التي كان يتلمّس بها طريقه إلى الشعر، فنجد صورة لها في نصّ احتفظ به أستاذه، ممّا يدلّ على أنّ الأستاذ -وهو شاعر- قد رأى فيه موهبة تلميذه، وهي على وشك الانبثاق، وقد رجّحنا نسبته إلى مفدي بمقارنة خطّه بخطّ مفدي خلال سنوات دراسته، وقد شهد تطوّرا سريعا، ومنه حدّدنا تاريخه بسنة 1921؛ كما أنّه يعكس حسّا وطنيّا ثوريّا مبكّرا لدى صاحبه، ليس غريبا عن شخصية مفدي؛ ونلاحظ فيه فضلا عمّا سبق ظاهرة شكلية تتعلّق بترقيم الأبيات، وهي من مميّزات نصوص مفدي في بداياته.

النصّ بعنوان "الحرية والاستقلال"، يقول في مطلعه: [من الكامل]

يا أمّــة الإســلام، هــبّــي بــالعـــلا   والاستــقــلال مع الــحــرية، وشمّر[ي]

البيت غير مستقيم عروضيّا، خاصّة في شطره الثاني، كما أنّ تعبيره يشكو ضعفا، فهو أقرب إلى رصف عبارات منه إلى نسجها نسجا قويما، وهذا المطلع صورة لضعف تعبيره من مختلف جوانبه، لأنّ التركيز كان منصبّا على وزن الأبيات، فهو مستقيم في الغالب، غير أنّه يشكو ضعفا واضحا في قوافيه، فهي متحكّمة فيه تحكّما كبيرا؛ ويمكن أن نستثني من النصّ ذي الأحد عشر بيتا، بيتين كانا نسبيّا أحسن من غيرهما، يقول فيهما:

بل لازمـــ[ـــي] الإقدام في طـــلب العلا   ثمّ اقــتــلـــي بالسّـــيـــف داء التّـــهوّر
فالـــمـــوت للحـــرّ الـــذي مـــتمسّكٌ   بـــبـــلاده أذكـــى لـــه مـــن عـــنبر[2].

فباستثناء عدم استقامة لفظة (التهوّر) عروضيّا في الأوّل، ممّا يدلّ على تحكّم القافية فيه، وعدم استقامة عبارة (الذي متمسّك) نحويّا في الثاني، والربط المتعسّف بين البيتين؛ فإنّ البيتين يؤدّيان معنى، وينتظمها وزن عروضيّ.

يقول مفدي عن شعره: «وأمّا الشعر فأنا فيه أستاذ نفسي، غير أنّي أعرض بضاعتي على أساتذتي رؤساء البعثة الميزابيّة. ولقد قرأت الزحافات والعلل والدوائر على شاعر الخضراء العبقريّ الشاذلي خزندار، ولي اطّلاع شخصيّ على العروض والموازين»[3]؛ وهذا يدلّنا على عصاميته في تعلّم قواعد الشعر، خاصّة وأنّ تعلّمه على

1- القصيدة، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس؛ تنظر: الملحق595.

2- ينظر: النصّ، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

3- شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 151.

الشاذلي خزندار في "العرفانية" غير مؤكّد، على ما سبقت الإشارة إليه[1]؛ وعليه فمن المفيد أن نتبيّن كيفية تغلّب مفدي على نقاط ضعفه في بدايات قرضه للشعر.

يمكن أن نتبيّن ممّا سبق ضعفا في قوافيه، وهو مرتبط بضعف زاده اللغويّ من جهة، وتداركه يهون بمزيد التمرّس بالشعر الجيّد فهما وحفظا؛ وأصعب منه أن يكتبه من غير أن يفكّر فيه، بتلقائيّة تامّة، من غير أن يقف العقل عائقا دون انسياب الأبيات بعفويّة، بسبب تداخل التعبير مع القراءة الناقدة بهدف التصحيح، فيجب تأخير هذه الأخيرة إلى ما بعد نزول الوحي الشعريّ، وهذا العائق النفسيّ يزداد حدّة كلّما زاد نصيب العقلانيّة في شخصية الشاعر، وفي تكوينه النفسيّ والوجدانيّ، وقد كان مفدي وفير الحظّ منها؛ وممّا يساعد على تجاوز هذه الصعوبة الصدق معاناة وكتابة.

لقد وفّر لنا أرشيف الشيخ الثمينيّ الثمين مسوّدة قصيدة لمفدي زكرياء، مفيدة في دراسة هذا الجانب:

خطّ مفدي في القصيدة يرجّح كتابتها بعد صدور شهادة ميلاده شاعرا، فهي أطول نفسا من قصيدة "تنبيه النيام من بني الإسلام"، وأنضج منها أيضا؛ نتبيّن فيها بوضوح محاولته التغلّب على الصعوبة التي يجدها في قوافيه، بأن اعتمد على قوافي قصيدة أبي العلاء المعرّي، في رثاء فقيه حنفيّ، ومطلعها:

غـيـر مـجـد في ملّتي واعـتـقـادي   نـوح بـاك، ولا تـرنّـم شـاد[2].

وعلى قوافي قصيدة معروف الرصافيّ "نحن من أرضنا على مُنطاد"، ومطلعها:

نـحـن مـن أرضـنـا على مُـنطاد   جـائـل في شـواسـع الأبـعـاد[3].

فسجّل -في الهامش بقلم رصاص- عددا وفيرا من الألفاظ الممكن توظيفها في قوافيه[4]، انتخب بعضها من قصيدة المعرّي[5]، وبعضها الآخر من قصيدة الرصافيّ[1]، وزاد ألفاظا أخرى، ثمّ بدأ في كتابة قصيدته بقلم الرصاص أيضا،

1- ينظر: الباب الأوّل، ص101 ها05.

2- تنظر القصيدة: سقط الزند، لأبي العلاء المعرّي، دار بيروت للطباعة والنشر، ودار صادر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط: 1376هـ/1957م، ص08-12.

3- ديوان الرصافيّ، أتمّ شرحه وصحّحه مصطفى السقّا، دار الكتاب العربيّ، القاهرة-مصر، ط3: 1368هـ/1949م، ص17-21.

4- وكانت بهذا الترتيب، وما كتب بخطّ بارز هو ما شطب بعد توظيفه: «وداد، العباد، الأعادي، الأضداد، الأبعاد، **سواد**، **اعتقادي**، **ازدياد**، **شادي**، الميلاد، منادي، صادي، **سعاد**، **واد**، **إسعاد**، **جهاد**، **اضطهاد**، **جماد**، **للنفاد**، للفساد، حداد، السهاد، بلادي، النجاد، الحصاد، **سداد**، **رشاد**، **العماد**، **الوقّاد**، **الرماد**، **نادي**، **الأحفاد**، **هادي**، **المنطاد**، المهاد، **الانتقاد**، المياد، المستفاد، عاد، **فؤادي**(مرّتان)، الآباد، الأجساد، **الأجداد**» القصيدة، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس. أمّا الألفاظ المستعملة، ولم تشطب هي: «**العباد**، **الأعادي**، **للفساد**، **بلادي**(مرّتان)، **النجاد**، **المياد**»؛ بينما الألفاظ الموظّفة من غير أن تسجّل في القائمة هي: «**الأيادي**، **الشّهاد**، **مّاد**، **باد**، **حادي**، **استعداد**، **الإنشاد**، **المعاد**، **الاجتهاد**»؛ ولفظا (**هادي**، **الانتقاد**) شطبهما، ولا وجود لهما فيما أثبتّه من أبيات القصيدة، وهما يخصّان: البيت السادس والعشرون، لأنّ عجزه مخروم؛ وبيتا بعد البيت الحادي عشر، لم أسجّله لعدم وضوحه.

5- وهي التي تحتها خطّ فيما يلي، مع تمييز ما وظّف في القصيدة بخطّ بارز: «وداد، **العباد**، الأعادي، الأضداد، الأبعاد، **سواد**، **اعتقادي**، **ازدياد**،

وكلّما استعمل قافية منها خطّ عليها، وجاءت القصيدة على هذا النحو: [من الخفيف]

«الحمد لله.

1- أهـــلالٌ عـــلـــى الـسّـــما مـــتـــهادي   أم هـــزار أغـــــنّ بالغصن شـــــادي؟

2- أم عـــروسٌ تبسّـــمـــتْ، فـــأضـــاءت   بسنـــا بـــرقـــهـــا جـــهـــام السّـــواد؟

3- أم خـــريـــر الـــمـــيـــاه بـــيـــن نخيلٍ   باسقاتٍ عـــلى الرّبـــى والنّـــجـــاد[2]؟

4- أم نسيـــمٌ بـــين الـــمروج سرى بالـــ   ـــورد صبحًا، أثـــار وجـــد الفـــؤاد[3]؟

5- أم حُـــمَـــيَّـــا السّرور من جـــنّة الفـــرْ   دوس دارت بـــهـــا يـــمـــين ســـعاد؟

6- أم كـــتـــابٌ بَدَا يـــضيء الـــبـــرايـــا   بـــســـنـــاءٍ كالكـــوكـــب الـــوقّـــاد؟

7- فـــيه آيـــاتُ كلِّ ظـــرفٍ ولـــطـــفٍ   صاغها[4] فـــكـــرُ خـــبـــرةٍ ورشاد

8- تـــتـــرآى بـــه الـبـــراعـــةُ والـــقُـــدْ   رةُ والسِّـــحـــرُ من شريف[5] الأيـــادي

9- تـــتـــجلّى به الحـــقـــائـــقُ في بـــحـــ   ـــثٍ لـــذيذٍ كالخـــمر أو كالشِّـــهاد[6]

10- تـــتـــهـــادى به شـــمـــوسُ الـــمعاني   فـــي بـــروج الألـــفـــاظ أيَّ تـــهـــادِ

11- ليـــت شعري كيف السّـــبيل إلى التّقْـــ   ـــريظِ، والعـــجـــزُ في يـــراعي بـــادِ[7]

12- لـــيـــس شعرٌ -وإن تـــعـــاظم- بـــالبا   لغِ ما جـــئـــتـــمُـــو بـــهِ مـــن سَـــداد

شادي، الميلاد، منادي، سعاد، صادي، **للنفاد**، صادي، سعاد، **واد**، **إسعاد**، **جهاد**، اضطهاد، **جماد**، **للفساد**، حداد، السهاد، **بلادي**، النجاد، **سداد**، الحصاد، **رشاد**، **العماد**، الوقّاد، الرماد، **نادي**، الأحفاد، هادي، المنطاد، المهاد، الانتقاد، **المياد**، المستفاد، عاد، **فؤادي**، الآباد، الأجساد، **الأجداد**». أمّا الألفاظ المستعملة من قصيدة المعرّي، و لم ترد في القائمة هي: «**المعاد**، **الاجتهاد**، **الإنشاد**».

1- وهي التي تحتها خطّ فيما يلي، مع تمييز ما وظّف في القصيدة بخطّ بارز: «وداد، **العباد**، الأعادي، الأضداد، الأبعاد، سواد، اعتقادي، ازدياد، **شادي**، الميلاد، منادي، **للنفاد**، صادي، سعاد، **واد**، **إسعاد**، **جهاد**، اضطهاد، **جماد**، **للفساد**، حداد، السهاد، **بلادي**، النجاد، **سداد**، الحصاد، **رشاد**، العماد، **الوقّاد**، الرماد، **نادي**، الأحفاد، هادي، **المنطاد**، المهاد، الانتقاد، **المياد**، المستفاد، عاد، **فؤادي**، الآباد، الأجساد، الأجداد». أمّا الألفاظ المستعملة من قصيدة الرصافيّ، و لم ترد في القائمة هي: «**باد**، **حادي**، **الإنشاد**، **استعداد**».

2- كتب بداية «مروج»، ثمّ شطبه، وكتب فوقه (نخيل)، ثمّ وصفه بـــ(باسقات)؛ وشطب بعد هذا الأخير: «أثار»، وأتمّ البيت تحت السطر بعبارة (على الرّبى والنجاد).

3- شطب بعد أم: «أريج بين على»، وكتب فوقه (نسيم بين)؛ وشطب عبارة لم أتبيّنها بعد (بالورد)، وكتب فوقها (صبحا أثار).

4- كتب فوق السطر، وشطب تحته: «وبديع».

5- كتبت عبارة (من شريف) فوق السطر، وتحتها شطب لم أتبيّن أصله.

6- «الشَّهْد والشُّهْد: العسل ما دام لم يُعصر من شمعه، واحدته شَهْدَة، وشُهْدَة، ويكسَّر على الشِّهادِ»لسان العرب3: 243.

7- وبعد هذا البيت عجز يراعه فعلا، وكأنّ وحي الشعر انقطع عنه فجأة، وآيته كتابة سطرين، شطبهما قبل تمامهما، وكتب الثالث بخطّ غير واضح، يلوح عليه التبرّم والضجر، وتركه قبل تمامه، أو أتمّه وانمحى ما كتبه، فلم يتّضح؛ ثمّ عاد إلى الكتابة، واسترسل فيها من غير شطب وتغيير إلاّ في مواضع قليلة جدّا، وهو ما يفسّر تحوّله إلى الكتابة بالقلم الجافّ في البيت الموالي.

13- أو لســـانٌ -وإن تــطـــاولَ- بالـــحَـــا كِي صـــدَى

وهنا انتقل إلى الكتابة بالقلم الجافّ، فأتمّ البيت من غير شطب، وما بقي من أبيات القصيدة به، وهو ما يدلّ على أنّ تغيير القلم كان من غير فاصل زمنيّ، ويدعم هذا الاستنتاج اتّصال المعنى، وعدم انقطاعه:

13- سِحرِ ذلك الإنـــشــــاد

14- دبّـــجــتـــهُ يراعـــةٌ[1] تنــفثُ السِّحْـــ ـــرَ عُــقـــودا لــغـــايـــةِ الإســعـــاد

15- واصـــطـــفاهُ ربُّ البـــراعـــةِ (عبدُ الـــ ـــواحدِ) المصـــطـــفى بـــكلّ النّـــوادي

16- سيّـــدٌ عالـــمٌ هـــمـــامٌ حـــســيـــبٌ، صاحـــبُ العـــزِّ للسّـــعـــادة حـــادي

17- لـــيـــت كلُّ الشّـــبـــاب مـــثـــل علاهُ يـــســتـــردّون عـــــزّة الأجـــــداد

18- أصـــبـــحـــت تونس العزيـــزة تـــذري أدمـــعًـــا من نـــوائـــب الإضـــطـــهاد

19- وغـــدت في الأنـــام تـــنـــدب حـــظّا بـــزفيـــرٍ يذيـــب صـــلدَ الجـــمـــاد[2]

20- وانـــثـــنـــت، وهْي تـــســـتغيث أناسا ما هـــواهـــمْ ســـوى بِـــذَرِّ الرَّمَـــــادِ

21- فتـــنة الـــجهل خيّـــمتْ فـــي ذراهـــا تـــتـــرامـــــى بـــهـــا إلـــى كـــلّ واد

22- كلّ مـــن في الوجـــود قـــامَ، فـــنـــامتْ نومةً، هـــل يُـــرى لـــهـــا من نـــفاد؟

23- «أيّـــها النّـــاس: إنّ ذا العصـــر عصر الـــ ـــعلم، والـــجدّ في العـــلا والـــجهاد»

24- «عصـــر حكمِ البـــخـــار، والكهربائيْـــ ـــيَات، والـــماكينـــات، والـــمِنطاد»[3]

25- عصـــر حـــكم النهـــوض والإختـــراعا ت، وعـــصر الـــرقـــيّ و[الإزديـــــاد]

26- فانـــهـــضوا وارتـــقوا كما ارتـــقت النّا سُ[4]

27- إنّما الـــحـــقـــد فـــي سبيل الـــمعالي «غير مـــجد في ملّتـــي واعتـــقادي»[5]

28- فاطلـــبـــوا العـــلم من منـــاهلـــه العـــذْ بـــة، واسعـــوْا لـــرفـــع ذاك العِـــمـــاد

29- إنّمـــا العـــلم فـــي الـــحـــياة ســـلاحٌ، فـــاطلـــبـــوهُ بكـــامـــلِ اســـتـــعـــداد

30- أيّـــهـــا النّـــاس جـــدّدوا مـــجدَ أسلا فٍ كرامٍ، مـــضـــوا لـــدار الـــمَـــعاد

31- وَطِـــئُوا بالسّـــمـــاء هـــام الـــثّـــريّـــا وانـــثـــنـــوْا ســـادةً لكـــلِّ الـــبـــلاد

1- شطب الألف واللام في أوّله.

2- شطب قبل (صلد الجماد): «كلّ جماد».

3- تضمين لبيتين من قصيدة معروف الرصافيّ؛ ديوانه19.

4- تتمّة البيت مخرومة.

5- تضمين لشطر من مطلع قصيدة أبي العلاء المعرّي، وقد مرّ قريبا.

32- بـــمـــعالـــيـــهمُ رقـــابَ العـــبـــاد[1]

33- أصبـــح الدّهـــرُ بـــعدهمْ يـــطرزُ التّـــا ريخَ مـــنْ ذكرهـــمْ[2] إلـــى الأحـــفاد

34- شَـــبِّهـــوهمْ إن كنـــتُمُ دونـــهمْ في الـــ ـــمجد، لا تـــنـــثـــنوا عنِ الإجـــتهاد

35- إنّـــمـــا العـــارُ أن نَـــذِلَّ ونـــشـــقـــى فـــي الورى[3] بـــعـــد غـــصـــننا الميّاد

36- إنّـــما العـــارُ أن نـــسيـــر مـــع الجهْـــ ـــلِ إلـــى كـــلّ ظـــلـــمـــةٍ وفـــساد

37- أمّـــتـــي أمّـــتـــي تـــداركـــكِ اللّـــــ ـــهُ، وأنـــجـــاك مـــن شِـــراك الأعادي

38- أمّـــتـــي أمّـــتـــي إلـــيـــك يـــمينـــي ســـوف أفديـــكِ [بالدّماءِ][4] بـــلادي

39- هـــاتـــهِ همّـــتـــي، وهـــذا يـــمـــيني، هـــاتـــهِ أمّـــتـــي، وهذا فـــؤادي»[5].

من الملفت للانتباه في هذه القصيدة الصعوبة النسبيّة التي وجدها الشاعر في بدايتها، فكان فيها الشطب والتعديل جوهريّا في بيتين متتابعين، الثالث والرابع، وكأنّهما حضرا في ذهنه في نفس الوقت، فتداخلا، ويظهر واضحا في لفظتي "مروج" و"أثار"، فقد وردتا على الشاعر في البيت الثالث، فشطبهما، ثمّ أخذتا مكانيهما في الرابع؛ ثمّ انقطع سيل الأبيات، فقام بثلاث محاولات، من غير أن يستطيع أن يقيم بيتا واحدا؛ وهو ما يفسّر استخدامه قلم الرصاص، الذي يمكّنه من الشطب والتصحيح بسرعة؛ ثمّ عاد فيض الشعر، فاسترسل في كتابة بقيّة الأبيات، وهو القسم الأكبر في القصيدة، مع تعديلات طفيفة متباعدة، وانتقل إلى استعمال القلم الجافّ، ممّا يدلّنا على تجاوزه للصّعوبة التي وجدها في البداية. وقد ارتبطت هذه الصعوبة بافتتاحية قصيدته، وبمجرّد انتقاله الموفّق إلى موضوع قصيدته، وهو تقريظ تأليف (عبد الواحد)، زالت تقريبا، فكتب بقية الأبيات في نفس واحد.

هذه التلقائيّة في كتابة قصيدته في قسمها الأساسيّ والأكبر يتعارض وصنعته الواضحة في قوافيه، وعليه فمن المفيد أن نقف عند حدودها، فكان الجمع بين هذين النقيضين: إنّ تسجيله لقائمة بألفاظ القافية كان سابقا لكتابة القصيدة، وقد سجّل فيها 43 لفظا، ممّا يدلّنا على الطول الذي أراده لقصيدته، فوقعت قريبا منه، في 40 بيتا؛ غير أنّه لم يترسّمها بحذافيرها، وإنّما تعامل معها بحرّية نسبيّة، فقد وظّف منها 29 لفظا[6]، وأهمل 14، واستعمل 09

1- الشطر الأوّل لم أتبيّنه، لعدم وضوح الخطّ، بسبب إجراء تعديل فيه.

2- شطب قبله: «مجدهم».

3- شطب قبل (في الورى): «بعدهم».

4- شطب (بالدماء)، وكتب فوقه: «الحياة»، ولا يستقيم به الوزن.

5- القصيدة، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس. أمضى قصيدته: «جلال»، وهذا الإمضاء فريد، لم نقف على تفسير له، لأنّنا لم نعثر على تبييض القصيدة، أو منشورة إن نشرت، وهو ما نستبعده، ولا ندري من هي الشخصية العلميّة أو الأدبيّة التي يمدحها، ويقرّظ تأليفا لها، فقد اكتفى بذكر اسمه (عبد الواحد) دون لقبه.

6- وكان يشطب كلّ لفظ استعمله من القائمة، وغفل عن شطب 06 منها.

ألفاظ لم تكن مسجّلة في القائمة؛ وقد اعتمد في اختيار ألفاظ قوافيه على قصيدة المعرّي أكثر من قصيدة الرّصافي[1]، وكان اختياره للقصيدتين واعيا، فقد ضمّن شطر بيت من الأولى، وضمّن بيتين من الثانية. والمفترض تبعا لما سبق أن يقع -وهو الشاعر المبتدئ- تحت تأثيرهما، وكان المتوقّع أن يكون تأثير الثانية أقوى لأنّها الأقرب من قصيدته موضوعا.

إنّ المتأمّل لقصيدة مفدي لا يجد أثرا كبيرا للقصيدتين فيه فيما عدا الجانب الموسيقيّ، فالبيت الأوّل يظهر فيه أثر من مطلع قصيدة المعرّي في القافية، وتعقيد في عبارة صدره طلبا للتصريع، عوض (أهلال على السماء تهادى)، ممّا يدلّ على تركيزه على محاولة التمرّس بتفعيلات بحر الخفيف، والتمكّن من القافية، وهذا الهاجس رافقه في الأبيات الأولى، ومنه الشطب والتصحيح فيها، وقلق بعض القوافي مثل (السّواد) في البيت الثاني، وثقل عجز البيت السادس (بسناءٍ كالكوكب الوقّاد)؛ ثمّ أسلس الوزن والقافية له القياد في بقية الأبيات، فتباعد الشطب، ولم يمسّ التعديل جوهر البيت، وإن بقيت مظاهر لضعف الصياغة اللغوية الشعريّة، كتعقيد العبارة في قوله (ما هواهم سوى بذرّ الرماد)، وكعبارة (بعد غصننا الميّاد) التي تبدو مقحمة في سياقها.

أمّا من حيث المعاني فلم يكن عالة على القصيدتين إلاّ في التّضمين، وكان أكثر توفيقا مع بيتي الرصافيّ، حتّى لكأنّهما من نسيج القصيدة، وخانه التوفيق مع شطر بيت المعرّي، بسبب توظيفه لمعنى بيت من أبيات الرصافيّ، فجاء مقحما في بيته، تلوح عليه الغرابة في سياقه، فأثّر سلبا على البيت كاملا، وذلك في البيت 27، حيث يقول:

إنّما الحقد في سبيل المعالي   (غير مجد في ملّتي واعتقادي)

فبعد التثبّت وجدته ناظرا لبيت الرصافيّ، حيث يقول:

فمتاع الحياة أحقر من أن   يستفزّ القلوب بالأحقاد[2]

أمّا إذا بحثنا عن بصمة خاصّة بمفدي في قصيدته المبكّرة هذه من مسيرته الشعريّة، فنجده في:

- هذا التوجّه إلى كتابة القصائد المطوّلة، حتّى أصبحت سمة لازمة له في شعره، وتأثير الشعر العربيّ القديم والحديث في ذلك واضح، حتّى إنّ أكثر شعره تميّزا في هذه المسيرة نجده في مطوّلاته لا في مقطوعاته. وكان انتقال مفدي فيها من افتتاحية قصيدته إلى تقريظ كتاب عبد الواحد أكثر توفيقا من انتقاله بعد ذلك إلى معاناة تونس، وما تنتظره من أبنائها.

- إذا كنّا لا نجد تميّزا -على العموم- في معانيه ولغته الشعرية وصوره، فإنّنا نلاحظ في المقابل بوادر انسياقه وراء حماسه إلى المبالغة في تعبيره، وجرأته فيه، في البيت الخامس عشر، وهو يعدّ من أحسن أبيات القصيدة:

1- ورد في القائمة من قوافي قصيدة المعرّي 31 لفظا، وظّف منها 20؛ ومن قوافي الرصافيّ 24 لفظا، استعمل منها 16؛ وكان الألفاظ المشتركة بينهما في القائمة 19 لفظا، وكان الاشتراك في الألفاظ المستعملة منها 14.

2- ديوان معروف الرصافيّ19.

واصـــطـــفاهُ ربُّ البـــراعـــةِ (عبدُ الـــ ـــواحدِ) المصـــطـــفى بـــكلِّ النّـــوادي

– قوّة شخصيته في التعبير عن أفكاره هو، وهو الشاعر المبتدئ، من غير أن يقع تحت تأثير القصيدتين اللّتين استعان بهما على موسيقى قصيدته وقوافيها، فلا عجب أن يُبين في هذه القصيدة المبكّرة في حياته الأدبيّة – ولو جزئيّا– عن موقفه الأدبيّ والشعريّ، وهو موقف الشاعر المناضل في سبيل وطنه وأمّته، لا الشاعر المصلح، ففي حين يقف فيه الشاعر المصلح موقف الخطيب في أمّته، ويوظّف –في الأغلب– ضمائر المخاطب، فإنّ الشاعر المناضل يستعمل على خلاف ذلك ضميري المتكلّم، ممّا يجعله مشاركا في التغيير، وفاعلا فيه بتقديم القدوة من نفسه، لا داعيا له، وهذه المشاركة والقرب من الواقع المعيش وفعله فيه، يجعل مفهوم التغيير عنده أقرب إلى الثورة منه إلى الإصلاح، وهذا الموقف أساسيّ في شخصية مفدي[1]. وهذا ما نلاحظه في الأبيات الأخيرة من قصيدته، وبخاصّة في قوله:

أمّـــتـــي أمّـــتـــي إلـــيـــك يـــميـنـــي ســـوف أفديـــكِ [بالـــدّماءِ] بـــلادي

– ونجد بصمة أخرى لمفدي في البيت السابق، وهي توضيح علاقته بأمّته ووطنه على أنّها علاقة تضحية وفداء، وهذا المعنى سنلاحظ تكراره في عدد من قصائده الأولى، وقد سبق نموذج لذلك، ونجد نموذجا ثالثا في قصيدة مطلعها: [من الطويل]

بني وطني يكفـــي الكرى، فـــتيقّظوا، وهبّـــوا، وإلاّ فالـــمـــمات بنا أحرى

يقول في ختامها:

أعاهـــدكم يا أيّهـــا القـــوم أنّـــنـــي لعـــزّكم أسعـــى، ولا أرتضي القهرا
وإنّي فتى حـــرّ، ولا أرهـــب العـــدا، ولي همّة تأبـــى الإهـــانـــة والأســـرا
فلســـت ســـوى مجـــد أروم، ودونه كؤوس المنايا، أفتدي بدمي القطرا[2].

فكان –في تقديرنا– عاملا حاسما في تلقيبه بـــ "مفدي زكرياء"، وهو ما يضع شعره في صميم الشعر الوطني والسياسيّ والثوريّ؛ والجوّ السياسيّ والوطنيّ الذي كان يعيشه في البعثة، وفي منزل عمّه صالح بن يحي أسهم في هذا التوجّه أيّ إسهام.

إنّ القصيدة تعكس بحقّ تجاوز مفدي مرحلة التكلّف في إبداعه الشعريّ، والانتقال بخطوات ثابتة إلى مرحلة

---

[1]– هذا الموقف نجده واضحا كذلك في قصيدته "تنبيه النيام من بني الإسلام"، وقد سبق الحديث عنها في ص367؛ وهو يفسّر عدم انخراطه في جمعية العلماء المسلمين، بالرغم من قربه من كثير من الأعضاء الفاعلين فيها، قبل دخوله المعترك السياسيّ، لعدم انسجامه مع موقفها الإصلاحيّ.

[2]– مسوّدة القصيدة، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس. تقع القصيدة في 17 بيتا، وتأتي تاريخيّا بعد سابقتها تقديرا، فهي أحسن مستوى منها وأرقى، والتشطيب فيها أقلّ؛ وقد دلّنا خطّها ومضمونها على أنّها لمفدي. يقول في مقدّمتها: «على موقفي هذا أهدي تحيتي وسلامي إلى هذا الملإ الكريم، وأقدّم لحضرتكم هذه العبارات».

كتابتها سجيّة على حدّ تعبير رمضان حمود[1].

أمّا نصوصه الأدبيّة الأولى[2]، ونعني بها ما لم ينشره فيما وصلنا من أعداد جريدة "الوفاق"، ويحمل سمات المحاولات الأولى شعرا ونثرا، هي كما يوضّحها الجدول الموالي، وترتيب ما لم يكن منها مؤرّخا تقديريّ:

رقم	عنوان النصّ	نوعه	حجمه	ملاحظة
1.	الحرية والاستقلال	مقطوعة	11 بيتا	/
2.	الإسلام	مقال	صفحة واحدة ونصف تقريبا	أكتوبر 1921
3.	تنبيه النيام من بني الإسلام	قصيدة	21 بيتا	جوان 1922
4.	[في تقريظ كتاب عبد الواحد]	قصيدة	39 بيتا	/
5.	[إنّما الشنق رقيّ بالحبال]	مقطوعة	05 أبيات	/
6.	[بني وطني]	قصيدة	18 بيتا	/

06 نصوص، فيها: 03 قصائد، ومقطوعتان، بمجموع 94 بيتا؛ ومقال واحد. وتوجد قصيدة أخرى لا تزال مفقودة، وهي في رثاء أحد علماء عمان وزنجبار المعدودين، ففي رسالة الشيخ أبي إسحاق اطفيش إلى إخوانه بتونس، بتاريخ 1341/08/08هـ، [1923/03/26م]، بُعيد إبعاده إلى مصر، كتب إليهم يقول: «قد اغتالت المنية يوم 08 رجب، [1923/02/24م]، أعظم رجل[كذا] العلم والدين، ومرجع المذهب بالزنجبار، الشيخ العلامة الشهير سيف بن سليمان بن ناصر الخروصيّ، المؤلّف الجليل، العامل النبيل، رحمه الله»[3]؛ ثمّ عثرنا في أحد كراريس مفدي الدراسيّة بتونس على هذا النصّ: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم. قلت يوم الأحد 12 شوّال المبارك سنة 1341هـ، [1922/]05/27[م، راثيا الأسد المقدام، العالم الهمام، شمس الإسلام، سيف ابن ناصر، رحمه الله، وطيّب ثراه»[4]، ولا أثر للقصيدة بعد هذا التقديم.

تألّقه في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس:

إذا كان لمدرسة "السلام" خاصّة دور بارز في توجّه مفدي الأدبيّ، وفي اكتشاف موهبته الشعريّة، بسبب من نزعتها الأدبيّة الواضحة، فإنّ البعثة العلميّة المزابيّة بتونس لا يقلّ دورها عن دور هذه المدرسة، ويزيد عليه بفسح

---

[1]- يقول رمضان حمود في ذلك: «بدأت أوّل مرّة بوضع البيت والبيتين تكلّفا إلى أن صار الشعر لي سجيّة»شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 170.

[2]- النصوص الشعريّة جميعها وثائق خطّيّة من أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. أمّا مقال "الإسلام" فموجود في جريدة "صدى الشرق"، س01، ع05، 1340/02/27هـ، 1921/10/29م، ص02، 03.

[3]- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، ص01.

[4]- أرشيف مفدي زكرياء الخاصّ بمكتبته.

المجال له لصقل موهبته بالدربة والمران، إذ كانت أشبه بناد أدبي"[1]:

أنشأ رؤساء البعثة «وسيلة ثقافية كبرى للبعثة، وسببا عظيما للتربية العقلية والخلقية، كمّلوا به التعليم الزيتونيّ والمدرسيّ أيضا؛ وهذه الوسيلة الثقافيّة هي الجمعية الأدبيّة ومجلّتها التي يكتب فيها الطلبة. [...] وهذه الجمعية للتمرّن على الخطابة الارتجالية، والكتابة بالعربية الفصحى، وإلقاء المحاضرات، وإجراء المناظرات؛ وكتابة المقالات الأدبية والاجتماعية، وقصائد الشعر والأناشيد الوطنية في مجلّتها [...]»[2].

كانت الجمعية تعقد جلساتها أسبوعيّا، كلّ يوم خميس أو جمعة، وكانت فضلا عن عقدها لمتابعة شؤون الجمعية وأعمالها، فضاء للتمرّن على الخطابة[3]، وإلقاء المحاضرات والمسامرات[4]، وإجراء المناظرات[5]، كما كانت مجلّتها فضاء للتمرّن على كتابة المقالات، والقصائد الشعرية والأناشيد، فكان يكلّف بهذه الأعمال من يتوسّم فيه القدرة عليها تكليفا، ولم يكن الأمر اختياريا، ففي كلّ اجتماع يعيّن ما يقدّم في الاجتماع القادم، ومن يقدّمه[6]، وفي حالة عدم القيام المكلّف بـــ"الواجب" كما يسمّونه، من غير عذر، يسجلّ عليه[7]، ويعاقب بكتابة المجلّة إن

1- وذلك منذ أيّامها الأولى، وديوان أبي اليقظان حافل بعدد من المسامرات الأدبيّة، يشترك فيها أكثر من شاعرين، يرتجلون فيها الشعر؛ ينظر -على سبيل المثال- نصّ بعنوان "مبادلة كؤوس الأدب"، يقول في تقديمه: «وقعت بمحلّنا مسامرة في أوائل محرّم 1337هـــ، [أكتوبر 1918م]، حضرها بعض الأدباء، وبعض الأضياف الكرام، فتبودلت بيننا هذه الأبيات على سبيل الارتجال»، وشارك فيها الشيخان أبو اليقظان وأبو إسحاق اطفيش، بالإضافة إلى شاعرين آخرين، سمّاهما "الأديب" و"الضيف"؛ ينظر: ديوان أبي اليقظان 34-36.

2- أعلام الإصلاح في الجزائر3: 223، 224. تناول بابا بن إبراهيم بوعروة -عرضا- الجمعية وشعارها، في قوله: «إنّه ترعرع في نفس دار البعثة التي التحق بها رمضان حمود سنة 1922 [والصواب: أواخر 1921]، وكانا يتباريان في قرض الشعر، وإلقاء الخطب والمحاضرات، في جمعية أسّست لذلك الغرض في البعثة، ويطمحان لمرتبة أمير شعراء تونس خزندار، ولهما جولات مع الشاعر أبي القاسم الشابيّ، وولع شديد بحفظ القصائد الوطنيّة، /سواء كانت تونسيّة أو مصريّة أو عراقيّة، ولا سيّما أشعار مصطفى كامل المصريّ، وكان شعارنا في الجمعية المذكورة قوله:

إذا بـــلـــغ الفتـــى عشـــريـــن عامـــا ... ولـــم يـــفـــخـــر، فلـــيس له افتخار»

تعاليق حول حياة مفدي زكرياء02، 03.

3- في محضر اجتماع يوم الجمعة 1342/03/01هـــ، 1923/10/12م: «خطب أحمد بغباغة وزكرياء [...]»الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس، ص02.

4- في محضر اجتماع يوم الجمعة [1344/03/06هـــ]، 1925/09/25م: «[...] قام زكرياء بمسامرة طويلة عريضة عميقة عن مزاب وطبيعته وتجارته، ومن جميع جهاته، معربة عن مجلة "للستراسيون" [كذا، لعلّها: L'Illustration]. وبالجملة فإنّها مسامرة جامعة مانعة دالة على مهارة صاحبها، وشدة حرصه على إطلاع إخوانه على أخبار بلاده [...]»؛ وفي يوم الجمعة 1343/09/01هـــ، [1925/03/27م]: «[...] أدّى الحلقة الأولى من المسامرة الكاتب العامّ لجمعية الوفاق، زكرياء، موضوعها "فلسفة حياة الإباضية"» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

5- في محضر اجتماع يوم [الخميس 1343/04/29هـــ]، 1924/11/27م: «المناظرة يوم 04 ديسمبر 1924 بين دواق وزكرياء، بين النظم والنثر» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

6- في محضر اجتماع يوم [الجمعة 1343/04/09هـــ]، 1924/11/07م: «[...] يخطب: زكرياء بن سليمان، محمد بن بكير، والعنق» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

7- في محضر اجتماع يوم الخميس [1342/11/23هـــ]، 1924/06/26م: «فإنّ الذين لم يأتوا بالخطب هم: عبد الله بوراس، إبراهيم بغباغة،

كان ممّن يمتلك خطّا جميلا[1]، أو بمضاعفة ما كلّف به[2]، أو تقديم عمل للمجلّة مقالا أو شعرا[3]، وبالمقابل يكرّم المواظبون على إنجاز أعمالهم، ويثمّن جهدهم[4].

وكان من تقاليد البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، منذ عهدها الأوّل، عقدُ احتفالات أدبيّة على شرف من يفد عليها من الشخصيات البارزة، من ذلك احتفال رؤساء البعثة بالشيخ حمو بن باحمد بن صالح الدّاوي، والوفد المرافق له[5]؛ والاحتفاء بالشيخ عبد الحميد بن باديس الذي حفظ لنا صورة عنه، حين زيارته للبعثة سنة 1921[6]، في مقال نشره في جريدة "الصدّيق"[7]، بتاريخ 1921/09/19، بعنوان "نهضة جزائريّة بالحاضرة التونسيّة"، وذلك إذ يقول: «حللت تونس، فاستدعتني جماعتهم إلى الحضور عندهم في دارهم ليلا، فلمّا فرغنا من العشاء، خرجتْ إلى صحن الدّار شبيبتهم المتعلّمة بالمدارس التونسيّة، على الأسلوب الحديث الذي يجمع بين العلوم الدينيّة والدنيويّة، واللغة العربيّة والفرنسيّة، مع حفظ القرآن، فاصطفّوا بنظام، وشنّفوا أسماع الحاضرين بالأناشيد الوطنيّة والمدرسيّة،

دواق، زكرياء، زرقون» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

1- في محضر اجتماع يوم الخميس [1342/07/30هـ]، 1924/03/06م: «حكم على زكرياء بتسطير 05 صحائف في المجلّة» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس، ص09.

2- في محضر اجتماع يوم الجمعة [1344/02/01هـ]، 1925/08/21م: «[...] تخلّف الرئيس عبد العزيز وعبد الله زرقون عن الإتيان بمقالتهم لعدد أوت، فحكم عليهم بالتضعيف للمجلة الآتية [...]» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

3- في محضر اجتماع يوم الخميس 1342/02/02هـ، 1923/09/13م: «إنّ الذين لم يأتوا بالمقال هم: زكرياء وعبد الله. فأُمِر زكرياء أن يأتي بستّة أبيات بالجمعة المقبلة مناسبة للمقام، وتكون من الطويل؛ وعبد الله أربعة أبيات من الشعر» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس، ص02.

4- في محضر أحد اجتماعات رمضان 1342هـ، أفريل 1924م: «عبد الله بوراس: وسام شرفي واستحسان شرفي. أحمد بغباغة: وسام شرفي. إبراهيم دواق: استحسان شرفي. إبراهيم بغباغة: وسام شرفي. زكرياء: وسام شرفي. عبد العزيز: وسام شرفي. محمد بن بكير: وسام شرفي. عبد الله زرقون: استحسان شرفي ووسام شرفي»؛ وفي يوم الجمعة [1343/08/25هـ]، [20]/1925/03م: «[...] يكتب عيسى بن عبد الله أوّلا، ثمّ إبراهيم بن عمر، ثمّ عبد العزيز الثمينيّ في معلّقة الشرف، ولهم الفخر» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

5- عثرنا على قصيدة الشيخ أبي إسحاق اطفيش، التي ألقاها في هذا الحفل، يقول في مطلعها:

«بـدا السـعد إذ وفد الكرام الأماجـد ... أَلَـمَّ، فَلَمُّ الشّعْـث صـعب المـوارد

يَرَاسُكَ شهـمٌ حـاز عـزّا وسـؤددا ... بثاقب فكر بيـن واش وحـاسـد».

القصيدة ومقدّمتها النثريّة في وثيقتين منفصلتين، من أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ وينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر3: 225.

6- أرّخ محمد علي دبوز لها -رواية عن الشيخ أبي اليقظان وتلاميذ البعثة- بسنة 1922، «دعاه إليها صديقه خرّيج البعثة، الشيخ أحمد قزريط» أعلام الإصلاح في الجزائر3: 224، 225.

7- ذكر محمد ناصر في المتن جريدة "النجاح"، وذكرهما معا في الهامش، ص52 ها03. وصحّحناه بما ورد في كتاب محمد صالح الجابريّ، فقد تحدّث عن انقطاع ابن باديس عن تونس من 1913 إلى 1936، ثمّ استدرك في الهامش، فقال: «يبدو أنّ الشيخ ابن باديس، زار تونس سنة 1921، وذلك من خلال مقال كتبه بجريدة "الصدّيق" 1921/09/19، بعنوان (نهضة جزائريّة بالبلاد التونسيّة)، نبّهنا إليه الدكتور محمد ناصر مشكورا» النشاط العلميّ والفكريّ للمهاجرين الجزائريين بتونس83 ها1.

وتحاوروا بالمناظرات السيفيّة والقلميّة، كلّ ذلك باللهجة الفصيحة، والألسن الذلقة، والجأش الثابت[1]، فرأينا منهم أهلّة توشك أن تكون أقمارا، ونفوسا طيّبة توشك تجني ثمارا»[2]؛ ولمّا وفد الشيخ سليمان باشا الباروني على تونس في أواخر أوت 1923م، «أزمعنا أن نعقد له -نحن أفراد البعثة- حفلة تكريم، تليق بمقامه الساميّ، نستدعي إليه أصدقاءنا الأوفياء من المشايخ والأساتذة والمعلمين والأدباء، والتلاميذ من أبناء تونس، وقد حرّرتُ قصيدة لهذا الغرض في يوم 24 محرم سنة 1342هـ، [1923/09/06م]»[3].

كانت مثل هذه الاحتفالات، خاصّة ما أقيم على شرف شخصيات بارزة من مزاب، وسيلة رؤساء البعثة للترويج لمشروعهم، والدفاع عنه في مواجهة المعارضين له، فكان أن أشركوا تلاميذهم فيها لإبراز ثمرته؛ وعندما أنشأت جمعية "الوفاق"، أصبح عقد هذه الاحتفالات وتنظيمها من مهامّها الأساسيّة، وهو ما يدلّ عليه لفظ (كالعادة) في رسالة مفدي زكرياء إلى أستاذه، حيث يقول: «أمّا الجمعية فلا تزال تتسلّق سلاليم الرقيّ، ولقد زارنا أخيرا الفاضل عبد الله ترشين، فأقمنا له حفلة كالعادة، فانشرح انشراحا كلّيّا، داعيا بالنجاح للمشروع، ولرجاله العظماء، وذلك إثر خطبة أنيقة ألقاها حضرة أستاذنا [يعني: الشيخ أبا اليقظان]، هذا وإنّ الأمور في انتظام [...]»[4]؛ كما يدلّ عليه وقف اجتماع من اجتماعات الجمعية لنفس الغرض، فنقرأ في محضر اجتماع يوم [1344/02/08هـ]، 1925/08/28م: «[...] ابتدأت تكلّف الأعضاء بالمسامرات في كلّ نصف شهر، وابتدأت بزكرياء. انتهت الجلسة على سا 09 و55د، لأجل الترحيب بشيخ أتى من جربة»[5]؛ ولهذا الغرض شكّلت الجمعية مجموعة صوتية، من صغار تلاميذ البعثة، تؤدّي الأناشيد والقصائد، في مثل هذه الاحتفالات، واختارت لهم من كبار تلاميذ البعثة قيّما عليها، يتكفّل

---

[1]- يقول في ذلك بابا بن إبراهيم بوعروة: «وكان شاعرنا من جملة التلاميذ الذين احتفلوا إذ ذاك بزيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس لدار تلك البعثة المباركة في سنة 1921» تعاليق حول حياة مفدي زكرياء02.

[2]- مفدي زكرياء29، ناقلا عن جريدة "الصدّيق"، ع44، 1921/09/19.

[3]- سليمان باشا الباروني في أطوار حياته1: 186؛ وتنظر القصيدة: ديوان أبي اليقظان26-28. تحدّث محمد علي دبوز أيضا -رواية عن الشيخ أبي اليقظان وتلاميذ البعثة- عن احتفال بمناسبة زيارة المصلح الحاج بكير العنق للبعثة؛ ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر3: 225. ونجد في ديوان أبي اليقظان قصيدة عنوانها "أهلا وسهلا ومرحبا"، قالها فيمن كنّاه في القصيدة بأبي الربيع، وكتب في تقديمها: «قلت مرحّبا بزيارة بعض الأفاضل لنا في أوائل جمادى الثانية سنة 1337هـ، [مارس 1919م]»37 ها 2.

[4]- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، غير مؤرّخة، أرسلت طيّ رسالة من عمر بن الحاج محمد اطفيش، مؤرّخة في 1925/01/05، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة. وجاء في رسالة سليمان بن عمر إلى الشيخ الثمينيّ ما يلي: «إنّ جوابك بلغنا في يوم 12[1924/12/]، على الساعة الحادية عشرة، وفي ذلك الوقت عندنا أضياف وهم: عمّنا عبد الله بن عيسى [اطفيش]، وعمّنا عبد الله بن الحاج حمو [ترشين]، وعمّنا محمد بن سليمان [ترشين]، وبهذا لم أكتب لكم في ذلك اليوم، لأنّي مشتغل معهم؛ واليوم فإنّ ضيافتهم عند الأستاذ الشيخ أبي اليقظان» الرسالة، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[5]- الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

باختيار القصائد والأناشيد، واختيار الألحان المناسبة لها، وتدريبهم دوريّا على حفظها وأدائها[1].

وقد عثرنا على نموذج من إسهامات تلاميذ البعثة في مثل هذه الاحتفالات، في العدد 20 من مجلّة "الوفاق"، إذ نجد أوّل موضوع فيها: «"يقظات الأمم" خطبة ألقيت بالحفلة التكريميّة للوطنيّ الكبير يوسف بن يحي الثمينيّ»، لابن المحتفى به عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ[2]؛ كما نجد قصيدة لمفدي زكرياء، بعنوان "نحن تاج المستقبل الإسلاميّ"، مطلعها:

على منبـــري أهدي التحيّـــة للجمع، وأنـــشر آيات يضـــيق بـــها روعـــي

جاء في تقديمها: «قصيدة قيلت في حفلة الاحتفاء بالسيّد يوسف بن يحي الثمينيّ، أحد أركان النهضة، يوم الخميس [19] جوان 1924»[3].

وفّرت جمعية "الوفاق" لمفدي زكرياء، بنشاطاتها التي عرضنا لها سابقا، بالإضافة إلى جريدة "صدى الشرق" قبلها، وجريدة "الوفاق"، ثمّ مجلّتها[4]، فضاء واسعا لاكتشاف موهبته الأدبيّة، ثمّ صقلِها وتطويرِها بالدربة والمران على الكتابة الأدبيّة بمختلف فنونها، شعرا ونثرا:

أوّل مقال عثرنا عليه في هذه الصحف الخاصّة بالبعثة، كان بعنوان "الإسلام"، نشره مفدي في العدد الخامس من جريدة "صدى الشرق"، الصادر بتاريخ 1340/02/27هـــ، 1921/10/29م[5]، وكان مستواه ضعيفا مقارنة بمقالات قدماء البعثة فيه، غير أنّه يدلّنا على امتلاكه الشجاعة الأدبيّة، لنشر إنتاجه، ولو على ذلك النطاق الضيّق؛ وأنّه بدأ محاولاته في الكتابة الأدبيّة -على الأكثر- منذ السنة الثانية من وصوله إلى تونس، بالرغم من المستوى التعليميّ المتواضع الذي كان عليه سنة قبل ذلك.

والحقّ أنّ منتوج مفدي زكرياء في مطلع حياته الأدبيّة بتونس قد ضاع أغلبه، وجزء معتبر ممّا بقي منه نجده في الأعداد القليلة التي وصلتنا من مجلّة "الوفاق"، وترجع إلى فترة دراسة مفدي في تونس، وهي عشرة أعداد، من 36 عددا من جريدة "الوفاق" ومجلّتها، بنسبة 27.77%؛ وكان مفدي مديرا مسؤولا على المجلّة في 15 عددا منها، وفي عدد غير محدّد من الأعداد الثمانية الصادرة من جريدة "الوفاق" قبلها، غير أنّ

1- ورد في محضر اجتماع يوم [1344/01/24هـــ]، 1925/08/14م، ما يلي: «سلّم عبد الله بوراس من وظيفة اللحن [يعني: القيّم على المجموعة الصوتيّة]، إنّه لا يطيق هراجهم وغيره، فقبلتْ منه الجمعية ذلك، وعيّنت زكرياء أن يكون مراقبا عليهم، ومعلّما لهم في يوم الجمعة، وعبد الله زرقون مراقبا لهم يوم الأضياف، وأمّا تعيين القصائد فإنّهما يجتمعان على ذلك»؛ وفي اجتماع يوم [1344/02/01هـــ]، 1925/08/21م: «قرّرت الجمعية على أن تكون تمارين الألحان ليلا عوضا عن النهار، وذلك من الساعة 11 إلى 12» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

2- ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20، 1342/12/09هـــ، 1924/07/10م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، صفحاته غير مرقّمة.

3- نفسه. في الأصل: «20 جوان»، وهو سهو، لأنّه ليس يوم خميس.

4- ينظر تاريخ جمعية "الوفاق" ومجلّتها: الباب الأوّل، ص106-109.

5- ينظر: الجريدة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة، ص02، 03.

الأعداد التي وصلتنا ممّا كان فيها على رأس إدارتها ثلاثة أعداد فقط، وهو عدد قليل.

إنّ إنتاج مفدي لا نجده سوى في تسعة أعداد من العشرة التي وصلتنا، وهذه الأعداد التسعة على قلّتها، وبالرغم من مرور مفدي خلال صدور خمسة أعداد منها، بفترة خلافات مع زملائه، أثّرت سلبا على مشاركاته فيها، فإنّها تدلّ في عمومها على غزارة إنتاجه في تلك الفترة، وهو ما يوضّحه الجدول الآتي لبيان إسهامه في هذه الأعداد "كمّا":

إسهام مفدي زكرياء فيما توفّر من أعداد مجلّة "الوفاق"[1]

العدد	تاريخ صدوره		صفحاته	مشاركاته	صفحاتها		النسبة
					شعرا	نثرا	
20	1342/12/09هـ	1924/07/10م	32	03	05	07	**%37.5**
21	1343/01/29هـ	1924/08/30م	38	08	07.5	04	**%30.26**
23	1343/04/09هـ	1924/11/07م	30	07	00	08	**%26.66**
26	1343/07/07هـ	1925/02/01م	22	02	00.5	02	**%11.36**
[27]	؟؟/1343/07هـ	؟؟/1925/02م	33	02	02	02	**%12.12**
30	1344/01/01هـ	1925/07/22م	54	07	07.5	11	**%34.25**
32	1344/01/11هـ	1925/08/01م	32	03	04	10	**%43.75**
33	1344/02/12هـ	1925/09/01م	32	02	00	08	**%25**
34	1344/03/12هـ	1925/10/01م	24	03	02	08.5	**%43.75**
المجموع			**297**	**37**	**28.5**	**60.5**	**%29.96**

شارك مفدي في هذه الأعداد التسعة، بسبع وثلاثين نصّا، في فترة زمنيّة لا تزيد على 16 شهرا، مع ضياع 07 أعداد صدرت فيها، كلّ ذلك بالنسبة لشابّ لم يتجاوز بعد ربيعه الثامن عشر؛ واستغرق إنتاجه فيها 89 صفحة من مجموع صفحات هذه الأعداد، وهي 279 صفحة، أي: بنسبة 29.96%.

بلغت نسبة مشاركاته في الأعداد التي كان فيها مديرا للمجلّة 31.50%، وهي الأعداد الثلاثة الأولى في الجدول؛ وسقطت سقوطا حرّا إلى 11.36%، في ثاني عدد صدر إثر إبعاده عن إدارتها في آخر أيّام سنة 1924، وأعني: عدد شهر فيفري، فكم تكون هذه النسبة في عدد جانفي؟ وارتفعت النّسبة إلى 12.12% في العدد الموالي؛ ثمّ عادت إلى سابق عهدها عندما وقف على إصدار العدد الممتاز، فارتفعت إلى 34.25%.

وإذا لاحظنا ارتفاعا في نسبة إنتاجه في الأعداد الثلاثة الأخيرة، فبلغت 36.93%، بالرغم من خلافاته مع

1- يخصّ الجدول ما وصلنا من أعداد المجلّة، في فترة دراسة مفدي بتونس؛ وقد حذفنا من حساب عدد صفحات العدد صفحة المحتويات، وصفحة جدول الصواب والخطأ؛ واعتبرنا في الشعر من المقطوعة ذات الأبيات المعدودة إلى القصيدة المطوّلة؛ واعتبرنا من إنتاجه النثريّ جوابه على أسئلة المسابقات المذيّلة بإمضائه.

زملائه، فمرجعه نشرُ إنتاج قديم له نسبيّا، وكونُه بحوثا من حلقات عديدة، وعليه نجد زيادة في عدد الصفحات، وقلّة في عدد النصوص التي شارك بها[1]، ويبدو أنّه أسهم في هذه الأعداد الثلاثة الأخيرة على مضض، فقد كلّف بها تكليفا، ففي محضر اجتماع يوم [1344/02/01هـ]، 1925/08/21م، نقرأ الآتي: «[..] قرّرت [الجمعية] على أن تكون الأعداد: عدد أوت، وسبتمبر، وأكتوبر، من 24 صحيفة، وإن وقع فيها نقص فالمسؤول هو زكرياء [...]»[2]، في حين كانت وظيفته مصحّحا للمقالات في المجلّة، لا تخوّل له -بالمرّة- تحمّل هذه المسؤولية.

أمّا إنتاجه فيما توفّر من أعداد مجلّة "الوفاق" فنتابعه من خلال الجدول الآتي:

رقم	العدد	عنوان النصّ	نوعه	حجمه	ملاحظة
1.	20	مزاب إزاء ملحمة التجنيد الخطيرة[3]	مقال سياسي	07 صفحات	يتبع
2.	//	[تحية للشيخ سليمان الباروني][4]	قصيدة	50 بيتا	/
3.	//	نحن تاج المستقبل الإسلاميّ[5]	//	23 بيتا	/
4.	21	كونوا سعداء	مقال أدبي	04 صفحات	/
5.	//	من لم يصلّ عليكم لا صلاة له	تشطير	04 أبيات	/
6.	//	إلى المجد	مقطوعة	10 أبيات	/
7.	//	الحكماء ...	تشطير	06 أبيات	/
8.	//	لك الحياة[6]	مقطوعة	09 أبيات	/
9.	//	الدّهر أدّبني	تشطير	04 أبيات	/

1- أسهم مفدي في الأعداد الثلاثة التي كان فيها مديرا للمجلّة، وفي العدد الممتاز الذي وقف على إصداره من ألفه إلى يائه، بـ 25 مشاركة؛ وتقلّص إسهامه في الأعداد الثلاثة الأخيرة إلى 05 مشاركات.

2- الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

3- أرّخ مقاله كالآتي: «حرّر بالخضراء يوم الأحد [06] جويلية 1924» مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20، 1342/12/09هـ، 1924/07/10م. وتصويب يوم تحرير المقال، لأنّ الخامس من شهر جويلية هو يوم سبت.

4- العنوان كاملا: "تحية الشبيبة لعظيم الشرق الزعيم الإسلاميّ الخطير الشيخ سليمان البارونيّ بالعيد السعيد" في 16 بيتا؛ ويليه "نشيد الشبيبة" على نفس النظام العروضيّ، ولذلك اعتبرته نصّا واحدا، في 34 بيتا؛ ينظر: نفسه. والمقصود بالعيد عيد الفطر، [1342/10/01هـ، 1924/05/05م]، فيكون تحريرها قبله أو بعده بقليل.

5- تحته رسم، كتب فيه: «تاج المستقبل هو الشبيبة الوفاقيّة»؛ وفي تقديمها: «قصيدة قيلت في حفلة الاحتفاء بالسيّد يوسف بن يحي الثمينيّ أحد أركان النهضة، يوم الخميس [19] جوان 1924» نفسه.

6- عثرنا على مسوّدة هذه المقطوعة، بهذا العنوان "مزاب وأنا: ليلى و[الـ]مجنون نموت معا أو نحيا معا"؛ ينظر: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

10.	//	أساس السعود	قصيدة	17 بيتا	/
11.	//	لوعة الحبيب[1]	قصيدة	80 بيتا	/
12.	23	*أيّتها الزهرة الباسمة[2]	/	صفحتان	مفقود
13.	//	قلب الشاعر[3]	مقال أدبي	صفحة واحدة	/
14.	//	ألا أيّها البدويّون[4]	مقال أدبي	بضعة أسطر	/
15.	//	عوامل الحرارة داخل الأرض[5]	تعريب مقال علمي	نصف صفحة	/
16.	//	الاتّحاد وأفكار الناس	مقال أدبيّ	صفحة واحدة	يتبع
17.	//	مناجاة تاهرت[6]	مقال أدبيّ	صفحة وأسطر	يتبع
18.	//	*مجال المسابقات[7]	/	صفحتان	/
19.	26	الإخلاص والصراحة	مقال اجتماعيّ	صفحتان وأسطر	/
20.	//	[ألا علّلاني]	تشطير	04 أبيات	/
21.	[27]	تقريظ ديوان أبي اليقظان	قصيدة	27 بيتا	/
22.	//	تسلية الأمير ابن عبّاد في سجن ابن تاشفين	مقال أدبيّ	صفحتان	/
23.	30	عيد سعيد	قصيدة	18 بيتا	/
24.	//	*آراء حرّة	حكم	صفحة واحدة	/
25.	//	عالم الأدب: شاعر خفيّ[8]	مقال نقديّ	08 صفحات	/
26.	//	الفداء	قصّة	صفحتان	لها بقية

[1]- عنوانها كاملا: «لوعة الحبيب: ذكرى عهد الوصال بين تونس والجزائر» مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـ، 1924/08/30م، ص26-30.

[2]- العنوان ونسبته إلى مفدي من فهرس المحتويات، والورقة التي تحوي النصّ مفقودة؛ ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج03، ج23، 1343/04/09هـ، 1924/11/07م.

[3]- عنوانها كاملا: «قلب الشاعر: تحليل قصيدة لبشارة الخوريّ اللبنانيّ» نفسه، ص05.

[4]- بعد العنوان: «معرّبة عن الفرنسيّة»، وفي آخرها: «الناظم: أوتران. المعرّب: مفدي زكرياء» نفسه، ص06.

[5]- في آخر النصّ: «معرّبة عن كتاب (فرنسا ومستعمراتها) ج3، لمؤلّفه: لاينير. المعرّب: زكرياء بن سليمان مفدي» نفسه، ص16.

[6]- بعد العنوان: «يكثر فيها من المحسّنات التضمين» نفسه، ص27، 28.

[7]- تتضمّن أجوبة له على بعض أسئلة المسابقة، وتعقيباته على أجوبة بعض زملائه على أسئلة أخرى؛ ينظر: نفسه، ص29-32.

[8]- في نقد قصيدتين لأستاذه الشيخ الثمينيّ؛ ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج03، ج30، 1344/01/01هـ، 1925/07/22م، ص31-38.

.27	//	تحيّة إمام المسلمين[1]	قصيدة	77 بيتا	/
.28	//	تحيّة عظيم العظماء[2]	قصيدة	24 بيتا	/
.29	//	[ميزاب بلادي]	مقطوعة	04 أبيات	/
.30	32	النور والعدسيات والكهرباء والمغناطيسيّة	مقال علميّ	05 صفحات	/
.31	//	المنهاج: دمعة وابتسامة وكلمة حقّ	قصيدة	73 بيتا	/
.32	//	ميزاب الشهيد[3]	بحث	05 صفحات	يتبع
.33	33	*ميزاب الشهيد (2)[4]	//	04 صفحات	له بقية

1- العنوان كاملا: «تحيّة إمام المسلمين الشيخ أبي عبد الله محمد الخليليّ» السابق، ص46. ورد في محضر اجتماع يوم [1343/09/09هـ]، 1925/04/03م: «[...] اقترح الكاتب العامّ إرسال التّهاني إلى عمان الخليفة -الملك- الشيخ الباروني [...]» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس. وجاء في رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق، بتاريخ [1343/10/17هـ]، 1925/05/10م: «إنّي قد نظمت بمناسبة العيد السعيد قصيدة ذات 70 بيتا للخليفة العماني، ومثلها للملك تيمور، وأخرى للشيخ الباروني، سأوافيكم بنصّها قريبا» أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس. أمّا القصيدة الثالثة، فعنوانها "تحيّة البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل"، وعدد أبياتها: 69 بيتا، وأرّخ لها في ختامها: «تونس: يوم الأربعاء 15 محرّم الحرام سنة 1344هـ، [05 أوت 1925م]» نسخة من القصيدة بخطّ الشاعر، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

2- العنوان كاملا: «تحيّة عظيم العظماء الشيخ سليمان باشا البارونيّ» نفسه، ص51. وعثرنا على نسخة ثانية من القصيدة، بعنوان مختلف "تحية الشبيبة الميزابيّة لسفارة الشيخ سليمان باشا الباروني"، وتقديم مختلف أيضا في لفظه لا في مضمونه؛ ينظر: القصيدة، وثيقة من صفحتين، أرشيف مفدي زكرياء الخاصّ بمكتبته.

3- العنوان كاملا: «ميزاب الشهيد: الأمّة الميزابيّة أمام الجمهوريّة»، وقدّمت له المجلّة بما يلي: «ننشر لصديقنا الرسالة الطويلة الآتية، منجّمة على أعداد المجلّة، وهي مقالة ممتعة جدّا، تُوقف كلّ مطّلع عليها على حقيقة الشعب وآلامه، وتستنزف دموع المخلصين، فلقد وقف فيها حقيقة أمام الظالم، وقال له: إنّك ظالم مستبدّ، وحقّق قوله بدلائل تجعل الغاصب أمامها عيّا، وستمثل للطبع إن شاء اللّه. عناصر الرسالة: الشعب والحكومات، الشعب الميزابيّ، موقفها القانونيّ أمام مسألة التجنيد، موقفها السياسيّ، موقفها الدينيّ والخلقيّ، موقفها المدنيّ، خاتمة» مجلّة "الوفاق"، مج03، ج32، [11 محرّم 1344هـ]، 1925/08/01م، ص27.

جاء في رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1924/12/13، ما يلي: « طلب منّي [يعني: مفدي] جمع كلّ ما كتب في القضيّة المزابيّة في كرّاسة، ووعدته بأن أعطي له ما عندي تباعا، لكنّ ردّنا الأوّل عندك، فالمرجوّ إرساله لي كما التمست منك، حتّى يتمّ عملنا» أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- تناول في الحلقة الثانية تتمّة العنصر الثاني: الشعب الميزابيّ؛ ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج03، ج33، 1925/09/01م، [1344/02/12هـ]، ص11-14.

34.	//	السمّ الكحوليّ[1]	//	04 صفحات	له بقية
35.	34	*السمّ الكحوليّ(2)[2]	//	04 صفحات	له بقية
36.	//	خواطر كئيب	قصيدة	35 بيتا	/
37.	//	*ميزاب الشهيد (3)[3]	بحث	04 صفحات ونصف	له بقية

31 نصّا[4]، فيها: 10 قصائد، و07 مقطوعات، بمجموع 465 بيتا؛ و11 مقالا متنوّعا، بين مقال أدبيّ وعلميّ وسياسيّ واجتماعيّ ونقديّ؛ وبحثان من عدّة حلقات؛ بالإضافة إلى محاولة واحدة غير تامّة في فنّ القصّة.

خطواته الأولى في الحياة الأدبيّة العامّة ونجاحاته فيها:

لقد أفسح رؤساء البعثة المجال للمبرّزين من أبنائهم، لتأكيد نبوغهم خارج إطار البعثة، بما تتيحه الحياة الأدبيّة والثقافيّة التونسيّة من فرص كثيرة، وكان مفدي ممّن استفاد من هذا التشجيع، فبعد أن نشط في إطار الجمعية وصحفها، خرج إلى المشاركة في الحياة الأدبيّة العامّة، فشارك في المحافل والمسابقات، ومع "إخوان الصّفا"، وتدرّج بعدها إلى نشر إنتاجه في الصحافة التونسيّة، فكان سابقا لجميع زملائه في هذا المجال، ممّا يدلّ على اكتسابه ثقة في نفسه، وفي إبداعه، فدخل هذا المعترك الحيويّ، مدعوما بثقة رؤساء البعثة فيه، ومساندتهم له، فجنى ما يمكن اعتباره مقارنة بحداثة سنّه "أمجادا أدبيّة"، و لم يسلم من بعض الوخزات:

دأب رؤساء البعثة المزابيّة على مشاركة إخوانهم التونسيّين مشاركة فعليّة في مختلف المناسبات، كتهنئة الشيخ أبي اليقظان لزعماء الحزب الدستوريّ، بمناسبة إطلاق سراحهم: صالح بن يحي ومحمد الرياحيّ[5]، ثمّ

---

[1]- جاء في تقديمه: «قدّم لنا الأديب زكريا بن سليمان نبذة من تأليفه "السمّ الكحوليّ"، فقمنا بنشرها للقرّاء لما احتوت عليها من الظرافة وحسن القول، ونشرا لما سيعود على القرّاء بالنفع العميم، فكانت هذه النبذة فصولا عشرة وخاتمة، وهي كما يلي: الفصل الأوّل: تسمية الخمر وعادات العرب فيها. 02- الآيات الواردة فيها تحريما. 03-الأحاديث الواردة في ذلك. 04-الحكم الواردة في ذلك. 05-أمراضه الجسديّة وتأثيراته. 06-أمراضه الاجتماعيّة. 07-أمراضه الأخلاقيّة. 08-أمراضه الأدبيّة. 09-طرق معالجته والدفاع عنه[كذا]. 10-الحكايات الواردة فيه. خاتمة» السابق، ص27.

في رسالة مفدي على لسان الطلبة إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1343/09/26هـ، [1925/04/20م]: «واعلم أنّنا في هذه المدّة نحضّر لامتحان جمعية مقاومة الكحول» أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة؛ وفي رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق اطفيش، بتاريخ [1343/10/17هـ]، 1925/05/10م: «اليوم في هاته الساعة، رفعت القلم عن قرطاسي في امتحان الكحول بالدرجة العليا، ووضعته فوق أسطر هاته الورقة، وقد براه السير، واعتراه الكلل، ولذلك أرى من الحسن بمكان أن تتغافلوا عن الهفوات» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[2]- تناول في الحلقة الثانية الفصل الثالث والرابع والخامس؛ ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج03، ج34، [1344/03/12هـ]، 1925/10/01م، ص09-12.

[3]- تناول في الحلقة الثالثة العنصر الثالث: موقفها القانونيّ أمام مسألة التجنيد؛ ينظر: نفسه، ص19-23.

[4]- بحذف ما في أوّله نجمة (*) لأسباب لا تخفى على القارئ.

[5]- في 1339/04/10هـ، [1920/12/21م]، بقصيدة "السجن مجمرة تفوح بها قيم الرجال"؛ ينظر: ديوان أبي اليقظان54-57.

الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ[1]؛ أو كافتتاح المحلّ الجديد لمدرسة السلام يوم 1340/07/11هـ، [1922/03/10م][2]، فقد شارك في الحفل الذي أقيم بالمناسبة الشيخان الثمينيّ[3]، وأبو اليقظان[4]؛ ولقد سلكوا نفس النهج مع نبغاء تلاميذهم، فكانوا يدفعون بهم إلى المشاركة في مثل هذه المحافل، من ذلك إلقاء مفدي زكرياء لخطبة مطوّلة[5]، في الحفل الذي أقامته المدرسة القرآنية الأهليّة لتوزيع الجوائز على الحاصلين على الشهادات العلميّة، في سنة 1923 على الأرجح، سنة حصول مفدي على شهادته من هذه المدرسة، وممّا جاء فيها قوله: «إنّ احتفالكم أيّها السادة لتحصيل أبنائكم للشهادات العلميّة، ليبرهن حقيقة أنّ في الشعب نفوسا مشرئبّة إلى الحياة العالية، وقلوبا لا ينطفئ أوارها دون النهل من ينابيع العصر الجديد، بكؤوس صافية من كدرات الغرب، مزاجها الدين، وختامها الأخلاق الفاضلة؛ وهذا من شأنه أن يقدح زناد النشاط في أبنائكم، بالسعي الحثيث في طلب العلم، وتهيئة مستقبل عظيم، يكون نجاحه على قدر

1- في 1339/09/16هـ، [1921/05/24م]، بقصيدة "جسر المجد والعظمة"؛ ينظر: ديوان أبي اليقظان57-60.

2- جاء في رسالة الدعوة: «[...] أمّا بعد، فبمناسبة حلول مدرسة "السلام" بمقرّها الجديد، بدار باش حانبة، الكائنة بنهج بوخريص (زنقة بوخريص، عدد 01) [...]؛ فستقام بحوله تعالى حفلة افتتاح يوم الجمعة المقبل، وبالأخصّ تسرد قصّة المولد النبويّ الشريف، بعد العصر من اليوم المذكور، فالرجاء أن تشرّفونا بطلعتكم تأييدا منكم لمشروعنا العلميّ الوطنيّ الذي لم تخف عنكم فائدته [...]. محمد الشاذلي المورالي» مطبوعة الدعوة، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

3- شارك بقصيدة، مطلعها:

«حـيّ الـفـؤاد بـروضـة الأرواح، وتعشّـمنّ الـخيـر فـي الإصـباح»

تنظر: القصيدة، ومسوّدة الخطبة التي ألقاها بين يديها، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة وتونس تباعا. وجاء في مقدّمة نقد مفدي لهذه القصيدة: «الأستاذ العلاّمة الشيخ محمد الثمينيّ، ما كان لأحد أن ينكر ما للأستذ الجليل من الباع في استثمار نبوغه الشعريّ، وما له من مقدرة في إبراز عبقريّته الأدبيّة في ثوب من البلاغة والطلاوة قشيب، وناهيك بقصائده الاجتماعيّة التي يتجسّم فيها روح الفضيلة الحقّة، والدعوة إلى الإصلاح، هذا إلى ما تضمّنته من أسلوب رائق، ومعنى بليغ، ولا نحتاج على ذلك شاهدا أكثر من تلك القصيدة الفيحاء التي واجه بها افتتاح مدرسة السلام القرآنيّة، يوم الجمعة 11 رجب الأصب 1340هـ، [1922/03/10م]، في احتفال رهيب جمع العلماء والكتّاب والشعراء، وكان فريدة عقد ذلك الاحتفال/ العظيم، فضيلة العلاّمة العظيم الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ» النقد الأدبيّ: شاعر خفيّ، لمفدي زكرياء، مجلّة "الوفاق"، مج03، ج30، 1344/01/01هـ، [1925/07/22م]، ص31، 32.

4- شارك بقصيدة عنوانها "شمس العلوم"؛ تنظر: ديوان أبي اليقظان88-90.

5- الخطبة غير منسوبة، ونرجّح نسبتها لمفدي بقرينة الخطّ، الذي كتب به النصّ في أغلبه؛ والتصحيحات القليلة على المقطوعة الشعرية، التي هي قطعا لأحد أساتذته في البعثة؛ وقوله في ختامها: «سادتي مهما بلغ الخطيب من البراعة في صوغ الكلام، فإنّه عاجز عييّ إذا أراد أن يقوم بقليل من /الشكر والثناء والاعتراف بالجميل نحو معلّمي المدرسة، أساتذتنا النبلاء الذين بذلوا كامل إخلاصهم لنصح وإرشاد بني جلدتهم إلى المستوى الكامل، أخصّ بالذكر منهم أستاذي الجليل سيدي عبد العزيز الباونديّ، وأستاذي النشيط سيدي محمد أبو دينة. وأخيرا أستودع كلمتي النهائيّة من الثناء فؤاد مديرنا المحترم، العلاّمة سيدي محمد مناشو، فبه يختم الذّكر الجميل، فإنّه بمآثره ومساعيه أعاد إلى هذا المعهد النضارة بعد ذبول عوده، وأعاده من وصمة صلوده، وأزهر بيده نجمه الآفل، وأزهر براحته نجمه الذابل؛ فلينتظر الوطن مستقبله، فإنّه معتكف مقيم على ضامن كريم، والكريم إذا ضمن لم يخلف، وإذا نهض لم يقف» الخطبة، أرشيف الشيخ محمد الثميني بتونس، ص02، 03.

هممكم، وتعاضدكم لنصرة العاملين، وتمامه يكون على حسب ما تصدقون في عزائمكم، وما تعتمدون على نفوسكم، وما تعملون»[1].

كانت تونس في تلك الفترة تعيش في حياتها الثقافيّة والعلميّة ظاهرة خاصّة، هي تنظيم مسابقات عامّة، تقابلها المناظرات في النظام التعليميّ[2]، وفي جامع الزيتونة[3]، فكانت تشيع جوّا من التنافس بين المتعلّمين والعلماء على السواء، تجذب إليها النبغاء والمتفوّقين في مختلف فنون العلم:

وكما شارك رؤساء البعثة في مثل هذه المسابقات، فشارك الشيخ الثمينيّ في مسابقة تقويم المنصور لسنة 1342هـ، في موضوع "كيف يجب أن نربّي أبناءنا وبناتنا؟"، فحاز على الرتبة الأولى[4]؛ أشركوا أبناءهم في مثل هذه المسابقات، ومنها مشاركة مفدي زكرياء -على الأرجح- في نفس هذه المسابقة[5]، فقد وجدنا بين كراريسه الدراسيّة كراسّين: سجّل على غلاف الأوّل: «الجزء الأوّل من المسابقة. ما هي الوسيلة لبثّ التربية بين البنات والبنين؟»؛ وعلى غلاف الثاني: «هذا هو الجزء الثاني من المسابقة. اللقب المستعار: أبو الحقّ. ابن الشيخ زكرياء بن سليمان بن يحي»؛ والكرّاسان هما مسوّدة البحث، غير مؤرّخان، واستغرق البحث فيهما 38 صفحة[6].

شارك مفدي وزملاؤه في البعثة، سنة بعد ذلك، في مسابقة "جمعية مقاومة الكحول"، فهو يقول في رسالة إلى شيخه الثمينيّ، بتاريخ 1343/09/26هـ، [1925/04/20م]: «واعلم أنّنا في هذه المدّة نحضّر لامتحان جمعية

---

[1]- الخطبة، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس، ص01.

[2]- ورد في رسالة عبد العزيز الثمينيّ إلى ابن عمّه الشيخ الثمينيّ، مؤرّخة في 1925/01/02: «أمّا تلامذة المدرسة، فإنّ إبراهيم بن محمد وقعت عليه قرعة المناظرة في هذا الأسبوع مع ثلاثة من التونسيّين، ففاز عليهم، وأخذ الجائزة (الإقناع في رسم اليراع، مؤلّفه عثمان بن منصور متطوّع بالجامع الأعظم)» الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستفامة.

[3]- تحدّث سليمان بزملال في رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، في 1925/02/15، عن عطلة في الدراسة «لأنّ مشائخنا أرادوا الدخول في المناظرة»؛ وذكر في رسالته إليه، بتاريخ 1925/04/20، من بين أسباب التأخّر الكبير في الدراسة بجامع الزيتونة كثرة المناظرات؛ تنظر الرسالتان: أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستفامة.

[4]- بقرار من لجنة البحث في المسابقات، مؤرّخ في 1342/11/09هـ، [1924/06/15م]، متقدّما الأستاذ عثمان الكعّاك، والشيخ محمد النجّار، وأمضى الشيخ الثمينيّ مقالته بـ"العدويّ"؛ ينظر: تقويم المنصور 1343هـ/1924، 1925م، لأحمد توفيق المدنيّ، مطبعة العرب، تونس- تونس، ص127-134.

[5]- وممّا يرجّح كونها نفس المسابقة: التطابق في الموضوع، بالرغم من الاختلاف بين ألفاظ العنوانين؛ بالإضافة إلى استعمال لقب مستعار، لكي لا تطّلع لجنة البحث في المسابقات، لدى تصحيح البحوث، على أسماء المشاركين؛ ثمّ ما جاء في توطئته، ممّا يدلّ على أنّها مسابقة عامّة، وليست خاصّة بالمتعلّمين، وذلك إذ يقول: «ماذا تستطيعين أيّتها القريحة أن تملي على يراعك، وفرسان البيان مشرعة أسنّتها ذات اليمين، وذات الشمال؟ ماذا تستطيعين أن تقولي في هذا المقام الخطير، الذي تبوّأ كاهل الإرهاب، وامتطى سنم الأبّهة والجلال؟ ماذا تستطيعين أن تبدي، وأنت بين كاتب [...]؛ وبين شادن [...]؛ وبين شاعر [...]. ماذا تكون وقفتكَ أمام هؤلاء، وأنتَ قليل البضاعة، متطفّلٌ على أهل هاته الصناعة [...]؟ رويدك يا مولاي، سأبذل جهدي، واستمطر الحقيقة من بين شفتي يراعي، قياما بالواجب المقدّس، بما يمليه عليّ جناني، وإن كان يضيق صدري، ولا ينطلق لساني» كرّاس الجزء الأوّل من المسابقة، كراريس مفدي الدراسيّة، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

[6]- ينظر الكرّاسان: كراريس مفدي الدراسيّة، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

مقاومة الكحول»[1]؛ وفي رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق، بتاريخ [1343/10/17هـ]، 1925/05/10م: «اليوم في هاته الساعة، رفعت القلم عن قرطاسي في امتحان الكحول بالدرجة العليا، ووضعته فوق أسطر هاته الورقة، وقد براه السير، واعتراه الكلل، ولذلك أرى من الحسن بمكان أن تتغافلوا عن الهفوات»[2]؛ ويقول الشيخ أبو إسحاق في رسالته إلى طلبته: «رأيت في جريدة ذائعة أسماء بعضكم تنويها بفوزهم في امتحان إنشاء الكحول، فسرّني ذلك أيّما سرور [...] ورآه بعض أصدقائي المصريّين، فكان منهم أن صرّحوا بتعشّمهم في مستقبلنا خيرا»[3].

لم يصل إلينا من مشاركته في هذه المسابقة، سوى المقال الذي نشره في مجلّة "الوفاق"، في حلقتين، تناولتا خمسة فصول من عشرة، واعتبره مدير المجلّة في تقديمه «نبذة من تأليفه "السمّ الكحوليّ"»[4]؛ ممّا يدلّ على أنّه بحث مطوّل لا يقلّ عن سابقه، وربّما زاد عليه. وإذا كان مفدي لم ينل جائزة عن مشاركته في البحث السابق، فإنّه تفوّق، وحاز قصب السبق في هذه المسابقة، فقد تحدّث زميله سليمان بزملال في رسالة له إلى الشيخ الثمينيّ، عن كتاب مصوّر بتسفير عجيب، يحمله خادم من خدم "حمّام مسخوطين"، «مثل كتاب الطائش زكرياء، الموجود عندكم، والذي أخذه في مقاومة الكحول»[5]؛ ثمّ إنّ الشيخ الثمينيّ انتقد على رئيس "جمعية مقاومة الكحول" تصرّفات جمعيته يوم الاحتفال بالفائزين، في 1925/06/26، بعد أن قرّر عدم مشاركته وأبنائه في الاحتفال، بسبب تصرّفات أخرى صدرت عن لجنة الامتحان، سبق الاحتجاج عليها[6]، ممّا يدلّ بوضوح على أنّ مشاركة أبناء البعثة في مثل هذه المسابقات كانت تتمّ بتوجيه من رؤسائها، وتحت نظرهم في جميع مراحلها، والتحدّث في الرسالة عن الطلبة المشاركين بضمير جمع المتكلّمين، واللهجة القويّة للرسالة لها دلالتها في هذا الصدد؛ وإذا كان الاحتجاج الثاني بخطّ الشيخ الثمينيّ، لأنّه كان موجودا بتونس في أواخر جوان كما أسلفنا، فالأوّل لا يمكن أن يكون إلاّ من تحرير الشيخ أبي اليقظان؛ ولكلّ ذلك استعملنا تعبير "أشركوا أبناءهم في مثل هذه المسابقات".

وعندما زار الشيخ سليمان باشا الباروني تونس في أواخر أوت 1923، كما مرّ بنا آنفا، حال الحصار الذي

1- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

2- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- الرسالة، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثميني، بتونس.

4- مجلّة "الوفاق"، مج03، ج33، [1344/02/12هـ]، 1925/09/01م، ص27.

5- الرسالة، مؤرّخة في 1926/06/04، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

6- يقول فيها: «وبعد، فما راعنا إلاّ والجوائز التي قدّرت لنا يوم الاحتفال، 26 جوان [1925]، يأخذها أناس، ولا علاقة لنا بهم، بحيث ينادى باسم من أسمائنا، فيتقدّم غيرنا لأخذ الجائزة، فعمل كهذا يا جناب الرئيس يعتبر خيانة، وتدليسا سافلا، وجناية كبرى على الأخلاق والآداب اللذين هما من شعار جمعيتكم [...] نحن لا نعارضكم في إعطاء ما تشاؤون لمن تشاؤون، إذ ذلك شيء يخصّ الجمعية، ولا دخل لنا فيه، منذ أن أعلنا لكم عدم المشاركة في الاحتفال، وإنّما الذي يهمّنا، ويجعلنا نرفع احتجاجنا إليكم هو أخذ الجوائز بأسمائنا، على أنّ مصدر هذه الخيانة ومرتكبيها معلمون لدينا، ولكن وقع ذلك باسمكم المحترم، فأنذرناكم، ومن أنذر فقد أعذر، ونرجو إنهاء المسألة بما يرضي العدل والإنصاف اللذين هما ضالّة الجميع، وإلاّ فالرأي العامّ هو الحكم العدل بيننا [...]» مسوّدة الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

ضربته حوله السلطات الفرنسيّة دون تكريم البعثة المزابيّة بتونس له، وحرَمه زيارة البعثة، ورؤية تلاميذها، «وحيث أنّه التمس منّا -إذ حرم من رؤية أبنائنا- صورهم وكتاباتهم، فأرسلناها إليه، فإنّه لمّا رجع من تونس مُكرها إلى مارسيليا، كتب إلينا في أواسط رجب 1342هـ، 22 فيفري 1924م، رسالة ضمّنها أبياتا عالية في الموضوع كجواب لذلك»[1]، جاء فيها:

«[...] سلاما واحتراما. ورد إليّ أمس كتاب، ومجموعة صور للتلامذة النجباء، فدلّتني كتاباتهم على ما لديهم من الذكاء والاستعداد للنزول في معترك الحياة الجديدة للبقاء مع الأحياء.

كما حرّك منّي منظر صورهم الجميل قريحة طالما حاول الدّهر إخمادها، وفكرة كثيرا ما نوت النوائب قتلها، ولكنّها لم تمت، ولن تموت بإذن اللّه، فقلت الأبيات الآتية جوابا، وتنشيطا لتلك الشبيبة المعتصمة باللّه:

حياة تجلّت، فاستنار بها الشعب، وشمس تبدّت، فاستضاء بها الغرب

إلى أن يقول:

لقد أمّها من "مصعب" الغرب ثلّة، شباب صغار، لا يعدّ لهم ذنب
رأوا للعلا رأيا، فتاقت نفوسهم إلى نهجه، فاستسهلوا ما هو الصّعب
أتتني رسالات تشفّ عن الذكا، وعن همم عليا، وروح لها صوب
/بني الغرب، أكبادُ الشباب تعطّشت، فلا تحرموهم ما إليه الورى هبّوا
أروهم من الدّين الحنيفيّ أسّه، ومن أمر دنياهم علوما لها لبّ
فهم عدّة، بل للطواري أسنّة، وهم أعين الأجيال، بل همْ همُ القلب

إلى أن يقول في ختامها:

وهل بعد هذا للحياة فضيلة بربّك، لا لا فالعلوم هي القطب»[2].

واتّصلت مراسلاته مع أفراد البعثة، رؤساء وتلاميذ، وخصّهم باسم "إخوان الصّفا"، يقول الشيخ أبو اليقظان: «لمّا التمس أيضا من أبنائنا التلاميذ أفراد البعثة، لمزيد حنينه إليهم، أن يكتبوا إليه ما يعنّ لهم من رسائل، وأن يرسلوا إليه معها صورهم أيضا، زيادة عمّا مرّ سابقا، ليرى تطوّرهم في العلم، ونموّهم في الحياة، أجابوه بما سرّه وأبهجه، وتبيّن من ذلك تفنّنهم، وتفاءل منه خيرا للأمّة والوطن»[3]؛ وإذا كنّا لا نعلم شيئا عن إسهام مفدي في المراسلة الأولى، فإنّه شارك في الثانية بقصيدة مطوّلة، تضمّنت تحيّة عظيم الشرق بمناسبة العيد السعيد[4] في

---

[1]- سليمان باشا الباروني في أطوار حياته1: 189.

[2]- سليمان باشا الباروني في أطوار حياته1: 189، 190؛ وينظر: ديوان الأدباء، جريدة "النجاح"، س04، ع163، 1342/11/17هـ، 1924/06/20م، ص03؛ ومحضر اجتماع [1342/07/22هـ]، 1924/02/27م، الدفتر، أرشيف الشيخ الثميني، بتونس.

[3]- سليمان باشا الباروني في أطوار حياته1: 190.

[4]- يعني بالعيد عيد الفطر المبارك: 1342/10/01هـ، 1924/05/05م.

قسمها الأوّل، جاء في أوّله:

نســـماتِ الـــحبِّ طيـــري بالسَّلاَمْ، واحـــمِلي الشّـــوقَ على جُنْحِ الظَّلاَمْ
وابلـــغي عـــنّا تـــحيّـــاتِ احـــترامْ لفـــتـــى الدّهـــرِ، عظـــيـــمِ العُظَمَا

ثمّ نشيد الشبيبة في قسمها الثاني، وهو الأكبر، يقول في بدايته:

نـــحـــن مِـــن مـــجدٍ وعزٍّ وجلالْ، قـــد خُـــلِـــقْـــنا دون أبـــناءِ الرِّجَالْ
وبـــهِ نَـــحـــيـــا على مـــرِّ اللّيـــالْ، وبهِ نُحيِـــي العـــظـــامَ الرِّمَـــمَـــا[1]

فجاء ردّ الشيخ سليمان باشا الباروني مؤرّخا في 1342/11/05هـــ، 1924/06/08م، على نفس بحر قصيدة مفدي، وملتزما بنفس نظام الرباعيات وعددها، يقول في مطلعها:

نســـمـــاتُ الشّـــوق هبّتْ بانتظامْ، حامـــلات للتّـــهـــانـــي والســـلامْ
وتغـــنّى بـــلبـــل الأنـــس، وهـــامْ، إذ هلال القطـــر قـــد زان السّمـــا[2]

وفي الرباعيّة الثانية ضمّن شطر بيت لمفدي، فقال:

بـــدت الأقـــلام تشـــدو وتـــجولْ تـــنـــظم الشعـــر عقـــودا وتصـــولْ
وتجيد النـــثـــر طـــورا، وتـــقـــولْ: (إن رعدنا نقلب الأرض ســـمـــا)[3]

استلّه من "نشيد الشبيبة"، حيث يقول مفدي:

إنّـــنا بالدّيـــنِ والعـــقـــلِ نـــسيـــرْ، إنْ نَطَـــقْـــنا نـــمـــطرِ الـــماءَ النَّميرْ
أوْ بَرَقنا نُـــرجِـــع الطّرفَ حسيـــرْ، أو **رَعَـــدنا نَـــقْلب الأرضَ سَمَـــا**[4]

وضمّن شطر بيت ثان له في الرباعيّة الرابعة، فقال:

أنتم للشّعـــب حِـــصْـــن وســـلاحْ عـــنـــدمـــا تُـــنـــشر أعلام الكفاحْ
أنتـــم عنـــد اللقـــا كبـــش النّطاحْ، (هـــل تـــراه قـــد بدا مبتســـما؟)[5]

---

[1]- مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20، 1342/12/09هـــ، 1924/07/10م؛ وينظر: مسوّدة القصيدة بخطّ الشاعر، كراريس مفدي الدراسية، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

[2]- أصل القصيدة، بخطّ الشيخ سليمان الباروني باشا، أرشيف الشيخ الثميني، بتونس، ص01، 02؛ وينظر: مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20؛ وسليمان باشا الباروني في أطوار حياته1: 190، 191، من غير إشارة إلى أنّها جواب على قصيدة مفدي زكرياء.

[3]- مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20.

[4]- نفسه.

[5]- كتب عجز البيت بقلم مغاير في مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20؛ وجاء عند الشيخ أبي اليقظان، على النحو الآتي: «يدفع الأضرار عن ذاك الحمى» سليمان باشا الباروني في أطوار حياته1: 190، 191. أمّا أصل القصيدة، كتب الباروني القوسين، وترك ما بينهما بياضا، ممّا يدلّ على نيّته تضمين شطر بيت؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثميني، بتونس. ويبدو أنّ الشيخ أبا اليقظان لّما لاحظ البياض، أتمّه بما يلائم السياق، بينما اختار مفدي تضمين عجز بيت من أبياته، على اعتبار النية الواضحة في التضمين بوضع القوسين، وقد سبق تضمين عجز بيت من قصيدته هو.

وهو في النشيد، حيث يقول:

في سبيــــلِ الـــحـــقِّ نحيا ونموتْ، لا تــظنْ أنّـــا مِـــنَ الخوفِ سُكُوتْ

نـــحن مثلَ اللّيثِ مِن بَعْدِ الصُّموتْ، **هلْ تـــراهُ قـــد بـــدا مُبْـــتَسِمَا؟**[1].

وغير خاف أثر مثل هذه الشهادة ممّن كان في مثل مقام الزعيم الليبيّ، الشيخ سليمان باشا الباروني، مع ما له من باع في الكتابة الأدبيّة شعرا ونثرا، في نفس مفدي زكرياء، وهو في أوّل خطوات حياته الأدبيّة؛ فما كان منه إلاّ أن نشر القصيدتين في أوّل عدد صدر من مجلّة "الوفاق" بعد تلقّي الردّ.

هذه هي القصيدة التي وقفنا عليها من شعر مفدي ضمن قصائد "إخوان الصفا"، غير أنّ رسالة من الشيخ بيوض إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1925/02/09، تدلّنا على أنّها لم تكن الوحيدة، وذلك عندما استعرض عليه وقائع ليلة غرّاء، فقال: «قبلت مع سيارة بوكامل 60 نسخة من "الذهب الخالص"، في نفس اليوم، وإن شئت فقل نفس الساعة التي استلمت فيها كتابا من الشيخ أبي اليقظان، يحتوي على بقية رحلة الأستاذ الأكبر، ومجموعة من قصائد إخوان الصفا، زهرة المستقبل، وترجمة مقال لادبيش 19 نوفمبر، فكان لهذا الاتّفاق الغريب، والسرور المزدوج تأثير شديد عليّ لا أنساه أبدا؛ ثمّ إنّي بشّرت الإخوان بذلك، وما توارت الغزالة بالحجاب، وأدّينا الفريضتين حتى هرع نخبة إخوان الصفا لمحلّ الكاتب، حيث وقع الاحتفال بافتتاح كنز "الذهب الخالص"، وسرد ترجمة الأستاذ الذهبيّة، ثم جواب الشيخ أبي اليقظان الذي لا يقلّ عن سبع صحيفات، ثمّ رحلة الأستاذ، ثمّ قصائد إخوان الصفا، واحدة واحدة، ثمّ جواب الشيخ عليها، ثمّ مقال لادبيش؛ قرئ كلّ ذلك بحماس بين رنّات الهتاف، **وممّا استوقف نظر الإخوان بنوع خاصّ، وأدهشهم، قصائد ذلك الفتى العبقريّ السيّد زكرياء بن سليمان، فإنّها والحقّ يقال، ممّا يستغرب صدوره من فتى في مثل ذلك السنّ، نسأل الله أن يطيل بقاءه، وأن يكلأه بعينه التي لا تنام حتى تتجلّى مواهبه الكامنة، وسيكون له شأن.** الحاصل ليلة غرّاء في جبين الدّهر، قلّما يوجد مثلُها، وانفضّ الاجتماع على الساعة الثانية بعد منتصف الليل»[2]؛ وهذه الرسالة تدلّنا فضلا على ما سبق على امتداد شهرة مفدي في تلك السنّ المبكّرة إلى النخبة المثقّفة بمزاب.

ثمّ جاء -على الأرجح- أوّل مقال نشره في الصحافة التونسيّة، نشره في جريدة "الصواب"، في أواخر سنة 1924، لم نطّلع عليه بالرغم من استفراغ الجهد في البحث عنه، وإنّما وقفنا على تقريظ الشيخ سليمان باشا البارونيّ لكتابته، في رسالتين منه إلى إخوان الصفا: يقول في الأولى: «اليوم وصلني "الصواب" الأعزّ، فبارك الله فيه،

---

[1]- مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20.

[2]- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

وفي ابن سليمان[1] النجيب، زاده الله توفيقا، وكذا إخوانه النجباء. سليمان»[2]؛ وفي الثانية: «وصلني "الصواب"، وقد أجاد، فجازاه الله خيرا، فأبلغوا صديقنا القديم الشكر والتحيّة، ولله قلم وروح ابن سليمان وإخوانه، جعلهم الله نبراس القطر والعصر، آمين»[3]. وإذا كان ما ورد في نصّي الرسالتين، وبخاصّة الثانية لا يدلّ بالضرورة، على أنّ النصّ الذي اطّلع عليه، ونال إعجابه، قد نشر في "الصواب"، فإنّ ما ورد في رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ يرفع هذا اللبس تماما، وذلك حيث يقول: «وإنّك لترى ابتهاج الأستاذ [يعني: الشيخ الباروني] بكتابته في "الصّواب"»[4]، واستعمال لفظ "كتابة" هنا يرجّح -في تقديرنا- كون النصّ مقالا لا قصيدة.

ولعلّ هذه النجاحات التي أحرزها سابقا، وإحساسه بالإنجاز الذي حقّقه في قصيدته "إلى الريفيّين"[5]، هي التي جعلته يطمح إلى طبعها في تلك الفترة المبكّرة من حياته الأدبيّة، على نحو طبع قصيدة أمير شعراء تونس، الشاذلي خزندار، في الكماليّين، يتحدّث الشيخ أبو اليقظان عن هذا الأمر قائلا: «كتب زكرياء نحو 63 بيتا من المتقارب، في أبطال الرّيف، وطلب طبعها على حدة، كقصيدة خزندار للكماليّين، فأظهرت له منع هذا لأسباب، وإن أمكن ففي جريدة، وفيها -والحقّ يقال- عيون تعمي عيونا، وتفتح عيونا، حفظه الله من كل داء»[6]؛ فكان أن طُبعت بعد شهرين من هذه الرسالة، في جريدة "لسان الشعب" التونسيّة، بتاريخ 1925/05/06م، ومطلعها:

أَجِـبـريـلُ هلّـلْ بـآيِ الظَّـفَرْ   وَكـبِّـرْ وخُـطَّ جـليـلَ الخَبَرْ[7].

أرسل مفدي إلى شيخه أبي إسحاق اطفيش، بتاريخ [1343/10/17هـ]، 1925/05/10م، يقول: «سيّدي نشرت في جريدة "لسان الشعب" قصيدة حماسيّة في شأن الريفيّين، ولا إخال أنّها لم تصلكم، فأرجوكم مع عظيم الشكر والامتنان إعادة نشرها بجريدة هناك منتشرة، حتّى يمكن وصولها إلى الرّيف، إذ لا يخفى أنّ "لسان الشعب" لا يصل إلى هناكم، خصوصا في هذه الأوقات الجهمة. أرجوكم إرسال انتقاداتكم الفنيّة الخاصّة على القصيدة،

1- يعني: زكرياء بن سليمان، مفدي زكرياء؛ ويغلب على ظنّنا أن يكون "ابن سليمان" هو الإمضاء الذي ذيّل به كتابته في "الصواب"، إذ له نظائر.

2- الرسالة، مؤرّخة في 1343/06/01هـ، و[1924/12/28م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3- الرسالة، مؤرّخة في 1343/06/14هـ، [1925/01/10م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- الرسالة، مؤرّخة في 1343/08/10هـ، 1925/03/05م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

5- يقول مفدي عنها: «أمّا القصيد الثاني، فكان في تمجيد جهاد الريف، بقيادة الزعيم الخالد، الأمير عبد الكريم الخطّابي. وقد نشرت[كذا] بعدد 182 من جريدة "لسان الشعب" بتونس، بتاريخ 08 سبتمبر 1925، كما نشرتها جريدة "الصواب"، في نفس الشهر، ونشرتها جريدة "اللواء"، و"الأخبار" القاهريتان، وما جاء في تعليق جريدة "اللواء" قولها: هذه القصيدة لشاعر لم يبلغ الحلم، مفدي زكرياء، وهي وإن دلّت على شيء فإنّما تدلّ على تشبّع الأمّة الجزائريّة بروح الإسلام والوطنية الصادقة» شاعر الثورة التحريريّة مفدي زكرياء في الصحافة الوطنيّة32.

6- رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1343/08/10هـ، 1925/03/05م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

7- ينظر: إلى الريفيّين، بإمضاء: ابن سليمان، جريدة "لسان الشعب"، س05، ع182، 1343/10/14هـ، 1925/05/06م، ص04؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى23-27.

لأنّي ما نشرتها إلاّ لذلك»[1]؛ فكان أن صدر في جريدتي "اللواء" و"الأخبار" المصريّتين، مقال بعنوان "بين الجزائر والريف"، بإمضاء: ابن صفاقص بالقاهرة، أدرج فيه أكثر من ثلث القصيدة، وقدّم له بما يلي: «وممّا يدلّ على تشبّع هذه الروح العالية في نفوس الميزابيّين والتونسيّين ما نشرته جريدة "لسان الشعب" التونسيّ، في عددها 182، من القصيدة العامرة الأبيات، الطافحة بالروح الحماسيّة السامية، تناجي بها الريفيّين الأبطال، وقد ملأت نهرا واحدا وثلث نهر من لسان الشعب الأغرّ، وهي لحضرة الأديب البارع "ابن سليمان"، الذي لم يبلغ الحلم بعد»[2].

لقد كان مفدي عقب هذا الإنجاز الكبير، قياسا بسنّه، في أحسن أحواله النفسيّة، كان يعيش نشوة تحقيق ذاته شاعرا، وكانت نشوة غامرة يترجمها قوله في رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق: «إنّي مغرم، شيّق، صبّ، لشيء واحد، وأراه أعظم حياة، وأسعد مستقبل، ألا وهو الشعر، وما يتعلّق به من السّحر، فيا ما ألذّ كؤوسه، ويا ما أميلح آياته، فأرجوكم إمدادي فيه بيد المعونة، وذلك باقتراح مواضيع عليّ، وإجراء مسابقات، وإرسال بعض قصائد سحريّة تنشر للشعراء هنالكم، أطّلع عليها، وأكرع من سلسال ينابيعها، فإنّي ولِهٌ ظمآن، أوّاه من لي بالشعر، حياة النفوس، ونجوى الضمير، وروح الوجدان»[3]؛ ولعلّ هذه العبارات منه تسجّل لحظة قناعته ووعيه وإدراكه أنّه ولد ليكون شاعرا لا غير، وقد ظهر أثر ذلك في شخصيته بعد ذلك في الميل إلى التأنّق في أسلوبه وعمله على السواء، وقد سبق مثال لذلك في إصداره للعدد الممتاز من مجلّة "الوفاق".

نشر مفدي قصيدة جديدة، في 1925/05/26، بعنوان "بدر النجاح"، في جريدة "النهضة" التونسيّة، وهي في تهنئة أستاذه بجامع الزيتونة، الشيخ عبد السلام التونسيّ، بخطّة التدريس الكبرى[4]، يقول في مطلعها:

بـــدرُ النّجـــاح على أفْقِ السّماءِ أضا، وبلبـــل السّعد من قطر المنى انتفضا[5]

وكان أحد الكتّاب التونسيّين يكتب في جريدة "لسان الشعب" خواطر وملاحظات، بعنوان "مذكّراتي"، وتحمل إمضاء "جهينة". وفي يوم 1925/06/17، تعرّض فيما تعرّض له إلى موضوع "الشعر"، فقال: «لي ولوع كبير بمطالعة الشعر، ويطربني منه ما أثّر في النفس، بالرّغم منها، كما تؤثّر النغمة الموسيقيّة في نفس سامعها، ومذهبي فيه أنّه إذا لم يكن بهذه الصفة فلا يستحقّ أن يطلق عليه اسم "شعر" أصلا [...]. ومن فضل الله علينا أن كانت تهبّ علينا بين الآونة والأخرى نسيمات لطيفة من الشرق تنعش أرواحنا، أو نفثات من أمير شعرائنا، أو

1- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- نسخة من المقال كاملا، بخطّ مفدي زكرياء، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- الرسالة، مؤرّخة في [1343/10/17هـ]، 1925/05/10م، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

4- هو ما وجدناه في تقديم قصيدة زميله في الزيتونة، محمود بورقيبة، بنفس المناسبة، ونشرت بعد قصيدة مفدي بيوم، ومطلعها:

أزفّ إلى مـــولاي تـــهـــنـــئة كبـــرى، كما فـــاح ريح الـــمسك ممتزجا عطرا.

ينظر: تهنئة، لمحمود بن العربيّ بورقيبة، جريدة "النهضة"، س02، ع596، 1343/11/05هـ، 1925/05/27م، ص02.

5- ينظر: بدر النجاح، لمفدي زكرياء، تلميذ بالجامع الأعظم، جريدة "النهضة"، س02، ع595، 1343/11/04هـ، 1925/05/26م، ص02.

سعيدنا، تغذّي نفوسنا [...]؛ وتلك هي السلوة الوحيدة التي تسلّينا عمّا نجده بين الآونة والأخرى من المنظومات فوق أعمدة "النهضة" تحت عنوان الأدب، الذي لو اتّخذ في الشرق دليلا على أخلاقنا، لحكم علينا بأنّنا أحطّ الأمم، وأبعد الناس عن الحياة الأدبيّة، والعذر لهم أن يحكموا لّما يطّلعون بالجريدة نفسها، على كلام سمّوه شعرا، في مدح تلميذ أستاذه، افتتحه بالغزل في شيخه، طالبا منه ما يُخجل سماعه[1]؛ ثمّ شبّهه بأنّه كهوميروس أثناء إلقائه الدرس، مع أنّنا عهدنا هوميروس شاعرا فقط[2][...]، ثمّ ختم هذا الهذيان بأنّ الشعب (سعى وخاب)[3]، و لم أدر مستند هذا المترامي على الشّعر في أنّ الشعب خاب في أعماله. لم أقصد من هذا بيان كلّ العيوب التي حوتها هذه المنظومة التي تتبّعتها من أوّلها إلى آخرها، فلم أر فيها بيتا يستحسن، بل هي عبارة عن /جثّة هامدة [...]. وإنّي بقدر ما أحترم الشعراء الحقيقيّين أمقت هؤلاء الشويعريّين الذين يدعوهم حبّ الظهور لأن يجنوا على الأدب جنايات قد تعود على الأمّة كافّة بسوء السمعة، وفساد الأحدوثة»[4].

لقد كان مقالا انتقاديّا حادّ اللهجة، قاسيا، مبنيّا على قراءة انطباعيّة لا على تحليل ودراسة، الهدف منه ليس القصيدة في حدّ ذاتها، وإنّما إبراز رأي له في الشعر، ومثّل له بما يعتبره نقيضا له فيما قرأه على أعمدة الصحف، وبخاصّة جريدة "النهضة"[5].

إنّ هذا المقال الانتقاديّ المبكّر في حقّ مفدي، على وخزه الأليم، كان فرصة لإبراز كفاءته في دخول المعارك الأدبيّة، للدّفاع عن رأيه، وللنيل من خصمه بذكاء واقتدار، والميل في ذلك إلى السخرية المبطّنة الجارحة، ممّا لا يمكن أن يصدر من شاعر مبتدئ في مثل سنّ مفدي آنذاك، إلاّ إذا كان واثقا من نفسه، معتدّا بها أشدّ الاعتداد، وواثقا من شعره، ومن موهبته فيه:

نشر مفدي مقاله "نقد على نقد"، في جريدة "الوزير"، بتاريخ 1925/07/07، والعبارة الأولى فيه تدلّ على

1- يعني قوله: «على مـــحيّـــاك حســـن لو رأتــك به ... قـــدما زليـــخا، ما اختارت لـــها عوضا
وفوق مبسمك الألـــمى مـــدام هـــوى ... كم ذا أقاسي إلى ارتـــشـــافه مضـــضا» السابق02.

2- يعني قوله: «فكنت في الدرس "هوميروس" عصرك يا ... "عبد السّـــلام"، إذا مـــا ثغـــركم لفظا» نفسه02.

3- يعني قوله: «سعى فخاب، فرام العون، فامـــتـــنعوا، ... فسام صبرا، فأعيا نيـــلـــه، فـــقـــضى» نفسه02.

4- الشعر، لجهينة، جريدة "لسان الشعب"، س05، ع 187، 1343/11/26هـــ، 1925/06/17م، ص02،03.

5- والملاحظ على "جهينة"، تركيزه على ما ينشر من شعر في جريدة "النهضة" فقط، وقد سبق أن نشرت "لسان الشعب" لنفس الشاعر الذي سلقه في مقاله، وكأنّه اتّخذ من القصيدة مطيّة للنيل من جريدة "النهضة"، إذ لا نجد ما يبرّر حدّة لهجته فيما انتقده في القصيدة ذاتها، خاصّة إذا وقفنا على تسرّعه في الأحكام التي أصدرها، كما سيبيّنه ردّ مفدي عليه، وكذا ربطه هذا المقت الشديد بما قد يظنّه الشرق لو اطّلع على مثل هذه القصيدة، فالشرق هو قبلته في الشعر، كما هو مرجعيته في الأخلاق والآداب.

أنّه كتب مقاله قبل صدور العدد الموالي للعدد الذي صدر فيه مقال "جهينة"، من جريدة "لسان الشعب" الأسبوعيّة، أي: قبل يوم 06/24، وذلك إذ يقول: «في العدد الماضي من جريدة "لسان الشعب" الغرّاء، تحت عنوان "مذكّراتي"، قرأت فصلا جاء في آخره تحت كلمة "شعر" انتقاد على قصيدة»[1]؛ ويدلّ أيضا على نيّته نشره في "لسان الشعب"، وهو الأولى أخذا بحقّ الردّ، وإلاّ ففي إحدى الجرائد الأسبوعيّة الأخرى كـ"الوزير"؛ ولعلّ في تأخّر نشره في هذه الأخيرة لأسبوعين كاملين عن الموعد الذي خطّط له، ما يدلّ على محاولة نشره بداية في "لسان الشعب"، غير أنّه لم يوفّق في ذلك.

بدأ مفدي مقاله بنسبة "جهينة" إلى الغفلة في مقدّمته، يقول: «وكان هذا الانتقاد ممزوجا بنصيب من الغفلة»؛ ثمّ أوضح مفهومه للانتقاد الأدبيّ في قوله: «للانتقاد الأدبيّ أثر على الشعر لا ينكر، وللغربلة الشعريّة مفعول في الحياة الأدبيّة لا يجحد، وهو أخذه بيمين الأدب إلى معارج الرقيّ، والصعود به إلى مراقي الكمال، غير أنّ الانتقاد يختلف بحسب نفسية المنتقدين، وقيمهم الفكرية، واستعداداتهم لفهم كلام الناس، وكمال شعورهم، وقوّة مداركهم وإحساساتهم، وعظيم محفوظهم في اللغة التي يتصدّون للانتقاد فيها؛ لأنّ المنتقد مهما بلغ لا يُرفع له ستار الخفاء عن مقاصد الشاعر، ولا تغيب عن الحافظة المناظرة التي جرت بين سيف الدولة والمتنبّي، في الاعتراض الذي اعترضه الأوّل على الثاني في قوله «وقفت وما في الموت شكّ لواقف»، وجواب المتنبّي عنه»[2]؛ ثمّ ردّ على انتقادات "جهينة" الواحد تلو الآخر:

1- إنّ ما اعتبره تغزّلا بأستاذه هو تغزّل بالعصر، «لأنّ ضمير محيّاك، وضمير مبسمك راجعان إلى العصر[3]، كما هو ظاهر لكلّ من زاول السنة الأولى بالعربيّة! بربّك أرني اسم الشيخ متقدّما، أو ما في معناه حتّى يصحّ إرجاع الضمائر إليه»[4].

2- أمّا تشبيه الشيخ بهوميروس، فيقول فيه: «لو تأمّلت قليلا، وتفكّرت أنّ المجاز يحتاج لعلاقة واحدة، ولا يشترط فيه المشابهة من كلّ الوجوه، وكرّرت قليلا أوّل كلمة لصاحب السمرقنديّة [...] لتبيّن لك جليّا استعجالك، لأنّ تشبيه الأستاذ بهوميروس، إنّما علاقته التأثير والدخول بالمسائل إلى مكامن القلوب»[5].

3- «إنّ انتقاده علينا قولنا (سعى فخاب) يبرهن جليّا على قلّة بضاعته في المحفوظات، وعدم اطّلاعه على

1- نقد على نقد، لمفدي زكرياء، جريدة "الوزير" التونسيّة، س06، ع186، 1343/12/17هـ، 1925/07/07، ص05.

2- نفسه.

3- وذلك في البيت السابق للبيتين المذكورين آنفا:

«كم فيــك -يا عصر- من سعد أراك به   تسقــي بنيك الكرام الغــرّ كأس رضا».

بدر النجاح، لمفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، ع595، ص02.

4- نقد على نقد، جريدة "الوزير" التونسيّة، ع186، ص06.

5- نفسه06.

الأدب العصريّ، والروح المسخّرة لاستفزاز الشعور، وإثارة العواطف، والأسف الأليم من الحالة التي انحدرت إليها الشعوب الإسلاميّة، تحت قيد التسلّط الفرديّ، والضغط الاستعماريّ، والجهل والجمود [...]. نظرك هذا يحكم على كثير من أساطين وفحول الشعراء، أركان النهضة الحاضرة بالسقوط، مثل شوقي، وحافظ إبراهيم، وجميل الزهاويّ، ويحكم على الرصافيّ بأنّ شعره محض هياكل فارغة»؛ ثمّ يقدّم 07 نماذج من شعر الرصافيّ ينتقد فيها شعبه انتقادا مرّا، ليخلص بعده إلى القول: «فالشعب قد خاب حقيقة، لأنّ أهله متخاذلون، ولله درّ الحقيقة في بيت الرصافيّ القائل:

إنّ البـــلاد إذا تـــخـــاذل أهــــلـــها كانـــت منافــعـــها هي الآفات»[1].

ثمّ ختم مقاله بما يلي: «ونحن قد أتينا بهذا التنبيه لا لأجل مصلحة ذاتيّة، بل لأجل الحقيقة، وخدمة للفنّ خاصّة، ونصحا لمن لم يكن له استعداد كاف للولوج إلى معامع الانتقاد الأدبيّ. ونحن إزاء لفظة "هذيان"، ولفظة "الشويعريّين" لا يسعنا إلاّ أن نقول سلاما. مفدي زكرياء»[2]؛ فبعد أن لمزه وغمزه في ثنايا ردّه، كلّما سنحت الفرصة لذلك، انتهى إلى نوع من الاستعلاء عنه والاستغناء جدّ مؤلم، إذ كان صادرا من تلميذ بالجامع الأعظم إلى كاتب صحفيّ متمرّس.

تحدّث الشيخ أبو إسحاق عن كتابة مفدي هذه في رسالته إلى طلبته، بتاريخ 1925/09/16، فقال: «اطّلعت على قصيدة شاعر الشبيبة، ونقده في جريدة "الوزير"، وإنّي لمثلج الفؤاد بك يا شاعر الشبيبة، واستبشرت بحسن مستقبلك، كما أنّي أرجو أن يقتدي بك إخوانك الأعزّاء في الجدّ والنشاط والتحصيل بصدق وعزيمة حتّى يكون بكم الشعب عند ظنّه بكم مبتهجا مغتبطا»[3].

أثار مقال مفدي بأسلوبه الجامع بين الجدّ والسّخرية حفيظة "جهينة"، فكتب ردّه، ولم ينشر في جريدة "الوزير" إلاّ في 1925/09/22[4]؛ وما يهمّنا فيه عدم تصديقه بنسبة المقال إلى صاحبه، فأعمدة المقال «سوّدها كبيرهم»، وهو الشيخ الثمينيّ، المختفي «وراء شبح حدث مريض بحبّ الظهور»، وهو مفدي[5]؛ فكتب الشيخ الثمينيّ ردّا عليه، بعنوان "لو ذات سوار لطمتني"، وبإمضاء: «المختفي في خدره على لغة البغايا، أو محمد الثمينيّ»،

1- السابق. والبيت من قصيدته "سوء المنقلب"؛ ينظر: ديوان الرصافيّ107.

2- نقد على نقد، جريدة "الوزير"، ع186، ص06.

3- الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلاميّ203.

4- في العدد الثاني بعد صدور مقال مفدي في جويلية، لعدم انتظام جريدة "الوزير" الأسبوعيّة في صدورها.

5- يقول في ذلك: «رأيت في العدد الأخير من جريدة "الوزير" إمضاءه موضوعا تحت كتابة التهمت ثلاثة أعمدة، سوّدها كبيرهم [يعني: الشيخ الثمينيّ] ... فلمّا أجلت فيها النظر، وجدتها محتوبة على طائفة كبيرة من البذاءة والعجرفة [...] وبودّي لو برز كاتبها من خدره، وظهر على المسرح لتلقّي سهامنا الرشيقة مباشرة، أما وهو في درجة من الجبن أن اختفى وراء شبح حدث مريض بحبّ الظهور، فلا أعير سخافته التفاتا، شفقة أن يصبح الحجر مثقالا بدينار» ومن البليّة، لجهينة، جريدة "الوزير"، س06، ع188، 1344/03/05هـ، 1925/09/22، ص03.

وقصدُنا فيه قوله: «لم يشأ الكاتب أن يكتفي بالإعراب عن تربيته الفاضلة... بل ضمّ إليها الافتراء، فنسب إلينا ما نشر في جريدة "الوزير"، واسم كاتبها منشور فيها، وإنّما حمله على ذلك إكباره للكتابة، مع حداثة كاتبها سنّا وتعلّما [../..]. إنّ ابننا زكرياء مشهور بين أنداد الزيتونيّين والمدرسيّين بكتابته وشعره، فلا حاجة لنا أن نقول: إنّه يجيد النظم والنثر، لجُعَل لم يزل يدحرج كرة تلو أخرى»[1]. وممّا يدلّ على صحّة نسبة المقال أيضا إلى مفدي هو غياب الشيخ عن تونس حين كتابته قبل 06/24، على ما استنتجناه آنفا؛ أضف إلى ذلك تأثّره الواضح بمعروف الرصافيّ، حيث حشد في مقاله 08 شواهد من شعره، ولنا وقفة مع تأثّره بهذا الشاعر لاحقا[2].

إنّ ما يجب أن نسجّله على ثاني مقال نشره مفدي في الصحافة التونسيّة، هو كتابته له وهو في خضمّ التحضير لامتحان الخلدونيّة، المقرّر في 1925/06/27، وفاز فيه، وأخفق بعض زملائه في البعثة؛ وهذا يدلّنا على أنّه وإن جرفه تيّار الأدب، فقد بقي ملتزما بواجباته الدراسيّة، مصداقا لما رواه الشيخ أبو اليقظان، إذ يقول: «وطالما ألزمته ملازمة دروسه، والعدول مؤقّتا عن هذا التّيار الذي يعوقه عن الواجبات العلمية في هذا الدّور، ويزعم أنّه إنّما يشتغل بها وقت الفراغ، ولا تشغله عن شيء منها»[3]؛ كلّ هذا يدلّنا على نبوغه من جهة، وأنّه يسوق سفينه في بحر الأدب المتلاطم الأمواج -على حداثة سنّه- باقتدار وكفاءة.

هذه الانتصارات التي حقّقها أدبيّا كانت موازية لتدهور علاقته بزملائه بالبعثة، وانتهت بالوشاية التي عوقب بسببها، فما كان لشهادتي الشيخين أبي إسحاق والثمينيّ السابقتين في حقّه، على قيمتيهما الكبيرتين في نفسه، أن تزيلا حالة الإحباط والقنوط التي كان يعاني منها، في شهر سبتمبر 1925، وقرّر بسببها وقف دراسته في تونس، والرحيل عنها إلى مزاب[4]، وتأثّر إنتاجه الأدبيّ فقلّ، فلم يكتب في هذه الشهور القليلة قبل سفره إلى بني يزقن، في ديسمبر 1925، سوى مقطوعة بعنوان "شكاة إلى الربّ تعالى"، كتبها في هذا الظرف النفسيّ الخاصّ، فكانت -فيما نعلم- آخر إنتاجه الأدبيّ بتونس الخضراء، وهي تفصح عن إحباط وقنوط شديدين، بلغ بهما حدّ تمنّي الموت، ليتخلّص من عيشه المنكود، وممّا جاء فيها قوله:

صـــرت من غيـــر ذنوب قـــد جـــرت   صاحـــب الأخدودْ
كنتَ ربّـــي شـــاهـــدا فـــيـــما جرى،   وضّـــحِ الـــمشهودْ
واشـــف قـــلـــبـــي مـــن تباريح الضنا   أيّـــهـــا الـــمعبـــودْ
أو فعـــجّـــل بالـــذي أبـــقـــيت مـــن   عـــيـــشِيَ المنكـــودْ

---

[1]- ينظر: مسوّدة المقال، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. لم ينشر في "الوزير"، ولا ندري أين نشره؟

[2]- ينظر: ص446-448.

[3]- رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1343/08/10هـ، 1925/03/05م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[4]- ينظر تفصيل هذه الوقائع: الباب الأوّل، ص110-116.

واستلم -لا جــزِعا نــحــو القــضا-　　روحــيَ الــمصفودْ
وابــقِ أســتــاذيَ بعــدِي مــاجــدا　　يــا إلــه الــجــودْ
وأنِــلْ أهــلِــــي عــــزاءً آخِــــرًا،　　واغــفرِ المحــدودْ !!!
آمين، آمين، آمين يا ربّ العالمين[1].

أمّا إنتاجه الأدبيّ خارج إطار الجمعية ومجلّتها، ومنه ما نشر في الجرائد التونسيّة، بالإضافة إلى ما وجدناه في ثنايا كراريسه ممّا لم يسبق ذكره، ورجّحنا انتماءه إلى هذه الفترة، وهو كما يلي:

رقم	عنوان النصّ	نوعه	حجمه	تاريخه
1.	[تهنئة بمولود][2]	مقطوعة	بيتان	/
2.	[ته جلالا أيّها الكوكب][3]	مقطوعة	بيتان	/
3.	ما هي الوسيلة لبثّ التربية بين البنات والبنين؟	بحث	38 صفحة	1924

1– المقطوعة الشعرية، بخطّ مفدي، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

2– البيتان –بخطّ الشاعر– موجودان على ظهر غلاف كرّاس، من كراريس مفدي الدراسيّة بتونس، يضمّ مسوّدة بحث بخطّ مفدي زكرياء في عشر ورقات في موضوع التربية والتعليم، وعلى وجه الغلاف كتب ما يلي: «الجزء الأوّل من المسابقة»، ولا يوجد به أيّ تاريخ، والذي يدلّ على أنّ البيتين له هو المحاولات المتكرّرة لكتابة البيتين وتصحيحهما، إلى اكتمالهما، واستوائهما على النحو الذي نشرناهما عليه، وهو:

هنيــئا مريــئا –سيّــدي– بوليــدكم،　　فسُــرْ بــهلال ســوف يــبدو لنا بدرا
سيحفظــها الرحمن مــن كلّ حــادث،　　ويــجعلها مثل ابنة الــمصطفى قــدرا.

أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى17. بدأ صدر البيت ثلاث بدايات مختلفة، وهي على التوالي: «أهنّيكم يا سيّدي بكريمة»، و«تلألأ هذا الكون والدهر»، و«أهنّيكم يا سيّدي غير أنّني»، وشطبها الواحدة تلو الأخرى فيما نحسب، ثمّ كتب ما أثبتناه. وقام بمحاولتين لكتابة عجزه، وهما: «ومرحى ومرحى ببنت سوف»، ثمّ شطب (ببنت سوف)، ورقم مكانها: «ببدر سوف يصبح كاملا»؛ ثمّ شطب الكلّ، وسجّل ما هو مثبت، مع تردّد في اللفظة الأولى(فسر)، فقد شطب كلمة تحتها، لم نتبيّنها. ثمّ بدأ البيت الثاني كالآتي: «كريمة سيّد العالمين»، ثمّ شطب العبارة، وكتب صدر البيت كاملا، وعجز البيت إلى (المصطفى)؛ ثمّ شطب ما كتب من العجز، ثمّ أعاد كتابة ما شطبه بحذافيره، وأضاف له (قدرا)، فأتمّ البيتين.

3– هما:
ألا تــه جلالا أيّــها الكــوكب العالي،　　وطــرْ في ســماء العــزّ منشــرح البال
وحلّق على جوّ السعــادة، وارتــشــف　　ثغور الأمــاني، واقــتــطــف زهر آمال

البيتان –بخطّ الشاعر– كرّاس رسم، غير مؤرّخ، من كراريس مفدي الدراسيّة بتونس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته. وجاءت بعده أرجوزة نظم فيها درسا في جغرافية أوروبا، وهي محاولة غير مكتملة، ولا ناضجة، جاء في أوّلها ما يلي:

الحــمــد لله مــديــر الكــائــنــات،　　مــنشــؤنــا بــحــكــم مبــيّــنــات
ثــمّ صــلاتــه عــلــى الــرســول　　وآلــه وصــحــبــه الــعــدول
فــهــذه مــنــظــومــة مــخــتصرة　　بــها [أخــي الــجغرافيــا] منحصرة
فــبــأوروبــا نــبــدأ الــمــقــالا،　　[ثــمّ لأخــرى] نــفــسح الــمجالا

4.	موشّح مفدي[1]	قصيدة	74 بيتا	ديسمبر 1924
5.	تحيّة البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل[2]	قصيدة	69 بيتا	أواخر أفريل 1925
6.	إلى الريفيّين	قصيدة	65 بيتا	1925/05/06
7.	بدر النجاح	قصيدة	20 بيتا	1925/05/26
8.	نقد على نقد	مقال	03 أعمدة	1925/07/07
9.	شكاة إلى الربّ تعالى	مقطوعة	11 بيتا	سبتمبر 1925

09 نصوص، فيها: 04 قصائد، وثلاث مقطوعات، بمجموع 243 بيتا؛ ومقال واحد، وبحث مطوّل.

لقبه الأدبيّ، وعلاقته برمضان حمود والشابّي:

حريّ بنا قبل اختتام هذا الفصل أن نتناول قضيّتين هامّتين:

أولاهما: لقبه الأدبيّ الذي ولد في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، وارتضاه شاعرنا لقبا له في مسيرته الأدبيّة، ورافقه في مختلف مراحلها إلى وفاته، وإن استعمل أسماء مستعارة من حين لآخر، فعرف دوما بـــ"مُفْدِي"، مغيّبا عن الأذهان حتّى بالنسبة للمختصّين لقبه العائليّ "الشيخ".

لنا روايتان في ميلاد هذا اللّقب، بحسب ما وقفنا عليه من دراسات سابقة: الأولى ذكرها محمد ناصر رواية عن الشيخ الحاج صالح بن الحاج عيسى بزملال -رحمه الله-، يقول: «وقد أطلق عليه أستاذه الحطّاب بوشناق لقب مفدي، تعبيرا عمّا كان يراه في تلميذه من نجابة، وشاعريّة، ولطف إحساس، وحلاوة معشر»[3]. والثانية: تذكر بأنّ مفدي لقّب زميل دراسته بتونس، سليمان بوجناح بـــ "الفرقد"، وهو من

1- وثيقة بمكتبة الشيخ محمد بن صالح الثمينيّ، في أربع صفحات، مكتوبة بخطّ اليد، والنصّ تامّ غير أنّ به أخطاء كثيرة لا حصر لها. وقد وردت سبعة أبيات من الموشّح أيضا -بخطّ الشاعر- في كرّاس من كراريسه الدراسيّة بتونس، صفحاته غير مرقّمة، ولا يوجد فيه أيّ تاريخ، يضمّ نصوصا شعريّة ونثريّة، كان مفدي يستعين به -فيما يبدو- على حفظ النصوص، والتمرّن على الكتابة الأدبيّة؛ والموشّح ثاني محاولة شعريّة في الكرّاس، وعنونه "موشّحة زكرياء بن سليمان"، ويوجد بها تصحيح واحد. ورد في رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1924/12/13، حديث عن استئذان مفدي السيّد عمر بن الحاج محمد اطفيش في زيارة الشيخ أبي اليقظان ليعرض عليه «قصيدة له من الموشّحات في الشيخ إبراهيم [اطفيش] والذهب الخالص» الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

2- أرّخ لها في ختامها: «تونس: يوم الأربعاء 15 محرّم الحرام سنة 1344هـــ، [05 أوت 1925م]» نسخة من القصيدة بخطّ الشاعر، أرشيفه الخاصّ بمكتبته. ورد في محضر اجتماع يوم [1343/09/09هـــ]، 1925/04/03م، ما يلي: «[...] اقترح الكاتب العامّ إرسال التّهاني إلى عمان الخليفة -الملك- الشيخ البارونيّ [...]» الدفتر، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس. وجاء في رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق، بتاريخ [1343/10/17هـــ]، 1925/05/10م: «إنّي قد نظمت بمناسبة العيد السعيد قصيدة ذات 70 بيتا للخليفة العماني، ومثلها للملك تيمور، وأخرى للشيخ الباروني، سأوافيكم بنصّها قريبا» أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

3- مفدي زكرياء08، و24 ها02.

بعثة الشيخ أبي اليقظان، ولقبّه زميله هذا بـــ "مفدي"[1]:

ذُكر هذا اللقب لأوّل مرّة في أوّل عدد وصلنا من مجلّة "الوفاق"، وهو العدد 20، المؤرّخ في 1342/12/09هـــ، 1924/07/10م، فقد أمضى قصيدته " تحية الشبيبة لعظيم الشرق، الزعيم الإسلاميّ الخطير، الشيخ سليمان الباروني بالعيد السعيد"، بما يلي: «مفدي. زكرياء بن سليمان»، وخطّه في كتابة هذا الإمضاء يدلّ على جدّته عليه، مقارنة بإمضائه الجميل المعتاد: زكرياء بن سليمان، الذي أمضى به نصّين آخرين في هذا العدد، وهو نفس ما كتبه على الغلاف في تعيين مدير المجلّة[2]. وكتب كاتب العدد الموالي 21، إبراهيم دواق، اللقب الجديد في ذيل أغلب النصوص التي شارك بها مفدي، من غير أن يسجّله على الغلاف[3]؛ ونجده بعد ذلك مسجّلا على غلاف المجلّة في العدد 23، بتاريخ 1343/04/09هـــ، 1924/11/07م[4].

ووفق هذا التدرّج سار في إمضاء أشعاره ومقالاته في الصحافة، فأوّل نصّ أمضاه بهذا اللّقب في الصحافة هو قصيدته في تهنئة شيخه عبد السلام التونسيّ، المنشور بجريدة "النهضة"، بتاريخ 1925/08/26[5]، بعد نصّين أمضاهما: ابن سليمان، كما سبق قريبا[6]؛ ولم يظهر هذا اللقب في كراريسه الدراسيّة –على تعدّدها وتنوّعها، وشمولها لسنوات دراسته بتونس كاملة– إلاّ في كرّاس علم التاريخ لسنة 1925[7].

وما نستنتجه ممّا ذكرناه سابقا أنّ هذا اللقب كان جديدا في جويلية 1924، وهو ما يعكس تردّده في تبنّيه لقبا له في إطار مجلّة "الوفاق" الضيّق بداية، ثمّ في مجال الصحافة السّيارة الأرحب، ولذلك تأخّر ظهوره فيها بنحو سنة؛ ثمّ إنّ اللقب الذي درج الشيخ أبو إسحاق على إطلاقه عليه، وهو: شاعر الشبيبة، ويرجع – على الأقلّ– إلى منتصف سنة 1922[8]، لم يلق عند الشاعر القبول، فلم يمض به أيّ نصّ من نصوصه.

ويلاحظ على هذا اللقب صياغته على وزن اسم الفاعل من فعل "أفدى"، الذي يعني: قبول الفداء، لا الفداء

1– سجّلت هذه الرواية في مطوية تحوي حياة مفدي زكرياء في سطور، طبعت بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لوفاته، ببني يزقن في فيفري 2002؛ ينظر: أمجادنا تتكلّم.. وقصائد أخرى01-03. وحين تحرير هذا الجزء، استفرغت الجهد في التنقيب عن مصدر هذه الرواية فلم أجده، وأثبتّها لأنّ تسجيلي لها في المطوية يدلّ على ثقتي في مصدرها، فربّما كانت شهادة لأحد أصدقاء الشاعر المقرّبين.

2– ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج02؛ وغلافها في الملحق597.

3– ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـــ، 1924/08/30م.

4– ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج03.

5– بدر النجاح، لمفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س02، ع595، 1343/11/04هـــ، 1925/05/26م، ص02.

6– ينظر: ص391 ها01، و07.

7– كتب فيه ما يلي، بخطّ مزخرف: «القسم الثانويّ من ابروقرام [كذا] المدرسة الخلدونيّة، لعام 1925، للمدرّس العلاّمة، المؤرّخ الأستاذ: عثمان الكعّاك، أحد قدماء نبغاء الصادقيّة، بتونس. التلميذ: زكرياء بن سليمان مفدي، التلميذ بالجامع الأعظم، وخرّيج المدرسة الخلدونيّة، تونس» كراريس مفدي الدراسيّة، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

8– ينظر: رسالة الشيخ أبي إسحاق إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1922/06/25، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

من فَدَى، واسم فاعله فادِي؛ أو فَدَّى، واسم فاعله مُفَدِّي؛ بمعنى: الفكاك من الأسر، أو إذا قال المرء: جعلت فداك[1]؛ وهو المعنى المقصود في اللقب، مصداقا لكثرة دوران هذا المعنى في شعر مفدي، في تحديد علاقته بوطنه، غير أنّ واضعه لم ينتبه لهذا الفرق الدقيق بين فدى وأفدى، فصاغه على غير المقصود منه، والصواب هو مُفَدِّي، وقد حاول الشاعر تصحيحه، لكن غلب الخطأ الشائع لسهولته على الصحيح المهجور لثقله.

وتعتبر قصيدة "فهذا فؤادي وهذي يدي" أوّل نصّ استعمل فيه هذا اللقب، وذلك حيث يقول:

ويـــحـــمـــلُــهُ (جِـــبْرَئِـــيلُ) الأمينُ   أمـــانةَ (مُـــفْـــدِي) إلى (أَحْـــمَدِ)[2].

وظهرت الصيغة الصحيحة "مُفَدِّي" في إشهار شركته على أظرفة رسائله في نوفمبر 1934، مكتوبا باللغة الفرنسيّة لا غير، إذ كتبه (Moufeddi Zakaria)[3]؛ وفي قصيدته في مدح ملك الفلاحة، السيّد محمد خطّاب، إذ يقول في آخر بيت فيها:

مُفَدِّي يفـــتديـــك، فـــدم ســـعيدا،   وعـــش وأخـــاك في عـــزّ وأمـــن[4].

كما ورد في مطلع قصيدته، في أربعينيّة الشيخ العربي الكبادي، بتاريخ 1961/04/14، حيث يقول:

دع مُفَدِّي -هنا- يـــنـــاجي المُفَدَّى   علّـــه بينـــنا، فيســـتـــطيـــع ردّا[5].

إنّ اسم الحطّاب بوشناق -في الرواية الأولى- لم يرد بين أسماء أساتذة مفدي، ولا أساتذة زملائه في تونس، ثمّ إنّ الخطأ اللغويّ في اللقب لا يؤيّد نسبته إلى أحد أساتذته، كما أنّ العلاقة بينه وبين ما كان يتّصف به «من نجابة، وشاعريّة، ولطف إحساس، وحلاوة معشر» غير واضحة، وهو ما يقرّب بالمقابل نسبة هذا اللقب لأحد زملائه في البعثة، وهو بحسب الرواية الثانية سليمان بوجناح.

لم يوظّف أبناء البعثة، أساتذة وتلاميذ، هذا اللقب في رسائلهم، فهو فيها دائما زكرياء، وكان استعماله نادرا في أعداد المجلّة التي لم يكن فيها مديرها المسؤول؛ باستثناء سليمان بوجناح الذي كتب رسالة إلى مفدي بعد

1- في لسان العرب: «قال ابن برّي: قال الوزير ابن المعرّي: فدى إذا أعطى مالا، وأخذ رجلا؛ وأفدى إذا أعطى رجلا، وأخذ مالا؛ وفادى إذا أعطى رجلا، وأخذ رجلا [...]. ويقال: فداه وفاداه إذا أعطى فداءه فأنقذه؛ وفداه بنفسه وفدّاه يفدّيه إذا قال: جعلت فداك [../..]. وأفداه الأسيرَ إذا قبل فديته»15: 150، 151.

2- جريدة "النور"، س01، ع43، 1351/03/22هـ، 1932/07/26م، ص03؛ وقدّم الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى للقصيدة بما يلي: «عنوان قصيدة رائعة، ألقاها الشاعر المطبوع، الأديب، السيّد: مفدي زكرياء، في حفلة المولد النبويّ، بنادي الترقّي».

3- ينظر: الباب الثاني، ص156.

4- جريدة "الأسبوع"، س05، ع188، 1369/03/02هـ، 1950/01/03م، ص7؛ وينظر: فتى عرف المكارم فابتغاها، من وحي الأطلس، مفدي زكرياء، مطبعة الأنباء، الرباط-المغرب، د.ت.ط، تاريخ التقديم: 1396/02/08هـ، 1976/02/09م، ص206، 207.

5- عش مع الخالدين يا شيخ وانعم، تحت ظلال الزيتون، مفدي زكرياء، دار النشر تونس، المطبعة الرسميّة للجمهوريّة التونسيّة، تونس- تونس، ط1: صفر 1385هـ/ جوان 1965م، ص48-50.

مغادرته للبعثة في أوائل جويلية 1924[1]، وقبل صدور العدد 174 من جريدة "النجاح" الجزائريّة، بتاريخ 1924/09/12[2]، يقول في أوّلها: «فمن الكاتب أخيك المخلص "الفرقد"، إلى الأخ الفريد "المفدي"، سلام عاطر»؛ وعليه يعتبر الاستثناء بين زملائه جميعا، وهو ما يعضد الرواية الثانية، ويؤيّدها؛ أمّا سبب اختيار هذا اللقب فالأرجح أن يكون –كما سنرى– بسبب ورود معنى الفداء في عدد من نصوص مفدي زكرياء الشعريّة الأولى[3].

ثانيهما: علاقة مفدي زكرياء برمضان حمود وبأبي القاسم الشابّي في هذه الفترة، فقد تحدّث محمد قنانش في هذا الموضوع، رواية عن مفدي، فقال: «وفي أحاديثنا عن الشعر[4]، حكى لي صداقته الحميمة مع الشابّي ورمضان حمّود، وكيف كان يشجّعهما ويساعدهما في كتابة الشعر، وكان الثلاثة يجتمعون في المساء، وكانوا يطالعون حياة مصطفى كامل وخطبه، التي كتبها أخو مصطفى، وقد ظهر تأثّرهم الثلاثة بحياة مصطفى كامل، وبأسلوبه العاطفيّ الشفّاف»[5]:

أمّا رمضان حمود (1906–1929)، فكانت تجمعه به صداقة حميمة، ويكفي دليلا عليها –غير ما مرّ بنا في ثنايا البحث– قول رمضان حمود في رسالة لأستاذه الشيخ الثمينيّ: «ولكن لا أكذبك بأنّي صادقته [يعني: مفدي] صداقة تامّة إذ لم أجد من يوافقني إلاّ هو»[6]؛ وعند وفاة رمضان حمود[7]، نعاه مفدي على صفحات جريدة "الإصلاح"[8]، ثمّ أبّنه بمقال عنوانه "رمضان حمود: حياة الرجل الراحل"[9]؛ وعندما تحدّث فيه عن علاقتهما في طور التلمذة، قال ما يلي: «كنّا في هذا الطور ألزم من الظلّ للجسم [...] وكان ذا شغف عظيم بمطالعة سير عظماء الرجال، وأتذكّر أنّنا كنّا عقدنا تحالفا على أن نسرد تاريخ حياة مصطفى كامل المصريّ، في مدّة خمسة

1- ينظر: خطبة وداع عضو من أعضاء جمعية "الوفاق"، بإمضاء: سليمان بوجناح، مؤرّخة كالآتي: «حرّر بالخضراء غرّة جويلية 1924»، مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20، 1342/12/09هـ، 1924/07/10م. وظهر لقب "الفرقد" في العدد 21؛ ينظر: الصبر مفتاح السعد والنجاح، إمضاء: الفرقد: سليمان بوجناح، مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـ، 1924/08/30م.

2- لأنّه يقول في الرسالة: «إقرأ عدد 174 من "النجاح" !!!» الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ والملحق599. والتاريخ هو تاريخ صدور هذا العدد؛ ينظر: جريدة "النجاح"، س05، ع174، 1343/02/12هـ، 1924/09/12م.

3- ينظر: ص439–441.

4- عندما جمعهما سجن بربروس، من 1938/02/25 إلى 1938/03/31، ينظر: الباب الثالث، ص308–310.

5- حزب الشعب الجزائريّ270.

6- الرسالة، 1926/06/24، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

7- ما بين الساعة الثانية والثالثة صباحا، من يوم الخميس [1348/06/26هـ]، 1929/11/28م؛ ينظر: رسالة بكاي إبراهيم بن محمد بن إبراهيم إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، 1929/11/30، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

8- وممّا جاء فيه: «إيه ساعدنا المتين، إيه عضدنا الأقوى، إيه أخانا الكريم الأمين، فارقتنا بسلام راجعا إلى ربّك، إيه أيّتها النفس المطمئنّة، في ذمّة الله محياك، وفي ذمّة الله ارتحالك، وفي ذمّة الله أعمالك وآمالك وآلامك، فارجعي إلى ربّك راضية مرضية» الله أكبر: مات رمضان حمود، مفدي زكرياء بن سليمان، جريدة "الإصلاح"، س03، ع10، 1348/08/02هـ، 1930/01/02م، ص04.

9- ينظر: جريدة "الإصلاح"، س03، ع13، 1348/09/29هـ، 1930/02/27م، ص03.

عشر يوما، فأتينا عليه قراءة، باستغراق جميع أوقات النهار، وزلف من الليل»[1].

كان رمضان حمود يملك موهبة شعريّة حقيقيّة، غير أنّه التحق بمقاعد الدراسة بتونس في ديسمبر 1921، بعد نحو سنة ونصف من التحاق مفدي بها في جويلية 1920، وكانت دراسته في غليزان في مدرسة فرنسيّة، وفي كتّاب قضى فيه «أربعة أعوام كاملة، قضاها في حفظ القرآن، فلم ينل في النهاية إلاّ سورا مرسومة في دماغه، لا يفقه منها شيئا، على أنّه لم يكن يحفظها كلّها، لما تقدّم من اضطهاد المعلّمين لتلاميذهم عند تلقين كلام الله لهم»[2]، فكان حظّه من اللغة العربيّة ضئيلا جدّا، كلّ ذلك يرجّح لدينا سبق مفدي له في اكتشاف موهبته الشعرية، وفي قرض الشعر[3]، ويشهد له لقب "شاعر الشبيبة" الذي أطلقه عليه -على الأرجح- الشيخ أبو إسحاق، مع وجود رمضان حمود في البعثة، فأوّل رسالة ورد فيها ترجع إلى جوان 1922، بعد ستة أشهر ونيّف من التحاق رمضان حمود بمقاعد الدراسة بتونس، فلا غرابة أن يأخذ مفدي بيده -على ما تفيده عبارة قنانش- في خطواته الأولى في الشعر، وإن كان يكبره بسنتين؛ ولعلّ في اختيار رمضان حمود مفدي ليكتب له مقدّمة رسالته "وحي الضمير"، ما يشير إلى صداقتهما الحميمة، وإلى علاقتهما الشعريّة هذه أيضا، فلمّا عارضه رؤساء البعثة في إدراج هذه المقدّمة في كتابه، أصرّ على الإبقاء عليها، قائلا في رسالة إلى شيخه الثمينيّ: «ومقدّمة هذا المذكور [يعني: مفدي] لا بدّ لا تهملها، بل اشحن بها كتابنا»[4]، وفي ثانية: «ومقدمة زكرياء لا تهملها أبدا، بل هي الأولى [أن] تكون»[5].

أمّا أبو القاسم الشابّي (1909-1934)، فلا نجد في قصائد مفدي الثلاثة فيه[6] أدنى إشارة لصداقة حميمة تفسّر لقاءه به مساء كلّ يوم، على حدّ قول قنانش، ولا لزمالة دراسيّة، كفعله -على سبيل المثال- في رثائه لزميل دراسته الشيخ الفاضل بن الطاهر بن عاشور[7]، بل كان حديثه عنه مرتبطا بجماعة

---

[1]- السابق. ورواية مفدي هنا تتعارض جزئيّا مع ما رواه عنه قنانش في النصّ السابق، وهذا النصّ أقرب تاريخيّا إلى الوقائع التي يرويها.

[2]- الفتى20.

[3]- قدّرناه بالنسبة لمفدي بسنة 1921، بينما نجد أولى قصائد رمضان حمود في دراسة محمد ناصر عنه، هي ما نشره في كتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، ولم تكن مؤرّخة سوى أبيات قالها عند سجنه في سنة 1925، ينظر: رمضان حمود: حياته وآثاره، د. محمد ناصر، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر-الجزائر، ط2: 1985، ص166. وقد أمكننا ضبط تاريخ سجنه، فقد أخبر عنه أستاذه الشيخ الثمينيّ، في رسالة مؤرّخة في 1925/11/30، حيث يقول: «سجنت [...] ثمانية أيّام، من 21 نوفمبر إلى 29 منه» الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وقد عثرنا على قصيدتين لرمضان حمود، تعتبران أقدم محاولاته الشعريّة إلى حدّ إنجاز هذا البحث، الأولى بعنوان: شكوى، والثانية: نشيد وطني؛ ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20، 1342/12/09هـ، 1924/07/10م.

[4]- الرسالة، 1926/03/06، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[5]- الرسالة، 1926/03/26، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[6]- ينظر: تحت ظلال الزيتون: طربت أمس هناء13-18، وفي ذكرى الشابّي19، 20، وهنا مبعث النور للكائنات119-127.

[7]- يقول في رثائه، في قصيدته "يا عارجا لسماء لا نفاق بها":

"تحت السور"[1] لا غير، بالرغم من دراسة الشابّي بجامع الزيتونة من سنة 1920 إلى 1928، واستقراره بتونس إلى سنة 1930[2]، فهو يقول عنه في قصيدته "هنا مبعث الوحي للكائنات":

أبا قاسم، أنت ما بيننا، كأنّك في اللحد لم تقبر
(ثلاثون) مرّت كطيف الخيا ل، حسبناك ما زلت في المحضر
أتذكر أيّامنا الحالما ت، ونجواك في ليلها المقمر؟
وإشراقة (السور) والمنتدى، وما قيل فيه، ولم ينشر
وهذا يصول مع المتنبّي، وذاك يجول مع البحتري
[...] وهذا (كرا البيت) أقلقه، وخاف على بيته المؤجر
وذاك أفلس، لم يستطع شراء (السجائر) من متجر
و(بيرمُ) يبرمُ عزم الشبا ب، ويلهو بشاربه الأزعر
وأنت تغنّي نشيد الحيا ة، وتسبح في عالم أكبر[3].

ومعنى ذلك أنّ علاقة مفدي بالشابّي لم تكن -على الأرجح- في مرحلة دراسته بتونس، على ما يفيده كلام قنانش، وإنّما في فترة عمله مروّجا لسلع "مستودع السعادة"[4] في القطر الجزائريّ[5]، إذ كان يزور تونس كثيرا في هذه الفترة بحكم عمله، وبقي على علاقة وثيقة بتونس بعدها، وكان يتمتّع بحرّية أكبر في تنقلاتّه ولقاءاته، لم يكن يتوفّر عليها إبّان دراسته ضمن البعثة المزابيّة بتونس، فلا عجب أن يتّصل بجماعة تحت السور، وفيهم من كان زميل

ولست أدري ... **ودنيا الدرس تجمعنا،** وفيض علمك في الآفاق ينهمر
أفاضل أنت؟ ... أم صورت مدرسة تمشي على الأرض في أعماقها الدرر؟

من وحي الأطلس74.

1- هي جماعة أدبيّة ابتدأت لقاءاتها في مقهى خالي عليّ، المعروف بمقهى تحت السور، بباب السويقة بتونس، في سنة 1929، وامتدّت إلى سنة 1943، وكان من وجوهها المشهورة: عبد الرزاق كركابة، والهادي العبيدي، وعلي الدوعاجي، ومحمد العريبي، ومحمد بن فضيلة، ومصطفى خريّف، وبيرم التونسيّ، وعلي الجندوبيّ، وعبد العزيز العرويّ؛ ينظر: ألوان أدبيّة، الهادي العبيدي، ميدياكوم، تونس-تونس، ط: 2000، ص132-134؛ ومقاهي الأدباء في الوطن العربيّ، رشيد الذوادي، مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة-مصر، ط: 1998، ص77-85.

2- أبو القاسم الشابّي: حياته وشعره، يوسف عطا الطريفي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان-الأردن، ط1: 2009، ص11، 12.

3- تحت ظلال الزيتون123، 124. وتحدّث مفدي عن علاقته بجماعة "تحت السور"، في لقائه الإذاعيّ مع عبد المجيد بن جدو بمناسبة صدور ديوانه "تحت ظلال الزيتون" سنة 1966، فذكر من أعضائها: العبيدي، والدوعاجي، والعريبي، وخريّف، والعرويّ، وكركابة، وزاد عليهم: أبا القاسم الشابّي، ومحمود بورقيبة، والعربي الكبادي، وجمال الدين بوسنينة الذي كان -على حدّ قوله- أستاذه وصديقه، ثمّ التحق بهذه المجموعة أخيرا بيرم التونسيّ، صاحب "الشباب".

4- لعمّه صالح بن يحي، والكائن في 08 سوق الصوف، تونس.

5- من أواخر سنة 1928 إلى أوائل سنة 1931؛ ينظر: الباب الأوّل، ص125، و131، 132.

دراسته بالزيتونة، بما يمكّنه من رواية مثل هذه التفاصيل الدقيقة عن أعضائها في شعره[1]؛ كلّ هذا يفنّد -في تقديرنا- ما رواه قنانش عن مفدي في خصوص تشجيعه للشابّي، ومساعدته في كتابة الشعر، ولقائه به مساء، إذ لا يصحّ التشجيع والمساعدة إلاّ في خطوات الشاعر الأولى في ميدان الشعر، وأوّل قصيدة نظمها الشابّي -بحسب الطريفيّ- كانت في سنة 1923، بعنوان "يا حبّ"[2].

---

[1]- وقد تحدّث عن هذه الجماعة في قصيدتين أخريين، الأولى: أمانا أيّها الشعراء، في ديوانه تحت ظلال الزيتون72-78، والثانية: فتى ضرب الوفاء به مثالا، في أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى310-312.

[2]- ينظر: أبو القاسم الشابّي: حياته وشعره12. وأوّل قصيدة أدرجها الطريفيّ في القسم الثاني من كتابه هذا، كانت بعنوان "الغزال الفاتن"، وهي مؤرّخة في 1923/02/23؛ نفسه153، 154.

الفصل الثاني: في الحياة العمليّة

بين الحياة العمليّة والأدب:

إنّ نبوغ مفدي المبكّر شاعرا وناثرا في تونس، قد رجّح -في تقديرنا- كفّة اختياره وقف تعلّمه بتونس والعودة إلى مزاب، لّما أحسّ بإجحاف بعض زملاء دراسته في حقّه، وبظلم أستاذه الثمينيّ عندما عاقبه على جريرة لم يرتكبها[1]، ولا ريب عندنا في أنّه ندم بعد ذلك ندما شديدا على هذا القرار، لأنّه وبعد خمس سنوات وأشهر معدودة من دراسته في تونس، لم يتحصّل على شهادة تؤهله لعمل يناسب توجّهاته الأدبيّة والثقافيّة في الحياة، فهو لم ينه دراسته في جامع الزيتونة، فلم يبق له من طريق يسلكه في حياته العمليّة سوى التجارة، التي يقول عنها، عندما سأله شيخه أبو اليقظان عن قصيدة له كان بصدد كتابتها: «أما أنا والقصيدة فإنّ تراكم الأشغال عليّ قتلتها في مهدها، فلم أزد فيها حرفا، و لم أنقص، خصوصا أنّنا بصدد "القوام"، وما ظنّك بعبد يقوم [على] الساعة السادسة صباحا من النوم، وينام [على] الساعة الثانية من الليل، وما بينهما عمل متتابع كحلق السلسلة، الله ينتقم من التجارة الملعونة»[2]؛ وعندما أدرك فداحة خطئه حاول العودة إلى تونس لمتابعة دراسته دون جدوى، فلم يفلح، إذ قطع عليه والده خطّ الرجعة تماما، بتصفية حسابه في البعثة أيّاما بعد مغادرته لها، وبتزويجه مبكّرا بالنسبة لطالب علم، بما يفرضه من تكفّل بأسرته، وتحمّل مسؤوليتها، وبما ينتج عنه من إضعاف موقفه عند مطالبة والده بالعودة إلى مقاعد الدراسة؛ وقد مرّ بنا الحديث عن محاولاته المتكرّرة للعودة إلى تونس لإتمام دراسته، غير أنّها باءت كلّها بالفشل أمام إصرار والده على "خدمة الدراهم"، فقد لخّص مفدي للشيخ أبي اليقظان محاولاته هذه عندما التقى به بالجزائر[3]، فقال: «توسّلت إلى أبي بكلّ الإخوان المفكّرين، فرادى وجماعات، وجمعت له عشيرتنا، ليتركني أذهب إلى تونس، فأبى إلاّ خدمة الدراهم»[4]؛ وبقي الأمل يراوده في مواصلة دراسته إلى سنة 1929، فنجده ينتهز فرصة وجود أستاذه الثمينيّ ببني يزقن ليطلب منه التوسّط له عند والده عسى الله أن يأتي بالفرج على يديه، ومنه سؤاله في ختام رسالة موجّهة إليه: «ثمّ ما هي فكرة الوالد في مسألة تعليمي؟»[5].

كلّ ذلك جعل أحد معارفه، وهو الشيخ محمد بن الحاج إبراهيم الطرابلسيّ، يكتب مقالا بعنوان "إهمال النبوغ"، فيمثّل له بما حدث لمفدي، فيقول: «[...] والتبعة في إهمال الشباب على الآباء، الذين أهملوا تربية أبنائهم، الذين هم ورثة ثروتهم التي جمعوها من الطرق التي لا يعرفون لها معنى، ولا يفهمون لها مغزى، وممّا يؤلمنا

1- ينظر: الباب الأوّل، ص113، 114.

2- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ أبي اليقظان، 1929/03/30، مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة267.

3- وهو في طريقه إلى قالمة، ليبدأ حياته العمليّة من دكّان خالة عيسى بن الحاج محمد بن داود الحاج الناصر؛ ينظر: الباب الأوّل، ص123.

4- رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1926/09/05، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

5- رسالة مفدي إلى الشيخ الثمينيّ، 10/02/[1347هـــ، 1929/03/14م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

ـوأيم الدين- أن نشاهد نابغا عبقريّا، مثل (مفدي زكرياء) الذي وأده ذووه، وهو في العقد الثاني من عمره، ولو ترك هذا النابغة في أحضان المدارس لأتى بالعجب العجاب [...]. نعم نقول للآباء الذين حسدوا أولادهم: هم وارثوكم، فأعطوهم تراثهم، وثقّفوا عقولهم بالعلوم والمعارف، وبهذا تفلحون في الدارين، وتنالون رضى اللّه والملائكة والناس أجمعين»[1].

أرسل محمد الهادي السنوسيّ الزاهريّ إلى الشيخين أبي اليقظان والثمينيّ، يطلب منهما المشاركة في كتابه الرائد في تاريخ الأدب الجزائريّ الحديث "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، بترجمة ذاتية، وعدد من نصوصهم الشعريّة في غير أغراض المدح والرثاء والهجاء[2]، فحمل مفدي عند مغادرته لتونس في ديسمبر 1925 رسالتي الشيخين إليه[3]؛ ثمّ زار مؤلّف الكتاب مزاب في النصف الأوّل من شهر فيفري[4]، فعرض على مفدي ورمضان حمود الاشتراك فيه أيضا، فكتب مفدي رسالة إلى شيخه الثمينيّ، جاء فيها ما يلي: «ولقد طلب منّا [يعني: الزاهريّ] بكلّ إلحاح، أنا ورمضان حمود أن ننخرط في زمرة كتّاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، وطلب منّا الرسوم، ومختار الشعر، وإنّا نتربّص بفارغ صبر إذنكم في ذلك، حتّى نبكت نفوس الحاسدين، وننوّر وجوهكم، سيّما وقد تشرّفنا في تراجمنا بذكر أنّنا من تلامذتكم، وصنيعة مجهوداتكم، وقد علمنا أنّكم والشيخ عمّنا الحاج إبراهيم [يعني: أبا اليقظان] انخرطتما فيه، وقد أخذت القصائد بيدي إلى مدير "الشهاب"، لذلك نرى الاقتداء بكم جميلا في مثل هاته الخدمة الجليلة، وسنرسل لكم أسماء القصائد التي تنشر، وبعضها من التي لم تكن لديكم، وإنّا نتربّص الجواب لأنّ الإدارة على استعجال، وهذا ممّا يبعث همّة النشاط في نفوسنا بين هذا الوسط الميّت القاتل»[5].

وممّا يمكن ملاحظته على هذا المقطع من رسالته أمران:

أوّلهما: التزامه بولائه لأستاذه الثمينيّ، فيدعوه في بداية رسالته: «سعادة الأب الروحي»، ويستأذنه في الاشتراك في هذا الكتاب، ويعرض عليه شعره الذي قدّمه للنشر، ومنه ما لم يطّلع عليه الشيخ بعد، رغبة منه في الحصول على إذنه؛ ومنه قوله في ذات الرسالة: «لقد كان هنا وكيل "الشهاب"، السيّد: الهادي السنوسيّ، وأخذ منّي الجزء الأوّل من انتقاد الكعّاك، وقد أرجيته في النشر إلى أن تأذنوا لي، وقد صرت مكاتبا لجريدته، وتُرسَل لي مجّانا، فماذا ترون؟»[6]؛ وهو ما يفسّر لنا بقاءه في هذه المرحلة، وربّما لسنوات بعدها أيضا يدور في فلك شيوخ

---

[1]- جريدة "النجاح"، س14، ع1366، 1351/06/07هـ، 1932/10/09م، ص02.

[2]- ينظر: مقدّمة المؤلّف، شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 09.

[3]- رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى مؤلّف الكتاب، كانت مؤرّخة في 1925/12/08؛ ينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 109.

[4]- تحدّث والد الشيخ الثمينيّ في رسالته إلى ابنه، بتاريخ 02/18، عن مجيء الزاهريّ إلى مزاب، وأنّ مشروع كتابه شائع بين الخاصّ والعامّ؛ ينظر: الرسالة، 1344/08/05هـ، 1926/02/18م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[5]- الرسالة، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[6]- نفسها.

البعثة، وخاصّة منهم الشيخ الثمينيّ، كما أنّ الشيوخ أنفسهم كانوا يعملون على إبقائه وزملائه في دائرتهم، حفاظا عليهم، وعلى مشروعهم التعليميّ بتونس، فعندما تحصل الجفوة بين مفدي وشيخه الثمينيّ، بسبب واقعة "وحي الضمير" لرمضان حمود[1]، يكتب الشيخ أبو اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ قائلا: «أمّا أمر زكرياء، فأرى أن تلازمه، وتقود زمامه، مهما كلّفك ذلك من الآلام، للإقلال من شرّه، واستثمار نبوغه لفائدتنا، وإلاّ فإنّنا نخسره، ويربحه غيرنا، فإذا راعيت هذه الملاحظة في عدون[2]، وقد أصبت في ذلك، فلأن تراعيها في هذا من باب أولى»[3].

ثانيهما: نظرته إلى واقع مجتمعه، فقد وصفه بأنّه وسط «ميّت قاتل»، ويضيف في رسالته هذه أيضا: «الناس هنا ميّتون جامدون يحسبون المفاهمة عنادا ووقاحة، ويخافون ولو من ظلّهم، ولا أستثني إلاّ اثنين: عمّنا عمر بن داود بزملال، وعمّنا زكري بن سعيد، وإنّي أودّ هجاء مزاب بقصيدة مطلعها:

وبــلدة ليـــس بـــها أنـيـــس　　　إلاّ اليعافيــر، وإلاّ العـــيس»[4].

وهي نظرة ممعنة في التشاؤم، سنتعرّض لتفسيرها على مستواه الشخصيّ لاحقا، غير أنّ هذه النظرة كانت مشتركة بينه وبين سائر تلاميذ البعثة، في عهده وبعد عهده، ممّا ولّد -في نظرنا- تلك القطيعة الحادّة بين المثقّف خارج مزاب ومجتمعه، إذ كان يلازم هذه النظرة شيء من الاستعلاء، يقطع السبيل أمام أيّة محاولة للتغيير والإصلاح يسعى إليها هذا المثقّف، فلا تلقى استجابة من المجتمع إلاّ في حدود جدّ ضيّقة، كما أنّ المجتمع كان ينظر إليه على خلفية صراع سنة 1922، بين المصلحين والمحافظين[5]؛ ونتج عن ذلك أن قلّما استطاع مثل هذا المثّقف الانسجام معه، ولا يرتبط ذلك بفترة شبابه وفورتها فحسب، وإنّما يمتدّ إلى مختلف مراحل عمره، حتّى أصبح من قدر هذا المثقّف أن يعيش في عزلة.

يقول مفدي في رسالته إلى محمد الهادي السنوسيّ الزاهريّ: «أرسل لكم الآن جلّ ما اخترته من شعري، وبعد أسبوع أرسل لكم الباقي [...] إنّي كتبت القصائد، ولم أنظِّمْها، لأنّي لا أعلم نظام الكتاب، فلكم التنظيم والتبويب، والتقديم والتأخير»، وعبارة مفدي تدلّ على أنّه أرسل إليه مجموعة من القصائد، حتّى على فرض عدم إرسال البقيّة بعد أسبوع، غير أنّ المؤلّف نشر له مقطوعة وقصيدتين فقط، والقصيدة الثانية "خواطر كئيب" حذف منها أبياتا، بدليل عبارة: «ومنها»[6]، ولم يفصح المؤلّف عن مقاييسه في

1- ينظر: الباب الأوّل، ص120، 121.

2- يعني: باسعيد عدون، وكان من طلبة الشيخ الحاج صالح بن الحاج علي باعلي، وضمّه الشيخ الثمينيّ إلى بعثته، بتاريخ 1926/07/22؛ ينظر: كراس متابعة مصاريفه بالبعثة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

3- الرسالة، 1926/08/15، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- الرسالة، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- ينظر: الباب الأوّل، البعثة والصراع بين المصلحين والمحافظين، ص80-90.

6- ينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 152-159.

استبعاد نصوص، ولا الحذف منها[1]؛ غير أنّ ما يمكن استنتاجه ممّا نشره محمد الهادي من إنتاجه، هو كون مفدي عالة فيه على منتوجه الشعريّ بتونس، فلم يعرض فيه إنتاجا جديدا، ممّا قد يدلّ على جمود قريحته في الحياة الجديدة التي استقبلها واستقبلته، أو أنّ هذا الجديد الذي أتى به لم يقنع فنيّا مؤلّف الكتاب، على فرض اعتماده المقاييس الأدبيّة الفنّيّة في الاستبعاد والحذف، فاستغنى عنه بإنتاجه الأكثر تميّزا في تونس:

مقطوعته "لكِ الحياة"، وقصيدته "خواطر كئيب" كان قد نشرهما في مجلّة "الوفاق"[2]؛ أمّا قصيدته "ألا في سبيل المجد" أو "الإسلام يتكلّم"، فإنّها وإن لم تكن من بين ما عثرنا عليه من إنتاجه بتونس، فهي أشبه به، ولا نستبعد أن تكون ممّا ضاع من أدب تلك الفترة، وذلك لخاصيّة في شعره آنذاك، مرتبطة ببدايته الشعريّة، وهي التوسّع في تضمين شعر غيره، فنجده يضمّن في هذه القصيدة ستّة أبيات كاملة: بيتان للشيخ محمد عبد المطّلب 1871-1931[3]، من قصيدة في استقبال وفد سعد؛ وبيتان من قصيدة معروف الرصافيّ "جالينوس العرب"؛ وبيتان من قصيدة امرئ القيس "ألا عم صباحا أيّها الطلل البالي"[4]. والحقّ أنّ هذه الميزة لم تستمرّ طويلا، فسرعان ما تجاوزها في قصائده الموالية، فلم تتكرّر على هذا النحو سوى في قصيدته "مصرع الفضيلة"[5]؛ كما أنّ اعتماد مفدي على إنتاجه الأدبيّ بتونس نجده في قصيدته "ته يا عمان بنصر الله"[6]، إذ هي في أصلها قصيدة "تحيّة البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل"، وهي ممّا أنتجه بتونس كما سبق[7]، راجعها ونقّحها، ثمّ نشرها بهذا العنوان الجديد، فلا عجب أن وجدناها تحمل نفس خاصيّة التضمين، في تسعة أبيات، كانت من ضمن الأبيات المشتركة بين القصيدتين[8].

1- فكان في الكتاب تفاوت بين إنتاج الشعراء من نفس الجيل نصوصا وأبياتا: محمد العيد آل خليفة: 06 نصوص 1: 13-29؛ ومحمد السعيد الزاهريّ: 12 نصّا 1: 68-94؛ ومفدي زكرياء: 03 نصوص 1: 152-159؛ ورمضان حمود: 05 نصوص 1: 172-176؛ ومحمد الهادي السنوسيّ الزاهريّ: 06 نصوص 1: 188-200.

2- تنظر المقطوعة: مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـ، 1924/08/30م، ص22؛ والقصيدة: مجلّة "الوفاق"، مج03، ج34، [1344/03/12هـ]، 1925/10/01م، ص 17، 18.

3- ورد اسمه أحمد عبد المطّلب في تأليف محمد الهادي السنوسيّ الزاهريّ، وصوابه: محمد؛ وهو محمد بن عبد المطّلب بن واصل: شاعر مصريّ، من الأدباء الخطباء، أزهريّ، شارك في الحركة الوطنيّة بشعره ومقالاته وخطبه، له ديوان شعر مطبوع، وكتب مخطوطة، منها: تاريخ أدب اللغة العربيّة؛ ينظر: الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزِّركليّ، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط7: 1986، ج6 ص247.

4- ينظر: شعراء الجزائر في العصر الحاضر153-157.

5- ضمّنها ثلاثة أبيات: بيتان لأبي العلاء المعرّي، وبيت لمعروف الرصافيّ؛ ينظر: جريدة "وادي ميزاب"، س02، ع62، 1346/05/28هـ، 1927/12/23م، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى72-76.

6- ينظر: جريدة "وادي ميزاب"، س01، ع12، 1345/05/11هـ، 1926/12/17م، ص03.

7- ينظر: ص398 ها02.

8- يوجد 62 بيتا مشتركا بين القصيدتين، مع اختلاف في بعض ألفاظ قليلة؛ وانفردت "تحيّة البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل" بـ 07

تحدّث مفدي في رسالته السابقة إلى أستاذه الثمينيّ، عن عرض وكيل "الشهاب" عليه العمل مراسلا لجريدته، مقابل حصوله عليها مجّانا، وعن استلامه القسم الأوّل من انتقاد الكعّاك لينشره فيها، وهو يستأذنه في كلّ ذلك[1]؛ وهذا المقطع من الرسالة يسجّل أوّل محاولة من مفدي التعاون مع الصحافة الجزائريّة، بدأها بأوّل مشاركة له فيها على الإطلاق، ومنه استشارته أستاذه في هذا المسعى:

هذه المشاركة هي مقال أوّل، بإمضاء: مفدي زكرياء بن سليمان، كتبه بمزاب، وصدر الجزء الأوّل والثاني بعنوان "نظرة في كتاب تاريخ العرب بالجزائر"[2]، والثالث والرابع بعنوان "نظرة في كتاب بلاغة العرب في الجزائر"[3]، وهو ينتقد فيه كتاب أستاذه بالمدرسة الخلدونيّة، عثمان الكعّاك[4]، والفاصل الزمنيّ بين الثاني والثالث قد يدلّ على أنّ الأوّل والثاني هو ما قدّمه لوكيل الجريدة حين لقائه به في مزاب، والثالث والرابع هو القسم الثاني الذي أرسله إلى إدارتها بعد ذلك؛ والمقال غير تامّ فقد ذُيّل آخر جزء فيه بعبارة: «يتبع». وتبع هذا المقال قصيدة "دموع وآلام وخواطر"، كتبها بقالمة[5]؛ ومقال ثان أدبيّ بعنوان "مناجاة زهرة في أحد بساتين مزاب: أيّتها الزهرة الباسمة"[6]، والراجح عندنا كون هذا المقال من إنتاجه في تونس، فقد وجدنا في فهرس العدد 23 من أعداد مجلّة "الوفاق" نصّا بعنوان "أيّتها الزهرة الباسمة"، منسوبا إلى مفدي[7]، وهو نفس العنوان الفرعيّ لمقال "الشهاب"، وحجم هذا الأخير لا يزيد على الورقة التي احتوت النصّ، وضاعت من عدد "الوفاق".

هذا كلّ ما نشره مفدي زكرياء في جريدة "الشهاب"، وهو قليل يستبعد تماما عمله مراسلا لها؛ وبعد ذلك تحوّل إلى النشر في جريدة "وادي ميزاب"، بداية من "كلمتي في وادي ميزاب"، أتمّ كتابتها يوم 1926/10/16، وأمضاها: ديك الجنّ "ز"[8]، شهرا بعد صدور العدد الأوّل من الجريدة يوم الجمعة

أبيات، و"ته يا عمان بنصر الله" بـــ 16 بيتا؛ تنظر القصيدتان تباعا: أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى43-50، و65-71.

1- ينظر: رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ينظر: الأوّل: جريدة "الشهاب"، س01، ع25، 1344/10/23هـــ، 1926/05/06م، ص15-17؛ والثاني: نفسها، ع26، 1344/10/30هـــ، 1926/05/13م، ص15-17.

3- ينظر: الثالث: جريدة "الشهاب"، س01، ع29، 1344/11/21هـــ، 1926/06/03م، ص14-16؛ والرابع: نفسها، ع30، 1344/11/28هـــ، 1926/06/10م، ص14-17.

4- وهو في "تراجم المؤلّفين التونسيّين" رسالة صغيرة، أصدرها بتونس سنة 1927، ولا يصحّ، وعنوانها البلاغة العربيّة في الجزائر؛ ينظر: تراجم المؤلّفين التونسيّين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت- لبنان، ط1: 1985، ج04 ص170.

5- ينظر: القصيدة، زكرياء بن سليمان، جريدة "الشهاب"، س02، ع57، 1345/03/13هـــ، 1926/09/20م، ص11، 12.

6- ينظر: المقال، مفدي زكرياء بن سليمان، جريدة "الشهاب"، س02، ع61، 1345/04/03هـــ، 1926/10/11م، ص10، 11.

7- ينظر: ص382 ها02.

8- ينظر: المقال، جريدة "وادي ميزاب"، س01، العدد 06، 1345/04/28هـــ، 1926/11/05م، ص04.

1345/03/23هـ، 1926/10/01م[1].

إنّ هذه المشاركة الضئيلة في جريدة الشيخ عبد الحميد بن باديس "الشهاب"، مقارنة -على سبيل المثال- بما نشره فيها زميلاه الفرقد ورمضان حمود، يشير -بلا جدال- إلى انخفاض وتيرة إنتاجه الأدبيّ عمّا كان عليه في تونس؛ كما ينبئ -فضلا عن ذلك- عن تمسّكه بالعمل الوطني المزابيّ، وفي فلك مشايخه بتونس، وخير شاهد على ذلك مقاله الانتقاديّ في كتاب أستاذه عثمان الكعّاك، فقد كان دفاعا عن الدولة الرستميّة الإباضيّة[2]؛ وعندما أنشأ مشايخ البعثة جريدة "وادي ميزاب" عاد إلى حماهم، بالرغم من الجفوة التي كانت بينه وبينهم إثر واقعة "وحي الضمير"، عندما تمرّد على حياة الاستقامة التي أنشؤوه عليها، وهو يفسّر إمضاء كلمته في "وادي ميزاب" بـــ: ديك الجنّ، اعترافا -على طريقته- بما ينقمه منه أساتذته، كفاتحة لرأب الصدع بينه وبينهم.

لقد حدّد «الشيخ محمد بن صالح [الثمينيّ]، والأديب قاسم بن عيسى، والكاتب [الشيخ] أبو اليقظان»، بتاريخ 1345/01/06هـــ، 1926/07/17م، السياسة الخاصّة لجريدة "وادي ميزاب"، فكانت كالآتي: «الدفاع عن حقوق الأمّة المزابيّة في دائرة معاهدة 1853، وصون شرفها، وإعزاز شأنها، وإعلاء مجدها، وإظهار مميّزاتها في دائرة مذهبها الشريف»؛ أمّا سياستها العامّة: «الدفاع عن الجزائريّين خصوصا، وعن المسلمين عموما، بما لا يستهدف مصالح المزابيّين للخطر، وبثّ روح الاتّحاد والتعارف بين المسلمين، وبذل النصيحة لهم، لإعزاز الإسلام، والرجوع إلى الكتاب والسنّة»[3]؛ وارتبطت نشأة الجريدة على أساس هذه السياسة بخلاف مع جريدة "الشهاب" نفسها، فقد نشرت سلسلة مقالات في الردّ على مجلّة موران التي أساءت إلى الشعب الجزائريّ برمّته، غير أنّ الكاتب جرّه الحديث في العدد 38 منها -بحسب تعبير الشيخ أبي اليقظان-: «إلى ذكر انتشار الإسلام في القطر الجزائريّ بواسطة المذاهب الإسلاميّة، ونعم ما فعل، ولكن بلغ به الإجحاف إلى الإعراض عن ذكر أسبق المذاهب الإسلاميّة إلى نشر الإسلام في إفريقيا الشرقية والوسطى والشمالية، وفي الجزائر، وهو المذهب الإباضيّ؛ وكأنّ الكاتب استشعر ذلك الإجحاف، فاعتذر عنه، وقال: «ولم أذكر المذهب الإباضيّ، لأنّ إخواننا المتمسّكين به يرون (كذا) وطنهم ميزابا ليس من القطر الجزائريّ»، وكلامه إنّما هو على الجزائر»[4]؛ فكتب الشيخ أبو

1- ينظر: العدد الأوّل منها، المجموعة الكاملة لأعداد جريدة "وادي ميزاب"، مكتبة جمعية الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث، غرداية.

2- فقد انتقد في الجزئين الأوّل والثاني قوله متحدّثا عن الدولة الرستميّة: «وقد توفّرت فيها الشروط التي تطلبها الميزة البربريّة في المذهب واللغة والجنس والنظام، فكان مذهبها المذهب الإباضيّ، ونظامها نظام الجامعات البربريّة»؛ ليبيّن هو أنّ جامعاتها لم تكن «قطّ بربريّة، بل كانت عربيّة إسلاميّة بحتة»؛ وفي الجزئين الثالث والرابع قوله: «فلم يكن مجال للعربية في ذلك الوسط إلاّ بمقدار، بل إنّها عادت تضمحلّ من تلك الأصقاع لو لم يكن القوم في حاجة إليها في أمور دينهم، ومع ذلك فقد حاولوا الاستغناء عنها بقدر الإمكان»، فردّ عليه ببيان مكانة اللغة العربيّة في الدولة الرستميّة. ينظر: جريدة "الشهاب"، الأعداد 25، 26؛ و29، 30.

3- برنامج عامّ لجريدة "وادي ميزاب"، لسان حال الأمّة المزابيّة، بخطّ الشيخ أبي اليقظان، وثيقة من صفحة واحدة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- الشهاب ومجلة موران، إمضاء: أ.ب.ع، جريدة "وادي ميزاب"، س01، العدد 01، 1345/03/23هـــ، 1926/10/01م، ص01، 02.

اليقظان ردّا في حينه على هذه الجزئية في المقال، أرسله إلى الجريدة، فلم ينشر؛ وعليه تمّ نشره في العدد الأوّل من جريدة "وادي ميزاب"، بعنوان "الشهاب ومجلّة موران"، وعلّقت "الشهاب" عليه عند احتفائها بصدور هذه الرصيفة الجديدة بقولها: «قد كانت منها كلمات في جريدة "الشهاب"، نمرّ عليها مرّ الكرام، ولا نوافق هذه الرصيفة على فتح باب المناقشة معها، وهي في أوّل يوم من وجودها، بل نتركها حتّى يشتدّ ساعدها، وتتّضح لهجتها، وإذ ذاك نناقشها بصدق وإنصاف»[1].

لا نملك دليلا واضحا على وجود صلة بين هذه الواقعة وانقطاع مفدي عن نشر إنتاجه في جريدة "الشهاب" على تزامنهما، إلاّ أنّ انقطاعه عنها يدلّ على موقف مبدئيّ، يفسّر موقفه بعد ذلك من جمعية العلماء المسلمين، فقد كان متعاطفا معها في توجّهها العامّ، وجمعته صداقات بنخبتها المثقّفة الشابّة، غير أنّه لم ينخرط يوما في صفوفها، بسبب رواسب العصبيّة المذهبيّة، التي تقف –أحيانا– عائقا دون التواصل بين الطائفتين، وتدعوهما –على العموم– إلى التحفّظ في علاقتهما، وإن كانوا من أبناء الوطن الواحد، فلم يسلم مفدي من تأثير هذا الواقع، خاصّة إذا صادف فيه ما يغذّي هذا التوجّه، من مثل هذه الحادثة وغيرها.

إذا تتبّعنا إنتاج مفدي الذي نشره في جريدة "وادي ميزاب" وجدناه قليلا كذلك، إلى حدّ معاتبة صديقه الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز له، بتاريخ 1927/08/02، قائلا: «ثمّ قد أرابني جدّا سكوتك العميق، ولقد مرّ زمن طويل ما قرأت لك كتابا في جريدة، وما كان ذلك عهدي منك، عهدتك غردا [...] منشدا»[2]؛ وكان حينها –بعد ما يقرب من سنة على صدور جريدة "وادي ميزاب"– لم ينشر سوى كلمته السابقة، وقصيدته "ته يا عمان بنصر الله"[3]، وكانت –كما سبق– من القديم المعاد؛ و ألّف –بعد هذا العتاب– في 08/20 مقاله "حول أسطورة بوليس الصحافيّين"[4]، وأتبعه بقصيدته "مصرع الفضيلة" في 11/10[5]؛ ثمّ غاب إنتاجه عن الجريدة إلى جوان من السنة الموالية، ففي 06/27 كتب قصيدته "إنّما الميت من يرى شرف الأمّة نهبا، ولا يزال خمولا"[6]، ثمّ قصيدته "يا رحمة اللّه حلّي في منازلنا"، في 07/03[7]، فكانت آخر إنتاج له نشره بجريدة "وادي ميزاب" قبل تعطيلها بقرار من وزير الداخلية الفرنسيّ، بتاريخ 1929/01/18[8].

1– وادي ميزاب، من غير إمضاء، جريدة "الشهاب"، س02، ع64، 1345/04/20هـ، 1926/10/28م، ص13.

2– الرسالة، مكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز.

3– ينظر: القصيدة، زكرياء بن سليمان، جريدة "وادي ميزاب"، س01، ع12، 1345/05/11هـ، 1926/12/17م، ص03.

4– ينظر: المقال، إمضاء: مفدي زكرياء بن سليمان، جريدة "وادي ميزاب"، س01، ع49، 1346/03/18هـ، 1927/09/16م، ص01، 02.

5– ينظر: القصيدة، إمضاء: فتى الوادي "م"، جريدة "وادي ميزاب"، س02، ع62، 1346/06/28هـ، 1927/12/23م، ص03.

6– ينظر: القصيدة، إمضاء: زكرياء، جريدة "وادي ميزاب"، س02، ع94، 1347/02/16هـ، 1928/08/03م، ص03.

7– ينظر: القصيدة، إمضاء: زكرياء، نفسه.

8– ينظر: تاريخ صحف أبي اليقظان، أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى، تقديم وتعليق: د. محمد صالح ناصر، دار هومة، الجزائر– الجزائر، ط: 2003، ص40–42.

لقد ميّز حياة مفدي العمليّة إلى نهاية سنة 1928:

- عدم استقراره في الأعمال التي اشتغل فيها، فلم يلبث في عمله لدى خاله بقالمة، أو عند الشرّح محمد بن عمر بقسنطينة سوى أشهر معدودة؛ وكان الأمل أثناء ذلك يراوده -كما أسلفنا- في العودة إلى مقاعد الدراسة بتونس، أو العمل في مجال لا يبعده عن الأدب والشعر وأهلهما، يقول في رسالته -وقد سبقت- إلى صديقه الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز، قبل التحاقه بدكّان خاله: «إنّي لا زلت كما تركتموني، لم أجد بابا للفرج، والتملّص إلى الغاية الشريفة التي أصبو إليها، وهكذا لا زلت أترقّب لمعان بارق من سماء النجاح، وما ربّك بمخيّب طالب سؤدد ومجد. أتذكّر أنّكم واعدتموني على الشروع في إنشاء وسيلة[1] لذلك في الجزائر، فهل تمّ لكم ما قصدتم من المعونة الشرفيّة، واليد البيضاء التي أحفظها لكم عندي ما بقي لجسمي قلب يخفق بنور الإيمان؟ وعلى كلّ حال فقد قرب الأوان، ولم يبق إلاّ الجدّ والمثابرة، والنجاح دائما حليف العاملين [...] والسلام من أخيك الكئيب زكرياء بن سليمان»[2].
- الجفوة التي كانت بينه وبين أستاذه الثمينيّ، بدأت في جوان 1926[3]، ولم تعد العلاقة إلى سابق عهدها إلاّ في أوائل سنة 1929 تقديرا؛ فإن كان مفدي سعى إلى تجاوزها، ولكن بطرق ملتوية، من مثل رسالته الغامضة، بتاريخ 1926/06/25[4]، وإمضائه أوّل مقال له في جريدة "وادي ميزاب" بـــ: ديك الجنّ[5]، وحرصه على الوفاء لمشايخه، فالتزم بنشر إنتاجه في جريدتهم، بمجرّد ظهورها، بالرغم من التأخير الملاحظ في نشر إنتاجه، بما يزيد عن الشهر أحيانا؛ فإنّ الشيخ الثمينيّ لم يرغب في ذلك، أو لم يستطعه، ومنه نصيحة الشيخ أبي اليقظان السابقة بضرورة ملازمته مهما كلّفه ذلك من آلام؛ ويشهد لطول مدّتها رسائل مفدي الأربعة إلى شيخه في هذه المدّة، أولاهما -وهي الرسالة الغامضة- كانت مرفقة برسالة كتبها على لسان عمّه بلحاج؛ والثانية كانت مؤرّخة في 1927/10/02، نرى فيها محاولة ثانية لمفدي لوصل ما انقطع من علاقته بأستاذه، فكان شديد التحفّظ في مخاطبته لأستاذه، بعيدا عن تبسّطه في مخاطبته[6]، من مثل قوله في أوّل رسالة تشير إلى عودة المياه إلى مجاريها بينهما: «المرجوّ من جليل فضلكم إعلامي عن الحالة العامّة عندكم، وعن سيرتكم مع أكلة لحم البعير، نبّه الله منهم ميّت الأعصاب إلى إدراك الواجب. ثمّ ما هو وقع الوادي، وصدى تعطيله على كتلة الرجعيّين هنالكم؟ وما هي التدابير التي

1- لم يحدّد هذه الوسيلة، وربّما كانت إنشاء مدرسة، وقد أنشأها في الجزائر بعد ذلك بسنوات، وربّما كانت غير ذلك.

2- الرسالة، غير مؤرّخة، مكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز؛ والملحق602.

3- ينظر: الباب الأوّل، ص120، 121.

4- ينظر: الباب الأوّل، ص121.

5- ينظر: كلمتي في وادي ميزاب، جريدة "وادي ميزاب"، س01، العدد 06، 1345/04/28هــ، 1926/11/05م، ص04.

6- ينظر: الرسالة، 1346/04/05هــ، 1927/10/02م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

يتّخذها المصلحون هنالكم ضدّ التعطيل؟»[1]؛ أمّا الثالثة والرابعة فكانتا تعزية له في وفاة الحاج عمر بن داود بزملال، ولكن على لسان الحاج صالح بن محمد فرير [باعلي][2]، وعلى لسان صهرته عائشة بنت الحاج محمد[3]، ممّا قد يدلّنا على أنّ الشيخ الثمينيّ لم ترضه هذه المحاولات من مفدي تجاوز ما وقع، وكأنّه لم يحدث، فلم يستجب لها. ولم يقع الصلح بينهما -في تقديرنا- إلاّ حين اجتماعهما ببني يزقن بعد ثلاث سنوات ونيّف من افتراقهما، أي: منذ مغادرة مفدي لتونس في ديسمبر 1925، فقد وصل الشيخ الثمينيّ إلى بني يزقن يوم 1929/01/10[4]، ولم يغادرها إلاّ في أواخر شهر ماي[5]، بينما غادر مفدي بني يزقن في أوائل شهر فيفري 1929[6]؛ ومنه تبليغ الشيخ أبي اليقظان سلام مفدي للشيخ الثمينيّ لأوّل مرّة، في ختام رسالة مؤرّخة في 1929/03/14[7].

- عرف إنتاجه الأدبيّ بسبب ما سبق -في تقديرنا- انخفاضا حادّا عمّا كان عليه في تونس، فلم ينشر خلال ثلاث سنوات سوى تسعة نصوص: أربعة منها أنشأها قبل التحاقه بالعمل في دكّان خاله، أو بعد تخلّيه عن عمل وانتظار الحصول على آخر؛ وخامس كان تنقيحا لنصّ من نصوصه السابقة بتونس؛ وأربعة أنشأها أثناء الخدمة، ثلاثة منها عند خاله بقالمة، وواحد عند الشرّح محمد بن عمر بقسنطينة. وعليه فإنّ العمل في التجارة لا يفسّر لوحده قلّة إنتاجه في هذه المدّة، وإنّما يفسّره -فضلا عن ذلك- عدم استقراره النفسيّ في حياته الجديدة، بسبب طموحه إلى حياة غيرها، وما كان مفدي ممّن يستسلم للأمر الواقع، بالإضافة إلى ما رافق ذلك من تدهور علاقته بأبيه الروحيّ، ومرشده في الحياة التي يرجوها، فلم يجد سبيله، ومنه عدم استقراره في عمله؛ ويبدو أنّ تغيير عمله من قالمة إلى قسنطينة كان بحثا عن وسط أدبيّ يجد فيه متنفّسا لموهبته الأدبيّة، غير أنّ العمل عند الغير يحدّ من حرّية العامل، ويعيقه عن الاشتغال بغير عمله، فإذا كان زميل دراسته، إبراهيم دواق يقول عن عمله في التجارة، وهو يعمل في دكّان والده: «هذا، وإنّكم تعلمون جلل هذا الخطب عليّ، حيث أتى اليوم، ولست ممّن يرتجون في العلوم مقاما عليّا، ولا ممّن حصّلوا في التجارة نصيبا، فأنا اليوم أسير في طريق مجهول لدي، لا آمن فيه على نفسي من الضلال، إذ لو كانت تلك المدّة التي أفنيتها في تونس -وإن كانت أعظم ساعة في عمري- قد قضيتها في

1- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 10/02/[1347هـ، 1929/03/14م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ينظر: الرسالة، 1928/06/23، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- ينظر: الرسالة، 1928/06/23، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- ينظر: رسالة الشيخ الثمينيّ إلى أبنائه النجباء، 1929/01/12، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- بتصريح سفر مؤرّخ في 1929/05/28؛ ينظر: سجلّ التساريح 1929-1937، أرشيف القيّاد، ص07.

6- بتصريح سفر مؤرّخ في 1929/02/07؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1909-1929، أرشيف القيّاد، ص299.

7- تنظر: الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستفامة.

هذه الصّناعة لكان لي مقام في هاته الساعة، لا أتألّم فيه باعتداء الجهلة، ولا بسيرتهم التي هي أشدّ عليّ من وقع الحسام»[1]، فكيف يكون وضع مفدي، والكتابة الأدبيّة عنده حاجة، وليست ترفا؟

لقد اهتدى بعد هذه المحاولات في ميدان العمل، إلى عمل جدّ مناسب له، هو عمله بتونس مع عمّه صالح بن يحي مروّجا لسلع دكّانه بالجزائر، إذ ضمن له حرّية التنقّل بين مدن متعدّدة في الجزائر، وبين الجزائر وتونس؛ وقد امتدّ هذا العمل من أواخر سنة 1928 إلى أوائل سنة 1931.

واستعان بهذا العمل الجديد على الحفاظ على صلة ما بالساحة الأدبيّة وأهلها، للإبقاء على شعلة الأدب متّقدة في نفسه، وتجنّب خمودها، فكان انضمامه إلى جماعة تحت السور في هذه المرحلة بتونس، كما أسلفنا. وإذا كنّا لا نملك مادّة وفيرة عن هذه الجزئيّة من حياته الأدبيّة، إذ لا تزيد على إشارات معدودة في بعض قصائده اللاحقة، فإنّ انضمامه إليها بما لأفراد هذه الجماعة من علاقات أكيدة مع الصحافة التونسيّة الحرّة يفسّر –في تقديرنا– الدور الذي اضطلع به –في غياب الشيخ الثميني عن تونس– في حثّ مدراء هذه الصحف على الوقوف إلى جانب رصيفتها الجزائريّة "وادي ميزاب" عند تعطيلها، بعد أن قابل معظمها الحدث بسلبية تامّة[2]؛ يقول في رسالته إلى الشيخ أبي اليقظان، بتاريخ 1929/03/30:

«[...] أما هنا بتونس فقد قصدت أصحاب الصحف الحرّة، مثل الجعايبي[3]، وحسين الجزيري[4]، ومحي الدين[5]، وأوسعتهم توبيخا وتأنيبا عن مقابلة حادث كهذا بكل وجوم، رغما عن تناول صحف العالم كلّها هذا الموضوع من عدوّة وصديقة، مرارا عديدة، ورغما عن كون الجزائر وتونس قطعة واحدة بتعدّد الروابط بينهما، ورغما عن كون مدير "الوادي" ممّن له أياد بيضاء في خدمة المسألة الدستورية سابقا هو وزملاؤه الشيخ صالح بن يحي، والشيخ إبراهيم اطفيش، والشيخ محمد الثمينيّ، حتّى أبعد [أحدهم]، وسجن الآخر، وهُدّد الآخرون مرارا من أجل المسألة الدستورية التي ما حملهم على الانتصار لها إلاّ مراعاة الرابطة الوطنيّة أوّلا، والرابطة الإسلاميّة ثانيا،

1– رسالة دواق إبراهيم إلى الشيخ الثمينيّ، 1926/05/26، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2– يقول قاسم بن الحاج عيسى، شريك الشيخ الثمينيّ آنذاك، في مكتبة "الاستقامة" بسوق العطّارين بتونس، في رسالته إلى الشيخ أبي اليقظان، بتاريخ 1929/03/31: «وأمّا انتظارك لحركة الصحافة التونسيّة، وما تبديه من الدفاع في هاته المسألة، وتأثّرك من سكوتهم، فهو في غير محلّه، فاعلم أن لا حياة لمن تنادي، [...] ولا أزيدك شيئا عمّا تعلمه منهم سابقا، وذقت مرارته بنفسك، [...] وقد وقع الكلام مع بعضهم، فاعتذر بأنّه لم يدر السبب في تعطيلها، وربّ عذر أقبح من ذنب، فثابر هناك، واعمل، واتّكل على الله لا غير» الرسالة، أرشيف الشيخ الثميني، بتونس.

3– محمد بن فرحات الجعايبي 1880–1938، أسّس جريدة "الصواب" سنة 1904، له شعر نشر في الصحافة التونسيّة؛ ينظر: محمد الجعايبي، معجم البابطين لشعراء العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، صفحة الأنترنيت: http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=5362، بتاريخ 2009/11/10.

4– صاحب جريدة "النديم"، جريدة أسبوعيّة أدبيّة فكاهيّة، أسّسها في 1921/02/12م؛ توفيّ سنة 1974م، وله ديوان شعر؛ ينظر: تراجم المؤلّفين التونسيّين2: 29–34.

5– محي الدين القليبيّ 1900–1954، كان آنذاك رئيس تحرير جريدة "الزهرة"؛ ينظر: نفسه4: 118–122.

رغما عن تضييعهم جانبا وافرا من واجبات علميّة وشخصيّة وعموميّة، اجتازوا مسافة ألفي كيلومتر لخدمتها بين مزدحم صاحب من الخصوم الألدّاء؛ هل يكون كلّ هذا جزاؤه الضنّ، ولو بكلمة واحدة، في حادث تعطيل لسانهم الوحيد، بل لسان الشمال الإفريقيّ، بل الإسلام عموما، جريدة "وادي ميزاب"؟ ولقد ضربت لهم على هذا الوتر فأثّر فيهم أيّما تأثير، وأبدوا معاذير يَتَفَصَّوْنَ بها عن المسؤولية، وهي أنّهم توقّفوا عن النشر لعدم /معرفة السبب، إلى غير ذلك. وقد كلّمهم عمّي الشيخ صالح أيضا في هذا الموضوع، ونتيجة ذلك: انتظروا "صواب" هذا الأسبوع، فإنّه كتب مقالا ضافيا في الموضوع، "النديم" أيضا، ثمّ "لسان الشعب" سيكتب، ثمّ "الزمان"، إنّه واعد بالكتابة، ولا أدري متى يفي بالوعد. ولقد حرّضت سعيد بن بكير[1] على الكتابة، وفهّمته الموضوع، وإنّه كتب مقالا، سنصدره إن أمكن في جريدة "اللّواء التونسي" بالفرنسوية (Etendard Tunisien) للشاذلي بن مصطفى، أو في جريدة "تونس الاشتراكية" (Tunis Social)، أو يرسل إليكم تزجونه في بعض صحف الجزائر الحرّة. الحاصل، العمل العمل، الحملة الحملة، الهجوم الهجوم [...]»[2].

حديث مفدي عن أرباب الصحافة التونسيّة حديث من تربطه علاقة وثيقة بهم، لا يمكن تفسيرها باتّصالاته السابقة لنشر إنتاجه في فترة دراسته بتونس، إذ كان لا يتمتّع بمثل الحرّية التي يتمتّع بها في هذا العمل الجديد؛ ولا باستفادته من مكانة عمّه صالح بن يحي لدى النخبة التونسيّة عموما، وإنّما ينمّ -فضلا عن ذلك- عن علاقات جديدة بناها عند عودته إلى تونس، ليباشر عمله مع عمّه، ولا نستبعد دور انتمائه إلى جماعة تحت السور في ذلك.

إنّ افتتاح رسالته السابقة بقوله: «فقد شفيت غليلي بعد حرقة شديدة بأخبار منعشة عن شأن حركة "الوادي"، وإنّي مثلج الفؤاد سرورا، ومفعم القلب ابتهاجا، أعلى الله لواء المصلحين، و﴿ردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال﴾»[3]، يدلّنا على أنّه قد سبقت رسالة من الشيخ أبي اليقظان إليه، حملت إليه الأخبار التي أثلجت فؤاده، فقد أجابه على سؤاله عن قصيدته، فقال: «أما أنا والقصيدة فإنّ تراكم الأشغال عليّ قتلتها في مهدها، فلم أزد فيها حرفا، ولم أنقص»[4]، وهو ما يشهد بوضوح على أنّ أداءه لهذه المهمّة كان بتكليف من الشيخ أبي اليقظان، فقد كتب له تقريرين عنها في رسالتين لا يفصل بينهما سوى ثلاثة أيام[5].

---

[1]- في الهامش: «يقصد: سعيد بن بكير عدون»275 ها2. والصواب إن كان هو المقصود: باسعيد عدون بن بكير.

[2]- مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة266، 267. ولا ندري ما كانت نتيجة مسعاه ومسعى عمّه صالح بن يحي في هذه المسألة.

[3]- نفسه266. والآية من سورة الأحزاب، الآية 25.

[4]- نفسه267.

[5]- الرسالة الثانية كانت بتاريخ 1929/04/03، تحدّث فيها بالتفصيل عن لقاء له مع محي الدين القليبيّ في ذات الموضوع، جاء في أوّلها ما يلي: «وبعد، فقد أخبرتكم في جواب قبل هذا عن استيقاظ أرباب الصحف التونسيّة للكتابة، واليوم قد استدعيت الشيخ محي الدين القليبيّ، وكلّمته طويلا في المسألة، فاعتذر إليّ بعدم تشبّعه بالموضوع تشبّعا كافيا للكتابة، فقصصت عليه تاريخ المسألة بكلّ تفصيل وتدقيق» صورة من الصفحة الأولى من الرسالة الأصليّة بخطّ مفدي: نفسه277.

كلّ ذلك يحمل إشارة واضحة إلى أنّ علاقته بشيخه أبي اليقظان استعادت عافيتها بعد الفتور الذي أصابها.

لقد عمل الشيخ أبو اليقظان عند استقراره بالجزائر على استقطاب مجموعة من الشباب الناهض، كانوا يلازمونه ويساعدونه في أعماله ومهامّه، وفي مقدّمتهم تلميذ بعثته بتونس سليمان بوجناح "الفرقد"، وكان مفدي -فيما يبدو- آخر من التحق بهذه المجموعة، التي أطلقت على نفسها "طائفة من الثوّار"[1]، فهو يسأل في رسالته هذه عنهم بأسلوب ساخر، يشي بطبيعة العلاقة التي كانت تجمعه بهم، وتجمعه بالشيخ أبي اليقظان، فيقول: «سيّدي قبل كلّ شيء ما هي أحوال صنوي الفرقد؟ فإنّه لم يكاتبني، وإنّي متحيّر جدّا في أمره؛ ثمّ ما هي أحوال الهزبر المقدام، أسد الوادي، السيّد غرّافة [إبراهيم]، الذي ليس في قلبه رأفة، على الدجاجة (الخوّافة)، التي على حتفها بظلفها طوّافة، الله يسلّط عليها آفة، أمّا هو (يسلّك) الله أمره، ويهرول لمزاب على طريق (صطافة)؛ وأمّا الأخ حمو [باجو] فقد سمعت أنّه في بريكة، [فـ]ـــالسلام عليه يوم سار، ويوم يؤوب»[2].

توفي رمضان حمود بتاريخ 1929/11/28، وكان أعزّ زملاء دراسته بتونس على نفسه، حتّى قال عنه في إحدى رسائله إلى الشيخ الثمينيّ، حينما كان عالَـــمُه كلّه ضدّه: «وأقدّم لكم صديقي وثمرة عيني رمضان حمود على جناح اليمن»[3]؛ وإحساسا منه بواجبه نحوه، كتب مقالا في نعيه، وآخر في تأبينه، ويمّم بهما شطر جريدة "الإصلاح" للشيخ الطيّب العقبيّ، ببسكرة، لنشرهما فيها، في غياب جريدة "وادي ميزاب"، وغياب ما يخلفها بعد تعطيلها، ولعلّ ممّا شجّعه على ذلك نشرها لمقتطفات من شعره، في ركن "مجاني الأدب"، مستخلصة من كتاب محمد الهادي السنوسي الزاهريّ[4]:

ذكرته الجريدة من ضمن زوّارها في عددها التاسع، المؤرّخ في 1929/12/12[5]، غير أنّ المقال الذي يحمل نعي رمضان حمود، بعنوان "الله أكبر، مات رمضان حمود"، والأرجح أن يكون مفدي كتبه في الأسبوع الأوّل بعد وفاته على أبعد تقدير، لم يصدر بسبب عدم انتظام صدورها إلاّ يوم 1930/01/02، في عددها العاشر[6]؛ وأعلنت

1- بنظر: الباب الأوّل، ص126، 127.

2- مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة267.

3- الرسالة، مؤرّخة في 1346/04/05هـــ، 1927/10/02م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- 04 أبيات من قصيدته "خواطر كئيب"، ينظر الأوّل والثاني: جريدة "الإصلاح"، س01، ع01، 1346/03/12هـــ، 1927/09/09، ص04؛ والثالث والرابع: جريدة "الإصلاح"، س03، ع04، 01/[05]/1348هـــ، 1929/10/03، ص04.

5- ينظر: ملخّص لمحتويات العدد 09، من جريدة "الإصلاح"، الصادرة ببسكرة يوم 1929/12/12، وثيقة من 03 صفحات، 15h14، (CAOM)، ص03.

6- ينظر: المقال، جريدة "الإصلاح"، س03، ع10، 1348/08/02هـــ، 1930/01/02، ص04. ونقلت "الشهاب" خبر الوفاة عن جريدة "الإصلاح"، وأرفقته برسالة وصلتها من جمعية الإصلاح بغرداية، مؤرّخة في 1929/12/15؛ ينظر: رزء جليل: وفاة الأخ رمضان حمود، جريدة "الشهاب"، س05، ع12، شعبان 1384هـــ، جانفي 1930م، ص44، 45. وكانت هي نفسها تشكو من عدم انتظام صدورها.

فيه عن رسالة وافية عن وفاة رمضان حمود، وجنازته، وتأبينه فيها، أجّلت نشرها إلى عدد لاحق[1]، ولم يصدر مقال مفدي الثاني في تأبينه، بعنوان "رمضان حمود: حياة الرجل الراحل"، إلاّ يوم 1930/02/27[2]، بعد ثلاثة أشهر من وفاته.

وتوفّي ناصر الدين (إتيان) ديني (Etienne Dinet)، يوم 1929/12/24، بباريس[3]، ووصل جثمانه إلى ميناء الجزائر يوم 1930/01/10[4]، وأقيمت جنازته بمدينة بوسعادة يوم 01/12[5]؛ وعلى قبر الفقيد ألقيت أربع خطب[6]، وقصيدة واحدة هي قصيدة مفدي[7]، «قصيدة بليغة ومؤثّرة في نفوس السامعين، وبقيت هنالك خطب كثيرة، كان في عزم أصحابها إلقاؤها، ولكن حال ضيق الوقت، واستعجال الحكّام دونها، منها خطاب طويل للأستاذ أبي اليقظان، الشيخ إبراهيم بن الحاج عيسى، صاحب جريدة "ميزاب"»[8].

وقالت جريدة "النجاح" عن قصيدة مفدي: «وألقى بعد ذلك الشابّ الميزابيّ النابغ، السيّد مفدي زكرياء، قصيدة عصماء، من غرر الشعر الحقيقيّ، تتجلّى فيه روح صادقة، وتأثّر عميق، فكانت على قلوب السامعين بردا وسلاما، وسنراها بحول اللّه منشورة في أيّام مقبلة»[9]؛ غير أنّ القصيدة لم تنشر بعد ذلك، لا في "النجاح"[10]، ولا في غيرها، وهي معدودة إلى الآن في مفقود شعره.

مضت سنة على تعطيل جريدة "وادي ميزاب"، بذل فيها الشيخ أبو اليقظان وزميلاه الثمينيّ وقاسم بن

1- ينظر: جريدة "الإصلاح"، ع10، ص03.

2- ينظر: جريدة "الإصلاح"، س03، ع13، 1348/09/29هـ، 1930/02/27، ص03. ونشرت "الشهاب" مقالا عنه، بعنوان "فقيد الأدب والنهوض: السيّد رمضان حمود رحمه الله" ؛ ينظر: جريدة "الشهاب"، س06، ع02، شوّال 1384هـ، مارس 1930م، ص107-109.

3- ينظر: وفاة مسلم فرنسي عظيم: السيّد ناصر الدين ديني، أحمد توفيق المدنيّ، مؤرّخا في 1929/12/26، جريدة "الشهاب"، س05، ع12، شعبان 1348هـ، جانفي 1930، ص45-47.

4- رسالة العاصمة: جثّة الفقيد الكريم، إمضاء: ابن الجزائر، جريدة "النجاح"، س10، ع839، 1348/08/14هـ، 1930/01/14م، ص03.

5- جنازة الأستاذ إتيان ديني، الحاج ناصر الدين: يوم مشهود، من غير إمضاء، جريدة "الإصلاح"، س03، ع11، 1348/08/23هـ، 1930/01/23م، ص02.

6- لكلّ من أحمد توفيق المدنيّ، وشيخ زاوية الهامل، والطيّب العقبيّ، والأمين العموديّ؛ ثمّ خطب المتصرّف، والوالي العامّ؛ ينظر: يوم "ديني" في بوسعادة، أحمد توفيق المدني، مؤرّخا في 1930/01/20، جريدة "الشهاب"، س06، ع01، رمضان 1348هـ، فيفري 1930م، ص40.

7- نشرت جريدة "الإصلاح" صورة تذكارية للخطباء باستثناء العموديّ، بالإضافة إلى مفدي زكرياء، والحاج سليمان بن إبراهيم باعامر، رفيق الميّت وحبيبه؛ ينظر: جنازة الأستاذ إتيان ديني، الحاج ناصر الدين: يوم مشهود، تابع لما قبله، جريدة "الإصلاح"، س03، ع12، 1348/09/08هـ، 1930/02/06م، ص02.

8- نفسه.

9- جنازة الفقيد العظيم ناصر الدين إتيان ديني في بوسعادة، بإمضاء: علي بن الحسين، جريدة "النجاح"، س10، ع841، 1348/08/16هـ، 1930/01/16م، ص02.

10- ونشرت قصيدة "رثاء الراحل العظيم ديني"، للمختار بن أحمد بن الشريف، باش عدل بالجلفة؛ ينظر: جريدة "النجاح"، س10، ع854، 1348/09/01هـ، 1930/01/31م، ص03.

الحاج عيسى جهودا مضنية، للعودة إلى ميدان الصحافة بجريدة جديدة، بعد تعذّر رفع الحظر عن جريدتهم السابقة، فكانت جريدة "ميزاب"، وها هو الشيخ أبو اليقظان يعبّر عن فرحته العارمة بتذليل عقبات إصدارها في تونس، فيقول: «[...] ويا ما أعظم بهجتنا وسرورنا إذ وصل إلينا تلغراف البشارة، بالإسراع بالكتابة إيذانا بانفتاح الباب، فالحمد لله حمدا جزيلا، وشكرا لك شكرا في تذليل تلك المصاعب بعزيمتك الصارمة، وآرائك السديدة، فبارك الله فيك من أخ عزيز كريم. نحن في تعطّش إلى ورود جوابك في تفصيل هذا الفتح المبين»؛ ثمّ يضيف: «وقد كنّا موفدين عن جماعة الجزائر لحضور حفلة جنازة م. ديني، وقد أرسلت إليك منها تذكرة "بوسطية"، وإليك هنا تفاصيل الحفلة مفرغة في فصل استعجالي، وإليك معه قصيدة زكرياء في "ميزاب"، وفصل الأخ عبد الرحمن في الإحصاء القرنيّ، وسأردفها بما يستجدّ غدا أو بعده بإذن الله»[1]؛ وصدرت جريدة ميزاب، بتاريخ 1348/08/23هـ، 1930/01/24م، ولم يرد فيها شيء ممّا ذكر في الرسالة، وجاء فيها مقابل ذلك موضوعات عامّة[2]، الأرجح أنّها كانت جاهزة من قبل، ثمّ إنّ هذه الجريدة بدأت بعددها الأوّل واختُتمت به، فعدّت قصيدة مفدي أيضا في مفقود شعره.

وهكذا عاد مفدي إلى الإنتاج الأدبيّ، غير أنّه وجد صعوبات جمّة في نشره بالجزائر، بسبب الظروف الخاصّة التي كانت تمرّ بها الصحافة العربيّة الجزائريّة، وأقلّها عدم انتظام صدورها؛ فإنتاجه إذا نشر فإنّه ينشر بعد فوات أوانه كما حدث لمقاليه في رمضان حمود، أو لا ينشر كقصيدته في "ميزاب"، بسبب تعطيلها بعد صدور عددها الأوّل؛ أمّا قصيدته في ناصر الدين ديني، فلم تنشر في "النجاح" بسبب مقاله الانتقاديّ -فيما نعتقده- ضدّ رئيس تحريرها مامي إسماعيل سنة 1927؛ وعليه، فإن كان لمفدي من إنتاج نشره في هذه الفترة، فلا يمكن أن يكون سوى في الصحافة التونسيّة، إن لم يجعله هذا الوضع يلوذ بالصمت، في انتظار صدور جريدة يضمن نشر إنتاجه فيها.

سافر الشيخ أبو اليقظان في أوائل أفريل 1930 إلى تونس، وفي طليعة مهامّه بها التباحث مع الشيخ الثمينيّ في شأن إصدار جريدة جديدة خلفا لــ "ميزاب"، فكتب مفدي إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1930/04/11، يقول على لسان "طائفة من الثوّار": «إنّنا متفائلون خيرا من اجتماعكما، وكلّنا أسماع متهيّئة لأوّل كلمة تخرج من فميكما الشريفين، وإنّا لا نرضى أن تتفارقا ما لم تأتيا لنا بما نحن أحوج إليه من الأكسجين للحياة، وأكرم بها حياة الروح. هذا الكلام ترجمة من البربريّة حرفا بحرف، من فم الأخ غرّافة، نيابة عن الجميع.

ملحق خير لغرّافة إلى أستاذنا الشيخ أبي اليقظان: إنّنا لا نقبل أن تأتي للجزائر ما لم يسبقكم أوّل عدد من الجريدة الجديدة، يطلب لكم الاستئذان للدخول. غرّافة. زكرياء: هذا الكلام، وإن كان -قلّة أدب- إلاّ أنّه من باب الثورة الحمراء، والثورة تبيح كلّ شيء، لأنّ قائله ثائر، نائب عن طائفة من الثوّار: غرّافة،

1- رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1930/01/16، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ينظر: فهرس موضوعات جريدة "ميزاب"، أبو اليقظان وجهاد الكلمة340.

الفرقد، باجو، تعموت، زكرياء. اهـــ   أنا»[1].

إنّ هذه الرسالة تؤكّد على التفاف هذه النخبة الشابّة حول الشيخ أبي اليقظان، فكانت على دراية ببرنامج رحلته وهدفها الأساسيّ، ويؤكّده حديث الشيخ أبي اليقظان عنهم في رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، حيث يقول مضيفا لهم إلى نفسه، وهو يتحدّث عن إلقاء القبض على ثلاثة منهم: «[../] إنّ الحالة –يا أخي– هنا على غير ما يرام فقد أخذت الإدارة تكشف النقاب عن وجهها وتبدو في الميدان وجها لوجه، فقد ألقت أول أمس القبض على 3 من شبابنا: الفرقد، وزكرياء، وباجو، وساقتهم إلى الكوميسارية»[2]؛ وكانوا في عين الإدارة الاستعماريّة يمثّلون مجموعة واحدة، فعندما أجرت تفتيشها سنة بعد ذلك في المطبعة العربيّة، وقع التفتيش في نفس الوقت في مزاب، في منزلي الفرقد ومفدي، ويقول في ذلك الشيخ أبو اليقظان: «بعدما كتبنا كلمتنا في تدشين الحكومة للمطبعة العربيّة[3]، حسبما رآه قراؤنا الكرام في العدد السابق[4]، بلغنا –بكلّ استغراب– أنّ الإدارة العسكريّة قامت في ذلك اليوم، وفي نفس الساعة، وفي عين الدقيقة بتمثيل تلك الرواية نفسها، عينها، بفصولها وأدوارها في غارداية، بدار الوجيه السيّد بوجناح يحي، والد الأديب الفرقد سليمان، وفي بني يزقن بدار البارع السيّد مفدي زكرياء بن سليمان»[5].

صدر أوّل عدد من جريدة "المغرب"، يوم 1349/01/01هـــ، 1930/05/26م[6]، والمميّز في هذه الصحيفة أنّ الشيخ أبا اليقظان، وكتّاب هذه النخبة الشابّة الملتفّة حوله، وهما: الفرقد، ومفدي[7]، كانوا ينشرون إنتاجهم فيها بإمضاءات مستعارة، وقلّما صرّحوا بأسمائهم[8]، وكلّ ما نسب لمفدي في هذه الجريدة هو أربع قصائد، نشرها

1– الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2– الرسالة، 1348/10/13هـــ، [1930/03/14م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3– يعني به فيما يفهم من محتوى المقال: اقتحام المطبعة العربيّة وتفتيشها.

4– هذا العدد 36 مفقود في مجموعة جرائد الشيخ أبي اليقظان بمكتبة الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو.

5– عند تدشين المطبعة العربيّة، من غير إمضاء، جريدة "المغرب"، س01، ع37، 1349/10/29هـــ، 1931/03/19م، ص02، 03. وممّا يدلّ على ملازمة هذه النخبة للشيخ أبي اليقظان حكايته لما فعلوه مع القائد باللو يحي، حيث يقول: «عندما وصل باللو يحي هنا تظاهر الأولاد: الفرقد، غرّافة، حمو باجو، زكرياء؛ باحريز، وعمارة أحفاد القائد كاسي، فذهبوا جميعا إلى حيث نزل بمحلّ كراوة، فدخلوا عليه فجأة، فسلّموا عليه، واحدا بعد واحد، فخرجوا، ثمّ لمّا توسّطوا الطريق انطلقوا بالضحك، فكاد هو يموت غيظا من هذه المظاهرة، كما حكى للبعض» رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1930/05/08، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

6– وقد طبعت الجريدة إلى غاية العدد 32، الصادر في 1349/08/23هـــ، 1931/01/13م، في المطبعة الإرشاديّة، 12 نهج قاربي، سانت أوجين، الجزائر؛ وبداية من العدد 33، الصادر في 1349/09/23هـــ، 1931/02/12م، إلى آخر عدد في المطبعة العربية، 70 نهج روفيقو، الجزائر. ينظر: مجموعة جريدة "المغرب"، مكتبة الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو، بني يزقن.

7– ووجدت مقالا واحد، والأرجح أنّه الوحيد، لحمو بن عمر [باجو]، من هذه النخبة؛ ينظر: الق دلوك مع الدلاء، جريدة "المغرب"، س01، ع30، 1349/08/02هـــ، 1930/12/23م، ص02.

8– صرّح الشيخ أبو اليقظان باسمه في مقالين وقصيدة، وكنّى عنه بـــ "أنا" في قصيدة ومقالين، وبـــ"المقيّد" في قصيدة، أمّا المقالات من غير إمضاء

بإمضاء "فتى المغرب"؛ في حين وجدنا في مدوّنة معلومات أنجزتها الإدارة الاستعماريّة العسكريّة بغرداية عنه، بتاريخ [1939]/11/27، جاء فيها ما يلي: «كتب مقالات لجريدة "النور"، ومنه على وجه الخصوص المقال المغرض المتعلّق بـــ"المواصلة الجويّة"»[1]، ولا أثر لهذا المقال في "النور"، كما أنّ علاقة مفدي بالشيخ أبي اليقظان عرفت بعض الفتور والتوتّر إبّان صدور "النور"، وعلاقته به في فترة صدور "المغرب" كانت الأحسن، ثمّ إنّ هذه المعلومة اختصّت بها هذه الإدارة بغرداية، وهي ممّا اكتشفته -في نظرنا- من التفتيش الذي أجرته في منزل مفدي، بتاريخ 1931/03/07[2]، فقد قال عنه الشيخ أبو اليقظان: «كما فتّشوا في الوقت نفسه دار أبيه في غرداية، ودار زكرياء في يزقن، ودكّانهم في المدية، فتسنّى بهذا لهم أن يحجزوا بعض جرائد له، وبعض مخطوطات زكرياء»[3]؛ وعندما بحثنا عن هذا العنوان في فهرس محتويات جريدة "المغرب" كان ضمن موادّ العدد الأوّل منها[4]، وعند اطّلاعنا عليه، وجدناه خبرا لا يتعدّى بضعة أسطر، من غير إمضاء، ورد ضمن ركن "أحوال داخلية"، بعنوان "المواصلة الجويّة"[5]، وهو لا ينطبق تماما على وصفه بأنّه مقال، ولا على كونه مغرضا (Tendancieux).

قمنا بعد ذلك بمسح لجميع المقالات التي لا تحمل إمضاء في الجريدة، عسانا نعثر على "مقالات" مفدي التي تحدّث عنها التقرير، مسترشدين بأسلوبه الخاصّ في كتابة مقالاته، فلم يمكننا الجزم بنسبة أيّ نصّ إليه غير النصوص الشعريّة المذكورة، وهذا غريب منه في تلك الفترة التي عاد فيها إلى الكتابة الأدبيّة، وانفسح له مجال النشر في هذه الجريدة، بعد تحسّن علاقته بالشيخ أبي اليقظان، وهو الذي شهد له بالتفوّق على سائر أقرانه في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، خاصّة في مجال الكتابة الصحفيّة، فعندما نقارن إنتاجه فيها بإنتاج أقرانه نجد الفرق شاسعا: نشر زميله الفرقد 17 مقالا، وبعضها كان مقالا افتتاحيّا؛ ونشر أحمد بن الحاج يحي 06 قصائد، ولم يكن من ضمن "طائفة الثوّار" أصلا، ولا كان من مستوى مفدي في الشعر؛ بينما لم ينشر مفدي سوى 04 قصائد، وهي: "جزائر ما

فلا حصر لها. أمّا الفرقد، فقد صرّح بلقبه هذا في مقالين، وعوّضه بـــ "فـــ..." في 13 مقالا، واستعمل إمضاء "غيور" في مقالين؛ وأمّا مفدي فإنّه أمضى ثلاثة قصائد "فتى المغرب"، والرابعة أضاف فيها إلى هذا الإمضاء م. زكرياء؛ ينظر: فهرس موضوعات جريدة "المغرب"، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص341-353، وينقص المجموعة التي اعتمدها محمد ناصر الأعداد 06، و09، و17؛ ومجموعة جريدة "المغرب"، مكتبة الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو، بني يزقن، لا ينقصها سوى العدد 36.

1- مدوّنة المعلومات، 9h81، (CAOM)، ص03.

2- ينظر: الباب الأوّل، ص132-134.

3- رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثميني، 1349/11/24هـــ، [1931/04/13م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- ينظر: فهرس موضوعات جريدة "المغرب"، أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص341.

5- تحته بخطّ أصغر بين قوسين (الجديدة)، وبعده: «بين الجزائر ووهران والدار البيضاء»، ونصّ الخبر كالآتي: «إنّ المساعي مبذولة اليوم لربط المواصلة الجويّة الجديدة بين هذه البلاد الثلاثة العظيمة، وقد قام بالرحلة الجوية الأولى م. كولي، ونزل بوهران يوم 10 ماي، وبعد استراحة دامت بعض ساعات، وتزويده بما يلزمه للطيران، طار متوجّها نحو المغرب» جريدة "المغرب"، 1349/01/01هـــ، 1930/05/26م، ص02.

أشقاك بالجهل"[1]، و"الله راض"[2]، و"خفقة فؤاد: زهرات ضائعات في صفحات ضائعات"[3]، و"مهرجان الزعيم الخطير"[4]، وقد حظيت هذه الأخيرة بالنشر على صدر الصفحة الأولى، مع مقدّمة فيها الكثير من الاحتفاء به.

ثمّ إنّ مفدي نشر قصائده الأربعة بين شهري جويلية وسبتمبر 1930، ثمّ انقطع إنتاجه إلى أوان تعطيل الجريدة في مارس 1931، فقد صدر عددها الأخير في 1349/11/01هـ، 1931/03/26م.

إنّنا لا نجد تفسيرا معقولا لهذا الأمر سوى في منع والده اشتغاله بغير تحصيل قوته وقوت عائلته، خاصّة بعد إلقاء القبض عليه في الجزائر في مارس 1930، فقد سبق وأن رأينا عمّه، الشيخ صالح بن يحي، يرسل إليه من تونس يندّد عليه سيره مع السياسيّين، وينذره بالانصرام في جوان[5]، فإذا كان هذا موقف العمّ، وهو ممّن كانت له قدم راسخة في العمل السياسيّ، فكيف سيكون موقف الوالد؟ ثمّ إنّنا لا نستبعد أن يكون توبيخ العمّ بطلب من الوالد، الذي كان أخاه الأكبر، وكبير عائلة آل الشيخ، خاصّة وأن تجربة العمّ مع السياسة تقوّي موقف الوالد إذ كانت سببا في إفلاسه.

حضر مفدي ضمن وفد من الميزابيّين احتفال مكتب الدروس العربيّة، بامتحان تلاميذه السنويّ، بمحلّ إدارة الجمعية الخيريّة القسنطينيّة، يوم الأحد 1930/09/21، وتحدّث مندوب "النجاح" عن مشاركة مفدي فيه، فقال: «ولمّا انتهى التلاميذ من أدوارهم كلّها، قام فاضلان كريمان، من إخواننا الميزابيّين، بخطابين مهمّين، سألت عن اسم الأوّل، فقيل: هو الأديب سليمان العطفاويّ، [...]. وسألت عن اسم الثاني، لأنّني لم أعرفهما، فقيل لي أيضا: إنّه السيّد مفدي زكرياء، الشاعر الأديب، وقد ارتجل خطابا ضافيا أيضا، تضمّن الحثّ والدعوة للأخذ بيد الأمّة الجزائريّة المسكينة، والنهوض بها من كبوتها، وإفاقتها من رقدتها، داعيا وحاثّا ومردّدا كلمة التآخي والتوادد [...]، وأنهى كذلك خطابه بالثناء الكثير، إجمالا وتفصيلا كما تقدّم، ثمّ أثنى على المعلّمين خصوصا، والحاضرين عموما.

[...] وليسمح لي القارئ إذا قلت: إنّ الجماعة التي لبّت الدعوة هنا، وحضرت من السادة الإباضيّين، يرأسها حضرة الفقيه الفاضل، الشيخ القاضي بانوح، وعدد آخر من السادة التجّار، والسيّدين الخطيبين المتقدّمين، قد دلّت بهذا على شعور قويّ، وإحساس كامن فيهم نحو الدين واللغة من جهة، ونحو إخوانهم القسنطينيّين من جهة أخرى».

وفي 1931/12/12، كان مفدي على موعد مع احتفال مدرسة الإخاء ببسكرة، فشارك فيه بخطبة وقصيدة، يقول في ذلك أحد أساتذة المدرسة: «في الليلة الأولى من شهر رجب سنة 1350هـ، والثانية

1- جريدة "المغرب"، س01، ع08، 1349/02/18هـ، 1930/07/15م، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى81-84.

2- جريدة "المغرب"، س01، ع10، 1349/03/02هـ، 1930/07/29م، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى85-88.

3- جريدة "المغرب"، س01، ع13، 1349/03/24هـ، 1930/08/20م، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى89-92.

4- جريدة "المغرب"، س01، ع15، 1349/04/14هـ، 1930/09/09م، ص01؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى93-96.

5- ينظر: الباب الأوّل، ص131.

عشر من شهر نوفمبر سنة 1931م، قرّر أعضاء مدرسة الإخاء ببسكرة، تحت إشراف رئيسهم المحترم، السيّد ادبابش الحاج الحفناويّ، بأن يحتفل تلاميذ مدرسة الإخاء ببسكرة [../..]؛ ثمّ تلاه النابغة مفدي زكرياء، وخطب خطبة في الإشادة بآثار الآباء والأجداد، الذين عجنت هذه البلدة المطهّرة بدمائهم الشريفة، نضالا عن شرفهم، و[نشرا] لدينهم السمح في ربوع إفريقيا، وعلى أنّ في أدمغة أبناء الجزائر كنوزا، ومواهب دينيّة من الذكاء والعبقريّة، لم توت كثيرا من العالمين، لو وجدت أيادي تستخرجها من مناجمها؛ ثمّ ختمها بقصيدة يحقّ لها أن [تكتب] بماء الذهب، أو بالنور، وتعلّق على نحور الحور»[1]؛ وكتب مفدي في هذه المناسبة مقالا عن هذا الاحتفال عنونه "الاحتفال العظيم بمدرسة الإخاء ببسكرة"، نشره في جريدة الشيخ أبي اليقظان الجديدة آنذاك[2]؛ كما نشرت "النور" أيضا القصيدة التي ألقاها بالمناسبة "قف للعروبة حيّها ببسكرة"[3].

كانت حياة مفدي في البعثة معبّدة، واضحة المعالم، من تخطيط شيوخ البعثة، وعندما غادرها واجه الحياة بمفرده، وكان عليه أن يتلمّس طريقه فيها معتمدا على تجربته الشخصية، وقدرته الذاتية على التكيّف مع الوضع الجديد، فكان مساره فيها في البداية متعثّرا، لبحثه عن التوفيق بين مستلزمات حياته بعد الزواج وطموحاته ورغباته، فانتهى إلى اختيار العمل الذي يكفل له قدرا من حرية التنقّل، وإلى البقاء في فلك شيوخ البعثة، خاصّة بعد انتقال الشيخ أبي اليقظان إلى الجزائر، واستقراره فيها، بالإضافة إلى الإبقاء على صلته بالساحة الأدبيّة، فكان اتّصاله بــ "جماعة تحت السور" بتونس، وبالنخبة المثقّفة المزابيّة الملازمة للشيخ أبي اليقظان في الجزائر. أمّا اتّصاله بالأوساط المثقّفة الجزائريّة، فكان محدودا، لم يزد على نشر إنتاجه في جريدة "الإصلاح"، وعن المشاركة في احتفال مكتب الدروس العربيّة بقسنطينة، ضمن وفد مزابيّ، والإسهام في احتفال مدرسة الإخاء المشتركة بين المزابيّين والبسكريّين، ومع ذلك فإنّ الواقعتين الأخيرتين تسجّلان بداية انفتاحه على الحركة الإصلاحيّة الجزائريّة، كما أنّ الأنشطة السياسيّة البسيطة التي أدّت إلى إلقاء القبض عليه في مارس 1930، وإلى تفتيش منزله ببني يزقن في مارس 1931، فتحت عينيه على العمل السياسيّ الوطنيّ الجزائريّ، وإن كان فيه تابعا لزميله الفرقد ليس إلاّ، ولقد انعكس كلّ ذلك على أدبه في قصيدته "جزائر ما أشقاك بالجهل"[4]، حين استعمل لفظة "الجزائر"، من غير أن يقصد به "مزاب" خاصّة.

1- احتفال تلاميذ مدرسة الإخاء ببسكرة، محمد بن الحاج إبراهيم الطرابلسيّ، جريدة "النجاح"، س13، ع1234، 1350/07/09هــ، 1931/11/20م، ص01، 02.

2- جريدة "النور"، س01، ع11، 1350/07/13هــ، 1931/11/24م، ص01، 02.

3- جريدة "النور"، س01، ع12، 1350/07/20هــ، 1931/12/01م، ص03.

4- ينظر: القصيدة، فتى المغرب، جريدة "المغرب"، س01، ع08، 1349/02/18هــ، 1930/07/15م، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى81-84.

لقد تأثّر إنتاجه، فقلّ بالنسبة لما كان عليه في مرحلة دراسته بتونس، ويمكننا أن نحصر ما وقفنا عليه من إنتاجه لهذه الفترة في الجدول الآتي:

رقم	عنوان النصّ	نوعه	حجمه	تاريخه
1.	لك الحياة	مقطوعة	09 أبيات	فيفري 1926
2.	ألا في سبيل المجد: الإسلام يتكلّم	قصيدة	38 بيتا	فيفري 1926
3.	خواطر كئيب	قصيدة	23 بيتا	فيفري 1926
4.	نظرة في كتاب تاريخ العرب بالجزائر (1)	مقال	08 صفحات	1926/05/06
5.	نظرة في كتاب تاريخ العرب بالجزائر(2)	مقال		1926/05/13
6.	نظرة في كتاب تاريخ العرب بالجزائر(3)	مقال		1926/06/03
7.	نظرة في كتاب تاريخ العرب بالجزائر(4)	مقال		1926/06/10
8.	دموع وآلام وخواطر	قصيدة	42 بيتا	1926/09/20
9.	مناجاة زهرة في أحد بساتين مزاب	مقال	صفحة	1926/10/11
10.	كلمتي في وادي ميزاب	مقال	عمودان	1926/10/16
11.	ته يا عمان بنصر الله	قصيدة	77 بيتا	1926/12/17
12.	حول أسطورة بوليس الصحفيّين	مقال	04 صفحات	1927/09/16
13.	مصرع الفضيلة	قصيدة	57 بيتا	1927/11/10
14.	إنّما الميت من يرى شرف الأمّة نهبا، ولا يزال خمولا	قصيدة	21 بيتا	1928/06/27
15.	يا رحمة اللّه حلّي في منازلنا	قصيدة	20 بيتا	1928/07/03
16.	الله أكبر، مات رمضان حمود	مقال	صفحتان	ديسمبر 1929
17.	رمضان حمود حياة الرجل الراحل	مقال	05 صفحات	ديسمبر1929
18.	جزائر ما أشقاك بالجهل	قصيدة	38 بيتا	1930/07/15
19.	الله راض	قصيدة	40 بيتا	1930/07/29
20.	خفقة فؤاد	قصيدة	36 بيتا	1930/08/20
21.	مهرجان الزعيم الخطير	قصيدة	52 بيتا	1930/09/09
22.	في سبيل الحياة[1]	مساجلة	17 بيتا	1931/06/09

[1]- ينظر: ديوان أبي اليقظان 93-96. يقول الشيخ أبو اليقظان عن مناسبتها: «في ليلة 22 محرّم 1350هـ، [1931/06/09م]، جمعتنا بمحلّنا في الجزائر ليلة سمر، أنا، والشيخ عبد الرحمن بن عمر، والأديب مفدي زكرياء، فجرت بيننا هذه المساجلة اللطيفة تشحيذا للقريحة»93ها. والقصيدة من 37 بيتا، وكان نصيب كلّ واحد منهم فيها: الشيخ أبو اليقظان 08 أبيات، والشيخ عبد الرحمن بن عمر 11 بيتا ونصف بيت، ومفدي زكرياء 17 بيتا ونصف بيت.

23.	الاحتفال العظيم بمدرسة الإخاء ببسكرة	مقال	صفحتان	1931/11/24
24.	قف للعروبة حيّها ببسكرة	قصيدة	49 بيتا	1931/12/01

21 نصّا: مقطوعة واحدة، و13 قصيدة، بمجموع 519 بيتا؛ و10 مقالات.

الفصل الثالث: إنتاجه الأدبيّ 1921ـ1931

حصيلة إنتاجه الأدبيّ:

أنتج مفدي زكرياء في هذه الفترة الأولى، على امتداد إحدى عشرة سنة (1921–1931)، 67 نصّا، منها: 30 قصيدة، و13 مقطوعة، بمجموع 1227 بيتا، بعد حذف المكرّر في قصيدتين ومقطوعة[1]؛ و23 مقالا، و03 بحوث، ومحاولة غير تامّة في القصّة. أمّا المفقود من أدبه فكثير، خاصّة إنتاجه في الأعداد الكثيرة التي لم تصلنا من مجلّة "الوفاق"، بالإضافة إلى مقدّمته لكتاب رمضان حمود "وحي الضمير"، ومقالته في "الصواب"؛ وقصائده في رثاء سيف بن سليمان بن ناصر الخروصيّ، وفي أضحية العيد، وفي تأبين ناصر الدين ديني، وفي جريدة "ميزاب".

يقول نائب المحافظ بـــ"المديّة"، في رسالته إلى محافظ عمالة الجزائر، بتاريخ 1929/01/28: «لقد استطعت في هذه الأثناء أن أجمع عن هذا الشاب المزابيّ معلومات، أرى من المفيد إطلاعكم عليها: [...] إنّ زكري بن سليمان –فيما يقال عنه– يملك ذكاء وقّادا، وحصل على تكوين متين في اللغة العربية؛ له ميل طبيعيّ للنشاطات الثقافية: الشعر خاصّة، والصحافة؛ له ديوان من 4000 بيت، لم ينشر بعد»[2]؛ إنّ هذا التقدير لشعره، بعد ثماني سنوات من ميلاده شاعرا، يبدو من أوّل وهلة جدّ مبالغ فيه؛ غير أنّنا إذا قارنّاه برقم 1227 بيتا، الذي تحصّلنا عليه فعليّا، وبتقدير ما ضاع من شعره، وهو كثير، فإنّه يفقد قدرا كبيرا من طابع المبالغة فيه، خاصّة إذا كان القصد منه الكثرة، لا حقيقة الرقم؛ فقد قال عنه زميل دراسته الفرقد: «كان مثالا للذكاء وحضور البديهة، ومثار إعجاب أساتذته، وإنّه منذ ذلك الوقت المبكّر بدأ يقرض الشعر، وكان يلقي محاولاته الشعرية على أصدقائه وأساتذته، فيجد منهم الإعجاب والتشجيع، وإنّهم كثيرا ما يكونون في حصّة درس من الدروس يعالجون قضية ما، فيطلب الأستاذ من مفدي أن يقول فيها شعرا، فيقوم في الحال، ويرتجل بيتا أو أبياتا»[3]؛ وقد بلغ به الاقتدار في النظم أن وجدناه ينظم درسا خاصّا بجغرافية أوروبا، يقول فيه:

الحــمد لله مــدير الكــائــنــات، مــنشــؤنــا بــحــكــم مبــيّنــات
ثــمّ صــلاتــه عــلــى الــرســول وآلــه وصــحــبــه الــعــدول

---

[1]– أعني: 62 بيتا مكرّرا بين قصيدتي "تحيّة البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل"، و"ته يا عمان بنصر الله"؛ و23 بيتا من قصيدة "خواطر كئيب"؛ ومقطوعة "لك الحياة"، وفيها 09 أبيات.

[2]– ينظر: الرسالة، بإمضاء: بوليو (Beaulieu)، رقم: 380، 1929/01/28، موضوعها: بخصوص المدعوّ زكري بن سليمان من تونس، 9h32، (CAOM)؛ والملحق601.

[3]– شعر الثورة عند مفدي زكرياء39.

فـــهـــذه مـــنـــظـــومـــة مـــخـــتـصرة　　بـــهـا [أخـــي الـــجـــغرافيـــا] منحصرة
فـــبـــأوروبـــا نـــبـــدأ الـــمـــقـــالا،　　[ثـــمّ لأخـــرى] نفـــسح الـــمجالا[1].

ارتباط أدبه بالعمل الوطنيّ المزابيّ:

لقد توقّفنا سابقا عند نصوصه الأولى شعرا ونثرا بشيء من التفصيل، لتوضيح انطلاقته في دنيا الأدب، وكانت قويّة، فاستطاع أن يتجاوز –على سبيل المثال– الصعوبات التي اعترضت سبيل قرضه للشعر، وكانت متعلّقة خاصّة بالقافية، ثمّ بالوزن، وجدير بنا في هذا المقام من البحث أن نتبيّن أهمّ مميّزات أدبه في هذه الفترة الأولى من حياته الأدبيّة:

إنّ أوّل ما يمكن أن يلاحظ على أدبه في هذه الفترة أنّه كان لا يخرج من إطار العمل الوطنيّ المزابيّ، بسبب من تنشئته الأولى بالبعثة العلميّة المزابيّة بتونس، فقد كان يتابع عن كثب أطوار نضال المزابيّين السياسيّ من أجل افتكاك اعتراف فرنسا بأنّ مزاب بلد حماية كتونس، وانتزاع دستور خاصّ به، وبلغ أوجه بعد انتهاء الحرب العالميّة الأولى، حين فرض الاستعمار الفرنسيّ على مزاب حصّة سنويّة من المجنّدين، كغيرها من مناطق شمال الجزائر، واستثناء في مناطق الجنوب، ثمّ اصطدم في نهاية المطاف بقرار مجلس الدولة، غير القابل للنقض، بتاريخ 1925/05/15[2]؛ فأثّرت في مفدي أطوار هذا النضال المختلفة، وانعكست في شعره ونثره على السواء، فكان مفهوم الوطن والجزائر منحصرا بالدرجة الأولى في مزاب:

يقول مفدي في مقطوعته الرمزيّة "لكِ الحياة":

الـــحبُّ أرّقـــني، واليـــأسُ أضناني،　　والبـــيْـــنُ ضـــاعفَ آلامي وأَحْزَاني
والرُّوحُ في حـــبِّ لَيْلاَيَ استحالَ إلى　　دمـــعٍ، فـــأَمطرَه شِعـــري ووُجْدَاني
أُســـاهرُ النّجمَ، والأكـــوانُ هامـــدةٌ　　تُـــصْغي أنـــيني، بأشـــواقٍ وتَحْـــنَانِ
كـــأنّمـــا وغُـــرابُ اللّيـــلِ مُـــنْحَدِرٌ　　روحي وقلبـــي بـــجنبَـــيْهِ جَـــنَاحَانِ
نَطْـــوِي معًا صهواتِ اللّيلِ في شَغَفٍ،　　ونَـــرْقُـــبُ الطّيـــفَ مـــن آنٍ إلى آنِ
رِفْـــقًا بلادي فـــأنتِ الكونُ أَجْمَعُهُ،　　لـــولاكِ كنتُ بلادي هالكًا فَانِي[3].

لا يمكن لقارئ هذه الأبيات إلاّ أن ينصرف ذهنه، استنادا إلى تاريخ مفدي الوطنيّ، إلى ما ذهب إليه محمد ناصر، حيث يقول: «وإذا غدت ليلى رمزا للمحبوبة عند الكثير من الشعراء العرب، منذ أن تولّه بها مجنون بني عامر عشقا، فإنّ (ليلى) زكرياء هي الجزائر، ونحسبه قد سبق كلّ الشعراء الجزائريّين إلى هذا الاستخدام الموحي

[1]– كراس رسم، غير مؤرّخ، من كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

[2]– ينظر: التمهيد، ص28–31.

[3]– أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى51.

الرامز، كما تدلّ على ذلك القصيدة التي نشرها في سنة 1926، وفي عمره ثماني عشرة سنة»[1]؛ غير أنّ الحقيقة غير ذلك، فـ(ليلى) زكرياء هي مزاب لا غير، إذ لم يكن مفدي في تلك الفترة المبكّرة من عمره يرى من نضال سياسيّ ووطنيّ سوى نضال المزابيّين والتونسيّين، فارتبط مفهوم الوطن والنضال الوطنيّ بمزاب؛ ذلك أنّنا عثرنا على المسوّدة الأولى لهذه المقطوعة[2]، فإذا عنوانها كالآتي: "مزاب وأنا: ليلى ومجنون[كذا]، نموت معا، أو نحيا معا"، وتتضمّن الأبيات الأربعة الأولى، وصدر البيت الخامس[3]، متمّما بما يلي:

أُسائِـلُ الكـونَ عن ليلى، فَيَنْسَاني.

ثمّ بصدري بيتين غير تامّين[4]، ثانيهما ورد على النحو الآتي: «وما فؤادي سوى "ميزاب"»، وتوقّف بعدها، فغابت بقية أبيات المقطوعة[5]، وفي ذلك دلالة واضحة على قصده إلى مزاب خاصّة.

ثمّ إنّ مفدي قد ذكر (الدستور) في خمسة نصوص شعريّة، بين سنتي 1924 و1925، ثمّ طوى الحديث عنه تماما بعد ذلك، ممّا يدلّ على ارتباطه بمساعي المزابيّين لدى مجلس الدولة الفرنسيّة في تلك الآونة، وانتهى إثر الحكم الذي أصدره في ماي 1925:

يقول في قصيدته "تحية الشبيبة لعظيم الشرق الزعيم الإسلاميّ الخطير الشيخ سليمان البارونيّ":

هـا (شبـابُ الغـدِ) يَـرْنُو لَهجَا ... بِـبَهـنـاءِ لـزعـيـمِ الزُّعَـمَـا

فَاقْـبَلـوهُ بـسـرورٍ مِـن شبابْ، ... هُـو روحُ الشّـعبِ، **دُستورُ** (مزَابْ)

كيـف لا؟ وهْـوَ مِنَ (البحرِ العُبابْ) ... يـرضَـعُ الـمجـدَ، ولنْ يَنْـفَطِمَا

ونلاحظ إضافته (الدستور) إلى (مزاب)؛ ثمّ حين ينتقل في ذات القصيدة إلى نشيد الشبيبة، يتحدّث على لسانها قائلا:

إنّـنا اليـومَ كأصحـابِ الرّقـيمْ، ... وهَـوَى (مِيـزَابَ) فـي القلبِ يَهيمْ

وغَـدًا نُـطعِـمُ مِـن نارِ الجحيمْ، ... أمّـة لَمْ تَـرْعَ فـيـنا الـذّمَـمَـا

في سبيلِ الـمجدِ والشّعبِ النّبـيلْ، ... في هوى (الدّستورِ) ذي الظّلِّ الظّليلْ[6].

وفي قصيدته "لوعة الحبيب: ذكرى عهد الوصال بين الجزائر وتونس"[7]، يُجري فيها حوارا بين حبيب هو

1- مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة31. وأرّخ لها محمد ناصر باعتبار صدورها في كتاب شعراء الجزائر في العصر الحاضر1: 152، 153، والحقّ أنّها أقدم من ذلك بسنتين على الأقلّ، فقد نشرها في مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـ، 1924/08/30م، ص22.

2- مكتوبة بخطّ مفدي، وبقلم رصاص.

3- مع اختلافات طفيفة: ورد عجز البيت الأوّل كالآتي: «والدهر ضاعف آلامي وأحزاني»، وعجز البيت الرابع: «قلبي وروحي بجنبيه جناحان»، بعد شطب لفظة (الحزين) بعد (قلبي).

4- الأوّل كتبه بعد معقوفين، أشبه ما يكون بتضمين، وهو كالآتي: «بالله يا نسمات الحبّ طرن إلى [كذا]».

5- ينظر: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، غير مؤرّخة، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

6- مجلّة "الوفاق"، مج 02، ج20، 1342/12/09هـ، 1924/07/10م.

7- يقول في تقديمها: «الجزائر جزء لا يتجزّأ من تونس، وهذه جزء لا يتجزّأ من تلك، لذلك وجب على كلّ مخلص صادق الوطنيّة أن يسعى في

الجزائر، وحبيبته ليلى، ويعني بها: تونس[1]، يقول في ختامها على لسان تونس:

(حــراسًا علـــى استقلالِنا في بلادنا)، علـــى ذمّـــة القهّـــار نبـــدي المساعيا
ألا في هوى (الدستور) هانتْ نفوسُنا، ومَـــنْ عَشِـــقَ العَلْيَا تَسامَى العَوالِيا[2].

وما كان موضوع الاستقلال والدستور مطروحا آنذاك بالنسبة للجزائر. ثمّ أتى على ذكر (الدستور) في قصيدتيه: "تحية الشّبيبة لأمير المؤمنين محمد بن عبد اللّه الخليليّ"[3]، و"إلى الريفيّين"[4].

وبعد صدور حكم مجلس الدولة في 1925/05/15، أنشأ –في تقديرنا– قصيدته "خواطر كئيب"، وهي إحدى أحسن قصائد هذه الفترة، افتتحها بقوله:

هو الدّهرُ في قـوسِ الطّوارقِ ما أبقى، فللّهِ ما لَـقِيــتُ فـيــه ومــا أَلْقَى
وتـــلك عهـــودٌ ما ألـــذَّ كـــؤوسَها، لـــوَ انَّ بريـــقَ السّعدِ كان بها صدْقَا
(رعـــى اللّـــهُ أيّـــامًا لنـــا ولياليًا)، أبـــى اللّه إلاّ أنْ تُـــعَدَّ معَ (العَـــنْقَا)
أُوَيْـــقـــاتُ عِـــزٍّ كمْ خَـــلعنَ مطارفًا علـــيـــنا سنـــيّـــاتٍ مفـــوّفـــةً بَلْقَا
عـــهـــودٌ رَشَـــفـــنَا مِن سُلافةِ ثغرِها نَمـــيـــرَ مـــعاليـــنا، فتـــيَّمْنَنَا عشْقَا
وعـــصْـــرٌ تَـــقَضَّى، فاستهلّتْ عيونُنا بِمُخْضَلِّ دمعٍ، ظلَّ مسترسِلاً طَلْقَا[5].

بدأها بفاجعة ألّمت به في البيت الأوّل، واستفاض في الأبيات الموالية في الحديث عن عهد جميل تقضّى إلى غير رجعة، وكان حديثه فيه بصيغة الجمع، وختمه بحديثه عن أثر انقضائه في نفسه، إذ آلمه وأبكاه بكاء متّصلا؛ والملاحظ هو عدم تعيين الفاجعة ولا هذا العهد الجميل، وبعد ذلك يلوذ بشعره، ففيه السلوى، إذ لا يجدها في دمعه إلاّ إذا صاغه شعرا، ويستطرد في بيان –ولأوّل مرّة في حياته الشعرية– رؤيته الخاصّة للشعر، فيقول:

ومـــا الدّمعُ بالسّلـــوى إذا هُوَ لم يكنْ ترقـــرقَ فـــي شـــعـــرٍ تُغرّدُهُ الوَرْقَا
هوَ الشّعرُ، أســـرارُ القلوبِ تقمّصتْ لديه، فـــأولاها الصّـــراحـــةَ والنُّطْقَا
هوَ الشّعرُ، آياتُ النّـــبـــوغِ تَفجّرتْ بِكاساتِـــه البَيْـــضَا، فَـــنـــاوَلَها الخَلْقَا

ربط أواصر الوداد بين القطرين، فلا يمكن حياة للجسم إلاّ بالروح»

[1]– ويبدو أنّ حديث الحبّ بين الحبيب ومحبوبته قد جرفه، وأنساه ما يرمزان إليه، فكانت قصيدة غزلية أكثر فيها من التضمين، فأفرط.

[2]– مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـــ، 1924/08/30م، ص29.

[3]– نظمها في أواخر أفريل 1925، يقول فيها واصفا الإمام: (أمجادنا تتكلّم ..وقصائد أخرى37)

هو الـــمجدُ والدّســـتورُ والعـــزُّ والعُلا، ولَـــيْـــثٌ إذا حـــانَ الـــدّفـــاعُ يَجُولُ

[4]– نشرها في جريدة "لسان الشعب"، بتاريخ 1925/05/06، يقول فيها:

وبـــيـــن البـــلادِ ودُســـتـــورِهـــا ضـــحـــايا نـــفـــوسٍ، وسِـــجْنُ أُسَرْ

نفسه24.

[5]– نفسه58.

هوَ الشّعرُ، أنّاتُ القــلــوبِ تردّدتْ بِــمِــزْهَــرِهِ الصَّدّاحِ تخترقُ الأُفْقَا
هو الشّعرُ للإحساسِ أهدى مِنَ القَطا، وأبصرُ في بحرِ العــواطــفِ مِنْ (زَرْقَا)
(أرى الشّعرَ بعد الوحيِ أكرمَ هابطٍ) مِنَ الملإِ الأعلى، لِيــرْشِدَنا الطُّرْقَا[1].

ثمّ ينتقل إلى الحديث عن تجربته الشعرية، ويشير في ثنايا ذلك إلى اتّجاهه الوطنيّ، ومنه نضاله في سبيل الدستور، فيقول:

وَلَجْتُ خِضــمَّ الشّــعرِ أسبحُ يافعًا، وسُقــتُ سفيــنــي فوق لُجَّتِه سَوْقَا
تَخذْتُ عــصــاهُ للطّــوارقِ عُــدّةً، فكانتْ (عَصَا مُوسَى) يصونُ بها الحَقَّا
تَظَلُّ قَــوافــيــهِ تــلــوذُ بُمهــجتي نَشاوى، فأَجْلــوها، وأُرْســلُها وَدْقَا
أَلَذُّ مِنَ السّلوى، وأصفى مِنَ الحَــيَا، وألطــفُ مِــنْ رَيَّــا النّســيمِ إذا رَقَّا
وقفتُ بــهِ فــي أيكةِ الشّرقِ صادحًا إلى غايــة (الدّستور) أَحدو بِهِ الشَّرْقَا
وليس عجــيــبًا أنْ أكونَ (عَــرَابَةً)، ولي نــفْسُ حُــرٍّ طالتِ القبّــةَ الزَّرْقَا
وما الــمرءُ إلاّ عــقلُــهُ ولســانُــهُ، وهِــمّــتُهُ القَعْسَا، وجوهرُهُ الأنقى[2]

ثمّ يتوجّه بالخطاب إلى بلاده، منتقدا وضعها الراهن، فيقول:

بــلادي بــلادي -والنــوائبُ جمّةٌ- أما آن أن نعــتاض عــن ذلّــنا عتِقا؟
كفى ما جرى، هل في الحوادث عِبرة؟ وهل حرّكت تلك الخطوب لنا عرقا؟
[...] فلا نَــعِمــت عيــنٌ تنــام، وحولها منــاطيد تعلو الجوّ، تــخرقه خــرقا
ولا سَــعِدت نفسٌ تبــيت هنــيئة، وقــوّاتُ هذا العصــر تسحقها سحقا
[...] وإنّ بــلادا لــم تُــعَزِّزْ تــراثَــهــا بــعلم وأخــلاق هــي الأمّةُ الحمقا
وما المجد إلاّ العلــم، والنفس، والحجا، وصَمْصامُك البتّار، والدين، والخُلْقا[3].

ويستنهض -في الختام- همم بني وطنه، للنضال من أجل بلوغ غاية الدستور قائلا:

بنــي وطنــي هُــبُّوا إلى الغــايةِ التي أراكم لــها -واللّه- دون الورى وَفْقَا
ورَوُّوا بــعــلمٍ جنّــةً أنــجبَــتْكُمُ رجــالاً، فقد شامــتْ بِمُزْنَتِكمْ بَرْقَا
وأَحْيُوا أمــانِي أمّــتــين لديــهمــا عهودٌ عــذابٌ في الــهوى كانتَا رَتْقَا
ولا تُنكروا عــهــدَ الجدودِ إلــيْكُمُ، فقد خــابَ شعبٌ مجْدَ أسلافِهِ عَقَّا[4]

---

[1]- السابق58، 59.

[2]- نفسه59، 60.

[3]- هذه الأبيات انفردت بها مجلّة "الوفاق"، مج03، ج34، [1344/03/12هــ]، 1925/10/01م، ص17، 18.

[4]- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى60.

ســـراعا إلـــى العليـــا بنفس طموحة، تبلّـــغـــنا دســـتورنـــا الماجـــد الحقّا

ليـــحيا بنـــا الإســـلام شهما ممجّدا شريفـــا عزيزا، لا يضلّ ولا يشقى[1].

إنّ هذه القصيدة لم تؤرّخ، والبناء الخاصّ لها يحدّد تاريخها -في نظرنا- بماي 1925، في أعقاب حدثين هامين:

الأوّل: على مستواه الشخصيّ، تمثّل في إحرازه على أولى نجاحاته الأدبيّة، ومنه إنجازه الشعريّ الكبير مقارنة بسنّه في قصيدته "إلى الريفيّين"، والتي نشرها يوم 05/06 في "لسان الشعب"، كلّ ذلك أشعره بنشوة عظمى، أقنعته بكونه خلق للشعر، وفي ذلك يقول يوم 05/10: «إنّي مغرم شيّق صبّ لشيء واحد، وأراه أعظم حياة، وأسعد مستقبل، ألا وهو الشعر، وما يتعلّق به من السحر، فيا ما ألذّ كؤوسه ويا ما أميلح آياته، فأرجوكم إمدادي فيه بيد المعونة، وذلك باقتراح مواضيع عليّ، وإجراء مسابقات، وإرسال بعض قصائد سحرية تنشر للشعراء هنالكم، أطّلع عليها، وأكرع من سلسال ينابيعها، فإنّي وَلِهٌ ظمآن، أوّاه من لي بالشعر، حياة النفوس، ونجوى الضمير، وروح الوجدان»[2].

الثاني: على مستوى وطنه مزاب، تمثّل في حكم مجلس الدولة يوم 05/15، فكان الصاخّة والحاقّة والطامّة على حدّ تعبير الشيخ أبي اليقظان[3]، ذلك أنّ المزابيّين ناضلوا نضالا مستميتا في سبيل استرجاع حقوقهم، وكان السبيل الذي لا يملكون غيره، وعلّقوا آمالا عريضة في الحكم الذي سيصدره المجلس ليقينهم بأنّ الحقّ في صفّهم، فكان الحكم غير القابل للنقض مخيّبا لآمالهم، إذ انتهى بهم إلى طريق مسدود، ومنه الشعور العميق باليأس، «ولا تسأل عن التأثير العميق الحاصل لنا وللأولاد ولإخواننا هنا، حتّى أصبحنا -طبعا- في مآتم، وصاروا يتوافدون لتعزيتنا، وما أجدرها بهذا الأمر»[4].

ولدت القصيدة في هذا الظرف النفسيّ، فاختفى فيها الانفعال الشديد بالغضب المحتمل في مثل هذا الموقف من شاعر في مثل ثورية مفدي، وعوّضته حالة من الشجن من أثر الفاجعة التي أجهضت الحلم، وزرعت اليأس، اقترن بنشوة تحقيق ذاته شاعرا، فكانت حديثا عن العهد الجميل عهد الآمال العريضة في تحقيق الاستقلال والدستور، ممّا أكسب القصيدة جوّا حالما شفّافا في قسمها الأوّل، ألقى بظلاله على خطابه لبلاده ولبني وطنه في القسم الثاني، فخفتت لهجة الخطاب؛ وكان عنوان القصيدة "خواطر كئيب" بعد كلّ هذا مصداقا لمحتواها. غير أنّ خطابه لبني وطنه يشفّ عن أمل ضئيل ما زال يراوده مستقبلا، ربّما من رفع القضية إلى جمعية الأمم[5]، أو بسبب من طبيعة الشاعر المتفائلة، وغير القابلة للاستسلام.

1- مجلّة "الوفاق"، مج03، ج34، ص 18.

2- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ أبي إسحاق اطفيش، [1343/10/17هـ]، 1925/05/10م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- ينظر: رسالة الشيخ أبي اليقظان إلى الشيخ الثمينيّ، 1925/05/22، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

4- نفسه.

5- ينظر: التمهيد، ص19.

وفي هذه الأجواء أنشأ مقطوعة صغيرة، ذيّل بها خريطة "المملكة الميزابيّة العليّة" كما أسماها، يقول فيها:

[ميزابُ يا][1] بلادي وتُربتي الزكيّهْ
لا ينقضي جهادي أو أبلغ المنيّهْ
حبّك في فؤادي عروته قويّهْ
يا روضة الأجداد والجنّة الأرضيّهْ[2].

ولا أدلّ على اضمحلال هذا الأمل لدى مفدي زكرياء من عنواني مقال وبحث عالج فيهما هذه القضية: المقال نشره قبل صدور الحكم فكان عنوانه "مزاب إزاء ملحمة التجنيد الخطيرة"[3]، وأصدر البحث بعد صدور الحكم، في ثلاث حلقات، فكان عنوانه "ميزاب الشهيد"[4]؛ وعندما أرسل نصّيه "لك الحياة"، و"خواطر كئيب"، إلى محمد الهادي السنوسيّ الزاهريّ لينشرهما في كتابه "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"، عدّل في الأوّل بما ينطبق مع الوطن الكبير الجزائر؛ وحذف -فيما يبدو- البيتين الأخيرين من الثاني، لتضمّنهما دعوة صريحة لبني وطنه الصغير مزاب إلى العمل على بلوغ غاية الدستور، فكانا آخر مرّة تناول فيهما الاستقلال والدستور، لأنّ هذه القضية كان قد طواها نهائيّا آنذاك حكم مجلس الدولة بباريس.

ولعلّ فيما ما سبق ما يكشف عن سبب آخر عميق لانحسار إنتاج مفدي زكرياء الأدبيّ بعد عودته من تونس، يتمثّل في تحطّم أمله، وانسداد الأفق أمام طموحه في الحياة، في أن يرى وطنه الصغير مزاب، أو وطنه الكبير الجزائر، أو وطنه الأكبر المغرب العربي، يسير بخطى ثابتة نحو تحقيق نهضته وتخلّصه من ربقة الجهل والتخلّف، بما يكفل الانعتاق من نير الاستعمار، ففقدت حياته هذا المعنى الجوهريّ الذي غرسه فيها شيوخ البعثة، وأكّده في نفسه أطوار النضال التونسيّ والمزابيّ، فعندما انتهى إلى طريق مسدود، كان الإحباط واليأس، بما يرافقه من حزن؛ والحقّ أنّ وقائع أخرى من حياته الشخصية عمّقت في نفسه هذه المشاعر[5]، فانطبع إنتاجه بعد عودته من تونس بطابع الحزن والتشاؤم[6]، ولا أدلّ على ذلك من كتابته

1- في الأصل: «أميزاب».

2- هديّة العدد الممتاز، مجلّة "الوفاق"، مج03، ج30، 1344/01/01هـ، [1925/07/22م].

3- ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20، 1342/12/09هـ، 1924/07/10م.

4- ينظر: مجلّة "الوفاق": الحلقة الأولى في مج03، ج32، [11 محرّم 1344هـ]، 1925/08/01م، ص28-32؛ والثانية في مج03، ج33، 1925/09/01م، [1344/02/12هـ]، ص11-14؛ والثالثة في مج03، ج34، [1344/03/12هـ]، 1925/10/01م، ص19-23.

5- من مثل: معاقبة شيخه الثمينيّ له إثر وشاية كاذبة، ورفض مقدّمته على كتاب رمضان حمود "وحي الضمير"، وتوتّر علاقته بشيخه الثمينيّ، وعدم استقراره في حياته العملية ...إلخ.

6- وقد سبق في رسالة له إلى شيخه الثمينيّ، أن وصف مجتمعه بمزاب أنّه وسط «ميّت قاتل»؛ ينظر: ص407.

خمسة نصوص بين رثاء وتأبين[1]، ممّا يدلّ على أنّ موضوعات الحزن كانت تلقى عنده استجابة أكثر من غيرها، لتوافقها مع حالته النفسيّة، فلا عجب أن نجد طابع الحزن واليأس يطغى على عدد من عناوين نصوصه، والعنوان شاهد على المحتوى، فنقرأ من غير عناوين النصوص السابقة: "دموع وآلام وخواطر"، و"مصرع الفضيلة"، و"جزائر ما أشقاك بالجهل"، و"خفقة فؤاد: زهرات ضائعات في صفحات ضائعات"[2]؛ وإذا استثنيا النصوص التي أنشأها قياما بواجب معيّن: كنقده كتاب عثمان الكعّاك في "نظرة في كتاب تاريخ العرب بالجزائر"، والتهنئة بصدور جريدة "وادي ميزاب" في "كلمتي في وادي ميزاب"، والردّ على مامي إسماعيل دفاعا عن شيخه أبي اليقظان في "حول أسطورة بوليس الصحفيّين"؛ والنصوص التي نشرها بعد عودته من تونس، وهي من القديم المعاد[3]؛ لا نجد سوى أربعة نصوص تحمل طابع الابتهاج والفرح، وهي: "الله راض" في1930/07/29، و"مهرجان الزعيم الخطير" في 1930/09/09؛ و"الاحتفال العظيم بمدرسة الإخاء ببسكرة" في 1931/11/24، و"قف حيّ العروبة ببسكرة" في 1931/12/01؛ وتباعد هذه النصوص خير دليل على ظرفية هذه المشاعر، فالقصيدة الأولى كانت احتفاء بصدور جريدة "المغرب" بعد طول انتظار لها هو ورفاقه، وبعد مدّة من تعطيل "وادي ميزاب"، ووأد جريدة "ميزاب" في مهدها؛ والثانية كانت احتفالا بزيارة شيخه أبي إسحاق للجزائر ومزاب بعد فراق دام سبع سنوات ونيّف، منذ إبعاده عن تونس في أوائل سنة 1923؛ أمّا المقال والقصيدة حول مدرسة الإخاء فكانا تمجيدا لمشروع هذه المدرسة بين المزابيّين والبسكريّين الذي يجسّد الأخوّة بين المسلمين إباضية ومالكية في الجزائر[4]، بعد أن كاد يعصف بها التعصّب المذهبيّ في أعقاب قضية الأذان بغرداية[5].

---

[1]- هي: "إنّما الميت من يرى شرف الأمّة هبا ولا يزال خمولا"، و"يا رحمة الله حلّي في منازلنا"، و"الله أكبر: مات رمضان حمود"، و"رمضان حمود حياة الرجل الراحل"، وقصيدته المفقودة في ناصر الدين ديني.

[2]- ونجد ذلك حتّى في بعض العناوين التي أنشأها بتونس بعد صدور حكم مجلس الدولة، مثل: "خواطر كئيب"، و"ميزاب الشهيد"، و"شكاة إلى الربّ تعالى"، وقد تأكّد عندنا تأليفها بعد 15 ماي 1925.

[3]- نعني بها: "لك الحياة"، و"ألا في سبيل المجد"، و"خواطر كئيب"، و"مناجاة زهرة في أحد بساتين مزاب"، و"ته يا عمان بنصر الله".

[4]- وهو ثاني مشروع من هذا النوع، بعد مشروع المدرسة الصدّيقيّة بتبسة سنة 1913، الذي أجهضته السلطات الاستعماريّة؛ ينظر: أعلام الإصلاح في الجزائر145.

[5]- منع المزابيون بغرداية فرقة المذابيح -وهم على المذهب المالكي- من الأذان في مسجدهم، استنادا إلى نظام محلّي قديم، وهو أن لا يرفع بمدينة غرداية سوى أذان واحد، هو أذان مسجد الإباضية بغرداية؛ ظهر هذا النزاع في أوائل شهر ماي 1930، وعرض على الإدارة الاستعماريّة بغرداية، فأصدرت قرارا في 1930/06/23، يقضي بإبقاء الوضع على ما كان عليه سابقا في مدينة غرداية، وإن أراد المذابيح بناء مسجد بصومعة يرفعون منها الأذان، فلهم ذلك خارج مدينة غرداية؛ ينظر: تقرير عن الوضعية السياسية والإدارية للأهالي بالجزائر إلى 31 جانفي 1931 (Rapport sur la situation politique et administrative des indigènes de l'Algérie au 31 janvier 1931)، مديرية القضايا الأهليّة (Direction des affaires indigènes)، 11h48، (CAOM)، ص47-50. تجاوز النزاع نطاقه المحلّي بعد هذا القرار، عندما رأى المذابيح فيه تعصّبا للإباضية ضدّ المالكية، فاستعانوا على دفعه -لكونهم أقلّيّة في غرداية- بالمالكية خارج مدينة غرداية؛ ينظر: بين المسلمين في غرداية، ملخّص رسالة جماعة من المالكية

قضية الأذان هذه بغرداية كانت سببا في حديث مفدي لأوّل مرّة عن الجزائر، وهو يعني بها الجزائر لا مزاب، في قصيدته "جزائر ما أشقاك بالجهل"، افتتحها بحديث عن وضع وطنه الجزائر، يرشح بتشاؤم شديد يتجاوز مجرّد تأثّره بهذه القضية، فقد كانت في أوّلها، و لم تتفاقم بعد، وذلك إذ يقول:

هـــو الدّهرُ مـــا أبقـــى بـــمقـــلته دمْعَا، وتلك اللّيـــالـــي الســـودُ جرَّعْنَهُ النَّزْعَا
فأصبـــحَ يـــبكـــي صامـــتًا بـــقريـــحة تجـــمَّعتِ البلـــوى على وَأْدِهـــا جَمْـــعَا
كئـــيـــبٌ ينـــاغي كلَّ نِضْـــوٍ مُـــعذّبٍ بـــمُهجته الـــحَرَّى عـــلى وطـــنٍ يُنْعَى
[...] فيـــرسلُ فـــي هـــذا الفـــضـــاءِ بأنَّـــةٍ منَ الشِّعـــرِ في الظّلمـــاءِ تخـــترقُ السَّبْعَا
وما كـــانَ غيرُ الشّعـــرِ سَـــلْوى لبائسٍ يخاطبُ مـــوتى، لا تُـــطيقُ لـــهُ رَجْـــعَا
وما كـــانَ غيرُ الشّعـــرِ ســـيفًا لعـــاجزٍ، على ظُلماتِ الـــهُون يصدعُها صَدْعَا[1].

وفي ختام القصيدة عرّج على هذه القضيّة، داعيا إلى الوحدة، والترفّع إلى ما يخدم الوطن وبنيه، فقال:

بـــنـــي وطنـــي إنْ فـــرّقَتكمْ مـــذاهبٌ ففي الـــجرحِ إخـــوانٌ، وفي الماءِ والمَرْعَى
إذا مـــا غـــدَوْنا نـــعبـــدُ اللّهَ واحـــدًا، عَلامَ اقتسَمْـــنا في الطّريقِ لهُ تِسْـــعَـــا؟
[...] بـــنـــي وطنـــي، ما الوقتُ وقتُ تنازعٍ، بـــأيِّ أذانٍ للإلـــهِ بـــهِ نَـــسْـــعَـــى
فكونـــوا يـــدًا، وابْـــنوا المدارسَ، واقْتدُوا بـــقـــومٍ إلى أوطانِـــهمْ أحـــسنُوا صُنْعَا
وصُونـــوا مِـــنَ الويـــلاتِ شعبًا مُنَكَّدًا، وكونوا له التّـــرسَ الـــمدافـــعَ، والدِّرْعَا
فلِلـــوطنِ الـــمحبوبِ مَـــنْ كانَ عاملاً، وبالصّدقِ والإخلاصِ مَنْ يملأُ الرَّوْعَا[2].

إذا استبعدنا من إنتاج مفدي في هذه الفترة تشطير أبيات شعراء آخرين[3]، أو ما كان من مقالاته يحمل

بغرداية، جريدة "الشهاب"، س06، ع05، غرّة محرّم 1349هـ، جوان 1930م، ص327. اتّخذ النزاع بعد ذلك بعدا وطنيّا، عندما تناولته الصحافة العربية والفرنسية بالجزائر، وعلى رأسها جريدة "البلاغ"، فوقف في مواجهتها الشيخ أبو اليقظان في جريدته "المغرب"؛ ينظر على سبيل المثال: "الطائفة الإباضية تحارب الأمّة الجزائريّة في شخص البلاغ"، و"نحن وأصحاب جريدة المغرب"، جريدة "البلاغ"، س04، ع182، 1349/05/03هـ، 1930/09/26م، أرشيف آل عيسات ببني يزقن، ص01، 02؛ و"بطشة الحقّ الكبرى"، جريدة "المغرب"، س01، ع16، و17، و18، 21 و04/28، و1349/05/07هـ، 16 و23 و1930/09/30م، مكتبة الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو ببني يزقن، ص01، 02. احتدم الصراع بين الجريدتين خاصّة في شهر سبتمبر، فتجاوز المسألة إلى تأجيج نيران العصبيّة المذهبيّة؛ ثمّ عقد صلح بين الجريدتين، على يد أحمد توفيق المدنيّ، نجد نصّه في العدد 18 من جريدة "المغرب"، بعنوان "حسم النزاع بين صحيفتين البلاغ والمغرب"، ص03؛ ثمّ تبعه صلح ثان على يد أحمد توفيق المدنيّ لسحب الدعوى القضائية لأعيان من غرداية ضدّ جريدة "البلاغ"؛ ينظر إشارة إلى هذا الصلح: رفع إيهام، جريدة "المغرب"، س01، ع26، 1349/07/04هـ، 1930/11/25م، ص01.

1- جريدة "المغرب"، س01، ع08، 1349/02/18هـ، 1930/07/15م، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى81.

2- نفسه؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى84.

3- نعني به المقطوعات الآتية: "من لم يصلّ عليكم لا صلاة له"، و"الحكماء"، و"الدهر أدّبني".

طابعا عامّا[1] أو علميّا[2]، وجدنا بعد ذلك 05 نصوص تحمل موضوعات شخصيّة، وهي: ثلاث قصائد: "في تقريظ كتاب عبد الواحد"، و"بدر النجاح"، و"شكاة إلى الربّ تعالى"؛ ومقطوعة "تهنئة بمولود"؛ ومقال "نقد على نقد"؛ ثمّ نجد 11 نصّا شعريّا لا ترتبط بمناسبة خاصّة واضحة، وهي: ستّ قصائد: "تنبيه النيام من بني الإسلام"، و"بني وطني"، و"عيد سعيد"، و"ألا في سبيل المجد"، و"دموع وخواطر وآلام"، و"خفقة فؤاد"؛ و05 مقطوعات: "الحرية والاستقلال"، و"إنّما الشنق رقيّ بالحبال"، و"أريكة البلابل"، و"أساس السعود"، و"ته جلالا أيّها الكوكب".

أمّا النصوص المرتبطة باهتمامات مزابيّة صميمة فعددها 27 نصّا: منها ما كان موضوعها مزاب، وهي مقالان: "مزاب إزاء ملحمة التجنيد الإجباريّ"، و"مناجاة زهرة في أحد بساتين مزاب"؛ وبحث: "ميزاب الشهيد"؛ ومقطوعتان: "ميزاب بلادي"، و"لكِ الحياة"؛ وقصّة: "الفداء". ومنها ما تعلّق بشخصيات مزابيّة وبنشاطاتها، وفي مقدّمتهم مشايخ البعثة: أبو اليقظان في ثلاثة قصائد: "تقريظ ديوان أبي اليقظان"، و"مصرع الفضيلة"، و"الله راض"؛ ومقالين: "كلمتي في وادي ميزاب"، و"حول أسطورة بوليس الصحفيّين". ويليه الشيخ أبو إسحاق في ثلاث قصائد: "المنهاج: دمعة وابتسامة وكلمة حقّ"، و"موشّح مفدي"، و"مهرجان الزعيم الخطير". ثمّ الشيخ الثمينيّ في مقال واحد "شاعر خفيّ". ويليهم شخصيات مزابية مصلحة في ثلاث قصائد: "نحن تاج المستقبل الإسلامي"، و"إنّما الميت من يرى شرف الأمّة نهبا ولا يزال خمولا"، و"يا رحمة الله حلّي في منازلنا"؛ ومقالان: "الله أكبر، مات رمضان حمود"، و"رمضان حمود: حياة الرجل الراحل". وفي الختام اهتمامات مزابية أعمّ تتعلّق بالشيخ سليمان البارونيّ الإباضيّ، بطل الجهاد الليبيّ، في قصيدتين: "تحية للشيخ سليمان البارونيّ"، و"تحية عظيم العظماء"؛ وبعمان الإماميّة في محاولتها بناء دولة عصرية قويّة وفق النظرية الإباضية في الحكم، في ثلاث قصائد: "تحية إمام المسلمين"، و"تحية البعثة المزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل"، و"ته يا عمان بنصر الله"؛ وبتاريخ الدولة الرستميّة في قصيدة: "مناجاة تيهرت"، ومقال: "نظرة في كتاب تاريخ العرب بالجزائر"[3].

وعليه فإنّ أدب مفدي زكرياء في هذه المرحلة الأولى من حياته الأدبيّة كان مغروسا في التربة التي أنبتته، في وطنه الصغير مزاب، فلا عجب أن يقول عنه عقودا بعد ذلك في إلياذته:

ويــحفــظُ ميــزابُ لــوحَ الــجلالِ، فيصــبحُ ميــزابُ في اللّــوحِ حَــرْفًا[4].

---

[1]- نعني بها مقالاته: "الإسلام"، و"كونوا سعداء"، و"قلب الشاعر"، و"ألا أيّها البدويّون"، و"الاتّحاد وأفكار الناس"، و"الإخلاص والصراحة"، و"تسلية الأمير ابن عبّاد"؛ وبحثه "ما هي الوسيلة لبثّ التربية بين البنات والبنين؟".

[2]- نعني به مقالين هما: "عوامل الحرارة داخل الأرض"، و"النور والعدسيات والكهرباء والمغناطيسيّة"؛ وبحث "السمّ الكحوليّ".

[3]- أمّا النصوص المتبقيّة، وهي خمس قصائد: "لوعة الحبيب: ذكرى عهد الوصال بين تونس والجزائر"، و"إلى الريفيّين"، و"خواطر كئيب"، و"جزائر ما أشقاك بالجهل"، و"قف للعروبة حيّها ببسكرة"؛ ومقال واحد: "الاحتفال العظيم بمدرسة الإخاء ببسكرة"، فعلاقتها بمزاب وقضاياه وإن وجدت على ما سبق بيانه، أو الإشارة إليه، على تفاوت في الدرجة، فإنّ هذه العلاقة لم تكن واضحة وضوحها في غيرها.

[4]- إلياذة الجزائر32.

توجّهه الإسلاميّ والوطنيّ:

إنّ التكوين الذي تلقّاه مفدي وزملاؤه، بداية من مدرسة السلام، وفي البعثة العلميّة المزابية بتونس، كان عربيّا إسلاميّا، وعلى خلفية سياسيّة وطنيّة[1]، وإصلاحيّة[2]، ممّا حدّد منطلقه وتوجّهه الفكريّ، فكان إسلاميّا وطنيّا، منذ تلك الفترة المبكّرة من حياته:

إنّ الإسلام كمنطلق وتوجّه فكريّ عند مفدي أوضح من أن يحتاج إلى دليل، فعناوين نصوصه -على سبيل المثال- خير شاهد عليه، فأوّل مقال عثرنا عليه، ويرجع إلى سنة 1921، كان بعنوان "الإسلام"، كما نجد قصيدة نظمها على لسان الإسلام، وهي "ألا في سبيل المجد: الإسلام يتكلّم"، وكانت ممّا انتخبه الشاعر لكتاب "شعراء الجزائر في العصر الحاضر"؛ أمّا الانتماء العربيّ فكان انتماء ثقافيّا عنده وثيق الصلة بالدّين، و لم يكن عرقيّا ولا قوميّا، فعند توظيفه للفظ "الشرق" كان يقصد به بلاد الإسلام لا غير، فهو يخاطب قومه في قصيدته "تنبيه النيام من بني الإسلام" قائلا:

إلام بنـــي الإســـلام نـــبـــقى أذلّة، إلام، ألا والله قـــد ســـاءنـــي الأمـــر
حـــرام حرام يا بني الشرق أن نُـــرى عبـــيد العدا، عـــار على مـــن له فكر
أتـــرضون أن نبقى أســـارى، وما لنا إذا افـــتخروا يوما ســـوى جهلنا فخر
فليس لنـــا عـــلم، وليـــس تـــمدّن، فـــوا أســـفا من أيـــن يأتيـــنا الظفْر
أترضـــون هـــذا يا لقـــومي، وكنتم بأسمى مقام، كان يـــحسده البدر[3].

لقد جعل "بني الإسلام" مرادفا لـــ"بني الشرق"؛ ثمّ إنّه وضّح قصده من "الشرق"، في مدحه للشيخ سليمان باشا البارونيّ، فقال:

والشّـــرقُ أضحى فيـــكَ صبًّا هائمًا مِن (فَاسِه)، (فَلِصِينِه)، (كعُمَانِـــهْ)[4].

---

[1]- فمدير المدرسة الشاذلي المورالي كان عضوا في الحزب الحرّ الدستوريّ التونسيّ، وكان صاحب جريدة "المنير" الوطنية، ولا أدلّ على ذلك من توظيف قصيدة شاعر النيل في رثاء محمد فريد بك، وقد سبقت، في تعليم الخطّ، وإجراء تطبيقات نحوية عليها، وربّما أدرجت في برنامج محفوظات التلميذ؛ ينظر: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، لسنة 1338هـــ، أرشيفه الخاصّ بمكتبته. وقد سبق بيان دور البعثة المزابية بتونس في الحركة السياسية في تونس، وعن علاقة رؤسائها وعمّ مفدي الشيخ صالح بن يحي بالحزب الحرّ الدستوريّ، وبزعميه الشيخ الثعالبيّ.

[2]- وعلى مستوى الأمّة المزابيّة، كانت البعثة المزابيّة بتونس مركزا للإصلاح، ولا أدلّ على ذلك من المعركة التي خاضها رؤساء البعثة ضدّ الشيخ الحاج صالح لعلي ومن والاه، فقد كانت معركة بين مصلحين ومحافظين، وقد سبق تفصيلها؛ ينظر: الباب الأوّل، البعثة والصراع بين المصلحين والمحافظين، ص80-90.

[3]- القصيدة، أرشيف الشيخ الثميني بتونس.

[4]- تحية الشبيبة الميزابيّة لسفارة الشيخ سليمان باشا البارونيّ، وثيقة من صفحتين، أرشيف مفدي زكرياء الخاصّ بمكتبته؛ وينظر: "تحيّة عظيم العظماء الشيخ سليمان باشا البارونيّ"، جريدة "الوفاق"، مج03، ج30، 1344/01/01هـــ، [1925/07/22م]، ص51،52.

فإذا هو يعني عنده الانتماء إلى العالم الإسلاميّ؛ إلاّ أنّ هذا الشعور بالانتماء اختفى تماما بعد الإحباط الذي أصابه في أعقاب حكم مجلس الدولة بباريس، وانسداد أفق آماله، فضاقت نظرته، وانكفأت على وطنه المهزوم، فبعد استعماله لفظة "الشرق" في ثمانية نصوص شعرية على الأقلّ[1]، وظّفه في قصيدته "خواطر كئيب"، فقال:

وقــفتُ بــهِ فـــي أيكةِ الشّرقِ صادحًا إلى غاية (الدّستورِ) أحدو بِهِ الشَّرْقَــا[2].

ثمّ لم يستعمله إلاّ في قصيدته "مهرجان الزعيم الخطير"، بعد خمس سنوات كاملة، وقد لاحظنا -آنفا- عودة الابتهاج فيها إلى قلبه، ولا أدلّ على الحالة النفسيّة الخاصّة التي استقبل بها الشيخ أبا إسحاق اطفيش من قوله:

أيُّــهـــاذا الزّعـــيمُ، وقــفــةَ إجْـــلاَ ل، أُحَـــيِّـــيكَ خـــاشـــعًـــا باتِّـــئَادِ

لســتُ أَقْـضِي عليَّ مِـنك حُقوقًا بِــقَـــــوافٍ ألـــيـــفـــةٍ لِلْـــمِـــدَادِ

فلَــئِنْ كنتُ في الــمواقفِ أبــكي، أَقِــفُ اليومَ مــوقفَ الإِنْــشَادِ[3].

غير أنّ هذا الابتهاج كان ظرفيّا، ومقترنا بزيارة الزعيم لوطنه بعد طول غياب، بينما بقي الشاعر على تشاؤمه الذي كان عليه في قصائده السابقة، فيما يتعلّق بوضع وطنه، فحينما وظّف لفظة "الشرق" في معرض مقارنة وضع وطنه بسميّه في مصر، بما يسبّبه له من حرقة، قال:

أيُّـــهاذا الزّعـــيمُ، باللّهِ نَاجيـــ ـــنَا، فللشّرقِ حُـــرْقَةٌ بفؤَادي

كيف خلَّفْـــتَ ثَمَّ أرضَ (فَتَاحٍ) تَزْدَهِي بالعلـــومِ والإِقْـــتِصَادِ؟

هلْ هُمُ أدركـــوا الــحياةَ بنومٍ وافتـــراقٍ، أم حلَّقـــوا باتِّحَادِ؟

أَسْمِـــعِ الشّعـــبَ للحياةِ دَوِيًّا، فهْو ما انْفَكَّ مُغرمًا بِالرُّقَـــادِ[4].

فإذا وطنه مغرم -في نظره- بالرقاد، تعشّش فيه الفرقة والاختلاف؛ وعند حديثه عن شعبه استعمل ضمير الغائب لينفصل عنه تماما، بالرغم من توظيفه ضمير جمع المتكلّمين (ناجينا) بيتين قبل ذلك، فموقفه منه في مرحلة انكسار آماله في وطنه هو مراقبته عن بعد، وانتقاد تخلّفه وفرقته، مع ما يرافقه من حزن وتفجّع، بعد أن كان ملتبسا بشعبه، مناضلا في صفوفه، عندما كان يحدوه أمل -ولو ضئيل- في غد أفضل لوطنه، إبّان دراسته بتونس.

أمّا قصيدته "قف للعروبة حيّها ببسكرة"، فجاءت بعد سنة من سابقتها[5]، واستعمل فيها لفظة "الشرق" بدلالة تنبئ عن تحوّل جذريّ في الحالة النفسيّة للشاعر، يفسّرها الحدث الذي أنتجها، وهو إنشاء البسكريّين

---

[1]- وهي: "تنبيه النيام من بني الإسلام"، و"تحية الشبيبة لعظيم الشرق ..."، و"تحية إمام المسلمين ..."، و"تحية عظيم العظماء ..."، و"تحية البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل"، و"إلى الريفيّين"، و"ألا في سبيل المجد: الإسلام يتكلّم"، و"ته ياعمان بنصر الله".

[2]- ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج03، ج34، [1344/03/12هـ]، 1925/10/01م، ص 17.

[3]- جريدة "المغرب"، س01، ع15، 1349/04/14هـ، 1930/09/09م، ص01؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى96.

[4]- نفسه.

[5]- ومنه حكمنا بظرفية الحالة النفسيّة المعبّر عنها في قصيدة "مهرجان الزعيم الخطير".

والمزابيّين مدرسة مشتركة لتعليم أبنائهم، هي مدرسة "الإخاء"، في أعقاب مضاعفات قضية الأذان بغرداية؛ وبعد أشهر من تأسيس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، فلا أقلّ من أن يرى –مأخوذا بحماسته المعهودة كلّما رأى وطنه يسير بخطى ثابتة نحو تحقيق طموحه فيه– في الحدث عنوان نهضة حقيقيّة للجزائر يتسامع بها الشرق والغرب على السواء، بل وحتّى رمم الأسلاف في عمق الثرى، يقول في ذلك:

كذا يطيبُ الجَنى، ولْتَشْدُ ألحانُ، ولْيُصْغِ آثارَنا في التّرْبِ قَحْطَانُ
ولْتُبْلغِ الشّمسُ مِن آياتِ نهضتِنا للشّرقِ والغربِ أنباءً لها شَانُ
ولْيُسْمعِ الدّهرُ آباءً لنا دَرَجُوا أَنّا سنَبلغُ في العَلْيا كما كَانُوا[1].

إنّ هذا التحوّل الذي تشهد عليه هذه الأبيات صرّح به مفدي نثرا، وذلك حيث يقول: «وإنّه ليستوقفك بداهة فصاحة أولئك التلاميذ، وإتقانهم للأناشيد بلغة عربيّة، وأسلوب حكيم، حتّى لتظنّ أنّك في احتفال لمدرسة من كبريات مدارس مصر، علاوة على الغيرة المتّقدة، والحماسة الملتهبة، والذكاء الفيّاض، وعزّة النفس، والاعتزاز بالآباء والأجداد، تلك الخصال التي تلاحظها خلال كلماتهم، وفي أعماق عيونهم، وحركات أيديهم وأرجلهم، **ذلك المنظر الذي لم يكن في حسبان أيّ أحد أن يراه بجزائرنا المفدّاة التي ما كنّا نرمقها إلاّ بالطرف الدامي، والقلب الكئيب**»[2].

ثمّ إنّه مسّ موقفه من وطنه[3]، فانمحت نظرته المتشائمة لواقعه، واندمج في شعبه حين حديثه عن واقعه المؤلم، حين يعتبر المرء نفسه طرفا في التغيير، ومناضلا في سبيله، فعاد إلى استعمال ضمير جمع المتكلّمين، بعد الإحباط الذي أصابه، وأدّى إلى قلّة إنتاجه الأدبيّ، وهيمنة النظرة المتشائمة عليه، بما يرافقها من قوّة الانفعال، وسلبية الفعل؛ وهذا التحوّل نلمسه في هذه الأبيات:

يا قادةَ الشّعب، يا أهلَ الحفاظ، أَمَا فيكمْ لنُصرةِ هذا الشّعبِ فتْيَانُ
ضاقَ الزّمانُ، أَلاَ مِنْ نهضةٍ، فلقد دالتْ على الشّعبِ آلامٌ وأَحْزَانُ
الجهلُ يفتكُ، والأبناءُ شاردةٌ، الفقرُ يقتلُنا، والطَّرْفُ وَسْنَانُ
نُجاوِرُ القومَ في الدّنيا بغَمْرَتِنَا، كما تجاورَ ذُؤْبَانٌ وقُطْعَانُ
هلْ يقْظةٌ منكمُ تَحْيَ البلادُ بها، أم حظُّنا –الدّهرَ– أنّاتٌ وأَشْجَانُ؟[4].

إنّ هذا التحوّل الذي يعيشه مفدي في ذاته، وانعكس في إنتاجه واضحا جليّا في هذه القصيدة، يسجّل

1– جريدة "النور"، س01، ع12، 1350/07/20هـ، 1931/12/01م، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى97.

2– جريدة "النور"، س01، ع11، 1350/07/13هـ، 1931/11/24م، ص02.

3– أسماه محمد ناصر تحوّلا من الرومانسية المتألّمة إلى الواقعيّة الاستنهاضيّة؛ ينظر: مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة34.

4– جريدة "النور"، ع12، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى100.

الفضل فيه لذويه في مقاله، فيقول: «إنّنا إن ذكرنا مدرسة الإخاء، أو جمعية الإخاء ببسكرة، فإنّنا ننحني إجلالا وإكبارا لهمم أولئك السادة الكرام[1] الذين كرّسوا حياتهم وقفا لخدمة أمّتهم، وانتشالها من وهدة السقوط والاضمحلال التي ألقاها بها جهلها أمام العالم المفعم بآيات العلم الصارخة في آذاننا كلّ ثانية [...]؛ ومن تآزر معهم من المخلصين لبلادهم الذين استطاعوا بأعمالهم العظيمة أن يسطّروا أسماءهم في دواوين المآثر الخالدة، وأن يسجّلوها على جبين الدهر بسواد الليل على بياض النهار، وإذا لم تكن من أعمالهم العظيمة سوى تأسيس مدرسة الإخاء العامرة لكان لهم من ذلك الفضل الجسيم، والثناء العظيم. مدرسة الإخاء ببسكرة هي مدرسة قرآنيّة حرّة [...] يتولّى إدارتها ثلاثة من المدرّسين ذوي معرفة صحيحة، ودراية تامّة، ومبادئ وطنيّة شريفة، وحزم ونشاط نادرين[2] [...]؛ والثناء على هؤلاء المدرّسين نكله إلى الرأي العامّ الذي شاهد آثار أعمالهم، وثمار سعيهم في ظرف من الزمن لا يكفي لعُشر ذلك»[3].

وممّا يستوقفنا في هذه القصيدة هو استعماله لأوّل مرّة في شعره لفظ "العروبة"[4]، في بيت واحد استمدّ منه عنوان قصيدته، فكان "قف للعروبة حيّها ببسكرة"، يقول فيه:

قِفْ للعروبةِ حيِّها (بِبَسْكَرَةٍ) وارقصْ لها طربًا، والقلبُ وَلْهَانُ[5].

وتفسير ذلك في نظرنا، إنّما يكمن في استلهامه تاريخ بسكرة، وتاريخ أبطال الإسلام الفاتحين بصفة خاصّة، فعند حديثه عن إسهامه في الاحتفال يقول: «ثمّ تلاه على المنبر (أنا مفدي زكريا)، فوصف جلال الموقف، وأثنى على رؤساء الجمعية، والأساتذة والتلاميذ ثناء حسنا، ثمّ أخذ يتكلّم في أنفة وشمم معتزّا بالماضي المجيد، وبأعمال أبطال الإسلام الفاتحين الذين عجنت بدمائهم الطاهرة طينة هذا البلد الأمين: بسكرة وما يليها من أرض الزاب. وإنّ بسكرة أولى بالنهوض من جميع بلاد الجزائر، لأنّها أشرف تربة، وأعزّ طينة»[6].

أمّا الوطنية كمنطلق وتوجّه فكريّ عند مفدي فهو من الوضوح كسابقه، ولا أدلّ على وضوحه من ندرة النصوص الشعريّة التي محضها للتغنّي باهتماماته الذاتية الخاصّة، بالرغم من غنى تجربته الشخصيّة بالأحداث، فلقد درج على تغييبها في شعره الذي كان وطنيّا في الأغلب الأعمّ، فمسحة التشاؤم التي خيّمت على شعره بين سنتي

1- يعني بهم: «السادة: رئيس الجمعية الحاج الحفناوي دبابش، وصديقه السيد خبزي عيسى بن عمارة، والسيد الحاج الشاوي» جريدة "النور"، س01، ع11، ص01.

2- «هم السادة الشيخ الطرابلسيّ محمد بن الحاج إبراهيم، والشيخ محمد خير الدين، والشيخ أبو القاسم»نفسه.

3- نفسه.

4- أمّا لفظ "العرب"، فلم يستعمله في شعر هذه المرحلة إلاّ في قصائده عن العمانيّين، أعني: "تحيّة إمام المسلمين الشيخ أبي عبد الله محمد الخليليّ"، و"تحيّة البعثة الميزابية لجلالة الملك تيمور بن فيصل"، و"ته يا عمان بنصر الله".

5- جريدة "النور"، س01، ع12، 1350/07/20هـ، 1931/12/01م، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى98.

6- جريدة "النور"، س01، ع11، 1350/07/13هـ، 1931/11/24م، ص02.

1925 و1930 لها دواعيها القويّة على مستواه الشخصيّ كما أسلفنا، غير أنّنا لا نجد أثرا لها في شعره، فكان تشاؤمه فيه متعلّقا بأوضاع وطنه المترديّة لا غير، وكأنّه نذر شعره للوطن، وألغى مبرّرات تشاؤمه الذاتية فيه تماما؛ ولذلك تعتبر قصيدة "شكاة إلى الربّ تعالى" التي سبق الحديث عنها استثناء ليس بالنسبة لهذه الفترة فحسب، وإنّما في مسيرته الشعريّة عموما[1].

أفصح مفدي في قصيدته "تقريظ ديوان أبي اليقظان" عمّن غرس فيه هذا التوجّه في حياته، وفي أدبه، وهو الشيخ أبو اليقظان، ويمكن أن نرى فيه ممثّلا لشيوخ البعثة المزابيّة بتونس الذين اضطلعوا بهذا الدور في حياة مفدي؛ يقول مخاطبا له:

يا سيّـــدا أيـــقــظ الأرواح من سنة،	صارت تلبّي ندا الوجـــدان والنـــذر
علّمـــتنا الحـــبّ للأوطان، فانبعثت	نـــفوسنا لـــمحلّ الشمـــس والقمر
ليس المحبّـــة للأوطان –صاح– سوى	عـــقيدة حصـــرت في هـــاته الدرر
صبر، وصـــدق، وإخلاص، وتضحية،	وهـــمّـــةٌ، وإبـــاءٌ، قـــلّـــةُ الضـــجر
ما الكبـــل إلاّ خلاخيل الرجال، وليـــ	ـــس الصلب إلاّ الدعـــا في سنّة البشر
ما الشّنـــق إلاّ رقـــيّ بالـــحبـــال إلى	أفق السما، وشريفُ الذكـــر والـــخبر
فتلك هـــي مـــحبّـــات الرّجـــال إلى	أوطانـــهم مثـــلما علّـــمتَ فابـــتشر
لك البقـــا، ولتعش يا بـــدر في سعة،	ولتحيَ أمّتُـــنـــا الغرّا مدى العمُـــر[2].

ولعلّنا نلاحظ في هذا النصّ ثورية مفدي، وهو في ربيعه السابع عشر، فهو يمجّد القيد والصلب والشنق عندما يكون عنوان محبّة الرجال لأوطانهم، وتبعة التضحية في سبيله؛ وقريب من مضمونها قوله في مقطوعة صغيرة:

لست أخشى النـــفي في نيل المـــرام،	إنّمـــا النفـــي ارتيـــاح وانـــتـــعاش
لا ولا السّجـــن لـــحـــبّ ووئـــام،	إنّمـــا تـــخشاه ربّات الـــحـــجـــال
لا ولا الشّـــنـــق لإصـــلاح الأنـــام،	إنّمـــا الشّـــنـــق رقـــيّ بالـــحبـــال
لا ولا الصّلـــب إذا اشتـــدّ الغـــرام،	إنّمـــا الصّلـــب صـــلاة وابـــتهـــال
لا ولا الكبـــل [إذا] جـــلّ الـــمقام،	إنّمـــا الكبـــل خلاخيـــل الرجال[3].

لقد سبق وأن استعرضنا استعمال مفدي في نصوصه الشعرية الأولى لفظ "الفداء"[4]، ودورانه في عدد منها،

1- ينظر: ص396، 397.

2- مجلّة "الوفاق"، مج[03]، ج[27]، ؟؟/07/1343هـ، [؟؟/02/1925م]، ص27.

3- المقطوعة غير تامّة، مكتوبة بخطّ الشاعر، بقلم رصاص، فانمحى البيت الأخير منها، ثمّ شطبها الشاعر بقلم جافّ، وهي على ظهر الورقة التي حوت قصيدته "[في تقريظ كتاب عبد الواحد]"؛ ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- ينظر: ص347.

ورجحنا أن يكون هذا الأمر هو ما دعا زميله الفرقد إلى إطلاق لقب "مفدي" عليه[1]، من ذلك ما ورد في بيتين كتتمّة لقصيدة من قصائده، يقول فيهما:

وكـــونوا جميعا في الشدائد والرخـــا جميـــعا بني الصحرا، بني تونس الخضرا
سلام، ليحـــي الشرق رغـــم عـــدوّه عزيزا، فـــأفدوهُ دمـــاءكم الطهرا[2].

ثمّ إنّ محاولته القصصيّة الوحيدة كانت تحمل عنوان "الفداء"، وتحكي عن شابّ مزابيّ بلغه استدعاء التجنيد الإجباريّ في صفوف الجيش الاستعماريّ الفرنسيّ، بما يمكن أن يترتّب عنه من إمكان محاربة أخيه المسلم، فيناجي بطل القصّة "محمود" الليل قائلا: «مهلا .. مهلا يا ليل، لا .. لا ما دام فيّ شعور وإرادة، وقلب يتلألأ بنور الإيمان سوف لا أكون أنا وإخواني إلاّ رفقاءك بين هاته الكهوف والأودية والجبال، داخل هذا السور الجميل؛ إمّا تحت هذه السماء البديعة، وفوق هاته الأرض القاحلة، وإمّا .. وإمّا أن نسقيها نحن بدمائنا حتّى تكون خصبة لأبنائنا، وأحفادنا من بعدنا، فتنبت جذورها السعادة والحرية والعزّة والحياة. مهلا .. مهلا أيّها الليل لا تسر حتّى أستوفي شكواتي: يا ليل كيف أحارب أخي المسلم في عقر داره؟ كيف أحارب خالقي وإلهي في أرضه؟ كفى .. كفى ما جرى، فلتنقض الآن مأساتنا بإحدى الحياتين: إمّا العزّ والحرية، أو الشرف والفداء والشهادة؛ فنحن البداية، ونحن النهاية، الثورة يا ليل، الثورة يا ليل، الانتقام الانتقام، التضحيّة التضحيّة، الشهادة الشهادة، الفداء الفداء. غدا أيّها الليل حين تختفي عن أعين الرقباء، وسماسرة السوء، في مكمنك البهيج، ستطلّ عليّ من إحدى نوافذه، فتراني ماذا سأصنع، ولا شكّ أنّه يرضيك، ويرضيك جدّا يا ليل. سر أيّها الليل هنيئا مطمئنّا، سوف لا تسمع هاته الأنّات المتصاعدة من أفئدة الأمّة الكلمى إلاّ أصوات فرح وسرور، وأناشيد حريّة وهناء، أو أصوات الشرف والعظمة تحت كلكل الثرى ... وداعا»[3].

كلّ هذا يدلّنا على ظهور الحسّ الوطنيّ والثوريّ مبكّرا عند مفدي، سواء في تناوله لقضية وطنه الصغير مزاب كما سبق، أو معالجته قضية وطنه الأكبر، وطنه الإسلاميّ، فهو يقول في قصيدته "ألا في سبيل المجد"، وهي -في تقديرنا- من شعر فترة دراسته بتونس، على لسان الإسلام:

بنيَّ، لقـــد آن الكفـــاحُ، فـــجـــدّدوا عـــزائـــمَ أحـــرارٍ، وأنـــفاسَ أَقْيَـــالِ
[...] وكونوا رجـــالاً لا يُبـــالون أنْ يَـــرَوْا صروفَ الرّزايا دون تـــحقيقِ آمَـــالِ
ودونـــكـــمُ جـــوُّ السّعـــادةِ إنّـــما بلـــوغُ أمانيـــكمْ بتحـــطيمِ أغْـــلاَلِ

---

[1]- ينظر: ص400، 401.

[2]- البيتان مكتوبان بقلم رصاص، في كراس من كراريس مفدي الدراسيّة بتونس، مع تصحيحات أجراها عليهما، ممّا يدلّ على أنّهما كانا في مرحلة التسويد، والأبيات السابقة لها في المسوّدة ضاعت فيما يبدو؛ والأرجح لدينا أن يكون البيتان تتمّة لقصيدته [بني وطني]، لاتّفاقهما معها في الوزن والقافية وحرف الرويّ، ومضمونهما لا يبعد كثيرا عن مضمونها؛ ينظر: كراريس مفدي الدراسيّة، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

[3]- مجلّة "الوفاق"، مج03، ج30، 1344/01/01هـ، [1925/07/22م]، ص41.

وإلاّ علــى الشّــرقِ العَــفاءُ، ورحمةٌ لقومٍ رَضُوا بالذلِّ معْ راحــةِ البَالِ[1].

وفي هذا السياق كتب قصيدته "إلى الريفيّين" احتفاء بثورة عبد الكريم الخطّابيّ بالمغرب، وكرّر فيها لازمة ثلاث مرّات، وختم بها قصيدته، يقول فيها مخاطبا بني الريف قائلا:

فكونــوا الفــداءَ، وكونوا الضّحايا، ليــحيَ الهــلالُ، ويــبقى الأَثَــرْ[2].

ثمّ إنّ أدبه بعد ذلك، وإن لم يخرج من نطاق الأدب الوطنيّ، إلاّ أنّ الحسّ الثوريّ فيه اختفى أو كاد[3]، فلم يستعمل لفظة "الفداء" الأثيرة في نفسه، أو مدلولها، أو ما يقرب منها من ألفاظ ومعان بعد هذه القصيدة، وقد نشرها في أوائل ماي 1925، إلاّ في آخر قصيدتين في هذه المرحلة، ففي قصيدته "مهرجان الزعيم الخطير"، يقول متحدّثا عن الشيخ أبي إسحاق:

صفــحاتِ الــخلــودِ ردِّدْنَ ما فِيــ ــكُنَّ -باللّهِ- مِــن عظــيمِ الجِهَــادِ

بــطــلٌ جــادَ بــالــحيــاةِ فــداءً لــبــلادٍ رهــيــنــةٍ لِلْعَــوَادِي[4].

وفي قصيدته "قف للعروبة حيّها ببسكرة"، يضيف الفعل منه إلى نفسه، وهو يتحدّث عن فدائه الأسلاف من العرب الفاتحين، فيقول:

قــومٌ همُ العَــرَبُ الأمجادُ، لا عجبٌ أنْ نَــدَّعي صَــيَــدًا، والدّمعُ هَــتَّانُ

أفديــهمُ بحيــاتي -فاشهدوا-، ودمي، وجــيــرتي، وأبي أمّــي، وإنْ بَــانُوا

صلّى الإلــهُ علــى أرواحِهمْ، وسقى ذاك الأديــمَ، وإنْ داسَــتْهُ أَزْمَانُ[5].

وهو ما يؤكّد ما سبق أن أوضحناه من اليأس والإحباط الذي ناله بعد صدور حكم مجلس الدولة بباريس في 1925/05/15، فظهرت آثاره في إنتاجه الأدبي بعد هذا الحدث على أكثر من صعيد.

تأثّره بسابقيه من الشعراء:

لقد تأثّر مفدي زكرياء في بداياته الشعرية هذه كغيره من الشعراء بسابقيه، سواء أكانوا قدماء أم محدثين؛ ولقد استوقفتنا ظاهرة تضمين شعر غيره في شعره[6]، فتتبّعناها عسانا نتبيّن أثر هؤلاء الشعراء فيه، ثمّ نحاول تفسيره:

1- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى57.

2- جريدة "لسان الشعب"، س05، ع182، 1343/10/14هـ، 1925/05/06م، ص04؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى27.

3- لأنّه استعمل هذا اللفظ في مقاله "حول أسطورة بوليس الصحافيّين"، في معرض مخاطبة إخوانه المزابيّين، حيث يقول: «كونوا يدا واحدة مع إخوانكم الجزائريّين الأحرار، باب[كذا] النهضة الحاضرة **المفدّاة**» جريدة "وادي ميزاب"، س01، ع49، 1346/03/18هـ، 1927/09/16م، ص02.

4- جريدة "المغرب"، س01، ع15، 1349/04/14هـ، 1930/09/09م، ص01؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى94.

5- جريدة "النور"، س01، ع12، 1350/07/20هـ، 1931/12/01م، ص03؛ وأمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى98.

6- التضمين متفاوت في قصائد هذه المرحلة، فهو يمتدّ من 26 بيتا وقع فيها التضمين في قصيدة "لوعة الحبيب"، و11 بيتا في "موشّح مفدي"، و09

أحصينا 84 بيتا، نَصَّ في أغلبها الشاعر على تضمين شعر غيره فيها، بوضعه بين قوسين أو ما شابه، ووقفنا على نسبة 64 بيتا منها، فإذا هي لـــ 21 شاعرا من القدماء في 36 بيتا[1]، و06 شعراء من العصر الحديث في 28 بيتا، وهذا يدلّنا على ارتباطه بالشعر العربيّ القديم في مختلف عصوره، من غير أن يغفل عن امتداده في عصره، حفاظا على أصالته وأصالة شعره، من غير اغتراب عن زمنه وعصره.

إنّ عدد الأبيات المنسوبة لكلّ شاعر من القدامى تتراوح بين بيتين وبيت واحد، باستثناء ثلاثة شعراء: امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وأبي العلاء المعرّي، غير أنّ الأبيات عند جميعهم كانت مقتبسة من قصيدة أو قصيدتين على الأكثر؛ وعليه لم نقف على شاعر قديم تأثّر به مفدي في هذه المرحلة أكثر من غيره، بما يمكن أن يدلّ عليه من استنفاد جهد في قراءة ديوانه ودراسته، وتمثّل له بعد ذلك في إنتاجه الشعريّ.

يقول محمد ناصر: «من الشعراء الفحول الذين تأثّر بهم مفدي زكرياء، وظهرت بصماتهم في شعره، ولا سيّما في العشرينيّات، الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعرّي الذي يبدو زكرياء في بداية حياته الشعريّة متأثّرا به إلى حدّ المحاكاة والاقتباس؛ ونحسب أنّ هذا الإعجاب لم يقتصر على الشعر وحده، وإنّما تجاوز إلى الإعجاب بالشخصية، والأفكار، والفلسفة، والاتّجاه»[2]؛ بناء على تضمينه في قصيدته "مصرع الفضيلة" صدر بيت من دالية أبي العلاء المعرّي، وبيتا كاملا منها، هما:

فبكـــاءُ الفَـــخَارِ مِـــن غيـــرِ كَـــدٍّ (غيـــرُ مـــجد في مـــلّتي واعْتقَادِي)

(فقـــبـــيـــحٌ بنـــا وإنْ قـــدُمَ العَهْـــ ـــدُ هَـــــوَانُ الآبـــاءِ والأَجْـــدَادِ)

بالإضافة إلى عبارة في قوله:

وحَـــــرِيٌّ بـــنــــا تــــدارك أمٍّ قــــد ذَوَى (فــــرعُ غصــنِها المَيَّاد)[3]

وبناء خاصّة على البيتين اللّذيْن أرّخ بهما مفدي -في حواره مع بلقاسم بن عبد الله- لبداية قرضه الشعر، وأنشأهما في شاة ذبحت يوم العيد، فكان فيهما أشبه بأبي العلاء في موقفه من أكل اللحم، ويعضده إضرابه بعد هذه الواقعة

أبيات في "ته يا عمان بنصر الله"، و08 أبيات في "ألا في سبيل المجد"؛ إلى 03 أبيات في "تقريظ كتاب عبد الواحد" و"تقريظ ديوان أبي اليقظان" و"مصرع الفضيلة"، وبيتين في "لك الحياة"، وبيت واحد في "تحية الشبيبة لعظيم العظماء" و"عيد سعيد" و"يا رحمة الله حلّي في منازلنا" و"خفقة فؤاد"؛ وظاهرة التضمين هذه اختفت تدريجيّا عند تجاوزه لمحاولاته الشعريّة الأولى في مرحلة دراسته بتونس.

[1]- تتوزّع كالآتي: أربعة أبيات لكلّ من امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى؛ وثلاثة للمعرّي؛ واثنان لكلّ من المتنبّي، ولسان الدين بن الخطيب، وابن الفارض، وإبراهيم بن سهل، والعديل، والشابّ الظريف، وبشّار بن برد؛ وبيت واحد للشعراء الباقين.

[2]- مفدي زكرياء شاعر النضلال والثورة131.

[3]- اقتبسها من بيت المعرّي:

أبـــكت تلـــكم الـــحـــمامـــة أم غنْـــ ـــنَت علـــى فـــرع غـــصنها الـــميّاد؟

سقط الزند07.

عن أكل اللحم ستّة أشهر تعبيرا عن ألمه[1].

سبق لنا حديث عن اعتماد مفدي على دالية المعرّي موسيقيّا في نظم إحدى محاولاته الشعرية الأولى "تقريظ كتاب عبد الواحد"[2]، فكانت قصيدته على نفس بحر وقافية ورويّ قصيدة المعرّي، وضمّنها نفس صدر البيت الآنف الذكر، فقال:

إنّما الــحــقــد فــي سبيل الــمعالي (غــير مــجد في ملّتــي واعــتــقادي)

ونفس العبارة السابقة في قوله:

إنّـــمـــا العـــارُ أن نَــذِلَّ ونــشــقــى فــي الــورى بــعــد غــصــننا الميّاد

وبعد أربع سنوات على الأقلّ، نظم قصيدته "مصرع الفضيلة"، فكانت على نفس وزن وقافية ورويّ دالية أبي العلاء، فلم يسلم -في تقديرنا- من تأثيرها، وهو ما يدلّ على إعجابه بهذه القصيدة خاصّة؛ كما أنّ قصّته مع أضحية العيد جمع بينه وبين المعرّي فيها تشابه الموقف، فأثّرت فكرة المعريّ فيه، وتسرّبت إلى بيتيه؛ وعليه فإنّ تأثّر مفدي بأبي العلاء كان ظرفيّا، ومرتبطا بوقائع محدّدة، و لم يكن متّصلا في شعر هذه الفترة، عميق الغور فيه، ليدلّ -في رأينا- على ظهور بصماته فيه، وتأثّره به إلى حدّ المحاكاة والاقتباس.

أمّا شعراء العصر الحديث الذين ضمّن مفدي شعرهم، فتتوزّع أبياقم كالآتي: 10 أبيات لمعروف الرصافيّ؛ و08 لسليمان باشا الباروني؛ و04 لأحمد شوقي؛ وبيتان لكلّ من مصطفى كامل، ومصطفى لطفي المنفلوطيّ، ومحمد عبد المطّلب:

أمّا مصطفى كامل فقد ضمّن بيتين له في قصيدته "لك الحياة"[3]؛ واختار بيتين لمحمد عبد المطّلب من قصيدته في استقبال وفد سعد زغلول، فضمّنهما في قصيدته "ألا في سبيل المجد" مع تصرّف في القافية[4]؛ وضمّن في قصيدته "لوعة الحبيب" صدر بيتين من قصيدة منسوبة للمنفلوطيّ[5]؛ ثمّ ضمّن ثلاثة أبيات كاملة، وعجز بيت، جميعها من

1- ينظر: السابق131، 132.

2- ينظر: ص369.

3- ينظر: أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى51، 52؛ و لم نقف على أصلهما من شعر مصطفى كامل.

4- ينظر: نفسه53، و56؛ و لم نقف على أصلهما في شعر محمد عبد المطّلب.

5- هما: «وليســت حيــاة الــمرء إلاّ أمــانيــا إذا هـــي راحــت فالــحياة على الإثر
جزى الله عــنّي اليــأس خيــرا، فإنّــه كــفاني ما ألــقى مــن الأمل الــمرّ».

ينظر البيتان: كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، لسنة 1341هـ، أرشيفه الخاصّ بمكتبته؛ وينظر البيت الأوّل: النظرات، مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط: 1984، ج01 ص50، وفيه: «إذا ضاعت» عوض (إذا راحت). قال مفدي في تضمينهما: «لقد كنت حــرّا بالرجاء فخــانــنــي، (وليــست حيــاة الــمــرء إلاّ أمــانيا)
[...] (جزى اللّه عنّــي اليــأس خيــرا، فإنّه) لــما كنتُ أَلْقَى بالــرجاءِ كــفانــيا».
مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـ، 1924/08/30م، ص26، و28.

قصيدة واحدة لأحمد شوقي، بعنوان "آية العصر في سماء مصر"[1]، في قصيدتين له متقاربتين زمنيّا، وهما "تحية الشبيبة لعظيم الشرق" في ماي 1924، و"موشّح مفدي" في ديسمبر من نفس السنة[2].

وعليه فتعامله مع هؤلاء الشعراء لا يختلف عن تعامله مع شعر القدماء، ممّا يدلّ على قصد من الشاعر في جميع ذلك إلى التنويع، ويخفي إعجابا بقصائد شعريّة مخصوصة لا غير.

أمّا الشيخ سليمان باشا الباروني فكان بالنسبة للمزابيّين جميعهم بطلا قوميّا، وكان إلى جانب بطولاته العسكريّة والسياسيّة شاعرا، وكانت لمفدي علاقة خاصّة به[3]، وله فيه -كما مرّ بنا آنفا- قصيدتان، فلا عجب أن يتأثّر مفدي زكرياء بشخصيته الفذّة وبشعره، ويضمّن بعض أبياته في قصائده الأولى:

توكّأ مفدي في قصيدته "نحن تاج المستقبل الإسلاميّ" عروضيّا على قصيدة للشيخ سليمان باشا الباروني[4]، مطلعها:

على منبـــري أهـــدي التحيّة للجمع وأنشر أقوالا سمت من صفا روعي[5].

فاستعمل مفدي نفس بحرها وقافيتها ورويّها، بالإضافة إلى عدد من كلمات قافيتها[6]؛ كما ضمّن صدر البيت الأوّل منها في مطلع قصيدته، فقال:

(على منبـــري أهـــدي التحية للجمع) وأنشـــر آيـــات يـــضـــيق بها روعي

وضمّن عبارتين من بيتي البارونيّ الآتيين:

خطـــونا خـــطى لا قدّر الله عودها، وإلاّ فـــأشهى الأمر ســـام عـــلى نطع

1- الأبيات هي: يا نـــسورا هبـــطـــوا الـــوادي عـــلـــى ســـالـــف الـــحـــبّ، ومـــأثور الولاء

[...] إنّـــمـــا مـــصـــر إلـــيـــكـــم وبـــكـــم وحقـــوق البـــرّ أولـــى بـــالقـــضـــاء

[...] لا تـــقـــولـــوا حطّـــنا الـــدّهـــر، فما هـــو إلاّ مـــن خـــيـــال الـــشـــعـــراء

[...] واطلبـــوا الـــمـــجد علـــى الأرض، فإن هي ضاقت فاطـــلـــبـــوه في الســـمـــاء

الأعمال الشعريّة الكاملة، أحمد شوقي، دار العودة، بيروت-لبنان، ط:1988، ج2 ص04-06.

2- ضمّن البيت الرابع كاملا مع تعويض (المجد) بـــ:«العلم»، في القصيدة الأولى؛ ينظر: مجلّة "الوفاق"، مج 02، ج20، 1342/12/09هـــ، 1924/07/10م. وفي القصيدة الثانية ضمّن البيتين الثاني والثالث كاملين، مع تعويض (إنّما مصر) بـــ: «إنّما الشعب»؛ وضمّن عجز البيت الأوّل، فقال: ها شـــبـــاب الغـــد يـــرنـــو شـــاديـــا (خـــالـــد الـــحـــبّ، ومـــأثور الولا)

الوثيقة، أرشيف الشيخ الثميني، مكتبة الاستقامة، ص02، 03. ولا يخفى على القارئ التعديل الذي أجراه على تضميناته لتوافق قافية قصيدتيه.

3- أرسل إليه مفدي باسم طلبة البعثة تهنئة بمناسبة عيد فطر سنة 1342هـــ، 1924/05/05م، فأجابه بتاريخ 1924/06/08، وضمّن شطرين من أبيات قصيدته؛ وسجّل إعجابه بمقالة مفدي في جريدة "الصواب"، في رسالتين مؤرّختين في 1924/12/28، و1925/01/10م؛ ينظر: ص387-391.

4- على نحو ما فعله في قصيدته "في تقريظ كتاب عبد الواحد"، وقد سبق الحديث عنها؛ ينظر: ص369.

5- تنظر القصيدة: ديوان البارونيّ، للمجاهد سليمان بن عبد الله البارونيّ، نشر بإشراف زعيمة البارونيّ، د.ط، د.م، د.ت، ج1 ص122، 123.

6- وذلك في 11 بيتا، من 23 بيتا في قصيدة مفدي، و19 في قصيدة البارونيّ.

(متى تسمح الأيّــام بالإنـــجــلاء عن هناء، ويصفو القطر كالدرّ في الضرع)

فقال: إذا رعـــدوا يوما ترى الأرض حولهم تـــميد، وسيف الحقّ **سام على النّطع**
تـــهادت بأحـــكام الـــوفاق، وإنّـــها لتعمل والإخلاص**كالدرّ في الضرع**[1].

وفي قصيدته "لوعة الحبيب" ضمّن بيتين من مقطوعة الباروني، نظمها بتاريخ 1924/02/22، عندما رأى صورة لطلبة البعثة المزابية بتونس، أرسلها إليه الشيخ أبو اليقظان، يقول فيهما:

ومـــن لم يســلّح بالـــمعارف قومه غـــدا علـــقما مســتـعبدا ماله صحب
يرى الـــحـــبل ثعـــبانا، ويحسب حبّة من القمح منطـــادا، فينهكه الرعب[2].

فقال مضمّنا عبارة من الأوّل، والبيت الثاني كاملا تقريبا:

ومن يعتمـــد فـــي النـــائبات بغيـــره **غـــدا عـــلقما مستـــعبدا** متـــراميا
(يـــرى الحبـــل ثـــعبانا، ويحسب حبّة من القمـــح منـــطادا)، فيصبح نائيا[3].

ثمّ ضمّن في قصيدته "خواطر كئيب" ثلاثة أبيات له من ثلاث قصائد مختلفة: أوّلها صدر أوّل بيت من البيتين السابقين، وذلك حيث يقول:

(ومن لم يســلّح بالـــمعارف قومه)، تضرّســـه أنيـــاب الذئـــاب، ولا يبقى

وثانيها صدر بيته الذي يقول فيه:

علِمنـــا مـــن الأيّام ســـوءَ انقسامنا، فبالإتّحـــاد الفـــوز يا عين إنساني[4].

فقال فيه: (علِمنا من الأيّـــام ســـوء انقسامنا)، وليس لنا إلاّ الوفـــاق بـــه نـــرقى[5]

وثالثها صدر بيت نَصَّ الزاهريّ على أنّه للباروني، فلم أجده بلفظه في ديوانه، وإنّما وجدته كالآتي:

ألا حبّـــذا عصـــرا مـــضى وليـــاليا عـــرائـــس أنـــس فاح منها المرنح[6].

فقال مفدي في تضمينه:

(رعـــى اللّهُ أيّـــامًـــا لنـــا وليـــاليًا)، أبـــى اللّه إلاّ أنْ تُعَـــدَّ معَ (العَنْقَا)[7].

إنّ القصائد الثلاثة التي ظهر فيها تأثّر مفدي بالشيخ سليمان باشا الباروني هي قصائد تندرج ضمن شعره

1- مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20، 1342/12/09هـــ، 1924/07/10م.

2- ديوان البارونيّ2: 214.

3- مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـــ، 1924/08/30م، ص29.

4- ديوان البارونيّ1: 54.

5- هذا البيت وسابقه لمفدي من مجلّة "الوفاق"، مج03، ج34، [1344/03/12هـــ]، 1925/10/01م، ص17، 18.

6- ديوان البارونيّ1: 144.

7- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى58.

الذي كان يحمل حسّا وطنيّا ثوريّا إبّان كفاح الوطنيّين المزابيّين من أجل قضية مزاب، واختفى بعد صدور حكم مجلس الدولة بباريس فيها، فكانت القصيدة الأخيرة هي آخر ما كتبه في هذه الصدد؛ وعليه فإنّ تأثّر مفدي زكرياء -في نظرنا- بالبارونيّ باشا كان بسبب من شخصيته الفذّة المتميّزة، فكان قدوة وإماما له إبّان فترة الكفاح هذه، تأثّر بأفكاره ومواقفه، ولم يمتدّ هذا التأثّر إلى الشعر في جانبه الفنّي، فاختفى تأثيره حينما خيّم عليه اليأس والإحباط إثر انتهاء قضية مزاب إلى طريق مسدود.

أمّا على مستوى الإبداع الفنّيّ الشعريّ فكانت وجهة مفدي إحدى قامات الشعر العربيّ الحديث الفارعة، الشاعر العراقيّ معروف الرصافيّ، متخطّيا في ذلك كلاّ من شوقي وحافظ وغيرهما، فعلاقته به تبدو أكثر تميّزا، وليست الأبيات العشرة التي ضمّن فيها شعره الشاهد الوحيد على ذلك، فقد سبق اعتمادُه عروضيّا على قصيدته "نحن من أرضنا على منطاد"، في إنشاء قصيدته "تقريظ كتاب عبد الواحد"، ومنه تضمينه بيتين كاملين منها[1]؛ كما مرّ استشهادُه في مقاله "نقد على نقد" بسبعة شواهد من شعره[2]:

ضمّن في قصيدته "لوعة الحبيب" بيتين كاملين من قصيدة الرصافيّ "الصديق المضاع"، وهما:

إذا ما سمائي جاد بالذلّ غيثها ... أبيت عليها أن تكون سمائيا
وأيّ جوى قد صرتَ أصفر فاقعا ... به، بعد أن قد كنت أحمر قانيا؟[3].

وعجز ثلاثة أبيات أخرى، هي:

لقد هِجتني يا أحمدُ اليومَ بالأسى ... وذكّرتني ما كنت بالأمس ناسيا
ولا تبتئس بالخطوب إنّ خطوبه ... سحابة صيف لا تدوم ثوانيا
لقد جئتَني بالقول رطبا ويابسا ... فداويتَ لي سقما، وهيّجتَ ثانيا[4].

قال مفدي في تضمينها:

سرى طيف ذكراها بلبّي، فهالني، ... (وذكّرني ما كنت بالأمس ناسيا)
فلا يجزعنك البعد إنّ عهوده ... (سحائب صيف لا تدوم ثوانيا)
أتونس عفوا، قد تكلّمتِ برهة، ... (فأسكنتِ لي سُقما، وهيّجتِ ثانيا)[5].

ثمّ ضمّن في قصيدته "ألا في سبيل المجد" بيتا كاملا للرصافيّ من قصيدته "جالينوس العرب أو أبو بكر

1- ينظر: 317 ها03.

2- ينظر: 395.

3- ديوان الرصافيّ122، و123. وعوض (وأيّ جوى) نقرأ في قصيدة مفدي: «فماذا الذي»؛ ينظر البيتان: مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـ، 1924/08/30م، ص28، و30.

4- نفسه122 للأوّلين، و125 للثالث.

5- مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، ص26، و27، و28.

الرازي"، هو:

تطلّـبتمُ صفـوَ الـحيـاةِ، وأنـتمُ   بـجهلٍ، وهل تصفو الحياةُ لجُهَّالِ[1].

وعجز بيته الذي يقول فيه:

تَـلَوْنا أنـاسا في الزمـان تقـدّموا   وكم عِبـرةٍ فيـمَا تـقدّمَ للتَّالِي[2].

فقال: ألسـتُ أنـا مَن جئتُ للنّاسِ رحمةً،   (وكم عِبـرةٍ فيـمَا تقدّمَ للتَّالِي)[3].

وضمّن أخيرا في قصيدته "مصرع الفضيلة" بيتا كاملا من قصيدته "نحن من أرضنا على منطاد"، يقول فيه:

إنّ للعـلـمِ في الـممـالكِ سيـرًا   مثـلَ سيـرِ الضّيـاءِ في الأَبْـعَادِ[4].

إنّ قصائد الرصافيّ التي ضمّن أبياتا منها، وهي: "نحن من أرضنا على منطاد"، و"الصديق المضاع"، و"جالينوس العرب أو أبو بكر الرازي"؛ والتي استشهد بأبيات منها في مقاله "نقد على نقد"، وهي: "إيقاظ الرقود"[5]، و"سوء المنقلب"[6]، و"نحن في بغداد"[7]، بالإضافة إلى قصيدة "تنبيه النيام"، التي أخذ منها العنوان في قصيدته "تنبيه النيام من بني الإسلام"، جميعها من ديوانه الأوّل الذي صدر سنة 1910[8]، باستثناء قصيدته "نحن من أرضنا على منطاد"، غير أنّ اعتماده عليها عروضيّا في قصيدته "تقريظ كتاب عبد الواحد" خير شاهد على اطّلاعه عليها كاملة[9]؛ كلّ هذا يدلّنا على أنّ مفدي أعجب بشعر معروف الرصافيّ، ووقف على ديوانه، وتأثّر به أكثر من غيره من الشعراء القدامى والمحدثين على السواء.

إنّ أهمّ ما يتميّز به الرّصافيّ هو اعتداده بنفسه وبفكره وبحرّيتهما، فكان متمرّدا على المعتاد والمألوف في حياة الناس فكرا وسلوكا ونظاما، وتطرّق لموضوعات جديدة من الحياة المعاصرة لم يسبقه إليها غيره من الشعراء، وصاغ ذلك في شعر يتميّز من الناحية الفنّية بالبساطة والعمق في آن، مع جرأة في التعبير اتّهم بسببها بالكفر، ثمّ كان بعد كلّ هذا شاعرا وطنيّا ثائرا؛ وإنّ خير ما يجسّد فلسفته في الحياة هذه هي قصيدته "في سبيل حرية الفكر"، وهي ممّا لم يرد في ديوانه الأوّل، وممّا جاء فيها:

كتبت لنفسي عهد تـحريرها شعرا،   وأشهدتُ فيما قـد كتـبتُ لها الدّهْرا

---

[1]- ديوان الرصافيّ351. وفي قصيدة مفدي: «تمنّيتمو» عوض (تطلّبتم)؛ ينظر: أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى57.

[2]- نفسه.

[3]- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى54.

[4]- ديوان الرصافيّ19.

[5]- ديوان الرصافيّ116-122.

[6]- نفسه105-110.

[7]- نفسه161، 162.

[8]- مقدّمة الطبعة الثالثة، مصطفى السقّا، ديوان الرصافيّ، ص(ز).

[9]- يشهد لذلك تسجيله في أحد كراريسه أبياتا عديدة منها، وفيها الأبيات التي ضمّنها؛ ينظر: كراريس مفدي الدراسيّة بتونس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

[...] لذاك جعلتُ الحــقَّ نصبَ مقاصدي، وصيّرتُ سرَّ الرأيِ فــي أمــرِه جهرا
وجرّدتُ شعــري من ثــيابِ ريائه، فــلم أكسُــه إلاّ معــانــيَــه الغــرّا
وأرسلتُــه نــظمًا يــروق انسجامُه، فيحســبُه الــمصغي لإنشــادِه نــثْرا
[...] أضمّــنُه معنى الــحقــيقة عــاريا، فيحســبُه جهّالُــه مَنــطقًا هُــجــرا
إذا كان في عُرْيِ الــجُسوم قبــاحةٌ، فأحسنُ شــيء في الــحقيقةِ أن تعرى
[...] أحبّ الفتــى أن يستــقلّ بنــفسه، فيصبــحَ في أفــكاره مطــلقًا حُــرّا
وأكرهُ منــه أن يكــون مُقــلّــدا، فيحشرَ في الدّنيــا أسيــرًا مع الأسرى
[...] وما هــذه الأوطــان إلاّ حــدائــق بها تَــنبتُ الأفــكارُ من أهلهــا زَهرا
وما حبُّــهــا إلاّ لأجــلِ تــحــرّرٍ يكــون إلى العليــاء بالنّــاس مُنْجَرًّا
إذا كــان في الأوطــان للناس غايةٌ، فحرّيّــةُ الأفكــارِ غايــتُها الكبــرى
[...] إذا لم يعــشْ حــرّا بــموطنِه الفتى، فــسمٌّ الفتــى مَيْتًا، وموطنَــه قبرا[1].

لا عجب بعد هذا أن يتأثّر به مفدي زكرياء فقد كان لا يقلّ عنه –وهو في تلك السنّ– اعتدادا بنفسه، فتأثّره به لم يوقعه في أسر تقليده، على نحو ما يحدث لكثير من الشعراء المبتدئين، وإنّما وجدنا مفدي يؤكّد في محاولاته الشعريّة الأولى على استقلاله بأفكاره في الأغلب الأعمّ[2]؛ وإذا منعه التزامه بقضايا وطنه من معالجة موضوعات عصرية جديدة، فإنّ لغته تتميّز بالبساطة في عمومها، والبعد عن الإغراب، وعن العبارات المبتذلة الدارجة على ألسنة المتأدّبين في أوائل القرن الماضي، في شعره ونثره على السواء، ثم إنّ جرأة مفدي في تعابيره مشهود بها لدى الخاصّ والعامّ، ولكنّ هذه الميزة لم تظهر بعد واضحة في محاولاته الأولى هذه.

تمسّكه بأصالته الشعريّة ونزوعه إلى الجديد:

لقد ظهر اهتمام مفدي بالتاريخ منذ هذه المرحلة المبكّرة في حياته الشعريّة، ولعلّ في هذا أثر من الرصّافيّ أيضا، فعندما أصدر الرّصافيّ ديوانه سنة 1910 كان أحد أبوابه الشعريّة "التاريخيّات"[3]، وحوى آنذاك 09 قصائد، بنسبة 19.14%؛ غير أنّ مفدي لم يكتب قصائد تحكي تاريخا معيّنا، وإنّما اعتمد الإشارة التاريخيّة إلى شخصيات وأحداث، وأوضح ما يظهر ذلك في ثلاث قصائد متقاربة زمنيّا[4]، وأوّلها قصيدة "إلى الريفيّين"، يقول فيها:

1– ديوان الرصافيّ50–52.

2– وهو ما وقفنا عليه عند مقارنتنا قصيدته "تقريظ كتاب عبد الواحد"، بقصيدة المعرّي، وقصيدة الرصّافيّ، اللتين اعتمد عليهما لتجاوز صعوبات الوزن والقافية؛ ينظر: ص372، 373.

3– والأبواب الأخرى هي: الكونيات، والاجتماعيات، والوصفيات؛ ينظر: مقدّمة الطبعة الثالثة، مصطفى السقّا، ديوان الرصافيّ، ص(ز).

4– أعني بالوضوح: انتظامها عدّة أبيات في القصيدة. والقصائد هي: "إلى الريفيّين"، و"تحية الشبيبة الميزابيّة للشيخ سليمان باشا الباروني"، و"ألا في

(بنـــي الرّيفِ) فـــي عُظماءِ الرّجالِ، ومـــجـــدِ الغـــزاةِ لكـــمْ مُـــدَّكَـــرْ
ألا نظـــراتٌ إلـــى (ابـــنِ الوليـــدِ)، وفـــاتحِ مُـــلْكِ (العـــزيـــزِ) (عُمَرْ)
و(عُـــقْـــبَـــةَ) فاتـــحِ إفـــريقـــيَـــا، و(حسّـــانَ) مِـــن بـــعـــدِهِ قـــدْ زَأَرْ
و(طـــارقَ) إذّاكَ، و(ابنِ نُـــصَـــيْرٍ)، بأنـــدلـــسٍ ســـعـــيُهمْ مُشْـــتَـــهِرْ
ألـــيســـوا ســـوى بـــشَـــرٍ مِثْـــلِنَا، وقـــد فـــتـــحوا العالَمَ الـــمُكْـــفَهِرْ
[...] ألم يستقِلّوا مـــن (الصّيـــنِ) مُـــلكًا، إلى (البـــرِنَـــاتِ)، لأرضِ (التَّـــتَـــرْ)
وأَضْحـــى لـــواءُ الـــخليـــفةِ يَخْفِـــ ـــقُ حولَ (بَريـــسَ) لـــولا القَـــدَرْ
[...] وأضْحـــى الـــزّمـــانُ يـــردّدُ فـــينا عَـــنِ (ابْـــنِ زِيـــادٍ) لآلـــي الـــدُّرَرْ:
فليـــس لـــديـــكمْ ســـوى مَوْتَـــتَيْنِ بـــأيّـــهِـــما يُـــستـــطابُ الـــمَـــقَرْ
ولـــيـــس لـــكم قـــومُ إلاّ الثّبـــاتُ، فـــذلك بـــحـــرٌ، وهـــذا سَـــفَرْ[1].

وكان مفدي إلى جانب اهتمامه بالتاريخ يقسر نفسه على كتابة القصائد المطوّلة، ويشهد لذلك مسوّدات محاولاته الأولى، فقد رأيناه في نظمه لقصيدته "تقريظ كتاب عبد الواحد"، يسجّل عددا من كلمات القافية، بعدد الأبيات الذي يريده في قصيدته، وكلّما وظّف كلمة منها شطبها[2]؛ وكانت له طريقة أخرى هي أن يرقّم الأسطر قبل نظم القصيدة، فيحدّد عدد أبياتها سلفا، وقد وقفنا عليها في مسوّدة كلّ من مقطوعته "لكِ الحياة"، وقصيدة "موشّح مفدي"، وكذا فيما اعتبرناه تتمّة لقصيدته "بني وطني"[3]. وأوّل قصيدة بلغت 50 بيتا هي قصيدته "تحية الشبيبة لعظيم الشرق الشيخ سليمان الباروني" في أوائل ماي 1924، وتجاوز هذا الرقم إلى 80 بيتا في شهر أوت، ولكن بتكلّف كبير تمثّل في الإكثار من تضمين شعر غيره، في قصيدته "لوعة الحبيب"؛ وبلغ أعلى مستوى له في نظم المطوّلات عندما كتب في زمن متقارب ثلاث قصائد مطوّلة، بين أواخر أفريل وأوائل ماي سنة 1925، وهي: "تحية إمام المسلمين الشيخ أبي عبد الله محمد الخليليّ" 77 بيتا، و"تحية البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل" 69 بيتا، و"إلى الريفيّين" 65 بيتا؛ وقد تمّ له هذا الأمر قبيل الإحباط الذي خيّم على حياته، وأثّر في إنتاجه الأدبيّ، فلم تتجاوز قصائده بعده 50 بيتا إلاّ في قصيدتين: أولاهما في سنة 1927 بعنوان "مصرع الفضيلة" في 57 بيتا، وثانيهما نظمها سنة 1930، بعنوان "مهرجان الزعيم الخطير" في 52 بيتا.

هذا الميل إلى نظم المطوّلات هو –بلا جدال– من أثر أحد مفاهيم الشعر العربيّ القديم الراسخة، يُعتبر بموجبه

سبيل المجد: الإسلام يتكلّم". تنظر القصائد على التوالي: أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخري23–27، و30–33، و53–57.

[1]– أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى25.

[2]– ينظر: ص372 ها06.

[3]– ينظر: كراسان من كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

طول النفس في القصيدة أحد مقاييس الفحولة في الشعر، وهو مفهوم صدر عنه الكثير من شعراء العصر الحديث، ومنهم الشعراء الذين تأثّر بهم مفدي، وعلى رأسهم معروف الرصافيّ. هذا الارتباط بمقوّمات الشعر العربيّ القديم وامتداداتها في الشعر العربيّ الحديث نجده أيضا في موسيقى شعر مفدي، وبخاصّة في الأوزان التي نظم فيها نصوصه الشعريّة؛ ولبيان ذلك اعتمدنا على العمل الإحصائيّ الذي قام به مصطفى حركات في كتابه "قواعد الشعر"، فاخترت شاعرين، من شعراء العصر العبّاسي، هما المتنبّي وأبو العلاء المعرّي، أحصى عدد نصوصهما الشعرية في كل وزن من الأوزان الخليليّة التي نظما فيها[1]، فأنجزت على أساسه الجدولين التاليين:

نسب استعمال البحور الشعرية في ديوان المتنبّي

البحور	الطويل	الوافر	الكامل	البسيط	المتقارب	الخفيف	المنسرح	السريع	الرجز	الرمل	المجتث	المجموع
المتنبّي	51	46	43	40	24	21	16	07	05	02	01	256
النسبة %	**19.92**	**17.96**	**16.79**	**15.62**	**09.37**	**08.20**	**06.25**	**02.73**	**01.95**	**00.78**	**00.39**	**100**

نسب استعمال البحور الشعرية في سقط الزند لأبي العلاء المعرّي

البحور	الطويل	الوافر	البسيط	الكامل	السريع	الخفيف	متقارب	المنسرح	الرجز	المجموع
المعرّي	35	16	14	13	10	09	04	03	01	104
النسبة %	**33.65**	**15.38**	**13.46**	**12.50**	**09.61**	**08.65**	**03.84**	**02.88**	**00.96**	**100**

ثمّ قمت بنفس العمل الإحصائي في الطبعة الثالثة من "ديوان الرصافيّ" سنة 1949، مستثنيا منه جزء من آخره خاصّا بالمقطّعات، واستثمرت تمييز مصطفى السقّا للقصائد التي أصدرها الرصافيّ في ديوانه الأوّل سنة 1910، فكان الجدول الآتي:

نسب استعمال البحور الشعرية في ديوان معروف الرصافي

البحور	الطويل	الكامل	البسيط	الخفيف	الوافر	السريع	الرمل	المتقارب	المنسرح	الرجز	المجتث	المجموع
الديوان 1910	17	07	08	06	06	01	01	01	/	/	/	47
النسبة %	**36.17**	**14.89**	**17.02**	**12.76**	**12.76**	**02.12**	**02.12**	**02.12**	/	/	/	**100**
الديوان 1949	70	39	30	29	28	08	06	05	03	02	01	221
النسبة %	**31.67**	**17.64**	**13.57**	**13.12**	**12.66**	**03.61**	**02.71**	**02.26**	**01.35**	**00.90**	**00.45**	**100**

نلاحظ بداية غلبة بحور الطويل والبسيط والوافر والكامل على الاستعمال عند المتنبي والمعرّي كنموذجين للشعر العربيّ القديم، إذ بلغ نسبة توظيفها مجتمعة 70.29% عند المتنبّي، و74.99% عند أبي العلاء؛ ولا تبعد عن نسبة 75.54% الموجودة في شعر معروف الرصافيّ باعتباره نموذجا لشعراء العصر الحديث، أثّر أكثر من غيره في شعر مفدي؛ ثمّ إنّ بحر الوافر تأخّر في شعر الرصافيّ عن الرتبة التي كانت له عند المتنبّي والمعرّي، وتقدّم عليه بحر

---

[1]- قواعد الشعر (العروض والقافية)، د. مصطفى حركات، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية- الجزائر، ط: 1989، ص46، 47.

الخفيف، ليصبح من البحور الأكثر استعمالا في شعر الرصافيّ، فإذا أضفنا نسبته إلى البحور الأكثر استعمالا، بلغت نسبة هذه البحور عند الرصافيّ 88.66%؛ ممّا يدلّ على استمرارية في توظيف الأوزان الشعريّة بين العصور القديمة والعصر الحديث؛ بينما نلحظ الجديد في الميل إلى استعمال بحر الخفيف؛ والالتفات بعض الالتفات إلى بحر الرمل بعد أن كان مهملا أو يكاد، فلا وجود له في ديوان المعرّي، ونسبته عند المتنبّي 00.78%، وبلغت نسبته في شعر الرصافيّ 02.71%[1].

أحصينا بعد ذلك عدد نصوص كلّ بحر من البحور التي استعملها مفدي في هذه المرحلة، وميّزنا بين شعره في تونس، وشعره بعد عودته منها إلى نهاية المرحلة؛ وأضفنا إلى ذلك إحصاء عدد أبيات كلّ بحر كذلك، فانتهينا إلى الجدول المفصّل الآتي:

نسب استعمال البحور الشعرية في شعر مفدي زكرياء 1921-1931

باعتبار عدد النصوص

النصوص/ البحور		الطويل	البسيط	الخفيف	الرمل	الكامل	المتقارب	السريع	الرجز	المجموع
في تونس	القصيدة	07	03	02	02	01	02	01	00	**18**
	المقطوعة	02	01	00	02	02	00	00	01	**08**
	التشطير	01	02	00	01	00	00	00	00	**04**
المجموع		10	06	02	05	03	02	01	01	**30**
النسبة %		**33.33**	**20**	**06.66**	**16.66**	**10**	**06.66**	**03.33**	**03.33**	**100**
بعد عودته	القصيدة	03	03	03	00	00	01	00	00	**10**
النسبة %		**30**	**30**	**30**	**00**	**00**	**10**	**00**	**00**	**100**
مجموع النصوص		13	09	05	05	03	03	01	01	**40**
النسبة %		**32.50**	**22.50**	**12.50**	**12.50**	**07.5**	**07.5**	**02.50**	**02.50**	**100**

باعتبار عدد الأبيات

مجموع عدد الأبيات	416	257	242	146	45	99	18	04	**1227**
النسبة %	**33.90**	**20.94**	**19.72**	**11.89**	**03.66**	**08.06**	**01.46**	**00.32**	**100**

إنّ أهمّ ما نلاحظه في هذا الجدول هو بقاء بحري الطويل والبسيط متصدّرين للبحور الشعريّة المستعملة في شعر مفدي، بينما تأخّر بحر الكامل عن رتبته لصالح كلّ من بحري الخفيف والرمل، مع أفضلية لبحر الخفيف على الرمل، تظهر واضحة في نسبة استعمال البحرين باعتبار عدد الأبيات، وأهمل مفدي في هذه المرحلة تماما بحر الوافر.

1- قلّة استعمال بحر الخفيف، وإهمال بحر الرمل في الشعر القديم تؤكّده الإحصاءات التي قام مصطفى حركات في شعر: امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبيانيّ، والأعشى من العصر الجاهليّ؛ وجميل بثينة من العصر الأمويّ؛ ينظر: قواعد الشعر43-47.

أمّا من حيث التنويع في استعمال الأوزان الخليليّة، فلم يختلف مفدي كثيرا عن المتنبّي والمعرّي والرصافيّ، بالرغم من كونه مبتدئا، فعدد البحور المستعملة في شعره 08 بحور، وهو نفس عدد البحور في ديوان الرّصافيّ الأوّل سنة 1910، و لم يختلف معه في البحور سوى في إهمال الرصافيّ لبحر الرجز مقابل إهمال مفدي لبحر الوافر، بينما زاد عليهما المعرّي بحرا واحدا في "سقط الزند"، وتوافق المتنبّي والرّصافيّ في إصداره الثاني لديوانه في عدد البحور المستعملة، فكان 11 بحرا. والحقّ أنّ هذا التنويع في البحور إنّما يرجع إلى فترة دراسة مفدي بتونس، إذ كانت مرحلة استكشاف لموهبته الأدبيّة في الشعر وفي النثر على السواء، فكتب -على سبيل المثال- الموشّح والشعر العاطل[1] والقصّة، ونوّع في البحور التي استعملها؛ وبعد عودته من تونس إلى آخر هذه المرحلة نظم الشعر في أربعة بحور بثلاث قصائد لثلاثة منها، ليرتفع بحر الخفيف إلى مستوى كلّ من بحري الطويل والبسيط. وعندما ننظر إلى نسبة استعمال هذه البحور في هذه المرحلة باعتبار عدد الأبيات، نلاحظ تقدّم الطويل بـــ: 33.90%، والتقارب الكبير بين نسبتي كلّ من البسيط بـــ: 20.94% والخفيف بـــ: 19.72%، وهو ما يدلّ على ميل كبير عند مفدي إلى استعمال هذا البحر، أكثر ممّا لاحظناه عند الرصافيّ، إذ رفعه مفدي إلى مقام البحور الأكثر استعمالا في تاريخ الشعر العربيّ؛ واقتصار مفدي على أربعة بحور بعد عودته من تونس دليل على الحالة النفسيّة التي كان عليها بعد منتصف ماي 1925.

أمّا بحر الرمل فنجد اهتماما به لدى مفدي يزيد على ما لاحظناه عند الرصافيّ، فقد تقدّم عنده على بحر الكامل الذي يحتلّ الرتبة الثانية في ديوان الرصافيّ في إصداره الثاني بعد احتلاله الرتبة الثالثة بعد البسيط في الإصدار الأوّل، بينما رتبته في شعر مفدي لهذه الرحلة هي الخامسة بـــ: 07.5% باعتبار عدد النصوص، ولا تزيد على 03.66% باعتبار عدد الأبيات، وهذا يتوافق مع إهماله للبحر الثاني من نفس دائرة الكامل، وهو بحر الوافر[2].

كلّ هذا يدلّنا على أنّ مفدي كان متفتّحا على الجديد بمقدار تمسّكه بأصالته الشعريّة، و لم يكن هذا التفتّح بتأثير الشعراء الذين رفعوا لواء التجديد في العصر الحديث من أمثال مطران، أو مدرسة الديوان، أو الشعر المهجريّ، ولا بالشعر الغربيّ لأنّ اطّلاعه عليه كان محدودا بسبب من عائق اللغة التي كان لا يحسنها[3]، وإنّما كان من متابعة نبض الحياة في تجدّدها، كفعل شعراء العصر الحديث الذين تأثّر بشعرهم، ولذلك نجد نسبة الجديد ضئيلة في شعر هذه المرحلة، ولذلك نتحدّث عن نزوع إلى الجديد، يتوافق مع موقفه الثائر الناقم على أوضاع وطنه بمختلف مستوياته، والراغب في تغييرها، فهو يلخّص موقفه في الحياة في هذه المقطوعة بعنوان "إلى المجد"، فيقول:

1- تنظر قصيدته: أساس السعود، مجلّة "الوفاق"، مج03، ج23، 1343/04/09هـــ، 1924/11/07م، ص23. والشعر العاطل «هو ما كانت كلّ حروفه مهملة» الخليل معجم في علم العروض، محمد سعيد إسبر، ومحمد أبو علي، دار العودة، بيروت-لبنان، ط1: 1982، ص14.

2- أمّا بحر الرجز فلم تتغيّر نسبته كثيرا بين الشعراء الأربعة، بينما نسب بحري المتقارب والسريع متفاوتة، بين الشعراء على نحو لا يمكن أن نستنتج معه تطوّرا ما أو تراجعا في توظيفهما بين العصور القديمة والعصر الحديث، ولا تميّزا عند مفدي فيهما، وهو موضوع بحثنا.

3- بالرغم من وجود نصّين له مترجمين من اللغة الفرنسيّة: نصّ شعريّ ومقال علميّ؛ ينظر: ص382 ها04، و05.

الدهــر بــحــر من ألــمْ أمــــواجــه متــلاطــمهْ
للعــيــش سـبْــل وعرةٌ أحــطــارُهــا متــفاقــمهْ
فاركب له سـفــن التّــجا لــدِ، فالشّجــاعةُ لازمــه
ما الــحــرُّ إلاّ مــن تسنْــ نَم نــفسـه ومكــارمــه
إنّ الأروبِــي قــد تــبــوْ وَأهــا، فسِــرْ لتــزاحِــمهْ
واعــدُد لــه مــا عــنده مــن قــوّة متــعاظــمــه
لتكــون حــرّا سـيّــدا، ويكون فــي الــجُلّى أَمَــهْ
وإذا جــفــاك الــجاهــلو ن، فقل لهم: يا قــومُ مــهْ
ما الــجــهل إلاّ والشّــقا وةُ والعــمــى متــلازمــه
فــلنحــيَ أحــرارا، ونجــ ـعلْ للمــذلّة خاتِــمهْ[1].

ولعلّنا نجد مثالا لذلك في ولعه الشديد بصورة "المنطاد"، كغيره من الشعراء الذين تأثّر بهم في مجال الشعر أو في غيره، ممّن استهواهم هذا الاختراع الجديد، ورأى فيه رمزا للتطوّر الكبير الذي بلغه الغرب في ميدان العلوم والحضارة، مقارنة بالتخلّف الذي كان يعاني منه الشرق:

إنّ أوّل ما استعمل مفدي هذه الصورة كان تضمينا لبيت كامل للرصافيّ، في قصيدته "تقريظ كتاب عبد الواحد"، يقول فيه:

(عصــر حكمِ البــخــار، والكهربائيْــ ـيَات، والــماكــينــات، والمِنطاد)[2].

ثمّ وظّفها في عدد من الأبيات، ونصّ نثريّ واحد، هي كالآتي مرتّبة ترتيبا زمنيّا:

1) مناطيــد إجــلال على أفــق العــلا تــزلزل ركن الجوّ بالخوف والروع[3].

2) «المرء -رعى اللّه الأمير- كمنطاد في عاصف الأنواء، أو كرة ترامى بها يد البلوى، بين نزول وصعود، فعل النكباء بالعود، لا يستقرّ على حال»[4].

1- مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، 1343/01/29هـ، 1924/08/30م، ص21.

2- القصيدة أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وقد وردت هذه الصورة كذلك في تضمينه لبيت الشيخ سليمان باشا البارونيّ، وقد سبق، يقول فيه مفدي: (يرى الــحبل ثعــبانا، ويــحسب حبّة مــن القـــمــح منطــادا)، فيصبح نائيا.
"لوعة الحبيب"، مجلّة "الوفاق"، مج03، ج21، ص29.

3- نحن تاج المستقبل الإسلاميّ، مجلّة "الوفاق"، مج02، ج20، 1342/12/09هـ، 1924/07/10م.

4- تسلية الأمير المعتمد بن عبّاد في سجن ابن تاشفين، مجلّة "الوفاق"، مج[03]، ج[27]، ؟؟/1343/07هـ، [؟؟/1925/02م]، ص31. وهذا الكلام حلّ لبيت أبي إسحاق إبراهيم اطفيش في رثاء أستاذه الشيخ إسماعيل زرقون، يقول فيه:

إنّما الــمــرء في الــحــياة كمــنــطا د إذا لاح عـــــاصــــف الأنـــواء

وثيقة من صفحتين، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3) واعْــلُ السّـــماءَ منــاطيــدًا مسخّرةً تصــونُ ذاك اللُّهـــامَ الصّارمَ الذَّرِبَا[1].

4) فلا نعــمت عيــن تنــام، وحولــها مناطيد تعلو الجوّ، تــخرقه خــرقا[2].

5) يا رعــى اللّهُ قرنَ عشرينَ، عصرَ الــ ــعِلْــمِ، والكهــرباءِ، والــمِنْطَاد[3].

6) أقبلــتْ تــمخرُ العــبابَ، ولو تَــدْ رِي بِــهِ، لاستــوتْ على مِنْطَاد[4].

إنّ هذه الصور وإن حملت قدرا من تأثير سابقيه من الشعراء في أوّل استعمالها، فإنّ مفدي قد نوّع في توظيفها بعد ذلك، مع اتّفاقها في الدلالة على معاني السموّ والرفعة والتطوّر، ممّا يدلّ على انبهار لديه بهذا الاختراع العلميّ، فاعتبره عنوان تطوّر ورقيّ، ينعى بسبب منه على الشرقيّ نومه، ومناطيد الغرب تخرق الجوّ خرقا؛ وعليه كان شعر مفدي وإن لم يخرج في هذه المرحلة من إطار شعر سابقيه في العصر الحديث، إلاّ أنّه كان يحاول دائما إكسابه بصمته الخاصّة، على أساس من اعتداده بنفسه، واستقلاليتها، ومنه ميله إلى الجديد حتّى عندما يغترف من شعر سابقيه، والسعي إلى الانعتاق من إساره وتجاوزه عند أقرب فرصة، ولعلّنا نلاحظ ذلك واضحا في نقصان ظاهرة التضمين تدريجيّا في شعره، إلى أن اختفت أو كادت في أواخر قصائد هذه المرحلة.

فنّ المقال ووجهته فيه:

إنّ الفنّ النثريّ الذي استمرّ في كتابته بالموازاة مع الشعر هو فنّ المقال، بينما كتب في فنّ القصّة في مرحلة البحث عن ذاته في دنيا الأدب، ولم يستمرّ فيها، كما أنّ قصّته لم تصل إلينا كاملة[5]؛ وقد توقّفنا -سابقا- عند أوّل مقال له وصلنا، بعنوان "نقد على نقد"، نشره في جريدة "الوزير" في 1925/07/07[6].

أنتج مفدي زكرياء في هذه المرحلة 23 مقالا، وثلاثة بحوث، ممّا يدلّ على غلبة الشعر عنده -نسبيّا- على النثر؛ وأوّل ما يستوقفنا في مقالاته تنوّعها في مرحلة الدراسة، وارتباطها بمناسبات محدّدة بعد عودته من تونس:

كتب ما يقارب ثلثيها في مرحلة الدراسة، ونشرها سوى مقال واحد في مجلّة "الوفاق"، بين جويلية 1924 وأكتوبر 1925، وأغلب ما نشره في هذه المجلّة كان في مرحلة تولّيه إدارتها أوكتابتها، وقلّت بعد استبعاده من وظائفها، مع إلزامه بالكتابة فيها؛ وكانت متنوّعة، بين مقال أدبيّ في مقالاته: "قلب الشاعر"، و"ألا أيّها البدويّون" مترجما من الفرنسيّة، و"مناجاة تاهرت"، و"تسلية الأمير ابن عبّاد في سجن ابن تاشفين"؛ ومقال نقديّ واحد هو

1- تحيّة البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل، نسخة من القصيدة بخطّ الشاعر، أرشيفه الخاصّ بمكتبته.

2- خواطر كئيب، مجلّة "الوفاق"، مج03، ج34، [1344/03/12هـ]، 1925/10/01م، ص18.

3- مصرع الفضيلة، أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى74.

4- مهرجان الزعيم الخطير، أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى93.

5- ينظر: ص382، و384.

6- ينظر: ص393.

"شاعر خفيّ"؛ ومقال علميّ في: "عوامل الحرارة داخل الأرض"، و"النور والعدسيّات والكهرباء والمغناطيسيّة"؛ ومقال سياسيّ في مقاله "مزاب إزاء ملحمة التجنيد الإجباريّ الخطيرة"؛ ومقال فكريّ عامّ في: "كونوا سعداء"، و"الاتّحاد وأفكار الناس"، و"الإخلاص والصراحة". أمّا المقال الوحيد الذي نشره في غير مجلّة "الوفاق" فهو مقال انتقاديّ، بعنوان "نقد على نقد"، أصدره في جريدة "الوزير" التونسيّة.

أمّا بعد عودته من تونس، فإنّ حياته الجديدة شغلته عن الشعر، فكيف بالنثر، فكتب عشر مقالات على مدى ستّ سنوات: ستّة منها في سنة 1926: "نظرة في كتاب تاريخ العرب بالجزائر" في أربع حلقات، و"مناجاة زهرة في أحد بساتين مزاب"، و"كلمتي في (وادي ميزاب)"؛ وواحد في سنة 1927: "حول أسطورة بوليس الصحافيّين"؛ واثنان في سنة 1929: "الله أكبر: مات رمضان حمود"، و"رمضان حمود حياة الرجل الراحل"؛ وواحد في سنة 1931: "الاحتفال العظيم بمدرسة الإخاء ببسكرة".

لقد قلّت مقالاته، ضمن قلّة إنتاجه الأدبيّ عموما في هذه المرحلة، فاقتصرت مقالاته على ما يدفعه الواجب والمناسبة إلى الكتابة فيه دفعا، مع توفّر إمكانية النشر؛ واختفى تنوّعها، ليتأكّد بالمقابل توجّهه في كتابة المقال إلى إبراز آرائه ومواقفه، أو الدفاع عنها، ومنه المقال الانتقاديّ في مواجهة الخصوم، فنجد مقالين بعد مقاله السابق "نقد على نقد"، وهما: "نظرة في كتاب تاريخ العرب بالجزائر"، و"حول أسطورة بوليس الصحافيّين"، على اختلاف في لهجة الخطاب في المقالين، لأنّ الأوّل كان يتناول تأليفا علميّا، يخصّ أستاذه عثمان الكعّاك، بينما كان الثاني خاصّا بمدير جريدة "النجاح" مامي إسماعيل، ونيله من شهداء الجهاد الليبيّ، ثمّ من أستاذه الشيخ أبي اليقظان، فكان حادّ اللهجة عنيفا؛ كما برز عنده الروبورتاج الصحفيّ، في آخر مقال لهذه المرحلة "الاحتفال العظيم بمدرسة الإخاء ببسكرة"؛ وهو ما ستتّصل كتابته فيهما مستقبلا، بالإضافة إلى المقال السياسيّ، في مرحلة النضال السياسيّ، التي رافقها اشتغاله بالصحافة محرّرا أو مراسلا من حين إلى آخر.

الباب الخامس:

التأثير والتألّق 1932ـ1939

الفصل الأوّل: مشاركته في مؤتمرات طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا

المؤتمر الثاني بالجزائر:

أمضى مفدي حياته بعد حكم مجلس الدولة بتاريخ 1925/05/15 في حالة من اليأس، عمّقتها بعد عودته من تونس مصاعب على أصعدة مختلفة، أفرزتها بداياته في الحياة العمليّة، كلّ ذلك أثّر في إنتاجه الأدبيّ فقلّ مقارنة بما كان عليه في فترة الدراسة، وخيّم عليه شعور عميق بالحزن، فكان السمة الغالبة على أدبه في هذه الفترة، غير أنّنا لاحظنا في آخر مقال له "الاحتفال العظيم بمدرسة الإخاء ببسكرة"، وآخر قصيدة "قف للعروبة حيّها ببسكرة"، من إنتاج هذه المرحلة تجاوزه لهذه الحالة، لانقشاع غيوم اليأس، وظهور بريق أمل جديد في حياته، ارتبط –في تقديرنا– على مستواه الشخصيّ بتأسيسه "شركة المعمل العربيّ"، التي من شأنها أن تكفل له استقرارا على مستوى حياته الشخصيّة والعائليّة، واستقلالا مادّيا من شأنه أن يفسح المجال له للاستقلال في ميدان العمل السياسيّ والاجتماعيّ والثقافيّ، بعد أن كان منضويا فيه تحت لواء شيوخ البعثة المزابيّة بتونس، وبخاصّة الشيخ أبي اليقظان بعد انتقاله إلى الجزائر؛ وارتبط على مستوى العمل الوطنيّ بانبعاث أمل جديد في مستقبل الجزائر، بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين يوم 1931/05/05[1]؛ وعليه فإنّ هذا التحوّل بدأ مع النصف الثاني من سنة 1931، أو قبله بقليل، وتجسّد بصورة فعليّة في سنة 1932، لتصبح هذه السنة منعرجا حاسما في حياته:

ولعلّ أوّل ما يلاحظ على مفدي في هذه السنة الحاسمة من حياته، هو توجّهه إلى الكتابة الصحفيّة، فكتب من المقالات ما لم يكتبه في أيّة سنة من سنوات حياته السابقة، وربّما اللاحقة أيضا، ويشهد لذلك أيضا كتابته في موضوعات، لم يكن ليلتفت إليها مجرّد التفات سابقا، كأن يكتب عن العواصف والأعاصير بتونس[2]، وعن شخص اصطنع وفاته ليحتال على شركة ضمان[3]، ممّا يدلّنا على انفتاح شهيّته للكتابة الصحفيّة عموما، من غير أن يرتبط فيها بمناسبات محدّدة كما في سابق عهده. كتب في السداسي الأوّل من سنة 1932، في جريدتي "النور" و"المرصاد" الجزائريّتين، وجريدة "النديم" التونسيّة، حرصا على نشر كتاباته، وتفاديا –ربّما– لمعاناته السابقة مع الصحف في عدم نشر إنتاجه، أو تأخيره عن موعده، ممّا يؤكّد هذا التوجّه الجديد عنده، ويبين عن قوّته في نفسه، وعليه اختار تنويع عناوين الصحف التي يتعامل معها، في انتظار عثوره على جريدة تحتضن إنتاجه.

---

[1]– ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية3: 83.

[2]– ينظر: العواصف والأعاصير بتونس الشقيقة، بإمضاء: مفدي، جريدة "المرصاد"، س01، ع04، 1350/09/13هـ، 1932/01/22م، ص03.

[3]– ينظر: ميّت حيّ، بإمضاء: مفدي زكرياء، جريدة "النديم"، ع529، 1350/09/29هـ، 1932/02/06م، ص22.

لقد كان المتوقّع أن تحتضن جريدة "النور" لأستاذه الشيخ أبي اليقظان إنتاجه، غير أنّ تباعد إصدار إنتاجه فيها يشفّ عن خلاف، أو جفوة بينه وبين الشيخ، أبقى باب "النور" موصدا دون كتاباته، فقد نشر مقاله "الاحتفال العظيم بمدرسة الإخاء ببسكرة" في 1931/11/24، فقصيدته "قف للعروبة حيّها ببسكرة" في 1931/12/01[1]؛ ثمّ قصيدة "ديوان أبي اليقظان والنور"[2] في 1932/01/19؛ ثمّ مقطوعة "إقرأ كتابك"[3] في 1932/04/05، ثمّ اختفى إنتاجه فيها إلى شهر جويلية، وهو ما لا يتناسب مع توجّه مفدي الجديد، وهو ممّن يملك قلما مسعفا سيّالا.

يبدو أنّ الشيخ الثمينيّ لاحظ الأمر، فسأل مفدي -ضمن ملاحظات على بعض كتاباته المنشورة- عن سبب نشر تقريظه لديوان الشيخ أبي اليقظان، في ذيل "النور" تماما، فنكأ جرحا لم يصرّح به في أيّ من رسائله السابقة، وصادف أن كان حينها في بني يزقن، حيث يجد فسحة واسعة للكتابة، فكتب إليه يوم 1932/04/22م، إحدى أطول رسائله، وقال في خصوص هذه المسألة ما يلي: «وأمّا قولكم عن سبب نشر قصيدتي في طرف ذنب "النور"، فليس لذلك من حلّ إلاّ لأنّ ناظمها زكرياء المعدود خائنا لمشروع الدفاع عن الحقوق الوطنية في نظر الشيخ أبي اليقظان المتقمّصة فيه روح عمر بن عيسى [../..]. لقد أصبح الشيخ أبو اليقظان بحكم انتصاره لعمر بن عيسى متأثّرا بجميع تعاليمه، حتّى أصبح ينشر لأحمد بن الحاج يحي قصائد قد لا يسمح لها حتّى بلفظ شعر[4]، ثمّ يدبّجها بمقدّمات ضخمة قد يتجافى عن إعطائها حتّى لشعراء النيل[5]، وأمّا زكرياء فإمّا أن ينشر له في الذيل بدون تكرّم، ولو بكلمة واحدة، لا لأجل إطرائه، بل لأجل تنبيه القرّاء إلى أنّ القصيدة تقريظ لكتاب "الجزائر" مثلا[6]، أو غير ذلك؛ وإمّا أن يقدّمها بقوله (ومنها (أي: في تقريظ الديوان) ما أرسله إلينا الأديب النبيه ...)، فإنّه شحّ عليه

1- قدّم لها الشيخ أبو اليقظان: «قصيدة عامرة أنشدها الأديب مفدي زكرياء في احتفال "جمعية الإخاء" ببسكرة، وقد مرّ ذكره. قال لا فضّ فوه» جريدة "النور"، س01، ع12، 1350/07/20هـ، 1931/12/01م، ص03.

2- ينظر: القصيدة، بإمضاء: مفدي زكرياء، جريدة "النور"، س01، ع18، 1350/09/10هـ، 1932/01/19م، ص03؛ والقصيدة في تهنئة الشيخ أبي اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، بمناسبة صدور ديوانه "ديوان أبي اليقظان"؛ وجاء في تقديمها ما يلي: «ومن ذلك ما ورد إلينا من الأديب النبيه، مفدي زكرياء، قال لا فضّ فوه»03. كتب الشيخ أبو اليقظان مقدّمة ديوانه بتاريخ 1350/01/03هـ، [1931/05/21م]؛ ينظر: ديوان أبي اليقظان03. أمّا العدد الأوّل من جريدة النور، فصدر بتاريخ 1931/09/15؛ ينظر: فهرس موضوعات جريدة "النور"، أبو اليقظان وجهاد الكلمة354.

3- ينظر: المقطوعة، بإمضاء: مفدي زكرياء، جريدة "النور"، س01، ع28، 1350/11/28هـ، 1932/04/05م، ص03؛ من غير تقديم.

4- نشر له نصّين شعريّين إلى تاريخ كتابة هذه الرسالة، هما: درر بها جيد القريظ لقد زها، جريدة "النور"، ع20، 1932/02/02؛ وإلى المدارس هبّوا يا بني وطني، جريدة "النور"، ع29، 1932/04/12؛ ينظر: فهرس موضوعات جريدة "النور"، أبو اليقظان وجهاد الكلمة360، و363.

5- لم يتسنّ لنا الاطّلاع على تقديم الشيخ أبي اليقظان لهذين النصّين.

6- يعني بها قصيدته "إقرأ كتابك"، في أحمد توفيق المدنيّ، بمناسبة صدور كتابه "تاريخ الجزائر"، فقد جاءت في ذيل "النور" تماما كسابقتها، من غير تقديم، ولا ذكر لمناسبتها.

ولو بلفظة شاعر أو ناظم، كلّ ذلك شنشنة جديدة للشيخ أبي اليقظان في الانتقام منّي بتقديم أمثال أحمد بن الحاج يحي عليّ، وله أخرى تشبه هذه، وهي نشره لافتتاحيات سعيد القراري[1] [...]، ورفض مقالاتي المتعدّدة عن النشر[2]، واستعمال الوسائل للقضاء على مقالاتي المقدّمة لـــ "المرصاد" حين دخولها [المطبعة][3]، ولكن كلّ ذلك لا يفتّ في عضدي ما دمت أعتقد أنّ السيف لا ينقص قدره إذا قيل إنّه عصا:

وليس يضـــرّ السيـــف إخلاق غمده إذا كـــان عضـــبا، حيث وجّهته برى

وهذه الماجريات ممّا كوّن لي عزما جديدا على إنشاء جريدة شبه "النديم" -ولو شهرية- لأجد الحرية التامة لنشر أفكاري في فضاء غير مسمّم بميكروبات الأهواء [...]. ولست بكلامي هذا أطعن في إخلاص أبي اليقظان ووطنيته [...]. /وليس بكاف في الزعامة أن يكون الزعيم مخلصا فقط، بل لا بدّ له مع إخلاصه أن يكون على جانب عظيم من الدهاء، والمكر، (والعفرتة)، وذكاء الفؤاد، وإلاّ فأحر به أن يكون في بيت الآثار المقدّسة يزار، ويتبرّك به، وبإخلاصه»[4].

لا نعلم على وجه التحديد متى وقعت هذه الجفوة بين الشيخ أبي اليقظان ومفدي زكرياء، ولا السبب الحقيقيّ لها غير هذا العنوان العامّ، وهو تنكّر مفدي للعمل الوطني المزابيّ الذي كان يتزعّمه الشيخ عمر بن عيسى الحاج امحمد، وكان ساعدُه الأيمن آنذاك الشيخَ أبا اليقظان، مضطرّا -بحسب مفدي- لا مختارا، بسبب الضائقة الماليّة التي كان يعاني منها: «ولكن قاتل الله التجارة، قاتل الله رؤوس الشهور، فإنّها تجشّم الحرّ ما يخالف مبادئه تماما. ولقد صدق سيّد الخلق حيث يقول: كاد الفقر يكون كفرا»[5].

يدلّ هذا المقطع من رسالته على توجّهه الجديد إلى الكتابة الصحفيّة، فقد تحدّث عن مقالات متعدّدة قدّمها للنشر في "النور"، فلم تنشر؛ كما أنّه نشر في "المرصاد"، في عدد واحد، قصيدته "تحية المرصاد"[6]، ومقاله "العواصف والأعاصير بتونس الشقيقة"، وقد قدّم مديرها عبابسة الأخضريّ قصيدته تقديما ينبئ عن فتح "المرصاد" على مصراعيه في وجه إنتاجه، وذلك إذ يقول: «درّة من درر البيان، وآية من آيات الشّعر الخالد، تكرّم بها صديقنا الحميم، شاعر العاطفة والإحساس، السيّد مفدي زكرياء، قال لا فضّ فوه، ولا برّ

1- الأعداد الصادرة من جريدة "النور" قبل كتابة هذه الرسالة 29 عددا، وعدد الافتتاحيات التي كتبها في هذه الأعداد شريفي سعيد، شهرته: الشيخ عدون، 16 افتتاحية؛ وعشرة للشيخ أبي اليقظان، وواحدة لعبد الرحمن بن عمر بكلّي، وأخرى لزميل دراسة مفدي أبو سعيد عدون بن بكير، والعدد 12 غير موجود في مجموعة محمد ناصر؛ ينظر: فهرس موضوعات جريدة "النور"، أبو اليقظان وجهاد الكلمة354-363.

2- لم يظهر أيّ مقال لمفدي في النور إلى حين كتابة الرسالة غير مقاله "الاحتفال العظيم بمدرسة الإخاء ببسكرة"، في أواخر نوفمبر 1931.

3- كانت تطبع بالمطبعة العربيّة، للشيخ أبي اليقظان.

4- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، تونس، ص01-03.

5- نفسه02.

6- ينظر: القصيدة، جريدة "المرصاد"، س01، ع04، 1350/09/13هـــ، 1932/01/22م، ص03.

من يجفوه»، غير أنّ إنتاجه اختفى فيها إلى شهر أكتوبر من نفس السنة، ولم يشفع في ذلك نشره لإعلان شركته في الجريدتين معا[1].

وأرسل إلى جريدة "النديم" مقاله "ميّت حيّ"، ورسالة إلى مديرها حسين الجزيريّ، فيها إطراء كبير له ولمجلّته، فنشرها الجزيريّ كاملة، وهي رسالة تدلّ على أن لم يكن في نيّة مفدي أن يتوقّف عنده، غير أنّ الأمر كان على العكس تماما، فلم يزد عليه مقالا واحدا. ويبدو أنّ عدم مواصلة الكتابة فيها مرتبط بكتابة مديرها فيه كلاما، بعد نشر النجاح له مقطوعة بعنوان "مرحبا بالأكرمين"[2]، وهو يروي الواقعة في رسالته السابقة، فيقول: «وأمّا ما نشره عنّي صاحب "النديم"[3] فسببه أنّني كنت بالقرارة في سفري قبل هذا[4]، فصادف أن قصدهم شيخ زاوية تماسين، لأجل استدعاء سابق من الشيخ بيوض، لتفقّد الطلبة ودور التعليم، وكان هذا على جانب عظيم من الأدب والفهم والذوق السليم. أمّا الشيخ بيوض فحينذاك كان غائبا، فوقعوا في حيص بيص، لعدم وجود من ينوب الشيخ بيوض في تبييض وجوههم، بملاقاة هذا الشيخ كما يجب، فطلبوا منّي بإلحاح عظيم أن أستقبل ضيفهم بقصيدة ترحيب، محتجّين أنّ هذا الشيخ ممّن له علاقات عظيمة، منها أنّه يكرم دائما وفادة الإباضية، ويجلّهم، وينزلهم المنزلة التي لا ينزلها أخصّ شيعته، وأنّه صمد إليهم قاصدا رؤية الطلبة، ونتائجهم إلخ، فأجبتهم أنّي على مبدإ بغض الطرقيّة، وأخاف أن تنشر قصيدتي؛ وبعد أخذ المواثيق والالتزامات على أنّ قصيدتي لا تنشر، ولا يطّلع عليها أحد أبدا، قلت في نفسي: أسمّيها قصيدة تجارية نفاقية، وأدفنها في الطبقة السابعة من الأرض، وكان ما كان، وقضي الأمر، وذهب الكلّ إلى حال سبيله؛ /فما هي إلاّ عشية وضحاها إذ وفد عليهم مامي إسماعيل[5] [...]، فكشّر لهم عن أنيابه، وضحك لهم ضحكاته المعهودة، وكانوا (في داموس)، فقصّوا عليه القصص، وأروه

1- امتدّ في جريدة "النور" من العدد 02، 1350/05/09هـ، 1931/09/22م، إلى العدد 65، 1351/09/20هـ، 1933/01/17م؛ وفي "المرصاد" من العدد 07، 1350/10/11هـ، 1932/02/19م، إلى العدد 39، 1351/09/02هـ، 1932/12/30م.

2- ينظر: المقطوعة، بإمضاء: مفدي زكرياء، جريدة "النجاح"، س13، ع1283، 1350/11/13هـ، 1932/03/20م، ص03، تحت عنوان: صحيفة الأدباء: القرارة، وجاء في تقديمها ما يلي: «رافق الأجلّ الخيّر الزكيّ الشيخَ أحمد رئيس الزاوية التماسينيّة، أحدُ أنجال زاوية عين الماضي[كذا]، لبلدة القرارة في طريقه لعين ماضي، ولمّا وصلها أكرمت وفادته، ورحّبت به، وصادف وجود الأديب صاحب الإمضاء، فارتجل هذه القصيدة، مرحّبا به، ونصّها».

3- لم نقف على ما نشره عنه صاحب "النديم".

4- امتدّ من أواخر جانفي إلى 1932/03/05؛ ينظر: الباب الثاني، ص139. وخلال إقامته هذه ببني يزقن سافر -بحسب مراسلات قائد بني يزقن إلى حاكم ملحقة غرداية- إلى القرارة يوم 02/24، وعاد منها يوم 02/28؛ ينظر: سجلّ البريد الصادر، 1926-1932، المراسلتان رقم: 96، و102، المؤرّختان تباعا في 02/26، و1932/02/29، أرشيف القيّاد.

5- بمناسبة حضوره زواج نجل قائد من قيّاد ملحقة غرداية، وكتب عنه في "النجاح"؛ ينظر: غرداية: وليمة فاخرة بزواج نجل القائد، مامي إسماعيل، جريدة "النجاح"، س13، ع1280، 1350/11/06هـ، 1932/03/13م، ص03.

القصيدة، فاختلسها، إذ رآها فرصة للانتقام منّي[1]، فقفز بها حالا إلى البريد، وأرسلها للنشر»[2].

هذه المعاناة المستمرّة في نشر إنتاجه في الصحف والجرائد، كوّنت لديه «عزما جديدا على إنشاء جريدة شبه "النديم" –ولو شهرية–»، لا لشيء إلاّ ليجد الحرية التامّة في نشر أفكاره في فضاء غير مسمّم بميكروبات الأهواء، على ما جاء في رسالته السابقة؛ وإذ لم يمكنه إنشاء جريدته، بسبب الأزمة التي كانت حينها تدقّ أبواب الاقتصاد الجزائريّ[3]، اختار أن يعمل مراسلا لجريدة "النهضة" التونسيّة:

لم يشر مفدي أدنى إشارة إلى عمله هذا فيما توفّر من أرشيف تلك الفترة، سواء أكان من كتاباته أم كتابات غيره، غير أنّ المقيم العامّ الفرنسيّ بتونس كشف في رسالة منه إلى الوالي العامّ بالجزائر، بتاريخ 1932/11/24، عن أنّ جريدة "النهضة" أسندت إليه مهمّة مراسل أو مكاتب لها بأخبار الجزائر[4].

إنّ المسح الدقيق لأعداد "النهضة" في سنوات 1932، و33، و34، كشف عن مقالات عديدة لمكاتب الجريدة من الجزائر، تندرج في أغلبها الأعمّ تحت عنوان واحد: «أخبار الجزائر»، وكُتب بعد العنوان في البحث الأوّل "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، في ستّ حلقات: «الجزائر– لمندوب النهضة الخاصّ»، وحملت الحلقة الأولى منها خاصّة إمضاء: «مكاتبكم»[5]، وكتبت إدارة "النهضة" في بداية الحلقة الثانية التوضيح الآتي: «نزولا عند الرغبة الشديدة التي أبداها مراسلنا الخاصّ بالجزائر، ننشر اليوم الحلقة الثانية من سلسلة بحثه حول "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، لا لتوسيع شقّة الخلاف القائم حولها اليوم، وإنّما اعتقادا منّا أنّ ذلك يعود بالفائدة الجمّة عليها»[6]. ثمّ جاءت سلسلة مقالات، تزيد على خمسة عشر مقالا، حول "المؤتمر الثاني بالجزائر لجمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين"[7]، لا تحمل أيّ إمضاء، ولا إشارة من الإدارة لصاحبها سوى: «مندوب النهضة

1- بسبب المقال الذي كتبه –على الأرجح– ضدّه سنة 1927، بعنوان "حول أسطورة بوليس الصحافيّين"، فقد كان حادّا وعنيفا، ألمّاه بما يلي: «وبعد، فلنخفّف بعض الضربات على مامي الحسّاس، ولنكتف بأن نحذّر إخواننا من الاغترار به [...]، ولا يغرنّكم صوت كلّ ناعق، فليس مامي بأوّل عضو أشلّ ظهر في مجتمعنا المتلاحم، فقصمناه[...]. ولا يجرمنّكم مامي، فإنّ تحت ثيابه ما تحت ثياب مي، وإن كان على وجهه مسحة من ملاحة ورواء» جريدة "وادي ميزاب"، س01، ع49، 1346/03/18هـ، 1927/09/16م، ص02.

2- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، تونس، ص03، و04.

3- يقول عنها في رسالة له إلى الشيخ الثمينيّ: «وبعد، فلقد كنت في سفرة بعمالة وهران، استغرقت نحو خمسة عشر يوما، رجعت منها بعائدة ربّما كانت مسلّية لبعض الهموم التي نعانيها من جرّاء توقّف الحركة التجارية، واشتداد الأزمة، واكفهرار المستقبل التجاريّ أمام التجّار، إلاّ أنّنا – والحمد لله– أحسن حالا من غيرنا بكثير، فنحمد الله وحده على ذلك» الرسالة، 1932/08/04، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- ينظر: الرسالة، رقم: INT 4-1191، موضوعها: بخصوص المدعوّ مفدي زكرياء، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- جريدة "النهضة"، س09، ع2813، 1351/03/15هـ، 1932/07/19م، ص02.

6- جريدة "النهضة"، س09، ع2832، 1351/04/07هـ، 1932/08/10م، ص02.

7- ينظر أوّلها: جريدة "النهضة"، س09، ع2846، 1351/04/23هـ، 1932/08/26م، ص02؛ وآخرها: ع2865، 1351/05/17هـ، 1932/09/17م، ص01، 02.

الخاصّ»، ممّا أوقعنا في اللبس، لولا أنّ الكاتب ذكر في إحداها ما يلي: «فابتدأ المسامرة الأولى كاتب الأسطر، تحت إشراف جمعية العلماء، وقدّمه إلى الحاضرين الشيخ الطيّب العقبيّ، وكان موضوع المسامرة تحت عنوان قول الله تعالى ﴿لتعارفوا﴾»[1]، فإذا هو محمد الصالح النيفر[2].

وعندما عادت "النهضة" إلى "أخبار الجزائر" التي أوقفتها طيلة تغطيتها فعاليات المؤتمر المنعقد بالجزائر، وربّما إزالة للوهم الذي يمكن أن يتسرّب إلى الأذهان، كتبت تحت عنوان أوّل مقال كتبه مكاتبها من الجزائر: «لمراسل النهضة الخاصّ بالجزائر»، وإذا هو تتمّة منطقية للبحث السابق، فهو بعنوان "جمعية علماء السنّة بالجزائر"[3]، ولم يكشف هذا المراسل عن اسمه إلاّ في مقاله "النهضة الجزائريّة المباركة"[4]، حيث نجد إمضاءه صريحا: «مكاتبكم مفدي زكرياء»، ونفس الإمضاء مهر به مقاله الموالي "مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين – ما يجري بالجزائر"[5]، وجاء في ختامه ما يلي: «الأمّة الجزائريّة –وعلى رأسها حزب الإصلاح– مثلجة الصدر بما نشرته "النهضة" لمكاتبها الجزائريّ من الحقائق الدامغة، في تأسيس "جمعية علماء السنّة"، وقد ارتعدت لتلك المقالة فرائص الحزب الشِّمالي، ورجّت لها نوادي الضلال رجّا [...]، وإنّ للنهضة ليدا بيضاء عند الأمّة الجزائريّة لا تنسى، لمناصرتها في مشروعها الوحيد الذي تراه أقدس مشروع، تفديه بكلّ ما ملكت يداها، ألا وهو مشروع "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"[...]»؛ كلّ هذا، وغيره ممّا يحمله محتوى هذه المقالات، يطمئننا إلى أنّ مراسل "النهضة" في الجزائر آنذاك هو مفدي زكرياء لا غير، بالرغم من عدم إمضائه لأغلب مقالاته بغير: «مكاتبكم».

لقد كانت انطلاقته في عمله مراسلا لجريدة "النهضة" مع الأمل الجديد في مستقبل الجزائر، "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، كتب عنها مقالا ضافيا في ستّ حلقات، عنونه بـــ "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين: بيانات وتفصيلات لم تنشر قبل اليوم"، وجاء في أوّله: «كان الواجب أن أبعث إلى جريدة "النهضة" بهذه الرسائل قبل الآن، وذلك حينما التأم الاجتماع العموميّ لجمعية العلماء المسلمين بعاصمة الجزائر، وقرّر ما قرّر، وجرى فيه ما أنا ذاكره على صفحات هذه الجريدة المحبوبة، إلاّ أنّني مطمئنّ البال، وواثق أن لا يسبقني أحد، فينشر عن هذه الجمعية المباركة مثلما أنا ناشر من هذه الحقائق والمعلومات، على أنّني قضيت زمنا غير قصير في الاستقراء، وجمع البيانات الصحيحة الكافية، وفي مراقبة الأحوال عن كثب، وفي البحث والتحرّي والتمحيص، والآن جئت أنشر

1– ينظر: المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا، من غير إمضاء، جريدة "النهضة"، س09، ع2863، 1351/05/15هـــ، 1932/09/15م، ص01.

2– يقول مفدي، تحت عنوان فرعي "المسامرتان": «ليلة 29 على الساعة التاسعة ونصف اعتلى المنصّة الأستاذ محمد الصالح النيفر، وألقى مسامرة قيّمة حول قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [سورة الحجرات، الآية 13]» صدى المؤتمر العظيم للطلبة المسلمين بشمال إفريقيا في الجزائر، من غير إمضاء، جريدة "النور"، س01، ع49، 1351/05/03هـــ، 1932/09/06م، ص02.

3– مؤرّخ في 1937/09/17، بإمضاء: مكاتبكم، جريدة "النهضة"، س09، ع2873، 1351/05/27هـــ، 1932/09/27م، ص01، 02.

4– مؤرّخ في 1932/11/01، جريدة "النهضة"، س10، ع2911، 1351/07/11هـــ، 1932/11/10م، ص01، 02.

5– بإمضاء: مكاتبكم مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س10، ع2912، 1351/07/12هـــ، 1932/11/11م، ص01، 02.

على صفحات "النهضة" ما جمعته في هذا الباب من الأخبار التي تحرّيت الحقيقة، ومطابقة الواقع فيها»[1]، وحَمل فيه على شخص كاد -بحسبه- أن يجهض المشروع، ويئد الأمل الذي انتظره مفدي في أفق حياته لسنوات عديدة، أملَه في نهضة وطنه، ومنه حملته العنيفة عليه، وهو ما قد يفسّر حرج شابّ لم يتجاوز ربيعه الرابع والعشرين في التصريح باسمه؛ وعندما خطت الجمعية خطواتها الثابتة بعد ذلك، واشتدّ عودها، زال حرجه، فكشف في مقاله الموالي عن اسم هذا الشخص، وأمضى مقالاته بعده باسمه الصريح، بعد أن حدّد موقفه إلى جانب الحزب الإصلاحيّ ضدّ خصومه الطرقيّين؛ ولذلك نجده -في أوّل مقال أمضاه باسمه- يتحدّث عن الأسماء البارزة في جمعية العلماء المسلمين آنذاك بكثير من التمجيد، يبلغ درجة التقديس، وذلك إذ يقول: «تميس العاصمة، وتزدهي هذه الأيّام بإيوائها ثلّة من علمائها الأماجد، العاملين بحقّ وإخلاص في سبيل سعادتها، مهما كلّفهم ذلك من التضحيات، وهم الذين يحملون أمانة الوطن الجزائريّ الثقيلة فوق أعناقهم، وينفرون بها خفافا وثقالا، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل إبلاغها لمن أرسلت إليه، ألا وهو النهوض والتقدّم تحت ظلال الدّين القويم إلى حيث الحرّيّة الغالية، وهؤلاء السادة هم: الأستاذ عبد الحميد بن باديس، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين؛ والأستاذ العلاّمة، دائرة المعارف، الشيخ البشير الإبراهيميّ؛ وحامل لواء الإصلاح بالجزائر، الخطيب، الشيخ الطيّب العقبيّ؛ والأستاذ الضليع، الشيخ العربي التبسيّ؛ والكاتب المقتدر، الوطني الكبير، الشيخ السعيد الزاهريّ؛ والأستاذ المؤرّخ، الشيخ مبارك الميليّ؛ وشيخ الصحافة الجزائريّة، الأستاذ أبو اليقظان؛ والأستاذ النابغة، الكاتب الاجتماعيّ الكبير، الشيخ الأمين العموديّ؛ وليث الإصلاح، الشيخ عبابسة الأخضريّ، مدير جريدة "المرصاد"؛ وقد استغرقوا هذه الأيّام، وزلفا من لياليها، في الأعمال بجلسات جمعية العلماء التي سيكون منها للأمّة كلّ ما تنشده من خير وهناء، في القريب العاجل إن شاء الله»[2].

وهكذا دخل مفدي زكرياء العمل الوطنيّ الجزائريّ من أوسع أبوابه المتاحة آنذاك، من الحركة الإصلاحيّة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، محدّدا في نصّه السابق مطمحه منها واضحا وجريئا، منذ ذلك التاريخ المبكّر من عمر الحركة الوطنية الجزائريّة: «ألا وهو النهوض والتقدّم تحت ظلال الدّين القويم إلى حيث الحرّيّة الغالية».

وإذا بحثنا عن أوّل نصّ تحدّث فيه عن "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، وجدناه يرجع إلى جانفي من هذه السنة، في تحيّته لجريدة "المرصاد"، وصاحبها عبابسة الأخضريّ، وذلك إذ يقول:

«خُذاها علـى نـدوةِ السِّحْرِ — سـلافًا ألـذَّ مِـنَ الكَوْثَرِ
وطُوفـا بـها، وانْهَـلاني على — حياةِ (عَبَابِـسَةَ الأَخْضَـرِي)
وقُـومـا (لجـمعيةِ العُـلَمَا) — قيامَ الـحجيجِ إلى الـمَشْعَـرِ

[1]- جريدة "النهضة"، س09، ع2813، 1351/03/15هـ، 1932/07/19م، ص02.

[2]- مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين – ما يجري بالجزائر، جريدة "النهضة"، س10، ع2912، ص01.

أَلِـــمَّـــا بــــإيـــوانِها ساعـــةً، وعُوجا على (الطَّيِّبِ) العَبْقَرِي».

وقدّم لها صاحبها بقوله: «درّة من درر البيان، وآية من آيات الشّعر الخالد، تكرّم بها صديقنا الحميم، شاعر العاطفة والإحساس، السيّد مفدي زكرياء، قال لا فضّ فوه، ولا برّ من يجفوه»[1]؛ وفي ذلك ما قد يشير إلى دور لصاحب "المرصاد" في جذب مفدي إلى فلك جمعية العلماء، إذ كان عضوا فاعلا فيها، وفي اتّصاله بنخبتها المثقّفة الشابّة، وقد تجسّد هذا التوجّه الجديد له في مواظبته على حضور النشاطات الأدبيّة والدينيّة والثقافيّة التي تعقد في نادي الترقّي[2]، والمشاركة فيها أيضا، ولا أدلّ على قيمة هذا النادي في نفسه آنذاك، من تصريحه أنّه أصبح «بيتا للأمّة، ومسرحا للمجد والفضيلة، وكان من آثاره "جمعية العلماء المسلمين"، وغيرها من الأعمال التي تذكر مقرونة باسم هذا النادي إلى الأبد»[3].

شارك في حفلة تكريم فرقة فاطمة رشدي في 1932/05/22، يقول مدير تحرير جريدة "النجاح"، مامي إسماعيل، في وصف وقائعها: «يوم 22 ماي، وقعت بنادي الترقّي حفلة زاهرة كبرى، تكريما لكبيرة ممثّلات مصر، الأديبة السيّدة فاطمة رشدي، وفرقتها الراقية -أقامتها جمعية تلامذة الكليّة، والمدرسة الثعالبيّة، فحضرها من أدباء ومفكّري الجزائر ما ناهز المائتين نفسا [...]، ولمّا قدمت السيّدة فاطمة، وأخذ الجميع مقاعدهم، قام الأستاذ أحمد توفيق المدنيّ، بصفته رئيس الحفلة، وألقى خطابا لطيفا [...]، ثمّ أعطى الكلام لممثّل جمعية الطلبة، الأديب الذكيّ السيّد علواش، فألقى خطابا نفيسا، نثبته آخر المقال، ثمّ تلاه الأديب الفاضل، السيّد أبو سعيد، نيابة عن مجلّة التلميذ، بإلقاء خطاب موجز عذب، **ثمّ قام الشاعر الخنديد، السيّد مفدي زكرياء، وألقى فريدة عصماء، حرّك بها السواكن**، ثمّ قام محرّر هذه الجريدة، وألقى كليمات، كان نصيبها الضحك المتواصل من الحاضرين»[4]، وقصيدة مفدي في هذه المناسبة من مفقود شعره، إذ لم تنشرها "النجاح"[5]، ولم يَنْشرها غيرُها.

ثمّ كانت مشاركته في الاحتفال بالمولد النبويّ بتاريخ 1932/07/16، تقول "النور" في ذلك: «كانت عشيّة السبت، وليلة الأحد 12 ربيع الأنور من أزهر ساعات الحياة وأروعها بالعاصمة، فقد أقامت جمعية النادي، ومدرسة الشبيبة الإسلاميّة، وإدارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، وشعبة الجزائر، واللجنة الدائمة للجمعية

1- تحيّة المرصاد، مفدي زكرياء، جريدة "المرصاد"، س01، ع04، 1350/09/13هـ، 1932/01/22م، ص03.

2- وقع تدشين نادي الترقّي في 18 جويلية 1927، بمحاضرة ألقاها الشيخ عبد الحميد بن باديس، في موضوع: منفعة النوادي، وتاريخ النوادي والمجامع من العصر الجاهليّ إلى العصر الإسلامي، إلى اليوم؛ ينظر: حصص إذاعيّة، تاريخ الصحافة العربيّة بالجزائر، مفدي زكرياء، جمع وتحقيق: د. أحمد حمدي، موفم للنشر، الجزائر-الجزائر، ط: 2007، ص136-139؛ والجزائر: نادي الترقّي، لمامي إسماعيل، جريدة "النجاح"، س08، ع471، 1346/01/22هـ، 1927/07/22م، ص02.

3- صدى المؤتمر العظيم للطلبة المسلمين بشمال إفريقيا في الجزائر: الراديو يصدع في آذان العالم بجلسات المؤتمر، بإمضاء: الإرادة، جريدة "النور"، س01، ع49، 1351/05/03هـ، 1932/09/06م، ص01.

4- ينظر: حفلة تكريم فرقة فاطمة رشدي بنادي الترقّي بالجزائر، جريدة "النجاح"، س13، ع1312، 1351/01/26هـ، 1932/06/01م، ص02.

5- بالرغم من نشر مامي إسماعيل عقب مقاله: كلمته، فخطبة ممثّل جمعية الطلبة، ثمّ خطبة ممثّل مجلّة "التلميذ": أبو سعيد عدون.

بنادي الترقّي مهرجان الاحتفال بهذا المولد العظيم»، إلى أن يقول: «ثمّ انبرى الشاعر الجريء المبدع السيّد مفدي زكريا، فألقى قصيدته الفريدة التي أرقصت النفوس، وهزّت أوتار القلوب»[1]؛ وشارك الشيخ أبو اليقظان في هذا الحفل، بخطاب «قارن فيه بين ما جاء به محمد، وما يرتكبه المسلمون اليوم، فأثّر في الحاضرين تأثيرا عظيما»[2]؛ ممّا يدلّ على أنّ مقال "النور" -على الأرجح- مقاله، وإطراء مفدي وقصيدته فيه إطراؤه، وزاد فنشر القصيدة في نفس العدد، وقدّم لها بما يلي: «عنوان قصيدة رائعة، ألقاها الشاعر المطبوع، الأديب، السيّد: مفدي زكرياء، في حفلة المولد النبويّ، بنادي الترقّي، كما أشرنا إليه. قال لا فضّ فوه»[3]؛ ممّا يدلّ على أنّ الأجواء الملبّدة بينهما قد انقشعت، وعاودها الصفاء، فهو يصفه بالشاعر الجريء المبدع والمطبوع، وقصيدته بالفريدة والرائعة، وهي ثاني مرّة بعد قصيدته "مهرجان الزعيم الخطير" في سبتمبر 1930، يطلق عليه في تقديمها وصف الشاعر، في 12 نصّا شعريّا نشره سابقا في جرائده.

لقد كانت مشاركة مفدي في نشاطات نادي الترقّي بحقّ خير تمهيد لمشاركته في المؤتمر الثاني للطلبة المسلمين بإفريقيا الشماليّة[4]، الذي احتضنه النادي من 25 إلى 1932/08/28[5]:

انطلق المؤتمر بحفل الافتتاح بنادي الترقّي، على الساعة العاشرة من يوم 08/25، وشارك فيه مفدي زكرياء بقصيدته "نهوضا بني إفريقيا من سباتكم"[6]، وقدّمت لها جريدة "النهضة" حين نشرها بما يلي: «ننشر اليوم نصّ القصيدة البليغة التي نظمها، وألقاها في حفلة افتتاح المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، الذي انعقد بعاصمة الجزائر، الشاعر العبقريّ، النابغ المتّقد حماسا، السيّد مفدي زكرياء، ترحيبا بالوافدين من أعضاء المؤتمر التونسيّين

1- الجزائر المسلمة تحتفل بالمولد النبويّ بنادي الترقّي، جريدة "النور"، س01، ع43، 1351/03/22هـ، 1932/07/26م، ص01؛ وينظر: في نادي الترقّي: حفلة المولد النبويّ، من غير إمضاء، جريدة "المرصاد"، س01، ع22، 1351/03/18هـ، 1932/07/22م، ص03.

2- ينظر: في نادي الترقّي: حفلة المولد النبويّ، جريدة "المرصاد"، ع22، ص03.

3- ينظر: فهذا فؤادي وهذي يدي، مفدي زكرياء، جريدة "النور"، ع43، ص03.

4- «هذا المؤتمر هو الثاني من نوعه، في تاريخ بلادنا المغربيّة، إذ الأوّل وقع انعقاده سنة 1931، بتونس، تحت إشراف الجمعية الخلدونيّة، وقد طبعت، أو نشرت محاضر جلساته. جاء في مقدّمتها: المؤتمر الذي عقده طلبة شمال إفريقيا المسلمون بالخلدونيّة، من 20 إلى 22 أوط، سنة 1931» المؤتمر الثاني للطلبة المسلمين بإفريقيا الشماليّة، مامي إسماعيل، جريدة "النجاح"، س13، ع1349، 1351/04/30هـ، 1932/09/02م، ص01.

5- ينظر: المؤتمر الثاني للطلبة المسلمين لشمال إفريقيا (Le deuxième Congrès des étudiants musulmans nord-africains)، ج. دسبارمي (J. Desparmet)، مجلّة "إفريقيا الفرنسيّة" (L'Afrique Française)، س42، ع10، أكتوبر 1932، ص572.

6- ينظر: جريدة "النور"، س01، ع48، 1351/04/27هـ، 1932/08/30م، ص03، وجاء في تقديمها: «هذه هي القصيدة العصماء التي ألقاها العبقريّ النابغة، مفدي زكرياء، في المهرجان العظيم الذي أقامته جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، بنادي الترقّي، بالجزائر، في سنتها الحاضرة. قال لا فضّ فوه»03؛ وجريدة "النهضة"، س09، ع2856، 1351/05/05هـ، 1932/09/07م، ص02؛ وجريدة "النجاح"، س13، ع1357، 1351/05/19هـ، 1932/09/21م، ص03، وتقديمها مطابق تماما لتقديم "النور"؛ ونشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين16-18؛ ومفدي زكرياء202-204؛ والأدب الجزائريّ في تونس، د. محمد صالح الجابريّ، المؤسّسة الوطنيّة للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة)، مطبعة الرشيد، تونس-تونس، ط1: 1991، ج2 ص377، 378.

والمغاربة، قال: لا فضّ فوه»[1]؛ ويحكي محمد قنانش عن تأثيرها، عقودا بعد ذلك، فيقول: «وفي صيف 1932، انعقد المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا، بنادي الترقّي، بالعاصمة، وكانت القصيدة التي ألقاها بهذه المناسبة تهزّ الجبال هزّا حتّى إنّ الأخ المنجي سليم كان يذكّره بها كلّما لقيه، ويردّدها عليه، كما ألقاها بنفسه، ومطلعها:

على منبــرِ النّـــادي أُحَيِّي بني النّادي، لِتَسْـــتَمِعَ الدّنـــيا روائـــعَ إِنْشَـــادِي

ومنها: نـــهوضًا بنـــي (إِفْرِيقِيَا) مِن سُباتكمْ

وكرّرها عدة مرات»[2].

بعد ذلك تعاقبت جلسات المؤتمر الأربعة[3]، وشارك فيها بتعقيب على تقرير علي البهلوان في جلسة "اللغة العربيّة" حول واقعها بالأقطار المغاربيّة، جاء فيه: «لي كلمة وجيزة حول تقرير الأخ البهلوان: يقول إنّ التعليم بجامع الزيتونة عقيم جدّا، ولا يوجد به تطبيق، فهذا خلاف الواقع. ويقول أيضا: إنّ أساتذة /الجامع لا يعرفون الأدب العربيّ، والحال أنّك تراهم دائما يكتبون المقالات الأدبيّة على الجرائد والمجلاّت، فترى الأستاذ مثلا لسعة معرفته الأدب يسند لك البيت من الشعر إلى قائله، ويأتي لك بتاريخ حياة الشاعر، أو المؤلّف بكلّ التفاصيل»[4].

وفي اليوم الثاني، افتتح الرئيس أحمد بن ميلاد الجلسة الثالثة «بتلاوة مكتوب مفتوح، أرسله السيّد مفدي زكرياء إلى المؤتمرين، وهذا نصّه: سادتي أعضاء المؤتمر: أطلب من مكارم أخلاقكم عفوا في إعارة اقتراحي هذا جانبا من الاهتمام، إن كان غير معتبر رسميّا مع اقتراحات الأعضاء، وهو أنّه لمّا كان من مشمول موادّ بحثكم وتقاريركم القيّمة البحث في الأبواب المفتوحة أمام الطلبة، وذكرتم في جملة تلك الأبواب الحرف الحرّة، كالتجارة /والمحاماة وغيرهما، وقارنتم ذلك بأبواب الوظائف الشرعيّة كالتدريس والتعليم بالمدارس والمعاهد، فوجب أن يكون للطالب المتعاطي الآن لإحدى الحرف الحرّة التي من نقط أبحاثكم ما لأخيه الطالب المشتغل بالتدريس، من مشاركتكم في العضويّة والاقتراع والمناقشة، حذوا لحذو مع إخوانه الطلبة الذين لا يزالون في فنّ الدراسة، أو المتعاطين للتدريس، ولا أرى مسوّغا لتخويل المتعاطين للتدريس ذاك الحقّ دون إخوانهم من قدماء الطلبة الذين اكترعوا العلم الشريف بالمعاهد العالية المعتبرة، وأرى أنّ حرمانهم من هذا الحقّ هو إجحاف بحقّهم، مع أنّهم قادرون تمام الاقتدار على مشاركة إخوانهم المدرّسين وغيرهم، في جميع الأعمال والتدابير والآراء التي تحتاجها منهم

1- جريدة "النهضة"، س09، ع2856، 1351/05/05هـ، 1932/09/07م، ص02.

2- حزب الشعب الجزائريّ264.

3- يوم 08/26: جلسة "اللغة العربيّة" صباحا، وجلسة "الأبواب المفتوحة أمام الطلبة"؛ ويوم 08/27، جلسة "النظر في نشر التاريخ الإسلاميّ بشمال إفريقيا" صباحا، وجلسة "التربية والتعليم بالمدارس الابتدائيّة" مساء؛ ينظر: صدى المؤتمر العظيم للطلبة المسلمين بشمال إفريقيا في الجزائر، جريدة "النور"، س01، ع49، 1351/05/03هـ، 1932/09/06م، ص01، 02؛ مقابلا بـ: نشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، الجزائر سنة 1932، مطبعة الاتّحاد، نهج الباشا، رقم 116، تونس- تونس، د.ت.ط.

4- نشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين54، 55.

الطلبة. لذلك أرجو من هيئة المؤتمر المحترمة طرح هذه المسألة على بساط المناقشة، وإعارتها جانبا من الاهتمام»[1].

وفي نفس الجلسة، عقّب على تقارير دارسة التاريخ في المغرب وتونس والجزائر، بقوله: «التاريخ أحسن وسيلة لإذكاء نار الحماس، ولذلك وجب علينا أن نصرف كلّ جهودنا في هذا السبيل، ووجب إنشاء لجنة مكلّفة بتحضير كتابين أحدهم للمدارس الابتدائيّة، والآخر للمدارس الثانويّة. وأقترح على الجمعيات العلميّة القيام بمسامرات بأسلوب تحريريّ، يكوّن روح الوطنيّة في القلوب، وإقامة حفلات لذكرى عظماء تاريخنا، وأقترح كذلك إحداث جمعيات تمثيليّة، تمثّل الروايات التاريخيّة، كرواية المعتصم والعجوز»[2].

وفي ليلة يوم 28 أوت «أقامت جمعية نادي الترقّي المحترمة الكريمة مأدبة فاخرة للطلبة المسلمين [...]، بفناء ناديها الرحب»، فكان مفدي من بين المشاركين فيها بقصيدة عنونتها جريدة "النور" "المأدبة"[3]، وقالت عنها وعنه: «ثمّ انبرى الشاعر العبقريّ، الأديب مفدي زكريا، وألقى قصيدة أعدّها خصوصا للمأدبة، فكانت الأعناق تترنّح عند سماع سحر بيانها»[4].

وعند افتتاح جلسة الختام قال رئيسها علي الزاوش: «قبل الخوض في موضوع الجلسة نفسه، رأت هيئة المؤتمر أن تسمح للمؤتمرين بالمشاركة في النكبة التي أصابت العالم العربيّ قاطبة، وهي وفاة فقيد العروبة والإسلام الشاعر الشهير حافظ إبراهيم[5]»، فكان ممّن أعطيت له الكلمة «الشاعر البارع، السيّد مفدي زكرياء، فألقى قطعة بديعة من الشعر طالعها:

كــذَب الناسُ فيك لستَ بميّت، إنّما أنت خالد الذّكر حيّ»[6].

وكان عنوان هذه المقطوعة "كذب الناس"[7]، قالت عنها "النور": «ثمّ تلاه [تعني: الشاعرَ مطياز إبراهيم بن بانوح] بلبلُ الجزائر الغريد مفدي زكريا، وألقى ستّة أبيات في رثاء حافظ، جمعت من بلاغة التعبير ما جعلها آية في بابها»[8]. وقبل أن ينفضّ جمع المؤتمر ألقى «الشيخ محمد الصالح النيفر [...] قصيدة من بنات أفكاره [...]، ثمّ تلاه

1- السابق85، 86.

2- نفسه109.

3- ينظر: جريدة "النور"، ع49، ص02؛ وجريدة "النهضة"، س09، ع2860، 1351/05/08هـ، 1932/09/11م، ص02، وهي فيه بعنوان "بني القطر الشقيق"، وقدّم لها بما يلي: «هذه قصيدة من نظم الشاعر العبقريّ، السيّد مفدي زكرياء، ألقاها على مسامع أعضاء المؤتمر، في المأدبة التي أقيمت لهم، ننشرها تحت عنوانها»؛ ونشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين139، 140؛ ومفدي زكرياء204،205؛ والأدب الجزائريّ في تونس2: 379، وهي فيه بعنوان "أحيّي الظرف والأدبا".

4- جريدة "النور"، ع49، ص01.

5- توفّي يوم 21 جويلية 1932؛ ينظر: ديوان حافظ إبراهيم14.

6- نشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين130.

7- ينظر: جريدة "النور"، ع49، ص02؛ ومجلّة "العالم الأدبيّ"، س03، ع25، 1351/05/19هـ، 1932/09/19م، ص13؛ ومفدي زكرياء205.

8- جريدة "النور"، ع49، ص01.

شاعر الروائع مفدي زكريا، وألقى قصيدة نسجها في تلك الساعة الرهيبة، ساعة الوداع، فكانت مفعمة بالتأثير، وجاءت فريدة في بابها، لأنّها بنت الحوادث والانفعالات»[1]، فكانت مقطوعته "الوداع على النادي"[2].

وفي مساء يوم الإثنين 08/29، «كان الطلبة في محطّة الجزائر يتأهّبون للسفر إلى قسنطينة[3]، لقضاء يوم ونصف بها، وإلقاء خطب بنادي الاتّحاد، فصعد الشاعر الحسّاس مفدي زكريا على كرسيّ خشبيّ بالمحطّة، وتلا على الوفد الراحل قصيدة وداع، أبكت واستبكت، وأخذت بمجامع القلوب، ستجدونها في غير هذا المكان»[4]، وكانت مقطوعة عنونها "الوداع على قطار الجزائر"[5].

وعند مغادرة الطلبة لقسنطينة، يوم 08/31، اجتمعوا في محطّة القطار، «فوجدوا هنالك عددا كبيرا من أعيان البلد، قد أتوا لتوديعهم، ومن جملتهم فضيلة الشيخ، سيّدي عبد الحميد بن باديس. وقبل أن يقلع القطار، قام أحد الإخوان، وأنشد قصيدة [...] لتوديع الوفود»[6]، فقد «أرسل شاعرنا الفنّان مفدي زكريا قصيدة أخرى إلى أحد أصدقائه، الأديب الأريب السيّد سليمان بن الحاج داود بقسنطينة، ليلقيها على القطار في ساعة سفر الطلبة، وداعا لهم بمثل ما ودّعوا به على قطار الجزائر»[7]، فكانت مقطوعته "الوداع على قطار قسنطينة"[8].

وقام أثناء أيّام هذا الملتقى بتغطية أشغاله، وما اتّصل به من نشاطات وجولات، على صفحات جريدة "النور"

1- السابق02.

2- ينظر: جريدة "النور"، ع49، ص02؛ وجريدة "النهضة"، س09، ع2861، 1351/05/11هـ، 1932/09/13م، ص02، تحت عنوان: توديع المؤتمر على منصّة النادي، وجاء في تقديمها: «يطالع القرّاء بعدُ قصيدتين رائعتين، من نظم الشاعر الأديب النابغ، السيّد مفدي زكرياء؛ فالأولى ألقاها على منصّة نادي الترقّي بالجزائر، لتوديع أعضاء مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين، والثانية ارتجلها عندما امتطى الأعضاء متن القطار في [نفس] الغرض»، ويعني بالقصيدة الثانية: "الوداع على القطار"؛ ونشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين135، 136، من غير عنوان، وجاء في تقديمها: «ثمّ قام الشاعر الحماسيّ، السيّد مفدي زكرياء، فودّع المؤتمرين بالقصيدة الآتية»؛ ومفدي زكرياء205، 206.

3- كان سفرهم إلى سطيف، فقسنطينة.

4- جريدة "النور"، س01، ع49، 1351/05/03هـ، 1932/09/06م، ص02.

5- ينظر: جريدة "النور"، ع49، ص02؛ وجريدة "النهضة"، ع2861، ص02، وقد سبق التقديم؛ ونشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين141، 142، بعنوان "الوداع أمام القطار"، وجاء في تقديمها: «وفي مساء ذلك اليوم، [يعني: يوم الإثنين 1932/08/29]، على الساعة التاسعة والنصف، اجتمع الطلبة في المحطّة، وأخذوا/ أهبتهم للسفر، متوجّهين إلى بلد السطيف لزيارتها. وقد أتى عدد كثير من الإخوان لتوديعهم، وكانت طلائع الأخوّة والتضامن تلوح على بشائر الجميع، وعلائم التأثر بادية على محيّاهم في تلك الساعة، ساعة الوداع. فقام الشاعر البارع، السيّد مفدي زكرياء، وأنشد القصيدة الآتية»141، 142، وفي ختامها ورد ما يلي: «وما تحرّك القطار حتّى اعتلت أصوات الطلبة بنشيد اهتزّت له القلوب، وحرّك في الأنفس ما كان كامنا، من حماس متوقّد، وعواطف ثائرة»142؛ ومفدي زكرياء206؛ والأدب الجزائريّ في تونس2: 380.

6- نشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين144.

7- جريدة "النور"، ع49، ص02.

8- ينظر: جريدة "النور"، ع49، ص02؛ ونشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين144؛ ومفدي زكرياء206،207.

بمقالين، أوّلهما بعنوان "المهرجان العظيم لافتتاح مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بالجزائر"[1]، وثانيهما كان بعنوان "صدى المؤتمر العظيم للطلبة المسلمين بشمال إفريقيا في الجزائر"[2]، وأمضاهما باسم إدارة الجريدة، غير أنّ رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1932/09/04، كشفت نسبتهما إليه، إذ يقول فيها: «أخبار المؤتمر تجدونها مفصّلة في "النور" بقلمي، إلاّ ما كان من الألقاب الموضوعة بجانب اسمي فهي للسيّد عبد الرحمن بن عمر»[3].

لقد شارك مفدي في هذا المؤتمر مشاركة فعّالة، بالرغم من عدم عضويته فيه، تابع مختلف تفاصيله بحماس متّقد، وابتهاج غامر، في حالة شعورية لم يسبق له -في تقديرنا- أن عاشها بهذه القوّة والعنفوان، إلى حدّ المطالبة بعضوية أمثاله من قدماء الطلبة في هذا المؤتمر، في رسالته المفتوحة السابقة، وكتب في أسبوع ما لم يكتبه في غيره: ستّة نصوص شعريّة، منها نصّ كتبه بالجزائر، وأرسله إلى قسنطينة ليودّع به المؤتمرين من المغرب وتونس قبل رحيلهم إلى أوطانهم، بالإضافة إلى مقالين، ورسالتين على الأقلّ. وإذا بحثنا عمّا أثار هذا الشعور في نفسه، وبلغ به هذه الدرجة من التوهّج غير المسبوق، وجدناه واضحا فيما سجّله من انطباعات حول المؤتمر، وذلك إذ يقول: «وممّا يستلفت نظرنا على الخصوص، ويزيد في ثقتنا بمستقبل الشمال الإفريقيّ هو أنّ الشعور كان متّحدا، وآيات الولاء والمحبّة كانت متبادلة بين قلوب الجميع، وكلّ من التونسيّ أو الجزائريّ أو المغربيّ يرى نفسه جزء لا يتجزّأ من أخيه، وقطعة من دمه ولحمه يجب أن تبقى متلاحمة ما دامت الأرض أرضا، والسماء سماء، ولن تقوى على العبث بها يد عابث أيّا كان شأنه، ومهما كانت قوّته في الوجود، فيالها من سعادة تجعلنا نتفاءل خيرا بهذا الوطن الذي أصبح على قدم الشعور بالواجب، والمطالبة بمكانه تحت الشمس»[4]؛ وحين يقول أيضا: «وحقّا أقول: إنّه ليوم رائع رأته الجزائر في تاريخ نهضتها الحديثة، وإنّه ليحقّ لكلّ مسلم من أبناء الشمال الإفريقيّ أن يفتخر بهذه النابتة الطيّبة المسلمة التي جعلت الدّين أوّل أعمالها، والحكمة والسداد رائدها، وانبعثت بإخلاص وعزم شديدين نحو الحياة الحقّة، تستجلي غوامضها بالأبحاث القيّمة، والنظر بعين الخبرة إلى أعماق الأمور، والتضامن المتين على توثيق عرى الوحدة الثلاثيّة لأقطار شمال إفريقيا التي أصبحت اليوم بحكم الطبيعة جسدا واحدا، متّحد الآلام والآمال؛ فعلى أمثال هذه [الناشئة] المباركة يعلّق وطن شمال إفريقيا غالي آماله، ومستقبل الأمّة بمستقبل أبنائها»[5].

---

[1]- ينظر: المقال، إمضاء: الإدارة، جريدة "النور"، س01، ع48، 1351/04/27هـ، 1932/08/30م، ص01، 02.

[2]- ينظر: جريدة "النور"، ع49، ص01، 02.

[3]- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. ويقول مفدي في رسالة مخاطبا صديقه سليمان بن الحاج داود، يوم 08/02 [وصوابه: 09]/1932: «عزيزي سليمان، أرجوكم أن تكاتبوا "النور" بتفصيل ما وقع بقسنطينة، من نزول الطلبة إلى سفرهم، ولو تستقي ذلك ممّن حضر معهم كلّ لحظاتهم. يريد "النور" أن يضيف إلى حسناته هذه المبرّة الكريمة، وسترون بهذا ما يسرّكم من تحرير أخيكم هذا، كما حرّر بالعدد الماضي، وذلك لأنّ الشيخ أبا اليقظان في مزاب» رسالة مفدي إلى الشرّح محمد بن عمر وسليمان بن الحاج داود، صورة منها بحوزة جمعية أبي إسحاق اطفيش لخدمة التراث-غرداية، رقم: 956، وثيقة من صفحة واحدة.

[4]- جريدة "النور"، ع48، ص02.

[5]- جريدة "النور"، س01، ع49، 1351/05/03هـ، 1932/09/06م، ص01.

إنّه طموحه في نهضة وطنه نهضة حقيقيّة، رآه مجسّدا في هذا المؤتمر، بل وتجاوز حدود آماله إلى نهضة المغرب العربيّ، تسير إليه الأقطار الثلاثة متآلفة وموحّدة، فشهدت فكرة المغرب العربيّ الكبير ميلادها في فكره وأدبه، فإذا هو يقول من فرط حماسه، مخاطبا المؤتمرين:

«وهــذا الــخلودُ يــمدُّ يدًا، ليعلُو بكــمْ للسَّــمَا مُرْتَــقَى
وكفُّ البــلادِ تعــاهدُكــمْ، وعهدُ الــجدودِ لكمْ أَبْــرَقَا[1]
فمُـــدُّوا اليميــنَ يــمينَ الوَفَا، ووَفُّــوا لــها العــهدَ والمَوْثقَا
وصِيحوا: فلا عاشَ، لا عاشَ مَن لوَحــدةِ (إفْــريــقــيَا) فَــرَّقَا
وتبّــتْ يــدَا ظالــمٍ مُجــرمٍ لــروحِ تضــامنِــنا مَزَّقَا»[2].

وإذ كان يرى في كلّ ذلك تطوّرات جليلة وكبيرة في زمن قياسيّ، توجّس خيفة على وطنه الصغير مزاب، فأسرّ إلى صديقه سليمان بن الحاج داود قائلا: «عزيزي، كان لهذا المؤتمر العظيم في الجزائر أثره الفعّال فقد أيقظ الشعور، ونفخ في الأمّة روحا وثّابة نحو التعليم، تلك الروح التي بذرت بذورها جمعية العلماء، فأصبحت الجزائر مدنها وقراها تسارع لفتح المدارس، ووقفنا نحن موقف المتفرّج، بل موقف الميّت، [...]. إنّنا في موقف بين الحياة والموت، فإمّا أن ننهض فنحيا، وإمّا أن نتقاعد فنموت. اللهمّ حنانيك إنّك بنا رؤوف رحيم»[3].

فرط حماس مفدي في هذه الأيّام، واتّقادُه شطّ به في تعبيره الشعريّ، فاتُّهم بالكفر؛ وشطّ به أيضا في محض أحد أعداد جريدة "النور" لإنتاجه في هذا المؤتمر خاصّة، مستغلاّ في ذلك غياب الشيخ أبي اليقظان في مزاب، فسدّ أبواب صحفه في وجه إنتاجه لأجل غير مسمّى:

ورد في مقطوعته في تأبين حافظ إبراهيم "كذب الناس" الأبيات الآتية:

«كــذبَ النّــاسُ فيــكَ، لســتَ بميْتٍ إنّــما أنــتَ خــالــدُ الذِّكــرِ حــيُّ
[...] كيــف تــدنــو الــمنونُ منك، و(إبْرَا هِيمُ) فــي النّــارِ قــد حَــمَاهُ العَــلِيُّ
موتُــكَ اليــومَ مــوتُ (عيسَى) قديمًا، وهْو باللُّطــفِ فــي السّمــاءِ حَــفِــيُّ
[...] رضيَ الشّعــرُ عنــكَ، والشّــرقُ، والقُرْ آنُ، واللّــهُ، والــورى، والــنَّــبِيُّ»[4].

وعندما أقامت الجمعية الخلدونيّة، برئاسة عبد الرحمن الكعّاك، يوم 09/10، بمعهد ابن خلدون بتونس، حفل تأبين شاعر النيل حافظ إبراهيم، شارك فيه شعراء من أقطار الشمال الإفريقيّ، غير أنّ توعّك صحّة الرئيس جعله

---

[1]- في هامش "النور": «أبرق، أي: أرسل لكم برقية، على الاصطلاح الحديث»؛ وفي هامش "النهضة": «أرسل برقية».

[2]- المأدبة، جريدة "النور"، ع49، ص02؛ وبني القطر الشقيق، جريدة "النهضة"، س09، ع2860، 1351/05/08هـ، 1932/09/11م، ص02.

[3]- رسالة مفدي إلى الشرّح محمد بن عمر وسليمان بن الحاج داود، رقم: 956، مكتبة جمعية أبي إسحاق اطفيش لخدمة التراث، غرداية.

[4]- جريدة "النور"، ع49، ص02، ومجلّة "العالم الأدبيّ"، س03، ع25، 1351/05/19هـ، 1932/09/19م، ص13.

يسند رئاسة الحفل إلى الشيخ المختار بن محمود، من مدرّسي الطبقة العليا، بالمعهد الزيتونيّ[1].

أعلن الشيخ المختار بن محمود –بحسب رواية "العالم الأدبيّ"– أثناء الحفل «أنّ لديه 06 أبيات، وردت من شاعر الجزائر مفدي زكرياء، إلاّ أنّه يرى من واجبه (أن لا تتلى في هذه الحفلة، لما فيها من تصريحات تخالف الإسلام)، فكان لفتوى الشيخ تأثير مدهش، وتساءل القوم: لماذا هذا التشهير؟ فإنّ العادة في كلّ حفلة يصلها ما لا يتّفق مع برنامجها أن تغضي عنه الطرف، وتتجاهل وجوده، لا أن تغتنمها فرصة للتشهير بالأشخاص، وأن تسمّيهم بأسمائهم. على أنّ فتوى الشيخ ليست من الإصابة في شيء، فالأبيات الستّة ليس فيها إلاّ روح دينيّة إسلاميّة عامّة، تغمر بلاغتها واستعارتها»[2]؛ وروى مكاتب "النجاح" بتونس[3] هذه الواقعة، فقال: «ثمّ أعلمنا حضرته أنّه جاءته قصيدة من الشاعر، المعروف بدقّة النظر، ورقّة الشعور، الشابّ سيّدي مفدي زكرياء. وقد قرّر الشيخ –أبقاه اللّه– أنّها لا تتلى، لأنّ صاحبها في نظره كافر، وصرّح بهذا في الحفل. عندها انبرى له صديقنا، صاحب "العالم الأدبيّ"، السيّد زين العابدين السنوسيّ، قائلا له: لا يمكن أن تقدح في إيمان رجل من إخواننا الجزائريّين بمحضرنا، لأنّ هذا شيء [مناف] للآداب الإسلاميّة؛ وناصره قسم من الشباب بحماس متناه، حتّى إنّ أحدهم –وهو مكاتب "الصواب"، الأديب الهادي العبيـــ[ديّ]– قال لحضرة الرئيس: لا يجوز أن نجعل محاكم للتفتيش في الآداب أيضا [...]. بعد هذا تقهقر الشيخ ابن محمود، وقال [...]: أنا لم أقل إنّ السيّد مفدي زكرياء كافر، وإنّما قصيدته فيها ما ينافي نظام الشريعة الإسلاميّة؛ وهنا رفع الجلسة الشيخ المذكور، وخرج غالب الحاضرين، متأسّفين على ما وقع من الشيخ [...]»[4].

نُشر مقال جريدة "النجاح" على صدر صفحتها الأولى، فلم يترك لمفدي من خيار سوى الردّ على الشيخ فيما روي عنه، في نفس الجريدة، فكان مقاله "كتاب مفتوح"، وممّا جاء فيه قوله:

«إلى حضرة الشيخ المختار بن محمود: ﴿إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّنا وهو عند اللّه عظيم﴾[5]. أوجّه كتابي هذا مفتوحا إلى حضرة الشيخ المختار بن محمود، الذي سوّلت له عالميّته! أو آدابه الإسلاميّة! مع كلّ احترام –أن يجاهر أمام ملإ من الناس بتكفيري، يوم تأبين حافظ إبراهيم، بقاعة الخلدونيّة العامرة، وأن يقدح في إيماني، اعتمادا على فهمه الخاصّ لأبياتي الستّ، التي رثيت بها شاعر النيل، حافظ إبراهيم، وأرسلتها لأحد أصدقائي بتونس، ليتلوها نيابة عنّي في محفل التأبين، مشاركة لإخواني

1– ينظر: أحاديث المجالس: حفلة تأبين حافظ، من غير إمضاء، مجلّة "العالم الأدبيّ"، ع25، ص15؛ وحفلة تأبين حافظ إبراهيم بتونس، إمضاء: ع.ج، جريدة "النجاح"، س13، ع1355، 1351/05/14هــ، 1932/09/16م، ص01.

2– أحاديث المجالس: حفلة تأبين حافظ، من غير إمضاء، مجلّة "العالم الأدبيّ"، ع25، ص15.

3– في هذه الفترة على الأقلّ، ينقل أخبارها، في باب خاصّ: "أخبار تونس"، ويمضي مقالاته: «ع.ج».

4– حفلة تأبين حافظ إبراهيم بتونس، إمضاء: ع.ج، جريدة "النجاح"، ع1355، ص01.

5– سورة النور، الآية 15.

التونسيّين، وإجابة لطلب ضميري، ولطلب بعض أصدقائي المخلصين. وإنّي أعتبر ما أتاه الأستاذ الوقور أفظع إهانة لشخصي، وأكبر اعتداء على شرفي وعرضي، ونفسي المؤمنة، المطمئنّة الصادقة في إيمانها. وما كنت أحسب أنّ أرستقراطية القرون الوسطى المظلمة لا تزال متغلغلة في بعض أدمغة أبناء العصر الذهبيّ، عصر الحرّية والنور [...]؛ وما كنت أحسب أنّ قاعة الخلدونيّة العامرة يتّسع صدرها لمثل هذه العبثيّات الصبيانيّة، نظرا لأصل وضعيتها، ولنسبتها لذلك الرجل العظيم، الذي كان أكبر مناصر لحرّية القول والتفكير. وما كانت الخلدونيّة يوما مسرحا لتناول الأعراض المصونة، وملجأ للإشهار بالناس، وجرح العواطف، لولا أنّ القدر أتاح لهذا الشيخ الوقور أن يكون رئيسا مستعارا، لحفلة تأبين [...] كان يجب أن تسند رئاستها لرجل، إن لم يكن من أفذاذ الشرق، فلا أقلّ من أن يكون عالما بنظام المحافل، وملمّا بشيء من آداب المجتمعات العامّة، حتّى لا تشتبه عليه بحلقات دروسه الخاصّة. وإنّي أحتجّ بإيماني الصادق على حضرة الشيخ، وأتحدّاه أمام الرأي العامّ، بكلّ شدّة وصرامة أن يبيّن للناس البيت [الذي كان به] مفدي زكرياء كافرا في نظره، وما هي الأسباب التي حملته على تكفير رجل مسلم، يقول: ربّي اللّه؟ [...] وها أنا أنتظر جواب الشيخ[1]، والرأي العام ينتظر معي، والسلام»[2].

هذا المقال تميّز بقصره، ومحتواه يدلّ على حرج ما وجده مفدي في كتابته، على غير عادته في مواجهة خصومه، ولا نعلم سببا أكيدا لهذا الحرج، غير أنّنا لا نستبعد أن يكون موقف الشيخ ممّا وافقه عليه بعض ممّن قرأ الأبيات، في محيط الشاعر القريب، قراءة تقف عند دلالة اللفظ، على أنّها تنبئ عن قصد الشاعر ومعتقده بالضرورة، من غير أن تبحث عن الحقيقة الشعورية التي تعبّر عنها، وهي مقصد الشاعر، وما طابع المبالغة فيها سوى وسيلة لإبرازها لا غير؛ فقد كاتبه أستاذه الشيخ الثمينيّ قائلا: «أمّا من جهة علاقتنا الأدبية، فالقلب من جهتك هذه المرّة في زوغان واضطراب، لعلّك تتذكّر أنّني كنت مدة إقامتك معي حتّ المدّة الأخيرة، كنت أنصحك -لوجه الله- بالتعقّل في سيرتك الشخصية، وفي أقوالك، وفي كتاباتك نظما ونثرا، ولعلك تقرّ، وتعترف أنّني أفعل ذلك ابتغاء وجه الله، ورجاء لأن تكون عضوا صالحا في مجتمعنا، كاملا لا تصلك أيدي الحاسدين، ولا تنال منك ألسنة الحاقدين، ولكن مع الأسف كنتَ طول مدّة نصحي على غير ما أرجو، وكنت أعلّل ذلك بصغر السنّ، وعدم المران، مع خلق التمرّد الذي هو غريزة فيك قبل كل شيء. وكنت أنا أعلّل النفس باعتدالك بطول التجربة والاختبار، والدروس التي تتلّقاها في مدرسة الحياة لوحدك مباشرة، ولكن الواقعة الأخيرة في اجتماع المؤتمر، إلى كتابة "النجاح" في الردّ على ابن محمود، وما بين ذلك كانت مؤلمة، وكاسفة، ومحزنة.

فلنأخذ واقعة الخلدونيّة وحدها، ونترك الباقي إلى اللقاء إن شئت، وكانت لك رغبة في سماع ما يفيدك: من المتّفق عليه بين المسلمين أنّ الأنبياء معصومون، وأنّ مقامهم لا ينال، وأنّه لا يجوز التشبّه بهم، إذ هو خروج من

---

[1]- ولم يرد ردّ للشيخ المختار بن محمود في جريدة "النجاح"، فيما اطّلعت عليه من أعدادها، والأعداد الناقصة في هذه الفترة نادرة.

[2]- المنبر العامّ: كتاب مفتوح، مفدي زكرياء، جريدة "النجاح"، س14، ع1361، 1351/05/28هـ، 1932/09/30م، ص03.

دائرة الدّين، وأقلّ ما يقال فيه أنّه تنطّع في الدّين [...] وهلاّ تذكّرت أنّك إباضي، وأنّ ولاية الأشخاص وبراءتها جزء من عقيدة الدّين، أم أنّ هذا الرّضا شعري خياليّ لا حقيقيّ، فهو إذا مغتفر، وكيف يكون الرضا الشرعيّ؟

[...] لو أنّك كنت تسمع نصائحي، وتسلك الخطّة التي كنت أرسمها لك دائما، لكان شأنك عند الله والناس العقلاء العلماء الحقيقيّين الذين يعتزّ الإسلام والعربية بعلمهم عظيما جدّا، لأنّ فيك مواهب، ولكن تلك المواهب تستعملها في غير محلّها، فبقيت أنت زكرياء المعروف منذ طرّ شاربه، لم تتبدّل، ولم تتغيّر، والحال أنّه يجب أن [تكون] في أوج آخر غير الأوج الذي أنت فيه. هذا منّي إليك نصيحة، فإن رأيت فيها فائدتك وقبلتها فذاك، وإلاّ فاضرب بها عرض الحائط، أو دُسها بقدميك، وأستغفر الله من كلّ ذنب، ودمت كما شئت»[1]، ولا أستبعد أن يكون هذا الرأي هو نفسه رأي الشيخ أبي اليقظان، وسببا إضافيا من أسباب الجفوة بينه وبين مفدي.

إنّ قراءة النصوص الأدبيّة بغير وعي حقيقيّ بخصوصيّتها الإبداعيّة، وقياسَها بغيرها من النصوص، آفة عانت منها نصوص مفدي الشعريّة، وتعاني، وكثيرا ما تؤول إلى مثل حكم الشيخ المختار بن محمود[2]، لأنّ مفدي كان من طينة من الشعراء، إذا جرفه حماسه لموضوع ما، تخطّى في التعبير عنه كثيرا من الحدود الدينيّة التي يتوخّاها غيره من الشعراء المتديّنين في شعرهم، من غير أن يقدح ذلك في إيمانه أو تديّنه، لأنّ هدفه من ذلك هو نقل حقيقة شعوره ليس إلاّ، ذلك أنّ الحسّ الدينيّ الإسلاميّ لدى مفدي هو أوضح من أن يحتاج إلى دليل، فقد واجه سنتين قبل وفاته، السلطة الجزائريّة في مناسبة تدشين المركز الإسلاميّ بالجزائر، يوم 1975/07/08، وكان في غنى تامّ عن ذلك، واجهها في مسألة الوجهة التي تسير إليها الجزائر آنذاك، في قصيدته الجريئة "ألا أين الرجولة يا لقومي؟"، فكانت أحد أسباب غضبها عليه، وفيها يقول:

«(مَراكزُ) في الجزائرِ، شَيِّدوها ... بصدرِ الشّعبِ تَكْتَسِحِ الرِّحَابَا
ومِن إشراقةِ الإسلامِ صونوا ... بساحتِها الرّسالةَ والكِتَابَا
ومِن يَنْبوعِها، صُبُّوا شرابًا ... إذا الحاناتُ أَغْدَقَتِ الشَّرَابَا
[...] أمِليونٌ مِنَ الشُّهَدَا بأرضٍ، ... لتَنْسَكِبَ الخمورُ بها انْسِكَابَا؟
أأرضُ الثّورةِ الكبرى؟ وحشدٌ ... إلى الآثامِ يَنْصَبُّ انْصِبَابَا
[...] ألا أينَ الرُّجولةُ يا لَقَوْمِي؟ ... ألا أينَ الضّميرُ؟ وأينَ غَابَا؟
[...] ولولا (مركزُ الإسلامِ) حولي، ... وفيه عزائمٌ تَغزو الصِّعَابَا

---

[1] مسوّدة رسالة الشيخ الثمينيّ إلى مفدي زكرياء، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وتاريخها بعد 1932/09/30، لحديثه فيه عن ردّ مفدي في "النجاح".

[2] على فرض صحّته، فقد ورد في رسالة الشيخ الثمينيّ ما يلي: «وبعد، فالثابت الذي لا مراء فيه أنّ المختار بن محمود لم يقل: إنّ زكرياء، ولا أنّ أبياته فيها كفر، بل قال: إنّ الأبيات فيها سوء أدب في الدين»الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[...] لَـعِـفْتُ دُنـاكُمُ، وطلبـتُ مـوتًا، ولـم أَلـبـسْ بـهـا خِـزْيًا وعَـابَا
وكـنتُ على الـجـزائرِ -وهْي أُمّي- أكـبِّـرُ أربـعًا، وأَعُـضُّ نَـابَا»[1].

ويبدو أنّ هذه الرسالة أثّرت في مفدي تأثيرا بليغا، لأنّ مكانة أستاذه الثمينيّ في نفسه كبيرة جدّا، وكان لا يساوره أدنى شكّ في صواب آرائه، ولا يجرؤ على مجرّد مناقشتها، فانقطعت رسائله إليه إلى يوم 1933/02/06[2]، خجلا منه في تقديرنا[3]، لا غضبا، فكان ممّا ورد فيها: «كما أبلّغكم شعوري بأنّي رغم التأنيب المرّ، والعتاب الوجيع الذي صببتموه عليّ في كثير من المناسبات صبّا، لأجل تسليم القياد لعاطفتي الشعرية التي تقف بي أحيانا مواقف لا تليق بكرامتي، فقد استطاع الشيطان مرّة أخرى أن يقودني من الخرطوم إلى جعل أبيات في حفلة تكريم سامي الشوّا، وأن يسدل على عينيّ وبين تأنيبكم حجبا من النسيان والغفلة، أو السكرة التي لم أفق منها إلاّ عند تمام الأمر، ومرور يوم واحد على الحفلة، وحاولت جهد المستطاع أن أخفي هذا المولود الجديد، فما كان من سامي الشوّا إلاّ أن مكّن منه نسخة لجريدة "الوزير"، فنَشرته، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فإنّي أجدّد لكم إنابتي المنبنية على توبيخ ضميري، وأرجوكم أن تصفحوا عنّي صفح الكرام، كما أرجو أن هذه آخر السّكرات الشعريّة، نسأل الله التوفيق والسّداد»[4]، كلّ ذلك بالرغم من أنّ مقطوعته "إلى الأستاذ سامي الشوّا"[5] ليس فيها شيء ممّا أحفظ عليه أستاذه في تأبين حافظ إبراهيم، وإنّما هو التحرّج من تمجيد ومدح رجل بسبب من تعاطيه فنّ الموسيقى؛ ثمّ إنّ في عبارته الأخيرة ما يدلّنا على سيطرة داعي الشعر إذا جاءه، وضعفه إزاءه، فهو لا يستطيع الفكاك منه، ولذلك نجده يرجو أن تكون هذه المقطوعة آخر سكراته الشعريّة، وكم له من سكرات بعدها؟ إذا اعتبرنا هذه من السكرات.

1- أمجادنا تتكلّم ... وقصائد أخرى284-287.

2- فهو يقول له في أوّلها: «وبعد، فقد طال أمد المكاتبة بيننا، وسبب ذلك الاشتغال ببعض مسائل تجارية، من شأنها أن تستغرق الوقت، وتشغل عن المكاتبة. وهذا، وإن لم أكاتبكم فلا زلت مرتبطا معكم بعرى لا تنفصم، ما دامت اللّحمة الروحيّة محكمة السّدى بين الطرفين، مهما كانت الظروف القاسية» رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- فقد كثرت في الرسالة اعتذاراته، يقول في ذلك: «وإنّي أزفّ إليكم أزكى التّهاني بهذا العيد السعيد، أعاده الله عليكم باليمن والحياة الطيّبة، والنصر والتأييد [...]، وأبلّغكم أمانة سلام العائلة، تلك الأمانة العظيمة التي أرى تأخيري في تبليغها إلى حدّ الآن ضربا من ضروب العصيان، استحقّ عنه تفريك الأذنين فقط. وأقدّم لكم عذري -والأسف ملء الجوانح- عن تأخّري عن الحضور بحفلة "الاستقامة"، لكون الحفلة وقعت وأنا بمزاب، حيث تعذّر عليّ الحضور رغم جميع المحاولات الجدّيّة الناشطة، كما تعذّر عليّ إيجاد شيء ليلقى نيابة عنّي، وعلى كلّ حال لي من إخلاصكم، وحسن ظنّكم بابنكم هذا وثيق الأمل في أنّكم تغلّبون عواطفكم نحوي على شعوركم بإدانتي، فتقبلون عذري، والعذر عند كرام الناس مقبول» نفسه.

4- نفسه.

5- الأدب الجزائريّ في تونس2: 381، نقلا عن جريدة "الوزير" التونسيّة، ع371، 1351/09/15هـ، 1933/01/12م، وفيه: «القصيدة التي اقتبل بها شاعر الجزائر العبقريّ ضيف الجزائر الفنّان».

أمّا شططه في حقّ جريدة "النور"، والشيخ أبي اليقظان، فيتجلّى واضحا في استغلاله غياب الشيخ أبي اليقظان في مزاب، فتمّ له -ولا ندري بأيّة وسيلة- إصدار العدد 49 من "النور"، وليس فيه من إنتاج غيره سوى قصيدة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز "بكاء العروبة على حافظ"، ومقال صغير "حديث الساعة" لغريب عبد الرحمن، وتذكير وجيز من الإدارة للمشتركين فيها "وداعا أيّها العام الراحل"[1]؛ فإذا استثنينا هذه النصوص، والمساحة الإشهاريّة في الجريدة، كان العدد عدد مفدي غير مدافع، ففيه من إنتاجه في المؤتمر: مقال مطوّل "صدى المؤتمر العظيم للطلبة المسلمين بشمال إفريقيا في الجزائر" استغرق الصفحة الأولى، وجزء من الصفحة الثانية؛ وقصيدته "المأدبة"، وأربع مقطوعات شعريّة[2]، تجاوزت مجتمعة الصفحة الثانية إلى الثالثة[3]؛ ومن بين هذه المقطوعات مقطوعته في تأبين حافظ إبراهيم، على ما أثارته من استنكار وجدل.

لا يوجد ما يدلّ دلالة صريحة واضحة على موقف الشيخ أبي اليقظان من مفدي، بعد هذه الواقعة، غير أنّ مؤشرات عديدة تتضافر لتدلّ دلالة أكيدة على تدهور علاقته به تدهورا كبيرا، هي كالآتي:

1- طلب مفدي من صديقه سليمان بن الحاج داود، في رسالته إليه يوم 09/02، أن يكاتب «"النور" بتفصيل ما وقع بقسنطينة، من نزول الطلبة إلى سفرهم [...]. يريد "النور" أن يضيف إلى حسناته هذه المبرّة الكريمة، وسترون بهذا ما يسرّكم من تحرير أخيكم هذا، كما حرّر بالعدد الماضي، وذلك لأنّ الشيخ أبا اليقظان في مزاب»[4]؛ وتبعا لذلك جاء في ذيل مقال مفدي الأخير ليوم 09/06: «وسنوافيكم بتفاصيل ما وقع بقسنطينة فيما بعد إن شاء اللّه»؛ غير أنّ هذه التفاصيل المرتقبة لم ترد في أيّ عدد من الأعداد الموالية من جريدة "النور"، وتأخّر صدور عددها الموالي 50 إلى يوم 09/27[5].

2- غياب إنتاج مفدي زكرياء في صحافة الشيخ أبي اليقظان إلى حين مشاركته في "المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا"، المنعقد بتلمسان في صائفة سنة 1935، حيث نشر له قصيدته "أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا"، وحذف منها أبياتا، وهو ما لم يفعله في نصّ نشره لمفدي قبل ذلك[6].

---

[1]- تنظر هذه النصوص الثلاثة: جريدة "النور"، س01، ع49، 1351/05/03هـ، 1932/09/06م، ص03.

[2]- أعني مقطوعاته الثلاثة في وداع ضيوف المؤتمر على النادي، وعلى قطار الجزائر، ثمّ على قطار قسنطينة؛ ومقطوعته في تأبين حافظ.

[3]- ينظر: جريدة "النور"، ع49، ص01-03.

[4]- رسالة مفدي إلى الشرّح محمد بن عمر وسليمان بن الحاج داود، 1932/09/02، رقم: 956، جمعية أبي إسحاق اطفيش لخدمة التراث-غرداية.

[5]- علّلت "النور" هذا الاحتجاب بتأخّر وصول الكاغد، وأخذ "النور" راحته بين العام الأوّل والثاني؛ ينظر: اعتذار لا بدّ منه، جريدة "النور"، س02، ع50، 26/[05]/1351هـ، 1932/09/27، ص03.

[6]- لذلك نرجّح كون هذه القصيدة هي التي راسل مفدي بشأنها الشيخ أبا اليقظان، ليقول له: «لأن تقطع طرفا من أطرافي أهون عليّ من حذف بيت من قصيدتي» رواية عن صديق مفدي الحميم، السيّد اطفيش محمد بن إبراهيم، لقاء في إطار التحضير لتظاهرة سنة مفدي زكرياء 2002، من غير تعيين للقصيدة.

3- نشره موضوعات مزابيّة صميمة في جريدة "النهضة"، وكانت "النور" أولى بها منها: نشر في جريدة "النهضة" مقالا حول مدرسة الإخاء ببسكرة[1]، بالرغم من أنّ مقاله الأوّل عن هذه المدرسة صدر في "النور" سنة قبل ذلك؛ وأبلغ دلالة فيما نحن بصدده نشره في "النهضة" مقالا يتحدّث عن جمعية الوفاق، والاحتفال بالإفراج عن الفرقد من الإقامة الجبريّة ببني عبّاس، وبدخول "النور" سنتها الثانية[2]، ثمّ قصيدته في هذه المناسبة الأخيرة "يوم الخلاص": تحدّث في مقاله عن الشيخ أبي اليقظان بكثير من التبجيل: «ثمّ دور الخطابة، فانتصب رئيس لجنة الاحتفال واقفا، وارتجل خطابا قيّما، أفعمه وطنيّة وحماسا، وبيّن شطرا من أعمال الزعيم الشيخ أبي اليقظان، مدير جريدة "النور" [...] ثمّ قام الأستاذ الشيخ أبو اليقظان فانهمر كالسيل، وغمر الحضور بسحر بيانه، وبلاغة تعبيره وأفكاره الحيّة»؛ أمّا قصيدته فكانت مرتجلة، جاء في أوّلها:

«يوم الخلاص حباك الله مكرمة، وزادك الله إكراما وتبجيلا
[...] يوم به عاد للزرقاء (فرقدُها)، وقلّد الكونَ من (نور) سرابيلا
وردَّ فيه إلى يعقوب ناظرَه قميصُ يوسفِه بالبرء مشمولا
وعاد فيه (رِئْيِي) راقصا طربا حرّا طليقا، وقِدْما كان مغلولا

وفي ختامها خاطب جريدة "النور" قائلا:

[...] يا أيّها (النور) أبرقْ كلّما رعدت هذي الحياة، ولا ترع الأقاويلا
واخرق حجاب عويصات قد انفتحت أمام وجهك ترجو منك تأويلا
واسطع على كلّ قلب، وانفثنّ به صدقا، وخلّ الأماني والتعاليلا
فإنّ نورك من نور الإله، فلا تيأس، ولا زلت بالتأييد مشمولا»[3].

والاحتفال إنّما كان يوم 1932/12/17، وكتب مفدي مقاله يوما بعد ذلك، بينما لم ينشر في "النهضة" إلاّ يوم 1933/01/14، ممّا قد يدلّ بالنظر إلى محتواه أنّه لم ينشره في "النهضة" إلاّ بعد تعذّر نشره في "النور"، بسبب غضب الشيخ أبي اليقظان عليه، و لم تشفع له عباراته فيه، وأبياته في "النور" في شيء.

إذا كان الشيخ أبو اليقظان ينشر إنتاج مفدي في صحفه المتعاقبة بمقدار، وبالطريقة التي لاحظها عليه مفدي، فكيف يمكن أن يقبل استئثاره بعدد من أعداد جريدته، وفي غيابه؟ كلّ ذلك يؤيّد ما

1- ينظر: الاحتفال بامتحان مدرسة الإخاء العامرة ببسكرة، بإمضاء: (بسكرة) مكاتبكم، جريدة "النهضة"، س10، ع2883، 1351/05/08هـ، 1932/10/08، ص01، 02.

2- جمعية الوفاق والاحتفال بالإفراج عن الفرقد الجمعية الإسلاميّة الجزائريّة لمقاومة الكحول، من غير إمضاء، جريدة "النهضة"، س10، ع2967، 1351/09/17هـ، 1933/01/14م، ص02.

3- القصيدة، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س10، ع2970، 1351/09/21هـ، 1933/01/18م، ص03.

ذهبنا إليه من كون علاقة الشيخ أبي اليقظان بمفدي تدهورت بعد هذه الواقعة، بل وألقت بظلالها على قضية "المعمل العربيّ"، فازدادت علاقتهما تأزّما.

أثر مشاركته في المؤتمر في نشاطه الأدبيّ:

لقد كانت مشاركته المتميّزة في المؤتمر الثاني لطبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا دافعا قويّا له في مواصلة نشاطه الأدبيّ وتوسيعه، خاصّة وأنّ شركته كانت نسبيّا في وضع مرض بالرغم من تفاقم الأزمة الاقتصاديّة الخانقة(1)، على صعيدين مختلفين:

الأوّل: المساهمة في الأنشطة الأدبيّة والثقافيّة.

سافر في أوائل أكتوبر إلى مدينة بسكرة، ليجدّد العهد بمدرسة الإخاء بعد سنة من افتتاحها، يقول: «وفعلا، فقد شاهدنا هاته المدرسة في أوّل تأسيسها، وأسعدنا الحظّ بمشاهدتها اليوم، فرأينا في نتيجة امتحانها دليلا واضحا على تقدّمها الباهر بأبنائها في جميع الفنون والآداب»(2)، وشارك في احتفالها بالامتحان الذي أجرته لتلاميذها يوم 10/02، فكتب عنه مقاله "الاحتفال بامتحان مدرسة الإخاء العامرة ببسكرة"(3)، وأدرج فيه مقطوعته الشعريّة التي ارتجلها فيه، وعنونها "يا أيّها الوطن المجيد تيقّظا!!"، بأوّل شطر في مخاطبته لوطنه قائلا:

«يا أيّــــها الوطـــن الـــمجيـــد تيقّظا، هذي الـــحياة فمرحبـــا بقدومــــها
اصعد عـــلى هـــام الشبـــاب مشيّدا هرم النهوض على سليم كهـــومها
وانهض على همم الشيـــوخ مـــبادرا للصالـــحات، مـــحقّقا لـــحلومـــها
/ودع التواكـــل والتخـــاذل جـــانبا، فمـــا فاز بالآمال غيـــر زعيمها»(4).

ولقد تزامن سفره هذا إلى بسكرة -فيما يبدو- مع تفاقم خلافه مع الزوّاي الحاج، صاحب معمل العطورات في الجزائر، بسبب من منافسته في نفس مجال النشاط الصناعيّ والتجاريّ، فنظم قصيدته في هجائه في جلسة جمعته

1- يقول في رسالته إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1932/08/04: «كنت في سفرة بعمالة وهران، استغرقت نحو خمسة عشر يوما، رجعت منها بعائدة ربّما كانت مسلّية لبعض الهموم التي نعانيها من جرّاء توقّف الحركة التجارية، واشتداد الأزمة، واكفهرار المستقبل التجاريّ أمام التجّار، إلاّ أنّنا -والحمد لله- أحسن حالا من غيرنا بكثير، فنحمد الله وحده على ذلك؛ وإنّ الاتّفاق اليهوديّ في عدم بيع البضاعة مؤجّلة الدفوع هي الضربة القاضية للبقية الباقية من تجّار الأهالي الضعفاء [...]، وقد أصبحت تتساقط بين أقدام هذا الاتّفاق كلّ يوم مئات من التجّار صرعى بيد الإفلاس والاضمحلال النهائيّ [...]، ولعمري إنّ هاته السنة هي نادرة النوادر، ﴿إنّها لإحدى الكبر نذيرا للبشر﴾[سورة المدثّر، الآيتان 35، 36]، فاللهمّ رحمة وحنانا بعبادك الضعفاء»أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- الاحتفال بامتحان مدرسة الإخاء العامرة ببسكرة، بإمضاء: (بسكرة) مكاتبكم، جريدة "النهضة"، س10، ع2883، 1351/05/08هـ، 1932/10/08، ص01.

3- نفسه01، 02.

4- نفسه01، 02. جاء في تقديم المقطوعة في ختام المقال: «وإلى القرّاء بعض ما أنشد من درر بنات الأفكار بذلك الحفل اللطيف. يا أيّها الوطن المجيد تيقّظا !! قصيدة ارتجاليّة ألقاها البارع اللّوذعيّ الأديب الشيخ مفدي زكرياء بحفلة مدرسة الإخاء ببسكرة»01.

بالشيخ محمد بن الحاج إبراهيم الطرابلسيّ، المعلّم بمدرسة الإخاء ببسكرة، وكان شاعرا، افتتحها الشيخ بنظم صدر طالعها، وأتمّ مفدي القصيدة بعد ذلك، جاعلا من المطلع لازمة تتكرّر في بداية كلّ مقطع، وهو كالآتي:

«صلّى عليك اللّه يا نــاسكا»، يـــا عابـــدا، يـــا أيّـــها المصلح

وأقلّ أبياتها فحشا، قوله في ختامها:

«أَقْـــصِر عن الشـــرّ، وذق هذه فَـــأُلاً، بـــها تغـــنّي أو تشطح

أعيـــذك الشيطـــان من قلمي، فـــإنّـــه من قـــصب يذبح»[1].

وكان من ثمرة لقائه بالشيخ الطرابلسيّ مقال نشره هذا الأخير في "النجاح"، بعنوان "إهمال النبوغ"، جاء فيه: «والتبعة في إهمال الشباب على الآباء، الذين أهملوا تربية أبنائهم، الذين هم ورثة ثروتهم التي جمعوها من الطرق التي لا يعرفون لها معنى، ولا يفهمون لها مغزى، وممّا يؤلمنا –وأيم الدّين– أن نشاهد نابغا عبقريّا، مثل (مفدي زكرياء) الذي وأده ذووه، وهو في العقد الثاني من عمره، ولو ترك هذا النابغة في أحضان المدارس لأتى بالعجب العجاب [...]. نعم نقول للآباء الذين حسدوا أولادهم: هم وارثوكم، فأعطوهم تراثهم، وثقّفوا عقولهم بالعلوم والمعارف، وبهذا تفلحون في الدارين، وتنالون رضى اللّه والملائكة والناس أجمعين»[2].

ولم يفوّت في تلك الآونة أيّ نشاط في الجزائر، يرى فيه عنوان النهضة الوطنيّة الجزائريّة الحاضرة:

حضر حفل افتتاح جمعية الشبيبة الجزائريّة، مدرسة "الفلاح" بالجزائر، بعد تمام بنائها، يوم 1932/10/30، وخلّده بمقال في جريدة "النهضة" عنونه "النهضة الجزائريّة المباركة"[3]، وجاء فيه قوله: «وقد حضر هذا الاحتفال الأوّل من نوعه ما يربو عن ستمائة نفر، من علماء البلاد، وأصحاب الجرائد، والتجّار، وأرباب الحيثيات، والشخصيات البارزة. وقد كان المحفل يمثّل منظرا رهيبا منظر الشعور الجزائريّ الجديد نحو نهضته الحاضرة، واستعداده للتضحية بكلّ عزيز وغال في سبيل رقيّه وسعادته»[4]؛ وشارك في المأدبة التي أقامها نادي الترقّي، يوم الثلاثاء 1932/11/08[5] مساء، على شرف المشاركين في اجتماع جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، كتب يقول في مقاله "مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين – ما يجري بالجزائر"[6]: «ثمّ تقدّم مفدي

1- القصيدة موجودة بخطّ صديق مفدي الحميم، اطفيش محمد بن إبراهيم؛ وجاء في تقديمها: «نظمت عام 1932، وصدر الطالع من وحي الشيخ الطرابلسيّ محمد الذي كان يدرّس في بسكرة، قيلت في الزَوَّايْ الحاج، صاحب معمل العطورات في الجزائر»؛ ينظر: القصيدة، مكتبة اطفيش محمد بن إبراهيم ببني يزقن.

2- جريدة "النجاح"، س14، ع1366، 1351/06/07هـ، 1932/10/09م، ص02.

3- المقال، بإمضاء: مكاتبكم مفدي زكرياء، 1932/11/01، جريدة "النهضة"، س10، ع2911، 1351/07/11هـ، 1932/11/10م، ص01، 02.

4- نفسه02.

5- على الأرجح، أو 11/01 على الأكثر، بالنظر إلى وتيرة نشر مقالاته في جريدة "النهضة"، بعد تمام كتابتها، كما يشهد لذلك مقاله السابق.

6- المقال، بإمضاء: مكاتبكم مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س10، ع2912، 1351/07/12هـ، 1932/11/11م، ص01، 02.

زكرياء، فألقى قصيدة ارتجلها في الشأن، قدّمها بمقدّمة فكاهية لطيفة»[1]؛ ثمّ شارك بمقطوعة -سبق الحديث عنها قريبا- في حفل تكريم الفنّان الموسيقي سامي الشوّا، في أوائل جانفي 1933؛ وعندما أقامت جمعية نادي الترقّي -كعادتها- مأدبة، يوم الخميس 1933/02/09 ليلا، على شرف أعضاء المجلس الإداري لجمعية العلماء، كانت مناسبة لكتابة مقاله "مأدبة نادي الترّقي الفاخرة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"[2]، يقول فيه عن جمعية العلماء وجمعية نادي الترقّي ما يلي: «تلك الجمعية [يعني: جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين] التي كانت البذرة الأولى في بثّ روح النهضة الجدّيّة، والإصلاح الدينيّ في أرض الجزائر بكلّ الوسائل الفعّالة [...] فكان لهذه الأعمال العظيمة أثرها الطيّب في الأوساط الجزائريّة، فاستيقظ نائم، واسترشد حائر، وهدي ضالّ، وعلم جاهل، ونصر مظلوم، ورفعت للحقّ أقلام خفّاقة في سماء هذه البلاد. وكان من أكبر أنصار هذه الجمعية، وأقوى أعوانها جمعية نادي الترقّي العامر، تلك الجمعية المباركة التي كفلت جمعية العلماء المسلمين، وأحاطتها بسور من همم صادقة، وعزائم فولاذيّة، وأياد كريمة، فازّينت بفضل تلك المجهودات، وازدهرت، واستوت على سوقها، فكان لجمعية النادي لدى الأمّة جمعاء ذلك الإكبار والإجلال [...]؛ ولقد سنّت [...] سنّة حسنة، وهي إقامة حفلات تكريم، ومآدب فاخرة لإعضاء جمعية العلماء المسلمين، في كلّ اجتماع لهم، بساحة النادي، الجدير بأن يسمّى "بيت الأمّة الجزائريّة"»[3]، وكان مفدي من بين الخطباء الذين تداولوا على المنبر[4].

ورد في تقرير مدير الأمن العامّ بالجزائر، بتاريخ 1932/12/08، ما يلي: «هذه الميول [يعني: الوطنيّة] اتّضحت في أشعاره التي ألقاها هذا الشابّ المزابيّ في الآونة الأخيرة، في نادي الترقّي، في مناسبات مختلفة، وخاصّة إبّان المؤتمر الأخير للطلبة المسلمين. إنّ المذكور أعلاه [يعني: مفدي] لم يشدّ الانتباه إليه -لحدّ الآن- إلاّ فيما يخصّ نشاطه الوطنيّ»[5].

كلّ ذلك مهّد لعضويته في لجنة التحضير لإحياء ذكرى شوقي وحافظ، بنادي الترقّي، وجاء في الإعلان عنها في جريدة "النور"، بتاريخ 1933/01/24، ما يلي: «[...] وكان حقّا واجبا على الوطن الجزائريّ الناهض، أن يشارك في هذه الأعمال الأدبيّة التي تدلّ على حياة اللغة فيه، وعلى اعترافه بقيمة أفذاذ الرجال الذين جدّدوا للعربية مجدها، وأرجعوا لها سالف عزّها. إنّما رأى رجال الجزائر أن يؤخّروا حفلة الذكرى إلى حين، حتّى يتعيّن موعد حفلة الشعب المصريّ [...]؛ ولمّا تقرّر أنّ حفلة الأمّة المصريّة ستكون يوم 22 فيفري 1933، شكّل بعض أدباء العاصمة لجنة تحضيريّة، أسندوا رئاستها للأديب الكبير أحمد توفيق المدنيّ، مهمّتها إقامة حفلة كبرى في اليوم

---

[1]- السابق01.

[2]- المقال، بإمضاء: مكاتبكم، جريدة "النهضة"، س10، ع2999، 1351/10/28هـ، 1933/02/23م، ص03، 04.

[3]- نفسه03.

[4]- ينظر: نفسه03.

[5]- ينظر: مدوّنة إلى السيّد مدير القضايا الأهليّة، رقم: 11647، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص02.

المذكور لإحياء ذكرى الشاعرين»[1]؛ وكانت اللجنة التحضيريّة تتكوّن من السادة: «محمد العيد [آل خليفة]، [أحمد] توفيق المدنيّ، مفدي زكرياء، [محمد] الأمين العموديّ، عبد الرحمن ياسين، أبو سعيد عدون، السعيد الزاهريّ، سلمى فاتح»[2]؛ وقد تولّى مفدي منصبا أساسيّا في هذه اللجنة، فقد كان كاتبها[3]، وقد عثرنا على رسالة تحمل إمضاء: «كاتب اللجنة التحضيريّة: مفدِّي زكرياء»، وجّهها إلى الشاعر مطياز إبراهيم بن بانوح، يخاطبه قائلا: «[...] لا شكّ أنّكم طالعتم في الجرائد العربية الجزائريّة نداءنا العامّ للحفلة التي سنقيمها إن شاء الله بعاصمة الجزائر، يوم 22 فيفري سنة 1933، الموافق 27 شوال 1351هـ، لإحياء ذكرى الشاعرين الكبيرين حافظ إبراهيم وأحمد شوقي بك، وقد قرّرت اللجنة التحضيريّة مكاتبة بعض أفاضل الأدب المبرّزين رأسا، تحثحث هممهم الصادقة إلى الاستعداد للمشاركة في هذه الحفلة العربية الخالدة التي ستكون عنوانا على رقيّ المستوى الأدبيّ الجزائريّ عند إخواننا الشرقيّين، ودليل الارتباط المتين العرى بين الجزائر وسائر الأمّة العربيّة التي تبكي اليوم بعين واحدة هذين الكوكبين الذين سطعا في سماء لغة العرب دهرا طويلا، فانطفآ بعدما جذبا إليهما قلوب أبناء الأمّة العربيّة بأسلاك من سحر البيان. ولقد رأت اللجنة التحضيريّة أنّكم من الأدباء الأفاضل المبرّزين الذين يعوّل على كتاباتهم وأبحاثهم في مثل هذا الميدان، فكاتَبْتكم بهذه الرسالة طالبة منكم أن تلبّوا نداءها بمشاركتكم الحسيّة، ومشاركتكم الأدبيّة بما تجود به قريحتكم في الموضوع من شعر ونثر، لتسجّلوا بذلك للعربية وللعرب عظيم خدماتكم، ووثيق ارتباطكم، وشريف إحساسكم، وللجزائر [صفحات] خالدة في ديوان نهضتها المباركة»[4]؛ وفي كونه كاتب اللجنة التحضيريّة، وكذا التطابق بين أفكار هذه الرسالة، والأفكار الواردة في مقال الإعلان عن إحياء الذكرى، ما يدلّنا على أنّ هذا المقال لمفدي زكرياء، وقد أمكن نشره في جريدة "النور" لأنّه لا يحمل إمضاء مفدي، وكان صادرا عن اللجنة التحضيريّة.

وساهم أيضا في النشاطات الأدبيّة المزابيّة، فشارك في بعث جمعية "الوفاق"، وكانت مهمّته فيها حافظ المكتبة والأوراق[5]؛ وأسهم في الاحتفال الذي أقامته الجمعية بمناسبة الإفراج عن الفرقد سليمان بوجناح من الإقامة الجبريّة ببني عبّاس، ودخول "النور" سنتها الثانية، يقول في ذلك: «الاحتفال إنّما كان يوم 17 من شهر ديسمبر، على

1- ذكرى الشاعرين حافظ وشوقي، من غير إمضاء، جريدة "النور"، س02، ع66، 1351/09/27هـ، 1933/01/24م، ص02، 03. ويتضمّن دعوة الأدباء والكتّاب للمشاركة في هذا الحفل بقصائدهم وأبحاثهم، مع ما يجب مراعاته من إرشادات.

2- ينظر: يوم شوقي وحافظ، من غير إمضاء، جريدة "الحياة"، س01، ع02، 1351/12/19هـ، 1933/04/15م، ص02. ويبدو أنّه وقع تغيير في رئاسة اللجنة التحضيريّة من أحمد توفيق المدنيّ إلى محمد العيد آل خليفة.

3- قرأت برقية اعتذاره عن الحضور في الحفل، بصفته كاتب اللجنة التحضيريّة؛ ينظر: نفسه02.

4- الرسالة، 1351/10/11هـ، 1933/02/06، مكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز، بني يزقن. وتوجد نسخة من الرسالة لم يعيّن فيها المرسل إليه، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

5- ينظر: الباب الثاني، ص143، 144.

الساعة الثامنة ليلا [...]. ثمّ بعده قام مفدي زكرياء، وألقى كلمات نيابة عن الأخوين باسعيد عدون، وعن الأخ العنق محمد، لتعذّر حضورهما بالاحتفال. ثمّ ألقى خطابا عن نفسه، استغرق نصف ساعة، تعرّض فيه لجميع الحيثيات والواجبات التي يقتضيها الاحتفال، واستنهض فيه الهمم -بحماسته- إلى العمل بجدّ في سبيل المجد؛ وشفع خطابه بقصيدة ارتجلها للموضوع، نثبتها للقرّاء بعد هذا المقال [...]»[1]؛ كما نشر مقالين في جريدة "النهضة" عن النقابة التجاريّة التي أنشأها المزابيّون بعمالة قسنطينة: الأوّل بعنوان "تأسيس نقابة تجاريّة دفاعيّة لقسنطينة وعمالتها"[2]، والثاني عنوانه "النقابة التجاريّة للمدافعة عن حقوق التجّار الميزابيّين بعمالة قسنطينة"[3].

الثاني: توسّع نشاطه الصحفيّ.

واصل عمله مراسلا لجريدة "النهضة" التونسيّة، وركّز على ما كان يعتبره عنوان النهضة الجزائريّة الحاضرة، فكان ينقل وقائعه بحماس بالغ، وأغلب مقالاته قبل المؤتمر وبعده نشرها بجريدة "النهضة"، وقد سبقت نماذج منها.

هذا النشاط المتواصل وهذه الحيوية المتوثّبة، وصلته الوثيقة بالنخبة الشابّة المثقّفة في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، رشّحته لأن يكون ممّن وجّه إليهم صاحب جريدة "المرصاد"، عبابسة الأخضريّ، الدعوة لمحاربة الطريقة العليويّة، وذلك إذ يقول: «إلى كافّة الكتّاب الكرام: [...] وإنّا لمنتظرون لكلّ من: سمهري، وتأبّط شرّا، والغول، وشيبوب، وعدي، والحارث بن همام، ونصير، وشمهروش، وأبو معاذ، والسفير، وهي بن بي، وأبو هراوة، وصوفي، وبيضاوي، و**مفدي**، إذ لا غرض في هذه الحرب سوى محاربة العليويّين وحدهم لا غير»[4]؛ فلبّى مفدي هذه الدعوة، في مقاله "ها أنذا! لبّيك يا مرصاد"؛ يقول في مفتتحه: «[...] ما كدت أطالع عدد 25 من جريدتكم المخلصة لوطنها ودينها، حتّى استوقفني بغتة لقبي، في فصلكم الممتع الذي دعوتم فيه أرباب اليراعة الحرّة، لتكوين واجهة حربيّة متراصة الصفوف ضدّ الشرذمة الخاسرة [...]، وما كنت لأرفع قلمي، للمرّة الأولى، في وجه هؤلاء الفلتاء، لولا الاستجابة لذلك الداعي الأمين الذي دعاني، والذي يجب أن ألبّيه، أحببت أم كرهت، لأنّه صوت صادق، صادر من فؤاد ملؤه إخلاص، ووطنيّة، واستماتة في سبيل الذود عن شرف الدّين والوطن، ألا وهو صوت "المرصاد" [...]، لذلك تراني أجيبك بملء فمي، وبفكري ولساني وقلمي ها أنذا، ها أنذا»؛ ثمّ يستمنحه العفو أن يهمس في أذنه كلمة واحدة، وله الرأي بعدها، فإذا هو يطالبه فيها بالترفّع عن مواجهة أولئك، لأنّ الأمّة «أحوج إلى تلك الأعمدة البيضاء، لترسم عليها صحائف من نور، تقدّمها غدا بين يدي أحفادها، في مستقبل أيّامها

1- جمعية الوفاق والاحتفال بالإفراج عن الفرقد الجمعية الإسلاميّة الجزائريّة لمقاومة الكحول، من غير إمضاء، جريدة "النهضة"، س10، ع2967، 1351/09/17هـ، 1933/01/14م، ص02.

2- المقال، بإمضاء: مكاتبكم، جريدة "النهضة"، س09، ع2879، 1351/06/04هـ، 1932/10/04م، ص01.

3- تتمة العنوان: بسطة وجيزة في التجارة الميزابية، بإمضاء: مكاتبكم، 1932/10/01، جريدة "النهضة"، س10، ع2885، 1351/06/11هـ، 1932/10/11م، ص01، 02.

4- اقطع الراس اتزول الخصومة (مثل عاميّ)، من غير إمضاء، جريدة "المرصاد"، س01، ع25، 1351/04/23هـ، 1932/08/26م، ص03.

الرهيب. الأمّة في حاجة إلى مرصادها، وإلى قلم مديره الصادق في غير هذا الميدان، فأحر بك يا مولاي أن تولي وجهك شطر الأبحاث الحيويّة الحقّة، وأن تستخدم مواهبك الطيّبة في النهوض بأمّتك [...]. ضع مرصادك في المكان الأعلى الذي خلق له، وهلمّ بنا إلى الجدّ [...]، فأوقاتنا غالية، ومهمّاتنا خطيرة، و لم تدع أقدام الليالي متّسعا للهزل، إنّه لقول فصل!!»، وفي الختام يقول له: «هاته همستي يا مولاي، أبثّها في أذنك، وإن شئت إلاّ الحرب، وموالاة الطعن والضرب، فأنبّهك، وإيّاك أن ينسيّنك الشيطان، فإنّ اسمي "ديك الجنّ"، فأتني بدجاجهم ولا عليك!

نظـــرة، فارتعـــاشـــة، فـــانـــتفـــاض، فانـــقضاض، فمـــهلة، فابـــيضاض»[1].

غير أنّ مشاركته في هذا النطاق كانت جدّ محدودة، لم تتجاوز ثلاث مقطوعات شعريّة في الهجاء، بالرغم من تقديمه مقطوعته الأولى "شعر الشيخ الرابحي""[2] بقوله: «لقد عزمنا على بركة اللّه إلى أجل غير مسمّى أن نشنّف أسماع قرّاء "المرصاد" بقصائد نفيسة، لشاعرنا الفحل، الشيخ الرابحيّ، كانت في طيّ النسيان، وإذا قلنا الرابحيّ فغنيّ عن البيان»، ورقّم المقطوعة برقم واحد، وبعدها: قال يفتخر بنفسه؛ وهو ما يدلّنا صراحة على قصد مفدي إلى نشر عدد من النصوص الشعريّة على لسان الشيخ الرابحيّ، في الأعداد القادمة، وهو ما لم يحدث تماما[3]؛ وفي نفس العدد نشر مقطوعة ثانية، بعنوان: "كية بعد كية!: إلى عميرة الأقرع"[4]؛ وبعدها بشهر تقريبا نشر مقطوعة ثالثة بعنوان "كية بعد كية!"[5]، تناول فيها بالهجاء من أسماه "عميرة"، وتوقّف بعدها تماما، فلم يصدر له في "المرصاد" أيّ نصّ مهما كان نوعه، لا بإمضائه الصريح، ولا بإمضاء: ديك الجنّ.

وإذا بحثنا عن سبب توقّفه عن الكتابة في "المرصاد"، فلعلّنا نجده في الموقف الذي همسه في أذن صاحبها، لتعارضه تماما مع نوعية الكتابة التي طالبه بها عبابسة الأخضريّ؛ غير أنّ السبب الأهمّ -في تقديرنا- هو انشغاله حينها بمشروع كبير، ألهمه مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا إنجازه، فقد تحمّس له تحمّسا كبيرا؛ وأراد به تجسيد أحد أحلام يقظته، وقد كشفت لنا عنه، وعن أحلام أخرى كانت تراوده بعد عودته من تونس، قصاصة عثرنا عليها، تنوّق مفدي في كتابة محتواها، تتحدّث عن مجلّة "الفرات"، ومطبعتها "المطبعة الفراتيّة"، أنشأهما مفدي زكرياء بن سليمان الميزابيّ، تلميذ بالجامع الأزهر في القاهرة[6]؛ وبعيدا عن أحلام اليقظة، رأيناه في أفريل من هذه

1- المقال، ديك الجنّ، جريدة "المرصاد"، س01، ع29، 1351/06/20هـ، 1932/10/21م، ص02، 03.

2- المقطوعة، بإمضاء: ديك الجنّ، جريدة "المرصاد"، ع29، ص03.

3- مجموعة أعداد جريدة "المرصاد"، في قسم الدوريات، بالمكتبة الوطنيّة بتونس، لا ينقص منها سوى الأعداد الآتية: 43، و47، و53، و55، و62، وهي بعيدة نسبيّا عن الفترة التي يفترض فيها نشر مفدي إنتاجه فيها، بإمضاء "ديك الجنّ".

4- المقطوعة، بإمضاء: ديك الجنّ، جريدة "المرصاد"، ع29، ص03.

5- المقطوعة، بإمضاء: ديك الجنّ، جريدة "المرصاد"، س01، ع33، 1351/07/19هـ، 1932/11/19م، ص03.

6- نصّها كالآتي: «"الفرات" 1346هـ [1927/1928م] مجلّة علميّة أدبيّة سياسية اجتماعية نصف شهريّة. لمنشئها: مفدي زكرياء بن سليمان الميزابي، تلميذ بالجامع الأزهر. إدارتها نهج سعد باشا، نمرة 30، تيلفون 1040. معلوم الاشتراك فيها عن سنة جنيه مصريّ بالإيالة المصرية، وخارجا جنيه ونصف. محلّ سكنى صاحبها: نهج قصر العين 04، القاهرة، مصر. المطبعة الفراتية لصاحبها: زكرياء بن سليمان مفدي. نهج سعد

السنة 1932 يبدي رغبته في إنشاء جريدة شبه "النديم" -ولو شهرية-، ليجد الحرية التّامة في نشر أفكاره[1].

لقد كان في شهر أكتوبر من سنة 1932، أو قبله بقليل، منشغلا بإنشاء جريدة على مستوى المغرب العربيّ، هي جريدة "الحياة"، بمعية زميل دراسته باسعيد عدون بن بكير، وكان آنذاك على علاقة طيّبة به[2]:

قام مفدي بمعية باسعيد عدون بطبع رسالة، خلال شهر أكتوبر 1932[3]، أرسلاها لمن ترجى مشاركته في تحرير فصول جريدة "الحياة" من الأدباء والكتّاب، جاء فيها بعد عنوان "هلمّوا إلى الحياة لسانكم الناطق وقلبكم المفكّر"، ما يلي: «حضرة الوطنيّ الغيور، الأديب المحترم، سيّدي: [...] فإنّنا نزفّ لكم البشرى بعزمنا على إصدار جريدة جامعة تتناول المواضيع الهامّة، تحت عنوان "الحياة"، وهي لسان حال المسلمين المفكّرين بشمال إفريقيا. [...] وقد رأينا من اللازم المفروض أيضا، أنّ الجريدة لا تكون لسان المفكّرين المسلمين إلاّ إذا كانت حقيقة مجال أقلام جلّ المفكّرين المسلمين القاطنين بإفريقيا الشماليّة، إن لم نقل كلّهم، ومعرضا لكلّ ما تنتجه أفكارهم الناضجة، وتلده قرائحهم الوقّادة، وتجود به عزائمهم القويّة. إنّ جريدتنا علمية أدبية اقتصادية أخلاقية جامعة، أسّست لتعمل على هدم ما شادته أيدي الجهل والتفريط والكسل، وعلى إزالة كلّ ما يحول بين مسلمي هذه البلاد، وبين رقيّها العلميّ والأدبي والاقتصادي، وهي ليست حبسا على فرد أو أفراد معيّنين، أو متقيّدة بحزب من الأحزاب، إنّما هي ملك مشاع بين جميع المتنوّرين، الذين يحملون فكرتنا، ويسعون مثلنا فيما يحيي ما اندثر من مجد غابر، مع إضافة ما يلزم أن يضاف إليه من محاسن العصر الحاضر. شعارها الإخلاص في العمل لله، والسعي لصالح الوطن، رائدها الصدق، دعامتها التفكير الحرّ والعلم الصحيح، حزبها الحقّ، مبدؤها الصراحة. ولاعتقادنا أنّكم من الذين يحملون هذه الفكرة الجميلة، أوجب علينا الضمير الذي لا نعصيه، ولا نخالفه، ما دام يأمرنا بالواجب الدينيّ والوطنيّ؛ ودعتنا المصلحة المشتركة لمكاتبتكم: أوّلا: لتعريفكم بما صحّ عزمنا عليه، وبقرب إنجاز مشروعنا بحول الله وقوّته؛ وثانيا: لاستنهاض هممكم، والتماس المعونة منكم، ونخصّص من أنواع المعونة النوع العلميّ والأدبيّ، راغبين منكم أن تتفضّلوا علينا بمشاركتكم الفعليّة [في] هذا المشروع الجليل، وأن توافونا بما تجود به فكرتكم، وينفثه يراعكم النزيه، ممّا يوفّر "الحياة" لهذا العمل المبرور [...]. والسلام من شاكري فضلكم سلفا [...] مدير الجريدة:

باشا 31، القاهرة» القصاصة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ والملحق600.

1- ينظر: رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1932/04/22، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس، ص01.

2- ولا نستبعد دورا ما لباسعيد عدون في إشراك مفدي في نشاطات نادي الترقّي، وخاصّة في مؤتمر الطلبة المسلمين.

3- استصدر باسعيد عدون تصريحا بالسفر إلى الجزائر، يوم 1932/10/29؛ ينظر: سجلّ التساريح، 1929-1937، أرشيف القيّاد، ص80. وتحدّث فيغورو، حاكم ملحقة غرداية، في رسالة مؤرّخة في 1932/12/06، عن لقاء جمعه بباسعيد عدون قبل شهر من هذا التاريخ، حدّثه فيه باسعيد عن المنشور الإشهاريّ الخاصّ بجريدة "الحياة"، ويغلب على ظنّنا أن يكون الحديث حينها عن هذه الرسالة لا عن المنشور المرفق بالرسالة؛ ينظر: رسالة حاكم ملحقة غرداية إلى الحاكم العسكريّ لمنطقة غرداية بالأغواط، إمضاء: فيغورو (Vigourous)، رقم: 72/S، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01، 02؛ أرفق بها ترجمة المنشور إلى الفرنسيّة، وثيقة من صفحة واحدة.

أبي سعيد عدون بن بكير؛ رئيس قلم التحرير: مفدي زكرياء بن سليمان»[1].

ثمّ سافر إلى تونس، بعد مشاركته في مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين[2]، حاملا معه -على الأرجح- نسخا من الرسالة السالفة الذكر؛ فقد كتب المقيم العامّ الفرنسيّ بتونس، في رسالته إلى الوالي العامّ بالجزائر، يوم 1932/11/24، يقول: «لي الشرف أن أنهي إلى علمكم أنّ شابّا مثقّفا جزائريّا، يدعى مفدي زكرياء، حضر إلى تونس في الأسبوع الماضي لقضاء عدّة أيّام، بهدف عقد صلة بين النخبة المثقّفة الجزائريّة والتونسيّة. لقد طلب من تونسيّين شباب المشاركة في تحرير جريدة بعنوان "الحياة"، يعتزم إصدارها قريبا في الجزائر؛ ويكون مفدي قد ضمن تعاون السادة: باسعيد عدون بن بكير، مدير تحرير جريدة "التلميذ" بالجزائر؛ والعربي الكباديّ، أستاذ بالخلدونية، وشاعر تونسيّ، يكتب باللغة العربية. هذا وستكون "الحياة" -فيما يبدو- دورية أدبيّة وسياسية واقتصادية، تنشر أنباء جميع مناطق إفريقيا الشمالية، والعالم الإسلامي عموما»[3]؛ وكتب في مقاله عن مأدبة نادي الترقّي، بجريدة "النهضة"، تحت عنوان فرعيّ "جريدة الحياة": «نشرت جريدة النور الغرّاء رسالة [...] ممضاة من الأخوين الحازمين الصادقين: [با]سعيد عدون بن بكير، ومفدي زكرياء [بن] سليمان، مفادها زفّ البشرى إلى الأدباء عن عزمهما على إصدار جريدة جامعة باسم "الحياة"، في أوائل جانفي [1933]، ولقد قام القطر الجزائري سرورا وإجلالا لهذه البشرى /العظيمة، معلّقا على هذه الجريدة آمالا كبيرة، نظرا لما يعهده في صاحبيها من الكفاءة والغيرة والإخلاص، وإنّا نتمنّى لهذه الجريدة حياة طيبة، وعمرا مديدا»[4]؛ وغنيّ عن البيان عدم نشر "النور" للشيخ أبي اليقظان شيئا من ذلك[5]، كما أنّ الرسالة والمنشور بعدها لم يطبعا بمطبعته، المطبعة العربيّة، بسبب الخلاف الذي كان بينه وبين مفدي في تلك الآونة.

أرسل حاكم ملحقة غرداية إلى الحاكم العسكريّ لمنطقة غرداية بالأغواط، يوم 1932/12/06، رسالة يخبره فيها عن منشور، طبع بالعربيّة، أرفقه بها مترجما إلى الفرنسيّة، يعلن عن قرب صدور جريدة باللغة العربيّة، بعنوان "الحياة"، ويهدف إلى جمع الاشتراكات فيها، مديرها: أبو سعيد عدون بن بكير، ورئيس قلم تحريرها: مفدي زكرياء بن سليمان، وتحدّث في رسالته عن وجود هذا الأخير ببني يزقن في هذا التاريخ، وتوقّع إحضاره

1- نسخة مطبوعة من الرسالة، لم يعيّن فيها المرسل إليه، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

2- يوم الثلاثاء 11/08 على الأرجح، أو 11/01 على أبعد تقدير، على ما مرّ سابقا.

3- ينظر: الرسالة، رقم: INT 4-1191، موضوعها: بخصوص المدعوّ مفدي زكرياء، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين — ما يجري بالجزائر، بإمضاء: مكاتبكم مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س10، ع2912، 1351/07/12هـــ، 1932/11/11م، ص01، 02. والحديث واضح هنا في دلالته على الرسالة المطبوعة لا المنشور.

5- لا ينقص مجموعة أعداد "النور" بمكتبة الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو سوى الأعداد 27 و28 و78، وهي بعيدة عن الأسابيع المفترض فيها نشر الرسالة، ولا أثر للرسالة في المجموعة تماما، خاصّة بين عددي 50 و57، الصادرين بين 09/27 و11/15؛ كما لم نعثر لها على أثر في فهرس موضوعات الجريدة، و لم ينقص المجموعة التي اعتمدها محمد ناصر سوى العددين 12 و53؛ ينظر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة354-380.

لنسخ من هذا المنشور، للترويج لهذا المشروع الجديد[1]، وجاء في المنشور ما يلي: «اشتركوا في "الحياة"، لسان حال المسلمين المفكّرين بشمال إفريقيا [...]. جريدتنا تعالج أيضا حياة المسلمين في جميع مظاهرها، في الميدان الاقتصاديّ والثقافيّ؛ لا تدافع عن مصالح خاصّة، وإنّما تهتمّ بتجميع مصالح عموم المسلمين، من غير أيّ تمييز جهويّ أو حزبي. وكما يدلّ عليه عنوانها، فإنّها "حياة" تمثّل المسلم في جميع تجلّيات ذكائه وفكره ومعتقداته، وواجباته وكذا حقوقه. اشتركوا إذن بأعداد كبيرة، فبقدر تجمّعنا واتّحادنا نكون أقدر على إسماع صوتنا، ومنح المسلمين بشمال إفريقيا "حياة" أكثر قوّة، وتنظيما أمتن، وانسجاما أكبر، وهو ما نحن في أمسّ الحاجة إليه في سبيل تطوّرنا، والمطالبة بحقوقنا الأكثر قداسة. إمضاء: مدير الجريدة: أبي سعيد عدون بن بكير، ورئيس قلم التحرير: مفدي زكرياء بن سليمان»[2].

ولا أدلّ على انشغال مفدي الكبير بهذا المشروع من انقطاع مشاركاته في الصّحافة لما يقارب الشهرين، إن لم يزد عليهما، فبعد مقطوعته "كية بعد كية" المنشورة في "المرصاد"، بتاريخ 1932/11/19، لم تنشر له "النهضة" مقاله الجديد حول جمعية الوفاق والاحتفال بالإفراج عن الفرقد، إلاّ يوم 1933/01/14، بعد آخر مقال له فيها، وهو مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، بتاريخ 1932/11/11.

إنّه طموح كبير، لو تحقّق لكانت "الحياة" -فيما نعلم- أوّل جريدة جزائريّة ذات توجّه مغاربي، ولكنّه سابق لزمانه، لأنّ ما تتطلّبه صحيفة كهذه هو عمل يوميّ دؤوب على نطاق واسع جدّا، على مستوى المغرب العربيّ، في حين لم يكن المشروع يملك بعد شروطه التنظيميّة، والمادّية مع الأزمة الاقتصاديّة الخانقة، وشروطه الذهنيّة أيضا.

أثر قضية "المعمل العربيّ" في حياته الأدبيّة:

بدأت سنة 1933، ولم تر جريدة "الحياة" النور في جانفي منها، على ما أعلنه مفدي في مقاله السابق؛ وفي المقابل بدأ العدّ العكسيّ لسقوط شركة "المعمل العربيّ" سقوطا حرّا[3]، التهم في طريقه كلّ مشاريعه وطموحاته:

ظهر المقال الأوّل ضدّها في "النور"، في عددها 65[4]، يوم 01/17، وتبعه المقال الثاني، أسبوعا بعد سابقه، في العدد 66 منها، يوم 11/24[5]، وأوقفت جريدة "النور" في هذا العدد نشر إشهار الشركة، والذي اتّصل

1- ينظر: الرسالة، بإمضاء فيغورو (Vigourous)، رقم: 72/S، 1932/12/06، 15h20، (CAOM)، ص01، 02.

2- ينظر: نسخة من المنشور مترجما إلى الفرنسيّة، إمضاء: المترجم قوجون (Gojon)، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

3- سبق وأن تناولت هذا الموضوع بالتفصيل في الباب الثاني، لذلك أكتفي هنا بعناوين تدلّ على مراحله المختلفة، مع التركيز على أثر هذه القضية وانعكاساتها على حياته الأدبيّة فحسب.

4- ينظر: كتاب مفتوح إلى مؤسسة المعامل العربيّة بالأبيار، إمضاء: بعض المساهمين (غليزان)، جريدة "النور"، س02، ع65، 1351/09/20هـ، 1933/01/17م، ص03.

5- ينظر: خداع العناوين أو النائب الأمين ومعمله الثمين، إمضاء: عالم بما هنالك، جريدة "النور"، س02، ع66، 1351/09/27هـ، 1933/01/24م، ص02.

إصداره فيها منذ عددها الثاني، في 1931/09/22.

لم يتأثّر مفدي كثيرا بهذين المقالين، فهو يقول لأستاذه الشيخ الثمينيّ في رسالته، بتاريخ 1933/02/03: «ولقد وقعت هنا وقائع من بعض الذين سوّلت لهم نفوسهم الفقيرة أن يكونوا مأجورين لخدمة أغراض دنيئة، وأن يبيعوا ذممهم بدريهمات معدودة، ليهدموا مستقبل أبنائهم بمعاول الكذب والزور والبهتان، وأن يلبسوا أغراضهم بلباس الدّين، وقد فتحوا على أنفسهم بابا يعسر عليهم سدّه في المستقبل، والعمل جار بجدّ ونشاط لاتّخاذ الوسائل القاهرة ضدّهم، وضدّ أراجيفهم، وتكون خطّة دفاع منظّمة، يعلم الناس وراءها كيف تلعب الأهواء بالذمم الخربة، والأدمغة المشتراة، وقبل أن أبتدأ في وسيلة من تلكم المسائل أرجو أن آخذ رأيكم في المسألة لذلك، فإنّي أفصّل لكم الأمر في رسالة بعد هذه مستقلّة»[1]، والإشارة هنا واضحة إلى الشيخ أبي اليقظان في المقام الأوّل، ومنه قوله «ليهدموا مستقبل أبنائهم».

ثمّ إنّ مفدي أعلن لأستاذه في نفس الرسالة عن تخلّيه عن مشروع جريدة "الحياة"، وذلك إذ يقول: «أمّا مسألة "الحياة" فقد عدلت عنها اعتمادا على ملاحظاتكم من عدم الاقتران مع ذلك المخلوق، وإنّي جزمت نهائيّا على عدم الاقتران معه، رغما عن كون العلائق لا تزال كما كانت، وإذا لزم أن تكون "الحياة" أو غيرها فباسمي الخاصّ، وتحت مسؤوليتي الخاصّة»[2]، وكشف بذلك عن سبب آخر من أسباب وقف هذا المشروع، وهو مدير "الجريدة"، اعتمادا على ملاحظة أستاذه، لأنّ زميل دراسته باسعيد عدون لم يكن مرضيّا -فيما نعلمه- عند أستاذهما الشيخ الثمينيّ؛ مع إشارته إلى أنّ العلاقة بينه وزميله باسعيد ما زالت على حالها؛ وهو ما يفنّد بالمقابل أيّة علاقة مباشرة بين إفلاس الشركة ووقف مشروع جريدة "الحياة".

وتبع هذين المقالين مقال ثالث في العدد 67 من "النور"، يوم 02/07[3]؛ وكان المقال الذي قصم ظهر الشركة هو مقال الشيخ أبو اليقظان، في العدد 68 من جريدته "النور"، في 02/14[4].

عند ذلك ظهر تأثّر مفدي بهذه القضيّة، وتعمّق تدريجيّا مع تفاقمها، وانقطاع الرجاء شيئا فشيئا في حلّها منذ مقال الشيخ أبي اليقظان، إذ بدأت الشكاوى من المكتتبين في المشروع تتتابع لتصل يوم 03/10 إلى 12 شكوى، وانتهى الأمر في شهر ماي إلى 28 متظلّما؛ فما كان من الإدارة الاستعمارية بالجزائر إلاّ أن تتدخّل، وفي أعلى

1- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. لم نعثر على الرسالة المستقلّة المشار إليها.

2- نفسها.

3- ينظر: سؤال إلى صاحب المعمل العربيّ الفريد أو نائبه الوحيد...، بإمضاء: أحد المشتركين (مستغانم)، جريدة "النور"، س02، ع67، 1351/10/11هـ، 1933/02/07م، ص02، 03.

4- ينظر: لصوص الشركات: كلمة "النور"حول الكتاب المفتوح، من غير إمضاء، جريدة "النور"، س02، ع68، 1351/10/18هـ، 1933/02/14م، ص03. والعنوان خير دليل على نسبته إلى الشيخ أبي اليقظان لا غير.

مستوياتها، إذ دعا الوالي العامّ، في 02/23، القضاء إلى فتح تحقيق، أفضى إلى إلقاء القبض على المتّهم الرئيسي في القضية، دلفينو أوريليا(Delfino Aurélia)[1].

هذا التأثّر يظهر فيما يلي:

تخلّفه عن المشاركة في حفل "إحياء ذكرى شوقي وحافظ"، بعد أن كان عضوا في لجنته التحضيريّة، وكان كاتبها[2]، ففي اليوم الموعود، يوم الأربعاء 1933/02/22، انعقد الحفل بنادي الترقّي، على سا 20 و15د، بحضور ما يقارب 300 شخصا، من أدباء الجزائر ووجهائها[3]، وتخلّف مفدي عن حضور هذا الحفل التاريخيّ الكبير، وما كان هذا من طبعه ولا ديدنه: يقول تقرير لمدير أمن عمالة الجزائر، وهو بصدد تعداد أعضاء اللجنة التحضيريّة: «وزكري بن سليمان الذي كان له نصيب كبير في تنظيم هذا الحفل، وقدّم اعتذاره عن حضوره لأسباب مجهولة»[4]؛ وبرقية اعتذاره تلاها كاتب الحفل، باسعيد عدون: «برقية الأديب مفدي زكرياء، كاتب اللجنة التحضيريّة: تأخّرت عن الحضور معكم شخصيّا لموانع قاهرة، وأنا مشارككم بروحي، وأتمنّى لكم النجاح»[5]؛ وكان في ذلك اليوم بالجزائر، ولم يكن غائبا عنها، فقد كتب رسالة في ذات اليوم إلى شيخه الثمينيّ، وأتبعها برسالة ثانية يوم 1933/02/25، لتأكيد بعض محتوى سابقتها[6].

وتبعه توقّفه عن العمل مراسلا لجريدة "النهضة" التونسيّة بالجزائر، بعد نشاط متّصل في سنة 1932، وكان آخر مقال نشره فيها هو "الحياة الأدبيّة"، بتاريخ 1933/03/07[7]، أمضاه كالآتي: «م.ز»، وهو إمضاء يعكس حالته النفسيّة آنذاك؛ ثمّ لم يعاود نشر مقالاته على صفحاتها إلاّ في أواخر سنة 1936، كما سيأتي لاحقا.

وبلغ تأثّره ذروته عندما سافر إلى بني يزقن، بمناسبة عيد الأضحى المبارك لسنة 1351هـ، الموافق ليوم 1933/04/06، فوجد الجوّ في مزاب مسموما، على حدّ تعبيره؛ وهو ما كشفه محتوى أربعة رسائل كتبها يوم العيد، وبعده، على ما مرّ بنا تفصيله وبيانه[8].

1- ينظر تفصيل هذه الوقائع: الباب الثاني، إفلاس الشركة، ص144-154.

2- ينظر: ص484، 485.

3- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 737، 1933/02/23، موضوعه: جمعية العلماء (حزب إصلاحيّ)، 2I44، (CAOM)، وثيقة من صفحتين، ص01.

4- ينظر: نفسه. وقد وقع في هذا التقرير خلط بين لجنة التحضير للحفل، ولجنة الحفل، فقد تحدّث عن أعضاء الثانية باعتبارهم أعضاء الأولى، فباسعيد عدون كان كاتب الحفل، لا كاتب اللجنة التحضيريّة؛ ينظر: يوم شوقي وحافظ، جريدة "الحياة"، س01، ع02، 1351/12/19هـ، 1933/04/15م، ص02.

5- يوم شوقي وحافظ، جريدة "الحياة"، ع02، ص02.

6- ينظر: الرسالتان، 22 و 02/25، أرشيف الشيخ الثمينيّ بتونس.

7- ينظر: المقال، إمضاء: م.ز، جريدة "النهضة"، س10، ع3009، 1351/11/10هـ، 1933/03/07م، ص02.

8- ينظر: الباب الثاني، ص148-151.

غير أنّ هذه الرسائل تكشف لنا -من جهة أخرى- صلته بجريدتين، بصفته محرّرا؛ وهاتان الجريدتان ظهرتا واختفتا في زمنين متقاربين، هما "الجحيم"، و"الحياة": ظهر عددان من الأولى، وعدد واحد من الثانية، قبل سفره إلى بني يزقن، وتوقّفتا في شهر ماي من نفس السنة، في العدد السابع من "الجحيم"، والثالث من "الحياة".

وعليه، فإنّ إنتاجه في الصحافة بعد مقال "الحياة الأدبيّة" في النهضة، لم يظهر إلاّ في هاتين الجريدتين، في الأعداد التي سبقت سفره هذا في المقام الأوّل، وإن ظهر غيره في الأعداد الموالية، فيكون -منطقيّا، وفي أغلبه الأعمّ- ممّا أعدّه قبل تاريخ صدوره، لأنّ تأثّره بقضية الشركة بلغ غايته في هذه السفرة، لانقطاع رجائه في حلّها، ذلك أنّه اختار بعدها حياة العزلة والانزواء بعيدا عن المحافل والأضواء، وعن بني يزقن وعائلته فيها، وانقطع بالتبع إنتاجه عن الصحافة أو كاد إلى سنة 1936:

لقد تحدّث محمد ناصر، عن عضوية مفدي في فريق تحرير "الجحيم"، من غير توثيق لمعلوماته، على أهميّتها، وعلى ما يثيره بعضها من تساؤلات، فقد صرّح في كتابه "الصحف العربيّة الجزائريّة"، متحدّثا عن هذه الجريدة: «والواقع أنّ الذين كانوا يحرّرون فصولها، ويقومون على إصدارها طائفة من الشباب الإصلاحيّ المتحمّس، نذكر من بينهم: محمد السعيد الزاهريّ، وهو أكثرهم تحريرا لفصولها[1]، وعبابسة الأخضريّ[2]، ومحمد الأمين العموديّ، ومفدي زكرياء»[3]؛ وتحدّث عن مفدي في كتابه "مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة" قائلا: «وعرفَته جريدة "الجحيم" كاتبا مقذعا، يثير الخصوم بقرصاته المؤلمة، يقف في الواجهة الإصلاحيّة إلى جانب الكاتبين العموديّ والزاهريّ، المشهورين بسخريتهما اللاذعة، وتهكّمهما المرير، وأسلوبهما الذي ينزل أحيانا إلى حدّ الفحش والبذاء»[4].

صدر العدد الأوّل من جريدة "الجحيم"، يوم 1933/03/30[5]، بعد صدور العدد الأوّل من غريمتها

1- كان محمد السعيد الزاهريّ آنذاك، يشغل مهمّة رئاسة تحرير جريدة "السنّة"، بمعيّة الشيخ الطيّب العقبيّ، وكان من أبرز كتّابها؛ ينظر: الصحف العربيّة الجزائريّة131.

2- كان آنذاك مديرا لجريدة "المرصاد"؛ ينظر: الصحف العربيّة الجزائريّة119.

3- الصحف العربيّة الجزائريّة133.

4- مفدي زكرياء12.

5- جريدة أسبوعيّة، تصدر كلّ يوم خميس، وهي: «جريدة حرّة مستقلّة، تدافع عن الشرف والفضيلة، تقوم بتحريرها نخبة من شبّان الزبانيّة»، وشعارها: «العصا لمن عصى»، وجاء في افتتاحيتها الأولى: «وقد ظهر في هذه الأيّام رهط ينتسبون إلى الجنس البشريّ، وهو يتبرّأ منهم، هؤلاء الخنازير اتّخذوا الشتم، وثلب الأعراض حرفة، وقذف أهل العلم والفضل بضاعة [...]. وقد أسّسوا ورقة عفنة سمّوها "المعهر" [يعني: المعيار]، وهي حقيقة معهر، من أقذر وأنجس المعاهر [...]، وأيقنوا أنّ الجوّ خلا لهم، وأنّ بلاد الجزائر لم يبق فيها إلاّ من يناصرهم، أو يهابهم [...]، وهكذا شأن اللئيم يزيده سكوت خصمه جرأة، ولا يقبّل إلاّ اليد التي تصفعه. وقد أسّسنا هذه الجريدة المباركة [...]، لا لغرض سوى الانتقام للفضيلة، والدفاع عن الأعراض البريئة، وتطهير قطرنا من الجراثيم الخبيثة[...]، وسنذيق أهل الزيغ والكفر والعناد أضعاف ما اعتدوا به على السادة الأبرياء من عباد الله» كلمة أولى: أمّا بعد، رئيس الزبانيّة، جريدة "الجحيم"، س01، ع01، 1351/12/03هـ، 1933/03/30م، ص01.

جريدة "المعيار"، يوم 1932/12/18[1]. وقد انتظم صدور "الجحيم" لسبعة أعداد كاملة[2]، من غير أن تتخلّف عن موعدها مرّة واحدة، بالرغم من تحريرها بالجزائر، وطبعها بقسنطينة، وكان العمل يتمّ بها في سرّيّة تكاد تكون تامّة: تحريرا وطبعا وتوزيعا، وقد استعمل محرّروها ألقابا موحّدة لخصومهم، في جميع مقالاتهم، بعد رصدهم وتعيين ألقابهم في ركن خاصّ، يحمل عنوان "القائمة السوداء"؛ وهو ما يدلّنا على أنّ فرقة الزبانيّة القائمة على إصدار هذه الجريدة كانت مجموعة صغيرة، وأنّها أعدّت لإصدار هذه الجريدة إعدادا محكما، ومنه تأخّر ظهورها إلى 03/30، لأنّ "الجحيم" كانت على خلاف "المعيار"، من حيث تمتّعُ هذه الأخيرة –على الأقلّ– بغضّ الإدارة الاستعماريّة الطّرف عنها.

أصدر وزير الداخلية الفرنسيّ، قرار تعطيل جريدة "الجحيم"، بتاريخ 1933/05/03[3]، بعد اقتراح من الوالي العامّ بالجزائر، في رسالة مؤرّخة في 1933/04/21، لطابعها غير الأخلاقيّ فـ«السباب الأكثر فحشا موجّه فيها إلى شخصيات مسلمة عديدة مشهورة بسمعة مشرّفة في المستعمرة، وبصفة عامّة إلى جميع الموظّفين الأهليّين في إدارتنا»، وبعد تقديمه نماذج من هذه الشخصيات[4]، انتهى إلى القول: «لقد طالت حملة البهتان هذه جميع من قدّموا لنا مساعدتهم، أو الذين وإن لم يكونوا من المتعاونين معنا، فإنّهم رضوا بمحاسن حضارتنا»؛ وبعد استعراض ردود الفعل القويّة التي أعقبت صدور ثلاثة أعداد من الجريدة فقط، تأكيدا على خطورتها المحتملة على النظام العامّ، لفت انتباهه –في الختام– إلى ضرورة منع صدور جريدة "الجحيم" حالا[5].

ولم تستطع الإدارة الاستعماريّة بالجزائر متابعة أيّ من المتورّطين في إصدار هذه الجريدة سوى صاحب امتيازها، جوكلاري (Juclaret) محمد الشريف، بتهمة انتهاك التقاليد والأخلاق (Outrage aux bonnes moeurs)[6]، لأنّه حين أجري التحقيق معه في هذه القضيّة، «أكّد على أنّه المحرّر الوحيد لجريدته، باستثناء بعض الأشخاص

1– هي جريدة أدبيّة، انتقاديّة فكاهيّة، تصدر مرّتين في الشهر؛ شعارها الآية الكريمة: ﴿إنّ الأبرار لفي نعيم وإنّ الفجّار لفي جحيم﴾ [سورة الانفطار، الآيتان 13، 14]، وهي تعني بالأبرار حزب جمعية علماء السنّة، ومن لفّ لفّهم من طرقيّين وغيرهم، وتعني بالفجّار حزب الإصلاح، ولا سيّما جمعية العلماء المسلمين؛ ينظر: الصحف العربيّة الجزائريّة126، 127.

2– تنظر الأعداد السبعة جميعها: الجرائد(journaux)، رقم: 30662، (CAOM).

3– ينظر: القرار، إمضاء: كميل شوتان (Camille Chautemps)، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4– وهي على التوالي: الشيخ ابن عليوة، وعمر إسماعيل، وسبع محمد، والشيخ كحول، والشيخ ابن الموهوب، وغلام الله، والعشعاشي.

5– ينظر محتوى هذه الفقرة: رسالة الوالي العامّ إلى وزير الداخلية، 1933/04/21، موضوعها: الصحافة العربيّة: الجحيم: اقتراح منع صدور، 15h20، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات؛ أرفق بها مقترح قرار التعطيل، وثيقة من صفحة واحدة.

6– حكمت عليه محكمة الجنح، في هذه القضيّة، في جلسة يوم 1934/07/12، بعامين سجنا، و100 فرنكا غرامة؛ وأقرّت محكمة الاستئناف هذا الحكم، بتاريخ 1934/11/22، بسبب غياب جوكلاري عن الجلسة؛ ثمّ قام المعنيّ بعدها بمعارضة الحكم؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، إمضاء: بيرتان (Burtin)، رقم: 5164، 1934/12/20، موضوعها: بخصوص المدعوّ جوكلاري، 2I38، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

الذين كتبوا مقالات صغيرة من حين إلى آخر، ومجّانا؛ وحرص حرصا شديدا على عدم كشف أسمائهم»[1]؛ بالرغم من تأكّدها بأنّ مستواه في اللغة العربيّة متواضع جدّا[2].

كتب مفدي رسالة إلى محمد السعيد الزاهريّ، يوم عيد الأضحى 1351هـــ، الموافق ليوم الخميس 1933/04/06م، جاء فيها: «سيّدي وصلت ميزاب على خير وعافية، ووجدت الجوّ مسموما، لأنّ الزوّاي كان هنا منذ يومين، وقد تكلّم ما لا يرضيكم في مسألة "الجحيم". وقد بلغني –وأنا بالطريق– أنّ الإدارة تحاول تفتيشي بمجرّد وصولي، فتركت الأمانة في الأغواط. وإنّي أرجوكم بمزيد التأكيدات أن ترسلوا إلى قسنطينة، في منع صدور ميميّتي ريثما تعود المياه إلى مجاريها، وربّما أعرضت عن نشرها تماما لما سأشرحه لكم عند أوبتي للجزائر بإذن اللّه. وإذا ما كاتبتم قسنطينة، فقولوا لهم القصيدة التي عنوانها "إلى نسر الأنس الجديد"، ولا أزيدكم تأكيدا، وبلّغوا عاطر سلامي للشيخ الأستاذ العموديّ رئيسنا المحبوب، والأستاذ غرّافة، وسائر أعضاء الفرقة»[3].

إنّها رسالة صريحة في توجّهها إلى إدارة "الجحيم"، ممثّلة في أحد محرّريها الأساسيّين الشيخ محمد السعيد الزاهريّ، فكلّ جزئيّة فيها تتعلّق بالجريدة لا غير: الجوّ مسموم في مزاب بسبب ما تحدّث به الزوّاي –قبل يومين– للإدارة الاستعماريّة بغرداية، في مسألة "الجحيم"، فعزمتْ على تفتيشه بمجرّد وصوله، فقرّر ترك الأمانة –وهي العدد الأوّل منها على الأرجح– في الأغواط، وهو ما يؤكّده فيغورو (Vigourous) في مدوّنة معلوماته عن مفدي، حيث يقول: «استغلّ هذا السفر [يعني: سفره إلى مزاب سنة 1933]، ليحمل إلى مزاب صحفا "متطرّفة ومخلّة بالنظام" (Subversifs)، ومنشورا عنوانه "الاستفزاز الإسلاميّ هو إذن مضادّ لفرنسا" (Provocation musulmane donc anti-française)[4]، ووزّع خاصّة جريدة "الجحيم" [...]، جريدة المثقّفين المسلمين، وأرسل نسخا منها للمدعوّ بيّوض في القرارة»[5]؛ ثمّ يؤكّد مفدي على الزاهريّ أن يراسل "المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة"، للشيخ عبد الحميد بن باديس[6]، بطلب عدم نشر ميميّته "إلى نسر الأنس الجديد" في العدد القادم من "الجحيم"، وهو

---

[1]– ينظر: تقرير، إمضاء: مدير الأمن لعمالة الجزائر بيرتان (Burtin) ، رقم: 2120، 1933/05/22، موضوعها: بخصوص المدعوّ جوكلاري محمد الشريف، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]– ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى النائب العامّ لدى محكمة الاستئناف بالجزائر، إمضاء: كارد (carde)، 1933/04/29، موضوعها: الصحافة العربيّة: الجحيم: طلب متابعة، 15h20، (CAOM)، وثيقة من 04 صفحات، ص01؛ أرفق بها العدد الأوّل من "الجحيم"، وترجمة له في 04 صفحات.

[3]– صورة فتوغرافية من الرسالة، 1351/12/10هـــ، [1933/04/06م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ ومكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز؛ و9h58، (CAOM)، ومعها ترجمتها إلى الفرنسيّة، مؤرّخة بغرداية في 1937/04/03.

[4]– من تحرير جوكلاري محمد الشريف، طبع منه 10.000 نسخة، بمطبعة تيبو دار (Typo d'art)، 07 شارع سادي كارنو (Sadi-Carnot) بالجزائر؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 868، 1933/03/04، موضوعه: بخصوص المنشور الصادر عن المدعوّ جوكلاي العروف بـــ: محمد الشريف، 2I44، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وأرفق به نسخة مطبوعة من المنشور، وثيقة من أربع صفحات في ورقتين.

[5]– ينظر: المدوّنة، [1939]/12/27، 9h81، (CAOM)، ص02؛ ومفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة24.

[6]– وهي نتيجة ما توصّلت إليه التحريّات التي قامت بها الإدارة الاستعماريّة في قسنطينة، لعدم نصّ الجريدة على مكان طبعها، وقد بلّغها محافظها إلى

الثالث[1]؛ كلّ هذا يرجّح توجّه سلامه في ختام رسالته إلى رئيس زبانية "الجحيم" لا غير، وهو محمد الأمين العموديّ، كما أنّ استعمال ضمير جمع المتكلّمين (رئيسنا) يدلّ على عضويته هو والزاهريّ في فرقة الزبانيّة، أمّا غرّافة إبراهيم فإنّ مستواه المتواضع في اللغة العربيّة لا يرشّحه لتحرير فصولها، وإنّما للقيام بمهامّ أخرى، كسائر أعضاء الفرقة الذين لم يذكر أسماءهم؛ وعليه، فإنّ هيئة تحرير الجريدة كانت -في تقديرنا- تتشكّل أساسا من هذا الثالوث: العموديّ ومفدي والزاهريّ، وهو تأكيد ما ذكره محمد ناصر.

وما يعنينا في دراستنا هو محاولة تعيين الفصول التي كتبها مفدي زكرياء في جريدة "الجحيم"، انطلاقا من افتراضين أساسيّين:

1- إذا كان مفدي أحد المحرّرين الأساسيّين للجريدة في أوّل أمرها، فإنّ إنتاجه سيقلّ أو سيتوقّف عند وصول قضية "المعمل العربيّ" ذروة تأزّمها عند سفره إلى مزاب، وقد تزامن مع صدور العدد الثاني من "الجحيم"، لتأثّره بها تأثّرا عميقا وشديدا، أعاق مسيرته الأدبيّة، وإنتاجه الأدبيّ على السواء.

2- خصّصت الجريدة ركنا بعنوان "القائمة السوداء"، حدّدت وظيفته في العدد الأوّل منها، إذ تقول: «نثبت في هذه القائمة ألقاب الذين حاربوا الله، وحاربوا العلم والعلماء [...]. ونقتصر هنا على ذكر الأسماء أو الألقاب، وندع البيان والتفصيل إلى الفصول التي عنوانها "صحيفة السيئات"»[2]؛ وحمل أوّل فصل منها 21 اسما ولقبا[3]، وكان يطعّم كلّ مرّة بأسماء وألقاب جديدة. إنّ معرفة مفدي المزابيّ بمثالب هؤلاء القوم محدودة جدّا مقارنة بزميليه، وهو ما سينتج عنه -منطقيّا- دوران فصوله على عدد محدود منهم خلاف ما نجده عند الزاهريّ والعموديّ؛ وإذ كانت تعوزه المادّة الإخباريّة، فسيعوّضها بما أوتي من خيال خصب لا محالة، وعلى الشعر بالتبع، ضرورة كونه شاعرا؛ يشهد لذلك رسالته إلى الزاهريّ، فقد كان غرضها وقف نشر قصيدة له فيها.

وإذا عدنا إلى أعداد جريدة الجحيم السبعة، أمكننا ملاحظة ما يلي:

1- يبدو أنّ سياسة "الجحيم" كانت على أن تصدر فصولها من غير إمضاء، باستثناء الافتتاحية التي يمضيها رئيس الزبانيّة؛ ثمّ تغيّرت هذه السياسة بداية من العدد الثاني؛ فـ"صحيفة السيّئات" التي لم تحمل إمضاء في العدد الأوّل، حملت إمضاء "الفحل" بداية من الثاني.

الوالي العامّ؛ ينظر: رسالة محافظ عمالة قسنطينة إلى الوالي العامّ بالجزائر، رقم: 8508، 1933/05/17، موضوعها: بخصوص جريدة "الجحيم"، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحتين.

1- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع03، 1351/12/18هـ، 1933/04/13م، ص01-04.

2- جريدة "الجحيم"، س01، ع01، 1351/12/03هـ، 1933/03/30م، ص01.

3- ينظر: رسالة الوالي العامّ إلى النائب العامّ لدى محكمة الاستئناف بالجزائر، إمضاء: كارد (carde)، 1933/04/29، 15h20، (CAOM)، ص01؛ أرفق بها العدد الأوّل من "الجحيم"، وترجمة له في 04 صفحات.

2- ظهرت الإمضاءات في العدد الثاني، مع بقاء بعض الأركان والمقالات المفردة تنشر من غير إمضاء[1]؛ من هذه الإمضاءات ما تكرّر، وهي: رئيس الزبانيّة[2]، والفحل[3]، وفرعون[4]، وبودفرة[5]، وكواي[6]، وشاعر الزبانيّة[7]؛ ومنها ما استعمل مرّة واحدة، وهي: الراوي[8]، ومراقب[9]، ومسرور[10]، وهامان[11]، وشبيب[12]، ومراسلكم[13]؛ والمفترض في جميعها أن تكون ممّا لم يسبق لأصحابها استعماله[14].

3- إذا استثنينا مقطوعتين شعريّتين أمضاهما "هامان" في العدد الثالث، و"شبيب" في العدد الرابع، ورصدنا الأبيات التي وردت في الأعداد السبعة، وجدنا 16 بيتا في الأوّل، و23 بيتا في الثاني، و14 بيتا في الثالث، و11 بيتا في الرابع، ثم اختفت تماما في الخامس والسابع، ووردت 05 أبيات في السادس أمضاها شاعر الزبانيّة، بعد أن نسب إليه بيت للتشطير في العدد الثاني؛ ثمّ إنّ الركن الذي استأثر بأعلى نسبة من هذه الأبيات هو "صحيفة السيّئات" بـــ52 بيتا، وتوزّعت الأبيات المتبقية بين 07 أبيات في فصلين من "نكت القوم"، في العددين الأوّل والثالث، و06 أبيات منسوبة لشاعر الزبانيّة، و04 أبيات في رباعيتان من "الرباعيات الجديدة"؛ فإذا كان لنا أن نطلق لقب شاعر

1- توجد أركان شبه ثابتة، لم تحمل أيّ إمضاء، وهي: "القائمة السوداء" في جميع الأعداد عدا العدد الخامس، و"مشاهير السينيّة" فيما عدا الثالث والسابع؛ وظهر ركن "كوبانية السينيّة" في الأعداد الأوّل والخامس والسادس والسابع، و"في عالم المطبوعات" في الأوّل والثاني.

2- هو إمضاء افتتاحية "الجحيم" في الأعداد السبعة، وهي دائما بعنوان "أمّا بعد"؛ بالإضافة إلى مقال "في سبيل الدفاع: احتجاج-محاكمة-إنذار" في العدد الخامس منها. وهو الإمضاء الوحيد الذي ورد في العدد الأوّل، وسائر الإمضاءات إنّما ظهرت ابتداء من العدد الثاني.

3- أمضى الفحل ركنا في الجريدة عنوانه "صحيفة السيئات"، من العدد الثاني إلى العدد الرابع، حيث اختفى هذا الركن، بعد أن كان ظهوره في العدد الأوّل من غير إمضاء؛ كما أمضى في العدد السابع مقالا بعنوان "على السفود".

4- هو إمضاء ركنين عند أوّل ظهورهما: "تراجم أولاد الحرام" في العدد الثاني، و"كيات" في العدد الثالث، واختفى بعد ذلك دفعا للالتباس الذي وقع بسببه، لأنّه نفس اللقب الذي كان يمضي به غريب عبد الرحمن بعض مقالاته.

5- ظهر لأوّل مرّة في العدد الثاني في ركن توقّف في هذا العدد، هو "الإعلانات"؛ ثمّ خلف إمضاء "فرعون" في "تراجم أولاد الحرام"، في العددين الثالث والرابع، ثمّ اختفى هذا الركن؛ وعاد هذا الإمضاء إلى الظهور في العدد السابع في مقال بعنوان "الرصيفة الصفراء".

6- خلف "فرعون" في إمضاء ركن "كيات"، بداية من العدد الرابع، واستمرّ إلى العدد الأخير من "الجحيم".

7- نسب إليه بيت للتشطير في العدد الثاني؛ وأمضى في العدد السادس بيتا للتشطير، بعد أبيات بعنوان "أدبيات".

8- أمضى ركن "نكت القوم" في العدد الثالث، بعد أن ورد غفلا في العددين الأوّل والثاني.

9- هو إمضاء ركن "نكت القوم" في العدد السادس، بعد غياب هذا الركن في العددين الرابع والخامس، واختفى أيضا في العدد السابع.

10- أمضى "مسرور" ركن "مأبنة السينيّة" عند ظهوره في العدد الثالث، وعندما عاد إلى الظهور في العدد الأخير كان من غير إمضاء.

11- ذيّل هذا الإمضاء مقطوعة بعنوان "يا رضاية الوالدين" في العدد الثالث.

12- أمضى مقطوعة شعرية في العدد الرابع، عنوانها "أنشودة [...]".

13- هو إمضاء مقال في العدد الخامس، عنونه صاحبه "المفتي المشوّش".

14- ويشهد له ما كتبته إدارة "الجحيم"، بعنوان "رفع التباس": «إنّ الزبانيّ الذي يكتب في هذه الجريدة بإمضاء فرعون، ليس هو السيّد عبد الرحمن غريب، الذي كان أمضى بهذا الإمضاء بعض مقالات نشرها في جرائد أخرى»جريدة "الجحيم"، س01، ع04، 1351/12/25هـــ، 1933/04/20م، ص03.

الزبانيّة على أحد محرّري الجريدة البارزين، فلا يمكن أن يطلق إلاّ على "الفحل"، صاحب ركن "صحيفة السيّئات".

4- النصّ السابق من "القائمة السوداء" يشير إلى علاقة وثيقة، مخطّط لها، بركن "صحيفة السيئات"، وإذا كانت "القائمة السوداء" قد استمرّت من غير إمضاء، ولم تتخلّف سوى في العدد الخامس[1]، فإنّ "صحيفة السيئات" ظهرت في العددين الأوّل والثاني بنفس الحجم تقريبا، ثمّ تناقص حجمها كثيرا في العددين الثالث والرابع، لتختفي بعد ذلك تماما، وبعد أن نُشرت في العدد الأوّل من غير إمضاء، حملت منذ العدد الثاني إمضاء "الفحل"؛ ممّا يدلّنا على أنّ الركنين لمحرّرين اثنين عملا بتنسيق كامل في إنجازهما منذ العدد الأوّل، ومنه تلازمهما في الأعداد الأربعة التي ظهرا فيها معا، أحدهما استمرّ، والآخر انقطع أوكاد.

5- ظهر في العدد الثاني إمضاءان جديدان هما "بودفرة" على فصل "الإعلانات"، و"فرعون" في الإعلان عن ركن ينطلق بداية من العدد الثالث بعنوان "تراجم مشاهير أولاد الحرام"، وعند صدور هذا الأخير في العدد الثالث حمل إمضاء "بودفرة"[2]؛ وفي العدد الثالث ظهر ركن جديد بعنوان "كيّات"، بإمضاء: فرعون، ثمّ بإمضاء: كواي ابتداء من الرابع، واتّصل إلى آخر عدد. وفي هذا دليل على أنّ هذه الفصول هي لمحرّر واحد، لم يكن حاضرا في العدد الأوّل؛ وكانت له الكلمة الفصل في العدد الثالث، فقد زحزح "القائمة السوداء" و"صحيفة السيئات" المتلازمتين، عن رتبتهما بعد الافتتاحية مباشرة في العددين السابقين، إلى الصفحة الأخيرة، وأخذ مكانهما مقالُه "تراجم أولاد الحرام"، بإمضاء "بودفرة"، مع إمكان تفسير ذلك بما فرضه حذف مقطوعة مفدي من إعادة ترتيب موادّ العدد.

وعليه، فإنّ هذا المحرّر الأخير -في تقديرنا- هو الشيخ محمد السعيد الزاهريّ، لم يسجّل حضوره في "الجحيم" إلاّ في العدد الثاني، ووقف -ولأسباب نجهلها- على إصدار العدد الثالث، وهو ما يفسّر رسالة مفدي إليه دون العموديّ، عندما كانت إدارة "الجحيم" بصدد إعداد العدد الثالث منها؛ كما أنّ ركنه الأكثر استمرارا "كيّات" في الجريدة له شبه من فصوله السابقة في جريدة "البرق"، بعنوان "قوارص"[3].

أمّا المحرّران الذين انطلقا معا في العدد الأوّل، استمرّ أحدهما، وتوقّف الآخر أو كاد، فأوّلهما "رئيس الزبانيّة" محمد الأمين العموديّ؛ ويبدو أنّ المقالات التي بقيت من غير إمضاء بعد العدد الثاني هي له، مع ملاحظة إمكان غيابه عن الجريدة في العدد الثالث، وربّما في الثاني أيضا[4].

أمّا مفدي فسجّل حضوره في العدد الأوّل في: "صحيفة السيّئات"، بقصّة خيالية عنوانها "أعطاها

1- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع05، 1352/01/02هـ، 1933/04/27م.

2- أصبح عنوانه في هذا العدد "تراجم أولاد الحرام"، ثمّ توقّف هذا الركن في العدد الرابع.

3- ينظر: الصحف العربيّة الجزائريّة85.

4- نلاحظ على سبيل المثال أنّ "القائمة السوداء" في العدد الثاني والثالث، حملت أسماء وألقابا جديدة، من الغرب الجزائريّ.

البرمسيون"[1]، بين شخصيات ثلاثة، هي: الفرطاس، وزوجته الفرطاسة، والرافضيّ "بريزيدان السينيّة"[2]، وتضمّنت شعرا على لسان شخصياته، يدرج فيه العامية أحيانا؛ وقريب منه في اعتماده على خياله لا على مادّة إخباريّة فصل آخر، هو "من نكت القوم"، أورد ستّ نكت، تناولت من الشخصيات غير المذكورين سابقا: حمو العاصي، والمهري [...]، والكردينال المسلول، وابن أمّه[3]، وفي النكتة السادسة أربعة أبيات على لسان "الكردينال المسلول"[4]، من جنس الأبيات الواردة في "صحيفة السيّئات".

وجاءت "صحيفة السيّئات" في العدد الثاني، بعنوان "أنشودة الفؤاد: مزامير [...]"، ولم تكن قصّة كسابقتها، وإنّما مزمور على لسان الكردينال، وآخر على لسان المهري، سبقهما نصّ نثريّ كتمهيد لمحتوى الشعر، لكنّه يبدو مقحما على الأصل، فقد جاء في تقديم المزمورين ما يلي: «أمّا أنشودة الفؤاد التي جعلناها عنوانا لهذا المقال، فهي عنوان لهذه الأبيات التي نظمها الكاردينال [...]»[5]، وموضوع هذا الشعر هو نفس موضوع أبيات النكتة السادسة في العدد السابق، فهو كالتتمّة لها؛ وذُكر في النصّ النثريّ -عرضا- ثلاث شخصيات جديدة، هي: صطوفة بن عازوز، والمفسي المأبون[6]، والعين الكحلاء أو باكورة النبوغ[7]؛ واقتصرت "نكت القوم" على نكتة واحدة، تناولت "المفسي المأبون"[8]، فكانت آخر مرّة ينشر هذا الركن من غير إمضاء؛ ونفس هذه شخصية "المفسي المأبون" تناولتها رباعيتان من "الرباعيات الجديدة"، قُدّم لها بما يلي: «عثرنا في الأيّام الأخيرة على رباعيات جديدة لشاعر جزائريّ مشهور، لم تنشر قبل اليوم، وإنّنا ابتداء من هذا العدد نقدّم إلى قرّائنا رباعية أو رباعيتين منها»[9]، غير أنّها توقّفت في هذا العدد[10]؛ كما عرضت إدارة "الجحيم"بيتا للتشطير، نسبته إلى شاعر

1- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع01، 1351/12/03هـ، 1933/03/30م، ص02.

2- يعني به رئيس "جمعية علماء السنّة"، الشيخ المولود بن الصدّيق الحافظيّ الأزهريّ، ورئيس تحرير جريدة "الإخلاص"؛ أمّا الفرطاس فهو عمر إسماعيل، وكان مدير جريدة "الإخلاص"؛ ينظر: ترجمة العدد الأوّل من "الجحيم"، وبخاصة "القائمة السوداء"، 15h20، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص03، 04؛ والصحف العربيّة الجزائريّة124، 125.

3- يعني بهم على التوالي: محمد العاصمي، إمام في الجزائر؛ ومحمد المهدي، محرّر في "الإخلاص"، وكاتب الجمعية؛ والشيخ ابن عليوة، رئيس الزاوية العليوية بمستغانم؛ وعدّة بن تونس؛ ينظر: ترجمة العدد الأوّل من "الجحيم"، وبخاصة "القائمة السوداء"، 15h20، (CAOM)، ص03، 04.

4- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع01، 1351/12/03هـ، 1933/03/30م، ص03.

5- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع02، 1351/12/09هـ، 1933/04/05م، ص02.

6- يعني بهم: مصطفى بن عازوز، والشيخ المولود بن الموهوب، مفتي قسنطينة؛ ينظر: ترجمة العدد الأوّل من "الجحيم"، وبخاصة "القائمة السوداء"، 15h20، (CAOM)، وثيقة من أربع صفحات، ص03، 04.

7- يعني به -على الأرجح-: أحمد بن يحي الأكحل؛ فقد وُصف في "كيّات" بما يلي: «إلى العين الكحلاء، أو باكورة النبوغ، أو سيد أحمد، أو مسيو أندري، أو ذو الفقار» جريدة "الجحيم"، س01، ع03، 1351/12/18هـ، 1933/04/13م، ص02.

8- ينظر: جريدة "الجحيم"، ع02، ص03.

9- جريدة "الجحيم"، ع02، ص04.

10- وقد سبق ذكر البيت الأوّل منها في ركن "في عالم المطبوعات"، في العدد الأوّل، حيث ورد ما يلي: «وبين أيدينا تقاريظ عديدة لهذا الكتاب،

الزبانيّة؛ حيث تقول: «يقترح شاعر الزبانية على شعراء العصر، في كلّ ناحية وقطر، تشطير البيت الآتي:

لا تحفظوا الحقــد على مسلم ولعنة الله على (الحافظ)»[1].

وحملت "صحيفة السيئات" في العدد الثالث من "الجحيم"، قصّة خيالية جديدة على شاكلة سَمِيّتها في العدد الأوّل، عنوانها "الفريطيسية وعاشقها المالطي"[2].

وغلب الشعر على "صحيفة السيّئات" في العدد الرابع، مع مقدّمة وجيزة، وسجّل في الهامش بعدها ما يلي: «جرت للمهري [...] مع [...] القهواجي قصّة طريفة، سنتحف بها قراءنا في المستقبل»[3]، وكان هذا الفصل آخر فصل من "صحيفة السيّئات".

ثمّ انقطع الشعر تماما في جريدة "الجحيم"، في الأعداد الثلاثة المتبقّية، مع استمرار الأركان التي نسبناها إلى كلّ من العموديّ والزاهريّ، باستثناء مقطوعة من أربعة أبيات في العدد السادس، بعنوان "أدبيات"، تناولت شخصا أسمته "ابن آلي"، وتبع هذه الأبيات بيتان للتشطير، على نفس وزن الأبيات السابقة، وذُيّل بإمضاء: شاعر الزبانيّة[4].

هذه النصوص هي ما نزعم نسبتها إلى مفدي زكرياء في جريدة "الجحيم"؛ لما يلي:

1- هي فصول انتهت جميعها إلى التوقّف والاختفاء، بالرغم من وعود إتمامها في الأعداد الموالية، وانقطعت جميعها عند العدد الرابع، فيما عدا ما ورد في العدد السادس، ونحن نرجّح كون ما ورد في العددين الثالث والرابع، وما بعدهما، ممّا أعدّه مفدي سلفا، ويشهد لذلك تناقص حجمها.

2- هذه الفصول حوت أغلب شعر جريدة "الجحيم"، وهو شعر تجاورت فيه الفصحى والعامية، قصدا إلى السخرية والتهكّم، وبعضها ورد في قالب قصصيّ فكاهيّ، ممّا يجعل نصيب الخيال فيها كبيرا؛ وغاب الشعر تماما في الأعداد الثلاثة الأخيرة، في الأركان التي كان يحرّرها العموديّ والزاهريّ. وعندما عاد إمضاء مفدي "الفحل" في العدد السابع منها، عاد لغرض محدّد، سيأتي بيانه، فكان فصله "على السفود"[5]، لا يختلف عن فصول العموديّ والزاهريّ في طابعها التقريريّ الإخباريّ.

3- وكانت تستهدف في المقام الأوّل كلاّ من الفرطاس والرافضيّ والكردينال المسلول، وهم من سبق أن انتقدهم

سننشرها تباعا، (وأرشقها) في نظر المؤلّف تقريظ (المفسي المأبون) الذي قال فيه بعض الشعراء:

كان في مــحكمــة الشــرع الوجــيه قُتــل الكلــبُ أبــو هــذا السفــيــه»

جريدة "الجحيم"، ع01، ص04.

1- جريدة "الجحيم"، ع02، ص03.

2- ينظر: جريدة "الجحيم"، ع03، ص04.

3- ينظر: بكبوكة الحلاّج، إمضاء: الفحل، جريدة "الجحيم"، س01، ع04، 1351/12/25هـــ، 1933/04/20م، ص02، 03.

4- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع06، 1352/01/09هـــ، 1933/05/04م، ص03.

5- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع07، 1352/01/16هـــ، 1933/05/11م، ص04.

في مقاله "جمعية علماء السنّة بالجزائر"[1]؛ كما أنّه تناول الأوّل والثالث فيما نشره في "المرصاد"، فسمّى الأوّل "عميرة الأقرع"[2]، والثاني "الشيخ الرابحي"[3]، في شعر فكاهيّ ساخر، بعيد عن الفحش والبذاءة التي طبعت نصوصه في جريدة "الجحيم"، ومنه إحجامنا عن تقديم أمثلة منها إلاّ في القليل النادر.

ويلحق بهذه النصوص، ولكن بدرجة أقلّ لا تسمح لنا بالجزم، ثلاثة نصوص أخرى: اثنان صدرا في العدد الثالث، والأخير في الرابع؛ ذلك أنّ مفدي عندما عيّن في رسالتيه إلى الزاهريّ وإلى أحمد بوشمال القصيدة الواجب عدم نشرها، عيّنها بعنوانها "إلى نسر الأنس الجديد"، ثمّ بحرف رويّها (ميميّة)، ممّا يدلّ على وجود إنتاج له غير هذه المقطوعة في هذا العدد، بل ووجود نصّ شعريّ آخر برويّ مختلف هو الراء، وبعنوان "يا رضاية الوالدين في قاعة الفرطاس"[4]، فكان إمضاؤه "هامان" مجرّد مبالغة في التعمية على صاحبها؛ وإذا صحّ هذا التحليل فهو ينطبق بالتبع على فصل "نكت القوم" في هذا العدد، فقد جاء بإمضاء "الراوي"، بعد فصلين منه لم يحملا أيّ إمضاء، وعنوانه "بين الرافضيّ المهراس وعميرة الفرطاس في نادي الاختلاس"، والقالب القصصيّ الذي صبّ فيه، وما تضمّنه من شعر، كلّ ذلك يشير إلى مفدي؛ كما أنّه ينطبق بالتبع على المقطوعة الشعرية التي وردت في العدد الرابع، عنوانها "أنشودة [...]"[5]، وأمضاها: شبيب، فعنوانها يذكّرنا بعنوان له سابق "أنشودة الفؤاد"، كما جاءت -على غرار سائر مقطوعاته في "الجحيم"- على لسان "المفسي المأبون"، وليس هجاء مباشرا له، وهذه الشخصية ممّن سبق له تناوله في نصوصه السابقة. هذا وإنّ فصل "في عالم المطبوعات" الذي ظهر في العدد الأوّل، من غير إمضاء[6]، والذي بدأ بتقديم أربعة كتب من نسج الخيال، وانتهى إلى كتابين في العدد الثاني[7]، ثمّ اختفى تماما في سائر الأعداد، لا يمكن الاطمئنان إلى صحّة نسبته إلى مفدي زكرياء.

أمّا قصيدته الميميّة "إلى نسر الأنس الجديد"، وهي من مفقود شعره، فقد اختفت في العدد الثالث، وشهد على اختفائها من صفحتها الثالثة حجم البياض بين الأسطر، فقد زاد مقارنة بالصفحات الأخرى من نفس العدد، خاصّة في المقطوعة الشعريّة "يا رضاية الوالدين في قاعة الفرطاس"، وحجم هذا البياض يدلّنا على أنّها كانت في حجم المقطوعة السابقة، أو تزيد عليها قليلا[8]: لقد طلب مفدي عدم نشرها بالرغم من إمكان طبعها بغير إمضاء،

---

[1]- ينظر: المقال، بإمضاء: مكاتبكم، 1932/09/17، جريدة "النهضة"، س09، ع2873، 1351/05/27هـ، 1932/09/27م، ص01، 02.

[2]- ينظر: إلى عميرة الأقرع، ديك الجنّ، جريدة "المرصاد"، س01، ع29، 1351/06/20هـ، 1932/10/21م، ص03؛ وكيّة بعد كيّة، ديك الجنّ، جريدة "المرصاد"، س01، ع33، 1351/07/19هـ، 1932/11/19م، ص03.

[3]- ينظر: شعر الشيخ الرابحيّ، ديك الجنّ، جريدة "المرصاد"، ع29، ص03.

[4]- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع03، 1351/12/18هـ، 1933/04/13م، ص03.

[5]- يقول: «من ذكريات الموؤود اللفتي، الملقّب بالمأبون المتقاعد» جريدة "الجحيم"، س01، ع04، 1351/12/25هـ، 1933/04/20م، ص03.

[6]- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع01، 1351/12/03هـ، 1933/03/30م، ص04.

[7]- ينظر: جريدة "الجحيم"، س01، ع02، 1351/12/09هـ، 1933/04/05م، ص03.

[8]- ينظر: جريدة "الجحيم"، ع03، ص03.

أو بإمضاء مستعار، مع وجود فصل له في الجريدة، يحمل إمضاء "الفحل"؛ وقد راسل باسعيد عدون في نفس التاريخ، يطلب منه نشر مقال له في "الحياة"، بإمضاء "وطنيّ" أو "جزائريّ"، أو غير ذلك، عوض إمضائه الصريح[1]، من غير طلب إلغائه. وعليه، فإنّ هذا الطلب لا يمكن أن يفسّره سوى تناوله شخصا، يمكن أن تنكشف بسببه هويّته، وهو بالضرورة من غير المذكورين في أيّ فصل من فصول جريدة "الجحيم"، فلا يمكن أن يكون سوى من وشى به وبجريدة "الجحيم" لدى الادارة الاستعماريّة بغرداية، ومن نافسه في ميدان العطور بيعا وصناعة، ألا وهو الزوّاي الحاج، فقد قال متحدّثا عنه في رسالته إلى باسعيد عدون: «كان هنا منذ يومين الأخ الحاج الزوّاي، وكنت أتمنّى أن ألاقيه هنا، ربّما نتوصّل إلى نتيجة حسن التفاهم بيد الجماعة هنا، ولكن ما سلّم حتّى ودّع»[2]. ولكي يتأكّد من عدم صدورها راسل السيّد أحمد بوشمال، يوم 1933/04/07، يقول في خصوص هذه القصيدة: «أرجوكم أن لا تنشروا في "الجحيم" قصيدتي التي مطلعها، بل عنوانها (إلى نسر الأنس الجديد)، وذلك لأسباب اقتضى الحال مراعاتها، وسيخبركم الشيخ الزاهريّ بذلك»[3].

لقد بذل مفدي جهودا مضنية –على ما تقدّم بيانه– في سبيل تحقيق مشروعه الرائد جريدة "الحياة"، في أواخر سنة 1932، غير أنّ الجريدة تأخّرت عن الموعد الذي أعلن عنه مفدي نفسه في "النهضة"، وهو جانفي من سنة 1933؛ وفي أوائل فيفري، صرّح لأستاذه الشيخ الثمينيّ بقراره صرف النظر عن إصدار هذه "الجريدة" بمعية زميله باسعيد عدون[4]؛ وتوجّه بعد ذلك مع صديقه العموديّ إلى الإعداد لجريدة "الجحيم"، ثمّ العمل على إصدارها؛ ومع كلّ ذلك صدر العدد الأوّل من جريدة "الحياة" في فاتح أفريل 1933م، في أوج أزمة "المعمل العربيّ"، وتبعه الثاني في موعده المحدّد يوم 04/15، وتأخّر الثالث والأخير عن موعده إلى يوم 05/12[5]؛ فما هو موقع مفدي منها في الظرف النفسيّ الخاصّ الذي كان فيه آنذاك؟

إنّ عدم التمييز –في تقديرنا– بين "الحياة" مشروعا في أواخر سنة 1932، وبين الجريدة مطبوعة في شهري أفريل وماي، أدّى إلى نسبة رئاسة تحريرها لمفدي زكرياء، فتحدّث عنها محمد ناصر قائلا: «وما من شكّ في أنّ جريدة "الحياة" كانت ذات اتّجاه إصلاحيّ وطنيّ، لا تختلف في شيء عن الجرائد الإصلاحيّة، لأنّ أصحابها، وهم "جمعية الوفاق"، ومديرها الذي هو باسعيد عدون، ورئيس تحريرها الذي هو مفدي زكرياء، وصاحب امتيازها الذي هو جوكلاري محمد الشريف، معروفون بنزعتهم المناهضة للاستعمار، المؤيّدة للاتّجاه

---

[1]– ينظر: صورة فتوغرافية من رسالة مفدي زكرياء إلى باسعيد عدون، 1351/12/10هـ، [1933/04/06م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[2]– نفسه.

[3]– صورة فتوغرافيّة من الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[4]– ينظر: رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1933/02/03، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[5]– تنظر الأعداد الثلاثة: جريدة "الحياة" 1933، رقم: دو623، قسم الدوريات، دار الكتب الوطنية بتونس.

الإصلاحيّ»[1]؛ وأغرب ما في الأمر، تقديم مفدي لها لمستمعي الإذاعة التونسيّة سنة 1960، قائلا: «"الحياة": صحيفة جامعة، تصدر مرّتين في الشهر، تحت إشراف جمعية "الوفاق"، وإدارة كاتبها العامّ، يحرّرها مفدي زكرياء، صاحب امتيازها: جوكلاري محمد الشريف. صدر العدد الأوّل غرّة أفريل 1932[كذا]، تطبع بالمطبعة العربيّة، بالجزائر»[2]؛ وصوابه ما نستفيده من تعريف الشيخ أبي اليقظان لهذه الجريدة في هامش كتابه "سليمان باشا في أطوار حياته"، الذي طبعه سنة 1956، إذ يقول: «جريدة "الحياة" كان يصدرها في الجزائر الأستاذ باسعيد عدون بن بكير، باللغتين العربيّة والفرنسيّة، وقد برز منها بضعة أعداد فقط، في سنة 1933، فيما أظنّ»[3]؛ ويؤكّده تقريران للإدارة الاستعمارية، وقد تابعت الجريدة في جميع أطوارها متابعة دقيقة، هذان التقريران صادران عن مدير الأمن لعمالة الجزائر بيرتان (Burtin): كتب الأوّل قصد التعريف بها أيّاما قبل صدورها: «هذه الصحيفة، من المنتظر أن يكون مديرها ورئيس تحريرها المزابيّ عدون باسعيد، كاتب نادي الترقّي، وصاحب امتيازها جوكلاري، المدعوّ محمد الشريف، وتطبع بالمطبعة العربيّة [...]، وتصدر مرّتين في الشهر، وهدفها تجاريّ ودينيّ»[4]؛ وأكّد في الثاني على هذه الوظيفة لباسعيد عدون في "الحياة"، عند بيان توقّف صدورها «لأسباب ماليّة»[5].

نقرأ في الواجهة العربيّة لجريدة "الحياة" ما يلي: «صحيفة جامعة تصدر مرّتين في الشهر مؤقّتا/ تحت إشراف جمعية الوفاق، وإدارة كاتبها العامّ/ تقوم بالدّفاع عن مصالح التجّار والفلاحين وأرباب الصنائع»[6]، والكاتب العامّ لجمعية "الوفاق" آنذاك إنّما هو باسعيد عدون بن بكير[7]؛ وفي الواجهة الفرنسيّة، ما ترجمته: «صحيفة أدبيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة/ صحيفة الدفاع عن المصالح العامّة/ في ميادين التجارة والصناعة والفلاحة»[8]؛ وفي ذلك اختلاف نوعيّ عمّا ورد في رسالة "الحياة" إلى الأدباء والكتّاب، ومنشور الإعلان عن قرب صدورها، فليس فيهما

---

[1]- الصحف العربيّة الجزائريّة136. وقريب منه ما جاء في كتابه مفدي زكرياء، إذ يقول: «فنجده في سنة 1933 يؤسّس بالعاصمة، هو وجماعة من التجّار "جمعية الوفاق"، التي أصدرت جريدة باسم "الحياة"، وأسندت إدارتها تحريرها إلى مفدي»12. وينظر: مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة23، 24.

[2]- تاريخ الصحافة العربيّة في الجزائر183. والكتاب هو مجموع أحاديثه الإذاعية بنفس العنوان، في الإذاعة التونسيّة، بين ماي وسبتمبر 1960.

[3]- سليمان الباروني باشا في أطوار حياته2: 51، ها01.

[4]- ينظر: التقرير، رقم: 1244، 1933/03/28، موضوعه: صحافة عربية: الحياة، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[5]- ينظر: التقرير، رقم: 2954، 1933/06/10، موضوعه: صحافة عربية: الحياة، 15h20، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة. وممّا قد يشهد لذلك تضاؤل المساحة المخصّصة للإشهار في الجريدة في الصفحة الثالثة منها، خاصّة في العدد الثالث، إذ لم تستغرق سوى ثلثها بعد أن كانت تكاد تستوفيها كاملة، وذلك بسبب تناقص اللوحات الإشهاريّة من 12 لوحة في العددين الأوّل والثاني، إلى 07 لوحات فقط في العدد الأخير.

[6]- ينظر: جريدة "الحياة"، س01، ع01، 1351/12/05هـ، 1933/04/01م، ص01.

[7]- ينظر: الباب الثاني، ص144 ها02.

[8]- ينظر: جريدة "الحياة"، ع01، ص04. وقد أعلنت جريدة "النور" للشيخ أبي اليقظان عن صدور جريدة "الحياة"، بما يلي: «هي صحيفة جامعة تصدر مرّتين في الشهر مؤقّتا بعاصمة الجزائر، تحت إشراف جمعية "الوفاق"، وإدارة كاتبها العامّ، بالقلمين العربيّ والفرنسيّ، تقوم بمهمّة الدفاع عن مصالح التجّار والفلاّحين وأرباب الصنائع» جريدة "النور"، س02، ع75، 1351/12/08هـ، 1933/04/04م، ص03.

شيء عن نشرها باللّغتين، وعن إشراف جمعية "الوفاق" عليها، كما أنّ توجّهها الذي أعلن عنه في الوثيقتين، في أواخر سنة 1932، تغيّر تماما، ففي الرسالة نقرأ ما يلي: «هي لسان حال المسلمين المفكّرين بشمال إفريقيا [...] إنّ جريدتنا علمية، أدبية، اقتصادية، أخلاقية، جامعة، أسّست لتعمل على هدم كلّ ما شادته أيدي الجهل والتفريط والكسل، وعلى إزالة كلّ ما يحول بين مسلمي هذه البلاد، وبين رقيّها العلمي والأدبي والاقتصاديّ»[1].

إنّه انحراف كبير عن المسار الذي اختطّه مفدي شهورا قبل ذلك لجريدته، فقد كانت تسعى إلى استقطاب إسهامات الكتّاب والأدباء العلميّة والأدبيّة والفكريّة من جميع أقطار المغرب العربيّ، وانتهت إلى حصر مهمّتها في الدّفاع عن مصالح التجّار وأرباب الصنائع والفلاّحين؛ وتحوّلت من جريدة جامعة: علمية، وأدبية، واقتصادية، وأخلاقية، إلى جريدة اقتصادية واجتماعيّة بالدرجة الأولى؛ كما أنّ إشراف جمعية "الوفاق" عليها، يحدّ نطاقها بالضرورة في الجزائر، وبحدود جمعية "الوفاق" التي لا تتجاوز نطاق العمل المزابيّ؛ وإذا بحثنا عن تصوّر مدير الجريدة لمسلكها الجديد، فيجب علينا أن نطلبه في افتتاحية العدد الأوّل بالفرنسيّة، لأنّه لا يمكن لغيره أن يكتبها، وعندما طلبناه فيها ألفيناها تحمل طابعا أدبيّا حالما، غامت فيه حدود الجريدة وأهدافها[2].

أمّا افتتاحية القسم العربيّ منها، فهي -في تصوّرنا- بقلم مفدي، إذ كانت أطول من نظيرتها الفرنسيّة، وأكثر تحديدا، غير أنّها افتقرت في بنائها إلى الإحكام، وفي أفكارها إلى الانسجام والتآلف، ولا تفسير لذلك سوى اعتماده ما كتبه افتتاحية لجريدته في صورتها الأولى[3]، مع إجراء بعض التعديلات بما يتناسب وتوجّهها الجديد[4]؛ وآية ذلك تضمّنها للتصوّر الأوّل للجريدة، إذ نجد فيها فقرات كاملة من الرسالة، وربّما من المنشور أيضا، كقوله:

---

[1]- نسخة من الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بمكتبة الاستقامة.

[2]- يقول فيها ما ترجمته: «نعم، إنّ الصحيفة التي نقدّمها اليوم للجمهور الواسع [...] من القرّاء، ستكون -على ما نرجوه بجميع جوارحنا- مثل النجمة الوفيّة التي ستنير ليلنا المظلم الذي نتخبّط فيه [...]. إنّ شعورا بطاقة قويّة تعتمل بها نفوسنا، وإنّ إرادة قويّة تدفعنا إلى تحقيق أحلامنا، وإبراز أفكارنا. إنّ الطريق قد اتّضح، وما علينا سوى اتّباعه، ولذلك نتقدّم بطلب مؤازرة مواطنينا، وتضامنهم معنا، للقيام على أحسن وجه بالمهمّة التي اضطلعنا بها، أو التي فرضت نفسها علينا، بالنظر إلى الواقع غير المرضيّ حاليا. أوّل أفريل تذكّروا هذا التاريخ! "الحياة" تذكّروا هذا الاسم! إنّهما مليئان بالوعود والراحة النفسيّة»؛ ينظر: من أجل حياة جديدة (Pour une vie nouvelle)، إمضاء: الحياة (El Hayet)، جريدة "الحياة"، س01، ع01، 1351/12/05هـ، 1933/04/01م، ص04.

[3]- وخير شاهد على تحضير مفدي موادّ لجريدته بحسب التصوّر الأوّل لها، بيتان وظّفا لإشهار الجريدة، هما أقرب في مدلولهما إلى التصوّر الأوّل منه إلى الجديد: ورد بعد العنوان "طالعوا .. جريدة الحياة" ما يلي: «واشتركوا فيها، وأعلنوا عن بضائعكم فوق صفحاتها، فهي لسانكم الناطق، ودماغكم المفكّر»، ثمّ البيتان:

«هـذي "الـحيـاة"، وهـذه أنوارها، الديـن والعـلم الصحيـح شعـارهـا
يا قوم، حـيّ على الـحـياة شريـفة، هـذي الصحيفـة رمزهـا ومنارهـا»

جريدة "الحياة"، س01، ع02، 1351/12/19، 1933/04/15، ص02.

[4]- أمّا أن يكون مدير الجريدة هو من أجرى هذه التعديلات، فممّا يستبعده عدم إمكان قبول مفدي التصرّف في مقاله على هذا النحو، وعدم ملاحظة تباين في مستوى التعبير بين مختلف فقراته.

«إنّ جريدة "الحياة" هي لسان حال المفكّرين المسلمين بشمال إفريقيا [...]، وليكون لذلك الاسم مسمّاه، ولذلك العنوان معناه، يجب أن تكون بحقّ مجالا لأقلام جلّ المفكّرين القاطنين بشمال إفريقيا، إن لم نقل كلّهم، ومعرضا صادقا لما تنتجه أفكارهم الناضجة، وتلده قرائحهم الوقّادة، وتجود به عزائمهم القويّة»؛ مع إضافات تستجيب للتصوّر الجديد، من مثل قوله: «إنّ جريدة "الحياة" علميّة أخلاقيّة قبل كلّ شيء، واقتصاديّة أيضا، لأنّ الاقتصاد هو القوّة الجبّارة التي تسوق بعصاها حبّا أو كرها كلّ عناصر هذه الحياة المستعصاة، وهي العمود الفقري لهذا العالم، والنخاع الشوكيّ الذي يحمل وحده مادّة الحياة من دماغ هذه المعمورة كما تثبته الحقائق الراهنة. وكلّ نهضة لم تكن مؤسسة على العلم والأخلاق والاقتصاد هي نهضة خائرة، سرعان ما تتلاشى وتضمحلّ»؛ وهو ما يشير بوضوح إلى كتابته لها من غير قناعة كبيرة بما يكتبه، فلا عجب أن يُبرز ما يتناقض مع ما هي عليه الجريدة فعلا، فيقول: «وستكون في الجريدة -تبعا للمناسبات، ومراعاة للظروف- صفحة باللسان الفرنسويّ، محرّرة بأقلام أبناء البلاد، معزّزة بأفكار ناضجة جديدة، مقتبسة من أقوال علية الكتّاب، وقصدنا من ذلك هو أنّ طائفة لا يستهان بها من إخواننا الجزائريّين لم يوفّقوا إلى فهم شيء سوى باللغة الفرنسيّة»؛ فالصفحة في رأيه كائنة بحسب الظروف والمناسبات، فإذا هي قارّة في الأعداد الثلاثة؛ وبأقلام جزائريّة بينما نصف محرّري العدد الأوّل منها -على سبيل المثال- فرنسيّون، ثمّ إنّ توجّهها لجزائريّين يناقض ما تحدّث عنه سابقا؛ وكما كتب افتتاحية القسم العربيّ، كتب مقالا آخر، بعنوان "أكذوبة أبريل"[1]، لا يمكن أن يكون كتبه إلاّ بمناسبة صدورها في فاتح أفريل[2].

إنّ مفدي وإن تخلّى عن مشروعه الأوّل للجريدة، فإنّه قد قدّم لزميله باسعيد عدون يد العون عند مبادرته لإصدارها، خاصّة في العدد الأوّل منها، دون أن يكون بالضرورة رئيس تحرير القسم العربيّ منها. وإذا دلّت افتتاحية العدد الأوّل على عدم قناعة كبيرة بها، فإنّ كلامه عنها في رسالته إلى مديرها يدلّ على الجوّ النفسيّ الذي كان فيه بسبب قضية "المعمل العربيّ"، بما لا نتوقّع معه استمرار مساهمته فيها، فقد تحدّث عنها بحيادية تامّة، حيث يقول: «وصلت ميزاب بخير وعافية، وقد كان لـــ"الحياة" وقع حسن عند جميع الأصدقاء، فالحمد لله»[3].

صدر لمفدي في العدد الثاني من الجريدة مقال عنوانه "صفحة من حياة بطل الحروب الطرابلسيّة عطوفة

---

[1]- المقال، إمضاء: مفدي، جريدة "الحياة"، ع01، ص01. وقد علّقت "الحياة" على المقال بقولها: «(الحياة): ولقد أراد كثير ممّن يحرجهم وجود جريدة "الحياة" بالجزائر أن لا تكون، فلمّا أبدينا رغبتنا الصادقة في إصدارها، تقاربت رؤوس الكارهين هامسة بأنّ هذه الجريدة أكذوبة شبيهة بقصّة (دون كيخوتي وسانشو)، ولإحراج صدور المتهوّسين تصدر جريدتنا في فاتح أبريل احتجاجا على يوم الأكذوبة الغربيّة، وعلى الكذّابين في جنب جريدة "الحياة"».

[2]- رجّح محمد ناصر نسبة مقال "الشيوعيّة هي العدوّ فاحذروها" بإمضاء: مسلم صميم، وقصيدة "وقفة على أطلال روما" بإمضاء: شابّ جزائريّ، إلى مفدي؛ ينظر: مفدي زكرياء285؛ وينظر المقال والقصيدة: جريدة "الحياة"، ع01، ص02. غير أنّ اللهجة الليّنة في المقال إزاء الحكومة ممّا يثير الشكّ في أمرها؛ أمّا الحديث في القصيدة عن الجزائريّ من حيث هو بربريّ، فممّا يستبعد -في نظرنا- هذه النسبة.

[3]- رسالة مفدي زكرياء إلى باسعيد عدون، 1351/12/10هـــ، 1933/04/05م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

الشيخ سليمان الباروني"، بإمضاء: أديب[1]، بدليل قوله في رسالته إلى مدير الجريدة، ما يلي: «أرجو أن تنشر مقالتي على الشيخ الباروني بدون إمضائي، لأسباب سأشرحها لك عند الملاقاة، وإن شئت فاجعل إمضاءها (وطنيّ)، أو (جزائريّ)، أو غير ذلك، ولا أزيدك تأكيدا»[2]، وقد احتلّ المقال الصفحة الأولى كاملة من هذا العدد، وامتدّ إلى عمود من الصفحة الثانية[3].

أمّا العدد الثالث والأخير، فورد فيه مقالان لمفدي: الأوّل "هل تريد السعادة؟ إذن تعلّم"[4]، نشره بإمضاء: بديع الزمان[5]، وكان الخطاب موجّها فيه إلى الشعب، فكان يكرّر في بداية كلّ فقرة عبارة: «أيّها الشعب الكريم!»، باستثناء أوّل عبارة في المقال، فقد وردت كالآتي: «أيّها الشعب الإفريقيّ الكريم!»، ممّا يدلّنا على أنّ هذا المقال ممّا أعدّه مفدي للنشر في الجريدة في صيغتها الأولى، وأنّه لمفدي بالتبع، ويرجّح لدينا -بالتبع أيضا- كون سائر مقالاته كانت موجّهة للحياة في صورتها الأولى، باستثناء "أكذوبة أفريل"، إذ لا يوجد بينها ما يمتّ للجريدة في صورتها الجديدة بصلة؛ والثاني "الوجه الجميل عنوان القلب الطاهر"[6]، وهو السانحة الثانية له في الجريدة بعد "أكذوبة أبريل"، وكانت تحمل إمضاء: م.ز، أي: مفدي زكرياء.

احتلّ المقالان الصفحة الأولى من العدد الثالث، كما غطّاها مقالاه في العدد الأوّل، ومقال الشيخ سليمان باشا الباروني في العدد الثاني، بل وتعدّاها إلى الصفحة الثانية، وهو ما يشكّل ربع الجريدة، كلّه كان من إنتاج مفدي؛ أمّا إذا اقتصرنا على القسم العربيّ، وحذفنا المساحة الإشهاريّة، فإنتاجه فيه يقارب النصف؛ وهذه هي يد العون التي قدّمها لزميله، غير أنّها -في أغلبها الأعمّ- ممّا سبق له إعداده تحضيرا لجريدته "الحياة"، كما كان يريدها ويتمنّاها، وهو ما يفنّد بالضرورة تولّيه رئاسة تحريرها كما كان مخطّطا له من قبل.

---

[1]- جريدة "الحياة"، س01، ع02، 1351/12/19، 1933/04/15، ص01، 02. جاء في تقديمه: «[...] وإنّنا لهذه المناسبة ننشر هنا فصلا قيّما دبّجته يراعة أحد الأدباء الأفذاذ، يتضمّن ترجمة هذا الرجل العظيم، أرسله خصّيصا لجريدة الحياة، قال لا فضّ فوه»، وفي ختامه: «(الحياة): نشكر حضرة أديبنا البارع على ما أبداه نحو المجاهد الكبير من الحقائق التي قلّما اطّلع عليها غيره، ونستزيده من أمثالها حتّى يعرف أبناء شمال إفريقيا الكرام مآثر من كرّسوا حياتهم لنفع البلاد والعباد [...]».

[2]- صورة فتوغرافية من رسالة مفدي زكرياء إلى باسعيد عدون، 1351/12/10هـ، [1933/04/06م]، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[3]- ينظر: جريدة "الحياة"، ع02، ص01، 02. يقول الشيخ سليمان باشا البارونيّ في رسالته إلى الشيخ أبي اليقظان، بتاريخ [1933/06/27]، 1352/03/04هـ: «اطّلعت في مسقط على ما كتبته "الحياة" الغرّاء، في عددها 2، وإنّي لأشكرها على وقوفها على الحقائق التاريخيّة المسرودة في مقالها، إلاّ أنّها بالغت فيما كتبته عن عمان، ولعلّها اعتمدت على الإشاعات التي حصلت عند مباشرتي العمل [../..]؛ فالواجب الاستدراك محافظة على الثقة بالصحف، مع التحفّظ في المستقبل من مثل هذا[...]»سليمان الباروني باشا2: 51، 52.

[4]- جريدة "الحياة"، س01، ع03، 1352/01/17، 1933/05/12، ص01.

[5]- يقول عنه محمد ناصر: «أمّا العدد الثالث والأخير، فأهمّ محتوياته: مقال لمفدي زكرياء، تحت عنوان "هل تريد السعادة؟ إذن فتعلّم"، وهو بإمضاء بديع الزمان، والمقال مكتوب بأسلوب أدبيّ ذي مقاطع حارّة توجيهيّة، بدأ كلّ مقطع منها بعبارة: أيّها الشعب الكريم» الصحف العربيّة الجزائريّة138.

[6]- جريدة "الحياة"، ع03، ص01. علّقت عليه الإدارة بقولها: «(الحياة): تلك نظرية كاتب المقال فما رأي الأدباء؟».

غطّى مقالا مفدي الصفحة الأولى من العدد الثالث عدا مربّع صغير، في الزاوية السفلى واليسرى منها، بحجم عمودين من الجريدة، نقرأ فيه بخطّ كبير: «أغرب القضايا ... !!: دائرة التحقيق بتريبونال الجزائر/ تزيل الستار عن اختلاس فظيع بعنوان تأسيس/ المعامل العربيّة لتقطير العطورات الصافية/ لصّ محتال باتّفاق مع ثلاثة من قرنائه يستغلّ حسن ظنّ/ الأغرار ويجمع عشرات الآلاف لقصد الإضرار .../ انظر التفصيل في الصفحة الثالثة»[1]؛ إنّه إشهار لمقال لن يأتي في العدد القادم، وإنّما في الصفحة الثالثة، وتشهير بالمتورّطين في هذه القضيّة، ومنهم مفدي، فهو قرين من قرناء اللصّ المحتال الثلاثة؛ وعنون -على الأرجح- باسعيد عدون مقاله المومى إليه في الصفحة الأولى بهذا العنوان "على نفسها جنت براقش"، وهو صريح في توجّهه إلى مفدي بالدرجة الأولى؛ ويقول في مفتتحه: «ونحن -على كلّ حال- ندرج خلاصتها فيما يلي، ولسان حالنا يردّد قول الشاعر:

نصحت لهم جهـــدي بـــمنقطع اللّوى،   فلم يستبـــينوا الرشد إلاّ ضحى الغد».

فمن الذي يمكن أن ينصحه في هذه القضيّة سوى مفدي وشريكه؟ وفي ختامه يصرّح باسمه قائلا: «وقد اتّهم معه بعنوان المشاركة في الخيانة والاختلاس ثلاثة أشخاص، هم: الأرملة مدام فيايدون، و**ابن الشيخ زكرياء**، وعبد الجبّار، وقد وقع استنطاقهم، فتركوا على حالة السراح المؤقّت ريثما ينتهي التحقيق»[2]؛ لقد كان المقال والكيفية التي نشر بها قرصة مؤلمة في جنب مفدي، وطعنة نجلاء في ظهره، في عدد يتضمّن مقالين لمفدي، غير أنّ ما آلمه أكثر في المقال -في تصوّرنا- هو عدم قدرته على الردّ، لأنّه كان غارقا في هذه القضيّة تماما، وهو ما يفسّر انعزاله وانزواءه بعد ذلك. و لم يكتف مدير الجريدة بذلك، بل كتب في ركن جديد ظهر في هذا العدد، عنوانه "في عالم الصحافة"، تعليقا على جريدتي الجحيم والمعيار، وحدّة لهجته بعد صدور ستّة أعداد من جريدة "الجحيم"، يدلّنا على اندراجه في حربه غير المعلنة ضدّ مفدي، فقد جاء فيه: «مني هذا الشعب المسكين بطائفة من الفلتاء الأدنياء الأوباش، فشاءت لهم أخلاقهم الدنسة إلاّ أن يسوّدوا وجه الصحافة العربيّة بورقتين تحملان: الأولى كلّ أسبوع، والثانية كلّ نصف شهر، أنواع الشتم وهجر القول، ممّا يتحاشى عنه أصحاب الهمم العالية [...]. وإنّنا نتمنّى لهاتين القاذورتين اللعينتين السقوط التامّ، والخزي العظيم، ونرجو لأصحابهما الهداية والتوفيق [...]»[3].

إنّنا لا نجد تفسيرا لانقلاب مدير جريدة "الحياة" على من كان يرجوه مساعدا له في تحرير القسم العربيّ من جريدته، ويستدرجه لحمل هذا العبء عنه بمختلف الوسائل[4]، سوى تخلّيه عنها، لأنّها لم تكن مقنعة له

1- جريدة "الحياة"، ع03، ص01.

2- المقال، من غير إمضاء، جريدة "الحياة"، ع03، ص03.

3- في عالم الصحافة، الجحيم والمعيار، من غير إمضاء، جريدة "الحياة"، ع03، ص03.

4- منها نشر إنتاجه على الصفحة الأولى، والإشادة به بما يذيّله به -على ما مرّ بنا- من تعليقات؛ والتنويه به في مقالات مدير الجريدة، من مثل ترتيب برقيته الأولى قبل برقية الشيخ البشير الإبراهيميّ، في مقال "يوم شوقي وحافظ"؛ ينظر: المقال، من غير إمضاء، جريدة "الحياة"، س01، ع02، 1351/12/19، 1933/04/15، ص02. بالإضافة إلى قوله في مقال سفير الحياة "جمعية الوفاق وانتخاب مجلس إدارتها": «كما قامت

في توجّهها الجديد، وكانت انطلاقتها في توقيت لم يكن مناسبا له بالمرّة، فكان يساير مديرها لسابق زمالتهما على مضض، ويسعفه بما سبق له كتابته من مقالات، غير أنّ هذا الرصيد سيؤول لا محالة إلى النفاد، ومدير الجريدة لم تكن له خبرة مفدي في الكتابة الصحفيّة، ولا اقتداره فيها، فكان هذا أحد أسباب توقّفها، وأحد أسباب توتّر العلاقة بينهما.

ويبدو أنّ مفدي اطّلع على انقلاب مدير جريدة "الحياة" عليه في عددها الثالث، قبل صدورها يوم 05/12، وإذ لم يستطع الردّ على مقال "على نفسها جنت براقش"، ردّ على صاحبه عن طريق غير مباشر، مستغلاّ في ذلك تعليقه بعنوان "الجحيم والمعيار"، فعاد إلى الكتابة في "الجحيم"، في عددها السابع ليوم 05/11، وكتب فصلا عنونه "على السفود"، يحمل نفس إمضائه لفصول "صحيفة السيّئات"، ألا وهو: "الفحل"، وضمّنه فقرة هي -في تقديرنا- سبب عودته إلى الكتابة في "الجحيم"، ولأجلها كتب هذا الفصل، فقد ورد فيها متحدّثا عن العدد الثالث من "الحياة" يوما قبل صدوره، ما يلي: «ورقة "الممات": خرج العدد الثالث من هذه الورقة، [و]هي لا تزال «ذات وجهين» عربيّ وفرنسي. و لم نكن ننتظر من صاحبها "الأب" عدون أن يفعل خيرا، ولكنّا لم نتوقّع منه الشرّ أيضا، فإذا به انفجر -مع الأسف- بأقذار وأرجاس منتنة، هي صورة صادقة من نفسه الوسخة اللئيمة، فهو يسمّينا بأنّنا "فلتاء"، ويصفنا بأنّنا "أصحاب نفوس دنسة"، [و]يزعم أنّه ساءه ما رأى من تشاتم وسباب بين "الجحيم" و"المعهر"، فتداخل ليقطع الشرّ، ولكن بما هو أشرّ، وينهى عن الشتم والسباب، فلم يزد على أن سبّ وشتم. إنّنا نعتقد أنّه موعز إليه بسبّنا، ومأجور على أن يشتمنا، ويجعلنا بمنزلة واحدة مع أصحاب المعهر، ونحن ننصح له أن يتركنا وشأننا، وأن يشتغل بإصلاح نفسه، وبعيوبه عن عيوب الناس [...]»، ثمّ أتبعه بكلام ممعن في الفحش والبذاءة في حقّه[1]، وواضح في كلامه هذا موقفه من القسم الفرنسيّ القارّ في جريدة "الحياة"، وعدم توقّع ما فعله به في عبارة «فإذا به انفجر»، كما يشير بوضوح إلى وجود من يقف وراء انقلابه عليه، لأنّ وقائع علاقتهما لا تقدّم تبريرا كافيا ومعقولا له.

لقد كانت قضيّة "المعمل العربيّ" -كما مرّ بيانه[2]- إحدى أكبر النكسات في حياة مفدي، وكانت أولاها -وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره-، فكانت انعكاساتها على حياته عموما، وعلى حياته الأدبيّة بصفة خاصّة جدّ بليغة، فاختار مفدي أن يعيش في الظلّ، بعيدا عن الأنظار، خاصّة في الجزائر ومزاب، وهكذا أمضى ما يزيد على ثلاث سنوات مغمورا، لم يظهر له أثر يذكر على جميع الأصعدة، ومنه

جمعية الوفاق بتكريم الشابّ الوطنيّ الحرّ، السيّد الفرقد سليمان، بمناسبة عودته من منفاه، وبتكريم دخول رصيفتنا "النور" اللامعة سنتها الثانية تبعا لاقتراح من العضو السيّد مفدي زكرياء» جريدة "الحياة"، ع02، ص02.

[1]- ينظر: المقال، جريدة "الجحيم"، س01، ع07، 1352/01/16هـ، 1933/05/11م، ص04.

[2]- ينظر: الباب الثاني، إفلاس الشركة، ص144-154.

نشاطه الأدبيّ، الذي لم يزد على مشاركته في احتفال مدرسة الاستقامة لسنة 1934، والمشاركة في مؤتمري طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، لسنة 1934 بتونس، وسنة 1935 بتلمسان؛ وإنتاجه الأدبيّ لم يخرج من إطار هذه المناسبات المحدودة جدّا، وجزء معتبر منه مفقود.

المؤتمران: الرابع بتونس والخامس بتلمسان

افتتح مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين الرابع[1] بتونس أشغاله يوم الثلاثاء 1934/10/02، في قاعة المطالعة بالمعهد الخلدونيّ، «وعند الساعة التاسعة ونصف قدم حضرات الزائرين الكرام، ممثّلي الجزائر، يتقدّمهم الكاتب القدير، الشيخ السعيد الزاهريّ الشهير؛ والشابّان المهذّبان: السيّد محمد بن الأشرف، أحد أعيان كلية الطبّ، في السنة الثانية؛ وزميله السيّد أحمد بن محمد بالسنة الأولى؛ وشاعر إفريقيا الأديب مفدي زكرياء، شاعر الوجدان الأمين»[2]، وكان ممّن أعطيت له الكلمة في حفل الافتتاح «شاعر الجزائر، الأديب مفدي زكرياء، فألقى قصيدة عامرة، كلّها عيون، أملاها وجدانه، فأعلنتها خوالجه، تحت عنوان "يوم الشباب"، افتتحها بقوله:

قم بيوم الشباب، حيّ الشبابا ... واستمع من فم الشباب الجوابا،
واقرإ الودّ والتحيّة للأخـ ... ـت من الأخت، والدعا المستجابا

وممّا حوته:

أيّها النازلون قصر ابن خلدو ... ن، مصابيح تشرقون الرحابا
/ أيّها النشء، أيّها الناس، صونوا ... أمّة سامها الشقاق العذابا،
واحفظوا وحدة الشمال بعزم ... يبق شعب الشمال حرّا مهابا

وقد أعيدت عدّة أبيات منها، وتكرّر لها التصفيق، سيّما عند ذكر أبطال من رجال التاريخ التونسيّ»[3]. أمّا "النهضة" فتحدّثت عن هذه القصيدة في العبارات الآتية: «[...] ثمّ أعطيت الكلمة لشاعر الشباب الإفريقيّ، الأستاذ مفدي زكرياء، أحد نوّاب الجزائر، فتلا قصيدة غرّاء: (تصفيق على ديدون وحنبعل وقرطاجنة)، (تصفيق على خراب، وعلى ما جاوش[كذا])، (على يبقى حرّا مهابا)، (على ما حثوا عليه التراب)، (تأوّهات عدّة شاعر[كذا] ...)، لم يجد للتعبير عن إعجابه أشعر من آه آه، يقهقه. (تصفيق حادّ في ختام القصيدة)[...]»[4].

1- انعقد المؤتمر الثالث بقاعة قصر التعاون، بباريس، من 1933/12/26 إلى 29 منه، بعد منع انعقاده بفاس؛ ينظر: المؤتمر الثالث لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، جريدة "الزهرة"، س46، ع7985، 1352/09/11هـ، 1933/12/27م، ص02، 03.

2- مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بتونس، جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س01، ع04، 1353/06/29هـ، 1934/10/09م، ص02. والمقال منقول عن جريدة "الزهرة" التونسيّة، نشر القسم الأوّل منه في هذا العدد، والثاني والثالث -على التوالي- في العددين 05، و06.

3- مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بتونس، جريدة "الأمّة"، س01، ع06، 1353/07/14هـ، 1934/10/23م، ص02، 03. والمقال هو القسم الثالث والأخير من مقال منقول عن جريدة "الزهرة" التونسيّة.

4- جريدة "النهضة"، س11، ع3489، 1353/06/23هـ، 1934/10/03م، ص03؛ وينظر: نشرة أعمال المؤتمر الرابع لطلبة شمال إفريقيا

وفي اليوم الثاني للمؤتمر، يوم 10/03، «تلا الأستاذ مفدي زكرياء تقرير التعليم الحرّ، الذي حرّره الأستاذ مصطفى عليّ، في حالة التعليم الحرّ في المغرب، نيابة عن صاحب التقرير الذي لم يحضر»[1].

وبعد زوال يوم الجمعة 10/05، خرج المؤتمرون لزيارة المواقع الأثريّة: قرطاج، وسيدي بوسعيد، والمرسى، وهناك «اقتبلهم وفد من الشباب التونسيّ، وعلى رأسهم شاعر الشباب التونسيّ، السيّد محمود بورقيبة، وهناك ألقيت عدّة خطب، قام بها السادة: مصطفى الزمرلي خطاب، شاعر الشباب قصيدة، الأستاذ الزاهريّ خطاب، مفدي زكرياء خطاب [...]»[2]؛ وعلى الساعة السابعة والنصف من مساء نفس اليوم، كان موعد المأدبة الختاميّة للمؤتمر، بنزل وأوتيل فرنسا، بنهج ليون روش، فكان مفدي من بين خطباء الحفل، وانتهى قبيل منتصف الليل[3].

وفي «يوم السبت 06 أكتوبر، على الساعة السادسة، أقامت هيئة الخلدونيّة حفلة شاي للسادة المؤتمرين، بقاعة مقهى (لونقر)[4]، وقد كانت هذه الحفلة فخمة، حضرها عدد عظيم من الذوات التونسيّين، خصوصا الطبقة المثقّفة [...]. ثمّ جاء دور الخطباء الكرام: عبد الرحمن الكعّاك خطاب، م. قو مدير المعارف خطاب، الفاضل بن عاشور خطاب، مفدي زكرياء قصيدة، محمد السعيد الزاهريّ خطاب، المنجي سليم خطاب»[5]، وعندما حان دور شاعرنا «ارتجل كلمات ذكر فيها أنّه اليوم واقف وقفة الولد البارّ، أمام أمّه الخلدونيّة سابقا، ثمّ تلا قصيدا بليغا، مطلعه: قم عـــلى الـــحـــفـــل، وافـــتـخـــر

وختامه: وليعش نـــشء إفريقـــيا الأغـــرّ»[6].

وفي أحد الأيّام الموالية، «على الساعة العاشرة ونصف، بعد أن أخذت صورة لهيئة المؤتمر، أمام معهد ابن خلدون، سار إخواننا الضيوف تتقدّمهم هيئة المؤتمر، إلى زيارة المدرسة الصادقيّة»، وفيها «ألقى شاعر الشمال الإفريقيّ، الأخ مفدي زكرياء بعض أبيات، ارتجاليّا، تضمّنت شكر المدير، وقد جاء اسمه متضمّنا فيها»؛ وفي زوال نفس اليوم أقامت جمعية الشبيبة المدرسيّة «احتفالا شيّقا، حضره كلّ الشباب المدرسيّ، وبعد أن اكتمل الجمع، افتتح الاجتماع بكلمة ألقاها رئيس هذه الجمعية، الأخ الصادق المقدم، وتلاه السادة: العنّابيّ بخطاب، رشيد إدريس

المسلمين، تونس عام 1934، المطبعة التونسيّة، تونس- تونس، د.ت.ط، ص03.

1- المؤتمر الرابع لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتونس، مندوب النجاح الخاصّ، جريدة "النجاح"، س15، ع1622، 1353/06/29هـ، 1934/10/10م، ص01؛ وبدأت "النجاح" تغطية الحدث بهذا المقال، انطلاقا من اليوم الثاني من المؤتمر. وينظر: جريدة "النهضة"، س 12، ع3491، 1353/06/25هـ، 1934/10/05م، ص02؛ ونشرة أعمال المؤتمر الرابع لطلبة شمال إفريقيا المسلمين06.

2- المؤتمر الرابع لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتونس، مكاتبكم، جريدة "النجاح"، س15، ع1623، 1353/07/02هـ، 1934/10/12م، ص01؛ وينظر: مأدبة الختام لمؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين، جريدة "النهضة"، س 12، ع3493، 1353/06/27هـ، 1934/10/07م، ص03.

3- ينظر: مأدبة الختام لمؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين، جريدة "النهضة"، ع3493، ص03.

4- ذكرت "النهضة" أنّها قاعة مقهى (عند الزنوج)، الكائن بنهج باريز.

5- المؤتمر الرابع لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتونس، مكاتبكم، جريدة "النجاح"، ع1623، ص01

6- حفلة تكريم الخلدونيّة لأعضاء مؤتمر طلبة شمال إفريقيا، جريدة "النهضة"، س 12، ع3494، 1353/06/29هـ، 1934/10/09م، ص03.

بقصيدة، الزاهريّ بخطاب، مفدي زكرياء بقصيدة، ثمّ وقع تناول الأتاي والحلويات، [وانتهت] الحفلة بسماع النشيد الوطنيّ للمؤتمر»[1].

وكان يوم 10/10 آخر يوم لضيوف تونس، دعوا فيه إلى منزل المنجي سليم، وبعد المأدبة التي أقيمت على شرفهم، «انتقلنا إلى قاعة الاستقبال، وهناك تولّى إحضار التاي الأخ مفدي زكرياء، على الطريقة المغربيّة، وفي هذه الأثناء كان يقوم الأخ محمد الأدغم، هو وطائفة من الشباب بإلقاء بعض قطع أندلسيّة. وفجأة قام ضيف تونس، الشابّ محمد أحمد[2]، وألقى خطابا باللغة الفرنسيّة، دلّ على روح طيّبة، وإحساس شريف، حتّى إنّه كان يتلعثم لسانه من كثرة التأثّر؛ ورغما على معارضة الزاهريّ قام الشاعر الإفريقيّ، الأخ مفدي زكرياء، وألقى خطابا، أدمع العيون، لما اشتمل عليه من العظة المفيدة، والروح الصادقة، التي امتاز بها هذا الأخ اللطيف، وقبل مفارقتنا لإخواننا تصافحنا مصافحة الوداد، مودّعين ضيوفنا الكرام، على وعد اجتماعنا في العام القابل في شقيقتنا الجزائر، إن لم يتيسّر إقامة المؤتمر في المغرب»[3].

نشرت جريدة "تونس الفتاة"، في عددها 17، بتاريخ 1939/08/19، "عقيدة التوحيد لشباب شمال إفريقيا"، وكان تقديمها كالآتي: «هذه عشرة عقائد مقتبسة من خطبة، كان ألقاها المجاهد الكبير مفدي زكرياء، في الحفلة الافتتاحيّة بمؤتمر طلبة شمال إفريقيا الرابع، الذي انعقد بقاعة الخلدونيّة (تونس)، سنة 1934، وهي جديرة بأن يطّلع عليها كلّ شابّ شمال إفريقيّ»[4]؛ غير أنّ الصحافة التي غطّت الحدث تغطية واسعة، لم تشر إلى عقيدة التوحيد هذه، ففي حفل افتتاح المؤتمر شارك مفدي بقصيدة، على ما نصّت عليه صراحة "الأمّة" الجزائريّة نقلا عن "الزهرة"، وكذا "النهضة"[5]، ونقلت الأولى أبياتا، والثانية عبارات منها أثارت موجة من التصفيق، فهل يمكن أن تسكت الصحيفتان عن هذه العقيدة على ما تحمله أفكارها من أصالة وجدّة؛ ثمّ إنّنا نقرأ في البند الثامن منها قوله: «قد تبيّن الرشد من الغيّ، فلا سياسة اندماج، ولا سياسة استجداء، نحن طلاّب حقّ مغصوب، وتراث مسلوب، فيجب أن نناله وكفى، فلا منزلة بين المنزلتين: إمّا وطنيّ صميم، وإمّا خائن أثيم ...»[6]، فإذا هي تحيلنا على سياق تاريخي آخر، هو نضال نجم شمال إفريقيا ضدّ المؤتمر الإسلاميّ في مسألة الاندماج، ونضاله ضدّ الاستعمار الفرنسيّ

1- المؤتمر الرابع لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتونس، مندوب النجاح الخاصّ، جريدة "النجاح"، س15، ع1624، 1353/07/04هـ، 1934/10/14م، ص02.

2- يبدو أنّه هو نفسه أحمد بن محمد، الطالب بكلية الطبّ في سنته الأولى، وقد سبق ذكره قريبا.

3- أخبار تونس: ليلة الوداع، مكاتبكم، جريدة "النجاح"، س15، ع1627، 1353/07/15هـ، 1934/10/24م، ص02.

4- مفدي زكرياء90، 91؛ وكذا 259، 260، وحدّد محمد ناصر مصدرها كالآتي: «نشرة خاصّة، طبع المطبعة العربيّة، الجزائر»264 ها8، ولم أقف على هذه النشرة؛ وينظر: حزب الشعب الجزائريّ96، 97. التقديم تقديم "تونس الفتاة"، وهو وارد فيما نسبه محمد ناصر إلى نشرة المطبعة العربيّة، فتكون هذه النشرة -إن صحّت- لاحقة لصدور هذه العقيدة في "تونس الفتاة"، لا سابقة.

5- أمّا نشرة المؤتمر فإنّها ذكرته ضمن المتدخّلين في الحفل ليس إلاّ، من غير تعيين لتدخّله، أهو قصيدة أم خطبة؟

6- مفدي زكرياء91، وحزب الشعب الجزائريّ97.

مطالبا إيّاه بالاستقلال لا غير، ومفدي في سنة 1934، بل والجزائر نفسها، لم تتسنّم بعد هذا الأفق النضاليّ. وعليه، يبدو أنّ صاحب التقديم التبس عليه تاريخ إلقاء هذا النصّ من ناحيتين: الأولى: أنّ هذه العقيدة إنّما ألقاها مفدي – في غير هذه المناسبة– في المدرسة الخلدونية أيضا، على ما سنقف عليه لاحقا[1]؛ والثانية: ارتباط موضوع الدعوة إلى وحدة أقطار المغرب العربيّ في أدب مفدي ارتباطا وثيقا بمؤتمرات جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا.

لقد صادف انعقاد هذا المؤتمر بتونس الأيّام الأخيرة من حياة الشاعر أبي القاسم الشابّي، فقد وافته المنيّة يوم الإثنين 09 أكتوبر 1934[2]، فأقامت جمعية الشبيبة المدرسيّة حفل تأبين له يوم 10/21، «وما دقّت الساعة المعيّنة حتّى غصّت قاعة قدماء الصادقيّة، بأفواج الخلائق، من الطبقة المثقّفة، يتقدّمهم زعيم الشباب، الأديب السيّد حمادي بدره، رئيس جمعية الكتّاب والمؤلّفين التونسيّين، بصحبته أفراد مجلس هذه الجمعية، وقسم من الصحافيّين، وطائفة عظيمة من السادة الأدباء»، وكانت مشاركة الجزائر فيه متمثّلة في «[../..] فخر الشباب الجزائريّ، الأخويْن الذيْن شاركوا تونس في فقد ركن من أركان نهضتها الأدبيّة، هما الأديبان العظيمان: محمد العيد، ومفدي زكرياء، هذان الشاعران اللّذان كثيرا ما خدما وطنهما بصدق»[3]؛ غير أنّ مفدي لم يحضر هذا التأبين الذي أقيم بقاعة الاحتفالات الكبرى التابعة لقصر الجمعيات الفرنسوية، فقد «تلا السيّد جلال الدين النقّاش قصيدة شاعر الشمال الإفريقيّ، الأستاذ مفدي زكرياء، وتلا أيضا قصيدته، وكان لهما استحسان عظيم»[4].

وإذا كانت نصوص مفدي الشعريّة الأربعة التي شارك بها في المؤتمر، وفي النشاطات التي انعقدت على هامشه، لم يصل منها سوى أبيات معدودة، وتعتبر من مفقود شعره، فإنّ قصيدته في تأبين الشّابّي "طربت أمس هناء"[5] نجت من عوادي الزمن، لتنقل أثر مشاركته في هذا المؤتمر في نفسه، بعد أكثر من سنة ونصف من العزلة، في الشطر الأوّل من مطلعها، حيث يقول:

طـــربـــتُ أمس هـــنـــاء، واليـــوم أبـــكـــي عــــزاء

وعلّق مفدي عليه بقوله: «إشارة إلى أنّ الشاعر كان يشارك في مؤتمر طلبة إفريقيا المسلمين بأيّام قلائل قبل وفاة

1- ينظر: ص529-531.

2- ينظر: ديوان أبي القاسم الشابّي ورسائله، قدّم له وشرحه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط02: 1415هـ/1994م، ص15.

3- أخبار تونس: ساعة الذكرى، مكاتبكم، جريدة "النجاح"، س15، ع1629، 1353/07/19هـ/1934/10/28م، ص02، 03.

4- الاحتفال الكبير بتأبين المرحوم أبي القاسم الشابّي، مندوب النهضة، جريدة "النهضة"، س 12، ع3536، 1353/08/21هـ، 1934/11/27م، ص03.

5- تحت ظلال الزيتون13-18. وورد في تقديم مفدي -على الأرجح- لها ما يلي: «نظمت في رثاء أبي القاسم الشابّي، ونشرت في "العالم الأدبيّ"، بتونس 1934، وأنشدت بحفل التأبين الذي أقامه بالجزائر النادي الإسلاميّ الذي كان يرأسه المرحوم الأستاذ عبد الرحمن يسن»13. وينظر 24 بيتا منها: جريدة "الأسبوع"، س07، ع311، الإثنين 1372/03/02هـ، 1952/11/24م، عدد خاصّ بذكرى الشابّي، ص13، والأبيات هي: 01-11، و22-24، و27-31، و42-46.

الشابّي، وألقى قصيدا بالخلدونيّة يهنّئ فيه تونس»[1]. ثمّ استرسل في ذمّ الدنيا، في نجوى ذاتيّة، ترشح بمرارة كبيرة، وظّف فيها ضمير المتكلّم، قبل الانتقال إلى ضمير جمع الغائبين، وركّز على انقلاب الدنيا عليه، في تسعة أبيات؛ ويبدو أنّه وجد في موقف تأبين الفقيد مسربا للتنفيس عن مكنون نفسه إثر نكسة "المعمل العربيّ"، فقال ما يلي:

تلك الدنـــا عـــوّدتـــنـــي	خـــداعــهـــا، والرّيـــــاء
حـــتّـــى رأيـــت ســــواء	بكـــاءهـــا والغـــنـــاء
(وأمّ دفـــــر)[2] عـــجـــوز	تـــبـــاشـــر الفـــحـــشاء..
أضـــاعـــت الرّشـــد لـــمّا	أضـــاعـــت الـــحـــرفاء...
كم أجزلت لـــي رضاهـــا،	وبـــادلـــتـــنـــي (الـــولاء)
وكم أرتـــنـــي وجـــهـــا	مـــهـــلّـــلا وضّـــــــاء
ونـــاولـــتـــنـــي ثـــغـــرا	لثـــمـــت فيـــه الرجـــاء
حـــتّـــى إذا رُمـــت وصلا،	وجـــئـــت أرجـــو الـــوفاء
رأيتها، وهـــي تـــنـــســـا	بُ حـــيّـــــة رقـــطـــــاء
وكم لـــهـــا مـــن إهـــاب	تغـــري بـــه البـــســـطـــاء
حـــتّـــى إذا لـــمســـوهـــا	تـــبـــدّلت حـــربـــاء»[3].

كتب مفدي رسالة موجزة من الجزائر إلى الشيخ الثمينيّ، يوم 1934/10/12، يقول فيها -من غير التحيّة في أوّلها، والسلام في ختامها-: «أعتذر إليكم لعدم إمكاني مقابلتكم، إذ قد أحاطت بي ظروف خاصّة أسرعت بي للسفر، وقد تردّدت [على] المكتبة مرارا، فلم أجدكم، وحاولت القدوم إليكم ليلا، فحيل بيني وبين ذلك بما ستعلمونه من الأخ المنجي سليم. وعلى كلّ فإنّي على أتمّ الاستعداد لما تأمرون، وما تطلبون، وإنّي ممتثل تماما لما تودّون، وإنّي أنتظر منكم رسالة في ذلك، كما أرجوكم إرسال تفصيل الحساب داخلا وخارجا إلى يومنا، هذا لأصفّيه لكم، وإنّي واثق بأنّكم تعذرونني، ولكم الفضل أوّلا وآخرا»[4]. إنّ هذه الرسالة تكشف بصورة عامّة عن وضع مفدي بعد إفلاس شركته، إثر قضية "المعمل العربيّ"، فقد كان المسهمون في هذا المشروع، أو بعضهم، يطالبونه بسداد أموالهم فيه[5]، وهو ما يفسّر عزلته واختفاءه؛ وكان أستاذه الثمينيّ من المسهمين فيه، فضلا عن شراكته معه في بيع كتب "مكتبة الاستقامة" بالجزائر، غير أنّه كان -فيما يبدو- متفهّما أكثر من غيره لوضعه، فلم

---

[1]- تحت ظلال الزيتون13 ها1.

[2]- علّق مفدي في الهامش بقوله: «لقب يطلق على الدنيا الدنيئة»تحت ظلال الزيتون14 ها1.

[3]- نفسه13، 14.

[4]- الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

[5]- ينظر -على سبيل المثال- رسالة مفدي إلى موسى بن عمر بوراس: الباب الثاني، ص153 وها02.

يضغط عليه ضغط غيره، ولعلّ مفدي وعده وعودا قبل هذا التاريخ، و لم يف بها[1]، فوجد حرجا كبيرا في الالتقاء به في تونس، فتهرّب من لقائه، على ما تشير إليه الرسالة بوضوح، وغادرها من غير أن يراه، برغم مكوثه بها أكثر من أسبوع، ولذلك كتب رسالته هذه إليه معتذرا، وواعدا إيّاه بسداد مستحقّاته جميعها مستقبلا.

كانت للشيخ الثمينيّ مكانة جدّ خاصّة في نفس مفدي، لا تدانيها مكانة أحد غيره، و لم يكن من الهيّن على مفدي -في تقديرنا- تحمّل ما تسبّب له فيه من خسارة، وهو ما يفسّر ندرة رسائله إليه بعد إفلاس شركته[2]؛ ولنا أن نتصوّر الصراع الذي كان يعتمل في نفس مفدي قبل انعقاد المؤتمر، بين الاستجابة إلى داعي الحياة التي يريدها ويرجوها، وحرم منها نفسه لما يزيد على سنة ونصف، فيشارك في المؤتمر، وبين الاستسلام لتحرّجه من مقابلة أستاذه في تونس، من غير أن يفي بوعوده، فلا يشارك فيه؛ فكانت رغبته في العودة إلى الحياة التي يرتضيها أقوى، فاختار حضور المؤتمر، وتجنّب الالتقاء بأستاذه.

كلّ ذلك يفسّر لنا فرحة مفدي فرحة عارمة، لا توصف، عندما أرسل إليه شيخه الثمينيّ يدعوه لحضور احتفال مدرسة الاستقامة السنويّ شهرا بعد ذلك، فردّ عليه من فوره قائلا: «وبعد، فعلى الطائر الميمون أُلقي إليّ كتابُكم، تدعونني للحضور يوم 25 الجاري بقالمة لاحتفال مدرسة الاستقامة السنويّ. لبّيك، لبّيك، يا حضرة الأستاذ، إنّي سأترك كلّ ضروريّاتي التي تجبرني أن أكون يوم 25 بالجزائر، وأضحّي بكلّ شيء في سبيل المثول بين يديكم في مدرستكم العامرة»[3]، بالرغم من توتّر العلاقة بينه وبين مديرها الشيخ عبد الله بوراس الكامليّ، بسبب "المعمل العربيّ" أيضا[4]، إلى حدّ العزم على عدم الاستجابة لدعوة المدير[5].

حضر مفدي هذا الحفل، وكتب عنه -على الأرجح- مقالا، نشره في جريدة "الثبات"، لصديقه محمد عبابسة الأخضريّ، من غير إمضاء، وبعنوان "احتفال مدرسة الاستقامة بقالمة"، لأنّنا من جهة نجد فيه تبجيل مفدي وتقديره لشيخه الثمينيّ، إذ يقول: «منذ أربع سنوات أسّس المصلح الكبير الشيخ الثمينيّ، صاحب "مكتبة الاستقامة" بتونس، ورئيس البعثة المزابيّة بها، مدرسة ببلدة قالمة، تحت اسم "الاستقامة"، فكانت هذه المدرسة بفضل مجهوداته الصادقة، وتضحياته الجبّارة، أوّل مدرسة لإخواننا المزابيّين بالعمالات الثلاث [...]. وألقى فيه [يعني: الاحتفال] أبو النهضة المزابية الحاضرة، الأستاذ الثمينيّ، خطابا تاريخيّا عظيما، دام نحو ساعة، ترك قلوب السامعين

1- على نحو ما ورد في رسالته إليه، يوم 1933/10/01، إذ يقول: «وعن قريب سأكون بجانبكم إن شاء الله. وتجدون رسالة ضافية في الأخبار المستجدّة على يد عمّنا بالحاج بن يحي، والحساب والدراهم تأتيكم بعد غد إن شاء الله» أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- لم نعثر له إلاّ على رسالة واحدة مؤرّخة في 1933/10/01، أشار فيها إلى رسالة ضافية، أرسلها مع عمّه بالحاج بن يحي، و لم نقف عليها؛ ثمّ أعقبتهما هذه الرسالة، في 1934/10/12. ينظر: الرسالتان، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

3- الرسالة، 1934/11/20، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

4- بسبب الرسالة التي كتبها على لسان موسى بن عمر بوراس؛ ينظر: الباب الثاني، ص153 وها02.

5- يقول: «ولقد تلقّيت قبلها دعوة من قالمة، وكنت عازما على عدم القدوم، لأنّ العلائق متوتّرة بيني وبين مدرّسها»نفسها.

مكهربة، وألهب الإحساس والشعور في ذلك الحفل الرهيب، حتّى فجّر العيون بالبكاء. وللشيخ الثمينيّ أياد بيضاء في تأسيس المشاريع الخيريّة الكبرى، منها شركة المنسوجات الشرقيّة التي تأسّست أخيرا ببلدة قالمة تحت أوامره»؛ ولا نجده -من جهة أخرى- يتعرّض، ولو في نصف كلمة، إلى جهود مدير المدرسة وتضحياته، فله أربع سنوات، وهو يباشر فيها التعليم والإدارة؛ ولا يعنى في ختامه بغير نشر قصيدته، على كثرة ما ألقي في هذا الحفل من خطب، ومنها خطبة شيخه، يقول مستعملا ضمير الغائب: «ولقد حضر هذا الاحتفال حضرة شاعرنا الفحل، الأستاذ مفدي زكرياء، وألقى قصيدة عصماء، نثبتها لقرّائنا الكرام فيما يلي:»[1]، إلاّ أنّ إدارة الجريدة أخّرت نشرها للعدد الآتي، لضيق نطاق هذا العدد، والأعداد الثلاثة الموالية مفقودة في المجموعة التي تصفّحتها[2].

سافر مفدي ضمن الوفد الجزائريّ إلى تلمسان للمشاركة في المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، يوم 1935/09/05، تقول في ذلك جريدة "الأمّة" الجزائريّة: «يوم 05 سبطامبر، الساعة الثامنة صباحا، امتطى القطار وفد الطلبة الجزائريّين المتركّب من السادة: غرسي محمود رئيس جمعية الطلبة، الحقوقيّ البارع قدّور ساطور، الأديب الكبير عبد الرحمن ياسين؛ صحبة السادة: حميدو بن ونيش، ومحمد الزمرلي، من مؤسسي نادي الترقّي بالجزائر، ومن رجال الحركة الفكريّة الجزائريّة، والأديب مفدي زكريا، ... تاعموت عيسى، مندوبا عن جريدة "الأمّة"، وتلاقوا بإخوانهم الطلبة التونسيّين في محطّة الحرّاش، واصطحب الجمعان إلى تلمسان الجميلة، أين يقام المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا»[3]؛ وفي يوم 09/08 بعث بطاقة بريديّة إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، جاء فيها: «تذكار المؤتمر الخامس لطلبة شمالي إفريقيا المسلمين، بمدينة تلمسان الجميلة؛ ابنكم مفدي وتاعموت. يسلّم عليكم الشيخ الإبراهيميّ، ومحمد الهادي السنوسيّ»[4].

لقد غطّت جريدة "الأمّة" الجزائريّة أشغال المؤتمر المنعقد بتلمسان من 09/06 إلى 09/10[5]، وجميع النشاطات التي أقيمت على هامشه، في ستّ حلقات نشرت تباعا في الجريدة، بداية من العدد 41 إلى العدد 46[6]، والمفترض أن يكون محرّرها "مندوب الجريدة إلى المؤتمر" تاعموت عيسى، غير أنّ تاعموت عيسى كان منذ جريدة "وادي ميزاب" مساعدا للشيخ أبي اليقظان في الأعمال الإداريّة، من غير أن يحرّر فصلا واحدا، لأنّ مستواه في اللغة العربيّة لا يؤهّله ليكون محرّرا وكاتبا، تشهد لذلك رسائله إلى السيّد قاسم بن الحاج عيسى، والشيخ الثمينيّ، في

1- المقال، جريدة "الثبات"، س01، ع33، 1353/09/21هـ، 1934/12/28م، ص03.

2- ينظر: مجموعة أعداد جريدة "الثبات" 1934-1935، رقم: دو414، قسم الدوريات، دار الكتب الوطنية بتونس.

3- المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان، من غير إمضاء، جريدة "الأمّة"، س01، ع41، 1354/06/11هـ، 1935/09/10م، ص03.

4- البطاقة البريدية، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

5- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، إمضاء: بيرتان (Burtin)، رقم: 5723، 1935/09/14، موضوعها: مؤتمر الطلبة المسلمين، 2I38، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

6- ينظر: مجموعة أعداد جريدة "الأمّة" الجزائريّة، مكتبة الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو، بني يزقن.

أواخر العشرينيّات، في فترة صدور جريدة "وادي ميزاب"، فقد كان تعبيره ضعيفا تغلب عليه العاميّة[1]؛ وإذا لاحظنا ملازمته لمفدي في المؤتمر، على ما تدلّ عليه البطاقة البريديّة، وتضمّن هذه الفصول مقطوعتين شعريّتين لمفدي دون غيره من المشاركين في المؤتمر[2]، فلا يخالجنا شكّ في أنّ محرّر هذه الفصول إنّما هو مفدي زكرياء.

شارك مفدي في حفل افتتاح المؤتمر «بقصيدة رنّانة ألقاها "شاعر الشباب بجدارة واستحقاق"، الشابّ المهذّب "مفدي زكرياء"»[3]، وقالت عنها جريدة "الأمّة": «ثمّ قام شاعر الشمال الإفريقيّ، السيّد مفدي زكرياء، وألقى قصيدة، استعيد أكثر أبياتها، والتهب لها الحفل إحساسا وشعورا»[4]، من غير أيّ وعد بنشرها، على ما جرت به العادة، عند العزم عليه؛ ثمّ صدرت في العدد 43، فكان أوّل نصّ ينشر لمفدي باسمه الصريح في جريدة "الأمّة"، بعد التوتّر الشديد الذي لحق علاقة الشيخ أبي اليقظان بتلميذه مفدي زكرياء، في أعقاب قضية "المعمل العربيّ"؛ غير أنّ القصيدة حذف منها أبيات، بدليل عبارة: (ومنها)، بعد البيت الخامس والعشرين[5]، لتكون القصيدة الوحيدة التي حذف منها أبيات في جميع ما نشره مفدي في صحافة الشيخ أبي اليقظان، فما كان منه إلاّ أن راسل بشأنها الشيخ، قائلا له: «لأن تقطع طرفا من أطرافي أهون عليّ من حذف بيت من قصيدتي»[6].

إنّ ما سبق بيانه يشير إلى تردّد واضح للشيخ أبي اليقظان في الموقف الواجب اتّخاذه إزاء مفدي، بعد مرور سنتين كاملتين ونيّف على انقطاع علاقتهما، فقد كان يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى، وانتهى فيه إلى فتح الباب لمفدي، لكن لا على مصراعيه، وكأنّ شيئا لم يحدث، لحساسية موقفه، فقد كان الأستاذ في مواجهة تلميذه، ومجرّد نشره قصيدة مفدي، ولو مبتورة، يدلّ على استعداد لتجاوز الخلاف بينهما، ولكن لا إلى درجة كتابة تقديمها[7]، ففيها تنويه بمفدي وقصيدته لا يتناسب وهذا الموقف منه، فقد جاء فيه: «عنوان القصيدة الرائعة التي ألقاها في مؤتمر

1- من ذلك هذا المقطع من إحدى رسائله، أنقله بأخطائه حرفا بحرف: «ألجي يوم 02 نفامبر 1927: إلى حظرة الأجلّ الأفخم، السيّد قاسم بن الحاج عيسى، ثمّ الشيخ الثامني، سلام عليكم التامّ، وتحية والإكرام من أخيكم تعموت. من غير قبول جواب من عندكم، المانع خيرا. تقبّل داخل هاد مقالات من الأخ السيّد الفرقد، بارك الله فيكم، اعجلوا بنشرها جزاك الله عن الإسلام خيرا. وإيّاكم أن تنشروا مقالاته في عداد واحد، المرجوّ منكم أن تفرقهم أحسن»الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- الأولى حول منارة المنصورة؛ ينظر: "المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين"، جريدة "الأمّة"، س01، ع43، 1354/06/25هـ، 1935/09/24م، ص02؛ وأمجادنا تتكلّم...وقصائد أخرى130. والثانية في هجاء حمار الشيخ الإبراهيميّ؛ ينظر: "المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين"، جريدة "الأمّة"، س01، ع45، 1354/07/09هـ، 1935/10/08م، ص01؛ وأمجادنا تتكلّم...وقصائد أخرى136.

3- المؤتمر الخامس لتلامذة إفريقيا الشماليّة المسلمين، من غير إمضاء، جريدة "النجاح"، س16، ع1752، 1354/06/10هـ، 1935/09/11م، ص02.

4- جريدة "الأمّة" الجزائريّة، ع41، ص3.

5- ينظر: جريدة "الأمّة"، ع43، ص03.

6- رواية عن صديق مفدي الحميم، السيّد اطفيش محمد بن إبراهيم، لقاء في إطار التحضير لتظاهرة سنة مفدي زكرياء 2002، من غير تعيين للقصيدة، وملابسات القصّة ترجّح عندنا تعلّقها بهذه القصيدة بالذات.

7- ينظر: مفدي زكرياء231، ها94.

الطلبة شاعر الشمال الإفريقيّ، الأديب الألمعيّ، السيّد مفدي زكرياء، الذي يتطلّع في شعره إلى عرش إمارة الشعر، وقد كنّا نوّهنا بها سابقا، قال لا فضّ فوه:»[1].

وصادف إقامة مفدي بتلمسان بعد المؤتمر نشر خبر تعيين زميل دراسته باسعيد عدون باش عدلا، ورئيس المحكمة الإباضية بمعسكر[2]، فكتب إليه «عن عجل» رسالة من تلمسان، بتاريخ 1935/09/15، جاء فيها: «قرأنا (ونحن بتلمسان) خبر إنعام الحكومة عليكم بمنصب القضاء، في المحكمة الإباضيّة لعمالة وهران، فعمّنا السرور، وأخذ الابتهاج مأخذه من قلوبنا، وتبودلت البشائر بين أصدقائكم الكثيرين، الموجودين حالا بتلمسان، ممّن تربطكم بهم رابطة المدرسة، تلك الرابطة المتينة التي لا تقوى على قطعها يد كائن من كان»، ثمّ ذيّلها بهذه الأبيات:

«لــح في العــدالة رافــلا، جذلان كالقــمر الــمنيــر
وانــهض بــها متــقلّبــا، كالنّــحل مــا بــين الزهور
وارفــع لــواء فخــارهــا، واجعل مقــامك في الصدور
بــجــدارة قــد نلــتهــا، لا بالتــمائــم والبــخــور
فاسجــد لربّــك شاكــرا، ما أسعد العبــد الشــكور
واقبــل تــهــانــي مخلص، جاءتــك عــاطرة العبيــر
واسعد (سعيد) بــها، وعش فرحان، مرتــاح الضمير»[3].

وكما كان مؤتمر 34 استثناء في الحياة التي كان مفدي يعيشها منذ نكسة "المعمل العربيّ"، لم يشذّ مؤتمر 35 عن ذلك، فقد عاد إلى عزلته واختفائه، بالرغم ممّا توحي به قصّته مع الشيخ أبي اليقظان إبّانه، ورسالته إلى زميله باسعيد عدون بعده، من محاولة مدّ الجسور بينه وبين مقرّبيه، ممّن انقطعت صلته بهم بسبب هذه النكسة، كسبيل للعودة تدريجيّا إلى سابق عهده قبلها.

لم ينشر من إنتاج مفدي بعد هذا المؤتمر، وقبل ظهور مصالي الحاج على مسرح الأحداث بالجزائر، في اليوم الثاني، من شهر أوت، من سنة ستّ وثلاثين وتسعمائة وألف، سوى رسالتين:

الأولى: رسالة منه إلى الشيخ محمد السعيد الزاهريّ، جوابا على دعوته -باسم اللجنة التحضيريّة لجمعية "إخوان الأدب"- الأدباء إلى مكاتبته، لإبداء آرائهم في هذا الموضوع، وللانخراط في جمعية "إخوان الأدب"، لتوجّه

1- جريدة "الأمّة"، ع43، ص03.

2- بأمر من الوالي العامّ، بتاريخ 08/24؛ ينظر: تسمية باش عدل رئيس، جريدة "النجاح"، س16، ع1752، 1354/06/10هـ، 1935/09/11م، ص02.

3- جريدة "النجاح"، س16، ع1768، 1354/07/20هـ، 1935/09/18م، ص03.

إليهم دعوات حضور مجلسها التأسيسيّ حين انعقاده قريبا بوهران[1]؛ نشرت جريدة "الأمّة" الجزائريّة رسالة مفدي، بعنوان "حول جمعية إخوان الأدب"، وجاء فيها:

«قرأت ما نشرتموه بالصحافة الجزائريّة[2] عن شأن الدعوة لتأسيس جمعية "إخوان الأدب"، تلك الأمنية الغالية التي كنّا نعلّل بها النفس أيّاما وليالي، فنطويها كما نطوي كثيرا من آمالنا، قانعين من الغنيمة بالإياب. إنّها فكرة جليلة كان يعوزها -كما يعوز كثيرا من أمانينا- رجلا مقداما جريئا، يخرجها من دائرة الخيال إلى حيّز الأعمال. أما وقد وجدت فيكم الرجل الجريء المقدام، فلكم أفضلية السبق، وعلى سائر الأدباء العمل بصدق.

في الجزائر (فوضى أدبيّة) لا نظير لها، كادت أن تأتي عليه في مهده، وفي الجزائر أدباء عقدوا مع الأدب هدنة، أو تزول الفوضى، ويحلّ مكانها التعقّل والنظام؛ وآخرون تدفعهم رغبات، وتصدّهم عقبات، وبين ذلك وذا أدب (مائع)، متزالق الأجزاء، لا وجهة تميّزه، ولا وحدة تربطه، ولا صلة له بالخلود، ولئن وفّقت "إخوان الأدب" لترميم هذه الأجزاء، وضمّها إلى عنصر واحد هو (الأدب العربيّ الجزائريّ) فقد واللّه وضعت لبنة خالدة في بناية مستقبل الجزائر الماجدة، والأمّة أدب ولغة، وأمّة لا أدب لها لا كرامة لها. الجزائر في حاجة إلى جمعيات عديدة، ما دامت النكبات عليها عديدة، وليست أبدا في حاجة إلى كثرة المقرّرات، وعدم التنفيذ، فذلك مدعاة السآمة منها، وتزعزع الثقة من جانبها. ولئن نجحتم في تأسيس "إخوان الأدب"، فاجعلوا غرضها فردا، وأقيموا بينها وبين السياسة سدّا، واملؤوا ساحتها جدّا وكدّا، فإن فعلتم فخذوا منّي على العمل عهدا، والسلام»[3].

ولعلّه قد صنّف نفسه ضمن من «عقدوا مع الأدب هدنة، أو تزول الفوضى، ويحلّ مكانها التعقّل والنظام»؛ لقلّة ما نشر من إنتاجه خلال هذه السنوات الثلاثة.

الثانية: رسالة حملت إمضاءه، وكتبها عن جماعة من المصلحين العاملين، إلى الشيخ الطيّب العقبيّ، أبي الجزائر الجديدة، كما أسماه، نشرتها جريدة "البصائر"، بعنوان "رأي جديد (في تأسيس جمعية باسم جمعية التوحيد)"، جاء فيها: «إنّ الذي يجسّ نبض الأمّة الجزائريّة مباشرة كحضرتكم، يعلم مقدار الأوبئة الفتّاكة المنتشرة بين شرايينها، من شقاق مبنيّ على فوارق طبيعيّة، وخصومات نصف دينيّة، هي من بقايا جنايات الآباء على البنين [...]، والاستعمار من وراء ذلك [يستعين] بهذا الفوراق على محقنا جميعا، ومحال أن توفّق

1- ينظر: جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س02، ع63، 1354/11/24هـ، 1936/02/18م، ص3. غير أنّ الجمعية وانعقاد مجلسها التأسيسيّ لم يظهر لهما أثر في أعداد جريدة "الأمّة" اللاحقة.

2- إنّ عدم ذكره لجريدة "الأمّة" التي نشرت دعوة الزاهريّ ممّا يدلّنا على أنّ علاقته بالشيخ أبي اليقظان لم تعد بعد إلى سابق عهدها، ولعلّ في حذف أبيات قصيدته تفسير لذلك؛ ويرجّح بالتّبع نشر هذه الرسالة في "الأمّة" بطلب من الزاهريّ، لا من مفدي. كلّ ذلك يستبعد -في نظرنا- ترجيح نسبة قصيدة "فقيد الإسلام والشرق السيّد محمد رشيد رضا" إلى مفدي، فضلا عن بعدها في بنائها وأفكارها عن شعره؛ ينظر: القصيدة، بإمضاء: فتى ميزاب، جريدة "الأمّة"، س01، ع49، 1354/08/07هـ، 1935/11/05م، ص02؛ وينظر في ترجيح نسبتها: مفدي زكرياء282.

3- جريدة "الأمّة"، س02، ع69، 1355/01/15هـ، 1936/04/07م، ص3.

نهضة على هذه الأشكال المتنافرة [...]. إزاء كلّ هذا رأت كتلة صالحة من العاملين تأسيس جمعية تحت رئاستكم، باسم "جمعية التوحيد"، غايتها القيام بإزالة جميع الفوارق بين الطوائف الإسلاميّة الساكنة بهذه البلاد، وتمتين العلاقات بين تلك الطوائف، وتطهيرها، وتوحيد الرغبات والأعمال تحت دائرة التوحيد، وذلك بتنظيم محاضرات ومسامرات لهذا الصدد، في كلّ أسبوع، وفي كلّ ناحية، وعقد مؤتمر سنويّ كلّ سنة في إحدى العمالات الثلاث، بالتناوب، والقيام بإنشاء رسائل ونشريات تدعو للوحدة والوفاق، وتشكيل قافلة سنوية من الدعاة والمبشّرين بالتوحيد في دائرة التوحيد»[1]؛ ثمّ طلب منه في ختامها الجواب في هذه المسألة الحيويّة الأساسيّة، والمعاضدة بقبول الرئاسة، وبأعماله الصالحة[2].

لقد تزامن نشر هذا المقال مع بداية مقاطعة بني مزاب بعمالة قسنطينة[3]، ولعلّ الدافع إلى كتابتها هو بعض بوادرها، ومنه مقال نشر في جريدة "الليالي"[4]، بعنوان "إخواننا في الدين"، بإمضاء: عنابة – زعفان، كتب عنه مفدي إلى أستاذه الثمينيّ، وهو عابر سبيل بوهران، يقول: «طيّ هذا (مقطوعة) من خرقة "الليالي"، تحتوي على مقال كلّه سبّ وطعن في بني ميزاب، وقد تفضّل حضرة الكاتب القدير، الأستاذ الزاهريّ بالردّ عنه، وقد تعرّض لذكركم بالحسنى في مقاله الممتع البديع، فانتظروه في العدد المقبل من "الأمّة"»[5]، وصدر العدد 80 من "الأمّة" الجزائريّة، بتاريخ 1936/06/23، وهو لا يحوي غير الردود على مقال زعفان، فإذا هي 05 مقالات يتصدّرها مقال الزاهريّ[6]، ولا أستبعد مشاركة مفدي بأحد هذه المقالات.

إنّ هاتين الرسالتين لتؤكّدان مرّة أخرى عزوفه عن الكتابة إلاّ فيما اضطرّه الواجب إليه، ودفعه إليه دفعا على نحو من الأنحاء، فرسالته الأولى كانت جوابا على رسالة صديقه، ولا أستبعد أن يكون ممّن حثّهم الزاهريّ على

1- ينظر: جريدة "البصائر"، س01، ع27، 1355/04/20هـ، 1936/07/10م، ص07.

2- وقد ضمّن تقديمه لهذه الرسالة الجواب، وذلك عندما نبّهه إلى «أنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين هي جمعية الموحّدين، وقد سبق تأسيسها لهذه الغاية التي يرمي إليها [...]، فما يتطلّبه هو وغيره من الإخوان يجدونه في جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين متى عمّموا الدعوة إليها، وأعانوها بجهودهم الجبّارة على الوصول إلى مهمّتها السامية، وما هذه المهمّة إلاّ الاتّحاد في التوحيد»نفسه.

3- ينظر: الباب الثاني، ص235 ها01.

4- صدرت بالجزائر بين فيفري 1936 ومارس 1937، مديرها ومحرّرها علي بن سعد. يقول عنها محمد ناصر: «والمطّلع على محتويات جريدة "الليالي" يعجب بنزعتها الإصلاحية الوطنيّة، وأسلوب تحريرها الأدبيّ الجميل، فقد كان المحرّرون بها كتّاب عرفوا بتحريراتهم العذبة من أمثال محمد السعيد الزاهريّ، والشيخ حمزة بكوشة، والشاعران الطاهر بوشوشي، و**مفدي زكرياء**» الصحف العربيّة الجزائريّة199. والحقّ أنّي لم أطّلع على هذه الجريدة لبحث مشاركة مفدي في تحريرها؛ ود. محمد ناصر لم يوثّق هذه المعلومة، ولعلّه استقاها من الشيخ حمزة بكوشة، فكثيرا ما أحال عليه، في حديثه عن "الليالي".

5- الرسالة، 1936/06/11، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس. وقد أرفق بها قصاصة أو (مقطوعة) المقال، فلم يظهر فيها معلومات النشر.

6- هي: "صرخة غضبان في وجه زعفان: حول أسطورة إخواننا في الدين" لمحمد سعيد الزاهريّ، و"من عبث بعرض أخيه عبثت بعرضه الأقلام" لنغران، و"إليك يا سي الزعفان الحمقان ما يزيل عنك الزعاف" لزعلان، و"على رسلك يا سي الزعفان فإنّ العرب بالباب" لجسّاس، و"خرقة اللّيالي" لمسلم زيّ الزفت؛ ينظر: فهرس موضوعات جريدة "الأمّة"، أبو اليقظان وجهاد الكلمة421.

الجواب لسابق صداقتهما، وواقعة جريدة "الليالي" دالّة على اتّصالها آنذاك؛ أمّا الثانية فكتبها عن جماعة، تحسّبا لفتنة كانت على وشك الوقوع بين الأشقّاء، من أبناء الوطن الواحد.

يمكننا بعد كلّ هذا أن نحصر ما وقفنا عليه من إنتاجه في هذه الفترة في الجدول الآتي:

رقم	عنوان النصّ	نوعه	حجمه	تاريخه
.1	ديوان أبي اليقظان والنور	قصيدة	18 بيتا	1932/01/19
.2	تحية المرصاد	قصيدة	35 بيتا	1932/01/22
.3	العواصف والأعاصير بتونس الشقيقة	مقال	04 صفحات	1932/01/22
.4	ميّت حيّ	مقال	03 صفحات	1932/02/06
.5	مرحبا بالأكرمين	مقطوعة	15 بيتا	1932/03/20
.6	إقرأ كتابك	مقطوعة	15 بيتا	1932/04/05
.7	جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين	مقال	عمودان ونصف	1932/07/19
.8	فهذا فؤادي وهذي يدي	قصيدة	63 بيتا	1932/07/26
.9	جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين	مقال	ثلاثة أعمدة وربع	1932/08/10
.10	جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين[1]	مقال	عمود وثلثان	1932/08/13
.11	جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين[2]	مقال	عمودان	1932/08/21
.12	جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين[3]	مقال	عمودان وربع	1932/08/23
.13	جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين[4]	مقال	عمود ونصف	1932/08/24
.14	نهوضا بني إفريقيا من سباتكم	قصيدة	45 بيتا	1932/08/30
.15	المهرجان العظيم لافتتاح مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بالجزائر	مقال	03 أعمدة	1932/08/30
.16	المأدبة	قصيدة	20 بيتا	1932/09/06
.17	تأبين حافظ إبراهيم: كذب الناس	مقطوعة	06 أبيات	1932/09/06
.18	الوداع على النادي	مقطوعة	14 بيتا	1932/09/06
.19	الوداع على قطار الجزائر	مقطوعة	11 بيتا	1932/09/06
.20	الوداع على قطار قسنطينة	مقطوعة	15 بيتا	1932/09/06

[1]- تتمّته: بيانات وتفصيلات لم تنشر قبل اليوم، من غير إمضاء، جريدة "النهضة"، س09، ع2835، 1351/04/10هـ، 1932/08/13م، ص02.

[2]- تتمّته: بيانات وتفصيلات لم تنشر قبل اليوم، من غير إمضاء، جريدة "النهضة"، س09، ع2842، 1351/04/18هـ، 1932/08/21م، ص03.

[3]- تتمّته: بيانات وتفصيلات لم تنشر قبل اليوم، من غير إمضاء، جريدة "النهضة"، س09، ع2843، 1351/04/20هـ، 1932/08/23م، ص02.

[4]- تتمّته: بيانات وتفصيلات لم تنشر قبل اليوم، من غير إمضاء، جريدة "النهضة"، س09، ع2844، 1351/04/21هـ، 1932/08/24م، ص02.

.21	صدى المؤتمر العظيم للطلبة المسلمين بشمال إفريقيا في الجزائر	مقال	06 أعمدة	1932/09/06
.22	جمعية علماء السنّة بالجزائر	مقال	عمودان وربع	1932/09/27
.23	المنبر العامّ: كتاب مفتوح	مقال	صفحة ونصف	1932/09/30
.24	تأسيس نقابة تجاريّة دفاعيّة لقسنطينة وعمالتها	مقال	عمود وثلثاه	1932/10/04
.25	الاحتفال بامتحان مدرسة الإخاء العامرة ببسكرة	مقال	عمودان ونصف	1932/10/08
.26	يا أيّها الوطن المجيد تيقّظا!!	مقطوعة	16 بيتا	1932/10/08
.27	[في هجاء الزوّاي]	قصيدة	28 بيتا	أكتوبر 1932
.28	النقابة التجاريّة للمدافعة عن حقوق التجّار الميزابيّين بعمالة قسنطينة	مقال	عمودان ونصف	1932/10/01
.29	ها أنذا لبيك يا "مرصاد"	مقال	03 صفحات	1932/10/21
.30	شعر الشيخ الرابحيّ	مقطوعة	09 أبيات	1932/10/21
.31	إلى عميرة الأقرع	مقطوعة	04 أبيات	1932/10/21
.32	النهضة الجزائريّة المباركة	مقال	04 أعمدة	1932/11/01
.33	مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين — ما يجري بالجزائر	مقال	عمودان ونصف	1932/11/11
.34	كية بعد كية!	مقطوعة	04 أبيات	1932/11/19
.35	إلى الأستاذ سامي الشوّا	مقطوعة	13 بيتا	1933/01/12
.36	جمعية الوفاق والاحتفال بالإفراج عن الفرقد الجمعية الإسلاميّة الجزائريّة لمقاومة الكحول	مقال	عمود ونصف	1933/01/14
.37	يوم الخلاص	قصيدة	22 بيتا	1933/01/18
.38	ذكرى الشاعرين حافظ وشوقي	مقال	نصف صفحة	1933/01/24
.39	مأدبة نادي الترّقي الفاخرة لجمعية العلماء المسلمين الجزائرّيين	مقال	04 أعمدة	1933/02/23
.40	الحياة الأدبيّة	مقال	عمود واحد	1933/03/07
.41	صحيفة السيّئات	مقال	عمودان ونصف + 12 بيتا	1933/03/30
.42	نكت القوم	مقال	عمودان + 04 أبيات	1933/03/30
.43	مستهلّ	مقال	03 أعمدة ونصف	1933/04/01
.44	سانحة: أكذوبة أبريل	مقال	عمود واحد	1933/04/01
.45	صحيفة السيّئات	مقال	عمودان وربع + 18 بيتا	1933/04/05

.46	نكت القوم	مقال	ربع عمود	1933/04/05
.47	للتشطير	مقطوعة	بيت واحد	1933/04/05
.48	الرباعيات الجديدة	مقطوعة	04 أبيات	1933/04/05
.49	نكت القوم	مقال	عمود ونصف + 03 أبيات	1933/04/13
.50	يا رضاية الوالدين في قاعة الفرطاس	مقطوعة	10 أبيات	1933/04/13
.51	صحيفة السيّئات	مقال	عمود ونصف + 11 بيتا	1933/04/13
.52	صفحة من حياة بطل الحروب الطرابلسيّة عطوفة الشيخ سليمان البارونيّ	مقال	06 أعمدة	1933/04/15
.53	طالعوا .. جريدة الحياة	مقطوعة	بيتان	1933/04/15
.54	صحيفة السيّئات	مقال	عمود واحد + 11 بيتا	1933/04/20
.55	أنشودة [...]	مقطوعة	13 بيتا	1933/04/20
.56	أدبيات + للتشطير	مقطوعة	05 أبيات	1933/05/04
.57	على السفود	مقال	عمودان ونصف	1933/05/11
.58	هل تريد السعادة؟ إذن تعلّم	مقال	عمودان ونصف	1933/05/12
.59	الوجه الجميل عنوان القلب الطاهر	مقال	عمود ونصف	1933/05/12
.60	طربت أمس هناء	قصيدة	46 بيتا	1934/10/21
.61	احتفال مدرسة الاستقامة بقالمة	مقال	صفحة وربع	1934/12/28
.62	أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا	قصيدة	60 بيتا	1935/09/06
.63	المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان	مقال	/	1935/09/10
.64	المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان[1]	مقال	/	1935/09/17
.65	المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان	مقال	/	1935/09/24
.66	منارة المنصورة[2]	مقطوعة	04 أبيات	سبتمبر 1935
.67	هجاء حمار الشيخ البشير الإبراهيميّ[3]	مقطوعة	03 أبيات	سبتمبر 1935

[1]- ينظر: جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س01، ع42، 1354/06/18هـ، 1935/09/17م.

[2]- يقول مفدي في مناسبتها: «[...] كان الأستاذ محداد، المدرّس بتلمسان، يلقي على الحاضرين درسا تاريخيّا عن "المنصورة" ومنارتها، وقال: إنّ هناك حكاية ظريفة، لا أعتقد صحّتها، وإن كانت تدلّ على مغزى، وهي: إنّ المنارة بنى قسمها العالي عملة من اليهود، وما إن تمّ بناؤها حتّى تهدّم ما بناه اليهود، وسقط كتلة واحدة، ولم يبق من المنارة إلاّ ما بنته اليد الطاهرة المسلمة، وما إن تمّ حديثه حتّى بادره شاعرنا الأستاذ مفدي زكريا بهذه الأبيات، مضمّنا فيها ذلك المعنى» المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، جريدة "الأمّة"، س01، ع43، 1354/06/25هـ، 1935/09/24م، ص02.

[3]- يقول مفدي في ظرف إنشائها: «[...] ولم تسلم هذه المائدة إلاّ من معدة الأستاذ الإبراهيميّ الذي بات يشكو ألما من جرّاء سقطة سقطها من حماره البليد، أو معدة الأستاذ ياسين (الدّلِيكَات) التي ما ألفت غير (البشكوطو والحليب). أمّا الأستاذ الإبراهيميّ فقد شغله عن الأكل سماع

.68	المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان(1)	مقال	/	1935/10/01
.69	المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان	مقال	عمود وربع	1935/10/08
.70	المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان(2)	مقال	/	1935/10/15
.71	رسالة إلى أبي سعيد عدون	مقال	صفحة واحدة	1935/09/15
.72	[تهنئة أبي سعيد عدون]	مقطوعة	07 أبيات	1935/09/15
.73	حول جمعية إخوان الأدب	مقال	صفحة واحدة	1936/04/07
.74	رأي جديد (في تأسيس جمعية باسم جمعية التوحيد)	مقال	عمود ونصف	1936/07/10

74 نصّا، منها: 45 مقالا، و26 مقطوعة، و09 قصائد، بمجموع عدد أبيات يساوي 567 بيتا.

هجاء حماره من شاعرنا مفدي زكريا الذي كان ينظم الكلام نظما، ويقضم الطعام قضما:» المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س01، ع45، 1354/07/09هـ، 1935/10/08م، ص01.

[1]- ينظر: جريدة "الأمّة"، س01، ع44، 1354/07/02هـ، 1935/10/01م.

[2]- ينظر: جريدة "الأمّة"، س01، ع46، 1354/07/16هـ، 1935/10/15م.

الفصل الثاني: في مرحلة النضال السياسيّ الوطنيّ

إنّ إنتاج مفدي زكرياء الأدبيّ في هذه المرحلة كان سياسيّا في الأغلب الأعمّ، وقد وقفنا بالضرورة عند أغلب نصوصه عند رصد نشاطه السياسيّ، في الباب الثاني والثالث من هذا البحث، وعليه –وتفاديا للتكرار– سنكتفي في هذا الفصل بتتبّع صيرورته باختصار، والوقوف عند النصوص التي لم نتناولها سابقا، لخروجها عن إطار العمل السياسيّ، أو عند ملابسات بعض نصوصه التي تحتاج إلى تحقيق وإيضاح:

لقد كان لظهور مصّالي الحاج على مسرح الحياة السياسيّة في الجزائر، عقب خطابه يوم 1936/08/02، بالملعب البلديّ بالجزائر، أثر كبير في حياة مفدي زكرياء، فقد تتّبعنا في الباب الثاني يوميّات لقاءاته به، ابتداء من يوم 08/05، وتوثّق علاقته به في أيّام معدودة، وانخراطه في نشاطات حزبه نجم الشمال الإفريقيّ بكلّ قوّة.

ظهر أثر ذلك أوّل ما ظهر في حضوره يوم السبت 1936/09/05، الوليمة التي أقامها الشيخ الطيّب العقبيّ، بمناسبة ختان أبنائه، فقد انعقد عقبها حفل ترأّسه الأستاذ أحمد توفيق المدنيّ، وكان من بين الخطباء مفدي زكرياء، فأتى في خطابه «على أدوار الحركة الإصلاحيّة والسياسيّة في الجزائر منذ الحرب، فأبهر السامعين بخطابه البديع، وقابلوه بالتصفيق مرارا. وبعد جلوسه علّق عليه الأستاذ توفيق بقوله: كنت قدّمت إليكم الأستاذ كشاعر رقيق، والآن أقدّمه إليكم كخطيب سياسيّ، أو كما قال»[1]؛ ثمّ ظهر أيضا في مناشير الحزب المكتوبة باللغة العربيّة، فعيّن في أوائل أكتوبر عضوا في اللجنة التنفيذيّة لقطاع الجزائر، مكلّفا بالدعاية[2].

وفي إطار تولّيه لهذه المهمّة في الحزب لمدّة شهر أو تزيد، حقّق إنجازين كبيرين، غيّباه عن الأنظار، هما "النشيد الوطنيّ الجزائريّ"، و"بلاغ من رئيس الحزب الوطنيّ الجزائريّ مصّالي الحاج إلى الأمّة الجزائريّة الكريمة"[3].

وعند انتخابه رئيسا لحزب نجم الشمال الإفريقيّ بالجزائر، بعيد رحيل زعيم الحزب إلى فرنسا، يوم 11/08، شغلته مهامّه العديدة عن أيّ نشاط أدبيّ، بل وشغلته حتّى عن استقبال أوّل مولود له، بنته عائشة، يوم 1936/12/09[4]؛ وقد أشار تقرير فرنسيّ بعنوان "السنة الأهليّة 1936" إلى هذه الحقيقة، وذلك عند قوله متحدّثا عن نجم الشمال الإفريقيّ: «[...] يتعلّق الأمر هنا بحركة تطوّرت بخطى عملاقة خلال سنة 1936، فأصبح يفرض نفسه حاليا على انتباه العنصر الأهليّ وتفكيره، بينما كان منذ 08 أشهر فحسب منسيّا في الأغلب [...]. لقد قويت دعايته، وأصبحت حركته تتمتّع ببعض الشهرة. وفي غياب مصّالي الذي يقيم بفرنسا منذ 08 نوفمبر، يبدو

1– وليمة ختان أو حفلة وطنيّة، من غير إمضاء، جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س02، ع90، 1355/06/28هـ، 1936/09/15م، ص03.

2– ينظر: الباب الثاني، ص170.

3– ينظر: الباب الثاني، ص173–181.

4– ينظر: الباب الثاني، ص189–190.

المزابيّ مفدي زكرياء من الجزائر، المناضل الأكثر عزما وتصميما على الاستمرار»[1].

لقد قلّ إنتاج مفدي زكرياء في هذه الفترة، فلم نقف إلاّ على ثلاثة مقالات هي: "تاريخ السياسة الجزائريّة" في جريدة "النهضة" التونسيّة؛ و"نغمة جديدة لتفريق الشعب الجزائريّ"، و"إلى البلبل الزعلان"، في جريدة "الأمّة" للشيخ أبي اليقظان:

أرّخ مفدي مقاله "تاريخ السياسة الجزائريّة" يوم 1355/09/01هـــ، 1936/11/16م، بعد أربعة أيّام من تحريره بلاغ رئيس الحزب، نشره في جريدة "النهضة" التونسيّة، في حلقتين، يومي 11/29، و12/04[2]؛ ورد في تقديم الجريدة له ما يلي: «بعث لنا الكاتب البارع، والشاعر المبدع، السيّد مفدي زكرياء، أحد أفذاذ الأدباء من إخواننا الجزائريّين، والذي كان يوافي هاته الجريدة بأخبار القطر الشقيق، وانقطع لظروف، وشواغل خاصّة مدّة غير قصيرة -أرسل لنا بهذا المقال القيّم الذي ننشره شاكرين له حسن ظنّه بهاته الجريدة تحت عنوانه أعلاه»[3].

إنّ هذا المقال -فيما نعلم- هو أوّل مقال سياسيّ لمفدي، استعرض فيه تاريخ السياسة الجزائريّة عبر ثلاثة أدوار: من الاحتلال إلى الحرب العظمى، ثمّ من الحرب العظمى إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين، ثمّ الجزائر بين العلماء والنوّاب؛ وبعدها انتقل إلى بيان أقسام الهيئات الراهنة ومطالبها، فقسّمها إلى أربعة أحزاب هي: حزب المتوظّفين ورؤساء الطرق الصوفية، وحزب النوّاب اللائكيّين غير المنخرطين في وحدة النوّاب، وحزب وحدة النوّاب وحزب الحكيم ابن جلول، والحزب الوطنيّ (نجمة إفريقيا الشمالية)؛ ووقف في ختامه على أعمال هذه الأحزاب بمناسبة فوز الجبهة الشعبية، وآخر حدث أشار إليه فيه هو الإفراج عن الشيخ الطيب العقبيّ، وكان في أوائل سبتمبر 1936.

إنّ هذا المقال يعكس موقف الحزب من جمعية العلماء آنذاك، وهو الحفاظ على شعرة معاوية بينه وبينها، على مستوى تصريحات الحزب الرسميّة، وكتاباته، وهو ما عبّر عنه مفدي في "البلاغ"، بالرغم من أنّ هذه العلاقة كانت تشهد بداية تأزّمها في أواسط نوفمبر 1936[4]؛ فقد كان مفدي يلتمس العذر لموقف جمعية العلماء من القضية الجزائريّة ضمن المؤتمر الإسلاميّ، ويرجو تداركه، وذلك حيث يقول على سبيل المثال: «وتأسّس وفد تحت قيادة الدكتور[يعني: ابن جلول]، يمّم باريس بتاريخ 20 جويلية سنة 1936، والظاهر أنّ العلماء ذهبوا مع الوفد لحماية مطالبهم الدينيّة فقط، غير متّفقين معه في مطلبي "إلحاق الجزائر بفرنسا رأسا" و"النيابة البرلمانية"، إلاّ أنّه ما كان لهم أن يسافروا مع الوفد مطالبين بعريضة مطالب لا ينفكّ أحدها عن الآخر، وفيها ما يمسّ بمبادئهم التي ربّوا

1- ينظر: السنة الأهليّة 1936، لم تعيّن الجهة التي أنجزته، جانفي 1937، 11h48، (CAOM)، وثيقة من 13 صفحة، ص11؛ ومفدي زكرياء من منظور الإدارة الاستعماريّة28.

2- ينظر: الباب الثاني، ص188.

3- جريدة "النهضة"، س14، ع4170، 1355/09/14هـــ، 1936/11/29م، ص03.

4- ينظر على سبيل المثال: رسالته إلى صويلح محمد سعيد بتاريخ 11/13، الباب الثاني، ص187.

عليها الشعب على خطّ مستقيم؛ ولعلّها غلطة ناشئة عن عدم التمرّن على الألعاب السياسيّة، وهذا ضعف في الثقافة السياسيّة عظيم، نرجو أن يتداركه السادة العلماء، لئلاّ يقعوا مرّة أخرى في غلطة كهذه، إذ إنّ المسألة مسألة الحكم في مصير أمّة كاملة، لا في مصير شركة تجارية يمكن فيها المماكسة والمهاودة، والتصلّب على المبادئ أكبر وسيلة للنجاح، ورحم الله مصطفى كامل إذ يقول: «كلّ من يتنازل عن حقوق بلاده ولو مرّة، يعدّ أبد الدهر مزعزع العقيدة، سقيم الوجدان» [...]. ولعلّ العلماء سيتداركون موقفهم بعدما تبيّن لهم الحقّ، وبعد ما قاسوه من أتعاب مع أمثال ابن الحاج، وابن جلول، وظهور خياناتهم للعيان، ولا نخالهم إلاّ فاعلين إن شاء الله»[1].

وبالرغم من ريادة هذا المقال في التأريخ للسياسة الجزائرية من موقع أحد الفاعلين فيها، فإنّ الإقامة العامّة التونسيّة كتبت تقول عنه في تقريرها عن الصحافة التونسيّة من فاتح ديسمبر إلى منتصفه،: «نشرت "النهضة" دراسة عن تاريخ السياسة الجزائرية، من غير جدّة فيها أو أصالة»[2].

نشر مفدي يوم 11/17 مقاله الأوّل ضدّ مسرحية محي الدين باش تارزي "بعد السكرة"[3]، وضع فيه هذه المسرحية ضمن مسعى الاستعمار الفرنسيّ للتفريق بين مختلف طوائف الشعب الجزائريّ، ولذلك عنونه بــ"نغمة جديدة لتفريق الشعب الجزائريّ"، فأكسبه بعدا سياسيا واضحا، من أثر انخراطه في المعترك السياسيّ، وشعوره بالواجب اتّجاه هذا الشعب الذي يسعى لتمثيله، والنضال في سبيل استقلاله، فهو يقول فيه:

«منذ أمد بعيد كنّا نرى بعض صنائع الاستعمار مسخّرين للقيام بأدوار (كوميكيّة) في رواية تفريق الشعب الجزائريّ، التي نسجتها نفس اليد التي نسجت رواية الظهير البربريّ بالمغرب الأقصى [...]. ولا تزال بين أيدينا المقالات المتسلسلة التي كان ولا يزال ينشرها السنيور زانيت في "لادبيش ألجريان"، مثيرا بها النعرة الطائفيّة،

---

[1]- جريدة "النهضة"، س14، ع4175، 1355/09/19هــ، 1936/12/04م، ص02.

[2]- ينظر: تحليل الصحافة التونسيّة، وأهمّ الأحداث السياسية والاقتصاديّة، للفترة ما بين 01 و15 ديسمبر 1936 (Analyse de la presse Tunisienne et des principaux événements d'ordre politique et économique, pour la période du 1er au 15 décembre 1936)، الإقامة العامّة للجمهورية الفرنسيّة بتونس (Résidence générale de la république française à Tunis)، رقم: 19، 26h3، (CAOM)، ص06.

[3]- لخّص مفدي محتواها قائلا: «رجل حضريّ مدمن على الخمرة حتّى فقد كلّ ماله، وتراكمت عليه ديون عديدة، فجاءه أخ له -وهو بلبلنا طبعا- ينصحه ويأمره بترك الخمرة، والرجوع إلى سيرة آبائه، وإذا أراد يوما أن يشرب الخمر، فلا يشرب غير نوع (فينكس) .. ثمّ يحادثه في مسألة الديون المتراكمة عليه، فيشير عليه الأخ ببيع ما بقي له من أثاث، للتخلّص منها، وأن يستدعي لشراء ذلك الأثاث القديم ثلاثة من التجّار: يهوديّ، وميزابيّ، وقبائليّ، فيستدعيهم السكّير لبيته، ولا تسأل عمّا هنا من التهكّم المقذع على كلّ منهم في لباسه وحركاته ولهجة كلامه.. ثمّ يحضر لهم الأسمال البالية، ويطالبهم بدفع سبعمائة فرنك ثمنا لها؛ فيختفي السكّير، ويتواطأ الثلاثة سرّا على الاحتيال والنصب للرجل الحضريّ ليبتاعوا منه تلك الأسمال بأبخس ثمن، ويبتزّوا منه رزقه بطرق الاحتيال الذميم، والمماكسة المزرية؛ ثمّ ينفّذون جهرا ما تواطؤوا عليه سرّا، فيبتاعون منه الأسمال بقيمة مائة فرنك فقط؛ وهنا يخرج الأخ النصوح، فيلومه على قبوله البيع بذلك الثمن البخس، ويقول له ألا تعلم أنّ هؤلاء قوم طمّاعون جاؤوا ليخادعوك، ويبتزّوا رزقك؛ ثمّ يشفع كلامه بنشيد في هجائهم (يا الطمّاعين يا الطمّاعين إلخ)»جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س02، ع99، 1355/09/02هــ، 1936/11/17م، ص02.

ومفضّلا فيها العنصر البربريّ على العنصر العربيّ، عملا بالقضيّة الاستعماريّة القائلة: إنّ شمالي إفريقيا بلاد بربريّة، وأصل سكّاها بربر، وليس العرب فيها إلاّ قوم أجانب طردوا من مصر، وإنّ اللغة العربيّة لغة دخيلة في البلاد، والدين الإسلاميّ دين أجنبيّ دخيل، فالجزائر بربريّة، وسكّاها بربر، ولغتها يجب أن تكون بربريّة أو لاتنيّة، ودينهم يجب أن يكون المسيحيّة. وهذه كلّها موادّ سامّة سوداء يتركّب منها مستحضر«الظهير البربريّ» القتّال، وهي شنشنة استعماريّة قديمة، وفكرة آثمة لم نزل إلى الآن نسمعها من بعض المتجنّسين في خطبهم العامّة الرسميّة، وباسم الهيئات الجزائريّة البارزة، والأسف ملء الجوانح [...].

واليوم أصبحنا نرى هذه اليد السوداء تندسّ من جديد، وبشكل أدهى وأمرّ في أدمغة بعض الممثّلين الجزائريّين الذين ما فتؤوا يقلقوننا، ويضايقوننا برواياتهم الباردة السخيفة، المقصود منها نشر الأخلاق الذميمة في الشبيبة الجزائريّة، والدعاية الفاجرة -لفائدة تجّار الخمور- بشكل فاضح يتنافى مع مبادئ الإسلام، ومبادئ الوطنيّة، ومبادئ الشرف والمروءة، والكرامة الجزائريّة المصونة.

وها هو حضرة البلبل الجزائريّ الغريد -كما يسمّونه- تينور شمال إفريقيا، يتجوّل في البلدان الجزائريّة بروايته التي سمّاها "بعد السكرة"، تلك الرواية التي حاكها ماهر قدير في الدسّ، لتفريق الوحدة الجزائريّة، وتشتيت جمع المسلمين، علاوة على أنّها دعاية لصاحب خمرة (فينكس)، التي أصبح البلبل وسط روايته يأمر الناس، وينصحهم بشربها [...].

تلك هي الرواية المخجلة التي ينشرها هذا البلبل في أوساطنا الإسلاميّة الطاهرة، ولا نعلم هل هو مأجور لذلك، أو مأمور به، وعلى كلتا الحالتين فإنّا إن تغاضينا أعواما عن سخافة رواياته، وجناياته على الفنّ، فلن نتغاضى اليوم أبدا عن نشره لهذه الأوبئة الفتّاكة بأخلاق شبابنا، المقوّضة لصرح وحدتنا، ونرجو من الأمّة أن لا تنخدع لأمثال هذه المحاولات المريبة، المقصود بها النكاية والوقيعة بكرامتها؛ ومن حضرة البلبل أن يكون مغرّدا على الغصون لا ناعقا على الدمن»[1].

ردّ عليه محي الدين بمقال عنونه "نغمة جديدة لتكذيب الكاتب المفرّق بين الشعب الجزائريّ"، نشره في "الأمّة"[2]، فأجابه مفدي بمقاله الثاني "إلى البلبل الزعلان"، ابتعد فيه مفدي عن لهجة المقال الأوّل الجادّة، ومال إلى السخرية والتهكّم، واستعمال العامية، من ذلك قوله فيه: «[...] وما كنّا نتوقّع أنّ هذا البلبل «يزعل» من كلامنا النزيه الصادر عن صدق وصفاء ضمير، أو أنّ معدته (دليكات) إلى درجة أنّها لا تقوى على هضم انتقاد رجل صريح، ما كان يخطر له على بال أن يرفع قلما لانتقاد أمثاله يوما من الأيّام، لولا ما يوجبه عليه حبّه للفنّ، وغيرته على الأخلاق. وكان ظنّنا قريبا من اليقين أنّ الأستاذ ماحي الدين -كما بالفرنسويّة في إعلاناته (MAHIDDIN)-

---

1- السابق.

2- جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س2، ع100، 1355/09/09هـ، 1936/11/24م، ص2.

سيرعوي عن غيّه -بلاش كثرة كلام-، ويدخل إصلاحات في برنامجه العمليّ، معتبرا انتقادنا له أعظم هديّة خالصة من مسلم لأخيه، وأن يبادر لإعلان توبته النصوح عمّا اجترحه من السيّئات في جنب الأخلاق، وما ارتكبه من جنايات في ذات الفنّ، إلاّ أنّ صاحبنا -محفوظ البقاء والسلامة- لّما قرأ انتقادنا حاص وباص، ودارت به الأرض الفضاء، وأرسل في المقاهي والكباريات حاشرين، يأتون بكلّ كاتب عليم ليحرّروا له ردّا عليّ، ولقد اتّصل بي أحد هؤلاء الذين ألحّ عليهم في الكتابة، فرغب منّي أن أحرّر له فصلا في الردّ عليّ، وكنت لا أتردّد في ذلك لولا أن حدث سوء تفاهم في اللحظة الأخيرة بين هذا الفتى والأستاذ محي الدين فيما يخصّ ثمن الكتابة، إذ إنّ حضرته رأى أن يماكسه مماكسة لا تقلّ عمّا حكاه لنا عن الثلاثة في روايته المظلمة "بعد السكرة"»[1].

بعد ذلك انقطع إنتاج مفدي الأدبيّ إلى حين سفره على رأس وفد من حزبه المنحلّ إلى تونس، حلّ بها هذا الوفد يوم 1937/02/20، فـــ«تبودلت بين أشقّاء الشمال الإفريقيّ طيلة ثمانية أيّام كاملة محاضرات سياسيّة عميقة، وخطابات وطنيّة مليّة، وقصائد حماسيّة رائعة، ومجالس أدبيّة ظريفة، ودرس دقيق لحالة شمال إفريقيا عموما، وتوطيد دعائم الوحدة بين بنيها في التفكير والمبادئ والبرامج والأعمال، وسيتمتّع الشمال الإفريقيّ في وقت غير بعيد -إن شاء اللّه- بثمرات تلك الرحلة المباركة الوحيدة من نوعها»[2]؛ «وبعد رجوع الوفد إلى الجزائر بقي شاعرنا بتونس، يقوم بالاتّصالات السياسيّة، والأحاديث الصحفيّة، والمحاضرات الثقافيّة»[3]، فلم يغادرها إلاّ يوم 03/04[4].

وخلّفت هذه الرحلة، ونشاط مفدي السياسيّ والأدبيّ المكثّف فيها ثلاثة نصوص:

أولاها: «القصيد الذي ألقاه الشاعر مفدي زكرياء بتونس، بمناسبة زيارة وفد الحزب الوطنيّ الجزائريّ، الذي كان يرأسه، وذلك في آخر فبراير 1937»[5]، عنوانه "بردة الوطنية الجزائريّة"، نشر الجزء الأوّل منه في جريدة "الشباب"[6]، وكتب صاحبها محمود بيرم التونسيّ في تقديمه، وكانت تجمعه بمفدي صداقة تامّة[7]: «إيه أيّتها الشقيقة العزيزة، لقد بعد عهدك بالعربيّة حتّى كادت تنكرك، وتلهّف الناطقون بالضّاد على سماع صوتك بينهم.

1- جريدة "الأمّة"، س3، ع101، 1355/09/23هــ، 1936/12/08م، ص2.

2- وفد الشباب الوطنيّ الجزائريّ بتونس الشقيقة، مفدي زكرياء، جريدة "الأمّة"، للشيخ أبي اليقظان، س03، ع113، 1356/01/02هــ، 1937/03/16م، ص03.

3- حزب الشعب الجزائريّ267.

4- ينظر: الباب الثاني، ص197 ها03.

5- حزب الشعب الجزائريّ163.

6- يدلّ على ذلك رقم (1) الذي وضع بعد العنوان مباشرة؛ ينظر: صوت الجزائر: بردة الوطنية الجزائرية(1)، مفدي زكرياء، جريدة "الشباب"، س01، ع19، 1355/12/22هــ، 1937/03/05م، ص07.

7- يقول محمد قنانش: «وزرنا جريدة [...]"الشباب" التي كان يديرها الفنّان الكبير بيرم التونسيّ [...]، وقد أسمعنا عدّة أزجال طلبها منه مفدي زكرياء الذي كان يعرفه معرفة تامّة» حزب الشعب الجزائريّ267.

فها أنت تنجبين شاعرك الفرد مفدي زكرياء يصوّر لنا ملامحك، ويقرّب إلى قلوبنا شخصك، وما خفي من شؤونك وشجونك. و"الشباب" ينشر مزهوّا قصيدة مفدي زكرياء التي خصّه بها دون الصحف العربيّة، ويهنّئ الجزائر بشاعرها الفرد»[1]، ويبدو أنّ الجزء الثاني منه تعذّر نشره في جريدة "الشباب"[2]، فصدر في العدد الأوّل من جريدة "السردوك"[3]، شهرا تقريبا بعد صدور الجزء الأوّل[4].

ثانيها: مقال نشره في جريدة "الأمّة" للشيخ أبي اليقظان، بتاريخ 1937/03/16، عنونه "وفد الشباب الوطنيّ الجزائريّ بتونس الشقيقة"[5]، كان بمثابة تقرير مختصر عن هذه الرحلة، في بيان أهدافها ووقائعها ومنجزاتها.

ثالثها: "عقيدة التوحيد لشباب شمال إفريقيا": نشرتها جريدة "تونس الفتاة" سنة 1939، وأرجعتها تاريخيّا إلى «[...] خطبة كان ألقاها المجاهد الكبير مفدي زكرياء، في الحفلة الافتتاحيّة بمؤتمر طلبة شمال إفريقيا الرابع، الذي انعقد بقاعة الخلدونيّة (تونس)، سنة 1934 [...]»[6]؛ وقد سبق أن استبعدنا تماما إنشاء مفدي لهذا النصّ في هذا التاريخ، وأوضحنا التباس الأمر فيه على صاحب التقديم من ناحيتين: الأولى: أنّ هذه العقيدة إنّما ألقاها مفدي –في غير هذه المناسبة– في المدرسة الخلدونية أيضا؛ والثانية: ارتباط موضوع الدعوة إلى وحدة أقطار المغرب العربيّ في أدب مفدي ارتباطا وثيقا بمؤتمرات جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا.

وإذا سلّمنا بإلقائه لهذه العقيدة في المدرسة الخلدونية بتونس، على ما جاء في جريدة "تونس الفتاة"، ثمّ بحثنا عن المناسبة الأنسب والأصحّ، وجدناها في تقرير المقيم العامّ الفرنسيّ بتونس عن نشاط مفدي في الأيّام التي مكثها بتونس، بعد مغادرة الوفد المرافق له تونس يوم 26، أو 02/27[7]، وذلك حيث يقول: «في مدة بقاء مفدي وحيدا بتونس، اتّصل بالطلبة الجزائريّين في الجامع الأكبر، وألقى محاضرة أمام جمهور محدود، بالمدرسة الخلدونيّة، دعا

---

[1]– بردة الوطنية الجزائرية(1)، مفدي زكرياء، جريدة "الشباب"، ع19، ص07.

[2]– مجموعة أعداد جريدة "الشباب"، في قسم الدوريات، بالمكتبة الوطنيّة بتونس، تامّة إلى العدد 20، و لم ترد تتمّة القصيدة فيه.

[3]– جريدة تونسيّة أسبوعيّة فكاهيّة ومصوّرة، صاحبها: الشاذلي الفهريّ. ينظر القصيد فيها: صوت الجزائر، مفدي زكرياء، جريدة "السردوك"، س01، ع01، 1356/01/25هـ، 1937/04/07م، ص07. والعنوان "صوت الجزائر" هو عنوان الركن في جريدة "الشباب" لا القصيدة.

[4]– ينظر القصيد كاملا: الأدب الجزائريّ في تونس2: 382–385؛ ومفدي زكرياء211، 212؛ والحركة الاستقلاليّة في الجزائر163–165. وقد ذكر الجابريّ بأنّ الجزء الثاني نشر في جريدة "الشباب" يوم 04/07؛ ينظر: النشاط العلميّ والفكريّ للمهاجرين الجزائريّين بتونس393. وعند إنجازه لكتابه الأدب الجزائريّ في تونس، أراد تصحيح بيت في هذا الجزء، فكتب يقول: «لم نستطع إصلاح هذا البيت نظرا لتلاشي العدد الذي نشرت به القصيدة في مجموعة المكتبة الوطنيّة التونسيّة»2: 384 ها3. وهو إنّما أخطأ الجريدة، فكان يبحث عنه في "الشباب"، وهو موجود في العدد الأوّل من "السردوك"، وهذا العدد موجود ضمن مجموعة أعداد جريدة "السردوك"، في قسم الدوريات، بالمكتبة الوطنيّة بتونس، وهي تامّة إلى العدد 10، في الفترة الأولى من صدورها.

[5]– جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س3، ع113، 1356/01/02هـ، 1937/03/16م، ص03.

[6]– مفدي زكرياء90، 91، وكذا 259، 260؛ وحزب الشعب الجزائريّ96، 97.

[7]– ينظر: ص197 ها01.

مسلمي شمال إفريقيا خلالها إلى الاتّحاد في تجمّع عربيّ للدفاع بفاعلية عن مصالح بلدانهم [...]»[1].

إنّ في إلقائه هذه المحاضرة أمام جمهور محدود تفسير لبقائها في طيّ الكتمان إلى سنة 1939، وفي إلقائها بعد مغادرة الوفد تفسير لعدم حديث محمد قنانش عنها، وكان أحد أعضاء الوفد؛ ومضمون العقيدة لا يخرج عن إطار "دعوة مسلمي شمال إفريقيا إلى الاتّحاد"، كما أنّ بندها الثامن الذي يقول فيه: «قد تبيّن الرشد من الغيّ، فلا سياسة اندماج، ولا سياسة استجداء، نحن طلاّب حقّ مغصوب، وتراث مسلوب، فيجب أن نناله وكفى، فلا منزلة بين المنزلتين: إمّا وطنيّ صميم، وإمّا خائن أثيم ...»[2]، مناسب جدّا للسياق التاريخيّ الذي رجّحنا انتسابها إليه، في خضمّ الصراع بين الحزب الوطنيّ والمؤتمر الإسلاميّ حول مسألة الاندماج، وإلحاق الجزائر رأسا بفرنسا.

وممّا يؤيّد ما رجّحناه النصّان السابقان اللّذان كتبهما في تلك المدّة، إذ كان موضوع الوحدة بين أقطار المغرب العربيّ أساسيّا فيهما، أنتج فيه مفهوما جديدا جعل فيه هذه الوحدة عقيدة مقدّسة، فوظّف فيهما لفظة "عقيدة" بهذا المعنى لأوّل مرّة في شعره لهذه الفترة ونثرها على السواء[3]:

في مقاله نقرأ –غير ما تقدّم منه– ما يلي: «نظرا لما في التجوّلات بين الأقطار المتجاورة من ربط أواصر المحبّة والولاء، والتضامن على العمل لما فيه فائدة تلك الأقطار، رأينا واجبا علينا –ونحن أبناء قطر واحد ووطن واحد– أن نعقد جولات وطنيّة وأدبيّة بين بلدان الشمال الإفريقيّ الذي **ندين بوحدته، ونؤمن بها كعقيدة مقدّسة راسخة،** لتمتين روابط تلك الوحدة، وتطهير علائقها»[4].

وفي قصيدته "بردة الوطنية الجزائرية" ورد ما يلي:

«(تونسٌ)، و(الجزائــرُ) اليومَ، و(المَغْــ ... ــرِبُ) شعبٌ لــن يستــطيعَ انْفصَالاَ
وَحــدةٌ أحكــمَ الإلــهُ سَــداهــا، ... مَــن يُــردْ قطعَها أرادَ مُــحَالاَ»[5].

إلى أن يقول مخاطبا "جبهة الشعب":

كــلُّ حــقٍّ مــا دون تحــريرِهِ ظُلْــ ... ــمٌ، فــهــلْ تفهميــن هذا المَقَالاَ؟

---

[1]- ينظر: رسالة المقيم العامّ للجمهوريّة الفرنسيّة بتونس إلى الوالي العامّ بالجزائر، رقم: 954/6، 1937/03/17، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

[2]- مفدي زكرياء91، وحزب الشعب الجزائريّ97.

[3]- لم يرد لفظ "عقيدة" تماما في شعر هذه الفترة قبل "بردة الوطنية الجزائريّة"، وبعدها أيضا؛ ولا نجده في النصوص النثرية قبل هذا النصّ إلاّ في "البلاغ"، مع فارق واضح في دلالته، وذلك حيث يقول: «فوالذي خلق الجزائر، وخلقنا جزائريّين، وملأ قلوبنا بـــ**العقيدة** الراسخة، والإيمان الصحيح، لا نفتأ نقوّم اعوجاجكم في مسألة الإلحاق» مصّالي الحاج: الزعيم المفترى عليه، عمّار نجار، دار الحكمة، الجزائر–الجزائر، ط:2000م، ص61.

[4]- وفد الشباب الوطنيّ الجزائريّ بتونس الشقيقة، مفدي زكرياء، جريدة "الأمّة"، س03، ع113، 1356/01/02هـــ، 1937/03/16م، ص03.

[5]- جريدة "الشباب"، س01، ع19، 1355/12/22هـــ، 1937/03/05م، ص07.

تـــلك فــيـــنا عقـــيدةٌ مُزِجَتْ بِالرْ   رُوحِ، والقـــلبِ نِـــسوةً ورِجَالاَ»[1].

لقد انقطع إنتاج مفدي عن جريدة "الأمّة" للشيخ أبي اليقظان، منذ أكتوبر 1935[2]، ولم يصدر له إنتاج فيها إلاّ بعد سنة كاملة، في نوفمبر وديسمبر 1936[3]، ولم ينعته الشيخ أبو اليقظان في تعليقين له على مقاليه في انتقاد محي الدين باش تارزي بسوى حضرة الناقد، وحضرة الكاتب؛ ثمّ نشر له مقاله "وفد الشباب الوطنيّ الجزائريّ بتونس الشقيقة"، وقد مرّ بنا قريبا، يوم 1937/03/16، وتبعته قصيدته "ركب الحجيج تحيّة وسلاما"، 1937/04/13، فكتب في تقديمها ما يلي: «أقيمت ببلدة الأصنام مأدبة عشاء للحجّاج الكرام، فاقترح أحد الإخوان على الشاعر المبدع الأديب مفدي زكرياء أن يحيّي هذا الموكب الميمون بتحيّة تليق بالمقام، فنظم هذه القصيدة ارتجالا، فألقاها ببراعة تناسب براعة نظمه، غير أنّ خياله السياسيّ جمح به، فلم يحظ منه هذا الركب المسكين بسوى بيتين أو ثلاثة من قصيدة نظمها لأجلهم، قال ردّ اللّه غربته»، ومن قوله فيها ممّا يشير -بتعبير الشيخ أبي اليقظان- إلى جموح خياله السياسيّ:

«يا لـــهفتاهُ على (الجزائرِ)، قـــد غدا   أبـــنـــاؤُهـــا فـــي أرضِهـــمْ أَيْتَـــامَا
بـــدّلـــتُـــمُ، واللّهُ بـــدّلَ مـــا بكمْ،   وأهـــانَ إذْ غـــيّـــرتُمُ الأَحْـــكَـــامَا
مَـــن بـــاعَ بَـــخْـــسًا عِـــزّهُ بِمذلّةٍ   قَـــضَّى الـــحيـــاةَ تعاسةً وظَلاَمَا»[4].

كلّ ذلك يعكس عودة المياه إلى مجاريها -تدريجيا- بينه وبين أستاذه الشيخ أبي اليقظان، ولا أدلّ على ذلك من الدعاء له في آخر تقديمه؛ وعليه استأثرت جريدة "الأمّة" الجزائريّة بإنتاج مفدي الصادر في الجزائر، قبل إنشاء جريدة "الشعب"، فنشر في "الأمّة" ثلاثة مقالات أخرى هي "نداء إلى إخواننا الوطنيّين بالمغرب الأقصى"[5]، و"بكوشة وحلوش في الميزان"[6]، و"الأخ مصطفى حلوش في الميزان"[7]، تناول في هذين الأخيرين خلاف الشيخين في مسألة الحجاب، من غير أن يتّخذه مطيّة لبيان الخلاف القائم بين الحزب الوطني والمؤتمر الإسلاميّ، ومنه جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، ولو على سبيل التعريض، إذ كان الشيخ أبو اليقظان عضوا فيها؛ فهو يخاطبهما في أوّلهما قائلا: «إنّ الجزائر تحتضر، وتعالج النفس الأخير، تعوزها الجرعة تتبلّغ بها، واللقمة تزدردها، والنسمة تتنفّسها، والدمعة تذرفها على أبنائها، فهل مسألة السفور والحجاب، تغنيها شيئا في نكبتها؟ وهل تحول

1- جريدة "السردوك"، س01، ع01، 1356/01/25هـــ، 1937/04/07م، ص07.

2- نشر آخر حلقة من مقاله "المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان"، بتاريخ 1935/10/15.

3- نشر مقاليه "نغمة جديدة لتفريق الشعب الجزائريّ"، و"إلى البلبل الزعلان"، تباعا يومي 11/17، و12/08.

4- جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س03، ع117، 1356/02/01هـــ، 1937/04/13م، ص03؛ وينظر: مفدي زكرياء213، 214.

5- المقال، عن جماعة من الوطنيّين الجزائريّين: مفدي زكرياء، جريدة "الأمّة"، س3، ع118، 1356/02/08هـــ، 1937/04/20م، ص03.

6- جريدة "الأمّة"، س3، ع121، 1356/03/06هـــ، 1937/05/18م، ص02.

7- جريدة "الأمّة"، س3، ع123، 1356/03/21هـــ، 1937/06/01م، ص02، 03.

بينها وبين شبح الموت المهول، وعزرائيل على رأسها؟ إنّ نواحي الإصلاح في الجزائر كثيرة، ومترامية الأطراف، وأكيدة إلى حدّ الوجوب، فما للجزائر والحجاب والسفور، وهي تتقلّب في تنّور؟ وما لها ولإزاحة حجاب الوجه والكفّين، وهي محجبة العقل، مغلولة اليدين والرجلين، ومن الموت والاضمحلال قاب قوسين.

اعملا -أيّها الفتيان- على إنقاذ الأمّة من بين براثين الجهل التي أتى على كلّ صالحة فيها، وتركها في العالمين مثلا. ادخلا -أيّها الفتيان- كفلاّحين في الحقل الوطنيّ، واغرسا فيه أزاهير الحياة، وورود الإيمان بالذات، واسقياها بماء النخوة والشهامة والرجولة الكاملة، عالجاها بسماد التضحية والفداء، وحوطاها بسور من الكرامة والدين، واتركاها تترعرع تحت الشمس المشرقة الأمينة، وتنمو تحت الهواء الطلق الطاهر، حتّى يأذن ربّكما، فتتفتّق أكمامها تحت نور الهلال بأريج الحرّيّة والاســـ......ل[كذا، ويعني: الاستقلال]. ارهفا -أيّها الفتيان- قلميكما لمحاربة الإسراف والبدع، وغلاء المهور، حتّى لا يثور الرجال، وتبور النساء، فتشتدّ الأزمة، وتضعف الأمّة، ويعمّ الكرب، وينزل غضب الربّ. تحمّسا في مقاومة ما جاءت به المدنيّة الحديثة، فلقد جاءت الجزائرَ بثلاثة: سلاح، وراح، وسفاح، فأعدّا لها ثلاثة: أرواح، وكفاح، وصلاح.

فإن وفّقتما للقيام بكلّ هذا، وقدّر لكما النجاح -ولا إخالكما-، فابحثا حينئذ في مسألة الحجاب، وإيّاكما أن تنسيا اصطحاب الرفيقين العظيمين: الحشمة والصواب. واذكرا -أبدا- أنّ للصحافة لفنّا لا يتبدّل، فهي صاحبة الجلالة، وهيهات أن تتسفّل؛ وأنّ للقرّاء لكرامة ليس من الحكمة أن (تتبهدل)»[1].

وفي هذه الفترة التي خفت فيها صوت الحزب الوطنيّ الجزائريّ -كما يسمّيه مفدي- في الجزائر، إصرارا منه على أسبقية العمل السياسيّ في الجزائر على فرنسا، وتأكيده على ضرورة عودة زعيم الحزب مصّالي الحاج[2]، عمل مفدي على التأسيس لمشاريع ثقافية، أكسبها بعدا سياسيّا، حين أدرجها ضمن نشاطات الحزب:

أفضى مفدي زكرياء بمشاريعه هذه إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ في رسالته إليه بتاريخ 1937/05/12، لأنّ بعضها كان وليد مذاكرة بينهما، كما أنّه كان يرجو فيها مساعدته وتأييده، وذلك حيث يقول: «[...] وقد حرّضتموني على تنفيذ إحدى البرامج الثلاثة التي تذاكرنا في شأنها بتونس، فأجيبكم أنّني قد عزمت عزما صحيحا على إلقاء دروس عربية هنا بعاصمة الجزائر، لأعضاء الحزب، ولغيرهم من طلبة الكلية، وطلبة الليسي، وقد أسّست جمعية للتعليم، تحت اسم (القلم)، ليتمكّن لنا استصدار رخصة بسهولة، إذ لا يخفاكم أنّ الحكومة لا تمنح رخصة للتعليم إلاّ في ضمن جمعية منظّمة، ولذلك فأرجوكم أن تعينوني في ذلك بما تتفضّلون به عليّ من الإرشادات المفيدة، والأفكار الناضجة التي هي وليدة تجارب سنوات كثيرة ضحّيتموها في سبيل التثقيف، ثمّ إنّي أرجوكم أن تختاروا لي مجموعة من الكتب الأقرب نفعا، والأغزر مادّة، والأصحّ أسلوبا[...]. ملاحظة: إذا ظفرتم بكتاب

---

[1]- بكوشة وحلوش في الميزان، مفدي زكرياء، جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س3، ع121، 1356/03/06هـ، 1937/05/18م، ص02.

[2]- ينظر: الباب الثاني، ص205-211.

مدرسي أو غير مدرسي في تلقين المبادئ الوطنية، فأرسلوه [...]. وقد قرّرنا البداءة في أوائل شهر جوان المقبل، فالرجاء أن تكون الكتب هنا بالجزائر قبل ذلك الأجل، سدّد الله خطانا، وأيّدنا بروح منه. وهذا العمل لا يعوقني عن إصدار جريدة صغيرة الحجم، شبه النديم، أدبية انتقادية [...]. أرجوكم إرسال قائمتكم لنختار روايات، حيث قد أسّسنا فرقة تمثيليّة وطنيّة عفيفة [...]»[1].

أمّا المشروع الأوّل، وهو جمعية "القلم"، فكان مفدي في مرحلة متقدّمة من تجسيده، فقد تأسّست الجمعية رسميّا -على ما مرّ بنا سابقا- يوم 05/15[2]، غير أنّ الدروس لم تنطلق إلاّ في شهر أوت، فقد ذكر تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، بتاريخ 08/05، أنّ «مراقبة مقرّ جمعية "القلم"، في 14 شارع بوتان (Boutin)، قد كشفت عن نقل تجهيزات منه إلى الجادّة المسدودة جنينة (Impasse Jénina)، مقابل رقم 10. واجتمع فيه في حدود الساعة الثامنة ليلا، من يوم 08/04، ثلاثون مناضلا من حزب الشعب الجزائريّ بمعية مفدي زكرياء، أمين مال الجمعية، فحدّثهم عن أهداف الجمعية، وعن الخدمات الجليلة المنتظرة منها لصالح المسلمين. وبعد أداء نشيد الحزب، أعلن عن إنشاء مدارس مشابهة في العمالات المجاورة»[3]. إنّ مضمون هذا اللقاء يدلّ على أوّليته، ويؤكّده تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، بتاريخ 11/23، إذ تحدّث عن تقديم مفدي دروسا في هذا المحلّ، من غير استصدار الترخيص الخاصّ بفتح محلّ للتعليم، وعليه تمّ إخطار محافظ شرطة الدائرة، مصداقا لما ورد في تقرير 5375، ليوم 1937/08/05، «ومنذ ذلك الحين، ومع اعتقال مفدي زكرياء، لم يتردّد عليه أحد»[4].

وهكذا تأخّر انطلاق هذا المشروع، وتوقّف في بدايته، بسبب انشغال مفدي برحلته الثانية إلى تونس، ثمّ بالأحداث الكبرى التي انطلقت عجلتها مع عودته هو من تونس، وعودة زعيم الحزب إلى أرض الوطن، فانطلق حزب الشعب الجزائريّ انطلاقته الحقيقيّة في الجزائر، وفي دوامة هذه الأحداث توقّف هذا المشروع بالرغم من حيويته بالنسبة للحزب، الذي كان يشكو نقصا كبيرا في عدد المناضلين المثقّفين ثقافة عربية، ومنه ارتباط المشروع بمفدي لا غير، وعند انشغاله بمسؤولياته في الحزب، توقّف المشروع، وانقطع تماما عند اعتقاله.

أمّا مشروع جريدة أدبية انتقادية صغيرة الحجم، شبه "النديم"، فقد بقي حلما يراوده منذ أفريل 1932، على ما مرّ بنا[5]، لم يتسنّ له تحقيقه آنذاك، ولا في هذه المرحلة، ولا بعدها، بالرغم من اقتدار

1- ينظر: أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ينظر: الباب الثاني، ص207، وها04.

3- ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5375، 1937/08/05، موضوعه: بخصوص جمعية القلم، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

4- وسجّل في ختام التقرير عودة النشاط إلى هذا المحلّ، بدروس يقدّمها بين الثامنة والعاشرة ليلا عمارة محمد، ابتداء من 11/21؛ ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 8001، 1937/11/23، موضوعه: بخصوص جمعية القلم، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة.

5- ينظر: ص463، 464.

حقيقيّ في هذا المجال، أبان عنه منذ مرحلة دراسته بتونس.

أمّا الفرقة التمثيليّة، فإنّنا لم نقف لها على أثر -وإن تأسّست بحسب ما جاء في رسالته- في هذه المرحلة، والأوصاف التي نعتها بها فيها أثر واضح من تجربته السابقة مع مسرحية "بعد السكرة" لمحي الدين باش تارزي، فهي وطنية وعفيفة، على نقيض هذه المسرحية، التي كانت محلّ تنديد في مقالين له، نشرهما بجريدة "الأمّة" لأبي اليقظان.

قام مفدي زكرياء برحلته الثانية إلى تونس، ما بين يومي 05 و22 جوان 1937، وحين سفره إليها، كان هو ولحول الحسين متابعين قضائيًا، وصدر حكم محكمة البليدة في حقّهما يوم 06/04، وبُلّغ تلغرافيا بفحواه وهو في تونس؛ وكان الغرض من ذهابه إلى تونس هو إلقاء محاضرة يعارض بها محاضرة الشيخ عبد الحميد بن باديس التي ألقاها بالمعهد الخلدونيّ، يوم 05/29، وللمشاركة باسم حزب الشعب الجزائريّ في استقبال الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ بمناسبة عودته من منفاه[1]، فألقى محاضرته بالمعهد الخلدونيّ يوم 06/18، وتعذّر عليه استقبال الشيخ الثعالبيّ لتأخّر موعد وصوله مرّة بعد أخرى، فترك قصيدته في تحيته وتحية حزبه له، فألقيت في الحفل الذي أقامته جمعية الشبّان المسلمين على شرف الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ، يوم 07/25، وقد مرّ بنا كلّ ذلك مفصّلا[2]:

يقول الشيخ الثمينيّ: «طُلب منه [يعني: مفدي] أن يقوم بمسامرة موضوعها الجزائر، ولّما عزم على ذلك ارتجالا نصحته أن يكتبها كتابة، ليتمكّن من الإجادة والإفادة، فأحضرت له الموادّ اللازمة، ثمّ عرضها عليّ. وقد حضرها جمّ غفير مساء الجمعة الماضية [...]، وقد حصلت من المحاضرة النتيجة المرجوّة وزيادة، إذ أصبح الناس يلهجون، ويثنون على ما سمعوه من الحقائق على ميزاب، وقد كانوا يجهلونها؛ ومن الإنصاف على الجزائر، وقد كانوا يظنون ضدّه»[3]؛ واحتفظ الشيخ بالنصّ الأصليّ للمحاضرة، مكتوبة بخطّ مفدي، بعنوان "أطوار الحياة في بلاد الجزائر"، ونقل محمود أبو رقيبة أغلب فقراتها في مقال مطوّل بعنوان "أطوار الحياة في الجزائر"، نشره بجريدة "الزهرة" في ثماني حلقات، وورد في ختام المحاضرة، والحلقة الثامنة من المقال، ما يلي: «إنّ الفكرة المليّة الوطنية التي غرسها حزب النجم، والتي لا تزال تلتهب كنار حول جثّة الحزب الشهيد، تجمّعت كشعلة قدسية تحت اسم (حزب الشعب)، وانبرت مجاهدة في ميدانها، ناشدة قول الشاعر:

إذا مات منّا سيّد قام سيّد ... قؤول لما قال الكرام فعول

صارخة في وجه العسف الاستبداد:

اعصفي يا رياح، ... واقصفي يا رعود

1- يقول الشيخ الثمينيّ: «وصل هنا زكرياء موفدا من جمعيته للمعارضة، والسلام على الثعالبيّ الذي يصل في أواخر الجاري» رسالة الشيخ الثمينيّ إلى تلميذه عبد الله بوراس الكامليّ، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الكامليّ الخاصّ، ببني يزقن.

2- ينظر: الباب الثاني، ص218-221.

3- رسالة الشيخ الثمينيّ إلى تلميذه عبد الله بوراس الكامليّ، غير مؤرّخة، أرشيف الشيخ الكامليّ الخاصّ، ببني يزقن.

واثخنـــي يـــا جـــراح، واحدقـــي يـــا قـــيـــود

لا نـــمـــلّ الكـــفـــاح، نـــحن جبرا نـــسود»[1].

وهذا خير دليل على أنّ نشيد "اعصفي يا رياح"، إنّما نظمه مفدي قبل يوم 18 جوان 1937؛ غير أنّ مفدي كتب في تقديمه لهذا النشيد "نشيد الشهداء" في ديوانه "اللهب المقدّس" ما يلي: «نُظم ببربروس في زنزانة 65، يوم 29 نوفمبر (تشرين الثاني) سنة 1937، وفي سنة 1965 صدر الأمر من جبهة التحرير إلى المحكوم عليهم بالإعدام أن يردّدوه قبل الصعود إلى المقصلة»[2].

لقد قام الدليل في ثنايا هذا البحث أكثر من مرّة على ضرورة عدم التسليم بكلّ ما يقوله مفدي، أو يصرّح به، لأنّه لم يكن ممّن يملك ذاكرة قويّة، وكان حماسه أحيانا يفضي به إلى مبالغات لا تمتّ إلى الحقيقة الموضوعيّة بصلة، أو إلى تحوير الحقيقة بما يخدم نضاله، ومن هذا الأخير هذا التحديد الدقيق لتاريخ نظم هذا النشيد باليوم والشهر والسنة، ومكانه أيضا برقم زنزانة السجن؛ وخير ما يشهد لذلك خطؤه في رقم الزنزانة التي كان فيها، فزعماء الحزب وزّعوا في بربروس على زنزانتين متجاورتين هما 84 و85، وكان مفدي –على ما سبق بيانه– في الزنزانة الأولى، وعندما دخل عيادة السجن خلفه معروف بومدين، ولا ندري إلى أيّهما رجع بعد خروجه منها، ونرجّح عودته إليها لتزامنه مع إطلاق سراح مصطول محمد، وكان رفيقه فيها[3]؛ ثمّ إنّ مفدي نفسه يقول في "مذكّرات بربروس": «أرسل الجرس النحاسيّ دقّاته المنحوسة –كعادته– صباح فيفري 1938، فوق قبّة (النقطة المستديرة) بربروس، مؤذنا باليوم الجديد في حياة المساجين التعساء، مهيبا بهم للنهوض من السبات، والاستعداد للحساب. وما إن صلصل الجرس الثاني (هو جرس الحساب) حتّى فتحت كوّة القفص رقم 83[4] الذي زجّ بنا فيه بالطبقة الثالثة»، وفي ثنايا هذا المقال ذكر رفيقيه في هذه الزنزانة، فإذا هما مصّالي، ومصطفى برزوق[5]؛ ويبدو أنّ هذا التحديد الدقيق لتاريخ النظم ومكانه، يندرج في إطار الطابع الدعائي للثورة التحريرية الكبرى الذي أسبغه مفدي على ديوانه "اللهب المقدّس" حين طبعه سنة 1961[6].

إنّ هذا النشيد لم يظهر إلاّ في بداية شهر جويلية 1938، فقد كتب مركز الاستخبارات والدراسات (CIE)

1– محاضرة "أطوار الحياة في بلاد الجزائر"، بخطّ مفدي زكرياء، أرشيف الشيخ الثمينيّ الخاصّ، بتونس، وثيقة من 18 صفحة، ص18؛ وينظر: أطوار الحياة في الجزائر، محمود أبو رقيبة، الحلقة الثامنة، جريدة "الزهرة" التونسية، س50، ع9242، 1356/04/19هـ، 1937/06/29، ص03.

2– اللهب المقدّس، لمفدي زكرياء، موفم للنشر، الرغاية–الجزائر، ط3: 2000، ص84.

3– ينظر: الباب الثالث، ص273.

4– هذا الرقم هو أقرب إلى 84 منه إلى 65، وخطؤه فيه أيضا هو كتابته لهذه المذكّرات –على الأرجح– بعد انتقال زعماء الحزب إلى سجن الحرّاش، واستفادته هو ورفاقه من مزايا السجن السياسيّ، فاستطاع تسريب عدد من كتاباته إلى جريدة "تونس الفتاة".

5– ينظر: حزب الشعب الجزائريّ229، 230.

6– هذا الموضوع يحتاج إلى دراسة مستقلّة مستفيضة، عسى أن يمنّ الله بإنجازها مستقبلا.

وثيقة "معلومات" من مصدر أهلي معلوماته حسنة (Assez bonne)، بتاريخ 1938/07/11، تحدّثت عن قصيدة وطنية طبعت طباعة يدويّة، يقوم بتوزيعها سرّا، منذ أوائل شهر جويلية، بعض مناضلي الحزب، في الأحياء الأهلية لمدينة الجزائر؛ ثمّ يقول: «هذه القصيدة نظمها في السجن المزابيّ مفدي زكرياء، المعتقل مع مصّالي الحاج يوم 27 أوت 1937، وصاحب النشيد الوطني الجزائريّ المحظور[...]»، وقام المركز بترجمة النشيد، وأرفقه بهذه الوثيقة، وعنوان النشيد فيها هو "من أعماق السجون" (Du fond des prisons)[1].

وإذا لاحظنا الاختلاف الواضح بين ما ورد منه في المحاضرة، وبين النشيد في ديوان "اللهب المقدّس"، نجده غيّر عجز البيت الثالث من (نحن جبرا نسود) إلى (لا نملّ الجهاد)، وأضاف بيتين بين الثاني والثالث؛ فإنّ هذا يدلّنا على أنّ ميلاد هذا النصّ كان قبل دخوله السجن، في أجواء المتابعة القضائيّة الأولى من نوعها، ضدّه وزميله لحول الحسين[2]، ثمّ أعطاه صورته النهائية كنشيد في السجن، بلازمته المتكرّرة في نهاية كلّ مقطع من مقاطعه الثلاثة.

أمّا قصيدته في اقتبال الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ، فقد حظيت بما لم تحظ به قصيدة من قصائده في تلك الفترة، بالرغم من تأخّر إلقائها، ونشرها[3]، فقد نشرت في أربع جرائد مختلفة، جريدتان تونسيتان: جريدة "الوزير" يوم 07/29[4]، وجريدة "الوطن" يومي 15 و08/22[5]؛ وجريدتان جزائريتان: جريدة "الشعب" لسان حال حزب الشعب الجزائريّ يوم 08/27[6]، وجريدة "الأمّة" للشيخ أبي اليقظان يوم 09/14[7]؛ وقد قدّم لها مفدي في جريدة "الشعب" بما يلي: «حزب الشّعب الجزائريّ يحيّي تونس في شخص زعيمها المحبوب، الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ. وقع تلاوة هذا القصيد في وسط حفل حاشد، واحتفال رائع أقامته جمعية الشبّان المسلمين الفتيّة، لحضرة الأستاذ الجليل، وقد صفّق لها الأستاذ غير ما مرّة، واستعاد كثيرا من أبياتها، وأعجب بها إعجابا كثيرا».

وكانت هذه القصيدة من القصائد التي حرص مفدي على إدراجها في ديوانه "اللهب المقدّس" حين طبعه، فقد راسل صديقه الحميم، الشاعر والأديب التونسيّ، الحبيب شيبوب، يقول: «أمّا الديوان فقد وقع الاتّفاق بحضور جودت وغنيم والعطّار على تسميته "اللّهب المقدّس"، ويضمّ أربعا وخمسين قطعة ثوريّة [...]. هذا ولا زلت لم أظفر بالدالية، وقد قيل لي إنّ الرئيس بن خدّة يحفظها عن ظهر قلب، وقد كاتبته في ذلك»[8]؛ ويعني

1- ينظر: معلومات، (CIE) الجزائر، رقم: 975، 1938/07/11، موضوعها: بخصوص قصيدة وطنية توزّع سرّا في الجزائر، 11h54، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ وأرفق بها ترجمة النشيد، وثيقة من صفحة واحدة؛ والنشيد في الترجمة تامّ، بالرغم من بعض الأخطاء في الترجمة.

2- ينظر: الباب الثاني، ص211-214.

3- ينظر: الباب الثاني، ص218-221.

4- ينظر: عبد العزيز الثعالبي447 ها، ناقلا عن جريدة "الوزير" التونسيّة، س18، ع484، 1356/05/20هـ، [29]/1937/07م.

5- ينظر: الشمال الإفريقيّ يتّحد، مفدي زكرياء، جريدة "الوطن"، س01، ع32، و33، 07 و1356/06/14هـ، 15 و1937/08/22.

6- ينظر: سوق عكاظ، من غير إمضاء، جريدة "الشّعب"، س01، ع01، 1356/06/19هـ، 1937/08/27م، ص08.

7- ينظر: حزب الشّعب الجزائريّ يحيّي الثعالبيّ، من غير إمضاء، جريدة "الأمّة"، س03، ع137، 1356/07/08هـ، 1937/09/14م، ص03.

8- رسالة مفدي زكرياء إلى صديقه الحبيب شيبوب، أوائل أكتوبر 1961، اللهب المقدّس357.

بالدّالية -بشهادة الشاعر الحبيب شيبوب- هذه القصيدة في تكريم الشيخ عبد العزيز الثعالبيّ سنة 1937[1]؛ ويبدو أنّه لم يحصل عليها، فلم تنشر في هذا الديوان، ولا في ديوانيه اللاحقين.

دخل مفدي الجزائر يوم 06/25 راجعا من تونس، لملاقاة زعيم الحزب بعد عودته إلى أرض الوطن يوم 06/20، وعرفت المدّة الفاصلة بين عودة مصّالي الحاج واعتقال زعماء الحزب يوم 08/27، نشاطا غير مسبوق لحزب الشعب الجزائريّ في الجزائر وضواحيها: شارك الحزب بداية في الانتخابات البلدية يومي 06/27، 07/04؛ وقام بمعارضة قويّة للمؤتمر الإسلاميّ عند انعقاده أيّام 09 و10 و07/11؛ وشارك في مظاهرات 07/14، وعمل على توسيع نطاقه خارج عمالة الجزائر؛ ثمّ أنشأ "لجنة الدفاع عن فلسطين العربيّة"، ونظّم ثلاثة أيّام لفائدة فلسطين الشهيدة، أيّام 13 و14 و08/15[2].

أسهم مفدي في هذا النشاط المكثّف مساهمة فعّالة، بكلّ ما أوتيه من جهد وطاقة، فعاش خلاله حالة من التوهّج النضاليّ، إذ رأى فيه انتصارا لفكرته عن أولوية نشاط الحزب بالجزائر على فرنسا، ومنه حرصه على عودة الزعيم إلى أرض الوطن، لأنّ النضال في سبيل استقلالها يكون فيها لا في أرض المستعمر. كلّ ذلك يفسّر موقفه من رسالة والده القاسية، عندما كتب يقول في خصوصها: «إنّ أبي يريدني أن أكون عضوا أشلّ في المعترك الحيويّ [...]، وأنا لا أريد هذه الحياة، و لم أخلق لها؛ وإنّما خلقت لأن أدافع عن بلادي، وأشترك في صفّ الجهاد والعمل في هذه الحياة، والسعي لخير بني جنسي، وللإسلام عموما؛ و لم أخلق لأعيش عيشة الخمود والاستكانة والموت [...]. وإنّني لا أتأخّر عن الجهاد ولو كانت الأرض كلّها ضدّي»[3]، فهو يرى الحياة التي عاشها في هذين الشهرين هي الحياة التي خلق لها، و لم يخلق أبدا لغيرها؛ وعليه، لا عجب أن نجده يكتب في هذين الشهرين ما لم يكتبه في شهور وسنوات عديدة سابقة.

لقد كانت كتاباته سياسيّة، تحمل لهجة عنيفة ضدّ المستعمر، وضدّ خصوم "حزب الشعب الجزائريّ" السياسيّين في المؤتمر الإسلاميّ، وبخاصّة "الحزب الشيوعيّ الجزائريّ"، و"جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"؛ وهذه اللهجة العنيفة لم تسمح له بنشر مقالاته في الجزائر، لعدم وجود صحيفة وطنيّة تصدر باللّغة العربيّة فيها بإمكانها أن تتورّط في مثل هذا الصراع الحادّ، خاصّة فيما يتعلّق بجمعية العلماء المسلمين، ذلك أنّ الصحافة العربيّة الوطنيّة في الجزائر كانت -آنذاك- تدور في فلك جمعية العلماء، بما في ذلك جريدة "الأمّة" للشيخ أبي اليقظان، ومنه تفكير مفدي وحزبه في إصدار جريدة "الشعب"، لتكون لسان حال الحزب الناطق باللغة العربيّة في الجزائر.

إنّ متابعة جريدة "الزهرة" لنشاطات حزب الشعب الجزائريّ منذ حلّ نجم الشمال الإفريقيّ، ونشرها

1- ينظر: لقاء مسجّل مع صديق الشاعر الحبيب شيبوب، بتونس في أكتوبر 2003.

2- ينظر: الباب الثاني، الفصل الثالث، بداية من مبحث "البداية الفعليّة لحزب الشعب بالجزائر"، ص221-260.

3- ينظر تفصيل هذه الرسالة وملابساتها: الباب الثاني، ص227-230.

محاضرة مفدي السابقة "أطوار الحياة في بلاد الجزائر" في حلقات عديدة، وصلة مفدي الوثيقة برئيس تحريرها محي الدين القليبيّ؛ كلّ ذلك شجّع مفدي -فيما يبدو- في نشر أولى مقالاته فيها، فصدر مقاله الأوّل "معركة انتخابية حامية الوطيس في بلاد الجزائر" يوم 07/08[1]، وتبعه مقاله الثاني "ماذا في الجزائر؟" بتاريخ 07/18[2]، ثمّ قطع مقالاته اللاحقة عنها، وهي الأكثر، ويمّم في نشرها صوب جريدة "النهضة"[3]، التي أفسحت له المجال واسعا، ولم تجد أدنى حرج في ذلك بالرغم من حدّة لهجتها في مواجهة الخصوم السياسيّين، فلم تتوقّف مقالاته فيها إلاّ أيّاما قبل اعتقاله هو وزعماء حزبه يوم 08/27، فكان آخر مقال أصدره فيها هو " ثلاثة أيّام بالجزائر لفائدة فلسطين" يوم 08/24[4]، ولعلّ هذا الانتقال بين الصحيفتين نجد تفسيرا له في رسالته إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ يوما قبل انقطاع مقالاته في "الزهرة"، وذلك إذ يقول: «لقد استعمل هؤلاء[5] كلّ وسيلة لتحويل فكرة جريدة "الزهرة" إلى ناحيتهم، وتزويد ممثّلها بالمعلومات الزائفة، فأرجوكم ملاقاته هنالك، وإزالة ما عساكم أن تقدروا على إزالته»[6].

أعلن مفدي في آخر مقال له في جريدة "النهضة" يوم 08/24، عن قرب صدور جريدة "الشعب"؛ ويقول محمد قنانش عن صدورها: «كان حزب الشعب الجزائريّ، والقوى الوطنيّة المكافحة على موعد مع صدور جريدة وطنية باللسان العربيّ، لتقود المعركة السياسيّة، وتنشر الوعي الوطنيّ، وتقوم بتعريب الأجهزة التنظيميّة، وذلك يوم 27 أوت 1937، ولكن شاءت الأقدار أن يتأخّر يوم الصدور، وتعوّض باعتقال قادة حزب الشعب، وفيهم شاعرنا. خرجت جريدة "الشعب" بعد ثلاثة أيّام تعلن نبأ الاعتقال، وترفع راية الكفاح الوطنيّ، بلسان عربيّ مبين، وبحماس منقطع النظير، والجريدة "لسان الحركة الوطنيّة بالجزائر المسلمة العربيّة"، وفوق العنوان ما يلي: «إرادة الشعب من إرادة الله، وإرادة الله لا تقاوم»، وكان مديرها السياسي: مصّالي الحاج، ورئيس قلم التحرير: مفدي زكرياء»[7]؛ ونشر قنانش موادّ العدد الأوّل منها جميعها، في كتابه "الحركة الاستقلاليّة في الجزائر بين الحربين

1- المقال، من غير إمضاء، جريدة "الزهرة"، س50، ع9151، 1356/04/28هـ، 1937/07/08م، ص01. والأرجح عندنا أنّه يتضمّن في أغلبه محتوى رسالة مفدي زكرياء إلى مدير تحرير "الزهرة"، محي الدين القليبيّ؛ ينظر: رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1937/07/04، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس؛ فقد جاء فيها: «أكتب إليكم هذا، وأنا في معمعة انتخابية حامية الوطيس، الوطنية تصارع الشيوعية، النصر للوطنية على طول الخطّ، مضاربات، معارك دموية. أرجوكم أن تطالعوا رسالة أرسلتها أمس للأستاذ محي الدين القليبيّ، ولكم معا، ففيها التفاصيل، النصر لنا أوّلا وآخرا»، وأسلوب المقال أسلوب مفدي لا غير.

2- جريدة "الزهرة"، س50، ع9161، 1356/05/09هـ، 1937/07/18م، ص01، 02.

3- لقد تعرّضنا لهذه المقالات لمضمونها السياسيّ في الباب الثاني من هذا البحث، وهو ما يغنينا عن تكرار الحديث عنها هنا.

4- قبله: حزب الشعب بالجزائر يعقد ستّ اجتماعات ويؤسّس لجنة الدفاع عن فلسطين العربيّة، جريدة "النهضة"، س14، ع4434، 1356/06/18هـ، 1937/08/24م، ص05. وفي آخره إعلان عن قرب صدور جريدة "الشعب".

5- يعني بهم: رجال جمعية العلماء؛ لأنّ الرسالة كانت خاصّة بصراعه مع جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين.

6- رسالة مفدي زكرياء إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ بتونس، 1937/07/17، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

7- حزب الشعب الجزائريّ268؛ وينظر تفصيل حديثنا عن هذه الجريدة من الوجهة التاريخيّة: الباب الثاني، ص262-265.

1919–1939"، كما ذيّله بصورة عن واجهته[1]، واعتبر الجريدة «زيادة على كونها وثيقة تاريخيّة لفترة حاسمة من تاريخنا السياسيّ المعاصر، فهي عيّنة أيضا على الأسلوب الثوريّ العقائديّ الذي بدأ يأخذ طريقه إلى الجمهور الجزائريّ، وعلى الروح الثوريّة التي كانت تلتهب حماسا ونشاطا لتحرير هذا الوطن العزيز»[2].

نسب محمد ناصر تحرير أغلب موادّ العدد الأوّل إلى رئيس تحريرها مفدي زكرياء، وذلك حيث يقول: «وترأس مفدي في هذه الفترة تحرير جريدة "الشعب"، ومن يَعُد إلى العدد الأوّل، وقد حرّر مفدي أغلب موادّه، يدرك بحقّ كيف كان يبدع نثرا كما يبدع شعرا»[3]:

موادّ هذا العدد تتمثّل فيما يلي:

1-"صرخة الشعب: مبدؤنا في طريق الجهاد"[4]، يحمل إمضاء: قلم التحرير، وضمنه مقطوعة شعريّة "نداء إلى الكتّاب".

2-"محكمة الشعب"[5]، بإمضاء: حزب الشعب.

3-"الشعب يتكلّم"[6]، منسوب إلى زعيم الحزب: مصّالي الحاج.

4- "مداعبات بريئة!!"[7]، وهي عبارة عن مقالات ساخرة، متفاوتة الطول، من غير إمضاء، تستهدف خصوم حزب الشعب في المؤتمر الإسلاميّ خاصّة: إلى الكاماراد السيّد الزاهريّ/ العموديّ يطلب الإذن من الصهيونيّين للاشتغال بقضية فلسطين/ الصحابة في نظر الشيوعيّين/ مسيو وزقان يكتب في الطليعة/ نريد جمهورية سوفيتية/ راديو الشعب/ ماذا يتغالى في مرجل المؤتمر؟

5-"في بلاد العروبة"[8]، وهي أخبار متفرّقة: **الجزائر**: لجنة الدفاع عن فلسطين العربية: بيان سريع/ إعلان عاجل، اللجنة/ حتّى في بلادنا، مكاتبكم ببلكور. **تونس**: زعيم الأمّة يوحّد صفوفها/ مشكلة الجامع الأعظم/ تونس تنصف أختها فلسطين. **المغرب الأقصى**: عمل المغرب تجاه فلسطين/ المؤتمر الثامن لطلبة شمال إفريقيا المسلمين. وبعده خبر زيد في آخر لحظة، بعنوان: بشرى، يتحدّث عن قرار اللجنة التنفيذيّة للمؤتمر الاحتجاج على اعتقال زعماء الحزب.

1- هذا العدد موجود بمركز وثائق ولاية وهران. ينظر موادّ العدد الأوّل: الحركة الاستقلاليّة في الجزائر106–137؛ وصورة واجهته: نفسه166؛ وقام بنفس الأمر بالنسبة للعدد الثاني والأخير من الجريدة أيضا.

2- نفسه105.

3- مفدي زكرياء17.

4- ينظر: الحركة الاستقلاليّة في الجزائر106–108.

5- ينظر: نفسه109–114.

6- ينظر: نفسه115–118.

7- ينظر: نفسه119–127.

8- ينظر: نفسه128–133.

6-وأخيرا قصيدة مفدي في الزعيم التونسيّ عبد العزيز الثعالبيّ، وعَنونها: "سوق عكاظ"[1].

إذا استثنينا الخبرين الواردين في "بلاد العروبة"، وهما: حتّى في بلادنا، لأنّه منسوب لمكاتب الجريدة ببلكور؛ وبشرى، لأنّه كتب بعد اعتقاله، فإنّ سائر ما كتب في هذا العدد -في تقديرنا- هو لمفدي زكرياء، ويظهر ذلك في إمضاء المقال الافتتاحي: قلم التحرير، وتضمينِه مقطوعة شعرية؛ وفي أسلوب "مداعبات بريئة" الساخر، انطلاقا من العنوان؛ وكذا في بيان وإعلان لجنة الدفاع عن فلسطين العربيّة، لأنّه كان نائب رئيسها، وكتب جميع ما صدر عنها من مقالات ومناشير وإعلانات.

أمّا مقال "محكمة الشعب" فيكفي أن نقرأ فيه ما يلي: «إنّ كاتب هذا المقال[2] أراد أن يستبله هذا الشعب العربيّ إلى درجة قصوى، وهذه شنشنة استعماريّة عركناها قديما، ومنظر من الفاحشة المتجسّمة في هذا الهيكل الاستعماريّ الذي يجيد رقصة البطن ... فوق خشبة مسرح السياسة السفيهة»[3]، لكي نجزم بنسبته إلى مفدي؛ ونسبته إلى حزب الشعب كان من وحي النداء الذي ذيّل به مقاله: «أيّها العرب الجزائريّون، كفى نوما وسباتا، انهضوا واتّحدوا وتضامنوا كلّكم مع حزب الشعب الذي يواصل جهاده متفانيا في سبيل /استرجاع أراضيكم المسلوبة، وحقوقكم الضائعة المنهوبة، وتذكّروا دائما قول الزعيم الثعالبيّ: احتفظوا على[كذا] أراضيكم، فإنّ أمّة لا أرض لها لا وطن لها»[4].

أمّا المقال المنسوب لزعيم الحزب "الشعب يتكلّم"، فغنيّ عن البيان أنّ جميع ما نسب لمصّالي الحاج في هذه المرحلة من كتابات بلغة الضادّ هي لمفدي زكرياء، ابتداء بـــ: "بلاغ من رئيس الحزب الوطنيّ الجزائريّ مصّالي الحاج إلى الأمّة الجزائريّة الكريمة"؛ وقد كتب المقال على لسانه، ومنه قوله: «أجل، أقف اليوم إجلالا وإكراما باسمي، وباسم حزبي، حزب الشعب العظيم، وأحيّي والجوانح طافحة بالإيمان جريدة "الشعب"، التي سترفع الراية خافقة على عرصات البلاد، وستصرخ صرختها الداوية على هياكل الظلم والاستبداد، وستجاهد بقوّة وحكمة ورصانة عن حقوق هذه الأرض العربية المقدّسة، وستقفو خطى شقيقتها "الأمّة" المجاهدة.

وأحيّي كذلك هذا الشعب الجزائريّ العربيّ المسلم الذي وثب بعد طول منام يحطّم أغلال الفقر والاسترقاق، ويشقّ طريقا في الحياة، ممتشقا حسام الجدّ والنشاط، مختارا مصيره بين الشعوب، مظهرا حاجته الملّحة إلى اللغة العربيّة، عنوان مجده وفخاره، ولسان آبائه وأجداده، أحيّي فيه هذه الظاهرة الخالدة، وتلك الجهود الجبّارة التي يبذلها في سبيل تعلّمها وحفظها وتذوّق أسرارها، واللّغة هي الأمّة، وأمّة لا لغة لها لا كرامة لها»[5]؛ وهذه الفكرة الأخيرة

1- ينظر: السابق134-137.

2- يعني: مقالا صدر في "لاديبش ألجيريان" بتاريخ 08/17؛ ينظر: نفسه109.

3- الحركة الاستقلاليّة في الجزائر110.

4- نفسه113، 114.

5- نفسه116، 117.

هي تجسيد لنضال مفدي داخل صفوف "الحزب الوطنيّ الجزائريّ" كما كان يسمّيه، ليكون نضال الحزب في أرض الجزائر، ولتكون اللغة العربيّة فيه سيّدة، بما يجعل الحزب جزائريّا صميما، وما الهدف غير المعلن لمفدي في إنشاء جريدة "الشعب" -في تقديرنا- إلاّ هذا، فلا عجب أن تكون جميع موادّ العدد الأوّل من تحريره، إذ لم يكن آنذاك في قيادة الحزب ولا مسؤوليه في الجزائر خاصّة، من يتقن اللغة العربيّة إتقانه، وهو اختلال حاول تصحيحه بإنشاء جمعية "القلم"، على ما مرّ بنا قريبا[1].

وبعد هذا النشاط المكثّف اعتقلته الإدارة الاستعماريّة هو وقادة الحزب، يوم 1937/08/27، فكتب يوم 09/28 رسالة إلى صديقه محمد العريبيّ تطفح بمعنويات جدّ مرتفعة، من ذلك قوله: «كنت أسمع بالسجن فأنقبض، وتضيق عليّ أنفاسي، فلمّا منَّ الله عليّ بنعمة دخول السجن، وجدت في أعماق السجن راحة، كنت أجهلها، ورأيت بين طيّات ظلامه الحالك كثيرا من آمالي الضائعة، التي كنت أفتّش عنها في غير السجن، بين خلايا هذا الوجود المضطرب الصاخب، المملوء بالمساخر، المفعم بالآلام والبرحاء»؛ وهذه المعنويات ممّا يساعد الأديب على الكتابة والإبداع، ومنه هذه الرسالة التي كانت أدبيّة خالصة[2].

غير أنّنا وقفنا عند تتبّع حياته في السجن على تدهور حالته النفسيّة، بسبب طول مدّة السجن، وخفوت صوت الحزب خارج أسوار السجن، إثر سياسة القمع والتضييق التي مارستها الإدارة الاستعماريّة ضدّ أنشطته ومناضليه؛ ثمّ بسبب موت والده، وهو غير راض عنه انغماسه في المعترك السياسيّ، وما ترتّب عنه من تدهور وضعية عائلته الاجتماعيّة، فأثّر كلّ ذلك في إنتاجه، حتّى إذا سأله نجل الشيخ أبي اليقظان عن إنتاجه في السجن في أواخر شهر جويلية 1938، وهو في سجن ميزون كاري، أجابه قائلا: «طلبتم منّي أن أرسل إليكم ما عندي من منتوجات الشعر والنثر، ومن الأسف فإنّ قريحتي المكدودة أصيبت بالإعسار في هذا السجن»[3].

ثمّ كانت عودته إلى الحيويّة والنشاط بعد إقرار نظام السجن السياسيّ، فعاد إلى الكتابة، وخير شاهد على ذلك تقرير للإدارة الاستعماريّة سجّل حديث غرّافة إبراهيم لسامعيه من مناضلي الحزب -بعد خروجه من السجن- في أواخر أوت 1938، عن مزايا تطبيق نظام السجن السياسيّ الكامل على قادة الحزب، فكان ممّا ورد فيه: «وزكرياء يكتب كثيرا من جهته»[4]. غير أنّ هذه العودة إلى حيويته ونشاطه طبعها توجّه جديد له في الحياة، بفعل ضغوط وضعه الاجتماعيّ الصعب، وضغوط أهله ومقرّبيه، وفي مقدّمتهم وصيّه السيّد بكير بن داود بسخواض، فاختار أن يهتمّ أساسا بتحسين وضعه الاجتماعيّ، وأن يمارس النضال السياسيّ بعيدا عن الأضواء

1- ينظر: ص533.

2- ينظر: الباب الثالث، ص276، 277.

3- ينظر: الباب الثالث، ص323.

4- ينظر: الباب الثالث، ص338.

والعلن، وفي الخفاء؛ ومنه استعمال اسم مستعار "أبو فراس" في كتاباته، على ما سنقف عليه لاحقا.

ويدلّ على عودة ما إلى الكتابة الصحفيّة ما جاء في رسالته إلى أستاذه الشيخ أبي اليقظان، في 1939/07/23، حيث يقول: «سيّدي كم يلذّ لي أن أخبركم أنّني توصّلت إلى اتّفاق مع الأستاذين العظيمين: الشيخ محمد علي الطاهر، والأستاذ أحمد حسنين، رئيس حزب "مصر الفتاة"، أن يخصّصا في جريدتيهما "العلم المصريّ"، و"مصر الفتاة"، صحيفتين للمغرب العربيّ [و]شمال إفريقيا، وحوادثه، ومشاكله، وقضيته المباركة، ولعلّ هذا من أهمّ الأعمال التي تجعل لقضيتنا المقدّسة قيمة، يعتدّ بها في نظر الشرق، وتحملهم على أن يعطفوا عليها، ويعينوها بأقلامهم وأفكارهم، بعد أن كانوا لا يحلمون بها أصلا، ولا يرون لها قيمة، والمسؤوليّة في ذلك راجعة علينا، حيث إنّنا لم نحسن الدعاية لأنفسنا...»[1]؛ إذ لا يمكن -في تصوّرنا- أن يعقد مثل هذا الاتّفاق إلاّ وفي نيّته أن يزوّد الصحيفتين ببعض من مادّتيهما، في انتظار تحرّك الأقلام المشرقيّة للمشاركة في تحريرهما، وما اتّصاله بشيخه أبي اليقظان -في نظرنا- سوى محاولة لتجنيد بعض الأقلام الجزائريّة المتميّزة للاضطلاع بهذه المسؤولية الوطنيّة، خاصّة أنّ السجن قد يقطع إمداد الصحيفتين بالمادّة في الآجال المحدّدة.

يقول محمد قنانش: «كان الشاعر المناضل مفدي زكرياء يقوم بنشاط فكريّ في غياهب السجن: في بربروس، وفي الحرّاش، وقد كتب عدّة مقالات نشرت في الجرائد التونسيّة والمصريّة»[2]؛ ويقول أيضا متحدّثا عن مفدي دائما: «أمّا المقالات السياسيّة والأدبيّة فقد كتب عدّة مقالات نشرت في المجلاّت الشرقيّة، والتونسيّة بالخصوص، وكانت تمرّ عليّ حينما كنت خارج السجن، بواسطة الحلاّق الذي كان يأتي كلّ أسبوع للسجن في إطار السجن السياسيّ»[3]. وإذا بحثنا عن هذا الحلاّق في قائمة زوّار مفدي في السجن، وجدناه في طلبه السادس والأخير في أواخر شهر مارس 1939، وكان يضمّ أسماء ثلاثة أشخاص، منهم عبدي أحمد بن احسن، حلاّق، وصدرت الموافقة في شأنهم خلال شهر ماي 1939، على ما سبق بيانه[4].

وإذا عدنا إلى ما رصده الدارسون من إنتاج مفدي زكرياء المنشور في الصحافة، في فترة السجن هذه، وجدنا حديثا عمّا نشره في الصحافة التونسيّة، وفي جريدة "تونس الفتاة" تحديدا: أصدرت "جمعية الشبّان المسلمين"[5] جريدة

1- مفدي زكرياء69، و79 ها18.

2- حزب الشعب الجزائريّ228.

3- نفسه269.

4- ينظر: الباب الثالث، ص335 وها07، و08.

5- قامت بتنقيح قانونها الأساسيّ، وأخذت الترخيص على ذلك بتاريخ 1936/12/19، من نخبتها الشابّة آنذاك: يوسف بن عاشور، ومحمد الصادق بسيس، ورشيد إدريس. ذاع صيتها بفعل مواكبة أعضائها لتطوّرات القضيّة الفلسطينيّة (1936-1939)، وتنامى نشاطها إثر عقد مؤتمرها الأوّل بالقيروان (أفريل 1937)، وتجاوبها مع أطروحات الحزب الدستوريّ الجديد؛ ينظر: تونس عبر التاريخ، الجزء الثالث: الحركة الوطنيّة ودولة الاستقلال، نخبة من الأساتذة الجامعيّين بإشراف الأستاذ خليفة الشاطر، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعية، تونس- تونس،: 2005، ص108.

"تونس الفتاة"[1]، في أفريل 1938، وتمّ تعطيلها بعد عددها 20 ليوم 1939/08/30؛ هي «لسان شباب إفريقيا الشمالية»[2]، احتضنت نضال "حزب الشعب الجزائريّ"، كتبت عنه، وفتحت صفحاتها لأقلام مناضليه[3]، كما ترجمت عن جريدة "الأمّة" الباريسيّة[4]. أصدرت بمناسبة ذكرى أحداث 08 أفريل 1938 الدامية بتونس، عددا ممتازا في فاتح أفريل 1939، فصادرته السلطات الاستعمارية، وحظرت الجريدة مدّة ثلاثة أشهر[5]، «إلاّ أنّ جريدة "مصر الفتاة" قد نشرته بدورها في الشرق، وهكذا تحقّقت الوحدة العربيّة عمليّا قبل أن تتحقّق إداريّا»[6].

ذكر محمد ناصر في البيبليوغرافيا التي أنجزها عن مفدي، ما كتَبه وما كُتب عنه، ممّا نُشر من إنتاجه في جريدة "تونس الفتاة" ثلاثة مقالات[7]: "الحركة الوطنية بالجزائر" 1939/04/01؛ ومقال عن الحركة الوطنية بالمغرب الكبير في 1939/06/14[8]، لم يعثر على عنوانه؛ و"عقيدة التوحيد" في 1939/08/19؛ كما ذكر قصيدة شعرية هي "تحيّة الحزب الوطني الجزائريّ للثعالبيّ" في 1936/12/25[كذا][9].

أمّا محمد قنانش، فقد أعاد في كتابه "حزب الشعب الجزائريّ" نشر «بعض إنتاجه المنشور في جريدة "تونس

1- جريدة تونسيّة وطنيّة، صدر عددها الأوّل يوم 1938/04/01، عادت إلى الظهور بعد تعطيل الصحافة إثر أحداث أفريل الدامية، فصدر عددها الثاني في 1938/11/05. وبعد تعرّض عددها الثاني عشر ليوم 1939/04/01 للحجز، أصدرت هيئة تحريرها جريدة "لاكسيون نور أفريكان" (L'Action Nord-Africaine)، يوم 1939/05/08، وتمّ حجبها عن الصدور بتاريخ 05/21. ثمّ عادت جريدة "تونس الفتاة" إلى الظهور يوم 07/13، وتعطّلت نهائيّا بقرار من المقيم العامّ، في عددها 20، بتاريخ 1939/08/30. كان مدير تحريرها رشيد إدريس، ومن بين أعضاء تحريرها: البشير المهبولي، ويوسف بن عاشور، وخميّس الشامخ. ينظر: تونس عبر التاريخ3: 114.

2- حزب الشعب الجزائريّ257 ها1.

3- نشرت في العدد 07، الصادر يوم 1939/01/18، مقال "شباب الجزائر أمام القضاء"، بإمضاء: الجزائر، مشاهد صالح؛ وفي العدد 12، وهو العدد الممتاز، بتاريخ 1939/04/01، ما يلي: مقال "نداء حارّ إلى شباب شمال إفريقيا العربيّ"، بإمضاء صلاح الدين خليفة؛ وقصيدة محمد البرهان "بشراك يا شعب"، و"ارفعوا الكأس" قصيدة لقنانش محمد؛ وفي العدد 17، ليوم 08/09، وقصيدة "على مقصلة الإعدام" لمحمد قنانش؛ وقصيدة ثالثة له "السجن والبقّ" في عدد يوم 08/23؛ ينظر على الترتيب: حزب الشعب الجزائريّ202-204، و92-95؛ و249؛ و257، 258؛ و254، 255؛ و255، 256.

4- من ذلك مقال "صوت فتاة وطنية"، بإمضاء: تلميذة وطنية، تعريب: الإفريقيّ الجزائريّ، وصدر في العدد الممتاز من "تونس الفتاة"؛ ينظر: حزب الشعب الجزائريّ98-100.

5- ينظر: حزب الشعب الجزائريّ104-106، ضمن مقال "جريدة البرلمان الجزائريّ ترحّب بجريدة العمل الشمال الإفريقيّ" منقول من جريدة "البرلمان الجزائريّ"، الصادرة يوم 1939/05/18.

6- حزب الشعب الجزائريّ257 ها1.

7- ينظر: مفدي زكرياء283.

8- هذا التاريخ لا يصحّ، لأنّ جريدة "تونس الفتاة" كانت محظورة في شهر جوان.

9- وهو خطأ صريح؛ وإذا كان المقصود 1939، فلا يصحّ أيضا، لتوقّف الجريدة عن الصدور في آخر شهر أوت.

الفتاة" تحت إمضاء الفتى الوطنيّ، أو أبو فراس»[1]، فنشر له مقالين بإمضاء "أبو فراس" هما: "الأدب في السجن"، ذيّله بما يلي: «مذكرات بربروس، أبو فراس، م.ز»[2]، و"ملاحظات نزيهة من رسالة صديق"[3]؛ ومقالين نقرأ في إمضائهما ما يلي: «الجزائر. الفتى الوطنيّ»، وهي: "صوت الجزائر"[4]، و"عيدان في عيد"[5] من غير تاريخ لصدور هذه المقالات في الجريدة؛ ويوجد في نفس الكتاب مقال ثالث بإمضاء الفتى الوطنيّ، هو "حاجة الجزائر إلى الاتّحاد" صدر في جريدة "تونس الفتاة"، بتاريخ 1939/07/19[6]؛ وعثرنا في كتابه "الحركة الاستقلاليّة في الجزائر بين الحربين" على مقال رابع "الحركة الوطنية بالجزائر"، بإمضاء الفتى الوطنيّ، نشر في العدد الممتاز من الجريدة، في أفريل 1939[7].

اعتمد مفدي زكرياء في رسائله من داخل السجن اسما مستعارا هو "أبو فراس"[8]، بعد استفادته وزملائه من نظام السجن السياسيّ، في أواخر جويلية 1938، ولعلّنا نجد أثرا لبدء توظيفه هذا الاسم في رسالته إلى زميل دراسته بتونس عيسى بن الشيخ أبي اليقظان، بتاريخ [16 أو 1938/08/17] على الأكثر[9]، وذلك حيث يقول: «ثمّ إنّي أوصيكم أيّها الأخ الكريم بصفة خاصّة، أنّه تأتيكم رسائل باسم "أبو فراس"، فهي إليّ، فالمطلوب من فضلكم أن تحرصوا عليها، وترسلوها مع "فلانة"[10] حين قدومها، وإنّكم تجدون في غلاف الرسالة مكتوبا هكذا:

L’Imprimerie El Arabia, 70 Rue Rovigo, Alger. pour Remettre à M: ABOU « FIRAS ».

وإنّني أتّكل عليكم في ذلك، أجركم على الله»[11]؛ ويؤكّد عليه في رسالته الموالية يوم 08/23: «قد كنت أرسلت لكم رسالة قبل اليوم بأسبوع، رجوت فيها منكم أن توجّهوا لي مع زوجة الزّعيم كلّ ما يردكم من الرسائل باسم "أبو فراس" Abou Firas، واليوم أزيدكم تأكيدا في ذلك، وأرجوكم أن لا تمكّنوها لأحد، كائنا من كان، إلاّ في يد مدام مصّالي، فإنّها تمرّ عليكم من هناك دائما في طريقها إلينا، فمكّنوا لها خاصّة لا لغيرها»[12]؛ والرسالتان تحملان

1- ينظر: حزب الشعب الجزائريّ228.

2- ينظر: نفسه229-233.

3- ينظر: نفسه234-238.

4- ينظر: نفسه239-244.

5- ينظر: نفسه245-248.

6- ينظر: نفسه42-44.

7- ينظر: الحركة الاستقلاليّة في الجزائر152-158.

8- هي إشارة تاريخيّة واضحة إلى الشاعر الفارس، أبي فراس الحمدانيّ، عند وقوعه في أسر الروم.

9- ينظر تحقيق هذا التاريخ: الباب الثالث، ص337 ها06.

10- في الهامش: «الإشارة هنا إلى مدام مصّالي الحاج »مفدي زكرياء275 ها14.

11- الرسالة، مفدي زكرياء271.

12- الرسالة، مفدي زكرياء272.

إمضاء "أبو فراس"، وضمّن رسالة سابقة لهاتين "أنشودة عزيزة"[1]، وأمضاها بنفس الإمضاء[2]. وعليه فإنّ المقالين المنشورين في جريدة "تونس الفتاة" بهذا الإمضاء هما لمفدي لا محالة، خاصّة وأنّه رمز في إمضاء مقاله "الأدب في السجن" -بعد الاسم المستعار- بأوّل حرفين في لقبه الأدبيّ الأصليّ: م.ز، أي: مفدي زكرياء.

يبدو أنّ المقال الوحيد -من بين ما رصدته الدراسات من إنتاجه في جريدة "تونس الفتاة"- الذي أرسله مفدي من السجن بنية النشر في "تونس الفتاة" هو مقاله "الأدب في السجن"، إذ نقرأ فيه مثل هذه العبارات: «لست /في حاجة يا سيّدي القارئ الكريم»[3]، و«كتبت مرتجلا القطعة الآتية [...] تراها في غير هذا الموضع»، وفي ختام المقال: «وإلى اللقاء أيّها القرّاء الكرام»[4]؛ أمّا مقاله "ملاحظات نزيهة من رسالة صديق"، فهو في الأصل رسالة من مفدي إلى رئيس "جمعية الشبّان المسلمين"، كتبها لشكر الجمعية باسم إدارة جريدة "البرلمان الجزائريّ"[5]، وإدارة "حزب الشعب الجزائريّ"، بعد الاحتفالين العظيمين الذين أقامتهما على شرف الناجحين من الطلبة الجزائريّين في شهادات الجامع الأعظم المعمور؛ ولتقديم ملاحظات تخصّ هؤلاء الطلبة، هي بمثابة رسالة منه إليهم لاقتحام العمل السياسيّ الوطنيّ في صفوف حزب الشعب الجزائريّ[6]، فما كان من رئيس الجمعية، أو إدارة جريدها "تونس الفتاة" إلاّ أن وضعت له هذا العنوان، ثمّ نشرته في أحد أعدادها؛ وأمّا قصيدته "تحيّة الحزب الوطني الجزائريّ للثعالبيّ"، و"عقيدة التوحيد"، فالأرجح أن تكون إدارة الجريدة هي المبادرة أيضا إلى نشرهما، إذ ما كان بإمكان مفدي أن يرسلهما من السّجن، لأنّ القصيدة إنّما ألقاها في حفل أقامته الجمعية على شرف الزعيم الثعالبيّ، يوم 1937/07/25[7]؛ ووردت بنود العقيدة العشرة ضمن محاضرة ألقاها على الطلبة الجزائريّين الزيتونيّين في المدرسة الخلدونيّة، بعد يوم 1937/02/27[8]، وكلا النشاطين الذين ألقي فيهما النصّان يمتّان بصلة مباشرة أو غير مباشرة إلى "جمعية الشبّان المسلمين".

إذا قمنا بجمع المعلومات المتوفّرة بين أيدينا إلى بعضها البعض، تبيّن بوضوح أنّ إسهام مفدي بكتاباته في جريدة "تونس الفتاة" إنّما كان بعد عودتها إلى الصدور للمرّة الثانية، ابتداء من عددها 13، الصادر في 1939/07/13، وانتهاء إلى العدد 20، المؤرّخ يوم 08/30، قبل صدور أمر تعطيلها نهائيّا، وذلك لما يلي:

---

[1]- ينظر: الباب الثالث، ص337.

[2]- ينظر: مفدي زكرياء230 ها50.

[3]- ينظر: المقال، حزب الشعب الجزائريّ230، 231.

[4]- ينظر: نفسه233.

[5]- صدر منها ثمانية أعداد، أوّلها كان يوم 1939/05/18، وآخرها يوم 1939/08/12؛ ينظر: الباب الثالث، ص345-347.

[6]- ينظر: نفسه234.

[7]- ينظر: الباب الثاني، ص219، 220.

[8]- وهو ما قد يفسّر الوهم في تاريخ إلقاء هذه العقيدة على ما سبق بيانه؛ ينظر: ص529.

1- كان عنوان مفدي خارج السجن آنذاك هو محلّ وصيّه بكير بن داود بسخواض[1]، عوض عنوان "المطبعة العربيّة" للشيخ أبي اليقظان[2]، وكان من أشدّ الناس ضغطا عليه للتخلّي عن العمل السياسيّ، والالتفات إلى وضعه الاجتماعيّ، فلا يمكنه والحال هذه أن يستقبل رسائله السياسيّة على هذا العنوان.

2- الحلاّق الذي كان صلة وصل بين مفدي وقنانش، إنّما أذنت له الإدارة الاستعمارية في زيارته، في شهر ماي 1939، وكانت جريدة "تونس الفتاة" في شهرها الثاني من الحظر الذي طالها لمدّة ثلاثة أشهر.

3- كان محمد قنانش -بعد خروجه من السجن- أسبق إلى نشر إنتاجه في هذه الجريدة، فقصيدته "ارفعوا الكأس" صدرت في العدد الممتاز، ليوم 04/01، ومقدّمة مجموعة مقالاته التي كتبها بسجن بربروس، أنجزها بتاريخ 1938/12/01، وعنوها "دروس السجن"، قد تكون سابقة لها.

4- في مقاله "الأدب في السجن" أثر واضح من صديقه قنانش، لتناوله فيه حدث دخول قنانش إلى بربروس ضمن الفوج الثاني من قادة حزب الشعب، في فيفري 1938، وتبادلَهما مقطوعتين شعريّتين بالمناسبة، هاتان المقطوعتان ما كان بإمكان مفدي حفظهما بعد مرور سنة ونيف من هذه الواقعة، ولذلك لم يدرج منهما في القصّة سوى المطلع، بينما نجد المقطوعتين كاملتين في إحدى مذكّرات محمد قنانش، ركّز فيها على هذه الحادثة بالذات، وأسماها "الأيّام الأولى في بربروس".

5- نقرأ في مقاله "الأدب في السجن" ما يلي: «وما إن فتحت أبواب القفص في وجوهنا حتّى لمحت من بعيد إزاء النقطة المستديرة أربعة شبّان بطرابيشهم العثمانيّة الناصعة [...]، نبّهت رفقائي لهذا المنظر، فأحدقنا أنظارنا إليهم، فإذا بالأخ كحّال الشهيد -عليه رحمة الله- يشير إلينا بإيماءة من عينيه الباسمتين»[3]، وكحّال أرزقي إنّما وافاه الأجل بمستشفى مصطفى باشا، يوم 1939/04/12[4].

6- مقاله "ملاحظات نزيهة من رسالة صديق" نشره في الجريدة بعد 1939/07/15[5]، لأنّه لا يمكن لجمعية الشبّان المسلمين أن تقيم الاحتفالين، قبل احتفال جامع الزيتونة الرسميّ؛ و"عقيدة التوحيد" نشرت في الجريدة في شهر أوت، ولا تبعد عنها -في تقديرنا- قصيدته في الزعيم التونسيّ عبد العزيز الثعالبيّ.

---

[1]- في رسالة مفدي إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، بتاريخ 1939/08/08، يعزّيه إثر وفاة والده، يقول له في ختامها: «العنوان: Bakir ben Daoud, 29 Rue de La Lyre 29, Alger "إلى زكرياء"»الرسالة، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.

[2]- كان هذا عنوانه -على ما سبق بيانه- في صائفة 1938، عندما كان يراسل زميل دراسته عيسى بن الشيخ أبي اليقظان، وآخر رسالة كشف عنها محمد ناصر في كتابه مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، كانت مؤرّخة في 1938/08/23.

[3]- حزب الشعب الجزائري232.

[4]- ينظر: الباب الثالث، ص344، 345.

[5]- هو تاريخ الاحتفال السنويّ الذي أقامته إدارة الجامع بمناسبة انتهاء العام الدراسيّ؛ ينظر: الاحتفال السنويّ العظيم بانتهاء العام الدراسيّ بالكلّيّة الزيتونيّة، خطاب شيخ الجامع الأعظم صالح المالقي، المجلّة الزيتونيّة، مج 03، ج07 و08، جمادى الأولى والثانية 1358هـ، جويلية وأوت 1939، ص306-309.

وتأسيسا على ما سبق يمكننا تفنيد نسبة المقالات التي تحمل إمضاء "الفتى الوطنيّ" إلى مفدي تفنيدا قاطعا، بالرغم من أنّ رفيقه في النضال وصديقه محمد قنانش هو من نسبها إليه، وذلك لما يلي:

- المقالات الأربعة يحمل جميعها نفس الإمضاء: «الجزائر، الفتى الوطنيّ»، وعليه فصاحبها واحد، ومقال "الحركة الوطنية بالجزائر" نشر في العدد الممتاز من الجريدة، في أفريل 1939، قبل الفترة التي قدّرناها لنشر مفدي كتاباته في هذه الجريدة التونسيّة.
- لا يوجد أيّ مبرّر منطقيّ لاستعمال مفدي اسمين مستعارين مختلفين في نفس الفترة، وفي نفس الجريدة.
- صرّح قنانش بنسبة مقالين من مقالات الفتى الوطنيّ إلى مفدي، وسكت عن اثنين آخرين له، أحدهما موجود في نفس الكتاب، والثاني موجود في كتاب له ثان.
- في مقال "صوت الجزائر"، المنسوب إلى مفدي، يروي الفتى الوطنيّ فيه حادثا وقع «في النصف الأوّل من شهر مايو الماضي، ذلك الشهر الذي أكملت فيه حبيبتنا بتدويخها للجزائر [...]، بإقامتها المؤتمر الأفخارستي بين جدران "مزغنة" المسلمة العربية»، وإنّما أقيم هذا المؤتمر أيّام 03 إلى 07 ماي 1939[1]، يحكي فيه عن جولة قام بها وصديق له من المغرب الأقصى في أنحاء مدينة الجزائر، التقيا خلالها بـــ "فارس الحكيم"سائح من مصر...إلخ، ومفدي كان آنذاك في زنزانته بسجن الحرّاش لا يريم.
- وفي مقال "عيدان في عيد"، المنسوب كذلك إليه، يحكي الفتى الوطنيّ -كشاهد عيان- وقائع الإفراج عن معروف بومدين وبرزوق وسي الجيلاني، يوم عيد الأضحى الموافق لـــ 1939/01/30، واحتفالِ الحزب بالإفراج عنهما، ومفدي كان آنذاك حبيس السجن.

وعليه فإنّ مفدي لم يكتب في هذه المرحلة -في تقديرنا-، ولم ينشر في جريدة "تونس الفتاة"، سوى هذين المقالين بإمضاء "أبو فراس"، لأنّ محمد قنانش قام بمسح هذه الجريدة، بحثا عمّا له علاقة بـــ"حزب الشعب الجزائريّ"، فلو وجد فيها إنتاجا آخر لمفدي ما كان بإمكانه أن يغفل عنه، إلاّ أن تكون بعض أعداد الجريدة ناقصة في المجموعة التي اطّلع عليها؛ وعليه فإنّ حديثه عن مقالات سياسيّة وأدبيّة عديدة لمفدي لا يعدو أن يكون بسبب وهمه في نسبة مقالات "الفتى الوطنيّ" إليه. أمّا ما أشار إليه قنانش من إنتاج لمفدي منشور في الجرائد المشرقيّة فلم نقف عليه، ونحن في ذلك أمام احتمالين: أوّلهما أن يكون قصده إلى العدد الممتاز الذي أعادت نشره جريدة "مصر الفتاة"، وفيه مقال للفتى الوطنيّ؛ وثانيهما أن يكون مفدي قد عمل -فعلا- على تجسيد اتّفاقه مع جريدتي "العلم المصريّ" و"مصر الفتاة" المصريّتين، وفي حالة ثبوت ذلك فلا أتوقّع أن يزيد على مقال واحد أو مقالين، ولا أستبعد في هذه الحالة أن يكونا من نصوصه القديمة، كما فعلت "تونس الفتاة" عند نشرها

[1]- ينظر: المؤتمر الإيخاريستي في الجزائر، مدينة الإسلام (Un Congrès Eucharistique va se tenir dans Alger, ville de l'Islam)، إمضاء: المظلوم (El-Madloum)، حزب الشعب الجزائريّ75-79، ناقلا عن جريدة "الأمّة" الباريسيّة، عدد أفريل 1939.

لقصيدته في الثعالبيّ، وعقيدة التوحيد، ذلك أنّ مفدي كان يشكو من نفس المرض الذي أصابه عند دخوله سجن بربروس، يقول محمد ناصر: «على أنّ بعض ما جاء في رسائله يدلّ على أنّه عانى معاناة قاسية في بربروس حيث أصيب بمرض ألزمه دخول مستشفى السجن مدّة طويلة، وقد عاوده هذا المرض في أوت من سنة 1939، وهو بسجن الحرّاش، وهذا ما يتّضح في رسالة توجّه بها إلى الشيخ أبي اليقظان»[1].

إنّ مقاله "الأدب في السجن" قصّة ذات طابع أدبيّ صرف، استوحاها من ذكريات له بسجن بربروس أنتج فيها شعرا، ومنه كان العنوان، كتبها في هذه الفترة لا حين وقوع أحداثها، ومنه كتابته في الإمضاء: «مذكرات بربروس»، لأنّه كان حينها في سجن الحرّاش؛ ثمّ إنّ اختتام القصّة بعبارة: «وإلى اللقاء أيّها القرّاء الكرام»، يشير إلى أنّه كان في نيّته عند كتابتها أن يجعلها الحلقة الأولى من مذكّراته، غير أنّها كانت الأولى والأخيرة فيما يبدو؛ وتوقّفه عند هذا المقال الأوّل ممّا يشهد على أثر صديقه قنانش في تحريره، لأنّ أحداثا جسيمة مرّت بمفدي في السجن، في بربروس، وفي الحراش، كانت ستشكّل مادّة غزيرة لمذكّراته، وإن لم يكتب فيها –في حدود علمنا– شعرا. أمّا مقاله "ملاحظات نزيهة من رسالة صديق"، فإنّ الشكر في مفتتحه باسم إدارة "البرلمان الجزائريّ"، من غير أن يكون مفدي عضوا فيها، على ما سبق بيانه[2]، ممّا يدلّ على أنّ كتابة هذه الرسالة كان بتكليف منها، ومن إدارة حزب الشعب، لصلته الوثيقة برئيسها، وللخدمات الجليلة التي كانت تقدّمها الجمعية وجريدتها للقضية الجزائريّة، ولعدم إمكان إدارة "البرلمان الجزائريّ" وجلّ مسؤولي الحزب بالجزائر التواصل معها بغير اللغة الفرنسيّة.

وعليه، فإنّ ما كتبه في هذه المرحلة قليل جدّا، وكتبه بإيعاز ما، لا بمبادرة منه، فأين مفدي في السجن من مفدي الذي كتب تلك السلسلة من المقالات في جريدة "النهضة"، وحرّر جلّ موادّ العدد الأوّل من جريدة "الشعب"؟ إنّ ظروف السجن عموما، ومرضه على وجه الخصوص لا يفسّران لوحدهما –في نظرنا– هذا التغيّر:

إنّ كتاباته قبل دخوله السجن كان تطفح بحماس منقطع النظير، جعله مقبلا على القيام بما يراه واجبا وطنيّا دون حساب للعواقب، حتّى وإن لزمه في ذلك مواجهة الدنيا بمفرده، وخير شاهد مواجهته وحيدا خصوم "حزب الشعب الجزائريّ" باللسان العربيّ، لأنّ الحزب كان يشكو آنذاك عجزا كبيرا في الكتابة باللغة العربيّة الفصيحة، لأنّ أغلب المثقّفين ثقافة عربيّة كانت تستقطبهم "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين" أكثر من غيرها من الجمعيات والتنظيمات السياسيّة. أمّا مقاله "ملاحظات نزيهة من رسالة صديق"، ورسالتاه إلى الشيخ أبي اليقظان في 07/23 و1939/08/13، فإنّها تكشف عن التفاته إلى من حوله، ليدعوهم إلى تحمّل واجبهم ما دام واجبا وطنيّا، إذ لا يمكن لفئة صغيرة مهما كانت قوّتها أن تحمل هذا العبء لوحدها، وهو ما لم يكن يأبه له قبل دخول السجن:

لقد سبق الحديث عن دعوته الشيخ أبي اليقظان إلى المشاركة في الصحيفتين اللّتين خصّصتهما كلّ من

---

[1]– مفدي زكرياء59. ويقول عن هذه الرسالة: «رسالة موّجهة إلى أبي اليقظان، من سجن الحرّاش، بتاريخ 10 أوت 1939» نفسه79 ها3.

[2]– ينظر: الباب الثالث، ص350.

جريدة "العلم المصريّ"، و"مصر الفتاة" «للمغرب العربيّ [و]شمال إفريقيا، وحوادثه، ومشاكله، وقضيته المباركة»؛ وموقفهِ من ردّ الشيخ أبي اليقظان عليه بالسلب، فقال له في رسالة ثانية إليه: «سيّدي، إنّي لست موافقا على أن يبقى قلمكم مغمدا وسط هذه الزعازع، استنادا على أنّ الإدارة تخنق أنفاس الأحرار، وعلى أنّ هذا الوسط العفن لا يساعد على حياة أمثال ذلك القلم الجبّار، فطالما تصارع ذلك القلم مع سيف الاستعمار، فأحدث فيه فلولا، فليس من الصواب أن يتراجع اليوم أمام شبح الطغيان، وهو إنّما خلق ليكون أمّة كاملة، وليخلق شعبا، ولينشئ وسطا، وليحدث جيلا [...]. أليس أصحاب الأقلام الحرّة بمثابة الرسل، «يجب في حقّهم التبليغ»، مهما كانت التضحية إليه؟»[1]. وفي مقاله "ملاحظات نزيهة من رسالة صديق" نجده يرجو رئيس "جمعية الشبّان المسلمين" في خصوص الطلبة الجزائريّين الزيتونيّين، المثقّفين ثقافة عربيّة ضرورة، قائلا: «وحبّذا لو أعتنمونا هنالك بتونس في مهمّة عظيمة جدّا، ومتأكّدة جدّا، وضروريّة جدّا، وهي إذكاء الحماس الوطنيّ في قلوب الطلبة الجزائريّين، وتدريبهم على الكفاح السياسيّ المنظّم، والتفكير الوطنيّ الصحيح، وبعبارة أخرى أن تركّبوا فيهم (دماغا وطنيّا علميّا)، إلى جانب الدماغ العلميّ الجافّ الذي اكتسبوه من بين فصول الأشمونيّ [...] والتنقيح»، ويصف واقعهم في الجزائر، فيقول: «وهذا "حزب الشعب الجزائريّ" أعظم مظهر بالجزائر للوطنيّة الصحيحة، المرتكزة على مبادئ الإسلام والعروبة، وقد قضى من عمر جهاده سنين أبلى فيها البلاء الحسن، وأصبح قوّة يحسب لها الاستعمار ألف حساب، له وحده القول الفصل، والكلمة الحاسمة في تقدير مصير الشعب، ومع كلّ هذا فلا يوجد ولا واحد من هؤلاء "المشائخ" ضمن صفوف جهاده المتراصّة بالشباب "الأميّ"، يحدوه الإيمان، وتدفعه العقيدة، وهذا رغما عن قيام الحزب بدعاية واسعة في أوساطهم، ولسنا ندري هل توجد هنا بالجزائر يد خفيّة تصدّهم عن الانضمام إلى صفوف "حزب الشعب" لغاية سيكشفها التاريخ الذي لا يعرف الكذب والرياء؟ أم أنّهم راضون عن الحالة التي عليها بلادهم المنكوبة حتّى بأبنائها»؛ ويؤكد حاجة الجزائر في خصوصهم قائلا: «ليست الجزائر بحاجة إلى رجال يرفعون الفاعل، وينصبون المفعول، ويخفضون المضاف إليه، ويحرّكون ويسكّنون أواخر الكلمات (لا غير)، وإنّما هي بحاجة إلى رجال يرفعون رأسها عاليا، وينصبون أقلامهم وأفكارهم للذود عن حماها، والدفاع عن كرامتها، ويخفضون رؤوس المتفوّقين[كذا]، والخونة المنافقين، ويحرّكون المؤسسات، ويسكنون عواصف الظلامات، أولئك هم الرجال الذين تحتاجهم الجزائر اليوم، ويحتاجهم المغرب الأعظم الجبّار»[2].

لقد أدرك مفدي زكرياء -في تصوّرنا- عند دخوله السجن، وبعد وفاة والده وهو غير راض عنه انغماسه في العمل السياسيّ، أدرك مدى جناية انصرافه بكليّته إلى النضال السياسيّ في سبيل قضية وطنه على وضعه الاجتماعيّ، فاختار أن يتّخذ مسافة معقولة بينه وبين العمل النضاليّ، بما يمكّنه من القيام بواجبه الوطنيّ مع غيره،

1- ينظر: الباب الثالث، ص340، 341.

2- حزب الشعب الجزائريّ234-238، ناقلا عن جريدة "تونس الفتاة".

وبعيدا عن الأضواء، ليتمكّن من الالتفات إلى إصلاح وتحسين وضعه الاجتماعيّ؛ وإذا كان إنتاجه الأدبيّ موازيا لعمله الوطنيّ في الأغلب الأعمّ، فإنّ تراجعه فيه أدّى بالضرورة إلى تراجع إنتاجه في السجن تراجعا كبيرا، ويمكن أن نتبيّن ذلك بوضوح في المقارنة بين ما كتبه في شهري جويلية وأوت 1937 قبل دخوله السجن، وما كتبه مدّة سنتين في السجن؛ كما أنّ عدد القصائد التي كتبها صديقه محمد قنانش خلال نصف مدّة سجن مفدي أكثر ممّا كتبه شاعرنا.

يمكننا بعد كلّ هذا أن نحصر ما وقفنا عليه من إنتاجه في هذه الفترة في الجدول الآتي:

رقم	عنوان النصّ	نوعه	حجمه	تاريخه
1.	النشيد الوطنيّ الجزائريّ[1]	نشيد	25 بيتا	1936/10/17
2.	بلاغ من رئيس الحزب الوطنيّ الجزائريّ مصّالي الحاج إلى الأمّة الجزائريّة الكريمة[2]	مقال	03 أعمدة	1936/11/12
3.	تاريخ السياسة الجزائريّة (1)	مقال	03 أعمدة ونصف	1936/11/16
4.	تاريخ السياسة الجزائريّة (2)	مقال	03 أعمدة ونصف	1936/11/16
5.	نغمة جديدة لتفريق الشعب الجزائريّ	مقال	صفحة ونصف	1936/11/17
6.	إلى البلبل الزعلان	مقال	صفحتان ونصف	1936/12/08
7.	عقيدة التوحيد لشباب شمال إفريقيا	مقال	صفحة واحدة	بعد 1937/02/27
8.	صوت الجزائر: بردة الوطنيّة الجزائريّة	قصيدة	72 بيتا	1937/03/05
9.	وفد الشباب الوطنيّ الجزائريّ بتونس الشقيقة	مقال	صفحة واحدة	1937/03/16
10.	ركب الحجيج تحيّة وسلاما	قصيدة	25 بيتا	1937/04/13
11.	نداء إلى إخواننا الوطنيّين بالمغرب الأقصى	مقال	صفحة واحدة	1937/04/20

[1]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4384، 1936/11/23، موضوعه: أغنية وطنية أهليّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من النشيد الوطنيّ الجزائريّ، مطبوعة بالمطبعة العربيّة، للشيخ أبي اليقظان، مكتوبة بخطّ مفدي زكرياء، وتحمل إمضاءه، وهي مؤرّخة في: 1936/10/17، مطوية من أربع صفحات، والكتابة على ثلاث منها؛ وجريدة "تونس"، س01، ع19، 1355/10/11هـ، 1936/12/25م، ص02، وورد فيها بعنوان "تحيّة الحزب الوطني الجزائري"، واقتصر في الفقرة الأخيرة منه على بيتين فقط، وبعدهما: «...إلخ»؛ واللهب المقدّس، لمفدي زكرياء، موفم للنشر، الرغاية-الجزائر، ط3: 2000، ص104-106؛ وجاء تحت العنوان: «لحزب نجمة إفريقيا الشماليّة، نظم سنة 1936»104.

[2]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7512، 1936/11/30، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من البلاغ، مطبوعة بالمطبعة العربيّة بالجزائر، للشيخ أبي اليقظان، في صفحة واحدة بحجم صفحة جريدة، متكوّنة من ثلاثة أعمدة، والبلاغ مؤرّخ فيها في: «باريس يوم 12 نوفمبر سنة 1936»؛ ومصّالي الحاج: الزعيم المفترى عليه56-64، وهو مؤرّخ في 1936/11/13؛ وجريدة "العصر الجديد"، س18، ع182، 1355/11/16هـ، 1937/01/29م، ص02، نشر فيها القسم الثاني والأخير منه، ويحمل تاريخ: 1936/11/12.

.12	بكوشة وحلوش في الميزان	مقال	03 صفحات	1937/05/18
.13	ضحايا الأحكام الزجرية الجزائر[1]	مقال	عمود واحد	1937/05/21
.14	الأخ مصطفى حلوش في الميزان	مقال	03 صفحات	1937/06/01
.15	اعصفي يا رياح	نشيد	12 بيتا	قبل 1937/06/18
.16	أطوار الحياة في بلاد الجزائر	محاضرة	18 صفحة	1937/06/18
.17	الشمال الإفريقيّ يتّحد[2]	قصيدة	71 بيتا	قبل 1937/06/22
.18	*أطوار الحياة في الجزائر(1)[3]	مقال	عمود وثلث	1937/06/21
.19	*أطوار الحياة في الجزائر(2)[4]	مقال	عمودان	1937/06/22
.20	*أطوار الحياة في الجزائر(3)[5]	مقال	عمودان ونصف	1937/06/23
.21	*أطوار الحياة في الجزائر(4)[6]	مقال	عمود وثلثان	1937/06/25
.22	*أطوار الحياة في الجزائر(5)[7]	مقال	عمودان وثلث	1937/06/26
.23	*أطوار الحياة في الجزائر(6)[8]	مقال	عمودان وربع	1937/06/27
.24	*أطوار الحياة في الجزائر(7)[9]	مقال	عمودان وربع	1937/06/28
.25	*أطوار الحياة في الجزائر(8)	مقال	عمودان وثلث	1937/06/29
.26	رسالة إلى السيّد زكري بن سعيد[10]	رسالة	صفحة واحدة	1937/07/04
.27	معركة انتخابية حامية الوطيس في بلاد الجزائر	مقال	عمود وثلاثة أرباع	1937/07/08

[1]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4340، 1356/03/13هـ، 1937/05/21م، ص05، وفي المقال صورة لمفدي زكرياء، والأخرى للأحول الحسين؛ ومفدي زكرياء238، 239.

[2]- ينظر: جريدة "الوطن" التونسيّة، س01، ع32 و33، 07 و1356/06/14هـ، 15 و1937/08/22م، وعدد الأبيات فيهما 66 بيتا، قسّمت مناصفة في "الوطن" بين العددين، والعنوان منها، وبعده: «من نظم الأستاذ مفدي زكرياء، زعيم حزب الشعب الجزائريّ»؛ و"وثيقة" من أربع ورقات، مكتوبة على وجه واحد من كلّ ورقة، من غير عنوان، تعتبر الإصدار الأوّل للقصيدة؛ وجريدة "الشّعب"، س01، ع01، 1356/06/19هـ، 1937/08/27م، ص08؛ وجريدة "الأمّة" الجزائريّة، س03، ع137، 1356/07/08هـ، 1937/09/14م، ص03؛ وعنوانها فيها "حزب الشّعب الجزائريّ يحيّي الثعالبيّ"، من غير إمضاء، سقط منها بيت واحد؛ ومفدي زكرياء214-216؛

[3]- ينظر: جريدة "الزهرة" التونسية، س50، ع9234، 1356/04/11هـ، 1937/06/21، ص03.

[4]- ينظر: جريدة "الزهرة" التونسية، س50، ع9235، 1356/04/12هـ، 1937/06/22، ص03.

[5]- ينظر: جريدة "الزهرة" التونسية، س50، ع9236، 1356/04/13هـ، 1937/06/23، ص03.

[6]- ينظر: جريدة "الزهرة" التونسية، س50، ع9238، 1356/04/15هـ، 1937/06/25، ص03.

[7]- ينظر: جريدة "الزهرة" التونسية، س50، ع9239، 1356/04/16هـ، 1937/06/26، ص03.

[8]- ينظر: جريدة "الزهرة" التونسية، س50، ع9240، 1356/04/17هـ، 1937/06/27، ص03.

[9]- ينظر: جريدة "الزهرة" التونسية، س50، ع9241، 1356/04/18هـ، 1937/06/28، ص03.

[10]- ينظر: الرسالة، مؤرّخة في 1937/07/04، تحصّلت على صورة من هذه الرسالة صحيحة غير منقوصة من عمّنا زكرياء الحاج محمد بن سعيد بن زكري بن سعيد، في شهر سبتمبر 2003م، وتقع في ورقة واحدة، مكتوبة وجها وظهرا، بخطّ مفدي زكرياء.

28.	ماذا في الجزائر؟	مقال	03 أعمدة	1937/07/18
29.	المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني وأدواره-1-[1]	مقال	عمودان ونصف	1937/07/24
30.	المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني وأدواره-2-[2]	مقال	03 أعمدة	1937/07/25
31.	المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني وأدواره-3-[3]	مقال	04 أعمدة	1937/07/27
32.	المؤتمر الإسلامي الجزائري الثاني وأدواره-4-[4]	مقال	عمودان	1937/07/28
33.	عيد الحرّيّة بالجزائر-5-[5]	مقال	03 أعمدة	1937/07/30
34.	حول المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ[6]	مقال	عمود وثلثان	1937/07/31
35.	بلاغ من حزب الشعب الجزائريّ إلى الأمّة الجزائرية الإسلاميّة[7]	مقال	04 أعمدة	1937/08/01
36.	على هامش عيد الحرّيّة بالجزائر[8]	مقال	03 أعمدة	1937/08/02
37.	الشيوعيّة تتجرّأ على مقام الشيخ الثعالبيّ[9]	مقال	03 أعمدة	1937/08/03
38.	كفاكم دجلا أيّها المتنطّعون(1)[10]	مقال	03 أعمدة	1937/08/11

[1]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4403، 1356/05/15هـ، 1937/07/24م، ص05، وبعد العنوان: مظاهرات عيد الحرية-تفتيشات المحلاّت الوطنية-الحركة النقابية بالجزائر؛ ومفدي زكرياء239-242.

[2]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4404، 1356/05/16هـ، 1937/07/25م، ص05، وبعد العنوان: مظاهرات عيد الحرية-تفتيشات المحلاّت الوطنية-الحركة النقابية بالجزائر.

[3]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4406، 1356/05/18هـ، 1937/07/27م، ص05، وبعد العنوان: مظاهرات عيد الحرية-تفتيشات المحلاّت الوطنية-الحركة النقابية بالجزائر؛ ومفدي زكرياء242-247.

[4]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4407، 1356/05/19هـ، 1937/07/28م، ص05، وبعد العنوان: مظاهرات عيد الحرية-تفتيشات المحلاّت الوطنية-الحركة النقابية بالجزائر؛ ومفدي زكرياء247، 248.

[5]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4409، 1356/05/21هـ، 1937/07/30م، ص05، وبعد العنوان: عشرون ألف وطني يتظاهرون امام علم حزب الشعب يتقدّمهم الزعيم مصّالي الحاج لتسقط سياسة الاندماج! نريد برلمان جزائريّا!؛ ومفدي زكرياء248-252.

[6]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4410، 1356/05/22هـ، 1937/07/31م، ص05، وبعد العنوان: ملاحظة عاجلة على ملاحظة سريعة.

[7]- ينظر: تقرير نائب مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 5314، 1937/08/03، موضوعه: بخصوص ترجمة إلى العربية لجريدة "الأمّة"، 4I4، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من البلاغ، مطبوعة وجها وظهرا، بالمطبعة العربية، وثيقة من صفحتين. وبعد البلاغ يوجد نصّ التقرير الذي تقدّم به أربعة من مناضلي الحزب للمؤتمر، وهم: معروف، وفليتة، وبلقاسم بن عيسى، وموساوي، باللغة العربية، ووقع رفضه؛ كما تحدّث التقرير عن توزيع المنشور يوم 08/02، بالجزائر.

[8]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4412، 1356/05/24هـ، 1937/08/02م، ص05، وبعد العنوان: تعاليق وشروح؛ ومفدي زكرياء252-255.

[9]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4413، 1356/05/25هـ، 1937/08/03م، ص05، وبعد العنوان: وتحوّل كلامه لفائدة دعايته.

[10]- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4422، 1356/06/04هـ، [11]/08/1937م، ص05، وقبل العنوان: حول المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ الثاني، جواب أقرب على جواب قريب. والمقال من غير إمضاء، والذي يدلّ على أنّه لمفدي الإمضاء الصريح في آخر تتمّته.

39.	كفاكم دجلا أيّها المتنطّعون(2)[1]	مقال	03 أعمدة ونصف	1937/08/12
40.	الوطنيّة تغزو مدينة وهران(1)[2]	مقال	03 أعمدة وربع	1937/08/13
41.	الوطنيّة تغزو مدينة وهران(2)[3]	مقال	عمود ونصف	1937/08/14
42.	ثلاثة أيّام بالجزائر لفائدة فلسطين	مقال	عمود واحد	1937/08/24
43.	صرخة الشعب: مبدؤنا في طريق الجهاد	مقال	03 صفحات	1937/08/27
44.	نداء إلى الكتّاب	مقطوعة	08 أبيات	1937/08/27
45.	محكمة الشعب	مقال	05 صفحات	1937/08/27
46.	الشعب يتكلّم	مقال	04 صفحات	1937/08/27
47.	مداعبات بريئة!!	مقال	08 صفحات	1937/08/27
48.	في بلاد العروبة	مقال	05 صفحات	1937/08/27
49.	[رسالة إلى ابن تومرت][4]	رسالة	صفحتان	1937/09/28
50.	أنشودة عزيزة[5]	قصيدة	17 بيتا	أكتوبر 1937
51.	رسالة شعريّة[6]	مقطوعة	10 أبيات	1938/02/26
52.	الأدب في السجن	مقال	04 صفحات	بعد 1939/04/12
53.	ملاحظات نزيهة من رسالة صديق	مقال	04 صفحات	بعد 1939/07/15

45 نصّا[7]، منها: 34 مقالا، ورسالتان، ومحاضرة؛ و03 مقطوعات، و05 قصائد، بمجموع عدد أبيات يساوي 240 بيتا.

1- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4423، 1356/06/05هـ، [12]/1937/08م، ص05، وقبل العنوان: حول المؤتمر الإسلاميّ الجزائريّ الثاني، جواب أقرب على جواب قريب. وفي آخره إعلان عن مقال قادم، وعن قرب صدور جريدة "الشعب".

2- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4424، 1356/06/06هـ، [13]/1937/08م، ص05. وهو من غير إمضاء، والذي يدلّ على أنّه لمفدي الإمضاء الصريح في آخر تتمّته.

3- ينظر: جريدة "النهضة"، س14، ع4425، 1356/06/07هـ، [14]/1937/08م، ص05. وفي آخره إعلان عن قرب صدور جريدة "الشعب".

4- ينظر: مفدي زكرياء267-269؛ وهي مؤرّخة في 1937/09/28. وعلّق ناصر على الرسالة بقوله: « هذه نسخة منقولة عن رسالة بخطّ يد الشاعر نفسه، بعث بها إلى صديقه محمد العربيّ، الأديب التونسي، الشهير بابن تومرت »275 ها5؛ وصورة الصفحة الأولى من نسخة منها أوردها في ص236.

5- ينظر: مفدي زكرياء185، 186. «سجن بربروس، أكتوبر 1937. وعزيزة هنا هي قطّته التي كانت تؤانسه بالسجن، والقصيدة بإمضاء "أبو فراس"»نفسه230 ها50.

6- ينظر: حزب الشعب الجزائريّ261؛ وقصّة هذه الأبيات واردة فيه بالتفصيل، في فصل بعنوان "الأيّام الأولى في بربروس"، ص258-261. وهذه المقطوعة نظمها في اليوم الثاني من دخول الفوج الثاني من قادة حزب الشعب يوم 1938/02/25.

7- بحذف ما في أوّله نجمة (*) لأسباب لا تخفى على القارئ.

الفصل الثالث: إنتاجه الأدبيّ 1932-1939

إنتاجه الأدبيّ في مراحل صعوده وهبوطه كمّيا:

أنتج مفدي زكرياء في مدّة ثماني سنوات، من سنة 1932 إلى 1939، 119 نصّا، وهو يقارب ضعف ما أنتجه في الفترة الأولى (1921–1931)؛ منها: 14 قصيدة، و29 مقطوعة بمجموع 807 أبيات؛ و79 مقالا، ورسالتان، ومحاضرة واحدة هي "أطوار الحياة في بلاد الجزائر". أمّا المفقود من إنتاجه فهو شعر كلّه، وهو كالآتي: قصيدة في تكريم فرقة فاطمة رشدي، وثانية ارتجلها في مأدبة نادي الترقّي على شرف أعضاء "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، كلاهما في سنة 1932؛ وقصيدته "إلى نسر الأنس الجديد" التي حجبها عن النشر في جريدة "الجحيم" سنة 1933؛ و04 نصوص شعريّة ألقاها بمناسبة مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بتونس، بالإضافة إلى قصيدته في احتفال مدرسة "الاستقامة" بقالمة، جميعها في سنة 1934.

وإذا وضعنا هذه النتائج في إطار حصيلة المرحلة المدروسة كاملة، موزّعة على أقسامها الكبرى ينتج الجدول الآتي[1]:

مراحل حياة مفدي الأدبيّة	القصائد	المقطوعات	المقالات	نصوص أخرى	المجموع
في البعثة العلمية المزابية بتونس 1921–1925	17	12	14	04	**47**
	%36.17	**%25.53**	**%29.78**	**%08.51**	**%100**
	%40.47	**%34.28**	**%13.72**	**%57.14**	**%25.26**
بداياته في الحياة العملية 1926–1931	11	00	09[2]	00	**20**
	%55	**%00**	**%45**	**00**	**%100**
	%26.19	**%00**	**%08.82**	**%00**	**%10.57**
مشاركاته في مؤتمرات طلبة شمال إفريقيا 1932–1936	09	20[3]	45	00	**74**
	%12.16	**%27.02**	**%60.81**	**%00**	**%100**
	%21.42	**%57.14**	**%44.11**	**%00**	**%39.78**

1– يحوي عدد النصوص التي أنتجها في كلّ مرحلة من مراحل حياته الأدبيّة، موزّعة على: القصيدة، والمقطوعة، والمقالة، ونصوص أخرى، ونعني بهذه الأخيرة: القصّة والبحث والمحاضرة؛ ثمّ نسبة كلّ نوع إلى عدد النصوص في تلك المرحلة؛ ثمّ نسبة كلّ نوع إلى نصوص ذلك النوع في مختلف مراحل حياته الأدبيّة.

2– مقال "مناجاة زهرة في أحد بساتين ميزاب" أضفته إلى مقالات فترة تونس، لأنّه –في تقديري– هو نفسه مقال "أيّتها الزهرة الباسمة" المفقود في أحد أعداد مجلّة "الوفاق".

3– المقطوعات الشعرية الواردة في مقالاته في جريدة "الجحيم"، وهي ستّة، لم أعتبرها في إحصاء النصوص، بل في إحصاء الأبيات الشعريّة.

في "نجم شمال إفريقيا" و"حزب الشعب الجزائريّ" 1936–1937	04	02	32	02	**40**
	%10	**%05**	**%80**	**%05**	**%100**
	%09.52	**%05.71**	**%31.37**	**%28.57**	**%21.50**
في السجن 1937–1939	01	01	02	01	**05**
	%20	**%20**	**%40**	**%20**	**%100**
	%02.38	**%02.85**	**%01.96**	**%14.28**	**%02.55**
المجموع	**42**	**35**	**102**	**07**	**186**
	%22.58	**%18.81**	**%54.83**	**%03.76**	**%100**
	%100	**%100**	**%100**	**%100**	**%100**

إنّ أوّل ما نلاحظه على إنتاج مفدي للمرحلة المدروسة (1921–1939) هو انحصاره في الشعر قصيدة ومقطوعة، وفي فنّ المقال؛ كما نلاحظ تفاوتا صارخا في إنتاجه بين مرحلة وأخرى، فقد أنتج في مدّة أربع سنوات ونصف 39.78% من إنتاجه، وأنتج في مدّة ستّ سنوات 10.57%، وهو ما دفعنا إلى محاولة التدقيق في مسار إنتاجه، لتعيين مراحل المدّ والجزر في إنتاجه الأدبيّ من الناحية الكمّية، فانتهينا إلى الجدول الآتي:

مراحل المدّ والجزر في إنتاجه الأدبيّ	ع. الأشهر	النسبة %	ع. النصوص	النسبة %	المعدّل الشهريّ
ديسمبر 1924 – سبتمبر 1925(1)	**10**	**%05.64**	**39**	**%21.91**	**03.90**
أكتوبر 1925 – أكتوبر 1931(2)	73	%41.24	18	%10.11	00.24
نوفمبر 1931 – ماي 1933(3)	**19**	**%10.73**	**61**	**%34.26**	**03.21**
جوان 1933 – جويلية 1936(4)	38	%21.46	15	%08.42	00.39

1– آخر سنة دراسية له في تونس: تولّى رئاسة تحرير جريدة "الوفاق"، وتأكّدت بفضلها موهبته الأدبيّة، وحقّق نجاحات أدبيّة خارج إطار البعثة المزابية بتونس، كما أنّ قضية مزاب كانت معروضة على مجلس الدولة بفرنسا للفصل فيها، في آخر حلقة من حلقات النضال المزابيّ في سبيل انتزاع الاعتراف باستقلاله، وإقرار دستور خاصّ به.

2– صدر قرار مجلس الدولة الفرنسي في ماي 1925، برفض دعاوي المزابيّين جملة وتفصيلا، وكان غير قابل للنقض؛ ثمّ اتّهم في سبتمبر تهمة شنيعة عوقب بسببها، تألّم لها إلى حدّ اتّخاذه قرار ترك البعثة، والعودة إلى مزاب، ثمّ واجه صعوبات الحياة العمليّة التي اضطرّه إلى دخولها زواجه، وكان من نتائجه أيضا رفض والده عودته إلى تونس لمتابعة دراسته، كفعل بعض زملاء دراسته.

3– أنشأ شركته "المعمل العربيّ" التي كفلت له الاستقلال والاستقرار المادّيين والحرّية، وشارك لأوّل مرّة في مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، حين انعقد في الجزائر، في سنة 1932، وعمل مراسلا لجريدة "النهضة" التونسيّة، وقد تزامن كلّ ذلك مع تأسيس "جمعية العلماء المسلمين" بما بعثته من أمل واعد في مستقبل الجزائر.

4– أفلست شركته "المعمل العربيّ"، ووصم بالنصب والاحتيال، فتعرّض لحملة صحفية، ومتابعة قضائيّة، كلّ ذلك أثّر في مصداقيته تأثيرا بليغا على جميع المستويات.

أوت 1936 – أوت 1937[1]	**13**	**%07.34**	**40**	**%22.47**	**03.07**
سبتمبر 1937 – أوت 1939[2]	24	%13.55	05	%02.80	00.20
مجموع مراحل المدّ	**42**	**%23.72**	**140**	**%78.65**	**03.33**
مجموع مراحل الجزر	**135**	**%76.27**	**38**	**%21.34**	**00.28**
المجموع	**177**	**%100**	**178**	**%100**	**01.00**

هذه النتائج تتطلّب منّا وقفة متأنّية في تحليلها، عساها تساعدنا في تفسير مفارقاتها، وبعض مفارقات حياة مفدي الشخصية والأدبيّة، بما يزيدنا فهما لشخصيته، وتطوّرِ وعيه بمحيطه في هذه المرحلة المبكّرة من عمر الحركة الوطنية الجزائريّة، وانعكاس كلّ ذلك على مواقفه وإنتاجه:

إنّ أدب مفدي لم يخرج من إطار النصّ الشعريّ والمقالة الصحفيّة في الأغلب الأعمّ، ومعدّل نصّ واحد في الشهر الواحد في مدّة تزيد على 14 سنة، في هذه المرحلة الأولى من حياته الأدبيّة، يبدو ضئيلا نسبيّا، يجد تفسيرا له في عدم احترافه العمل الصحفيّ بصفة دائمة، أو ما يقرب منه ممّا يمكّنه من الكتابة باستمرار، فقد اضطرّته لقمة العيش إلى التماسها في أعمال لا تمتّ بصلة للأدب، وقد تكبّد مشاقّ كبيرة للتّوفيق بين طلب الرزق في أعماله وحرفة الأدب، ولعلّه يشير إلى خصوصية وضعه هذا، وعدم استسلامه له أيضا في قصيدته "أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا"، وذلك حيث يقول:

«ليـــس (الشَّمَالُ) بمثل (شَوْقِي) عاجزًا   لـــوْ أنّ فـــي بعضِ النّفـــوسِ سَخَاءَ
إنّ (الـــجزائرَ) (كالكِـــنَانَـــةِ) حرّةٌ،   تلدُ الرّجـــالَ، وتُـــنْجبُ العُظَـــمَـــاءَ
نشـــأَ (الأميـــرُ) مـــع الأميـــرِ مُنعَّمًا   بيـــن الـــرّيـــاضِ، يُغـــازلُ الوَرْقَـــاءَ
ونشأتُ مَقْصوصَ الـــجـــناحِ مُعَذَّبًا،   أَقـــضي الـــحياةَ مَضـــاضَةً وعَنَـــاءَ
وأنـــا الغـــريبُ الـــمُستـــهانُ بأُمّةٍ،   تـــضعُ الكـــرامَ، وترفـــعُ السُّفَهَـــاءَ
وأنـــا النّبـــوغُ الـــمُسْـــتَكِنُّ بأُمّـــةٍ،   تـــجفو النّبـــوغَ، وتعـــبدُ الأَهْـــوَاءَ
لو ذقـــتُ مِن كـــأسِ النّعـــيمِ صُبَابَةً،   لغـــدوتُ أحـــملُ للقـــريضِ لِـــوَاءَ
ما اليـــأْسُ في طلبِ العُلا مِن شيمتِي،   إنّـــي أَعُـــدُّ القـــانـــطيـــن نِسَـــاءَ
لا بأسَ في هـــذا الوجـــودِ، فإنّنـــي   لا أَنْـــثَـــنِي، أو أبلغَ الـــجَـــوْزَاءَ»[3].

---

[1]- انخراطه في "نجم شمال إفريقيا" بُعيد خطاب الزعيم مصّالي الحاج يوم 1936/08/02، وتولّيه رئاسته في الجزائر، ونفس المسؤولية تولاّها في صورة النجم الجديدة بعد حلّه "حزب الشعب الجزائريّ"، وقد وجد في هذه الحركة السياسية انسجاما تامّا مع تطلّعاته في الحياة، وتوجّهه فيها.

[2]- دخوله السجن لمدّة سنتين، ووفاة والده وهو غير راض عنه انغماسه في العمل السياسيّ، فكانا سببين في تدهور وضعه ووضع عائلته الاجتماعيّ.

[3]- جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س01، ع43، 1354/06/25هـ، 1935/09/24م، ص03.

كما أنّه لم يكن ممّن يعيش لأدبه فحسب، وينصرف إليه بكلّيته، وأيّ اهتمام آخر يأتي في المرتبة الثانية بعده، فلم يكن ممّن أدبه هو محور حياته، وجميع تجاربه بانفعالاتها المتنوّعة والمتباينة هي مادّة خامّ لإبداعه؛ وإنّما محور حياة مفدي وأدبه دون منازع هو وطنه بأفراحه وأتراحه، يعيش له، وبه يسعد ويألم:

لقد سبق وأن ألممنا بحسّه الوطنيّ المبكّر في الباب الرابع من هذا البحث، ولاحظنا ضمنه ندرة النصوص الشعريّة التي يتغنّى فيها مفدي بتجربة خاصّة به هو، بالرغم من غنى هذه التجربة بالأحداث والمواقف، كما وقفنا على استثنائية نصّه "شكاة إلى الربّ تعالى" في هذا المجال مقابل غلبة الشعر الوطنيّ على نصوصه الشعريّة، وكأنّه نذر شعره لوطنه لا غير[1]؛ وهذه الخاصية تأكّدت، وازدادت وضوحا وبروزا في أدبه عموما، وفي شعره على وجه الخصوص، في هذه المرحلة مرحلة التأكيد والتألّق، وفيها ما يعيننا على تفسير فترات المدّ والجزر -ولو جزئيّا- في إنتاجه الأدبيّ:

إنّ مفدي أديب ملتزم بقضية وطنه: بدأ بوطنه الصغير مزاب، فكتب عن العمل الوطنيّ المزابيّ في مرحلة دراسته تونس، وبعد رجوعه من تونس وانطلاقه في السنوات الأولى من حياته العمليّة؛ ثمّ انتقل إلى العمل الوطنيّ الجزائريّ، بداية من أواخر سنة 1931، وتزامن ذلك على مستواه الشخصيّ مع إنشائه شركة "المعمل العربيّ"، وبُعيد تأسيس "جمعية العلماء الجزائريّين" الذي رأى فيها عنوانا لنهضة جزائريّة واعدة، فعندما أصدر أحمد توفيق المدنيّ كتابه "تاريخ الجزائر"، غمرته سعادة لا توصف، فكتب فيه "إقرأ كتابك"، يقول فيه مخاطبا مصنّفه:

«إقـــرأْ كتابَك للأجيـــال يا (مَدَني)، كفـــى بنفـــسك صَـــدَّاحًا على فَنَنِ
[...] وبُـــثَّ فـــي أُذُنِ التّـــاريخِ مَـــأْثُـــرَةً لابنِ (الـــجزائـــرِ)، يتلـــوها فمُ الزَّمَنِ
وارسُمْ على صفحاتِ الكونِ مَفْخَرَةً، يحفظْ بـــها الكونُ ريَّـــا ذكركَ الحَسَنِ
واصرُخْ فتـــى النّهضتين اليومَ في وطنٍ، جـــارَ الزّمـــانُ بهِ، يا حاديَ الوَطَنِ»

ثمّ يقول عن شعب الجزائر:

[...] «شعبُ الـــجزائرِ -والآياتُ شاهدةٌ- جزءٌ مِنَ الـــخلدِ، لولا عَـــاديُ المِحَنِ
شعبَ الجزائرِ، كمْ في الشّعبِ مِن هِممٍ عُلْيَـــا، ومِـــن عبقريّـــاتٍ، ومِن فِطَنِ
شعبَ الجزائرِ، سلْ (تَاهَرْتَ) ما ملكتْ، وسلْ (تلمْسَانَ) في شجوٍ، وفي شَجَنِ
وفّقتَ فـــي اللّهِ -يا (توفيقُ)- بينهمُ، كما يُوفَّـــقُ بيـــن الـــرّوحِ والبَدَنِ»

ثمّ ينتهي إلى تمجيد صاحب الفضل في هذا الإنجاز، فيقول:

«فلْيحفـــظِ الفنُّ والإبداعُ ما صنعتْ فـــي الفـــنِّ يُمناكَ مِن آيٍ، ومِن مِنَنِ
ولْيشهدِ السّلـــفُ الآســـادُ عن كَثَبٍ ما جـــئتَ تَرويـــه مِن عـــزٍّ بهِمْ قَمِنِ

---

[1]- ينظر: ص438، 439.

وليْذكرِ الـخَلَفُ الأمجادُ في غدِهمْ ما كنتَ بالأمسِ تتلوهُ على غُصُنِ
في ذمّةِ اللّهِ والتّاريخِ عِشْ أبدًا، وفي حمى اللّهِ والإسلامِ يا (مَدَنِي)»[1].

وعندما شارك في احتفال المولد النبويّ، في نادي الترقّي، بتاريخ 1932/07/16، وقد أقامته جمعية النادي، ومدرسة الشبيبة الإسلاميّة، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، مرّ في قصيدته بالذكرى مرور الكرام، ثمّ كان خطابه في جلّ أبياتها موجّها خاصّة إلى أبناء مدرسة الشبيبة، إلى شباب الجزائر، عاقدا الآمال العريضة في غد مشرق للجزائر فيهم، ومنها قوله:

«شبابَ الجزائرِ، جندَ البلادِ، ويا فخرَ حاضرِها الأمجدِ
أُساةَ جِراحاتِها الدّامياتِ، وكعبةَ آمالِها في غَدِ
ومَن يفتديها بروحٍ ومالٍ، ونِعْمَ الحياةُ إذا تَفْتَدي
جزائرُكمْ منبتُ العزِّ قِدْمًا، سَلوا الشّمسَ عن عِزّها تَشْهَدِ
وتُربتُها مَرقدُ الفاتحين، بهمْ طَهُرَتْ، فهْي كالمَسْجدِ
[...] فهلْ لكمُ أُسْوَةٌ بالجدود؟ وهلْ يسعدُ الأبُ بالوَلَدِ؟
وهلْ لكمُ منهمُ نَخْوَةٌ إلى العزِّ، مِن جمرِها المُوقَدِ؟
وهلْ لكمُ منهمُ غيرةٌ على الدّينِ في حالِه الأنْكَدِ؟
وهلْ تحفظون عهودَ ولاءٍ، تناقلَها الدّهرُ عن سَنَدِ؟»

وفي ختامها يترك دور الخطيب، ويمتزج بهم ليدعو نفسه وإيّاهم إلى تحدّي ما سيواجههم في سبيل تحقيق هذا الغد المشرق، فيقول:

وقولوا معي لصُروفِ الزّمانِ: صُروفَ الزّمانِ، ابْرِقي وارْعِدي
وقولوا معي لخِضَمِّ الحياةِ: خضمَّ الحياةِ، احْتَدِمْ وازْبِدِ
فنحنُ الرّجالُ لنا بالنّفوسِ اجْـ ـتِزَاءٌ عنِ الدِّرْعِ والزَّرَدِ
وصيحوا جميعًا: لِتَحْيَا الجَزَائِـ ـرُ فَيْنَانَةً، ولْيَعِشْ بَلَدي»[2].

ولمّا لم يجد تجاوبا كبيرا مع طموحه هذا في العمل الوطنيّ الجزائريّ آنذاك، كما سيأتي بيانه، ابتغى متنفّسا له في مؤتمرات طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا، التي كانت بحقّ موعدا مع أهمّ قصائد هذه المرحلة، وكانت وطنيّة بالضرورة، منها قصيدته "أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا" في مؤتمر تلمسان سنة 1935، التي ارتقى فيها في التعبير عن حبّه لوطنه الجزائر، إلى الإعلان بخطاب مباشر له عن تفانيه في حبّه، خطاب أمكنه من إخراج مكنون نفسه هو

---

[1]- جريدة "النور"، س01، ع28، 1350/11/28هـ، 1932/04/05م، ص03.

[2]- جريدة "النور"، س01، ع43، 1351/03/22هـ، 1932/07/26م، ص03.

إزاءه، فإذا هو عهد مقدّس بينه وبين وطنه، وإذا بلفظة "الفداء" التي استعملها مرارا وتكرارا في قصائده السابقة تجد حاقّ موضعها في هذه الأبيات، وتلقي بأشعّتها على النصّ كلّه، وينتهي إلى عقد صلة وثيقة بين شعره ووطنه، كلّ ذلك صاغه في أبيات من أحسن ما قال الشاعر الجزائريّ في حبّ الجزائر[1]، جاءت على هذا النحو:

«وطني بروحي أفتديكَ، ومهجتي، ودمي الشّريفِ، مبرّةً ووفَاءَ
عهدٌ عليَّ مدى الحياةِ مقدّسٌ، يُذكي عروقي نخوةً وإبَاءَ
حسبي فخارًا في حياتي أنّني أغدو على وطني العزيزِ فِدَاءَ
وإذا الفتى لم يرعَ عهدَ بلادهِ، فأَقِمْ عليه مَآتِمًا وعَزَاءَ
لا درَّ درُّ الخائنين، ولا غفتْ عينُ الجبانِ المستميتِ بُكَاءَ
إنّ الجبانَ على البلادِ مصيبةٌ عَظُمَتْ، فيا أرضُ ابْلَعي الجُبَنَاءَ
وطني غرامُك في فؤادي خالدٌ، مَلأَ الجوانحَ روعةً ورُوَاءَ
أرسلتُ فيكَ إلى الخلودِ قصائدي، مثلَ المجرّةِ وَفْرَةً وسَنَاءَ
وسكبتُ فيكَ على القريضِ مدامعي قِطَعًا، تلهَّبُ في الفضاءِ ضِيَاءَ»[2].

غير أنّ هذه المؤتمرات -على أهميّتها- لم تكن عملا سياسيّا منظّما بأهداف مرسومة، وإنّما كان نشاطا فكريّا ثقافيّا بالدرجة الأولى، ومنه تفكيره في جريدة على مستوى المغرب العربي هي جريدة "الحياة"، ولعلّه من خلال هذا المشروع أدرك الصعوبات الموضوعيّة لتجسيد هذا الحلم؛ ثمّ وجد -أخيرا- في حركة مصّالي الحاج ضالّته، حركة سياسية تستجيب لطماحه، فانخرط فيها بقوّة، ومن غير تردّد، فكانت مرحلة العمل السياسيّ الحزبيّ في صفوف "نجم شمال إفريقيا"، ثمّ "حزب الشعب الجزائريّ"، فكانت له وقفاته ضدّ دعاة الإدماج والتجنيس، وعندما اقتُرح عليه تحيّة موكب للحجيج شعرا، في مأدبة أقيمت على شرفهم في بلدة الأصنام، ارتجل -والارتجال صنو العفوية في التعبير- قصيدة تجاوز فيها موضوع الحجّ والحجّاج في أبيات معدودة، ليعبّر بعد ذلك عن كابوسه المقيم المقعد، فيقدّم بسببه صورة قاتمة عن الجزائر في ظلّ هذا الوضع المخزي، يقول فيها:

«هلْ مِن سبيلٍ للنّهوضِ، فإنّنا صِرنا بجسمِ العالَمين سَقَامَا؟
هُزُؤًا غدونا في الحياةِ، وسُبَّةً، ومَعَرَّةً، وحُثَالَةً، وطَغَامَا
رعيًا لعهدِ اللّهِ في إسلامِه، صونوا (لأَحْمَدَ) حُرمةً وذمَامَا
[...] يا لهفتاهُ على (الجزائرِ)، قد غدا أبناؤُها في أرضِهِمْ أَيْتَامَا
بدّلتُمُ، واللّهُ بدّلَ ما بكمْ، وأهانَ إذْ غيّرتُمُ الأَحْكَامَا

---

[1]- تتمّة هذا الجزء من القصيدة حذفت أبياته عند نشرها في جريدة "الأمّة" الجزائريّة، على ما مرّ بيانه؛ ينظر: ص480 ها07.

[2]- جريدة "الأمّة"، ع43، ص03.

مَــن بــاعَ بَخْــسًا عِــزّهُ بِمــذلّةٍ   قَــضَّــى الــحياةَ تــعاسةً وظَلاَمَا»

ثمّ يبرّر تشاؤمه المطبق هذا، ليُبين مرّة أخرى عن العلاقة الوثيقة بين شعره ووطنه، فإذا هو قطرات مهجته تذوب في غرام الجزائر، وذلك حيث يقول في ختامها:

«زفراتُ مــحترقٍ، وصرخــةُ شاعرٍ،   عــافَ البــيانَ، وحــطَّمَ الأَقْــلاَمَا
لــم تــبــقَ إلاّ دمــعةٌ مــحتــارةٌ   فــي جــفنِهِ، لا تستــطيعُ كَــلاَمَا
لــو أنّــها نطــقــتْ لقالــتْ: إنّني   قطــراتُ مهجتِهِ تــذوبُ غَرَامَا»[1].

وفي آخر قصيدة قبل دخوله السجن، نظمها -باسم حزب الشعب الجزائريّ- لتحيّة الزعيم التونسيّ عبد العزيز الثعالبيّ عند عودته من منفاه، أكّد على العهد المقدّس الذي قطعه على نفسه في مؤتمر تلمسان سنة 1935، وزاد أن قرن به شعره وضميره ونفسه ووجوده، فجعل كلّ ذلك خالصا مخلصا في حبّ الجزائر، ثمّ يعلن عن استعداده والمناضلين في صفوف الحزب للجهاد والفداء في سبيل تحقيق سؤدد الجزائر وسيادتها، يقول في ذلك:

«وطنــي بالــدّمِ الزّكِــيِّ أُفَــدِّيــ   ــكَ، يــميــنًا شريــفةً وعُهُــودَا
وطنــي في هواكَ أخــلصتُ شِعري،   وضميــري، ومُهجتــي، والوُجُــودَا
وطنــي أنتَ جنّــةُ الــخلدِ في الأَرْ   ضِ، فهيــهاتَ في الــورى أنْ تَــبِيدَا
وطنــي إنّــنا ضــحاياكَ في السِّلْــ   ــمِ، وفــي الحربِ، بُغْــيَةً أنْ تَسُودَا
فــاتّخِــذْنَــا إذا أردتَ ســيــوفًا،   واحْــــرِقَــنَّــا إذا أردتَ وَقُــودَا
نــحنُ قــومٌ جدودُنا مــلَكوا الدُّنْــ   ــيَا، فهــيهاتَ أنْ نــعيشَ عَبِيدَا»[2].

وتأبى الحياة إلاّ أن تمتحنه امتحانا عسيرا في عهده المقدّس مع الجزائر، فبعد أن أبدع هذه القصيدة خلال شهر جوان 1937، جاءته رسالة والده في أوائل جويلية، يخيّره بينه هو وبين جهاده في سبيل وطنه، فوضعه في امتحان عسير بين واجبين واجب الوطن، وواجب طاعة والده التي هي من طاعة اللّه، فاختار الواجب الوطنيّ دون أدنى تردّد، يقول في رسالته إلى وكيل الأمّة الميزابيّة، السيّد زكري بن سعيد: «إنّ أبي يريدني أن أكون عضوا أشلّ في المعترك الحيويّ [...]، وأنا لا أريد هذه الحياة، ولم أخلق لها؛ وإنّما خلقت لأن أدافع عن بلادي، وأشترك في صفّ الجهاد والعمل في هذه الحياة، والسعي لخير بني جنسي، وللإسلام عموما؛ ولم أخلق لأعيش عيشة الخمود والاستكانة والموت [...]. وإنّني لا أتأخّر عن الجهاد ولو كانت الأرض كلّها ضدّي، وعوض أن يعينني بدعائه الصالح، ويأمرني [بـ]ـالصبر والجهاد، فهو يهدّدني، و[يتوعّدني]، ويريد أن ألبس لباس الحداد [...]. وإذا أراد أن يبقى على أفكاره، [فاتركوه]، فإنّني سأقطع كلّ علاقة بميزاب، سواء كانت عائليّة أو غير عائليّة، وسأسيح في

1- جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س03، ع117، 1356/02/01هـ، 1937/04/13م، ص03.

2- الشمال الإفريقيّ يتّحد، مفدي زكرياء، جريدة "الوطن"، س01، عدد 33، 1356/06/14هـ، 1937/08/22.

أرض اللّه مجاهدا عن بلادي ووطني، واللّه يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور»[1].

من الملفت للنظر في أغلب النصوص الشعريّة السابقة التي محضها للتغنّي بحبّه لوطنه، أنّها واردة في قصائد أنشأت في غير هذا الموضوع، ممّا يدلّ على غلبة هذا الحبّ على نفسه، وكون معاناة الجزائر هاجسا يقضّ مضجعه، فلا عجب أن يجد مسربا إليه في أيّ موضوع يطرقه، فها هو مفدي في آخر قصيدة قبل وفاته ينظمها في مدح الملك الحسن الثاني، في ذكرى ميلاده، فإذا هو يعرّج في جزء معتبر منها على أوضاع وطنه، وكان على خلاف كبير مع قيادته السياسية آنذاك، فما كان منه إلاّ أن اعتذر للممدوح في ختامها قائلا:

«مولاي -وعيـــدُك أرسلُه (خببًا)، والفرحـــةُ تُنشده-
عفوًا إن كنتُ مـــزجتُ به نَجـــواي بـــما أتكـــبّـــده
وقـــفَ العشّـــاقُ روافـــدَه للحبّ، فـــرُحْـــتُ أعـــدّده
شعبي وهوى قلبي شَرَعٌ[2]، **والـــمرءُ ومـــا يَتعوّدهُ**»[3].

لقد نشأ مفدي وتربّى على الإعلاء من قيمة أداء الواجب مهما كلّفه من تضحيات، وكان الواجب الوطنيّ أسمى واجباته، وقضية وطنه الجزائر بداية من هذه المرحلة حياته كلّها، ضحّى في سبيل أداء واجبه نحوه بمسؤولياته العائلية، فكانت سبب الخلاف بينه وبين والده؛ وعليه فإنّ ما كتبه في هذه المرحلة من نصوص أدبيّة لا تخرج من إطار العمل الوطنيّ بالدرجة الأولى، أو من أداء واجب ما، والاستثناء في ذلك لا يتجاوز مقالين هما: "ميّت حيّ" نشره في "النديم" يحكي فيه عن رجل اصطنع موته قصد الاحتيال، ومقال "الأعاصير في تونس" أصدره في "المرصاد"، وعنوانه يدلّ على محتواه.

كلّ ذلك جعل أدبه تابعا لمسار قضية وطنه، فمتى كان أمله فيها كبيرا انتعش أدبه وكثر إنتاجه، وإذا عاش في سبيلها فترة إخفاق وإحباط تأثّر أدبه بذلك، فانحسر وخفت صوته، فإذا هو يضحّي أيضا بحظّ نفسه في دنيا الأدب، فقد تمضي شهور من غير أن ينشر إنتاجا جديدا، ولو لمجرّد الإبقاء على حضوره في الساحة الأدبيّة، وكان آنذاك في بداية مسيرته في حاجة إلى إثبات ذاته فيها، والحفاظ بعد ذلك على مكانته فيها.

لعلّ فيما سبق ذكره إشارة ما إلى أثر حالة مفدي النفسيّة في إنتاجه من الناحية الكميّة زيادة ونقصانا، وهو ما تؤكّده حصيلة إنتاجه في هذه الفترة الثانية (1932-1939) مقارنة بسابقتها، إذ نخرج منها بملاحظة أولى أساسيّة هي: غلبة المقطوعة على القصيدة، بما يزيد على ضعف هذه الأخيرة، غير أنّنا إذا تتبّعنا هذه المقطوعات وجدناها في الأغلب الأعمّ ممّا تفرضه المناسبة، من ذلك المقطوعات التي نظمها في هجاء خصوم الحركة الإصلاحيّة في جريدتي

1- الرسالة، أرشيف السيّد زكري بن سعيد الخاصّ، بني يزقن.

2- الشرع: المثل. يقال: الناس في شرع واحد، وهم في هذا شرع، أي: سواء.

3- أمجادنا تتكلّم ... وقصائد أخرى318.

"المرصاد" سنة 1932 بثلاث مقطوعات، و"الجحيم" في سنة 1933 بإحدى عشرة مقطوعة؛ وعليه فالصواب أن نلاحظ هنا تراجع مفدي الواضح في كتابة القصيدة، مقارنة بالفترة الأولى (1921–1931).

وإذا ذهبنا إلى الجدول الخاصّ بمراحل المدّ والجزر في إنتاجه وجدنا مفدي ينتج في مراحل المدّ مجتمعة 78.65% من إنتاج المرحلة المدروسة في هذا البحث (1921–1939)، وهي لا تساوي زمنيّا سوى 23.72% منها؛ وقد بلغ أوج عطائه في الفترة الثانية (1932–1939)، في مناسبتين: الأولى: بين شهري أوت وأكتوبر 1932 بـــ 23 نصّا، والثانية بين شهري جوان وأوت 1937 بـــ 29 نصّا، وهما مناسبتان كانا أمله في قضية وطنه في أعلى مستوياتها؛ بينما أنتج في مراحل الجزر مجتمعة 21.34% من إنتاجه، في فترة زمنيّة تساوي 76.27% الفترة المدروسة، وبلغ درجة الصفر في هذه الفترة، في مناسبتين أيضا: الأولى: سنة ونصف أو تزيد، من مقاله "الوجه الجميل عنوان القلب الطاهر" المنشور في جريدة "الحياة"، بتاريخ 1933/05/12[1]، إلى افتتاح أشغال مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين الرابع بتونس يوم 1934/10/02، حيث شارك فيه بقصيدة هي من مفقود شعره؛ والثانية: ما يزيد على سنة كاملة في السجن، من رسالته الشعرية إلى صديقه قنانش بتاريخ 1938/02/26، إلى حين كتابته لمقاله "الأدب في السجن"، بعد تاريخ 1939/04/12، لينشر بعد ذلك في جريدة "تونس الفتاة"؛ وغنيّ عن البيان أنّ مناسبتي الانقطاع التامّ هاتين كانتا مرحلتي إحباط ويأس خيّم على مستوى حياته الشخصيّة بالدرجة الأولى.

كلّ ذلك يشير إلى أنّ الحالة النفسية شرط أساسيّ من شروط الكتابة الأدبيّة عند مفدي، وهذا ما يظهر بوضوح في كتابته للقصيدة، فقد لاحظنا مفدي منذ محاولاته الشعريّة الأولى يوطّن نفسه على كتابة القصائد المطوّلة؛ وشرط القصيدة المطوّلة عنده –في تقديرنا– شرطان: مناسبة مهمّة على نحو من الأنحاء تدفعه دفعا إلى النظم والإطالة؛ وأهمّ منه حالة نفسيّة مواتية، فإذا اختلّ هذا الأخير اختار أحد حلّين: أن يلوذ بالصمت، وهو الأغلب، كفعله في "يوم شوقي وحافظ"، وفي الكثير من المناسبات التي مرّت به في السجن أو خارجه؛ أو أن يلجأ إلى إنتاج سابق يجري عليه من التعديلات ما يجعله ابن ساعته، وهو الأقلّ لأنّه لا يسعفه كلّ مرّة[2]؛ وممّا يدلّ على أهميّة الشرط الثاني عند مفدي انقياد الشعر له، فكم من نصّ شعريّ ارتجله ارتجالا، ولعلّ خير شاهد على هذا الاقتدار في نظم الشعر، ما رواه هو نفسه، عن مقطوعة ارتجلها في مأدبة أقيمت على شرف المشاركين في المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، بتلمسان سنة 1935م، وذلك إذ يقول: «[...] ولم تسلم هذه المائدة إلاّ من معدة الأستاذ الإبراهيميّ الذي بات يشكو ألما من جرّاء سقطة سقطها من حماره البليد، أو معدة الأستاذ ياسين (الدِّليكَات) التي ما ألفت غير (البشكوطو والحليب). أمّا الأستاذ الإبراهيميّ فقد شغله عن الأكل سماع هجاء

1– وتأليفه كان سابقا لهذا التاريخ بكثير، إلى ما قبل أفريل من نفس السنة على الأرجح.

2– أمثلته قليلة من غير هذه المرحلة؛ من ذلك قصيدته "ته يا عمان بنصر الله" سنة 1926، فهي نفسها قصيدة "تحيّة البعثة الميزابيّة لجلالة الملك تيمور بن فيصل" لسنة 1925، مع تعديلات طفيفة؛ ولهذا الأمر نظائر قليلة في مراحل شعره اللاحقة.

حماره من شاعرنا مفدي زكريا الذي كان ينظم الكلام نظما، ويقضم الطعام قضما:

يا حـــمارَ (الشّيخِ) لا نـــلتَ الـــمُنَى أُبْتَ بالـــجوعِ، وبالضّـــربِ الوَجيعِ،
كيف أسقطـــتَ على الأرضِ امْـــرأً، وهْـــو ذو قـــدرٍ عـــلى الأرضِ رَفيعِ،
تتـــمنّى الشّـــمسُ لـــو تغـــدو لـــهُ كحـــمارٍ هـــادئِ الظَّـــهْرِ وَديعِ»[1].

إنّ عدد قصائد هذه الفترة التي ساوى عدد أبياتها أو تجاوز 35 بيتا قد انخفض إلى ما دون نصف ما أنتجه منها في فترة (1921–1931)[2]، من 17 قصيدة إلى 07 قصائد فقط: ثلاثة في سنة 1932[3]، وواحدة في سنة 1934[4]، وأخرى بعد سنة كاملة، في مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين بتلمسان[5]، واثنتان في 1937[6]،كلّ ذلك بالرغم من غنى هذه الفترة بالأحداث، وتطوّر مفدي فنيّا وإبداعيّا.

وعليه، فإنّ إبداع مفدي للشعر كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بحالته النفسيّة، فإذا كان في حالة نفسيّة مفعمة بالأمل غرف في شعره من بحر فأطال، وإذا أصابه اليأس والإحباط صمت وهو الأغلب، أو كتبه اضطرارا على نحو من الأنحاء، فنحته من صخر، فلا يكون –تبعا للمناسبة– إلاّ مقطوعة، أو قصيدة محدودة الطول؛ ولم يكن ممّن يحاول استثمار جميع أحواله النفسيّة في إبداع الشعر. وكان إلى جانب ذلك إيجابيّا في أدبه لا يرشح من لحظات ضعفه وانكساره فيه إلاّ نزر قليل، خاصّة ما كان شخصيّا، لذلك تعتبر مقطوعته الشعريّة "شكاة إلى الربّ تعالى" من أندر نصوصه في التعبير عن حزن وألم وهمّ شخصيّ؛ ويبدو أنّه لم يكن ميّالا بطبعه إلى الشكوى حتّى في حياته الشخصيّة، وكان يربطه بمقتضيات الرجولة التامّة من جلد وقوّة وتماسك في النائبات، وعدم إظهار أدنى شعور بالضعف؛ فعندما أرسل إليه والده رسالته التي يتبرّأ فيها منه إن تمسّك بالعمل السياسيّ مع الحزب، لم يفض بمصيبته هذه حتّى لأقرب الناس إليه، والده الروحيّ، أستاذه الشيخ الثمينيّ، واكتفى برسالة إلى وكيل الأمّة الميزابيّة، وكانت عمليّة تسعى لإيجاد حلّ للمعضلة بعيدا عن الشكوى والأنين، بالرغم من أنّ أثرها ظهر في بعض تصرّفاته آنذاك[7].

أمّا الملاحظة الثانية الأساسيّة على حصيلة إنتاجه في هذه الفترة مقارنة بسابقتها فهي: غلبة فنّ المقال على النصوص الشعريّة، حتّى مع حساب النصوص المفقودة، وإنّه ليجد تفسيرا أوليّا له في التجارب التي خاضها في

1– المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، من غير إمضاء، جريدة "الأمّة"، س01، ع45، 1354/07/09هـ، 1935/10/08م، ص01.

2– أمّا عدد ما أنتج من القصائد مطوّلة وغير مطوّلة فهو 30 قصيدة في الفترة الأولى(1921–1931)، و14 قصيدة في الفترة الثانية(1932–1939).

3– هي: قصيدة "تحية المرصاد" 35 بيتا، في جانفي؛ وقصيدة "فهذا فؤادي وهذي يدي" 63 بيتا، في جويلية؛ وقصيدة "نهوضا بني إفريقيا من سباتكم" 45 بيتا، في أوت.

4– هي قصيدة "طربت أمس هناء" 45 بيتا، في شهر أكتوبر.

5– هي قصيدة "أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا" 60 بيتا، في شهر سبتمبر.

6– هما: قصيدة "بردة الوطنية الجزائريّة" 72 بيتا، في مارس؛ وقصيدة "الشمال الإفريقيّ يتّحد" 71 بيتا، في جوان.

7– ينظر: الباب الثاني، ص230.

عالم الصحافة، ولكن بصفة غير دائمة، فكان مراسلا لجريدة "النهضة" سنة 1932، حرّر لها 15 مقالا، بين جويلية 1932 ومارس 1933؛ وساهم في سنة 1933، في تحرير جريدتي "الحياة" و"الجحيم"، فدبّج خمسة مقالات للأولى، وثمانية للثانية؛ وكان مدير تحرير جريدة "الشعب" 1937، في عددها الأوّل، فكتب مقالاته الخمسة؛ كما أنّ انعدام صحافة عربية وطنية في الجزائر موالية، أو حتّى متعاطفة مع "حزب الشعب الجزائريّ"، اضطرّته إلى نشر مقالاته في جريدتي "الزهرة" فـ"النهضة" التونسيّتين، وذلك في بيان موقفه من المؤتمر الإسلامي، ومحاولة إسماع صوت الحزب للجزائريّين ذوي الثقافة العربيّة، فكتب 15 مقالا بين جويلية وأوت 1937: اثنان في "الزهرة"، والبقية في "النهضة"[1].

إلاّ أنّ هذا التفسير يبقى غير كاف لأنّ هذا التوجّه لكتابة المقال الصحفي كان مقابل تراجع ملحوظ في كتابة القصيدة، وتمّ في مرحلتين من مراحل المدّ اللّتين عرفتهما الفترة التي نحن بصدد دراستها[2]، أي: في مرحلتين كان فيهما في حالة نفسيّة مواتية، فانصرف -وهو الشاعر المقتدر في فنّه- إلى كتابة المقال، على نحو غير مسبوق، فحرّر في الأولى 36 مقالا، ولم ينظم سوى 08 قصائد؛ وعدد مقالات الثانية 32 مقالا، ولم يزد عدد قصائدها على 04 قصائد:

أمّا المرحلة الأولى فكانت قرينة أمل جديد في نفس مفدي بعد الإحباط الذي أصابه عندما آل العمل الوطني المزابيّ إلى طريق مسدود في ماي 1925، تولّد فيه مع تأسيس "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، ويكفي دلالة على ذلك مقالاته العديدة عنها، وعن نشاطاتها على أعمدة جريدة "النهضة"[3]، حتّى قال في أحدها بصريح العبارة: «وإنّ للنهضة [يعني: جريدة "النهضة" التونسيّة] ليدا بيضاء عند الأمّة الجزائريّة لا تُنسى، لمناصرتها في مشروعها الوحيد الذي تراه أقدس مشروع، تفديه بكلّ ما ملكت يداها، ألا وهو مشروع "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين»[4].

وبذلك شهد مفهوم العمل الوطنيّ نقلته النوعيّة عند مفدي، إذ أصبح عملا وطنيّا جزائريّا، بعد أن كان محصورا في وطنه الصغير مزاب، وقد برز هذا المفهوم بوضوح لأوّل مرّة في قصيدته المطوّلة "فهذا فؤادي وهذي يدي" في جويلية 1932، وقد سبقت أبيات منها توجّه فيها إلى شباب الجزائر، منها قوله:

---

[1]- مجموع هذه المقالات 48 مقالا، وسائر المقالات نشرها تباعا: 13 في "الأمّة" ما بين سبتمبر 1935، وجوان 1937؛ و03 في كلّ من "النور"، و"النهضة"، و"تونس الفتاة"؛ ومقالان في كلّ من "المرصاد"، و"النجاح"، ومنشوران خاصّان بحزب الشعب الجزائريّ؛ ومقال واحد في "النديم"، و"الثبات"، و"البصائر".

[2]- أعني: المرحلة الأولى: من نوفمبر 1931 إلى ماي 1933؛ والمرحلة الثانية: من أوت 1936 إلى أوت 1937.

[3]- ينظر على سبيل المثال: ص466-468.

[4]- مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين – ما يجري بالجزائر، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س10، ع2912، 1351/07/12هـ، 1932/11/11م، ص02.

«شبـــابَ الـــجزائـــرِ، جـــندَ البلادِ، ويـــا فـــخرَ حاضـــرِها الأمـــجـــدِ
أُســـاةَ جِـــراحـــاتِـــها الدّامـــياتِ، وكـــعبـــةَ آمـــالِـــهـــا فـــي غَـــدِ
ومَـــن يفتـــديـــها بـــروحٍ ومـــالٍ، ونِعْمَ الـــحيـــاةُ إذا تَـــفْـــتَدِي»[1].

ويقول في نفس مقاله السابق "مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، وفي مفتتحه ما يلي: «تميس العاصمة، وتزدهي هذه الأيّام بإيوائها ثلّة من علمائها الأماجد، العاملين بحقّ وإخلاص في سبيل سعادتها، مهما كلّفهم ذلك من التضحيات، وهم الذين يحملون أمانة الوطن الجزائريّ الثقيلة فوق أعناقهم، وينفرون بها خفافا وثقالا، مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل إبلاغها لمن أرسلت إليه، **ألا وهو النهوض والتقدّم تحت ظلال الدّين القويم إلى حيث الحريّة الغالية**»[2].

إلاّ أنّ هذا الهدف الأخير -وهو الحرية الغالية والاستقلال- الذي حدّده للجمعية، لم يكن هدفها آنذاك على الأقلّ، وإنّما كان هدفَه الأسمى هو بحسب مفهومه للعمل الوطنيّ الجزائريّ، وبسبب منه دعا شباب الجزائر إلى فدائها بأرواحهم وأموالهم ليكونوا كعبة آمالها في غد، واعتبر الحياة مع الفداء أفضل حياة، وهو ما يدلّ على أفق نضاليّ سام، ووعي سياسي رفيع تسنّمهما في تلك الفترة المبكّرة من عمر شابّ في الرابعة والعشرين ربيعا، وعمر الحركة الوطنيّة، من غير أدنى صلة بأيّة حركة سياسية جزائريّة كـــ"نجم شمال إفريقيا"، أو غير جزائريّة، تتبنّى هذا التوجّه في نضالها؛ وهو ما خوّل لمفدي -في تقديرنا- مخاطبة الرئيس الأسبق أحمد بن بلّة، في رسالته إليه، بتاريخ 17 ماي 1956، قائلا: «ثانيا[3]: أنّي أقدم منك نضالا، فقد كنت من الرعيل الأوّل الذي غرس روح الوطنيّة، وبثّ الفكرة الاستقلاليّة بالجزائر سنة 1935، أيّام كانت الأرض والسماء كلّها ضدّنا، وأيّام كان الكثير من المتصرّفين في مصير الشعب اليوم: إمّا أطفالا في المدارس يردّدون أناشيدي، وإمّا موظفين في إدارات، أو مجنّدين في صفوف، أو لم يولدوا بعد»[4].

إنّ هذا الوعي السياسي والنضاليّ إنّما اقتبسه، وتربّى عليه، من مواكبة العمل الوطنيّ المزابيّ، في فترة دراسته بتونس، وكان لشيوخ البعثة دور معتبر فيه، وقد كان لا يسعى إلى أقلّ من انتزاع اعتراف الاستعمار الفرنسيّ باستقلال مزاب، وأنّه بلد حماية كتونس، ومنه ضرورة إقرار دستور خاصّ به، ولذلك درج مفدي في شعر تلك المرحلة ونثره على السواء -على ما مرّ بنا[5]- على توظيف ألفاظ الاستقلال والثورة والفداء والكفاح والجهاد،

1- جريدة "النور"، س01، ع43، 1351/03/22هـــ، 1932/07/26م، ص03.

2- جريدة "النهضة"، س10، ع2912، 1351/07/12هـــ، 1932/11/11م، ص01.

3- يعني: الاعتبار الثاني من الاعتبارات الثلاثة التي جعلته يخاطب الرئيس في بداية رسالته قائلا: «ابني العزيز أحمد بن بلّة».

4- رسالة تاريخيّة: رسالة مفدي زكرياء إلى رئيس الجمهورية الأسبق أحمد بن بلّة، بتاريخ 17 ماي 1965م، تقديم وتحقيق: أ/مصطفى بن الحاج بكير حمودة، جريدة "اليوم" الجزائريّة، س05، ع1272، يوم الإثنين 07 أفريل 2003م، ص10.

5- ينظر: الباب الرابع، ارتباط أدبه بالعمل الوطني المزابيّ، ص426-434.

بدلالات جدّ واضحة تدلّ على وضوح مفاهيمها في ذهنه، ويمكننا أن نذكّر هنا بالخريطة التي رسمها لما أسماه "المملكة الميزابيّة العليّة"، وذيّلها بهذه الأبيات المعبّرة:

[مـــيزابُ يا][1] بـــــلادي وتُـــربـتـــي الـــزكـــيّـــهْ
لا يـــنـــقـــضي جهـــادي أو أبـــلـــغ الـــمـــنـــيّـــهْ
حـــبّـــك فـــي فـــؤادي عـــروتـــه قـــــويّـــــهْ
يـــا روضـــة الأجـــــداد والجـــنّـــة الأرضـــيّـــهْ[2].

هذا الوعي عبّر عنه بكلمة واحدة في المؤتمر الخامس لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، في تلمسان سنة 1935، سنة كاملة قبل انخراطه في "نجم شمال إفريقيا"، هذه الكلمة هي "الثورة"، جاءت جوابا على سؤال محمد الهادي السنوسيّ لجمعية الطلبة: كيف يمكن تنفيذ القرارات التي تتّخذونها؟ واعتبرها راوي الحادثة[3]، قنانش محمد، "قنبلة" فرقعها شاعرنا، «بكلّ بساطة وببرودة تامّة»، وكان تبريره لوصفها بمثل هذا الوصف كالآتي: «وكلمة "الثورة" هذه كانت بالنسبة لي، ولأغلبية الحاضرين شيئا جديدا، وكانت غريبة عن مجتمعنا؛ فالثورة لم تكن تذكر إلاّ في كتب التاريخ، أو كحلم لبعض الشعراء والفلاسفة، أما ونحن في الجزائر، وفي السنة التي يرسّم فيها قانون "رينيي" [Régnier] الخاصّ بالسياسيّين، بعد قوانين الأنديجينا، وقانون الغاب، وبعدما وقف شيخ البلدية، المعمّر الكبير "فالور" ضدّ انعقاد جلسات المؤتمر بقاعة البلدية [...]»[4].

لقد استبشر مفدي خيرا بميلاد "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، وكتب عنها، وعمّا يتّصل بنشاطاتها ما يقرب من 10 مقالات، ووقف إلى جانبها في حربها ضدّ الطرقيّين في صفحات جريدتي "المرصاد" و"الجحيم"، حتّى لقد كتب في ختام رسالته إلى أحمد بوشمال، بتاريخ 1933/04/07، بسبب كونه عضوا في هيئة تحرير جريدة "الجحيم"، وكانت تطبع في "المطبعة الجزائريّة الإسلاميّة"، للشيخ عبد الحميد بن باديس، ما يلي: «والسلام على علاّمة الجزائر، **رئيسنا** المحبوب، الأستاذ عبد الحميد بن باديس، دام حفظه»، بما يدلّ على شعور منه بانتماء ما إلى الجمعية، ممثّلة في شخص رئيسها؛ ولكن وبالرغم من كلّ ذلك فإنّه من الملفت للانتباه أنّه لم يكتب في الجمعية قصيدة واحدة، وإنّما ورد ذكرها عرضا في تحيّته لجريدة "المرصاد"، وصاحبها عبابسة الأخضريّ، وذلك إذ يقول:

«خُذاها علـــى نـــدوةِ السِّحْرِ ســـلافًـــا ألـــذَّ مِـــنَ الكَوْثَرِ
وطُوفـــا بـــها، وانْهَـــلاني على حياةِ (عَبَابِـــسَةَ الأَخْضَـــرِي)

---

[1]- في الأصل: «أميزاب».

[2]- هديّة العدد الممتاز، مجلّة "الوفاق"، مج03، ج30، 1344/01/01هـ، [1925/07/22م].

[3]- ينظر تفصيلها: الباب الثاني، ص157، 158.

[4]- حزب الشعب الجزائريّ265؛ وينظر: نجم الشمال الإفريقيّ65.

وقُــومــا (لجــمعيةِ العُــلَمَا) قيامَ الــحجيجِ إلى الــمَشْعَرِ
أَلِــمَّــا بــإيــوانِها ساعــةً، وعُوجا على (الطَّيِّبِ) العَبْقَرِي»

إلى أن يقول:

«جــرى فَلَكٌ، واستدارَ الزّمانُ، وأَبْدَلَ صــفــوًا عــلى كَــدَرِ
وأشرقَ بالنّــورِ عصرٌ جــديدٌ، فــأهــلاً بمَــقْدَمِــه النَّــيِّــرِ
[...] وأيقظَ فــي الشّــرقِ مَأْسَــدَةً، فألقــتْ بكلِّ فَــتًى قَــسْــوَرِ
وجاءَ (الــجزائرَ) فتيةُ صدقٍ، كــما جاءَ (مُوسَى) على قَدَرِ
فأنبتَ ريشًا مهيضُ الــجناحِ، وأورقَ غصنٌ عــلى ثَمَرِ»[1].

لقد كان مفدي يقدّم رجلا ويؤخّر أخرى في علاقته بـ"جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، فقد كان مقتنعا أتمّ اقتناع بجهادها في بثّ الوعي الدينيّ، ونشر اللغة العربيّة، كمقوّمين أساسيّين في الشخصيّة الجزائريّة، في أوساط المجتمع الجزائريّ، وفي ناشئته خاصّة، إلاّ أنّها لم تكن تلبّي طموحه في العمل الوطنيّ الجزائريّ، وهدفه منه ألا وهو مقارعة المستعمر بهدف افتكاك الاستقلال والحرّية، وكانت حربها ضدّ الطرقيّين لا تخدم هذا الهدف في شيء.

كان مفدي -في تقديرنا- يشعر بذلك شعورا غائما، غير واضح، واستجابة لهذا الشعور تحفّظ شيئا ما في علاقته بالجمعية، فاكتفى بدور المتعاطف معها، والمساند لجهادها، من غير أن ينخرط في صفوفها، بالرغم من صداقاته مع ثلّة من شبابها الناهض؛ ويشهد لذلك تذبذب موقفه من دعوة صاحب جريدة المرصاد لمحاربة الطريقة العليويّة، فقد استجاب لها في مقاله "ها أنذا! لبّيك يا مرصاد"، فبيّن في بدايته الداعي إلى دخوله لأوّل مرّة هذه المعركة في أكتوبر 1932، حيث يقول: «وما كنت لأرفع قلمي، للمرّة الأولى، في وجه هؤلاء الفلتاء، لولا الاستجابة لذلك الداعي الأمين الذي دعاني، والذي يجب أن ألبّيه، أحببت أم كرهت، لأنّه صوت صادق، صادر من فؤاد ملؤه إخلاص، ووطنيّة، واستماتة في سبيل الذود عن شرف الدّين والوطن، ألا وهو صوت "المرصاد" [...]، لذلك تراني أجيبك بملء فمي، وبفكري ولساني وقلمي ها أنذا، ها أنذا»؛ ثمّ يستمنحه العفو أن يهمس في أذنه كلمة واحدة، وله الرأي بعدها، وهو معه في الحالتين أكبر مناصر، وأصدق معين، فإذا هو يطلب منه أن يترفّع عن مواجهة أولئك، لأنّ الأمّة «أحوج إلى تلك الأعمدة البيضاء، لترسم عليها صحائف من نور، تقدّمها غدا بين يدي أحفادها، في مستقبل أيّامها الرهيب. الأمّة في حاجة إلى مرصادها، وإلى قلم مديره الصادق في غير هذا الميدان، فأحر بك يا مولاي أن تولي وجهك شطر الأبحاث الحيويّة الحقّة، وأن تستخدم مواهبك الطيّبة في النهوض بأمّتك: إلى تأسيس المعاهد العلميّة، والمدارس الحرّة، لتثقيف عقول أبنائها، وتطهير أدمغتهم من أدران الجهل الوبيل؛ إلى تأسيس النقابات التجاريّة، لإيقاف هذا الأفعوان التجاري الفاغر فاه لالتقام البقية الباقية في أيدينا من ثروات؛

1- تحية المرصاد، جريدة "المرصاد"، س01، ع04، 1350/09/13هـ، 1932/01/22م، ص03.

إلى إنشاء النوادي الأدبيّة لربط صلات التعارف بين عائلة الأدباء، /المشتّتة هنا وهناك؛ إلى مقاومة الأخطار الاجتماعية التي تهدّد قوميتنا، وديننا الإسلاميّ المجيد، كانتشار الخمور، والموبقات بين الأفراد والجماعات؛ إلى مقاومة التعصّب المذهبيّ؛ إلى مقاومة الأميّة الفتّاكة، ودعنا من مصارعة هذه الحشرات الساقطة المحتقرة، فقد فهمت الأمّة صغيرها وكبيرها، ذكرانا وإناثا، مقدار هاته الجراثيم الوبيئة، وأصبحت ترمقها بعين الازدراء والمقت والاحتقار، وكفى هذه نتيجة أعمالك إلى اليوم، فطب بها نفسا، وضع مرصادك في المكان الأعلى الذي خلق له، وهلمّ بنا إلى الجدّ. أمّا استرسالك في هذا السبيل فما يزيدها إلاّ تماديا في العتوّ والفساد [...]، فلنتكبّر عليها، ولنحتقرها، ولندسها بأرجلنا، ولنتخطّ هامتها إلى أشرف غاية، وأنبل مقصد، فأوقاتنا غالية، ومهمّاتنا خطيرة، و لم تدع أقدام الليالي متّسعا للهزل، إنّه لقول فصل!!»[1]. وعليه، فإنّ استجابته كانت بداعي التقدير لجهاد الصحيفة في ميدان الإصلاح الدينيّ والاجتماعيّ، واحترامه لصاحبها، وليس بداعي الاقتناع بهذا السبيل الذي انتهجته الصحيفة، بالرغم من التناقض الصارخ بين استجابته وقوله الفصل، وهذا يدلّنا على أنّ مفهومه للعمل الوطنيّ الحقيقيّ الذي يبتغي الاستقلال، كان يعوزه السند في محيطه، فكان يكتفي ببثّه في أشعاره وكتاباته، من غير أن يغذّي مواقفه، لعدم انتمائه إلى حركة أو جمعية تسنده، فكانت صيحة في واد، إذ كان هذا المفهوم غريبا –بتعبير قنانش– عند كثير من الجزائريّين حتّى في أوساط مثقّفيهم.

ولّما ظهر "نجم شمال إفريقيا" بفكرته الاستقلاليّة في الساحة السياسية الجزائريّة، ظهورا فعليّا بعد خطاب زعيمه مصّالي الحاج، يوم 1932/08/02، وجد مفدي في النجم السند القويّ، فانخرط فيه بكلّ ما أوتي من قوّة، ومن غير تروّ، أيّاما معدودة بعد الخطاب، فصدع في أحضانه بأفكاره الوطنية والثوريّة –على ما سنبحثه لاحقا–، وبملء فيه، من ذلك قوله على لسان الزعيم مصّالي في بلاغه إلى الأمّة الجزائريّة الكريمة، في نوفمبر من سنة 1936: «يعتمد البعض منكم في الدعاية ضدّنا، أنّنا متطرّفون متهوّرون نطلب الاستقلال..!! نعم نطلبه بكلّ شرف، ولكن بالسعي في سبيله، ولسنا نطلبه اليوم، بل نقول لكم: إنّ برنامجنا هو السعي لتحرير الجزائر بالوسائل المشروعة، و لم نحدّد لذلك أجلا، بل إنّ الخطّ الذي نسلكه في جهادنا هو خطّ التحرير، وليس خطّ الاندماج، والتجنيس، وشتّان بين السعي والتنفيذ، فالأيّام وقوّة الشعب وحدهما كفيلان بتحديد أجل التنفيذ، واللّه من وراء ذلك محيط»[2].

وقد أبرز مفدي في مقاله "ملاحظات نزيهة من رسالة صديق"، من أعماق سجن الحرّاش سنة 1939، رأيه الصريح في جمعية العلماء، وخاصّة في حربها ضدّ الطرقيّين، فقال: «نعم، نحن لا ننكر وجود حركة قويّة إصلاحيّة بالجزائر، ولكنّنا نراها من بعض النواحي عقيمة النتيجة بشهادة الواقع، فليس من الحكمة أن نحصر كلّ همّنا،

1– المقال، ديك الجنّ، جريدة "المرصاد"، س01، ع29، 1351/06/20هـ، 1932/10/21م، ص02، 03.

2– ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7512، 1936/11/30، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من البلاغ، في صفحة واحدة بحجم صفحة جريدة، متكوّنة من ثلاثة أعمدة.

ونقصركلّ قوانا عشرات السنين في محاربة زوّار الأضرحة، وعبّاد القبور، فهنالك ناحية أهمّ من هذه يجب أن نصرف كلّ قوانا فيها، ألا وهي ناحية الاستعمار الذي تركنا قبورا، تمشي على رجلين.

وإنّ محاربة الطرقيّة من طريق إنماء الروح الوطنيّة في طبقات الشعب أنجع من محاربتها رأسا، ومجابهتها وجها لوجه، والشواهد على ذلك كثيرة في الشرق. فإنّ الذي يعتنق الفكرة الوطنيّة، ويدرك واجبه نحو بلاده، لا يستطيع بحال أن يبقى طرقيّا خرافيّا يؤمن بالخيال. إنّ محاربة الطرقية وجها لوجه بالجزائر، لم يقتلها، ولم يضعفها، بل بعكس ذلك قد حمّسها، ووحّد صفوفها، وجمع قواها، فبعد أن كان القادريّ عدوّا للرحمانيّ، والتيجانيّ عدوّا للعليويّ، أصبحوا اليوم كتلة واحدة، وجبهة متراصّة منظّمة، فكوّنوا لهم جامعة بالجزائر، تسمّى "جامعة اتّحاد الزوايا"، لها جريدة رسميّة تحت اسم "الرشاد"، وكوّنوا لهم نوادي عصريّة منظّمة، ومطابع، وجرائد مختلفة، لكلّ طريقة جريدة خاصّة، وصاروا يعقدون المؤتمرات كلّ سنة، يحضرها حتّى المخذولون من مشائخ تونس والمغرب الأقصى، فهل كان الطرقيّون يعرفون شيئا من هذا لو أنّ شدّة المقاومة علّمتهم الاتّحاد والنظام؟ أليس من الحكمة أن يلجأ إلى تقويض معالمهم من أساسها، بطريقة أصلح من هذه الطريقة التي ظهر فسادها وفشلها بالعيان، وبشهادة أحد العلماء أنفسهم السيّد حمزة بوكوشة، في جريدة البصائر عدد 146، إذ يمنّ على الطرقيّين بأنّ من مزايا جمعية العلماء عليهم أن وحّدهم بعد تفرقة، وجمعتهم بعد شتات، وصالحتهم بعد قطيعة، ونظّمتهم بعد فوضى.

إنّ الطالب الجزائريّ الذي يعرف حرفين بالعربية، أصبح اليوم ولا همّ له إلاّ التطوّع جنديّا في محاربة الطرقيّين، كأن ليس عليه من واجبات غير هذه، وكأنّ شعبه لا يشكو إلاّ من هذه الناحية، وكأنّ الاستعمار لا يعنيه في قبيل ولا دبير. والأديب الجزائريّ -من ناثر وشاعر- أصبح اليوم لا يعرف غير لغة: البدعة، الضلالة، القبور، القبب، الزردة، الوسيلة. وإنّك لتشاهد في مجموع الشعر الجزائريّ طابعا خاصّا (لاهوتيّا)، لا يكاد يخرج من بين القبور، وهكذا سرت "العدوى الإصلاحيّة" حتّى في الأدب الذي هو رسالة جيل اليوم لجيل الغد. وأتذكّر في هذا الباب نكتا شيّقة منها: أنّ الأستاذ محمد السعيد الزاهريّ، نظم قصيدة يرثى بها شوقي وحافظ، ليلقيها في حفلة التأبين التي أقمناها للشاعرين الخالدين بنادي الترقّي سنة موهما، فأجهد نفسه أن يتخلّص من قيود "الإصلاح" في شعره، ليأتي بقصيدة أدبيّة خالصة، فما استطاع إلى ذلك سبيلا، وبالرغم عن نبوغه واقتداره، لم يجد بدّا من ذكر "القبب" في قصيدته الرثائية، فقال:

ولو كان لي أمر ذكراهما   لإحيائها الدهر، طول الحقب
بنيت لذكراهما قبّة،   وإن كنت أنكر أمر القبب»[1].

هو مفدي بعد سنوات من موقفه الأوّل الذي طبعه التذبذب، وجد -فيما يبدو- في السجن فرصة للتأمّل

---

[1]- حزب الشعب الجزائري235، 236.

والتدبّر والتفكير، ليزيد قوله الفصل السابق وضوحا، ويتابع انعكاسات هذا النهج الذي ترسّمته الجمعية في سلوك خريجّي جامع الزيتونة، وفي دنيا الأدب؛ والفرق بين المقالين هو أنّ الأوّل توقّف فيه مفدي عند بيان رأيه، من غير أن ينعكس في سلوكه وموقفه، لغربة فكره الثوريّ في مجتمعه؛ والثاني كان مفدي يكتبه، وهو مستند إلى نضال قلب الوضع السياسيّ في الجزائر في شهور قليلة، وكان أحد أبرز الفاعلين فيه، والمقال نتيجة من نتائجه.

كلّ ذلك مكّنه –في رأينا– من كتابة المقالات العديدة في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين" لأنّ النثر –ومنه فنّ المقال– لغة العقل؛ ولم يكتب فيها قصيدة واحدة في تلك المرحلة، لأنّ الشعر لغة الشعور، وشعوره إزاءها كان متحفّظا –ولو على نحو غائم غير واضح– لعدم انسجام مسلكها مع قناعاته الصميمة في العمل الوطنيّ الجزائريّ، فقد أخلص –كما مرّ بنا قريبا– شعره وضميره ومهجته ووجوده في هوى وطنه الجزائر، ممّا يجعل أولوية الأولويات في هذا العمل –بحسب هذا التصوّر– هو مقارعة الاستعمار أوّلا وأخيرا.

أمّا المرحلة الثانية التي شهدت فيها القصيدة تراجعا ملفتا للانتباه في إنتاج مفدي، فإنّه كان فيها في خضمّ نضاله في صفوف "نجم شمال إفريقيا"، ثمّ "حزب الشعب الجزائريّ"، ولم يكتب فيها أكثر من أربع قصائد، غير أنّ ثلاثة منها كانت في الحركة السياسية التي كان قائدها في الجزائر، ابتداء من النشيد الوطنيّ الجزائري "فداء الجزائر" في أكتوبر 1936، فــ"بردة الوطنية الجزائريّة" في فيفري 1937، وانتهاء إلى "حزب الشعب الجزائريّ يحيّي الثعالبيّ" في جوان 1937؛ بينما حرّر 32 مقالا، ستّ وعشرون منها كان حول حركة مصّالي الحاج: أقلّها عن النجم، وأغلبها عن حزب الشعب؛ وكان مفدي خلالها مفعما بحالة نفسية جدّ مواتية، ولا أدلّ على ذلك من كون القصيدتين الأخيرتين من المطوّلات، فقد تجاوز عدد أبيات كلّ واحدة منهما 70 بيتا، وآخر قصيدتين قاربتا هذا الرقم كانتا قصيدته "فهذا فؤادي وهذي يدي" في جويلية 1932، في 63 بيتا، وقصيدته "أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا" في سبتمبر 1935، في 60 بيتا.

لقد شغلت مفدي مسؤوليات الحزب الوطنيّ الجزائريّ كما يسمّيه، إذ كان رئيسه بالجزائر، في غياب زعيمه مصّالي الحاج؛ وأبرز مهمّة اضطلع بها، والتبست به لعدم وجود من يخلفه فيها، هو فرض الحزب في الساحة السياسية الجزائريّة، وإعلاميّا، بلغة الضادّ، لأنّ أغلب مناضلي ومسؤولي النجم وحزب الشعب من بعده كانوا أميّين –بتعبير مفدي– في اللغة العربيّة الفصحى، فقد كانت لغة المستعمر طاغية في جميع أدبيات الحزب؛ وقد كشفنا في الباب الثاني عن سعي مفدي الحثيث إلى جعل الحزب جزائريّا صميما، بنقل نضاله من فرنسا، إلى الجزائر، ليكون الوطن هو الأصل، وأرض العدوّ هي الفرع؛ وأن تكون اللغة العربيّة في هذا النضال سيّدة لا أن تكون أدنى مرتبة فيه من لغة المستعمر، كلّ ذلك ليكون الحزب أكثر انسجاما مع مبادئه فيما يتعلّق بالشخصية الجزائريّة، فأدرج الحرف العربيّ في أدبياته على نطاق واسع، لأوّل مرّة في تاريخه: طبع به عددا من مناشيره وبياناته، ونظم نشيده الوطنيّ، وأصدر جريدة "الشعب"، وأنشأ جمعية "القلم" لتعليم المناضلين أساسيات اللغة العربية، وكتب عنه هذا

العدد المعتبر من المقالات في الصحافة التونسيّة خاصّة.

لقد كان مفدي عاشقا للغة العربيّة، صبّا بها، وحسبنا دلالة عليه قوله في قصيدته "نهوضا بني إفريقيا من سباتكم" في سنة 1932:

«بني الشّرقِ هَلاَّ -اليومَ- نظرةُ راحمٍ | إلــى لغــةٍ، أمســتْ رهيــنةَ أَصْفَادِ
إلى لغــة تشــكو عــقوقَ رجالِها، | وقد أصبــحتْ للغيرِ كعــبةَ قُصَّــادِ
ألاَ تــرقُبــون اللّهَ فيــها، فــإنّهــا | لسانُ كتــابٍ مِن هُــدى اللّهِ وَقَّــادِ
هيَ البلبلُ الصّــدّاحُ مِن عهــدِ (آدمٍ) | على غُــصُنٍ ريّانَ، بالــوحيِ مَــيَّادِ
هي الــمثلُ الأعــلى، وينبوعُ حكمةٍ، | بها ضربــتْ دون اللّغــاتِ بــإِسْدَادِ
فلا غَرْوَ أنْ أصبــحتُ صَبًّا بــحبِّها، | ولا بدْعَ إنْ أصبحتُ بُلْبــلَها الشَّادي
ولا غَــرْوَ أنْ ملَكتُ طــوعًا رِقابَها، | وصرَّفــتُ في تقليبِها كــفَّ تَــنْقَادِ
وسُقْــتُ سفينــي فــوقَ لُجَّةِ بحْرِها، | وألقيــتُ دَلْــوي عــندَها معَ وُرَّادِ
وكلّلْتُ مِــن شعــري جبينَ حياتِها، | وأرغمتُ مِــن أبــنائِها أنفَ حُسَّادي
ألاَ فَلْتَعِــشْ، ولْيَحْــيَ نادي شبابِها، | فقولوا معي: آمينَ، يا فتيةَ النَّادي»[1].

وعندما انخرط في "النجم" لاحظ الاختلال الذي كان يعاني منه حزبه بسبب ظروف نشأته الخاصّة، فعمل بداية على تركيز هذا المقوّم من مقوّمات الشخصية الجزائريّة في نشيده الرسميّ، وقد قرنه بالهلال رمزا للدين الإسلاميّ، أكثر منه تشبيها للجزائر به، وذلك في أوّل مقطع منه، حيث يقول:

«فــداء الــجزائــر روحي ومالــي | ألا فــي ســبــيــل الــحــرّيــهْ
فليحــي (حــزب الإستــقــلالِ)، | و(نــجــم شــمــال إفــريقــيهْ)
وليحــي زعــيم الــحزب مَــصَالي، | مــثــال الــفــدا والــوطــنــيــهْ
ولتحــي الــجزائــر مثل الــهلالِ، | **ولتحــي فــيــها العــربــيــهْ**»[2].

وعندما كتب مقاله على لسان زعيم الحزب، في الترحيب بجريدة "الشعب"، لم يفته أن يضمّنه أفكاره هو في خصوص اللغة العربيّة، وذلك حيث يقول: «وإن تكن جريدة "الشعب" مؤسّسة للجهاد في سبيل تحرير الجزائر، فهي لأجل هذا التحرير المنشود تبذل جانبا عظيما من مراحل جهادها في بثّ هذه اللغة بين طبقات الأمّة، وتحبيب

1- جريدة "النور"، س01، ع48، 1351/04/27هـ، 1932/08/30م، ص03.

2- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4384، 1936/11/23، موضوعه: أغنية وطنية أهليّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من النشيد الوطنيّ الجزائريّ، مطوية من أربع صفحات، والكتابة على ثلاث منها.

هذا الشعب في لغة آبائه وأجداده، وتبيين الدور العظيم الذي ستقوم به هذه اللغة في إتمام عملية التحرير»[1].

وممّا زاد مهمّة مفدي هذه تعقيدا مواجهة الحزب لمعارضة قويّة من المؤتمر الإسلاميّ، وكانت القوّة غير متكافئة آنذاك بين الطرفين من حيث عدد المناضلين والمناصرين والمتعاطفين عموما، ومن النخبة المثقّفة خاصّة، ومن النخبة المثقّفة باللغة العربيّة على وجه الخصوص، وتبع ذلك غياب الحزب أو يكاد في الصحافة العربيّة بالجزائر عموما، لأنّ الصحافة الوطنيّة العربيّة الجزائريّة كانت تدور في فلك "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، وكانت ضمن تحالف المؤتمر الإسلامي، وكانت أحد أبرز أقطابه؛ فلم يجد مفدي من حلّ لفكّ هذا الطوق حول حزبه سوى الاستعانة بالصحافة الوطنية العربيّة التونسيّة، فنشر أولى مقالاته عن النجم وحركته السياسية في أواخر سنة 1936، ثمّ قادته جولتان إلى تونس: الأولى في فيفري 1937، على رأس وفد من مسؤولي النجم بالعمالات الثلاث، بقصد الدعاية للحزب، فكانت له أصداء إعلامية معتبرة؛ والثانية بمفرده في جوان 1937، لمعارضة محاضرة الشيخ عبد الحميد بن باديس بداية، وليحيّي باسم الحزب الزعيم التونسيّ عبد العزيز الثعالبيّ عند عودته من المنفى، وقام فيها بدعاية واسعة للحزب، واستثمر فيها محاكمته هو ولحول الحسين؛ ثمّ كانت بعد ذلك سلسلة مقالاته بدأها في "الزهرة"، غير أنّ تدخلات المعارضة لدى مديرها، جعلته يتحوّل إلى جريدة "النهضة"، وفيها اتّصلت مقالاته إلى أوت 1937، أيّاما قبل إلقاء القبض عليه هو ورفاقه، وعلى رأسهم زعيم الحزب مصّالي الحاج.

إنّه لمن الملفت للانتباه أنّه وباستثناء «النشيد الوطنيّ الجزائريّ الذي أصبح أغنية الجزائر، ذكرانا وإناثا، شيبا وشبابا»[2]، وعلى كثرة التجمّعات التي عقدها الحزب في الجزائر، وخارج عمالتها، وحضرها مفدي وخطب فيها، فإنّه لم يلق ولو قصيدة واحدة فيها، ولا في غيرها من المناسبات، وأبرز قصيدتين له في حزبه الوطنيّ إنّما تمّ إلقاؤهما بتونس لا بالجزائر، ونشرتا أوّل الأمر في الصحافة التونسيّة لا الجزائريّة؛ كلّ ذلك يشير بوضوح إلى انعدام جمهور لشعره في الجزائر، فجمهوره في الجزائر هم مناضلو الحزب لا غير، وهم في الأغلب شباب لا حظّ لهم في ثقافة معتبرة، ولغتهم هي الفرنسيّة بالدرجة الأولى، واللغة العربية الفصحى كانت غريبة بينهم، فجريدة "الشعب" صدر منها عددان، الأوّل وقف عليه من ألفه إلى يائه مفدي، والثاني كان من نصيب قنانش محمد التلمسانيّ، وعندما فكّر الحزب في إنشاء جريدة "البرلمان الجزائريّ"، كانت باللغة الفرنسيّة لا العربيّة، اضطرارا وليس اختيارا؛ بينما المثقفون ثقافة عربية عالية، من خرّيجي جامع الزيتونة وغيرهم، ممّن يسهم في العمل الوطنيّ الجزائريّ، كانوا في صفوف "المؤتمر الإسلاميّ"، ومن أعضاء الحركة الإصلاحيّة أساسا في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين".

لقد استطاع مفدي في رسالته المتميّزة من أعماق سجن الحرّاش إلى رئيس "جمعية الشبّان المسلمين"، والمنشورة في جريدة "تونس الفتاة"، بعنوان "ملاحظات نزيهة من رسالة صديق"، أن يضع يده على تلك المفارقة

1- الحركة الاستقلاليّة في الجزائر116، 117.

2- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1355/09/25هـ، 1936/12/10م، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

الغربية في تاريخ الحركة الوطنيّة الجزائريّة، وقد وقف عليها بحكم تكوينه وشخصيته الفريدة، وانتمائه إلى مزاب، فالفكرة الاستقلالية راجت في أوّل أمرها بين الأميّين، ومن يملكون ثقافة فرنسية، ولو محدودة، وذلك في صفوف "نجم شمال إفريقيا" و"حزب الشعب الجزائريّ"؛ بينما كانت غائبة في أذهان كثير من المثقّفين ثقافة عربيّة ودينيّة، وكان أغلبهم أعضاء في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، أو من المتعاطفين معها، بل وكان كثير منهم من أشدّ المعارضين لحركة مصّالي الحاج السياسية؛ على خلاف تونس، وجلّ هؤلاء المثقّفين ثقافة عربية دينيّة إنّما تخرّجوا من تونس، ومن جامع الزيتونة، ولذلك نجده يخاطب رئيس الجمعية، قائلا:

«وحبّذا لو أعتنمونا هنالك بتونس في مهمّة عظيمة جدّا ومتأكّدة جدّا، وضروريّة جدّا، وهي إذكاء الحماس الوطنيّ في قلوب الطلبة الجزائريّين، وتدريبهم على الكفاح السياسيّ المنظّم، والتفكير الوطنيّ الصحيح، وبعبارة أخرى أن تركّبوا فيهم (دماغا وطنيّا علميّا)، إلى جانب الدماغ العلميّ الجافّ الذي اكتسبوه من بين فصول الأشمونيّ [...] والتنقيح، فإنّ الوسط التونسيّ بما فيه اليوم من حياة زاخرة وثّابة، وشباب ثائر، وجوّ وطنيّ، يلتهب حماسا، لجدير بأن يترك أثرا جديدا في عقول الطلبة الجزائريّين الذين يقضون سنوات بتونس، فيرجعون للجزائر (كخزائن من كتب، تمشي على رجلين، لا أقلّ ولا أكثر). إنّها والله لمصيبة تذهب لها نفوسنا حسرات حينما نشاهد هؤلاء الطلبة المتخرّجين من معاهد تونس كلّ سنة، يرجعون للجزائر، ثمّ يقعدون في زوايا بيوتهم، فلا تسمع لهم ركزا، ولا ترى لهم أثرا في الجهاد الوطنيّ، ولا في الجهاد التعليميّ المثمر الصحيح، فلا هم من رجال التعليم، ولا هم من رجال التنظيم "..."، إلاّ من رحم ربك، وقليل من هم.

وهذا "حزب الشعب الجزائريّ" أعظم مظهر بالجزائر للوطنيّة الصحيحة، المرتكزة على مبادئ الإسلام والعروبة، وقد قضى من عمر جهاده سنين أبلى فيها البلاء الحسن، وأصبح قوّة يحسب لها الاستعمار ألف حساب، له وحده القول الفصل، والكلمة الحاسمة في تقدير مصير الشعب، ومع كلّ هذا فلا يوجد ولا واحد من هؤلاء "المشائخ" ضمن صفوف جهاده المتراصّة بالشباب "الأميّ"، يحدوه الإيمان، وتدفعه العقيدة، وهذا رغما عن قيام الحزب بدعاية واسعة في أوساطهم، ولسنا ندري هل توجد هنا بالجزائر يد خفيّة تصدّهم عن الانضمام إلى صفوف "حزب الشعب" لغاية سيكشفها التاريخ الذي لا يعرف الكذب والرياء؟ أم أنّهم راضون عن /الحالة التي عليها بلادهم المنكوبة حتّى بأبنائها، فلا يثور فيهم دم الغيرة، ولا ينبض فيهم عرق حسّاس، ولا تتحرّك فيهم وطنية دقيقة، ولا يوبّخهم ضمير شريف، يقفون موقف المتفرّج المكتوف اليد، الناعم البال، الضاحك اللاعب بينما أبناؤهم "الصبيان" يعمرون زوايا السجون، عوض أن يعمروا أقسام المدارس، قياما بواجبهم نحو بلادهم وإخوانِهم الكبار الغلاظ الشداد المثقّفون! وبينما النّساء الجزائريّات يتقدّمن صفوف المظاهرات الوطنيّة، ويخترقن حجاب السماء بزغاريدهنّ الصارخة التي تشبه القذائف الناريّة، نرى علماءنا، ومشائخنا يجرجرون برانيسهم، يكنسون بها "البلفارات"(الشوارع)، ويتفنّنون في ترصيف عمائمهم فوق رؤوسهم، وهذا كان ما تعلّموه من تونس، أو

بالأحرى من الوسط الذي يهب الحياة لمن يريد الحياة»[1]. وبعد حديثه عن الحركة الإصلاحية بالجزائر التي يراها «من بعض النواحي عقيمة النتيجة بشهادة الواقع»، على ما مرّ بنا قريبا، يختم مقاله بقوله: «ليست الجزائر بحاجة إلى رجال يرفعون الفاعل، وينصبون المفعول، ويخفضون المضاف إليه، ويحرّكون ويسكّنون أواخر الكلمات (لا غير)، وإنّما هي بحاجة إلى رجال يرفعون رأسها عاليا، وينصبون أقلامهم وأفكارهم للذود عن حماها، والدفاع عن كرامتها، ويخفضون رؤوس [...]الخونة المنافقين، ويحرّكون المؤسسات، ويسكنون عواصف الظلامات، أولئك هم الرجال الذين تحتاجهم الجزائر اليوم، ويحتاجهم المغرب الأعظم الجبّار. فماذا يهمّنا قيام زيد أو قعود عمر ما دام الاستعمار قائما لا يقعد، والشعب قاعدا لا يقوم»[2].

أدب مفدي الثوريّ:

لقد لاحظنا ظهور الحسّ الوطنيّ والثوريّ مبكّرا في أدب مفدي، في مرحلة دراسته بتونس، ثمّ اختفى الحسّ الثوريّ فيه أو كاد، بعد عودته من تونس، وإن بقي أدبه في عمومه وطنيّا، وفسّرنا ذلك بالإحباط الذي أصابه إثر حكم مجلس الدولة بباريس، في 1925/05/15[3].

وبعودة الأمل في بداية هذه الفترة (1932-1939)، مع نقلته النوعيّة إلى العمل الوطني الجزائريّ، عاد الحسّ الثوريّ إلى البروز في إنتاجه من جديد، وقد مرّ بنا حديثه عن "جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين"، الذي تعتبره الأمّة الجزائريّة «مشروعها الوحيد الذي تراه أقدس مشروع، **تفديه بكلّ ما ملكت يداها**»، وهدفُها الأسمى «هو النهوض والتقدّم تحت ظلال الدّين القويم إلى حيث **الحريّة الغالية**»[4].

إلاّ أنّ هذا الحسّ الثوريّ يظهر -كما كان في الفترة السابقة- في ألفاظ تنتمي إلى حقله الدلالي مع تجنّب التحديد والتدقيق في القصد، فيبقى الطرف الثاني في المعادلة غائما يتّسع للمستعمر وغيره، من ذلك استعماله ألفاظ الفداء والحرّيّة والجهاد من غير أن يقرنها صراحة بالمستعمر، على نحو ما ورد -على سبيل المثال- في قصيدته "أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا"، حيث يقدّم القدوة من نفسه في فداء الوطن في قوله:

«**وطنـــي بروحي أفتديكَ، ومهجتي،** **ودمـــي الشّـــريفِ، مبـــرّةً ووَفَـــاءَ**
عهدٌ علـــيَّ مـــدى الحيـــاةِ مقدّسٌ، يُذكـــي عـــروقي نـــخـــوةً وإبَـــاءَ
حسبـــي فخـــارًا فـــي حياتـــي أنّني **أغـــدو على وطنـــي العزيزِ فِدَاءَ**».

1- حزب الشعب الجزائريّ234، 235.

2- نفسه238.

3- ينظر: الباب الرابع، ص438-441.

4- مأدبة نادي الترقّي لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريّين، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س10، ع2912، 1351/07/12هـ، 1932/11/11م، ص01، 02.

ثمّ يوجّه خطابه إلى أبناء الشمال الإفريقيّ قائلا:

«جندَ البلادِ، ويــا حــماةَ عَرينِـها، مُــدُّوا لنُـصرتِـها اليــدَ البَــيْضَاءَ

[...] سيروا على سَنَــنِ الــجدودِ، وشيّدوا فــوق الــمـجــرّةِ للخــلود بــنَاءَ

رَبُّوا نفــوسَكمُ علــى خُلُــقِ الهدى إنْ شــئــتــمُ **حــريّــةً** وعَــلاَءَ

والدّيــنِ، إنّ الدّيــنَ أعظــمُ عــدّةٍ، فبدونِــهِ تغــدو الشّــعــوبُ هَبَــاءَ

لِيَدُمْ على شعبِ (الشّمــالِ) **جهادُكمْ** حتّــى ينــالَ العِــزّةَ القَــعْــسَــاءَ

ويعيشَ موفــورَ الكرامــةِ في الورى، وينــالَ فــي عرشِ الخلودِ بَــقَاءَ»[1].

ومن الأمثلة عن عدم التصريح عدم لفظة "الاستعمار"، في حديثه عن نفي الاستعمار لــ"الفرقد" سليمان بوجناح، وتعويضه بضمير جمع الغائبين، وذلك إذ يقول:

«هم أبعــدوك، ولكن أبعــدوا شبــحا، وما دَرَوْا أنّــهــم قــد أيقظــوا جــيلا

هيهات أن يُبعِــدوا، أو يقتــلوا هــمما، ولو همُ استنــجدوا الطيــر الأبــابــيلا

ماذا جنيــتَ ســوى صدقِ الضمير، لذا صــرتَ الــمشــوّشَ والثعبانَ والغــولا

ومن تكنْ فــي سبيل الــمجــد همّــتُه لا يــرهبُ الدّهــرَ تعــذيــبا وتــنكيلا

فــقُــرَّ بالنّفــي عينــا، إنّــهُ سبــبٌ إلى المعــالي، وكن كالسّيف مسلولا»[2].

وعندما انخرط في "نجم شمال إفريقيا" سجّلت لفظة "الاستقلال" حضورها في إنتاجه، ليعني بها استقلال الجزائر لا غير، كما أنّ الألفاظ الأخرى التي استعملها فيما سبق أصبحت أكثر تحديدا للدلالة على نضال الجزائر ضدّ المستعمر الغاشم لافتكاك حرّيتها، وذلك خاصّة في كتاباته التي تعبّر عن أفكار ومواقف الحزب الوطنيّ الجزائريّ، وإن حمل بعضها إمضاءه الصريح، بداية من "النشيد الوطني الجزائريّ"، الذي ورد فيه ما يلي:

«فــداء الــجزائــر روحــي ومالي ألا فــي ســبــيــل الــحــرّيــــهْ

فليحــي (حــزب الإستــقــلال)، و(نــجــم شــمــال إفــريــقــيهْ)

[...] نــريــد حــيــاة لــنــا حــرّة، كفانا كفــى مــن حــياة الشــقــا

[...] ألا في طــريــق الــهدى سعــينــا، ألا فــي ســبيل العــلا والــجــهادِ

[...] وها هــو (أحــمــد) يحــدو بــنا، وها هو (جــبــريل) فيــنا ينــادي:

ألا فــي ســبــيــل الإستــقــلالِ ألا فــي ســبــيــل الحــرّيَــهْ»[3].

---

[1]- جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س01، ع43، 1354/06/25هــ، 1935/09/24م، ص03.

[2]- يوم الخلاص، مفدي زكرياء، جريدة "النهضة"، س10، ع2970، 1351/09/21هــ، 1933/01/18م، ص03.

[3]- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 4384، 1936/11/23، موضوعه: أغنية وطنية أهليّة، 2I37، (CAOM)، وثيقة من صفحة

ويقول في "بلاغ زعيم الحزب الوطنيّ الجزائريّ مصّالي الحاج إلى الأمّة الجزائريّة الكريمة"، الذي كتبه على لسان زعيم الحزب: «إنّ للحزب الوطنيّ لتاريخا ذهبيّا، مكتوبا بدم الشرف على دواوين البطولة، وماضيا مفعما بجلائل الأعمال، فقد صاح صيحته في أذن الاستعمار الغاشم بباريس حين سكت الناس، وأقدم حين أحجم الناس، وتشجّع واستبشر حين جبن الناس، وخارت قواهم، وأسكتهم الخوف عن كلمة حقّ يصرّحون بها أمام دهاقين الجور والعسف. إذ ذاك صرخ رجال الحزب الوطنيّ وحدهم في وجه الاستعمار! إنّ الجزائر خلقت حرّة سعيدة، يجب أن تحيا حرّة سعيدة، فلاقوا من جرّاء ذلك ألوانا من العذاب، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل اللّه، وما ضعفوا وما استكانوا، وإنّهم يعاهدونك أيّها الشعب الكريم، أنّهم سيبقون على تلك المبادئ، لا يخافون، ولا يجبنون، ولا يتزحزحون، مهما كلّفهم ذلك من الضحايا، فلقد امتحنتهم أيّها الشعب، في أيّام البلاء، /فوجدتهم صابرين، فامتحنهم في أيّام الرخاء تجد أنّهم ﴿لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ [سورة المعارج، الآية32]، وليسوا كهؤلاء القنافذ الهدّاجين، كانوا مختبئين أيّام المحنة، فظهروا اليوم يساومون ثقة الشعب الغرّ الكريم، ﴿ولنبلوكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ [سورة محمد، الآية31]، ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون ولقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ اللّه الذين صدقوا وليعلمنّ الكاذبين...﴾[سورة العنكبوت، الآية02، و03]»[(1)].

هذه السمة الجديدة تجاوزت كتاباته الحزبيّة إلى كتاباته الخاصّة، ففي مقاله في انتقاد مسرحية "بعد السكرة" لمحي الدين باش تارزي، نقرأ في معرض الحديث عن محاولات الاستعمار وصنائعه تفريق الشعب الجزائريّ : «وكنّا نشكّ في نجاحها، لأنّ الأمّة أصبحت تشعر بضرورة اتّحادها أمام الخطر الداهم، والأفعوان الاستعماريّ الفاغر فاه لالتقام الأخضر واليابس من خيرات هذه البلاد».

لقد واكب مفدي في أدبه ارتقاء حركة مصّالي الحاج بالحركة الوطنية الجزائريّة من المطالب المتواضعة لتحسين أوضاع الجزائريّين إلى المطالبة بالاستقلال التامّ، بكلّ ما يرافقه من مواجهة صريحة للاستعمار، والانتقال من خطاب المسود للسيّد، إلى الخطاب النِّدّي بما يحمله من تحدّ سافر للسيّد الذي جعله خطاب مسوده في نفس مرتبته، وهو تطوّر في الخطاب، يعتبر الخطوة السابقة للثورة المسلّحة ضدّ المستعمر متى توفّرت شروطها.

لم تتمّ هذه النقلة النوعيّة طفرة واحدة، وهي الانتقالُ في مواجهة المستعمر من السرّ إلى العلن، ومن التعريض إلى التصريح، والارتقاءُ إلى مستوى التحدّي السافر له والندّية، بأن يدعوه بأسمائه، ويخاطبه بشكل مباشر، والتحوّلُ من المناضل الحزبيّ إلى الثائر إن صحّ التعبير، خاصّة في الشعر إذ له منطقه الخاصّ، لأنّ التحوّل في النفس يحدث مرّة بعد أخرى، وبنفس الوتيرة ينعكس في شعر الشاعر، متى كان صادقا مع نفسه، لا يرهف أذنه لغير خلجاتها.

واحدة؛ أرفق به نسخة مطبوعة من النشيد الوطنيّ الجزائريّ، مطوية من أربع صفحات، والكتابة على ثلاث منها.

1- ينظر: تقرير مدير الأمن لعمالة الجزائر، رقم: 7512، 1936/11/30، موضوعه: نجم الشمال الإفريقيّ، 3cab42، (CAOM)، وثيقة من صفحة واحدة؛ أرفق به نسخة من البلاغ، في صفحة واحدة بحجم صفحة جريدة، متكوّنة من ثلاثة أعمدة.

يمكننا تتبّع هذه النقلة من خلال قصيدتين، هما من أهمّ قصائد هذه الفترة: الأولى أبدعها في رحلته الأولى إلى تونس في فيفري 1937، وعنوانها "بردة الوطنيّة الجزائريّة"، حمل فيها حملة شعواء على "عصبة الاندماج" ناعتا لهم بلفظة "القوم"، و لم يشر إلى المستعمر في أوّل الأمر إلاّ من خلال تغييبه وراء لفظتي "فيوليت"، و"الغرب"، فيقول:

«أيُّها الشّعبُ، والشَّمالُ جريحٌ،   رشقَ **القومُ** في حَشاهُ النِّبَالاَ
أيُّها الشّعبُ، و(الجزائرُ) تشكو   في ثنايا الضّلوعِ داءً عُضَالاَ
وتُنادي بنيِ العروبةِ (وَامُعْـ   ـتَصِمَاهُ) قد أحكموا الإغْتِيَالاَ
سَطَّروا حولَها برامجَ لِلْمَسْـ   ـخِ، وحَطُّوا على فِناها الرِّحَالاَ
شَبْكَةٌ حاكَها (**فَيُوليتُ**) للصَّيْـ   ـدِ، فطاروا لها خِفَافًا ثِقَالاَ
وطعامٌ طهاهُ للشّعبِ زَقُّو   مًا، وذا غُصَّةً، وداءً وَبَالاَ
[...] إنّ جنسَ النّبيءِ صعبٌ على الهَضْـ   ـمِ، فيا **غربُ** كُفَّ عنكَ المُحَالاَ»[1].
[...] «ضَحِكَ **الغربُ** مِلْءَ شِدْقَيْهِ منَّا،   وحَبانا الحَقَارَ والإذْلاَلاَ
وصَلانا في ذلَّةٍ واحتقارٍ   صفعاتٍ تكسو القَفا والقَذَالاَ
فأَبَيْنَا، ولا نزالُ نُضحّي   في سبيلِ اللَّحَاقِ عُمْرًا ومَالاَ»

ثمّ يرتقي في حديثه عن المستعمر إلى الحديث عن "جبهة الشعب" التي تتولّى الحكم في فرنسا، ولكن باستعمال ضمير الغائب لبيت واحد:

«ويلتاهُ على (الجزائرِ)، ربَّا   هُ أَجِرْهَا، وفُكَّ عنها العقَالاَ
[...] علّقتْ فَأْلَهَا (**بِجَبهةِ شعبٍ**)،   لستُ أدري: أَصَحَّ، أم خابَ فَالاَ؟»

ثمّ يتسنّم قمّة أخرى، ويبرّرها لنفسه بنزع برقع الحياء، فيخاطب "جبهة الشعب" خطابا مباشرا صريحا، ليطالبها دون تورية وتعريض بتحرير الجزائر، ثمّ يسألها متحدّيا هل تفهمين هذا المقال؟ وعندما يتحدّث عن اعتقاد الجزائريّين الراسخ في ذلك، يلتمس السند المعنويّ في الشرق، لأنّ الحقيقة الموضوعيّة غير ذلك، يقول في ذلك:

«(جبهةَ الشّعبِ)، لا حَيَاءٌ، تَعَالَيْ   صَارِحِينَا، ولا تُطيلي الجدَالاَ
صَارِحِينَا الحسابَ عدًّا وحصرًا،   وأَرِينَا التّفصيلَ والإجْمَالاَ
[...] كلُّ حقٍّ ما دون تحريرِهِ ظُلْـ   ـمٌ، فهلْ تفهمين هذا المَقَالاَ؟
تلك فينا عقيدةٌ مُزِجَتْ بِالرْ   رُوحِ، والقلبِ نِسوةً ورِجَالاَ
لم نكنْ وحدَنا، ولكنَّ شرقًا   هبَّ يرجو في عيشِهِ اسْتِقْلاَلاَ
نسمةٌ بثَّها الإلهُ على الشَّرْ   قِ، فأحيتْ سهولَها والجِبَالاَ»

1- جريدة "الشباب"، س01، ع19، 1355/12/22هـ، 1937/03/05م، ص07.

وعندما يتوجّه للشّعب في ختام القصيدة، يطالبه بالنهوض وبالاعتماد على النفس في بيت واحد، ويتوكّأ في إقناعه على ريادة الشرق في هذا الاتّجاه دائما:

«أيُّهـا الشّـعبُ وثبةٌ للمَعالي، أيُّـها الشّـعبُ، لا تَكُفَّ الـنِّـزَالاَ
أتْرُكِ الإعْـتمـادَ إلاّ علـى النَّـفْـ ـسِ، وخـلِّ الأقـطابَ والأَبْـطَالاَ
ذا بِـلاَلُ الـحـيـاةِ أَذَّنَ في الشَّرْ قِ، فلَبُّـوا إلـى الـحـياةِ بِـلاَلاَ
كُتِبَ النّـصرُ فـي الـحـياةِ سِجَالاً لِلّذي صـارعَ الـخطوبَ سِـجَالاَ
عشتَ -يا شعبُ- مسلـمًا عـربيًّا، نلـتَ -يا شعـبُ- بُغْيَةً ومَنَالاَ»(1).

والثانية بعنوان "الشمال الإفريقيّ يتّحد"، نظمها في رحلته الثانية إلى تونس في جوان 1937، وتأخّر إلقاؤها إلى 07/25، وكانت في تحيّة حزب الشعب الجزائريّ للزعيم التونسيّ عبد العزيز الثعالبيّ بمناسبة عودته من المنفى، فكانت المناسبة قمينة ببلوغ ثورية مفدي أعلى مستوياها، منطلقا ممّا انتهى إليه في القصيدة السابقة، فتجاوز فيها "عصبة الاندماج" إلى مكمن الداء رأسا في جميع أدواء الجزائر، مع التمهيد لقفزته النوعيّة تمهيدا صالحا، فيقول في الزعيم التونسيّ ابتداء:

«[...] صـافحتْـكَ البلادُ في نشوةِ النَّصْـ ـرِ، كما صافـحَ العريـنُ الأُسُـودَا
[...] وتلقّـتْـكَ بـعـد خمـسٍ وعشرٍ، كـنَّ عـهدًا على البـلادِ شَـدِيدَا
[...] أُمّـةٌ كنـتَ تـنفخُ الـرّوحَ فيـها وطنيًّـا، وكنـتَ فـيهـا الشَّهـيدَا
فغـدتْ تفتـحُ الطّريقَ إلى الـمَجْـ ـدِ، علـى هِمّـةٍ تَعَـافُ القُعُـودَا
صرختْ صرخةَ الـحيـاةِ عـلى المَوْ تِ، وثـارتْ تفـكُّ عنها القُيُودَا»(2).

وبعد أن تحدّث عن الأمّة التونسيّة أو أمّة شمال إفريقيا التي ثارت تفكّ القيودا، بنفخة من روحه، انتقل إلى عقد الفداء المقدّس بينه وبين وطنه، يصارح به وطنه مباشرة، فيقول:

«وطنـي بالـدّمِ الزّكـيِّ أُفَـدِّيـ ـكَ، يـميـنًا شريـفةً وعُهُـودَا
وطنـي في هواكَ أخـلصتُ شِعري، وضميـري، ومُهجتـي، والوُجُـودَا
وطنـي أنتَ جنّـةُ الـخلدِ في الأَرْ ضِ، فهيـهاتَ في الـورى أنْ تَـبِيدَا
وطنـي إنّـنا ضـحاياكَ في السِّلْـ ـمِ، وفـي الحربِ، بُغْـيَةً أنْ تَسُودَا
فـاتّخِـذْنَـا إذا أردتَ سـيـوفًا، واحْـرِقَـنَّـا إذا أردتَ وَقُـودَا
نـحنُ قـومٌ جدودُنا مـلَكوا الدُّنْـ ـيَا، فهـيهاتَ أنْ نـعيشَ عَبِـيدَا

1- جريدة "السردوك"، س01، ع01، 1356/01/25هـ، 1937/04/07م، ص07.

2- جريدة "الوطن" التونسيّة، س01، ع32، 1356/06/07هـ، 1937/08/15م.

صَـــيَـــدٌ في الدّماءِ مِن نشوةِ الـــمُلْـــ ـــك، يُنادي بنـــا العُـــلا والصُّعُـــودَا
في حنايـــا الضّلوعِ للصَّحْـــبِ خَلَّـــدْ نَـــا قُـــبـــورًا زكـــيّـــةً ولُـــحُـــودَا
(عُقْبَةٌ) يصـــرخُ: النّجـــاةَ، و(مُوسَى) و(ابْـــنُ زِيَّـــادٍ) سُـــجّـــدًا وقُعُودَا»[1].

إنّ استناده معنويّا إلى ماضيه وماضي وطنه التليد، وربطه بالمقدّس في ثقافته وتاريخه، الذي هو منه، جنّبه ابتغاء السند في جهاد الشرق، فكان أحسن تمهيد لمواجهة الاستعمار في البيت الموالي مباشرة، فخاطب "فرنسا"، وليس "جبهة الشعب" فحسب، واسترسل في خطابه لأبيات عديدة تزيد على ضعف ما خاطب به "جبهة الشعب" في القصيدة السابقة، مع مسحة من سخرية لا تخفى، وذلك حيث يقول:

«يا (فِرَنْسَا) لاَ تَجْـــهَـــلِيـــنا، فإنّـــا أمّةٌ تُـــبـــغـــضُ الشّـــقا والقُيُـــودَا
انْـــصِـــفِيـــنَا حـــقَّ الـــحـــياة، فإنّا قد نـــهضنا، فـــلا نُطـــيقُ الرُّكُـــودَا
قـــد كرهـــنا حيـــاةَ ظـــلمٍ وجورٍ، وســـئـــمنـــا الـــخرابَ والتَّبْـــديدَا
ما لـــها تـــزدري بنـــا (جَبْهَةُ الشَّعْـــ ـــبِ)، وتَجْزِي هـــذي البلادَ صُدُودَا
ما لـــها تـــحـــقرُ الضّعيـــفَ، وفيهِ مهـــجـــةٌ حـــرّةٌ تَـــفُـــلُّ الـــحديدَا
أمطرَتْنا علـــى الـــحـــسابِ (لِجَانًا)، قد ســـمعنا وعـــودَهـــا والوَعِـــيدَا
ورأينـــا (اللّجـــانَ) كيـــف تُـــغَنّي، و(فَـــيُولِيـــتُ) يستـــعيـــدُ القَصيـــدَا
أمِنَ العدلِ -يا (فرنـــسا)- بشـــعبٍ أنْ يُـــرى فـــوق أرضِـــهِ مَـــوْؤُودَا؟
أمِـــنَ البـــرِّ أنْ تَـــشحَّ (فِـــرَنْـــسَا)، وتُجازي على الـــجميلِ الـــجُحُودَا؟
نحـــن جُـــدْنا حـــيالَها بالـــدّمِ الغَـــا لِي، فمـــاذا يضـــرُّهـــا أنْ تَجُـــودَا؟
إنْ تَنـــاستْ أوْ أنـــكرتْ ذَكِّـــروهَا جثـــثَ الشّعـــبِ تـــمـــلأُ الأُخْدُودَا
ضاقَ صبرُ البلادِ يـــا (جبهـــةَ الشَّعْـــ ـــبِ)، فهلْ تُـــنْـــتجينَ شيئًا مُفيدَا؟
لـــنْ تُـــفيـــدَ الوعـــودُ فيـــنـــا، فإنّا -جَبْهَةَ الشَّعْبِ- قد مللْنا الوُعُودَا»[2].

وفي الختام يتوجّه إلى الشعب، كفعله في لاميته السابقة، فيركّز دعوته له في الاعتماد على النّفس، وصنع مصيره الذي يريده مشرقا بيديه، والخروج في حياته من معادلة السيّد والمسود، بكلّ ما فيها من هوان وتمسّك بالأماني الفارغة وجمود، من غير أن يجعل من الشرق قدوة له في ذلك، فيقول:

«أيُّـــهـــا الشّعبُ خـــلِّ عنك الأماني، وارْكَـــبِ العـــزمَ، واتْـــرُكَنَّ الجُمُودَا
واستبقْ للحيـــاةِ، وابـــنِ مِـــنَ العِـــزْ زِ على النَّـــيِّـــرَيْـــنِ قـــصرًا مَشِيـــدَا

1- جريدة "الوطن"، س01، عدد 33، 1356/06/14هـــ، 1937/08/22.

2- جريدة "الشّعب"، س01، ع01، 1356/06/19هـــ، 1937/08/27م، ص08.

وعلـــى النّفـــسِ فاعـــتمدْ، وتـــقدّمْ، واقتحمْ في الـــحياةِ عصرًا جَـــدِيـــدَا
كلُّ مَـــن يعتـــمدْ عـــلى الغيرِ أضحى بيـــدِ الغيـــرِ فـــي الـــحيـــاةِ مَسُودَا
كـــلُّ مَـــن يرتـــضي حـــياةَ هـــوانٍ عاشَ فـــي أرضِـــه الشّريـــدَ الطَّرِيدَا
صَـــرخـــاتٌ مِن شـــاعـــرٍ، وتَحَايَا، مرحـــبًا مرحـــبًا، قُـــدومًا سَعِيدَا»[1].

لقد لخّص كلامه عن وطنه في مواجهة الاستعمار بعبارة واحدة هي "صرخات من شاعر"، وهي تفسّر تخصيصه مقطعا في ختام قصيدته، كفعله في سابقتها، توجّه فيه بالخطاب إلى شعبه، يحثّه ويدفعه دفعا إلى تبنّي موقفه وموقف حزبه إزاء الاستعمار، لوجود مسافة كبيرة بين وعيه ووعي قادة النضال الاستقلالي وهم قلّة آنذاك، وبين وعي الشعب الجزائريّ ووعي نخبته عموما، ونخبته المتحالفة في المؤتمر الإسلاميّ على وجه الخصوص، فكانت قصيدتاه في سنة 1937 مصداقا لمقولة عبد الرحمن الكواكبي المشهورة في خصوص كتابه "طبائع الاستبداد": «هي كلمة حقّ، و صرخة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح، لقد تذهب غداً بالأوتاد».

إنّ هاتين القصيدتين -وخاصّة الثانية- قد بلغتا في ثوريتهما أو كادتا ثورية شعر مفدي إبّان الثورة التحريريّة الكبرى، ولنا أن نقارن بين هذه القصيدة الثانية وبين قصيدته "الذبيح الصاعد"، فهي تعتبر على نحو من الأنحاء امتدادا لها، فهي من نفس وزنها وقافيتها، وفيها نقرأ على سبيل المثال:

«يا فـــرنسا كـــفى خـــداعـــا،فـــإنّا يا فـــرنـــسا، لقـــد مللنـــا الوعـــودا
صـــرخ الشـــعـــب منـــذرا، فـــتصا مـــمت، وأبديت جفـــوة وصـــدودا
سكت الناطقـــون، وانطلـــق الرشّـــا ش، يلـــقي إليـــك قـــولا مفـــيـــدا:
نـــحن ثـــرنا، فـــلات حين رجوع، أو ننالَ استـــقلالـــنا الـــمنشودا»[2].

فلا نجد فارقا بين داليته هذه في سنة 1956، وبين دالية سنة 1937، سوى في حديثه بلسان الشعب الجزائريّ الثائر، ورواية مآثر ثورته، فإذا كان يدعوه بإلحاح في الأولى إلى الاعتماد على النفس و...، فإنّه هنا يقول على لسانه:

نـــحن ثـــرنا، فـــلات حين رجوع، أو ننالَ استـــقلالـــنا الـــمنـــشـــودا.

كلّ ذلك من شأنه أن يوقفنا على ريادة مفدي في الشعر الثوريّ الجزائريّ دون منازع، فلا عجب أن يكون شاعر الثورة التحريريّة الكبرى، لأنّ الوعي الثوريّ الذي هو شرط للثورة، كان قد تمثّله في قلبه وعقله ووجدانه منذ ربيع سنة 1937، في هاتين القصيدتين المتميّزتين، ومن هنا نفهم بحث مفدي الحثيث سنة 1961 عن داليته، لإدراجها في ديوانه "اللّهب المقدّس"، لأنّها من نسيجه في الصميم.

---

[1]- جريدة "الوطن"، ع33.

[2]- اللهب المقدّس17.

مفهومه للشعر والأدب:

لقد سبق وأن وقفنا على أوّل نصّ يشير بوضوح إلى لحظة إدراك مفدي أنّ قدره أن يكون شاعرا، ولحظةِ اكتسابه الثقة في نفسه أنّه شاعر، وكان إثر الحفاوة التي لقيتها قصيدته "إلى الريفيّين" عندما نشرها في الصحافة التونسيّة، وهو فتى في ربيعه الثامن عشر، وذلك حيث يقول في رسالته إلى الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش، بتاريخ 1925/05/10: «إنّي مغرم، شيّق، صبّ، لشيء واحد، وأراه أعظم حياة، وأسعد مستقبل، ألا وهو الشعر، وما يتعلّق به من السّحر، فيا ما ألذّ كؤوسه، ويا ما أميلح آياته، فأرجوكم إمدادي فيه بيد المعونة [...]، وإرسال بعض قصائد سحريّة تنشر للشعراء هنالكم، أطّلع عليها، وأكرع من سلسال ينابيعها، فإنّي ولِهٌ ظمآن، أوّاه من لي بالشعر، حياة النفوس، ونجوى الضمير، وروح الوجدان»[1]. هذا الحدث أفرز في نفس مفدي نشوة غامرة، سرعان ما امتزجت بشجن وحزن عميق إثر حكم مجلس الدولة بباريس، بتاريخ 1925/05/15، وفي أجواء هذه الحالة النفسيّة الخاصّة أبدع قصيدته "خواطر كئيب"[2]، فأبان فيها لأوّل مرّة عن رؤيته للشعر، وذلك إذ يقول:

«وما الدّمعُ بالسَّلوى إذا هُوَ لم يكنْ ترقرقَ في شعرٍ تُغرّدُهُ الوَرْقَا
هوَ الشّعرُ، أسرارُ القلوبِ تقمّصتْ لديه، فأولاها الصّراحةَ والنُّطْقَا
هوَ الشّعرُ، آياتُ النّبوغِ تَفجّرتْ بكاساتِه البَيْضَا، فَناوَلَها الخَلْقَا
هوَ الشّعرُ، أنّاتُ القلوبِ تردّدتْ بِمِزْهَرِهِ الصَّدّاحِ تخترقُ الأُفْقَا
هو الشّعرُ للإحساسِ أهدى مِنَ القَطا، وأبصرُ في بحرِ العواطفِ مِنْ (زَرْقَا)
(أرى الشّعرَ بعد الوحيِ أكرمَ هابطٍ) مِنَ الملإِ الأعلى، لِيرْشِدَنا الطُّرْقَا»[3].

ولعلّ أهمّ ما يميّز هذه الرؤية ما يلي:

1- تأثّرها بحالة الحزن التي كان يعيشها، فلا سلوى ترجى في الدموع إلاّ إذا صيغ حزنها شعرا، وعندما يبيّن حقيقة الشعر في نظره، يعقد صلة وثيقة بينه وبين الحزن، عندما يعتبره أنّات القلوب في البيت الرابع، ويغيّب الحالات النفسيّة الكثيرة والمتنوّعة غيرها، ممّا يمكن أن يكون موضوعا للشعر؛ هذه الصلة بين الحزن وشعره نجدها في مقطوعته "لك الحياة"، وهي من نفس أجواء القصيدة السابقة النفسيّة، حيث يقول:

«والرُّوحُ في حبِّ لَيْلاَيَ استحالَ إلى دمعٍ، فأمطرَه شِعري ووُجْدَانِي»[4].

وهذا الحزن امتدّ في شعره وأدبه إلى أواخر 1931، بسبب حالة الإحباط واليأس التي هيمنت على حياته في هذه

1- ينظر: الباب الرابع، ص392.

2- ينظر: الباب الرابع، ص428-430.

3- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى58، 59.

4- نفسه51.

الفترة، من وجوه متعدّدة، فخيّم أيضا على قصيدته "جزائر ما أشقاك بالجهل" في سنة 1930، مقترنا بيأس عميق، فعندما تحدّث عن الشعر فيها قال عنه:

«وما كانَ غيرُ الشِّعرِ سَلْوى لبائسٍ ... يخاطبُ موتى، لا تُطيقُ لهُ رَجْعَا

وما كانَ غيرُ الشِّعرِ سيفًا لعاجزٍ، ... على ظُلماتِ الهُون يصدعُها صَدْعَا»[1].

وفي أجواء اليأس والحزن والإحباط هذه نظم قصيدته "دموع وآلام وخواطر"، في سنة 1926، فكان شعره فيها أقرب ما يكون إلى الشعر الرومانسيّ، فإذا كان قد توقّف في النصوص السابقة عند حدّ عقد صلة قويّة بين الحزن والشعر، والإعلاء من أثر الحزن في إبداع الشعر العظيم، فإنّنا نجد من سمات الرومانسيّة في قصيدته هذه: تعميق الشعور باليأس إلى درجة يصبح فيها الموت ملجأ رحبا، والإحساس بالغربة في المجتمع، بما يولّده من نزوع إلى الطبيعة، وتمجيد لمثالية الطبيعة وطهرها مقارنة بالمجتمع الإنسانيّ، يقول في ذلك:

سئمتُ تكاليفَ الزّمانِ، وقد سما ... بنا مركبُ الأيّامِ بحرًا طَمَا صَعْبَا

وحمَّلني دهري طَوارقَ عدّةً، ... رأيتُ المنايا دونها ملجأً رَحْبَا

وقد رابَني في جيرَتي الدّهرُ لاعبًا ... بكلِّ أنانيٍّ يرى نفسَه رَبَّا

وكرَّهَني في النّاسِ غدرٌ وخُدعةٌ، ... وزورٌ، وتمويهٌ، وظلمُ ذوي القُربَى

وزهَّدني فيهمْ لديَّ خلائقُ ... تكادُ على هامِ السَّما تَطأُ الشُّهْبَا

تَخذْتُ يَراعي صاحبًا، ومحابري، ... وشعري إذا أرسلتُهُ يلهمُ السُّحْبَا

أَظَلُّ بهِ بينَ المروجِ مُغَرِّدًا، ... أَصُبُّ جمالَ الكونِ في كأسه صَبَّا

أُلَقِّنُهُ للعندليبِ إذا غدا ... عشيَّةَ غَيْثٍ يمتطي الغُصُنَ الرَّطْبَا

أَبوحُ بهِ للماءِ عند خريرِهِ، ... فينسابُ مجتازًا حدائقَهُ الغُلْبَا

وأُنْشِدُهُ للرّعدِ عند هزيمِهِ، ... فيخفقُ منّي القلبُ في أُفْقه رُعْبَا

أُغازلُ فيه الشّمسَ عند غروبها ... على غُرَفِ الأغصانِ تائهةً عُجْبَا

وتَفْتَرُّ لي في الجُلّنارِ مباسمُ، ... فأَلْثُمُ فاها، راشفًا عندها الصَّهْبَا

وأَطْرحُ عبءَ الدّهرِ عند خمائلٍ، ... يراقصُها ذيلُ النّسيمِ إذا هَبَّا

مناظرُ لا تدري منَ الغَدْرِ صورةً، ... ولا تعرفُ البُهتانَ، كلاَّ ولا كذْبَا

تلحَّفنَ كالعذراءِ ثوبَ طهارةٍ، ... شَبَبْنَ عليهِ منذ خلْقَتِهَا شَبَّا

فنحنُ بها بينَ الأنامِ أحِبَّةٌ، ... وأصبحتُ فيها وَالهًا شيّقًا صَبَّا

أَبُثُّ لها شكوى عنِ العيشِ مرّةً، ... و أُودِعُها أسرارَ مُهجتيَ الجَدْبَا

---

[1]- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى81.

وحســـبيَ أنْ أشكُو مـــرارةَ أَكـــؤُسٍ يُجَرِّعُنِيهَا ذكـــريَ الـــمجدَ والشَّعْبَا
وأندبُ أقوامًا قـــضى الجهلُ نـــحبَهمْ، وإنْ لم تُوارهمْ يـــدُ اللاّحِـــدِ التُّـــرْبَا
وأُنْهِضُ هِمّات إلى الـــمجدِ أصبحتْ قلوبُـــهمُ غُلْفًـــا، وأموالُهـــمْ سَلْـــبَا
عسى تنـــفعُ الذِّكـــرى نفـــوسًا أَبيَّةً، فتأخذَ بالحســـنى، ولا ترتضي سَبًّا»[1].

إنّه موقف الشاعر الرومانسيّ إزاء مجتمعه، عندما لا يستجيب لرسالته، حينما يصطدم عالم المثل المطلق الذي يتوق إليه الشاعر بنسبيّة الواقع وبجانبه المظلم، وهو ما يجعل هذه الرومانسية إيجابيّة ناتجة عن عدم الاستجابة هذه، لا عن استعلاء مبدئيّ، وانعزال عن المجتمع في برجه العاجي؛ كما أنّ مفدي لم يصل في موقفه هذا إلى درجة اليأس من مجتمعه، بما يفرزه لدى الشاعر الرومانسيّ من حدّة في مخاطبته، وانقطاع لرجائه فيه، إذ نجده يتمنّى في آخر بيت أن تنفع هذه الذكرى قومه، ثمّ يسترسل في مخاطبة بني وطنه، في أبيات عديدة، يدعوهم فيها إلى النهضة، وترك الجمود، إلى أن يقول في ختامها:

«بني وطني مَـــنْ يَعْشُ عنْ نفعِ قومِه، فلا أَسْكَـــنَ البـــاري بِجُثَّـــتِه قَـــلْبَا
ومن يعترضْ سُبْلَ الـــمعالي، ويَجْتَزي يُراوِدُهَا[2]، تصبـــحْ مـــعاهدُهُ جَـــدْبَا
عدوٌّ لئـــيمٌ، حـــاربَ اللّـــهَ جَهْـــرَةً، ومَنْ يعتـــرضْ للّهِ يُشْهِـــرْ لهُ حَـــرْبَا
بـــلاغٌ، وذكرى،واتّعـــاظٌ، ودمـــعةٌ، لِمَنْ سمِعَ الدّعوى، فكان الّذي لَبَّى»[3].

ولعلّنا نلاحظ بوضوح في هذه الأبيات أثر العقيدة الدينيّة في تصحيح هذا الموقف، وعدم وقوع الشاعر في دوّامة يأس وقنوط الشاعر الرومانسيّ من مجتمعه، وهو ما يفسّر -في نظرنا- ظرفية هذا الموقف في حياة مفدي، فلم يتجاوز هذه القصيدة والنصوص القليلة السابقة، فكانت الاستثناء للقاعدة التي قرّرها يحي الشيخ صالح، عند دراسته للطبيعة في شعر مفدي الثوريّ، فانتهى إلى القول: «ممّا تقدّم من تحليل نستطيع أن نذهب إلى أنّ مفدي لم يكن رومانسيّا أبدا، وإن كان يسترسل كثيرا في وصف الطبيعة، وإبراز حنانها وفتنتها، لأنّ ذلك الاسترسال عنده ليس غاية في حدّ ذاته، وإنّما وسيلة لغاية أبعد»[4].

وهكذا لم يتجذّر الموقف الرومانسيّ في شعر مفدي، ليصبح محورا له، على نحو ما نجده عند الشعراء الرومانسيّين، وسرعان ما أفسح المجال لموقف الشاعر المناضل الثوريّ في الحياة، بداية من سنة 1932، بما يرافقه من تفاؤل مهما كانت الصعوبات والعوائق والمثبّطات التي تواجهه، وإباء الاستسلام لليأس والقنوط، لأنّه يستجيب لطبيعة نفسه

1- السابق62، 63.

2- يعني: يكتفي بمراودتها.

3- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى64.

4- شعر الثورة عند مفدي زكرياء، دراسة فنيّة تحليليّة، يحي الشيخ صالح، دار البعث، قسنطينة -الجزائر، ط1: 1987، ص157.

الثوريّة والإيجابية، وقد كان لهذا الموقف بوادر واضحة في شعره وجليّة، في فترة دراسته بتونس؛ وهكذا تجده في قصيدته "طربت أمس هناء" في رثاء الشابّي سنة 1934، يقول:

«هـــذا رثائـــي، وإن كنـــ ـــت لا أجـيـــد الرثـــاء
ولـــدت هـــشّا طـــروبـــا، وما ألفـــت البـــكـــاء»[1].

ويشتطّ ضدّ القانطين في قصيدته "أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا" سنة 1935، ويعلن عن إبائه الاستسلام مهما كلّفه من عناء، وذلك حيث يقول:

«ما اليـــأْسُ في طلبِ العُلا مِن شيمتي، إنّـــي أَعُـــدُّ القانـــطـــيـــن نـــسَـــاءَ
لا بـــأسَ فـــي هـــذا الوجـــودِ، فإنّني لا أَنْـــثَـــنِي، أو أبـــلغَ الـــجَوْزَاءَ»[2].

فإذا هو ينقض الأساس الذي قام عليه موقفه السابق، عندما ينفي وجود صلة بين شعره والحزن والدموع، فشعره لم يألف البكاء، كما ينفي اليأس والقنوط عن نفسه، ويعدّ القانطين واليائسين نساء.

2- إدراكه بالرغم من تجربته المحدودة آنذاك طاقة الكشف في الشعر عن خبايا النفس والوجدان[3]، فهو الكاشف عن أسرار القلوب، وآيات النبوغ، وأنّات القلوب:

هو الشّعرُ للإحساسِ أهدى مِنَ القَطا، وأبصرُ في بحرِ العـــواطـــفِ مِنْ (زَرْقَا)

وذلك هو الشعر الحقيقيّ، عندما لا يكون تقليدا لسابقيه من الشعراء، أو مجرّد نظم لأفكار مسبقة، وإنّما هو سبر لأغوار النفس لفكّ طلاسم الحالة النفسيّة التي تعتري الشاعر بفعل تجربة ما، فيكون الشعر خلاص الشاعر من حالة التوتّر التي تفرزها محاولة رفع الحجب عن الغموض الذي يعتور إحساسه وتفكيره من هذه التجربة، وشرط كلّ ذلك صدق الشاعر في تعبيره عن حاقّ ما يجيش به عقله ووجدانه. ثمّ إنّ ما تتسم به آلية إبداع الشعر النفسية من استعصاء على فهم وإدراك الشاعر، جعل مفدي يفسّر هذه الظاهرة تفسيرا غيبيّا، فيقول:

(أرى الشّعرَ بعد الوحيِ أكرمَ هابطٍ) مِنَ الـــملإِ الأعـــلى، لِيـــرْشِدَنا الطُّرْقَا

وقد فسّرها تفسير الشعراء القدامى في قصيدته "ديوان أبي اليقظان والنور" سنة 1932، فنسب شعره إلى الجنّ:

«(أَبـــا اليَـــقْظَانِ) أَحْـــيَـــيْـــتَ الـــ ـــقَرِيـــضَ الـــحرَّ، فَـــلْـــتَـــحْـــيَا
أثـــرتَ الـــجـــنَّ فـــي نِـــضْـــوِ، غَـــــدا فـــي الشِّـــعـــرِ جـــنِّـــيَّـــا
وهـــيَّـــجـــتَ الّـــذي فـــي القَـــلْـــ ـــبِ، نِـــسْـــيًـــا كان مَـــنْسِيًّا»[4].

---

[1]- تحت ظلال الزيتون18.

[2]- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى134.

[3]- هذا المفهوم وإن كان ممّا أكّده وأوضحه الرومانسيّون لتركيزهم على التعبير عن الشعور، والصدق فيه، فإنّ له جذور في شعرنا العربيّ القديم، على نحو ما نجده واضحا في عينية أبي ذؤيب الهذليّ.

[4]- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى102.

ونسبه إلى الرئي وشيطان الشعر، في قصيدته "يوم الخلاص" سنة 1933:

«يوم الخـــلاص حـــبــاك الله مكرمـــة، وزادك الله إكــرامــا وتــبــجــيــلا
[...] يوم به عاد للــزرقــاء (فــرقــدُهــا)، وقلّــد الكــونَ مــن (نــور) ســرابيلا
[...] وعاد فيه (رِئْــيِـي) راقــصا طــربــا حــرّا طليــقا، وقِــدْما كــان مغــلولا
فــقم -فديتك- شيطانـــي، وقل عجبا، فقد عهدتــك بالآيات مــأهــولا»[1].

3- الصدق في الكشف عن مكنون نفسه، بأن يوليه «الصراحة والنطقا»، بما يجنّب الشاعر الوقوع في أسر التقليد، لأنّه لا يصيخ إلاّ لصوت نفسه، ولذلك فهو يمدح الشابّي، لأنّه صادق وأمين في رواية شعره عن قلبه مباشرة، من غير تقليد، فكان شعره حرّا لا يتقيّد بأيّة قيود، وهذا خير ضمان لخلود الشعر، وذلك إذ يقول:

«قــد كنــت فيــنا أميــنا تــقــدّس الأمــنــاء
تروي الحديث عــن القــلـــ ـــب صــادقــا، لا هــراء
فــلم تــقــلّــد لبــيــدا فيــه، ولا الــخــنــســاء
فــكــان شعــرك حــرّا، وكــنــت فــيــه ثــنــاء
والشــعــر إن كــان لغوا، فــنــاد فــيــه العــفــاء
يتلى غـــدا، فــيُــلَــقّــى تصــديــة ومــكــاء»[2].

إنّ تأكيده على عنصر الصدق في مفهومه للشعر الحقيقيّ، جعله في فورة حماسه يسلم القياد لشعره، فيقوده إلى مبالغات تكلّفه ما كلّفته مقطوعته "كذب الناس" في رثاء حافظ إبراهيم، من اتّهام بالكفر[3]، وهو ما اصطلح على تسميته بالسكرات الشعريّة، عندما كتب إلى أستاذه الشيخ الثمينيّ، بعد أن وبّخه على مقطوعته السابقة، قائلا: «كما أبلّغكم شعوري بأنّي رغم التأنيب المرّ، والعتاب الوجيع الذي صببتموه عليّ في كثير من المناسبات صبّا، لأجل تسليم القياد لعاطفتي الشعرية التي تقف بي أحيانا مواقف لا تليق بكرامتي، فقد استطاع الشيطان مرّة أخرى أن يقودني من الخرطوم إلى جعل أبيات في حفلة تكريم سامي الشوّا، وأن يسدل على عينيّ وبين تأنيبكم حجبا من النسيان والغفلة، أو السكرة التي لم أفق منها إلاّ عند تملم الأمر، ومرور يوم واحد على الحفلة، وحاولت جهد المستطاع أن أخفي هذا المولود الجديد، فما كان من سامي الشوّا إلاّ أن مكّن منه نسخة لجريدة "الوزير"، فنَشرته، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فإنّي أجدّد لكم إنابتي المنبنية على توبيخ ضميري، وأرجوكم أن تصفحوا عنّي صفح

[1]- جريدة "النهضة"، س10، ع2970، 1351/09/21هــ، 1933/01/18م، ص03.

[2]- تحت ظلال الزيتون16، 17.

[3]- ينظر: ص475-478.

الكرام، كما أرجو أن هذه آخر السّكرات الشعريّة، نسأل الله التوفيق والسّداد»[1]؛ وفي هذا النصّ إشارة إلى أنّ مفدي كان يمارس رقابة على شعره، ولكن بعد إبداعه، وليس أثناءه، وتتمثّل في تحديد جدارة النصّ بالنشر من عدمه، فقد حاول جهد المستطاع أن يخفي هذا المولود الجديد، ووجدنا نصّا آخر غير هذا أفلت من هذه الرقابة، هو مقطوعته "مرحبا بالأكرمين"، التي نشرها مامي إسماعيل في "النجاح"[2].

هذا الاحتفاء بالصدق في الشعر، يندرج ضمن تمجيده للصدق والإخلاص كقيمة خلقية في الإنسان خاصّة، وللقيم الخلقية المستمدّة من تعاليم الدين الإسلاميّ الحنيف عموما، فهو يقول -على سبيل المثال- في أستاذه أبي إسحاق اطفيش، في قصيدته "مهرجان الزعيم الخطير"، في سنة 1930:

«بطلٌ جادَ بالحياةِ فداءً ... لبلادٍ رهينةٍ للْعَوَادي

[...] **فغدا يخدُمُ البلادَ بصدقٍ،** ... وثباتٍ، وهمَّةٍ واجْتِهَادِ

عمرَكَ اللّهَ، **هلْ دعاكَ سوى الإخْـ** ... **ـلاَصِ والصّدقِ أنْ تكونَ المُنَادي؟**

[...] إنّ مَن يُشرقِ الفؤادَ بتقوى اللْـ ... ـلَهِ، يعتزُّ سعيُهُ بِسَدَادِ

[...] **ولَمَنْ طهّرَ الضّميرَ بصدقٍ** ... صارَ في قومِه قويَّ العَتَادِ

وهُدى اللّهِ قَبْسَةٌ يُشرقُ اللَّـ ... ـهُ بها قلبَ كلِّ ذي اسْتِعْدَادِ

وكثيرٌ مِنَ الهُداةِ جُناةٌ، ... وكثيرٌ مِنَ الدّعاةِ أَعَادِي»[3].

ويقول في زميل دراسته وصديقه "الفرقد" بعد عودته من منفاه، وفي جريدة "النور" للشيخ أبي اليقظان في قصيدته "يوم الخلاص" سنة 1933:

«هم أبعدوك، ولكن أبعدوا شبحا، ... وما دروا أنّهم قد أيقظوا جيلا

[...] **ماذا جنيت سوى صدق الضمير،** لذا ... صرت المشوّش والثعبان والغولا

يا أيّها (النور) أبرقْ كلّما رعدت ... هذي الحياة، ولا ترع الأقاويلا

[...] واسطع على كلّ قلب، **وانفثنّ به** ... **صدقا**، وخلّ الأماني والتعاليلا

فإنّ نورك من نور الإله، فلا ... تيأس، ولا زلت بالتأييد مشمولا»[4].

4- وغاية الشعر إنّما هو خدمة الناس، فلا يكون الشعر شعرا إلاّ إذا ما تفجّرت آيات النبوغ بكاساته البيضاء، «ناولها الخلقا». أمّا هذه الخدمة فيحدّدها عندما يحكي عن مسيرته الشعريّة في ذات القصيدة التي اتّخذناها منطلقا

1- رسالة مفدي زكرياء إلى الشيخ الثمينيّ، 1933/02/06، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.

2- ينظر: ص465، 466.

3- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى94، 95.

4- جريدة "النهضة"، ع2970، ص03.

لدراسة رؤيته للشعر، فيقول:

وَلَجْتُ خِضَمَّ الشّعرِ أسبحُ يافعًا، وسُقتُ سفينِي فوق لُجَّته سَوْقَا
تَخِذْتُ عصاهُ للطّوارقِ عُدّةً، فكانتْ (عَصَا مُوسَى) يصونُ بها الحَقَّا

فإذا هو يلخّصها في صون الحقّ، ويقدّم مثالا عنه في قوله:

«وقفتُ بهِ في أيكةِ الشّرقِ صادحًا إلى غايةِ (الدّستورِ) أَحدو بهِ الشَّرْقَا
وليس عجيبًا أنْ أكونَ (عَرَابَةً)، ولي نفْسُ حُرٍّ طالتِ القبّةَ الزَّرْقَا
وما المرءُ إلاّ عقلُهُ ولسانُهُ، وهِمّتُهُ القَعْسَا، وجوهرُهُ الأنقى»[1].

فإذا من صون الحقّ الالتزام بقضايا الوطن بمختلف مستوياته، ومنه حدّته اتّجاه مَن عزف عن نفع قومه، ومنه الشاعر إذا لم يقم بواجبه نحوهم، إذ يقول:

«بني وطني مَنْ يَعْشُ عنْ نفعِ قومِه، فلا أَسْكَنَ الباري بِجُثَّتِه قَلْبَا
عدوٌّ لئيمٌ، حاربَ اللّهَ جَهْرَةً، ومَنْ يعترضْ للّهِ يُشْهِرْ لهُ حَرْبَا»[2].

هذا المفهوم للشعر جعل شعره وأدبه وطنيّا بجدارة، لأنّ الوطن هو حبّه الأوّل والأخير، فقد أخلص في هواه -كما سبق- شعره وضميره ومهجته والوجودا في قصيدته "الشمال الإفريقيّ يتّحد" سنة 1937، وهو يلخّص عقيدته في محبّة الأوطان منذ سنة 1925، في أحد نصوصه المبكّرة "تقريظ ديوان أبي اليقظان"، وذلك حيث يقول:

«ليس المحبّة للأوطان -صاح- سوى عقيدة حصرت في هاته الدرر
صبر، وصدق، وإخلاص، وتضحية، وهمّة، وإباء قلّة الضجر
ما الكبل إلاّ خلاخيل الرجال، وليـ ـس الصلب إلاّ الدعا في سنّة البشر
ما الشنق إلاّ رقيّ بالحبال إلى أفق السما، وشريف الذكر والخبر
فتلك هي محبّات الرجال إلى أوطانهم مثلما علّمت فابتشر»[3].

ولأنّ قضية وطنه الأولى بمختلف مستوياته كانت الاستعمار غدا أدبه أدبا ثوريّا، وتدرّج في ثوريته منذ نصوصه الأولى، لتبلغ أوجها في آخر قصيدة أبدعها قبل دخوله السجن، قصيدة "الشمال الإفريقيّ يتّحد"، على ما سبق بيانه، بعد أن تغلّب تدريجيّا على العوائق النفسيّة في سبيل صرخته العاتية في وجه الاستعمار.

ولعلّنا نلاحظ على هذه العناصر الثابتة في رؤيته للشعر صدورها عن شعور دينيّ عميق، والتزام بتعاليمه السمحة، وبأخلاقه الفاضلة، مصداقا لما يشير إليه في قوله:

1- السابق59، 60.

2- نفسه64.

3- مجلّة "الوفاق"، مج[03]، ج[27]، ؟؟/07/1343هـ، [؟؟/02/1925م]، ص27.

«وما الشّعــرُ إلاّ وحـــيُ قلـــبٍ مُطَهَّرٍ،   تنزَّلَ يُحْيي في الورى العقلَ والشَّرْعَا»[1].

إنّ الأدب -عموما- عند مفدي رسالة يؤدّيها الأديب اتّجاه شعبه ووطنه، والظرف الذي وجد فيه الأديب هو الذي يحدّد مضمون رسالته، لا العكس[2]، ففي مجتمع مستعمر استعمارا استيطانيا لا يمكن أن تكون سوى رسالة وطنية ثوريّة. هذه الرسالة يمليها الواجب والضمير والأخلاق السامية، تمليها تعاليم الدين الحنيف، وأداء الأديب لهذه الرسالة مجد له، وشرف وكمال. وشرط تبليغ الرسالة صدق الأديب في تبليغها، وحفاظه على مصداقيته أخلاقيّا ودينيّا، ولذلك كان يمارس الرقابة التي تحدّثنا عنها في شعره خاصّة؛ وعندما تورّط في شركة "المعمل العربيّ"، وافتُضح أمر الاحتيال فيها، اختار الابتعاد إراديّا عن الوسط الأدبيّ في الجزائر، بالرغم من براءته، لمدّة لا تقلّ عن ثلاث سنوات، هبط فيها إنتاجه المنشور إلى مستوى الصفر خلال سنة ونصف منها.

هذا المفهوم للأدب نقرؤه في أحد نصوصه النثريّة الأولى، في مقاله "كلمتي في وادي ميزاب"، في نوفمبر 1926، وذلك حيث يقول: «الجريدة الحيّة مبدؤها التفكير الحرّ، وصراحة الضمير. ولعمر الحقّ ليس كلّ ابن أنثى لمستعدّ لتحمّل هذين المبدئين ما لم يكن عصاميّا، حرّا في ضميره، حرّا في جميع حركاته وحالاته، ثمّ شجاعا أبيّا، وقليل من هؤلاء أسعفتنا بهم المقادير بعد ما اعترى الأمّة قحط في الرجال من أمد غير قريب ! ! !...

[...] التهيّؤ للقيام بالواجبات الشرفيّة قياما صحيحا يحتاج إلى قوّة هائلة تكاتفه، حتّى تكون آثاره على قدر شرفه في عيون وامقيه، ومسايريه إلى الأمام. بيد أنّ النهوض بموجبات الشرف تناولٌ لوظيفة عظمى، يعدّ النكوص عنها، والانخزال من الصفّ الذي يشيّد لأجلها تزعزعا في العقيدة، وسقما في الوجدان، وخورا في العزيمة أمام الضمير الحيّ، والجموع المتراصّة من الأمّة الناظرة إليه بعين الجذل والغبطة والإجلال، فأخلق بمن يغمس يده في بحر الإصلاح ألاّ يرجعها صفرا ما دام يعتقد أنّه فرد من أفراد الأمّة، يجب عليه أن يحبّ لنفسه من ضروب الصلاح ما يحبّ لهم جميعا، وأنّه الحيّ إن حييت أمّته، «وإن توارى في ثرى رمسه»، وأنّه الميّت إن ماتت أمّته، وإن بلغ مني يومه وأمسه. وإلاّ فما أجدره بإراحة نفسه، وإراحة الناس من الانتظار لنتيجته الخرقاء، والتضييق عليهم بوجوده بين الذين لا يستبدلون من الإقدام انهزاما، ومن الغنيمة غراما، ولَردُّ أمس بالحبال، وقنعُ الشمس بالعقال، ونقل ماء البحر بالغربال أهون على مثله من صعود درجة في سلّم الكمال»[3].

---

[1]- أمجادنا تتكلّم .. وقصائد أخرى81.

[2]- يقول في حوار إذاعيّ سنة 1966، في معرض انتقاده لبعض الشعراء التونسيّين: «هؤلاء تجد عندهم مجموعة قصائد بديعة جدّا، مطربة راقصة، ولكنّها عاطفية، وفي الغزل، أيّام كانت الدماء تسيل، وكان الأحرار في السجون يقاسون العذاب الأليم. الشعر الحقيقي الذي يخلد -وليس التزاما- [هو شعر الشاعر الذي] يعيش وضعا، وهو ضحية ذلك الوضع، فيجب أن تنبثق عاطفته، وتنفجر فيه، يجب أن يواكب مسيرة الحرّية والكرامة والعيش السعيد» ينظر: زيارة خاطفة، حصّة في الإذاعة التونسيّة، لعبد المجيد بن جدو، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون" سنة 1966، مع تخليص النصّ من العامية، وضبط عبارته.

[3]- جريدة "وادي ميزاب"، س01، العدد 06، 1345/04/28هـ، 1926/11/05م، ص04.

وقد بلغ أعلى درجات الإحساس بالمسؤولية في أداء هذه الرسالة عندما أصبح مناضلا في صفوف "نجم شمال إفريقيا"، و"حزب الشعب الجزائريّ"، ورئيسا لهذين التنظيمين في الجزائر، عندما لاحظ حرج الظرف التاريخيّ الذي وجد فيه، بين أن تتوجّه الجزائر إلى الحريّة والاستقلال، أو أن تربط مصيرها بمستعمرها أبد الآبدين بالإدماج والإلحاق، فجدّ في أمره جِدًا غير مسبوق، فكتب سلسلة مقالاته في النهضة ضدّ المؤتمر الإسلاميّ، وكان يفتتحها بهذه العبارة: «تحت مسؤوليتي الأدبيّة الخاصّة، وبإمضائي الصريح، أكتب هذه الحقائق، وأعمدة "النهضة" الغرّاء فسيحة لكلّ من يريد الملاحظة. مفدي زكرياء»، ليحمّل نفسه مسؤولية ما جاء فيها، ويبرّئ ساحة حزبه منها، مع الاستعداد التامّ للانتقاد واستقبال الردود، حتّى إذا استقبل ردّا أوّلا شكره «على التزامه الآداب والنزاهة في الكتابة، شأن الكتّاب الذين يحترمون أنفسهم، ويفهمون معنى الملاحظة والانتقاد، ويا ليت سائر كتّابنا ينحون هذا المنحى في أساليب انتقاداتهم حتّى يخلص الأدب ممّا علق به من الهنات»[1]، لأنّه سبق وأن نعى على الكتّاب في الجزائر عدم التمييز بين الانتقاد النزيه الذي يسمّى أدبا، وبين الهمز واللمز، وذلك حيث يقول: «أليس صحيحا أنّنا إلى الآن لم نتعلّم الكتابة، ولم نعد نفرّق بين الانتقاد النزيه الفنّيّ الذي يطلق عليه اسم «أدب»، وبين الهمز واللمز، والتعريض والسبّ، وهذه ظاهرة غريبة تكاد تكون عامّة في كتّاب الجزائر، فما من أحد ينتقد آخر إلاّ وينتهيان بعداوة، ويختمان على قطيعة، كأنّ جراحات قديمة بينهما ترجع إلى مبدإ الخليقة، ويتعذّر -غالبا- أن يصفو كدرها، وتزول الحفيظة بينهما، وتعليل ذلك أنّ الأدب لا يزال في الأمّة مائعا رجراجا، تتسلّط عليه العاطفة فتقوده، ولا يستطيع العقل أن يقف به عند حدّه»[2]؛ وعندما يستقبل الردّ الثاني يلاحظ على الأوّل والثاني ما يلي: «وكان هذا المقال أيضا يحمل إمضاء مستعارا، وهو "الوفائي"، ولا أدري لماذا يستحي بعض الناس من ذكر أسمائهم الصريحة، والإقلاع عن الاختباء دائما من وراء حجاب، ولعلّ الشجاعة الأدبية التي تنقص هؤلاء تجبرهم أبدا أن يكتموا إذا كتبوا، وأن يرمزوا إذا خطبوا؛ وإذا كانت هنالك علّة تبرّر لهم هذه المواقف المترجرجة، فلا تكون إلاّ شيئا واحدا، وهو أنّهم يكتبون غير ما يعتقدون، ويقولون غير ما يضمرون، ولا غرابة في وجود هذا النّوع من الكتّاب في الجزائر، ما دام هنالك شيء يقال له "الأنانيّة"، يفعل بالنفوس ما لا تفعله الأوبئة والآفات»[3].

وعندما يكتب المقال الافتتاحي لجريدة "الشعب" في أوت 1937، يعنونه "صرخة الشعب: مبدؤنا في طريق الجهاد" يتوجّه إلى الشعب عموما، ليحدّد خطّ سير جريدته، فيقول: «اقتربت الساعة -أيّها الشعب- وانشقّ الطريق للحياة، وحقّ لك -يا شعب- أن تتمتّع بصحافة حرّة صادقة، غير مخادعة ولا مخاتلة، ولا مواربة ولا مداجلة، لا تملك غير الحقّ سلاحا، ولا ترى في غير الصراحة كفاحا، وإنّه إن افتخر الناس بأنسابهم، فهي تفتخر

---

[1]- جريدة "النهضة"، س14، ع4422، 1356/06/04هـ، [11]/08/1937م، ص05.

[2]- جريدة "الأمّة" الجزائريّة، س3، ع121، 1356/03/06هـ، 1937/05/18م، ص02.

[3]- جريدة "النهضة"، س14، ع4423، 1356/06/05هـ، [12]/08/1937م، ص05.

بنسبها إليك، وإذا تباهت الشعوب بآثارها، فباه اليوم -يا شعب- بمحصول دماغك، وبصنع يديك!، فسلام عليك -يا شعب- يوم كنت حرّا عزيزا، ويوم أردت أن تسترجع عزّك وحرّيتك، ويوم تعود بفضل جهادك واعتمادك على نفسك سيّد أرضك، وربّ بلادك...!»؛ وعندما يتوجّه إلى الكتّاب يخاطبهم -شعرا ونثرا- قائلا: «أيّها الكتاب الكرام:

تعالَــوْا نقــتسمْ حُلــوَ الأماني، تعالَوْا نقتسمْ هــذي الــجِرَاحَا
تعالَوْا نرهــفِ الأقــلامَ يــومًا، ونذكرْ عندها الأدبَ الصُّــرَاحَا
ونكتبْ بالــدّمِ الغــالي حروفًا، نعلّمُ للبنيــنِ بــها الكِــفَــاحَا
وننقذْ باليَراعةِ حــقَّ شعــبٍ، غدا نــهبًا، وأصبــح مُسْتَبَاحَا
ونــرعى للعــروبةِ في بنــيــها يدًا سلفــتْ تــذكّرُنا الصَّلاَحَا
كفى يا أيُّــهاالكتّــابُ نــومًا، وحسبُكُمُ -بنــي أمِّي- مُزَاحَا
يُقضِّي القــومُ عمرَهُمُ جهــادًا، ونَقضي العمــرَ كالثّكلى نُوَاحَا
فلا نالَ الكرامــةَ مَن تَــوَانَى، ولا رُزقَ الــحياةَ مَنِ اسْتَرَاحَا.

وإذا لبّيتم هذه الصرخة المنبعثة من فؤاد مقروح، وقلب يلتهب، فدونكم الميدان تقدّموا، إنّما يسائلكم الشّعب عن ثلاث: النزاهة، والاختصار، والوضوح، وحذار!، حذار!، أن ينسيكم الشيطان أنّ الصحافة تلقّب بصاحبة الجلالة، فاربؤوا بصاحبة الجلالة أن تسفل، وأن يداس تاج جلالها ووقارها. لستم -على ما نظنّ- بأقلّ منّا غيرة على هذا التّاج الذي طالما نزل به بعض أشقياء بني آدم إلى مواطئ النعال، فارحموا عزيزا ذلّ، وعاليا نزل»[1].

بين النصّين أكثر من عشر سنوات، وإذا هما يحملان نفس الأفكار، ونفس التوجّه في الحياة، الأوّل صادر بالأساس عمّا تلقّاه في تكوينه الوطنيّ الأوّل، والثاني هو خلاصة تجربة ثريّة في العمل الوطنيّ الجزائريّ، فإذا مفدي سنة 1926 هو نفس مفدي سنة 1937، بالرغم من الهزّات التي مرّ بها في حياته بين التاريخين، ممّا يدلّ على متانة التكوين الدينيّ والخلقيّ والوطنيّ الذي تربّى عليه في البعثة العلميّة المزابية بتونس، وعلى قوّة شخصية مفدي في مواجهة المصاعب التي اعترضت سبيل حياته، إذ لم تغيّر وجهته فيها، وبقي وفيّا لها في جميع الأحوال.

---

[1]- الحركة الاستقلالية في الجزائر106-108.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة على رسوله الكريم محمد بن عبد اللّه، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين.

أتممنا –بتوفيق الله ومنّه وكرمه– هذا البحث، بعد أن تتبّعنا فيه تفاصيل حياة مفدي إنسانا ومناضلا في الأبواب الثلاثة الأولى من البحث، من أبعد جدّ عرفناه له، إلى خروجه من السجن سنة 1939، وتفاصيل حياته أديبا وشاعرا في البابين الرابع والخامس، من ميلاده أديبا وشاعرا إلى آخر قصيدة أنشأها، وإلى آخر نصّ نثريّ كتبه، في الفترة المحدّدة للبحث:

اهتممنا في الباب الأوّل بنسبه وعائلته لبيان مقامها في بني يزقن، وفي مزاب، ممّا فسّر لنا ما يتمتّع به شاعرنا من اعتزاز بانتمائه، واعتداد به؛ وبعد بيان نشأته الأولى، كشفنا عن الدور الكبير للبعثة العلميّة المزابيّة بتونس، في تشكيل وعيه وشخصيّته الأدبيّة والنضاليّة، وتحديد موقفه في الحياة، وهو العمل على نهضة وطنه بمختلف مستوياته، مزاب والجزائر والمغرب العربيّ. ثمّ تتبّعنا خطواته الأولى في الحياة العمليّة، وكانت متعثّرة، لأنّه كان يبحث عن عمل يناسب شخصيته، ويناسب ما نذر حياته له.

ووقفنا في الباب الثاني على بداية خروجه من فلك البعثة وشيوخها سنوات بعد عودته من تونس، عندما حقّق استقلاله الاقتصاديّ، بإنشائه شركة زكرياء وعبد الجبّار؛ وتبعه انفكاكه من العمل الوطنيّ المزابيّ الصّرف، وتفتّحه على الحركة الإصلاحيّة الجزائريّة، والنضال السياسيّ على مستوى المغرب العربيّ في مؤتمرات طلبة شمال إفريقيا؛ ورأينا دخوله عالم الحركة الوطنية الجزائريّة من بابه الواسع، بعد خطاب مصّالي الحاج الشهير، في 02 أوت 1936، فقد انخرط في حزب "نجم شمال إفريقيا"، ليصبح بعد مدّة وجيزة رئيسه بالجزائر؛ ونفس المنصب تولاّه عند إنشاء حزب الشعب الجزائريّ، بعد حلّ النجم؛ وأبنّا بصفة خاصّة عن بصمات مفدي في توجّه الحزبين، فقد سعى إلى جعله أكثر جزائريّة بإدراج الحرف العربيّ في أدبياته ومناشيره، وبفرض أولوية نشاط الحزب بالجزائر على فرنسا.

ثمّ استقصينا نشاطه في إطار نشاطات الحزب غير المسبوقة بعد عودة مصّالي في 20 جوان 1937، في مدّة وجيزة لا تزيد على شهرين، بالإضافة إلى صراعاته ضمنها خاصّة مع المؤتمر الإسلاميّ، وانتهى كلّ ذلك بإيداعه بمعية مصّالي وقادة الحزب السجن، يوم 1937/08/27.

واهتممنا في الباب الثالث بوضعه في السجن مع رفقائه، وتتبّعنا فصول محاكمتهم في المحكمة الابتدائيّة، ثمّ في محكمة الاستئناف، وأخيرا في محكمة النقض والإبرام؛ وكفاحهم أثناء ذلك من أجل افتكاك الحقّ في السجن السياسيّ، بداية بالإضراب عن الطعام في أكتوبر1937، إلى افتكاك هذا الحقّ بتاريخ

1938/05/31، بحكم محكمة باريس؛ كما تتبّعنا الحالة النفسيّة لمفدي في السجن منذ دخوله إليه، ولاحظنا صعوبتها بعد وفاة والده، وهو على خلاف معه بسبب نشاطه السياسيّ، وما ترتّب عن موته من مزيد تدهور في وضعه ووضع عائلته الاجتماعي، وهي حالة لم يؤثر فيها كثيرا تواصله مع خارج السجن بعد استفادته وزملائه من نظام السجن السياسيّ، وإنّما أفضى به إلى موقف جديد في حياته، لاحت بوادره وهو في السجن، وهو الإسهام في العمل الوطنيّ، لكن بعيدا عن الأضواء، ليهتمّ أكثر ببناء أسرته، والقيام بمسؤولياته اتّجاهها.

ولأنّ البحث في حياة مفدي هو بالضرورة بحث في تاريخ الحركة الوطنيّة، لأنّه كان من أبرز شخصياتها، فلا عجب أن يجد القارئ للبحث عددا وفيرا من تفاصيل هذا التاريخ، فيما يتعلّق بمحيطه القريب: نجم الشمال الإفريقيّ، وحزب الشعب الجزائريّ، وبما يتعلّق بنشاطه فيهما على وجه الخصوص، ممّا لم أقف عليه في الدراسات السابقة؛ واهتممت مقابل ذلك -استكمالا للصورة- بمواجهة الإدارة الاستعماريّة الفرنسيّة لعمل الحزبين الوطنيّين، بالجزائر وبفرنسا، بداية من حلّها للنجم في 1937/01/26، إلى سعيها الحثيث إلى حلّ حزب الشعب الجزائريّ، فتمّ إقراره بتاريخ 1939/09/26، وقد كشفنا في ثنايا ذلك عمّا رافق هذه المواجهة من خلافات داخل الإدارة الاستعماريّة بين الجزائر وفرنسا، وداخل الإدارة الاستعماريّة بالجزائر.

وفي الباب الرابع كان اهتمامنا منصبّا على حياة مفدي زكرياء الأدبيّة، وعلى إنتاجه فيها، في فترة ما بين سنتي 1921 و1931، وهو ما أمكننا من تحديد ميلاده أديبا وشاعرا في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، وإيضاح أثر تكوينه الأوّل في مدرسة "السلام"، في اكتشاف موهبته الأدبيّة والشعريّة، وأثر نشاطات البعثة، وجمعية "الوفاق" فيها، في صقلها وإبرازها، وتتبّع نجاحاته الأدبيّة الأولى خارج إطار البعثة، وبدعم وتوجيه من رؤسائها؛ كما أوقفنا على تراجع إنتاجه الأدبيّ بعد قطع دراسته بتونس، وعودته إلى مزاب، ثمّ دخوله الحياة العمليّة؛ وملاحظة محاولاته المتكرّرة في التوفيق بين حياته العمليّة في التجارة التي لا تتّسع لحرفة الأدب، والحفاظ على جذوة الأدب متّقدة في نفسه، فنجح حيث أخفق غيره، بعد معاناة.

أمّا الباب الخامس فكان التركيز فيه على مسيرة مفدي الأدبيّة وإنتاجه، بداية من تحقيق استقلاله في حياته الشخصيّة على جميع الأصعدة في سنة 1932 إلى خروجه من السجن في 1939، فأمكننا تتبّع إنتاجه الغزير فيها من بيان نقلته النوعيّة من العمل الوطني المزابيّ إلى العمل الوطنيّ الجزائريّ، وملاحظة توجّهه إلى العمل في حقل الصحافة بالموازاة مع أعماله الأخرى: عمل مراسلا لجريدة "النهضة"، وسعى لإنشاء صحيفة على مستوى المغرب العربيّ "الحياة"، وشارك في هيئة تحرير جريدة "الجحيم"، وانتهى إلى إصدار العدد الأوّل من جريدة "الشعب" لسان حال "حزب الشعب الجزائريّ" الناطق باللغة العربيّة في الجزائر، قبل

دخوله السجن في أوت 1937؛ كما كشف لنا عن انحسار كبير عرفه إنتاجه الأدبيّ في السجن، بسبب ظروف السجن عموما، وبسبب موت والده وهو غير راض عنه انغماسه في السياسة بصفة خاصّة؛ وذلك بالرغم من استرجاعه لحيويّته ونشاطه بعد استفادته وزملائه من مزايا السجن السياسيّ، لكن لا إلى الحدّ الذي كان عليه قبل دخول السجن، ولا إلى ما يقاربه، فظهر أثره في إنتاجه، فكان قليلا نادرا بالرغم من قيمته الأدبيّة والفكريّة.

وقمنا في البابين الأخيرين بإحصاء ما أنتجه مفدي في الفترة المدروسة من نصوص أدبية في أغلبها، وميّزنا بين ما وقفنا عليه، وما بقي في عداد المفقود، فتوضّحت بذلك فترات المدّ والجزر في إنتاجه، لنحاول بعد ذلك تفسيرها في ختام الباب الخامس من خلال أحداث حياته؛ ثمّ ركّزنا في ختام البابين: على خطواته الأولى في الشعر والنثر، لبيان نبوغه المبكّر، ومحاولة تغلّبه على العوائق التي اعترضته في هذا السبيل، لأنّه كان عصاميّا؛ وعلى منطلقاته الفكريّة والأدبيّة التي كانت من أثر تكوينه الأوّل في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، ثمّ تعمّقت بفعل الممارسة والتجربة، فلم نلمح تغييرا وإنّما لاحظنا تأكيدا وترسيخا لها؛ وعلى الحسّ الوطنيّ والثوريّ منذ نصوصه الأولى، فتتبّعنا مراحل صعوده عند ظهور أمل جديد في نهضة بلاده وانعتاقه، وهبوطه عند فقدان هذا الأمل، وقد أفضى بنا إلى الوقوف على أوج مدّه الثوريّ وتألّقه في قصيدته الأخيرة قبل دخوله السجن، إذ كانت لا تبعد كثيرا عن شعره الثوريّ إبّان الثورة التحريريّة الكبرى؛ وأخيرا على بيان مفهومه للأدب والشعر ورسالتهما في الحياة، فإذا هي رسالة وطنيّة في البدء والمنتهى.

هذا غيض من فيض، لأنّ جلّ ما تناولناه في بحثنا جديد، لاعتمادنا على مصادر لم نسبق إليها، وهو ما يبيّن ثراء هذا الموضوع، ورجائي أن يفسح بسبب من ذلك المجال لبحوث أخرى، تتمّم ما سبق من بحوث، وما أنجزناه في عملنا هذا، خاصّة فيما يتعلّق بأدبه، فإنّني لا أدّعي الإحاطة بجميع ما أنتجه، والمفقود من أدبه في هذه الفترة كثير؛ ثمّ تأتي بعد ذلك مرحلة 1940-1954، فهي فترة هامّة في حياة مفدي وتاريخ الحركة الوطنيّة، تتميّز بحساسيتها، تتطلّب استقصاء واسعا، وبحثا دقيقا عن إنتاجه، الذي نشره بأسماء مستعارة غير متداولة.

ثمّ إنّ مسحي لعدد من الصحف الجزائريّة كجريدة "النجاح"، وجرائد الشيخ أبي اليقظان، و"الشهاب"، و"الحياة"، و"الجحيم"، و... ؛ والصحف التونسيّة كجريدة "الزهرة"، و"الوزير"، و"النهضة"، و... -أطلعني على عدد وفير من النصوص الأدبيّة لأدباء جزائريّين، شعراء وكتّاب، منهم من لم يستكمل جمع إنتاجه كمفدي، ومنهم من لا يزال في عداد المغمورين حتّى عند المختصّين، بعد ما يقارب نصف قرن من الاستقلال، وهي مدّة تقطع العذر في تقديري، إذا كنّا حريصين على شخصيتنا الوطنية الجزائريّة، وشخصيتنا الأدبيّة، ويؤلمنا تدهورهما في واقعنا اليوميّ؛ ولا يمكن تدارك هذا الوضع إلاّ إذا أفسحنا المجال في

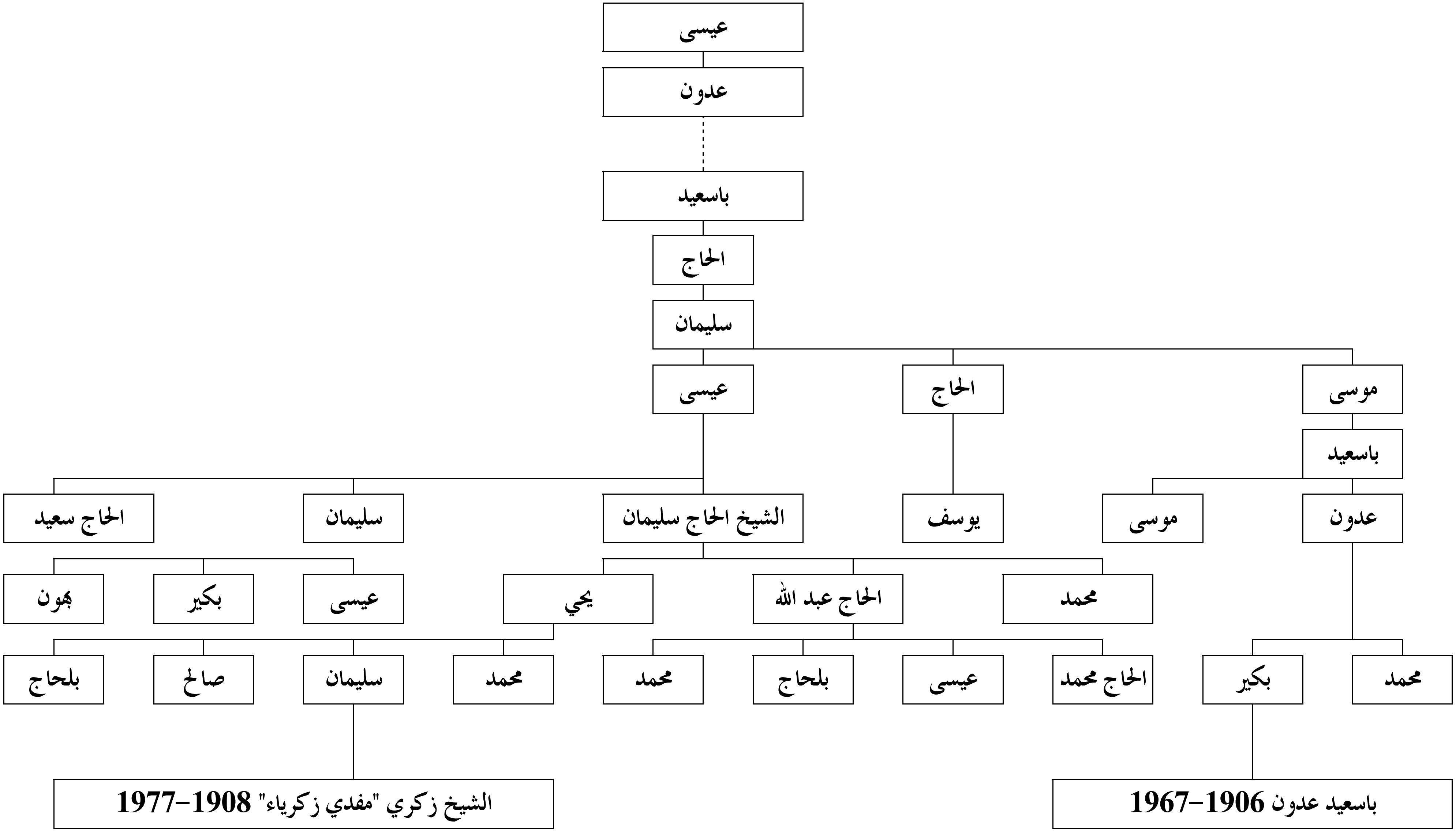
بحوثنا الجامعيّة للتأريخ لأدبنا قديمه وحديثه، وهو ما يشكو -بحسب تجربتي المتواضعة في الجامعة- انحسارا، مقارنة بما يتطلّبه العمل من جهود جبّارة، بسبب انسياق جلّ بحوثنا وراء مناهج الدراسة الأدبيّة الحديثة، وعزوفها عن المنهج التاريخيّ، ولا سبيل للتأريخ لأدبنا بغيره.

وأخيرا أحمد اللّه أوّلا وآخرا على ما أولاه من توفيق في طلب المادّة، ونجح في تمام المسعى بتحرير البحث، وما غمرني به من نعمائه أثناء ذلك، فرزقني الثبات والإقدام برغم العوائق والمثبّطات؛ وأسأله التوفيق في قابل بحوثي ودراساتي، واللّه الموفّق للصواب.

مصطفى بن الحاج بكير حمودة

الملحق

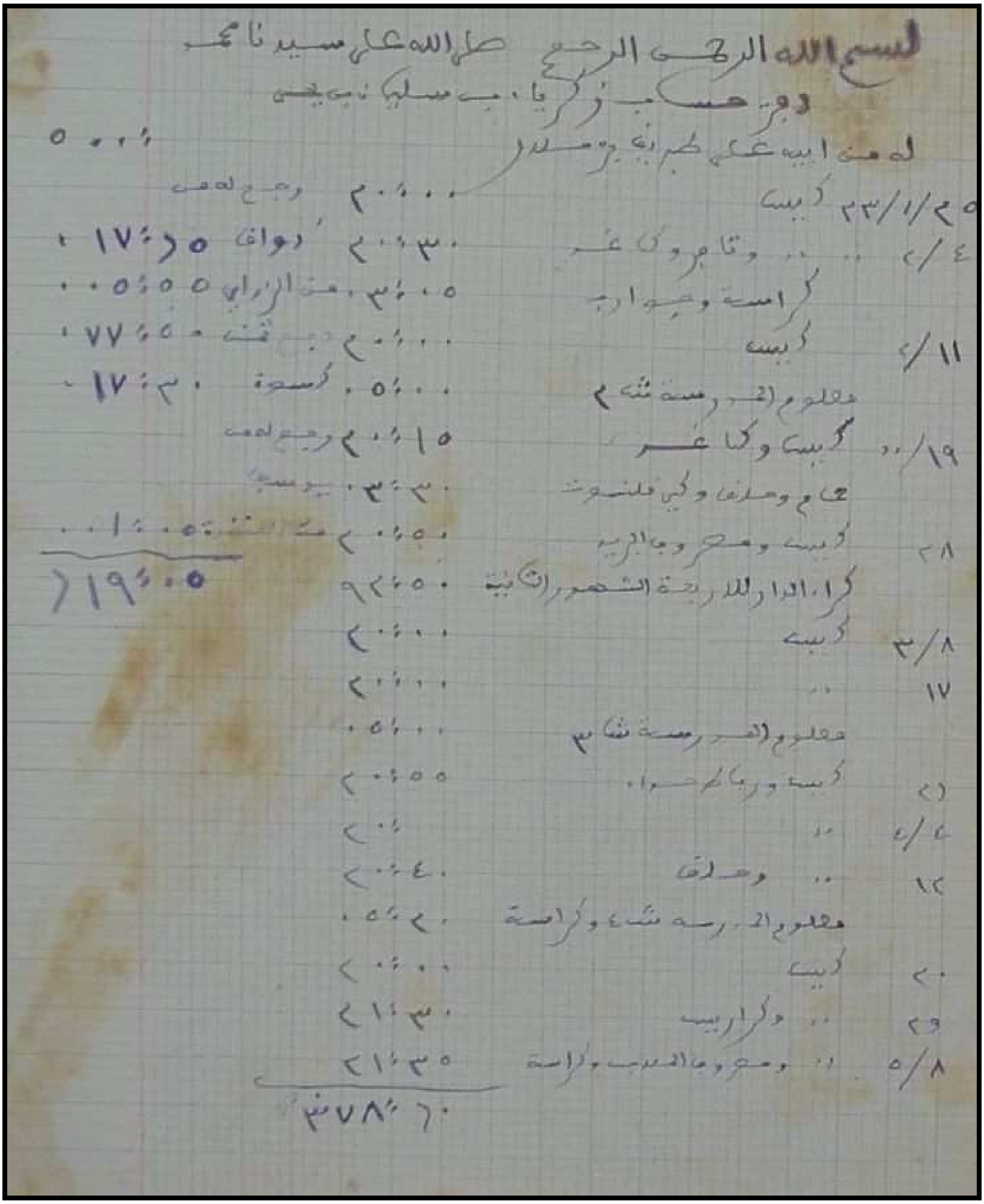
شجـرة نسب عائلة آل الشيخ، من أولاد عدون بن عيسى، عرش أولاد اعنان



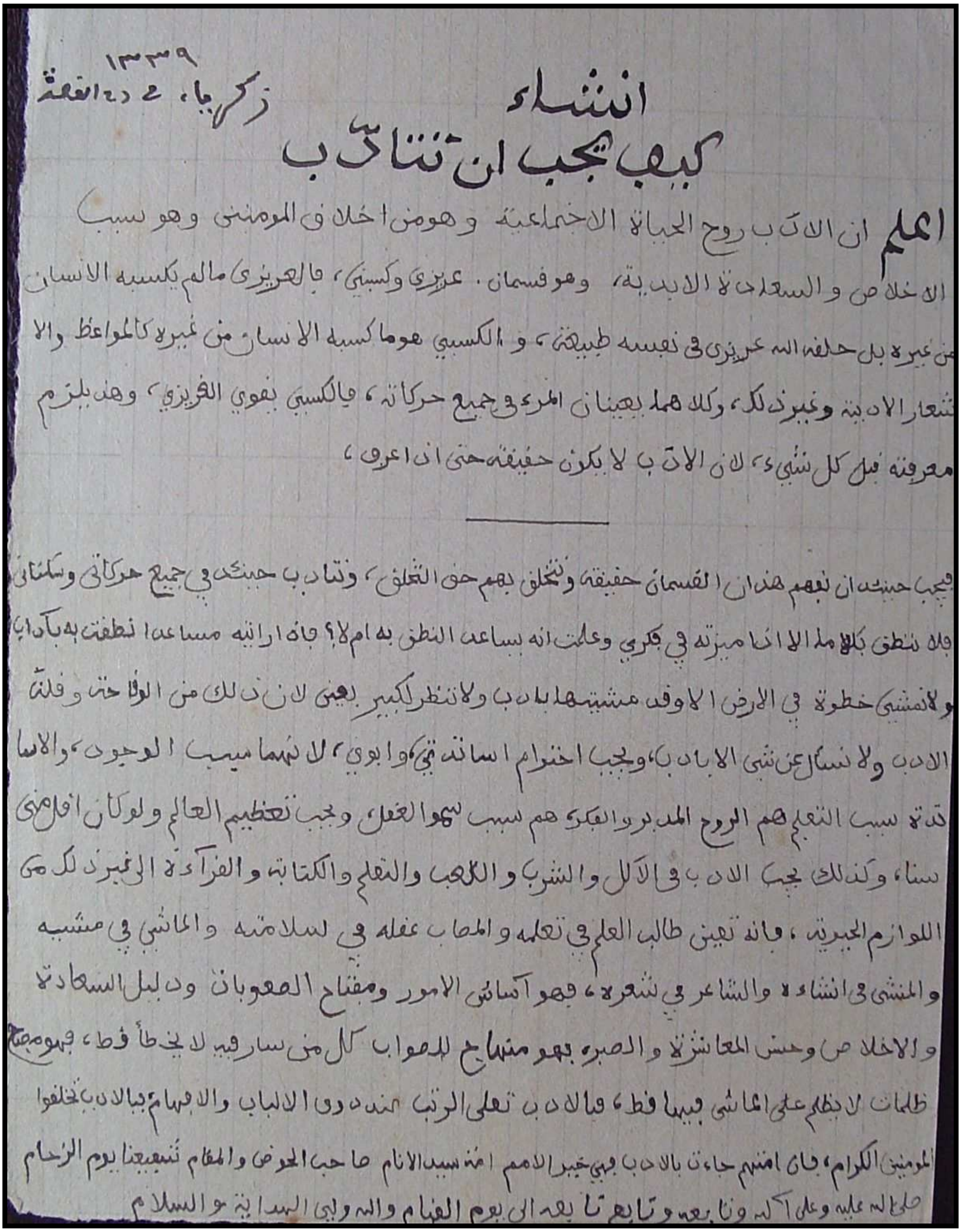


البعثة العلميّة المزابية بتونس قبل 22/02/1924

01	عمر بن محمد بن إبراهيم [بكاي]	16	إبراهيم بغباغة
02	بزملال سليمان بن عمر	17	حمو بن سليمان [رمضان حمود]
03	داود بن بكير	18	محمد بن بكير [بن سليمان العطفاويّ]
04	محمد زرقون	19	أحمد بن إسماعيل
05	[الشيخ أبو اليقظان] الحاج إبراهيم بن عيسى	20	محمد بن الحاج قاسم
06	[الشيخ] محمد [بن الحاج صالح] الثمينيّ	21	يحي بن محمد تيازيت
07	عيسى بغباغة	22	حمو بن عمر [بن إبراهيم]
08	يوسف بن محمد	23	عيسى بن الحاج إبراهيم [أبو اليقظان]
09	عبد العزيز بن يوسف [الثمينيّ]	24	دواق إبراهيم بن عمر بن داود
10	زكرياء بن سليمان [مفدي زكرياء]	25	بوراس عبد الله [بن محمد]
11	سليمان بوجناح	26	محمد بن إبراهيم بن صالح
12	سعيد بن بكير بازين	27	كراوة صالح [بن سليمان]
13	عبد الله زرقون	28	أحمد بن الحاج يحي
14	عبد الله [بن داود] بغباغة	29	ابليدي سليمان [بن محمد]
15	أحمد بغباغة	30	إبراهيم بن محمد بن إبراهيم [بكاي]


بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد
دفتر حساب زكرياء بن سليمان بن يحيى

الصفحة الأولى من كرّاس متابعة مصاريف التلميذ زكرياء بن سليمان (مفدي)



١٣٣٩

زكرياء، ٢ ذي القعدة

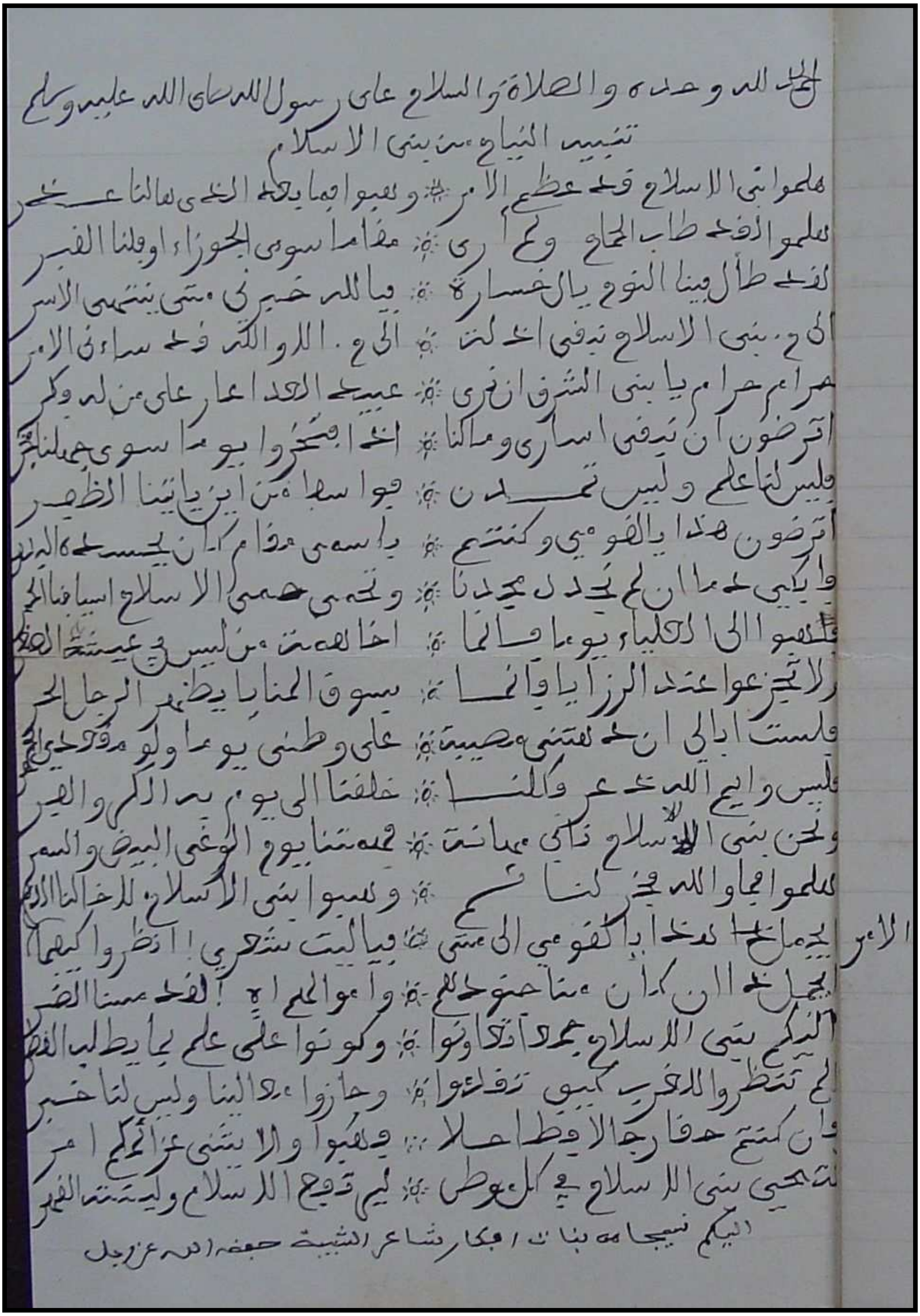
انشاء

كيف يجب ان نتأدب

اعلم ان الادب روح الحياة الاجتماعية وهو من اخلاق المومنين وهو سبب
الاخلاص والسعادة الابدية، وهو قسمان. غريزي وكسبي، فالغريزي ما لم يكسبه الانسان
من غيره بل خلقه الله غريزي في نفسه طبيعة، والكسبي هو ما كسبه الانسان من غيره كالمواعظ والا
شعار الادبية وغير ذلك، وكلاهما يعينان المرء في جميع حركاته، فالكسبي يقوي الغريزي، وهذا يلزم
معرفته قبل كل شيء، لان الادب لا يكون حقيقة حتى ان اعرف،

فيجب حينئذ ان نفهم هذان القسمان حقيقة ونتخلق بهم حق التخلق، ونتادب حينئذ في جميع حركاتي وسكناتي
فلا ننطق بكلمة الا اذا ميزته في فكري وعلمت انه يساعد النطق به ام لا؟ فاذا رايته مساعدا نطقت به بأدب
ولا نمشي خطوة في الارض الا وقد مشيتها بادب ولا ننظر لكبير بعين لان ذلك من الوقاحة وقلة
الادب ولا نسأل عن شيء الا بادب، ويجب احترام اساتذتي وابوي، لانهما سبب الوجود، والاسا
تذة سبب التعلم هم الروح المدبر والفكر هم سبب سمو العقل ويجب تعظيم العالم ولو كان اقل مني
سنا، وكذلك يجب الادب في الاكل والشرب واللعب والتعلم والكتابة والقراءة الى غير ذلك من
اللوازم الخيرية، فانه يعين طالب العلم في تعلمه والمصاب عقله في سلامته والماشي في مشيه
والمنشئ في انشائه والشاعر في شعره، فهو اساس الامور ومفتاح الصعوبات ودليل السعادة
والاخلاص وحسن المعاشرة والصبر، فهو مصباح للصواب كل من سار فيه لا يخطأ قط، فهو مصباح
ظلمات لا يظلم على الماشي فيها قط، فالادب تعلو الرتب عند ذوي الالباب والافهام فبالادب تخلقوا
المومنين الكرام، فان امتنا جاءت بالادب في خير الامم امة سيد الانام صاحب الحوض والمقام تشفعنا يوم الزحام
صلى الله عليه وعلى آله وتابعيه وتابع تابعيه الى يوم القيام والله ولي الهداية والسلام

أوّل نصّ لمفدي احتفظ به الشيخ الثمينيّ، مؤرّخ في 08 / 07 / 1921



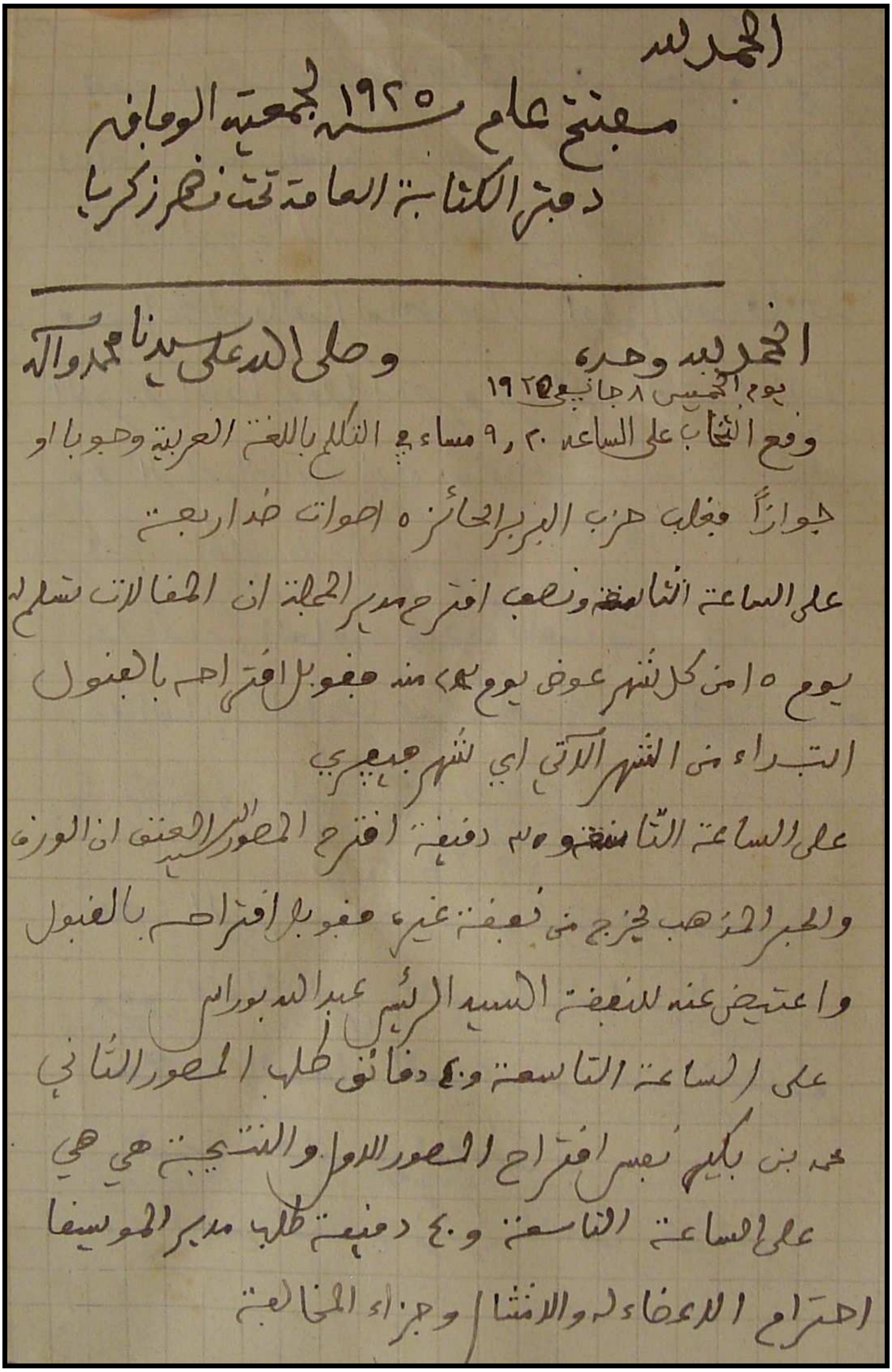
الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم

تنبيه الشباب من بني الاسلام

هلموا بني الاسلام قد عظم الامر ※ وهبوا جميعا [illegible] الخطب بالنا عسر
هلموا فقد طاب الحمام ولم ارى ※ مقاما سوى الجوزاء او قبلنا القبر
لقد طال فينا النوم يا لخسارة ※ فيا لله خبرني متى ينتهي الاسر
الى م بني الاسلام تبقى اذلة ※ الى م [illegible] قد ساءني الامر
حرام حرام يا بني الشرق ان نرى ※ عبيد العدا عار على من له فكر
اترضون ان تبقى اسارى وما لنا ※ اذا افتخروا يوما سوى جهلنا فخر
وليس لنا علم وليس تمدن ※ [illegible] من اين ياتينا الظفر
اترضون هذا يا قومي وكنتم ※ ذا سمي مقام ان يحسدكم الدهر
[illegible] ان لم [illegible] ※ ونحمي حمى الاسلام اسيافنا الحمر
فانهضوا الى العلياء يوما فانما ※ اخا الهمة من ليس في عيشة [illegible]
ولا تجزعوا عند الرزايا وانما ※ بسوق المنايا يظهر الرجل الحر
فلست ابالي ان دهتني مصيبة ※ على وطني يوما ولو [illegible]
فليس وايم الله دهر وانما ※ خلقنا الى يوم به الكر والفر
ونحن بني الاسلام نأبى مهانة ※ حمتنا بيوم الوغى البيض والسمر
هلموا جميعا والله [illegible] لنا ※ وهبوا بني الاسلام للخالق الامر
ايجمل هذا بالقوم الى متى ※ فيا ليت شعري انظروا كيف [illegible]
ايجمل هذا ان كان منا [illegible] ※ [illegible] لقد مسنا الضر
اليكم بني الاسلام [illegible] ※ وكونوا على علم بما يطلب [illegible]
الم تنظروا الغرب كيف تقدموا ※ وحازوا [illegible] وليس لنا خبر
فان كنتم حقا رجالا ابطالا ※ فهبوا والا ينتهي [illegible]
لتحيي بني الاسلام في كل موطن ※ ليرتفع الاسلام [illegible]

اليكم نسيجا من بنات افكار شاعر الشبيبة حفظه الله عز وجل

إحدى محاولات مفدي الشعريّة الأولى جوان 1922

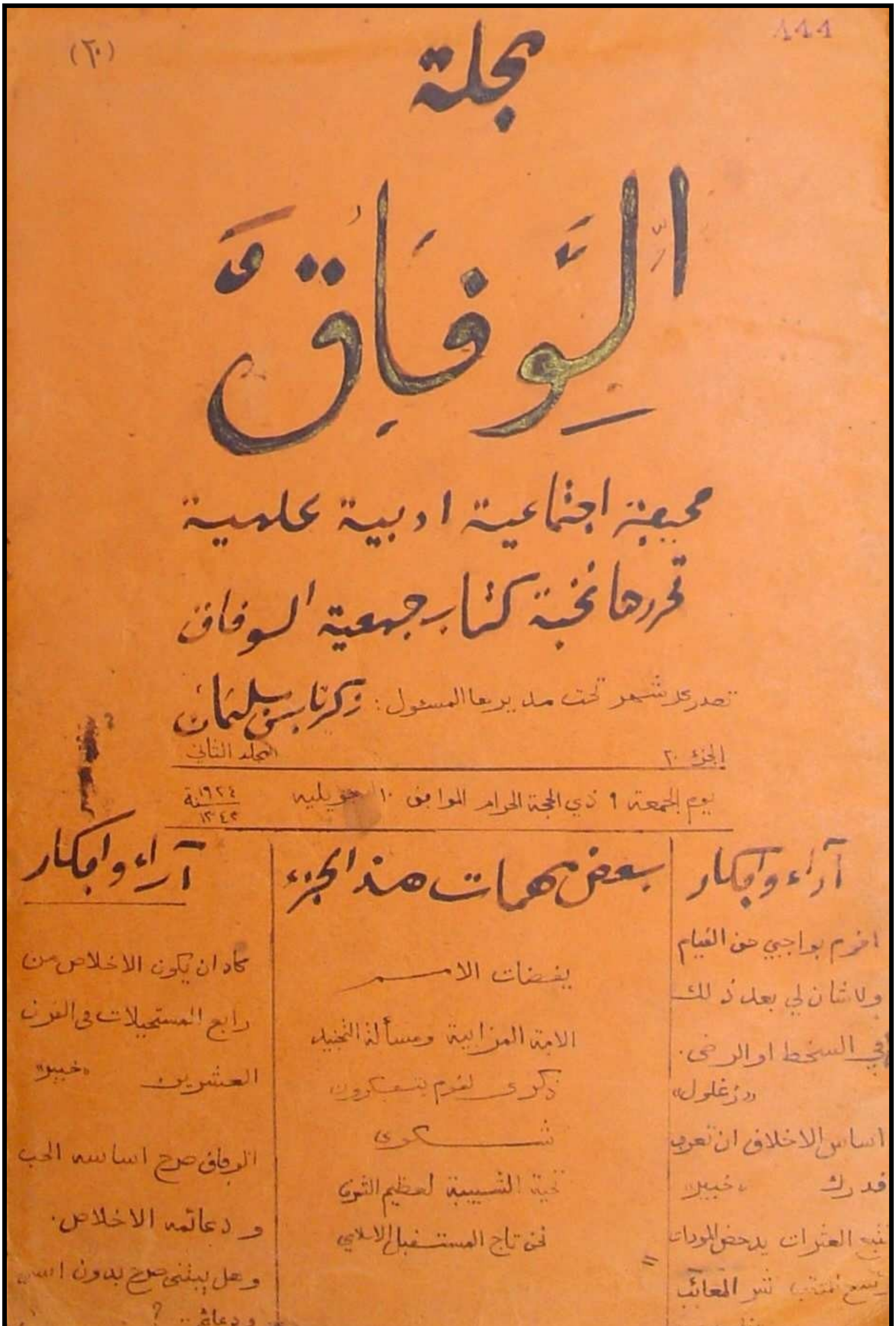


الحمد لله

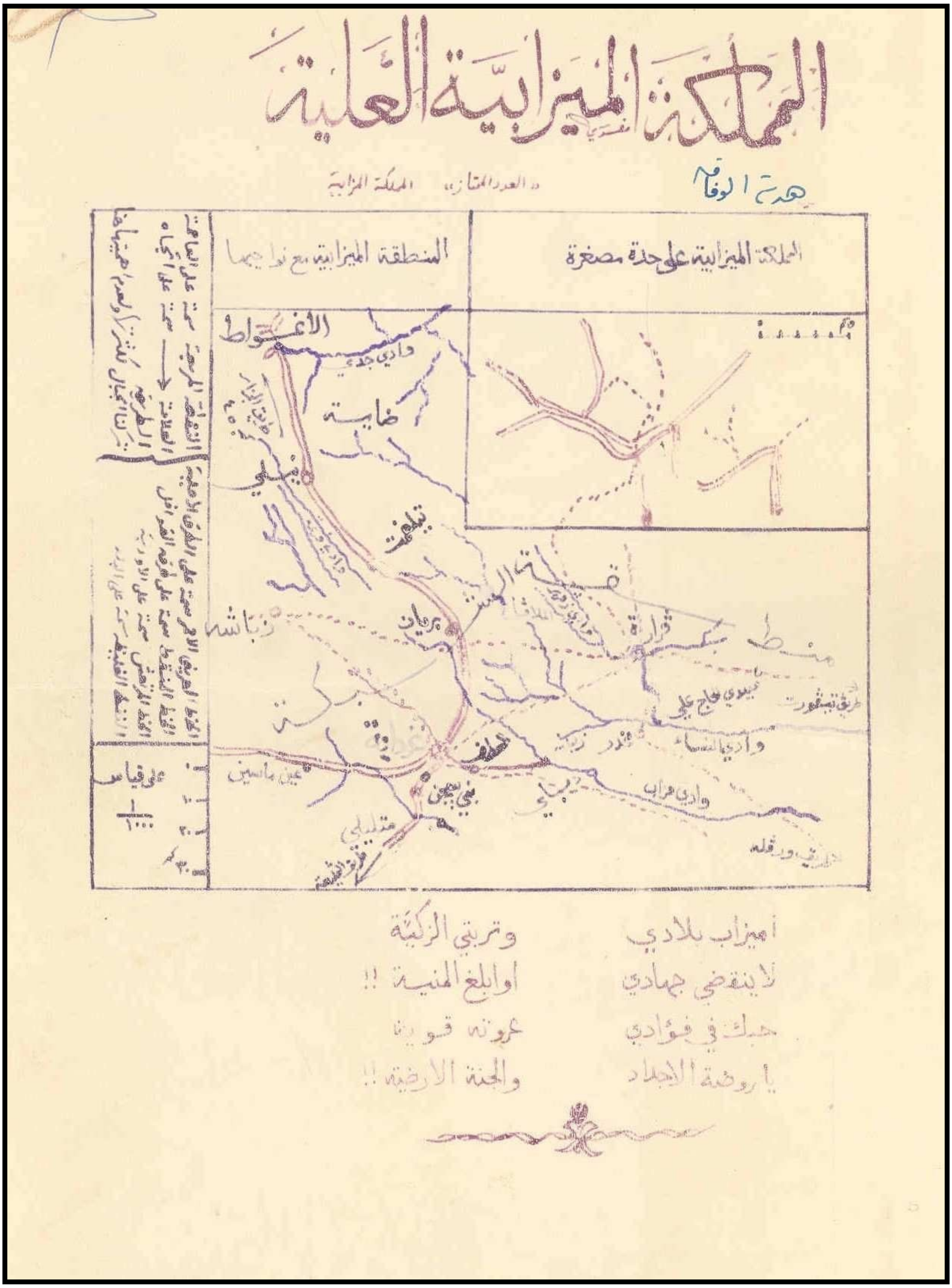
مفتتح عام سنة ١٩٢٥ لجمعية الوفاق
دفتر الكتابة العامة تحت نظر زكريا

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله
يوم الخميس ٨ جانفي ١٩٢٥
وقع انتخاب على الساعة ٩,٣٠ مساء في التكلم باللغة العربية وجوبا او
جوازا فغلب حزب الجبر الجائز ٥ اصوات ضد اربعة
على الساعة الثامنة ونصف اقترح مدير المجلة ان المقالات تسلم له
يوم ١٥ من كل شهر عوض يوم ٢٧ منه فقوبل اقتراحه بالقبول
ابتداء من الشهر الآتي اي شهر فيفري
على الساعة الثامنة و٥٠ دقيقة اقترح المصور السيد العنق ان الورق
والحبر الذهب يخرج من نصف غيره فقوبل اقتراحه بالقبول
واعترض عنه للنصف السيد الرئيس عبد الله بوراس
على الساعة التاسعة و٤ دقائق طلب المصور الثاني
محمد بن بكير نفس اقتراح المصور الاول والنتيجة هي هي
على الساعة التاسعة و٦ دقيقة طلب مدير الموسيقى
احترام الاعضاء له والامتثال وجزاء المخالفة

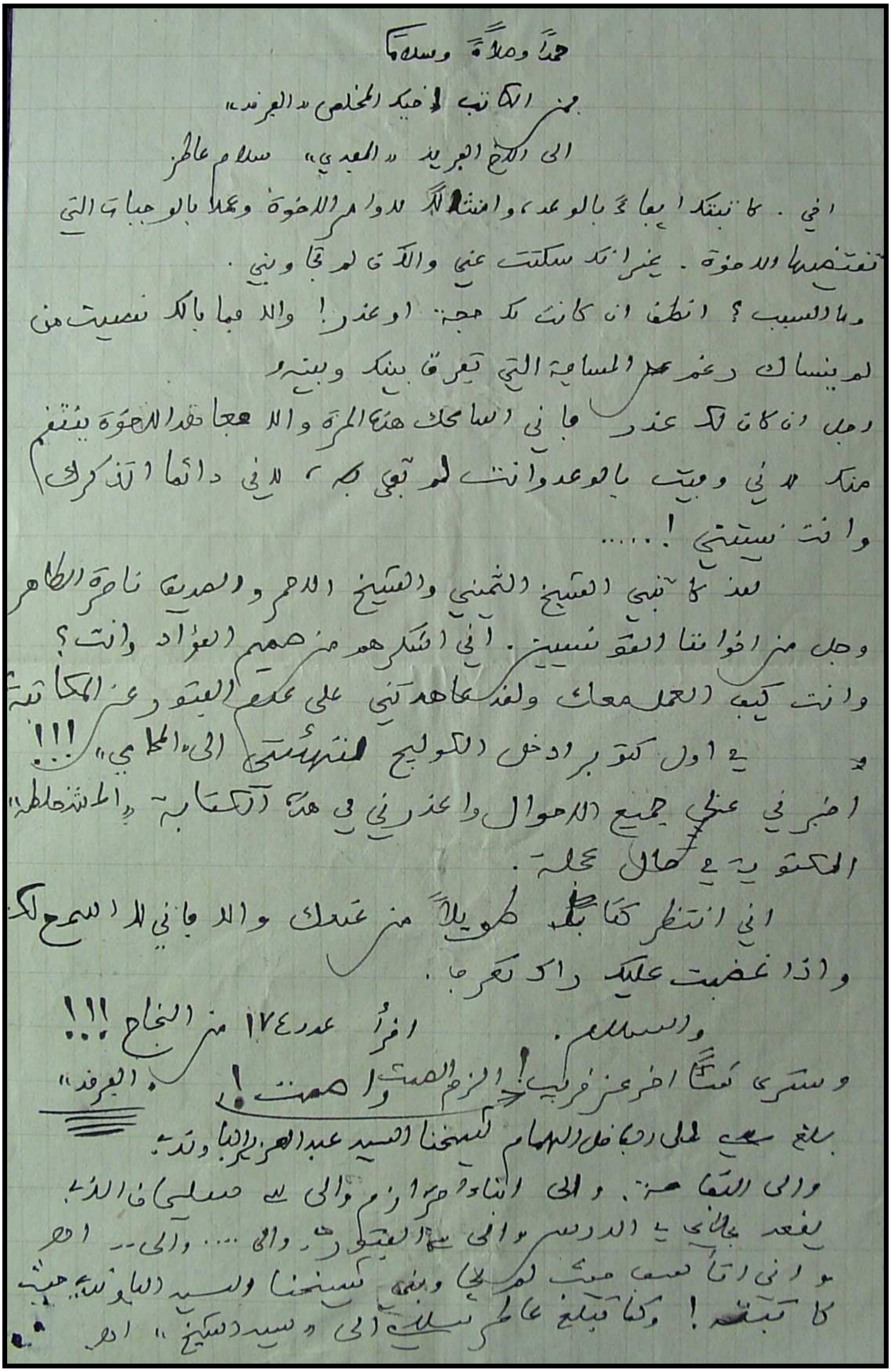
أوّل محضر اجتماع سجّله مفدي بعد تعيينه كاتبا لجمعية "الوفاق"



غلاف أقدم عدد من أعداد مجلّة "الوفاق" جويلية 1924



هدية العدد الممتاز من مجلّة "الوفاق" جويلية 1925



حمداً وصلاة وسلاماً

من الكاتب أخيك المخلص «الفرقد»

إلى الأخ العزيز «المفدي» سلام عاطر

إني . كما نبئتك إيفاءً بالوعد، وامتثالاً لدوام الأخوة وعملاً بالواجبات التي تقتضيها الأخوة . غير أنك سكت عني والآن لم تجاوبني .

فما السبب ؟ انطق إن كانت لك حجة أو عذر ! وإلا فما بالك نسيت من لم ينساك رغم عن المسافة التي تفرق بينك وبينه

وهل إن كان لك عذر فإني أسامحك هذه المرة وإلا فعلى هذه الأخوة ينتقم منك لأني وفيت بالوعد وأنت لم تف به، لأني دائماً أتذكرك وأنت نسيتني !.....

لقد كاتبني الشيخ التميمي والشيخ الأحمر والصديق ناصر الطاهر وهل من إخواننا الفرنسيين . إني أشكرهم من صميم الفؤاد وأنت؟ وأنت كيف العمل معك ولقد عاهدتني على عقد الفتوة وعن المكاتبة

في أول كتوبر أدخل الكوليج المتهشتي إلى «الحامي» !!!

أخبرني عني جميع الأحوال واعذرني في هذه الكتابة «المشخلطة» المكتوبة في حال عجلة .

إني أنتظر كتابك طويلاً من عندك وإلا فإني لا أسمح لك وإذا غضبت عليك ذاك تعرفا .

والسلام . اقرأ عدد ١٧٤ من النجاح !!!

وسترى قريباً أخرى عن قريب ! الزم الصمت واصمت !

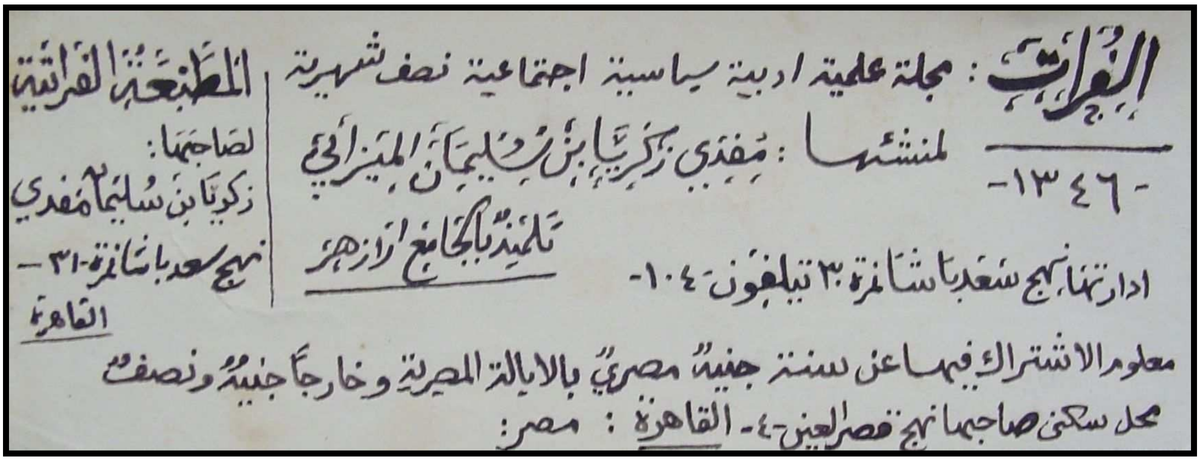
«الفرقد»

بلغ سلامي على أفاضل الهمام شيخنا السيد عبد العزيز الباروني

وإلى القاهرة . وإلى الشاعر رمزي وإلى ... حسين فالذي يقعد بجانبي في الدرس وإلى ... الفتوة، وإلى .... وإلى ... الخ

وإني إنما ... لم ... وبينه شيخنا والسيد الباروني حيث كما تبلغه ! وكما تبلغ عاطر سلامي إلى «سيد الشيخ» الخ.

رسالة "الفرقد" سليمان بوجناح إلى "المفدي"



الفرات : مجلة علمية ادبية سياسية اجتماعية نصف شهرية

لمنشئها : مفدي زكريا ابن سليمان الميزابي

تلميذ بالجامع الازهر

ادارتها نهج سعد باشا نمرة ٣٠ تيلفون - ١٠٤ -

- ١٣٤٦ -

المطبعة الفراتية

لصاحبها :

زكريا بن سليمان مفدي

نهج سعد باشا نمرة - ٣١ -

القاهرة

معلوم الاشتراك فيها عن سنة جنيه مصري بالايالة المصرية وخارجا جنيه ونصف

محل سكنى صاحبها نهج قصر العين - ٤ - القاهرة : مصر :

أحد أحلام يقظة مفدي بعد عودته من تونس



صورة لمفدي تحمل إمضاءه، مؤرّخة في 30/09/1929

Médéa, le 28 Janvier 1929

Sous-Préfecture de Médéa

N°380

A.S. du nommé ZEKRI BEN SLIMANE de Tunis.

LE SOUS-PREFET DE MEDEA

à Monsieur le Préfet du département d'ALGER.

(Affaires Indigènes)

J'ai l'honneur de vous donner, ci-dessous, en exécution de vos instructions n°I006, du 10 Janvier, les résultats acquis à ce jour de la surveillance dont a été l'objet à son passage dans mon arrondissement, du mozabite ZEKRI BEN SLIMANE, neveu de cheikh Salah Ben Yahia.

Ce personnage voyageant pour la représentation commerciale de son oncle, est arrivé à Médéa venant d'Alger, le 18 Janvier au soir. Il a été l'hôte de M.M. TIRICHINE SLIMANE & BOUDJENAH BRAHIM, commerçants mozabites. Il a quitté Médéa le 20 pour se rendre à Reibeil où il est arrivé, le soir du même jour, accompagné de M. BOUDJENAH BRAHIM et il est parti de Reibeil le 24 pour se rendre à Djelfa, en passant par Boghari.

A Reibeil, il a été reçu par son beau-père MAGHOUB BELHADJET et par tous les membres de la colonie mozabite.

Au cours de son séjour à Médéa, comme à Reibeil, il ne s'est occupé en apparence tout au moins que d'affaires commerciales et aucune démarche ou propos suspect n'a été relevé à son encontre.

J'ai pu cependant recueillir sur ce jeune mozabite certains renseignements que je crois utile de vous communiquer.

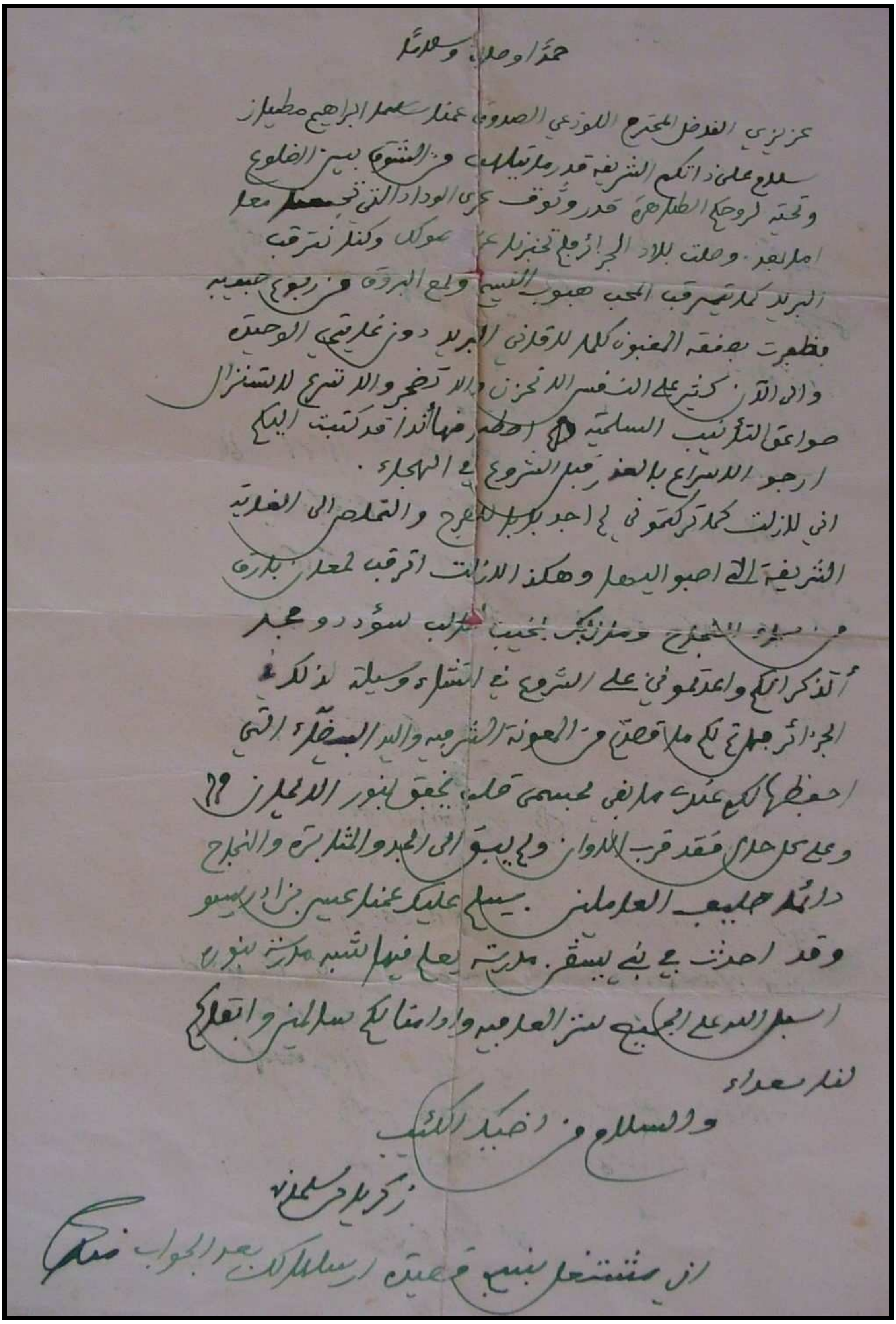
Agé d'une vingtaine d'années, de taille moyenne, portant lunettes, ZEKRI BEN SLIMANE serait doué d'une vive intelligence et d'une solide instruction en arabe. Il aurait un penchant naturel pour les travaux intellectuels, la poésie surtout et le journalisme. Il aurait écrit un recueil de 4000 vers non encore édité et correspondrait à divers journaux entre autres " l'Oued M'Zab" et son père, homme paisible et de modeste origine serait plutôt hostile à cette collaboration apportée à la presse arabe par son fils.

Si ce détail est exact il faut peut être y voir une indication que le père considère les tendances de son fils comme aventureuses ou compromettantes?

Je vous renseignerai ultérieurement sur les remarques auxquelles aura pu donner lieu le nommé ZEKRI BEN SLIMANE à son passage à Boghari./.

LE SOUS PREFET
Signé: BEAULIEU./.

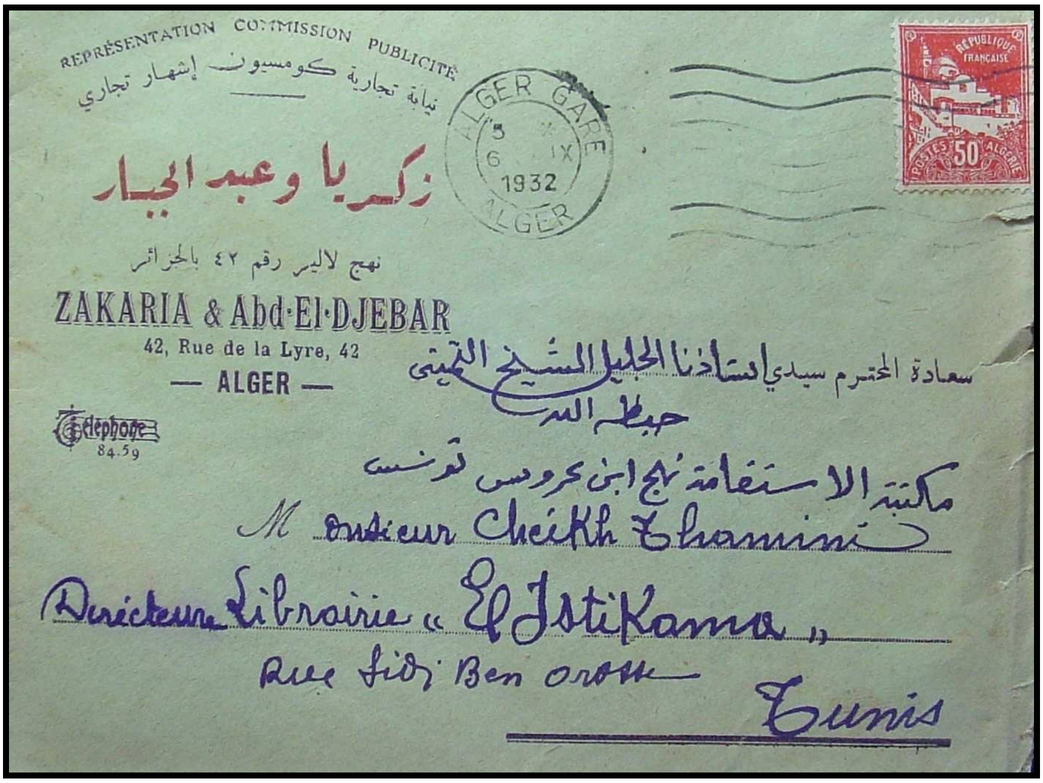
أوّل تقرير للإدارة الاستعماريّة عن مفدي زكرياء، مؤرّخ في 28/01/1929



حمداً وصلاة وسلاماً

عزيزي الفاضل المحترم اللوذعي الصدوق عمنا سعيد ابراهيم مطياز
سلام على ذاتكم الشريفة قدر ما تكنه من الشوق بين الضلوع
وتحية لروحكم الطاهرة قدر وثوق عرى الوداد التي تجمعنا معا
امد الدهر. وصلت بلاد الجزائر ولم تخبرنا عن عودتك وكنا نترقب
البريد كما يترقب المحب هبوب النسيم ولمع البرق من ربوع حبيبه
فظهرت بصفة المغبون كلما لاقاني البريد دون تلاقي الوحش
والى الآن كثير على النفس الا تحزن والا تضجر والا تفزع لانتشار
صواعق التأنيب السلمية اضطر فيها اذا قد كتبت اليكم
ارجو الاسراع بالعذر قبل الشروع في التهجاء.
اني لازلت كما تركتموني لم اجد بابا للفرج والتملص الى الغاية
الشريفة التي اصبو اليها وهكذا لازلت اترقب لمعان بارق
من سماء النجاح وما ذلك بخيب امال لسؤدد ومجد
تذكر ايكم واعدتموني على الشروع في التشاور وسيلة لذلك
الجزائر جملة لكم ما اقصده من المعونة الشرعية واليد البيضاء التي
احفظها لكم عندي ما بقي محسمي قلبي يخفق بنور الايمان ؟؟
وعلى كل حال فقد قرب الاوان ولم يبق الى الجد والمثابرة والنجاح
دائما حليف العاملين. يسلم عليك عمنا عيسى بن داود بسيسو
وقد احدثت في بني يسقن مدرسة يعلم فيها الشيخ مدرسة بنوره
اسبل الله على الجميع ستر العافية وادام مقابلكم سالمين والتعلم
لنا سعداء
والسلام من ذخيرتكم الذي
زكريا من سليمان
ان تشتغل بنسخ قصيدتي ارسلها لك بعد الجواب منك

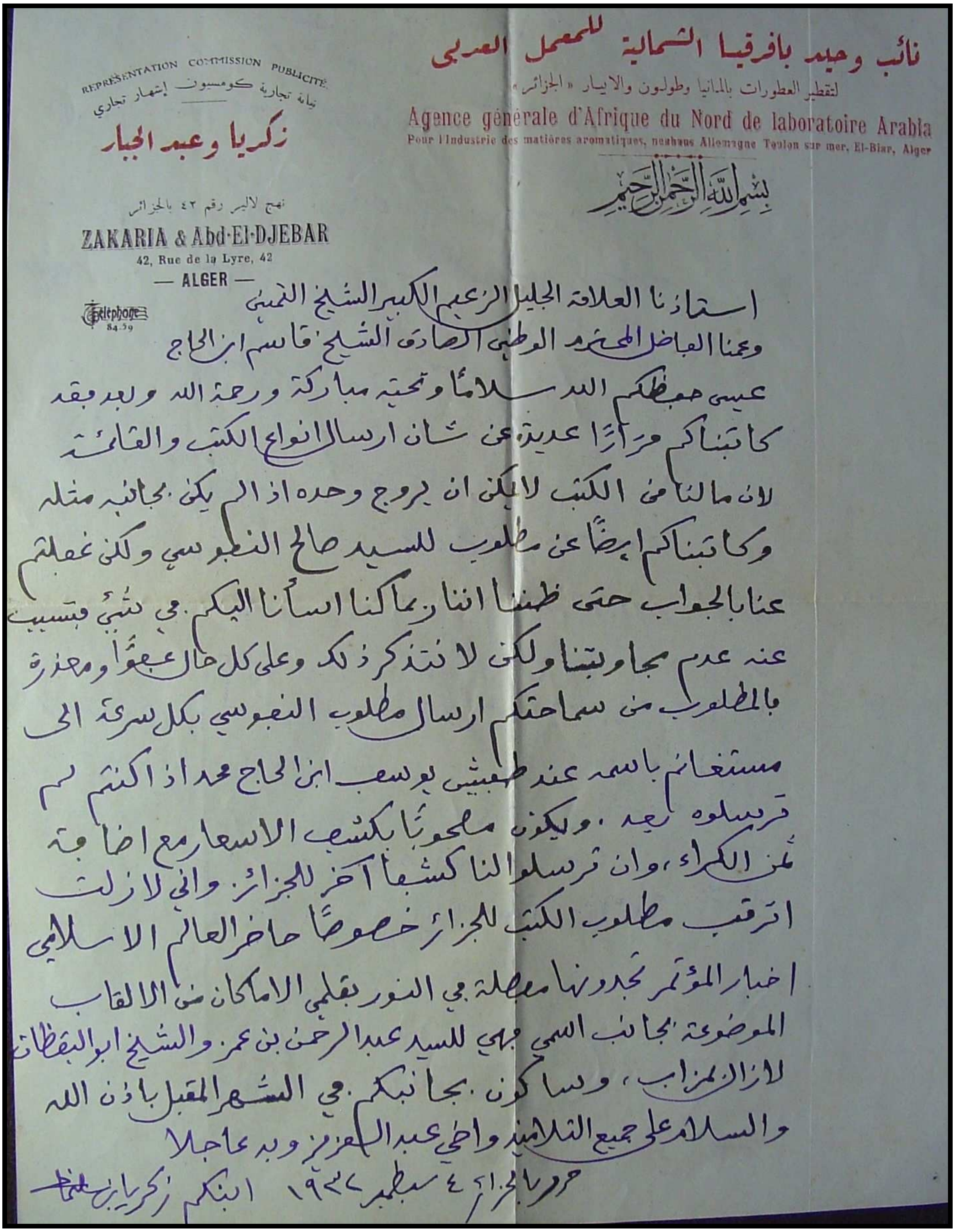
نموذج من رسائله بعد عودته من تونس، وهي موجّهة إلى إبراهيم بن بانوح مطياز



ظرف إحدى رسائله يحمل إشهار شركته "زكرياء وعبد الجبّار" سنة 1932



ظرف إحدى رسائله يحمل العنوان الجديد لشركته سنة 1934


نائب وحيد بافريقيا الشمالية للمعمل العربي
لتقطير العطورات بالمانيا وطولون والابيار «الجزائر»
Agence générale d'Afrique du Nord de laboratoire Arabia
Pour l'Industrie des matières aromatiques, neuhaus Allemagne Toulon sur mer, El-Biar, Alger

REPRÉSENTATION COMMISSION PUBLICITÉ
نيابة تجارية كومسيون إشهار تجاري
زكريا وعبد الجبار
نهج لالير رقم ٤٢ بالجزائر
ZAKARIA & Abd-El-DJEBAR
42, Rue de la Lyre, 42
— ALGER —
Téléphone 84.59

بسم الله الرحمن الرحيم

أستاذنا العلامة الجليل الزعيم الكبير الشيخ الثميني
وعمنا الفاضل المحترم الوطني الصادق الشيخ قاسم ابن الحاج
عيسى حفظكم الله سلاما وتحية مباركة ورحمة الله وبعد فقد
كاتبناكم مرارا عديدة عن شأن ارسال انواع الكتب والقائمة
لأن ما الثاني الكتب لا يمكن ان يروج وحده اذا لم يكن بجانبه مثله
وكاتبناكم ايضا عن مطلوب للسيد صالح النفوسي ولكن غفلتم
عنا بالجواب حتى ظننا اننا ربما كنا اسأنا اليكم في شيء فتسبب
عنه عدم مجاوبتنا ولكن لا نتذكر ذلك وعلى كل حال عفوا ومعذرة
فالمطلوب من سماحتكم ارسال مطلوب النفوسي بكل سرعة الى
مستغانم باسمه عند طبيشي يوسف ابن الحاج محمد اذا كنتم لم
ترسلوه بعد . وليكون مصحوبا بكشف الاسعار مع اضافة
ثمن الكراء ، وان ترسلوا الينا كشفا آخر للجزائر . واني لا زلت
اترقب مطلوب الكتب للجزائر خصوصا حاضر العالم الاسلامي
اخبار المؤتمر تجدونها مفصلة في النور بقلمي الامكان من الالقاب
الموضوعة بجانب اسمي جهلي للسيد عبد الرحمن بن عمر . والشيخ ابو اليقظان
لا زال بمزاب ، وسأكون بجانبكم في الشهر المقبل باذن الله
والسلام على جميع التلاميذ واخي عبد العزيز وبه عاجلا
حرر بالجزائر ٤ سبتمبر ١٩٣٢ ابنكم زكريا بن سليمان

نموذج من رسائله إلى الشيخ الثميني، مؤرّخ في **1932/09/04**

Sûreté Départementale
d'Alger

N° 5021

A/S du nommé MESSALI
Hadj

Ampliations :

Préfet (Cabinet)
Préfet (Police Générale)
Direction Sécurité Générale

Alger, le I4 Août 1936

RAPPORT

Comme suite à mes précédents rapports concernant le nommé MESSALI Hadj, président de l'Association nationaliste "Glorieuse Etoile Nord-Africaine", j'ai l'honneur de vous donner, ci-après, les renseignements que j'ai pu recueillir sur l'activité du susnommé, pendant la journée du I3 Août courant.

MESSALI n'a reçu de visites qu'à la fin de la matinée. Il s'est entretenu de II heures I5 à midi I0 avec les nommés GHERAFA et EL HOCINE.

Il a déjeûné dans sa chambre.

Dans le courant de l'après midi et jusqu'à I8 heures I5, les susnommés ainsi que ZACKARIA Sliman et quelques autres de ses amis sont allés le voir.

A I9 heures I5, MESSALI, accompagné de la dame BUSQUAULT et du garçonnet, s'est rendu à l'extrèmité de la jetée nord où il fut rejoint par 5 individus avec lesquels il s'est entretenu jusqu'à 20 heures.

Ces personnes se sont ensuite dirigées vers la Crèmerie Guellati, 4 Bd de France, où s'est tenue une réunion d'une vingtaine de personnes, parmi lesquelles on remarquait la présence des nommés ZAKARIA Sliman, El HOCINE, Ali EL DELCY, de trois mozabites et d'un matelot indigène.

La réunion a pris fin à 22 heures I0.

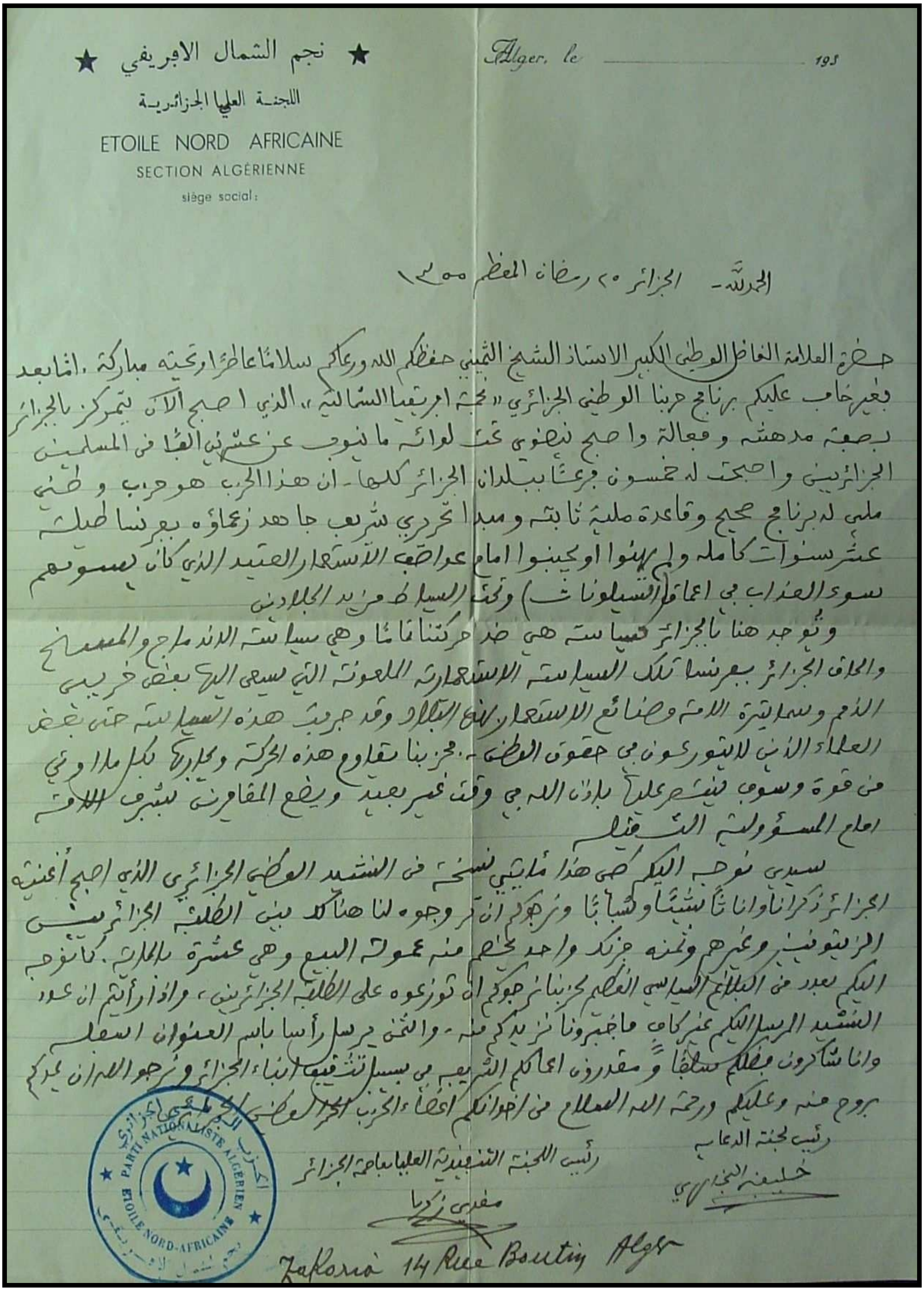
A l'issue de la réunion, MESSALI a rejoint son hôtel, accompagné de ses amis..

A 22 heures 30, ZAKARIA et EL HOCINE allaient denouveau le trouver. L'entretien n'a duré que quelques instants.

Je crois devoir rappeler que la Crèmerie Guellati située 4, Bd de France, a été signalée par mes rapports N° I078, 4636 et 5359 en date des 26 Février, 24 Juillet et 29 Octobre 1935, comme étant le lieu de rendez-vous des nationalistes et en général des indigènes hostiles à l'Administration.

Le Commissaire Divisionnaire
Chef de la Sûreté Départementale

أحد تقارير متابعة نشاط مصّالي الحاج اليوميّ الأولى، ويخصّ يوم 13/08/1936



★ نجم الشمال الافريقي ★
اللجنة العليا الجزائرية
ETOILE NORD AFRICAINE
SECTION ALGÉRIENNE
siège social:

Alger, le 193

الحمد لله - الجزائر 20 رمضان المعظم 1355

حضرة العلامة الفاضل الوطني الكبير الاستاذ الشيخ التبسي حفظكم الله ورعاكم سلاما عاطرا وتحية مباركة. اما بعد
فغير خاف عليكم برنامج حزبنا الوطني الجزائري "نجمة افريقيا الشمالية" الذي اصبح الآن يتمركز بالجزائر
بصفة مدهشة وفعالة واصبح ينضوي تحت لوائه ما ينوف عن عشرين الفا من المسلمين
الجزائريين واصبحت له خمسون فرعا ببلدان الجزائر كلها - ان هذا الحزب هو حزب وطني
ملي له برنامج صحيح وقاعدة صلبة ثابتة ومبدأ تحرري شريف جاهد زعماؤه بفرنسا طيلة
عشر سنوات كاملة ولم يهنوا او يجبنوا امام عواصف الاستعمار العتيد الذي كان يسومهم
سوء العذاب في اعماق (السيلونات) وتحت السياط من يد الجلادين
وتوجد هنا بالجزائر سياسة هي ضد حركتنا تماما وهي سياسة الاندماج والمسخ
والحاق الجزائر بفرنسا تلك السياسة الاستعمارية الملعونة التي يسعى اليها بعض خريجي
الذمم وسماسرة الامة وصنائع الاستعمار لبيع البلاد وقد جرفت هذه السياسة حتى بعض
العلماء الذين لا يشعرون من حقوق الوطن. فحزبنا يقاوم هذه الحركة ويحاربها بكل ما اوتي
من قوة وسوف ينتصر عليها باذن الله في وقت غير بعيد ويضع المقاومين لها بشرف الامة
امام المسؤولية الثقيلة
سيدي نوجه اليكم ضمن هذا ثلاثين نسخة من النشيد الوطني الجزائري الذي اصبح اغنية
الجزائر ذكرانا واناثا شيبا وشبابا ونرجوكم ان تروجوه لنا هنالك بين الطلبة الجزائريين
الزيتونيين وغيرهم وثمنه فرنك واحد يخصم منه عمولة البيع وهي عشرة بالمائة. كما نوجه
اليكم بعدد من البلاغ السياسي العظيم لحزبنا نرجوكم ان توزعوه على الطلبة الجزائريين، واذا رأيتم ان عدد
النشيد المرسل اليكم غير كاف فاخبرونا نزيدكم منه. والثمن يرسل رأسا باسم العنوان اسفله
وانا شاكرون فضلكم سلفا ومقدرون اعمالكم الشريفة في سبيل تثقيف ابناء الجزائر ونرجو الله ان يمدكم
بروح منه وعليكم ورحمة الله السلام من اخوانكم اعضاء الحزب الجزائري الوطني

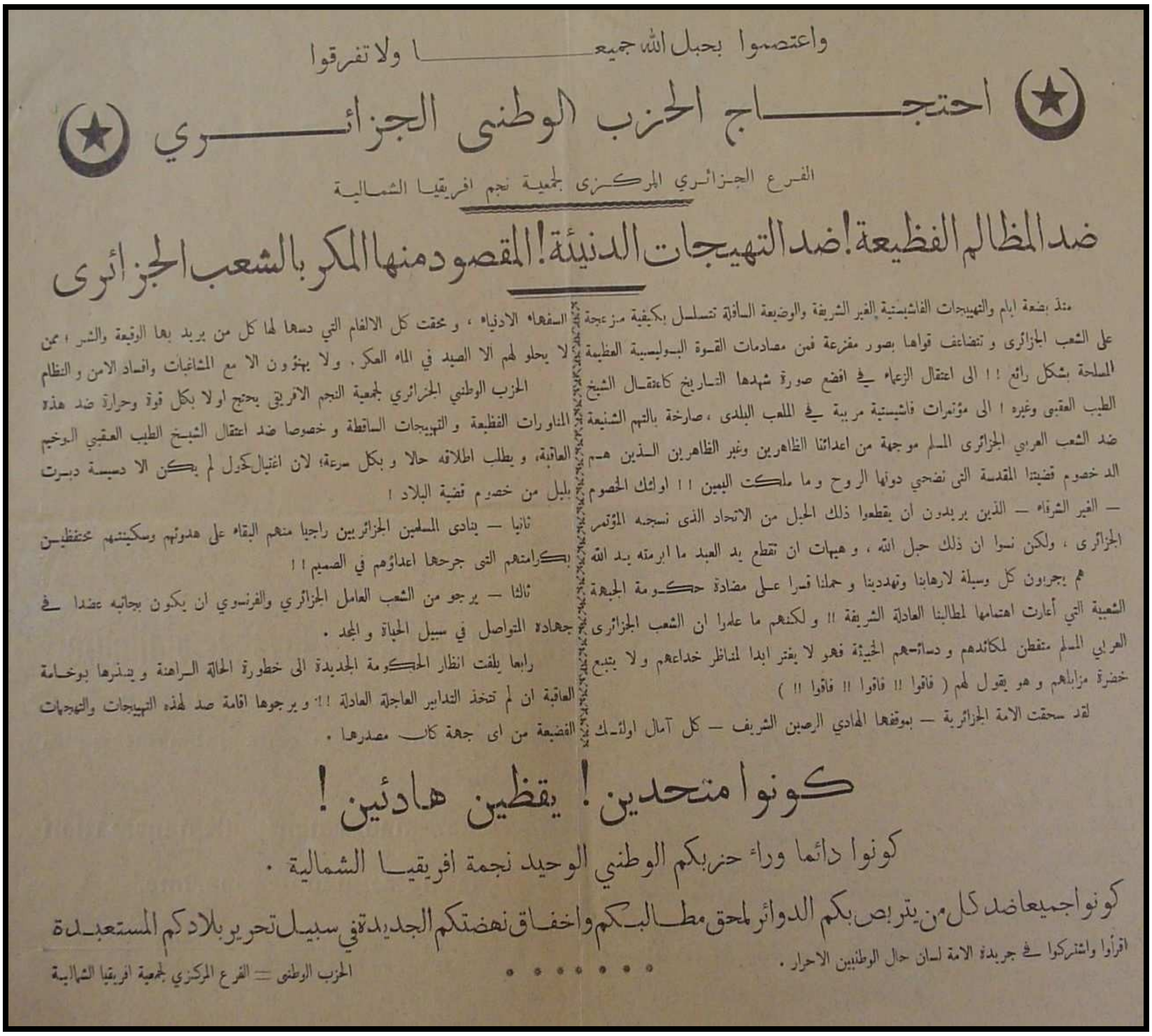
رئيس لجنة الدعاية
خليفة البخاري

رئيس اللجنة التنفيذية العليا بعاصمة الجزائر
مفدي زكريا

Zakaria 14 Rue Boutin Alger

الحزب الوطني الجزائري
PARTI NATIONALISTE ALGÉRIEN
ETOILE NORD-AFRICAINE
نجم الشمال الافريقي

رسالة رسميّة، تحمل ختم "نجم الشمال الإفريقيّ"، مؤرّخة في 10 / 12 / 1936



واعتصموا بحبل الله جميعـــــــــا ولا تفرقوا

احتجـــــاج الحزب الوطني الجزائـــــــري

الفرع الجزائري المركزي لجمعية نجم افريقيا الشمالية

ضد المظالم الفظيعة! ضد التهيجات الدنيئة! المقصود منها المكر بالشعب الجزائرى

منذ بضعة ايام والتهييجات الفاشيستية الغير الشريفة والوضيعة السافلة تتسلسل بكيفية مزعجة على الشعب الجزائرى و تتضاعف قواها بصور مفزعة فمن مصادمات القوة البوليسية العظيمة المسلحة بشكل رائع !! الى اعتقال الزعماء في افضع صورة شهدها التاريخ كاعتقال الشيخ الطيب العقبى وغيره ! الى مؤتمرات فاشيستية مريبة في الملعب البلدى ، صارخة بالتهم الشنيعة ضد الشعب العربي الجزائرى المسلم موجهة من اعدائنا الظاهرين وغير الظاهرين الذين هم الد خصوم قضيتنا المقدسة التى نضحي دونها الروح وما ملكت اليمين !! اولئك الخصوم — الغير الشرفاء — الذين يريدون أن يقطعوا ذلك الحبل من الاتحاد الذى نسجه المؤتمر الجزائرى ، ولكن نسوا ان ذلك حبل الله ، وهيهات ان تقطع يد العبد ما ابرمته يد الله

هم يجربون كل وسيلة لارهابنا وتهديدنا و حملنا قسرا على مضادة حكومة الجبهة الشعبية التي أعارت اهتمامها لمطالبنا العادلة الشريفة !! ولكنهم ما علموا ان الشعب الجزائرى العربي المسلم متفطن لمكائدهم و دسائسهم الخبيثة فهو لا يغتر ابدا لمناظر خداعهم ولا يتبع خضرة مزابلهم و هو يقول لهم (فاقوا !! فاقوا !! فاقوا !!)

لقد سحقت الامة الجزائرية — بموقفها الهادي الرصين الشريف — كل آمال اولئك السفهاء الادنياء ، ومحقت كل الالغام التي دسها لها كل من يريد بها الوقيعة والشر ، ممن لا يحلو لهم الا الصيد في الماء العكر . ولا يهنؤون الا مع الشاغبات وافساد الامن و النظام

الحزب الوطني الجزائري لجمعية النجم الافريقي يحتج اولا بكل قوة وحرارة ضد هذه المناورات الفظيعة و التهييجات الساقطة و خصوصا ضد اعتقال الشيخ الطيب العقبي الوخيم العاقبة، و يطلب اطلاقه حالا و بكل سرعة، لان اغتيال كحول لم يكن الا دسيسة دبرت بليل من خصوم قضية البلاد !

ثانيا — ينادى المسلمين الجزائريين راجيا منهم البقاء على هدوئهم وسكينتهم محتفظين بكرامتهم التى جرحها اعداؤهم في الصميم !!

ثالثا — يرجو من الشعب العامل الجزائري والفرنسوي ان يكون بجانبه عضدا في جهاده المتواصل في سبيل الحياة و المجد .

رابعا يلفت انظار الحكومة الجديدة الى خطورة الحالة الراهنة و ينذرها بوخامة العاقبة ان لم تتخذ التدابير العاجلة العادلة !! و يرجوها اقامة صد لهذه التهييجات والتهجمات الفضيعة من اى جهة كان مصدرها .

كونوا متحدين! يقظين هادئين!

كونوا دائما وراء حزبكم الوطني الوحيد نجمة افريقيا الشمالية .

كونوا جميعا ضد كل من يتربص بكم الدوائر لمحق مطالبكم واخفاق نهضتكم الجديدة في سبيل تحرير بلادكم المستعبدة

اقرأوا واشتركوا في جريدة الامة لسان حال الوطنيين الاحرار .

• • • • • • •

الحزب الوطنى = الفرع المركزي لجمعية افريقيا الشمالية

أحد مناشير "نجم شمال إفريقيا" الأولى، وبصمة مفدي زكرياء فيه واضحة

ترجمة النشيد الوطنيّ الجزائريّ لحزب "نجم شمال إفريقيا"

Lettre du Gouverneur Gal au Garde des Sceaux

27 Janvier 1937

Monsieur le Garde des Sceaux,

J'ai l'honneur de vous faire parvenir la traduction ci-jointe d'un tract imprimé en arabe, qui a été distribué clandestinement dans la ville de Guelma, à la date du 2 Janvier courant, à la suite d'une réunion publique tenue par le parti communiste.

Ce tract contient un hymne intitulé hymne national algérien, lequel comprend des phrases, lesquelles me paraissent constituer une atteinte à la souveraineté française.

Nous y revelons notamment les vers suivants : 3ème strophe : Nous nous jetterons dans la mêlée et nous ne nous rendrons pas, dûssions-nous mourir. 4ème strophe : Nous ne voulons pas de la naturalisation; nous ne voulons pas de l'assimilation; quiconque préfèrera les sentiers tortueux, sera lapidé par nous comme Satan". 6ème strophe En avant, sur la voie de la gloire et de la guerre sainte; voici l'archange Gabriel qui nous crie : En avant pour l'indépendance.

Traduction

—

En première page figure la reproduction d'une photographie au haut de laquelle on lit : le grand combattant pour la foi, l'illustre militant, le maître MESSALI EL HADJ, chef du parti nationaliste algérien indépendant.

Au bas de la photographie l'inscription suivante : "le trioèphe et la victoire appartiennent à ceux qui font le sacrifice de leurs personnes et de leurs biens pour la défense de l'honneur du pays.

Hymne national algérien, poème de Moufdi Zakaria

Droits de reproduction résefvés

Imprimerie El Arabia, Alger

Parti nationaliste algérien unitaire, qui ne veut ni de la naturalisation, ni de la fusion (un dessin représentant une étoile et un croissant - on lit : a) au-dessous de l'étoile, le hadits suivant : "L'Amour de la patrie est une forme de la foi; b) dans le croissant, le verset du Coran "Unissez-vous tous autour de Dieu et ne vous divisez pas"; c) au-dessus du dessin : "l'Etoile nord-africaine"; d) à droite de ce dessin : "Notre but : l'Algérie vivant dans la prospérité et dans sa sainte nationalité". Et à gauche "notre devise : L'Islam est notre religion, l'Algérie est notre pays, l'Arabe est notre langue. Quiconque demande le rattachement de notre pays est notre plus grand ennemi et celui de XXX l'Islam.

1ère strophe :

Ma vie et mes biens sont la rançon de l'Algérie; en avant pour la liberté;
Vivent le parti autonomiste et l'Etoile nord-africaine;
Vive MESSALI, militant du peuple, exemple du sacrifice et du patriotisme;
Que l'Algérie renaisse comme le croissant, que la langue arabe renaisse

....

2ème strophe :

Salut, salut terre des aïeux, salut berceau de nos grandeurs!
Tu es éternelle dans l'Univers, ton amour est devenu notre culte
Autour de toi nous nous tenons attentifs aux discours qu'inspire notre amour pour toi
Nous veillerons sur tes droits comme des lions, dûssions-nous en mourir

3ème strophe :

Le sang des conquérants circule dans notre être, il y a créé l'esprit de sacrifice
Nous nous jetterons dans la mêlée et nous ne nous rendrons pas, dûssions-nous en mourir
Nous élèverons notre voix au milieu des clameurs pour demander la gloire et la souveraineté
Nous n'accepterons pas de vivre en esclaves dans l'Univers

4ème strophe : écrite en gros caractères

Nous ne voulons pas de la fusion des races
Nous ne voulons pas de la naturalisation
Nous ne voulons pas de l'assimilation
Nous ne nous convertirons pas français, aux impies leur opprobre leur suffit
Quiconque préfèrera les sentier s tortueux sera lapidé par nous comme Satan

5ème strophe :

Par la vertu de l'amour, nous sommes nés frères, périssent les mains qui divisent
Nous voulons pour nous une vie libre, nous sommes las de mener une existence misérable
Nous sommes nés pour être les maîtres du genre humain; l'astre qui indique la bonne voie s'est levé
Ô mon pays ! nous faisons le serment sacré d'exécuter pour tout l'avenir le pacte qui nous lie à toi.

6ème strophe

En avant, déployons nos efforts dans le droit chemin
En avant sur la voie de la gloire et de la guerre sainte
Que notre étoile brille à l'horizon et sème la crainte dans les assemblées
Voici l'étendard déployé, nous le portons sur nos coeurs.
Voici Ahmed (Mohamed) qui guide nos pas
Voici l'archange Gabriel qui nous crie : "En avant pour l'indépendance !
En avant pour la liberté!

Alger, le 1er chaabane 1355

(17 novembre 1936)

signé : Moufdi Zakaria

L'interprète judiciaire
signé : Hadj Hamou

ترجمة رسالة من مفدي إلى صويلح محمد سعيد، مؤرّخة في 13/11/1936

Sûreté
Départementale
de
Constantine.

N°/ 4777

Surveillance Politique
des Indigènes.

GOUVERNEMENT GENERAL DE L'ALGERIE
CABINET
17 NOV 1936
N°

Constantine le 16 Novembre 1936.

RAPPORT

J'ai l'honneur de vous donner ci-après copie d'une lettre adressée par un sieur ZAKORIA, poste restante, Bourse, Alger, à un sieur OMAR BEN DAHMANE, se disant cheminot, un des principaux dirigeants de l'Etoile Nord-Africaine, demeurant 6, rue Combes, Hôtel de Naples à Constantine.

Cette missive était écrite en arabe. Elle a été traduite par M. FERGANI, traducteur assermenté de la Prefecture de Constantine.

Alger le 13 Novembre.

" A notre ami sincère Souilah Mohamed Said, Salut sur "vous et sur tous les membres de la Section Constantinoise: Amar Dahmane, Belloum Abdallah, Lakdar et tous les frères sans distinction.

Je suis arrivé à Alger huit jours après avoir visité Biskra.

J'ai fondé une Section à Batna. Le mouvement, ici à Alger, prend de l'importance et l'Etoile (insigne) brille sur la poitrine de nombreux partisans.

Le journal sera imprimé dans 4 jours. Je t'enverrai un certain nombre d'exemplaires que je te prie de vendre rapidement pour que je puisse renouvelàr cet envoi.

Un incident s'est produit hier au " Cercle du Progrès Pendant que je m'y rendais à la rencontre de Cheikh Abdelhamid ben BADIS, conformément à ce qui avait été convenu précédemment entre nous, les membres de ce cercle m'ont empêché d'y accéder et m'ont invité à enlever l'insigne patriotique que j'avais arboré et cela sans doute pour se conformer au code nouveau de l'indigenat institué contre nous par Maître EL OGBI.

Ainsi que je vous en ai informé précédemment nous avons réuni le Comité Directeur, formulé des protestations que nous avons transmises au Cheikh BEN BEDIS. Celui-ci nous a promis de faire le nécessaire pour que les membres du cercle ne renouvellent plus leurs actes de sauvagerie. Ces actes ne peuvent avoir pour résultat que de diviser la population et le Cercle n'est pas une succursale du Gouvernement Général. Sont

....

6

arrivés à ce moment là au Cercle: ALI BOUKERT, le communiste et OURZEGAN le communiste, tous deux portant leurs insignes. Personne ne leur a fait d'observation; ils ont ainsi marqué leur préférence pour le communisme, ennemi de l'Islam, sur les Patriotes- O Honte!

Soyez unis là-bas- formez une section comprenant de 20 à 25 membres. Allez voir le cheikh BENBADIS Abdelhamid. Présentez-lui vos revendications par écrit et soyez actifs, vigilants.

Les membres du Comité d'ici ont fait confiance à votre frére signataire et l'ont élu Président, alors qu'il était absent.

C'est un geste d'amitié et de confiance auquel je suis sensible.

J'ai rencontré BENDJELLOUL, hier à la rue d'Isly en compagnie d'une prostituée.

Nous l'avons a tel point insulté qu'il s'est sauvé dans un taxi.

Salut de la part de vos frères BENKHELIFA et HOCINE ben BRAHIM.

Salut de votre frère

ZAKORIA.

Le Chef de la Sûreté Départementale;

Hloand.

Ce rapport a été adressé à MM.
le Gouverneur Général (S. G.)
le Préfet (Cabinet) et (.)

GOUVERNEMENT GENERAL de l'ALGERIE
CABINET
ARRIVEE
-9 MARS 1937
N°

Constantine, le 6 Mars 1937

Sûreté
Départementale
de
Constantine

N° 911

Etoile Nord-Africaine

SECRET

RAPPORT.

J'ai l'honneur de vous adresser ci-dessous, copie d'une lettre reçue par le nommé DAHMANE OMAR, à laquelle est jointe une épreuve photographique.

\+ \+ \+ \+

Alger le 3/2/37

Chers frères

Etant donné que nous traversons à l'heure actuelle de graves difficultés financières que nous éprouvons des besoins de jour en jour plus puissants nous vous prions de bien vouloir remettre entre les mains de notre frère et président ZAKARIA la somme de 225 frs. du par votre section au centre et représentant le montant des frais d'impression d'un tract tiré il y a déjà près de trois mois.

Dans l'assurance que vous nous donnerez satisfaction,

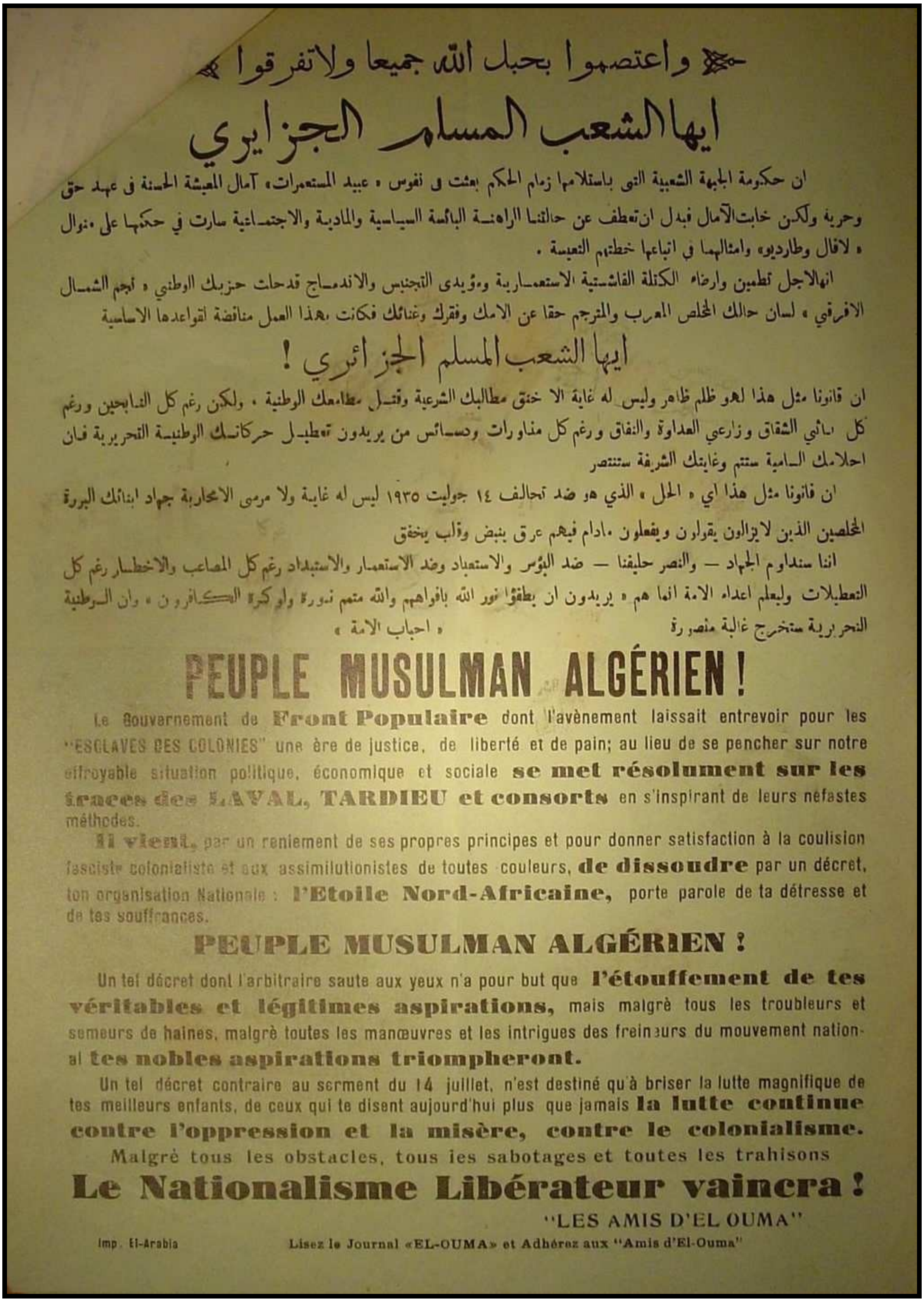
Recevez nos salutations nationalistes.

signé: illisible.

Le Chef de la Sûreté Départementale,

Hbaud.

رسالة موجّهة إلى عمر بن دحمان، مؤرّخة في 06/03/1937



واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا

ايهاالشعب المسلم الجزايري

ان حكومة الجبهة الشعبية التى باستلامها زمام الحكم بعثت ى نفوس « عبيد المستعمرات » آمال المعيشة الحسنة فى عهد حق وحرية ولكن خابت الآمال فبدل ان تعطف عن حالتنا الراهنة البائسة السياسية والمادية والاجتماعية سارت في حكمها على منوال « لافال وطارديو » وامثالهما في اتباعها خططهم التعيسة .

انهالاجل تطمين وارضاء الكتلة الفاشستية الاستعمارية ومؤيدى التجنيس والاندماج قدحلت حزبك الوطني « نجم الشمال الافريقي » لسان حالك المخلص المعرب والمترجم حقا عن الامك وفقرك وغنائك فكانت بهذا العمل مناقضة لقواعدها الاساسية

ايها الشعب المسلم الجزائري !

ان قانونا مثل هذا لهو ظلم ظاهر وليس له غاية الا خنق مطالبك الشرعية وقتل مطامعك الوطنية ، ولكن رغم كل النابحين ورغم كل بائثي الشقاق وزارعي العداوة والنفاق ورغم كل مناورات ودسائس من يريدون تعطيل حركاتك الوطنية التحريرية فان احلامك السامية ستتم وغايتك الشريفة ستنتصر

ان قانونا مثل هذا اي « الحل » الذي هو ضد تحالف ١٤ جوليت ١٩٣٥ ليس له غاية ولا مرمى الامحاربة جهاد ابنائك البررة المخلصين الذين لايزالون يقولون ويفعلون مادام فيهم عرق ينبض وقلب يخفق

اننا سنداوم الجهاد — والنصر حليفنا — ضد البؤس والاستعباد وضد الاستعمار والاستبداد رغم كل المصاعب والاخطار رغم كل التعطيلات وليعلم اعداء الامة انما هم « يريدون ان يطفؤا نور الله بافواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » وان الوطنية التحريرية ستخرج غالبة منصورة

« احباب الامة »

PEUPLE MUSULMAN ALGÉRIEN !

Le Gouvernement de **Front Populaire** dont l'avènement laissait entrevoir pour les "ESCLAVES DES COLONIES" une ère de justice, de liberté et de pain; au lieu de se pencher sur notre effroyable situation politique, économique et sociale **se met résolument sur les traces des LAVAL, TARDIEU et consorts** en s'inspirant de leurs néfastes méthodes.

Il vient, par un reniement de ses propres principes et pour donner satisfaction à la coulision fasciste colonialiste et aux assimilutionistes de toutes couleurs, **de dissoudre** par un décret, ton organisation Nationale : **l'Etoile Nord-Africaine,** porte parole de ta détresse et de tes souffrances.

PEUPLE MUSULMAN ALGÉRIEN !

Un tel décret dont l'arbitraire saute aux yeux n'a pour but que **l'étouffement de tes véritables et légitimes aspirations,** mais malgré tous les troubleurs et semeurs de haines, malgré toutes les manœuvres et les intrigues des freineurs du mouvement national **tes nobles aspirations triompheront.**

Un tel décret contraire au serment du 14 juillet, n'est destiné qu'à briser la lutte magnifique de tes meilleurs enfants, de ceux qui te disent aujourd'hui plus que jamais **la lutte continue contre l'oppression et la misère, contre le colonialisme.**

Malgré tous les obstacles, tous les sabotages et toutes les trahisons

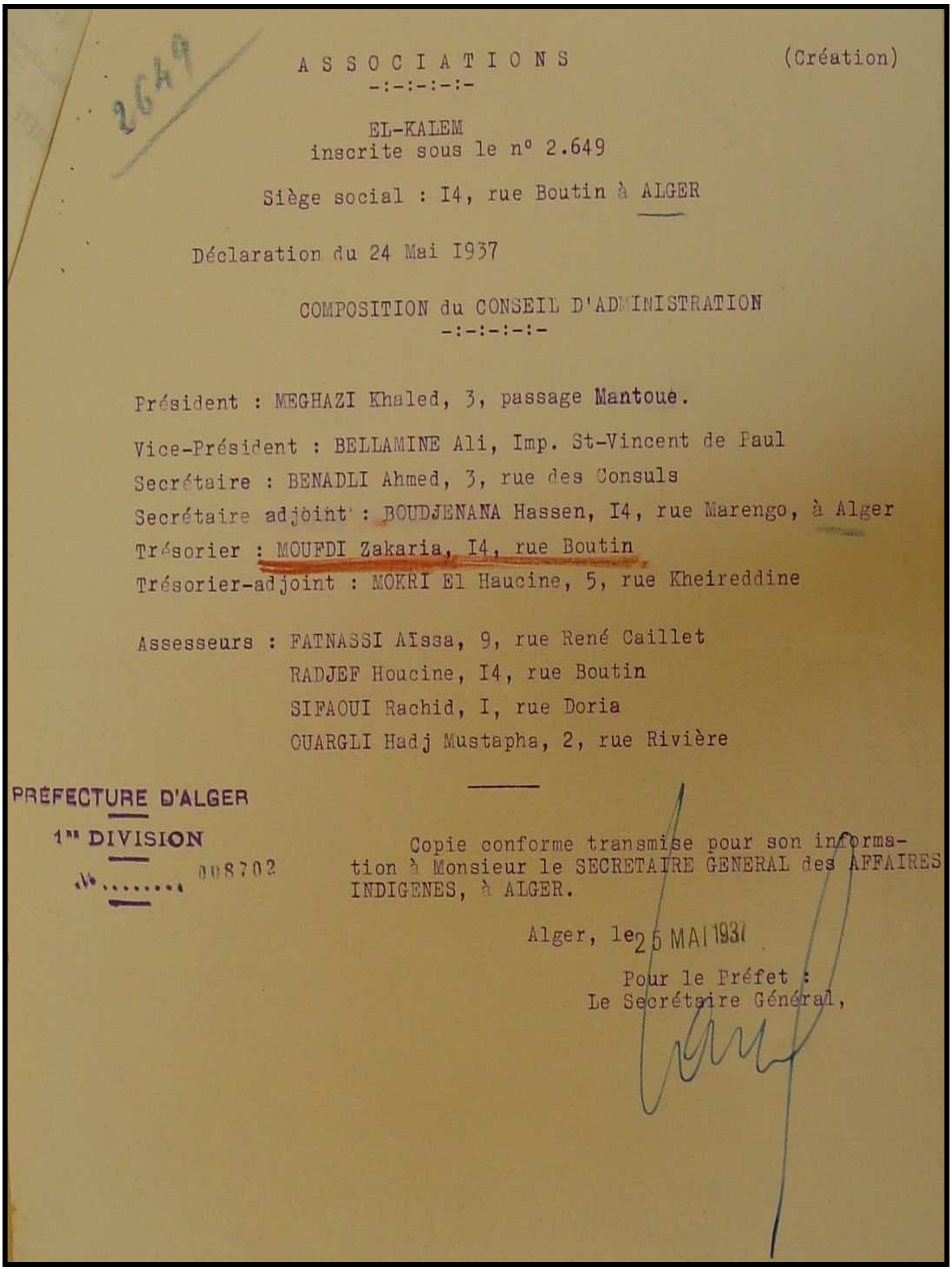
Le Nationalisme Libérateur vaincra !

"LES AMIS D'EL OUMA"

Imp. El-Arabia

Lisez le Journal «EL-OUMA» et Adhérez aux "Amis d'El-Ouma"

منشور **"Le Nationalisme Libérateur vaincra"**



2649

ASSOCIATIONS (Création)

-:-:-:-:-

EL-KALEM
inscrite sous le n° 2.649

Siège social : I4, rue Boutin à ALGER

Déclaration du 24 Mai I937

COMPOSITION du CONSEIL D'ADMINISTRATION

-:-:-:-:-

Président : MEGHAZI Khaled, 3, passage Mantoue.

Vice-Président : BELLAMINE Ali, Imp. St-Vincent de Paul

Secrétaire : BENADLI Ahmed, 3, rue des Consuls

Secrétaire adjoint : BOUDJENANA Hassen, I4, rue Marengo, à Alger

Trésorier : MOUFDI Zakaria, I4, rue Boutin

Trésorier-adjoint : MOKRI El Haucine, 5, rue Kheireddine

Assesseurs : FATNASSI Aïssa, 9, rue René Caillet
RADJEF Houcine, I4, rue Boutin
SIFAOUI Rachid, I, rue Doria
OUARGLI Hadj Mustapha, 2, rue Rivière

PRÉFECTURE D'ALGER
1re DIVISION
N° 008702

Copie conforme transmise pour son information à Monsieur le SECRETAIRE GENERAL des AFFAIRES INDIGENES, à ALGER.

Alger, le 25 MAI 1937

Pour le Préfet :
Le Secrétaire Général,

إنشاء جمعية "القلم"

مقاطع من آخر قصيدة لمفدي قبل دخوله السجن، من جريدة "الوطن" التونسيّة



الشمال الافريقي يتحد

من نظم الاستاذ مفدي زكريا زعيم حزب الشعب الجزائري

يها الشعب والتهاني تتوالى   والمسرات ينتظمن عقودا
يا زعيم الشمال والشرق يا من   ملا الشرق والشمال جهودا
ان شعب الجزائر اليوم قد جـ   ـاء يهني لواءك المعقودا
ويحييك باسمه «حزب شعب»   في المبادي قد كان منك وليدا
فهو من روحك العظيمة جزء   فتقبل من بعضك التمجيدا
وارع ارضا غدوت فيها زعيما   ترتجي في جهدها التاييدا
لم تزل بورة بعهدك فيها   والرجا لا يزال فيك وطيدا
قسموها خديعة لثلاث   كذبوا لن تزال شعبا وحيدا
واقاموا على الهضاب عصيا   لقوها بالنفاق حدودا
والجراحات بينها والاماني   والامانات لا تزال شهودا

❀ ❀ ❀

وطني بالدم الزكي افديك … يمينا شريفة وعهودا
وطني في هواك اخلصت شعري … وضميري ومهجتي والوجودا
وطني انت جنة الخلد في الار … ض فهيهات في الورى ان تبيدا
وطني اننا ضحاياك في السلم … وفي الحرب بغية ان تسودا
فاذا شئت فاتخذنا سيوفا … واتخذنا اذا اردت وقودا
نحن قوم جدودنا ملكوا الد … نيا فهيهات ان نعيش عبيدا
صيد في الدماء من نخوة المل … ك ينادي بنا : العلا والصعودا
في حنايا الضلوع للصحب خالد … نا قبورا زكية ولحودا
عقبة يصرخ النجاة وموسى وابن … زياد سجدا وتعودا

❀ ❀ ❀

يا فرانسا — لاتجهلينا — فانا … قدنهضنا فلا نطيق ركودا
قدكرهنا حياة ظلم وجور … وسئمنا الخراب والتبديدا
كف هذي اللجان عنا فانا … قدسمعنا وعيدها والوعودا
وراينا اللجان كيف تغني … وفيوليت يستعيد القصيدا
مالها تنكر الجميل وتنسى … جثثا القوم تملا الاخدودا ؟
نحن جدنا حيالها بالدم الغالي فماذا يضرها ان تجودا ؟ ؟ ؟
ضاق صبر البلاد ياجبهة الشعب فهل تنجبين شيئا مفيدا
ودعينا من الوعود فانا … جبهة الشعب قد مللنا الوعودا

❀ ❀ ❀

ايها الشعب خل عنك الاماني … واركب العزم واترك الجمودا
واستبق للحياة وابن من العز … على النيرين قصرا مشيدا
وعلى النفس فاعتمد وتقدم … واقتحم في الحياة عصرا جديدا
كل من يعتمد على الغير اضحى … بيد الغير في الحياة مسودا
كل من يرتض حياة هوان … ضل في ارضه الشريد الطريدا
زفرات من شاعر وتحيا … مرحبا مرحبا قدوما سعيدا

Le P.P.A. SALUE LA TUNISIE EN LA PERSONNE DE SON LEADER CHEIKH ABDELAZIZ TAALBI (Qacida de Moufdi Zakaria, publiée par "Ech Choab" du 27.8.37).

Cette qacida, dit la rédaction, a été lue au cours d'une grande cérémonie organisée par la société "Les jeunes musulmans" en l'honneur de Cheikh TAALBI.

" ..... A toi le Chef de l'Afrique du Nord et le leader des pays d'Orient, le peuple algérien adresse ses saluts.

Les principes du P.P.A . procèdent de ta doctrine; l'âme de ce parti est une parcelle de ton âme.

Défends cette terre où tu reviens en chef; elle a encore confiance en ta promesse. Les colonisateurs l'ont divisée en trois provinces par fraude. Ils mentent car elle ne cesse de contenir un même peuple. Ils ont planté des jalons sur le faîte des collines; par hypocrisie ils ont appelé ces jalonnements frontières, cependant que ce pays éprouve les mêmes sensations, nourrit les mêmes espoirs et constitue le patrimoine commun.

O mon pays! je fais le serment de te racheter par mon sang.

O mon pays! nous nous sacrifions pour toi soit dans la paix soit dans la guerre, afin que tu deviennes le maître.

Emploie-nous comme armes tranchantes si tu le désires; brûle nous si tu as besoin de combustible.

Nous sommes un peuple dont les ancêtres ont dominé la terre Nous sommes loin de vivre en esclaves.

O France! ne nous ignore pas ; nous sommes un peuple qui répugne à l'asservissement.

Est-il juste qu'un peuple se voit sacrifié sur son sol?

O front populaire! la patience du pays est à bout; peux-tu nous procurer l'utile.

O peuple! répudie les espoirs, prépare-toi à l'action et secoue ton inertie. Ne compte que sur toi-même et ouvre-toi dans la vie une ère nouvelle.

Quiconque compte sur autrui devient du fait de cet autrui un esclave; il sera sur sa propre terre l'exclu, celui qui accepte une vie méprisable.

ترجمة أبيات من قصيدته الثوريّة المتميّزة "الشمال الإفريقيّ يتّحد"

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾

حزب الشعب الجزائري

Parti du Peuple

ALGÉRIEN

FÉDÉRATION D'ALGER

Alger, le 19

الحمد لله الجزائر في يوم 15 جوليت 1937

حضرة المحترم الفاضل العلامة الجليل استاذنا الشيخ التميمي حفظه الله ورعاه سلاما وتحية

اني بفارغ صبر وبكل شغف انتظر ارسال نص المحاضرة والكتب الباقية عندكم وقد اعياني الصبر وعالني الانتظار والحاجة ملحة فارجوكم بمجرد اتصالكم بهذا ان توجهوا الي ما ذكر ولو على جناح الطيارة —

ثم امر القصيدة والتلغرامات، فلقد تصفحنا جميع ما قيل عن الشيخ الثعالبي الى الآن وجميع الاحتفالات من اجتماع فاميسطا فلم نجد اثرا لا للقصيدة ولا للتلغرامات واني حيران اشد من هذا حيث ان التلغرامات مهمة حزبية نيطت بعاتقي وعاهدت على الوفاء بها

ارجوكم ان تخبروني عن ذلك حفظكم الله

ويسلم عليكم جميع الاخوان والسلام على جامع المحبوب(؟)

اتبعكم(؟) محمد زكريا

14 Rue Boutin(?) Alger

رسالة تحمل إشهار "حزب الشعب الجزائريّ"، مؤرّخة في 15/07/1937

GOUVERNEUR GÉNÉRAL de l'ALGÉRIE
CABINET
ARRIVÉE
24 AOUT 1937

COMMISSARIAT CENTRAL
de Police
-:-:-:-:-:-:-:-:-
N°90I R.S.
-:-:-:-:-:-

RAPPORT

à Monsieur le Directeur de la Sécurité Générale de l'Algérie

ALGER
-:-:-:-:-:-:-

J'ai l'honneur de vous donner ci-après, copie d'un rapport qui m'est adressé par l'agent de renseignements LAZIB chargé de la surveillance de MESSALI.-

-:-:-:-:-

JOURNEE DU 23 AOUT I937
-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-:-

A I0 H.20, le sieur MESSALI a quitté son domicile, pour aller au Café maure situé I9, rue de la Marine, puis à la permanence 26, Place Duquesne. Il y est resté jusqu'à IIH.45

A I4 H. le sieur MESSALI prend place dans le taxi N°8024 AL I2, en compagnie de ZAKARIA et de deux autres militants. Il se sont rendus au quartier Leveilley, où le chef de la section, qui les attendait, leur remettait le montant de la quête faite dans le quartier, en faveur de la Palestine.

Le montant de la dite quête serait de I47 frs.

A I6 heures, MESSALI et sa suite étaient de retour à Alger. Il rentrait chez lui pour ne plus ressortir.

A 2I H.30, nous avons abandonné la surveillance.-

L'Agent de renseignements
Signé : LAZIB.

14957 B

Le Commissaire Central p.i.

Copie transmise à Monsieur le Directeur
du Cabinet de M. le Gouverneur Général
ALGER, le 24 AOUT 1937
LE DIRECTEUR DE LA SÉCURITÉ GÉNÉRALE
DE L'ALGÉRIE

أحد تقارير متابعة نشاط مصّالي الحاج اليوميّ الأولى، ويخصّ يوم 23/08/1937

PREFECTURE D'ALGER

CABINET DU PREFET.

N° 9776

Alger, le 2I Octobre I937

Rigoureusement secret

Le Préfet d'Alger

à Monsieur le Général Commandant le I9ème Corps

d'Armée - Etat-major (2ème bureau)

ALGER

J'ai l'honneur de vous informer que j'ai ordonné l'inscription au carnet B de ma Préfecture, desnommés:

MESSALI Hadj

KALIFA Ben Amar

LAHOUEL Hocine

GHERAFA Brahim

MESTOUL Mohamed

MOUFDI Zakaria

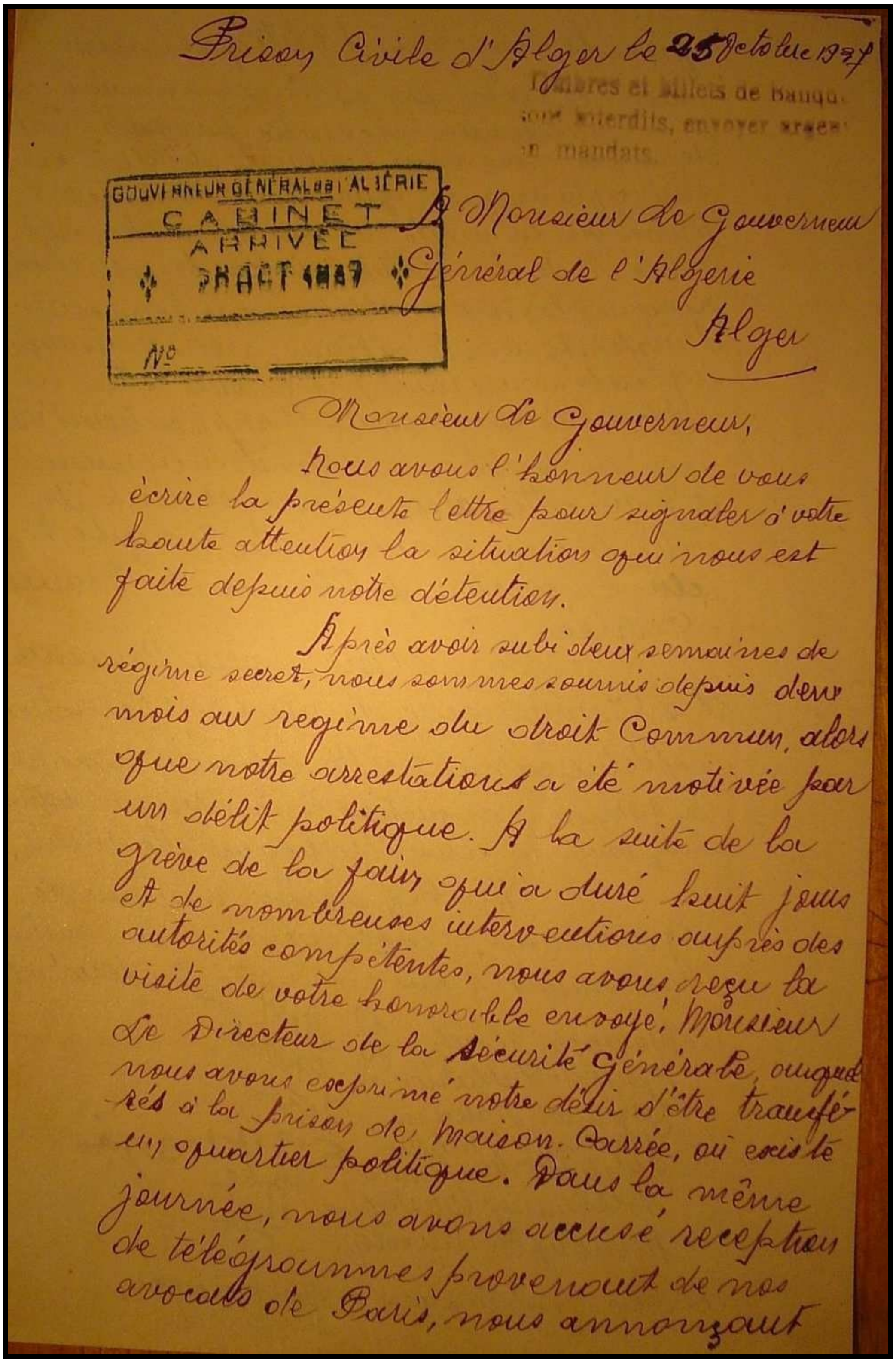
dont je vous fais parvenir, ci-joint, le folio mobile et la notice individuelle.

Le Préfet

signé: CH. BOURRAT

قرار تسجيل قادة حزب الشعب الجزائريّ المعتقلين في الدفتر "B"

رسالة المعتقلين إلى الوالي العامّ بخطّ مصّالي الحاج، بتاريخ 25/10/1937



Prison Civile d'Alger le 25 Octobre 1937

Timbres et billets de Banque sont interdits, envoyer argent en mandats.

GOUVERNEUR GÉNÉRAL DE L'ALGÉRIE
CABINET
ARRIVÉE
26 OCT 1937
N°

A Monsieur le Gouverneur
Général de l'Algérie
Alger

Monsieur le Gouverneur,

Nous avons l'honneur de vous écrire la présente lettre pour signaler à votre haute attention la situation qui nous est faite depuis notre détention.

Après avoir subi deux semaines de régime secret, nous sommes soumis depuis deux mois au régime de droit commun, alors que notre arrestations a été motivée par un délit politique. A la suite de la grève de la faim qui a duré huit jours et de nombreuses interventions auprès des autorités compétentes, nous avons reçu la visite de votre honorable envoyé, Monsieur le Directeur de la Sécurité Générale, auquel nous avons exprimé notre désir d'être transférés à la prison de Maison Carrée, où existe un quartier politique. Dans la même journée, nous avons accusé réception de télégrammes provenant de nos avocats de Paris, nous annonçant

que le régime politique nous était accordé. Or, après une semaine de convalescence nécessitée par notre état de santé, nous nous trouvâmes devant ce fait équivoque, que nous sommes privés de la visite de nos familles, nos amis et de la lecture de la presse, choses auxquelles nous attachons beaucoup d'importance. D'ailleurs, nous vous avons signalé dans une précédente lettre, les difficultés concernant l'application d'un régime politique dans Barberousse et pour cette raison, avons sollicité de votre bienveillance notre transfert au quartier politique de Maison-Carrée.

Permettez-nous, Monsieur Le Gouverneur, de vous rappeler très respectueusement cette revendication, avec la ferme conviction que vous lui donnerez toute la considération qu'elle mérite.

Veuillez agréer, Monsieur le Gouverneur, l'expression de nos meilleurs sentiments et croire à notre profond respect.

Messaoudi Hadj — H. Mes
Moufdi Zakaria — M. Zakaria
Lagouel Henine — [signature]
Ghardaf Brahim — [signature]
Khalifat ben Amar — [signature]
Berrezoug Mustapha — [signature]
Marouf Boumediène — [signature]

détenus politiques à Barberousse

Alger, le 28 mars 1938

Monsieur le GOUVERNEUR GENERAL DE L'ALGERIE

A L G E R

Monsieur le Gouverneur Général,

Nous avons l'honneur de vous écrire pour attirer vitre bienveillante attention sur ce qui suit :

Il y a six mois nous avons eu l'honneur de vous adresser une lettre dans laquelle nous vous demandions de vouloir bien nous accorder le régime politique durant notre détention à la prison civile d'Alger, étant donné que notre délit est un délit à caractère politique à sa voir :"Reconstitution de ligue dissoute et infraction au décret Régnier". A la suite de nombreuses démarches le régime pénitentier en question nous a été accordé. Mais ce régime est tronqué de la lecture de la presse et des communications libres.

C'est pourquoi nous nous adressons encore une fois à votre esprit de justice pour solliciter de vous l'obtention du régime politique en entier qui ne saurait se concevoir sans ces deux éléments.

Permettez-nous, Monsieur le Gouverneur, de vous signaler que notre Président MESSALI HADJ, s'est trouvé au quartier politique de la santé durant toute sa détention en 1934. En outre en 1929 des détenus communistes et anarchistes ont bénéficié du régime en question ici même.

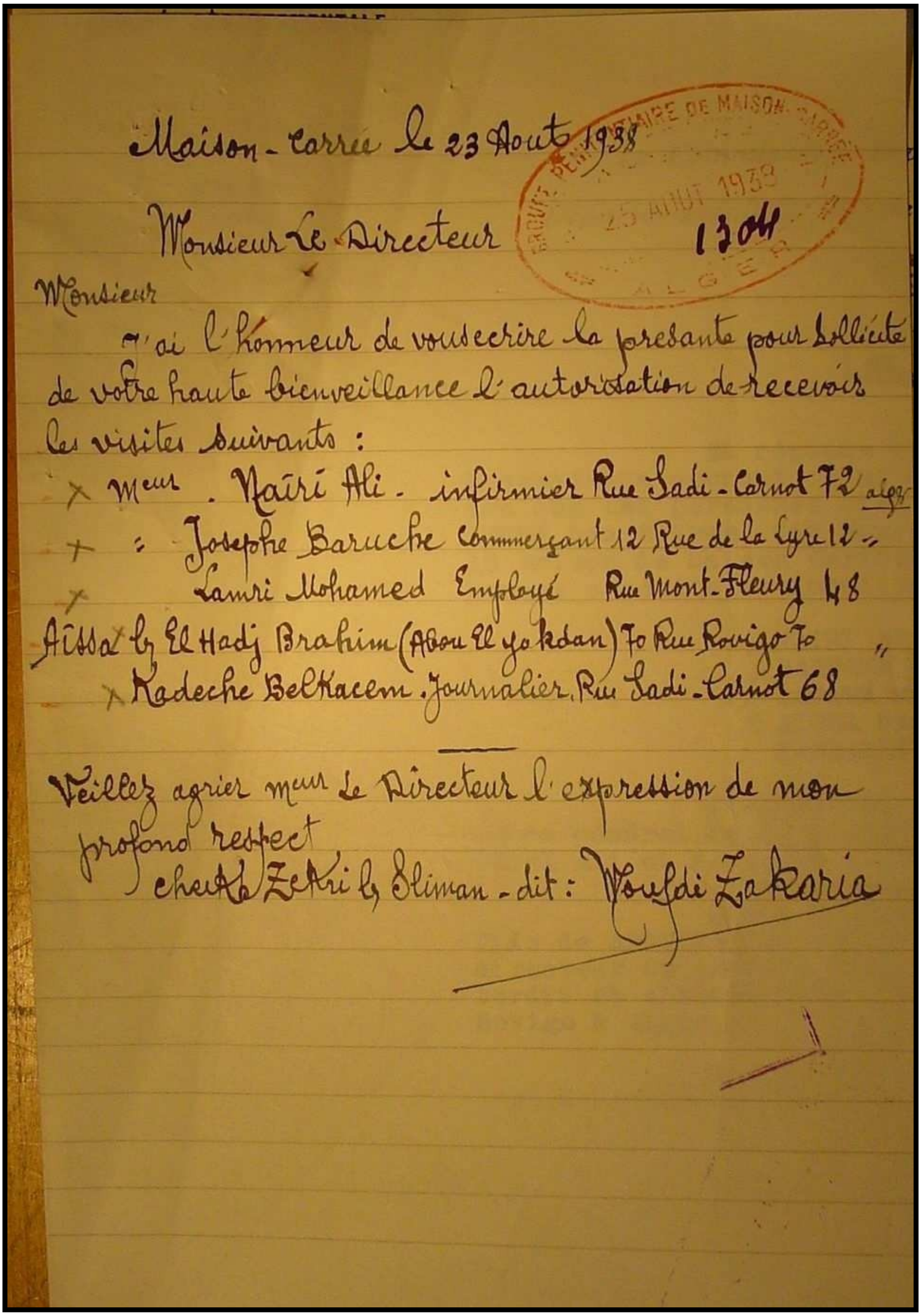
Il y a lieu pour nous de croire que vous voudrez bien prendre en considération la légitime requête que nous avons l'honneur de vous formuler.

Dans cetespoir veuillez agréer, Monsieur le Gouverneur Général, l'assurance de notre haute considération et accepter à l'avance notre entière reconnaissance.

suivent les signatures de :

MESSALI HADJ - MOUFDI ZAKARIA - BERREZOUG Mustapha - LAHOUEL Houcine - GHERAFA Brahim - Khalifat B. Ammar - MAROUF Boumedinne

رسالة المعتقلين إلى الوالي العامّ، بتاريخ 28/03/1938



Maison-Carrée le 23 Aout 1938

GROUPE PENITENTIAIRE DE MAISON-CARRÉE
25 AOUT 1938
ALGER
1304

Monsieur Le Directeur

Monsieur

J'ai l'honneur de vous ecrire la presante pour sollicite de votre haute bienveillance l'autorisation de recevoir les visites suivants :

× Mr. Naïri Ali - infirmier Rue Sadi-Carnot 72 alger
× " Josephe Baruche commerçant 12 Rue de la Lyre 12 "
× Lamri Mohamed Employé Rue Mont-Fleury 48
Aïssa b. El Hadj Brahim (Abou El yokdan) 70 Rue Rovigo 70 "
× Kadeche Belkacem. Journalier. Rue Sadi-Carnot 68

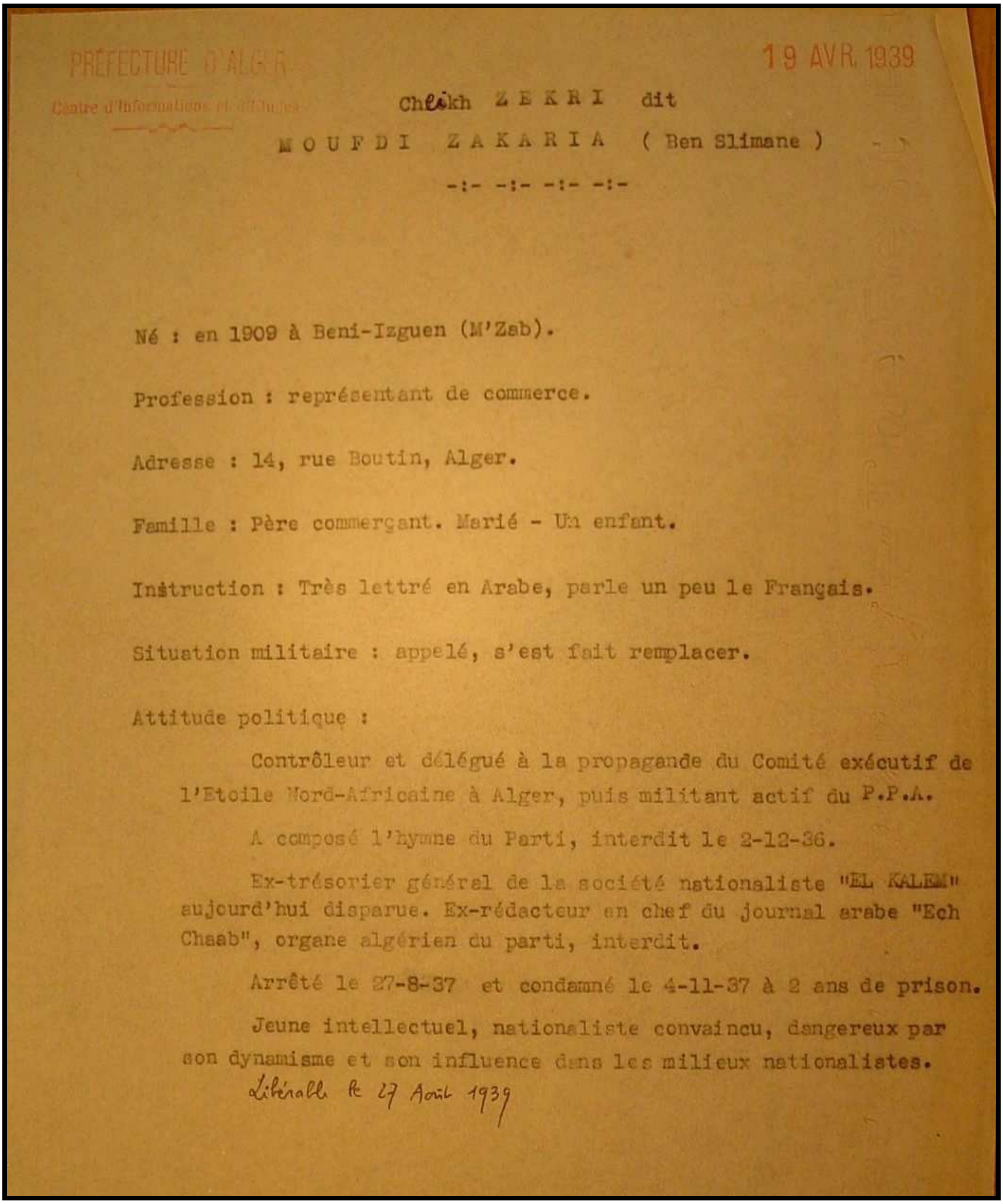
Veillez agréer Mr le Directeur l'expression de mon profond respect

cheikh Zekri b. Sliman - dit : Moufdi Zakaria

طلب مفدي بخطّه الترخيص بزيارته في سجن الحرّاش، مؤرّخ في 23/08/1938



بطاقة طبعها "حزب الشعب الجزائريّ" في جويلية 1939



PRÉFECTURE D'ALGER
Centre d'Informations et d'Études

19 AVR. 1939

Cheikh ZEKRI dit
MOUFDI ZAKARIA (Ben Slimane)

-:- -:- -:- -:-

Né : en 1909 à Beni-Izguen (M'Zab).

Profession : représentant de commerce.

Adresse : 14, rue Boutin, Alger.

Famille : Père commerçant. Marié - Un enfant.

Instruction : Très lettré en Arabe, parle un peu le Français.

Situation militaire : appelé, s'est fait remplacer.

Attitude politique :

Contrôleur et délégué à la propagande du Comité exécutif de l'Etoile Nord-Africaine à Alger, puis militant actif du P.P.A.

A composé l'hymne du Parti, interdit le 2-12-36.

Ex-trésorier général de la société nationaliste "EL KALEM" aujourd'hui disparue. Ex-rédacteur en chef du journal arabe "Ech Chaab", organe algérien du parti, interdit.

Arrêté le 27-8-37 et condamné le 4-11-37 à 2 ans de prison.

Jeune intellectuel, nationaliste convaincu, dangereux par son dynamisme et son influence dans les milieux nationalistes.

Libérable le 27 Août 1939

مدوّنة معلومات خاصّة بمفدي، مؤرّخة في 19/04/1939

GOUVERNEMENT GÉNÉRAL
DE L'ALGÉRIE

DÉPARTEMENT D'ALGER

Police Spéciale Départementale

No 7828

PROCES-VERBAL DE NOTIFICATION

L'an mil neuf cent trente neuf *et le* vingt six *du mois de* Août

A la requête de M . le Préfet d'Alger (Cabinet)

dépêche du 26 AOUT 1939 *N°*

Nous DELGOVE Paul *Commissaire* Chef p.i.

de la **Police Spéciale Départementale** *d'Alger, parlant à la personne de :* MOUFDI ZAKARIA SLIMAN

Lui avons notifié l'arrêté de M. le Préfet d'Alger en date du 26 Août 1939, interdisant dans toute l'étendue du département d'Alger, les réunions, manifestations diverses prévues ou projetées par le groupement dit "Parti du Peuple Algérien" et par tout autre groupement poursuivant le même but,

et lui avons laissé copie du présent.

Fait à Alger les jour, mois, et an que dessus.

LE COMMISSAIRE Chef
DE LA POLICE SPÉCIALE DÉPARTEMENTALE, p.i.

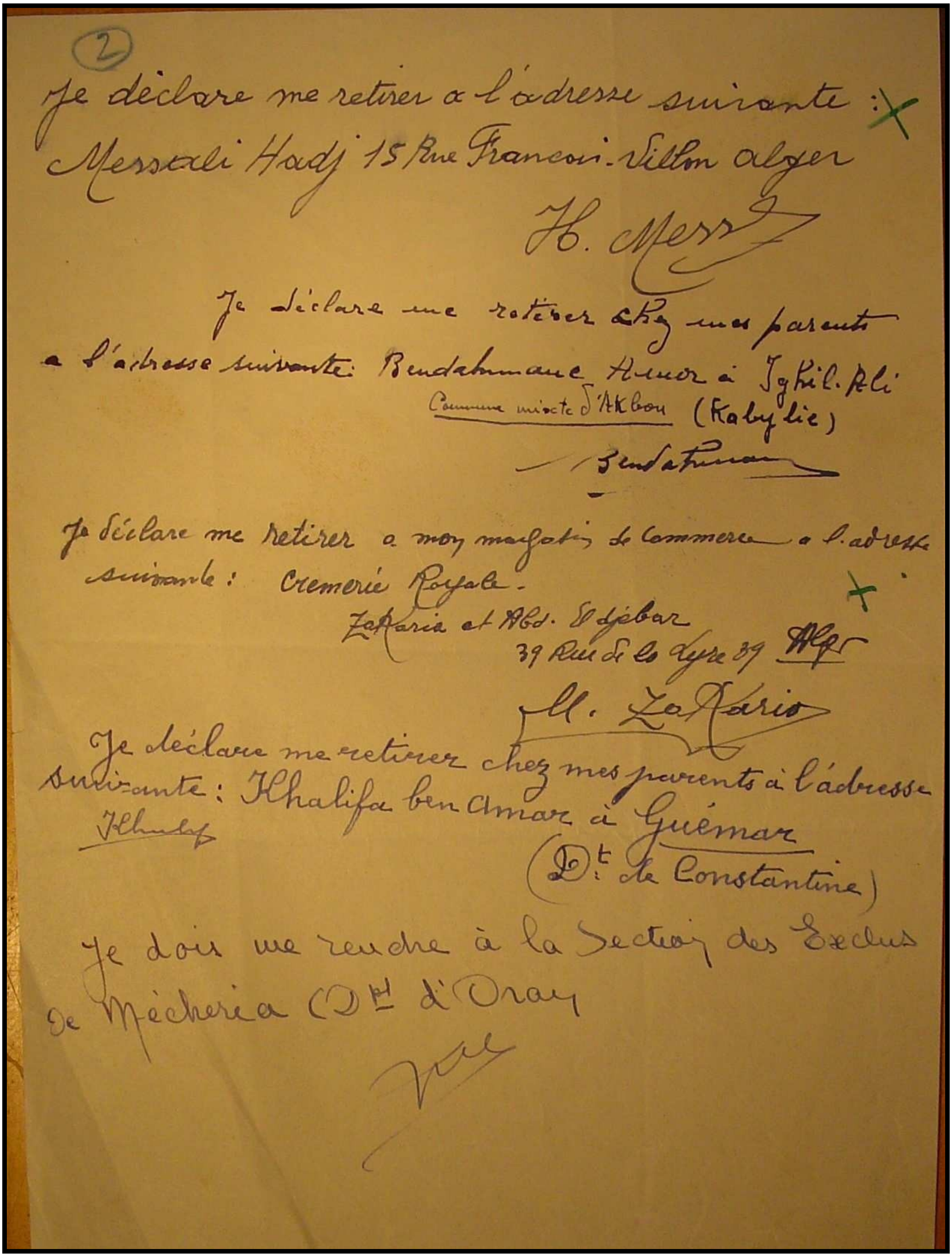
PRÉFECTURE D'ALGER – POLICE SPÉCIALE DÉPARTEMENTALE

Alger, le 26 AOUT 1939

L'INTÉRESSÉ

M. Zakaria

محضر إخطار بقرار منع أيّة تظاهرة بمناسبة الإفراج عن المعتقلين يحمل إمضاء مفدي


(2)

Je déclare me retirer à l'adresse suivante :
Messali Hadj 15 Rue François-Villon Alger
H. Mess

Je déclare me retirer chez mes parents
à l'adresse suivante: Bendahmane Amor à Ighil-Ali
Commune mixte d'Akbou (Kabylie)
Bendahmane

Je déclare me retirer à mon magasin de commerce à l'adresse
suivante: Cremerie Royale.
Zakaria et Abd. El djebar
39 Rue de la Lyre 39 Alger
M. Zakaria

Je déclare me retirer chez mes parents à l'adresse
suivante: Khalifa ben Amar à Guémar
Khalifa
(Dt de Constantine)

Je dois me rendre à la Section des Exclus
de Mécheria (Dt d'Oran)

وثيقة مكتوبة بخطّ المعتقلين يصرّح فيها كلّ منهم بوجهته عند إطلاق سراحه

الفهارس

فهرس الأعلام

فهرس المصادر والمراجع[1]

- أبو إسحاق إبراهيم اطفيش، أبو راس عبد الله بن محمد الكامليّ، سلسلة سبيل الخلود، مطبعة الشهاب، قسنطينة–الجزائر، ط: 1385هـ/1965م.
- أبو القاسم الشابّي: حياته وشعره، يوسف عطا الطريفي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان–الأردن، ط1: 2009.
- أبو اليقظان وجهاد الكلمة، د. محمد ناصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر–الجزائر، ط: 1980.
- الأدب الجزائريّ في تونس، د. محمد صالح الجابريّ، المؤسّسة الوطنيّة للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة)، مطبعة الرشيد، تونس–تونس، ط1: 1991، جزءان.
- أرجوزة في فضل العلم وآداب التعلّم، سليمان بن عيسى، ضمن مجموع، مخطوط رقم: م49، مكتبة آل فضل.
- أرجوزة في فضل العلم وآداب التعلّم، سليمان بن عيسى، نسخة مخطوطة ثانية في مكتبتي الخاصّة.
- إرشاد الحائرين، أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى، مطبعة العرب، نهج السيدة العجولة، تونس– تونس، ط: 1341هـ/ 1923م.
- أرشيف قضاة بني يزقن: دفتر عقود خاص، وسجلاّت الأحكام، وسجلاّت البيوع، وسجلاّت التركات، وسجلاّت العقود، وضبطية مصالح الشيخ زكري بن سليمان، وضبطية مصالح تركة الشيخ سليمان بن يحي اليسجنيّ وولديه الشيخ محمد وزكرياء.
- أرشيف قيّاد بني يزقن: دفتر اللزمة، 1277هـ، [1860/1861م]، ودفتر معروف قبر الغريب، وسجلاّت البريد الصادر، وسجلاّت البزرة، وسجلّ التجنيد، وسجلاّت التساريح، وسجلاّت المواليد والوفيات، وسجلاّت جريدة البزرة، وسجلاّت جريدة الكرفي، وسجلاّت جريدة أملاك بني يزقن، وسجلاّت جريدة ناس بني يزقن.
- الأرشيف المتداول، "مركز أرشيف ما وراء البحار" (CAOM)، إيكس أون برافنس (Aix-En-Provence)، مارسيليا (Marseille)، الملفّات الآتية: 1h36 /9h14، 9h20، 9h21، 9h24، 9h27، 9h32، 9h47، 9h58، 9h81، 9h82، 9h96، 9h97 /11h48، 11h54، 11h59 /15h14، 15h18، 15h20 /22h12، 22h13، 22h18، 22h23 /23h83 /25h32، 25h33 /26h3 /2I32، 2I36، 2I37، 2I38، 2I39، 2I43، 2I44، 2I45 /4I1، 4I3، 4I4، 4I6، 4I87 /3cab42، 3cab43، 3cab44، 3cab45، 3cab46، 3cab98، 3cab99.
- الأرشيف غير المتداول، (CAOM).
- أعلام الإصلاح في الجزائر، من عام 1340هـ/ 1921م، إلى عام 1395هـ/ 1975م، محمد علي دبوز، مطبعة البعث، قسنطينة–الجزائر، ط1: 1398هـ/ 1978م، الجزء الثالث.

---

[1]– الوثائق المفردة من أرشيفات خاصّة متعدّدة لم أدرجها في هذا الفهرس، تجنّبا لإثقاله، وهي مثبتة بجميع تفاصيلها في مواضعها. ولنفس الغرض جمعت محتويات الأرشيفات الكبرى تحت عنوان أرشيفها، أعني: أرشيف مركز أرشيف ما وراء البحار (CAOM)، أرشيف قضاة بني يزقن، وأرشيف قيّاد بني يزقن، والله الموفّق.

- الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزِّرِكليّ، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط7: 1986، 08 أجزاء.
- الأعمال الشعريّة الكاملة، أحمد شوقي، دار العودة، بيروت-لبنان، ط: 1988.
- ألوان أدبيّة، الهادي العبيدي، ميدياكوم، تونس-تونس، ط: 2000.
- إلياذة الجزائر، مفدي زكرياء، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية-الجزائر، ط: 2001.
- أمجادنا تتكلّم.. وقصائد أخرى، جمع وتحقيق: مصطفى بن الحاج بكير حمودة، نشر مؤسسة مفدي زكرياء، والوكالة الوطنيّة للاتّصال والنشر، الجزائر-الجزائر، طبع المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر-الجزائر، ط1: 2003.
- بحث حول الجالية المزابية بتونس، الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، بخطّ عبد العزيز بن يوسف الثمينيّ، غير مؤرّخ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.
- البراهين القاصفة لتمويهات متّبعي الفلاسفة، الشيخ الحاج صالح بن عمر لعلي، عني بطبعه وتصحيحه: بكير بن إبراهيم بن بكير قضّي، مطبعة النهضة، نهج الجزيرة، عدد11، تونس-تونس، طبع في ذي الحجة من عام 1342هـ، [جويلية 1924م].
- بسطة من حياة الشيخ الثمينيّ، محاضرة للسيد عبد العزيز إبراهيم بن داود، 1983/02/02، نسخة مرقونة، مكتبة الاستقامة.
- تاريخ الوطنيّة الجزائريّة (Histoire du Nationalisme Algérien)، محفوظ قدّاش، منشورات باريس-البحر الأبيض المتوسّط(Editions Paris-Méditerranée)، باريس- فرنسا، وإديف2000 (Editions EDIF 2000)، الجزائر-الجزائر، ط: 2003، ج1: 1919-1939.
- تاريخ بني مزاب، للأستاذ يوسف بن بكير الحاج سعيد، المطبعة العربية، غرداية-الجزائر، ط2: 2006.
- تاريخ حكومات فرنسا، ولكبيديا: الموسوعة الحرة (Wilkipédia l'Encyclopédie Libre)، على الأنترنيت.
- تاريخ صحف أبي اليقظان، أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى، تقديم وتعليق: د.محمد صالح ناصر، دار هومة، الجزائر- الجزائر، ط: 2003.
- تحت ظلال الزيتون، مفدي زكرياء، دار النشر تونس، المطبعة الرسميّة للجمهوريّة التونسيّة، تونس- تونس، ط1: صفر 1385هـ/ جوان 1965م.
- تراجم المؤلّفين التونسيّين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت- لبنان، ط1: 1985.
- ترتيب لقط موسى بن عامر، للشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش، مخطوط رقم: م052، مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي، ببني يزقن.
- التطوّر السياسيّ في الجزائر: دراسة مجتمعات منطقة مزاب (Le developpement politique en Algérie: étude des populations du M'zab)، مرغوب بلحاج (Merghoub Baelhadj). نشر: مكتبة أرمان كولان والمؤسسة الوطنية للعلوم السياسيّة (Librairie Armand Colin et Fondation nationale des sciences politiques)، باريس- فرنسا، ط: 1972.
- تعاليق حول حياة شاعر الثورة الجزائريّة المرحوم مفدي زكرياء، بابا بن إبراهيم بوعروة، مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي، بني يزقن.
- تفاعل مفدي زكرياء مع تيارات الحركة الوطنية، د. أبو القاسم سعد الله، محاضرة ألقاها بمناسبة الملتقى الدولي: مفدي زكرياء شاعر الوحدة، المنعقد بالنادي الوطنيّ للجيش، بالجزائر العاصمة، يومي 15 و16 مارس 2006، مطبوعة المحاضرة.

- تقويم المنصور 1343هـ/1924، 1925م، أحمد توفيق المدنيّ، مطبعة العرب، تونس- تونس.
- تقييد ما وقع من فتنة في كافة قصور وادي مزاب، لمجهول، كراس مخطوط بمكتبة الاستقامة.
- تقييدات تاريخيّة للشيخ الحاج محمد بن يوسف ببانو، مخطوط، مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي، بني يزقن.
- تونس عبر التاريخ، الجزء الثالث: الحركة الوطنيّة ودولة الاستقلال، نخبة من الأساتذة الجامعيّين بإشراف الأستاذ خليفة الشاطر، منشورات مركز الدراسات والبحوث الاقتصاديّة والاجتماعية، تونس-تونس، ط: 2005.
- جريدة "الإصلاح" الجزائريّة، أعداد سنوات 1927-1930، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "البرلمان الجزائريّ" (Le Parlement Algérien)، الجرائد (journaux)، رقم: 30374، (CAOM).
- جريدة "البصائر" الجزائريّة، أعداد سنة 1936، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "تونس" التونسيّة، أعداد سنتي 1936، و1937، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "الثبات" الجزائريّة، أعداد سنتي 1934، و1935، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "الجحيم"، أعدادها السبعة، الجرائد (journaux)، رقم: 30662، (CAOM).
- جريدة "الحياة" الجزائريّة، أعدادها الثلاثة سنة 1933، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "الزهرة" التونسيّة، أعداد سنة 1937، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "السردوك" التونسيّة، أعداد سنة 1937، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "الشباب" التونسيّة، أعدادها 1936-1937، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "صدى الشرق"، عدد واحد، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.
- جريدة "العالم الأدبيّ" التونسيّة، أعداد سنة 1932 كاملة، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "العصر الجديد" التونسيّة، أعداد سنة 1937، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "لسان الشعب" التونسيّة، أعداد سنة 1925 كاملة، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "المرصاد" الجزائريّة، أعداد سنوات 1931-1933، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "المغرب" الجزائريّة، مجموعة أعدادها، مكتبة الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو، بني يزقن.
- جريدة "النجاح" الجزائريّة، مجموعة أعدادها، 1923-1937، المكتبة الوطنيّة، الحامّة-الجزائر.
- جريدة "النديم" التونسيّة، أعداد سنوات 1930-1932، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "النهضة" التونسيّة، أعداد سنوات 1925، و1932، و1933، و1934، و1936، و1937، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "النور" الجزائريّة، مجموعة أعدادها، مكتبة الشيخ محمد بن سليمان بن دريسو، بني يزقن.
- جريدة "وادي ميزاب" الجزائريّة، المجموعة الكاملة، مكتبة جمعية الشيخ أبي إسحاق إبراهيم اطفيش لخدمة التراث، غرداية.
- جريدة "الوزير" التونسيّة، أعداد سنة 1925، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- جريدة "الوطن" التونسيّة، أعداد سنة 1937، قسم الدوريات، المكتبة الوطنيّة، تونس.
- الحركة الاستقلاليّة في الجزائر بين الحربين 1919-1939، محمد قنانش، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، الجزائر-الجزائر، ط:1982.

- الحركة الوطنيّة الجزائريّة 1930-1945، د. أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت-لبنان، ط4: 1992، أربعة أجزاء.
- الحزب الحرّ الدستوريّ التونسيّ 1919-1934، يوسف مناصرية، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت-لبنان، ط1: 1408هـ/1988م.
- حصص إذاعيّة، تاريخ الصحافة العربيّة بالجزائر، مفدي زكرياء، جمع وتحقيق: د. أحمد حمدي، موفم للنشر، الجزائر-الجزائر، ط: 2007.
- حياة كفاح: مذكرات، الجزء الأوّل في تونس 1905-1925، لأحمد توفيق المدني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر-الجزائر، ط2: 1988.
- الخليل معجم في علم العروض، محمد سعيد إسبر، ومحمد أبو علي، دار العودة، بيروت-لبنان، ط1: 1982.
- الدعاية إلى سبيل المؤمنين، للشيخ أبي إسحاق إبراهيم آل يوسف اطفيش الجزائريّ، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة-مصر، ط: 1342هـ/1923م.
- الدعاية ضدّ فرنسا في مزاب في بداية العشرينيّات (La propagande anti-française au M'zab au début des années 1920)، لشارل دومينيك برينو (Charles Dominique Bruno)، مذكّرة كفاءة (Mémoire de Maîtrise) في التاريخ، تحت إشراف م. ميشال (M. Michel)، جامعة بروفانس، إيكس اون بروفانس (Aix-En-Provence)، مارسيليا، 1988.
- دفاتر عقود خاصّة، مكتبة آل يدر ببني يزقن.
- دفاتر عقود خاصّة، مكتبة الاستقامة ببني يزقن.
- دفاتر عقود خاصّة، مكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز.
- دفتر عقود خاصّ، أرشيف آل عيسات.
- دفتر عقود خاصّ، مكتبة الشيخ ازبار ببني يزقن.
- دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 189، مكتبة آل افضل ببني يزقن.
- دفتر عقود عمر بن موسى بن عمر بن يعقوب، خ د غ 190، مكتبة آل فضل.
- دفتر محاضر اجتماعات جمعية "الوفاق"، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.
- دورتي في هذا القرن وحيدا (Mon tour de siécle en solitaire)، روجي غارودي (Roger Garaudy)، منشورات روبار لافونت (Robert Laffont)، باريس -فرنسا، ط: 1989.
- ديوان أبي القاسم الشابّي ورسائله، قدّم له وشرحه: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ط02: 1415هـ/1994م.
- ديوان أبي اليقظان، أبو اليقظان إبراهيم بن الحاج عيسى الجزائري الميزابيّ، المطبعة العربيّة، الجزائر-الجزائر، ط1: 1350هـ/[1931م].
- ديوان البارونيّ، للمجاهد سليمان بن عبد الله البارونيّ، نشر بإشراف زعيمة البارونيّ، د.ط، د.م، د.ت.
- ديوان الرصافيّ، أتمّ شرحه وصحّحه مصطفى السقّا، دار الكتاب العربيّ، القاهرة-مصر، ط3: 1368هـ/1949م.

- ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وصحّحه وشرحه ورتّبه: أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة- مصر، ط03: 1987.
- رسالة تاريخيّة: رسالة مفدي زكرياء إلى رئيس الجمهورية الأسبق أحمد بن بلّة، بتاريخ 17 ماي 1965م، تقديم وتحقيق: مصطفى بن الحاج بكير حمودة، جريدة "اليوم" الجزائريّة، س05، ع1272، يوم الإثنين 07 أفريل 2003م.
- الرسالة الشافية، للشيخ الحاج امحمد بن يوسف اطفيش، مخ رقم: أ.ث.3، مكتبة القطب، بني يزقن.
- رمضان حمود: حياته وآثاره، د. محمد ناصر، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر-الجزائر، ط2: 1985.
- زهر الربيع في المثل البديع، لمجهول، الرسالة الثامنة في "التحفة البهيّة والطرفة الشهيّة"، مجموعة مختارة من عيون الأدب العربيّ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت-لبنان، ط1: 1401هـ/1981م.
- زيارة خاطفة، حصّة في الإذاعة التونسيّة، لعبد المجيد بن جدو، لقاء مع مفدي زكرياء بمناسبة صدور ديوانه الثاني "تحت ظلال الزيتون" سنة 1966.
- سجلّ أوقاف المزابيّين بتونس، أرشيف الشيخ الثمينيّ، تونس.
- سجلّ حسابات العاملين لدى السيّد الشرح محمد بن عمر، أرشيف السيّد الشرح محمد بن عمر، العطف.
- سقط الزند، لأبي العلاء المعرّي، دار بيروت للطباعة والنشر، ودار صادر للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط: 1376هـ/1957م.
- سليمان البارونيّ باشا في أطوار حياته، الشيخ أبي اليقظان الحاج إبراهيم، المطبعة العربية، الجزائر- الجزائر، ط: 1376هـ/1956م.
- شاعر الثورة التحريريّة مفدي زكرياء في الصحافة الوطنيّة، من جانفي 1986 إلى جويلية 1987، عيسى وموسى محمد، ط: 1987.
- شرح شواهد قطر الندى وبلّ الصدى، أبو القاسم بن محمد البجّائيّ، مخ رقم: 574، مكتبة الشيخ الحاج صالح لعلي.
- شرح لامية الأفعال، لمحمد التواتي، مخ رقم: خ م 21، مكتبة آل افضل، بني يزقن.
- شعر الثورة عند مفدي زكرياء، يحي الشيخ صالح، دار البعث، قسنطينة- الجزائر، ط1: 1407هـ/1987م.
- شعراء الجزائر في العصر الحاضر، مؤلفه وناشره ومفسّر ألفاظه: محمد الهادي السنوسيّ الزاهريّ، المطبعة التونسيّة، نهج سوق البلاط، عدد 57، تونس-تونس، ط1: 1344-1926، جزءان.
- الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلاميّ، د. محمد ناصر، جمعية التراث، القرارة-الجزائر، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، رغاية-الجزائر، ط:1991.
- الصحف العربيّة الجزائريّة من 1847 إلى 1939، د. محمد ناصر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر-الجزائر، ط: 1980.
- عبد العزيز الثعالبيّ: من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، أعدّها للنشر وقدّم لها وعلّق عليها الدكتور صالح خرفي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت - لبنان، ط1: 1995.
- الفتى، قصّة أدبية إصلاحية، ومرآة جزء من حياة شابّ يسعى لإعزاز شعبه، وترقية أمّته، رمضان حمود بن سليمان، المطبعة الأهلية، نهج الديوان، عدد 05، تونس-تونس، ط1347هـ/1929م.

- قاموس العلوم السياسيّة (Dictionnaire de Science Politique)، مختار لكحال (Mokhtar Lakehal)، L'Harmattan، باريس-فرنسا، ط: 2005.
- القصيدة الحجازية، للشيخ يوسف بن حمو بن عدون، مسوّدتها بخطّه، غير تامّة، ضمن مجموع مخطوط، مكتبة الشيخ ازبار، بني يزقن.
- قواعد الشعر (العروض والقافية)، مصطفى حركات، المؤسسة الوطنيّة للفنون المطبعيّة، الرغاية- الجزائر، ط: 1989.
- كراريس متابعة مصاريف تلاميذ البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، تونس.
- كراريس متابعة مصاريف تلاميذ البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، مكتبة الاستقامة، بني يزقن.
- كراريس مفدي زكرياء الدراسية بتونس، أرشيفه مكتبة مفدي زكرياء، بني يزقن.
- كرّاس رقم 01، من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، مكتبة الأخ الحاج سعيد باحمد بغرداية.
- كرّاس رقم 04، من كراريس الشيخ عبد الرحمن عمر بن الحاج يوسف، مكتبة الأخ الحاج سعيد باحمد بغرداية.
- كرّاس مخطوط يتضمّن بعض تواريخ وادي مزاب، مكتبة الشيخ إبراهيم بن بانوح مطياز، بني يزقن.
- كرّاس مخطوط يضمّ أحداثا واتّفاقات خاصّة بوادي مزاب، لمؤلّف مجهول، مكتبة الاستقامة.
- كرّاس مصاريف الشيخ الثمينيّ، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.
- كرّاس مصاريف مفدي زكرياء في البعثة العلميّة المزابيّة بتونس، من جانفي 1923 إلى ديسمبر 1925، أرشيف الشيخ الثمينيّ، مكتبة الاستقامة.
- كشف اللثام عن أغراض بعض اللئام، الشيخ الحاج صالح بن عمر لعلي، مطبعة "النجاح"، قسنطينة-الجزائر، 1341/02/14هـ، [1922/10/06م].
- كلمة نجل الشاعر، الشيخ سليمان، في افتتاح الملتقى الدوليّ مفدي زكرياء شاعر التحرّر، المنعقد يومي 11 و12 ديسمبر 2007، وثيقة مطبوعة في 07 صفحات.
- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظرو الإفريقيّ المصريّ ت711هـ، دار صادر، بيروت-لبنان، ط2، د.ت.ن.
- لقاء مسجّل مع السيّد اطفيش محمد بن إبراهيم في إطار التحضير لتظاهرة سنة مفدي زكرياء 2002.
- لقاء مسجّل مع صديق الشاعر الحبيب شيبوب، بتونس، أكتوبر 2003.
- لقاء مع عمّنا محمد بن الشيخ محمد بن الحاج صالح الثمينيّ، بتونس، مارس 2007.
- اللّهب المقدّس، لمفدي زكرياء، موفم للنشر، الرغاية-الجزائر، ط3: 2000.
- ما هي الوسيلة لبثّ التربية بين البنات والبنين؟ مفدي زكرياء، مسوّدة بحث شارك به في مسابقة "تقويم المنصور" لسنة 1342هـ، في كرّاسين، أرشيف مفدي زكرياء، مكتبة مفدي زكرياء، بني يزقن.
- مجلّة "إفريقيا الفرنسيّة" (L'Afrique Française)، الجرائد (journaux)، رقم: 20019، (CAOM).
- مجلّة "البدر" التونسيّة، أعداد منها، مكتبة القطب، ببني يزقن.
- المجلّة الجزائريّة للعلوم القانونية والاقتصاديّة والسياسيّة (Revue Algérienne des Sciences Juridiques Economiques et Politiques)، الجرائد (journaux)، رقم: 20869، (CAOM).

- مجلّة "الشهاب"، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت- لبنان، ط1: 2001.
- مجلّة "الوفاق"، س03، ع30، العدد الممتاز، 1344/01/01هـ، [1925/07/22م]، مكتبة السيّد أبصير الحاج محمد بن عمر، ببني يزقن.
- مجلّة "الوفاق"، مجموعة غير تامّة من أعدادها، مكتبة الاستقامة، ببني يزقن
- مذكرات مصّالي حاج 1898-1938 (Les Mémoires de MESSALI HADJ 1898-1938)، منشورات الشركة الوطنية للنشر والإشهار (ANEP)، الجزائر-الجزائر، ط: 2005.
- مذكّرات ووثائق رسميّة عن وادي ميزاب من ناحيته الدينيّة والسياسيّة والاجتماعية 1853-1951، الحاج امحمد عمر بن عيسى بن إبراهيم، مطبعة النهضة، تونس- تونس، ط: 1371هـ/1951م.
- مشروع تأريخ للبعثة العلمية المزابية بتونس، الشيخ عبد الله بن محمد بن بكير بوراس، غير تامّ، كرّاس صفحاته غير مرقّمة، أرشيفه الخاصّ ببني يزقن.
- مصّالي الحاج: رائد الوطنية الجزائريّة 1898-1974، بنيامين سطورا، تر: الصادق عماري، ومصطفى ماضي، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر-الجزائر، ط: 2002.
- مصّالي الحاج: الزعيم المفترى عليه، عمّار نجار، دار الحكمة، الجزائر-الجزائر، ط:2000م.
- مع بورقيبة: أحاديث وذكريات، الحبيب شيبوب، حاور الحبيب شيبوب، وقدّم للكتاب يوسف الرمادي، سلسلة "أبعاد"، رقم: 08، عدد خاصّ، دار البستان للنشر، تونس -تونس، ط1: جويلية 2003.
- معجم أعلام الإباضيّة، لجنة البحث العلميّ بجمعية التراث، جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر، ط1: 1420هـ/1999م، 04 أجزاء.
- معجم البابطين لشعراء العرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، موقعه على الأنترنيت.
- معجم مصطلحات الإباضيّة، تأليف مجموعة من الباحثين، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينيّة، سلطنة عمان، ط1: 1429هـ/2008م، 03 أجزاء.
- مفدي زكرياء بمنظور الإدارة الاستعماريّة: الاستخبارات العامّة والتقارير العسكرية الفرنسيّة (Moufdi Zakaria vu par l'administration coloniale: Renseignements généraux et rapports militaires français)، لصالح بن دريسو، المطبعة العربيّة، غرداية - الجزائر، ط1: 2006.
- مفدي زكرياء تلميذا بين الثانية عشرة والسادسة عشرة من عمره، من خلال كرّاساته المدرسيّة، د. يحي الشيخ صالح، الملتقى الدوليّ: مفدي زكرياء شاعر التحرّر، المنعقد يومي 11 و12 ديسمبر 2007، وثيقة مطبوعة في 28 صفحة.
- مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة: دراسة ونصوص، د.محمد ناصر، سلسلة تراثنا، جمعية التراث-العطف- القرارة-الجزائر، ط2: 1989.
- مقاهي الأدباء في الوطن العربيّ، رشيد الذوادي، مطابع الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة-مصر، ط: 1998.
- ملحق السير، للشيخ أبي اليقظان الحاج إبراهيم بن عيسى، نسخة مصوّرة من المخطوط، مكتبة الاستقامة، بني يزقن.
- ملفّ محاكمة الشيخ عبد العزيز الثعالبي، أرشيف الشيخ الثمينيّ، بتونس.
- من تاريخ جماعة بني يزقن، مصطفى حمودة، محاضرة مخطوطة 2008.

- من وحي الأطلس، مفدي زكرياء، مطبعة الأنباء، الرباط-المغرب، د.ت.ط، تاريخ التقديم: 1396/02/08هـ، 1976/02/09م.
- نجم الشمال الإفريقيّ 1926-1937: وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنيّة الجزائريّة، محمد قنانش، ومحفوظ قدّاش، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون-الجزائر، ط2: 1994.
- النشاط العلميّ والفكريّ للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، لمحمد صالح الجابريّ، الدار العربية للكتاب، طرابلس-ليبيا، والشركة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر-الجزائر، ط: 1983.
- نشرة أعمال المؤتمر الثاني لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، الجزائر سنة 1932، مطبعة الاتّحاد، نهج الباشا، رقم 116، تونس-تونس، د.ت.ط.
- نشرة أعمال المؤتمر الرابع لطلبة شمال إفريقيا المسلمين، تونس عام 1934، المطبعة التونسيّة، تونس- تونس، د.ت.ط.
- النظرات، مؤلفات مصطفى لطفي المنفلوطي الكاملة، دار الجيل، بيروت-لبنان، ط: 1984.
- وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنيّة، محمد قنانش، ومحفوظ قدّاش، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون-الجزائر، ط: 1985.

فهرس المحتويات

﴿وآخرُ دعواهمُ أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين﴾

ملخّص

البحث يندرج في التأريخ للأدب الجزائريّ الحديث، عنوانه "مفدي زكرياء وإنتاجه الأدبيّ في مرحلة ما قبل الثورة": يؤرّخ لحياة شاعر الثورة التحريرية مفدي زكرياء، من مولده سنة 1908 إلى خروجه من السجن سنة 1939، ولإنتاجه الأدبيّ منذ ميلاده شاعرا وأديبا في حدود سنة 1921 إلى نهاية هذه الفترة، مع التركيز على رصد هذا الإنتاج وتوثيقه في مصادره المختلفة والمتنوّعة، ودارسة بعض القضايا المتعلّقة بهذا الأدب ممّا لم يدرس بعد، أو أتى فيه البحث بجديد.

الكلمات المفتاحية: الأدب الجزائريّ الحديث/ الحركة الوطنيّة/ مفدي زكرياء/ حياته/ أدبه/ شعر/ نثر.

RESUME

Cette recherche, s'inscrit dans l'histoire de la littérature algérienne moderne, s'intitule : "**Moufdi Zakaria et sa production littéraire en pré révolution**": Elle retrace la vie du poète de la révolution algérienne Moufdi Zakaria, depuis sa naissance en 1908 jusqu'à sa sortie de prison en 1939, et sa production littéraire, depuis sa naissance poète et homme de lettres en 1921 jusqu'à la fin de cette période, en mettant l'accent sur l'inventaire référencé aux diverses sources, et l'étude inédite ou enrichie de certaines problématiques relatives à cette littérature.

Mots-clés: Littérature algérienne moderne/ Mouvement nationaliste/ Moufdi Zakaria/ Sa vie/ Production littéraire/ Poésie/ Prose.

ABSTRACT

The Research, is included in the history of algerian literature, entitled: "**Moufdi Zakaria and his literary works in the period of before algerian revolution**": chronicling the life of the algerian Revolution poet Moufdi Zakaria, from his birth year 1908 to his release from prison in 1939, as well as his literary works since his start as poet and writer in the limits of the year 1921, to the end of that period, with emphasis on monitoring this production and certifying it in its various and different sources, and studying some of the issues concerning this literature, which has not yet been studied.

Keywords: Modern algerian literature/ Nationalist movement /Moufdi Zakaria/ His Life/ literary works/ Poetry/ Prose.